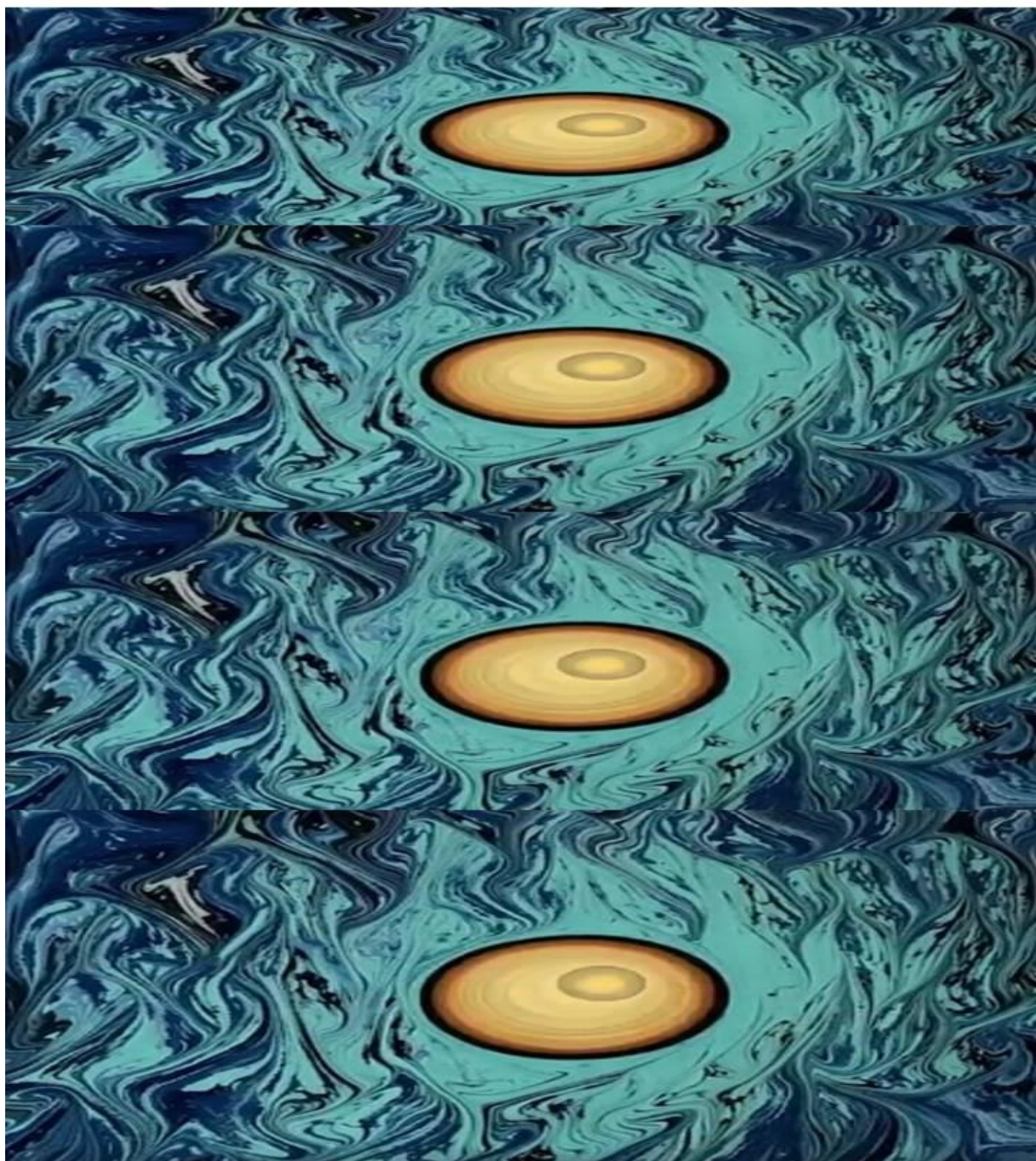


مذكرات إرهابي

تأليف : مهران بك أبو المجد

2018 - 1928



مذكرات إرهابي

تأليف : مهراڤ بك أبو المجد

1918 – 1928 م

إهداء : إلى كل إنسان في الشرق تطحنه الهموم و تحيره الظنون و تفتك به الأحزان

التي لا يعرف لها مبررا و لا يدري لماذا كُتبت عليه التعاسة منذ الولادة.

و إلى ذكرى القائد الخالد الشيخ سعيد بيران بطل الأناضول.

{مذكرات إرهابي}

قد يظن القاريء من العنوان أنني فتى غرّ في العشرينيات أو في الثلاثينيات من العمر و أن لحيتي سوداء طويلة و شعثة و أنني أعتجر عمامة و ألبس ثوبا "باكستانيا" مغبراً و في يدي مدفع رشاش روسي الصنع و أتمتم بالتساييح قبل الشروع في فعل أي شيء أريد فعله ، و أنني فقير شبه معدم يقاتل بحثا عن فرصة لعيش كريم ، و لكن هذا ليس صحيحا بناتا ، فأنا رجل في نهاية العقد التاسع من العمر و لم أطلق لحيتي أبدا و لن أفعل ، أنا أنيق جدا و وسيم بدرجة معقولة تكفيني لإقامة علاقات غرامية مع سيدات جميلات (أظن هذا) ، و لا زلت قادرا على الركض و المشي و القفز أحيانا و لست متدينا ، و أنا شخص ثري جدا.

و قد يتساءل البعض عن السبب الذي يدفعني إلى عنونة كتابي بهذا العنوان و ربما عن السبب الذي يدفعني لكتابته؟ و لن أبجل عليهم بالجواب: أنا عنونت كتابي بهذا العنوان لأنني لم أعد بحاجة للكذب منذ مدة طويلة ، و هذا الوصف "إرهابي" هو ما أستطيع أن أصف به بطل هذه الكتاب ، هو شخصية رافقتني مدة نصف قرن و صنعت لي كل حياتي ، لا أكاد أذكر حدثا مر في حياتي إلا و كان هذا الشخص طرفا فيه ثم إنني سميت الكتاب "مذكرات" لأنه يتضمن ذكريات حياتي المديدة ، و أما عن سبب كتابتي للكتاب نفسه ؛ فلأنني أصبحت أحب كثيرا أن يعرفني الكثيرون ، ربما لأنني أشعر بأن رحلتي على الأرض قد أوشكت على النهاية ، و لأنني أمضيت حياتي أصنع أحداثا هائلة في مختلف أرجاء العالم من وراء ستارة سميكة ، غطتْ صورتي تماما عن أعين الجميع حتى أن القلة فقط يعرفون أنني شخص موجود على وجه الأرض.

لن أطيل عليكم مقدمة التعريف بنفسي فأنتم ستتعرفون علي جيدا في هذا الكتاب الذي سأبدأ به فورا لأعود معكم إلى بداية الوعي عندما بدأت حياتي المليئة بالمتع و القصص الشيقة فتعالوا إلى عالمي المزدهم بالألغاز الكبيرة جدا ، لقد كتبت هذه الألغاز كما رأيته أنا لا كما يراها كل إنسان عادي يعيش على هذا الكوكب ، فلقد نشأت و أمضيت حياتي و أنا أصنع الألغاز و لا أحلها ، و لا أبالغ إن قلت أنني لا أتعب ذهني أبدا في البحث عن حلول الألغاز ، ذلك أن لغزا ما إن صادفني فلن يتطلب مني أكثر من اتصال بمختص لأحصل على حلّه و لأعرف منشأه و لماذا صار لغزا ، عالمي مليء بالألغاز غير محيرة و لا متعبة و لكنها ممتعة ملأت علي عقودا سبعة من حياتي أمضيتها في عالمي المليء بالعجائب ، فلنبدأ بزيارة عالمي من دار أبي و مرتع الطفولة الجميلة.

بيت العزّ

كانت دارنا متوسطة الضخامة و لكنها كانت تشبه القصور كثيرا ، و بالرغم من أننا لسنا من أسرة أرستقراطية عربية أو تركية أو كوردية إلا أن والدي القاضي المعروف كان قادرا الإنفاق كما يشاء و استطاع بسهولة و في مطلع شبابه أن يقتني دارا

محاطة بسور عالٍ من الحجارة الرملية يحيط بدوره بحديقة خضراء صغيرة تضم منزلنا ذي الشرفات الواسعة المطلّة على الجهات الأربع ، لم تكن دارنا تبعد سوى مسافة قصيرة عن ساحل البحر المتوسط الجميل ، أثث أي قصره الصغير بفخامة و عراقية ، وكان ذواقا في اقتناء المفروشات الخشبية المغطاة بـ "الصدف" و في اختيار السجاد الأفغاني الممتاز الذي كان يغطي كل أرض المنزل .

كان والدي قادرا دوما على أن يمتلك عربة "أتوموبيل" من النوع الفخم و الواسع و أن يوظف عنده سائقا ضخما وسيما و نشيطا و خادمة لم تتجاوز العشرين كانت تقيم عندنا بصفة دائمة ، فإذا تزوجت استأجر غيرها قبل أن تغادر الأولى المنزل .

كان والدي رجلا ضخما قليل شعر الرأس كث الحاجبين أبيض اللون و له شاربان مستقيمان أسودان كشاربي "زورو" المقنع و كان يرتدي دوما نظارات صغيرة بإطار معدني ، و طبعا كان أنيقا جدا ، كثير التدخين و يحب شرب النبيذ الفرنسي الأحمر مع الإستماع للموسيقى الغربية على "جرامافونه" الخاص ، كان رجلا هادئا دوما ، قليل الكلام و لم يكن متدينا على الإطلاق ، و لكنني لم أسمع يوما يشتم الدين أو المتدينين أو يستهزئ بالمقدسات الدينية .

أما والدي فلقد كانت على عكس أي في كل شيء تقريبا ، فهي ضئيلة الحجم و كثيرة الكلام و كثيرة الإنفعال ، و ذات تصرفات طائشة و هي شبه أميّة ، كانت متدينة على طريقتها الخاصة ، فلقد كانت حريصة جدا على ارتداء "ملاءة الزم" و تغطية وجهها و عدم السماح لرجل غريب برؤيتها ، و مع ذلك لم تكن تصلي ، و لكنها كانت تداوم على التمتمة بتسابيح تكررها و تضبط عددها بمسبحة ، و تصوم رمضان و كثيرة التبرع بالصدقات و كان البخور لا يفارقها لا في ليل و لا نهار ، و لعله كان سبب موتها بمرض رئوي خطير عندما كنت في العشرينيات من العمر ، كان أي يتضايق كثيرا عندما كان يكتشف "الحجب" في سترته و في مخدته و في سيارته ، فلقد كان يعلم أن هذه "الحُجُب" (تائم) باب واسع للنفقات استفاد منه كثيرا الدراويش و الدرويشات القاطنين في حيننا ، و مع هذا لم يمانع في زيارة هؤلاء لوالدي و لم يعترض أبدا على ما كانت تنفقه عليهم ، بعد وفاة خالي الأكبر ذهبت والدي إلى مكة للحج و عادت لتصبح متدينة أكثر فصارت تصلي دوما و تستمع إلى القرآن في الراديو و تواظب على حضور مجالس الصوفية التي كانت تقيمها إحدى قريباتها و هي زوجة شيخ معروف في مدينتنا .

كانت والدي امرأة جميلة بما يكفي لإرضاء والدي و هي من أسرة غنية ، و لقد ورثت عن والدها التاجر الثري أملاكا لا بأس بها تكفي لإقناع أبي بنسيان تصرفاتها المزعجة ، بالإضافة إلى أنها لم تكن امرأة غيورة أبدا رغم أنها أحبت أبي بشدة .

كنت الإبن الثاني لهذه الأسرة الصغيرة ، و لم يكن لدي سوى أخ و أخت كلاهما أكبر مني سنا ، و أذكر فرحي بعرضيهما عندما كنت طفلا قد راهق الحلم ، و دموعي الحارة التي سكبتها أنا و أمي يوم ودعنا أخي الطبيب الذي سافر مع زوجته إلى

"أوربا" لدراسة الجراحة برفقة أختي و زوجها الطبيب أيضا ، بعد عام واحد من زواج الجميع و من انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ليس في طفولتي ما يختلف عن المعتاد ، سوى أنني لم أكن أرتاد المدرسة ، و كان الأستاذ "إلياس" هو الذي يتولى تدريسي يوميا في أيام دوام المدارس و يتقاضى من والدي أجره شهرية ، و مع أن هذا النوع من التدريس لم يكن معتادا و لا مقننا إلا أنني كنت أنسلم من أستاذي في نهاية كل عام دراسي شهادة موثقة بالدرجات العلمية لكافة المواد المقررة ، و عليها خاتم المدرسة الرسمية الوحيدة في مدينتنا كبرى مدن الساحل في بلادي.

و الواقع أنني لم أكن أدرس شيئا من مقررات الدراسة العامة ، لا أنا و لا أختي التي كانت أيضا تتعلم بنفس الطريقة على يد السيدة "ماري" الصارمة جدا ، نعم لقد تعلمت علوم اللغة العربية ، و لكنني تعلمت جميع المواد الأخرى العلمية و الأدبية بلغة دولة الإنتداب الأوربية التي كان جيشها يحكم بلادنا في تلك الآونة.

ركز أستاذي كثيرا على تدريسي لمادتي "التاريخ" و "الفلسفة" و كان شخصا عبوسا و لديه صلاحيات مطلقة في معاقبتي على التقصير في دراستي ، و مع هذا لم يكن يبدي ملاحظات عن سلوكي الشخصي ، و لم يكن يمكث عندنا أكثر من ثلاث ساعات في أيام دوامه الأسبوعية الخمسة ، فلقد كانت عطلتي الأسبوعية يومان أمضيتهما مع أصدقائي و هم أبناء أحوالي على شاطئ البحر أو في بستان أبي برعاية الحارس الشرطي الذي كان يحرس بيتنا.

أعود إلى الأستاذ "إلياس" الذي كان عبقريا في الحساب و الفلسفة و المنطق ، و رافقي في دراستي تسعة أعوام ، تعلمت خلالها تاريخ جميع الأمم تقريبا بشكل مختصر و أملت بمعظم الفلسفات الدينية الموجودة و كل هذا كان بعبارات سهلة و مبسطة و من كتب لم أجد مثلها في الأسواق المحلية ، و لا في مكتبات أوربة خلال دراستي هناك ، كانت دراستي عن كل ديانة تبحث في ثلاثة مواضيع أساسية مشتركة عند جميع الديانات و هي : أولا الشعب أو القبيلة التي نشأت فيها تلك الديانة ، و ثانيا كيف استطاع أتباع تلك الديانة أن يؤسسوا مملكتهم الخاصة بهم ، و ثالثا ما هي القوانين التي فرضتها تلك الديانة ، و كيفية عمل رجال الدين في إقناع الناس بالخضوع لهذه القوانين برضا تام.

في نهاية كل بحث عن كل ديانة كنت أطلع عليها كان الأستاذ "إلياس" يكرر على مسامعي متلازمة متكررة عن عبثية أفكار الديانات و تأثيرها السلبي على إنطلاق العقل و اليد في ما تجهله من العالم المحيط بنا ، و أن الأديان لم توجد إلا لبناء الخوف في قلوب الناس ، الخوف الذي يدفعهم لإطاعة القوانين التي يتعلمونها من رجال الدين ، الخوف الذي يجعلهم يرهبون من عصيانها حين يأمنون عيون الرقباء ، فيستريح الحكام من أكثر عناء ملاحقة المخالفين لقوانينهم و أوامرهم ، و كثيرا ما ردّد على مسامعي أن رجال الدين هم من أخر اكتشاف أمريكا و أستراليا و القطب الجنوبي إلى ما قبل بضعة قرون لأنهم رفضوا

الإعتراف بكروية الأرض ، و ما أكثر ما سمعته يقول : إن قوانين الأديان هي قيود الأغبياء التي يربطهم إليها الأذكىاء ليسخروهم لخدمتهم فهي "نير الحراثة" الذي يوضع حول عنق الثور الغبي و يربطه بالحراث ، فيجر الثور الحراث خوفا من السوط ، و يحرق به الأرض للإنسان الذكي ، ثم يأكل الذكي ثمرة تعب الغبي ، و يلقي إليه رديء الطعام كجائزة له على خدماته و إخلاصه ، و الواقع أن الذكي يطعم الغبي فقط حتى يستمر في استخدامه ، و الذبح سيكون حتما مصير الغبي إن قرر التمرد و إلقاء النير و الإقلاع عن جر الحراث في يوم من الأيام !.

لقد كانت نظرية الأستاذ "الياس" أن الأغنياء و الأقوياء المتسلطون من البشر هم الذين اخترعوا الديانات ، و شاركهم "رجال الدين" في هذا المشروع رغبة في التشارك معهم في ثمراته الكثيرة ، من المال و السلطة و الجاه.

و ما أكثر ما ردد على مسامعي نظريته عن اتفاق الأثرياء من قريش مع نبي الإسلام لاقتباس فكرة دين جديد من جيرانهم اليهود و استعمالها لتوحيد ديانات العرب المختلفة ، ثم لتأسيس مملكة "قريش" تقليدا لممالك الرومان و الفرس ، و كان يستدل على هذا بأن معظم أصحاب نبي الإسلام كانوا من أثرياء "قريش" ، و كانوا يزورون كثيرا هاتين المملكتين ، فغاروا على "قريش" التي كانت قبيلة النبلاء عند العرب و لم تكن لديها مملكة فاخترع لهم أذكياؤهم دين الإسلام ، دين إقتبسوه من جيرانهم ، أعني اليهود و المسيحيون.

و كان يبرهن على هذا بأن نبي الإسلام حصر حق الحكم (الخلافة) في سادة قبيلة "قريش" من بعده ، و أبقى السلطة بيده و في أيدي من أيده من سادة "قريش" في فترة حياته في المدينة "يثرب".

لم أكن بالفتى الذي يخشى الإنطلاق ، و استطاع ذهني أن يوسع نظرية أستاذه "الياس" لتشمل كل القوانين و الشرائع سواء المشتقة من الأديان أم المصنوعة مباشرة بيد الإنسان ، فلو طبقنا عليها جميعا نظريته هذه لوجدنا أنها كلها تخدم هدفا واحدا هو : {منع الفقير من قتل الغني و سلب ماله ، هذا المال الذي سرقه الغني أساسا من جهد الفقير بخدعة إسمها "التجارة"}.

هذه النبذة عما تعلمته من الأستاذ "الياس" قد تجعل القارئ يفترض بداهة أن الرجل كان ملحدا ، و لكنه في الواقع لم يكن كذلك، فلقد كان دائم الحرص على ارتداء رموزه الدينية ، و يحتفظ بأيقونة لـ "العذراء المقدسة" في حقيقته و هذا ما أثار استغرابي دوما ، و لكنني فهمت لاحقا سبب هذا التناقض ؛ لقد كان الرجل كان مجرد موظف يؤدي عمله و لم يهتم أبدا أن يكون ما يُلقنه لتلميذه مخالفا لمعتقداته الشخصية كمدرس.

هذه الحقيقة رأيتها واضحة في العام التاسع من تتلميذي على الأستاذ "الياس" فلقد كان يظن أنني أنصت لمقولاته دون تفكير عميق بمضمونها، و لقد تفاجأ حدّ الصدمة ذات يوم بحوار قصير دار بيننا في ظهيرة أحد الأيام ، قلت له : سمعت أن

مشاكلك مع زوجتك قد أنهكتك و أن الكنيسة قد توافق على طلب الطلاق الذي تقدمت به ضدك ، قد تجبرك المحكمة على دفع مبالغ كبيرة لها.

قال : نعم لقد أتعبتني جدا و هي لا تهتم إلا للمال الذي تريد أخذه مني لتنفقه على أخيها الصغير لعنة الرب عليها و عليه.
قلت له : لماذا لا تدبر قتلها ؟ و ستنجو من القصة فوالدي صديقك و هو قادر على أن يخرجك منها كالشجرة من العجين.
خرس الرجل تماما ! و نظر إلي مبهوتا مدهوشاً ، ثم صاح بي : ماذا ؟؟! إخرس !.

ثم سكت حتى انتهت الحصة ، كان يراقبني بعين ترتجف و هو مقطب بينما كنت أحلّ مسائل الرياضيات التي كنا ندرسها ، ثم قعد "الياس" في غرفة الضيوف ينتظر حتى عاد والدي ، أخبره بالحوار الذي دار بيننا و هو يرتجف غضبا و يكرر إشارة الصليب على جبهته و صدره بينما كان شارباه الكئان يتراقصان تحت أنفه كجناحي طائر يقلع بسرعة ، و مع هذا لم يبد والدي الكثير من الإنزعاج لكلامه و كان يتبسم في وجهه و يرت على كتفه ليهدأ من روعه و يقول له كلمات سمعت منها : لا تلم نفسك هذا صغير و مندفع .

بعدها انصرف "الياس" دعاني أبي إلى مكتبه ، و قال لي و هو يخفي ابتسامة خلف قسماته التي حاول أن يكسوها بأكبر قدر من الجدية : لا تلق بالا لفرع "الياس" هذا فهو غبي أكثر من حمار أعمى ، أنت قلت له ما يجب عليه فعله و لكنه جبان و تافه سلم ثمرة حياته و مستقبل أولاده لعجوز مجنونة و قساوسة مختالين.

لم أتفاجأ بكلام أبي و شعرت يومها أنه سيخبرني بشيء كبير و خطير في وقت قريب ، و لكنه لم يفعل أبدا.

لم تنقض فترة طويلة على هذا الحوار حتى انقطع الأستاذ "الياس" عن تدريسي ، و أرسل إلي شهادة إتحائي للدراسة الإعدادية و زارني مودعا ثم سافر إلى "أمريكا" ليلحق بابنه الوحيد ، علمت لاحقا أن زوجته ماتت في حادث سيارة و ورثها هو قبل أن يصدر حكم الكنيسة بطلاقها منه ، ثم تأكد لي لاحقا أنه اتبع نصيحة تلميذه الذكي !.

حل محل "الياس" أربعة من المدرسين ، كل منهم كان يدرسي مجموعة من المواد العلمية البحتة و بلغة دولة الإنتداب التي كانت تحكم بلادنا ، و لم تكن تربطني بأي منهم علاقة وطيدة كتلك التي ربطتني بـ "الياس" ، و لم تكن لهم صلاحيات واسعة في إجباري على الدراسة ، و لم أكن أصلا بحاجة لذلك فلقد صرت مولعا بالكتب و العلم حد الهوس بفضل جهود "الياس" .

الأقارب عقارب

لم يكن لدي أقارب أعرفهم من جهة والدي على الإطلاق ، و كنت أسأل أمي عنهم فتقول : جدّ أبوك كان يعمل قاضيا في "إستانبول" و أسرته كلهم هناك إلا أن أباك وحده عاد إلى الوطن ليعيش فيه الأصلي بعد "السفربرلك" و لم يرافقه من أقاربه أحد ، و أخبرني أيضا أنه كانت لأسرته دار مهجورة فسكن فيها و توسط له أصدقاؤه فعمل في العدلية مدة ، ثم تعين قاضيا لأنه درس الحقوق في "إستانبول" و في "أوربة".

هذه القصة التي روتها أمي لي كانت قد سمعتها من أبيها و من أبي بعد عقد قرانها على أبي ، و لم أتأكد يوما من صحتها و لم أبحث مطلقا عن أقاربي الأتراك ، كنت يوما قد سألت أبي : لماذا لا تبحث عن أقاربنا ؟ فقال لي : الأقارب عقارب.

و مع هذا كان أبي حريصا جدا على أن تكون علاقتي مع أخوالي و أولادهم متينة جدا و أجبرني عندما بلغت الثامنة عشر على خطبة ابنة خالي الشبه أمية و التي و كانت تصغري بأعوام قليلة ، ثم زوجني منها و أنا في التاسعة عشر ، و كان قد زوج أخي الطبيب من شقيقتها الكبرى ، و كان زوج אחتي الطبيب أيضا ابن خالي الكبير التاجر الثري و الوجيه المعروف .

كانت تربطني صداقات كثيرة مع أقارب والدتي ، المقربون منهم و البعيدون ، و السبب هو أن أخوالي الخمسة كانوا جميعا تجارا و كانوا حريصين على الترابط في أسرهم ، و كانت والدتي و هي أختهم الوحيدة تحرضهم دوما على ترتيب زيارات و لائم كبيرة لكل أقاربهم خاصة في أيام المواسم الدينية كرمضان و الأضحى ، و كان هؤلاء الأقارب حريصون على التقرب منا بسبب مكانة والدي و منصبه و نفوذه الواسع في الدولة ، و لكن هذه الصداقات لم تكن يوما عميقة مع أحد و لقد أمضيت حياتي كلها و لم يكن لي صديق واحد مقرب مني يعرف عني ما يعرفه الأخلاء عن بعضهم ، و لعل السبب هو أنني لم أدرس في مدرسة وقت طفولتي و في فترة مراهقتي.

إلى أوربة مؤقتا

بعد اختفاء الأستاذ "الياس" من حياتي بثلاثة أعوام ، و تحديدا في خريف عام 1949 انقطع المدرسون عن زيارتي و سلمني والدي في مكتبه نسخة من "شهادة إنهاء الدراسة الثانوية" بمعدل مرتفع جدا رغم أنني لم أقدم أي إمتحان ، و أخبرني أن علي أن ألحق بأخي الأكبر في "أوربة" بعد إتمام زواجي من ابنة خالي "سليمة" و سترافقي زوجتي ، و أخبرني بأن جميع الترتيبات صارت جاهزة.

وقع الخبر علي كالصدمة ، و لكنني لم أجرؤ سوى على قول : حاضر كما تريد.

و عندما خرجت من غرفة المكتب وجدت والدتي في الصالة الأرضية للبيت منهمكة مع خيَّاطتها في الإتفاق على أوصاف فستانها و فساتين عروسي "سليمة" و فساتين אחتي ! نعم فلقد كانت قد عادت لتوها من "أوربة" مع زوجها الذي أنهى دراسته هناك و عاد ليجد بانتظاره مشفى صغيرا في وسط المدينة ، هذا المشفى كان استثمارا مشتركا لأبي و خالي ، و كان

يفترض أن يعود أخي مع صهري ليدير معه المشفى الجديد ، إلا أنه بقي في "أوربة" ليستقبلني و يرتب أموري هناك ، و لعل هذا ما جعل والدتي لا تتضايق نهائيا من فكرة سفري و ابتعادي عنها لسنوات عدة.

في أوربة

ودّعت أُمي و أختي بعد عرسي بأسبوعين فقط ، و ركبت مع والدي في سفينة كبيرة متجها إلى "أوربة" في رحلتي الأولى خارج بلادي ، و كانت هذه الرحلة فرصتي للتمتع بكوني عريسا ، ذلك أنني لا أكاد أذكر من ليلة عرسي شيئا لأنني كنت سكرانا للمرة الأولى و الأخيرة في حياتي ، فلقد أقنعتني أبناء خالي بشرب كأس من النبيذ المقطر الأبيض قلب ليلي نهارا و جعل من عرسي جحيما ، هذا عدا عن الأسبوع الأول الذي أمضيته في الدعوات و التبركات ، و لهذا اغتنمت كل لحظة من الرحلة في التمتع بوضعي الجديد اللذيذ فعلا.

بعد أسبوعين تقريبا وصلنا و بعد أن وقفت الباخرة في عدة موانئ وصلت بنا إلى ميناء مشهور غرب "أوربة" ، و هناك وجدنا عددا من العسكريين الأوربيين في انتظارنا في الميناء ، لم يجدوا صعوبة في العثور علينا و كل شيء كان مرتبا بشكل لم أكن أتخيله ، و لعل ما فاجأني أكثر هو إتقان أي للغة الأوربية التي يتحدثون بها و كنت أنا أيضا أجيدها بطلاقة ، و بعد يوم واحد في الفندق الجميل الفخم المطل على الميناء ركبنا في سيارة كبيرة و فخمة و حملت أمتعتنا سيارة أخرى ، و اتجهت القافلة الصغيرة إلى عاصمة الدولة الأوربية التي تحكم بلدي في رحلة كانت الأطول في حياتي ، فالطرق كان كثير منها لا يزال وعرا و مدمرا بسبب الحرب و البرد كان قارسا جدا لم أعتد على مثله ، و بعد وصولنا إلى العاصمة راحت السيارات تنعطف يمنة و يسرة في شوارع عريضة تطل عليها بيوت تشبه كثيرا بيوت بلادنا ، و لكن المدينة كانت أشبه بورشة عمل ضخمة لا تبني أبنية جديدة و إنما ترمم الأبنية القائمة و الشوارع و الأرصفة ، على الرغم من البرد القاسي و استمرار هطول المطر .

وقفت السيارات أمام منزل يشبه منزلنا ، لكن لم تكن تحيط به أسوار عالية و كان مختلفا بعض الشيء عن المنازل المحيطة به ، و نزلنا من المركبات كالمساقطين من السماء ، و بدأت بمساعدة السائقين المنهكين في حمل الحقائب ، و لكنهما رفضا بإصرار و حاولت أن أستعين بأي لإقناعهما و لكنه نظر إلي بحنق ثم أشار عليّ بالدخول وراءه ، سرت أنا و زوجتي خلفه في ممر طويل يصل بين مدخل الحديقة و باب المنزل ، و عند الباب الكبير للمنزل وجدنا رجلا شابا طويلا في منتصف الثلاثينيات شرقي الملامح أبيض اللون و شديد سواد الشعر و غاية في الأناقة و الوسامة ، غارق في العطر لامع الذقن و له شاربان كشاري أي تماما.

رحب بي الرجل باللغة العربية و بلهجة مدينتي نفسها ، و صافحني بحارة بعد أن صافح والدي طبعاً ، و تجنب نهائياً أن يوجه أي تحية لزوجتي التي كانت ترتدي ثياباً شتوية و تغطي رأسها بمنديل و تنقب وجهها بغلالة سوداء رقيقة.

أنا الكولونيل بارون جيمس . هكذا قدم نفسه لي ، و قدمت له نفسي بالخنازة صغيرة و ابتسامة خرجت بمشقة قائلاً : أنا أبو المجد!. ضحك الرجل كثيراً و سألي : هذا اسمك ؟! قلت : لا إسمي "مهران" و لكنني أفضل كنية "أبو المجد" فالجميع ينادوني بها في البلد.

انتبهت إلى أن الرجل ليس عربياً ، فتحدثت إليه باللغة الأوربية ، فرد بالعربية ضاحكاً : هل تظن أنني لا أفهم لغتك جيداً ؟ لقد سكنت في مدينتك ثمانية أعوام و أعرف عنها كل شيء و عن حيّكم و عنك و عن أبيك و أخوالك ، و حتى عن أساتذتك ! لن نقف هنا في البرد ، تفضلوا بالدخول إلى منزلكم الجديد.

لم أتردد في الدخول خلفه مترقفاً زوجتي بذراعي ، و بعد أن عبرنا دهليز البيت و وصلنا إلى الصالة الأرضية كانت المفاجأة مذهلة فعلاً ، لقد كان أثاث البيت و حتى السجاد في أرضه مطابقاً تقريباً لأثاث منزلنا ، و ما زاد دهشتي وجود أخي في صدر الصالة الأرضية يعانق أبي و يهنئه بالسلامة ، و لم أتمالك نفسي فصحت به : "أبو الخير" . التفت إلي و قال : أهلاً بالزعيم الصغير الحمد لله على السلامة ، و بعد المعاينة سألي : هل تعرفت بالبارون جيمس ؟ قلت : نعم. فhez رأسه راضياً.

لم يخطر في بالي في تلك اللحظة أن مصيري ارتبط تماماً بالبارون جيمس الذي لم يترفع أبداً عن رتبة كولونيل لأنه كان قد تقاعد من الجيش في نفس السنة التي التقيته بها و تحول إلى موظف دائم في الدولة دون اسم محدد أو رتبة أو حتى مرتب محدد لوظيفته ، مثلي تماماً حيث أنا اليوم.

وجدت المنزل جميلاً و مليئاً بالأثاث الفاخر جداً ، و بعد أن دلني أخي "أبو الخير" على غرفتي ، انسللت إليها مع زوجتي و أغلقت الباب و نمنا كالقتلى من شدة التعب ، و لم أستيقظ إلا في اليوم التالي على صوت خادمة المنزل تطرق الباب و تدعوني و زوجتي بالإسم للإفطار و بلغة عربية فصحي !.

على مائدة الإفطار وجدت أبي و أخي و زوجته و الخادمة المتوسطة في السن العربية الملامح ، عرفت أنها ليست مسلمة من صليب كبير كانت تعلقه على صدرها.

وجدت على المائدة إفطاراً شهياً جداً و خبزاً عربياً و كل شيء كان يشبه بيتنا تماماً ، و بدت معالم الدهشة على وجهي ، و قبل أن نبدأ بالأكل نظر إلي والدي مبتسماً و قال : أراك متعجباً ما السبب؟.

قلت : أنت تعرف السبب ، كيف استطاع "أبو الخير" أن يدبر كل هذه المفاجآت في هذا المكان البعيد عن البلاد ؟

رد بسرعة : و من قال لك أن "أبو الخير" هو من دبر هذا ؟. قلت : من إذا ؟. فضحك هو و أخي و الخادمة طويلا ، ثم و بعد أن هدأ الضحك قال : أنت الآن في بيتي أنا. فازدادت دهشتي كثيرا ، كان الجميع قد شرعوا في الأكل و بدأت معهم في تناول الفطور الذي كنت أحججه جدا ، و رغم طغيان لذة لقمة العسل و القشدة و الخبز الأبيض التي بدأت بمضغها لم تنخفض دهشتي و لا فضولي لمعرفة معنى ما قاله أبي.

بعد عدة لقم تناولتها قال أبي برصانته التي استعادها سريعا : هل تذكر سفراي في العطلة القضائية إلى "استانبول" لزيارة أقاربي بعد انتهاء الحرب ؟؟. قلت : نعم . قال : أنا لم أكن أسافر إلى "استانبول" كنت آتي إلى هنا في عمل هام ، و اشتريت من كسبي من هذا العمل هذا المنزل و محل تجاري كبير في المدينة ، من عائداته أنفقت على أخيك و أختك و صهرك و على هذا البيت و بعضها أنفقت منه على بيتنا هناك .

قلت بعد تردد بصوت خافت : و ما هذا العمل ؟. كنت أتوقع صفقة من أي جزاء هذا السؤال فلقد كان يعاقبنا على التمادي في الفضول بسرعة و حسم ، و لكنه هذه المرة لم يفعل و إنما نظر إلي بطريقة لم أعهد لها من قبل و في عيونه دموع تلمع دون أن تفيض و قال بعد أن أخذ نفسا عميقا : ستعرف هذا العمل ، ستعرفه و سيكون عملك أنت أيضا ، فلا تستعجل ، أنت هنا من أجل هذا الأمر فقط .

تابعنا جميعا الفطور ، و خرجنا إلى الصالة لشرب القهوة الصباحية ، و دققت النظر في الصالة لأجد بعض الزيادات على نظيرتها في بيتنا فلقد وجدت موقدا كبيرا يتوسط صدر هذه الصالة و فيه حطب يتأجج ، فتذكرت مدفأة الحطب التي تتولى توسط صالة دارنا في البلد ، و وجدت الكثير من الستائر تحيط بجدران الصالة الأمر الذي لم أعتد رؤيته فالستائر تنصب فقط فوق النوافذ في بيتنا.

لم تستمر إقامة أبي و أخي معي في أوروبا سوى أسبوعين فقط أمضيها في التسوق و التفرج على المدينة و معاملها السياحية بصحبة أخي بينما كان أبي مشغولا جدا مع البارون جيمس طوال هذه المدة و اجتمعا بشكل شبه يومي مع شخص ثالث في غرفة المكتب حتى أوقات متأخرة من الليل أحيانا ، لم أر هذا الشخص الثالث إلا أنني عرفت بوجوده معهم من الكؤوس و أعقاب السجائر التي كانوا يخلفونها وراءهم في المكتب.

في آخر يوم من وجودهما معي ودعنا أنا و سليمة أخي و زوجته في أول النهار ، و بقي أبي معنا بقية اليوم ، خلال هذا اليوم دعاني إلى غرفة المكتب وقت الظهيرة ، و طلب من الخادمة أن لا تسمح لأحد بالدخول و أن تدخل الغداء إلى المكتب لأننا مشغولون جدا.

كان في المكتب بالإضافة إلى أبي ؛ البارون جيمس و معه الشخص الثالث ، هذا الرجل الجديد كان شيخا كبيرا في السن ، و كانت له لحية صغيرة بيضاء و شاربان أبيضان و حاجباه كبيران رماديان و كان أصلع تقريبا و طويل القامة و في غاية الأناقة.

مددت يدي أنا أولا و قدمت نفسي بلغته ، فصافحني بود مبتسما و هو يقول بالعربية : البارون إدموند.

بدأ هذا الشيخ الحديث متوجها إلي بصوت هاديء جدا : أيها الشاب ، يعمل أبوك لدى حكومة هذه الدولة الأوربية الكبرى في منصب هام جدا و لكن معظم مهمات هذا المنصب تتطلب بقاء والدك في بلادكم و في وظيفته الحالية هناك ، و مهما قلت لك عن أهمية وظيفة والدك في هذا الاجتماع فلن يكون هذا كافيا لجعلك تفهم طبيعة عمله و مهماته . ثم استأنف قائلا : والدك ليس جاسوسا لدولتنا و لسنا بحاجة إلى جواسيس عندكم و جيشنا يحكم بلادكم ، و ليس سفيرا لنا عندكم أيضا ، إن مهمته معقدة جدا و سرية جدا و تحتاج إلى ذكاء خاص و استعداد نفسي خاص تملكه أنت ، و لا يملكه أخوك و لهذا اختارك أبوك لتخلفه في هذا المنصب بعد تقاعده. قلت بهدوء : لهذا السبب غادر أخي و زوجته باكرا إلى الميناء !. قال : نعم و أظن أنك فهمت من هذا أن أحدا في العالم لا يسمح لك بأن تطلعه على وظيفتك هذه و لا على وظيفة أبيك و لا حتى أنا بعد أن نغادر هذا الاجتماع ، ما عدا شخص واحد هو الكولونيل بارون جيمس ، فهو الشخص المسؤول من قبل دولتنا عن وظيفتك و وظائف اثنين آخرين من الموظفين يعملان في نفس مهمتك و لكنك لا تعرفهما و لن تعرفهما و هما لن يعرفاك و لن يعرف أحدهما الآخر.

أنا كنت المسؤول عن وظيفة أبيك طوال مدة عمله و سيكون الكولونيل بارون هو خليفتي في المنصب كما أنك ستكون أنت خليفة أبيك في هذا العمل . ثم أردف و هو يبتسم : و أبشرك بأن مهمتك ستكون أسهل بكثير من مهمة والدك ، لأن جيشنا سيتترك بلادكم و ستكون لشعبكم دولة مستقلة أيضا.

ضحك الثلاثة و ابتسمت مجاملا لهم مع أنني لم أفهم لماذا يضحكون.

كل ما عليك هو أن تؤدي الآن اليمين القانونية و سنأخذ بعض الصور للمناسبة ، و بعدها سيكون الكولونيل بارون معك و سنرحل أنا و والدك إلى وجهة كل منا.

و بالفعل أدت اليمين القانونية لمنصب "المفوض الدائم" لدولة الإنتداب الأوربية في بلادي ، و أدى الكولونيل بارون جيمس أيضا يمينا قانونية ، كان البارون إدموند يلقنا اليمين كلا بلغته و كانت عباراتها قصيرة ، و أهم مافيهما التعهد بالطاعة العمياء حتى الموت و عدم مساءلة رئيسي و كتمان كل الأوامر و التعليمات و النشاطات التي أقوم بها حتى الموت.

بعد أخذ الصور و الغداء ودعت الضيوف ، ثم ودعت أبي و أنا أخفي دموعي ، و بعد أن غابت سيارته عن ناظري وقفت طويلا في الحديقة أدخن و أفكر فيما حصل في هذا اليوم و قد اختلطت أفكاري و مشاعري بشكل كبير لم يسبق أن حصل لي في ما مضى.

الموظف الكبير الصغير

في اليوم التالي و بعد الإفطار رن جرس الهاتف و كان على الجانب الثاني الكولونيل جيمس : صباح الخير. قلت : صباح الخير كيف حالك ؟ قال : سأكون بعد نصف ساعة عندك فاستعد.

اصطحبني الكولونيل بسيارته إلى تجمع مبان كبير قريب من المنزل محاط بساحات كثيرة محاطة بالأشجار ، كان مبنى لكتلية عسكرية خاصة ، أدى الحرس التحية لنا على الباب ، دخلت بنا السيارة إلى مقابل بوابة المبنى الكبير ، و من هناك قادي الكولونيل إلى غرفة كتب على بابها باللغة الأوربية عبارة : "مكتب الارتباط".

في ذلك المكتب قدمت واثقي إلى الموظف و هو ضابط صف ، و حدد لي موعدا للإلتحاق بالدراسة و التدريب بعد أسبوع من تاريخه ، و سلمني كتيبا عن الإستعدادات التي يجب أن أقوم بها و عن طبيعة الدوام و جداوله ، و المواد التي سندرسها و هو طبعا باللغة الأوربية ، بعد ذلك اصطحبني الكولونيل إلى قصره الفخم جدا في ضاحية العاصمة و تغدينا هناك و تعرفت إلى أسرته.

عدت إلى منزلي في المساء لأجد زوجتي تكاد تموت من القلق ، و كانت الخادمة "جوليا" (هذا اسمها) تحاول طمأنتها عبثا ، لم أترك هذا التوتر يمر عرضا فاعتنمته لأشرح لها ترتيبات مشاغلي في الفترة القادمة باختصار ، و لفهم أنها يجب ألا تقلق من غيابي و أن تثق بجوليا و تتعاون معها في ترتيب المنزل و ألا تخشى من شيء فبيتنا محروس بعناية.

استمرت دراستي في "أوربة" مدة ثلاثة أعوام كان نصف وقتي يمضي في التدريب العسكري ، و النصف الآخر يمضي في الدراسة النظرية في "السياسية و الإقتصاد" في جامعة كبيرة في نفس العاصمة ، بالتوازي مع دراستي العسكرية الخاصة.

تخللت هذه الفترة عطلات قصيرة كنت أمضيها في زيارة عواصم أوربية أخرى ، و في التسوق و التمتع بشواطئ جنوب أوربا الرائعة.

لم تنقطع المراسلات بيني و بين البلد طوال هذه المدة و لم يكن يسمح لي بزيارة بلدي خلال فترة الدراسة. هذا في المختصر عن دراستي في أوربة و أجد جديرا بالذكر أن أروي بعض تفاصيل دراستي التي لا يمكن العبور دون أخذ فكرة عنها :

في كلية "السياسية و الاقتصاد" اقتصر حضوري و الإمتحانات التي قدمتها على القليل من المواد العلمية كالرياضيات و بعض كتب الفلسفة و الجغرافيا ، لكنني درست كتباً في السياسة و الإقتصاد مختلفة تماماً عن التي تدرسها الجامعة التي أدرس فيها (رسمياً) ، فلقد قرأت كتباً كثيرة عن الإقتصاد في بلادي ، و عن العائلات الكبيرة و تواريجها في مدنا الكبرى ، و عن علاقات هذه الأسر و انتماءاتها ، و كتباً عن المواد الخام الموجودة في أرضنا ، ما يتم فعلاً استخراجها و ما يتوقع وجوده ، عن الثروات الزراعية و عن الآثار و عن الصناعات الموجودة و من يملكها و آفاق تطويرها ، عن العقارات و أسعارها و أهم ملاكها و إحصائيات عن مدن بلادنا و أحجام نموها سكانياً و عمرانياً ، قرأت كتباً عن الذهب و المعادن الثمينة التي يملكها الناس في بلادنا ، أذكر أيضاً أنني قرأت كتاباً مثيراً عن الأثرياء في بلادنا و عن أعمالهم و أملاكهم في البلاد و خارجها و فيه قصص مفصلة عن فضائحهم ، كتب لم أكن أستطيع أن أبعد عيني و لا ذهني عن الفرق في سطورها مستمتعا بكل كلمة منها!.

اندهشت كثيراً من دقة المعلومات الموجودة في هذه الكتب ، و من طرق المؤلفين في تأسيس أبحاثهم و توثيقها ، لكنني لم أوافق على الكثير من استنتاجاتهم ، السبب هو أنني على صغر سني أدركت أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا جيداً طبيعة الناس في بلادي ، و لم يفهموا جيداً ترتيب الأولويات عند العرب المسلمين .

كانت الكتب مليئة بالإحصائيات المفصلة لكل شيء و خاصة عن السكان و تصنيفاتهم ؛ إلى رجال و نساء ، كبار و صغار و شباب و يافعين ، معاقين و أصحاء ، فقراء و مكتفين و أغنياء ، أرباب حرف مهرة و عمال بسطاء ، أميين و متعلمين ، متدينين و غير متدينين .. إلخ.

لقد كانت هذه الكتب ترسم لبلدي خريطة ضخمة وضعت عليها تقريباً كل التفاصيل التي يتخيلها العقل و بدقة متناهية جداً.

كنت أدرس هذه الكتب و الذي كان يمتحنني فيها هو الكولونيل بارون جيمس ، و العجيب أن الرجل كان يعرف عن هذه الكتب كل شيء و كان يمدني يومياً بأبحاث تتضمن أحدث المعلومات عن كل مجال و تفصيل متجدد فيها.

استفسرت من الكولونيل عن مصدر هذه الأبحاث فقال ضاحكاً : في وزارة الخارجية التي نعمل لصالحها يوجد قسم خاص عن بلادك ، و له ميزانية كبيرة و أرشيف ضخم يغذيه دوماً بالطريقة التالية :

تراقب لجنة في سفارتنا في عاصمتكم أسماء الطلبة المتفوقين في الدراسة الجامعية في كافة الاختصاصات المتعلقة بالعلوم الإجتماعية ، نختار منهم عدداً من المتفوقين و نقدم لهم منحة دراسية بالمراسلة من جامعاتنا ، ثم نفرض على كل منهم أن يقدم لنا دراسات و أبحاثاً و إحصائيات عن مناطق سكنهم و المناطق القريبة منهم ، تتضمن هذه الأبحاث كل ما استجد من

أحوال هذه المناطق ، و طبعاً نقدم هؤلاء الطلبة إعانات مالية و كتباً دراسية و مناهج متقدمة تجعل منهم متفوقين على أقرانهم ممن يتابعون دراساتهم العليا في جامعاتكم ، يا مهران بك عندما تعود إلى البلاد لتسلم مهماتك سيكون هؤلاء كلهم مساعدون لك و ستتسلم قوائم بأسمائهم و ستتعرف عليهم واحداً واحداً ، هم اليوم أكثر من مائتي شخص .

ابتسم الكولونيل بخبث ثم قال معلقاً : لا تخف لن تكون مضطراً لإستقبالهم جميعاً في يوم واحد في مكتبك ، لكنك ستضطر لقراءة بريدهم إليك يومياً و لساعات .

ضحكت قائلاً : لا أظن أنك ستكون سعيداً أنت أيضاً باستقبال كل هؤلاء و لو على مدى أسبوع .

و من ذكرياتي في أثناء دارستي الجامعية ، محادثة حفرت في ذهني دارت بيني و بين أستاذ في الإقتصاد كان صديقاً كريماً ، سأله مستفسراً : لا بد أن أمريكا تملك خزانة هائلة من الذهب فيها جبال من السبائك حتى تستطيع أن تبادل كل دولار أمريكي بغرام واحد من الذهب ؟ ضحك الأستاذ كثيراً ثم قال لي تعال لمكتبي لأشرح لك .

اجتمعت به في مكتبه بعد المحاضرة ، و قدم لي شاياً بالحليب ، و بعد أن أشعل غليونيه قال : تخيل معي أن الدنيا كلها ليس فيها إلا مدينة واحدة ، و عملتها من الذهب الخالص ، في هذه المدينة حاكم ذكي و محتال أيضاً ، قال يوماً لأهل المدينة : حتى لا يضيع ذهبكم أو يسرق أودعوه في خزنتي و سأعطيكم عن كل قطعة نقد ذهبية إيصالاً عليه ختمي الملكي ، و بدل أن تنقلوا الذهب و تخاطروا به انقلوا الإيصالات و ادفعوها ثمناً للمشتريات ، و حينما يريد أحدكم ذهبه ما عليه إلا أن يأتي للخزنة و يقدم إيصالاته و يسترد ذهبه ، فقبل أهل المدينة ، بعد مدة صارت الإيصالات هي العملة في السوق ، و لم يعد الكثيرون يرغبون باسترداد ذهبهم بل على العكس صاروا يقبلون على تخزين الذهب للحصول على مزيد من الإيصالات بدلاً عنه لأنها أسهل حملاً و حفظاً ، حتى أن الماكرين منهم صاروا يحضرون إلى الخزنة ذهباً مغشوشاً في عباراته ليحصلوا على إيصالات ، أو ما نستطيع أن نسميه بـ "نقود ورقية" ؛ لا تقل لي أن شيطاناً على وجه الأرض سيقدر على إقناع أهل المدينة جميعاً بأن يطالبوا بذهبهم من الخزنة في وقت واحد أو أوقات متقاربة .

هل سيكون الحاكم ذكياً و عاقلاً إن لم يستغل الفرصة و يصدر إيصالات جديدة لنفسه و لحاشيته و جنوده دون أن يكون قد أودع مقابلها ذهباً في الخزنة ؟ من سيعرف أن هذه الإيصالات لا يوجد ما يقابلها من الذهب في الخزنة ؟ من سيحصى هذه الإيصالات و هذا الذهب أصلاً ؟؟ ستستمر الخدعة حتى ينسى الناس الذهب نهائياً و يتحول إسم الإيصالات الصادرة كدليل على ودائع الذهب إلى "نقود" أو إلى ذهب من الورق بدل قطع الذهب المعدنية ، الشعوب يا سيد مهران لا تستطيع إلا أن تصدق الدولة تكذب ، حتى و لو عرف الجميع يقيناً أن الدولة تكذب ، و لن يتصرفوا إلا على أساس أن الدولة دائماً على حق ، لأن من يرفض تصديقها سيكون كالشخص الذي يرفض أن يحتفل بالعيد وحده لأنه متأكد من

التاريخ الذي حددته الدولة للعيد غير صحيح ، و من المستحيل عليه طبعاً أن يقنع الجميع بكذب الدولة ، بينما تستطيع الدولة أن تقنع إخوة و أبناء و أصدقاء و حتى زوجة هذا الشخص بأنه مجنون ، أو حتى مجرم و بإجراء واحد فقط ، دون أن يستطيع صاحبنا الباحث عن الحقيقة أن يدافع عن نفسه ، لا أحد يرغب بهذا طبعاً .

لا أنسى إبتسامته العريضة و السرور الذي شع من عينيه لشعوره بأنني فهمت جوابه تماماً .

ضابط الجيش المدني

بعد ثلاثة أعوام انتهت دراستي في "أوربة" تسلمت شهادتي الجامعية المدنية ، ثم بعدها بأسبوع تسلمت شهادة تخرجي العسكرية ، بلا حفل تخرج و لا استعراض عسكري و لا غيره ، فلقد تدربت في الكلية العسكرية الخاصة على علم عسكري لم أسمع بمثله فيما سبق ، أستطيع وصفه بأنه "علم استعمال القوات العسكرية في إدارة المناطق المدنية".

تدربت في العام الأول على استعمال كافة أنواع الأسلحة الفردية و المتوسطة و على التشكيلات العسكرية الأساسية و لغة التخاطب العسكرية و استعمال أجهزة الإتصالات السلكية و اللاسلكية ، و الخطط العسكرية الأساسية الدفاعية و الهجومية و على وضع الخرائط الميدانية و استعمالها و ما إلى ذلك من العلوم الأساسية التي يتلقاها الضباط.

في العام الثاني اختلف الأمر تماماً ، فلقد انتقلت إلى تعلم أشياء أخرى مختلفة جذرياً ، أولها كيفية توزيع القوات العسكرية حول المدن المأهولة لإدامة السيطرة على هذه المدن ، و كيفية إجبار المدنيين على التعاون مع الجيش لسحق أعمال التمرد أو الإبلاغ عنها قبل أن تقع ، ثم كيفية ربط القيادات الشعبية المدنية بالقيادة العسكرية ، و استعمالها في قمع أعمال التمرد و التحدي لسلطة الجيش ، ثم درسنا قواعد الإشتباك داخل المدن و إقتحام المباني المدنية و خاصة الحكومية منها ، و طبعاً درسنا كيفية حماية هذه المباني من خطر السيطرة عليها ، و درسنا كيفية إنشاء المحاكم الميدانية و تنفيذ الإعدامات العسكرية و طرق التحقيق في الميدان مع الأسرى المدنيين و المتمردين.

باختصار كان ما درسته في هذا العام هو : مهارات "قائد قوة إحتلال" سيطر على مدينة لدولة أخرى ، و بتعريف مختصر بهذه المهارات أستطيع أن أقول : كيف يمكن لقائد محتل أن يثبت حكمه في مدينة معادية بعد السيطرة عليها و كيف يمنع أهلها من التمرد و المقاومة ، و كيف يحمي المدينة من السقوط بيد متمردين من داخلها أو خارجها.

في العام الأخير تدربت على كيفية تمويه تصرفات "قائد قوة الإحتلال" لتبدو في أعين سكان المدن المحتلة مجرد حكم مدني إعتيادي إلا أنه حازم أكثر من المعتاد ، و يعتبر الأمن في أعلى سلم الأولويات.

علق الجنرال قائد الكلية على كفتي في نهاية الدراسة رتبة ملازم ، و ودعني بعبارات قصيرة في مكتبه و سلمني شهادة بإنهاء دراسة "ضابط إدارة" من الكلية العسكرية الرسمية (و هي غير الكلية التي درست فيها) مع أنني لا أعرف من تلك الكلية الرسمية سوى شكل أبنيتها من الداخل و الخارج و اسم الجنرال الذي كان يديرها آنذاك.

كان البارون جيمس بانتظاري في خارج المكتب ، و أخذت معه و مع الجنرال صورة تذكارية و أنا ألبس ثياب التخرج الرسمية العسكرية على باب غرفة الجنرال ، و بيدي شهادة التخرج و تبادلنا الأتخاب و التحيات و انصرف كل منا لشأنه.

كنت قد اشتقت جدا لبلدي و لأبي و لأمي و لإخوتي و لبيتنا ، و بعد أسبوع من تسلم شهاداتي المدنية و العسكرية جاءني الكولونيل إلى منزلي و أخبرني بأن علي العودة إلى بلادي بعد يومين و علي أن أستعد.

رافقني الكولونيل في رحلة العودة إلى البلاد ، و طلب مني التظاهر بعدم معرفته مطلقا و واعدني للقاء بعد أسبوع في منزل أحد الضباط الكبار في جيش بلدي و هو من الأرستقراطيين المعروفين.

لم تصدق أُمي عينيها حين رأتني و كانت مفاجأة جميلة جدا لها ، و لكن والدي لم يفاجأ بعودتي ، و رحب بي بشكل عادي جدا و سألني عن المنزل و عن أخبار المحل التجاري سؤال العارف المتجاهل ، فلقد كان هو من أخبرني بأن المحل جزء من مجموعة تجارية يملكها البارون جيمس و أن البارون هو من يشرف على إدارته و استثماره ، و لم يزد أبي كثيرا في أسئلته ، و كما توقعت لم يسألني شيئا عن الكلية و الدراسة و الكولونيل و لم أحاول أن أحدثه بشيء فلقد تدربت جيدا على عدم التبرع بأخباري لأحد أي كان.

أمضيت الأسبوع الذي فصلني عن اللقاء بسرور بالغ في لقاء الأحبة و استقبال المهنيين بالسلامة ، و عند حلول الموعد مع الكولونيل قدت سيارتي الخاصة إلى العاصمة ثم إلى المكان المحدد و لم أرتد أي زي عسكري أو شارات رسمية ، و عند باب القصر كان الحرس بانتظاري ، دخلت بسيارتي عبر البوابة إلى حديقة القصر ، كان جيمس ينتظري عند باب المبنى ، و اقتادني إلى الداخل مباشرة إلى غرفة المكتب و كأنه هو مالك القصر.

كان "اللواء أبو الحسن" بانتظاري في المكتب ، رجل في الستين من عمره أبيض طويل أزرق العينين سمين و حليق الشارب و اللحية و الرأس و يشبه "تشرشل" كثيرا إلا أنه عربي و لهجته شمالية ريفية ، قال لي : يا سيادة النقيب حين تدخل إلى أحد رؤسائك يجب أن تؤدي التحية العسكرية أليس كذلك ؟. قلت باستغراب : نعم آسف.

أديت التحية و قدمت نفسي ، فرد التحية و قدم نفسه و رتبته و منصبه و هو : "رئيس الأركان العامة".

بعد أن اتخذ كل منا مجلسه قال : أنت الآن من ضباط جيشنا الوطني في دولة الإستقلال ، و لديك رتبة نقيب مع استحقاق خدمة ثلاثة أعوام. ثم سلمني هويتي العسكرية و عليها كل بياناتي ، و أضاف : بتوصية صديقنا الكولونيل بارون جيمس تم تعيينك مديرا لـ "مكتب العلاقات المدنية في رئاسة الأركان العامة" و هو منصب سري و أظن أنك قد درست ما يكفي عن مهمات هذا المكتب ، و تستطيع مباشرة وظيفتك من مكتبك الجديد غدا صباحا.

ثم سلمني بطاقة عليها عنوان المكتب و قال : ستجد حارس المبنى بانتظارك ، و إياك أن ترتدي أي لباس عسكري. بعدها جلست مع الكولونيل و اللواء و تحدثنا لمدة ساعة عن صيد البط و الأسماك البحرية و شربنا قهوتنا ثم ودعنا اللواء. في اليوم التالي توجهت إلى المكتب الذي كان عبارة مبنى من طابقين يجاور مبنى قيادة الأركان العامة ، قدمت نفسي للحارس الذي كان من أهالي العاصمة على ما يبدو ، فأدى لي التحية و فتح لي باب المكتب و سألني عن أوامري له ، فشكرته و طلبت منه أن يجمع لي العاملين في المكتب فورا.

تعرفت على العناصر العاملين في المكتب و كانوا مجرد حرس و آخر ضارب للآلة الكاتبة ، و مستخدم مديني للتنظيفات و المطبخ و كلهم بلباس مديني ، ثم تناولت القهوة في المكتب ، و بعد قليل رن الهاتف ، كان جيمس على الطرف الثاني قال لي : صباح الخير أنا بانتظارك في بهو فندق العاصمة الكبير بعد ساعة لنفطر معا.

بعد ساعة جلست مع جيمس الذي كان يرتدي لباس أهل مدينتنا التقليدي على شرفة جناحه ، و بدأنا تناول الفول و ثريد الحمص ، و بعد أن شربنا الشاي أعطاني حقيبة يد كبيرة ، ثم قال : إنها مليئة بالنقود المحلية و فيها أوراق كثيرة و تفاصيل عن مهمتك القادمة ، ليس لديك الكثير من الوقت للإنجاز ، شهران و نصف فقط ، و أجرتك ستكون ثلاثة كيلو غرامات من الذهب الخالص إنما بعملة بلدنا نحن ، اشتر فورا بيتا في العاصمة قريبا من المكتب ، و انتقل إليه مع زوجتك و استعمل الباقي للمهمة و ستجد رقم حساب في المصرف الوطني لميزانية مكتبك ، لا تتردد في سحب احتياجاتك منه لأنه سيعاد ملؤه كلما فرغ. و ضحك و ضحكت كثيرا. لقد بدأ العمل.

مهمتي الأولى

عدت إلى مكنتي بعد لقائي بجيمس و أنا أحمل الحقيبة بحرص شديد ، و بمجرد وصولي أمرت الحرس بمنع الدخول إلى المكتب و طلبت ركوة من القهوة ، بعد قليل أغلقت باب غرفتي بإحكام و فتحت غطاء الحقيبة المنجم ، كان فيها مبلغا كبيرا جدا بالعملة المحلية و ثلاثة كواتم صوت للمسدس و نصف دزينة من عبوات السيانييد و حقن صغيرة ، كنت قد تدربت جيدا على استعمال هذه الأدوات ، و كان في جيب الحقيبة ملف ضخمة ، في الصفحة الأولى منه كتب مختصر للمهمة ، أنقلها لكم حرفيا لأنني قرأتها عشرات المرات :

أهداف المهمة : 1- يوجد في الملف قائمة بأسماء ثلاثة و عشرين ضابطا من ذوي الرتب المتوسطة ، كانوا قد تخرجوا من الكلية العسكرية الوطنية قبل نهاية الإنتداب الأوربي على البلاد بتسع سنوات ، و يقود كل منهم سرية من المشاة بعضها محمول على الآليات و بعضها مدرع تعداد كل منها مائتا جندي ، هؤلاء الضباط معظمهم من أبناء المزارعين و الطبقة الوسطى و ليسوا من الأرستقراطيين و الأسر الكبيرة ، يجب أولا على النقيب مهران (أنا) الإتصال بهم كل على حدة ، و ترتيب إجتماعات بين كل منهم و بين اللواء أبو الحسن ، و تأليف خلية صغيرة من خمسة منهم تتولى تنسيق عمل بقية الضباط في نظام موحد.

2- ترتيب شراء ولاء هؤلاء الضباط لصالح اللواء أبو الحسن ، عن طريق الرشوة و ترتيب دفعات و رواتب سرية محزية تدفع لهم بعيدا عن أعين الرقباء.

3- تلقينهم رموز تخاطب عسكرية خاصة ، تمهيدا لمهمة سيقومون بها في جوار العاصمة بعد ستة أشهر ، و يتم تلقينهم هذه الرموز قبل موعد المهمة بأسبوع واحد فقط.

4- زرع جواسيس مهمتهم مراقبة هؤلاء الضباط في قطعاتهم و في بيوتهم و رفع تقارير إلى مكتب النقيب مهران ، على أن يكون هؤلاء المراقبون مستعدون لتصفية أي من الضباط المذكورين عند صدور الأوامر له .

5- الإستعانة بأحد ضابطين من مخبرات الجيش الوطني (أسمائهما مرفقة في الملف مع رموز التعارف) لترتيب مهمات المراقبين و تغطية عمليات التصفية التي قد يقومون بها بحيث تبدو مبررة قانونيا.

الحد الأقصى لإنهاء المهمة ستة أسابيع .

يومها كنت شابا في أوائل العشرينيات من عمري مليء تماما بالهمة و الخبرة و الإندفاع ، و بمجرد إنهائي لقراءة الملف بدأت فورا بالتنفيذ .

اشتريت منزلا في اليوم التالي قريبا من مكنتي ، و أرسلت سيارة إلى مدينتي الساحلية لإصطحاب زوجتي و ابنتي الصغيرة إلى بيتي في العاصمة ، و أرسلت مع السائق رسالة إلى أبي أطلب فيها منه سرعة الإنتقال مع أمي و إخوتي إلى العاصمة و شرحت بشكل غامض تسلمي لعمل هام في وزارة الدفاع يتطلب بقائي في العاصمة بشكل دائم.

خطوت خطوتي الأولى في اليوم الذي يليه اتصلت بعدد من الخبراء الجامعيين الذين ذكرتهم آنفا و يحملون شهادات من الجامعات الأوربية لدولة الإنتداب السابقة ! آه نسيت أن أخبركم أنني عدت إلى البلاد بعد أن انسحبت قوات الدولة الأوربية و نالت بلادي الإستقلال رسميا بعامين فقط ، و كان ترفع على جميع المباني الرسمية رايتنا الوطنية فقط.

في الخطوة الثانية اخترت الإتصال بالخبراء الجامعيين من سكان المناطق التي ينتسب إليها الضباط المعنيون بالمهمة ، و في الإجتماعات كانت أسئلتى كلها تدور عن حياة كل من هؤلاء الضباط و تاريخ أسرهم و ذويهم و أوضاعهم المادية و فضائهم ، و كنت أدون الإجابات في ملف استحدثته لكل واحد منهم يتضمن صوراً لمنزله و أقاربه و سجله المدني و ملخصاً عن سيرته الشخصية ، و لقد ساعدني هؤلاء الخبراء في الحصول على هذه المعلومات كلها ، و تولت الحقيبة دفع كافة التكاليف و المكافآت.

خطوتي الثالثة كانت اختيار خمسة ضباط من هؤلاء لقيادة هذه المجموعة ؛ كنت قد تعلمت في الكلية العسكرية أن أفضل المرؤسين هم الأكثر طاعة و الأقل طموحاً ، و بالتالي فهم أحطهم مكانة و أقلهم ذكاء و بالفعل اخترت ستة منهم للمهمة ، واحد منهم كان احتياطياً.

الأول : المقدم بديع ، هو أحطهم قدراً و أقلهم شأنًا ، تخرج من الكلية العسكرية بتقدير سيء جدا ، و ترقى في الرتب بسرعة ببركة مراسلاته السرية مع "المكتب الثاني" (مخابرات جيش الإنتداب) و كانت تقاريره من النوع الرديء جدا إلا أن ضباط المكتب الثاني كانوا حريصين على عملائهم و لو كانوا غير ذي نفع ، و كان بديع هذا من أسرة منحلة غاية الإنحطاط ، فلقد كان أبوه يعمل حمالا و أجبر نقل في حي لإحدى الجاليات الدينية ، و المقدم نفسه متزوج من ابنة تاجر مستعرب ثري جدا ، و لكنه مجهول النسب و الأسرة ، أما سيرة هذا البديع لم تكن محمودة أبداً بين زملائه و اتهم عدة مرات بعلاقات نسائية مشبوهة ، و بالاشتراك في عمليات احتيال للإستيلاء على عقارات في منطقته و تمت لفلقة هذه القضايا بدعم من نسيبه التاجر ، و كان لأبي دور مهم في طمس هذه القضايا كونه كان حينها مستشاراً قضائياً كبيراً في وزارة العدل.

الثاني : المقدم عبد الصبور ، و كان من نفس مدينة بديع و من نفس الحي الذي تسكنه تلك الجالية الدينية ، و من نفس الطبقة المنحلة التي ينتسب إليها بديع ، و لكنه كان يتيماً و كانت أمه تعمل مغنية في الأعراس و ماشطة و ربتة مع أخيه بمعونة أهل ذلك الحي ، انضم للجيش بتزكية من أحد رجال الدين لتلك الجالية ، أما أبوه فمجهول الأصل و لا توجد في السجلات خانة لأسرته ، كان هذا الأب هو فقط المسجل في تلك الخانة ، أما سيرة عبد الصبور و سلوكه فلم تكن بأقل سوءاً من سيرة بديع.

عبد الصبور هذا لم يكن متزوجاً و كان معاقراً للخمر من الدرجة الأولى و عاشقاً مدمناً للغجريات و لياليهن الحمراء ، لدرجة أنه نصب مخيمات سريته - و هي سرية حرس حدود - بالقرب من مضارب بعض عشائر هؤلاء الغجر ، و كان يمنعهم من الرحيل و يحميهم حتى لا يغير عليهم البدو أو يتسلطوا عليهم ، و كان يفرض على البدو المتواجدين في منطقة سيطرته (هم من قبيلة ضعيفة) شراء احتياجاتهم من هؤلاء الغجر ، فوق ذلك كان يملك سيارة نقل كبيرة ، تنقل من سوق العاصمة

البضائع اللازمة للبدو ليبيها لهم العجر (نيابة عنه طبعاً) ، و تعود عربة النقل إلى مسلخ المدينة محملة بالغنم من مراع أولئك الأعراب الرعاة.

المقدم صويلح ، من مدينة جنوبية ، و هو مجهول النسب غامق اللون و تبدو عليه ملامح العجر ، رجل سافل بكل معنى الكلمة لا يعرف معنى للأخلاق أو الأدب ، قدم عدة مرات لمجلس تأديب بسبب اعتدائه اللفظية البشعة على رؤسائه و رؤوسيه ، و تمت معاقبته بعقوبات شكلية بفضل علاقات زوجته الواسعة ، فهو متزوج من امرأة جميلة و لها أصدقاء كثر ، و لكنها تفضل في نهاية المطاف البقاء إلى جانب صويلح ، هذا لم يمنعها من أن تجمع من صداقاتها ثروة محترمة من المجوهرات ، نسيت أن أقول أن صويلح كان عاشقا لتربية الحمام و تطيير أسرابه و له أصدقاء كثيرون من أهل هوايته.

الرائد زين ، و ينتمي إلى أسرة فلاحية متدينة و ثرية ، و لكنه غير متدين كبقية أقاربه ، درس في "أوربة" عدة أعوام و أنهى عدة دورات عسكرية ، متزوج من امرأة غير مسلمة و والدتها أوربية ، يتمتع بروح فكاهية تجعله محببا بين زملائه الضباط و رؤسائه و رؤوسيه ، و لديه خبرة جيدة في الاتصالات العسكرية ، مقامر مدمن و معاصر للخمر و محب للحشيش و لليالي الحمراء مع صديقات زوجته المهووسة بالجنس ، و هي تحب السهرات السرية المختلطة بجنون. سجله السلوكي المهني نظيف تماما ، و لكنه مراقب من بعض ضباط المخابرات الوطنيين.

الرائد منير ، من أسرة ريفية غنية و لكنها ليست أرستقراطية ، والده يعمل في تجارة الحبوب و السمن ، و نقل البضائع النسائية إلى الريف من المدينة ، درس منير المحاماة ثم التحق بالكلية العسكرية بناء على رغبة أبيه الطامح بالذوق بالطبقات العليا من المجتمع ، و هو متزوج من امرأة متدينة والدها من مشايخ الريف المعروفين ، و مع ذلك فإن لهذا الضابط ميول شيوعية و له أصدقاء يساريون كثر ، تعرض بسبب هذا للتحقيق مرة و لم تثبت عليه تهمة الانتماء للشيوعيين.

المقدم كامل ، رجل مثقف و متعلم جدا ، و لديه مؤلفات في العلوم العسكرية طبع أحدها ، أبوه نحاس من سكان المدينة و هو متزوج من امرأة مثقفة تعمل مديرة مدرسة و قفية للبنات ، و له زوجة ثانية من أسرة فقيرة من أقاربه هي أم أولاده الثلاثة ، لديه عقارات لا بأس بقيمتها ورثها عن والدته ، و هو ناقد جدا على الأرستقراطية الوطنية و يتهمها في مجالسه الخاصة بتشجيع الجهل و حماية التقاليد القديمة التي تسببت في وقوع البلاد تحت الإنتداب ، و مع ذلك لا يعادي دولة الإنتداب و يعتبر أن الإنتداب كان فرصة لتحقيق التقدم لم تستفد منها البلاد كما يجب ، دائم الإقتراض و الإحتياج للمال لسبب مجهول ، عرفته لاحقا فلقد كانت لديه مزرعة كبيرة بحاجة للاستصلاح كان يعدها لتقاعده.

اللواء أبو الحسن ، رئيس الأركان كان رجلا أرستقراطيا محبا للمرح ، و لكنه طموح و يعادي أبناء طبقته خاصة المتدينون منهم و ملاك الأراضي ، و يرى أن الطبقات الأرستقراطية الوطنية متحجرة و ترفض القفز بسرعة إلى مرحلة الرأسمالية الوطنية ، و يؤمن بأنه لا بد من هزة قاسية تجبر هؤلاء الأثرياء على تبني ثورية الغرب في تغيير الأمور .

بعد أن قرأت ملفات جميع الضباط و اخترت الستة آنفي الذكر للدائرة الضيقة ، خمنت بضباية الغاية من المهمة و لكنني لم أستطع أن أرسم تصورا شاملا لما سيحدث ، إذ أن ما حصل بعد ذلك كان أمرا غير متوقع نهائيا .

أرسلت بالبريد العسكري رسائل إلى كل واحد من الضباط المذكورين في قائمة جيمس لإستدعائه إلى قيادة الأركان ، و حددت لكل واحد منهم موعدا مختلفا بحيث ألتقي بهم منفردين ، و كنت مؤمنا بأن أحدا منهم لن يرفض عروضي السخية . و قبل أن يحل موعد لقائي بهم بأيام استدعيت أحد الخبراء الجامعيين و سألته عن أفضل من أستعين بهم لمهمة "قاتل مأجور" و مهمة "لص منازل" و حصلت منه على قائمة بأسماء عدد منهم كلهم في السجن ، مع القائمة وجدت ملخصا عن كل منهم ، لفت انتباهي أن معظمهم دخل السجن بسبب جرائم ارتكبوها مع شركاء لهم ، و لكنهم رفضوا أن يعترفوا بأسماء هؤلاء الشركاء رغم تعرضهم للضرب و لأحكام كبيرة ، و كانوا يرددون في التحقيق أنهم لا يخونون العهد مهما حصل ، و هذا الصنف هو ما كنت أحتاجه تماما .

اتصلت فورا بالضابط الأول في المخابرات الوطنية المذكور في ملف المهمة و اسمه النقيب "ريمون" و طلبت منه تدبير اجتماع لي بثلاثة من هؤلاء ، و بالفعل حدد لي موعدا للقائهم في السجن في اليوم التالي لطلي ، و اصطحني بسيارته إلى الموعد ، و اجتمعت بكل منهم على حدة دون أن أمر على إدارة السجن .

الأول كان اسمه "جلمود" ، قسماته تشبه اسمه فهو رجل شاب في أوائل العشرينيات ضخم كبير الرأس ، مفتول العضلات شارباه كبيران و يرتدي سروالا كورديا و صدرية على عادة هؤلاء ، بدأته بالكلام : هل تحب هذه البلاد ؟. قال : نعم أحب بلدي ، هل تريدون أن تحكموا علي بالنفي ؟. قلت : لا و لكن إن قلت لك و أنا ضابط الجيش أن البلاد بحاجة إلى قوتك و شجاعتك هل سترفض أن تخدم بلدك بقوتك ؟. قال : لا طبعاً و لن أتردد في دق عنق أي شخص يهدد البلد. قلت : اسمع أنت محكوم عليك بالسجن عشرين عاما لا تقامك بقتل صائغ مع شريك لك و سرقة مجوهرات ، و لم تعترف على شريكك. قاطعني بحدة قائلا : هل جئت لتستدرجني لأخون صديقي ؟. قلت : لا و لكنني جئت لأكون صديقا آخر لك لا تخونه و لا يخونك و لأخرجك من هذا السجن إلى الحرية لتعمل معي في حماية الوطن من الخونة الغدارين. قال : من شكلك يبدو أنك أفندي و لست تبدو ضابطا !. قلت : أنا ضابط في الشرطة السرية العسكرية التي تسمونها "تخري". و أبرزت له

هوية عسكرية و طبعا لم يكن يعرف القراءة و لا الكتابة ، قال : و هل سأرجع لأسكن في دارنا مع أمي و أهلي ؟. قلت : نعم بلا شك.

قال : روحي فذاك و فداء البلد. صمت قليلا ثم قال : هل ستعطيني أجره على عملي معكم ؟. قلت : نعم طبعا. قال : أنا خادمك يا أفندي و رهن إشارتك. قلت : نحن من الآن صديقان مد يدك لتصافحني. و صافحني بحرارة ، فقلت له : إن عصيت أوامري فلن تعود إلى هنا ، لأنك ستكون ميتا. هز رأسه موافقا و انتهت المقابلة .

بعد لقائي بجلمود التقيت بـ "سالم" ، شخص هو محتال و مزور و لص منازل كان رجلا نحيفا و شابا في العشرينيات و كان الحوار معه أيضا قصيرا و شبيها بـ "جلمود" ، و بعده اجتمعت بـ "بسطام" و هو بدوي من الصعاليك (قطاع الطرق) لا أسرة له ، و لم تثبت عليه التهمة و لكنه سُجن لشهرته و لمطالبة أهل منطقته بسجنه ، و أيضا عقدت معه اتفاقا شبيها باتفاقي مع سابقه.

بعد أن عدت من السجن توجهت إلى بيت أبي الجديد في العاصمة ، و كان قد أخذ بنصيحتي و انتقل إلى العاصمة ، بعد الغداء أعطيت والذي نسخا من ملفات نزلاء السجن الثلاثة و طلبت عفوا خاصا عنهم على وجه السرعة و أن يتم تسليمهم لي عند باب السجن ، و تم لي ما أردت بعد أيام قليلة.

عند باب السجن التقيت بالثلاثة ، و اصطحبتهم بسيارة مدنية مع حارس من مكتبي إلى مقر عملي ، و هناك كانت مائدة عامرة بانتظارهم ، و بعد الأكل أعطيت كلا منهم مبلغا كبيرا يكفيه لينفق منه شهرا ، و كنت قد استأجرت لكل منهم سكنا و أمرتهم بالتحول مع عائلاتهم إلى هذه المساكن ، و العودة إليّ بعد أسبوع واحد ، و حذرهم من الاجتماع بأحد قبل أن يلتقوا بي مجددا ، ثم أذنت لهم بالإنصراف فانصرف كل منهم إلى وجهته.

عادوا بالفعل بعد أسبوع ليخبروني بأنهم نفذوا المطلوب ، فأرسلتهم إلى مزرعة يملكها النقيب "ريمون" و هناك تولى هو تدريبهم على استعمال المسدس بشكل صحيح و استخدام كواتم الصوت ، و على استعمال الحقن القاتلة و القتل بأسلاك النحاس.

قابلت الفرسان الثلاثة (كما سميتهم) بعد مضي أسبوعين من تدريبهم في مزرعة النقيب ريمون ، و طلبت أن يجمع كل أحد منهم سبعة من أصدقائه الأوباش من مواصفات مقاربة لمواصفات فرساني ، بشرط ألا يعرف أي واحد منهم بقية زملائه و أن يستأجروهم ليراقب كل واحد منهم منزل أحد الضباط المذكورين في قائمتي ، و وزعت عليهم الأموال و عناوين الضباط و صورهم و رقم هاتف ليتصلوا به كل أربع ساعات لتلقي التعليمات و إعطاء ملخص عن المراقبة ، طلبت من الفرسان الثلاثة أن يفهموا صبيانهم بأن المخبرات تشك في أن أحدا يريد إيذاء هؤلاء الضباط و نريد حمايتهم دون إزعاجهم ، و

طلبت من فرساني أن يزودوني بتفاصيل كاملة عن هوية كل واحد من صبيائهم و أن لا ييخلوا عليهم بالمال ، انطلق الثلاثة فورا إلى وجهتهم.

لم يكن هؤلاء الفرسان يعرفون إسمي الحقيقي و ماتوا جميعا بعد عقود دون أن يعرفوا إسمي الحقيقي.

أثناء تدريب فرساني الثلاثة بدأت لقاءاتي مع الضباط جميعا و أخبرتهم جميعا بما يلي : لقد اختاركم اللواء أبو الحسن لتكونوا نواة لقوة ضاربة و متطورة في الجيش الوطني ، خطة بناء هذه القوة تقدم بها اللواء إلى الحكومة سرا ، و ينتظر فقط اكتمال التوافق بين كتل البرلمان عليها لتصبح رسمية و تنال الميزانية اللازمة ، من يوافق منكم فسينال رعاية اللواء و امتيازات خرافية و عطاءات سخية من معاليه . جواب الجميع كان الموافقة بسرور بالغ ، خاصة و أنني دفعت لهم مقدما و كان كل منهم يخرج من مكنتي ليتجه إلى مزرعة والدي في ضواحي العاصمة ليجتمع باللواء هناك و يضع يده في يد معاليه و ينال منه عبارات التشجيع و الإستحسان و بعض التعليمات بخصوص رموز التخاطب الخاصة بالخطة.

بعد أسبوع من الإتفاق مع الضباط تكاملت المعلومات عندي من فرساني الثلاثة عن مهمتهم و عن صبيائهم و بدأ المقدم "لويس" - و هو ضابط المخابرات الثاني المذكور في ملف المهمة - بتلقي مكالماتهم و الرد عليها و راح يرسل لي يوميا تقريرا مفصلا عن عمليات المراقبة مع سائقه الخاص ، لقد كانت تقارير مقرفة جدا و مليئة بالفصائح المعيبة جدا عن هؤلاء الضباط و زوجاتهم و أقاربهم ، و تأكدت من أن بيانات حقيقة جيمس عنهم دقيقة جدا.

و هكذا أتممت تنفيذ التعليمات كلها في أقل من شهر و نصف ، و أرسلت إلى جيمس برقية فيها كلمة واحدة : اشترينا.

لم يرد جيمس علي فورا ، و لكنني عرفت أنه بدأ فعلا بالعمل ، فلقد كانت مجموعات من سرايا ضباط المهمة تنتقل إلى مواقع إحتياطية في محيط العاصمة و تقيم فيها أياما قليلة ثم تعود إلى مواقعها الأصلية ، و كانت هذه الرحلات تتم باستدعاءات من رئاسة الأركان العامة تتضمن الإشارة للتحضير لمناورة كبيرة جنوب العاصمة.

بعد عدة أسابيع حضر جيمس إلى العاصمة ، و نزل في منزل صغير في حي شعبي لجلالية دينية ، و هناك التقينا مرة أخرى في أمسية صيفية جميلة ، تحت عريشة عنب تغطي باحة الدار جلسنا على مقاعد خشبية واسعة مغطاة بسجاد صوفي رقيق و بعد العشاء انصرفت الخادمة الجذابة إلى دارها و تركت لنا دلة من القهوة تفور على موقد فحم صغير ، ارتشفنا عدة رشقات حارة من فناجيننا و أشعل كل منا سيجارا و بدأنا الحديث الجدي ، قال لي : لقد تفوقت علي ، لم أتصور أبدا أنك ستشكل وحدة المراقبة للضباط من غير العسكريين هذا ابتكار عبقرى. ابتسمت بهدوء و قلت له : هؤلاء سنحتاجهم لاحقا و لن يتورعوا عن فعل أي شيء نطلبه منهم ، و لن يكلفنا التخلص منهم شيئا.

برقت عيون جيمس و نظر إلى بإعجاب و قال : نعم بالضبط هذا ما نحتاجه. ثم مد يده إلى تحت كرسيه و أخرج حقيبة أخرى تشبه الأولى ، و قال لي : افتح الحقيبة. فتحتها و إذا بها رزما كثيرة من العملة الأوروبية و عددا من سبائك الذهب الصغيرة و ملفا صغيرا هذه المرة.

قال : في أول الملف ظرف كبير محتوم افتحه و اقرأ ما فيه لأستمع إليك.

فتحت الملف و أخرجت ما فيه كانت صفحة واحدة مكتوب فيها : المهمة الثانية للنقيب مهراڻ : (1) في تاريخ يجب إرسال إستدعاء إلى السرايا التابعة للضباط الذين تم تجنيدهم في المهمة السابقة للإنتقال إلى مواقع تحيط بالعاصمة ، و يجب أن يحضروا معهم كافة المركبات الموجودة في مواقعهم و كل ما لديهم من الذخائر الحربية.

2- في صباح اليوم التالي لإكمال وصول السرايا و في الساعة الرابعة صباحا تقوم هذه السرايا بإستلام مواقع الحراسة الخاصة بكافة المباني الرسمية في العاصمة بموجب أوامر خطية من قيادة الأركان يستلمونها قبل التنفيذ مباشرة.

3- في نفس الوقت تتوجه ثلث القوات المحتشدة بموجب هذه المهمة إلى منازل أعضاء هيئة الأركان العامة للجيش و منازل الوزراء و النواب و تتسلم الحراسة عليها بأوامر خطية مشابهاة.

4- تتم عمليات الإستلام وفق قواعد إشتباك مفتوحة تسمح بإطلاق النار على من يعارض أوامر قيادة الأركان العامة.

5- يتم تسليم جميع آمري السرايا المستقدمة أجهزة إتصال لاسلكية تعمل على موجات مغايرة للموجات المستعملة من بقية قوات الجيش و الشرطة في تلك الليلة و في الصباح التالي.

6- يتولى النقيب مهراڻ تنسيق المهمة مباشرة ، بالتشاور مع اللواء و غرفة العمليات.

بعد أن انتهيت من القراءة نظرت إلى جيمس ثم قلت : يجب أن نؤمن مكانا آمنا نلجأ إليه إن ساءت الأمور. قال : لا تخف توجد وحدة خاصة من جيش دولتنا ستكون متمركزة في مكان غير مأهول قريب من العاصمة في ليلة التنفيذ ، و سترتدي أنت زي جيشنا تحت معطف مدني طويل، و ستكون معك سيارة تحمل لوحات دبلوماسية لبعثة أوروبية ، و سأكون حاضرا في غرفة العمليات أدير كل شيء. عدت إلى بيتي بعد السهرة الطريفة و نمت كالطفل ليلة العيد.

مرت الأيام بسرعة و أكملت كافة الإتصالات و استلمت من الميناء أجهزة الإتصال ، و سلمتها للضباط ، ثم جربناها و ثبتنا المخطط الرئيسية في منزل خاص قريب من قصر رئاسة الدولة ، و سلمت الضباط دفعات من الأموال من حقيبة السعادة و وقع كل منهم على إقرارات بالإستلام راضيا قانعا طامعا بالمزيد ، لم يعرف أي منهم شيئا عن المهمة سوى أنها : مناورة تدريبية ضمن خطة سرية.

العجيب أن السرايا كلها انتقلت إلى المواقع المحددة حول العاصمة على مدى أسبوع دون أن يسجل أي اعتراض سوى بعض البرقيات من مفارز المخابرات العسكرية قام المقدم لويس و النقيب ريمون بإخفائها ، و لم يعكر صفو عمليات الإنتقال سوى تنبه أحد الضباط الكبار هو العقيد كمال قائد لواء متمركز شمال البلاد إلى عملية النقل ، فاتصل بقيادة الأركان فتم استدعاؤه إلى العاصمة على عجل لتبين الأمر منه ، و بالفعل خرج فور إنهاء مكالمته مع اللواء من مكتبه إلى سيارته التي انطلقت به إلى طريق العاصمة ، ثم لم يصل إلى أي مكان أبدا.

بعد اكتمال العدد و التمرکز ، و في ليلة تنفيذ الفصل الأخير من الخطة لبست بدلة الجيش الأوربية و ركبت السيارة الفخمة التي أحضرها جيمس معه ، كانت تحمل لوحات دبلوماسية و علما أوربيا و فيها عدة أجهزة لاسلكي و رشاشا و عددا كبيرا من القنابل و مخازن الرصاص و كنت أقودها وحدي و اتجهت بها إلى موقع قريب من المنزل الذي فيه غرفة العمليات.

فتحت الجهاز الأول على القناة المتفق عليها مع غرفة العمليات التي كانت في المنزل الذي وضعنا فيه محطة اللاسلكي ، في المنزل كان الضباط الخمسة المختارين للقيادة مع اللواء في غرفة ، و كان جيمس في منزله يتابع الأمر مباشرة مع اللواء على جهاز و تردد خاص و معي على جهاز و تردد آخر ، و كان العمل يسير هكذا : أنا أتصل بقيادة القوات الميدانيين و أعطيهم الأوامر و أتلقى منهم تقارير التنفيذ و أكررها على جهاز الإتصال مع جيمس ، و كان جيمس يخبر اللواء بكل ما يصل إليه مني ، بينما كان اللواء و الضباط يشربون القهوة و يتابعون الأخبار بالاستماع إلى اتصالاتي على نفس الموجة دون تدخل إلا أن أطلب منهم ، و لم أحتج إلى أي منهم في أي شيء.

بدأت أصوات ضباط السرايا الأعوان ترد إلي ، و رحت أوزع الأوامر و أستلم تقارير التنفيذ و أنتقل بالسيارة من موقع إلى موقع ، بدأنا بمجلس النواب و بمنازل أعضاء هيئة الأركان ، و استولينا على المحارس دون اعتراض يذكر ، و بعدها مباشرة بدأت عملية تسلم حراسات القصر الرئاسي ، و نفذت بسهولة و في الساعة الخامسة و خمسين دقيقة صباحا اكتمل الإستيلاء على كل المراكز المطلوبة و آخرها كان مبنى الإذاعة الرسمية.

الذي سهل الأمر أنه لم تكن هناك قوات متخصصة لحراسة هذه المباني ، كانت كلها تتبع قيادة الحرس الوطني و هي فرع من الجيش و كان اللواء قد تولى قيادتها بنفسه نظرا لسفر قائد لواء الحرس إلى أوربة لحضور حفل موسيقي كبير دعاه إليه البارون إدموند !.

في الساعة السادسة صباحا ، انتهت تلاوة القرآن التي تبثها الإذاعة ، و بدأ عزف النشيد الوطني ، و بعدها خرج صوت مذياع الإستعراضات العسكرية الجمهوري الأجلش عبر المذياع قائلا : بيان صادر من قيادة الجيش : أيها المواطنون الكرام

بعد ثلاثة أعوام من جلاء قوات الإنتداب الأوربية عن الوطن ، تسلمت دفعة الحكم على التوالي حكومتان بتفويض من مجلس النواب ، و فشلت الحكومتان في تحقيق أي تقدم أو تغيير نحو الأفضل على كافة الصعد الإقتصادية و لقد تسبب هذا الفشل في أزمات حقيقية ساهمت في زيادة معاناة شعبنا الذي عانى طويلا في ظل الإنتداب ، فلا الفقر عولجت أسبابه و لا انخفضت معدلات انتشاره ، و لا تزال الجريمة تنمو و الحالة الأمنية تتردى ، و لم يحقق نواب الكتل أي اتفاق و لو في الحد الأدنى على خطة حكومية تضع البلاد على أعتاب تقدم حقيقي يأمله الشعب ، بل فشلت هذه الكتل حتى في تثبيت حكومة مستقرة تستطيع أن تحكم البلاد دون تجاذبات تعرقل عملها.

و بسبب هذا قررت قيادة الجيش و القوات المسلحة أن تأخذ زمام المبادرة لوضع حد لاستهتار السياسيين بمعاناة الأمة و بتطلعاتها نحو التقدم ، و في صبيحة هذا اليوم المبارك استولت القوات المسلحة على السلطة و على كافة مقرات الحكم الرسمية و أصدرت قيادة الجيش التعليمات التالية :

1- منع التجول في كافة أرجاء البلاد حتى صباح يوم الغد .

2- إقالة مجلسي النواب .

3- إقالة الحكومة .

4- إقالة رئيس الدولة .

5- تعليق العمل بالدستور .

6- إعلان حالة الطوارئ الوطنية .

7- تنصيب رئيس الأركان العامة للجيش حاكما عسكريا للبلاد لفترة ستة أشهر إنتقالية تهدف للإعداد لإنتخابات تأسيسية عامة لمجلس وطني جديد لنواب الأمة .

8- نهي بالمواطنين الحفاظ على الهدوء و الطاعة للنظام العام و القوانين المرعية .

انتهى البيان .

قبل إذاعة البيان كانت قوة تابعة للواء قد اعتقلت كل أعضاء قيادة الجيش و كل النواب و رئيس الدولة و كل الوزراء و جرى نقلهم إلى القلعة في وسط العاصمة و احتجزهم اللواء في قاعة كبيرة معصوبي الأعين و مقيدي الأيدي و الأرجل ، و كانوا كلهم بلباس النوم و تفوح منهم روائح البخور و العطور النسائية الفواحة ، و راحوا يهتفون برعب عاش الزعيم .

بعد إذاعة البيان راحت الإذاعة تبث الأناشيد الوطنية و تلاوات من القرآن ، و في كل ساعة كان المذيع يكرر قراءة البيان و استمر الحال هكذا طوال ساعات البث الثمانية الأولى و في فترة المساء أيضا .

أما العاصمة فكانت مدينة أشباح حقيقية ، و لكن الناس خرجوا إلى المساجد للصلاة و لم يحتك أحد منهم بسيارات الجيش التي كانت تقف عند مفارق الطرق الكبيرة ، و أستطيع أن أقول أن الجميع كان مذهولا مما حصل و الأكثرية الساحقة لم يفهموا شيئا من البيان و لم يعرفوا أبعاد ما حصل لقد كانت أول عملية استيلاء على السلطة يقوم بها جيش في سائر بلاد العرب منذ قرون عدة ، و كنت أنا بلا فخر منسقةا و مهندسةا التنفيذي.

في الساعة العاشرة صباحا عدت إلى بيتي و تناولت كأسا من اللبن و نمت لساعات عدة لقد عرفت أن الأمور ستسير على ما يرام ، استيقظت على رنين الهاتف ، كانت مكالمة من مكتب اللواء يطلب حضوري إلى مبنى القصر الرئاسي فورا .

لبست بسرعة و حملت زوجتي و طفلي في سيارتي الدبلوماسية التي قادت منها العملية العسكرية ليلة أمس ، أوصلتهما إلى دار أهلي ، أخبرني أخي أن أبي قد سبقني إلى القصر بسيارة اللواء ، تابعت السياقة في الشوارع المقفرة و عند الحواجز كنت أعطيهم كلمة السر و هي "نجم سهيل" ، أعطيتها لكل الضباط و ضباط الصف الذين اشتركوا في العملية ، و عند باب القصر كان أبي ينتظري بصحبة المقدم بديع ، دخلنا جميعا إلى قاعة الاجتماعات الخاصة ، كان جيمس و جميع الضباط موجودون و كان اللواء جالسا يدخن ، و الهَمَّ بادٍ عليهم جميعا .

بادرني اللواء بالكلام قائلا : لقد تلقيت منذ ساعة إتصالا خطيرا من "خليل باشا" زعيم العشائر الشمالية ، و كان غاضبا جدا و شتم ضابط الإتصالات و توعدنا بقطع رؤوسنا جميعا !.

خليل باشا هو زعيم العشائر الشمالية و هي عشائر قوية و متماسكة ، و لقد قاتلت في الماضي ضد الإنتداب الأوربي و لم تتوقف عن القتال إلا بسبب النقص في العتاد و أجبرت الدولة المنتدبة على توقيع اعتراف بسيادة جزئية لبلدنا منذ عشرين عاما ، و خليل باشا الرجل المتدين جدا هو الراعي و الضامن لكل سياسي و ضباط منطقته الواسعة و هم بالمئات ، و على رأسهم ربع المعتقلين في القلعة .

سأل والدي اللواء : هل تحدثت معه ؟. قال : لا لقد اعتذر إليه رئيس المكتب بأنني في جولات ميدانية . قال أبي : الأمر سهل اتصل به أنا سأكلمه . قال اللواء و هو ينظر لجيمس : من أجل هذا طلبت مني ألا أرد الإتصال لخليل باشا ؟. ابتسم جيمس و قال : لا تقلق الأمر لا يدعو للخوف و القلق .

جلست أنا في حجرة بدالة الهاتف و اتصلت بهاتف خليل باشا ، رد الباشا على الإتصال بنفسه بسرعة قائلا : ماذا يجري عندك يا مصطفى بك ؟ قلت له : أنا لست مصطفى بك عمدة العاصمة أنا رئيس مكتب اللواء رئيس الأركان العامة و هو

يريد التحدث إلى معاليكم . صمت قليلا ثم قال بلهجة شمالية و بنبرة عادية : نعم أهلا و سهلا. دققت جرس غرفة مكتب الرئيس ، كان والدي على الطرف الآخر و بعد أن رفع السماعه وصلت المتكلمين ببعضهم و جلست أتنصت على الحوار :

قال أبي و كان صوته و لهجته قريبان جدا من لهجة اللواء : السلام عليكم يا معالي الباشا. قال الباشا : و هل تركت فيها سلاما يا أبا الحُسن؟. قال أبي و هو يتظاهر بأنه اللواء : السلام لله يا باشا. قال الباشا : ماذا حدث حتى تحتل العاصمة و تمين أصحاب المقامات و تنزل أولادنا بسلاحهم إلى الشوارع ؟ هل ترانا اشتقنا لذكريات الإنتداب أم تريد أن تحل أنت محل الإنتداب ؟. قال أبي : لا تذهب بعيدا يا باشا أنا لم أحتل العاصمة ، لقد فعلت ما لو كنت أنت مكاني لفعلته تماما ، لقد بلغ السيل الزبي من تصرفات الحكومة و النواب ، هل تعلم أن ميزانية الأركان لم تصرف منذ شهرين ؟ و أنني استندت رواتب الجيش و ثمن الإطعام و الوقود من المصرف المركزي بسندات و فوائد ؟ هل تعلم أن تردّي الأمن في الجنوب و الشرق وصل إلى حد سرقة السلاح من ثكنات الجيش في بعض الأماكن ؟ هل تعلم أن الشركات التي تعاقدنا معها على تسليم ذخائر و معدات الجيش توقفت عن تسليم شيء لأننا لم ندفع ؟. قال الباشا : في كل البلدان تحصل أزمات سياسية و يعرقل النواب إقرار الميزانيات و ما حصل كان أمرا عاديا لا يستوجب هذا التمرد. قال أبي : تفضل إلى العاصمة و تسلم زمام السلطة و أخرج البلد من هذه الأزمة ، أنا أردت فقط أن ينحل مجلس النواب و يعاد انتخاب مجلس جديد ، و طلبت هذا من رئيس الدولة عدة مرات فرفض متعللا بأن ما يحصل طبيعي ، لو اتصلت يا صاحب المعالي بجميع السياسيين و البكوات و الباشوات في البلد لأخبروك بأن حلّ المجلس النيابي هو المخرج الوحيد من المشاكل الحالية.

قال الباشا باستغراب : لا أعرف أن لديك اهتمامات سياسية يا أبا الحُسن ، هل تغيرت اهتماماتك في الأعوام السابقة ؟. قال أبي : و لا زلت لا أهتم للسياسة ، و لكن جنودي مثل أولادي و أنت تعرف تربص الدول المجاورة بنا ، سلاح الجيش ضروري كالحبز تماما و لن أفرط في أمن الدولة بأسرها لأجل اختلافات و مجادلات فارغة بين النواب. قال الباشا : و ما مصير الذين تحتطفهم في القلعة ؟. قال أبي : أنا لا أختطف أحدا هم في الحفظ ريثما تهدأ الأمور و سيعودون إلى بيوتهم و أحزابهم و حتما سيعود بعضهم ليحكم البلاد بعد الإنتخابات و سيشكروني و يشكرك الجميع على هذا العلاج الناجع لعناد الكتل النيابية. قال الباشا بلهجة هادئة جدا : متى تطلقهم ؟. قال أبي : بمجرد أن نسمع صوتك على الإذاعة و أنت تؤيد بيان الجيش أو تعلن عن تسلمك لزمام الأمور. قال الباشا : سأفكر و أرد عليك بعد ساعة ، في أمان الله. قال أبي : بانتظارك.

لم يكن اللواء يستمع للمكالمة و لم يسمح له البارون جيمس بالتدخل لأنه لن يستطيع أن يقول جملة واحدة كتلك التي قالها أبي نيابة عنه ، لقد لعبها أبي بحرفية نادرة فخليل باشا رجل في العقد الثامن من عمره و لا رغبة له في السلطة و هو رجل ثري جدا يدير أملاكه بنفسه و لديه أسرة كبيرة و اهتمامات عشائرية تجعل من تسلمه للسلطة عبئا ضخما عليه ، و لعل ما

سيزيد نفوره من قبول تسلم السلطة هو المكالمات و المطالبات التي انهالت على ديوانه من البكوات و الباشوات و أصحاب المعالي و حكام المقاطعات و التي التقطتها المخابرات العسكرية و أخبرتنا بها لاحقا ، كل المكالمات و المطالبات كانت مرتبكة و لا تحمل أي مخرج للأزمة سوى ما سيؤدي إلى اقتتال الجيش و هذا آخر ما يرغب به شيخ كبير كخليل باشا الذي أعرفه جيدا و يعرفه أبي جيدا ، و يعرفه جيمس أيضا بشكل تام.

بعد ساعة و نصف مرت ثقيلة جدا اتصل خليل باشا ، و قمت فورا بتوصيله بأبي (المفروض أنه اللواء) و قال الباشا : السلام عليكم.

قال أبي : و عليكم السلام و رحمة الله حياك الله يا باشا. قال الباشا : يا أبا الحسن أظن أن الأمر سيسير كما طلبت و هذا هو الأفضل للجميع و لكن لي شرطان : الأول أن تطلق سراح جميع أصحاب المقامات فور إنهاء المكالمات ، و الثاني أن تتحدث أنت في الإذاعة مباشرة في خطاب ، و تؤكد فيه على الدعوة للإنتخابات و استمرار صرف المرتبات كما هي و الإبقاء على الحكومة لتصريف الأعمال ، و أنك ستتقاعد في الصباح التالي لإعلان نتائج الإنتخابات.

قال أبي بسرعة : و أين تأييدك ؟ لن أفعل شيئا إلا بعد حضورك للعاصمة و سأعطيك استقالي فور وصولك.

قال الباشا : لا أريد تسلم السلطة لو أردت أن أحكم لكنك الحاكم منذ الإستقلال ، و لن أصل للعاصمة قبل مساء الغد لا أريد أن تسوء الأمور أكثر.

قال أبي بصوت مستريح جدا : سأعطيك حالا : سنطلب من الإذاعة التحدث مع معاليك غدا صباحا ، و سينام جميع أصحاب المقامات الليلة في فندق العاصمة الكبير و سألقي الخطاب كما طلبت تماما بعد اللقاء معك بربع ساعة.

قال الباشا : حسناً هذا حلّ طيّب إلى الصباح إذا و سأصل برئيس الدولة في فندق العاصمة.

قال أبي : الرئيس "السابق" يا معالي الباشا أليس كذلك ؟.

قال الباشا : نعم السابق نعم السابق ، بعد ساعتين يا فخامة الرئيس المؤقت اتصل بي من الفندق.

قال أبي و قد اتخذ لهجة المهموم : نعم نعم أعاننا الله على هذه الفترة العصيبة ، سأفتقد مزرعتي و صيد البط و سأبتلى بالهم.

قال الباشا ضاحكا ! : لا تهتم فترة و تمضي و تعود إلى الحياة الطبيعية و هي فرصة أيضا للتمتع بتقاعد مبكر.

قال أبي : أرجو ذلك أرجو ذلك.

بعد المحاكمة تركت أبي ليخبر جيمس بما حصل من نجاح كبير ، اتجهت فوراً بصحبة المقدم بديع إلى القلعة ، و أمرت الحرس بحمل مدفع رشاش ضخمة و الدخول إلى قاعة المعتقلين و كان أكثرهم قد بال على نفسه لأن الحرس منعهم من دورات المياه ، دخلت إلى القاعة و قد تلثمت و وقف إلى جانبي بديع و هو يرتعد ، همس إلي : لن ننجو من هذه الفعلة ! . قلت له بحزم و بصوت خافت : احرص يا جبان.

ثم وقفت و قلت للجميع : لقد أصدر عليكم الجيش و الشعب حكماً بالموت ، و أنا هنا لأنفذ الحكم ، و وقفت وراء الرشاش الضخم و أطلقت منه عدة طلقات في الهواء ، بدأ الجميع بالصراخ و البكاء و منهم من جدد تبوله على نفسه و صار المنظر مضحكا جدا ، لدرجة أنني كدت أنهار و أضحك ، تمالك نفسي و صرخت فيهم : احرصوا يا نسوان. صمتوا جميعاً و هدأ النحيب ، قلت لهم : الفرصة الوحيدة أمامكم للخروج أحياء من هنا هي : أن يوقع كل منكم على إقراره بالاستقالة من منصبه و يبصم عليها مع التوقيع على وثيقة أخرى بالتنازل عن جميع الأملاك لصالح إدارة الضرائب كتبرع لتسديد ديون الدولة ، اطمئنوا لن نستعمل الوثيقة الثانية و لكنها ستبقى معنا احتياطياً في حال أنكر أحدكم الوثيقة الأولى ، و طبعا صوركم و أنتم في ضيافتنا ستكون جاهزة للتوزيع على الصحف.

لقد كان جيمس قد أعد فريق تصوير سينمائي سجل عملية الإعتقال كلها من ردهة القاعة ، و هذه فكرة لم تخطر في بال أحد من هؤلاء.

وقعوا جميعاً على الوثائق التي كتبوها في مكتب الحرس دون اعتراض ثم تم نقلهم إلى سجن وزارة الدفاع ، و نقلت رئيس الدولة "السابق" بسيارتي مقيداً بمفرده إلى فندق العاصمة ، هناك كان أبي و اللواء بانتظاره ليلقنوه ما الذي يجب عليه قوله لخليل باشا بالحرف الواحد ، و كان الرجل متعاوناً جداً أولاً لخوفه الشديد و ثانياً لأن رائحة بوله كانت تجعله في حالة من الخجل و الارتباك لم يشعر بها في حياته أبداً خاصة و أنه كان يمر على حرس و جنود في طريقة إلى جناحه في الفندق.

تم الإتصال مع خليل باشا و انتهى بسلام ، الرئيس (المخلوع أو المستقيل) كان يتحدث بتعب و اختصر الكلام و أثنى على اللواء و خطوته و قال أنه كان يتمنى أن يحل البرلمان و لكن الضغوط الهائلة كانت تمنعه.

بت ليلتي في الإذاعة و في صباح اليوم التالي ، اتصلت أنا بخليل باشا و قدمه المذيع بعد افتتاح البث و قراءة بيان قيادة الجيش مجدداً ، تحدث الباشا بكلام مقتضب و أثنى على اللواء و شكر الجيش على حماية البلاد في هذه الأيام العصيبة و طلب من الجميع التزام الهدوء حتى انجلاء هذه الغمة. بعد كلمة الباشا بدقائق قام المذيع بتقديم أبي على أنه اللواء أبو الحسن فألقى خطاباً رائعاً استمر لدقائق و كان خطاباً مؤثراً جداً ، لدرجة أن عيناى اغرورقتا بالدموع و بكى الجنود و

الحرس و الحاضرون و دمعت عيون جميع أبناء الشعب فرحا و تعاطفا مع البطل المخلص المنقذ "أبو الحُسن" ، و هكذا مر الانقلاب بنجاح منقطع النظير .

كثيرة هي المشاكل التي يجب تذليلها قبل أن تستتب الأمور للزعيم الجديد ، و أكبرها مطلقا هو خليل باشا ، أما بقية الأرستقراطيين فلم يكن اعتراضهم يشكل الكثير من الخطر ، فالقادة العسكريون من أصحاب المعالي الباشوات و البكوات أكثرهم في معتقل وزارة الدفاع و مستقيلون ، إلا أن هذه الإستقالات قد تصير بلا قيمة إذا وصل خليل باشا إلى العاصمة ، و سيتحول النجاح إلى فشل ذريع و سيعقبه حمام دم يغرق كل شيء .

لم تنقطع المراقبة عن منزل خليل باشا و منزل ابنه رأفت بك صاحب أكبر مصانع الغزل و النسيج في الشمال ، و كان لا بد لنا من حل مشكلة خليل باشا ، طبعاً لم تفت عقدة هذا الرجل على جيمس و كان حلها جاهزاً عنده .

في مساء اليوم الثاني للاستيلاء على السلطة اجتمعت مع جيمس في إحدى قاعات القصر الرئاسي ، و حددنا تفاصيل خطة الخلاص من الباشا و ابنه رأفت بك ، و بدأ التنفيذ فوراً ، قمت في صباح اليوم التالي بإرسال برقية مستعجلة إلى منزل الباشا تعلمه بأن مبعوثاً رسمياً من قيادة الجيش سيحضر للقائه على وليمة غداء في حاكمية العاصمة الشمالية في ظهر ذلك اليوم و سيسلمه ملفاً سرياً خاصاً ، و أن الموفد انطلق فعلاً .

و في نفس الوقت أرسلت إلى حاكمية عاصمة الشمال برقية مماثلة بالاستعداد لعقد وليمة غداء لاجتماع هام بين مبعوث من الرئيس الجديد و بين الحاكم المحلي في مبنى الحاكمية بحضور خليل باشا و ابنه رأفت بك و ذلك في منتصف اليوم .

تحركت سيارتان فخمتان من سيارات الرئاسة ، الأولى انطلقت قبل الفجر كانت تضم المقدم بديع و معه حارسان و بحوزته رسالة مطولة تتضمن تفاصيل عن الاستعصاءات السياسية التي سبقت العملية و موجهة إلى خليل باشا ، و الثانية انطلقت ليلاً و كانت تضم "بسطام" و معه النقيب ريمون .

في منتصف اليوم التالي وصلت السيارة الأولى إلى مبنى الحاكمية و دخل بديع و مرافقوه إلى مكتب الحاكم ، و ما إن اتخذوا أماكنهم حتى بدأوا بالسؤال عن خليل باشا و ابنه رأفت بك ، أخبرهم زاهر بك حاكم عاصمة الشمال أن الباشا آت لأنه اتصل به في الصباح و أخبره أنه سيحضر و سيكون معه عدد من وجهاء المنطقة .

أما السيارة الثانية فلقد وصلت قبل طلوع الفجر إلى منتصف الطريق الذي يربط قصر خليل باشا بالطريق العام نحو عاصمة الشمال ، و نزل منها النقيب ريمون و معه "بسطام" و زرعاً أربع عبوات ناسفة على جانبي الطريق و ربطاها بجهاز التفجير و مدّاً الشريط إلى أجمة من الشجر قريبة من مكان التفجير و انتظروا حتى طلع الفجر ليفترقا بحيث يرى أحدهما الآخر فبقي بسطام عند جهاز التفجير و انطلق النقيب ريمون بالسيارة ليركنها على مسافة بعيدة عن العبوات و قريبة من الطريق العام و

أغلق أبواب السيارة و أرحى ستائرها و جلس قريبا منها يراقب بالمنظار العسكري ، مرت عدة عربات و سيارات داخلية إلى قصر الباشا ، و في حوالي العاشرة صباحا خرجت سيارة واحدة فخمة من بوابة القصر تحمل أربعة أشخاص و يقودها رأت بك ابن خليل باشا الأكبر ، و عندما اقتربت من العبوات أعطى ريمون الأمر لبسطام بطلقة من مسدسه في الهواء ، تباطأت السيارة لأن رأت بك انتبه لصوت الرصاصة ، و لكنها دخلت بين العبوات الأربع و دوى الانفجار ، طارت السيارة في الهواء و سقطت رأسا على عقب و تدرجت في حقل محروث على جانب الطريق ثم اشتعلت فيها النار بضراوة ، انطلق ريمون بالسيارة إلى موقع الانفجار و تأكد بمسدسه من أن أحدا لن ينجو ، قفز بسطام إلى سيارة ريمون و معه جهاز التفجير و ما قدر على سحبه من الأسلاك و قاد ريمون السيارة إلى مزرعة قريبة من العاصمة الشمالية ، هناك أمضى النهار مع بسطام و في المساء عاد إلى العاصمة.

هرع سكان قصر الباشا إلى موقع الانفجار و لكنهم لم يعرفوا أنه قد أتى على سيارة سيدهم إلا بعد نحو من ساعة من تجمعهم حول السيارة المحترقة ، و لم يفهموا ما الذي حصل لأن حوادث من هذا القبيل لم تحصل في الماضي في بلادنا ، و لأن النقيب ريمون قطع عنهم خط الهاتف و البرقيات لم يصل خبر مقتل خليل باشا إلى زاهر بك إلا بعد ساعات طويلة.

ظن سكان القصر أولا أن سيارة سيدهم انقلبت ثم انفجرت ، و في المساء عندما حضر المحقق العسكري من العاصمة الشمالية و معه زاهر بك و المقدم بديع ، انتبه المحقق إلى الحفر التي خلفتها العبوات ، و طلب مزيدا من التحقيق في اليوم التالي ، و بالفعل في صباح اليوم التالي حضر خبير عسكري بالعبوات الناسفة و أكد أن انفجارا حصل ، و هو الذي أودى بسيارة الباشا و ركبها.

في أثناء ذلك كان اللواء قد أمضى يومه الثالث في الاجتماعات مع سجنائه من أركان الحكومة السابقين و مع زعماء الكتل النيابية و أعضاء قيادة الجيش ، و قدم لهم ملفات مليئة بالتهم و أخبار الفضائح التي تورط فيها كل واحد من هؤلاء ، و كان الثمن المطلوب لستر الفضائح هو تأكيد الإستقالة دون رجعة و دون شروط ، و لم يجد معظمهم بدّا من الموافقة.

في مساء ذلك اليوم وصل خبر اغتيال خليل باشا من المقدم بديع ، فأمر أبي بأن ينقله السجنانون لأصحاب المقامات المحجوزين ، فسقط في أيدي هؤلاء خاصة و أن رأت بك قتل أيضا ، و أن كافة القطاعات العسكرية و قيادة الشرطة تستجيب لأوامر الأركان دون تردد و بشكل اعتيادي تام ، فلا أمل إذا في إعادة الأمور إلى ما كانت عليه ، و مع ذلك لم يستوعب عدد من هؤلاء ما حصل و بقوا على رفض ابتزاز اللواء لهم.

في صباح اليوم التالي ، بدأ البث الإذاعي بتلاوة للقرآن ثم ببيان تلاه أبي (على أنه اللواء) ينعي فيه إلى البلاد بطل حرب الإستقلال خليل باشا الذي قتله أعداء البلاد عقابا له على تأييده و مشاركته لـ "ثورة الأمة" التي قام بها الجيش نيابة على

الشعب ضد فساد السياسيين و استهتارهم ، و أعلن عن تسمية الشارع الرئيسي في العاصمة باسم الشهيد الفقيد و عن تسمية حي كبير في عاصمة الشمال باسمه أيضا ، و عن الحداد ثلاثة أيام و عن رفع منع التجول ليلا في كافة أرجاء البلاد و عن رفع الحظر على صدور الصحف و المنشورات الدورية.

توقفت الإذاعة عن بث البرامج العادية و صارت تبث فقط تلاوة القرآن و الأناشيد الحماسية ، طوال اليوم الأول و الثاني و في اليوم الثالث عادت لبث برامجها و كأن شيئا لم يكن.

قيدت حادثة الإغتيال ضد مجهول ، و أقسم أبو الحسن أمام جلسائه مغلفات الأيمان بأنه لن يستريح حتى يأخذ بثأر خليل باشا من الذين غدروا به و قتلوه .

بعد حين وقع جميع أصحاب المقالات على استقالاتهم و تم إطلاق سراحهم تباعا على مدى شهر كامل و وضع قادتهم قيد الحراسة في بيوتهم ، و غادر رئيس الدولة الأسبق إلى أوروبا بهدوء ، و لم يعد بعدها أبدا.

أصدر اللواء قرارات استبدال فيها كل حكام الأقاليم بضباط من الذين شاركوا معه في "ثورة الأمة" و عين حكومة عسكرية من ستة وزراء فقط هم أصحابنا بديع و عبد الصبور و صويلح و زين و منير و السادس كان اللواء نفسه الذي احتفظ بحقيبة الدفاع ، و سمى الحكومة باسم "مجلس الحكم" ، الواقع أن هؤلاء الضباط كانوا مجرد مهرجين و دمي لا يعرفون شيئا عن عمل الوزارات التي تسلموها بينما تولى أمناء عام الوزارات تصريف أعمال المؤسسات و الوزارات التي كانت عشرين وزارة ، هؤلاء الأمناء كلهم كانوا من طائفة المقدم لويس ، و كلهم كان تعيينهم يعود إلى زمن الإنتداب ، و هم يتلقون رواتبهم و أوامرهم من البارون إدموند عبر سفارة دولة الإنتداب الأوربية.

أما قيادة الجيش الجديدة فكان نصفها من الأرستقراطيين أصحاب المعالي و النصف الآخر من أبناء الطبقة الوسطى و العامة.

هذه التعيينات جاءت كلها من البارون جيمس و كانت قد أعدت مسبقا ، تولى بموجبها أي المنصب الأهم في البلاد و هو منصب المفوض العام القضائي لمراقبة المنشورات و الصحافة.

بقيت أنا في مكنتي و لكنني كنت أداوم يوميا في مكتب أمين عام رئاسة البلاد و اجتمع يوميا مع اللواء و أبي و البارون.

لقد استقرت الأمور تماما.

سافر البارون إلى أوربة بصحبة القوة التي كانت أرسلتها دولته كاحتياط و كانت متمركزة في البادية قريبا من العاصمة قبل و خلال عملية الإستيلاء على العاصمة ، غادر أفراد هذه القوة البلاد من الميناء بلباس مدني ، ذلك أنهم تركوا معداتهم الثقيلة و الخفيفة هدية للقوة التي تشكلت في الجيش تحت اسم "الحرس الرئاسي" ، كان قوامها لواء محمول مدرع و مدعوم

بالمدفعية المتوسطة ، طبعا احتفلت القوة مع البارون جيمس في قصر اللواء بنجاح مهمتهم ، حضرت الإحتفال الصاخب مع الوزراء الخمسة الجدد و عدد من الرافصات العجريات اللواتي أشرف معالي الوزير صويلح على اختيارهن و تنظيفهن للنشاطات التي تعقب الجدول الرسمي ، كانت حفلة رائعة حقاً استمرت حتى ما بعد الفجر .

المهمة الثانية

بعد مهمتي الأولى بشهر واحد سافرت إلى أوربة باستدعاء من البارون ، هذه المرة سافرت بالطائرة و بجواز سفر دبلوماسي ، لكنني لم أنزل ضيفا على سفارتنا و إنما اتجهت فوراً إلى قصر البارون جيمس ، كان ينتظري و احتفى بحضوري كثيراً هذه المرة.

بعد ليلة الراحة تناولت الإفطار على مائدة البارون ، و تبادلنا الأخبار ثم انتقلنا إلى المكتب لنقابل شخصا مهما جدا ، لقد كان هذا الشخص يحمل لقباً نبيلاً و لكنه لم يكن أوربياً لا في شكله و لا في لهجته ، و كان يشبه والدي و كأنه من أسرنا.

بدأ الرجل حديثه معي : ميجر مهرا (كنت قد ترفعت رتبة) لقد كانت عملية نقل السلطة للواء أبو الحسن مقدمة لبرنامج عمل طويل ، له جانبان ، الأول سياسي و الثاني إقتصادي ، و سنبدأ الآن بخطوة إقتصادية بناء على الخطوة السياسية التي خطوناها معا ، هذه الخطوة سنعوض من خلالها خزانة دولتنا عن الميزانية الضخمة التي أنفقتها بيدك على العملية العسكرية التي جاءت بحكم للسلطة ، ثم سنمول من أرباح هذه المهمة الجديدة الخطوات العسكرية و السياسية التالية.

قلت : كم ستكون حصة أسرتي من كل هذا البرنامج ؟. لم يفاجأ الرجل بسؤالي و قال : لو أنك صبرت علي كنت سأقول لك أنك ستكون السيد عشرة بالمائة و هذا سيكون كافياً لجعلكم أغنى أسرة في بلادكم خلال عقد واحد من الزمن ، طبعا العملية كبيرة جدا و عائلاتها هائلة و لكنها ستوزع مناصفة بين خزينتنا و بين المشاركين الكبار و هم كثيرون الآن.

قلت : رائع ما هي المهمة التالية ؟.

أشعل سيجارا و ارتشف من كأس الشاي بالحليب الذي أمامه ثم قال : إن ربع العقارات المرقمة في بلادكم - الزراعية منها و السكنية - مصنفة تحت بند "الأوقاف" ، و تنقسم إلى قسمين : الأول أوقاف دينية و هي التي تتبع للمساجد و المدارس الدينية و هي أقل من ربع هذه الأوقاف ، و الثاني هو : الأوقاف الدُّرية و هو ثلاثة أرباع الأوقاف ، و هذا القسم هو موضوع هذه المهمة.

قلت : هذه الأوقاف كما أعلم أملاك خاصة بأسر معينة ، و هي عقارات أوقفها أجداد هذه الأسر لتبقى معينا و معيلا لذريتهم إلى الأبد ، و لها نظار يشرفون على أدارتها هم عمداء الأسر المنتفعة و جلّهم من الأرستقراطيين.

قال : نعم أنت تعرف عنها الكثير ، و لكن ما لا تعرفه عنها هو أنها لم تعد حاليا سوى غنيمة لبعض العائلات من تلك الأسر الكبيرة و سببا لنقمة بقية أبناء هذه الأسر الأرستقراطية على أقاربهم الأقوياء ، ذلك أن النظار و عائلاتهم الخاصة يستأثرون بمعظم عائدات هذه الأوقاف الضخمة ، عدا عن أن هذه الأوقاف تحتل نقاطا حساسة جدا في مراكز مدنكم الكبيرة و في الأسواق ، و هؤلاء النظار يعرقلون تحديثها و تطويرها و حتى صيانتها أحيانا.

قلت : و ما هو المطلوب ؟. قال : ستقوم مع أبيك بزيارة إلى دار الإفتاء ، و ستقابلون المفتي و نائبه و هما شيخان كبيران و عديدان ، و ستحاولان إصدار فتوى منهما بالسماح باستملاك دولتكم لهذه الأوقاف و تصفيتها و تعويض أصحابها ثم بيعها للجمهور بالمزاد العلني.

قلت : لن يوافق !. قال : سيوضح لك البارون ما الذي ستفعله إن عاندا إصدار الفتوى.

قلت : و بعد ذلك ؟. قال : بعدها سيصدر الرئيس قانونا لتصفية الأوقاف ، و ستستلمون حاوية ضخمة مليئة بنقود دولتكم طبعناها هنا خصيصا لتسديد التعويضات لورثة منافع الأوقاف ، و بعدها ستسلم دولتكم هذه الأوقاف و ستعرضها للبيع في المزاد العلني و ستشتريها كلها شركة واحدة لا منافس لها يملكها اللواء و أنت و أسرتك.

قلت : و بعد ذلك ؟ قال : ستباع بعدها هذه العقارات في السوق العقارية بعد أن تحصل كلها على رخص إنشاء أبنية جديدة عليها حتى تصبح أسعارها باهظة جدا و لن تقبلوا ثمنها بعملتكم المحلية ، الثمن سيكون بالذهب أو بما يعادله من عملة أوروبية رصيدها ذهب ، ستحولون العائدات إلى هنا ، النصف لدولتنا و النصف لك و لشركائك و منهم أنا و البارون جيمس و والده و عدد من البارونات الآخرين الذين شاركوا في تمويل عمليتك الأولى.

قلت : كم لدي من الوقت ؟. قال : ستة أشهر فقط.

قلت : نعم و سأبدأ فور عودتي ، و لكن ما هو الحل إن اعترض الأرستقراطيون في قيادة الجيش ؟.

قال : هم سيحضرون إلى هنا في زيارات سرية تباعا ، و سنتدبر أمرهم لا تقلق بخصوصهم و لا تناقش معهم شيئا و لا مع الرئيس ، ركز اهتمامك فقط على المهمة.

أمضيت أسبوعين من النزهة و التمتع بجمال أوربة تعرفت خلالها على زوجتي الثانية و كانت أميرة مسلمة من الهند ، بعد الخطبة عدت بالطائرة إلى بلادي و معي حقيبة مليئة بالعملة الأوربية و حقائب أخرى فيها خرائط مساحية لجميع عقارات الأوقاف في كل بلادنا بأرقامها و تواريخ إنشائها.

في اليوم التالي لوصولي زرت مع والدي مكتب سماحة المفتي في دار الإفتاء و تقابلت معه و مع مساعده في إجتماع مغلق ، و دار حديث طويل حول فساد الأوقاف الذرية و مسؤولية دار الفتوى كونها الناظرة العامة للأوقاف في كل البلاد ، و كان الرجل متجاوبا مع فكرة إصلاح نظام نظارة هذه الأوقاف بالقوة ، و أبدى كل تعاون لتحقيق هذا الإصلاح و لكنه رفض نهائيا فكرة تصفية الأوقاف تحت أي بند!.

كانت الخطة البديلة لإقناع سماحته جاهزة ، في اليوم التالي تسلم سماحة المفتي و نائبه دعوة للغداء في مبنى القصر الرئاسي ، و كنت في المطبخ أشرف على إعداد كأس شراب التوت الخاص بالمفتي ، لقد شرب سماحته الكأس في قاعة الضيافة مباشرة قبل وداعه الحار للرئيس الذي وعده بدعمه الكامل لإصلاح "الأوقاف الذرية" ، و توفي سماحته في بيته بعد ساعة لسبب مجهول ، لقد كانت جرعة من صديقي "المورفين" أضيفت لعصير التوت ، الطبيب لم يجزم بشيء لأن الرجل كان كبيرا في السن و مريضا أصلا بعدة أمراض.

في يوم جنازة المفتي الراحل التي حضرها جميع أركان الدولة سقط سماحة نائب المفتي و هو الرجل العجوز من على درج دائرة الأوقاف بسبب مرور رجل أرعن مندفع لم يستطع أحد أن يحدد هويته ، و راح النائب المسكين في غيبوبة طويلة و توفي بعد شهر من المعاناة في المشفى ، لقد كان شهرا حزينا حقا على العاصمة فصاحبا السماحة كانا محبوبين جدا عند الناس.

هذه المرة حصل أيضا "بسطام" على مكافأة مجزية و أثبت أنه رجل للمهمات الصعبة .

المفتي الجديد لم يتم تعيينه إلا بعد صدور القانون بتصفية الأوقاف الذرية ، و كان أول عمل له هو التصديق على هذا القانون و جعله ساري المفعول ، أما أنا فكنت قد أسست الشركة الوطنية للبناء و التعمير المساهمة المحدودة ، و كانت مملوكة لي و لوالدي و لأخي و لسيادة الرئيس الجديد و أبنائه الأربعة و لجميع أخوالي الأعزاء ، طبعاً كان مقرها فخما في أجمل مباني الوسط التجاري للعاصمة و لها فروع في جميع عواصم الأقاليم.

السبب في موافقة سماحة المفتي الجديد على قانون الأوقاف لم يكن أبدا بسبب اقتناعه بالأمر و لا بسبب خوفه من مصير المفتي السابق ، فعلى أي حال لم يعرف أحد حقيقة ما جرى للمفتي الراحل و نائبه ، و أيضا ليس السبب طمعه في منصب المفتي العام .

السبب في موافقته كان صفقة عقدها المفتي الجديد مع الوزير المقدم صويلح ، ذلك أن إحدى الرافعات العجريات الجميلات من صديقات صويلح ادعت أنها حامل من الابن البكر لسماحة المفتي الجديد ، و تقدمت بشكوى إلى قاضي الأحوال الشخصية مرفقة بعقد زواج موثق يبين هذا ، و طالبت بحقوقها الزوجية من النفقة و السكن و الإعتراف بنسب الولد !.

و بالفعل اعتقل ابن سماحة المفتي و كان طبيبا معروفا و اقتيد إلى النظارة ، و في ليلتها حضرت مع صويلح إلى دار المفتي الجديد و لم يكن قد تولى مهمته بعد ، و عرضنا عليه ما لدينا من الوثائق حول قضية ابنه مرفقة بصورة عارية بالطول الكامل لابنه مع العجربة العارية تماما و هو يعانقها بيديه ، لم يصدق سماحته ما رأى و بعد ساعتين من النقاش وافق على المصادقة على القانون في صباح اليوم التالي مقابل لفلفة القضية ، فلففنا القضية إلى حين اللزوم ، طبعا قبض صويلح الثمن مبلغا كبيرا من المال سلمته إياه بعد تسلمي لنسخة القانون موقعة من صاحب السماحة المفتي الجديد.

كما توقعنا لقي القانون معارضة شديدة و تأييدا واسعا في نفس الوقت و انقسم الناس حوله إلى قسمين ؛ الأول ساخط جدا و هم المسيطرون على تلك الأوقاف بالإضافة إلى علماء الدين المحليين و أتباعهم من المتدينين و القائمون على المدارس الأهلية لأن هؤلاء كانوا يقيمون مدارسهم في مبان أغلبها أوقاف ذرية و ينفقون عليها من معونات أوقاف ذرية قد فني المنتفعون منها فبقيت أوقافا ذرية و صار التعامل معها على أنها أوقاف خيرية دون أن تتبع لإدارة الأوقاف العامة التي يديرها رسميا سماحة المفتي.

القسم الثاني كان مرحبا بهذا القانون و هم القسم الأكبر من ورثة منافع هذه الأوقاف الذين سطى النظر على حقوقهم و زعماء الأسر الكبيرة من فلاحي القرى المسجلة أوقافا ذرية ، و غير المتدينين و كانت مواجهتهم تتوسع مع الدعاية السرية الشيوعية التي انتشرت في البلاد ذلك الوقت ، و بالطبع نحن كنا على رأس المهملين لهذا القانون التاريخي الرائع.

كانت حاوية النقود قد حضرت فعلا إلى الميناء عند صدور القانون و أودعت الأموال في المصرف الوطني ، و طبعا كانت حقائي جاهزة بأسماء المنتفعين من الأوقاف الذرية و عنواينهم و أوامر الصرف المطبوعة بأسمائهم.

لقد كان القانون بتصفية هذه الأوقاف قد أعد بعناية كاملة لقتل كل محاولة لعرقلة و تأخير تنفيذه ، فبحجة تعذر تقويم ثمن كل قطعة أرض و كل عقار وقفي على حدة تقرر اعتبار هذه الأوقاف كلها عقارا واحدا و جرى تقويم ثمنه و تقسيمه بالتساوي على جميع ورثة الأوقاف الذرية ، و تم تحديد ثمن الحصة بعناية بحيث يعادل مجموع ثمن خمس حصص متوسط سعر المنزل العادي في تلك الأيام ، على فكرة متوسط مساحة المنزل العادي في تلك الأيام كانت ثلاثمائة متر مربع مبنية مع مرفقاتها.

قبل بداية التنفيذ بشهر عقد عدد من نظار الأوقاف الكبرى إجتماعا و اتفقوا على التصعيد ضد القانون و أرسلوا عريضة كبيرة إلى المفتي و الرئيس و وزير العدل و غيرهم ، و اتفقوا على تنظيم مسيرات احتجاج و خطب جمعة في معظم مساجد البلاد للتحريض على هذا القانون.

طبعاً عرفت تفاصيل الإجتماع و أسماء قاداته و الكثير من المناقشات الجانبية التي دارت فيه لأنني حضرته بثياب فقيه شاب قادم من الريف جاء لينهى عن المنكر و ينصر الشرع ! في نفس الإجتماع صممت خطة للقضاء على هذه المعارضة بالكامل.

في اليوم التالي لاجتماع نظار الأوقاف توجهت إلى مكتب الوزير المقدم منير و كانت وزارة المالية ضمن ملاك عمله ، و هناك رتبت حملة "تفتيش محاسبي" على دفاتر و سجلات عشرة من أكبر الأوقاف الذرية تقع كل منها في مركز عاصمة إحدى الولايات العشرة التي تتشكل منها البلاد ، و أرسلت البرقيات إلى مفتشي الشرطة القضائية ليكونوا مستعدين.

وصل المفتشون في اليوم التالي كل إلى وجهته و هو يحمل معه كتاب تفويض من النائب العام بتوقيف المخالفين ، و بعد منتصف النهار الرابع لبداية الحملة كان عشرة من النبلاء قادة إجتماع النظار العتيد في نظارة المحكمة الوطنية في العاصمة بتهمة الإختلاس و التزوير و خيانة الأمانة!.

لم يكن صعباً على المفتشين إيجاد الذرائع لهذه التوقيفات ، فهذه الدفاتر تضم الكثير من قوائم النفقات على صيانة الأوقاف و إدارتها و لم يكن بحوزة نظار هذه الأوقاف إيصالات تثبت أن هذه النفقات حقيقية ، و طبعاً سيتعذر على هؤلاء النظار إثبات مصارف هذه النفقات لأحد سببين إما لأنها وهمية فعلاً أو لأنها أنفقت منذ زمن بعيد و يصعب أو يستحيل إحضار من استلمها للشهادة.

في اليوم الخامس كانت الجرائد الوطنية و الإذاعة تبث عشرات المقالات و التقارير الصحفية عن حملة التفتيش الإصلاحية الكبرى بصور أصحاب المعالي البكاوات و هم يركبون سيارات الشرطة مكبلين بالأصفاد ، و تحدثت هذه التقارير عن اكتشاف جبل هائل من السرقات و عن مئات الزبائن المحتملين لمعتقلات هذه الحملة المباركة و المؤيدة بدعم أعلى سلطات الدين و السياسة و الإقتصاد و القانون و الصحافة.

هائلة جداً كانت هذه الخطة ، فبدل أن يخطب الخطباء على المنابر مستهجنين للقانون صارت الخطب تمجيداً لشجاعة الرئيس أبو الحسن و إصراره على تولية الأمانة ، أكثر ما أضحكني حينها أنه قد وصل الأمر بالبعض إلى حد تشبيه أبي الحسن صياد البط الماهر بالخليفة الأموي المصلح عمر بن عبد العزيز !.

نجحت الخطة في إقناع العامة بوجهة نظر الحكم الجديد ، و في تغيير نظرة هؤلاء إلى المشايخ الذين رفضوا الخطة بإصرار أولاً ثم عادوا لتأييدها ، و صارت الأحاديث في المقاهي تدور عن تواطؤ البكاوات مع المشايخ و عن المعلوم و الخميسيات التي يتقاضاها المشايخ ثمناً لسكوهم عن سرقة أصحاب حقوق الأوقاف ، و استطاع الشيوعيون أصدقاء الوزير المقدم منير إثارة حملة شائعات هائلة تدعم القانون الجديد ، لقد كانت فرصتهم التي انتظروها من زمن بعيد للنيل من أعدائهم المتدينين.

أرسلت أوامر الصرف إلى جميع المستحقين في موعدها ، و حرصنا على تسليمها باليد برعاية لجنة قانونية من ضباط الشرطة و وكلاء النائب العام و المفتي ، و تم صرف معظم المبالغ نقدا من فروع المصرف الوطني في اليوم التالي و الذي يليه ، و شهدت خلالهما المصارف زحاما غير مسبوق.

لقد كان المبلغ الذي تم توزيعه كبيرا جدا يعادل ميزانية الحكومة لعام كامل ، و أدى لإنقلاب الأمور رأسا على عقب و صارت شعبية الرئيس العسكري الأول للبلاد طاغية ساحقة أخرست خصومه تماما.

في الشهرين التاليين شهدت البلاد نشاطا إقتصاديا كبيرا و إقبالا على شراء العقارات و الأراضي و ارتفعت أجور عمال البناء و أسعار مواد البناء و سلع أخرى و هذا طبيعي فالمبلغ الذي تم ضخه في السوق كان هائلا جدا.

في أثناء الفورة المالية و انشغال الناس بجني ثمارها و دون ضجيج أعلنت الحكومة في الجريدة الرسمية عن قرارها عقد مزاد مغلق لبيع عقارات الأوقاف الدرية بشروط عجيبة جدا ، ذلك أن القرار اشترط بيع جميع هذه العقارات في صفقة واحدة ! على أن يسدد فوراً عُشر ثمنها و يقسّط الباقي على تسع سنوات بفوائد نصف بالمائة في السنة دون ضمانات لإستحالة توفير ضمانات هائلة لقرض هائل جدا كهذا ، هذا البند أغرى جميع الأثرياء الكبار بالتقدم إلى المزاد.

شركتنا وحدها كانت قادرة على الفوز بهذا المزاد هذا لأننا ببساطة استحوذنا على عشر الأوراق النقدية التي كانت في حافية البارون جيمس و دفعنا تسعة أعشارها إلى المصرف كتعويضات للمتفعين من الأوقاف ، طبعا المبلغ الذي يخصنا دخل إلى المصرف أيضا تحت حساب شركتنا و كان أكبر وديعة في المصرف.

في المزاد العجيب انسحب جميع من شاركوا فيه من الأثرياء نظرا لضخامة مبلغ التأمين الذي كان يعادل ثمن حي كبير تقريبا في ذلك الوقت ، و رسي المزاد على شركتنا ، في النهاية وقع خالي معروف بك رئيس مجلس إدارة شركتنا على أكبر أمر صرف في تاريخ بلادنا بكامل وديعة شركتنا في المصرف ، و على أكبر عقد شراء عقاري في تاريخ البلاد ، و على أكبر قرض عقاري أيضا دون ضمانات أو رهن !.

كان السعر الذي اشترينا به الأوقاف أكثر بقليل من مجمل المبلغ الذي دفعه المصرف الوطني لورثة منافع الأوقاف التي صفيت و لكنه في الواقع أقل بكثير من نصف عشر الثمن الحقيقي لهذه الأوقاف.

منذ اللحظة التي استلمنا فيها عقد الملكية بدأنا العمل لبيع هذه العقارات و افتتحنا مباني شركتنا في العاصمة و بدأت إعلاناتنا عن مشاريع البناء تغزو الصحف.

بدأت الإنتقادات عبر الصحف لمزاد البيع بالظهور ، و دارت أحاديث كثيرة جدا عن محاباة و إحتكار لشركتنا بين أوساط التجار في البلاد كلها ، و أيضا هذه كان حلها جاهزا في ذهن أبي هذه المرة ، فلقد أصدر رئيس البلاد الجديد مرسوما استثنائيا يفرض على بيع أراضي الأوقاف الذرية التي تمتلكها شركتنا ضريبة أربعين بالمائة من قيمة العقد في حال بيعها ، و هذه الضريبة تقسم مناصفة على البائع و المشتري ، هذا المرسوم أسكت الأصوات المنتقدة لقيمة العقد و أظهر الرئيس مرة أخرى بمظهر العدو للدود للمحسوبية و الإحتكار و استغلال النفوذ ، و راح الناس يقولون "هذه الحكومة لا تراعي لحيمة ممشطة!".

قسمنا أراضي الأوقاف الذرية بعد أن استلمناها إلى قسمين ، أراض زراعية و أراض سكنية و تجارية ، و تعاملنا معها بخطة مرسومة سلفا ، أما الأراضي الزراعية فكانت كلها مؤجرة لعائلات و عشائر من الفلاحين ، و لم يكن سهلا إجلاؤهم منها فعرضنا عليهم شراء هذه الأراضي بأسعار مقاربة لقيمتها الحقيقية و بتسهيلات لرعاة هذه القرى ، هذه التسهيلات تضمنت خصم ثلث الثمن لمن يسدد ثمن أرضه فورا و بالليرات الذهبية عوضا عن العملة الورقية ، و أرسلنا هذه العروض مع مندوبين تجولوا لمدة عام كامل في الأرياف.

كانت النتائج مذهلة و استطعنا جمع مبالغ هائلة جدا من الذهب و كافة العقود التي سجلناها لبيع الأراضي كنا نسجل عليها أقل من عشر الثمن الحقيقي الذي بعنا به ، و طبعا كانت هذه التسجيلات تتم برضا المشتريين لأنهم كانوا يريدون التهرب من الضريبة المنصفة التي فرضها الرئيس العتيد بتوصية منا نحن !!.

كافة العملات الذهبية التي استلمناها كانت تحال إلى محلات في سوق الصاغة في العاصمة ليتم فرزها إلى نوعين الأول عملات أثرية و الثاني عملات قيمتها هي قيمة الذهب فقط ، الأول كان يوضع في صناديق خاصة بينما تمت إذابة النوع الثاني بعد تنقيته إلى ذهب خالص و صبه في سبائك صغيرة ، الصاغة الذين قاموا بالعمل كانوا من أبناء أقلية دينية واحدة مشهورة بهذه الحرفة ، و أشرف البارون جيمس بنفسه على فرز هذه العملات و شحنها إلى أوربة في صناديق تحمل العلامة الدبلوماسية لسفارة دولته.

حصل الصاغة على نسبة اثنين بالمائة من الذهب الذي قاموا بفرزه ، و حصلت أنا و أسرتي على عشرة بالمائة من الربح الصافي من بيع الأراضي الزراعية و كان مجموع ربح هذه الأراضي يزيد على عشرين ضعف رأس المال الذي تم إنفاقه على كل العمليات السابقة السياسية و الإقتصادية و العسكرية.

أما الأراضي المخصصة للبناء فكانت قصتها مختلفة بعض الشيء ، فلقد كنا نبيع هذه الأراضي على دفعات ، لقد كان القسم الأكبر منها يقع في مراكز المدن الكبرى و مراكز الأحياء التي فيها و هو يشرف على الأسواق التجارية و الشوارع

الكبيرة ، اخترنا لكل دفعة قطعا من الأراضي في مدينة كبرى و استخرجنا لهذه الأراضي رخصا لإنشاء أبنية كبيرة عليها على غرار أبنية أوروبا الحديثة ، عرضنا على الجرائد صوراً لأبنية أوروبية شبيهة للأبنية التي ستبنى على هذه الأراضي ، و استطعنا بفضل هذه الرخص و الإعلانات بيع ثلاثة أرباع هذه الأراضي في مدة ثلاثة أعوام دون أن نبني فيها أو نهدم منها غرفة واحدة ، و كانت أسعار هذه الأراضي مرتفعة بنسبة الضعف عن أسعار مثيلاتها لأنها مرفقة برخص هدم و بناء و خرائط هندسية جديدة. العائق الذي منع المشتريين من الهدم و الإنشاء كان انعدام البنى التحتية الكافية لخدمة هذه المباني ، فشبكات الصرف الصحي و المياه العذبة و الإنارة كانت لا تكفي لسد عُشر الإحتياجات المطلوبة حال إقامة الأبنية الجديدة.

جمعنا ثمن هذه العقارات بنفس طريقة جمع ثمن نظيراتها الزراعية ، مع فارق بسيط هو أننا حصلنا على مبالغ كبيرة بعملات أوروبية ضمن هذه الأثمان ، طبعاً لم تسجل هذه المبالغ كلها ضمن دفاتر الحسابات و لا العملات الذهبية التي قبضناها. بالطبع كنا نودع مبالغ بالقيمة الرسمية المسجلة لعقود البيع بعملات محلية في حساباتنا في المصرف الوطني و نسدد على أساسها الضرائب المستحقة على المبيعات و الأرباح ، و مع ذلك كان الحساب هائلاً و دخلت بسبب عملياتنا مبالغ ضخمة إلى ميزانية البلاد و إلى عادت إلى الأسواق لتزيد من نمو التبادل التجاري المحلي في كل مجالات التجارة ، لقد أنشأنا نتيجة لهذه العملية قطاعاً تجارياً جديداً هو "سوق العقارات" الذي لم يكن موجوداً أبداً في مجتمعنا على مر التاريخ ، لقد كان العرف الديني الجاري بين الناس أن بيع العقارات عار على البائع و أن ثمن العقار لا بد أن يدفع كله لشراء عقار آخر ، هذا العرف حافظ منذ ألف عام و بضعة قرون على انخفاض أسعار العقارات و الأبنية و كان سبباً في انعدام تجارة العقارات نظراً لانعدام الإنتفاع بسيولة مالية من أرباح بيعها و شرائها ، نحن نجحنا في كسر هذا العرف و إزالته نهائياً من أذهان شعبنا. لقد بلغ مجموع أرباح عملية تصفية الأوقاف الذرية أكثر من ثلاثين ضعف الميزانية السنوية لبلادنا ، أودعنا منها نصف العشر فقط في المصرف الوطني و أنفقنا ما يقارب نصف العشر على المتعاقدين الذي عملوا معنا في بيعها و الباقي قمنا بإيداعه في المصارف الأوروبية لكل حصته ، و طبعاً كانت أكبرها حصة أسرة الرئيس أبو الحسن. بعد مضي عام تقريبا على تولي أبي الحسن للسلطة لاحظنا أن العلاقات قد بدأت تتوطد بين الضباط الأرستقراطيين في قيادة الجيش و أنهم يدبرون شيئاً ، كانت خطة الخلاص من تهديدهم و نفوذهم جاهزة و بدأنا تنفيذها بعد استكمال نقل ثمن الأراضي الزراعية إلى أوروبية.

احتفلت البلاد بالذكرى الأولى لثورة الأمة على الفساد في يوم شتوي قصير ، في احتفال خطابي نقلته الإذاعة و ألقى خلاله الرئيس الثوري خطابا مليئا بالحماسة و الوعود بالغد الوردي الأجل و بتعداد منجزات الثورة و بمديح الانتعاش الإقتصادي الملحوظ الذي تشهده البلاد.

في الأسبوع التالي كنت مع والدي في إجتماع مع العميد راقي نائب قائد الجيش في قصر البارون إدموند في أوربة و كان معنا العقيد بديع قائد الحرس الرئاسي و البارون جيمس ، بعد الغداء عرض والدي على العميد صورة عن بيان حساب الرئيس أبو الحسن و المبلغ الخيالي الذي يملكه فخامته في المصرف الأوربي ، الأمر الذي وقع على العميد كالصاعقة تماما ، لقد كان رجلا نزيها و لا يحب اللصوصية و الإختلاس ، أفهمنا العميد أن هذه الأموال جاءت من اكتشاف أثري كبير لكنوز ضخمة كانت في سرداب مطمور تحت الأرض ، و أطلعنا البارون إدموند على بعض العملات الأثرية زاعما أنه اشتراها من مزاد علني للآثار بمبلغ كبير و أنها من ذلك الكنز المسروق.

انتهى الإجتماع إلى الإتفاق على الخلاص من الرئيس الجديد ، و تنصيب العميد راقي رئيسا بدلا منه و إعادة الحكم للمدنيين و إعادة الحياة السياسية إلى سابق عهدها البرلماني ، و بعد أن عدنا إلى البلاد بأسبوع بدأ التنفيذ.

خلال هذا الأسبوع اجتمع العميد راقي ببقية أعضاء القيادة العسكرية كل على حدة ، و لم يجد طبعا صعوبة في إقناع ضباطنا بمساعدته لأننا كنا قد أفهمناهم كل شيء يخصهم ، و استطاع أن يقنع بقية الضباط الأرستقراطيين بتأييده شرط تسليم الحكم فورا لرئيس الوزراء الذي أطاح به أبو الحسن.

في الليلة التالية للإجتماع ركبت سيارتي الدبلوماسية و قمت بتشغيل محطة اللاسلكي على موجة اتفقنا عليها ، و نفذنا إستيلاء على العاصمة يشبه تماما العملية الأولى ، الفارق هو أن المعتقلين في هذه العملية كانوا فقط الرئيس أبو الحسن و أبناءه الأربعة و قمت بإحتجازهم في غرفة في مرآب القصر الرئاسي ، و بعد مفاوضات قصيرة معي وقع كل منهم على أوراق بيضاء و مؤرخة بتاريخ سابق ، و عصبنا عيونهم و أخرجناهم الواحد تلو الآخر من الغرفة ، أطلقنا سراح الأبناء الأربعة فورا و أرسلناهم مع النساء إلى قصر أبيهم في الريف ، و بعد يومين اكتشفت جثة الرئيس السابق أبو الحسن في سيارة محطمة على طريق زراعي مع جثة سائقه و جثة جندي من الحرس الرئاسي ، و أعلنت الإذاعة أنه قد خرج ليلة اكتشفت جثته من القصر مع سائقه و أحد حراسه و كان سكرانا جدا و قاد سيارته بنفسه فانقلبت به و مات هو و حارسه و سائقه ، و أن الحكم قد انتقل إلى العميد راقي و القيادة العسكرية ، و لم يعلن البيان حدادا على الرئيس المسكين الذي لقي حتفه مع مرافقيه على يد صديقي الوفي السيانيذ.

تسلم العميد رافي السلطة دون أن يقابل سلفه بعد اعتقاله ، و تسلمت في الشهر التالي أنا و أسرتي عشر رصيد الرئيس الراحل في أوربة و استولت الدولة الأوربية صاحبة المصرف على النصف الذي بقي بعد حصص البارونات لأن الرئيس الفقيد لم يوص لأحد بميراثه و لأن أيا من أسرته لا يحمل جنسية تلك الدولة أو إذن إقامة دائمة فيها.

نفذ العميد رافي ما اتفق عليه مع الباشوات قادة الجيش ، و كان رجلا صادقا و شجاعا و لا يحب السلطة ، الرئاسة العامة للدولة منحت لرئيس الوزراء الذي أطحنا به في الانقلاب الأول ، و تشكلت حكومة من المتخصصين الخبراء ليس لديها مشاريع قوانين ، و بدأت الإستعدادات لإنتخابات عامة جديدة ، و عادت الأحزاب إلى العمل و صدرت الجرائد كالمعتاد و بقي أبي في منصبه مستشارا قانونيا عاما للإعلام ، و بقي مكثبي و منصبي كما هم و ترفعت لرتبة مقدم ، و ترفع جميع الضباط الذين عملوا معنا إلى رتبة عقيد و صارت قيادة الجيش تضم أربعة باشوات برتب عالية عميد و لواء و ضباطنا الأربعة باستثناء بديع الذي احتفظ بمنصب قائد الحرس الرئاسي و لواء حماية العاصمة ، لم يجرؤ أحد من سياسيي العهد الجديد على فتح أي ملف أو مساءلة أي من الذين شاركوا في إنقلاب أبي الحُسن عليهم ، لأن هؤلاء الإنقلابيون هم أنفسهم أولياء نعمة العهد الجديد ، و الجميع مقتنع بأننا انقلبنا على أبي الحُسن لأنه كان ينوي نقض تعهده بإعادة السلطة للمدنيين ، و طبعاً لم يقع رسمياً أي إنقلاب و كل ما حصل هو وفاة رئيس و تصحيح أوضاع.

استقال العميد رافي و انصرف إلى مزرعته و ضيعته ليرعى شؤونها ، و أصبح محل احترام و تقدير من الجميع نظراً لزمهه النادر في الحكم ، و صارت ضيعته كالحج لقادة المجتمع من أرسقراطيين و مشايخ و تجار و صناعيين و رجال علم .. إلخ. حصل كل هذا خلال الشهر الأول بعد رحيل "أبي الحُسن" ، و في نهاية هذا الشهر سافرت إلى أوربة لترتيب قبض حصّة عائلي و شراء بعض القصور القديمة في ضاحية عاصمة دولة الإنتداب الأوربية السابقة ، و من ثم تعاقدت بمساعدة البارون مع شركات فنية لإعادة تأهيلها ، و أتممت زواجي من خطيبي الأميرة الهندية في هذه الرحلة التي دامت ستة أسابيع ، و طبعاً كان للسفرة غاية أخرى هي عقد عدة لقاءات مع البارون جيمس.

في أحد لقاءاتي هذه مع البارون في أحد قصوره النائية سمح لي بالتجول في القصر و التفرج عليه ، و كان هائلاً و جميلاً و كأنه قصر شرقي لسلطان تركي ، و لا حظت صورة زيتية ضخمة لرجل له ملامح شرقية و يرتدي بزّة عسكرية ليس عليها رتب و يضع على صدره وساما ضخماً ، سألت البارون من هذا الرجل ؟. قال : هذا جد جدي و هو الذي أسس هذه الإقطاعية و بنى هذا القصر بالإضافة لقصيرين آخرين ، و هو أول من حمل لقب بارون في أسرتنا.

سألته بغفوية : ماذا كانت رتبته العسكرية و هل قاتل إلى جانب الأسرة الحاكمة في ذلك الوقت حتى نال رتبة بارون أو انضم إلى سلطان العرش باتفاق ؟.

بمجرد أن سمع البارون كلامي دخل في موجة من الضحك المستيري كالأطفال ، و ألقى كأسه من يده و شَرِقَ و احمر وجهه من شدة الضحك و دمعت عيونه و راح يفحص الأرض بقدميه و أنا أنظر إليه مذهولا !.

بعد أن هدأت نوبة الضحك هذه نظر إلي بطريقة غريبة ، ثم سكت ، ثم قال : يبدو أن الوقت لم يكن بعد. ثم استأنف كلامه بهدوء و قد اتخذ وضعية المدرس : يا سيد مهران انظر إلي هل أشبه الكلب ؟. فاجأني السؤال جدا و خفت خوفا شديدا ثم تغلبت على مخاوفي و تصنعت ابتسامة خفيفة ثم قلت بتردد : لا طبعا أنت رجل وسيم جدا يا سيدي البارون و لم أقصد الإساءة إليك !. ابتسم قائلا و هوينظر في عيني مباشرة : هل ترى لي ذيلا يهتز كثيرا؟. ازداد خوفي و اندهاشي ، و قلت كطفل مرعوب : لا طبعا لم أقل هذا أبدا يا سيدي!. قال و هو يضحك لطمئني : هل سمعتني ذات مرة أنبح أو رأيتني أمص عظمة؟.

هدأت قليلا و رددت مع ابتسامة : يا سيدي لماذا تقول هذا ؟. قال بهدوء : هذا ردي على سؤالك ، جد جدي هذا كان رجلا حكيما جدا و كان تاجر توابل و منسوجات و مالكا لعدة بنوك و لم يطلق النار أبدا و لم يقاتل مع أحد و لا ضد أحد ، لأنه إنسان عاقل متحضر و ليس كلبا !.

سألت نفسي لبرهة : لماذا يتحدث باحتقار عن العسكريين و هو كولونيل ؟! و أردت أن أقول له هذا ثم ضبطت نفسي و قلت بشيء من الغضب : و هل العسكريون و المحاربون كلاب ؟. قال : ليس كلهم يا سيد مهران ، المحاربون فقط كلاب ، اسمع عندنا هنا مهنة قديمة هي صيد الثعالب ، هذه المهنة تعتمد أساسا على كلاب مدربة لأن محترفيها يصيدون الثعالب لأجل فرائها ، و أدوات الصيد في هذه الحرفة هي مهارات الكلاب المدربة على مطاردة الثعالب و على قتلها دون إفساد فرائها ، في نهاية المطاردة تحصل الكلاب على بعض اللحم و العظم و التريت اللطيف من الصيد ، أما الصيد فيحصل على الفراء الثمين ، فإن كان الفراء جيدا و كان الصيد وفيرا و ثمنه أكثر من بكثير جدا من كلفة إطعام الكلاب و إيوائها سيستمر الصيد في تكرار رحلات الصيد و سيقطني مزيدا من الكلاب ، أما إذا كان الصيد قليلا و ثمنه غير كاف لسد حاجات الصيد فإنه سيسرح الكلاب إلى البرية أو سيبيعها أو ربما سيقتلها لأنها صارت غير نافعة ، و حتى حينما تكون رحلات الصيد ناجحة فإن حصة الكلاب لن تزيد كثيرا لأنها يجب أن تبقى خفيفة الحركة و سريعة الجري ، يا سيد مهران عندنا مهرجانات لكلاب الصيد نقلد فيها كلابنا الماهرة ميداليات و أوسمة ذهبية ، و مع ذلك تبقى كلاب صيد فقط و لا تتحسن أبدا مساكنها و لا طعامها و يبقى مصيرها القتل دون رحمة عندما تكبر و تصبح عاجزة عن الصيد ، و جد جدي البارون العظيم كان صيادا للثعالب و ليس كلب صيد ثعالب ، يا سيد مهران الجنود و الضباط المحترفون للقتال لا يختلفون في شيء عن كلاب صيد الثعالب و هذه هي نظرتنا الحقيقية إليهم ، ألا تعرف أن القانون في كثير من مناطق أوربة يمنع الجنود

من التجول في المدين بلباسهم العسكري ؟ هل نمنعهم من هذا لأننا نفخر بهم و بعملهم و تضحياتهم كما نزعّم في إحتفالاتنا بالنصر ؟!.

أصابني رده بذهول لم أستيقظ منه إلا بعد أيام من التفكير العميق بما قاله ، و انتهى الأمر بي إلى القناعة التامة بأنه مصيب تماما .

مهمات جديدة

بعد أيام من هذا اللقاء عدت للإجتماع بالبارون جيمس و لكن في قصري أنا هذه المرة ، و أحضر معه ثلاث حقائب في كل منها ملف لمهمة جديدة ، بعد أن اتخذنا مجلسنا في المكتب بدأ بفتح الحقيبة الأولى ثم قال : لقد صار العميد راقى باشا خطرا لا يقل عن خليل باشا ، و هنا تجد الخطة المفصلة للتخلص منه ، هي ببساطة تعتمد على عادة الثأر ، سننتهم راقى باشا بتعمد قتل أبو الحسن و سنروج لهذا في تقرير صحفي نشره في جريدة تصدر عندنا استنادا لشهادة ضابط صف موال لأبي الحسن انشق و لجأ إلى سفارتنا في عاصمتكم ، و ستم ترجمه التقرير إلى العربية و ينشر في صحافة عدة دول مجاورة لكم ثم سيثار الأمر في صحافتكم ، لن يصل الأمر أبدا للقضاء و سنترك لفخري بك الإبن الأكبر لأبي الحسن مهمة القضاء على راقى باشا ، سيبدأ التنفيذ قبل عودتك إلى البلاد و ستنتهي المهمة في غضون شهر واحد.

ثم فتح الحقيبة الثانية و أخرج منها ملفا و قال : المهمة الثانية لك هي إنشاء منظمة سرية مرعبة تخيف كل صاحب منصب مهم في دولتكم ، هذه المنظمة نواتها هم فرسانك الثلاثة و أعضاؤها على شاكلة بسطام و جلمود و سالم و هذه المنظمة ليست لها أية صفة رسمية و سيساعد لويس و ريمون على إقامة معسكر لتدريب و تنظيم أعضاء هذه المنظمة ، و احذر أن تتسرب عنها أية معلومات و لذلك سيبقى أرشيفها موجودا في خزانة في قنصلية بلد أوربي محايد في عاصمتكم.

سألته باستغراب : لماذا لا نفتح في بلدنا معابد جديدة للحرية كالتى تنتشر عندكم هنا و عن طريقها نبني مجتمعا سريا يضم الأشخاص المؤثرين في المجتمع و نتحكم من خلاله بكل شيء ؟ لدينا بالفعل عدد قليل من هذه المعابد و يضم عدة مئات من الأشخاص المهمين جدا في بلدي .

غرق في نوبة ضحك أشد من التى غرق فيها يوم سألته عن رتبة جده العسكرية ، ثم هدأ و صب لنفسه كأسا من الويسكي و أشعل سيجاره ثم قال : سيد مهران ، معابد الحرية هنا ليست سوى مدارس مهنية يدرس طلابها مادة دراسية واحدة بعدة تخصصات و في صفوف متصاعدة من الإبتدائية إلى أن يتخرجوا منها برتبة هي : "خادم وفي لنا" ، و لقد سمحنا لهؤلاء بأن يكونوا خدما لنا لأنهم تروضوا و خرجوا من حالتهم الأصلية الوحشية إلى حالة الكائنات الأليفة المستأنسة ، و أشكاهم مقبولة و هم مطيعون جدا فلا ضير من تدريبهم على أعمال الخدم ، شعب بلادكم لا يزال في حالة من الوحشية و لا بد من

ترويضه أولا ثم تحسين نوعية أفراده شكلا و سلوكا و عندها سنتدبر أمر تعليمهم مهارات الخدم ، يا سيد مهران لترويض الكثير جدا من الوحوش لن تستعين بمروضين مهرة من السيرك أو علماء الطبيعة ، ستحتاج إلى رعاية بقر و جمال شرسين بطبعهم و لا يعرفون الرحمة ، و لعلمك فإن معابد الحرية التي أنشأناها في بلادكم كانت فقط لتسهيل سيطرة جيوشنا على أرضكم أيام الإنتداب ، و سنغلقها جميعا بعد عام واحد فقط و كل من تخرج منها سيلتحق بخدمتنا هنا.

نظر إلي ، فأشرت إليه برأسي مع ابتسامة كبيرة أنني فهمت تماما ، قال : لديك أقل من عامين لاستكمال هذه المنظمة ، و ستحتاج معها إلى شبكة من المحامين و الأطباء أسسها والدك و أخوك بالفعل و ستجد ملفاتها عندهما بالكامل.

ثم فتح الحقيبة الثالثة و قال : هذه هي المهمة الأصعب و الأهم ، في هذه الملفات أسماء و عناوين لعشرات العائلات كلها تسكن في مدنكم الكبرى ، هذه العائلات أصولها وضعية جدا ، و يحترف أبناؤها و بناتها الغناء و الرقص و تزيين العرائس و تجهيزهن للأعراس و اللطم على الموتى في المآتم و بعض منهم يديرون بيوتا سرية للمومسات ، هذه العائلات سنؤسس لها مؤسسة كبيرة تؤهل المميزين من أفرادها للقيام بعمل كبير جدا و مسلّ لشعبكم و سيساعد منظمتك الشرسة على ترويض شعبكم و إخراجه من الوحشية ، أولا ستختار منهم أمهر العازفين و أجمل و أصغر المغنين و المغنيات و الراقصين و الراقصات لنستقدمهم إلى هنا لتدريبهم على احتراف التمثيل و الغناء و الرقص و العزف ، فلقد أنهيينا تقريبا تدريب عشرات من أقارب ريمون و لويس على صناعة الأفلام السينمائية و ستكون لديكم منشآت كبيرة فعلا لإنتاج الأفلام الجميلة بلغتكم ، و سيكون العقيد عبد الصبور هو الراعي و المدير (إسميا) لهذه المنشآت ، أخيرا : ميزانية هذه المهمات ستكون من رصيد شركة البناء في مصرفكم المركزي ، هذا الرصيد يعادل تقريبا نصف ميزانية حكومتكم و لن تسددوا منه سوى خمسة فقط كقسط أول لثمن عقارات الأوقاف ، و لا تقلق فبقية الأقساط ستسدد في مواعيدها.

أضاف البارون : بقي قسم مهم جدا من مهمة الأوقاف الأهلية لا بد من إنجازه ، كما تعلم هناك مائة و خمسون مدرسة أسسها الأهالي كلها تشغل أبنية لأوقاف ذرية و لم تقم شركتنا بإخلائها ، ليس لأنها لا تشكل واحدا بالمائة من مساحة هذه العقارات و هي مساحة تافهة طبعاً مقارنة بما ربخناه ، السبب الذي جعلنا نؤخر إخلاءها هو أنها ستموت لوحدها دون أن تكلفنا مواجهة مع رعاها ، ثم سنعيد تكوينها مرة أخرى بطريقة تلائم الشكل الذي ستبدو عليه بلادكم لأعوام كثيرة قادمة.

قلت : كيف ستموت ؟ هناك خزانة في دائرة الأوقاف التابعة للمفتي تنفق على المدارس و ميزانيتها كبيرة إنهم يعطون الطلاب كل شيء بالمجان تقريبا حتى أنهم يعطونهم الطعام و يخدمون طلابهم خدمات أكثر بكثير من الخمسين مدرسة حكومية التي تديرها دولتنا !.

قال : ما لا تعرفه يا سيد مهراڻ هو أن ثلاثة أرباع إيرادات خزانة المدارس تأتي من ورياء الأوقاف الاءرية التي انقرض ورياء منافعها و صارت تابعة للأوقاف الخيرية بالإاءارة فقط ، هذه الأوقاف تشمل أراض زراعية و أبنية اشتريناها جميعها و قمنا ببيعها في العملية الماضية و لم تعد وارداتها تصب في خزانة المدارس التي تتبع للأوقاف العامة ، يا عزيزي حتى لو تركنا لهم الأبنية فلن يستطيعوا توفير رواتب المدرسين و ثمن الأءاءات الاءراسية و تكاليف إسكان طلبة الريف.

قلت : ما هو المطلوب ؟.

قال : ساءبرع شركتنا للءولة بكل أبنية هذه المدارس !. نعم لا آاءعجب يا صاءيقي لأن الءولة لا آاءطيع توفير ميزانية هذه المدارس ، هذا ساءتيح لنا لعب ءور ملائكة الرحمة فنحن سنقدم قرضاً مجاناً لحكومتكم يغطي نفقات هذه المدارس لخمسة أعوام بشرطين أولهما : آعين مءيرين ءءءاً لهذه المدارس نرشحهم نحن ليس فيهم أي مءير من المءراء الءالين ، أنت آعرف أن هؤلاء المءيرين الآن كلهم من المشايخ الءين يعينهم المفي ، و الشرط الآاني : آوحيد المناهج الاءراسية في جميع مدارس البلاد و منع آءريس أي منهاج مءرسي سوى منهاج مدارسكم الءكومية ، طبعاً المءرسون الءين ساءرفضون الإلتزام بالمناهج الءكومية ساءفءءون وظائفهم.

أخرج ملفاً كبيراً من خزانته و أعطاني إياه و قال : ساءحمل هذا الملف لءالك معروف بك ليقدمه لرئيس ءولتكم و آاءطيع الإءفاظ بصور منه في أرشيفك ، ساءكون سفيرنا و والءك آاضرين لآتماع معروف بك مع الرئيس بالطبع ، فوالءك ساءقدم صياغة المرسوم الرئاسي اللازم فبرلمانكم لا يزال منءلاً أليس كذلك ؟. و ضءك باستمآع زاءء و لمآ عيناه من السرور ، و ضءكت ، ثم أطفأ ساءاره و أكمل شرب كأسه و انصرف.

بعء أيام عءء إلى البلاد بطائرة شحن آاصة مع السفير الءءء للءولة الأوربية ، و كانت معي في الطائرة أسلحة آفيفة متنوعة أعطيت هبة لمكتبتي ، أكثر هذه الأسلحة كانت مسءسات فردية و و كواآم صوت و بناءق رشاشة صغيرة و صواآق مؤقآة و سكاكين سويسرية و بضعة قناصات مع مناظيرها و ذآائر متنوعة و أءهزة لاسلكي ءءءة ، كلها كانت طبعاً في آاويات خشبية مآآوب عليها : "شحنة ءبلوماسية" و في بيان المآآويات كآب " آآاث -آآات كآآبة -مشروبات كآولية".!

أسكنت عروسي الءنءية في فيلاً قريبة من فيلاً زوآتي الأولى و مر علي أسبوع صعب من المشآاحنات العائلية مع زوآتي الأولى انآهى آآءل آالي و والءتي لإقآاع زوآتي بعءم الإزعاج و آقبل الأمر الواقع ، و فعلى علبه المآهورات التي صالآ بها ابنة آالي فعلاً سآرناً أقنعها آآقبل الأمر الواقع و آآآآي على زواآي ، كانت هي أيضاً آاملاً بابني البكر ، و لم يكن هذا الأمر عآيباً يومها ، آاصة أن آآوالي و أبناؤهم و آآي و كل معارفنا كانوا متزوجين من زوآآين و أكثر.

انصرفت بعدها فوراً إلى العمل بكليتي فالمهمات الثلاث كانت صعبة و كان علي إنجازها معا في وقت واحد ، طبعاً لن أستطيع أن أحدثكم عنها في وقت واحد و أبدأ بمهمة راقى باشا :

دبرت لقاءً بين درغام شقيق بدران سائق الرئيس الراحل أبو الحسن و بين سالم أمكر فرساني الثلاثة و أشدهم دهاء ، زعم سالم لدرغام أنه كان شاهد عيان على ما حصل لأيي الحسن ليلة الانقلاب ، و أنه رأى بعينه راقى باشا يأمر أبا الحسن و حارسه و بدران السائق بشرب قهوة قدمها لهم أحد الجنود و مات الثلاثة بعدها فوراً ثم وضعت جثثهم في السيارة و قادها جندي إلى حقول قريبة ثم تركها تسير وحدها و تنقلب في هوة و تتحطم ، و زعم سالم لدرغام أنه سجن لأيام في سجن وزارة الدفاع ثم أفرج عنه ، فراح يبحث عن الجندي الذي سقى الثلاثة السم حتى وجده و قتله فعلاً ذبحاً بمديته و أخذ بطاقته العسكرية ليثبت لدرغام أنه قتل قاتل أخيه المزعوم ! طبعاً أبرز سالم لدرغام بطاقة الجندي الوهمي مضرجة بالدم ، ثم أخبره بأنه سيأخذ بثأره أيضاً من راقى باشا و لكنه بحاجة إلى المال لشراء بندقية قناصة ، عرض درغام فوراً على سالم أن يوصله إلى أبناء الرئيس الراحل لشرح لهم حكايته ، وافق سالم بعد أن تظاهر بالتردد ، و بعد يومين كان سالم في قصر أبي الحسن يجتمع بأولاده و يروي لهم قصته ، و بعد مشاورات بينهم قرروا أن يرفعوا الأمر لعشيرة أبي الحسن.

كنا قد رتبنا سجلاً للجندي الوهمي الذي زعم سالم أنه قتله ، بعد تحريات قام بها أقارب متنفذون لأيي الحسن تأكد لديهم أن الجندي من البدو الرحل و أنه قتل فعلاً و قُيد أمر قتله "ضد مجهول".

عقد كبار عشيرة أبي الحسن اجتماعاً قرروا فيه قتل راقى باشا ، و حضر سالم الاجتماع و عرض عليهم تنفيذ المهمة و لكنهم رفضوا و طلبوا من سالم أن يعاونهم في مراقبة راقى باشا.

رتبت مع أحد الباشوات في دولة عربية مجاورة إرسال دعوة لراقى باشا إلى عاصمة هذه الدولة العربية المجاورة لحضور حفل غنائي كبير دعونا إليه أحد أشهر المغنين في ذلك الوقت ، و بمجرد أن علمت بموافقة الباشا على الدعوة أرسلت مع سالم تفاصيل كاملة لخط سير راقى باشا من الفندق إلى المسرح و مواعيد تحركاته و سلمها سالم بدوره لزعيم عشيرة أبي الحسن.

عرض سالم على الزعيم تأمين السلاح و الحماية للرجل الذي سيقتل راقى باشا ، وافق الزعيم و تباحث مع سالم في الخطة و أعطاه مبلغاً كبيراً و أرسل معه أحد أبناء العشيرة إلى عاصمة الدولة المجاورة ليقول راقى باشا بعد أن حلف سالم لهم أنه لن يطلق أي رصاصة على راقى باشا و سيترك أمر قتله لمرافقه "مستو" آغا ابن عم الرئيس "الشهيد!".

في يوم الحفلة كان سالم في شقة قريبة من الفندق الذي يقطنه راقى باشا، و هي تطل على وسط الطريق القصيرة الواصلة بين الفندق و المسرح ، طبعاً كان "مستو" ابن عم أبي الحسن مع سالم يستعد للثأر ، كان مستو هذا عدوانياً و عنيداً و غيباً جداً و شبه أبله و لعل هذا ما دفع عمه الزعيم لإرساله في هذه المهمة المميّنة.

حسب الإتفاق مع الزعيم أعطى سالم لمستو رشاشا محشوا بالرصاص مع مخزن رصاص إضافي و قال له : بعد أن تطلق النار على راقي أطلق النار على أقدام المارة عشوائيا و اهرب عائدا إلى شقتنا حتى لا يُقبض عليك ، ستجدي أنتظرك في سيارة على بُعد أمتار لنهرب بها عائدين إلى بلدنا ، انتبه لا تقل و لا كلمة و لا تنبس بحرف أطلق بصمت و اهرب و لا تلتفت للوراء . كرر سالم على مستو هذا الكلام مرارا ليفهمه بأن الهروب مؤكد و أن كل شيء جاهز لإنجاحه و أن خيار سالم هو الهروب ، عشيرة أبي الحُسن كانت تريد أن يكون أمر الثأر من راقي مستورا حتى يمكن لاحقا تدبر أمر مصالحة عشائرية مع عشيرة راقي و مع الباشوات من حلفاء راقي في قيادة الجيش و الشرطة.

خرج مستو من الشقة بعد الظهر قبل موعد خروج الباشا من الفندق بساعة و جلس في مقهى قريب من الفندق بانتظار خروج الباشا من الفندق و تنفيذ العملية ، كان رشاش مستو محباً تحت عباءة الفرو الأعرابية الضخمة التي يرتديها ، في هذه الأثناء حضرتُ إلى الشقة و معي الرائد ريمون و قناصة حديثة جدا لها منظار حاد و فورا ركبنا القناصة على نافذة تطل على الشارع الفاصل بين الفندق و المسرح و أرسلنا سالم إلى مسرح العملية و معه جهاز لا سلكي ليراقب و يصوب رماية ريمون. خرج راقي باشا من الفندق ماشيا على قدميه و معه بضعة أصدقاء و منهم صديقنا الباشا المستضيف و ثلاثة من الحرس ، و بعد أن قطع الرفقة عشرات الأمتار باتجاه المسرح أصبحوا داخل مدى منظار بندقية ريمون و فجأة خرج عليه مستو و بيده الرشاش و هو يصيح : راقي الكلب أنا مستو ابن عم أبي الحُسن خذها من يدي !! (الغبي) ، و قبل أن ينطق مستو بكلمة كانت رصاصة ريمون استقرت في رأس راقي و سقط ، لم ينتبه مستو الغبي لشدة حماسه لسقوط الباشا و أطلق مستو رصاص رشاشه على الباشا و من معه عشوائيا و لكن الرصاص كان كله خلييا ! أنهى مستو الغبي مخزن رشاشه و ركب مخزنا آخر ، الجميع كانوا قد انبطحوا أرضا ، ما عدا صديقي الباشا المستضيف طبعاً و حرسه الثلاثة ، هجم الثلاثة على مستو و قبضوا عليه رغم أنه أطلق عليهم كل رصاص مخزنه الثاني و عشرات الشتائم ، طبعاً لم يصب أحد منهم بأذى إلا أنهم انزعجوا من شتائمه فأوسعوه ضرباً حتى أدموه.

اقتيد مستو إلى السجن تحت حراسة مشددة ، و اهتزت عاصمة تلك الدولة على وقع الحدث ، انتقلت مع ريمون و سالم فورا إلى شقة أخرى ، و هناك انتظرنا لبضعة أيام حتى هدأت العاصفة و تأكدنا من أن كل الصحف في تلك الدولة و في بلادنا كتبت نبأ مقتل راقي باشا و نشرت كلها صوراً للجثته و هي مسجاة و لقاتله مستو الغبي.

طلب البارون جيمس من أصدقائه في الدولة الشقيقة الإحتفاظ بمستو و عدم التحقيق معه ، و دفن راقي باشا فورا بجنائز مهيبة فللرجل عشيرة في تلك الدولة الشقيقة ، و هذا ما حصل فعلاً.

عدت مع ريمون و سالم إلى بلدنا لنجد الدنيا مقلوبة رأسا على عقب ، فأقارب راقى باشا هاجموا قصر أبي الحسن و أحرقوه و لحسن حظ أسرته لم يقتل منهم أحد ، إلا أن عددا من الفلاحين المشتغلين في القصر قتلوا و جرحوا ، و أيضا فإن باشوات قيادة الجيش انقسموا إلى فريقين الأول يريد الإنتقام من عشيرة أبي الحسن و زعيمها ثارا لكرامة الجيش و الثاني يريد حماية هذه العشيرة بسبب الصلة القومية العرقية التي تربطهم بها ، طبعا كلا الفريقين من قوميتين ليستا من العرب ، فقط راقى باشا كان عربيا.

لقد أنجزت المهمة المتعلقة براقى باشا على أتم وجه و حققت جميع أهدافها ، استغرق الأمر ثلاثة أشهر منذ أن عدت من رحلتي إلى أوروبا و إلى أن لقي راقى باشا مصرعه ، في هذه الأثناء كنت قد استكملت إنجاز المهمتين الأخريين و أنهيت تماما ملف الأوقاف الدّرية و لنرى كيف أنجزت المهمة المتعلقة بالمنظمة السرية :

عندما كانت البلاد تابعة للحكم الإمبراطوري التركي لم تكن توجد حرفة المحاماة كما هي معروفة اليوم ، و حتى مهنة القضاء كانت مهمة من مهمات المشايخ ، و ذلك أن تلك الإمبراطورية كانت تقوم أساسا على حكم الدين ، لم تكن الشرطة القضائية موجودة في بلادنا أيام الحكم التركي إلا في مراكز الإقليمية الكبيرة ، و كانت مهمة هذه الشرطة محدودة جدا ، أما في الأحياء و الأرياف فكانت مهمة الشرطة القضائية منوطة بشباب أسر بعينها يسمى أبناؤها بـ "الفتّوات" أو "القبضايات".

كان المفتي في كل عاصمة إقليمية يحرص على أن يرسل إلى كل حيّ أو قرية شيخا "فقيها" من تلامذته يتبع المذهب التقليدي لذلك الحيّ أو تلك القرية ، نفقات هذا الشيخ كانت تأتي من ريع أوقاف المسجد الذي يتولى إمامته و خطابته و الفتوى فيه ، لم يكن الناس عادة يرفعون ما يشجر بينهم من خلافات إلى مخافر شرطة الإمبراطورية لأسباب كثيرة منها أن هذه الشرطة كانت قليلة العدد و أن إجراءات التقاضي الحكومية كانت طويلة و صعبة ، و الأهم من هذا أن قضاة المحاكم كانوا من المشايخ "الفقهاء" فلا داعي للسفر من أجل التقاضي عند الشيخ "الفقيه" طالما أنه موجود في المسجد القريب ، و لهذا كانت تسعة أعشار المنازعات تُفصّل عند الفقهاء المحليين.

بعد كل مجلس قضاء كان فقيه المنطقة يكتب قراره و يمهره بخاتمه و يوقع عليه و يجتمه شهود من نخبة وجهاء سكان المنطقة يسمون بأعضاء المختارية ، بهذا يصير القرار نافذا بحق المتقاضين و شرعيا في سائر أرجاء الإمبراطورية.

في حال اعترض أحد المتقاضين على قرار الفقيه المحلي و رفض تنفيذه فإن الفقيه و الوجهاء يأمرّون "الفتّوات" بإرغام المتمرّد على قرار الفقيه بالتنفيذ بالقوة اللازمة ، و عادة لا يحتاج الأمر لأكثر من بضعة لكمات أو ضربات بعضى ليخضع العاصي و يرجع لرشدّه و ينفذ قرار القاضي "الفقيه".

أغلب "الفتّوات" كانوا يعتاشون على "المعلوم" و هو رواتب يخصصها لهم الفقهاء و أصحاب الشأن في المنطقة ليفرغوه من مهام أخرى غير عمل الشرطة القضائية فلقد كانوا يضطلعون بمهام من قبيل الحراسة الليلية للمتاجر و المنازل و أنقاب الأحياء و القرى و غيرها من المهمات المتعلقة بحفظ الأمن.

كثيرا ما كان "الفتّوات" أنفسهم سببا للمشاكل و خصوصا في التقاضي ، و كثيرا ما كانوا يتمردون على أوامر الفقهاء و الوجهاء ، و عندها كان أمرهم يرفع لأصحاب المعالي من ذوي الألقاب كـ "باشا" و "بك" و "آغا" و هؤلاء يقدمون للفقهاء ما يلزمه من القوة النظامية لإخضاع الرافضين لقضاء الشرع و جلب المجرمين منهم إلى قضاء الإمبراطورية الرسمي.

في بداية عهد الإنتداب الأوربي تقلص كثيرا عمل هؤلاء "الفتّوات" و تسببوا في فلتان أمني كبير و احتلوا أكثر أحياء المدن البعيدة عن سلطة الإنتداب و فرضوا المكوس و قاموا بأعمال السلب و النهب و القتل و الإبتزاز من أجل المال ، و استمر هذا حالهم عدة أعوام إلى أن أنشأ جيش الإنتداب "الشرطة الوطنية".

عندما أنشأت "الشرطة الوطنية" رفض هؤلاء "الفتّوات" سلطتها و عملوا على إظهارها بمظهر مهلهل بدعم من المشايخ و وجهاء الأحياء و المناطق ، و عاد "الفتّوات" لمهتهم الأصلية خاصة بعد إصرار العامة على رفض التقاضي إلى المحاكم الوطنية التي أنشأتها دولة الإنتداب في بلادنا ، و لقد أفق المشايخ بتحريم التعاون مع كل السلطات القضائية التي فرضها جيش الإنتداب و بتحريم التقاضي إلى محاكم هذه السلطات لأنها تحكم بقوانين مخالفة للشرع الإسلامي !.

بعد انسحاب جيش الإنتداب و تولي حكومة "الإستقلال" لأمر البلاد دارت نقاشات كثيرة جدا بين الأرستقراطيين الذين ورثوا الحكم من جيش الإنتداب و بين المشايخ حول شرعية الشرطة و المحاكم ، و لم يحسم الخلاف لصالح أحد الطرفين و تمسك كل بمواقفه.

تأرجح موقف "الفتّوات" بين تأييد المشايخ و ما ذهبوا إليه و بين الأرستقراطيين و هم أولياء نعمة "الفتّوات" ، على أي حال انقطعت الأموال عن "الفتّوات" لعجز المشايخ عن دفعها نظرا لضعف مواردهم و محدوديتها ، الأرستقراطيون أيضا قطعوا أكثر دعمهم لهؤلاء "الفتّوات" باستثناء الذين كانوا يعملون في مزارع و مصانع و متاجر الأرستقراطيين و الوجهاء المحليين نظرا لعدم الحاجة لخدماتهم السلطوية بوجود الشرطة عصا الدولة الجديدة التي يحكمها الأرستقراطيون.

لم يعد "الفتّوات" قادرين أيضا على فرض "الخوات" أو "المكوس" على الناس.

في الفترة التي تلت إنقلاب "أبي الحُسن" انفلت هؤلاء "الفتّوات" من عقاب كل أحد و صار أكثرهم إلى العمل كعصابات تفرض المكوس على المارة و تمارس السرقة و النهب و قطع الطرق النائية ففي عهد الإنتداب صار أكثرهم مدمنون للخمور و اغتصاب النساء و الأطفال و لعب القمار و زبائن دائمين لبيوت الدعارة و الخمارات و السجون ، و طبعا شنت الشرطة

كثيرا من الحملات عليهم دون كثير جدوى ، لقد كان قانون المحاكمات هشا جدا و غير صارم فالعديد منهم كانوا يفرون من السجون أو إلى دول عربية مجاورة ثم يعودون بهويات أخرى ليكرروا ارتكاب جرائمهم.

فرساني الثلاثة كانوا أساسا من هؤلاء "الفتوات" ، كنت قد اطلعت على حكاية "الفتوات" من خلال القصص التي كان يرويها أضياف أي في مضافة بيتنا في الساحل ، و شرح لي أي الكثير عنهم ، هذا ما دفعني للطلب من البارون دعم اقتراحي بتأسيس منظمتي السرية كلها من هؤلاء "الفتوات" ، إنهم أناس شجعان و مخلصون لمن يدفع لهم حتى الموت و لا يفكرون بأبعد مما يلقي أليهم من أوامر و هم صفيقوا الوجوه لا يستحون من أحد ببساطة رغم أنهم يتمتعون بطرافة و حضور جذاب للعامة ، إنهم كلاب صيد ممتازة إلا أن لديهم ميزة أخرى و هي المهارة في الإستطلاع و التجسس و القتل غيلة و تسلق الجدران العالية.

كان سالم و جلمود و بسطام قد شكلوا عصابات من هؤلاء قوامها لا يزيد على الخمسين "قبضاي" ، طبعا كلهم من أصحاب السوابق العنيفة و نزلاء سجن سابقون ، فقممت باستدعاء الفرسان الثلاثة و قابلت كلا منهم على حدة ، و أعطيتهم التعليمات اللازمة لتوسيع عصاباتهم و تحويلها إلى ما يشبه المنظمة السرية.

منظمتي السرية الجديدة مختلفة في نظام تشكيكها عن كافة التشكيلات السرية التي يمكن أن يتخيلها أحد ؛ لقد قسمت البلاد إلى قطاعات بحسب أعداد الوجهاء و المتنفذين ، فمثلا القرية التي لا يوجد فيها وجهاء لم يشملها هذ التقسيم ، و لا الأحياء الشعبية التي لا يوجد فيها أثرياء ، و خصصت للمناطق التي يوجد فيها أثرياء و وجهاء مجموعات يتراوح عدد أفراد كل منها بين الأربعة و السبعة ، و لم تكن أية مجموعة على اتصال ببقية المجموعات أو تعرف أصلا أنها موجودة ، و ارتبطت جميع هذه المجموعة مباشرة بمكتبي التجاري و ليس بمكتبي العسكري التابع لهيئة الأركان.

لم أدفع لهذه المجموعات رواتب ، و إنما اتفقت معهم على تأسيس أعمال تجارية ترعاها شركتنا و كانت هذه الأعمال في البداية تنحصر في افتتاح "المقاهي" المتوسطة الحجم في نقاط ازدحام في الأحياء ، و أيضا محلات بيع التبغ بأنواعه من مستورد و محلي.

هذه الأماكن يكثر فيها تبادل الأحاديث و يتجمع فيها الشباب و كانت تعتبر الأندية المفضلة للرجال الكهول و الشيوخ ، و سيضيفي عليها وجود "القبضايات" بجلتهم الجديدة بُعدا محببا يفضله العامة.

المقاهي و محلات بيع التبغ أعمال مربحة و مجزية و ستريجني من دفع الرواتب و لن أكون مضطرا لمقابلة رؤساء هذه المجموعات في كل شهر و عددهم يزيد على المائة ، أطلقنا على اسم كل واحد من هؤلاء الرؤساء لقب "معلم" (بتسكين الميم) ، و لم نكن نتصل مع أي منهم بشكل منتظم ، و إنما على فترات متقطعة و حسب ما يطلب منهم من معلومات و

مهمات ، مجمل عدد أفراد هذه المنظمة كان ألفا من هؤلاء "الفتوات" الذين صاروا لاحقا "معلمين" ، قمنا بتدريبهم في أربعة معسكرات ريفية و على دفعات على أصول الإتصال و المراقبة و استعمال السلاح و السموم ، اخترنا منهم مجموعة صغيرة دربناها على استعمال العبوات الناسفة و تركيب الألغام بأنواعها و استعمال القنصات الخاصة.

بعد استقرار هذه المجموعات في أماكن عملها أعطيناهم توجيهها هاما جدا : يجب أن يتم استقطاب أكبر عدد من شباب "الفتوات" ليلتفوا حول "المعلمين" ، و يكون هذا الإستقطاب بوسائل منها :

أولا توفير المعونات العاجلة لكل واحد من "القبضيات" يقع في مشكلة مع الشرطة و القضاء .

ثانيا توفير معونات طبية لمن يحتاج منهم إلى علاج نتيجة إصابته في الشجارات التي كانت نشاطا شبه يومي لهم.

ثالثا المساعدة في تأمين أعمال هؤلاء في خدمة أصحاب المواخير و دور السينما و المقاهي التي يكثر فيها لعب القمار (القمار ممنوع رسميا) ، و في خدمة تجار "الحشيش" .

كان معظم أصحاب المواخير و دور السينما و مقاهي القمار و تجار الحشيش من زبائن مكتبي العسكري التابع لهيئة الأركان ، فهم مدنيون و مكتبي متخصص في تنظيم علاقات قيادة الجيش بالمدنيين !.

لقد نجحت في أقل من عام في إعادة تشغيل "الفتوات" بعد أن تحلى عنهم الشيوخ و الأرستقراطيون و هم الآن يعملون عندنا.

"القبضيات" أو "الفتوات" أشخاص كثيرون المشاكل و يتعرضون دوما للإصابات و الإعتقال و لا بد لمن يريد رعايتهم من تقديم الكثير من المساعدات القانونية و الطبية لهم ، قدم لي جيمس قائمة بعشرين طبيبا موزعين على سائر مدن البلاد الكبرى و كلهم من أقلية دينية واحدة ، قائمتان إضاقيتان قدمهما لي جيمس تتضمن كل منهما عددا مشابها من المحامين و ضباط الشرطة موزعين أيضا على سائر المدن الرئيسية في البلاد ، هذه القوائم بالإضافة إلى والدي الذي يملك نفوذا واسعا في وزارتي العدل و الداخلية شكلت شبكة رعاية ممتازة لأتباعنا "القبضيات" أو "الفتوات" .

اجتمعت هؤلاء الأطباء في مكتبي بالشركة بحضور أخي الطبيب "أبو الخير" ، الإتفاق كان على أن يقبل هؤلاء الأطباء معالجة أي شخص مصاب يأتي من طرفنا و أن لا يأخذوا منه أي أجر و أن يعطوه الأدوية و العلاج اللازم ، على أن يتم كل هذا بسرية تامة و أن ترسل فواتير العناية بالمصابين إلى شركتنا عن طريق أخي ، على أن تتم معالجة الحالات الصعبة في مشفى أخي و عدة مشاف أخرى يملكها هؤلاء الأطباء.

المحامون قدمنا لهم نفس العروض السخية و كان والذي هو الذي نسق الإتفاق معهم و ضمن الإتفاق تعهد والذي بتسهيل نجاح القضايا التي يتولاها هؤلاء المحامون ما أمكن.

أما ضباط الشرطة فلقد تولى المقدم لويس التفاهم معهم كل على حدة ، لم تكن مهمته معهم سهلة و لا شاقة ، فأما ما سهلها هو أن معظم هؤلاء الضباط كانوا من أبناء الأرياف القريبة من قرية لويس و بعضهم من أبناء الأقلية الدينية التي ينتسب لها ، و أما الشاق فيها فكان خوفهم الشديد من قبول الرشوة لأنها كانت أمرا معييا جدا في ذلك الوقت و لكن لويس نجح في نهاية الأمر ، خصصنا لكل منهم راتبا شهريا يعادل الراتب الذي يتقاضاه أحدهم من الحكومة.

لم ننس طبعاً خلال دورات التدريب شبكة "المعلمين" أو "القبضيات" أن نعطيهم تعليمات صارمة بعدم التورط في مشاكل لا طائل منها ، و أفهمناهم جيدا أن الذي يتورط في مشاكل بعيدا عن مهمات نكلفه بها سيفقد عمله و رعايتنا و سنعاقبه بقسوة شديدة.

و قعت بالفعل عدة حوادث لأربعة "قبضيات" من شبكتنا ، هذه المشاكل كانت عدم انضباط من هؤلاء "القبضيات" و تمردا على تعليماتنا بتجنب المشاكل ، كان عقابهم شديدا جدا ، فلقد وجهت إليهم النيابة تهم ارتكاب جرائم سابقة كانت قيدت ضد مجهول ثم حوكموا محاكمات سريعة و أدينوا و شنقوا علنا في بعض ساحات المدن.

بالطبع عممنا على جميع أفراد الشبكة قصة هؤلاء و كان لها أثرا كبيرا في التزامهم بالأوامر ، و انحسرت بعد ذلك المشاجرات كثيرا عن المدن و الأحياء الشعبية.

هكذا أنهيت تماما المهمة الثانية في خلال عام و نصف تقريبا.

أما المهمة الثالثة فكانت الأصعب فعلا ، فالعائلات التي تمارس الغناء و الرقص في الأعراس و كان علي الإتصال معها كانت عائلات منحلة بحسب كافة المقاييس ، هذه الأسر كانت بقيادة نساء و التفاهم مع هؤلاء أمر صعب جدا و لا بد من إجبارهن بالقوة أو التهديد على التعاون ، ذلك أن المغريات لا يمكن لها أن تقيدهن إلى أي اتفاق فإن قدمنا لإحداهن مبلغا ضمن اتفاق ما فإنها ستأخذ المبلغ و تنكره ، ثم لا تصنع شيئا ، ثم تعود لتطلب غيره في ابتزاز لا نهاية له ، و فوق ذلك لا يمكنني الإقتراب منهن شخصيا ، لأن أي شخص يقترب منهن يفقد مكانته الاجتماعية في مجتمع محافظ و ضيق كمجتمعنا.

الحل كان بالإستعانة بأصدقائنا من أصحاب المواخير و دور السينما و طبعاً بالقبضيات و كان لا بد من أسلوب للإتصال بهذه العائلات و إقناعها بالعمل معنا ، فاخترعت هذه الطريقة :

حددنا بمشورة أصدقائنا أصحاب المواخير النساء المؤثرات في كل أسرة من هذه الأسر ، ثم قمنا بخطف المرأتين المؤثرتين من كل أسرة من هذه الأسر إلى أماكن مجهولة ، هناك يحضر لمقابلتهن أحد معارفهن من المقربين إلينا ، و بعد عدة أيام يتم إفهامهن المطلوب و إعطاؤهن جرعة من التهديد كافية لإنضباطهن ، ثم نطلقهن مع مبالغ من المال كافية ، و عند عودتهن لأسرهن يقمن بشرح الأمر لهم بلغتهم و أسلوب يفهمه هؤلاء ، أيضا بمعونة المال و التهديد بقطع الأرزاق نجح إغراء البقية بالالتحاق بالشبكة الجديدة.

المطلوب كان بالتحديد خمسين امرأة شابة من ذوات الجمال و الرشاقة و خمسين شابا من ذوي الوسامة و الرشاقة و لدى الجميع بعض الذكاء و المعرفة بالقراءة و الكتابة ، أيضا كنا بحاجة لخمسين من العازفين المهرة على الآلات الموسيقية الشرقية. احتاج جمع هذا الفريق جهدا كبيرا و بذلنا الكثير من النقود حتى استطعنا أن نقنعهم بفكرة السفر إلى دولة عربية مجاورة للالتحاق بالتدريب على الرقص و الغناء و التمثيل و التلحين.

سافر الفريق على دفعات كثيرة إلى الدولة المجاورة و التحقوا جميعا بالعمل في مدينة للسينما يملكها أحد أقارب البارون إدموند من أبناء تلك "الدولة العربية" ! هناك أيضا بذلنا الكثير من المال على هؤلاء لضبطهم ، من أجل إقناع الفتيات بعدم تعاطي الدعارة لكسب مزيد من المال ، و من أجل إقناع الشباب بالتوقف عن السرقة و القوادة و تجارة الخمر .. إلخ و الإلتزام بالتدريب !.

نجحنا بعد ثلاثة أعوام في تخريج ثلاثين ممثلة و راقصة و مغنية ، و في تخريج بضعة و ثلاثين ممثلا و مغنيا و ملحنًا ، خلال هذه الفترة كنا قد أنهيينا بناء و إعداد خمسة سرادقات كبيرة و ألحقنا بها مخازن و عربات و منصات للتصوير السينمائي و معدات و آلات موسيقية و كل ما يلزم لإنتاج الأفلام السينمائية .

عاد هؤلاء المبتعثون تباعا إلى البلاد و قد حملوا أسماء مستعارة و تبدلت أشكالهم و ثيابهم و طرق سلوكهم و اخترعنا لهم عائلات أخرى غير عائلاتهم المعروفة بإخطاطها ، بمعونة الصحفيين من أصدقاء والدي كانت أخبار "الفنانين و الفنانات" تنتشر بين الناس على صفحات الدوريات من مجلات و جرائد و كأهم من علية القوم و من الذين يستحقون متابعة الصحافة لأخبارهم و كانت أخبار هؤلاء عادة مما لا يأبه له أحد إلا أن كثرة نشر أخبارهم أوجدت لها لاحقا جمهورا من المتابعين!.

لم يعد هؤلاء "الفنانون" إلى أحيائهم لأننا كنا قد اشترينا لهم في أحد أحياء العاصمة الجديدة شارعا كاملا كبيرا شحناه بالكثير من المحلات التجارية و المقاهي و الملاهي المبنية على الطريقة الأوروبية أسميناه لاحقا بشارع "الثورة" !.

استنزفت هذه المهمة الكثير من رصيد شركتنا في المصرف المركزي ، و مع ذلك فإن هذا الفريق لم يكن قادرا على كسب المال رغم مرور عام على عودته إلى البلاد.

السبب هو المشايخ لأنهم قاوموا بشدة نشاطات هؤلاء الفنانين الواعدين ، انتظرنا عاما كاملا و بعد عدة محاولة فاشلة استطعنا بصعوبة بالغة أن ننظم حفلة غنائية تتضمن فقرة للرقص الشرقي في مسرح نملكه نحن في العاصمة.

كانت توجد في بلادنا مواخير و دور للسينما و حتى بيوت للقمار ، و لكن هذه الأماكن لم تكن علنية و لا يجرؤ أصحابها على الإعلان عن حفل عام للغناء أو الرقص و دعوة الناس لحضوره .

لقد أعلنت (السعادة) و هي الشركة الأولى للإنتاج الفني التي تعتبر فرعاً مستقلاً من شركتنا عن تنظيم عدة حفلات غنائية تتخللها فترات للرقص و كان هذا أمراً جديداً تماماً لم يحصل في البلد من قبل و لا حتى في زمن الإنتداب الأوربي ، لذلك فشلنا في إقامة أي من هذه الحفلات نتيجة للصدامات التي كان يفتعلها العامة بتحريض من المشايخ في مواعيد الحفلات ، و رغم أننا كنا نحشد عدداً غير قليل من القضايات و الشرطة لحراسة المسرح و بوابته إلا أن الصدامات كانت تتحول إلى شجارات دموية سقط فيها الكثير من الجرحى بين الشبان الغاضبين بضربات خناجر قضاياتنا.

قضايا هذه الشجارات كلها تقريباً حفظت و قيدت ضد مجهول أو صنف شجارات جماعية و لكن الحفلات كانت تلغى في نهاية الأمر .

استصدرنا بعد عام كامل من الضغط و الابتزاز إذنا من "المفتي" بفتح مسرح راقص للعموم في حي لأقلية من غير المسلمين في مدينة شمالية ، و أقمنا عليه الحفل الراقص العلني الأول في البلاد ، غنى في الحفل أحد المغنين الجدد الذين يعملون لنا ، و غنت معه مغنية جديدة أيضاً ، كان حفلاً ناجحاً نسبياً ، صورناه و عرضنا وقائع المصورة قبل عروض الأفلام في عدد من دور السينما.

بعد حفلنا الأول بمدة عرضنا عدة مسرحيات سلّقت على عجل اقتبست من قصص ألف ليلة و ليلة و تخللتها مقاطع غنائية شاركت فيها راقصات يعملن في شركتنا ، كان هذا شيئاً جديداً استهوى الكثيرين من الناس ، كنا نعلن عن الحفلات و المسرحيات في المجلات و الدوريات و قبل عروض أفلام السينما لأن المشايخ و أتباعهم كانوا يلاحقون أي إعلان ملصق عن أي نشاط فني في الطرق و يمزقونه.

بمجرد عودة الدفعة الجديدة من الممثلين و الممثلات و المغنين و المغنيات و العازفين راحت الإذاعة الوطنية تبث لهؤلاء أغاني تراثية شعبية خفيفة بتوزيع موسيقي شبه غربي و عدداً من التمثيليات الإذاعية و البرامج التمثيلية التوجيهية الداعية لـ"الأمانة و الصدق" ! بعضها كان أيضاً من حياة الصحابة و الزهاد و التابعين ! الطريف أن واحدة من الممثلات الجديديات أدت في تمثيلية إذاعية دور رابعة العدوية الزاهدة النقية ! هذه الممثلة كانت قد اعتقلت بسبب ممارسة الدعارة عدة مرات في فترة تدريبها و تدبرنا أمر إطلاقها بصعوبة !!.

في تحول كامل تماما لمهمة "القبضيات" الذين كانوا حراس الفضيلة و التدين ، صارت مهمة شبكة القبضيات لفترة لا بأس بها حماية فنانينا الواعدين من انتقام المحافظين من العامة ، فلقد حصلت عدة صدامات و حوادث ضرب و طعن و إطلاق نار بين قبضياتنا و بين هؤلاء الغيارى ، دوما كانت النتيجة القانونية لهذه الحوادث في صالح قبضياتنا.

هكذا انتهت المهمات الثلاث الشقيقات العظيمات اللواتي أنتجن لنا ثلاث شبكات عمل و استثمار شقيقات ما زلن يرعين سعادة بلادنا إلى وقتنا هذا ، و الفضل كله يعود لتخطيط و إرشاد فريق مستشاري البارون البارع.

بالعودة إلى المهمة الأم فإن التصفية الأخيرة للأوقاف الذرية كانت مهمة سهلة جدا و مثمرة جدا و ذات أثر عميق استمر طويلا جدا ؛ بمجرد أن عدت إلى بلادي من أوربة التقيت بخالي معروف بك و سلمته الملف الذي أرسله إليه جيمس ، و بعد أسبوع واحد كان خالي و والدي في القصر الرئاسي يلتقيان رئيس البلاد المدني المؤقت (الذي تسلم الرئاسة من الراحل رافي باشا) ، عرض الرجلان على الرئيس المكرمة السخية من شركتنا بالتبرع بمباني و عقارات المدارس القائمة على الأوقاف الذرية لصالح الحكومة ، و كما توقعنا حين سمع الرئيس منهما العرض سارع إلى شكرهما و اعتذر عن قبول الهبة لعدم قدرة الحكومة على تأمين ميزانية لهذا العدد الضخم من المدارس ، عندها قدم له والدي الرسالة التي أرسلها البارون إدموند و تتضمن تعهدا بتقديم قرض حكومي مشروط بتغيير الإدارات العاملة في هذه المدارس و فرض تدريس مناهج الحكومة فيها.

لم يعارض الرئيس المبدأ و لكنه حذر أن أي تصرف كهذا سيسبب اعتراضات كبيرة لدى المشايخ و القائمين على دار الإفتاء التي تشرف على تمويل هذه المدارس ، عندها قدم له والدي كشفا ماليا عن حالة صندوق المدارس الأهلية في النظارة العامة للأوقاف يوضح أن هذا الصندوق قد صار خاويا تماما.

انضم المفتي لاحقا للقاء و أبدى عدم اعتراضه على الفكرة لأن هذه المدارس ستغلق لا محالة و سيتحول مدرسوها إلى الكتاتيب الصغيرة و الزوايا لتدريس طلبتهم مقابل أجور مباشرة من الأهالي ، بينما هذه الفكرة ستقدم لهم فرصة جديدة للإستمرار دون الإضطرار لإقناع الأهالي بإلحاق الطلبة بالكتاتيب و متاعب جباية الأجور .

بعد اللقاء بأسبوعين صدر المرسوم الرئاسي و في مقدمته الشكر العميق لشركتنا و لحكومة الدولة الأوربية (المنتدبة سابقا) ، ثم تضمن كل ما طلبناه تماما.

بجدة الخطوة الهائلة تقلص عدد المدارس الدينية في البلاد إلى عُشر عددها قبل المرسوم ، و تقلص معها عدد الشيوخ في البلاد بعد عقد واحد إلى عشر عددهم يوم صدر المرسوم الآنف ، و أما على صعيد المناهج فلقد اختفت نهائيا من المدارس مختصرات الفقه و اللغة العربية و الأصول ، انتهى نهائيا تدريس القرآن بطريقة التلقين و الإجازات بالقراءات ، طبعا لم تعد تُدرس شروح فقهاء المذاهب على تلك المختصرات و لم تعد تدرس ألفية ابن مالك و شروحاتها ، اختفت من المناهج سيرة

ابن هشام و غيرها من الكتب التي شغلت نصف منهاج المدارس الأهلية ، حلت محل هذه المناهج القديمة كتب الرياضيات الحديثة و الفيزياء و الكيمياء ، صار الطلاب يتعلمون كيفية حساب الفوائد على الديون و الأشعار الغزلية و القصص القصيرة ، طبعاً كانت العلوم الطبيعية كعلم الأحياء و أحدث نظرياته كنظرية دارون عن أصل الإنسان و أنواع الحيوانات من صلب منهاج المدارس الأهلية الجديد.

اعترض تقريباً جميع المدرسين المتدينين في هذه المدارس على هذه المناهج و رفضوا تدريسها ، و لكن في نهاية الأمر أذعن معظمهم لأوامر الحكومة خوفاً على أسباب أرزاقهم ، أما الذين أصروا فلقد ترك قسم منهم التدريس نهائياً و البقية التحقوا بالمدارس الدينية المتبقية في البلاد ، و لكن الإنجاز الأهم هو أنهم لم يلجأوا إلى فتح كتاتيب و غرف تعليم في زوايا الصوفية لأنه بات متعذراً عليهم إقناع الأهالي بإلحاق أبنائهم بالكتاتيب في وقت توفر فيه التعليم الحكومي مجاناً ، لقد دفنا الكتاتيب الشعبية إلى الأبد بعد أن عجزت كل جيوش الإنتداب الأوربي و لعقود كاملة عن تحقيق هذا الإنجاز الكبير.

طبعاً تم تسديد القرض الذي قدمه البارون إدموند لاحقاً من الضرائب التي فرضتها الحكومة على الأهالي لتغطية نفقات مجانية التعليم الذي كانت نواته تلك الهبة التي قدمتها شركتنا و حكومة دولة البارون إدموند ، لقد كنا نحن أول من وضع لبنة لمجانة التعليم في البلد و إلينا يعود الفضل في منجزات هذا القطاع الرائعة جداً.

كنت قد توقفت في حكاية مقتل راقى باشا عند اعتقال مستو ابن عم الرئيس القليل أبو الحسن و ابن شقيق زعيم عشيرته ، و كان هذا الحادث قد تسبب في صدامات بين عشيرة راقى باشا و أهل أبي الحسن ، أيضاً تسبب في انقسام بين الأرستقراطيين من قادة الجيش بين مؤيد للإنتقام من عشيرة مستو و بين معارض لهذا.

قيادة الجيش كانت مكونة من أربعة من أصحاب المعالي هم : ، العميد أمين بك رئيس الأركان و هو من عشيرة تركية مستعربة ، العقيد حلیم باشا و هو من أسرة تركية مستعربة ، العقيد عفيف بك و هو من عشيرة قريبة من عشيرة أبي الحسن الكوردية المستعربة و العقيد نبيه بك نائب رئيس الأركان و هو من عشيرة كوردية مستعربة أيضاً.

البقية كانوا ضباطنا زين و عبدالصبور و صويلح و منير الذين رقاهم أبو الحسن إلى رتب عقيد مستجد و مقدم و لم يكونوا في الواقع يشرفون إلا على القطع التي يقودونها مباشرة و هي خمسة ألوية للمشاة ، العقيد بديع وحده كان بعيداً عن كل سيطرة للأركان لأنه كان قائد لواء الحرس الرئاسي الأقوى بين ألوية الجيش بفضل هبة جيمس.

القادة المدنيون و منهم رئيس الدولة المؤقت كانوا في معظمهم من الأرستقراطيين الترك المستعربين و لذلك لم يكونوا يتعاطفون مع أبي الحسن ، و لم يكن يحزنهم ضرب عشيرته و اعتقال رئيسها و شنقه انتقاماً لراقى باشا ، و هذا بالضبط كان المدخل

لخطوتنا الحاسمة القادمة ، العقيدان الكورديان عفيف بك و نبيه بك أصرّا على حماية عشيرة أبي الحسن و إنهاء الأمر بمصالحة عشائرية و كانا غير مسرورين بعودة الترك المستعربين إلى الحكم.

أرسلت إلى جيمس رسالة تفصيلية عن الموقف و كان واضحا من صياغتها أنني فهِمت مغزى التحركات في الجيش و أن المقصود منها إقصاء الأرستقراطيين عن الجيش أولا ثم عن الحكم تاليا ، كان رده دعوة سرية لعفيف بك للقاء به في سويسرا و طبعا كنت أنا مدعوا إلى هناك و لكن ليس لحضور اللقاء بين الرجلين و إنما للقاء جيمس لتلقي التعليمات للمهمة التالية. وصلت إلى قصر البارون جيمس في ضواحي جنيف بعد أسبوع من وصول الدعوة ، و وصل عفيف بك إلى جنيف في نفس الوقت تقريبا ، لم أحضر اجتماع جيمس مع عفيف بك و لكنني علمت أنه كان ناجحا و أن خطة قد تم الإتفاق عليها بينهما ، طبعا لم يعلم عفيف بحضوري إلى جنيف.

قدم لي جيمس مهمة محددة و أخبرني أن طاقما أوربيا كاملا مكونا من عشرين خبيرا سيحضر إلى عاصمتنا لمساعدتي في الفترة القادمة ، هذا الطاقم يتكون من خبراء في الأمور العسكرية و الإدارة المدنية و خبراء إقتصاديين و خبراء في الإتصالات و التجسس و خبراء في إدارة أجهزة الأمن السرية و سيدخل تحت غطاء شركة للتنقيب عن المعادن تعاقدت مع الحكومة منذ عامين .

عدت من جنيف لأجد الحرب الكلامية على أشدها بين الفرقاء في قضية اغتيال رافي باشا و اقترب الأمر كثيرا من الصدام المسلح ، كان علي أن أشجع على الصدام و أن أشعل شرارة لهبه.

لتحقيق هذه الغاية التقيت بزعيم عشيرة أبي الحسن بعد أن مهد لي سالم للمصالحة معه ذلك أن موقف والدي و خالي من دعم انقلاب رافي باشا كان معروفا ، و في اللقاء سألني الزعيم بغباء واضح :

هل كنت يا مقدم مهران على علم بنوايا رافي باشا تجاه أبي الحسن ؟.

كنتم أعلم أن سالم قد برأ ساحتي تماما من المشاركة في إعدام أبي الحسن فأجبت بثقة : لا لقد تركتهم و عدت إلى بيتي بأمر من رافي باشا و بوعد منه بأن قطرة دم لن تسقط ، و لم أكن أعلم أنه كان يقصد أنه سيقتل الرجل دون دم ! بهذه الحيلة القدرة ، و لو لا سالم ما عرفت أصلا بأن الحادث مدير فلقد قال لي رافي باشا في اليوم التالي أنه سمح لأبي الحسن بمغادرة البلاد إلى بلد عربي مجاور بسيارة الرئاسة مع سائقه و مرافقه حين انتهاء الإنتخابات البرلمانية و أن السائق على ما يبدو كان مرتبكا لأن المغادرة تمت ليلا.

قال الزعيم و قد استشاط غضبا : سَلَّمَ الله يدي مستو البطل ، و لو لم يقتل مستو راقى لقتلته أنا بيدي ، هذا الغادر راقى
لقد أحسن إليه الرئيس فغدر به.

قلت : هل ترغب في مساعدة مستو ؟.

أجاب دون تردد : نعم و مهما كلف الأمر ، لقد حاولت و لكنني لم أستطع أن أفعل شيئا.

قلت : إن أمنت إطلاق سراحه بشروط هل ستوافق ؟.

قال : و ما الشروط ؟.

قلت : شرط واحد هو أن يغادر مستو السجن إلى أوربة و هناك سأؤمن له إقامة طيبة حتى تنجلي الأمور ، لا أريد له أن
يعود حتى لا يقتله أنصار راقى باشا.

قال بسرور : لك ما تشاء.

انتهى اللقاء و أنا سعيد بنتيجته ذلك أن إطلاق مستو و عدم عودته إلى البلاد سيحرم الجميع من فرصة تقديمه كبش فداء
لإطفاء الصراع و ستزيد من غضب أنصار راقى في قيادة الجيش ، لأن عدم محاكمته في البلد العربي الشقيق ستعني تحديا كبيرا
و إهانة مباشرة لهم.

اتصلت برشيد باشا و طلبت منه ترتيب تسفير مستو إلى أوربة و التظاهر بأنه قد فر من السجن بمعونة أقاربه.

بعد يومين أعلنت الجرائد فرار مستو من البلد العربي الشقيق و أعلنت حكومة ذلك البلد عن جائزة لمن يعتقله ، الرجل كان
قد وصل إلى أوربة بطائرة خاصة و انتقل إلى عاصمة دولة الإنتداب الأوربية (السابقة) و سكن في شقة كبيرة فارهة مع زوجته
التي كانت قد سبقته إلى هناك مع عمها شقيق الزعيم .

هذا الخبر جعل بلدنا تغلي كالمرجل ، و اشتد التحريض بين خصوم أبي الحُسن و بين عشيرته و العشائر المتحالفة معه ، وصل
الأمر حدّ أن اجتمع رئيس الأركان أمين بك و مساعده حليم بك مع رئيسي الدولة و الحكومة و اتفق الجميع على اعتقال
زعيم عشيرة أبي الحُسن و أبناء أبي الحُسن الأربعة بتهمة التآمر لقتل راقى باشا ، و عزموا على تنفيذ القرار و لو تسبب بحرب
أهلية.

و لكن ؛ في صباح اليوم التالي كانت فرقة من الجيش تأتمر بأمر عفيف بك (الكوردي) تحاصر القصر الرئاسي و دار الحكومة
و مبنى الأركان و دار الإذاعة التي بدأت البث بإذاعة البيان رقم واحد.

البيان كان مقتضيا و قصيرا حشد فيه عفيف بك الكثير من التهم لخصومه بالفساد و المحسوبية و التقسيم الطبقي ، و أكد البيان على أن الجيش سيصحح الأمور لمرة واحدة و إلى الأبد.

لم يتدخل العقيد "بديع" و ضباطنا الخمسة بالإنقلاب و تعمدوا سحب لواء الحرس الرئاسي إلى ثكنات تدريب قريبة من العاصمة في ليلة الإنقلاب و لم يتركوا إلا حراسات التشريفات التي استسلمت لفرقة عفيف باشا دون مقاومة.

لم يتمكن عفيف بك من اعتقال أحد من خصومه لأنهم كانوا قد اختفوا بقدرة قادر ، و لكنه استمر مع ذلك في انقلابه ، و أصدر قرارا بتعيين نبيه بك رئيسا لحكومة مديرين مؤقتة و حدد موعدا لإجراء انتخابات رئاسية بعد ثلاثة أشهر.

ما لم يتوقعه عفيف باشا هو أن أمين بك و حليم بك لم يكونا موجودين في العاصمة أثناء الإنقلاب و أنهما كانا مع فرقة أخرى أحاطت بالعاصمة في مطلع الشهر التالي لإنقلابه و دخلت مفاوز منها إلى العاصمة و توجهت إلى القصور و مباني الإذاعة.

علم عفيف بك و مساعده نبيه بك بما حصل و ساد الهلع العاصمة و أصبحت خلال ساعات مدينة أشباح .

شعر عفيف بك الرجل الذكي بأن جيمس قد غدر به و حاول إقناع نبيه بك بالفرار و لكن الأخير رفض و أصر على القتال ، و في محاولة أخيرة اتصل بي عفيف بك و طلب مني أن أؤمن له الحماية و أن أطلب من العقيد بديع الدفاع عن القصور .

ردي كان حاسما بأنني لن أطلب من أحد أن يريق نقطة دم و لكنني مستعد لتأمين مغادرة عفيف بك و نبيه بك و أسرتهما إلى بلد عربي مجاور .

وافق عفيف بك على الفكرة و وصلت سيارة من سفارة ذلك البلد إلى القصر الرئاسي و استقلها عفيف بك و أسرته مع سفير ذلك البلد إلى المنفى و إلى الأبد.

نبيه بك كان مصرا على القتال فأخلى مبنى الحكومة و حصن القصر الرئاسي و مبنى الإذاعة و مباني الأركان و وزارة الدفاع ذلك أنهم جميعا واقعون في مربع أبنية واحد ، ثم جعل من مبنى الإذاعة مقرا له و راح يذيع البيانات المتلاحقة الداعية إلى عدم التمرد على الشرعية و إلى أن يهب الشعب دفاعا عن ثورة الجيش ضد التسلط.

بطبيعة الحال لم يتحرك أحد من أفراد الشعب لمناصرته لأن الناس كان قد سئمت من الجيش و بياناته ، أما الجيش فكان ضباطه الأرستقراطيون مصرون على معاقبة عفيف و نبيه لأنهما أزاها حكومة مدنية.

قبل أن تصطدم القوات اتصلت باللاسلكي مع نبيه و مع أمين و حليم و أقنعتهم بمعونة والدي و سماحة المفتي بتفادي الصدام و التفاوض على نقل سلمي للحكم و الإجتماع لهذه الغاية في مبنى الإذاعة دون سلاح و بحماية العقيد بديع الذي أثبت حياديته خلال الفترة السابقة ، فهو لم يتدخل لمنع عفيف من تنفيذ انقلابه ، و بديع كان يعلم بمكان تواجد أمين و حليم و الرئيس المؤقت و لم يبلغ عفيف عنهما .

وافق الجميع على الفكرة و بعد ست ساعات من الإجراءات العسكرية دخل بديع بلوائه إلى العاصمة و تسلم من عناصر نبيه مبنى الإذاعة .

بعد عدة ساعات أخرى وصل أمين و حليم إلى مبنى الإذاعة دون سلاح بصحبة المفتي .

بعد أن تجمع الكل في قاعة الاجتماعات في جناح مدير الإذاعة بدأ الإجتماع بتلاوة من القرآن ألقاها على أسماعنا سماحة المفتي ، ثم انطلق رصاص بسطام و جلمود المثلثان ليحصد الجميع باستثناء المفتي و الرئيس و أنا و والدي بالطبع .

بعد ساعة خرج الرئيس و المفتي على الإذاعة في بيان مشترك أعلننا فيه أن صداما مسلحا وقع بين قطع من الجيش في محاولة للإستيلاء على السلطة قتل خلاله المجرم نبيه بك و استشهد أمين بك و حليم بك دفاعا عن الشرعية بينما لاذ المجرم عفيف بك بالفرار .

البيان أعلن عودة الشرعية إلى الحكم بقيادة الرئيس المؤقت و إعلان حالة الطوارئ و تعيين مجلس عسكري لإدارة البلاد بصفة وزراء يرأسه الحاكم العسكري بموجب قانون الطوارئ ، هذا الحاكم كان العقيد بديع البطل الذي فض الاشتباك و أنقذ الجيش من الانقسام و الحرب الأهلية .

بعد البيان استولى عبد الصبور بأمر مني على مبنى الأركان العامة و بدأ بإصدار الأوامر للقطعات بإخلاء العاصمة و العودة إلى ثكناتها .

في صباح اليوم التالي بدأ عصر جديد ، هو عصر القائد الخالد البطل العقيد بديع .

اعتقل الرئيس ليلة الانقلاب في جناحه في القصر ، بينما عاد المفتي إلى بيته يرتعد رعبا .

أما أنا فلقد انتقل مكثي إلى داخل القصر الرئاسي إلى جناح مجاور لجناح إقامة الرئيس الجديد العقيد بديع .

صدرت الصحف و على صدرها صور لجثث قادة الجيش القتلى هي ملقاة على مدخل مبنى الإذاعة و بأيديهم مسدسات و كأنهم قتلوا في تبادل للرصاص !! .

بعد أسبوع أعلن الرئيس المؤقت استقالته و غادر إلى بيته بصمت و هناك كان رهن الإعتقال المنزلي ، ثم أذاعت الإذاعة بيانا طويلا تلاه العقيد منير هذا أهم ما جاء فيه :

لقد تحررت بلادنا من الحكم التركي و لكنها لم تتحرر من ظلم تلك الفترة ، فالأرستقراطيون الأتراك لا يزالون يعاملون معظم سكان البلاد و هم العرب معاملة العبيد الأجراء و التابعين الأذلاء و يحرمونهم من ثروات وطنهم .

لقد تعاونت هذه الأرستقراطية مع الإنتداب الأوربي لضمان مصالحها و امتيازاتها غير مبالية بكرامة الأمة و سيادة البلاد و هذه خيانة عظمى للبلد الذي أكلوا من خيراته و تربوا تحت شمسهم.

إن الإنقسام الطبقي هو السبب الأول في جميع مشاكل البلاد ، و الصراع على امتيازات السلطة بين الأرستقراطيين قد حرم البلاد من الإستقرار و كاد يوقع حربا أهلية وقودها أبناء الجيش و معظمهم من العرب الفقراء و أبناء الطبقات الكادحة.

لقد هبت نخبة من العرب الأقحاح أبناء الجيش الوطني من أبناء الكادحين غير الأرستقراطيين لتخليص البلاد من آثار الإحتلال التركي و ما كرسه الإنتداب الأوربي من الظلم الطبقي و لإعادة حكم هذا البلد العربي إلى العرب أصحاب الأرض لأول مرة منذ ثمانية قرون .

أيها الفقراء يا من لا تحملون ألقابا نبيلة و لا تملكون آلاف الهكتارات و عشرات القرى و المصانع أنتم اليوم تحكمون بلادكم بيد أبنائكم الضباط الثوريون.

عاش الوطن عاشت الحرية عاش الفقراء يسقط الإضطهاد و تسقط الطبقة.

خرجت الجموع يومها في العاصمة بالفعل بشكل عفوي إلى الشوارع ، الجميع كان يعانق الجنود و يقبلهم و يقدم لهم شراب الورد ، لقد صار الفقراء سادة بحسب البيان و لم يعودوا مجرد "دراويش" على باب الله !!.

خلال الشهر الأول الخطير من حكم العقيد بديع كان يجب أن نركب على عجل شبكات التحكم في كل شيء ، لقد كانت معدة بعناية و لكنها كانت بحاجة إلى تثبيت ، و قمنا بالفعل بإنجاز تثبيتها في مدة تزيد قليلا على عشرة أيام ؛ استولى العقيد لويس على مباني المخابرات و تمت إحالة نادر بك رئيس المخابرات على التقاعد ، و بعدها بأيام عين ضباط مخبرات من نفس الأقلية الدينية التي ينتمي لها لويس في إدارة الإتصالات السلكية و البرق و إدارة شبكة القطارات العامة و الموانئ الرئيسية و المطار الدولي بدل مديري هذه المؤسسات الذين أحيلوا جميعا إلى التقاعد سرا و بأوامر إدارية فردية صدرت تباعا ، و طبعا جميع المدراء الجدد كانوا مدرين جيدا على مهماتهم الجديدة في أوربة.

صدرت قرارات أخرى بتعيين أمناء عامين لكل الوزارات و لرئاسة البلاد و لرئاسة الحكومة و لمجلس النواب بلغ عددهم خمسة و عشرين أمينا عاما كلهم من الأقلية الدينية التي ينتسب لها لويس و ريمون و كلهم من أساتذة الجامعات - الذين تخرجوا من جامعات أوروبية بمنح دراسية تحدثنا عنها في بداية المذكرات - باستثناء والذي الذي عُيّن أمينا عاما لرئاسة البلاد و مستشارا قانونيا للعقيد بديع رئيس البلاد و زعيم الثورة الشعبية ، و عينت أنا في منصب وهمي هو رئيس مكتب والذي !. مهمات هؤلاء الأمناء تختصر فيما يلي : هؤلاء الأمناء العامون معنيون بالشؤون الإدارية للوزارات بداية من العناية بالمباني إلى شؤون الموظفين ، و بهذا يشرف الأمين العام على كل عمل الوزارة من عمل البواب و الحارس و انتهاء بالوزير ، و يراقب و يرفع تنفيذ أوامر الوزير ، و من مكتب الأمين العام تصدر جداول أعمال إجتماعات الوزير و نوابه و مديري الإدارات الكبرى و هو الذي يقدم للوزير مقترحات القرارات الوزارية و جميع التقارير عن عمل الوزارة و على ضوء بريده يقرر الوزير ما يفعله و ما يقرره ، و حينما يغيب الوزير يحل هذا الأمين محله في إدارة الوزارة ، بالمختصر هو وزير فعلي في الظل ! بحسب القانون يأتمر هذا الأمين بأمر الوزير و لكن هذه السلطة مجرد سلطة نظرية في حالتنا نحن .

كان الأمناء العامون للوزارات موجودون منذ عهد الإنتداب و لكنهم كانوا بدون سلطة إذ كانوا مجرد كتبة و منظمي مواعيد و إجتماعات و يهتمون بالتشريفات إلا أن مراسيم تعيينات أمنائنا العامين الجدد كلفتهم بمهام كبيرة جعلت من الوزراء و الوزارات ألعوبة بأيديهم يحركونها كيف يشاؤون.

في خلال الشهر الأول تم عزل كل الضباط أصحاب الألقاب و الأصول الأرستقراطية من قيادة القطع العسكرية الميدانية و نقلهم إلى وزارة الدفاع و تعيينهم في مهمات إدارية كالشرطة العسكرية و إدارات التموين و التدريب و غيرها من المهمات الغير قتالية و عين بدلا عنهم ضباط من أبناء الريف و المناطق الفقيرة.

صدر قرار آخر بتوسيع ملاك جهاز المخابرات و قبول متطوعين فيه ، القرار كان سريا و تنفيذه كان سريا أيضا ، لقد كانت الغاية منه استيعاب كافة أعضاء منظمي السرية في المخابرات ليكونوا القوة الأكبر في هذا الجهاز و لتحميل ميزانية الدولة تكاليف "القبضات" الذين تغير اسمهم إلى "مخبرين" و حملوا رتبا عسكرية متدنية كرتبة عريف و رقيب و نائب ضابط و هكذا صار جلمود و سالم و بسطام جنودا نظاميين في مخابرات الوطن و لديهم رخصة قانونية لقتل من يريد.

تسلم العميد عبد الصبور رئاسة الأركان و تولى ضباطنا مهمات الوصاية على البلاد في مجلس أسموه "مجلس قيادة الثورة". و بعدها بشهر آخر تمت تسمية رئيس مدني للوزراء و تعيين أربعة و عشرين وزيرا مدنيا يشرف على كل ستة منهم أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ، و الواقع أن الوزراء و مجلس قيادة الثورة و الرئيس نفسه كانوا خلال هذه الفترة مجرد تماثيل

متحركة من الشمع لا عمل لها سوى الحضور إلى المكاتب صباحا و التوقيع على بضعة أوراق ثم التمتع بالفطور و الغداء و لقاء المهنيين و المهنيات ثم العودة إلى زوجاتهم و أسرهم مساء.

بعد هذين الشهرين الحاسمين اشترينا لطاغم المستشارين الأوروبيين مبنى كبيرا قريبا من القصر الرئاسي و جهزناه لسكنهم و معداتهم و مكاتبهم و خصصنا لهم مفازز سرية للحراسة معظمها من القناصين المدربين جيدا ، و طاقما من المراسلين السريين مع عرباتهم ، و زدنا عدد لواء الحرس الرئاسي ليصبح ضعف حجمه و ضعف قوته و تولى هذا اللواء وحده حراسة كل المباني السيادية في العاصمة و تولت قيادته الإشراف وحدها على كافة حراسات المباني الحكومية في البلاد و أسندت قيادته سوريا إلى قائد شاب يدعى المقدم زيد و هو من أقلية دينية تنتحل صفة الإسلام سيأتي الحديث عنها لاحقا ، أما القيادة الحقيقية لهذا اللواء فكانت للكابتن هنري الملحق العسكري لسفارة دولة الإنتداب الأوربية "سابقا".

خلال هذين الشهرين رتبنا الكثير من اللقاءات بين الرئيس بديع و بين علماء الدين المسلمين من كافة المناطق ، كنا نرسل لهم الدعوات بسيارات رئاسية إلى منازلهم و نقلهم إلى القصر بمراكب رئاسية و يقيمون أياما في عز و دلال في فندق العاصمة الكبير ثم يحضرون للقاء الرئيس في مواكب تشريفية ، و خلال اللقاءات كان الرئيس بديع يتحدث إليهم بغضب و حنق عن تواطؤ الأرستقراطيين مع دولة الإنتداب الأوربية سابقا و عن سماحهم بفتح المواخير و دور القمار و بيع الخمر و قيام نساء بعضهم بالظهور من غير حجاب ، و يخبر المشايخ عن مخازي هؤلاء الأرستقراطيين و الحفلات الماجنة كانت تشهدها قصور بعضهم و طبعا كان يدعم كلامه بصور و وثائق جمعتها منظمتي السرية بعناية و تأن.

كانت ردات فعل المشايخ هي تهنئة الرئيس على غيرته على الدين و مبايعته و التعهد بدعمه إلى النهاية ، كان يرد عليهم بأنه مسلم أولا و عربي ثانيا و أنه لن يرتاح إلا بالقضاء على المنكرات في البلد و إعادة الحشمة إليها و القضاء على آثار الحكم الأوربي اللعين ، حسب تعبيره.

في نهاية شهر من هذه اللقاءات أصدر الرئيس المؤمن بديع سلسلة قرارات رئاسية تمنع بيع الخمر في البلاد و تجرم الزنا و السفور و التحرش بالنساء و الحفلات المختلطة ، و قرارا هاما جدا باستحداث وزارة وطنية للأوقاف الدينية مهمتها رعاية الأوقاف الدينية لكافة الديانات و تولي النظارة العامة على كافة الأوقاف و دور العبادة و تعيين رجال الدين في وظائفهم و تحديد مرتباتهم و نقل هذه المهمة من دار الإفتاء إلى يد الحكومة و نقل كل أموال نظارات الأوقاف العامة إلى المصرف الوطني ، و ذيل القرار بتعيين المفتي الحالي وزيرا للأوقاف .

في قرار آخر أعلن الرئيس بديع عن استحداث منصب المفتي العام للبلاد و تعيين مُفتٍ جديد بدل المفتي الحالي الذي صار وزيرا للأوقاف ، مهمة المفتي الجديد كانت قانونية بحتة و هي المصادقة على قرارات محاكم الأحوال الشخصية و هي محاكم

تعتمد الشريعة الإسلامية ، أيضا كانت مهمة المفاتي المصادقة على كافة أحكام الإعدام الصادرة من المحاكم الجنائية و العسكرية و طبعا كلا المهمتين كانت صورية تماما .

رحب المشايخ بالقرارات بحرارة و وفوا ببيعهم للرئيس المؤمن بديع و أحجموا تماما عن مساندة الأرستقراطيين بل و قلبوا لهم ظهر المجن .

في نهاية الأشهر الثلاثة الأولى للثورة أصبح من المستحيل على الأرستقراطيين استرداد الحكم من أيدينا إلا بحرب أهلية عشائرية تدمر البلاد ، لقد فقدوا كل مناصريهم من العامة و كان آخر من تخلى عنهم المشايخ .

أدرك الأرستقراطيون صعوبة موقفهم ، و بدأت بينهم حركة من الإتصالات و الزيارات المتبادلة لتقييم ما حصل ، إلا أن اتفاقهم على إجراء موحد كان شبه مستحيل بسبب التوتر القومي و العشائري بين تركمانهم و كوردهم ، و لقد زدنا من انقسامهم هذا بتقرب الرئيس و طاقمه من الأرستقراطيين الجراكسة و القوقازيين و عدم مساسه بمناصب هذه القومية في الشرطة و الجيش ، لم تكن مناصب خطيرة و لكنها كانت كافية لتحديدهم و جعلهم يميلون في صراع الأرستقراطيين إلى جانب الكورد مما عدل كفة هؤلاء مقارنة بخصومهم ذوي الأصول التركية .

لقد استقر الأمر تماما في أيدينا .

أرسل إلي جيمس في الشهر الرابع استدعاء إلى قصره في جنيف ، لقد كانت دعوة لحضور حفل كبير شارك عدد من أصحاب المعالي البارونات و أحياء مغنون و راقصون و راقصات و استمر إلى الصباح .

في اليوم التالي للحفل عقدت مع جيمس اجتماعا سلمني خلاله حقبة جديدة فيها مهمة كبيرة جديدة .

قال جيمس : سيقوم خالك بالاتصال بكافة الأرستقراطيين و الصناعيين الكبار في بلادكم و سيعرض عليهم ما يلي : أولا إن الحكم الجديد ينوي في الخطوة التالية الإستيلاء على كافة أملاك و عقارات و مصانع الأرستقراطيين ، و سيكون هذا بطريقة الإستملاك أي مقابل دفع تعويضات تافهة و السماح بالاحتفاظ ببعض الممتلكات الضرورية لعيش كفاف .

قلت : هل تظن أنهم سيسكتون عن هذا ؟ .

قال : إذا عرف خالك كيف ينقل إليهم الخبر فلن يحركوا ساكنا ، خالك سيأتي إلى كل واحد من المائة الكبار على حدة و سيعقد معه صفقة صغيرة و سيخبره بالخبر مع إبدائه لشديد الإستياء و سيقول : أنا عرفت بهذا من زوج أختي مستشار الرئيس و لذلك قررت تصفية أملاكي و نقل أموالي إلى شركتي في أوربة ! طبعا سيطلبون منه جميعا المساعدة لتصفية أملاكهم و الانتقال إلى أوربة ، سيعرض عليهم المساعدة إنما بتردد و خوف و بعد أن يقسموا أيمان الطلاق و الحرام على كتمان الأمر

، سيؤمن لهم زيارات إلى هنا ليروا بأنفسهم وطنهم الجديد و الحقل الذي سيغرسون فيه أشجارهم بعد نقلها من بلادهم ، سنكون هنا لاستقبالهم بترحاب!.

قلت ساخرا : هل ستلحقوهم بأي الحُسن ؟.

نظر إلي واجما و قال بحدة و هدوء و حزم : لا طبعا ! هؤلاء الناس ليسوا أشخاصا عاديين كما تظن ، إنهم خزائن معرفة بلادكم التي تجمعت على مدى ثمانية قرون ، إنهم يختزنون هذه المعارف في وعيهم و في تصرفاتهم و سلوكهم و عاداتهم و ثقافتهم في أشكالهم و مورتاتهم التي تشكلت على مر الزمن من اختيار أفضل الأمهات من أفضل السلالات الذكية ، أي واحد منهم قادر على أن يبني دولة كاملة و لديهم القدرة على تحويل أي بلد منهار إلى بلد متقدم في أقل من عقد واحد ، عندما طردنا الأتراك من بلادكم و استولينا عليها تحالف هؤلاء الأرستقراطيون ضدنا و نظموا مقاومة سلمية اضطرننا معها للخروج من بلادكم ، ثم العودة بطريقة أخرى ، كنا نأمل بأن يخدموا عرش دولتنا كما خدموا عرش الترك و لكنهم رفضوا ، استطعنا الآن و بعد جيلين كاملين و بعد جهد جبار أن نضعهم أمام خيار صعب يجبرهم على خدمة عرشنا ، و سنسمح لهم بذلك و سنقدم لهم كل مساعدة و سنرحب بهم بما يليق بمكانتهم كأرستقراطيين كبار و سنرحب بشراقتهم و خبراتهم في بلادنا التي تتقدم سريعا.

عند عودتي إلى البلاد كان بحوزتي ملف ضخمة للمهمة الجديدة ، كانت الأهم على الإطلاق في تاريخ عملي لأنها كانت الأكبر كسبا و الأعظم أثرا في تثبيت أركان سيطرتنا على البلد إلى أمد غير منظور ، سأحاول تلخيص هذه المهمة في السطور التالية :

الأرستقراطيون في بلادنا كانوا أيضا طبقات و أصنافا ، فالباشوات الكبار كان عددهم لا يتجاوز المائتين في كل البلاد و لكنهم كانوا يسيطرون على أكثر من عشرين بالمائة من ثروات البلاد ، بقية الأرستقراطيين من مرتبة بك و آغا كانوا يعدون بنحو عشرة آلاف إلا قليلا ، هؤلاء في معظمهم من رؤساء العشائر الكبيرة و الأسر الثرية المتوسطة الجدة ، و هؤلاء كانوا يسيطرون على أكثر من بقليل من ثلاثين بالمائة من ثروات البلاد ، هذه الثروات كانت موزعة على استثمارات و أملاك متنوعة ، فهم يملكون عقارات تجارية و سكنية ، أراض زراعية واسعة جدا ، مصانع متنوعة تبدأ بمصانع النسيج ، و مصانع المنتجات الزراعية كالمطاحن و مصانع المأكولات و المشروبات المحفوظة و مقاشر الأرز و القمح و تجفيف الحبوب ، و تتنوع حتى تصل إلى مصانع قطع غيار الآليات الثقيلة و يملك هؤلاء أيضا وسائل النقل الجماعي من سفن و شاحنات كبيرة و شبكة قطارات أولية و شركة صغيرة للطيران ، و مصانع متنوعة لصناعة الذخائر الحربية .. إلخ.

أهم هذه الثروات كانت في الواقع "النفائس" بجميع أنواعها ، لقد جمعت العائلات الأرستقراطية على مدى حكم ثمانية قرون كنوزا طائلة من الجواهر و الدفائن الأثرية المستخرجة من أراضيهم و التحف النادرة و المخطوطات التي لا تقدر بثمن ، هذه النفائس كانت في الواقع أغلى أملاك هؤلاء الأرستقراطيين و لا أبالغ إن قلت بأنها أعظم قيمة من سائر أملاكهم الأخرى ، فهذه الأسر الغنية كانت تحجي الأموال و تدخرها في هذه النفائس تقليديا ، و بعد الإنتداب و إنشاء حكومة على النموذج الأوربي لم تفلح البنوك و العملة الورقية أبدا بإقناعهم ليدخروا فيها أموالهم.

كان هؤلاء الأرستقراطيون متحاسدون إلى درجة كبيرة ، و اتضح هذا من خلال قيام خالي معروف بك و شقيقه مشعل بك و نجدت بك بمهمة إبلاغ الباشاوات الكبار على كل حدة بقرب استيلاء الحكومة الجديدة على أملاك الأرستقراطيين ، فلقد طلبوا جميعا خلال لقاءات مبعوثينا من أخوالي كتمان الأمر تماما ، قبل أن يطلب من أخوالي منهم كتمانهم ، و خلال مراقبتنا لإتصالاتهم لم نرصد مكاملة واحدة بينهم فيها تسريب للخبر ، هذا التحاسد سهل كثيرا علينا مهمتنا الضخمة جدا التي استمرت لخمس سنوات متوالية.

في البداية بدأ أخوالي بعرض جميع الأبنية التجارية التي يملكونها للبيع و عددها عشرون بناية تقع كلها في مراكز المدن الكبرى ، كانت الطريقة الصحيحة حتى يوقن الباشاوات بأن الخبر صحيح و أن أخوالي يعملون بمقتضاه ، طبعا الأبنية تم بيعها بأسعار مخفضة بلغت ثلثي الثمن الحقيقي ! أما المشترون فكانوا أبناء عمومة أخوالي من الفرع الآخر للأسرة ، و كانت شركتنا هي المشتري الحقيقي بلا شك !.

لاستكمال الخطة تم إيداع ثمن هذه الأبنية في المصرف الوطني ، ثم قام أخوالي بتحويل هذه المبالغ إلى عملات أوروبية و اشتروا بقسم كبير منها سبائك ذهبية من أسواق عربية مجاورة ، و اشتروا بقسم منها سفينة نقل للركاب و البضائع من الحجم المتوسط .

شحنت السفينة بالكثير من المفروشات الثمينة و بصناديق تحتوي على الأموال التي جُمعت ثمننا للمباني و غادر على متنها أخوالي الثلاثة و أسرهم و اصطحبوا معهم سامي باشا أحد أبناء الراحل خليل باشا و عميد أسرته ؛ ضيفا ! الواقع أن الرجل انضم إليهم ليعاين فرارهم من البلاد بأموالهم و ليرى أين سيستقرون.

وصلت السفينة بعد عشرة أيام إلى الميناء الأوربي الجنوبي لدولة الإنتداب "سابقا" ، كان البارون جيمس بنفسه في استقبال أخوالي و مرافقهم سامي باشا و كان الترحاب واضحا جدا.

الأيام السبعة الأولى لدخولهم لأرض المهجر أمضاها أخوالي و سامي باشا في أرقى فنادق عاصمة الدولة الأوربية ، استمتعوا بعروض الأوبرا و التسوق و التمتع بالفرجة على عدد من قصور البارونات و عليّة القوم من أصدقاء جيمس ، و بعد انقضاء أسبوعهم الممتع هذا أخبرهم جيمس بأن شركته قد أنهت ترتيبات استقرارهم .

تسلم كل واحد من أخوالي فيللا فخمة جدا في ضواحي العاصمة الراقية ، الفيللات أثبتت بمحملته سفينة أخوالي من أثاث و نفائس ، ثم تسلم أخوالي مفاتيح محل تجاري كبير تعلوه شقة فخمة في الحي التجاري وسط العاصمة ، ثم التقوا بمدير مصرف أوربي كبير و أودعوا عنده أموالهم و سبائلكهم في حسابات سرية.

بعدها بأيام التقى أخوالي برئيس حكومة ذلك البلد الأوربي و تسلموا منه وثائق الجنسية الأوربية لهم و لكل أفراد أسرهم ، كل هذا تم بحضور سامي باشا الذي كان مذهولا مما يرى.

بعد أن أمضى سامي باشا شهره الأول في أوربة عاد بالطائرة إلى البلاد على جناح السرعة ، كان قد حصل وعد من خالي معروف بك بشحن ذخائر أسرته إلى أوربة دون عوائق و بمساعدته في تصفية أملاكه و ثروته و ثروة أسرته.

أخبار الرحلة سبقت وصول سامي باشا إلى البلاد ، في نفس الأسبوع نظم أبي مرسوما أصدره الرئيس بديع ، هذا المرسوم أثار الرعب الحقيقي في الباشاوات فلقد ألغت الدولة بموجبه الألقاب النبيلة و امتيازات أصحاب هذه الألقاب و تقرر اعتبارهم مواطنين عاديين كبقية أفراد الشعب.

كرّت السلسلة بعد سامي باشا و بدأت شركتنا تعمل كالمشار ، لقد كنا نشترى بيد وسطاء من طرفنا أملاك الأرستقراطيين بأسعار تزيد بقليل عن نصف ثمنها الحقيقي ، كنا نغريهم بالدفع نقدا و فورا ، ثم نبيع لمشتريين آخرين من التجار الأثرياء (غير الأرستقراطيين) و لأصحاب المعالي من الأرستقراطيين الصغار بأرباح جيدة تزيد على العشرين بالمائة و أكثر.

ثم ساعدنا أصحاب المعالي الباشاوات على تحويل أثمان ممتلكاتهم إلى نقود أوربية و سبائك ذهبية ، هذا أيضا كان عملا راجحا جدا ؛ لقد حاول جميع هؤلاء تجنب المصرف الوطني ، اشترينا كل شيء منهم و بعنا كل شيء ، الأسهم و السندات ، العقارات و الأبنية ، المصانع و آليات النقل و حتى البساتين و المزارع الصغيرة ، فقط لم نشتر منهم الأراضي الزراعية و القصور ، كان عارا كبيرا على أي أحد أن يبيع أرضه أو دار آبائه ، عموما هذه الممتلكات التي احتفظوا بها كانت قيمتها أقل من عشر ثرواتهم.

عملت سفينتنا الفخمة ثلاثة أعوام متواصلة في نقل هؤلاء الباشاوات و نفائسهم و أموالهم إلى أوربة بكل أمان و احترام و استقبلهم مندوبوا البارون جيمس و أمنوا لهم نزولا ملكيا حقيقيا على أرض بلد الإنتداب "سابقا" ، لم تكن خدماتنا لهم في أوربة مجانية فلقد اشترطنا أخذ عشرة بالمائة من الأموال و النفائس التي نقلناها ، أيضا لم نسمح لهم بالإحتفاظ بنفائسهم في

قصورهم الأوربية الجديدة و حملناهم بتخويفهم عليها من السرقة و السطو على إيداعها في خزائن خاصة في البنوك السويسرية الشهيرة ، ثم أغريناهم لاحقا ببيع الكثير في مزادات الأثرياء لتحويلها إلى نقود سائلة تستخدم في الإستثمارات المتعددة.

اكتمل انتقال الباشاوات و أسرهم إلى أوربة في ثلاثة أعوام ، خلال هذه الأعوام تردى الوضع الإقتصادي العام للبلاد بشكل ملحوظ ، كانت صحافة "الثورة" توجه اللوم دوما إلى الطبقات الغنية على تردى الإقتصاد ، و رغم أن الرئيس بديع كان دائم الزيارات للتجار و الأرستقراطيين الصغار إلا أن زيارته لم تخفف من حدة اللهجة العنيفة في الصحافة ضدهم ، لقد تولى العقيد منير الشبوعي الميول حقن الجرائد بكتّاب شيوعيين ركزوا هجماتهم على الأثرياء و شحنوا الجو العام ضدهم ، لقد جعلت الصحافة من الأثرياء نسخا عن دراكولا و مصاصي الدماء ، و كان المرء يرتاع فعلا من بشاعة التصوير الذي تعرضه الصحافة بمبالغات ضخمة للعلاقة بين الفلاحين و العمال و الحرفيين و بين أرباب العمل الأثرياء .

رغم كل هذه الحملات إلا أن كلمة واحدة لم تنشر في الصحافة عن اختفاء كبار الأرستقراطيين من البلاد و عن تصفية أملاكهم ، لم تنشر كلمة واحدة عن اختفائهم لا في صحافتنا و لا في أي وسيلة إعلام في العالم كله.

هذا الجو المشحون ضد الأرستقراطية سمح لنا بالتوجه إلى كبار الأرستقراطيين الصغار بدورهم لإقناعهم بالفرار بما يمكن إنقاذه ، لم نشتر من هؤلاء ما كنا قد بعناه لهم لأننا كنا قد أسسنا مصرفا كبيرا أسميناه مصرف الإستثمار الوطني ، كانت مهمة هذا المصرف شراء استثمارات متنوعة ثم تشغيلها لصالح المودعين ، جعلنا هذا المصرف شركة مساهمة غير محدودة و أقنعنا بحملاتنا الدعائية أكثرية أهل المدن بشراء أسهم فيه ، هذا المصرف هو الذي سدد لهؤلاء الأرستقراطيين الصغار ثمن أملاكهم و ما قاموا بشرائه من أرث الباشاوات ، لقد أقنعنا أبناء الطبقة الوسطى و كانوا أكثرية تسعة أعشار السكان بدفع قيمة أملاك الأثرياء مقابل وعود بعائدات استثمار كبيرة.

استأجرنا خلال العامين الأخيرين من هذه المهمة أربعة سفن كبيرة تشبه سفيتنا العتيدة و نقلنا على متنها ألوفاً من أبناء الأسر الأرستقراطية مع أموالهم و ذخائرهم إلى بلاد أوربة.

في إحدى رحلاتي خلال تنفيذ هذه المهمة التقيت بجيمس و إدموند على مائدة عشاء خاص حضره والدي ، و خلال العشاء سألت إدموند : هل أنت سعيد بما تحقق ؟.

قال : لقد أنجزتم في السلم ما عجزت جيوش أوربة كلها عن إنجازه بالحرب ، لقد احتلت هذه الجيوش بلادكم و فصلتها عن إمبراطورية الأتراك و لكنها عجزت عن إقناع الأرستقراطيين بخدمة عرش بلادنا و بالتخلي عن فكرة مقاومة حكمنا بكافة الوسائل ، و لم تجرؤ جيوش الإنتداب الأوربي على اقتحام قصور أرستقراطيكم لأخذ كنوزها الهائلة لأن كل شيء في البلاد

كان سيقاتل جيوش أوربة معهم ، أنتم هذا الفريق الرائع استطعتم أن تجعلوهم يتوسلون إلينا لنقبلهم تحت عرش بلدنا و فوق ذلك أفرغوا قصورهم و كنسوا كنوزها و حملوها إلى خزائن بلادنا بأيديهم ، أنتم بحق أعظم شأنا عندي من القديسين كلهم !. تخيلت نفسي عند سماع كلامه و قد تحولت إلى أيقونة في صدر قصر البارون و حول رأسي دائرة مضيئة كتلك التي يرسمها رساموا الكنائس فوق رؤوس القديسين في الأيقونات .

خلال هذه السنوات الخمس كنا قد نفذنا مهمات كبيرة أخرى لكنها كلها كانت تصب في خدمة إنجاح هذه المهمة الهائلة جدا ، سنتحدث عنها تاليا ، و لكن لأعطي فكرة عن ثمرات هذه المهمة أستطيع أن أقول أننا نفذنا مهمات مماثلة لها في عدة دول عربية أخرى ، لقد قفز بسبب هذه المهمات أداء الإقتصاد الأوربي كله إلى مستويات قياسية غير مسبقة من النمو و الرفاه و امتلأت متاحف أوربة بكنوز شرقية لم يكن يحلم برؤيتها لا هرقل و لا نابليون و لا تشرشل.

بقي أن أقول أنه في نهاية تنفيذ هذه المهمة الخمسية انخفضت قيمة عملتنا الوطنية إلى النصف.

أمر الحكم الجديد لم تكن تسير بيسر و سهولة خلال السنوات الخمس التي شهدت تفريغ البلاد من الأرستقراطيين ، صحيح أن فرط عقد الباشاوات كان سهلا إلا أن خطرا كبيرا كان ينتظر تحت الرماد حكومة الزعيم الأوحده بديع ، فرجال الدين المسلمين و خاصة أكابر شيوخهم و الأرستقراطيون الصغار كانوا قد عادوا إلى التواصل و تبادل الآراء و إلى زيادة تعاون قديم متوارث بينهم استمر ألف عام متواصلة ، لقد كان الأرستقراطيون عموما يعتمدون على الشيوخ لترتيب علاقاتهم مع العامة في كل شيء تقريبا ، فالشيوخ هم قنوات الإتصال الدائمة بين قادة المجتمع من الأرستقراطيين و بين أصغر فرد من العامة ، و عبر الشيوخ كان يصل إلى الأكابر ما يؤلم الأصاغر و ما يحتاجونه ، و عبر الشيوخ كانت أوامر الأرستقراطيين تصل إلى العامة بعبارات لطيفة و مغلفة بما يحبها لنفوس الناس البسطاء ، لقد كان الشيوخ يحتزنون ذاكرة الشعب و الحكام في آن معا.

لم يكن يوجد أحد من رجل أو امرأة في البلاد طولها و عرضها يجد غضاضة في التحدث حتى عن علاقته الجنسية بزوجه مع أي شيخ في البلاد ، دون أن يخشى أن يتسرب من حديثه حرف واحد ، الشيوخ كانوا هم رعاة شبكة "الضمان الإجتماعي و الصحي" التي تؤمن للفقراء ما يسد أكثر حاجات معيشتهم و طبابتهم و إنقاذ مفلسيهم من الحبس و المصادرة ، الشيوخ كانوا هم الذين يستقبلون الصغار حين يحضرون إلى الدنيا و هم من يزوجهم حين يشبون و هم من يودع الكبار إلى مثوهم الأخير ، الشيوخ كانوا هم أول من يدخل إلى أي مبنى تم بناؤه أو شراؤه حديثا ليقيموا فيه المولد و مجالس الأذكار حتى يصير المبنى مباركا !.

أما صغار الأرستقراطيين فكانوا هم المصدر الرئيسي لتمويل المشايخ بعد عائدات الأوقاف الخيرية العامة ، و هم كانوا مصدر حماية المشايخ من الشغب أو التطاول على مقامهم و سلطتهم و احترامهم ، و بالمقابل كان المشايخ يرفعون السلام الإجتماعي الذي يحمي ثروات الأثرياء و سلطتهم.

العامة يقدمون للمشايخ سمعهم و طاعتهم ، و العامة يقدمون للمشايخ الأجيال الجديدة من رجال الدين أيضا ، فشاب العامة المتحمسون لتراثهم و المعتزون بهويتهم كانوا يلتفون حول رجال الدين لدرجة الإلتحام ، و هم من يؤمن الاتصالات الفردية الغير مباشرة بين المشايخ و بين النشأ و بين المشايخ و بين أجواف بيوت العامة و يدخلون تعاليم المشايخ إلى حوارات الأسر التي تدور أثناء تحلقهم حول موائد الوجبات اليومية.

هذا الكلام عن علاقة المشايخ و الأكابر بالعامة سمعته من أحد أكابر أساتذة السياسة و هو البروفسور أوسكار أثناء لقائي به في قصري في جنيف بحضور البارون جيمس و والدي ، اللقاء كان بعد خروج آخر الباشاوات الكبار من البلاد ، و كان مقدمة ملف ضخيم احتوى على تفاصيل المهمات الكبرى التي كان علينا تنفيذها في السنتين الأخيرتين من خماسية رحيل الأكابر.

سألت البروفسور أوسكار : هل سنكون مضطرين لإلغاء المشيخة و الأوقاف كما حصل في تركيا ؟.

قال : لا ما حصل في تركيا كان باتفاق سري وافق عليه الأرستقراطيون الكبار هناك ، أما عندكم فالأمر ليس بهذه السهولة ، إن مجتمعكم أكثر تدينا بكثير على كل المستويات من المجتمع التركي الذي كان قريبا جدا من النمط الأوربي ، و يستحيل تقريبا أن نلغي هذه المؤسسات دون أن نواجه حربا شعبية عندكم كما حصل في أقصى شمال غرب إفريقيا.

قلت : ما الحل إذا ؟ هذا الخطر كبير جدا و قد يدمر كل ما بيننا حتى الآن.

قال : لقد أسس عدد من زملائنا من أساتذة الأحرار الكبار نظامين فكريين موازين للدين الإسلامي ، أولهما هو التنظيمات الشيوعية التي تجادل بقوة بين الفقراء لتوضح لهم أن أموال الأغنياء و امتيازاتهم كلها إنما هي من ثمة جهد العمال و الفلاحين الفقراء ، و ليس هناك أسهل طبعاً من تحريض الجائع على الشعبان.

أما الثاني فإنه يشبه الدين في المظهر تماما إلى درجة مذهلة ، مهمة هذا النظام ستكون تجريد المشايخ و بقية الأرستقراطيين من كل أسلحتهم و إمكانياتهم و عزلهم عن العامة تماما.

قلت : هل تعني الجمعيات التي تدعو إلى النهضة و التجديد الديني ؟

قال : نعم بالتأكيد هي جزء من هذا النظام ، ستجد كل شيء في الملف ، لكنني سأحكي لك قصة توضح لك كيف يعمل هذا النظام :

كان في إحدى المقاطعات النائية أحد اللوردات الجشعين ، كان يستولي بالقوة أو بالإبتزاز على ما يحيط بأرضه من المزارع الصغيرة ، في إحدى هذه المزارع كان يوجد رجل قوي و مسلح و لديه الكثير من الماشية و زوجة جميلة جدا ، و لهذا الرجل ابن شاب مقاتل شجاع إلا أنه غرّ لم يعرف الخدع و لم يعاشر محتالا أو كاذبا في حياته ، كان الأب و الابن يتعاونان على حراسة المزرعة و حال غياب أحدهما كان الثاني يمسك بالسلاح و يحرس المكان فلم تكن تخلو المزرعة من أحدهما.

حاول اللورد الجشع مرة أن يتحرش بهذا المزارع لكنه فشل لأن المزارع كان شجاعا و مسلحا و يقظا و خاف رجال اللورد أن يعرضوا حياتهم للخطر في مواجهة هذا المزارع فأحجموا عن استعدائه ، إلا أن اللورد لم ينس هذا المزارع و زوجته الجميلة و بيته القديم الكبير الجميل ، سمع محتال بأمر هذا المزارع فجاء إلى اللورد و قال له : أنا أخلصك منه و من ابنه بشرط أن تعطيني عشر ذهبيات مقدما و أربعين ذهبية بعد أن تستولي على المزرعة ، وافق اللورد و أعطى المحتال عشر ذهبيات ، مضى المحتال إلى مهمته ، فجاء إلى أرض قريبة من المزرعة و معه فأس و انتظر مرور ابن هذا المزارع ، فأظهر نفسه ليراه و تظاهر بأنه يحفر الأرض بقوة ، سأله الشاب ببراءة : هل تحتاج إلى مساعدة ؟

قال المحتال : نعم ما اسمك ؟.

قال الفتى : اسمي يوسف . تظاهر المحتال بأنه تفاجأ و ذهل من اسم الفتى ، ثم سأله باستعجال : ما اسم أبيك ؟. قال الفتى بتعجب : اسمه يعقوب !. قال المحتال و قد جثا على ركبتيه باكيا : يا إلهي شكرا لك لقد استجبت دعائي و أنقذتني من حيرتي و من الفقر الذي أرهقني .

اقترب الفتى من المحتال ثم قال : يا عم ما قصتك ؟ و ماذا تفعل هنا ؟.

قال المحتال : يا بني أنا حفيد رجل غني جدا كان يملك هذه الأرض و كان ساحرا كبيرا ، أخبرني أبي أن جدي دفن كل ثروته قبل أن يموت في هذه الأرض حتى لا تأخذها زوجته الشابة ، و ترك جدي لأبي خريطة و تعويذة للكنز ليستخرجه بعد وفاته ، إلا أن أبي مات بالسبل بعد وفاة جدي بقليل و بقيت الخريطة مع أمي التي أعطتني إياها قبل موتها هي الأخرى.

قال الفتى : و ما شأني أنا بهذا ؟.

قال المحتال بعدما مدّ خريطة على الأرض : انظر هذا بيتكم و هذا بستانكم ، و هذه الصخرة بجوار البستان و في مكان ما حولها دفن الكنز.

ثم نشر المختال صحيفة أخرى مكتوبة و راح يقرأ : هذه وصية جدي لوالدي : يا بني هذا الكنز يحميه عفاريت مربوطون بطلاسم و تعويذات لا تفك إلا بمساعدة يوسف بن يعقوب ، و في هذه الوصية ما يلزم لفك التعويذة فإن وجدت يوسف بن يعقوب فاطلب منه مساعدتك و أعطه نصف الكنز و خذ النصف لك فالكنز يكفي ليثري مدينة بأسرها.

قال الفتى : يا لعجيب أفعال الرب ، سأساعدك طبعاً هل تريدني أن أحفر معك حول الصخرة ؟.

قال المختال : لا ، مكتوب في الوصية أن علينا أن نقف مواجهة الشرق و ظهرنا للصخرة ثم نسير أربع خطوات ، ثم نحفر حفرة مربعة بطول ذراعين و عرض ذراعين و عمق نصف ذراع .

ثم وقف المختال و الفتى و جههما إلى الشرق و فعلاً ما سبق .

استأنف المختال القراءة بعد أن شرب بعض الماء : يجب أن ترسم على أرض الحفرة نجمتان و مثلثان في كل زاوية من زوايا الحفر ، ثم تضع في الحفرة سيفان و عشرة سكاكين و مسدس مستهم يد السيد يعقوب المباركة على أضلاع مربع الحفرة و تقرأ هذه التعويذة : أقسمت عليك يا شمشيد بحق زازيد و باديد أن تحرك النصال لتشير إلى باب سرداب الكنز ، فتتحرك النصال لتشير إلى باب السرداب فخذ السيفين و امض بهما عشر خطوات إلى الجهة التي تحركت النصال نحوها و اضرب بهما الأرض يفتح السرداب !.

قال الفتى بحماس : يا لعجيب فعل الرب إن في بيتنا بالضبط سيفان و مسدس و عشر سكاكين ! و لكن لماذا كنت تحفر طالما أن الخريطة و التعويذة معك ؟

قال المختال : لأنني كنت سأحفر كل الأرض حول الصخرة لأجد الكنز ، و قد وجدت فعلاً عشر ذهبيات . أخرج المختال الذهبيات و كانت مغبرة و مطرقة و أراها للفتى ، نظر الفتى إليها و عيناه ترقان من السرور .

استأنف المختال كلامه قائلاً : طالما أنني وجدتك برحمة من الرب فلقد ارتحت من هذا العناء و لن أكون مضطراً لتعطيم يدي و ظهري و حفر هذه المساحة الكبيرة من أجل الكنز ثم أعرضه لخطر صائدي الكنوز ، مبروك عليك نصف الكنز و مبارك علي النصف الثاني و معه سلامتي.

قال الفتى و قد بدت عليه الحيرة : والدي لن يسمح لي بمساعدتك فهو يكره الغرباء جداً ، هو أيضاً لن يقبل بأن أخرج السلاح من المزرعة و لو شبرا واحداً.

أخرج المختال من جيبه قارورة صغيرة و أعطها للفتى قائلاً : خذ هذا الدواء و ضع منه عدة نقاط في حساء العشاء ، سينام الجميع نوماً ثقيلاً و تبقى أنت مستيقظاً ، سأكون هنا بانتظارك لنكمل عملنا ، لا تنس أن تحضر معك مصباحاً.

ابتسم الفتى بسعادة ، ثم هز رأسه و قال : موعدنا الليلة بعد تناول العشاء ، و غدا سنستيقظ على أجمل صباح .

قال المختال: لا تضع أكثر من أربع نقط و إلا آذيت أهلك ، و لا تخبر أحدا و إلا بطلت التعويذة ، أرجوك.

قال الفتى بحماس : نعم ثق بي .

في الليل خرج الفتى من الدار و هو يحمل أسلحة أبيه المخدّر و بيده قنديل ، و ما إن وصل إلى جانب الصخرة و وضع السلاح إلى جانب الحفرة حتى كانت خنجر المختال تخترق ظهره إلى القلب و وقع المسكين ميتا فورا.

أخذ المختال السلاح و اتجه إلى دار المزارع الشجاع فقتل الكلب الذي كان يحرس البيت بمسدس المزارع ، ثم دخل إلى البيت فوجد الرجل و أهل داره يغطون في النوم فأجهز عليه و قيد زوجته ثم اغتصبها و لم تشعر المسكينة من قوة المخدر ، ثم سرق كل ما في البيت من شيء نفيس ، و خرج في هدأة الليل قافلا إلى قصر اللورد ، ليحصل على أجره.

حصل المختال على ما أراد ، و في الشهر التالي تزوج اللورد بأرملة المزارع و استولى على أرضه ثم و بعد أن وصل إلى مراده استعبد أبناء و بنات المزارع و أرملة و امتلك أرض أبيهم إلى الأبد ، و لم يعرف هؤلاء أبدا ما الذي حصل و كيف سرق سلاح يعقوب من بيته و كيف قتل هو و ابنه دون أن يدافعا عن نفسيهما.

قلت : أرجو أن تشرح لي المزيد .

قال : إن المشايخ مسلحون بسلاحين ، الأول هو أجيال متعاقبة من الشباب المتدين الذي يلتف حولهم بالفطرة ، و الثاني هو انصياع العامة لفتاواهم ، إن نظامنا هذا سيقنع الشباب المتحمسين للدين بسرقة هذين السلاحين من المشايخ و وضعهما في أيدينا.

قلت : و ما هو الكنز المزعوم الذي سيقنعهم بالعمل معنا و ما هي التعويذة و ما هي الأدلة على صحة مزاعمنا لهم ؟.

قال أوسكار و قد بدا إعجابه بذكائي الحاد و سرعة فهمي : هذا النظام ليس جديدا و لم نختعه فقط لحل مشكلة مشايخ بلدكم ، لقد استعمله أساتذة الحرية قديما لإزالة عائق البابوية من طريقهم في أوروبا ، كما تعلم فإن الإنجيل تُرجمت من العبرية إلى الآرامية ثم إلى اللاتينية ، و كان مزيج التوراة و الإنجيل هو مصدر القانون الذي يحكم حياة المسيحيين من لحظة استيقاظهم إلى لحظة منامهم ، و لقد اختلف رجال الدين في تفسير الكتب المقدسة إلى قوانين تحكم حياة المسيحيين اختلافات كثيرة ، لكنهم و بعد عدة قرون من الخلاف اتفقوا على نظام موحد لإصدار القوانين من الكتب المقدسة ، هذا النظام أساسه هو : إن الذي يحق له أن يصدر القوانين من الكتب المقدسة هو رجل الدين المتعلم المتبحر ، و بما أن رجال الدين المتعلمون كثيرون فلقد أجبر هذا النظام جميع رجال الدين على خضوع لمنظمة واحدة يقودها رجل واحد هو رأس

الإكليروس و أسموه "البابا" يعني الأب ، و أعطي حق إصدار القوانين "الكنسية" استنادا للكتب المقدسة لهذا الرجل حصرا ، جميع رجال الدين لن يخالفوا كلامه ، إلا أنهم يحق لهم المشاركة في اختيار هذا البابا و في اقتراح قوانين كنسية عليه ، و هكذا يكون القانون موحدا في كل أرجاء البلاد التي تحكمها المسيحية ، و كما تعلم لا يمكن لبلد واحد أن يكون فيه أكثر من قانون أليس كذلك ؟.

أشعل البروفيسور سيجاره مرة أخرى و ابتلع نفسا عميقا منه ثم قال : للقضاء على حكم الكنيسة اخترع أساتذة الحرية نظاما الذي نتحدث عنه ، لقد قام بالدعوة إلى هذا النظام رجل اسمه "مارتن لوتر" و كان أساس هذا النظام هو : إن الكتب المقدسة هي رسالة الرب إلى جميع الناس و إلى كل واحد و فيها قوانين الرب و قوانين الرب لا تتغير لأن الرب لا يخطئ ، و هي قوانين واضحة في هذه الكتب و ليست بحاجة إلى من يفسرها للناس فليس على من يريد أن يعرف هذه القوانين سوى أن يقرأ الكتب المقدسة ، دون الحاجة إلى الرجوع إلى الإكليروس و "البابا" ، فإذا حصل أمر جديد لم يكتب في هذه الكتب لن يكون علينا إلا أن نجمع من جمل و آيات الكتب المقدسة ما نصنع منه قانونا جديدا لهذا الطارئ.

ثم استأنف أوسكار قائلا : طبعا هذه الكتب يمكن تفسيرها بألف وجه و وسيلة إن ترك الأمر على غاربه ، لأن القوانين التي يتضمنها الإنجيل و التوراة لا بد لفهمها من القدرة على تصور شامل لمجتمع كامل ، ثم تصور شامل لعمل كل القوانين - مجتمعة و في وقت واحد - في هذا المجتمع لتحركه هذه القوانين مجتمعة في اتجاه محدد بتناسق كامل كالآلة المعقدة تماما ، و طبعا لن تستطيع أن تكتب أي قانون مهما كان صغيرا بمعزل عن تصوره ضمن جميع القوانين الأخرى ، إلا أن نظامنا التخريبي يعني أن كل من يقرأ الكتب المقدسة يستطيع أن يستبدل أي قانون قائم معمول به بقانون آخر بمعزل عن بقية القوانين و دون البحث في مناسبتها لها و دون أن يسمح لأحد بمنعه من هذا ! هذا التسبب سيحطم الآلة التي بناها الإكليروس و سيجعل من المستحيل اعتماد الكتب المقدسة مصدرا لنظام موحد لعمل المجتمع.

ارتشف البروفيسور من كأس النبيذ الأحمر رشفة كبيرة ثم استأنف قائلا : لقد نجح الشباب الأغرار المسيحيون المتحمسون فعلا في سلب الكنيسة أسلحتها و بعد رحلة طويلة استمرت قرونا تخلى الجميع عن فكرة قداسة كتب الرب و قوانينها و رأوا أنها لا تجلب إلا الحروب و الصراعات و الإقتتال بسبب الاختلافات التي لا نهاية لها حول تفسير هذه الكتب ، و هكذا صارت المسيحية كما ترى لا تحكم إلا الكنائس و المقابر.

قلت : هل في الإسلام نظام مشابه للإكليروس؟.

قال بجزم : نعم هناك نظام لتوحيد إستخراج القوانين من الكتب المقدسة في الإسلام و هو في الواقع أكثر صرامة و حزما و عدلا من الإكليروس ، فلقد اتفق رجال الدين المسلمون على تصميم آلات قانونية صارمة و شاملة و محددة بدقة عملها هو

"البحث عن القوانين" في الكتب المقدسة ! انتبه عملها هو فقط "البحث عن القوانين" المقدسة و ليس عملها "صناعة هذه القوانين" من جمل الكتب المقدسة !

اتكأ أوسكار و أخذ نفسا عميقا ثم قال : هذه الآلات لا تتغير و لا تقبل التبديل و هي أربعة آلات أسموها "مذاهب" ، و على كل من يريد أن يعمل رجل دين في الإسلام أن يدرس جيدا إحدى أو جميع هذه الآلات جيدا بالإضافة لدراسته للكتب المقدسة ؛ لهذا تجد أن جميع رجال الدين المسلمين يتكلمون بنفس الطريقة و يصدرن نفس القوانين أينما كان رجال الدين هؤلاء و دون أن يتجرا أحد منهم على مخالفة هذه الآلات لأنه سيجد آلافا من نظرائه يسكتونه و يكذبونه ، ذلك أن جميعهم يحمل معه نفس الآلة التي مع هذا المخالف فلا بد إذاً من أنه مخطئ أو أنه مخالف عمدا لعمل آلهة القانونية و هذا سيسقطه بالتأكيد من عداد المشايخ و سيجعله محل سخرية الجميع و سخطهم.

قلت : الأمر هكذا أصعب بكثير جدا من أمر الكنيسة !.

قال : نعم و لكن أسأتدنا الأحرار استعاروا من تراث معابد الحرية بعض الحيل الكافية لإقناع المتدينين المتحمسين بمساعدة نظامنا لهدم قوة المشايخ ، لقد أفهمنا كثيرا من الشباب المتحمس أن الكتب المقدسة تعمل كالتعويذة السحرية التي إن أكملنا كل متطلباتها ستفتح لنا كنوز العالم بأسره ، و قلنا لهم : انظروا إلى بداية تاريخ الإسلام ، لم يكن للمسلمين الأوائل مذاهب و لا مدارس لتعليم الدين كل ما كان لديهم هو الكتب المقدسة ، قرؤوها بالعربية و فهموها و طبقوا ما فيها بحرفية و بدقة فانفتحت لهم مصادر القوة و الثراء و استطاعوا فتح العالم كله في نصف قرن فقط ، و أنتم الآن تعانيون من الفقر و التخلف و الضعف و السيطرة الخارجية عليكم ، السبب هو أنكم لا تطبقون تعويذة كتبكم المقدسة حرفيا ، و السبب في منعكم من تطبيق هذه التعويذة هو أنكم لا تقرأون هذه الكتب مباشرة حتى تفهموها بشكل مستقيم و مباشر ، أنتم تقرأون كتبكم المقدسة بمساعدة الشيوخ و هم يفسرونها كل بحسب مدرسته و مذهبه الذي ينتسب إليه ، و كل منهم يريد أن تكون مدرسته هي التي يُقَى بقولها كي ينال المكاسب و السلطة ، لذلك ما عليكم إلا أن تتخلصوا من هؤلاء المشايخ جميعا و من مذاهبهم القديمة و تعودوا إلى قراءة الكتب المقدسة مباشرة و دون تأثير من أحد ثم اعملوا بما فهمتم حتى تتكامل التعويذة و تنفتح لكم القوى السماوية فتخضع لكم الأرض كما خضعت لأجدادكم !.

نظرت إلى أوسكار و قد ترابطت في ذهني كل المعلومات التي كانت عندي عن هذه الجمعيات التي تدعوا كلها إلى تنقية الإسلام من الشوائب و ما تراكم عليه من مؤلفات مشايخ المذاهب الأربعة على مر القرون ، ضحكت بشدة كالأطفال حتى سقطت على الأرض ، لقد فهمت تماما المهمة دون أن أقرأ شيئا و تصورت للفرور ما الذي سيحصل في العامين القادمين ، و لم يتمالك البروفسور العجوز نفسه أيضا فضحك حتى كاد يخنقه الضحك .

بعد أن هدأت موجة الضحك قلت لجيمس : الآن فهمت لماذا نخصص من ميزانية الشركة معونات كبيرة لهذه الجمعيات رغم أنها تحارب دوما مشاريعنا كإنشاء السينما و المسارح الراقصة أكثر مما يحاربها المشايخ .

التخلص من سلطة المشايخ و بقية الأرستقراطيين الصغار كانت مهمة صعبة و كبيرة ، و لكن براعة البروفسور أوسكار جعلت من المهمة أمرا سهلا و ممتعا حقا ، لقد كانت شخصية الزعيم الأواحد العقيد بديع هي المفتاح لإنجاز هذه المهمة بسرعة قياسية ، فبعد التخلص من كبار الباشاوات بدأنا العمل لتقديم بديع و رفاقه الضباط بديلا عن هؤلاء الأكابر ، و كان لا بد من صناعة شخصية أسطورية آسرة تجذب العامة و تلهب مشاعرهم و تلهم مخيلاتهم و تنقاد لها نفوسهم ، كان بديع خلال الأعوام الثلاثة الأولى لحكمه يتدرب يوميا على الخطابة "العفوية" ، و على استعمال لغة الجسد لإثارة الجماهير ، لقد كان موهوبا نوعا ما إلا أن هذه التدريبات صقلت مقدرة الرجل على الخطابة و صار ينافس هتلر و موسوليني في ذلك ! هذا الرجل - الذي كان كل عمله هو مجرد الظهور واجهة لنا - وجد في الخطابة متعة كبيرة ، و كان يجمع جنود حماية القصر و يخطب فيهم لساعات أحيانا و يلهب حماسهم ، و كنت أقف عندما أجد فرصة بين الحرس للإستماع إلى أفكاره العبقريّة و خطاباته النارية من باب التسلية طبعاً.

ثم انتقلنا إلى تلقين بديع دروسا في المذاهب السياسية الرائجة كالشيوعية و القومية و الديمقراطية و مبادئ العلمانية و كيفية الخطابة عنها ، و أشرف على تدريب بديع فريق من أساتذة الجامعات التابعين لنا ، هذا كل ما كان يحتاجه بديع لأداء مهمته ، طبعاً هو لم يدرس لا مبادئ السياسة و لا أصول الحكم و لا إدارة الإقتصاد لأن هذه الأمور أكبر بكثير من قدرته العلمية و العقلية و هو الضابط المبتدئ الوضع النسب الذي تربى على إطاعة الأوامر و انتهاز الفرص لجني المغايم.

"صراع الآلهة" كان اسم المهمة الضخمة التي عدت من سويسرا إلى البلاد لتنفيذها بعد وداع أشرف باشا آخر باشوات البلاد ، البارون جيمس هو من أطلق على المهمة هذا الاسم ، و سأعرض فيما يلي تفاصيل عنها : كانت في البلاد مجموعة من الشركات الأوروبية التي تملكها دولة الإنتداب السابق مع بعض الدول الأوروبية الأخرى ، و كانت هذه الشركات تعمل بنظام اسمه الحقيقي هو : "الإحتكار". إلا أن والدي و رفاقه من أساتذة الحرية وجدوا اسم "الإمتياز" مرادفا لطيف الوقع على السامعين للإسم الحقيقي البشع لهذا النظام ؛ هذا النظام يسمح لهذه الشركات باحتكار التنقيب عن المعادن و استخراجها و تسويقها في بلادنا ، و تحصل هذه الشركات على نصف أرباح هذا العمل بينما يعطى النصف الآخر لدولتنا صاحبة الأرض.

هذه الشركات ورثت مجالات عمل شركات تركية كانت قائمة قبل الإنتداب الأوربي ، لقد كان عمل هذه الشركات الإحتكارية ضخما جدا ، فلقد استخرجوا النفط و الغاز من عدة حقول و مدوا لهما خطوط النقل إلى الموانئ و صدروها إلى أوربة ، ثم استخرجوا معادن أخرى و موادا هامة كالكبريت و الفوسفات و غيرها من المواد المنجمية الإستراتيجية و صدروها أيضا إلى حيث تصنّع و تتحول إلى أشياء نافعة.

لقد عمل في هذه الشركات كثير من أبناء البلد و تعلموا فيها الكثير من الخبرات و المهارات الحرفية الكافية لإنشاء صناعات كثيرة أهمها صناعة "الآلات" ، و لقد عملت هذه الشركات على نقل هؤلاء البارزين من عمالها "العرب" إلى أوربة. كان نظام رواتب العمال و تعويضاتهم و تأميناتهم في هذه الشركات حسب القوانين الأوربية ، بمعنى آخر كانت الأجور و كلفة العمال تستهلك جزءا ضخما جدا من أرباح هذه الشركات ، عدا عن أنها كانت تدفع ضرائب كبيرة للدول الأوربية موطن هذه الشركات.

هذه التكاليف جعلت من أرباح هذه الشركات شيئا غير ذي بال مقارنة برساميلها ، هذا ما حمل الكثير من المساهمين بها على التخلي عن حصصهم منها و التوجه إلى استثمارات أخرى . كان البارون جيمس و والده من أكبر المستثمرين في هذه الشركات و كان لا بد من حل لمشكلتها العويصة ، طبعاً لم يكونوا يهتمون لصغر حجم حصة دولتنا من العائدات لأن هذه الحصة أصلاً لم تكن أساسية في ميزانية الدولة ذلك أنها اعتبرت استثماراً ناشئاً.

الحل الذي اقترحه البارون إدموند عبقرى الإقتصاد كان في شطر هذه الشركات إلى شطرين ، الأول شركات أم قديمة ملكيتها مشتركة بين دولتنا و الأوربيين ، تكون مهمة هذه الشركات التنقيب و استخراج النفط و المعادن ، و الثاني شركات أوربية محضة مستحدثة انشقت من الشركات الأم فعلياً بحيث أن جميع معدات و مخازن هذه الشركات الجديدة مأخوذة بأسعار تافهة من الشركات الأم ، و تكون مهمة الشركات الجديدة تسويق هذه المعادن ، ثم يتم ربط هذه الشركات بعقود "احتكار" طويلة الأمد فلا تبيع الشركات الأم المنتجة معادنها إلا لهذه الشركات الجديدة المسوّقة "حصراً" و بأسعار متدنية تترك للشركات المسوقة هامشاً كبيراً جداً للربح.

بالفعل تمت كل الإجراءات القانونية و انقسمت الشركات كلها و لم يكن لدولتنا حق الاعتراض فإتفاقيات الإحتكار بينها و بين الشركات لا تسمح لدولتنا بالتدخل في إدارة هذه الشركات أو الاعتراض على أساليبها في التسويق ، و على العموم لم يكن قد بقي في وزارات بلدنا كلها من يستطيع أن يفهم شيئاً عن عمل هذه الشركات فضلاً عن أن يوجد من يعترض عليها. بالطبع انخفضت كثيراً قيمة الشركات الأم لأن عائداتها صارت تافهة و تحولت كل أرباحها تقريباً إلى الشركات المسوقة ، و كان لا بد من تصفية هذه الشركات المنتجة بأقل الخسائر لمالكها مع الإبقاء على سيطرة المسوقين على المناجم و الآبار و إدارتها.

في هذا الوقت تماماً كانت حدة المواجهات بين الشيوعيين و بقايا الأرستقراطيين تتصاعد ، و اصطفت الدولة ظاهرياً مع الأرستقراطيين و حلفائهم المشايخ ، و استطاعت الجمعيات الإسلامية الثورية التي ذكرتها آنفاً أن تجد لها موطئ قدم في البلاد كلها بذريعة مواجهة الملحدين الشيوعيين ، إلا أننا لم نسمح هؤلاء جميعاً بتصعيد الأمر إلى القتال و تركنا المواجهة تقتصر على الشجارات في المقاهي و في نقابات العمال و على صفحات المجلات و الجرائد .

في نفس الوقت بدأت الجمعيات الثورية الإسلامية العمل الجدي برعايتنا وبتعاطف واضح معها أظهره العقيد بديع في بعض خطابه ، و لقد تمتعت هذه الجمعيات بأفضلية كبيرة على المشايخ في الرد على الشيوعيين ، هذه الأفضلية وفرتها لها وسائل الإعلام الكبيرة التابعة لها و التي ننفق نحن عليها ، و هذه الأفضلية استقطبت أكثرية من الشباب المتدين إلى هذه الجمعيات و جعلتها موازية في القوة للمشايخ و أتباعهم ، طبعاً لم ننس أن نمنح هذه الجمعيات ميزانيات كبيرة لمنافسة الأوقاف في الرعاية الإجتماعية للفقراء ، بشكل متزامن مع هذا كنا نوفر تمويلاً موازياً للأحزاب الشيوعية بأنواعها لتتشر دعايتها بشكل مكثف جداً .

في هذه المواجهة كان المشايخ لا يزالون قادرين على فرض هيبتهم و لم يكونوا الحلقة الأضعف بعد ، إلا أن خطر الجمعيات الإسلامية عليهم صار واضحاً لنا نحن ، و صار واضحاً لهم أيضاً ، مع ذلك لم يحرك المشايخ ساكناً لضرب هذه الجمعيات و على العكس استجابوا للتقارب معها لأن المواجهة مع العدو المشترك و هو الشيوعية كانت هي الأهم بحسب رأي أكثرية المشايخ و منهم فضيلة المفتي الذي التقاه والذي مرات عديدة لتحذيره من اتساع نشاط الجمعيات الإسلامية و من غموض أهدافها و برامجها ، فهذه الجمعيات كلها تقريباً كانت لها نشاطات سرية هائلة في تنظيم الشباب و الدعوة إلى أفكار تجديد الإسلام ، و هذه النشاطات موهبة جيداً بنشاطات أخرى علنية خيرية و علمية.

في قمة هذا الصراع الذي شغل البلاد جاءت اللحظة الحاسمة لدفع العقيد إلى واجهة الأحداث.

ذات مساء من إحدى ليالي الجمعة في صيف العام الرابع لحكم العقيد البديع أعلنت الإذاعة عن نقل وقائع خطاب تاريخي للزعيم الأوحده يلقيه في حضور جمع من رجال الدولة و أعيان البلاد.

كان الخطاب قصيراً و من أوائل خطابات الزعيم و لكنه كان هائل الوقع بشكل مذهل لأنه كان مرسوماً قانونياً أصدره الزعيم على الهواء مباشرة ، طبعاً والذي هو من وضع المرسوم ثم تدرب الزعيم أياماً على تلاوته خطيباً ، في ليلته الكبيرة تلى الزعيم الخطاب التاريخي الأول له ، قال الرئيس القائد الخالد في أخطر عبارات الخطاب : تستملك دولتنا كافة الشركات الأجنبية العاملة في بلادنا و نلتزم بتنفيذ عقود هذه الشركات و التزاماتها و بدفع قيمة أسهم هذه الشركات لمالكي الحصة الأوربية منها .

و ختم الرئيس خطابه قائلاً : لقد استعادت بلادنا ثرواتها المغتصبة المستغلة و انتصرت الأمة على بقايا الإنتداب و آثار الحكم الأوربي لبلادنا .

في تلك الليلة بكى أكثر أبناء بلدنا فرحاً بهذا القرار التاريخي و أطلق الرجال و الجنود الرصاص في الهواء و راحت البلاد كلها تحتفل بالدبكات و الهتافات و حتى المآذن بدأت بالتكبير و استمرت الإحتفالات في تلك الليلة إلى طلوع شمس اليوم التالي .

في اليوم التالي أعلنت دولة الإنتداب الأوربية "سابقاً" عن رفضها و إدانتها لقرارات الزعيم بديع و اجتمع سفيرها مع الرئيس

في قصر الرئاسة و سلمه إنذارا من حكومته بضرورة التراجع عن قرارات الإستملاك أو مواجهة عواقب وخيمة ! طبعاً اللقاء كان ودياً جداً في الواقع ، فلقد حضرته مع والدي و البارون جيمس و تباحثنا في اللمسات النهائية للمرحلة القادمة. أعلنت الإذاعة الوطنية عن اللقاء و عن رفض حكومة الثورة و زعيمها الأوحده و مجلس قادة الثورة للإنداز جملة و تفصيلاً ، و أصدر الرئيس قراراً بتخفيض العلاقات مع دولة الإنتداب السابقة و بسحب سفير بلدنا من عاصمتها ، إلا أن إجراء مماثلاً لم تتخذه طبعاً الدولة الأوربية !.

قبل الإستقلال كانت الدول الأوربية المنتصرة على الأتراك قد ضمت إقليمياً عربياً من بلادنا إلى دولة غير عربية مجاورة لنا ، هذه الدولة بدورها كانت سابقاً محتلة من دولة أوربية ، و بسبب مطالبات حكومة بلادي الدائمة باسترداد ذلك الإقليم كانت العلاقات بيننا و بين هذه الدولة متوترة جداً و تقف دوماً على حافة الحرب ، و لقد أعلنت هذه الجارة غير العربية تضامنها مع حقوق الدول الأوربية التي استمكت حكومتنا شركاتها .

بعد أسبوع من قرار الرئيس بديع أعلن عن توقيع معاهدة تحالف عسكري بين دولة أصدقائي البارونات و بين جارتنا اللدود غير العربية.

أعلنت دولتنا النفير العام دفاعاً عن الوطن و انتقل نصف جيشنا و احتشد على حدود جارتنا اللدود.

أعلن عن تأسيس معسكرات للجهاد دفاعاً عن الأمة و عن دعوة كل من يحمل سلاحاً للإلتحاق بها.

الإذاعة و الجرائد و خطب المساجد كلها كانت تشيد بشجاعة الزعيم بديع و جرأته ، حتى طاقمنا (العجري) "الفني" و خاصة المغنون و الملحنون شاركوا في الحشد بأغانٍ وطنية حماسية و أناشيد دينية عن الجهاد ، أيضاً بثت إذاعتنا عدداً من التمثيليات الإذاعية عن المعارك الإسلامية الكبرى كاليرموك و القادسية و عين جالوت ، و صارت البلاد كلها كتلة واحدة من الحماس.

طبعاً لم ننس أن نستغل الفرصة لنفتح باب التبرع للجيش و المقاومة الوطنية و جمعنا في هذه الحملة أموالاً طائلة من بلادنا و من البلاد العربية المجاورة ، معظم هذه الأموال كانت من الجواهرات النسائية !.

في نفس الوقت كانت اتصالات أخوالي تتكشف مع صغار الأرسقراطيين ، و خلال الشهر الذي تلا إعلان الإستملاك نجحنا في نقل آلاف من هؤلاء مع أسرهم و أموالهم إلى أوربة ، لقد عرف هؤلاء أن شيئاً لا يستطيعون احتمالاً يلوح في الأفق. كان جيشنا مكوناً من قوات محترفة و ليس فيه مجندون إجباريون و أغلب جنود الجيش و ضباطه كانوا من أبناء المدن و من أسر متوسطة و أكثرية متعلمون و ساخطون على بديع و ثورته ، لكن أكثرهم اعترفوا بخطئهم تجاه الزعيم و اندفعوا للحشد للمعركة بكل طاقتهم.

اجتمعت قيادة أركان الجيش بعد شهر من الحشد و النفير لوضع اللمسات النهائية على خطة الدفاع عن الوطن ، الخطة كانت في حقيقة المهمة التي أخذتها من جيمس في رحلتي الأخيرة لسويسرا ، ملخص هذه الخطة هو :

إن الحشود الأوربية مدججة بالسلاح الثقيل مدعومة بالطائرات ، أما جيشنا فلا يملك سوى الأسلحة الفردية و المتوسطة و القليل من السلاح الثقيل و لذلك وجب أن لا نضحي بالمعدات القليلة في معركة خاسرة ، المواجهة ستكون في المدينة المعبر التي تقع على الحدود بيننا و بين جارتنا اللدود و هي مدينة قريبة من البحر و كبيرة ، ستتقدم القوات الأوربية إليها حتما و هناك سننتظرهم بالكمان و القناصة و الألغام و الفدائيين لمنع تقدمهم.

تم فرز كافة ضباط و صف ضباط و جنود الجيش من أبناء المدن و الطبقة المتوسطة إلى تلك المدينة و نزعوا اللباس العسكري و أقاموا الحواجز و دشم القناصة و زرعوا العبوات الناسفة و حولوا المدينة بأسرها إلى ثكنة للمقاومة الشعبية. لم ينزح أهل المدينة توافقا مع حملات الإذاعة الوطنية التي شبهتهم بأولئك الذين صمدوا في وجه الأحزاب القبائلية العربية التي جاءت لغزو المدينة النبوية في غزوة الخندق ، و لإقناعهم بهذا الشبه قام المتطوعون بحفر خندق كبير يفصل المدينة عن حدود الدولة المجاورة اللدود.

الأطباء و الممرضون المهرة احتشدوا أيضا و أنشأت المشافي الميدانية في كافة أحياء المدينة و خزنت فيها كميات كبيرة جدا من الدواء و الطعام.

استمرت حالة الإستنفار شهرين كاملين زار خلالها عشرات من الموفدين الأوربيين بلادنا و التقوا بالزعيم بديع و بقائد جيشه العميد عبدالصبور ، عقب كل لقاء كان العقيد زين مسؤول الدبلوماسية يصرح باسم مجلس قيادة الثورة تصرّحاً يشعل حماسة الشعب أكثر ، و في كل مرة كان يشبه زعيم بلادنا الأوحده بأحد الخالدين من أبطال الإسلام التاريخيين بداية من أول الخلفاء المسلمين و انتهاء بسلطان المماليك المظفر قطز .

على الجهة المقابلة للحدود كانت الجارة اللدود تحشد جيشا من المجندين الإجباريين كلهم من أبناء الإقليم العربي الذي تسيطر عليه ، تم تدريب هؤلاء الجنود خلال شهر واحد ، كان تدريبهم تدريبا أوليا على حمل السلاح الخفيف و حُشدوا في معسكرات حدودية محاطة ببعض الدفاعات البدائية ، أما قوات دولة الإنتداب الأوربية (سابقا) فكانت معظم قوتها بالمدفعية البعيدة المدى و الطيران بأنواعه ، و بقية قواتها كانت فرقتان من القوات البرية جميع جنودها و ضباط الصف فيها من المرتزقة المجندين من مستعمرات أوربية في أفريقيا و آسيا ، ضباط هذه الفرق فقط كانوا أوربيين. انضم الكثير جدا من أتباع المشايخ و أتباع الجمعيات الإسلامية المنافسة للمشايخ إلى معسكرات الفدائيين و المتطوعين بأسلحتهم.

اتحد الجميع في هذه الفترة القصيرة وراء حكومة الزعيم الأوحده و تناسوا خلافاتهم ، و الأهم من هذا كله أن السلاح المخبأ في البيوت في طول البلاد و عرضها قد أخرجته الناس إلى العلن و سُجل كله في سجلات الجيش مع أسماء حامله. جدير بالذكر أن الفريق الذي كنا أعددناه من المغنين و الممثلين و الراقصين و الملحنين من كلا الجنسين و أسكناهم في شارع من شوارع العاصمة كانوا قد أنفوا تمثيل عدة أفلام عملوا في تصويرها خلال الأعوام الثلاثة الأولى لحكم العقيد بديع أحدها

كان عن هذه الحرب و أمجاد شعبنا فيها ، تم تصوير هذه الأفلام قبل أن تظهر أسباب هذه الحرب إلى الوجود.

بعد نهاية الجهود الدبلوماسية و مضي شهرين و أسبوع على الخطاب التاريخي للزعيم الأوحده بدأت الحرب بسلسلة غارات جوية على المدينة الحدودية و سقط جراء هذه الغارات عدد كبير من السكان المدنيين أغلبهم من النساء و الأطفال و كبار السن ، و لقد أثارت هذه الغارات سخط الناس كثيرا و أثارت عزمهم على القتال رغم ضعف الإمكانيات .

في الليلة التالية بدأت أمواج المهاجمين من المشاة المدعومين بالدبابات بالهجوم على خنادق الدفاع عن المدينة رغم أنهم كانوا يستطيعون الالتفاف و الهجوم على المدينة من الناحية الأخرى ذلك أن قوات بلدنا كانت غير قادرة على نصب دفاعات تحيط بكل المدينة !.

هذه الأمواج استطاعت في الأيام الثلاثة الأولى أن تخرق الخنادق و تحطم الدشم البسيطة المقامة خلفها ، إلا أن هذه الأمواج فشلت حقا في دخول المدينة لأن الجنود المهاجمين كانوا أغرارا فعلا و دون خبرات قتالية ، قتل المئات من هؤلاء في هذا الهجوم و انسحبت معظم الوحدات المهاجمة إلا أن المدافعين لم يعودوا إلى المناطق التي انتزعها منهم المهاجمون لأنها أصبحت تحت سيطرة مدفعية و طيران الأوربيين الكاملة .

أعلنت الإذاعة الوطنية في بيان للقوات المسلحة عن انتصار ساحق للمقاومة الشعبية و الجيش الوطني على الغزاة و قوى الإستعمار ، و توالى البيانات العسكرية و معها خطابات الرئيس بديع و رسائله الصوتية المسجلة إلى الأمة تبشرها بالنصر ، زعمت الإذاعة و قيادة الجيش أن الرئيس يشرف بنفسه على قيادة المعركة في خطوط الدفاع الأولى و أنه يسجل هذه الرسائل من مخبأ القيادة المحصن في مكان ما من المدينة الحدودية.

استأنفت أمواج المهاجمين التقدم نحو المدينة الحدودية ، كانت هذه الأمواج تصطدم بمواقع المقاومين و كان أكثر المهاجمين يقتلون إلا أن قذائف المدفعية و الطيران كانت تنهال بعد موجات الهجوم على مواقع المدافعين التي تصدت للمهاجمين و انكشفت فتحيلها ترابا ، و تكرر هذا الأمر مئات المرات على مدى شهر كامل ، لقد سقط في خلال هذا الشهر عشرات الآلاف من المهاجمين و المدافعين و المدنيين العالقين في المدينة التي حاصرتها الطائرات تماما.

لقد كان معظم القتلى من المهاجمين من سكان الإقليم العربي الذي تسيطر عليه جاراتنا اللدود و معظم القتلى من المدافعين كانوا من أقرباء المهاجمين أبناء المدينة الحدودية المنكوبة ، لو أتيح لهؤلاء الشبان الذين صرعوا في هذه الحرب أن يتعارفوا قبل المعركة ما كان لهذه الحرب أن تقع أصلا ، لقد كان العرب المهاجمون يصرعون بيد العرب المدافعين و لم يعلم المدافعون أبدا أنهم يقتلون أقاربهم ، و كان العرب المهاجمون يظنون أنهم مجرد جزء من قوات جارتنا اللدود المشاركة في الحرب و لكن الواقع أنهم كانوا وحدهم فقط المشاركون فيها من أبناء ذلك البلد !.

تلك المدينة الحدودية كانت مدينة أثرية رائعة الجمال ، أغلب سكانها من التجار و مالكي السفن و وسائط النقل الجماعي و الشاحنات ، و رغم أن سكانها لم يجاوزوا المائة ألف إلا أن مساحة هذه المدينة كانت تماثل مساحة العاصمة ، في نهاية شهر

الحرب تحولت المدينة إلى خرائب و أنقاض و قتل نصف رجالها و دمرت كل ممتلكات سكانها و متاجرهم .
على رأس شهر من الحرب اجتمع مجلس فض نزاعات الأمم في أمريكا و أصدر قرارا بوقف إطلاق النار فورا و انسحاب القوات المهاجمة ، و طبعا طالب القرار باعتراف الدول المهاجمة بقرارات حكومة بديع المتعلقة باستملاك الشركات ، و اختتم القرار بالمطالبة باحترام السيادة الوطنية لبلادنا .

بين عشية و ضحاها توقفت الحرب ، و توجهت فورا من العاصمة قوات خاصة مسلحة بالحفارات و الجرافات يقودها العقيد منير و دخلت إلى المدينة المنكوبة فعزلت المناطق المهدامة و بدأت بإحصاء القتلى و رفع الأنقاض و جمع ما بقي من السلاح بأيدي المقاتلين .

لقد أيدت تقريبا الفرقتان العسكريتان اللتان تولتا الدفاع عن المدينة ، و لم يبق في الجيش ضباط أو صف ضباط من أبناء المدن إلا أقل من عشر عددهم قبل الحرب ، أما القتلى من المتطوعين و خاصة الطواقم الطبية فكان عددهم كبيرا جدا و لا توجد إحصائيات دقيقة له .

الأخبار الجيدة هي أن بديع و قيادته كلهم كانوا بخير و خرج بديع على الإذاعة الوطنية في اليوم التالي لقرار مجلس الأمم ليبشر الأمة بأن العدو قد دحر و أن الأمة قد انتصرت .

لم تعلن قيادة الجيوش الغازية إلا عن عشرات من القتلى كلهم من الضباط الأوربيين ، أما قيادة جيشنا فاعترفت بمقتل بضعة آلاف من المدافعين فقط ! .

لقد صار بديع و ضباطه أسطورة في الصمود و البطولة ، و سجلت مخبرائنا تسمية آلاف المواليد باسمي بديع و عبدالصبور .

أصدر بديع مراسيم رئاسية متعددة بمناسبة النصر على رأس الأسبوع الثاني نهاية الحرب ، أولها كان بإلغاء الحظر على بيع الكحول و إعادة رخص المواخير و المراقص و المسارح ، الثاني كان قرارا باستحداث وزارة للثقافة و الفنون و تعيين أحد الكتاب الروائيين المشهورين بالإلحاد وزيرا لها ، المرسوم الثالث كان بقضي بتسمية المدينة الحدودية المنكوبة باسم "مدينة الحرية" .

لقد أثارت هذه المراسيم موجة سخط بين المشايخ و أتباع الجمعيات الإسلامية و رأوا فيها تجاوزا كبيرا لحدود الدين و تحديا كبيرا لمشاعر الناس فالبلاد لا تزال غارقة في الواقع بمآثم الشهداء ، إلا أن أحدا في البلاد لم يكن يجرؤ بعد انتصار بديع الأسطوري على مجرد الإشارة السلبية إلى القائد الفذ و قراراته .

بعد أسبوع واحد توجه الرئيس بديع لإفتتاح مؤسسة السينما الوطنية في صالة المسرح الوطني و كانت هذه الصالة قد جهزت بشاشة عرض سينمائية ، عُرض خلال الإحتفال فيلم بعنوان "مدينة الحرية" صورته ورشة صناعة السينما التي تتبع لشركتنا ، و كان أبطال الفيلم من ممثلي فريقنا العتيد و تضمن أغان و رقصات و قصة حب بين قائد للمقاومة و إحدى بنات المدينة

اللواتي شاركن في الحرب ! انتهى الفيلم بقبلة بين البطلين على جثة ضابط أوربي ! و طبعا على وقع التصفيق الحماسي الجنوبي للجماهير المتفرجة.

خرج الرئيس و قائد جيشه من القاعة وسط هتافات الناس بحياته و استقل سيارته و فجأة خرج بسطام من الجمهور و هو يلبس طربوشا و قد أطلق لحيته على عادة أتباع الجماعات الإسلامية و أطلق رصاص مسدسه على سيارة الرئيس المكشوفة السقف ، الرئيس الشجاع و قائد جيشه البطل لم يهتزا أو ينبطحا أرضا كما فعل كل من كان حاضرا ! .

بسطام كما ذكرت آنفا هو أحد فرساني الثلاثة الذين أسست بهم منظمتي السرية التي جمعت "القبضايات" ثم ألحقناها بجهاز المخابرات ، بعد أن تبنيت بسطام أعطيته مبالغ كبيرة ليشتري مقهى شعبيا كبيرا في أحد أشهر أحياء العاصمة الأثرية ، و استطاع الرجل أن يجعل من هذا المقهى مركزا ضخما لتجمع تجار العاصمة و وجهائها في صباح و مساء كل يوم تقريبا ، و لقد تحول هذا المقهى إلى ما يشبه البورصة التجارية و كانت تعقد فيه صفقات تجارية كبيرة ، و لقد وصل الأمر إلى درجة أن سماسرة المدينة المعروفين انتقلت مقرات أعمالهم إلى مقهى بسطام ، و إلى درجة أن بسطام استأجر محاميا مبتدئا ليكتب عقود الصفقات و سندات الديون و الوثائق القانونية ، و بالطبع كان بسطام يحصل على حصته من عمولات الصفقات التي تجري في "مقهى البستان الكبير" (إسم مقهى بسطام) ، حصتي من عائدات هذا المقهى كانت الثلث و تركت الباقي لبسطام و لكنني افتتحت مطعما للوجبات السريعة و الشطائر (السندويشات) ملاصقا للمقهى لإطعام رواد مقهى بسطام و محلا آخر ملاصقا لهما لبيع الحلويات التي توزع عادة بعد الصفقات و كان يدير هذين المحليين أحد موظفي شركتنا الأكفاء.

المقهى كان أيضا مركزا للعب القمار بالنرد في ساعات الليل المتأخرة و كانت العائدات الضخمة من أرباح القمار من أكبر أرباحه المالية و المخابراتية أيضا ، لأن مدمني القمار كانوا يرتكبون الكثير من الحماقات التي تتحول إلى أوراق للضغط عليهم وقت اللزوم ، أيضا هذا المقهى كان مركزا أساسيا لجمع المعلومات عن الناس و أحوالهم و آرائهم ، و فيه أيضا كانت تعقد مناضرات و مناقشات كثيرة بين دعاة الأحزاب و الجماعات السياسية و الفكرية ، و كان يعتبر بحق "هايد بارك" العاصمة.

حصلت في مقهى البستان الكبير عدة شجارات بين الرواد بسبب الحوارات الفكرية و السياسية ، لكن هذه الشجارات كانت تحسم بسرعة بفضل قوة بسطام و رجاله الذين كانوا يضبطون الأمر في اللحظة الحاسمة ، و مع ذلك حرصت على ألا يؤثر توفير الأمان في المقهى سلبا على شعور رواده بالحرية في تعبيرهم عما يشاؤون.

كنت قد خصصت لهذا المقهى عشرين من رجال المخابرات ، عشرة منهم لحفظ الأمن و عشرة آخرون من الضباط الصغار لكتابة التقارير يوميا عن كل ما يقع و ما يسمعونه من أخبار و حوارات.

خلال عامين من العمل في المقهى استطاع بسطام الذي غير اسمه إلى "أبو عرب" أن يكتسب الكثير من المعرفة حول الأفكار السياسية و الدينية التي تدور في البلاد ، لهذا قررت أن يقوم بمهمة كبيرة حقا في بداية عهد الزعيم الأوحده.

في بداية المهمة راح بسطام يتقرب من الداعية واثق أفندي مساعد رئيس أكبر الجمعيات الإسلامية التجديدية التي كانت تملأ الدنيا و تشغل الناس و كان هذا القائد المساعد زبونا مداوما على مقهى "أبو عرب" و هذه كانت شهرة المقهى في كل أرجاء العاصمة .

لقد أحب واثق أفندي "أبا عرب" و رأى فيه الفتى الشجاع الذي كانت الجمعية بحاجة إليه ، فلقد تاب بسطام على يديه من شرب الخمر و من زيارة المواخير و من لعب القمار و أطلق لحيته و صار رجلا آخر مختلفا تماما !.

أدمن بسطام على ارتياد المسجد المجاور للمقهى في الصلوات الخمس و تبرع بمبالغ كثيرة لتحديث المسجد ثم فرض بالتهديد و الإبتزاز على إمام المسجد السماح لدعاة جمعية أستاذه الإسلامية بإقامة الدروس في مسجده ، و لقد كان هذا أمرا توافق المشايخ على منعه في سائر المساجد الكبيرة .

بعد مدة من الأخوة بين بسطام و واثق أفندي أفضى أبو عرب لأستاذه الجديد شيئا كثيرا عن مهاراته في القتال و استعمال السلاح التي اكتسبها في أيام عمله قاطعا للطريق ، و لقد كان هذا سببا في تحمس واثق أفندي لضم بسطام إلى دائرة العمليات الخاصة التي يديرها قائد الجمعية بنفسه ، طبعاً وافق بسطام بعد أن أظهر ترددا لفترة لأن المثل يقول : الثقل صنعة !.

تبرع بسطام في الأعوام الثلاثة التالية بتدريب عناصر من شباب هذه الجمعية على حمل السلاح و مول معسكرا كاملا للجمعية ، و رغم أن بسطام كان لا يجيد قراءة القرآن إلا أنه كان يعطي شباب هذه المعسكرات العظات الدينية و يحدثهم عن أحوال الصحابة و ثباتهم في المواجهات و تضحياتهم و صبرهم !.

تطورت كثيرا علاقات بسطام مع قيادة هذه الجمعية بعد حرب الزعيم الأوحى الأولى و أشرف على إرسال أفواج من متطوعي الجمعية إلى الجهاد المقدس على جبهة مدينة الحرية ، و بعد الحرب صار بسطام المسؤول الكامل عن الجناح المسلح للجمعية الإسلامية و بات يعرف عن هذا الجناح كل شيء.

في الواقع لم تكن لدى بقية الجمعيات الإسلامية أجنحة مسلحة ، لكنها جميعا كانت تؤمن بأن حرباً أهلية ستسبق استيلاء أي من هذه الجمعيات على الحكم في البلاد ، ذلك أن هذه الجمعيات كلها تعتبر نفسها تكرارا لنموذج تشكيل الدولة النبوية في الجزيرة العربية ، و كانت هذه الجمعيات تعتبر أن البلاد تعيش في عهد من الفساد و الضياع يشبه تماما أوضاع الجزيرة العربية في وقت الجاهلية قبل البعثة النبوية !.

كانت جميع هذه الجمعيات تستعد لهذه الحرب المستقبلية بطرق مختلفة فمنها من كان يسعى لتنقية الإسلام من الشوائب التي دخلت عليه حتى أنهم راحوا يشكلون مجموعات لدراسة الكتب الإسلامية المقدسة و التأكد من صحة نسبتها إلى الوحي

الإلهي و البعض منهم وصل به الأمر إلى حد إعادة البحث في كيفية أداء الصلوات و صيام رمضان بعد ألف و ثلاثمائة عام من توارث المسلمين لكيفية أداء هذه العبادات ! و هذه الجمعية كان أعضاؤها يؤمنون بأنهم حين يجمعون اثني عشر ألفا من المقاتلين المؤمنين بأفكار مؤسسها و كلهم قد اتفقوا على كلمة واحدة فستهبط عليهم القوة من السماء و سيصيرون جيشا لا يقهر يفتح العالم مرة أخرى !

جمعية أخرى كانت تشكل لجانا من دعاة يطوفون على ضباط الجيش و الأرستقراطيين العشائرين لتقنعهم بتبني مشروعها التجديدي للإسلام ، و كان هؤلاء الدعاة يعدون هؤلاء الضباط و الأرستقراطيين بحكم العالم إن وافقوا على تبني المشروع العتيد ، و لكن أحدا من الضباط أو الأكابر لم يقبل عروض هذه اللجان السخية و كانوا يصرفونها بأدب أحيانا و بغير أدب أحيانا أخرى.

كان المئات من زملاء بسطام من قبضات المخابرات التابعين لمنظمي قد انضموا إلى هذه الجمعيات و يرفعون لي تقارير يومية عن كل شيء يدور فيها.

رافع أفندي قائد الجمعية الإسلامية الكبرى التي انضم لها بسطام كان شخصا مثقفا جدا و كاتباً صحفياً و أديبا ، أيضا كان من أقرب أصدقاء البروفسور أوسكار ، و كان ينتسب إلى أسرة من الطائفة الدينية التي ينتسب إليها العقيد زيد قائد لواء الحرس الرئاسي.

طائفة العقيد زيد و رافع أفندي لم تكن معروفة لأكثرية الناس في البلاد ، إلا إذا استثنينا بعضا من المشايخ المتبحرين و العارفين بالتاريخ و أحوال الناس و قلة قليلة جدا من العامة الذين احتكوا بأبناء هذه الطائفة عن قرب و بنوا معهم صداقات ، لقد اطلعت خلال دراستي بشكل مكثف على أحوال هذه الطائفة و أخواتها من الطوائف المنتشرة في البلاد ، و أستطيع أن أقول بجزم أن هذه الطوائف ليست جماعات دينية بقدر ما هي منظمات سرية كبيرة جدا و قديمة جدا و مموهة جدا تخترق مجتمع المسلمين و تعيش فيه و تحاربه بقسوة و مكر من داخله دون أن يشعر بها إلا القليلون جدا و بشكل غير واضح .

هذه الطوائف هي بقايا دولة قديمة حكمت إمبراطورية واسعة على زمن خلافة العباسيين ، و نافست حكم العباسيين و تلقب بأباطرتها بلقب "خليفة" و تكنوا باسم "فاطمة" ابنة نبي الإسلام (صلى الله عليه و سلم) .

لقد عاشت هذه الإمبراطورية مدة قرنين ثم و في عشية و ضحاها اختفت من الوجود بإنقلاب أبيض قاده وزيرها الأكبر المسلم يوسف بن أيوب الذي تلقب لاحقا بلقب "السلطان الناصر صلاح الدين" ، و عادت كل ممتلكات هذه الإمبراطورية

البائدة إلى أملاك الدولة العباسية ، و لوحق رجال دين هذه الطوائف و أتباعهم و نكل بهم أشد التنكيل الأمر الذي دفعهم للتشتت في بلاد المسلمين و التخفي بينهم و التظاهر باتباع الإسلام و التدين به ، حدث هذا منذ ألف سنة تقريبا .

هذه الإمبراطورية كانت تحارب الإسلام علنا ، و كان أباطرتها يدينون بألوهية علي بن أبي طالب الخليفة الراشد الرابع ، و لقد اطلعت على الفلسفات الروحية التي دان بها أولئك الأباطرة و دعاة ديانتهم في مخطوطات مترجمة محفوظة في مكتبات الجامعة التي درست فيها ، كان مشروع تلك الإمبراطورية معاكسا تماما للإسلام ، و إن كانت منطلقات هذا المشروع الفكرية مزينة بآيات من القرآن إلا أن كُتّاب هذه المنطلقات كانوا يفسرون هذه الآيات بطريقة مضحكة فعلا إلا أنها تخدم ما يؤمنون به .

ديانة هذه الطوائف المستقاة من ديانة تلك الإمبراطورية كانت تعتمد على عدة معتقدات أساسية اقتبس أكثرها من ديانات شرقية قديمة :

أولها : إن رجال الدين لهذه الطوائف آلهة بشرية لا يجوز أبدا الاعتراض عليهم و لرجال الدين هؤلاء سلطة غير محدودة على أتباعهم تصل لدرجة الاستعباد المالي و الجسدي ؛ هذه العقيدة هي التي حافظت دوما على تماسك هذه الطوائف و على بقائها منظمة و مكتفية ماليا إن لم نقل "ثرية" .

ثانيا الحقد الرهيب على الإسلام و المسلمين ، فالمسيء في دين هذه الطوائف هو الشخص الذي يعمل وفقا لأي من قوانين الإسلام في معاملاته مع غير أبناء طائفته ، و المحسن هو كل من يخالف تعاليم الإسلام إلى أقصى حد ممكن عندما يتعامل من الأجانب عن ملته ، و لذلك يعتبر الكاذب و اللص و المغتصب و المحتال و المقامر و الراشي و المرتشي و مدمن الخمر و المجون و المعاشرات الجنسية حتى مع من يعتبرن "محارم" في الديانات كالأم و الأخت و الابنة و حتى الابن و الأخ من أكثر الناس إحسانا تعبديا خالصا في هذه الطوائف !

يؤمن أتباع هذه الطوائف بتناسخ الأرواح و بعودة الأموات إلى الحياة على الأرض جيلا بعد جيل و لا يعتقدون بيوم القيامة و لا بالجنة و لا بالنار كما يفعل المسلمون .

ثالثا أتباع هذه الطوائف يعتبرون السرية في التعبد و إخفاء عقيدتهم عن المسلمين و التظاهر بالإسلام واجبهم الديني الأكبر و يجرمون على أتباعها الجهر بما يؤمنون به أمام غير أبناء ملتهم ، و يعاقبون المخالف بالموت ، و هذا ما حماهم من سطوة المسلمين بهم ، ذلك أن عقائد هذه الطوائف مبنية كلها على إهانة معظم ما يقدره المسلمون .

رابعا يعتقد أتباع هذه الطوائف و قادتها بالسحر الأسود و يمارسونه كثيرا إلى درجة أنه كان يشكل تقريبا كل الممارسات الروحية لهم ، و طبعا التنجيم كان أساس المهمات الروحية التي يقوم بها رجال دين هذه الطوائف ، و جدير بالذكر أن عوام المسلمين و المسيحيين و خاصة النساء منهم كانوا أكثر زبائن المنتجات السحرية السوداء لرجال دين هذه الطوائف ، و لقد

استطاع رجال الدين هؤلاء أن يؤسسوا داخل مجتمعات المسلمين طبقة كاملة جديدة من رجال دين مسلمين مزيفين يزعمون أنهم متخصصون فقط في الزهد و الروحانيات الإسلامية أو ما يعرف بـ "التصوف" ، و الواقع أن هؤلاء الشيوخ المزيفين كانوا مجرد سحرة آخرين و نسخا مكررة عن رجال ديانات هذه الطوائف عدا أنهم لا أهداف سياسية لهم و ليسوا متعلمين تعليما شرعيا إسلاميا ، كان مشايخ هذه الطبقة دوما يلتفون حول من بيده السلطة و يعطونه ما يريد من الشرعية و خدمات السحر و التنجيم و التكهن و الجاسوسية مقابل المكاسب و الحماية ، و لقد كان هؤلاء من أفضل أعوان الحاكم الأوربي لبلدنا في زمن الإنتداب ، و كانوا مصدر التعويضات التي تستعملها والدتي لإبقاء حب والدي لها متقددا ، و كانوا أيضا مصدرا أساسيا للمعلومات التي احتاجها والدي في فترة عمله بالقضاء أيام صباي الجميلة.

خامسا كان شتم المسلمين و لعنهم و التظلم منهم و التحريض على قتلهم و سرقته و الإنتقام منهم و التشكيك في ما يؤمنون به تُشكل بمجموعها الموضوع الوحيد لجميع الاجتماعات الدينية لهذه الطوائف ، و جميع الصلوات و المواعظ التي يتلوها أتباعها و رجال الدين فيها كانت فقط الدعاء على المسلمين و لعنهم و الإستغفار من التقصير في قتلهم و التكيل بهم !!!.

كانت عشرات آلاف الأسر التي تنتمي لهذه الطوائف تستوطن في بلادنا و تتظاهر بالإسلام و تعيش في الواقع و تمارس ديانتها سريريا ، أكثرهم كانوا يمارسون التجارة و الزراعة ، و كانوا يتميزون بجهلهم بالصناعات حتى اليدوية منها ، و أخمن أن الخوف و التخفي كان سبب حرمانهم من فكرة الإستقرار اللازمة لتعلم الحرف الصناعية.

كان دعاة هذه الطوائف يعملون سرا على ضم أفراد من عامة المسلمين إليها ، البرنامج الدعوي لهذه الطوائف يفتح دوما بفكرة واحدة هي : إن الإسلام الحقيقي غير معروف لأكثر الناس ! و هذا هو السبب الوحيد في تعاسة الناس و في كل المصائب التي يعانونها و التخلص من سيطرة الشيوخ و رجال الدين المسلمين و من سيطرة تفسيراتهم للكتب المقدسة هو الخطوة الأولى نحو اكتشاف الإسلام الحقيقي و نحو سعادة البشر !.

لقد كان دعاة هذه الطوائف بارعون فعلا في طرح هذه الفكرة و ما يؤيدها من العبارات الواردة في كتب الإسلام المقدسة ، و لذلك وقع اختيار البروفسور أوسكار و من قبله أساتذة "الإستشراق" في الجامعة الكبرى لدولة الإنتداب "سابقا" على عدد من دعاة هذه الطوائف ليدرسوا المنطلقات النظرية للجمعيات الإسلامية و لتأسيس أكبرها و ترعّمها و كتابة مؤلفاتها الفكرية من وحي ما صنفه أساتذة الإستشراق ، و من هؤلاء كان رافع أفندي.

جدير بالذكر أن الحرب الأولى للزعيم الأوحّد قد خلقت فراغا كبيرا في الجيش و الشرطة و لقد ملأناه كله تقريبا بأبناء هذه الطوائف الذين توافدوا على معسكرات التطوع العسكرية بأوامر من رجال دينهم بعد التنسيق معنا بالطبع ، و لقد شكلوا

بعد سنوات خمس من انتهاء الحرب نصف عدد ضباط الجيش الصغار و جميع ضباط صف المخابرات و فرق حراسة السجون ، و طبعا جميع فرق الإعدام العسكرية في السجن الحربي ، كانوا و لا يزالون يمارسون عملهم بسجن و تعذيب و أعدام المسلمين بتلذذ و تفنن و بإخلاص نادر .

نعود إلى بسطام أو أبو عرب : بعد أن أصدر الزعيم قراراته الاحتفالية بالنصر عم الغضب أوساط المتدينين المسلمين ، و فرح الشيوعيون كثيرا بهذه القرارات و راحوا يظهرن الشماتة بخصومهم .

غضب المشايخ كثيرا من قرارات الزعيم بديع إلا أنهم و كما أوضحت آنفا لم يكونوا قادرين على التعبير عن غضبهم في ظل الحماس العارم و الشعبية الساحقة التي ربحها الزعيم بديع بعد انتصاره على الغزو الأوربي ، و تجرباً بعض المشايخ و عبّروا عن غضبهم و انتقدوا الزعيم بديع علنا إلا أنهم واجهوا عواصف من استنكار العامة للمساس بشخص الزعيم أو انتقاده فعادوا إلى الصمت ! .

هذا العجز من المشايخ أثار سخط الشباب المتدينين المتحمسين و أشعرهم باليأس من أن يفعل المشايخ شيئا لمواجهة هذه الحملة على الدين .

تلك كانت فرصة ذهبية لنا لتحويل انتباه غالبية الشباب المتدينين إلى الجمعيات الإسلامية و إبعادهم عن المشايخ ، بأمر مباشر مني اقترح بسطام على قيادة الجمعية الإسلامية الكبرى فكرة معاقبة الزعيم الفاجر و قتله ، و لقد رفض الجميع الفكرة باستثناء رافع أفندي زعيم الجمعية و أحد مؤسسيها ، لكن بعد نقاش طويل وافق الجميع على الفكرة بشرط أن ينفذها شخص ماهر و أن تتم الترتيبات لمنع اعتقاله .

الخطّة كانت جاهزة عند بسطام ، و في يوم التنفيذ قَدِمَ بسيارته مع سائق ماهر من شباب الجمعية إلى شارع مجاور لدار السينما حيث الحفل الفني الذي يحضره الزعيم الأوحّد و نزل بسطام من السيارة و اتجه بهدوء إلى بوابة المسرح ، عندما خرج الزعيم و استقل السيارة مع قائد جيشه عبد الصبور خرج بسطام من بين الحشود و أطلق رصاصات مسدسه "الخليّة" على الزعيم الأوحّد و قائده ، لم يرف للزعيم جفن و لا لقائده و بقيا واقفين بينما انبطح الجميع أرضا بما فيهم العقيد زيد و أفراد الحرس الرئاسي ، وثب بسطام كالبرق عائدا إلى رفيقه ليهرب بسيارته ، و طبعا في وسط هذا الدهول كان الزعيم يهتف بالناس بصوت واثق : لا تخافوا .. لا تخافوا .. انفضوا .. لا تخافوا من هذا الغادر الخائن .. الجبان .. أنا بخير .. حتى لو قُتلت فإن آلاف من الشرفاء مثلي سيمسكون الدفة و يقودون الأمة . نخض الناس و تراحموا على سيارة الزعيم في مشهد عاطفي لا يتكرر إلا في أفلام هوليوود .

المشهد بكامله صورته عدة كاميرات سينمائية كانت تغطي افتتاح المسرح من خارج المسرح و من عدة زوايا و كانت مسجلات صوتية تشتغل في سيارة الزعيم تسجل كلماته الخالدة في هذه الملحمة الشعبية العظيمة .

نقلت الإذاعة نبأ محاولة اغتيال الزعيم الأوحده و بثت تسجيلا للواقعة تضمن أصوات الرصاص و تكبيرات "أبي عرب" (بسطام) و هتافات الزعيم الأوحده التاريخية بمن حوله من الجماهير الخائفة.

التقارير الواردة للمخابرات لم تشر إلى الكثير من الإهتمام الشعبي بالحادث ، و السبب في ذلك هو انشغال الناس بنكبة الحرب و عشرات آلاف الضحايا و مآسي الأيتام و مشاكل الأراامل و المشردين ، لم يشكك أحد بشجاعة الزعيم و لا بإخلاصه لوطنه و لكن الهموم القريبة دائما أولى من الهموم البعيدة.

عرضت على شاشات دور السينما بعد وقوع الحادثة بشهر مقاطع لمحاولة الإغتيال ، و مقاطع أخرى لإعتقال الشرطة لرافع أفندي و واثق أفندي زعيمي أكبر جمعية إسلامية ، هذه المقاطع أوجت النقمة بين العامة البسطاء على هذه الجمعية و قادتها ، و رغم أن الشرطة عادت و برأت قادة الجمعية من التهمة إلا أن التهمة وجهت رسميا لأحد أعضائها الذين فُقدوا خلال الحرب !!.

التقارير التي وردتني لاحقا عن تأثير عرض المقاطع كانت مثيرة حقا للإهتمام ، فلقد أظهرت أن المشايخ نفروا كثيرا بعد هذه العملية من الجمعيات الإسلامية ، و بدأ العديد منهم بالتهكم على أعضاء هذه الجمعيات مستغلين سخط الناس عليهم و على محاولة الإغتيال ، لقد كانت فرصة للمشايخ لرد اعتبارهم و رد الصفعة لهذه الجمعيات الإسلامية ، راح البعض يرد على ما ورد في كتب هذه الجمعيات و منشوراتها بشكل علني و على المنابر ، و لقد تزعم المفتي بنفسه هذه الحركة و أشرف على وضع برنامج لنشر مقالات و نشرات ترد على أفكار هذه الجمعيات.

زار والدي دار الإفتاء و قابل أعضاء هيئة الفتوى و عبر لهم عن دعم الزعيم الأوحده لهم و عن تقديره لجهودهم في الرد على أعضاء هذه الجمعيات ، و قدم للمفتي مبلغا كبيرا كميزانية حملة دار الإفتاء على الجمعيات و دعما للنشاطات الخيرية التي يديرها سماحته .

و في خطوة أخرى في نفس الاتجاه دعى (قائد الجيش) العميد عبد الصبور أعضاء هيئة الإفتاء إلى قصر لأحد الباشاوات المهاجرين ، و هناك نحر لهم الذبائح و أكرم وفادتهم و أصر على مبيتهم في ذلك القصر العامر تلك الليلة.

في تلك الليلة و بعد صلاة العشاء تعشى الجميع على أضواء الشموع ، ثم داهم الضيوف النعاس تحت تأثير منوم خفيف دُس لهم في عصير الزبيب المثلج ، فتم نقل المشايخ إلى غرفهم و على رأسهم المفتي ، إلا أن من ساعدهم على النهوض و

الوصول إلى الغرف كُنَّ عدّة راقصات من طاقم العميد عبد الصبور شبه عاريات و التقطت عدة صور للمفتي و مساعديه أثناء إنحاض الراقصات لهم !.

من يرى هذه الصور سيقول ابتداء : هؤلاء سكارى تسندهم الراقصات ! في صباح اليوم التالي أيقظ الجنود ضيوف العميد لصلاة الفجر برش الماء على وجوههم ، كانوا شبه نائمين في تلك الصلاة و اضطر العميد لأن يصلي بالجميع إماما ! لم يستيقظ الضيوف بعد صلاة الفجر إلا قريب الظهر ، فتناولوا فطورهم و صلوا الظهر مع العميد جماعة و انصرف الجميع إلى أعمالهم بسعادة و سرور .

بعد عدة أسابيع من الدعوة ظهرت صور المفتي فقط و الراقصات يسندنه و نشرتها جريدة الجمعية الإسلامية في صدر صفحاتها تحت عنوان "كهنة الزعيم الأوحـد" و مع الصور نُشر مقال طويل مليء بالتهجم على المشايخ يتهمهم بالنفاق و بيع دينهم لمن يدفع أكثر و أنهم لا يختلفون في شيء عن كهنة الجاهلية العربية الذين كانوا يفتون لسادة قريش بما يشاؤون نيابة عن الآلهة و أنهم شر الناس و لعنهم من أوجب العبادات.

أصيب المفتي المسكين بالفالج بعد أن وقعت عيناه على الجريدة ، نقل بعدها إلى المشفى في حالة خطيرة و توفي عقب ذلك بأيام قليلة.

لم يُعين الزعيم الأوحـد مفتيا جديد بعد وفاة الشيخ المسكين و إنما تولى نائب المفتي القيام بمهامه و لم يُثبّت في منصبه إلا بعد خطاب الزعيم الأوحـد التاريخي الثالث في الذكرى الخامسة لثورته المباركة ، و انطفت بفضيحة المفتي حملة المشايخ على الجمعيات الإسلامية !.

بعد هذه الحادثة كانت تقارير المخابرات ترسم خريطة جديدة للرأي العام على النحو التالي : أكثرية الناس رفضوا تصديق أن الرجل الذي في الصورة هو المفتي حقا ! و المشايخ كلهم تقريبا أجمعوا على براءته خاصة بعد انتشار شهادات لأحد المشايخ من ضيوف عبد الصبور عن أنه رأى بعينه أولئك الراقصات في إحدى قاعات القصر التي دخلها صدفة في ليلة الدعوة و أنه هو و المفتي و الجميع كانوا شبه مخدّرين ليلتها ، لكن هذا الشيخ لم يجرؤ على التحدث علنا خوفا على نفسه أن يكون قد وقع في نفس مطب المفتي.

على الرغم من هذا انخفضت كثيرا شعبية و حماسة العامة للمشايخ و للجمعيات الإسلامية على حد سواء و انتشرت الكثير من النكات الساخرة من كليهما بين العامة.

أما على صعيد المتدينين فلقد انقلب سحر حملة المفتي على المشايخ و تزايد انفضاض المتدينين من حولهم و استقطابهم حول الجمعيات الإسلامية و خاصة جمعية رافع أفندي.

هذه المواجهة سمحت للشيوعيين بتصعيد دعايتهم كثيرا ، و ارتفعت كثيرا مبيعات جرائدهم و مجلاتهم على قلتها ، و تشجع كثير من الذين كانوا مترددين في الإنتساب للأحزاب الشيوعية و القومية الاشتراكية التي ظهرت حديثا مع ثورة الزعيم الأوحده و بدأت الحكومة تظهر تسامحا مع الشيوعيين و القوميين الاشتراكيين لدرجة أن الزعيم الأوحده استقبل وفودا من هذه الأحزاب لأول مرة في تاريخ البلاد لتعبر له عن التأييد المطلق لخطواته الشجاعة و الحكمة !.

هذه الأحداث وقعت في العام الخامس لحكم الزعيم الأوحده ، هذا العام الذي شهد رحيلاً نهائياً لمعظم الأرستقراطيين الصغار و حقوقهم بكبارهم في أوربة.

الفريق الأوربي الذي أرسله معي جيمس في بداية حكم بديع كان يقيم في المبنى الخاص بالقرب من القصر الجمهوري في العام الأول ، ثم تم توزيع أفرادهم من الأساتذة و الخبراء على جميع المدن الكبرى ، بمعونة فريقنا من الأساتذة الجامعيين المتخرجين من أوربة استطعنا أن نموّه وجود هؤلاء الخبراء جيداً ، طبعاً ما ساعد على تمويههم الكامل هو أننا استصدرنا لهم هويات وطنية بأسماء وطنية و هم أصلاً يجيدون العربية بلهجات متعددة و كانوا أصلاً يعملون ضمن الطواقم الإستشارية الخاصة بقيادة جيش الإنتداب.

سكن هؤلاء الخبراء في بيوت كبيرة ضمن أحياء الأقلية الدينية التي ينتمي إليها رئيس المخابرات العميد لويس ، و لقد تم تمويه وجودهم لدرجة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى الحراسة نهائياً .

في العام الثاني لتواجدهم نظم هؤلاء الخبراء عدداً محدوداً من أبناء تلك الأقلية في شبكة إتصالات تعمل ضمن كافة الدوائر الحكومية و الشركات الوطنية و الوزارات ، هذه الشبكة كان عملها مراقبة عمل هذه المؤسسات بشكل واقعي و وضع تقارير حقيقية بإحصاءات دقيقة عن عمل كل من هذه المؤسسات ، طبعاً لم تكن تقاريرها أبداً قريبة الشبه من تلك التقارير التي يقرؤها الوزراء و الرؤساء و حكام الولايات ، التقارير التي ينظمها المدراء المحليون و كلها كذب و تزوير و تمويه للفساد و الفشل الذريع.

لقد تم تعيين أفراد هذه الشبكة في جميع هذه المؤسسات تحت بند منصب وهمي هو "مساعد المدير المالي" لهذه المؤسسات ، رواتب هؤلاء كانت تصرف لهم حسب سلم الرواتب العادية و لكنهم كانوا أيضاً يتقاضون رواتب ضخمة من رؤسائهم الأوربيين مقابل تقاريرهم المفصلة.

طبعاً كنت أحصل على نسخ من هذه التقارير الرائعة حقاً باللغة الأوربية للإطلاع فقط.

ضمن الدراسات التي وردت إلى الخبراء الأوربيين تقارير عن حالة البلاد بعد الحرب في مدينة "الحرية" تقرير تحدثت عن نقص كبير في عدد الأطباء و الكوادر الطبية المتخصصة بسبب مقتل مئات منهم في تلك الحرب ، و لقد رأى هؤلاء الخبراء في

هذه الحالة فرصة مهمة جدا للإستيلاء على القطاع الطبي ، و أيضا و ردت تقارير عن سقوط معظم الرياضيين المعروفين في البلاد و كوادر التدريب الرياضي بين قتيل و جريح في مدينة الحرية ، هذه أيضا وجد فيها الخبراء فرصة للسيطرة على هذا القطاع و إعادة تشكيله بما يناسب المرحلة القادمة .

في نهاية العام الخامس لحكم الزعيم الأوحده كان تركيز الخبراء الأوربيين على حالة القطاع الزراعي الذي كان يشكل المصدر الأساسي للمال في كل البلاد ، قرأت في أحد الأبحاث تقريراً مذهلاً عن تنوع و ضخامة الإنتاج الزراعي في ذلك العام رغم غياب معظم مالكي الأراضي الكبار ، لقد كانت البلاد تنتج محاصيل استراتيجية هائلة ذكرها التقرير بتفصيل دقيق ، أذكر منها : القمح و كان يكفي لثلاثة أضعاف حاجات البلاد الكاملة و كانت البلاد تصدر فائض طحين القمح لمعظم الدول الأوروبية القريبة ، و كان هذا القمح ممتازاً جداً و يباع في أوربة بثلاثة أضعاف ثمن نظيره الأمريكي الشمالي و يقبض ثمنه الأرسنقراطيون المقيمون في الخارج.

القطن و كان أيضاً ممتازاً جداً و بلونين أبيض و زهري ، هذا القطن كان يكفي حاجة البلاد و تفيض منه كمية مضاعفة تباع في الأسواق الكبرى خاماً يتم تصنيعه في أرقى المصانع الأوروبية.

الأرز كان ينتج بكميات تكفي حاجات البلاد تماماً و لم يكن استهلاكه كثير لأن الناس في بلادنا كانوا يفضلون جريش الحنطة الخضراء (فريك) و الحنطة الجافة (البرغل) على الأرز ، و مع ذلك فإن الأرز الذي كان ينتج في بلادنا تلك الفترة كان يعتبر من أفضل أنواع الأرز في العالم و يسمى نوعه بالـ "عنبر" بسبب رائحته الزكية جداً.

أما بقية الحبوب كالحمص و الفول و العدس و الشعير و غيرها من المحاصيل الإستراتيجية فإنها كانت تكفي أيضاً ضعفي حاجة البلاد و تصدر الفوائض منها إلى الخارج.

الفاكهة و الخضار بكافة أنواعها كانت تنتج بكميات هائلة ، لقد أنتجت البلاد كافة أنواع الثمار بداية من التمر و انتهاء بالزيتون و زيتة ، الفاكهة كانت تنتج أفضل أنواعها و بكميات ضخمة و طبعاً كافة أنواع اللحوم و الألبان و الدهون و كلها تنتج بكميات كبيرة جداً إلى درجة أن الناس لم يكونوا يشترون اللحوم التي تذبح في الصباح بعد العصر و لا الفاكهة و لا الخضار المقطوفة منذ أكثر من يوم واحد !.

لقد كانت الزراعة تؤمن أيضاً احتياجات الصناعات الوطنية الإستهلاكية و كانت هذه الصناعات مزدهرة و تعتمد على المعامل المتوسطة و الصغيرة .

كل هذا الإنتاج الضخم تم على الرغم من أن معظم الغابات و الأراضي المشجرة في البلاد قد قطعها جيش الإنتداب عمداً في وقت سيطرته و حولها إلى فحم لأغراض النقل للمعدات و التدفئة للجنود.

بعد رحيل الأرستقراطيين عن البلاد تباطأت كثيرا القطاعات الصناعية و تناقصت أرباحها نظرا لأنها تحولت إلى ملكية تجار غير متخصصين أساسا في هذه الصناعات.

أما القطاعات الزراعية فإنها لم تتأثر لأن الأرستقراطيين أنابوا عنهم في إدارة أملاكهم الزراعية أشخاصا يقال لأحدهم "الخولي" و هي كلمة عربية تعني راعي العبيد أو راعي "الخول" ، و هذا الإسم لنواب مالكي الأراضي جاء بسبب أن معظم أجداد الفلاحين في تلك الأراضي كانوا في الماضي السحيق عبيدا للأمرء المحاربين أجداد الأرستقراطيين الحاليين.

"الخولي" كان على الدوام رجلا نافذا جدا و مطاعا مهابا بين الفلاحين و صادق الولاء لسيده المالك و مستعدا لفعل أي شيء لخدمة أسياده و عادة ما يكون أمينا جدا ، و نظير هذا كان يحصل على حصة معقولة من غلات الأراضي التي يربعها. كانت أرباح الأرستقراطيين من أراضيهم تصل إليهم و بكل أمانة عبر مندوبيهم في البلاد و لكنهم كانوا قد توقفوا عن دفع المعونات التي اعتادوا دفعها للقطاعات الخيرية و أدى هذا لظهور الفقر في البلاد و انتشاره في الأحياء النائية من المدن الكبيرة.

سافرت في نهاية هذا العام المتوتر إلى أوروبا و معي حقيبة ضخمة تتضمن حصيلة تقارير جميع الخبراء الأوروبيين ، سلمت الحقيبة لجيمس و بعد أسبوعين من التمتع بجمال جبال الألب تلقيت دعوة البارون إلى فندق جميل على الحدود مع النمسا و هناك تسلمت منه جدول أعمال للسنة القادمة .

عدت للبلاد بعد مؤتمر "الألب" بأسبوع و بعد أسبوع آخر ألقى الزعيم الأوحـد خطبا تاريخيا ثانيا في المسرح الوطني الذي شهدت بوابته محاولة الإغتيال الشهيرة .

الخطاب كان استكمالا لخطوة استملاك الشركات الأجنبية ، و تضمن قانونا رئاسيا جديدا يتضمن هذه المواد :

أولا : تحدد ملكية الأراضي الزراعية في كل أرجاء البلاد بعدد معين من الهكتارات لكل مالك ، و يفرض على مالكي الأراضي التي تزيد مساحتها عن هذا العدد الإحتفاظ بمساحة من أرضهم تساوي المساحة القانونية الجديدة و تسليم الباقي لمديرية خاصة في وزارة الزراعة إسمها "مديرية الإستصلاح الزراعي".

ثانيا تستأجر الدولة كل الأراضي التي زادت عن المساحة القانونية عبر مديرية الإستصلاح الزراعي لمدة خمسين عاما مع إبقاء ملكيتها لأصحابها الأصليين و تقوم بتسليم هذه الأراضي للفلاحين المقيمين فيها أصلا و تجي منهم الضريبة بنسبة عشرة بالمائة بدلا عن الإيجار.

ثالثا تعتبر كافة العقارات التي يموت أصحابها و لا ورثة لهم ملكا للدولة و لا تضاف إلى الأوقاف الخيرية.

القانون الثاني : استحداث وزارة الإعلامي الوطني و تتبع لها كافة وسائل الإعلام المرئية و المسموعة و المكتوبة ، و يضاف لهذه الوسائل "التلفزيون" الذي تأسست من أجله الإدارة العامة للتلفزيون الوطني.

القانون الثالث : استملاك عدد من الشركات الوطنية الكبرى بنفس طريقة إستملاك الشركات الأجنبية .

القانون الرابع : حصر السلطات الصحية كلها بوزارة الصحة العامة و إخضاع كافة المشافي في البلاد للإدارة الحكومية.

القانون الخامس : إنشاء وزارة خاصة بالشباب و الرياضة.

القانون السادس : إنشاء لجنة خاصة من الخبراء لكتابة دستور جديد للبلاد بدلا من الدستور الذي أقرته الجمعية الوطنية قبيل انسحاب قوات الإنتداب الأوربية .

و ختم الزعيم الخطاب التاريخي الثاني بجملي : الأرض لمن يعمل بها ، المصنع لمن يعمل به.

خطاب الزعيم عن استصلاح الزراعة كان بمثابة رصاصة الرحمة على آمال الأرستقراطيين في العودة إلى البلاد ، و أنهى كل نقاش حول شكل النظام السياسي القادم للبلاد ، و بدأت الصحف العربية و الغربية بالحديث عن "الرفيق بديع" و راجت الإشاعات الكثيرة عن وفود و خبراء من الدول الشيوعية يتوافدون على البلاد ، هذه الإشاعات لم يكن لها في الواقع أي رصيد ، و لم تكن هناك اتصالات خاصة بين حكومة بديع و بين الدول الشيوعية ، و مع ذلك فإن مخبراتنا كانت تغذي هذه الشائعات.

حسب ما جاءني من تقارير المخابرات فلقد كان للخطاب أسوأ صدى بين أبناء المدن لأن معظمهم من أقارب و عائلات البكوات و الآغوات و ملاكي الأراضي و أصحاب المصانع ، أيضا التجار و السماسرة و الصناعيون الصغار شعروا بالرعب من القادم .

الشيوعيون شعروا بحيرة لم يسبق لهم أن شعروا بمثلها و راحوا يبشرون بتطبيق البرامج و الأنظمة المعمول بها في الدول الشيوعية مثل تخصيص حصص غذائية لكل شخص و إنهاء ملكية المنازل و الحوانيت و البساتين ، أما كتاب الجرائد فراحوا يتوافدون على الملحقيات الثقافية للدول الشيوعية و يأخذون منها منشوراتها العربية و يقتبسون منها المقالات ، و بدأت في المقاهي و المضافات تدور الأحاديث عن ما سيحل بالبلاد إن فرض عليها الحكم الشيوعي ، و البعض يبشر بدولة عظمى عربية شيوعية واسعة تكون القطب العالمي الثالث !!.

بعد الخطاب بشهر تقريبا اجتمع الزعيم الأوحده بالخواجة حزقيال مؤسس الحزب الشيوعي و بالأستاذ ميخائيل و الأستاذ عرجي قائدي الأحزاب القومية العربية الاشتراكية ، و كان الحوار بينهم يشبه تماما حوار الطرشان ، فقادة هذه الأحزاب كان

كل منهم يحاول إقناع بديع بخطوات أبعد نحو الاشتراكية و كان بديع يتملص منهم بأدب لأنه يعلم أنه لا يقدر على تحديد الخطوة التالية ، و لكن الجميع اتفقوا في نهاية اللقاء على مبدأ محاربة ثنائية رجال الدين و الأرستقراطيين و على مبدأ : من كل بحسب طاقته و لكل حسب حاجته ، و قبل أن ينصرف أهدي الخواجة حزقيال للزعيم مجموعة المادية الجدلية مترجمة و مطبوعة للعربية مزينة بتوقيع زعيم إشتراكي كبير ، بينما أهده الأستاذ عربي سيفا عربيا منحنيا له رأسا و أخذ الجميع صوراً تذكارية و غطت الصحافة الاجتماع و ما تلاه من تصريحات.

بعد اللقاء صرح الزعيم للصحافة بأن ثورته جزء من ثورة الإنسانية كلها على الإستغلال و الإستعباد و الفقر .

في اليوم التالي التقيت في داري بالساحل مع البارون جيمس الذي زار البلاد بطائرة خاصة و سلمني ملف مهمة جديدة خطيرة جدا متعلقة بهذا الجو العام ، بدأنا تنفيذها في اليوم التالي :

اتصلت بـ "خضير" أحد الصحفيين العاملين في إدارة جريدة الحزب الشيوعي و سلمته مقالا ليتصدر الصفحة الأولى لجريدة الحزب ، ارتاع الرجل عندما قرأ المقال و قال : هذا المقال قد يثير الحرب !. قلت : لا سنجعلها مجرد زوبعة و لن يصاب أحد بأذى ، أنت فقط أقنع زميلك الصحفي جورج بتبني المقال و هو لن يمانع و أعطه هذا المبلغ.

هز الرجل رأسه و انصرف بعد عشاء عامر ، و في اليوم التالي استيقظت البلاد على ما يشبه الزلزال ! كانت الجريدة قد تصدرت بجملته : "هل مات الإله ؟ أم لا إله أصلا".

رغم أن الأحزاب الشيوعية في بلادنا قديمة و أتباعها ملحدون ، إلا أن الخطاب الرسمي لهذه الأحزاب لم يصرح أبدا بالحرب على الإسلام أو المسيحية أو اليهودية ، و لم يجرؤ أحد أبدا على إصدار ما يوحي بالإلحاد في أي منشور شيوعي ، و لقد كان هذا المقال صدمة هائلة بكل معنى الكلمة ، فلقد ناقش فيه الكاتب كلاما للفيلسوف الأوري "نيتشه" و يقارنه بكلام لماركس عن الإلحاد ثم انتصر فيه لرأي ماركس !!.

لم تكد أعداد الجريدة توزع حتى بدأ الباعة بضرب الموزعين و أحرقت أعداد الجريدة و هجم الناس بعد صلاة الظهر على مكاتب الشيوعيين و اشتعلت البلاد طولا و عرضا.

في وقت العصر هدأت العاصفة نسبيا بعد أن أسفرت عن عشرات القتلى بين الشيوعيين أحرقوا في مكاتب الحزب ، لم يحرك أحد ساكنا للدفاع عن الشيوعيين طوال اليوم ، و في المساء و بتنسيق بين لويس و بسطام هاجمت مجموعات مسلحة من الجمعية الإسلامية الكبرى مقرات الأحزاب القومية و عدة كنائس و محلات لبيع الخمر و بنوكا و قتلت عددا من الحرس و الشرطة و أخذت أسلحة آخرين ، و رفعت على سوارى بعض الأبنية أعلاما خضراء عليها شعار التكبير ، و لم يتوقف إطلاق النار في العاصمة إلى قبيل الفجر .

في صباح اليوم التالي افتتحت الإذاعة بثها بتلاوة آيات القرآن و بعدها تلت بيانا لقيادة الجيش و القوات المسلحة يعلن عن :

1- إعلان حالة الطوارئ و الإستنفار القصوى في الجيش و سائر القوات المسلحة .

2- 2- منع التجول بالقوة في كل أرجاء البلاد حتى إشعار آخر تحت طائلة التعرض للرمي بالرصاص .

في الساعة الثامنة صباحا كانت قوات الجيش بمدرعاتها تنتشر في كل العاصمة و المدن الكبرى و تحتل الساحات الرئيسية و تمنع التجول بالقوة.

في الساعة العاشرة توجه الزعيم الأوحده بخطاب للأمة بدأه بالبسملة و بالصلاة و السلام على النبي و بآية قرآنية هي : "و من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا و يشهد الله على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام و إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد" .

ثم أكد على أنه مسلم مؤمن و أنه يرفض الإلحاد و أكد من جهة أخرى التزامه التام بفتاوى دار الإفتاء و التي تنص على وجوب طاعة القانون و تحريم خرقه و الإعتداء على المؤسسات الحكومية و المنشآت العامة.

و ختم بأن مجلس قيادة الثورة سيصدر قرارات هامة بخصوص ما حدث.

هدأ الجميع و انتهى الفوران ، و بعدها بقليل بثت الإذاعة لقاء مع المفتي الجديد تحدث فيه عن جريمة الحزب الشيوعي و عن خطر الإلحاد و هاجم أيضا بعنف الجمعيات الإسلامية و اعتدائها على المقرات الحكومية و الشرطة.

كان المفتي الجديد متحدثا بارعا استطاع بالفعل أن يهدئ الناس و أن يقنع العامة بأن الحكومة الجديدة ليست شيوعية و لا ملحدة و ستقمع هؤلاء المستهترين بالمقدسات و أولئك المستهترين بالأمن.

في المساء خرج والدي على الإذاعة و تلى مقررات مجلس قيادة الثورة و هي :

1 - تشكيل الهيئة العامة للرقابة الوطنية على الإعلام و منحها سلطات استثنائية لمراقبة كل أجهزة الإعلام ، تعيين أحد أساتذة القانون المعروفين بالتدين رئيسا لها .

2- حظر كافة الأحزاب الشيوعية و الجمعيات الإسلامية و حلها جميعا تحت طائلة محاكمة المخالفين أمام القضاء العسكري.

3- إصدار عفو عام عن كل الانتهاكات التي حصلت خلال الفوضى ، و يستثنى من العفو الصحفي جورج الذي ذيل المقال بتوقيعه و الحكم عليه غيابيا بالإعدام.

عاصفة المواجهات بين الشيوعيين و الجمعيات الإسلامية غطت تماما على قانون آخر أصدره العقيد بديع و نشره في الجريدة الرسمية ، و ينص على أن مديرية الإستصلاح الزراعي لها سلطة على سائر الأراضي الزراعية في البلاد و لها أن تفرض على المزارعين نوع المواد التي يزرعوها و كيفية تسويقها.

نسي الناس قانون الإستصلاح الزراعي و الإستملاك الصناعي و بعد شهر كنت في الميناء لأودع الخواجة حزقيال و أعضاء قيادة حزبه و الصحفيين جورج و خُضير ، لقد سافر الجميع إلى أوربة ، هناك تقدموا بطلب حق اللجوء السياسي و بدؤوا نضالهم لتخليص بلادنا من استبداد العسكر "الرجعيين" .!

الجمعيات الإسلامية انتقلت إلى العمل السري "رسميا" ، و لكن هذا لم يكن واقعا فعلى الرغم من إغلاق مقراتهم و وضعها تحت الحراسة فقد ظلت نشاطاتهم على حالها لم تتأثر و استمرت عمليات تجنيدهم للشباب في الجناح المسلح ، و استمرت منشوراتهم في الصدور و التوزيع دون أن يعتقل أو يمنع أحد من بيعها و توزيعها و لم تصدر لهم ورقة واحدة و لا قطعة سلاح.

أما عن قانون الإستصلاح الزراعي و الإستملاك الصناعي فلقد بدأ تطبيقه فور صدوره ، و انتشرت في كافة المناطق طواقم من المساحين الطبوغرافيين (مهندسي العقارات) و كانت لديهم خرائط جاهزة تم إعدادها في أوربة ، لم ينته العام السادس لحكم الزعيم الأوحده إلا و كافة أراضي الأرستقراطيين قد تم تسليمها للفلاحين و تم ربط كافة الأراضي بمكاتب محلية تابعة لمديرية الإستصلاح.

هذا العام شهد حالة غريبة من نوعها ، فلقد تكسدت الإنتاج الزراعي في البلاد بشكل لا مثيل له ، و بشكل خاص المنتجات الإستراتيجية كالقطن و القمح و قصب السكر و أعلاف الحيوانات و السبب في ذلك هو امتناع الأرستقراطيين المهاجرين عن تسويق محاصيل أراضيهم المصادرة ، الأرستقراطيون كانوا هم المسوقين لفوائض الإنتاج الزراعي و الصناعي إلى أوربة و غيرها من الأسواق ، و لم يكن ممكنا في عام واحد أن يتم تأمين شبكات تسويق لهذه المنتجات ، و لقد تسبب هذا في كساد كبير جدا و رخص هائل في المنتجات الزراعية و الحيوانية و المصنوعات المنتجة من المحاصيل ، حتى تلفت كميات ضخمة من المحاصيل في نهاية مواسم الحصاد لإنعدام القدرة على تخزينها.

هذا الرخص في الواقع لم يكن أمرا جيدا للإقتصاد في المحصلة ، فالبلاد كانت لا تزال تستورد كافة المنتجات الصناعية الأساسية من الخارج ، فمشتقات النفط و السكر المكرر و الأدوية و العدد الصناعية و قطع الغيار و حتى أسلاك الكهرباء و الإسمنت و مواد البناء و علب الثقاب و الدبابيس و خميرة الخبز كلها كانت تستورد من أوربة و أمريكا .

أيضا كان الأرستقراطيون هم من يؤمن العملات الأوربية اللازمة للتجار حتى يستوردوا هذه البضائع ، لأن الأرستقراطيين كانوا وحدهم من يصدر المنتجات إلى أوربة مقابل الذهب أو العملات الأوربية ! بقيت فقط شركة النفط المؤممة تحصل على مبالغ لا تزيد عن عشر ما تحتاجه البلاد من عملات أوربية.

ارتفعت أسعار المواد الأساسية الصناعية و أسعار النقل و الوقود و الغاز و كل شيء يباع في المحلات التجارية إلى الضعفين أو أكثر و فقدت الكثير من السلع التموينية كالسكر و الخمائر و الزيوت النباتية و كادت البلاد تعود في ذلك العام إلى عصر ما قبل الصناعة ، فلقد عادت العربات التي تجرها الخيل إلى العمل بكثافة في شوارع البلاد ، و استعمل الناس الحطب و الفحم البدائي للتدفئة و الطبخ ، أما الأدوية فلقد صارت الحبوب المضادة للزكام أغلى بعشرات الأضعاف هذا عدا عن عقاقير الأمراض الخطيرة و مخدرات المشافي و أجور المشافي و الأطباء ، لقد كان عاما مروعاً للجميع ما عدا ربّات البيوت فلقد كن مسرورات جدا برخص المواسم و حفلات بيوت المؤنة في دورهن بما لذّ و طاب من مدخرات الطعام.

لم تنعكس هذه الأزمة كثيرا على حياة الناس فلقد كان نمط الحياة غير متطور كثيرا في البلاد ، فالكهرباء لم تكن تغطي الأرياف ، أما مياه الشرب المصنعة فكان تأمينها مقتصر على المدن فقط ، و أما المشافي و عيادات الأطباء فكان أغلب روادها هم المختصرون أو الأغنياء القلقون على صحتهم ، و أما السيارات فلم يكن يملكها إلا واحد بالمائة من السكان و بقي هؤلاء قادرون على شراء الوقود لها ، و بقية الناس تخلوا بسهولة عن الإعتياد على النقل الجماعي و استعاضوا عنه بالدواب و هي كثيرة و رخيصة و كانت لم تزل حظائرها و خاناتها موجودة و علفها صار رخيصا جدا و متوفرا بكثرة ، و أما الزراعة فلقد كانت الممكنة لم تغطّ إلا أقل من نصف عشر قطاعها.

المفارقة العجيبة هو أن هذا العام شهد إفتتاح التلفزيون الوطني ، و رغم الغلاء الفاحش للمواد المستوردة انتشرت في ذلك العام في أغلب بيوت العاصمة أجهزة التلفزيون بأسعار هي أقل من أسعار هذه الأجهزة في أوربة و افتتحت في العاصمة وكالة لبيع و إصلاح هذه الأجهزة !.

طوال ذلك العام كانت تتناوب في كل ليلة نوبات من الضحك الإجباري ، فلقد كانت تقارير المخابرات تحمل إلي من المفارقات ما يشبه نوادر الظرفاء ، فمثلا تحدثت التقارير عن إعادة افتتاح عدد كبير مصانع الفخار و الصحون الفخارية التي أغلقت قديما و كذلك مصانع الزجاج البدائي ، و ظهرت مهنة هي : جمع الزجاج المحطم ، فكان الرجال يجرون صناديق خشبية لها عجلات في طرق المدن و ينادون من عنده زجاج محطم ليشتروه منه ، السبب طبعا هو النقص في مادة الصودا اللازمة لصناعة زجاج جديد و هي مادة تستورد من أوربة.

السبب في عودة هذه الصناعة إلى الإزدهار هو غلاء المنتجات الزجاجية المستوردة ، و لأن البلاد لا يوجد فيها من يعرف كيف يصنع الزجاج المقاوم للحرارة فإن المقاهي كانت تعلق على أبوابها لافتات تطلب من الزبائن دفع "رهن" لكأس الزجاج و فنجان القهوة يعاد إليهم بعد دفع فاتورة المشروبات إذ قد يكسر الزبون الكأس أو الفنجان أو يصدعه ثم ينكر ، فيخسر المقهى لأن سعر الكأس الزجاجي المستورد أو الفنجان المستورد أضعاف ثمن القهوة و الشاي ، و هذان أيضا تضاعف سعرهما ، و حتى ورق اللعب لم ينجو من الموجة فصار الزبائن يحضرون أوراق اللعب الخاصة بهم إلى المقاهي !!.

أما الثياب فلقد كان معظمها في ذلك العام أبيض لأن الأصبغة كانت مستوردة ، و عاد صبغ البيوت بالكلس بدل الدهان الصناعي ، و عادت صناعة تكسير أحجار البناء من المقالع و صناعة اللّبن الطيني و الأسقف الخشبية و القطران و النجارة البدائية (العربية) للإزدهار بعد أن كادت تبعد تماما .

حتى أجرة الخياطات صارت أعلى فالبلاط تستورد كافة الكماليات اللازمة للخياطة من الخارج ؛ الأزرار ، الخيطان القوية ، الإبر ، الدبابيس .. إلخ.

تقارير أخرى من المخابرات تحدثت عن حيل هامة قام بها التجار لاستغلال الأزمة من أجل مكاسب أكبر ؛ المشكلة التي واجهها أولئك التجار تلخص في أن استعمال عملة البلد الوطنية في دفع ثمن المستوردات الأوروبية كان أمرا متعذرا لأن البنوك و البائعين الأوروبيين لن يقبلوا أبدا بها ثمنا لبضائعهم الصناعية ، و العملة الأوروبية الواردة إلى البلاد شحت كثيرا ، الحل كان بافتتاح التجار عدة دكاكين للصاغة راحت تشتري الذهب بالعملة الوطنية بسعر أعلى من سعره الحقيقي بنسبة جاوزت الربع ، حتى أرسل عدد من التجار أبناءهم ليجولوا على الأرياف لشراء الذهب بهذا السعر العالي المغربي جدا ، المرحلة التالية كانت استخدام الذهب كضمن للمستوردات ، إلا أن إخراج الذهب و العملة الوطنية إلى خارج البلاد كان جريمة في قانون الطوارئ الحاكم منذ وصول الزعيم الأوحاد إلى السلطة ، و لقد تجاوز التجار هذه العقبة بحل عبقرى كنت أنا من صممه (بتوجيه البارون طبعا) .

كان الحل بيد مجموعة من الصاغة و تجار الأقليتين المعروفتين من غير المسلمين ، فهاتان الأقليتان لم تنقطع صلاتهما بأوربة رغم كل شيء ، كانت معابدهما ترسل إلى أوربة أيقونات و زيوتا و خمورا مقدسة بانتظام ، و في هذه الحاويات كان يتم تهريب الذهب إلى أوربة ، بينما كان ثمن الذهب يعود إلى تلك الكنائس على هيئة صناديق مقفلة و هدايا من الشقيقات الأوروبيات لا تفتش و لا تفتش بسبب برتوكول معمول به منذ أيام الإنتداب لم يتغير إلى الآن ، هؤلاء الصاغة و تجار الأقليات كانوا يدفعون لتجار المسلمين ثمن الذهب بالعملة الأوروبية بعد خصم عمولة النقل و لم تزد عن ربع عشر قيمة الذهب .

ثم يستورد التجار المسلمون البضائع الأوروبية بالعملة الأوروبية التي حصلوا عليها و يبيعونها بأسعار عالية جدا ، و لقد حققوا بسبب هذه الحيلة أرباحا طائلة ، طبعاً كنت شريكاً لأكثر هؤلاء التجار بأموال من حسابات شركتنا .

عقدت عدة لقاءات في الوزارات و عقد برعاية الزعيم الأوحده مؤتمر كبير لخبراء الإقتصاد المحليين ، تحدث الجميع عن استحالة تجنب المصالحة مع الدولة الأوروبية التي حاربناها ، و آخرون اقترحوا استرضاء الأرستقراطيين بدفع حصة لهم من غلات الأراضي قريبة من الحصة السابقة مقابل تسويقهم لهذه الغلات .

في ذلك المؤتمر خطب العقيد منير خطاباً رناناً قال فيه : إن السبب في هذه الأزمة هو أننا اعتمدنا على تأمين احتياجاتنا الصناعية على أوروبية بتوجيه من قوى الإنتداب السابق لإبقائنا تابعين أذلاء لها ، علينا أن نتخلص من هذه التبعية بأن نبنى صناعاتنا الخاصة بأنفسنا و بقوتنا الذاتية و بمعونة من الدول الشيوعية المعادية لأوروبا الغربية .

أضاف العقيد منير : إن الدول الشيوعية تتعاون مع بعضها في تأمين الاحتياجات لسكانها و لو بمقايضة بضائع ببضائع أخرى و لم تكن أبداً بحاجة للعمولات الأوروبية الغربية لتبادل الخبرات و السلع الهامة .

لم يصفق الحاضرون بحماس لكلام العقيد منير إلا أن كلامه كان مؤشراً على توجه جديد تماماً لدولتنا .

في نهاية ذلك العام كانت معدات الجيش كلها تقريباً بحاجة للصيانة و لم يكن إصلاحها ممكناً إلا باستيراد قطع غيار من أوروبية .

رغم قانون الإعلام إلا أن حكومتنا لم تمنع أبداً الجرائد من التحدث عن المعاناة بسبب نقص العملة الأوروبية ، و كانت تنشر على صفحاتها شتى أنواع المقترحات للخروج من الأزمة ، طبعاً الأزمة لم تؤثر على استيراد ورق الجرائد و معدات الإذاعة و على أسعار المواد الإعلامية ، و لم تؤثر الأزمة على شبكة الكهرباء التي كانت قد توسعت إلى أرياف البلاد بقرار خاص من الزعيم ، لم تصل الكهرباء إلى بيوت الأرياف و إنما فقط إلى مقاهي القرى و مضافات المخاتير التي أهدي إلى كل منها جهاز تلفزيون و طبعاً توسع البث التلفزيوني إلى كل مناطق البلاد .

بعد هذا المؤتمر ثار في البلاد جدل كبير حول المخرج من هذه الأزمة شارك فيه الجميع تقريباً و الكل كان يتحدث عن ضرورة الإنحناء للعاصفة و مصالحة أوروبية و مصالحة الأرستقراطيين (مصالحة وطنية) ، إلا الحكومة و الضباط فلقد كانوا يتحدثون دوماً عن الصمود و التحدي و الصبر ، حتى أن عبدالصبور و صويلح كانا يرددان كثيراً في لقاءاتهما الصحفية مقاطع من السيرة النبوية التي تتحدث عن حصار قريش للمسلمين الأوائل في شعب أبي طالب ، أما الفلاحون و كانوا هم أكبر المتضررين من أزمة هذا العام فلم يقبلوا أبداً مجرد مناقشة إلغاء قانون الإستصلاح الزراعي ، و حصل أن اعتدى عدد منهم على مشايخ خطبوا فيهم عن حرمة تطبيق هذا القانون و أنه اغتصاب لأراضي الناس بغير وجه حق ! .

العام السادس من حكم الزعيم الأوحـد كان بداية لعصر جديد تماما ، و لم يكن ما بعده يشبه ما قبله في شيء ، ففي هذا العام توقفت نهائيا عجلة التحديث الصناعي و الزراعي و العلمي التي بدأت قبل نصف قرن من "الإستقلال" عن الإنتداب الأوربي ، و لأن هذا التقدم كان لا يزال غضا و غير متين الأركان انهارت معظم إنجازاته بسبب أزمة فقدان النقد الأوربي و شح المستوردات.

سافرت إلى أوربة في بداية العام السابع لعهد بديع و أمضيت هناك فترة غير قصيرة و التقيت بعدد كبير من الشخصيات الهامة.

وصلت إلى قصري في جنيف بصحبة زوجتي و أطفالنا حيث أمضيت عطلة قصيرة و أجرينا بعض الفحوصات الطبية ، و بعد أسبوع من العطلة بدأ العمل ؛ البداية كانت بعشاء عمل و سهرة طويلة مع البارون جيمس ، في هذه السهرة كان معنا ضيف جديد عليّ هو البروفسور آلان ، كان رجلا في العقد الخامس من عمره ملاحه شرق أوسطية ممزوجة بمسحة أوربية ، خفيف الشعر متوسط القامة يرتدي نظارات سمكة و ملابسه أنيقة.

بدأ الرجل حديثه عن أزمة العملات الغربية و شح الواردات ، بدأ من حديثه أنه يعرف كل تفاصيل الأزمة و انعكاساتها على حياة الناس عندنا ، و بعد العشاء طلب أن تنتقل إلى المكتب و أن نصب لوحا أسودا و أن نحضر له طباشير و زجاجة من الويسكي الفاخر ، و بعد أن أشعل غليونه بدأ بشرح خطة العمل القادمة ، قال :

سنحل هذه المسألة الحسابية لنفهم ما الذي سيحصل : لنفترض أن الدنيا ليس فيها إلا قرية واحدة تسكنها مائة عائلة كل عائلة تنتج محصولا مختلفا عن محاصيل الآخرين ، ثم يجمعون محاصيل القرية كلها و يضعونها في السوق عند كبيرهم و هو مثلهم يزرع و يحصد و يحضر محصوله مع محاصيلهم ، يدفع الكبير لكل أسرة منهم مائة ذهبية ثمنا لخصولها ، ثم تعود كل أسرة برصيدا من ذهب القرية و هو مائة ذهبية و تشتري به واحدا بالمائة من جميع المحاصيل و يعود الذهب لخزانة الكبير أمانة إلى العام القابل.

ثم قال : مجموع وزن كل المحاصيل هو مائة طن وسطيا ، فكم حصّة كل أسرة ؟

قلت : ستكون حصّة كل أسرة هي طن واحد مكون من كل أنواع المحاصيل.

قال : نعم صحيح ، ثم اتفقت هذه الأسر على أن يوظفوا عشرة منهم حرسا للقرية و حقولها من الوحوش و الحيوانات و أن يعطوا كل واحد مائة ذهبية في كل سنة بدل أن يتناوب المزارعون جميعا على حراسة قريتهم و أرادوا أن يدرسوا هذه الفكرة ، فلنفكر بها بدلا منهم.

رسم على اللوح كومة و قال : هذه المحاصيل ، و رسم على اللوح كيسا و قال : هذه هي كل نقود القرية ، كم هو عدد الذهبيات في صندوق القرية قبل تنفيذ الفكرة ؟

قلت : عشرة آلاف ذهبية

قال : في العام الأول عمل الحراس في مهمتهم و استهلكوا حصتهم مما زرعه في العام الماضي عندما كانوا مزارعين و لم يكونوا حراسا ، و في نهاية عامهم الأول كحرس جاء الحراس العشرة إلى كبير القرية يطلبون أجورهم ، فأعطاهم رصيدهم من الذهب الذي هو ثمن محصولهم في العام الفائت ، و هو ألف ذهبية ليشتروا بها مؤنتهم.

قال : طيب المحاصيل هذه السنة كم ستكون ؟.

قلت : ستكون تسعمائة طن فقط.

قال : سيشترى الحرس بأجورهم مؤنتهم من المحاصيل .

قلت : سيعود للصندوق ألف ذهبية.

قال : كم سيبقى من المحاصيل ؟

قلت : مجموع المحاصيل تسعون و سيشترى الحرس عشرة سيبقى ثمانون طنا.

قال : ستبقى إذا اشترت كل أسرة طنا ستبقى عشر عائلات دون مؤنة يشترونها بحصتهم أليس كذلك ؟

قلت : سيشترى من بقية أهل القرية مؤنتهم .

قال : أو سيتم تقسيم المحصول على الجميع بالعدل و ستعطى كل أسرة فقط من المائة أسرة حصة من التسعين طنا هي طن

إلا عشر الطن أي : تسعمائة كيلو مقابل ذهبياتها المائة بدلا من طن كامل لنفس الثمن في العام الماضي أليس كذلك ؟

قلت : نعم ، هذا سيكون عجزا في الإنتاج.

قال : مائة طن كانت مقابل عشرة آلاف ذهبية ، الآن تسعون مقابل عشرة آلاف كم صار ثمن الطن ؟.

قلت : مائة و إحدى عشرة ذهبية و عشر الذهبية.

قال : أيها أسهل الفلاحة أم الحراسة ؟

قلت : إن كانت المخاطر قليلة فالحراسة أسهل بكثير .

قال : فلو أن عدد الحراس صار مساويا لعدد المزارعين فكم سيصبح ثمن الطن من المحاصيل ؟ .

قلت : ستقل كمية المحاصيل إلى النصف و ستكون كمية الذهب ثابتة و هذا يعني أن سعر الطن سيصبح ضعف ثمنه قبل تنفيذ هذه الفكرة اللعينة .

ضحك البروفسور ثم قال : لو فرضنا أن الحرس استمر حالهم هكذا لعقد من الزمن ثم قرر أهل القرية أن يقطعوا عنهم رواتبهم فما الذي سيحصل ؟

قلت : سيتحول هؤلاء الحرس إلى لصوص و سيسرقون محاصيل المزارعين لأنهم سيكونون قد نسوا الزراعة و لن يعودوا إليها مهما كلف الأمر .

قال : و لكنهم في النهاية سيحصلون على ما يكفيهم أليس كذلك ؟ .

قلت : نعم .

قال : و لن يسرقوا كل ما في القرية من مال أو محاصيل لأنهم لن يستطيعوا البقاء أحياء إن عجز المزارعون عن الزراعة و سيموت الجميع أليس كذلك ؟ .

قلت : نعم .

ضحك البروفسور طويلا و قال : ألم يكن أسهل على أهل القرية أن يتناوبوا جميعا على حراستها ؟؟ .

قلت : بالطبع .

قال : هذه هي قصة المرحلة القادمة .

لم أفهم كثيرا ما قاله البروفسور آلان ، و لكن بعد عقد واحد من عصر الضباط البديع فهمت ما رمى إليه .

سلمني بعدها البروفسور تفاصيل المهمات التي يجب إنجازها في العام القادم .

في صباح اليوم التالي و بعد تناول الفطور جلست في مكثي إلى ملف المهمات أقرؤه و كان فيه بضع عشرة مهمة :

المهمة الأولى تم إنجازها بالفعل و لم يكن علي إلا القيام بعدة زيارات ميدانية إلى موانئ أوروبية جنوبية للإطلاع عليها متجسدة ، لقد أنجز جيمس و شركاؤه شركة كبيرة لإستيراد الفواض الزراعية التي تزيد عن حاجة بلادنا ، و لقد زرت هذه الشركة و

فروعها و هي مركبة من عدة شركات بعضها للنقل و بعضها للتسويق و بعضها للأعمال المصرفية المتعلقة بأثمان الصفقات و كيفية إنجاز التحويلات ، طبعاً كانت لي فيها كمية كبيرة من الأسهم ، مقر هذه الشركة كان في بلد أوري محيد ليس دولة الإنتداب التي هي رسمياً في حالة حرب و قطيعة مع بلادنا.

المهمة الثانية هي إنشاء مؤسسة وطنية واحدة في بلادنا مهمتها شراء كافة المحاصيل الزراعية الإستراتيجية في البلاد من الفلاحين إلزامياً ، ثم بيع هذه المحاصيل في السوق الداخلية لتجار الجملة و المفرق ، و في السوق الخارجية حصراً لشركة جيمس و شركائه ، و ثمن هذه المحاصيل المصدرة بالعملة الأوربية سيحول حصراً إلى مصرفنا الوطني.

المهمة الثالثة كانت إستملاك الدولة لتسعة أعشار أسهم شركتنا "شركة البناء" و تحويلها إلى شركة تملكها الدولة ثم تشكيل عدة مؤسسات ، الأولى لإستيراد للمعدات الصناعية ، و الثانية لإستيراد مواد البناء ، و الثالثة لإستيراد الأسلحة و الذخائر ، و الرابعة لإستيراد المواد الكيميائية المصنّعة ، و الخامسة لإستيراد المواد الإستهلاكية ، و السادسة لإستيراد السيارات ، و السابعة لإستيراد الأدوية و المواد الطبية .. إلخ .

المهمة الثالثة : منع إستيراد أي شيء من خارج البلاد إلى بلادنا دون رخصة ، و لا تعطى هذه الرخصة لأحد أيا كان ما عدا المؤسسات الحكومية (الأنفة) لمدة خمس سنوات متوالية.

المهمة الرابعة : توسيع المؤسسات العسكرية و تضخيم حجمها و أعداد أفرادها إلى عشرين ضعفاً في مدة السنوات الخمس القادمة ، و ستكون لدينا قوة كبيرة من الجمارك و خفر الحدود ، و قوة كبيرة من الشرطة و قوة هي الأكبر مطلقاً من الشرطة السرية و المخابرات ، سيكون تسعة أعشار أفراد هذه القوات من أبناء الأرياف النائية و من البدو الرحل.

المهمة الخامسة : تأسيس مديرية خاصة في الدولة مهمتها تحديد أسعار البضائع و وضع تسعيرة يومية و شهرية و أسبوعية لكل السلع التجارية في البلاد و تخصيص جيش من المفتشين و المراقبين لخدمة هذه المديرية.

المهمة السادسة : تأسيس مديرية خاصة في الدولة مهمتها إقناع النساء بالتعلم و بالعمل في المصانع و الحرف.

المهمة السابعة: إنتاج مائة فيلم أبطالها فريقنا من الممثلين و الممثلات ، و يجب أن تكون مواضيع هذه الأفلام كلها تدور حول أربعة مواضيع:

الأول هو تجميل و تبسيط إنشاء العلاقات المباشرة بين الشبان و الفتيات دون المرور بالوالدين و أولياء الأمور ، الثاني إظهار الإضطهاد الذي تتعرض له النساء بسبب سيطرة الرجال على المجتمع و الإكثار من المشاهد الإستفزازية لضرب النساء الجميلات من قبل رجال بشعين ، الموضوع الرابع هو إبراز الجريمة من سرقة و قتل و تعاطي الرشوة و احتيال و تقديمها في

قالب طريف يظهر أن القتل و اللصوص و المختالون أناس متميزون عن غيرهم بالذكاء و الظرف سيئوا الحظ جار عليهم المجتمع و ظلمهم بسبب العادات التقليدية المحافظة ، و سلمني البروفسور عشرات السيناريوهات لأفلام أوربية من هذا النوع لترجمتها إلى العربية.

في ذلك الوقت كانت واحدة من هذه المهمات كانت كافية لإحراق البلاد و بديع و الضباط و إحراقي معها ، و لكننا أنجزناها جميعها دون خسائر من طرفنا .

عند عودتي من أوربة بدأت بتنفيذ مهمة المهمات التي كان لا بد من إنجازها قبل كل شيء هي تأمين البلاد عسكريا من احتمالات نفوذ مقاومة مسلحة للمهمات الآنف ذكرها .

في اليوم التالي لوصولي للبلاد أرسلت دعوة إلى العقيد لويس و العميد عبد الصبور و العقيد صويلح ، حضر الجميع إلى منزلي في العاصمة بتياب مدنية و دون حراسة ، و تحلقنا حول طاولة الاجتماعات في المكتبة و أمام كل واحد منا نسخة من مهمة المهمات و بدأت بتلاوتها بندا بندا : 1- فتح مدرسة خاصة لتدريب جنود جدد على القتال داخل المدن و المداخلة و المراقبة و الملاحقة ، و يجب أن يكون جميع هؤلاء الجنود من أبناء الريف .

قال صويلح و هو ينظر إلى الملف أمامه : من جميع الأرياف ؟

قلت : لا أعرف بالضبط ، المطلوب هو أن يكون الجميع من أبناء الريف الأبعد عن المدن.

قال صويلح : الأرياف الجنوبية و الشرقية هي الأرياف الأنسب لطلبك ، كما تعلم عواصم المناطق الشرقية و الجنوبية بحد ذاتها أقرب إلى القرى من حيث تركيبة سكانها و أحيائها و أبنيتها ، فكيف الحال بأريافها ؟!

قلت : هؤلاء أكثرهم خاضعون لشيخوخ العشائر و السيطرة عليهم صعبة أليس كذلك؟.

قال صويلح : لا ليسوا جميعا خاضعين لشيخوخ العشائر ، هناك مناطق بعيدة عن سيطرة العشائر و سكانها أقرب ما يكونون إلى الغجر و هي مناطق كثيرة و يمكن بسهولة أن نقتنح عشرة آلاف شخص منهم بالإلتحاق بهذه المدرسة الحربية.

قلت : ما هي طبيعة سكان هذه المناطق ؟

قال صويلح : هؤلاء الناس أصولهم تعود إلى الفلاحين و الرعاة و العبيد الذين كانوا يعملون عند الإقطاعيين الرومان ، و بعضهم من العبيد الذين حضروا مع الحملات الصليبية ، و ليست لهم عشائر و لا قبائل و أشكالهم ليست أشكال عربية فهم أناس عيونهم ملونة و شعورهم شقراء و إن رأيت في قسماتهم شيئا من القسامة العربية فبسبب اختلاطهم بالعرب بعض

الأحيان ، عاداتهم ليست من عادات العشائر و لا حتى من عادات المسلمين ، و هم قساة جدا لأن حياتهم في القرون الماضية كانت أقرب لشريعة الغاب.

قلت : أليسوا متدينين كبقية أهل الأرياف ؟

قال صويلح ضاحكا : لا لا هم كالعجر تماما إلا أنهم فلاحون و رعاة للمواشي.

هز لويس رأسه موافقا و قال : هؤلاء هم أفضل أعوان حرس الحدود لإعتقال المهريين و المطلوبين إن تم أرضاؤهم.

قلت : هل يمكن تعليمهم ؟.

قال صويلح : ممكن تعليمهم بعض القراءة و الكتابة و الحساب البسيط.

قلت : إذا سيكون الجميع من هؤلاء ، أغلقنا النقاش حول هذا البند ، البند التالي هو المدرسة العسكرية الخاصة بضباط الصف ، تعرفون أن ضباط الصف عادة ما يكونون من الجنود المتطوعين المتميزين الذين حصلوا على ترقية بسبب كفاءاتهم و إنجازاتهم فتم إلحاقهم بدورات تدريب قصيرة في مدرسة التدريب العسكري ، و لديهم الفرصة ليصبحوا ضباطا إن حققوا تعليما بمستوى الثانوية العامة.

قال عبد الصبور : كان لدينا في الجيش عدد جيد من ضباط الصف و لكننا نعاني من نقص في عددهم الآن بسبب الحرب ، و فكرة إنشاء مدرسة لهم و تطويع عدد منهم جديدة تماما.

قلت : هؤلاء سنترك اختيارهم للعقيد زيد ، و لن يترفع أي منهم إلى رتبة ضابط مهما كانت الظروف ، و لن تكون مهماتهم قتالية كما هي الآن .

قال عبد الصبور متعجبا : هؤلاء الآن هم القادة الميدانيون الصغار في الحرب و هم من يضبط الجنود و يسيطر عليهم و يسهل تنفيذ أوامر الضباط في الاشتباكات.

قلت : مهمات هؤلاء الجديدة ستكون الإعدادات التنظيمية و الكتابية و التدريبية فقط.

قال عبد الصبور متعجبا : من الذي سيقوم بمهمة السيطرة الميدانية ؟.

قلت : الضباط الصغار كالملازمين و النقباء .

قال عبد الصبور : في هذه الحالة سنحتاج إلى مضاعفة عدد الضباط المتخرجين من مدرسة الضباط إلى عشرة أضعاف العدد الذي تستوعبه الآن.

قلت : سنضاعف العدد إلى عشرين ضعفا ، لأن هذه الكلية يجب أن توفر لنا ضباطا لعدد كبير من المؤسسات التابعة للجيش.

قال عبد الصبور : و هل ستكون كلها تابعة لقيادة الأركان العامة ؟.

قلت : لا التبعية فقط من حيث الرتبة و الترفيعات أما بقية المتعلقات بضباط المؤسسات الجديدة فستكون من مؤسسات أخرى.

قال العقيد لويس : لماذا لا نفتح مدارس عسكرية جديدة ؟.

قلت : لا نحتاج لهذا ، فنحن لن نحتاج إلى جنرالات كما تعلم ، لننتقل إلى البند التالي و هو توسيع السجن الحربي ليتسع لعشرة آلاف سجين.

قال صويلح : السجن الحالي يتسع لألفي سجين و هو ستة أبنية فهل سنبنى أربعة و عشرين بناية جديدة ؟.

قال لويس : لا لن نحتاج إلا لستة أبنية جديدة كما هو موضح في الملف . نظر إلي ثم أضاف: نحن نبنى سجنا و لا نبنى منتزها أو فندقا ، أقرأ هنا أن السجن القديم سيكون مخصصا لسجناء المحاكم العسكرية من المدنيين ، فهل سيكون مديره ضابط شرطة !!؟.

قلت : لا سيكون مدير كلا السجنين من العسكريين و السجنانون أيضا ، البند الأخير هو إلغاء سلطة المفتي لتثبيت أحكام الإعدام في السجون العسكرية التي تصدرها المحكمة العسكرية.

قال لويس و قد هز رأسه : أخشى أن هذا البند يحتاج إلى حدث كبير يغطي عليه.

قلت : الحادث جاهز و سيقع خلال أيام و إليك ملفه لتسلمه لريمون.

انفضَّ الاجتماع بعد تبادل الأنخاب و توزيع الحقائق المالية عليهم ، و بعدها بساعة اجتمعت بالعقيد زيد و سلمته ملف مدرسة صف الضباط ، اتفقنا على أن يكون تسعة أعشار طلاب هذه المدرسة من طائفة زيد (الديانة السرية) و أن يتولى المقدم هرثمة إدارة المدرسة ، بعد انتهاء الاجتماع قبل زيد يدي كالعادة و انصرف دون حقيبة مالية و إنما كانت هديته ابتسامه رضا من وجهي العبوس عادة.

في اليوم التالي بثت الإذاعة خبرا عن اجتماع مشترك موسع لمجلس قيادة الثورة و مجلس الوزراء و عن اتخاذ المجتمعين لقرارات هامة و تبني مجموعة من مشاريع المراسيم التي اقترحها رئيس الدولة بعد مداولتها ، و أن هذه المراسيم تهدف إلى حل الأزمة النقدية التي تعاني منها البلاد ، لم تفصل الإذاعة شيئا عن المراسيم سوى ما ورد على غير المعتاد.

المراسيم التي تنبأها المجلس كانت هي ما يلزمنا لتنفيذ المهمات الآنفة التي استلمتها من البروفسور آلان و البارون جيمس ، و نشرت جميعها في المجلة الرسمية و صارت نافذة فورا.

في اليوم التالي بدأ تنفيذ أحد هذه المراسيم بتعيين المقدم دؤاس و هو من طائفة العقيد زيد مديرا للسجن الحربي و رئيسا للقضاء العسكري في نفس الوقت ، و تم تسليمه منصبه فورا و أحيل سلفه المسلم العقيد شعلان إلى التقاعد.

في الليلة التالية اختطفَ السجناء العسكريون المحكومون بالإعدام رئيس قسم المحكومين بجرائم خطيرة و هربوا به إلى الصحراء خارج السجن في غفلة عن الحرس !. ثم أعلنت الإذاعة عن تمرد كبير في السجن الحربي و عن مقتل عدد من الحرس على يد العسكريين المحكومين بالإعدام و أن الوضع تتم معالجته بالتأني و المفاوضات حتى لا تتعرض حياة بقية السجناء للخطر ، و أعلنت الإذاعة عن رقم هاتف للاتصال به لإطمئنان الأهالي على المساجين و سلامتهم ! طبعاً الخط كان مشغولاً دوماً و إن رد الموظف على أحد فالجواب هو : لسنا متأكدين السجن معزول الآن بسبب الاشتباكات !.

في صباح اليوم التالي وصل إلى بلد عربي مجاور الهاربون التسعة و هم كل المحكوم عليهم بالإعدام في السجن الحربي و معهم الضابط المخطوف ، و عند الحدود استقبلتهم قوة من مخبراتنا و نقلوهم إلى حيث كان المقدم ريمون ينتظرهم في مزرعة نائية داخل أراضي الدولة الشقيقة ، هناك استلم المحكومون جميعاً بطاقات هوية تابعة لذلك البلد العربي بأسماء جديدة ، حصلوا على مبالغ جيدة و ألحقوا بمجموعة من مخبراتنا المقيمة في العاصمة الشقيقة ، رفض الملازم سليم الضابط المخطوف و هو من أسرة محافظة كل عروض ريمون للعمل و راح يهدد بالويل و الثبور ، هذا كان سبب رحيله بعد الغداء للقاء أجداده الأولين ، لقد كان رجلاً شاباً في ريعان الشباب و عنيداً و وفياً للقسم الذي أداه عند التخرج و لقد أسفت لمصيره كثيراً فأنا شخص يقدر الشجاعة.

في اليوم التالي نشرت الجرائد صوراً للسجن الحربي و الدخان يتصاعد من أحد أبراجه ، و صوراً للملازم سليم و قد كسرت رقبتة ، و صوراً لجثث عشرة أشخاص مجهولين وجوههم كانت محروقة ، قالت الجرائد أنها صور للمحكومين بالإعدام الذين تمردوا و لأحد السجناء الذين قُتلوا من قسم آخر.

الجثث كانت من خزين مشرحة المشفى العسكري لقتلى حوادث على الطرق لم تعرف هوياتهم .

جرت جنازة مهيبة للملازم سليم حضرها رئيس الأركان عبد الصبور بنفسه و سلم بعدها علم الوطن و وسام البطولة إلى والد الشهيد و قرارا باعتباره لواءا متقاعدا و منح أرملته و طفليه راتبه كاملا كما لو أنه على رأس عمله مدى الحياة و منح طفليه وضعاً تفضيلاً في التعليم و التوظيف.

بكت البلاد على الملازم الشاب بعد أن عرض التلفزيون مقابلات مع شاهد عيان من زملائه تحدث عن شجاعته و أنه تمكن من إنقاذ حياة العشرات من السجناء الأبرياء و ضحى بحياته لينقذ أحد الحرس فسقط من أعلى درج في السجن !.

في هذا الأسبوع الحافل بسليم و استشهاده نوقشت على الصحافة عبثية تولي المفتي سلطة التصديق على أحكام الإعدام العسكرية و زعم المحاورون أنها تؤجل تنفيذ الأحكام بغير مبرر موضوعي ! و أن هذا التأجيل قد يتسبب في كوارث على يد هؤلاء المحكومين المجرمين المدانين.

صدر في نهاية الأسبوع عفو عام عن كل السجناء في البلاد و قرارا آخر يلغي سلطة المفتي و القضاء المدني و الإدارات المدنية على القضاء العسكري و يمنع المحامين و النواب العامين من الترافع أمام المحاكم العسكرية كافة.

لم يمر القرار بحدوء كما توقعنا ، المحامون و القضاة و الصحفيون المستقلون شعروا بأن شيئاً لم يعتادوه من قبل يلوح في الأفق ، و بدأت صحافة الأحزاب الوطنية بانتقاد القرار بمقالات ساخرة من طريقة إصدار القوانين في غياب البرلمان ، راح بعض الصحفيين الشجعان يسخر من الزعيم الأوحده بالتلميح عبر المقارنة بين القرارات التي أصدرها و بين الفرامانات التي كان يصدرها الوالي أيام حكم الأتراك ، أما تقارير المخابرات فلقد تحدثت عن عاصفة من الإحتجاجات بدأت تلوح في الأفق و تنذر بمخاطر على حكومة الزعيم .

ما زاد من احتمالات انفجار السخط الشعبي في المدن كان التدني الهائل في مستوى معيشة أبناء المدن ، كانت غالبية هؤلاء حينها من أبناء الطبقة الوسطى و التجار و بقايا أصحاب الأملاك الزراعية ، أغلبية هؤلاء الناس لم يكونوا موافقين على الحرب مع الدولة الجارة اللدود و لا على القطيعة مع دولة الإنتداب الأوربية "سابقا" و كانوا يرحبون بكل خطوة نحو تطور البلاد صناعياً و علمياً و سياسياً ، هؤلاء أيضاً متمسكون بسيطرة المشايخ على المجتمع فهم أناس محافظون و يرفضون أي شكل من أشكال التحلل و التغيير غير المحسوب ، إلا أن ما سهل علينا مهمتنا مع هؤلاء هو أنهم لم يكونوا سوى ربع سكان البلاد فقط في ذلك الوقت ، بقية السكان كانوا يقيمون في الأرياف و البوادي.

الرد على الحملة على الزعيم و على قراراته كان يجب أن يكون قويا و مؤثرا على الأكثرية الغير متعلمة فلقد كانت نسبة الأمية في البلاد حينها تزيد على سبعين بالمائة من عدد السكان ، اختار أبي لهذه المهمة ستة من الممثلين المتخصصين في التهريج و إضحاك الناس و عدة كتاب للمسرحيات المضحكة و أملى عليهم عدة أفكار لوضعها في مسرحيات تثير الضحك

و الفكاهة ، و بالفعل عرضت بعد شهرين مسرحية طويلة كانت بطولتها هؤلاء المهرجين الستة و لعدد من أجمل ممثلات فريقنا الفني العتيد ، مواضيع المسرحية كانت السخرية من الأرستقراطية و التجار و جشعهم و من عدم نزاهة رجال الدين و كانت في المسرحية ممثلة تلعب دور زائرة أوربية ترتدي ثيابا خليعة و كان دورها وسيلة للسخرية من الحجاب و العادات الأسرية المحافظة .

عرضت المسرحية في المسرح الوطني و بثت بعدها على التلفزيون ، ثم بدأ العمل على مسرحية جديدة من نفس النوع ، و بدأت شركة الإنتاج السينمائي التابعة لشركتنا بإنتاج فيلم مأساوي مروع عن ظلم الأرستقراطيين و رجال الدين للفلاحين و النساء ، بمعونة خبراء أوربيين انتهى إنتاجه خلال أربعة أشهر فقط و بثه التلفزيون أيضا ، و كانت المسرحية الأنفة و الفيلم السينمائي يعاد عرضهما كل أسبوع تقريبا ، استقدمنا فريقا فنيا من بلد أوربي آخر لإنتاج مسلسلات تلفزيونية قصيرة ، و كانت أيضا مسلسلات ساخرة فيها تقليد رديء لشخصيات مهرجين أمريكيين مشهورين كـ "لوريل و هاري" و "شارلي شابلن" ثم توالى عدة مسرحيات و أفلام تعد بالمستقبل الزاهر على يد الزعيم بديع و تصف الماضي القاتم قبل أن ينير حكم الزعيم سماء البلاد .

لمنح ردنا الفني مصداقية لدى العامة توجه والدي و العقيد زين مسؤول الشؤون الخارجية مع وزير المالية في الحكومة "المؤقتة" المصرفي "جان" و حاكم المصرف الوطني المصرفي "لوقا" إلى أوربية حيث كان جيمس بانتظارهم في مبنى البنك الدولي ، وقع الجميع (باستثناء والدي طبعاً) على قرض طويل الأمد قيمته تعادل ميزانية البلاد لمدة عام كامل بـ (ربا) فائدة باهظة ، هذا القرض كان قد حُوِّلَ فعلاً إلى سلع و منتجات أوربية فقدت في أسواقنا خلال العام الماضي و شحنت إلى البلاد قبل أن يصل الوفد إلى أوربية.

عبد الصبور كان أيضا حاضرا في أوربية بصحبة العقيد زين و وقعا على اتفاقية الهدنة مع جارتنا اللدود في مبنى منظمة الأمم ، الاتفاقية كانت تنص مدة غير محددة لوقف إطلاق النار و تبادل للأسرى و لجثث القتلى و عدة بنود غير هامة مثل فرض رقابة من تلك الجارة اللدود على طول الحدود مع بلادنا لعمق يزيد على المائة كيلو متر و تستخدم الطائرات الإستطلاعية لجارتنا و دوريات تابعة لقوة مراقبة لحفظ السلام ترسلها دول أعضاء في المنظمة الأممية لفرض هذه الرقابة ، و طبعاً تحديد عدد قوات جيشنا الوطني في تلك المنطقة بحدود دنيا.

اتفاق آخر وقعه العقيد زين مع وزير خارجية دولة الإنتداب الأوربية السابقة يقضي بتطبيع العلاقات و دفع تعويضات لمالكي شركات النفط و التعدين التي استملكها دولتنا ، هذه التعويضات أيضا تم تدبيرها بقرض ضخم من البنك الدولي بنفس شروط القرض السابق ، القرضان كانا السبب في فرض رقابة على حسابات مصرفنا الوطني في البنوك السويسرية ، طبعاً هذه الرقابة لفرض استقطاع أقساط القرضين من عائدات تصدير النفط و الغاز التي تودع في حساب المصرف ، و

كالعادة لم يعلن أحد في صحافتنا المحلية عن القروض و اتفاق الرقابة و غيرها لأنها من أسرار الدولة الخطيرة التي يحرم إفشاؤها .!!

عاد الوفد إلى البلاد و راحت الصحافة الحكومية تتحدث عن إنجازات دبلوماسية بلادنا العظيمة ، و أطلق على الزعيم الأوحد لقب "بطل السلم و الحرب" و صدحت الإذاعة بالأغاني الوطنية و بنوع جديد من الأغاني ليس فيه إلا مديح الزعيم بديع و تعداد أمجاده ، فهو الشمس و هو القمر و هو نور الشوارع و أحرف كتب المدارس و هو منصف الفقراء و قاهر الأعداء و روح الأمة كلها.

ما ساعد على نجاح الحملة الإعلامية في استمالة غالبية أهل الريف و بسطاء أهل المدن كان رجوع السلع المستوردة إلى البلاد بأسعار زهيدة عبر مؤسسات حكومية و لقد تم توزيعها بالفعل و بطريقة منصفة في بداية العمل ، الأمر الذي امتص النعمة العامة و شعر الناس في ذلك العام بانتعاش إقتصادي و على كافة الصعد فلقد عادت الخدمات الصحية و المواصلات العامة و المياه النظيفة و هدأت مع هذه الخطوة خواطر أصحاب الدخل المتوسط.

في نفس الوقت الذي كان فيه وفد العقيد زين في أوربة كان البروفسور أوسكار يزورني في قصري في الساحل برفقة خبير عسكري بإدارة السجون و المعتقلات العسكرية اسمه الميجور "فيليب" كانت مهمته تدريب إدارة و كوادر السجن الحربي على التحقيق و معاملة السجناء و إدارة السجن.

بعد التعارف دار بيني و بين البروفسور حوار طويل أقتطف منه :

قال أوسكار : لقد تحدثت التقارير عن احتمال انفجار احتجاجات و تمرد شعبي في المدن احتجاجا على ما جرى خلال الحرب و بعدها ، و نحن هنا للإستعداد لهذا الإحتمال .

قلت : لا أظن أن الثورة ستقع بعد عودة البضاعة المستوردة و هذا سيكون قريبا و لكن هل ستجهزون قوة لقمع الشعب كتلك التي توجد في الشرطة الأوربية ؟.

ضحك أوسكار كثيرا و نظر إلي قائلا : أنت ماكر يا مهران بك ، لا ليس هذا ما بجعبتنا ، سأحكي لك شيئا لا تعرفه ، ثم اتكأ إلى مسند كرسيه و لف رجلا على رجل و أشعل سيجارا ، ثم قال :

في مستعمراتنا في العالم الجديد كالأمريكتين توجد غابات مطرية كثيرة جدا ، هذه الغابات تصاب بجفاف في موجات الحر و تشتعل فيها حرائق هائلة جدا يستلزم إطفائها جهدا كبيرا و وقتا طويلا و تكاليف ضخمة جدا عدا عما تسببه من خسائر .

قلت : هل وجدتم حلا لهذه الحرائق ؟.

قال : نعم لقد اخترعنا لقاحا مضادا لهذه الحرائق .

قلت بتعجب متبسما : لقاح مضاد ؟! هل ترشون الأشجار بهذا اللقاح أم تحققوه فيها حقنا ؟!!

ابتسم أوسكار بخبث و قال : لا طبعا ، اللقاح المضاد لا يكون أبدا من جنس الجسم المعرض للإصابة و إنما هو من جنس الجرثومة التي تسبب المرض .

قلت : هل اخترعتم نارا تطفئ الحريق ؟.

قال : لا طبعا ، لقد اخترعنا "حريقا وقائيا" .

قلت : حريق وقائي ، هل ستحرقون الغابات حتى لا تحترق ثانية ؟؟!

قال : بالتأكيد ليس هذا اسمع ؛ نباتات الغابة هناك على نوعين ، الأول هو الأشجار الضخمة ، و هذه الأشجار لا تيسر بسهولة بسبب موجات الحر بل على العكس تتخذ في الحر وسائل حماية و تزيد من امتصاصها للماء الجوي عبر جذورها ، و لذلك فإن إشعالها يكون صعبا ، أما النوع الثاني من النباتات فهو الأعشاب القصيرة و النباتات ذات الساق القصيرة و هذه النباتات سريعة الجفاف في الحر و تتحول إلى ما يشبه القش و أعواد الثقاب (الكبريت) فإذا ما هبت رياح عليها اشتعلت باحتكاكها ببعضها ثم تلهب نيرانها خشب الأشجار المليء بالزيت و القطران شديد الاشتعال و هكذا يتطور حريق هذه الأعشاب ليصبح حريق أشجار الغابات المدمر.

أخذ البروفسور نفسا عميقا من سيجاره الكوبي و أتبعه بجرعة من كأس الويسكي المثلج الذي أمامه ، ثم استأنف كلامه : طريقتنا لحماية الغابة هي أن نرسل رجال الإطفاء و الجيش الكسالى إلى الغابات في الصيف كفرق ، كل فريق ينقسم إلى قسمين ، القسم الأول رجال يحملون بأيديهم إسطوانات وقود في نهايتها مشاعل طويلة يلهبون بها الأعشاب ، و الفريق الثاني يحملون معهم إسطوانات إطفاء ليخمدوا بها حريق الأعشاب بعد أن يتأكدوا من أن النيران أتت على معظمها.

قلت بدهشة واجما : هل ستشعلون ثورة ضد الزعيم بديع ؟!!

قال : بالتأكيد ثورة وقائية كالحريق الوقائي ، هذه الثورة ستشتعل في بعض المدن شديدة الولاء للعهد السابق و سنطفئها بلطف و سلاسة بأيدي الناقمين عليهم من أهل القرى النائية الذين لم يروا المدن إلا لمرات معدودة.

قلت : نعم الصورة الآن أوضح ، لقد انتهى تخريج أكثر من عشرة آلاف من معسكرات تدريب الجنود المبتدئين خلال الأشهر التسعة الماضية ، و هم الآن يداومون في ثكنات مؤقتة أقيمت لهم في قلاع الأتراك القديمة في سائر المدن الكبيرة .

قال البروفسور : مائتان منهم سيتولون حراسة السجن الحربي و العمل فيه و بقية هؤلاء ستستأجرون لهم منازل في ضواحي المدن و سيتم تأسيس منظمة حكومية جديدة لإستيعابهم مع ألف من صف الضباط الذين خرجهم المقدم هرثمة من مدرسته ، اسم هذه المنظمة هو : "المديرية العامة لحماية أمن الدولة" و سيكون العقيد صويلح مديرا لها و ستكون لها مقرات في سائر المدن تشبه المخافر ، و سيكون من غير المسموح لأحد من الناس دخولها أو مراجعتها كبقية أجهزة الأمن العادية ، فلا اتصال بينها و بين الناس ، و طبعا لا يتدخل أحد في عملها و تحقيقاتها لا قضاة و لا محامون و لا وجهاء ، فقط في نهاية التحقيق سيُقدم المتهمون إلى المحاكم العسكرية و يتقرر مصيرهم هناك ، و لن يكون لعناصر هذه المنظمة لباس عسكري سيتجولون باللباس المدني و بسيارات مدنية عادية.

قلت : هل هؤلاء هم من سيثعل الثورة و يخدمها ؟.

قال : لن يشعلوها ، هؤلاء من سيخدمها فقط ، من سيثعلها هو أعضاء منظمتك "القبضيات" من قوة الجمعية الإسلامية و من تنظيم الحزب الشيوعي السري.

قلت : نعم هل من خطة محددة لإشعال الثورة ؟

قال : نعم نعم ، الملف هنا.

قلت : و جهاز المخابرات ؟ و العقيد لويس ؟.

قال : سيكون لهم دور أيضا في إخماد الثورة و لكننا لا نريد خسائر منهم فهؤلاء مهمون و صارت لديهم خبرات و معلومات و مهارات لا تعوض بسهولة ، هم سيقودون مجموعات "حماية أمن الدولة" و يوجهونها و لكن دون التدخل المباشر.

قلت : هل ستكون هناك حرب أهلية ؟.

قال أوسكار و هو يضحك حتى بدت أنيابه : الجيش إن قاتل السكان سينهزم دون شك لأن جنوده هم أبناء السكان ، و مدافعه ستقتل أهل الذين يرمون بها ، هذا ليس أوانه الآن لا يزال معظم الجيش من أبناء البلاد و لن يطيعونا طويلا ، بدلا منهم يا عزيزي سنستعمل المشاهد المرعبة .

نظرت إليه متسائلا ، فاستأنف شارحا : الشباب اليافعون و الرجال الموقرون و هم يتأرجحون من حبال المشانق كالقطط المخنوقة العاجزة عن أي شيء سوى الرفس بالأرجل في محاولة يائسة لإنقاذ أعناقها من الكسر و أرواحها من الموت فطسا ، هذا المشهد سيخلق رعبا في قلوب الثائرين أكثر بآلاف آلاف أضعاف مشهد الدماء المتدفقة من ثوار يمزقهم الرصاص ، فمشهد صرعى الرصاص سيثير الغضب و الحماسة في العامة لتصعيد الثورة و الإنتقام على عكس مشهد الإعدام بالمشنقة

الذي سيولد في قلوبهم رعبا و ذلا لا يُحصى ، المشانق ستحل محل المدافع و لقد استعملناها كثيرا في تركيا و أمريكا الجنوبية و ألمانيا و الهند و غيرها و نجحت نجاحا ساحقا بلا شك.

بعد هذا الاجتماع بأسبوع كان التقرير العسكري الذي وردني من لويس يفيد بأن المدرسة الحربية للضباط تحتشد بثلاثة أضعاف العدد المعتاد من طلبة الضباط ، تسعة أعشارهم من الريف و نصفهم تقريبا من الأقليات الدينية المختلفة .

وائق أفندي صديق بسطام كان رجلا متحمسا لأهداف الجمعية الإسلامية التي يشارك في قيادتها ، و رغم حل هذه الجمعية إلا أن كتب الرجل و منشوراته لم تكن تتوقف عن الصدور ، و لقد أثارت كتيباته الكثير جدا من الجدل بين المشايخ و بين أتباع جمعيته ، معظم كتبه كانت لتقديم المبررات و الحثيثات لتأسيس تنظيم جمعيته السري و في هذه الكتب كان يحرض أتباعه على تصحيح أوضاع البلاد التي يحكمها قانون يخالف النصوص الدينية المقدسة و كان الرجل يلحظ في كتاباته تشجيع حكومة بديع على التحلل من التزامات الدين الأخلاقية فيما يخص النساء و العلاقات التجارية و القانونية ، هذه الأحوال و تأخر عامة الناس عن الثورة ضدها استنتج منه وائق أفندي أن البلاد شعبا و حكومة عادت إلى عصر يشبه عصر جاهلية العرب قبل البعثة النبوية ! كتاباته في الواقع كانت من وحي أستاذه و رئيس جمعيته رافع أفندي (من طائفة سرية) ، لقد كانت مؤلفات وائق أفندي نسخا من الرسائل السرية القديمة التي تحتفظ بها طائفة رافع أفندي و التي كتبت للتحريض على الثورة ضد الأباطرة العباسيين ، فهذه المؤلفات كانت كلها تدور حول محور واحد هو : إن تولي الجمعية الإسلامية للحكم بأية وسيلة سيحول البلاد إلى بوابة سماوية على الأرض و ستلتقي حينها قوى السماء بقوى الأرض لتكرر تاريخ الخلفاء الأربعة الأوائل في صدر الإسلام ، و استنتج الرجل في كتاباته أن التنظيم السري و الإغتيالات و الضربات الفدائية ضد السلطة القائمة هي الطريقة الأمثل للوصول إلى الحكم ؛ لقد كانت القوة التي أعدها الجمعية من الشباب المتحمسين و يقودها فارسنا بسطام هي التي دفعت وائق أفندي لتبني هذه الوسيلة و التحريض المستمر عليها !.

على المقلب الآخر كان فارسنا الشجاع سالم قد أسس جناحا عسكريا للمنظمة السرية للحزب الشيوعي في بلادنا يضم بضعة مئات من الشباب الشيوعيين ، المضحك أن هؤلاء الرفاق جميعا التقوا بوفد قيادي من الدول الشيوعية و استلموا منهم أسلحة و أموالا و نشرات تحريضية على الثورة ضد حكومة بديع الإستبدادية المتخلفة التي تدهن الرجعية ، و هذا الوفد كان أعضاؤه من اللاجئين من الدول الشيوعية إلى أوربة الغربية !.

بعد ثلاثة أشهر من لقائي بالبروفسور أوسكار كانت عملية "الحريق الوقائي" جاهزة للتنفيذ و بقي فقط افتعال سبب للثورة و لم ننتظر طويلا حتى وقع السبب قدرا هذه المرة و دون إعداد منّا.

كان الزعيم بديع قد أصدر أوامر بتشكيل لجنة لصياغة دستور جديد للبلاد ، اللجنة كانت مكونة من عدد من أساتذة معبد الحرية السري الأكبر في بلادنا ، جميع هؤلاء كانوا يحملون شهادات في القانون و التشريع من جامعات أوروبية و بعضهم الآخر كان يحمل شهادات علمية في الشرع الإسلامي من أشهر جامعات العلوم الإسلامية في العالم ، و بعد قرابة عامين من المشاورات التي أشرف عليها البروفسور أوسكار أخرجت اللجنة نسخة من مشروع دستور جديد للبلاد.

الدستور الجديد كان في الواقع نسخة منقحة من الدستور الذي أقرته الجمعية الوطنية قبل إنهاء الإنتداب ، إلا أن ما تم تغييره من البنود السابقة لم يكن شيئا طفيفا فمثلا :

في الدستور السابق كان اسم الدولة "الجمهورية" فقط ، في الدستور الجديد أضيف لإسم البلد كلمة مثيرة جدا للجدل فصار "الجمهورية العربية" و هذا كان كافيا لإثارة سخط ثلثي السكان الذين كانوا من أصول غير عربية كالتركمان و الكورد و غيرهم من المستعربين.

في الدستور السابق كان قد كتب وصف عن دولتنا هو : دولة إسلامية . في الدستور الجديد كتبت عبارة هي الدين الرسمي في الدولة هو الإسلام ، و هذا يعني أن الإسلام ليس هوية للدولة.

في الدستور السابق كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الأول للتشريع ، في الدستور الجديد ذكرت مصدرا رابعا للتشريع بعد القانون الأوربي .

في الدستور السابق لم تذكر المرأة ذكرا خاصا ، في الدستور الجديد وضع نص يلزم المشرعين بالمساواة بين الرجل و المرأة في كل شيء من الحقوق و الواجبات.

في الدستور السابق كان من شروط الترشح لرئاسة الجمهورية أن يكون المرشح مسلما ، في الدستور الجديد لم يذكر الدين شرطا من شروط الترشح للرئاسة.

في الدستور السابق كانت الحرية الشخصية مضمونة في الدستور ، أما في الدستور الجديد فالحرية الشخصية مقيدة بالأعراف و الديانة و التقاليد الوطنية ، و قوانين الأحوال الشخصية تكون وفقا للشرائع الدينية ؛ وفقا للإسلام بمذاهبه (المقصود هنا السنة كمذهب واحد و الشيعة و الإسماعيلية و غيرهم كمذاهب إسلامية أخرى ، و هذا ما يرفض مشايخ السنة الإعتراف به تحت أي ظرف) و وفقا للمسيحية بكنائسها المتعددة ، (و هذا أيضا ترفضه الكنائس المسيحية الشرقية التي ترعى تسعة أعشار المسيحيين في البلاد و ترفض بشكل غير رسمي التبشير بغير مذهبها بين مسيحي الشرق).

نشرت الصحافة كلها مقتطفات من مشروع الدستور ، و حددت الحكومة موعدا للإستفتاء الشعبي عليه ، و في نفس اليوم ، أعلن الشيوعيون رفضهم للمشروع و عدوه إنقلابا على ثورة الجيش و طموحات الطبقة الكادحة و على شعارات التقدم التي أعلنها الزعيم ، و استشهدوا بالبند المتعلق بالحرية الشخصية و قانون الأحوال الشخصية و رأوا فيه تهيدا لصناعة أرستقراطية جديدة يدعمها رجال الدين .

في نفس اليوم أيضا اشتعلت مدن شمال وسط البلاد غضبا ، هذه المدن كانت مركز الأرستقراطيين الذين حكموا البلاد طيلة فترة حكم الأتراك و فترة الإنتداب الأوربي ، و في هذه المدن كان يوجد أكبر مشايخ البلاد مكانة و أكبر المدارس الدينية ، و أهل هذه المدن أناس محافظون و معظمهم أثرياء بالوراثة و يحتقرون أهل الأرياف .

كنا خلال الأعوام الستة الماضية قد نجحنا في مد نفوذ الجمعية الإسلامية التي يقودها رافع أفندي إلى تلك المدن حتى غدت تلك المدن التجمع الرئيسي للجناح المسلح للجمعية ، و السبب في تمدد هذا الجناح في تلك المدن أن مشايخ تلك المنطقة كانت تغلب عليهم نزعة صوفية مغرقة في المثالية ، و انتشر التصوف كثيرا في تلك المنطقة بين المشايخ و طلابهم حتى أن دروس الدين فيها كان يغلب عليها طابع التصوف أكثر من طابع المادة العلمية ، و هذا ما أعطى هامشا كبيرا من التسامح لأتباع الجمعية الإسلامية الذين لبسوا في تلك المناطق مسوح التصوف و نشر التوعية و تجنبوا الدخول في سجلات مع المشايخ ليموهوا نشاطاتهم السياسية و التنظيمية و العسكرية .

في نفس الوقت كان مشايخ تلك المنطقة من نوعية نادرة من رجال الدين فهم سريعوا الغضب عندما يرون شيئا يعدونه انتهاكا لحرمة الدين لأنهم اعتادوا على حصانة موروثه من أيام الأتراك و استمرت حتى خلال فترة الإنتداب الأوربي ، هذا ما جعل أربعة من كبارهم في جمعة نشر مشروع الدستور يخطبون خطبا نارية جدا حرضوا فيها الشباب على الإحتجاج على حكومة الزعيم الأوحديدي ، و أعلن شيخ مشايخ تلك المنطقة أن من وضع هذا المشروع و من وافق عليه يعتبر : مجدفا على الدين كافرا بالمقدسات خرج من دين الإسلام و زوجته حرام عليه و ماله و دمه مباح ، و تحريضا على القتال قال : من قتل أيا منهم فالجنة له مضمونة على ذمة النصوص الإسلامية المقدسة .

بالفعل خرج الناس من المساجد بعد صلاة الجمعة في تلك المنطقة بمظاهرات و وصلت حشودهم إلى مقرات حكام الولايات و مقرات قيادة الشرطة و وقعت صدامات سقط خلالها جرحى من الشرطة المدافعين عن المقرات و لم يصب أحد من المتظاهرين بأي أذى لأن العقيد منير أعطى أمرا حاسما بعد إطلاق النار تحت أي ظرف .

الهبة لم تفاجأنا و لكننا لم نكن نتوقعها بهذه السرعة ، و لقد حصل بسطام على مايريد ، فأرسل إليه العقيد لويس إشارة للبدء بالهجوم على أهداف محددة ، و بالفعل هجمت مجموعات من الجناح المسلح للجمعية الإسلامية على مقرين لحكام الولايات و على مقرين لقيادة الشرطة و استولت عليها و على عشر كنائس و خمارات في تلك المنطقة و أضرموا فيها النار . في اليوم التالي أنشأنا في مكتبي القديم "مكتب العلاقات المدنية" التابع لقيادة الأركان غرفة للعمليات ، كان البارون جيمس هو من يقودها بنفسه بعد أن حضر من أوربة بطائرته الخاصة ، و كان برفقته جنرال متخصص في حرب العصابات يعطي الأوامر للعقيد لويس ليمررها بدوره لبسطام ، و لم يكن بسطام يحرك ساكنا إلا بأمر مباشر من العقيد لويس .

في ذلك اليوم ظهر في المنطقة النائرة مائتان من رجال بسطام المثلثون المسلحون ، و راح هؤلاء يحرسون مباني مقرات حكام الولايات و قيادة الشرطة ، طبعاً كان انسحاب حرس هذه المباني قد تم قبل دخول رجال بسطام إليها ، قسم آخر منهم حملوا أعلاماً خضراء و بيضاء عليها شعارات دينية إسلامية و علقوها على أعمدة الساحات العامة و رؤوس المآذن و سوري الأعلام في المباني الرسمية التي استولوا عليها .

نشر بسطام عشرات منهم على مداخل مدن المنطقة و بأيديهم قناصات ، و آخرون كانوا قد نصبوا متاريس في الشوارع الرئيسية و آخرون استولوا على المخافر الخالية من الشرطة .

في الصباح تحولت مدن تلك المنطقة إلى ما يشبه مدن الأشباح فور استيلاء رجال بسطام عليها ، و لكن المآذن راحت تنشد العامة النزول إلى الشوارع و ممارسة الحياة الإعتيادية ، و كانت المآذن أيضاً تبث جملاً قصيرة و نداءات قصيرة من كلام واثق أفندي عن كفر الحكومة و كفر من يرفض الحكم بالشريعة الإسلامية و أن جهادهم واجب و فريضة على المسلمين .

هذه النداءات شجعت بعض الأفران على العمل و صناعة الخبز و بعض الصيدليات و المشافي و بعض المتاجر التي تبيع الطعام و الأساسيات على فتح أبوابها مجدداً ، و بعد يومين عادت الحياة شيئاً فشيئاً إلى طبيعتها .

لم نحرك ساكناً إلى نهاية الأسبوع ، و لم ننشر كلمة واحدة في الإعلام عما يجري في تلك المنطقة و على العكس بث التلفزيون لقاء بين الزعيم الأوحده و الحاكمين الهاربين من تلك المنطقة ، و زعم التلفزيون أنهما نقلاً مطالب معيشية ملحة لسكان تلك المنطقة إلى الزعيم ، و لقد وافق الزعيم على تلك المطالب و وجه بإرسال شحنات كبيرة من الأغذية و السلع و المواد الطبية و احتياجات المدارس إلى تلك المنطقة ! .

الأخبار كانت قد سرت إلى أرجاء البلاد بأن ثورة إسلامية كبرى حصلت في تلك المنطقة و أن المشايخ هناك يستنفرون الناس للجهاد ، و لقد جاءتنا إشارات من أجهزة المخابرات بأن الكثير من الشباب المتدينين من سائر البلاد قد حملوا سلاحهم و توجهوا إلى تلك المنطقة .

في الجمعة التالية خطب واثق أفندي الجمعة في أكبر مساجد تلك المنطقة الثائرة و أعلن أن هذه المنطقة هي نواة الدولة الإسلامية الكبرى التي ستفتح عواصم الدنيا كلها ، و أكد أن دولتنا لم تعد موجودة و أن حكومة الزعيم الأوحده لم تعد حكومة و إنما هي عصابات من الأوباش و الزعرة و يجب أن تخضع لحكم الدولة الإسلامية الجديدة صاحبة الشرعية الوحيدة ، و أعلن بإيعاز من رافع أفندي و قيادة الجمعية الإسلامية أن تعيين إمام أعظم للمسلمين سيكون قريباً ، و أنه أي واثق أفندي صار أميراً مؤقتاً للبلاد لفترة انتقالية بتكليف من المجاهدين الأبطال الذين حرروا المنطقة من الجبت و الطاغوت و الفراعنة .

بعد الصلاة توجه واثق أفندي إلى مقر حاكم الولاية الذي يستولي عليه رجال جمعيته و استدعى قائد جيشه بسطام و سألته بمجرد أن رآه : هل استوليت على مباني المحاكم و مخافر الشرطة و مباني البنوك ؟ .

قال بسطام : نعم إلا أن مباني البنوك مقفلة و لا حراسة عليها فهي ضمن سيطرتنا أصلاً . الواقع أن المصارف كانت قد أفرغت تماماً من كل قرش فيها و أغلقت و لم يدخلها بسطام بتعليمات من غرفة عملياتنا .

قال واثق أفندي : بموجب الصلاحيات التي عندي أطلب منك اعتقال كافة قضاة و ضباط الشرطة في المنطقة .

رد بسطام : لقد هربوا جميعاً يا مولانا بمجرد أن سمعوا تكبيراتنا على المآذن .

ابتسم واثق أفندي ابتسامة الواصل و قال : نعم فنحن منصورون برعب أعدائنا منا .

قال بسطام و قد دمعت عيناه : نعم يا مولانا يا سبحان الله لو رأيت قائد الشرطة و هو يهرب مع رجاله لوقفت مدهوشاً من آيات النصر الإلهي .

بكى واثق أفندي ، و بكى من حوله رجال الجمعية الإسلامية و سجدوا جميعاً شكراً على النصر الرباني المبين .

في عصر ذلك اليوم كان وفد من مشايخ المنطقة يتوجه إلى مقر واثق أفندي و اجتمعوا به فور وصولهم .

بدأ متكلم الوفد فحمد و أثنى و صلى و سلم ثم قال : يا واثق أفندي نحن لم نرد أن تفعلوا ما فعلتم ، لقد أدخلتم المنطقة في حرب مع الحكومة نحن غير مستعدين لها و السكان لا يقدرّون على تحمل أعبائها الرهيبة ، و نحن أيضاً لا نريد أن يضع أهل البلاد بنادقهم في مواجهة بعضهم ، نحن رفضنا مشروع الدستور و طالبنا باحتجاجات شعبية و رسمية لإلغائه و لم نطلب حرباً أهلية لا مصلحة لنا فيها .

غضب واثق أفندي جدا مما قاله متكلم المشايخ و قال لهم و هو يصرخ : أنتم هكذا دوما أعوان للطاغوت و الجبت و الفراعنة حرضتم الناس على الجهاد ثم نكلتم و تريدون أن نستسلم و نتراجع بحجج واهية حقيقتها أنكم جنباء و أنكم مجرد كهنة تتاجرون بالدين و تنكهنون بالفتاوى لمن يدفع لكم ، و لولا خوفا من غضب الناس البسطاء الذين يعتقدون بكم لجهلهم بحقيقتكم و حقيقة هذا الدين لأمرت بسطام بضرب أعناقكم الآن في ساحة المسجد الكبير و على مشهد من الناس .

قال له أحد المشايخ : يا واثق أفندي . فقاطعه واثق بغضب قائلا : قل يا أخي الأمير .

قال الشيخ : يا أخي الأمير أنت أعلنت الحرب على الحكومة ، جيش الزعيم قد يهاجمنا في أية لحظة فهل تملك طائرات لضربه ؟ هل تملك مدافع ؟ هل لديك نصف قوة جيشه ؟ لم نر لكم إلا بضعة مئات من الشباب الملتحين و معهم بضعة بنادق و دراجات نارية و الناس في هذه المنطقة غير مسلحين أنت تعلم أن السلاح قد سُلّم كله خلال الحرب الماضية للجبان المقاومة الشعبية و صار في مخازن الجيش ، يا واثق أفندي من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه ، و نحن جئنا لنعرض وساطة بينكم و بين الحكومة لحقن الدماء .

نظر واثق أفندي و بسطام إلى بعضهما و ضحكا باستهزاء من كلام الشيخ الرعيد ، ثم قال واثق أفندي : هؤلاء الملتحمون الذين لا يعجبونك هم من سيهاجم جيش زعيمك الكافر و لن ينتظروه ليهاجمهم ، و لا بد أن قادة الشرطة يحكون الآن لزعيمك الجبان ما واجهوه من بأس أبطالنا ، وؤكد لك أن قلوب كل الجنود و الضباط و الشعب معنا و لن يقف في وجهنا أحد .

قال الشيخ : حسبنا الله و نعم الوكيل ، نحن سنصدر فتوى بتحريم المشاركة في هذا القتال و لسنا معكم .

قال واثق أفندي لبسطام بحزم : اعتقل أصحاب السماحة و انقل كلا منهم إلى داره و أغلق عليه بابه مع نسائه و امنعوهم من مغادرة بيوتهم ، فقط اسمحوا للحريم بالخروج للتبضع .

راح المشايخ يحوقلون و هم يساقون أما بسطام إلى خارج قاعة الأخ الأمير واثق أفندي و منها إلى بيوتهم ليلزموها مرغمين .

في اليوم التالي كانت حواجز الجيش التي انتشرت في محيط تلك المنطقة تعتقل أكثر من ألفين من الشباب المتدينين الذين توجهوا للمنطقة الثائرة ، لقد وقع هؤلاء المساكين في كمائن خادعة ، فلقد كانوا يتوجهون إلى المنطقة أفرادا و مجموعات صغيرة ، ثم كان يسمح لهم بتجاوز حاجز واحد أو حاجزين فيسيرون إلى الحواجز التي تليها باطمئنان و قد ظنوا أن الضباط و الجنود متعاطفون مع الثورة فتعتقلهم تلك الحواجز فرادى و يساقون فورا إلى السجن الحربي .

اتصلت غرفة عملياتنا ببسطام و طلب منه لويس أن يداهم بيوت المشايخ و يخرج من كل بيت شابا و يلبسه السلاح دون ذخيرة و ألا يلثمه و يوقفه على أحد حواجز الجمعية الإسلامية في المدينة ليشعر الناس بأن المشايخ مؤيدون لقوات الجمعية. في المساء نفذ ببسطام الطلب بسهولة و رفع للأخ الأمير واثق أفندي تقريراً عما فعل فاستحسن هذا منه و لكنه طلب منه ألا يكرر التصرف دون العودة إليه و إلا سيعزله عن قيادة الجيش.

بعد أسبوعين من ثورة ببسطام بدأت التقارير الواردة من الميدان تفيد بأن أعداد المتطوعين القادمين إلى المنطقة الثائرة في تزايد داخل المنطقة ، حواجز الجيش المقامة على الطرق المؤدية للمنطقة لم تعد تسجل اعتقالات جديدة لهؤلاء الشبان المتحمسين!.

كلفنا ببسطام بالبحث عن كيفية وصولهم فأخبرنا أن القرويين بدأوا يتعاطفون مع الثورة البسطامية و أنهم يدخلون المتطوعين إلى المنطقة من طرق زراعية ليلاً.

بحثنا في غرفة العمليات هذه الظاهرة الخطيرة بإسهاب ، و لقد وجد البروفسور أوسكار في هذه الظاهرة مؤشراً مفزعا إلى أن الثورة إن تركت لأيام أخرى فستخرج عن السيطرة و قد تمتد للجيش و تضطر الدول الأوربية لإحتلال بلادنا مجدداً و دفع فاتورة عالية جداً من دماء الجنود الأوربيين كما حدث في نهاية الحرب مع تركيا.

وافق البارون جيمس على تحليل البروفسور ، و بعد ساعات من النقاش كان قرار إنهاء الثورة البسطامية قد صدر.

بدأ تنفيذ القرار بسحب جميع حواجز الجيش من محيط المنطقة و إعادتهم إلى الثكنات ، و أصدر العميد عبد الصبور أمراً لكافة القطعات العسكرية في تلك المنطقة بالتزام الهدوء و عدم إطلاق النار تحت أي ظرف.

الخطوة الثانية كانت إرسال لواء الحرس الرئاسي الضارب بقيادة العقيد زيد إلى تلك المنطقة ليتمركز قرب أول مدنها على طريق العاصمة نحو الشمال و أكبرها حجماً ، و هذه الخطوة احتاجت إلى ثلاثة أيام لإتمامها ، و أيضاً كانت الأوامر واضحة بتجنب أي احتكاك مع أحد و بعدم الرد على النار بالمثل .

الخطوة الثالثة كانت انسحاب عناصر الجناح المسلح للجمعية الإسلامية من كل مخافر الشرطة و تسليمها للمتطوعين و لوجهاء الأحياء ، و تذرع هؤلاء لإنسحابهم بأنهم يريدون التفرغ للدفاع عن المنطقة ضد حملة الجيش القادمة .

الخطوة الرابعة كانت توجه معظم مجاهدي ببسطام الملتزمين فعلاً إلى نقاط قريبة من مواقع الجيش ، طبعاً لم تطلق منهم و لا من الجيش أي طلقة لأن هؤلاء الرجال كانوا من قبضايات منظمتي الأبطال و كلهم رسمياً جنود عند العقيد لويس.

من الجدير بالذكر واثق أفندي توجه إلى جبهات المواجهة بين جيشه البسطامي و بين جيش الزعيم لتفقد الجبهة و رفع معنويات المجاهدين!.

في اليوم الثالث لتنفيذ خطة إنهاء الثورة وصل لواء العقيد زيد و معه معظم عناصر "مديرية أمن الدولة" إلى معسكر يقع جنوب أكبر مدن الثورة ، و بمجرد وصولهم بدأ بسطام بالتحرك النهائي .

في صباح اليوم الرابع للخطة طلب بسطام من واثق أفندي و وزرائه الستة زيارة القوة التي ستفتح المدينة التي تفصل الوسط الشمالي عن العاصمة لقطع طريق حملة قوات الزعيم القادمة من الجنوب ، وافق واثق أفندي و وزراؤه على الفكرة العبقريّة لبسطام ، و في المساء بعد أداء صلاة العشاء جماعة و بفرح غامر ركب واثق أفندي و وزراؤه الستة سيارة مدرعة للشرطة قادها سائق مجاهد و معه حارس ، و كان بسطام في المقدمة يسير بسيارته و قد أضاء أنوار السيارة بشكل عادي ، بعد ساعة من السير الحثيث وصلت السيارتان إلى نقطة قريبة جدا من معسكر العقيد زيد و هناك توقفت سيارة واثق أفندي فجأة و قفز منها السائق و المجاهد الحارس بسلاحهما و هما يقولان : كمين انبطحوا ، و انبطحت حكومة واثق أفندي على أرضية السيارة بينما كانت سيارة بسطام تقترب من بوابة المعسكر.

قفز بسطام من سيارته و ركب مع رجاله في سيارة مدنية كانت تنتظرهم و انطلقت في طريق العاصمة خلال دقيقتين فقط ، بعدها لعل الرصاص على سيارة بسطام الأولى و انفجرت بوقودها .

خلال دقائق تالية وصل رجال العقيد زيد إلى مدرعة حكومة الأخ الأمير واثق أفندي و اعتقلوه مع أركان دولته و اقتادوهم مكبلين إلى مقر قيادة المعسكر.

في تلك الأثناء كان جيش بسطام قد وصل إلى نقاط الجيش المتفق عليها و أعطوا للحرس كلمة السر و ركب المائتا عنصر بأسلحتهم باصات تابعة لإدارة المخابرات العامة و عاد كل منهم إلى بيته بعد عدة ساعات.

بسطام كان قد زودنا بخارطة كاملة للمتاريس في المنطقة و بأعداد و تفاصيل تسليح من يحميها ، كانوا كلهم من المتطوعين الملتحقين بقوات الجمعية منذ أيام و ليس لدى أكثرهم تسليحا ما يزيد على مائة طلقة.

في الصباح الباكر وصلت طوابير من لواء العقيد زيد إلى أطراف المدينتين الثائرتين و كانت هذه الطوابير من المدرعات الخفيفة ذات المدافع المتوسطة ، و بعد طلوع الشمس قطعت الكهرباء عن المدينتين و كافة الإتصالات الهاتفية و بدأت الطوابير بضرب المتاريس تباعا ، لم ينج أحد من المتطوعين و كانوا لا يزيدون عن المائتين في كل مدينة ، أطلقوا ما لديهم من الرصاص على المدرعات و بعد أن انتهت ذخائرهم هرب البعض منهم و جرح آخرون ، ثم توجهت المدرعات إلى مخافر الشرطة و راحت تمشطها بالرشاشات الضخمة و قذائف المدفعية ، انتهت عملية الإقتحام بنجاح ساحق بعد ساعات قليلة.

في منتصف ذلك اليوم عادت الكهرباء و الإتصالات إلى المدينتين و دخل العقيد زيد إلى مقر الحاكمية في كبرى المدينتين
الثائرتين ، و رفع علم البلاد على سارية المبنى.

كان عدد القتلى أكثر من ثلاثمائة و خمسين من شباب المدينتين و من المتطوعين و من المارة و من وجهاء الأحياء الذين كانوا
يناوبون في المخافر ، و من بين القتلى أكثر من عشرين من أبناء المشايخ الذين أرغمهم بسطام على المراقبة على متاريسه و
قتل عدد من جنود لواء الحرس برصاص القناصة المتطوعين الذين استبسلوا في الدفاع عن مبنى الحاكمية لأنهم كانوا يظنون
أن أميرهم القائد واثق أفندي موجود معهم ، و لقد قتل هؤلاء القناصة الشجعان جميعا.

نُقل واثق أفندي و حكومته إلى السجن الحربي بعد اعتقالهم بيومين ، و وضعوا في مهجع خاص بهم له حمام ملحق به ، كانت
تعليمات غرفة العمليات صارمة بعدم إهانتهم و التعرض لهم بأي أذى ، و أن يعاملوا بشكل طيب فيأكلوا جيدا و يناموا
على فرش نظيفة و أن تغسل ثيابهم و يعطوا ثيابا جيدة و جرائد و كتب و ما يلزمهم.

في تلك الأثناء كانت سيارات "حماية أمن الدولة" تتجول في أحياء المنطقة الثائرة و معها قوائم بأسماء عشرات المشايخ
الشباب و أتباعهم ، توجهت تلك السيارات أولا إلى مختار الأحياء و اقتادتهم إلى منازل المطلوبين ، كانت البيوت تدهم
دون إنذار ثم يسأل المدهمون عن المطلوب فإن لم يجدهوه أخذوا أكبر ذكر في الدار معهم رهينة حتى يسلم المطلوب نفسه لمقر
حاكم المنطقة ، لم يمض أسبوع إلا و كان معظم هؤلاء في أقبية سرايات الحكم في مراكز المناطق ، بينما لاذ البقية بالفرار ، ثم
نقل الجميع إلى السجن الحربي.

عزل المشايخ الشباب المعتقلون عن بقية السجناء و وضعوا في مهاجع خاصة بهم ظروفها أسوأ من ظروف القبور ، كانت
تلك المهاجع أقبية مظلمة و ليس فيها سوى البطانيات و كان الخروج منها إلى الحمامات يتم بالطابور و في فترات متباعدة و
الماء الذي قدم لهم كان قدرا و تعرضوا للضرب و الإهانة البشعة على أيدي السجنانيين منذ اللحظة الأولى لإعتقالهم.

بعد شهر من بداية الثورة العتيدة احتشد في السجن الحربي أكثر من ثلاثة آلاف سجين للمرة الأولى في تاريخ البلاد ، مدير
السجن في تلك الفترة الأولى كان اسميا الرائد دُري و المدير الفعلي كان الميجور فيليب الخبير الذي حضر برفقة البارون
جيمس و البروفسور قبيل بداية الثورة.

كانت المهمات في السجن قد قسمت بالشكل التالي : السجنانون كانوا جميعا من أبناء الريف النائي الملقبون في المشرق و
المغرب بـ "الشوايا" الذين تخرجوا من مدرسة الجنود ، يأتهم هؤلاء بأوامر مجموعة من صف الضباط المتخرجين من مدرسة
المقدم هرثمة كلهم من أبناء الطائفة ذات الديانة السرية ، صف الضباط هؤلاء كانوا أيضا مكلفين بمهمات التحقيق و ضبط
ملفات السجناء و الأعمال الكتابية ، قيادة السجن كانت تضم ثلاثة ضباط غير الرائد دُري جميعهم برتبة نقيب.

التحقيقات مع المعتقلين لم تكن جدية ، كل ما طُلب منهم كان إثبات هوياتهم و أماكن إقامتهم و نبذة عن حياة كل منهم و أسماء ذويه و إخوانه ، و سأحدث لاحقا بشكل مسهب عن هذا السجن و أحداثه.

بعد أن هدأت عاصفة الثورة عادت الحياة الطبيعية إلى المنطقة الثائرة في خلال أسابيع قليلة ، ما عكر الهدوء كان تجمعات أهالي القتلى و المعتقلين أمام مبنى حاكم الولاية الذي يشغله العقيد زيد ، بسبب هذه التجمعات حضر إلى ذلك المركز العقيد صويلح ممثلا عن الزعيم و كنت برفقته "مستشارا".

أعطيت التوجيهات للرجلين باستقبال وفود يمثلون ذوي القتلى و المفقودين ، اللقاءات كانت بشعة جدا و دارت فيها حوارات عدوانية هذا مثال عنها :

رئيس الوفد كان عمدة أكبر أحياء المدينة بدأ حديثه مع العقيد صويلح قائلا : يا سيادة العقيد نحن لم نرد أن يحصل ما حصل و ما فعله واثق أفندي و جمعيته لم يكن أحد راض عنه و خاصة المشايخ ، هذا البلد دفعنا الكثير من دمائنا لإستقلاله و دفعنا الكثير من أموالنا لبنى هذا الجيش ، و عندما هاجم التحالف العدواني مدينة الحرية تطوعنا للدفاع عن البلد بالآلاف ، و هؤلاء الشبان المندفعون هم إخوانكم و أبناء بلدكم و كنا نتمنى أن يكون الحب و الحوار الأخوي بينكم و بينهم بديلا عما حصل و لكنه القدر .

قاطع صويلح قائلا : لماذا نحمل القدر مسؤولية جرائمنا ؟ أنتم لم تحسنوا تربية هؤلاء الأولاد ، إنهم مجرد أوباش و زعرة و قتلة يريدون أن يخربوا البلد و مصالح الناس و لا بد أن أعداء البلاد هم من دفعوهم إلى فعل هذه الجرائم.

قال المختار : يا سيادة العقيد لكنهم لا يزالون أبناء البلد على أي حال و يجب أن نستوعبهم و لا تنس أن الدم لا يصير ماء و أهل البيت الواحد يمكن أن يختلفوا.

قاطع صويلح بحدة قائلا : أبناء البلد و قتلوا أبناء البلد ! و الدم لا يصير ماء ! بالفعل قدم جنودنا لا يزال في شوارع مدينتكم و لقد أسأله أولادكم ! أنا لم أسمع في حياتي عن خلافات أخوية تحل بالسلاح و المدافع ، نحن ولاة أمر هذا البلد و من لم يفلح أهله في تربيته فسنريه بدلا عنهم حتى لا يبقى مضرًا للمجتمع ، سنسلمكم جثث القتلى بشرط التعهد بدفنهم بحدوء تام و بمرافقة الجنود و في جنازة واحدة ، و البقية ستقرر المحاكم مصيرهم هذا البلد فيه قانون و لا بد من احترامه ، و لن يسمح لأحد بزيارة المعتقلين فلا تتبعوا أنفسكم بطلب ذلك.

غادر الوفد الإجتماع و هم يحوقلون و يسترجعون و لم يودعهم صويلح و لم يودعوه كما أنهم لم يتصافحوا في بداية اللقاء .

دفن القتلى في مقبرة واحدة متجاورين و مرت الجنائز بسلام عبر مسار قصير بين المشرحة و المقبرة مخفورة بمدركات الجيش الخفيفة القاتلة جدا و المتأهبة جدا.

كانت المدرعات الخفيفة تقف على مفارق الطرق و توجه فوهاها إلى المارة ، بجانب كل مدرعة كانت أكياس الرمل تنتصب و يقف وراءها جنود من لواء الحرس الرئاسي و كانوا يدققون في هويات المارة ، من لم يكن يحمل بطاقة هويته كان يعتقل عند الحاجز و يتعرض للإهانة و الضرب ثم يؤخذ إلى أقرب مخفر شرطة حيث يودع في النظارة إلى يتم التأكد من هويته و محل سكنه ثم يفرج عنه بعد أن يوقع على تعهد بعدم التجول دون بطاقة هوية.

رغم كل ما حصل صدرت جريدة الجمعية الإسلامية و وزعت كالمعتاد في سائر أنحاء البلاد و في صدرها صورة لبسطام ملتحميا و معتجرا لعمامة شعبية و بيده بندقية و كتب تحت الصورة : شهيد الإسلام القائد البطل بسطام البدوي "أبو عرب" ، و مقالات نارية قديمة لواء أفندي و بيانا مشحونا بالتهديد و الوعيد للحكومة و يحملها مسؤولية الأحداث و مسؤولية سلامة واثق أفندي و مرافقيه و المعتقلين من أنصار الجمعية و أبناء الشعب الثائر.

بعد بداية الثورة بستة أسابيع بدأت الصحافة الدولية بنشر أخبار عن ثورة في بلادنا دون نشر تفاصيل و أعطى والذي التعليمات للتلفزيون لشن حملة كبيرة لتغطية ما حصل .

في الأسبوع السابع بث التلفزيون برنامجا طويلا و بيانا لوزير الداخلية يتحدث عن شعب و فوضى و نهب و سلب نفذته عصابات من المرتزقة الخونة من أبناء البلد الذين باعوا أرواحهم للإستعمار ، و أضاف بيان الوزير أن هذه الجرائم كانت بتحريض و تمويل من الرجعية و الإقطاعيين و الرأسماليين المستغلين الذين يريدون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء و إرجاع البلاد لعصر الحكم التركي و عصور الإنتداب الأوربي.

بقية البرنامج كانت تضم مقتطفات من مقالات واثق أفندي و بياناته و بيانات جمعياته و مقابلة مع العقيد منير شتم فيها الجمعية الإسلامية و توعدها أتباعها بالويل و الثبور و عظام الأمور ، ثم عرض التلفزيون فيلما يصور عملية اعتقال واثق أفندي و أركان حكومته العتيدة دون صوت ، ثم عرض البرنامج صورا للمتاريس المدمرة و صورا لـ "شهداء الجيش" و صورا أخرى للقتلى من الأشقياء الإرهابيين ، في النهاية عرضت صور لسيارة بسطام المحترقة قال المذيع أنها للقائد العسكري لعصابات الجمعية المحرم بسطام البدوي "أبو عرب" و أنه احترق فيها مع سائقه و حارسه ثم صور لبسطام بلحيته و سلاحه و عمامته .

نامت البلاد ليلتها على مثل الجمر ، و في تلك الليلة هرب الكثيرون من أعضاء الجمعية الإسلامية الكبار إلى خارج البلاد بإيعاز من رافع أفندي زعيم الجمعية و كانت وجهة هؤلاء الفارين مملكة عربية صغيرة مجاورة و البلد العربي المجاور الذي اغتيل فيه رافي باشا .

لقد كانت تلك الليلة إيذانا ببدء عصر جديد تماما .

في اليوم التالي لإذاعة البيان خرجنا من غرفة العمليات إلى بيوتنا و انتهى استنفار الجيش و عاد العقيد زيد و لواؤه إلى ثكناتهم بعدها بأسبوع و تولت الشرطة و المديرية المحلية لأمن الدولة مهمة حفظ النظام في المنطقة الثائرة سابقا و عاد حاكما الولايتين إلى مقراتهما .

في عطلة نهاية الأسبوع اجتمعنا في منزل والدي بالساحل لنودع فارسنا البطل بسطام ، لم يعد ممكنا له أن يستمر في التواجد في البلاد ، كان في الإحتفال البارون جيمس و البروفسور أوسكار و لم يحضر أحد غيرهما لوداع بسطام و نسائه الأربعة و أولاده التسعة ، شربنا أنخاب التحية لبسطام و في صحته و سلمت البطل المتقاعد بطاقات هويته و هويات أسرته الجديدة بأسماء جديدة و صورته كانت طبعاً بدون لحية و بشارب صغير ، و أفهمته أن أحدا ما سينتظره على الجانب الآخر من البحر لينقله إلى منزله الجديد الضخم في بلد عربي آخر و أن عليه ألا يحاول العودة إلى البلاد إلا بعد أن نسمح له ، ظهرت على وجهه علامات الأسى و الحزن فقلت له ضاحكا : تمتع بتقاعد مبكر جميل لو أن هذه الفرصة أتاحت لجدي لم يمت .

ابتسم بسطام مكرها و قال : لن يتغير شيء من أخوتنا و سألقي خادمك الوفي إلى الأبد فلا تتركني للغربة .

قلت له : يا رجل لن يشعر بالغربة من يسكن في مزرعة ضخمة مليئة بالجمال و الغنم الرعاة و بصحبته أربعة من النساء و تسعة من الأطفال ، هون عليك و سأزورك بصحبة البارون بلا شك .

قطعنا كعكة المناسبة و شربنا كثيرا و تبادلنا القصص الفكاهية و النكات ثم حانت ساعة الوداع الحزين .

كان وداعا عاطفيا حقا حتى كدت أذرف دموعي لولا أن تماسكت بينما سمح بسطام الرجل الحديدي لدمعتهين بأن تذرفا من عينيه و هو يودعني بعد أن ركب في السيارة التي أقلته إلى منفاه التقاعدي الجميل .

بعد أن ذهب قال لي البارون جيمس : كان لويس قد اقترح علي التخلص من بسطام بقتله لأنه لم يعد من الممكن استعماله مجددا .

قلت : و ما كان ردك ؟

قال : قلت للويس إن سلامتك عندي لا تزيد أهمية عن سلامة أي واحد من الفريق الذي يقوده مهران بك و والده ، نحن لسنا مجموعة من رعاة البقر يسرقون عربة في الغرب الأمريكي فيقتلون بعضهم عند اقتسام الأسلاب و الخيول ، نحن دولة عظيمة تقود جزءا كبيرا من العالم و تقدر عاليا خدمات عمالها و موظفيها بغض النظر عن دينهم و عروقهم و لن نكافئ بطلا كبسطام بقتله ، أعتقد يا لويس أنك لا تصلح للإستمرار معنا.

قلت : هل سيتقاعد لويس ؟.

قال جيمس بجزم : بلا شك .

دخلنا إلى المنزل بعد هذه المحادثة القصيرة لنجلس إلى مائدة البروفسور و سألته فور أن جلسنا :

لماذا تريد تدمير المشايخ و طلابهم و الأرستقراطيين ؟ ألا يكفي أن يطيعونا ؟ هم لم يعودوا يشكلون خطرا علينا!.

ضحك البروفسور طويلا و ما قطع ضحكه إلا نوبة سعال ، ثم اعتدل و قال : هات الويسكي و السيجار و لنجلس على الشرفة في هذا الجو الجميل لأحكي لك السبب .

جلسنا على الشرفة حول مائدة شراب و بدأ البروفسور كلامه : لو رأيت جيشا ضخما يقوده قائد كبير و معه ضباط مدربون و أسلحة قوية فما هي أفضل طريقة لهزيمة بجيش صغير جدا و بأقل كلفة ؟

قلت : أن نبحث عن مواطن ضعفه و نخرقه منها و ندمره .

قال صاحكا : هذه خطتك ، أما خطتي أنا فهي : أن أبحث عن خونة بين جنود هذا الجيش الصغار أشتريهم بالمال أو بالنساء أو بالإغراءات ، ثم أعلمهم كيف يتظاهرون ، و يتصرفون و كأنهم ضباط كبار ، و ألبسهم ثياب الجنرالات ثم أدبر لقتل جنرالات هذا الجيش و ضباطه الكبار و أعين مكاهم هؤلاء الخونة و أسير الجيش كله بما أوحيه هؤلاء القادة المزيفين و هكذا أنقله من هزيمة إلى هزيمة كما يحلو لي حتى يفنى و يتلاشى.

قلت : لو فرضنا أنك نجحت فقد تنكشف خدعتك في وقت ما عندما تتكرر هزائم الجيش و فشله و سيثور الجنود على قادتك الدمى المزيفة و سيقتلوهم!.

قال : لنفترض أن الخدعة انكشفت و أن القادة المزيفين قد قتلوا فالذي سيحدث هو أن جنودا آخرين سيرتدون ثياب الجنرالات و سيقودون الجيش مع أنهم لم يكونوا قادة أبدا و لا يعرفون عن القيادة شيئا و يجهلون أي شيء عن السيطرة و التحكم بالجيش و خطط القيادة ! هؤلاء سيكونون أكثر نفعا لي بكثير من ضباطي الذين صنعتهم ، فهؤلاء الجنود الجهلة

البارزون من بين زملائهم الجهلة سرعان ما سيقبضون على القيادة ، كما أنهم لن يستطيعوا و لو اتفقوا أن يسيطروا على جميع الجنود و إنما على بعضهم لأن الكثيرين من الجنود لن يروا هؤلاء المتصدرين للقيادة أي فضل عليهم ، و لهذا لن يقبلوا بإتباع أوامرهم كما كانوا يتبعون أوامر الجنرالات الحقيقيين و أوامر جنرالاتي المزيفين ، هكذا ستكون فرصتي أكبر لتجنيد مجموعات جديدة من جنود هذا الجيش لأصنع منهم قادة مزيفين آخرين يقودون جيوشا من شراذم الجيش الأول ، و سيرسلون من ينخدع بهم إلى حقول ألغام جيشي و ضمن مرمى جنودي دون سواتر !.

جلس مستريحا و هو ينظر إلي قائلا : ستقول لي : ستكشف الخدعة مجددا ! سأقول لك لو انكشفت ألف مرة فلن يحدث شيء مختلف عما حدث في المرة الأولى ، و لن تنتهي هذه الفوضى إلا عندما أقرر أنا إنهاءها إما بإبادة هذا الجيش أو بأن أشتري مجموعة كبيرة منه أنظمها و أخضع بها بقية الجيش بالقوة أو بالإغراء ليصبح كله في نهاية المطاف : جيشي أنا !.

قلت له : ألا ترى أنك ابتعدت عن سؤالي ، أنت تتحدث عن جيش و سؤالي عن الأرستقراطيين و المشايخ ؟!

قال البروفسور : مهرا بك ؛ قيادة جيش أو قيادة مجتمع كامل فيه عسكريون و مدنيون أيهما أصعب برأيك؟.

صدمني سؤال البروفسور و صمتت لنحو من دقيقة و أنا أتجول بنظري بين الجبال الجميلة الخضراء المحيطة بنا و البحر الأزرق الواسع الذي نطل عليه ، و أعب من دخان سيجارتي ، و أبحث في ذهني عن جواب ، ثم قلت : قيادة مجتمع كامل أصعب بكثير نعم ، فالجيش مجموعة من القادرين على فهم الأوامر و العمل بها و المجتمع خليط ضخم من كافة أنواع المقدرات العقلية و له احتياجات متنوعة جدا لا حصر لها.

قال أوسكار و قد أعجبه جوابي و هز رأسه بسرور : نعم نعم تماما ، رجال الدين أو المشايخ و الأرستقراطيون يعملون في المجتمع كله على مدار الساعة ما يعمل الجنرالات و الضباط في الجيش في أوقات دوامهم ، و بقية الناس بالنسبة إليهم كالجنود العاديين البسطاء ، أكثر من هذا فإن إعداد و تأهيل الضباط القادة قد يأخذ على الأكثر عشرة أعوام بينما تأهيل إي واحد من الأرستقراطيين و رجال الدين "المشايخ" ليقوم بعمله بشكل فعال يحتاج إلى عقود ، و لا يصل أحدهم لمركز القيادة إلا بعد أن يشيخ و يصبح معروفا جيدا لمعظم العامة الذين يرعاهم.

قلت : أعتقد أنني أستطيع تخمين بعض المهمات القادمة .

قال أوسكار : لا تستعجل بالتوقع أنا سأعطيك بعض ما يساعد تخميناتك ، سنفتتح جامعاتنا الخاصة لتخريج جيل من المشايخ الجدد بدل الذين سنقصيهم من البلاد تباعا من مشايخ العهد السابق ، و سنبنى أرستقراطية أخرى جديدة تماما ، و تأكد أن شيئا من هؤلاء أو أرستقراطيا واحدا منهم لن يعرف كيف يسيطر على جمهرة من رعايا متخاصمين في مقهى دون إرشاد مباشر منا ، و لن نوجه أحدا منهم ليقوم بعمل قيادي إلا وقتما نحتاج إلى خدماته ، هم سيؤدون لنا خدماتهم و هي

إخضاع عامة الناس لنظامنا باستعمال المال و النفوذ و الجُمْل المقدسة التي سيؤلفون منها مواعظ عن فوائد طاعة نظامنا و عواقب معاداته ، هم لن يقدموا لأحد من الناس الخدمات التي كان يقدمها المشايخ و الأرستقراطيون الحقيقيون ، سيكونون عبئا جديدا إضافيا ثقيلًا على الناس و سيكونون مكروهين من أولئك الذين يشعرون بالظلم.

لن أنسى أبدا هذا الحوار مع البروفسور أوسكار ، و لقد فكرت فيه مرارا ، و وجدت أن نجاح خطته في هزيمة الجيش الكبير متوقفة في الواقع على القدرة على قتل قياداته الحقيقية و إقناع الجنود بشرعية القيادات المزيفة ، و التفتُّ إلى ما مضى لأفاجأ بأني أنا مع فرساني الثلاثة و فريقي الرائع استطعنا أن نخرق كل صفوف ذلك الجيش أو المجتمع - سمّه ما شئت - دون أن يشعر بنا أحد و أن نقصي آلاف القادة ثم نعين غيرهم دون أن ينتبه إلى هجومنا الضخم أحد ، لقد كان عملنا كالمعجزة تماما ، و الفضل كله يعود لبراعة البارون جيمس و والده البارون إدموند و تخطيط البروفسور أوسكار البعيد المدى. بعد أن عدنا إلى العاصمة أعطى البارون أوامر واضحة للميجور فيليب بمنع الرحمة تماما عن المشايخ و تلامذتهم و عن المتطوعين للقتال ضد الجيش من الذين جاوزوا الخامسة و العشرين من العمر.

غادر البارون إلى أوربة و عدنا للحالة العادية و لكن أحوال السجن الحربي لم تكن عادية أبدا.

لأنني شخص رقيق القلب و حنون بطبعي و لا أحب مشاهد الدماء و أصوات المتألمين فضلت أن أتابع أخبار السجن الحربي من خلال تقارير الرائد درّي و الميجور فيليب ، الحقيقة أن مجرد قراءة هذه التقارير كانت تصيبني بما يشبه الصدمة و الغثيان و لكن هذا الشعور كان يزول بعد وقت قصير عندما أترك هذا الملف البشع حقا لأقرأ ملفا آخر ربما أكثر منه بشاعة أو أقل .!

ورد في التقارير مثلا : تمّ وضع كل أربعة من المشايخ الشباب في زنزانة صغيرة تتسع لشخصين فقط و كان يسمح لأحدهم بأن يتبول مرة كل أربع ساعات فقط ، و كانوا يتبولون من فتحة في الباب فينزل بولهم في دلاء يفرغها السجنانون و في نفس الدلاء كان يقدم لهم الطعام ، بعد غسلها طبعًا على طريقة "الشوايا" .!

الطعام مكون من حفنة من جريش الحنطة المطبوخة بماء الملح و زيت القطن يسميه المشارقة "بُرغل" و المغاربة يسمونه "كُسْكُس" ، هما كلمتان ليستا بعربيتين بالمناسبة ، و مع هذه الحفنة بيضة يوميا و بعض البصل و الطماطم ، و أحيانا كانوا يُعطون برتقلا حتى لا يموتوا من نقص الفيتامينات الحاد ، أما الماء فكان متوفرا من صنوبر ماء في كل زنزانة و كانت هذه رفاهية لهم.

أعطي كل سجين ثوبان واحد يلبسه إلى أن يغسله كل أسبوع ليأخذ الآخر مكانه و هكذا ، و بطانيتان عسكريتان واحدة لتكون وسادة و الأخرى فراش.

أما التحقيقات فلم تكن تحقيقات بالفعل و إنما كانت مجرد وسائل لتحفيظ المساجين ما تم تلفيقه لكل منهم من التهم و إقناعهم بترديد هذه التهم أمام القضاة العسكريين في المرحلة التالية ، لم يكن هؤلاء السجناء يفهمون الغاية الحقيقية من التحقيقات القاسية ، كانوا يظنون أنهم إن دفعوا ببراءتهم و ثبتوا على قول الحقيقة سيصلون إلى إثبات براءتهم أمام المحكمة و النجاة مما هم فيه ، أكثرهم كانوا معتصمين بالصدق و النزاهة التي اعتادوها و لم يخطر ببالهم أبدا أنهم خدعوا سقطوا في فخ و لن يخرجوا منه.

وسائل التحقيق القاسية بعض الشيء كان منها : أن يقيد السجين عاريا تماما في وسط قاعة تغمر أرضها المياه لارتفاع بوصة واحدة أو أكثر بقليل ، و يبدأ ثلاثة أو أربعة من السجناء الشوايا بقيادة واحد من صف الضباط (أتباع الديانة السرية) بضرب هذا السجين المقيد بالأحزمة الجلدية المبتلة بالماء ، و أثناء ضربه يقول له قائد المجموعة بتكرار : أنت قبضت مالا من ضابط أجنبي عدو اسمه "جون" لتخون وطنك و تقاتل جيش الوطن ، أنت من زبانية الباشاوات الأوفياء و هم من أوعز لك بالتعاون مع جون ، أنت استلمت سلاحا من الضابط جون لتقاتل أهلك و أبناء وطنك .

السجين المسكين سينفي عن نفسه التهم ، و هذا سيسبب له جولة جديدة من الضرب ، و يستمر الأمر هكذا حتى يكرر ما يقال له بإقرار و خضوع.

طبعاً أثناء الضرب سيستغيث السجين بالله فيصيح به السجنانون و هم يشتمون المقدسات ، سنحضر لك عصا الله! و قد يستغيث بالمقدسات و قد يستغيث بأبيه و أمه فينالها من الشتائم ما يثير هياج السجين فيشتم من يضربه فيزداد الضرب عليه بقسوة أكبر.

السجناء العنيدون و جميع المشايخ منهم تعرضوا لأنواع أخرى من التعذيب فلقد كان الصعق بالكهرباء من أعضائهم التناسلية و إجبارهم على السير و الزحف فوق زجاج مجروش ثم على الملح المسحوق هو الخطوة الثانية لإجبارهم على الإقرار .

أما الأكثر عنادا فلقد كانت قضبان الحديد الحمى تشوي جلود ظهورهم و أذبارهم بينما هم معلقون رأسا على عقب عراة مبللين ، و قد ينوب عنها اقتلاع الأظافر و تكسير الأسنان أو القرص بالكماشات الحديدية حتى يقطع من جلودهم و غيرها من الوسائل التي تسبب آلاما رهيبة دون أن تقتل السجين.

كثيرة كانت حالات الإغماء و الإنهيار بين السجناء و لكنها لم تكن تعالج ، كان يرمى هؤلاء المنهارون في مهجع الطبابة ليتولى الجنود إسعافهم ببعض الإسعافات الأولية البسيطة.

و لقد مات العشرات بسبب التحقيقات المؤلمة ، هؤلاء كانوا يلقون في حفر جماعية في البادية المجاورة للسجن و يهال عليهم التراب ليلا.

استمرت هذه الموجة من التحقيقات القاسية ثلاثة أشهر كاملة ، و بعدها أفرج عن صغار السن من المتطوعين في الثورة ممن لم تتجاوز أعمارهم العشرين عاما ليحدثوا الناس عما حصل لهم و ما شاهدوه في السجن الحربي ، و هذا كان مؤثرا جدا في إحباط من كان يفكر بالتمرد على نظامنا ، مؤثرا لدرجة حمل معها الآباء على منع أبنائهم من الالتحاق بالأحزاب و الجماعات الدينية و السياسية ، بعدها بشهر واحد بدأت الإستعدادات لعرض البقية على المحاكم العسكرية و بدأ فصل آخر من هذه المهمة الضخمة .

بداية المحاكمات كانت محاكمة واثق أفندي ، لم يتعرض هذا الرجل لشيء من الضرب و التعذيب على الإطلاق و على العكس فلقد عومل كأسير حرب بالفعل ، كان هذا بأوامر صارمة من البارون جيمس لغاية في نفسه .

رفض واثق أفندي حامل شهادة القانون أن يمثل محامون في المحكمة و في يوم المحاكمة ارتدى ثيابا بيضاء كالتي يرتديها المشايخ ، و سمح له بحمل المصحف و بالتكلم بحرية مطلقة .

في قاعة المحكمة جلس واثق أفندي و أعضاء حكومته في قفص الاتهام على مقعد خشبي كبير ، و عندما دخل رئيس المحكمة العسكرية العقيد منير وقف كل من في القاعة إلا واثق أفندي و وزارؤه ، بدأت الجلسة بطرقات العقيد منير و قال بصوته الجمهوري : المتهمون .. إلخ معددا أسماءهم موجودون ؟.

قال واثق أفندي بصوت عالٍ : أنت المتهم يا منير و عصابتك هم المتهمون أنا أمير هذه البلاد بتكليف خيرة أهلها و أفضل رجالها و أنت الخارج عن القانون المعتصب المحتل للسلطة رغم إرادة الأمة.

قال العقيد منير : أنت تعترف بأنك شكلت قوة عسكرية و حاولت بها الإستيلاء على السلطة ؟.

قال واثق أفندي : أنا واحد من أمة اختارني خيرة أبنائها للقيام بواجب مقدس و هو رفع كلمة الله و فرض سلطان دين الله على بلد ملأتموه فجورا و كفرا ، أنت و عصابتك من استولى على السلطة بالقوة و اغتصبتم إرادة الشعب المؤمن .

قال العقيد منير : هل فرض كلمة الله يكون بقتال الجيش الوطني لبلادك ؟.

قال واثق أفندي : هذا الجيش أصبح عدوا لله و لدينه ، يحمي الكفر و الفجور و لا أهمية لكونه جيشا وطنيا طالما أنه يحمي أعداء الدين .

قال العقيد منير : هل أعطيت الأوامر بإطلاق النار على الجيش؟.

قال واثق أفندي : هذه من الأعمال التي أفاخر بها و أرجو بها أعلى جنات النعيم .

قال العقيد منير : لماذا تعطي أوامر كهذه لأتباعك ؟ أنت تزعم أنك تريد رفع راية الدين فكيف تأمر بقتل جنود جيشك و كلهم تقريبا من أتباع دينك ؟!.

قال واثق أفندي : لم يعودوا أتباعا لديننا عندما أطاعوكم و حموا حكومتكم الكافرة .

قال العقيد : إن افترضنا أننا نقول حكومة كافرة فهل الجنود و الضباط كلهم كفار أيضا ؟.

قال واثق أفندي : نعم كفار لأنهم يقاتلون من أجل الكفر.

هنا ضجت القاعة بالأصوات المستهجنة لكلام واثق أفندي ، قطع العقيد الضوضاء بمطرقته ، ثم قال بحدوء مصطنع : يا واثق أفندي أنا و كل الجنود في هذه القاعة مسلمون مثلك و كثير منا من هم أكثر تدينا منك و من جماعتك ، و نحن كلنا نشهد ألا إله إلا الله و أن محمد رسول الله ، فارتفعت الأصوات في القاعة بكلمة "صلى الله عليه و سلم".

قال واثق أفندي : و ما تفيدكم هذه الشهادة و قد كفرتم بما أنزل الله من الشرع و حللتم الحرام و حرمتهم الحلال و حكمتهم بحكم الشيطان ؟ هذه شهادة تقولونها نفاقا و كذبا على الناس و على الله.

عادت الضوضاء لقاعة المحكمة ، و عاد العقيد منير لإسكاها بمطرقته ثم قال : لم أعد بحاجة إلى مرافعات النيابة العسكرية يكفيني و يكفي الشعب ما قلته ، ثم وقف منير في حركة استعراضية و وقف الحاضرون (باستثناء الأمير و حكومته طبعا) ، ثم جلس و طرق بمطرقته ثم قال : باسم الشعب و بعد اعتراف المتهمين بما نسب إليهم قررت أنا رئيس المحكمة العسكرية الإستثنائية المنعقدة بأمر من مجلس قيادة الثورة و بناء على أحكام القانون العسكري و قانون الطوارئ ما يلي :

أولا : تجريم المتهمين ... إلخ (تلا أسماءهم) بتهمة تشكيل عصابة مسلحة و الإستيلاء على أملاك عامة و قتل جنود و عناصر شرطة و سلب أسلحتهم و إعلان الحرب على جيش الوطن و فصل إقليم من أقاليمه عن بقية البلاد و ذلك بناء على أوامر من جهات خارجية معادية للوطن و هذه الأعمال تصنّف ضمن جريمة الخيانة العظمى.

ثانيا الحكم على المتهمين من حيث النتيجة بالإعدام شنقا في الميدان العام للعاصمة صباح يوم الغد.

بدأ واثق أفندي يكبر و كذلك فعل وزراءه و راح يصرخ : نحن ذاهبون إلى الجنة ، لا سواء قتلانا في الجنة و قتلاك في النار.

اضطربت بعدها القاعة و سيق واثق أفندي و زملاؤه إلى خارج القاعة .

في اليوم التالي ، عرض التلفزيون الحوار السابق كاملا بالصوت و الصورة ، ثم صورا لمشاهد شنع واثق أفندي و زملائه في الميدان العام للعاصمة ، لم يشهد الكثيرون إعدام الرجل لأن الإعدام تم في ساعة مبكرة من الفجر .

انتظرنا التقارير المخبرية بعد شنع هؤلاء مدة أسبوعين ، و أفادت كلها أنه لم تحدث ردات فعل متعاطفة مع الرجل ، و على العكس فلقد انقلب الرجال متوسطوا الأعمار ضده ، و صارت الأحاديث في المقاهي تتراوح بين من يدعو للجمعية و أتباعها و للمشايخ و تلاميذهم الذين "ناصروها!" بالهداية و بين من يلعنهم و يعتبرهم خونة مرتزقة للعدو و لدولة الإنتداب السابقة.

بعد هذه التقارير المشجعة بدأت محاكمات المتطوعين في الثورة ممن بقوا في السجن ، سبقت هذه المحاكمات مراسيم رئاسية بزيادة رواتب موظفي الدولة بنسبة خمسين بالمائة و بفرض تسعيرة مخفضة للخبز و السكر و الزيت و الشاي و الغاز و اللحم و غيرها من السلع الأساسية و إلزام الخزينة بدعم أسعار هذه السلع ، هذه المراسيم كان المتوقع هو عكسها إلا أنها بعثت سرورا عاما في البلاد غطى على الأسى الحاصل بسبب ثورة بسطام و ما تلاها من أجواء الرهبة العامة.

كانت المحاكمات بالجملة ترأسها قاض عسكري إسمه المقدم فضيل ، كانت هذه المحاكمات سريعة جدا و نقلت على الإذاعة كلها في وقت المساء عندما كان يستريح الناس لسماع بعض الموسيقى أو الترفيه.

المحاكمة كانت تبدأ بطرقات القاضي ثم يستدعي متهما فيقول له : إسمك ؟ فيقول المتهم (مثلا) : أحمد سيدي القاضي . فيقول القاضي : عملك فيقول المتهم (مثلا) : مزارع سيدي القاضي . فيقول القاضي : تقول لائحة النائب العام العسكري أنك قاتلت جيش وطنك بسلاح أخذته من الضابط العدو جون من أجل مال دفعه لك هل تقر بالتهمة ؟ فيقول المتهم بعد تردد طبعاً و هو يظن أنه سيحاكم حقا : لا سيدي لم أفعل . فيقول له القاضي : كذاب لقد ضبطت متلبسا بجريمة الخيانة العظمى حكمت عليك بالإعدام . ثم يتخير نوع الإعدام فبعضهم يعدم شنقا و آخرون سحلا في الشوارع و آخرون رميا بالرصاص و كافة الأحكام نفذت في ميادين عامة في كافة عواصم ولايات البلاد و صورت على التلفزيون و نشرت الصحافة مشاهدا تحت عنوان : "الوطن يعاقب الخونة" .

أعدم نتيجة لهذه المحاكمات ألف شاب تقريبا منهم عشرات المشايخ الشباب و المئات من تلامذتهم و البقية ممن التقطتهم الحواجز العسكرية وقت ثورة بسطام ، بقي في السجن الحربي بضعة مئات آخرين كلهم من أعضاء الجمعية الإسلامية التابعة لرافع أفندي ، الذي كان يصدر البيان تلو البيان من دولة عربية مجاورة يندد فيه و يشجب و يستنكر و يدين "جرائم الإستبداد" .

تسببت هذه العملية بموجة كبيرة من السخط و الهلع بين العامة ، و جاءت تقارير المخابرات تفيد بشعور عام بالرعب بين الناس لدرجة أن أحاديث السياسة اختفت تماما من حوارات المقاهي و الأماكن العامة ، و قل عدد رواد المساجد و الدروس الدينية بدرجة كبيرة زادت على التسعين بالمائة ، أما المشايخ فلقد تحولت خطبهم كلها إلى مواعظ الزهد و البر و الإحسان للفقراء و الجيران و الأهل و أحوال الموتى ، و لقد قصرت خطب الجمعة و صارت تأخذ نصف الزمن المعتاد لها في معظم المساجد و باتت النيران و قد سترها الرماد.

هذا الخوف رافقته موجة من الغضب المتقد بين دعاة فصل الدين عن الدولة و المجتمع و على رأسهم كان الشيوعيون ، سبب هذا الغضب هو خيبة أملهم الكبيرة جدا و صدمتهم من تصرفات حكومة الثورة البديعية ، هؤلاء الناس كانوا يحاربون التدين بكل صوره ضمن محاربتهم لإستبداد فئة معينة بقرار الشعب و مناهضتهم لتبعية البسطاء الإجتماعية و الفكرية التقليدية لفئات غير منتجة كرجال الدين و الأثرياء بحسب تصنيفات ماركس و سارتر و روسو و أنكلز و غيرهم ، و لكن اللادينيين في بلادنا كانوا يرفضون استبدال ما يرونه إستبدادا قديما بإستبداد جديد ليس على هواهم ، فبديع و جماعته لم يتبنوا أية برامج إقتصادية شيوعية أو إشتراكية في الحد الأدنى الذي يدعو له الشيوعيون .

لقد حفلت مقالات الجرائد و النشرات الشيوعية التي صدرت عقب الثورة البسطامية بانتقاد نقل ملكية وسائل الإنتاج الصناعية و الزراعية إلى ملكية الدولة و قال أغلبهم أن بيروقراطية الدولة ستضطهد الطبقات الكادحة أكثر من الأرستقراطيين بكثير و طالبوا بنقل هذه الوسائل إلى إدارة عمالية و فلاحية مباشرة !.

لقد انتشرت جرائد اللادينيين بشكل ملحوظ بين الناس في تلك الفترة الساخنة ، و رأى الناس في مقالاتهم متنفسا لهم يعبرون به عن سخطهم من تصرفات الجيش و قاداته.

استدعيت سالم و هو فارسنا الثاني الذي شكل بضعة خلايا مسلحة للشيوعيين ، و كان برفقته الدكتور جوزيف أحد الأساتذة الجامعيين الخريجين من أوربة و الذين تحولوا إلى مستشارين خاصين في منظمتي بعد ثورة بديع العتيدة.

سألت سالم : هل تعاطف شباب الشيوعيين مع الثورة في شمال المنطقة الوسطى ؟.

قال سالم بجزم : نعم جميعهم كانوا يتمنون أن تطول المعركة و البعض كان يأمل بتفكك الجيش و سقوط النظام و مقتل بديع و رفاقه .

قلت : لماذا برأيك ؟.

قال : لا أفهم لماذا بالضبط أنا أسمعهم يتحدثون عن الديمقراطية الشعبية و دولة القانون و قالوا إن العقيد بديع ليس مؤهلا لقيام هذه الأنظمة .

سألت الدكتور جوزيف : ما السبب الذي يثير حقد الشيوعيين على الجيش رغم أنه ضرب ألد خصومهم و هم أتباع الجمعية الإسلامية و المشايخ ؟.

قال الدكتور جوزيف : يا مهران بك هؤلاء أخذوا معلوماتهم عن الشيوعية من كتب الشيوعية ، أنت و نحن عندنا معلومات عن القمع و الستار الحديدي و مقابر سيبيريا و الملايين الذين أبيدوا في معتقلات الدول الشيوعية و هذه المعلومات نحن متأكدون منها ، هؤلاء الشباب لا يصدقون ما يذيعه الإعلام الغربي و ما يعرفه الهاربون من الدول الشيوعية و يظنون أنه مجرد دعاية حربية ضد الإشتراكية ، هؤلاء الشباب يصدقون ما يصل إليهم من الدعاية الإعلامية الشيوعية ، هذه الدعاية تصف لهم عالما مثاليا من العدالة الإجتماعية ، هم يظنون أن الأحزاب الشيوعية تختار قياداتها بالتصويت الحر و حسب الكفاءة و أن القانون يطبق في الدول الشيوعية على "نيكيتا خروتشوف" و على "ماو تسي تونغ" و على "تيتو" و على "أنور خوجة" كما يطبق على أصغر عامل زراعي في التعاونيات الزراعية الشيوعية ، و لذلك يعتقدون أن حكومتنا رغم الإصلاحات على الملكية الصناعية و الزراعية ليست قريبة أبدا من الشيوعية التي يؤمنون بها ، هم يريدون أن تحل المشاكل مع خصوم الدولة عن طريق القانون و المحاكمات المثالية و يرون أن تدخل الجيش في هذه الخصومة مخالف للقانون و للمثالية التي يؤمنون بها!.

أدهشني كلام الدكتور جوزيف و لكنه كان كلاما مهما و مفيدا جدا للإفادة منه في المرحلة القادمة لتنفيس الضغط الذي سببه القضاء على المشايخ الشباب في الثورة البسطامية ، و هذا ما ألهم مخيلتي الكثير من الأفكار ، بعد فترة صمت و تفكير قصيرة سألت سالم : هل تعتقد أنهم مستعدون لإستعمال العنف ضد الجيش ؟.

قال سالم : نعم دون شك هم يغلون من الغيظ على الدولة و يتمنون أن يضربوها بأية وسيلة ، أنت تعرف أنا موجود بينهم بسبب خبرتي العسكرية ، هم يؤمنون جدا بما يسمونه "العنف الثوري" و لا تنسى أن قصص "تشي جيفارا" اليوم هي حديثهم المفضل.

شكرت الرجلين و أبقيت سالم قريبا من مكتي ليومين آخرين ، و بعد لقائي معهما اتصلت بجيمس بالهاتف و أخبرته بما دار من حديث فوجدته على علم بصورة الوضع المحتقن عموما عندنا ، اهتم الرجل كثيرا بهذا الكلام و طلب مني أن أنتظر التعليمات خلال ساعات ، و في مساء ذلك اليوم اتصل بي ليخبرني أنه قادم على وجه السرعة فليده ما يهمني.

في مساء اليوم التالي حطت طائرة البارون في المطار الشمالي في البلاد و كنت هناك للقاءه ، قدم لي خلال اللقاء خطة عمل كبيرة ، كانت خطة معقدة و بسيطة و سريعة و ذات مدى بعيد في نفس الوقت ، ثم غادر جيمس في نفس اليوم إلى جارتنا اللدود لعمل هام يتعلق بالخطة ذاتها.

في صباح اليوم التالي استدعيت سالم و سلمته مهمة عاجلة عليه أن ينفذها خلال يومين فقط ، طبعاً تسلم فارشنا ميزانية و أجرا مقدما على مهمته الخطرة جدا.

في الضحى استدعيت أيضا العقيد لويس و سلمته رسالة مكتوبة فيها تفاصيل المهمة القادمة ، و كانت أيضا تتضمن إحالته إلى التقاعد ، لم يمانع لويس بكلامه و إن كان متضايقا جدا ، سألني عن السبب فقلت له : تستطيع سؤال البارون عندما تلتقي به في أوروبا.

كنت أعرف السبب و لكنني لم أكن لأخبره به أبدا ، و لقد مات لويس بعدها بعقدين و لم أخبره بالسبب و لم يفعل البارون ذلك أيضا.

كان جيمس قبل أن يلتقي بي قد رتب كل شيء مع قادة الحزب الشيوعي في بلدنا و كلهم مقيمون في أوروبا و هم من أعطى الضوء الأخضر لسالم لبدء التنفيذ.

في مساء ذلك اليوم اجتمع سالم بشباب من مجموعتين مسلحتين من الشيوعيين ، و أعطاهم تفاصيل خطة مثيرة لإغتيال رئيس المخابرات العقيد لويس و عضو مجلس قيادة الثورة العقيد منير و المقدم فضيل الذي حكم بالإعدام على الشباب المتدينين في محاكماته الشهيرة ، الخطة كانت قتل الرجلين في الطريق الواصل بين هيئة الأركان و بين مبنى إدارة المخابرات العامة.

في نفس الوقت كانت تعليمات بالإستعداد لحملة مدهمات كبيرة قد أعطيت لمنظمي من القبضيات ، حددنا أهداف الحملة بدقة و كانت مائة و عشرين هدفا و رابط جميع العناصر في قواعد العمل بانتظار إشارة البدء.

بالمناسبة أقول لقد كان بديع مرعوبا جدا من سلسلة الإعدامات التي أصدرها فضيل و منير و وقع عليها هو و عبد الصبور و كان يخشى من عواقبها عليه لاحقا ، كنا نحاول تهدئة مخاوفه عبثا ، ذلك أن التقارير كانت ترد إلى الرئاسة بتوتر الوضع و ارتفاع حدة النقمة على النظام بعد أن انكشفت لعبة زيادة الرواتب و ارتفعت الأسعار في البلاد إلى قريب من الضعف لكل السلع باستثناء السلع التي دعمها مرسوم الزيادة فلقد بقيت أسعارها على حالها و لم تزد و لكنها أيضا لم تنقص بسبب الدعم كما هو مفروض.

بالعودة إلى سالم فلقد كمنت مجموعته الشيعيتان المقاتلتان في شاحنتين متوقفتين على الطريق الواصل بين مبنى الأركان و مبنى المخبرات في وقت الضحى ، في ذلك الوقت كان لويس يغادر البلاد إلى أوروبا مع أسرته في طائرة خاصة من شمال البلاد ، إلا رئيس المخبرات كان قد أتم مهمته الأخيرة قبل سفره مباشرة و أرسل إشارة استدعاء للعقيد منير و للمقدم فضيل للحضور إلى مبنى إدارة المخبرات في وقت الظهر لأمر خطير جدا ، كان بديع أيضا قد اتصل بالرجلين و أمرهما بالإجتماع بلويس حسب الموعد لنفس الأمر الهام جدا.

انطلق الرجلان من مبنى الأركان بسيارة واحدة بترتيب من العميد عبد الصبور - الذي كان يشارك بديع مخاوفه من عواقب الإعدامات - لدى وصولهما إلى منتصف الطريق تحركت شاحنة سالم الأولى لتصطدم بسيارة الضابطين و تسحقها تقريبا ، ثم قفز المقاتلون منها ليوجهوا سلاحهم إلى سيارة المرافقة المسلحة و أردوا جميع الحرس قتلى .

المجموعة الثانية هجمت على سيارة الضابطين و أجهزت على من فيها ، ثم أخرجوا جثتي الضابطين و أحرقوا السيارة حسب تعليمات سالم ليغطوا على عملية الهروب.

وضع سالم جثث الضباط في الشاحنة الثانية و انطلق بها فورا مع رجاله الثوار إلى المنطقة الثائرة سابقا ، و بعد ساعات وصلوا إلى هناك ، كان الوقت عصرا و الناس في زحمة سوق العصر ، وقفت شاحنة سالم هناك مع رجاله و كان الجميع بلباس عسكري ثم أنزلوا من الشاحنة منصبا من الخشب تتدلى منه جثتا العقيد منير و المقدم فضيل معلقتان من عنقيهما ، اجتمع الناس و هم يظنون أن الجثث لبعض أبناء مدينتهم من السجناء ، ثم لاحظوا الثياب العسكرية التي على الجثتين و الرتب التي عليها ، هتف سالم بمكبّر صوت معه : هذان الكلبان هما العقيد المجرم منير و المقدم السفاح فضيل اللذان شنقا الشباب و نكلا بالشعب ، الجيش منكم و إليكم و ليس لهؤلاء ، و ما عجز عنه المشايخ و الوجهاء لم يعجز عنه شباب الثورة الإشتراكية ، عاشت الحرية عاشت الحرية.

بعد لحظات من الدهول استيقظت الجموع و هجموا على الجثتين ، و ربط الناس جثتي الرجلين ثم سحلوها في شوارع تلك المدينة و صار هرج و مرج و ما يشبه الفوضى العارمة في السوق و تمزقت جثتا الضابطين إلى قطع صغيرة و لم يبق منها أثر بسبب آلاف آلاف الأقدام التي داستهما و نفست بذلك أحقاد ستة أشهر من الرعب و التوتر ، انسحب سالم هاربا مع رجاله و تفرقوا كلا في وجهته بعد أن ألقوا سلاحهم و بدلوا ثيابهم في الشاحنة.

في الليل نزلت المدرعات إلى شوارع تلك المدينة الشمالية الفرحة بثأرها و أعلن حظر التجول و لم يتعرض الجيش لأحد بأذى حسب التعليمات الصارمة من رئيس الدولة.

في صباح اليوم التالي كانت الإذاعة و الجرائد الرسمية تعلن عن مؤامرة شيوعية قذرة للإستيلاء على السلطة اغتيال بسببها كل من عضو مجلس قيادة الثورة العقيد منير (ذو الميول الشيوعية!) و المقدم فضيل و العقيد لويس رئيس المخابرات.

صور سحل الضباط تناقلتها وسائل الإعلام و معها صور سيارة لويس المحروقة ، و أيضا نشرت صور الشباب الشيوعيين العشرة الذين شاركوا في العملية البطولية و قد قبض عليهم جميعا بينما كانوا في طريقهم إلى مدينتهم العاصمة بعد عودتهم من الشمال! طبعاً لم يكن سالم بينهم.

هدأت عاصفة الغضب على إعدامات ثورة بسطام بمشاهد سحل العقيد منير و المقدم فضيل ، و تغيرت لهجة الإعلام المرئي و المسموع إلى الحرب على الشيوعيين ، و لقد عمل رجال منظمي على نشر إشاعات عن أن الإعدامات التي حصلت كانت بتدبير من العقيد منير و بمؤامرة منه مع حزبه الشيوعي ، و بعد أسبوع من الحادثة نشرت عدة مجلات في بلدان عربية مجاورة تحقيقات عن الماضي الشيوعي للعقيد منير و المقدم فضيل و أنهما تعاملتا بعنف مفرط مع الجمعية الإسلامية بدافع أفكارهما الشيوعية ، و أن السحر انقلب عليهما فكان مقتلهما بيد رفاقهما السابقين في الأحزاب الشيوعية ، بذلك تحول الرأي العام كله إلى السخط على الشيوعيين و لكنه لم يعد أيضا يتعاطف مع المشايخ و الجمعيات الإسلامية ، لقد كان هدر دم منير و فضيل سببا لتشكيل صورة عن بديع تشبه صورة ذلك الأب العنيد المحافظ التقليدي الذي يريد الخير لأبنائه و يقسو عليهم عندما يخطئون.

بالعودة إلى مخبراتنا فإنه و بعد الحادثة بيوم واحد قام رجال المخابرات بالمداهمات المائة و العشرين التي خططنا لها و اعتقلت كل المجموعة المسلحة الشيوعية التي يقودها سالم ، باستثناء سالم طبعاً.

أعلن عن المداهمات على صفحات الجرائد و في التلفزيون ، و على غير العادة كان في البيان شرح عن كيفية الإيقاع بالشباب الذين قتلوا منير و فضيل ، جاء في البيان أن مخبرات الجيش كانت تطارد الشاحنة التي أقتلهم و راقبت ما حدث و لم تتدخل إلا للقبض عليهم بعد فرارهم من ساحة المدينة الثائرة سابقا ، و أعلن البيان أن هؤلاء الشباب اعترفوا على بقية الشباب الثلاثمائة من أفراد تنظيمهم العسكري.

نقل جميع سجناء عملية "غيفارا" (كما أسماها سالم) إلى السجن الحربي حيث تم استقبالهم على طريقة استقبال زملائهم أبطال الثورة البسطامية ، و تم توزيعهم على زنانات خاصة بهم بعيداً عن زنانات المتدينين.

وجود الشيوعيين في السجن أضاف خياراً جديداً لعقاب السجناء المشايخين ، فكان السجن المتدين المشايخ يحجز لفترة في عنابر الشيوعيين ، و السجن الشيوعي المزيج كان يحجز عند المتدينين لفترة كافية لكسر عناده.

هكذا انتهت المهمة الأولى و هي تأمين البلاد من أية ثورة محتملة و لمدة عقود طويلة قادمة ، و عين المقدم هرثمة (من أتباع الديانة السرية) مساعدا لرئيس المخابرات العامة ، و ذهب منصب رئيس المخابرات للعقيد صويلح ، و جرى ضم العقيد زيد (من ديانة تشبه ديانة هرثمة) إلى مجلس قيادة الثورة .

المهام الاقتصادية الخمسة أنجزت كلها أثناء انشغال البلاد بالثورة البسطامية و ما تلاها ، و لقد مر عام هذه الثورة دون أن تظهر التغييرات الاقتصادية إلى حيز يشعر به الناس ، خلال هذا العام تأسست مؤسسات حكومية عدة و تم توظيف الألوف فيها ، هذه المؤسسات هي : مؤسسة الحبوب الوطنية ، مؤسسة الثروة الحيوانية ، مؤسسة الأعلاف الوطنية ، مؤسسة الأسمدة و البذور الوطنية ، مؤسسة الآلات الزراعية ، مؤسسة القطن و الغزل و النسيج ، مؤسسة التعدين و الصناعات المعدنية ، مؤسسة السيارات الوطنية ، مؤسسة التجارة الخارجية الوطنية ، المصرف التجاري الوطني ، المصرف الزراعي الوطني ، المصرف الصناعي الوطني ، المصرف العقاري الوطني ، المؤسسة العامة للأدوية و المواد الطبية و التجميلية ، المؤسسة الوطنية للمواد و الصناعات الغذائية ، المؤسسة العامة للصناعة الحربية ، المؤسسة الوطنية للكهرباء ، المؤسسة الوطنية لصناعة و تسويق السكر ، المؤسسة العامة لصناعة الخمر ، المؤسسة العامة للهاتف و البريد و البرق ، المؤسسة العامة للنقل البري ، المؤسسة العامة للطرق و المؤسسة العامة للمياه و الصرف الصحي !.

طبعاً تم أيضاً استملاك (تأميم) شركتنا الشركة الوطنية للبناء و التعمير ، تحول إسمها إلى المؤسسة العامة للإنشاءات ، و بقيت وحدها مملوكة بنسبة تسعة أعشار للحكومة و عشر واحد للمساهمين الأصليين ، أي أنا و والدي و أخوالي ، و من أجل هذا العشر بقيت إدارة الشركة في أيدينا ، هذا الإجراء كانت له فوائد كثيرة لنا جنيناها لاحقاً.

هذه المؤسسات كلها مجرد قنوات يتم عبرها أغلبها تصدير الحاصلات الزراعية من البلاد إلى أوربة ، و عبرها يتم إستيراد ما يسد رمق إحتياجات البلاد من المواد المصنعة الأدنى تصنيفاً أي أقل المنتجات الأوروبية جودة ؛ لأنها رخيصة و قليلة الكلفة ، بعض المصنعات المستوردة كان يعاد تعليبها في البلاد و تباع على أنها من منتجات هذه المؤسسات و البعض الآخر كان يباع دون تعليب أصلاً حتى لا يعرف مصدرها و لا تصنيف جودتها.

هذه المواد كانت مصدراً للربح الوفير لأن استيرادها بقي حكرًا على مؤسسات الحكومة.

كان الشعب صبوراً بالفعل على هذه الإجراءات لأن انتباهه كان مشدوداً إلى بصيص أمل بعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الإنقلابات ، هذا الأمل كانت ثورة بسطام قد بعثته في نفوس الناس لفترة ، ثم ما لبث أن انطفأ تماماً بعد إخمادها بهذه الطريقة المريعة و حل محله يأس عام من التغيير عند الجميع و فضل الغالبية الإستسلام للأمر الواقع الذي يرسمه نظام بديع و التأقلم معه.

دخلت البلاد بعد ظهور هذه المؤسسات عصر "شد الأحزمة" ، فميزانية البلاد صارت شبيهة بميزانية تاجر أغرقته الديون أو ميزانية خان مات صاحبه و تولت أموره الأرملة الحزينة ؛ فاتورة المستوردات صارت كبيرة لأن ميزانية الجيش تضاعفت إلى عشرة أضعافها و تضاعف عدد الموظفين في البلاد إلى عشرة أضعاف عددهم بسبب استملاك المصانع و تأسيس هذه المؤسسات و أفرعها التابعة لها في سائر أقاليم البلاد و هي بالعشرات ، و كل هذا من أموال الميزانية الوطنية ، كان المصرف الوطني كلما فرغت خزينته من النقود المحلية يصدر سندات مديونية و يسك على أساسها عملة جديدة ، و لكن الواقع أن كمية العملة الجديدة التي كانت تطبع لم يكن لها رصيد من عملات أوروبية أو ذهب ، كان رصيدها هو سندات المديونية على الخزينة ، هذه السندات لم يكن أحد يشتريها ليصبح ديانا للحكومة ، هذا ما جعل كميات العملة تزيد في الواقع عن قيمة المنتجات الموجودة في الأسواق ، و بدأت الأسعار ترتفع من جديد ، و لتغطية هذا التضخم الرهيب في العملة أصدرت حكومة بديع قرارا بمنع شراء العملة الأجنبية من المصرف الوطني ، هذا القرار حمى العملة بشكل مؤقت من الهبوط "إسميا" أمام العملات الأخرى لكنها في الواقع كانت تفقد من قيمتها و قوتها الشرائية مقدارا جديدا مع غياب شمس كل يوم.

بدأ أيضا عصر جديد هو عصر "طواير الخبز" ، فالمؤسسة العامة للحبوب و المطاحن لم تعد تؤمن الطحين للبلاد كالسابق و السبب هو أن الخنطة قد زاد تصديرها إلى أوربة لصالح سداد القرض الذي استلمته الحكومة من البنك الدولي ، و بالتالي قلت نسبة القمح المخصص للإستهلاك الوطني إلى ثلثي النسبة السابقة ، و فرضت الدولة على الأفران تسعيرة ثابتة للخبز أرخص بكثير من التسعيرة القديمة حتى قبل استلام بديع للحكم.

كان يباع الطحين للمخابز بسعر رخيص جدا ليتناسب مع تسعيرة الخبز و لكن كان كل مخبز يستلم يوميا حصة معينة من الطحين كانت تنفذ في الساعات الثلاث الأولى من الصباح و هي أقل من احتياجات الزبائن .

بسبب هذا الإجراء أصبح الخبز في كل البلاد قليلا و يجب على الذي يريد أن يشتري خبزا أن يقف في الطابور على باب المخبز في ساعات الصباح الباكر ، فإن تأخر فالغالب أنه لن يحصل على ما يحتاجه من خبز ، و حين يصير الوقت قبل الظهر بقليل كانت الأفران تغلق أبوابها تماما و لا فرصة في شراء رغيف واحد في كافة المدن حتى صباح اليوم التالي !.

أما بقية الاحتياجات فلقد صارت أيضا محتكرة لهذه المؤسسات ، فالغاز و خطوط الكهرباء الجديدة و جميع المواصلات العامة و خطوط الإتصالات و البريد و كل ما يحتاجه المواطنون صار يتبع لهذه المؤسسات الحديثة الولادة العديمة الخبرة و التي يديرها في معظمها ضباط عسكريون يأتمرون بأوامر فريقنا من المستشارين الأوربيين.

أكبر المشاكل كانت في ضبط و تنظيم عمل هذه المؤسسات على المستويات الدنيا ، و السبب هو أن عمالها و موظفيها كانت غالبيتهم الساحقة من الشباب الذين لا خبرة لهم و لا أهلية تعليم ، فالمدارس و الجامعات لم تكن قد خرجت في خلال الأعوام السبعة الأولى من حكم بديع إلا ما يناسب حجم احتياجات البلاد قبل ثورته العتيدة و تغييراتها الواسعة المفاجئة.

فمثلا كان توصيل الطحين إلى المخبز عملا مضطربا جدا ففي كل يوم كانت تحدث تغييرات مفاجئة على جداول التسليم و في كل يوم تحصل أزمة فقدان الخبز في أحد الأحياء بسبب هذه التغييرات التي قد يسببها غياب بعض عمال التحميل أو السائقين أو تعطل بعض الشاحنات أو حتى حوادث مرورية ، و أيضا كان تسليم القمح من أنابير التخزين إلى المطاحن يتم باضطراب و فوضى تسببت كثيرا في تعطيل المطاحن و حرمان مدن بكاملها من الخبز لأيام ربما ، و كان هذا يتكرر باستمرار.

ما شجع على هذه الفوضى و الإهمال من جانب العمال هو أنهم تحرروا من رهبة رب العمل ، و إذا ما أضفنا إلى ذلك أن أكثرهم من الجهلة و لم يتعلموا أبدا معنى الحق و الواجب ؛ نجد أن الفوضى و الإهمال ستكون الميزة الأساسية لعمل كل المؤسسات الوطنية الحديثة ، و الذي زاد الطين بلة كان قوانين حقوق العمال التي صاحبت استملاك المصانع و المزارع الكبرى و إنشاء المؤسسات الوطنية ، فلقد صار طرد العامل من الوظيفة أمرا يشبه المستحيل ، و صار أقصى ما يمكن أن يوقعه المدراء على مرؤوسيهام هو الخصم و العقوبات الإدارية كالنقل و تغيير المهمة.

هذه الفوضى انعكست على كل شيء ، الخدمات تردت بشكل كبير ، الإحتياجات الأساسية صارت هموما رهيبة تثقل العامة ، حتى التجار أصبحوا يعانون كثيرا اهتزازات الأسعار و اضطرابات تدفق البضاعة إلى الأسواق.

أما المدارس فلقد صارت أشبه ما يكون بسجون و إصلاحيات للأحداث ، الأطقم الإدارية التي تولت إدارة المدارس بدلا من المشايخ كان معظمها من غير المسلمين ، أو من الشيوعيين أو الملحدين و لقد أطلقت يد هؤلاء المدرسين في معاقبة الطلبة و حتى في معاقبة أولياء الطلبة الذين يعترضون على المناهج الرديئة أو على القسوة المفرطة ، فما على المدير الغاضب من أحد أولياء الطلبة إلا أن يتصل بمديرية التعليم في منطقته ليبلغ عن إنزعاجه من أحد أولياء الطلبة ، بعدها بقليل سيدهم منزل هذا الولي من قبل عناصر "حماية أمن الدولة" و سيعتقل و يضرب ضربا مروعا ينسيه إسمه شهرا و ينسيه تماما و للأبد فكرة الاعتراض على أي شيء يقابله في حياته.

بسبب قانون مجانية التعليم اكتظت المدارس بالطلبة فصارت غرفة الدراسة التي تتسع عادة لعشرين طالبا تُحشى بخمسين أو ستين طالبا ، و اختفت وجبات الطعام التي كانت المدارس تقدمها للطلبة أيام الرعاية الوقفية ، و فوق ذلك صارت تكاليف القرطاسية و احتياجات الطلبة من لباس و غيره كلها على حساب الأهالي ، و ما زاد الأعباء على الأهالي كان اللباس الموحد

الذي يجب أن يوفر للطلبة ، و جدير بالذكر أن هذا اللباس كان يشبه كثيرا لباس الخدم في الأديرة و المقاهي الكبيرة في أوربة !.

الإحتياجات الدراسية من قرطاسية و لباس كانت كلها مستوردة و تباع بأسعار عالية جدا و مع ذلك فهي رديئة فعلا و لا تفي بما يتوخاه المشتري لأنها من نخالة الأسواق الأوربية.

لقد تحولت المدارس إلى ما يشبه معسكرات السخرة ، فالطلبة صاروا يحملون في حقائبهم يوميا أوزانا كبيرة من الكتب و الكراسات الدراسية في ذهابهم إلى المدارس و إياهم منها ، و طالت ساعات الدوام كثيرا ، و أصبحت المدارس لشدة الإكتظاظ تستقبل الطلاب على دوامين الأول صباحي من الساعة السادسة و النصف صباحا إلى الثانية عشرة ظهرا ، و من الثانية عشر ظهرا إلى الخامسة و النصف مساء.

الدراسة كلها صارت نظرية و خاصة في المرحلتين الإبتدائية و المتوسطة و اختفت التجارب العلمية و الدراسة العملية من مناهج التعليم تماما ، كان التركيز كثيفا على تدريس اللغة العربية و خاصة التراث الجاهلي و الأدبي الحديث الذي أنتجته عقول العرب من غير المسلمين ، أما التاريخ فلقد تغيرت كل مادته ليتحول إلى تمجيد العرب و تحقير بقية الشعوب الإسلامية التي خضعت للإسلام ، و صار القاريء لهذه الكتب يظن أن العرب أمة من "الرجال الخارقين" و أن ما حصل لهم من هزائم و إحتلالات أمام الأوربيين كان فقط بسبب سوء الحظ و بسبب خيانة الشعوب الإسلامية التي خذلت العرب و تأمرت عليهم مع الأوربيين!.

أضيف للمناهج علم جديد اسمه "علم السلوك الوطني" يتضمن تعليم الطلبة كيفية الخضوع للنظام و الوشاية بمن يخالفه و تمجيد العرب و العروبة و اعتبارهم مصدر الحضارة لكل البشر و الحكم بخيانة و عداوة كل من ينتقد العرب و لو بكلمة واحدة .

الصدمة هائلة جدا تلك التي سيتعرض لها هؤلاء الطلبة إن قدّر لهم مغادرة البلاد إلى بلاد أوربية و ما سيرونه من التقدم العلمي و التفوق الحضاري مقارنة بما عاشوه في بلادهم من التخلف و الفقر و الفوضى التي بدأت تتنامى و تستفحل في كل مكان من وطنهم العربي العزيز .

أما القطاع الصحي فلقد صار الأسوأ من بين جميع هذه القطاعات ، المشافي كلها صارت تابعة للحكومة و احتياجات هذه المشافي كلها تأتي من مؤسسة الأدوية ، هذه المؤسسة كانت المخولة وحدها بإستيراد احتياجات البلاد الطبية و كانت هذه الإحتياجات تشتري من المزادات الأوربية من بين أرخص و أقل البضاعة جودة و لم تكن الواردات تدرس بحسب

الإحتياجات ، فمرة تكون واردات المشفى من الخيوط أكثر بكثير من الإحتياجات بينما تنقطع عن المشفى إبر خياطة الجروح أو المعقمات ، و العكس بالعكس ، و هكذا بالنسبة لكل الإحتياجات.

أما العاملون الشباب من غير الأطباء في القطاع الصحي فكانوا قد درّبوا على عجل و وظفوا دون إختبارات و لذلك كانوا من أسوأ أجيال العاملين في هذه المهنة ، و صارت القذارة و الروائح النتنة علامة مميزة للمشافي بعد أن تولت مهمة خدماتها النسائية كالتبخ و التنظيف خادّات من العجريات الأمّيات تماما أو من الفلّاحات المستوطنات حديثا في المدن المنجذبات بإغراءات الوظيفة السهلة و الرواتب.

الأطباء صاورا نادرين و خاصة ذوو الخبرات و التخصصات العالية ، إذ لم تجرّ الحكومة على إجبارهم على التعاقد مع المشافي الحكومية خشية فرارهم إلى الخارج ، و لهذا اكتظت العيادات الخاصة بالمرضى ، و لجأ بعض الأطباء الأثرياء إلى فتح غرف صغيرة للعمليات في مستوصفاتهم الصغيرة بدل التحول إلى المشافي الحكومية.

خلال هذه الفترة كانت صناعة السينما الوطنية قد أنتجت عددا لا بأس به من الأفلام الفكاهية و البوليسية و الدرامية المليئة بالمشاهد العارية و مقاطع الرقص و تعاطي الخمر و الحشيش و القمار ، و قدمت طبعا هذه المشاهد على أنها جزء عادي لا يتجزأ من حياة مجتمعنا ، و ما أكثر الأفلام التي كانت تتحدث عن بطولات الراقصات و المغنين و الطبالين و تضحياتهم الكبرى في سبيل إسعاد الناس و الترويح عنهم ، و راحت هذه الأفلام تقدم تلك الرقصات و أولئك المغنين على أنهم كالأنبياء الذين عاندهم الجهلة من قومهم ثم انتصروا بصبرهم و صدقهم و تقدموا لريادة قومهم و قيادة مجتمعاتهم و صاروا فيها قدوة ، و صار أولئك الذين كانوا يهينونهم و يحتقرونهم بالأمس يتمنون اليوم أن يصافحوا أحدا منهم أو يظهروا مع أحد منهم في صورة أو مجمع عام !.

قدمت تلك الأفلام للشباب خيارا آخر للثروة و هو الإنضمام إلى طبقة "الفنانين المشهورين" لأن من يصبح واحدا منها سيقفز إلى الغنى و الثراء و المكانة الإجتماعية الراقية التي كان الأرستقراطيون و المشايخ هم أصحابها في الماضي القريب ، و صارت أكثر مجالس الشباب لا حديث فيها إلا عن البحث عن فرصة لأحدهم ليستثمر ما وهبته إياه طبيعته من القدرات الفنية ، كالغناء و العزف و الرقص و الشعر و التمثيل و كتابة المسرحيات إلخ.

في نهاية العام السابع من حكم الزعيم بديع كانت الكليات العسكرية قد خرّجت أكثر من عشرين ألفا من الضباط و صف الضباط الذين درّبوا على عجل ، تسعون بالمائة من هؤلاء كانوا من أبناء الريف و من أتباع الديانات السرية و من الأقليات من غير المسلمين.

كانت إمتحانات قبول طلبة هذه الكليات العسكرية تتم بإشراف لجنة يرأسها المقدم هرثمة ، و كان أعضاء هذه اللجنة كلهم تقريبا من غير المسلمين أهل المدن ، فإذا تقدم طالب مسلم من أبناء المدن إلى امتحانات القبول كان يدخل إلى الإختبار وحده ، ثم كانت تطلب منه طلبات عجيبة كأن يقبل يد حارس الغرفة أو أن يلحق حذاء المقدم هرثمة أو أن يشتم أم نفسه أو أن يصف الطالب للضباط مؤخرة شقيقته ، و أحيانا كان بعض الضباط أثناء الفحص الطبي يدخل عمدا أصبعه في مؤخرة الطالب أو يحسس على مقعده ، فإن رفض الطالب و غضب طرد من اللجنة و قيل له : هذا اختبار لطاعة المرؤوس لرؤسائه و أنت فشلت فيه !! فإن واجه الطالب هذه الإهانة بعنف كان يعتقل و يودع سجن الشرطة العسكرية التابع للكلية حيث يناله ما لم يتخيله من العذاب و الإهانات و أنواع الإذلال التي تصل حد اغتصابه و لعدة أسابيع ، ثم يطلق سراحه بعدها إلى المشفى محطماً.

أما امتحانات القبول في الكليات العسكرية فلم يكن يصح أن يطلق عليها صفة امتحان إن كانت لطلاب مسلمين من الريف أو لغير مسلمين سواء أكانوا من الريف أم من المدن ، و كان يتم قبول هؤلاء الطلبة و لو كانوا غير مؤهلين صحيا بمجرد أن يقرأ ضباط اللجنة أسماء هؤلاء الطلبة و أسماء قراهم ، باستثناء المعاقين طبعاً.

في نفس الفترة كان معظم الضباط الكبار و الأعوان من مسلمي المدن قد أحيلوا على التقاعد من الخدمة العسكرية و من جهاز الشرطة و تولى هؤلاء الخريجون الجدد مهماتهم بدلا منهم ، رواتب التقاعد العسكرية كانت ضئيلة و مضحكة و اضطرت معظم الضباط المحالين على التقاعد إلى العمل كموظفين صغار أو أصحاب حوانيت صغيرة أو حتى باعة متجولين ليتمكنوا من إعالة أسرهم.

في بداية العام الثامن من ثورة بديع كانت الأمور قد استتببت لفريقنا بشكل كامل و لم يعد باستطاعة أحد زعزعة سيطرتنا على كل مفاصل السلطة و مراكز القوة في البلاد ، و شعرت من خلال التقارير المخبراتية الواردة من مختلف أنحاء البلاد و من التقارير المقدمة من فريق المستشارين الأوروبيين أن البلد مقبلة على عصر يصح أن نسميه بعصر "أمة الصعاليك" فهذه التقارير باتت خالية تقريبا من أدنى إشارة لشخصية إجتماعية أو إقتصادية أو علمية أو دينية أو عسكرية أو حتى عشائرية يمكن أن تعتبر قيادة تسعى لمصلحة أتباعها أو تعمل لتحسين أوضاعهم ، لقد زحف الجميع إلى أولئك الصعاليك الفُتاك الذين عيناهم في مراكز السلطة طالبين منهم مصالح فردية تماما ، و صار شعار الجميع : للبيت رب يحميه .! طبعاً فالناس على دين ملوكهم.

لقد بدأ عصر : "الصعاليك الفُتاك" ، و هم نوع من الصعاليك أقول بتعريفه : هم أفراد مطرودون من عشائريهم و قبائلهم و ليس لهم ولاء لوطن و لا لدين و لا لقبلية و لا لأسرة و لا لشرف أو مروءة ، ولاء الصعلوك الفاتك لبطنه و فرجه ، فهذا الإنسان يعيش على القتل و السلب و السرقة من جهد غيره دوماً و لا يبذل جهداً مقابل ما يحصل عليه من طعام و شراب

و فرج سوى طعنة غدر يوجهها لضحيته قبل أن يفترسها ، طبعاً لا يقيم هذا الصعلوك وزناً لدين أو عاطفة عندما يفترس ضحيته فرماً وجدته يغتصب أنثى جميلة و يتلذذ بها ثم يقتلها و هي تستعطفه بعد أن يقضي حاجته منها حتى و لو كانت طفلة بريئة ، و لا يبالي هذا الصعلوك بالطريقة التي يصل بها إلى احتياجاته فهو مجرد وحش آدمي يكره كل أحد بداية من إلهه و انتهاء بأقرانه الصعاليك ، و لا ينفع مع هذا الصعلوك شيء من المعروف و الإحسان فهو كالقط المتوحش إن جاع افترس صغاره ، و لعل أسوأ ما في هؤلاء المخلوقات أن الصعلوك الفاتك منهم يبقى صعلوكاً فاتكاً حتى لو أدت به غزواته إلى أن يصير ملكاً أو إمبراطوراً! بمعنى أنه ليس ممكناً في العادة تحويل صعلوك فاتك إلى شخص يحمل حسن المسؤولية تجاه ما حوله من الموجودات.

أجزم من خلال خبرتي الطويلة في التعامل مع ظاهرة الصعاليك الفتاك أن السادة و الأكابر و حتى العلماء بعلوم الأخلاق أو العلوم العالية يمكن أن يصبحوا من هؤلاء الصعاليك إن دفعتهم ظروفهم إلى الصعلكة و لا يمكن بعدها إعادتهم إلى حالتهم الأولى لأن اعتياد الإنسان فقدان الحسن بالمسؤولية يتحول إلى إدمان أفزع بكثير من إدمان أكثر الخمر لذة و نشوة.

لقد كانت حالة الصعلكة في بدايتها في تلك المرحلة و لعل استكمال تطبيق الجزء الثاني من المهمة الرابعة العسكرية و المهمة الخامسة الاقتصادية كان سبباً في تصعيد حالة الصعلكة العامة في كل البلاد طولها و عرضها ، عمودياً و أفقياً ، لقد أنجزنا في ختام استكمال تنفيذ هاتين المهمتين الصورة الأولية التامة للبلاد لقرن كامل قادم ، هذه الصورة كانت أولية تتسع مساحتها لآلاف التفاصيل الإضافية التي ستتولد بطريقة شبه تلقائية في أذهان المخططين ، و ستظهر تطورات عفوية في أذهان العامة و المراقبين حتى الواعين منهم ، هذه الصورة التامة التي أنجزت تشبه صورة طفل في أعوامه المبكرة ، ستتطور و سيضيف إليها الزمن تفاصيل كثيرة ، لكن هذه التفاصيل لن تمحو الملامح العامة الأولى لصور هذا الطفل ، بحيث يسهل لى الناظر للصورتين نسبتها لبعضهما دون كبير عناء ، لقد صارت الصعلكة هي هذه الصورة التي طبعت البلاد كلها حتى صارت ميزة عامة للبلاد بأسرها و لأمد غير محدود ، و لنرى كيف حصل هذا :

كان حظر استيراد البضائع و جعله حكراً على مؤسسات الحكومة قد جعل المال بين أيدي الأثرياء غير ذي قيمة فهم لا يستطيعون بأموالهم أن يشتروا إلا المتوفر من الرفاهية في الأسواق و هو قليل جداً ، فقائمة المستوردات المسموحة التي توفرها الدولة لا تشمل أكثر من تسعة أعشار وسائل الرفاهية التي يتمتع بها فقراء أوربة و متوسطوا الدخل في بعض الدول العربية المجاورة التي يحكمها الأوروبيون بشكل مكشوف ، العطور الفاخرة ، التبغ الفاخر ، الأقمشة الفاخرة ، الخمر الفاخرة ، أدوات التجميل ، كافة أنواع الأطعمة المصنعة كأطعمة الأطفال و الزبد و الكافيار و الأسماك البحرية الجيدة و الحلوى الأوربية كالشوكولا و البسكويت ، سيارات الركاب ، الأحذية الفاخرة ، الأدوات الكهربائية كالمسجلات و أجهزة الراديو و

التلفزيون و المراوح الكهربائية ، أدوات المطبخ الكهربائية و الغسالات الآلية و غيرها من المصنوعات كل هذه المواد و ملحقاتها كانت على قائمة المستوردات المحظورة.

أما متوسطوا الدّخل فلقد كانوا يعانون بسبب شحّ ما يحتاجونه من الأغذية المستوردة المصنعة و شحّ ما يحتاجونه من مستوردات صناعية تلزمهم في حرفهم و مصانعهم الصّغيرة و مزارعهم ، أما احتياجات الرفاهية فلم تكن تعنيهم كثيرا لأنهم لم يعرفوا معظمها أصلا.

على المقلب الثاني كانت إدارة الجمارك العامة قد تأسست و تحولت إلى جهاز كبير يعمل في المنافذ الحدودية لكل البلاد ، و لقد أضيفت إلى قوات الجمارك قوات حماية الحدود التابعة للجيش ، فصارت هذه الإدارة جسما ضخما مسلحا كل أفرادها من أبناء الأرياف ، و لقد تولى أمر هذه الإدارة صديقنا مقدم المخابرات ريمون ، و بقيادته أنجزت هذه الإدارة بإبداع مهمة إقفال الحدود بوجه البضائع المستوردة أو المهربة و بنسبة زادت على الثمانين بالمائة من مجمل المهمات الموكلة إليها.

في بداية العام الثامن من حكم العقيد بديع توجهت إلى أوربة بصحبة عائلتي و والدي و الدقي و عدد من أخوالي و أبنائهم ، و في منزلي السويسري الفخم أمضينا عطلة شتوية عائلية جميلة حافلة بالمتع و الحفلات ، في نهاية العطلة توجهت إلى جنيف للقاء البارون جيمس و البروفسور أوسكار في قصر البارون و كانا يومين حافلين بالعمل الجاد.

بدأنا اجتماعنا الأول باستعراض ما أنجزناه من المهمات السبع التي كنت قد استلمتها سابقا ، و تلى علينا البارون تقريرا مختصرا عن الحالة العامة للبلاد ، بعد الغداء بدأ البروفسور باستعراض المهمة التالية قائلا :

لنتخيل معا قرية أهلها جميعهم محافظون و طيبون و يعتبرون السرقة جريمة كبرى يلحق بمرتكبها عار كبير ، و حكم هذه القرية لورد جشع ، هذا اللورد أمر أهل هذه القرية بجمع محاصيلهم كلها في مخازنه ثم أوصد في وجههم أبواب هذه المخازن و لم يعطهم إلا القليل حتى جاعوا ، ثم إن هذا اللورد رفض كل استعطافاتهم لمنحهم ما يحتاجونه و لكنه ترك مخازنه بلا حراسة في ساعات معينة من الليل ، فإذا استثنينا فكرة الثورة و النهب بسبب الخوف من رجال اللورد الأشرار ، هل تستطيعون تخيل ما سيفعله أهل القرية ؟.

قلت : سيسرقون من مخازنه سرا و كل على حدة خوفا من أن يشي بعضهم ببعض ، و لكنهم في نهاية الأمر سيقومون جميعا بسرقة احتياجاتهم من المخازن.

قال البروفسور : ثم ماذا سيحصل بعد مدة من استمرار هذه الوضع ؟.

قلت : سيعتادون على السرقة طبعاً.

قال البروفسور : و ماذا عن عار السارق ؟.

قلت : الجوع سيمحو هذا العار .

قال البروفسور : فإن بقي من يرفض السرقة من أهل القرية فما الذي سيحل به ؟.

قلت : سيموت جوعا ؟

قال البروفسور : ليس في البداية ، في البداية سينظر إليه أهل القرية في البداية على أنه قديس يرفض التنازل عن إيمانه من أجل احتياجاته ، ثم سينظرون إليه بعد مدة على أنه غبي لأنه سيتسول منهم احتياجاته ، ثم سينظرون إليه كما كانوا ينظرون إلى اللص إن حاول أن يعظهم و يخوفهم من جريمة السرقة ، أليس كذلك ؟.

قلت بتعجب : تماما .

قال البروفسور : لو أن أهل هذه القرية بعد هذا الفترة تخلصوا من اللورد فهل تراهم سيعودون إلى اعتبار السرقة عارا و شنارا و جرما لا يغتفر ؟.

قلت : لا أظن .

قال البروفسور : لا ، بكل تأكيد لن يعودوا للنظر إلى السرقة على أنها جريمة ، و قس على السرقة الرشوة ، فلو أننا بدل أن نقول : أن اللورد ترك المخزن وقتنا بلا حراسة ، قلنا : أن قائد حراس اللورد كان يسمح لهم بسرقة ما يشاؤون مقابل رشوة يأخذها منهم فإن الرشوة و السرقة ستصبحان خارج قائم محظورات أهل هذه القرية أليس كذلك ؟؟.

قلت : نعم بالتأكيد .

قال البروفسور : فإن كان رئيس الحرس قد اشترط عليهم أن يمارس الجنس هو و رجاله مع نسائهم كجزء من الرشوة سنجد أن السرقة و الرشوة و الزنا قد صاروا خارج قائمة المحظورات أليس كذلك ؟.

قلت : نعم نعم و لكن ما الفائدة ؟.

قال : عندما يصبح الجميع مجرمون لن يجتمعوا أبدا من أجل الدفاع عن حقوقهم لأن المجرمين ليست لهم حقوق و لا يعرفون أصلا معنى الحق و الواجب و حتى إن ثاروا على حراس اللورد و قتلوهم فإنهم سيعاملون بعضهم بعد انتصارهم على من اضطهدوهم كما كان اللورد و حراسه المرتشون الزناة يعاملونهم ، و لن يجد اللورد صعوبة في استعبادهم مرة أخرى بحراس يجندهم من بينهم مقابل المال ، و هكذا سيبقى اللورد متحكما بهم إلى الأبد ، لأن الحق في مفهوم هؤلاء هو كل ما يمكن

الحصول عليه من المنافع و بأية وسيلة و الواجب هو ما يجب فعله للحصول على المال ، فعل أي شيء من أجل أي مال من أي كان !.

قلت : ما هو المطلوب الآن ؟.

قال البروفسور : سنصل إلى نموذج هذه القرية بالتدريج ؛ المهمة التالية ستكون منوطة بالمخابرات و بالجمارك في وقت واحد و لذلك طلبت تعيين ريمون مديرا للجمارك الوطنية ، سيجتمع ريمون بكافة شيوخ عشائر البدو و رؤساء القرى القاطنين على الحدود مع الدولتين العربيتين المجاورتين لكم المتحالفين معنا علنا ، و في الاجتماعات سيعرض عليهم السماح لهم بتهريب المواد التي يحتاجها السوق عندكم .

قلت : و ما الفائدة من الإغلاق إذًا .

قال البروفسور : سيدفع هؤلاء المهربون ضريبة على هيئة رشوة لريمون عن البضائع التي سيدخلونها إلى البلاد ، هذه الضريبة سيتقاضاها رجال ريمون على المنافذ الحدودية و سيحصلون على عشر هذه الضريبة ، البقية ستصل إلى ريمون الذي سيحصل على عشرينها مع ضباطه ، و سنعطي العشر لبديع و وزرائه ، و البقية ستحول إلى حساباتنا في أوربة .

قلت : العملة الوطنية هي التي سيشتري بها المهربون البضاعة ؟.

قال البروفسور : نعم .

قلت : هذا سيخفض من كمية العملة الوطنية و يزيد من عجز الميزانية !.

قال البروفسور : و هذا سيجلب لنا مزيدا من الأرباح لأننا سنقرض مصرفكم المركزي باستمرار أموالا للحفاظ على قيمة العملة و لطبع عملة جديدة لسد عجز الميزانية.

قلت : و ما الذي سيفعله بعملتنا تجار الدول التي سيشتري المهربون منها ؟.

قال البروفسور : سيبيعونها لمصرفهم الوطني بسعرها المناسب ، و سيشتري مصرفهم الوطني بعملتكم سندات دين من مصرفكم الوطني و سيتقاضى مصرفهم من مصرفكم و ميزانيتكم فوائد سنوية على هذه الديون.

عدت من أوربة و بجمعتي مهمات جديدة متعددة سأحدث عنها لاحقا ، الأولوية كانت لمهمة إنشاء منظومات التهريب ؛ بعد وصولي بأسبوع واحد بدأت إجتماعات المقدم ريمون مدير الجمارك مع شيوخ عشائر القرى و المناطق الحدودية.

استدعيناهم إلى العاصمة و نظمنا جدول مواعيد لقاءاتهم التي استغرقت أسبوعا قابلنا خلاله أكثر من مائتي رجل من هؤلاء ، و لقد استعلّمنا خلال لقاءاتنا معهم عن معارفهم و أقاربهم و علاقاتهم على الطرف الثاني من الحدود التي تجاورهم ، ثم قسّمناهم إلى مجموعات كل واحدة منها تعمل عبر خط نقل محدد و لساعات محددة و بضائع محددة و حسب تصنيفات محددة أيضا ، و بالطبع أعطيناهم خططا للتفاهم و الإتصال مع ضباط الجمارك بحيث يتظاهر المهربون و حراس الحدود أن تنسيقا و اتفاقا بينهم لم يحصل ، و أكثر من هذا أقرضناهم رؤوس أموال ضخمة ليشتروا بها البضائع و سيارات النقل من الدول المجاورة على أن يردوا لنا هذه القروض لاحقا ، و انتهت جميع اللقاءات بنجاح كبير فلقد كان شيوخ العشائر متعطشون إلى أموال و أعمال لأبناء مناطقهم و عشائرتهم التي عانت كثيرا بسبب الحرب و ما تلاها من أزمات .

على الطرف الثاني من الحدود كنا قد اتفقنا مع رشيد باشا صديقنا القديم في الدولة العربية المجاورة غربا و مع واصف باشا في الدولة المجاورة جنوبا على كل شيء ، بالإضافة إلى مجموعتين كبيرتين من منظمتي استعدادنا للعمل و لاستقبال "المهربين" الجدد و تزويدهم بالمطلوب .

في البداية حددنا أربعين نقطة على حدود البلدين لتنتقل منها عمليات التهريب ، و كان العمل يتم بالطريقة التالية :

أولا يتم تجميع و تخزين البضائع المراد تهريبها لداخل بلادنا في مخازن تابعة لرجال منظمتي في البلدين المجاورين .

ثانيا يعبر المهربون من بلادنا إلى البلدين المجاورين في بداية الليل و بعد قليل يصلون إلى مخازن منظمتي و يشحنون سياراتهم بالبضاعة و يدفعون ثمنها .

ثالثا يعود المهربون إلى بلادنا بالبضاعة قبل الصباح بنحو ساعة ، و يخزنون بضاعتهم في مخازن قراهم .

رابعا في اليوم التالي يصل المشترون من المدن ليأخذوا البضائع من المهربين و ينقلوها إلى داخل المدن .

خلال هذه العملية يدفع المهربون و زبائنهم الرشاوى مرتين ؛ الأولى عندما يعودون ببضاعتهم من الدول المجاورة و هذه الرشاوى تُدفع لجماركنا و لجمارك الدول المجاورة ، و المرة الثانية تدفع الرشاوى لدوريات الجمارك التي تدرع الطرق بين القرى و المناطق الحدودية و بين المدن التي ستنتقل إليها البضائع المهربة حيث المشترون الحقيقيون .

الزبائن الذين كانوا يشترون البضاعة من المهربين كانوا تجار المدن ، هؤلاء اجتمعت بهم مع العقيد صويلح في إدارة حماية أمن الدولة ، استدعينا أكثرهم ثراء لمكتب صويلح و أعطيناهم الضمانات اللازمة لحمايتهم و حماية قوافلهم و تأمين وصولها إلى داخل البلاد و عدم التعرض لهم أثناء بيعها ، و لقد وافقوا أيضا بسرور على الفكرة فهي ستجلب لهم ملايين كثيرة .

في الشهر الأول احتاج الأمر إلى كلمة سر للتعارف بين المهريين التابعين لنا و الجمارك ، و لكن بعد هذا الشهر لم يعد ضبط الجمارك يبالون بالتعارف لأنهم صاروا كالمسعودين تماما يتمنون لو يتحول شعبنا كله إلى مهريين يدفعون لهم الرشاوى ، و لقد بلغ سعارهم حدا كبيرا إلى درجة أن أشهرها كاملة لم يسجل خلالها ضبطا واحدا بحق أي مهرب كان سواء أكان من جماعتنا أو كان شخصا عاديا .

كانت البضاعة تصل إلى بلادنا بضعف سعرها في البلاد المجاورة و مع ذلك كانت تباع كلها بمجرد وصولها لأنها كانت مرغوبة من الناس بجنون ، و معلوم أن كل ممنوع مرغوب .

كان تهريب البضائع يشمل كل شيء تقريبا بداية من الرمل و الحصى و إسمنت البناء و انتهاء بالتلفزيونات و الأدوية و الآلات الصناعية الصغيرة و قطع التبديل للآليات و السيارات مرورا بالخمور و العطور و الثياب و الأحذية و حتى المشروبات الغازية و البوظة و السجاد و الخبز و ماء الشرب المعبأ بقوارير و الفاكهة الصفراء و الشاي و السكر و الخشب و المواد الكيميائية و الأسلاك الكهربائية و مصابيح الإنارة كانت تهرب إلى بلادنا من أسواق البلدين المجاورين .

أصدر الزعيم بديع في ذلك العام قانونا ينص على منع إخراج العملة الوطنية إلى خارج البلاد و هذا يجرم كل المهريين ، و قانونا آخر بمنع إدخال أية بضاعة إلى البلاد دون رخصة استيراد رسمية و هذا أيضا يجرمهم ، و قانونا ثالثا يمنع مزاوله "الصرافة" إلا عبر المصرف الوطني و هذا القانون يجرم المهريين و تجار المدن الذين كانوا يدفعون للمهريين أثمان بضائعهم أحيانا بالعملة الأوروبية ، و رتبت هذه القوانين عقوبات و غرامات على المخالفين تصل إلى السجن لعشر سنوات .

القانون الرابع من هذه الحزمة البديعية كان يمنع مصادرة البضائع المهربة إلى البلاد من داخل المدن و المناطق المأهولة ، ذريعة هذا القانون أن مصادرة البضاعة من الأهالي في داخل المدن تعسف كبير فهم غير مسؤولين عن إدخال البضاعة إلى البلاد ، سيكون عبئا لا يُحتمل على الأجهزة المخولة ملاحقة المخالفات .

في الإتجاه المعاكس كان المهريون ينقلون إلى الدول المجاورة نصف محاصيل بلادنا تقريبا من بداية غلات الحبوب و الفاكهة الجففة و انتهاء بالحيوانات الحية كالجواميس و الغنم و الدجاج و الألبان و الأجبان و الصوف و الجلود المدبوعة و الآثار المنبوشة من الأرض ، و كانت هذه البضائع تُشتري من المزارعين في بلادنا بأسعار هي أقل من نصف أسعارها في البلدان المجاورة و بعملتنا الوطنية ، كان المهريون يدفعون ثمن المحاصيل من عائدات مبيعات مهرباتهم للتجار ، المحاصيل كانت تصل إلى مخازننا في البلدين المجاورين و تشحن من هناك إلى أوربة لصالح شركتنا التي أسسناها لتحكّر شراء صادراتنا الوطنية إلى أوربة .

أرباح هذه المنظومة كانت هائلة جدا ، فلقد كانت تؤمن لأسواقنا أكثر من نصف البضائع التي تباع فيها و بأسعار احتكارية و أرباحها أكثر من ضعف رأسمال المهربات ، و كانت هذه المنظومة أيضا تؤمن بيع نصف صادرات بلادنا تقريبا على شكل مهربات لدول الجوار و بنصف قيمتها الحقيقية ثم تُباع هذه المحاصيل بسعرها العالمي ، و هذا كان الهدف الرئيسي من هذه المنظومة ، لقد كانت تعمل تماما كالمضخة التي تجمع المال من البلاد ثمنا لمهربات مصنعة قليلة الجودة ثم تضخه إلى أوربة محاصيل رخيصة جدا ، لم تكن طبعاً كل الأموال تصل إلى أوربة ذلك أن أعضاء هذه المنظومة كانوا يستهلكون نصفها حصصاً لهم ، النصف الثاني كانت تحصده شركتنا الأوربية و يتحول لحساباتنا و حسابات شركائنا ، ليضخ في إقتصاد أوربة و يزيد من رفاهية شعوبها.

المهربون الكبار تحولوا في فترة لم تزد على عامين إلى ما يشبه الأباطرة الباذخين المترعين على قناطر تمر من تحتها القوانين ، و شهدت مناطق الحدود نهضة عمران لم يسبق لها مثيل أبداً بعد أن كانت مناطق فقيرة و مهملة و تعاني التخلف ، و أصبح سكان تلك المناطق متعجرفين و متكبرين على غيرهم و لم يعودوا يبالون بنظام و لا قانون ، أيضا انتشرت الأسلحة و المواخير في مناطقهم برعاية العقيد صويلح.

عمل صويلح دوماً على خلق الصراعات بين عشائر المهربين و كانت هذه الصراعات تتحول إلى حروب صغيرة بينهم لا يوقفها إلا تدخل الجيش ، هذا التدخل طبعاً يتم بعد أن يتطاحن الخصوم و ينهكهم القتال و يستهلك منهم الكثير من الدم و المال ، و مع ذلك لم ينظم ضبط شرطة واحد بحق أي من هؤلاء المتحاربين.

هذه الصراعات كانت ضرورية جداً لمنع المهربين من التوحد ضدنا ، لم يكن صويلح يتعب كثيراً في إشعال هذه الصراعات فما عليه مثلاً إلا أن ينصب عناصره كميناً لسيارة تهريب لإحدى العشائر أثناء مرورها في أرض عشيرة أخرى فيقتلون ركاب السيارة و يسرقون بضاعتها و يهربون ، النتيجة ستكون قتلاً بين العشيرتين ، و ستبادلاً التهم ببداية العدوان.

بعد عامين توسعت جداً منظومة التهريب و صارت تضم كل تجار البلاد تقريباً و كل أصحاب سيارات النقل و حتى أصحاب الحافلات و الصيادلة و العطارون و الأطباء و المشعوذون صاروا أعضاء فيها ، لأن نصف بضاعة الأسواق كانت مهربة ، حتى الراقصات و العجريات شاركن في هذه المنظومة من خلال إحيائهن لحفلات المجون للأثرياء الجدد من المهربين و صبيانهم المنتشين بكثرة النقود في أيديهم.

لقد أحبط صويلح عمل الشرطة و مخافها تماماً في تلك المناطق لدرجة أن المخافر لم تكن تجرؤ على استقبال أية شكوى أو بلاغ بأية جريمة و لو كانت مجزرة ضحاياها بالعشرات ، كان هذا ضرورياً لضمان ولاء عشائر هذه المناطق لمنظومتنا.

بعد عامين بدأت أيضا آثار مضخة المنظومة تظهر على البلاد في انخفاض سعر العملة و تفشي الفقر بين أصحاب الرواتب و الوظائف و الحرف الصغيرة نظرا لارتفاع أسعار البضائع كثيرا مقارنة بأسواق الدول المجاورة.

بدأت تقارير المخابرات تتحدث مجددا عن تدمير واسع جدا من الوضع الإقتصادي و الأمني للبلاد ، فالمهريون الذين نالوا حصانة بسبب التهريب لم يتوانوا في استعمال هذه الحصانة في داخل المدن و المناطق الكبيرة ، فإذا عرفنا أن معظم سكان المناطق الحدودية و "شيوخ التهريب" كانوا من البدو أو من القبائل العربية المستوطنة على أطراف الأرياف و كانوا ينظرون باحتقار و تعالٍ إلى جيرانهم و زبائنهم من الفلاحين و أبناء المدن و يعتبرونهم أشخاصا مخنثين ضائعة أصولهم فاقدون للرجولة سنفهم دوافع هؤلاء البدو للإعتداء على الفلاحين و أهل المدن بعنف لأجل أتفه خلاف ، و بسبب البجوحة التي آلوا إليها راح الكثيرون من أثرياء المهريين يشترون بيوتا و حوانيت في المدن الكبيرة ، أكثر هذه البيوت كانت في أطراف المدن و ضواحيها الملاصقة و تحولت هذه المناطق بسبب هؤلاء و أولادهم إلى مناطق خارجة عن القانون تقريبا ، لدرجة أن أهل المدن أنفسهم باتوا يخافون من المرور في تلك المناطق و الأحياء النائية ، و لم تكن الشرطة في تلك المناطق أكثر فاعلية منها في المناطق الحدودية هذا إن وجدت أصلا ، كان العنف هو السائد في أماكن تواجد "شيوخ التهريب" و صارت الأحياء التي سكنوها تشبه كثيرا في الترتيبي الأمني أحوال مدن العرب أيام سيطرة العياق و الشطار و الأوباش و الزعرة على طرقها.

هذه الحالة المزرية فعلا دفعت بالشباب مرة أخرى إلى التحلق حول رجال الدين و المشايخ و المثقفين التقليديين و لأن المشايخ لم يعودوا آمنين بدرجة تسمح لهم بالتدخل المباشر في النقد السياسي اتجه معظمهم إلى مواجهة أضرار الترتيبي العام على الأخلاق و القيم و تمسك الناس بإيمانهم ، و صار التصوف و الزهد هو الموضوع الرئيسي لسائر دروس علماء الدين و الواعظين ، و لقد نجح هذا التوجه كثيرا جدا في جذب أعداد هائلة من الشباب الباحثين عن أجوبة لخيرتهم من تغيير الأحوال حولهم.

و لقد توجه عدد من المشايخ الشباب العزاب بتوجيهات من كبار علماء الدين في البلد إلى مناطق البدو و قطنوا فيها و راحوا يدعون أهلها إلى الزهد و التقوى و محبة الله و الصالحين و أكثروا من حلقات الذكر و الموالد و تجنبوا جميعا التطرق إلى المواضيع السياسية.

على المقلب الآخر نشطت جماعات من الشباب المثقفين المتأثرين بالفلسفة الغربية و الماركسية لخلق موجة من النقد المنطقي لآثار سياسات الحكومة و السخرية منها دون التعرض لسياسات الحكومة نفسها ، هذه الموجة اجتاحت الأحياء الغنية و أحياء أبناء الطبقة الوسطى القريبة من أحياء الأغنياء.

الناظر في تقارير المخابرات يشعر وكأن اتفاقا عاما عُقد بين جميع أطراف المشهد الشعبي على عدم التصادم مع بعضهم و على التعامل بسلبية تامة مع الحكومة و دعايتها ، و صارت النكات كلها تقريبا تسخر من الحكومة و من الغلاء و من أجهزة الأمن الجديدة و تزايد أعداد أفرادها من أهل الريف و تزايد الفوضى الأمنية رغم ذلك.

التقيت بالبارون جيمس على رأس العام الثامن لحكم الزعيم بديع في قصر والدي على الساحل ، كان الرجل متحمسا جدا في هذ اللقاء و ذلك كان يحمل ملفين كبيرين ناقشناهما خلال اللقاء بشكل مطول ، الملف الأول كان عنوانه "التجنيد الإجباري" و الملف الثاني عن "الحشخاش و أحلام اليقظة" سأحدث لاحقا عن ملف "الحشخاش و أحلام اليقظة" لأن تنفيذه كان سيبدأ مع بداية تنفيذ ملف "التجنيد الإجباري" و لكن لم يكن ممكنا تنفيذ كل أجزائه الكبيرة إلا بعد استكمال تنفيذ خطط التجنيد الإجباري.

كلا الملفين كانا جزءا من خطة عملنا الطويلة الأمد ، و لكنهما جاءا أيضا في تلك الفترة لتبديد المخاوف من احتمالات هبة شعبية عفوية تؤدي بكل ما أنجز خلال عقد و نصف تقريبا من العمل الدؤوب.

التجنيد الإجباري كان نظاما متبعًا في البلاد منذ أن استقلت عن الإنتداب الأوربي ، لكن هذا النظام لم يكن يشمل إلا النادر من الشباب ، و ببساطة كان الذي لا يرغب في الإلتحاق بالجيش لفترة تجنيد إجباري يدفع مبلغا صغيرا من المال للدولة بدلا عن الإلتحاق بالجيش ، كانت مهمتنا التالية هي إلغاء نظام "دفع بدل الخدمة العسكرية" و رفع مدة التجنيد الإجباري في الجيش إلى عامين أو أكثر.

طبعًا لم تكن البلاد بحاجة لجيش كبير لأننا رسميًا كنا في حالة سلام مع جميع جيراننا ، فإذا نحن بحاجة إلى حرب أو صراع عسكري من نوع ما مع إحدى الدول المجاورة لنا لنبرر به الحاجة لجيش ضخم.

مدينة الحرية كانت قريبة من إقليم عربي كبير تابع أصلا لبلادنا سيطرت عليه دولة غير عربية مجاورة لنا ، هذه الدولة التي انطلقت منها الحرب على بلادنا بسبب استملاك الشركات الأجنبية ، في مدينة الحرية و في أريافها كانت تقطن جالية كبيرة من أهل ذلك الإقليم نزحت إلى دولتنا إبان عهد الإنتداب الأوربي و رسم الحدود ، هذه الجالية كانت كبيرة و رفضت سلطات الإنتداب منحهم صفة مواطنين في دولتنا عند نزوحهم ، و بعد الإستقلال تناست الحكومات المتعاقبة معالجة مشكلة هوية هؤلاء الناس و بقوا بصفة نازحين إلا أنهم يتمتعون بنفس حقوق أهل البلد ، فلقد كانوا يدفعون الضرائب كغيرهم و يعانون من نفس الأزمات ، الفارق أنهم فقط لم يكونوا يحملون بطاقة الهوية الشخصية التي يحملها غيرهم من أهل البلاد.

كان الملف يضم مشروعا لإنشاء "منظمة التحرير العربية" بقيادة السيد سهل أحد أصدقاء البارون جيمس ، هذه المنظمة ستتشكل من جناحين الأول سياسي و مقره عاصمة بلادنا ، و الثاني عسكري و مقراته في محيط و أرياف مدينة الحرية ، و سيبدأ عمله على شكل هجمات حرب عصابات ضد قوات جارتنا اللدود في داخل إقليمنا "المحتل" .

تأسس هذه المنظمة كان بحاجة أيضا إلى ذريعة مباشرة ، و كانت الخطة جاهزة تماما و قد تم إعداد كل شيء لها بالتنسيق مع مخبرات جارتنا اللدود و مع البارون جيمس طبعا.

بعد لقائي بجيمس بنحو شهر واحد بدأت الشرطة العسكرية حملة في محيط و أرياف مدينة الحرية و كانت تهدف إلى سوق شباب النازحين من إقليمنا المحتل إلى معسكرات تدريب خاصة يشرف عليها ضباط من جيشنا متخصصون في التدريب على حرب المدن و حرب العصابات ، كان الشاب من هؤلاء المجندين يخضع لدورة عسكرية للتدريب على أنواع المهارات القتالية الأولية كاستعمال السلاح الفردي و القفز من فوق الحواجز و الجري في المناطق الوعرة و البقاء على قيد الحياة في ظروف شاقة و استعمال المتفجرات و الألغام البسيطة و القنصات العادية و غيرها من المهارات العسكرية ، و خلال هذه الدورة كان هؤلاء الشباب يستمعون إلى محاضرات عن إقليمهم المحتل و عن مؤامرة عالمية إستعمارية كبيرة كانت السبب في فصل هذا الإقليم عن بلادنا و ضمه لجارتنا اللدود و عن معاناة أهل الإقليم بسبب اضطهاد المحتلين لهم ، هذه المحاضرات كانت عاطفية و حماسية جدا و تناسب الشبان الذين يحضرونها ، لم تكن تزيد أعمارهم عن العشرين عاما معظمهم من الأميين أو من ذوي التعليم الابتدائي.

في نفس الفترة بدأ التلفزيون يعرض الكثير من البرامج عن هذا الإقليم ، و الجرائد و المجلات راحت تتحدث عن تاريخ احتلال هذه الإقليم و معاناة النازحين من أهله و معاناة سكانه تحت حكم جارتنا اللدود.

لم تثر هذه الحملة الإعلامية ردات فعل كبيرة عند العامة لولا حادث كبير وقع في ذلك الإقليم : فلقد قامت مجموعة صغيرة من شباب ذلك الإقليم بقتل ضابط و مرافقين له من جيش جارتنا اللدود ، و على إثر ذلك حاصرت قوة من جيش جيراننا قرية صغيرة في ذلك الإقليم وقع فيها حادث القتل ، ثم اعتقلت هذه القوة من شباب القرية بضعة عشرات و أثناء عملية المداهمة حصلت صدامات فقتل من شباب القرية و أهلها نحو خمسين شخصا.

ثارت ثائرة الإعلام العربي كله للحادث و منه إعلام بلادنا الذي كان يستعد للحدث أصلا ، و سارت في مدينة الحرية مسيرات نظمته الحكومة ضمت عمالا و طلابا تحتج على احتلال إقليمنا و تطالب بإعادته إلى حضن الوطن و كانت الشعارات في المسيرات ثأرية و نارية ، و بعض المسيرات كانت ليلية و حمل الشباب فيها المشاعل على طريقة استعراضات شببية النازيين أيام حكمهم لألمانيا.

في نفس الأسبوع ظهر الزعيم بديع في حشد من العسكريين و الضباط في المسرح الوطني في مدينة الحرية و ألقى خطابا ناريا ملخصه أن الكيل قد طفح من ممارسات جارتنا اللدود و أن تحرير إقليمنا واجب وطني لا يعلو فوقه واجب و أن كل مقدرات البلاد يجب أن تسخر لأداء هذا الواجب ، و بعد الخطاب قدم عريف الحفل رجلا يلبس ثيابا عسكرية بغير رتب ليتحدث إلى الجمع بما فيهم الزعيم.

كان هذا الرجل هو السيد سهل ، و كان خطابه قريبا من خطاب الزعيم بديع و لكنه تضمن إعلانا عن تشكيل "منظمة التحرير العربية" بجناحيها ، بعد الخطاب خرج السيد سهل و الزعيم بديع إلى شرفة المسرح و من هناك قدم الزعيم بديع للسيد سهل بندقية ليطلق منها السيد سهل رصاصة إلى جهة إقليمنا المحتل إيذانا بانطلاق الكفاح المسلح لتحرير أرض العرب المحتلة و سط هتافات الجماهير بالموت للإحتلال و الإستعمار.

بعد هذا الحفل المهيب بشهر واحد بدأت الإشتباكات على الحدود بيننا و بين جارتنا اللدود كان أبطال هذه الإشتباكات أولئك الشبان من النازحين الذين جندهم جيشنا في منظمة السيد سهل ، و لقد قتل منهم الكثيرون حتى قبل أن يعبروا الحدود إلى إقليمهم بسبب سذاجتهم و بساطة تدريبهم ، و بدأت جنازاتهم و نعواتهم تملأ جنبات أحياء النازحين.

راح إعلامنا يذيع البيانات العسكرية اليومية عن العمليات العسكرية التي يقوم بها شبان المنظمة ، بينما راح إعلام جارتنا اللدود يتوعد بلادنا بالويل و الشور و عظم الأمور.

لقد صارت الأجواء مناسبة و أصدر الزعيم بديع قرار إلغاء بدل الخدمة العسكرية ضمن قانون معقد وضع والذي تصميمه ، هذا القانون ينظم التجنيد الإجباري ، قبل أن يصدر القانون بأسابيع كانت مديرية التجنيد الإجباري قد فتحت مكاتب لها في كل المناطق و صار عمل سعاة البريد الأساسي هو توصيل الإستدعاءات لخدمة العلم إلى بيوت الشباب الذين جاوزوا الثامنة عشر .

المجندون للخدمة العسكرية كانوا من جميع الفئات الشبائية ما بين سن الثامنة عشر إلى سن الخامسة و العشرين و هؤلاء كانوا يشكلون أكثر من ربع سكان البلاد ، ذلك أن أهل بلادنا كثيروا الإنجاب و يفاخرون بكثرة الأبناء و لهذا السبب احتشد أكثر مليون من الشباب أمام فروع مديرية التجنيد في سائر أنحاء البلاد بعد أشهر قليلة من صدور قانون التجنيد الإجباري ، لم تكن المدارس العسكرية تملك كوادر تدريب هؤلاء ، و أيضا لم تكن مديرية الدعم و الإمداد في أركان الجيش قادرة على توفير مساكن و طعام هؤلاء الشبان ، لهذا السبب تمت جدولة إلحاقهم على مدى عامين متوالين بحيث تلتحق الدفعة الأخيرة من هؤلاء بالمعسكرات بعد تسريح الدفعة الأولى من الخدمة العسكرية.

الطلبة الجامعيون و طلاب الثانوية العامة كانوا مستثنين من الخدمة العسكرية و كذلك من لم يكن لديهم من أحد والديهم إخوة ذكور (وحيد) و طبعا المعاقون و المرضى .. إلخ.

قُسّم المجندون إلى قسمين : الأول كان من المجندين غير ذوي المؤهلات العلمية و هؤلاء كانوا يلحقون بدورات سريعة في معسكرات مؤقتة نصبت في المناطق المقفرة الملاصقة للأراضي الزراعية ، و لم تكن تدريباتهم تدوم سوى ستة أسابيع يتعرضون خلالها لإهانات و إذلال فظيع بحجة تعويدهم على تحمل المشقات ، و ذلك على يد مدربيهم من الرقباء و صف الضباط خريجي مدرسة العقيد هرثمة ، هؤلاء المدربون معظمهم من أتباع الديانة السرية التي يدين بها أستاذهم هرثمة.

لم يكن هؤلاء المجندون يتعلمون عن القتال شيئا ذا بال سوى تعلم طاعة الأوامر و نظام المشي العسكري و بعض مهارات الرماية البسيطة على البندقية الآلية ، المخطوظون منهم كانوا يتدربون على قيادة السيارة و شاحنات النقل العسكري و بعض مهارات الإسعاف الأولي.

القسم الثاني كان من الخريجين الجامعيين و حملة الشهادات الدراسية المتوسطة و الثانوية ، هؤلاء كانوا يُلحقون بالفرع الجديد من مدرسة العقيد هرثمة لتخريج ضباط الصف ، دورتهم التدريبية كانت لمدة ثلاثة أشهر فقط ، و كانوا أيضا لا يتدربون إلا على مهارات عسكرية لا تزيد عن مهارات الجنود العاديين في أي جيش ، المخطوظون منهم كانوا يتدربون على قيادة الدبابات و المدرعات و الزوارق البحرية الصغيرة جدا.

عند التحاق المجندين بدوراتهم كانوا يعطون أرقاما عسكرية و بطاقات مجندين بعد أن تصدر بطاقات هوياتهم المدنية ، ثم يرسل كل واحد منهم إلى القطعة العسكرية التي عُينت له يوم التحاقه بالخدمة.

ليس أسوأ ما في الأمر أن هؤلاء الجنود لم تكن لهم رواتب مطلقا ، و أنهم كانوا يعطون مبالغ بسيطة شهريا بدل التنقل و السجائر و الشاي و القهوة فلقد كانت معسكرات المجندين بدائية جدا و غير معدة لشيء و لا يوجد فيها سوى الخيام ، فلا حمامات و لا مراحيض ، كانت هذه المعسكرات تزود بالماء بواسطة صهاريج متنقلة تملأ دوريا ، و كثيرا ما كانت المياه تتأخر و لقد تسبب هذا في أمراض جلدية كثيرة بين المجندين كالجرب و القمل و الفطريات ، و أما الطعام فلقد كان مكونا من الخبز و جريش الحنطة و بعض الخضار المسلوقة و العدس و الحمص ، و كان الطعام يلقي للمجندين كما يلقي الطعام للبهائم ، فلقد كانت توضع حلّة كبيرة مليئة بالطعام في وسط المعسكر ، ثم يحمل الجنود أكوابهم و قصعاتهم المعدنية و يهجمون على الحلّة و هم يقتتلون على سكب حصصهم كالكلاب الجائعة تماما ، و من كان من هؤلاء الجنود وقورا فسيكون نصيبه من الطعام لا شيء ببساطة لأن الفترة لم تكن تزيد عن العشر دقائق ما بين وضع الحلة و ما بين رفعها فارغة تماما!.

كثيرون من المجندين ماتوا بأمراض ناتجة عن القذارة و بعضات الأفاعي و لدغات العقارب المنتشرة في البراري بكثافة و بعضهم أكلته الضباع و الذئاب الجائعة ، و لم تحصل عائلات هؤلاء إلا على تعويضات لا تكفي لتكاليف جنازة و دفن و عزاء أبنائهم.

بعد صدور قانون التجنيد الإجباري و بدء تنفيذه حضر البارون جيمس إلى بلادنا و معه تنمة ملف التجنيد و كان بصحبته اثنان من التجار الكبار ، الأول كان يدعى سر كيس و الثاني ليونيد ، هذا الرجلان كانا من أكبر تجار الأسلحة في العالم و من أقدمهم في هذا المجال.

التقيت بالثلاثة في منزل جيمس القديم في الحي الروماني القديم من العاصمة ، و خلال اللقاء دارت أنخاب و حوارات كثيرة أقتطف منها : قال لي جيمس : الجيش الكبير يا ميجور مهرا ن يحتاج إلى سلاح و معدات ، و جيشكم لا توجد لديه معدات لأكثر من مائة ألف على الأكثر بينما تحتشد في سجلاته أسماء أكثر من مليون شخص سيلتحقون بالخدمة العسكرية دون إمكانيات لإستقبالهم.

قلت : المعدات و الإيواء و الطعام و الطبابة و التدريب كل هذه المستلزمات بالكاد تكفي الجيش الصغير حاليا.

قال البارون : جيش جارتكم اللدود يعد أربعة أضعاف جيشكم ، و لديهم أسلحة متنوعة و متطورة و كلها أسلحة أوربية و أمريكية ، بينما معدات جيشكم قديمة و مهترئة و متخلفة ، و أنتم بحاجة فعلا لتحديث قواتكم و تضخيمها.

قلت : يا سيدي البارون إن ميزانية البلاد بالكاد تكفي سداد رواتب الموظفين و بعض الإحتياجات الأساسية ، و ميزانية الجيش حاليا تزيد على ربع الموازنة العامة هذا عدا عن ميزانية أجهزة الأمن كالشرطة و المخابرات و أمن الدولة ، لا يوجد في الميزانية سعة لهذا .

قال البارون : و منذ متى نقلق بسبب العجز في الميزانية ؟ سنطبع أوراقا نقدية و نغطيها بسندات و قروض كالعادة .

قلت : عشر الميزانية الآن يذهب لسداد فوائد ديون القرض الأول الذي حصلت عليه الحكومة بعد حرب التأميم و أظن أن قروضا أخرى ستجعل نصف الميزانية لا يكفي لسداد فوائد القروض الجديدة .

قال البارون : سيأتي يوم قريب و سترى فيه جميع دول العالم تعاني ميزانياتها من القروض و سداد فوائدها ، دع عنك هذا القلق لن يأتي اليوم الذي تتوقف فيه حكومتكم عن دفع الرواتب لموظفيها ، المهم الآن أن تنشروا على الإعلام و بشكل كثيف جدا تقارير و مقالات عن ضعف الجيش الوطني و حاجته الملحة للتحديث و التسليح و أكثرها في هذه المقالات من المقارنات بين جيشكم و معداته و بين جيش جارتكم المعادية و لتكن بعدها مناقشات بين مختصين على صفحات الجرائد و

في حوارات تلفزيونية تنتهي كلها بالإتفاق بين هؤلاء على ضرورة توجه الزعيم بديع و حكومته إلى الدول الشيوعية لتأمين متطلبات البلاد العسكرية ، و أدخلوا في الحثيات خلال النقاشات أن تحديث الجيش ضرورة لـ "الأمن القومي" للبلاد العربية كلها.

قلت : ما الذي تريد أن تصل إليه ؟.

قال البارون من وراء دخان سيجاره : لقد أعددنا العدة لإصدار تصريحات كثيرة لمسؤولين أوروبيين عن توجه عام في أوربة و أمريكا لخطر بيع السلاح إلى الزعيم بديع و حكومته ، يا عزيزي لقد اتفقنا مع عدد من قادة الدول الشيوعية على تزويد جيشكم بأسلحة اشتريناها منهم بأسعار حديد الخردة و طلبنا تجديد دهانها و القيام بعمره كاملة لآلاتها ، هذه الأسلحة ستباع لجيشكم و لجيوش دول عربية أخرى بأسعار تعادل ثلثي أسعار الأسلحة الأوروبية الجديدة ، أي أنها أرخص بكثير من نظيرتها الأوروبية .

قلت متبسما : و حصتي ؟.

قال البارون : شركتنا الأوروبية هي التي عقدت الصفقة ، و تأكد يا ميجور مهران من أن رأسمال الصفقة ستتم تغطيته من أقساط أول عامين تسددهم حكومتكم ، و البقية من الأقساط لبقية الأعوام العشرة المحددة للسداد ستكون كلها أرباحا ، يا عزيزي هذه الأسلحة كان الشيوعيون قد بدؤوا بإتلافها لأنها من بقايا أسلحة الحرب العالمية الثانية.

تدخل السيد سركيس قائلا : طبعا الأسلحة ستسلم لحكومتكم على أنها مبيعات من الدول الشيوعية لكم و من خلال اتفاقيات رسمية ، لقد قبض الزعماء الشيوعيون حصتهم من الأرباح و أنا متأكد من أنهم سيسلمونكم الأسلحة في موعدها ، ليسوا بحاجة لأن يدفعوا لعمالهم أجورا زائدة لساعات العمل الإضافي اللازمة لتهيئة بضاعتكم.

قلت : لا أظن أنكم ستسلمون الجيش معدات مخربة.

قال السيد ليونيد بلغة عربية مكسرة : لا طبعا لقد أرسلنا لجنة من شركتنا لتفقد صلاحية كل مسدس أو دبابة أو صاروخ أو حتى قنبلة يدوية ، الأسلحة كلها تعمل و لكنها قديمة فقط.

ضحكنا جميعا من لهجة ليونيد الطريفة و من قصة لجنة التفقد هذه التي ستفحص ملايين قطع السلاح !.

بعد اللقاء بدأت الحملة الإعلامية ، و ظهر للمرة الأولى في إعلامنا مصطلح "الأمن القومي العربي" و راحت الجرائد و التقارير الإذاعية و بعض برامج التلفزيون تنقل الأخبار تباعا عن تصريحات المسؤولين الأوروبيين و الأمريكيين بخصوص منع

تزويد بلادنا بالسلاح ، بالطبع المحاورات الإعلامية عن ضرورة الحفاظ على الأمن القومي و بالتالي تحديث الجيش بسلاح الشيوعيين صارت أكثر و أوضح.

بعد الحملة وردت تقارير المخابرات عن شعور عام بأن البلاد على شفا السقوط أمام غزو مفاجئ من جارتنا اللدود و أن التوجه للشيوعيين من أجل السلاح هو الخيار الوحيد المتاح ، حتى المشايخ كانوا قد بدؤوا بكامل قناعتهم بإصدار فتاوى تجيز للحكومة التحالف مع الشيوعيين للضرورة و بعضهم شبه هذا التحالف بتحالفات للمسلمين مع أهل الكتاب أبان عصر النبوة ، هذه الحملة وحدث الرأي الشعبي كله على ضرورة الحفاظ على "الأمن القومي العربي".

سافر العقيد بديع إلى أكبر الدول الشيوعية في زيارة تاريخية ، و هناك وقع على عقود استلام الأسلحة من هذه الدولة ، و لقد نظم البارون و أصدقاؤه حملة كبيرة على الجرائد الغربية متزامنة مع الزيارة تصف العقيد بديع بالشيوعي الأخضر و بالعدو اللدود لأوربة و أمريكا.

بعد عودة العقيد من سفره الميمون بدأ الإعلام العربي و الأوربي و إعلامنا الوطني بالحديث عن صدق الزعيم و تقديمه لمصالح الأمن القومي للبلاد على كل مصلحة أخرى ، و نقل الإعلام تصريحات تاريخية للعقيد بديع عن استعداداته للسير مشيا على القدمين حول الأرض كلها من أجل حماية الأمة العربية و أمنها القومي !.

بدأ تسليم الأسلحة إلى هيئة الأركان بعد فترة وجيزة من توقيع العقود ، كانت العربات التي تقل المدافع و الدبابات تسير أرتالا من مرافئ البلاد إلى مستودعات الفرق و الألوية ، و لم ينته عام واحد حتى سلّمت كميات هائلة فعلا من السلاح و الذخيرة إلى فرق الجيش تكفي حاجة الجيش المتضخمة و زيادة.

المقدم "كمال" كان ضابطا ريفيا من منطقة وسط البلاد ، هذا الرجل تولى مهمة إظهار الأسلحة الجديدة على خرائط أركان الجيش ، كان الرجل يتسلم قوائم بمواصفات و كميات الأسلحة التي يتم تسليمها إلى كل قطعة عسكرية ثم يعيد رسم خارطة القطعة بحجمها و مدى قوتها وفقا لإمكانياتها التسليحية الجديدة ، و لقد أمضى هذا المقدم العام كله في العمل مع فريق من ضباط الأركان المتخصصين في هذا المجال.

بعد نهاية هذا العام المتعب طلب المقدم كمال أن يلتقي على انفراد بالعמיד عبدالصبور رئيس الأركان ، و بعد أن دخل الرجل إلى غرفة مكتب رئيس الأركان و تأكد من خلوها سوى من عبد الصبور قفز هذا المقدم على العמיד و أوسعه ضربا و لكما و هو يريد قتله ، و كان قد برك على صدر عبدالصبور و أمسك بربطة عنقه يحاول خنقه عندما دخل ضابط آخر من مرافقي عبدالصبور ، نجى عبدالصبور من الموت بأعجوبة و اعتقل المقدم كمال.

في مكتب حماية الأركان بدأ التحقيق مع المقدم عن دوافع فعلته الشنيعة ، كان المحقق هو العقيد زيد قائد الحرس الرئاسي ، استمعت للتحقيق من غرفة مجاورة.

قال زيد : من دفع لك يا مقدم كمال لتغتال رئيس الأركان ؟

قال المقدم كمال : يا سيادة العقيد هذا الرجل خائن ، لقد تسلمنا أسلحة من الدول الشيوعية خلال العام الماضي و قمت بتنزيلها على خرائط الأركان ، هذه الأسلحة لا يمكن لنا أبدا أن نقاتل بها أي جيش في هذا الوقت ، المدافع مداها قصير و الدبابات كذلك ، و كلها ذات قدرة تدميرية مضحكة إذا ما قارناها بأسلحة العدو كل ما ستفعله هذه الأسلحة هو أن تسمح لجنودنا أن يموتوا و هم يصدرون ضجيج الحرب دون أن تكون لديهم أدنى فرصة لقتال العدو ، دبابتنا ستُسحق من قبل مدافعهم و دباباتهم قبل أن تبلغ المسافة التي تستطيع فيها توجيه قذائفها إلى قوات العدو ، أما مدافعنا الجديدة فلن تستطيع تدمير دشمة رملية للعدو ، حتى و إن كنا قرييين من مواقع العدو بما يكفي للرمية على قواته فلن نستطيع الصمود أمام هجومه المعاكس على مواقعنا بهذه الأسلحة أكثر من ساعة واحدة على الأكثر ، أما الطائرات فهي عديمة الفائدة ميدانيا لأنها لا تستطيع البقاء في جو المعركة أكثر من دقيقة على أبعد تقدير ثم تسقط كالفراشة بأدنى وسائل دفاعهم الجوي ، هذا إن سمح طيرانهم لهذه الطائرات القديمة بالإقلاع.

قال له زيد : أفهمك جيدا أفهمك جيدا ، هل يعلم فريق عملك بما قلته الآن ؟.

قال المقدم : طبعاً لا أنا لا أبوح بأسرار الجيش العسكرية لأحد ، يا سيادة العقيد يجب أن تفعل شيئاً لهذا الخائن ، يجب أن يحاكم و يعذب.

قال العقيد زيد : بالضبط بالضبط . ثم نهض و وقف خلف المقدم كمال المقيد الدين إلى كرسيه ثم سدد مسدسه إلى صدغه دون أن يراه كمال و قال : نعم هكذا بهذا المسدس يجب أن يعذب هذا الخائن . ثم أطلق النار.

استمرت عملية تسليم أسلحة الدول الشيوعية لجيشنا عاما كاملا و نصبت في عشرات المناطق مخيمات و بنيت دشم و نقاط اتصال و مستودعات و مهاجع معدنية كبيرة لإقامة الجنود و توسعت و تضخمت فرق الجيش عددا و عدة و توزعا ، هذا أدى أيضا لإعادة توزيع الرتب العسكرية و ترفع كافة أعضاء مجلس قيادة الثورة فالعמיד عبد الصبور رئيس الأركان صارت رتبته مارشال و صار العقيد زيد لواء و هزيمة كذلك صار لواءاً ، و زين وصويلح و المقدم كامل صاروا برتبة لواء و بقي الزعيم وحده يحمل رتبة عقيد !.

أكثر من ربع رجال البلد صاروا يلبسون البنات العسكرية ، و صدرت تعليمات من مجلس قيادة الثورة لوزارة التعليم لتغيير لباس الطلبة و تحويله إلى بنات عسكرية بلون زيتوني للبنين و البنات ، و ظهرت في البلد دوريات الشرطة العسكرية و صارت عملية إعتقال الشباب و خطفهم في الشوارع على يد الشرطة العسكرية مشهدا عاديا جدا .

بالعودة إلى المهمة الثانية التي حملها البارون خلال زيارته الأخيرة للبلاد و هي "الحشخاش و أحلام اليقظة" أقول بيقين : هذه المهمة في الواقع هي أكبر مهمة قمنا بها طوال مدة عملنا على الإطلاق ، ناقشت هذا الملف مع البارون بحضور أحد أهم علماء الكيمياء الحيوية و هو متخصص في نبتة الحشخاش يدعى البروفسور "فيليكس" و سوف أقتطف بعضا من هذه المناقشات ، قال البروفسور : نبتة الحشخاش الرائعة تنبت في بلادكم بشكل طبيعي و دون استنبات ، و لا تحتاج إلى عناية خاصة في أرضكم لأنها من النباتات البرية في بيئة الشرق ، و أجراسها النابتة عندكم تعطي أفضل و أجود أنواع الحشخاش و مركباته على الإطلاق ، فلو زرنا الحشخاش في بلاد أوربية أو بيئة غير بيئكم لن نحصل على كافة مشتقات الحشخاش بالجودة المطلوبة .

قلت : و ما الذي يختلف ؟ .

قال البروفسور : مشتقات الحشخاش التي تستخرج من حشخاش أرضكم تمنح متعاطيها أضعاف النشوة و اللذة و الهياج الجنسي الذي يحصل بسبب نظيراتها المستخرجة من حشخاش مستنبت صناعيا في بيئة مصطنعة .

قلت : ألا تقدم الخمر نفس النشوة ؟ اعذرني فأنا لم أجرب الحشخاش و مشتقاته إلا كمخدر في عملية جراحية أجريت لي في صباي .

قال البروفسور : لا طبعا فنشوة الخمر تحصل لفترة قصيرة جدا و يحتاج المرء لتناول الخمر مرارا لتكرارها و التلذذ بها أما الحشخاش فيعطي لذة و نشوة لمدة تزيد على ست ساعات أحيانا و بشكل متواصل ، و تبقى آثار هذه اللذة ربما لضعف هذه المدة و إن كانت متناقصة ، أهم ما فيها أنها تمحو نهائيا الشعور بالقلق و الألم و التوتر و الخوف من قائمة مشاعر الإنسان ، بالمختصر تجعل الإنسان يشعر وكأنه سلطان من سلاطين حكايات ألف ليلة و ليلة .

قلت : أليس الحشخاش أن خطير على الصحة ؟ .

قال البروفسور : نعم إن تم تعاطيه بكثافة و دون خلطه بمواد أخرى تخفف أضراره ، و هو لا يقل سوءا عن الكحول إلا أن الكحول محمي دينيا عند المسيحيين و طوائف دينية أخرى ، بينما الحشخاش وافد غريب على ثقافة أوروبا و الأمم المسيحية و لهذا لا ينزعج المسيحيون من محاربته .

قلت : ما الفائدة منه أو من الحشيش أو حتى من الكحول ، هو يعطل قوة العمال و الفلاحين و يعرض استثمارات الشركات و الرأسماليين للإخفاض نتيجة لهذا ؟!.

قال البروفسور : أنت الآن رجل غني و لديك سلطة كبيرة جدا فهل تشعر بالقلق و الهم و الحزن و الخوف و الضالة و تحتقر نفسك و حظك و تبحث عن مهرب من حياتك ؟.

قلت : لا أنا رجل سعيد صحي جيدة و أنام جيدا و أستيقظ صباحا نشيطا و دون هموم و أعمل دون قلق و بتركيز و مسرور بعملتي ، متزوج من زوجتين جميلتين و لدي أطفال رائعون و ليس لدي ما يجعلني أندب حظي.

قال البروفسور : كم يحتاج إنسان عادي ليحصل على استقرار نفسي في مشاعره كالذي تشعر به أنت الآن ؟.

قلت : يحتاج بلا شك لمبلغ ضخم ، و لا يمكن جمعه إلا بجهد كبير و بحظ كبير أيضا.

قال البروفسور : فلو أن ساحرا جاء لرجل يائس من الحصول على مبلغ ضخم يوفر له هذا الإستقرار فقال له : ما رأيك أن تشعر بما يشعر به ملك بلاد سعيدة لمدة ساعات يوميا ، ثم تستيقظ لتعود لتعبك و شقائك ثم تستريح لساعات من الشقاء تصير خلالها ملكا ؟!.

قلت : لا بد أنه سيشكره على هذه الخدمة و سيشتري منه وصفة السعادة المؤقتة هذه ، فالإنسان يتعب و يعمل كي يستريح من العناء و التعب كما يقول فيلسوف اليونان.

قال البروفسور : وصفة السعادة هذه هي مشتقات نبتة الخشخاش.

قلت : و لكنها سعادة مؤقتة و مضرة جدا في نهاية الأمر.

قال البروفسور : كل ما يتعاطاه البشر من مواد مسلية كالشاي و القهوة و الكاكاو و التبغ و الكحول مواد مضرة في نهاية الأمر ، حتى اللحم اللذيذ و التوابل و المطيبات كلها مضرة في نهاية الأمر ، و أنا أعرف أناسا يتعاطون الخشخاش منذ عقود و باستمرار كما يتعاطى الإنسان الأوربي الكحول و لم يصابوا بجنون أو هستيريا كما يشاع ، كل ما في الأمر أن الإقلاع عن هذه المواد متعب لأن الإدمان عليها يكون أشد من الإدمان على غيرها.

قلت : لماذا هي ممنوعة إذا ؟.

تدخل البارون في الحوار قائلا : لأسباب كثيرة كلها لا علاقة لها بأضرارها ، أولا لأن السماح بها سيجعلها رخيصة و لا تحتاج لمخاطرة و عناء للحصول عليها ، و هذا سيحرمننا من استثمارها و احتكارها ، و ثانيا لأن السماح بها سيجعل الإقبال

عليها في تناقص دائم كما هو حال الكحول و التبغ و بقية المواد المسلية ، فما إن يجربها الناس حتى يكتشفوا أضرارها و يتركها أكثرهم و يشجعوا غيرهم على تركها و ينفروا من لم يجربها منها ، و هذا سيقضي على فرصة تحويلها إلى منجم من المال كما هي الآن ، فكما تعلم كل ممنوع مرغوب.

قلت : و لكن حملات التوعية من مخاطر الخشخاش كثيرة على إعلام أوربة و أمريكا ؟!

قال البارون : و لكن مع هذا يزداد زبائن الخشخاش عددا و تتحسن نوعيتهم يوميا ، الناس في أوربة و أمريكا يتحدثون في مجالسهم الخاصة عن الخشخاش و مشتقاته كما يتحدثون عن الخمر المعتقة و يدلون بعضهم على أصنافها كما يدلون بعضهم على أصناف التبغ اللذيذ ، و سر ذلك أن الأوربيين يستعملونه للتخلص من الكآبة و كمحرض على ممارسة الجنس لمن تجاوزوا الثلاثين من العمر فهؤلاء أغلبهم أرهقوا جهازهم التناسلي بتعاطي الجنس بإفراط في مقتبل أعمارهم ، فصاروا باردين جنسيا بعد سن الثلاثين فقط .

قلت ضاحكا : بالنسبة لهذه الأخيرة لا أظن أن سكان بلادنا يحتاجون إليه لأنهم يتعاطون الجنس بانتظام و كفاءة تامة إلى ما بعد الثمانين من العمر .

قال البروفسور : نعم هذا صحيح بالنسبة للمسلمين لأن الجنس عندهم ممنوع دون زواج ، و لكن توجد لديكم طوائف من أتباع الديانات السرية يحتاجون لهذه الخدمات الخشخاشية بعد سن الثلاثين لأنهم يتعاطون الجنس في مقتبل أعمارهم أكثر من تعاطي القهوة و الشاي و مع عدد غير محدد من النساء.

قلت : تقصد بقايا من طوائف ديانة الدولة الفاطمية الغابرة ؟!

قال البروفسور : نعم ، إنهم جميعا من الخشاشين و مدمني الكحول ، أنا شخصا أظن أن ديانتهم أسست خصيصا للتخلص من حظر الإسلام لتعاطي الكحول و الخشخاش و الجنس دون زواج.

قلت : هل يزرعونه و ينتجونه هنا ؟!

قال البروفسور : بالطبع و هم خبراء جدا في زراعته و تصنيعه و لكنهم مساكين يستهلكون كله و لا يعرفون قيمته الضخمة في أسواق أوربة و أمريكا.

قلت : أنتم اليوم تستوردونه من إيران و الهند و أفغانستان و لا حاجة بكم إليه هنا ، زيادة الإنتاج ستخفض أسعار الخشخاش و لن تكون نافعة تجاريا .

أسرع البارون بالإجابة قبل البروفسور : لكل بضاعة زبائن ، و أفيونكم أفضل من سائر أفيون تلك البلدان و أعلى بكثير و أقل ضررا و هذا من عجائبه ، هل سبق أن سمعت بأحد مات عندكم أو جنّ بسبب تعاطي الكثير من الخشخاش أو الخشخاش أو تدخين الحشيش ؟.

قلت : لا لم يحصل هذا.

قال البارون : مع أن متعاطي هذه المادة عندكم كثيرون هم بمئات الآلاف اليوم ، و لكنهم غير مدمنين بشكل مرضي و لا يتضررون بشكل كبير منه ، حتى الأطفال عندكم يتعاطونه لجلب النوم دون خطر يذكر.

قلت : ما المطلوب إذاً ؟.

قال البارون : يجب أن يزرع الخشخاش عندكم بكميات كبيرة ، و سنحول قسما منه هنا إلى أفيون و مادة أعلى و أنفس هي الهرويين ، و سيصنع من نخالته و ثقله الحشيش.

قلت : هل سنسمح به قانونيا ؟.

قال البارون : لا طبعا سيزرع في مناطق نائية و ضمن حقول كبيرة تضم مزروعات أخرى ، و سيصنع في مصانع ريفية و يعبأ و نتولى نقله إلى أوربة في حاويات الغلال و الحبوب التي تنقل صادراتكم إلينا ، و من أجله سنقيم عندكم مصانع لتعليب الطعام على الطريقة الأوربية و ستصدر كميات منها إلى أوربة.

قلت : سيتم هذا في قرى أتباع الديانات الفاطمية أليس كذلك ؟.

قال البارون : بالطبع ، و ستكون لهذه المناطق حصانة تامة من الشرطة و الجمارك و غيرها.

قلت : هذا سيثير جنون المسلمين و قد يتسبب في حرب حقيقية هذه المرة.

قال البارون : لا يا عزيزي ستتشكل مجموعات لنقل الخشخاش من المسلمين إلى دول الجوار كلها من منظومة التهريب الحالية ، و ستعتقلون بعضهم بين الفينة و الأخرى و تحرقون أمام الإعلام كميات من أكياس تقولون أنها تحوي أفيونا ليشعر الناس أن المادة ممنوعة فعلا و هذا سيسهل ترويجها ضمن بلادكم ، و تأكد أنها ستصير المادة المستهلكة الأكثر رواجاً و ثمناً في بلادكم و في الممالك و البلدان العربية كلها خلال أعوام ، لقد جربنا هذا في الصين في الماضي ، بدأنا ببيع الخشخاش لمائة ألف و صار عندنا بعد أعوام قليلة مائة و عشرون مليوناً من الزبائن ينفقون كل مدخراتهم ثمناً لأفيوننا.

قلت : هل ستتولى مخابراتكم نقل الخشخاش و حراسته ؟.

ضحك البارون كثيرا من سؤالي ، و بعد نوبة من الضحك تولى البروفسور فيليكس التوضيح بدلا من البارون فقال : يا سيدي هذا مستحيل فعناصر مخبراتنا مجرد كلاب عمياء مهمتها هي اصطيد خصومنا و لا نسمح لهذه الكلاب بتعاطي سموم تفسد قدرتها على العض و الشم أبدا. ثم أضاف : أتباع الديانات السرية الفاطمية منتشرون على طول الطريق بين أوربة و بين بلادكم و بين أوربة و وسط آسيا و هم ماهرون جدا في التخفي و خبراء في العمل معنا منذ قرون ، هم من سيزرع و ينقل هذا الخشخاش و سائر مشتقاته إلى أوروبا و أمريكا ، و لديهم في أوربة رؤوس جسور يتسلمون منهم الخشخاش و يروجونه لصالحنا ، نحن فقط نشرف على المنظومة و نحميها و نأمرها و نعطيهم حصتهم و نأخذ حصتنا.

قلت : قد يعملون لحسابهم و يستقلون عنكم و لو جزئيا.

قال البارون : مستحيل لأنهم أجبن من القطط المرعوبة ، هم يخافون من المسلمين أكثر من خوف العجائز من الأفاعي ، نحن من يؤمن لهم الحماية اليوم من اضطهاد المسلمين و ملاحقتهم و نحن من سيصنع منهم أباطرة للأفيون و أرستقراطية بديلة عن الأرستقراطية التركية و الكوردية و المغولية التي حكمت بلاد المسلمين طويلا جدا.

قلت مستغربا : أرستقراطية من هؤلاء ؟.

قال البارون ضاحكا : أرستقراطية مزيفة لا تأمر و لا تخطط ، و ليست أرستقراطية مثل أسرتي و أسرتك و أسر النبلاء طبعا ، سيكونون أباطرة يمكننا أن نخوهم إلى جردان مذعورة وقتما نشاء و أرستقراطيون نستطيع أن نخوهم إلى أعشاب يابسة عندما نحتاج لعلف لدوابنا إذا جاعت.

قلت : لماذا تزامن ملف التجنيد مع ملف الخشخاش ؟ و لماذا سميت هذا الأخير ملف أحلام اليقظة ؟.

قال البارون : إن عملية هائلة بهذا الحجم تحتاج إلى كم ضخمة من الضجيج ليغطي عليها و ضخامة الجيش و الإستعداد الدائم للحرب يجعل الجميع غارقا في الضجيج و الخوف و يبحث عن السلام ، و أما أحلام اليقظة فهي اليوم قليلة جدا بين سكان بلادكم ، و أعباء الحرب و الإستعدادات لها ستجعل حياتهم عذابا من حرمان و معاناة طويلة و متزايدة ستنتج لهم الكثير من أحلام اليقظة ، و سيصيرون في هذه كالأوربيين زبائن لعقاقير السعادة و تحقيق الأحلام مؤقتا في فترات من سعادة تتخلل الكتابة الأبدية لحياتهم التعسة الشقية البائسة.

في اليوم التالي للقاء الذي ناقشنا فيه ملف "الخشخاش" و ملف التجنيد في قصر والدي الساحلي عدت للإجتماع بالبارون جيمس لمناقشة آخر مهمة من حزمة المهمات التي كان من ضمنها منع الإستيراد و تشكيل المؤسسات العامة الوطنية ، هذه المهمة كانت تشكيل مديرية وطنية مهمتها : تشجيع عمل المرأة . هذا الملف الهام نوقش في عدة لقاءات متوالية أدارها البروفسور أوسكار الذي كان بصحبة البارون في زيارته الأخيرة ، و سأعرض مقتطفات من النقاشات :

قلت : إن طرح مسألة عمل النساء الآن سيهيج السكان المسلمين الغاضبين أساسا من الأزمات المتلاحقة.

قال البروفسور : هذه المسألة تعتبر من أهم أهداف خطتنا الكبرى لمستقبل بلدكم هذا و لن يثينا غضب السكان عن تنفيذها ، إنها الخطة التي تضمن الأمان الضروري لاستمرار سيطرتنا على الأوضاع في بلادكم و غيرها إلى الأبد و ربما إلى ما بعد الأبد.

قلت : أنا أفهم إصراركم على المساواة بين المرأة و الرجل ، و لكن على الرغم من مائة عام من الإنتدابات الأوروبية على بلاد إسلامية كثيرة لم يقبل الناس بتطبيق شيء من هذا ، و أظن أن هذه المهمة ستكون شكلية بالفعل لأن تطبيق هذه المساواة لم ينجح حتى في أوربة.

قال البروفسور أوسكار و قد نظر إلي نظرة خبث مازحة : المساواة المطلقة بين الجنسين خرافة و نحن نعلم هذا و لكننا نريد منها الوصول إلى حالة معينة من التطبيق العملي هي التي نبحث عنها من هذه الدعوة ؛ سأسألك بضعة أسئلة فهل تجيب عليها ؟.

قلت : تفضل .

قال البروفسور : أيهما ألد و أمتع أن تقضي حياتك بصحبة امرأة واحدة أم بصحبة امرأة جديدة كل شهر أو كل أسبوع ؟.

قلت : الثانية أمتع بالطبع .

قال البروفسور : و أيهما أمتع للمرأة ؟ أن تقيم علاقة جنسية مع رجل واحد يعرف عدة نساء أم مع رجل جديد كل أسبوع أو كل شهر ؟.

قلت : المرأة لا يعجبها أن تعرف عددا من الرجال ، عادة تفضل رجلا واحدا فقط.

قال البروفسور : هذا ليس صحيحا ، لا تكاد تجد امرأة أوربية أو أمريكية واحدة لم تقم علاقات جنسية مع عدة رجال ، و حتى عندكم في بلادكم تنتشر ما نسميها "الخيانة الزوجية" ، هي موجودة في كل قصصكم الشعبية و حتى في النكات التي يتداولها الناس عندكم ، هل قرأت قصص ألف ليلة و ليلة ؟.

قلت : القصص و النكات شيء و الواقع شيء آخر ، الزنا في هذه البلاد عقوبته الموت للنساء خاصة.

قال البروفسور : و هكذا كان الحال في أوربة و أمريكا و الصين و اليابان و لكننا نجحنا في تغييره بعد عمل دؤوب و متواصل حتى وصل الأمر إلى ما هو عليه هناك.

قلت : ما هي خطة هذا العمل ؟.

قال البروفسور : أيها ألد و أمتع للرجل ؟ أن يعيش مع امرأة واحدة أو امرأتين أو ثلاث كل حياته ، و أن ينفق عليهن كل ماله ثم على أولادهن ، و أن يمضي حياته في التعب و القلق ليؤمن لهن و لأطفالهن الحياة الكريمة ؟ أم أن يعيش وحده في بيت و ينفق كل دخله على ملذاته و يعاشر نساء جدييدات كلما أراد ؟؟.

قلت : الثانية بلا شك و لكن للوهلة الأولى فقط ، لأن هذا الشخص سيصل إلى الشيخوخة وحيدا و يقضي ثلث عمره الأخير أو أكثر في شقاء و تعب و ألم و دون أن يجد ما يخفف عنه .

قال البروفسور : الوهلة الأولى هي ما يفكر به العامة و لن يفكروا أبدا في الخطوة التالية إلا بعد حصولها ؛ و سأسألك أيها أمتع و ألد للمرأة ؟ أن تمضي حياتها مع رجل واحد تتقاسمه مع نسوة أخريات و تنفق قوتها و عمرها و جسدها لتطبخ و تنظف و تخدم زوجها و أطفالها ؟ أم أن تعيش مستقلة في بيت خاص بها لوحدها و لها دخلها الخاص بها و تعاشر من يعجبها من الرجال وقتما تشاء ، ثم تنجب طفلا واحدا أو طفلين من أجل من تقابلهم من الرجال و تعتني بالأطفال بالتشارك مع آباء الأطفال حتى يكبروا ضمن تخطيط مالي سليم فيكبر الأطفال و هم مرفهون و سعداء ، بدل أن تربي تسعة أو سبعة أطفال بتعب و عوز دائم و قلق متواصل فيشربوا على الحرمان و التقتشف ؟.

قلت : أن تعيش مستقلة ألد و أمتع بالطبع و لكن أيضا للوهلة الأولى ، لأن هذه المرأة أيضا ستصل إلى الشيخوخة وحيدة طريدة و دون معين و لا سند.

قال البروفسور : أيضا الوهلة الأولى هي ما نريد أن يصل لأذهان العامة ؛ يا عزيزي هذا النموذج اللذيذ و الممتع للحياة الجنسية للبشر صار واقعا في أوربة و أمريكا هذه الأيام ، و في هذه اللحظة التي نتكلم فيها يجتمع مئات ملايين الرجال مع مئات ملايين النساء ليستمتعوا بلذة الجنس تحت سماء العالم بأسره من دون زواج ، و هذا كله بفضلنا نحن و بفضل خططنا المتدرجة الصبورة ، لو كنا قد قدمنا للأوروبيين نموذجنا للحياة الجنسية السعيدة في نهاية العصور الوسطى كما أصفه لك الآن إذأ لأحرقنا الناس في الساحات العامة كما أحرقوا جان دارك و كما أرادوا أن يحرقوا "جاليليو" في محاكم التفتيش ، هذا النموذج الذي صار واقعا اليوم وصلنا إليه بعد تطبيق تغييرات تدريجية و بصبر و بترتيب مجهود مركب من أجزاء كثيرة جدا جمعناها على مر زمن طويل.

قلت : أظن أن هذا النموذج لن يصير واقعا أبدا في بلادنا مهما طال الزمن .

قال البروفسور : هناك مسار إجباري لتطور المجتمع لا يمكن الحياد عنه ، ستسير عليه المجتمعات مرغمة أو راضية عندما تطبق على هذا المجتمع إجراءات صارمة متزامنة و متناسقة ، سأعطيك فكرة عامة عن هذا المسار الذي نريد أن يسير فيه مجتمع بلادكم .

قلت : كلي آذان صاغية .

قال البروفسور : اليوم يستطيع الرجل في بلادكم أن يتزوج في سن العشرين ، لأنه يملك مصدرا للدخل و يستطيع بسهولة أن يشتري سكنا و أثاثا ، و سيعاونه أقاربه حسب عاداتكم ، و سيتزوج غالبا امرأة شابة لم تعرف أحدا قبله ، و ستطيعه طاعة عمياء و تخلص له لأنها لم تعرف أحدا قبله و لأنها أيضا لا تستطيع أن تلتقي برجال آخرين لتفضل رجلا آخر على زوجها و تعاشره ، و ستعمل الزوجة على تربية أولادها و بناتها بنفس الطريقة التي تربت و عاشت عليها هي و زوجها ، سنبدا خطة التغيير بإجبار الآباء على إرسال بناتهم إلى مدارسنا ، و هناك سنزرع في رؤوسهن أن المرأة تستطيع أن تقوم بما يقوم به الرجال تماما و أن ما يقوم به أهلهم من تفضيل أشقائهن الذكور عليهن ظلم ، و أن عمل المنزل يجب أن يكون مناصفة بين الرجل و المرأة كما أن العمل خارج المنزل يجب أيضا أن يكون مناصفة بين الرجل و المرأة ، و حتى في مدارس الصبيان سنفهم البنين أنهم ليسوا أوصياء على البنات .

قلت : هذا سيبقى مجرد كلام يُنسى بمجرد عودتكم للبيت فحتى أمهاتكن لن يرضين بأن تتمرد بنت على أبيها أو إخوانها .

قال البروفسور : هذا صحيح ، و لكن عندما لا يعود الرجل قادرا وحده بمورده المالي على شراء سكن له و لا على شراء أثاث لبيت الزوجية ، و عندما يعجز وحده عن سداد تكاليف معيشة الأسرة الباهظة بعد الزواج ، سيقبل في نهاية الأمر بفكرة تعلم ابنته و زوجته مهنة و التكسب من أداء عمل و لو في مكان يعمل فيه رجال آخرون ، أليس كذلك؟ .

قلت : على فرض أن هذا حصل ، فإنه لن يوصل الأحوال إلى ما هي عليه في أوربة ! .

قال البروفسور : إن توسعت الضائقة المالية و استمرت طويلا فلن يستطيع الرجال عندكم أن يتزوجوا في سن العشرين كما هو الحال اليوم ، و ستختفي من مجتمعاتكم الأسر التي فيها زوجتان و أكثر ، و في حال تقلص عدد القادرين على تأسيس أسرة أو التزوج بأكثر من زوجة فسيتعاظم كثيرا عدد الفتيات اللواتي تجاوزن الخامسة و العشرين و لم يتزوجن ، و لن تتزوج جميع الفتيات قبل العشرين كما هو الحال اليوم عندكم .

قلت : و لو حصل هذا ، لن يقبل الناس بأي حال من الأحوال بالسماح بالعلاقات الجنسية خارج الزواج .

قال البروفسور : و لكن الفتيات سيجدن في تلك الظروف التي تسمح لهن بالعمل خارج البيت فرصا كثيرا للقاء بالرجال و ستتجربا بلا شك الكثيرات منهن على إقامة علاقات جنسية مع رجل أو عدة رجال دون زواج ، و ما سيسهل هذا أن للنساء رغبة في الجنس أكثر بكثير من الرجال.

قلت : و لكن هؤلاء الفتيات لن يستطعن أبدا أن يعلنن عن هذه العلاقات ، و ربما تنتهي معظم هذه العلاقات بالزواج.

قال البروفسور : نعم هذا في البداية فقط ، إلا أنه و مع الزمن و مع تضخم عدد الفتيات المحرومات من الزواج ، و تضخم عدد الشبان العاجزين عن تشكيل أسرة سيبحث الطرفان عن الجنس خارج الزواج لأنه حاجة كالماء و الهواء و الطعام بلا شك ، و سيجدون أنه ممتع و أقل كلفة بكثير من الزواج ، و سيوجهون لومهم للدين و للعادات و الأخلاق التي تحارب تعاطي الجنس و تقيده بشرط الزواج.

قلت : هذا يحتاج لوقت طويل جدا بلا شك ، لقد احتاج الأمر عمل عدة قرون حتى نجح هذا في أوربة رغم ضعف التعصب لمسألة الإخلاص الجنسي في أوربة.

قال البروفسور : لكننا نملك خططا لإختصار هذا الوقت و هذه الخطط ستجعل من الزواج الخيار الأسوأ لمن يريد ممارسة الجنس ، و سترافق هذه الخطط الكثير الكثير من المؤثرات الفكرية و الإعلامية و التربوية التي ستملأ أسماع و أبصار شبابكم و ستوحي كلها بالتحريض على التمتع بالجنس دون تلك القيود الإجتماعية و الدينية التي تجعل من الجنس حلما صعب المنال قبل الزواج و عبئا مرهقا للبدن و النفس بعد الزواج.

قلت : دعني أخمن ، من هذه الخطط إخراج عدد كبير من الرجال من سوق العمل و تسخيرهم في خدمة الجيش و المجهود الحربي .

ضحك البروفسور طويلا ، ثم قال : أنت تقرأ في كتاب أفكارى ، نعم هذه إحداها فقط.

قلت : ثم ماذا بعد أن تنتشر العلاقات الجنسية السرية ؟.

قال البروفسور : ثم سنجد من يفتي لنا بالسماح للمرأة بالزواج دون تدخل أسرتها و باللقاء مع الرجال و بالعمل و بتطبيق نفسها وقتما تشاء.

قلت : هذا سيجعل الزواج سهلا مرة أخرى أليس كذلك ؟.

قال البروفسور : بالعكس هذا سيجعل من الزواج المغامرة الأسوأ التي قد يفكر في دخولها أي رجل ، لأن منح مفاتيح تأسيس و هدم الأسرة للمرأة سيجعل من شبه المستحيل استمرار الأسرة أكثر من بضعة أعوام على أحسن حال و ذلك أن المرأة سريعة التقلب و سريعة الغضب و النفور و سريعة الوقوع في الحب أيضا ، و ستجد أية امرأة متزوجة مئات الإغراءات من شبان جذابين أصغر و أوسم و أقدر على الإمتاع الجنسي من زوجها بين أولئك الذين يبحثون عن عش جاهز يحتلونه لفترة ريثما تبرد شهوتهم ، و حينما منحها حق الزواج و الطلاق متى شاءت لن تجد مانعا يمنعها من قبول إغراءاتهم ، إن منح المرأة الحق في الطلاق و حمايتها من العقاب على الزنا سيجعل من الأسر شيئا من الماضي خلال قرن من الزمن على أبعد تقدير .

قلت : ثم ماذا ؟

قال البروفسور : بعد مرور وقت كاف سينشأ جيل من الرجال و النساء يعتبرون أن الطبيعي هو إقامة العلاقات الجنسية دون زواج كما هو الحال الآن في معظم بلاد العالم .

قلت : أنتم ماذا تستفيدون من هذا ؟ .

قال البروفسور : في القصص الدينية تجد أن أول قتال نشأ بين البشر كان بسبب الغيرة على امرأة أليس كذلك ؟ .

قلت : نعم صحيح ، و الكثير جدا من الحروب كانت شرارتها غيرة على امرأة أو نساء و خاصة عند العرب .

قال البروفسور : حينما تصل الشعوب إلى هذه الدرجة من التطور لن نخشى أبدا من أن تثور على سلطتنا و منظوماتنا ، لأن الإنسان الذي لا يقاتل غيرة على أنثاه لن يكون أسدا نخشى غضبه أو نمرا هنديا يسحق أي ذكر من فصيلته يقترب من دائرة حواس أنثاه .

قلت : الجوع و الضيق سيدفعانه للثورة .

قال البروفسور ضاحكا : عندها ستكون ثورته كلب جائع تنتهي بوجبة واحدة من الطعام ، بينما غضب الأسود لا ينتهي إلا بهلاك من غضبوا عليه .

قلت : شعوبنا إذا ستبقى أسودا إلى وقت طويل .

نظر إلي بقلق و قال : نعم ريثما تصل شعوبكم إلى مرحلة تطور الشعوب الأوروبية - التي لم نعد نخشى ثورة ذكورها - يجب أن نقلق من احتمالات ثورة رجال أمتكم ، و لهذا يجب أن نضعف قوتهم باستمرار و نزيد من قوة و بطش و دهاء أجهزة

الأمان و السيطرة التي تحرس سلطتنا عليهم و نعد الكثير جدا من الخطط لإستيعاب و قمع أية ثورة قد تحدث إلى أن يأتي اليوم الذي تمارس فيه نساء بلادكم الجنس مع من يختزنه من الرجال دون زواج أو خوف أو حياء ، لهذا سنكتشف من الإستعانة بأتباع الديانة السرية ، هؤلاء يمارسون إباحية الجنس كتدين ، و حرية الجنس عندهم متأصلة في نفوسهم و لكنها بدائية جدا و سيكونون بسهولة النماذج الأولى للذين يعيشون حرية الجنس بطريقة راقية كالأوروبيين.

قلت : لو فرضنا أن حياة البشر الجنسية في كل الدنيا صارت مثل الأوروبيين فهذا سيعني ببساطة أن عدد سكان الأرض سيأخذ في التناقص حتى يختفي الناس من على وجه الأرض في يوم ما .

ضحك البارون و البروفسور كثيرا من كلامي ، ثم قال البروفسور : نعم هذا صحيح و هي مشكلة بدأنا بمواجهتها في أمريكا و أوربة و نحلها حالا مؤقتا بالهجرة.

قاطعته قائلا : أنت تقول أن هذا النظام سيسود العالم و يعني أن تناقص السكان سيكون في كل الأرض ، في أمريكا و أوربة حللتهم المشكلة باستيراد المهاجرين و السكان من البلاد الأخرى ، فإن كانت المشكلة في كل الأرض هل سنحلها باستيراد الناس من خارج الكرة الأرضية ؟!!.

غرق البروفسور في نوبة أخرى من الضحك شاركته فيها مع البارون و أنا غير مقتنع بأن هذا مضحك ، قال البروفسور بعدها و قد احمر وجهه من الضحك : لماذا نترك للإله الفرصة ليقتل مليارات البشر قبل يوم القيامة الذي يؤمن به المسيحيون و المسلمون و بعض اليهود ؟ بدلا من هذا سنجعل قصص الحب هي قصة نهاية العالم و سنجعل نهاية العالم على طريقة الفالانتين بدل أن نجعلها بضربة واحدة من ملائكة الموت ..

غرقنا مجددا في موجة ضحك طويلة و قرقرت بعدها الكؤوس و ارتفع دخان السيجار الكوبي العطر.

في بداية العام التاسع من حكم الزعيم الأوحده بدأ الإعلام بالصدور على موجة واحدة موحدة و ذلك بعد اجتماع إعلامي كبير عقده الزعيم في المسرح الوطني ، حضر الاجتماع جميع العاملين في الإعلام من كتاب و محررين و مؤلفين و شعراء و مغنين و مغنيات ، لو وصفنا وقائع هذا الاجتماع إذا كان أقرب وصف له أنه اجتماع لإعطاء التعليمات و الأوامر بين ضابط متعجرف في قطعة عسكرية مع جنود أغرار التحقوا بالجيش حديثا ، قال الزعيم العقيد بديع للصحافيين :

"الثورة التي قام بها الجيش لها هدف واحد فقط هو إقامة الدولة القوية التي يهابها العالم كله ، و الدولة التي لا تضبط رعاياها لن يرهبا أحد ، نحن نواجه مؤامرة دولية كبيرة علينا لإعادة البلاد إلى سيطرة الأوروبيين و علينا أن نسخر كل الموارد و الطاقات للقضاء على هذه المؤامرة ، أنتم الإعلاميون بالنسبة للشعب كفرقة موسيقى الجيش التي يضبط الجنود إيقاع مشيهم على نغماتها ، و ما يصدر عنكم هو ما سيضبط توجهات الشعب العقلية ثم تصرفاته العملية ، أنتم اليوم واجهة الثورة و

الناطقون بإسمها ، اعتبارا من هذه اللحظة سيعتبر كل واحد منكم يخالف تعليمات اللجنة العليا للإعلام خائنا و سيكون عقابه هو نفس عقاب الضابط الخائن في ميدان الحرب " .

ارتعد الحضور جميعا بسبب الخوف من لهجة خطاب الزعيم ، لقد كان الخطاب من تأليف والذي بالكامل و بتوجيه من مستشار أوربي ذكي من الفريق الذي زودنا به البارون ؛ في نفس المؤتمر أعلن عن أسماء أعضاء اللجنة العليا للإعلام و كانوا مجموعة من الأساتذة الجامعيين المتخرجين من أوربة ، كلهم من العاملين في منظمي ، عُيّن على رأس اللجنة كاتب صحفي إسمه الدكتور تحسين من أتباع الديانة السرية ، هذا الرجل درس و تخرج في أوربة و متخصص في علم النفس الجماعي ، و عين تحسين هذا مستشارا إعلاميا للحكومة بأسرها .

بدأت هذه اللجنة عملها في غضون أسبوع واحد من الإعلان عنها و افتتحت مكاتب فرعية لها في كل المدن الكبرى و تسجل فيها كل الإعلاميين في البلاد ، الواقع أن هذه اللجنة كان عملها هو إغلاق كل الجرائد و المجلات الدورية التي لا ترعاها الحكومة ، و تم حشر كافة المحررين و الصحفيين في بضعة عشر جريدة و مجلة دورية ، ثلاث منها وزعت على مستوى البلاد و البقية كانت جرائد محلية تصدر كل واحدة منها في إقليم و توزع فيه و مواضيعها كلها من ذلك الإقليم .

أسست اللجنة أيضا وكالة وطنية للأنباء كانت هي المصدر الوحيد للأخبار لكافة الجرائد و المجلات و نشرات الأخبار الإذاعية و التلفزيونية ، أخبار هذه الوكالة كانت كلها تصدر من مكتب الدكتور تحسين حصريا .

بدأت موجة إعلامية جديدة لم يكن الناس يعهدونها من قبل ، هذه الموجة هي ما عرفت بـ "أغاني الزعيم بديع" هذه الأغاني كانت كلها مديح في بديع و أمجاده و بطولاته و تؤكد أن الشعب كله معه و كان المغنون يغنون هذه الأغاني و هم يرتدون أزياء شبه عسكرية و وراءهم أعلام وطنية و صور للزعيم ، في جميع الأغاني كانت وجوههم مكفهرة عابسة و جدية جدا و كان الموسيقيون و المرددون وراءهم أيضا مثلهم ، حتى أن من يشاهد الأغنية يعتقد أن هؤلاء ذهبوا إلى جبهات القتال بعد أن أدوا هذا النشيد الحماسي ، هذه الموجة احتلت ساعات البث التلفزيوني و الإذاعي بالتدريج حتى شغلت نصف ساعات البث تقريبا ، كان الناس يتندرون بهذه الأغاني و يسمونها "قاطع الأرزاق" .!

صدرت لاحقا عن هذه اللجنة تعليمات لكل الدوائر الحكومية بتعليق صور الزعيم الأوحده في صدر كل غرفة في كل المباني الحكومية ، باستثناء دورات المياه طبعا ، و راحت وزارة الثقافة تصدر الملصقات و لوحات التقويم السنوية و عليها صور للزعيم الأوحده من مختلف الزوايا و بكافة الأوضاع و الشمس تشرق من ورائه و الأنوار تسطع حوله و هو في أبهى الحلل المدنية و العسكرية و على محياه هيئة الجد و الصرامة و العبوس الدائم ، و فرضت الحكومة على كافة أصحاب المحلات شراء

هذه اللوحات و الملصقات و تعليقاتها في محلاتهم و الويل لمن يرفض أو يعترض و لو بحرف واحد ، و حتى دائرة البريد أصدرت الطوابع و عليها صورة الزعيم و صكت عملات معدنية عليها صورة نافرة جانبية لرأسه الوسيم.

الشوارع و الساحات العامة و المطار الدولي و سدود الأنهار و البحيرات التي وراءها و حتى عدد من الجبال و الخلجان سميت بإسم الزعيم بديع ، لقد قامت اللجنة الإعلامية العليا بتغيير شكل البلاد و ألوانها و حولتها إلى صورة واحدة هي صورة الزعيم الأوحى بديع.

في نفس الوقت كانت مجموعتنا السينمائية تعمل بنشاط كبير ، فلقد أنتجت خلال عامين فقط أكثر من عشرين فيلما و مسلسلا كلها لا حديث لها إلا عن اضطهاد الأرستقراطيين للفلاحين و العمال و في نفس الفيلم قصة حب تحكي اضطهاد المجتمع المسلم للمرأة و ظلمها ، نهاية هذه الروايات كانت دوما مأساوية بموت البطل و البطلة ميتة شنيعة على يد عائلاتهم المحافظة أو بسبب تعنت هذه العائلات و وقوفها في وجه العلاقة بين البطلين العاشقين ، ترافق هذا مع صدور قانون "تنظيم الأسرة" الذي أعلن عن المساواة بين الرجل و المرأة و أوجب على الحكومة العمل على توفير العمل للنساء في المؤسسات الحكومية ، و البدء بتقديم المعونة القانونية للنساء اللواتي يرغبن في طلب الطلاق من أزواجهن القساة الظلمة !!.

بسبب نشاطات اللجنة العليا للإعلام تحول الوضع النفسي في البلاد إلى ما يشبه الجحيم ، و بدأت ردة الفعل الغاضبة عند الناس بمقاطعة الجرائد و المجلات و التلفزيون و الإذاعة الوطنية ، و اختفت أصوات الراديو من المقاهي و الشوارع ، و صارت البلاد كلها فيما يشبه المأتم ، و كثرت جرائم قتل النساء من ذويهن مما يعرف في القانون بـ "غسل العار" بعدما حاولن طلب معونة مكاتب الحكومة للخلاص من أزواجهن و بعد أن هربت الكثيرات منهن من بيوت أهلهن بإغراء "العشق" ليلتحقن فيما بعد بمنظومة صويلح للسرور و الإنتعاش.

هذا ما كنا نريده بالضبط لبدأ عمل منظومة "الخشخاش" و جاء دور اللواء صويلح مرة أخرى ، هذا الرجل كان مبدعا فعلا و محبا للهرج و الطرب و المجون ، بدأ صويلح برعاية مالية سخية لعدد من المغنين و المغنيات و الراقصات و الموسيقيين ، ثم انتدبهم لينشروا ما يسمى بـ "الحفلات الشعبية" ، بدأت هذه الحفلات بالانتشار بكثافة في الأرياف حيث الأعراس كبيرة و يحضرها الكثيرون و يكثر فيها الهزج ، و صارت محلات بيع الأسطوانات و أشرطة الموسيقى توزع تسجيلات لهذه الحفلات الهازجة فعلا و التي يشعر المستمع لها برغبة جامحة في الرقص ، و لقد صارت هذه الأشرطة تستعمل لإحياء حفلات أعراس أهل المدن المحافظين أيضا و الغير مختلطة عادة في ذلك الوقت.

لم يكن هؤلاء الذين يحيون تلك الحفلات إلا من الغجر الذين تدربوا جيدا على أعمال الغناء و الطرب و الدعارة أيضا ، و أضاف صويلح لمهاراتهم مهارة "تعليم طالبي البسط و السرور كيف يجدون بغيتهم في الدخان الأزرق العطر المسمى حشيش" .!

كان تعاطي الحشيش في القانون جريمة و يعاقب عليها بالحبس من شهرين إلى ثلاث سنوات ، و لكن كانت تعليمات الحكومة واضحة بعدم إهانة أو اضطهاد السجناء بهذه التهمة و بعدم الإساءة إليهم و بتسهيل عقوبتهم و تحويلها لما يشبه الإستراحة ، و صدرت تعليمات لوكلاء النيابة بالتغاضي عن معظم المتهمين بتعاطي الحشيش و الإفراج عنهم دون شروط.

لم ينتبه المشايخ و المتدينون لانتشار "الحشيش" إلا بعد عدة أعوام من هذه الأحداث و لم تكن ردة فعلهم سوى الإفتاء بتحريم هذا المسكر و دعوة الحكومة للضرب بيد من حديد على تجاره و مروجيه ، و هذا تحصيل حاصل بالطبع ، عندما صدرت تلك الفتاوى كان الحشيش قد صار المسلي المفضل لدى نصف رجال البلاد و خاصة الضباط و الجنود و الشرط.

بالتزامن مع ابتداء لجنة الإعلام عملها كانت القرى و المزارع التي يسكنها أتباع الديانات السرية قد تحولت إلى ما يشبه المناطق المغلقة على أهلها ، و صارت لا تزرع شيئا إلا الخشخاش ، و أقيمت فيها مصانع سرية لإستخراج الخشخاش و صناعة الهرويين و طبخ الحشيش ، و لقد تولت المخابرات بقيادة العميد رمون مهمة إغلاق هذه المناطق و إبعاد الإزعاجات عنها و أخذ عيون الغرباء عما يجري فيها و تسهيل مرور منتجاتها إلى مراكز الإستلام التي أقمناها في معسكر الحرس الرئاسي الذي يقوده اللواء زيد.

شيوخ تلك الطوائف السرية كانوا قد عقدوا اجتماعا كبيرا ترأسته أنا و أقسموا أمامي على كتبهم المقدسة متعهدين بطاعتي حتى الموت و بتسخير كافة أتباعهم للعمل في منظومة الخشخاش بسرية تامة و أقسموا على أن يقتلوا بلا رحمة من ينتهك هذه السرية و لو كانوا أبناءهم ، ثم قبلوا يدي جميعا في نهاية الاجتماع شاكرين ممتنين و كان على رأسهم رافع أفندي رئيس الجمعية الإسلامية الذي عاد خصيصا ليحضر الاجتماع و يحدد مشاركته في عمل المنظومة الجديدة و اللواء زيد قائد أقوى قوة مسلحة في البلاد.

منظومتنا التهريب اللتان أسسناهما انطلقتا في العمل بكل حرية و توسعتا توسعا كبيرا و أفادت منهما شرائح واسعة من سكان الأرياف و البادية ، المنظومة الأولى التي تولت ملأ فجوة البضائع بعد منع الإستيراد و سد فجوة العجز المالي عند المزارعين بعد أن أجبرهم القانون على بيع محاصيلهم بأسعار رمزية لمؤسسات الحكومة ، هذه المنظومة استطاعت خلال خمسة أعوام فقط أن تفرغ البلاد من النقود الأجنبية و خاصة الأوروبية و الأمريكية ، و تسبب هذا في انخفاضات حادة في القيمة الشرائية للعملة الوطنية رغم أن قيمتها الاسمية أمام العملات الأجنبية بقيت على حالها ، ذلك أن جميع السلع تقريبا التي كانت تباع

في البلاد كانت أغلى بكثير من قيمتها في الأسواق العالمية في حين أن الرواتب و الأموال التي تنفقها الدولة على الموظفين و المرافق كانت ثابتة و تتناقص باستمرار ، و رغم أن الحكومة زادت الرواتب مرتين خلال هذه الأعوام الخمسة إلا هذه الزيادة لم تكن كافية لسد عجز ميزانية مدفوعات العامل العادي و الموظف الصغير في كافة مجالات العمل ، و السبب هو أن زيادة الرواتب كانت دوما مصحوبة بزيادة في أسعار الوقود و الكهرباء لأن الأموال التي كانت تعطى زيادة للموظفين كانت تستقطع في الحقيقة من قيمة الدعم الحكومي على الوقود و الكهرباء.

منظومة التهريب الأولى آنفة الذكر كان لها نشاط معاكس كما بينت سابقا و هو تصدير الفوائض من المنتجات الزراعية للبلاد إلى الخارج بعيدا عن مؤسسات الدولة ، هذه الفوائض كانت في الواقع تضمن الحد الأدنى من احتياجات البلاد للغذاء بأنواعه و للأثاث القاسي كالأسرة و الكراسي و الخزائن و الأبواب و النوافذ و الأثاث الطري كالفرش و الوثائر و السجاد و البسط ، و لكافة أنواع الألبسة من قطنية و صوفية و جلدية و حتى حريرية أو مذهبة .. إلخ ، إلا أن طمع أهل الريف و غياب الرقابة عليهم جعل معظم هذه الفوائض بالإضافة إلى ما كان يباع في السوق المحلية يتحول إلى صادرات تباع في أسواق الدول المجاورة و من ضمنها سوق جارتنا العدو غير العربية و بأسعار أعلى من أسعار بيعها داخل البلاد ، هذا جعل هذه البضاعة قليلة في البلاد ثم ارتفعت أسعارها في الداخل أيضا نتيجة ارتفاع الطلب عليها ، و بدل أن يتحول المزارعون لبيع البضاعة في الداخل أصروا على بيعها للخارج لأنهم صاروا يقبضون ثمنها من المهربين بالعملة الأجنبية و هذا يتيح لهم شراء ما يشاؤون من البضائع الخارجية من الأسواق الخارجية و بيعها بربح و فير ، حتى صار لكل عشيرة و قرية شبكتهم الخاصة بهم للتهريب.

بسبب هذا تضاعفت أسعار اللحوم حتى صار الموظف و العامل لو أنفق راتبه الشهري كله لا يقدر على شراء عشرين كيلو من اللحم ، و اختفى من السوق تماما السمن البدوي و الريفي المصنوع يدويا و ما وجد صارت أسعاره عشرات أضعاف سعر أي زيت نباتي آخر ، و اختفى الأرز المزروع محليا و كذلك اختفى الصوف و الجلد و غلى سعرهما كثيرا ، أما الأجبان و منتجات الألبان فتضاعفت أسعارها كثيرا و ندر زيت الزيتون و ارتفعت أسعاره كثيرا كل هذه المواد كانت تقرب إلى الخارج ، حتى الشاي و القهوة و السكر و السجائر صارت من المواد التي تشتري من أسواق المهربين لأن الدولة باتت تقريبا عاجزة عن تأمين احتياجات البلاد منها عن طريق الإستيراد عبر المؤسسات.

استغل بعض الضباط و المتنفذين من العاملين في الحكومة هذه الحالة من النقص فأسسوا في الدول المجاورة مصانع للأحذية الرديئة و السمن النباتي الرديء و الزبدة النباتية و الزيت النباتي و زيت الزيتون الرديء و المغشوش و الصابون و المنظفات المغشوشة و الأجبان المصنعة الرديئة جدا و مصانع لتعليب الشاي و القهوة و السكر و الأرز من الأصناف الرديئة ، ثم أجبروا منظومات التهريب على شراء هذه المنتجات بأسعار البضائع الجيدة و بيعها في بلادنا !.

الحاصل الأساسية الكبرى كالقمح و الأرز و القصب و القطن تضاءلت مساحة زراعتها لصالح محاصيل أخرى من الفاكهة الغالية و المطلوبة في البلاد المجاورة ، فحل الشعير محل القمح لأنه مطلوب لصناعة البيرة النفيسة في مصانع أقيمت في دول الجوار ، و حلت الطماطم مكان القمح لأن تجفيفها سهل في بلادنا لتباع في أوربة معجوناً و مقطعة مجففة في مطاعم البيئزا الشهيرة ، و بدل الأرز زرعت الحمضيات و المانجو التي كانت تصدر لمعامل العصير الأوربية ، و محل القصب انتشرت زراعة العرقسوس الذي كان يهرب لمصانع المشروبات الغازية السوداء لتستعمله بدل خلاصة "الكولا" الغالية جداً.

تسعة أعشار أهل المدن و كانوا في ذلك الوقت نصف سكان البلاد صاروا في حال قريب من خط الفقر ، و صار تأمينهم لضرورات الحياة صعباً جداً ، و بعد أن كان رب الأسرة يعمل وحده ليكفي عائلة أو عائلتين صارت الحاجة ملحة لأن تشارك المرأة زوجها العمل حتى تستطيع الأسرة سدّ كلفة احتياجاتها الأساسية.

انتشرت في تلك الفترة ورشات صناعة الثياب المخاطة و المنسوجة يدوياً في أكثر بيوت المدن و ظهرت ورشات منزلية للتطريز و صناعة الأطعمة المحفوظة ، كان تجار المدن هم من يبيع معظم هذه البضائع في حوانيتهم و البعض كانت تبيعه النساء لبعضهن ، و مع هذا بقي عمل المرأة خارج المنزل كالعار الذي يهرب الناس من مجرد تصوره و يعيرون من يأتي على ذكره في مجالسهم ، إلى أن جاءت الموجة التالية من إصلاحاتنا الاقتصادية.

هذه الموجة لم تكن وليدة العام الخامس من حكم الزعيم بديع و إنما أسسنا لها منذ أن قمنا بتصفية الأوقاف الدرية ذلك أننا أوجدنا في حينها ما عرف بـ "تجارة العقارات" التي لم تكن موجودة في بلادنا في السابق.

لم تنتعش تجارة العقارات و ظلت في نطاق ضيق جداً حتى نهاية العام العاشر من حكم الزعيم الأوحده و اشتداد الضائقة الاقتصادية على أهل المدن ، في ذلك العام حضر إلى مكنتي عدد من تجار العاصمة و عقدنا اجتماعاً هاماً جداً بناء على طلب مني كان من جملة ما دار فيه :

قلت : أيها السادة نحن هنا اليوم لإرساء قواعد نهضة جديدة في البلاد ، هذه النهضة لا بد لها من خطة و تنسيق على أعلى المستويات لإنجاحها ، إنما النهضة العمرانية ، مدناً مقارنة بالمدن الأوربية و العواصم العالمية صغيرة جداً و خاصة عاصمتنا الحبيبة ، و لقد آن الأوان أن تتحول مدناً إلى مدن حديثة بدل هذه المدن الريفية القديمة التي نقطنها منذ مئات السنين دون تحديث أو تطوير.

سألني رئيس التجار : هل سنستورد سكاناً للمدن لنضخمها ؟ مدناً حجمها على قدر تعداد سكانها ، و لن نستطيع أن نبني بيوتاً كيلا يسكنها أحد !.

قلت : نعم سنستورد للمدن سكانا من الأرياف و البوادي ، و هؤلاء السكان الجدد سيحتاجون إلى مساكن و شوارع و مدارس و مشافي و أحياء جديدة.

قال تاجر آخر : يا مهران بك قدوم أهل الأرياف إلى المدن سيسبب أزمة إضافية لأزمة غلاء المحاصيل التي نعاني منها أصلا ، فالمزارع الذي يترك الزراعة ستتحول أرضه إلى صحراء و سينقص إنتاجه من المحصول العام للبلاد.

قلت : لا لن تتحول أرضه لصحراء ، لقد أعددنا لخطط لشراء آليات زراعية كبيرة و نشرها في الأرياف و ذلك لزيادة المساحات المزروعة و تخفيض أسعار المحاصيل ، يا عزيزي سكان الأرياف في أوربة و أمريكا أقل من عشرين بالمائة من مجموع السكان و ينتجون عشرات أضعاف إحتياجات بلدانهم بسبب الآليات ، بينما سكان الأرياف عندنا أكثر من نصف سكان البلاد و بالكاد يزرعون نصف إحتياجات البلاد.

قال تاجر آخر : يا مهران بك أنت تعرف جيدا أن معظم المحاصيل التي تزرع اليوم في البلاد تُهرب إلى الخارج و هذا هو سبب العجز الذي نعانيه في المحاصيل ، الحل في قمع التهريب قبل كل شيء ثم تأتي الحلول الأخرى.

قلت : البلاد اليوم و في ظروف حالة الإستعداد للحرب تعتمد على حماية الجيش و الشرطة و المخابرات ، و هذه الأجهزة كلها تقريبا من أهل الأرياف ، لا نستطيع إغضابهم الآن ، و لكننا سنحتوي سيطرتهم هذه على القوات المسلحة من خلال نقل معظمهم إلى المدن ليسكنوا فيها و يصبحوا من سكانها عندها سيتكون التهريب و هموم الزراعة و سنتمكن من إصلاح ما أفسدوه من منظومة الزراعة الوطنية دون معارضتهم.

قال تاجر آخر : ما دورنا نحن في هذا العمل الجديد ؟.

قلت : ستبدؤون بشراء الأراضي الزراعية الملاصقة للمدن و خاصة العاصمة ، و سنصدر بعدها مخططات تنظيمية لهذه الأراضي تسمح ببنائها و تعميرها كأحياء جديدة ، و في نفس الوقت ستشترون خلال شهر واحد عدة مئات من العقارات في داخل المدن بأسعار مرتفعة جدا تعادل عشرة أضعاف سعرها الحقيقي.

قال رئيس التجار : و ما الحكمة من شراء عقارات بأضعاف سعرها ؟ لا أحد يحب الخسارة !.

قلت : يا حاج ، هذه العقارات ستبيعونها بعد عام أو عامين بأضعاف الثمن الذي اشتريتموها به ، لأنكم بشراء مئات العقارات بأسعار مرتفعة جدا ستدفعون أهل المدن لرفع أسعار بيوتهم ، و نحن سنستغل هذا لرفع أسعار مواد البناء ، و سيستغل هذا حرفيو البناء لرفع أجورهم ، و هذا سيعجز معظم الشباب من أهل المدن عن شراء مساكن داخل الأحياء القديمة ، و سيضطرون لشراء الأراضي الزراعية منكم ، نفس الأراضي -التي صارت أحياء جديدة بأسعار عالية قريبة من

أسعار العقارات داخل المدن ، و في نفس الوقت سنعطيكم رخصا لإنشاء بنايات عالية بعشرة طوابق على الأقل على العقارات التي اشتريتموها داخل المدن لتبيعوا الطابق الواحد منها بعد عامين فقط بسعر العقار كله ، هل عرفت الحكمة من هذا .

قال تاجر ذكي : يا أبا المجد إن كل مشروعك هذا قائم على إقناع الناس في المدن برفع أسعار عقاراتهم فهل تضمن أنهم سيقنعون ؟.

ضحكت و قلت له بثقة : في نفس الشهر الذي ستبدؤون فيه بشراء العقارات في المدن بأسعار مضاعفة ستجدون في نهاية الشهر أنكم عاجزون عن شراء عقارات جديدة لأن الذي ستحاولون شراءه من العقارات الجديدة سيطلب أصحابه أسعارا عالية أكثر من تلك التي كنتم تريدون عرضها عليهم لإغرائهم بالبيع ، نحن بلاد الحسد و الشائعات يا حاج.

سألني شيخ التجار : و من أين لنا بكل هذه الأموال يا أبا المجد ؟.

قلت : هل نسيتم أننا قد أسسنا مصرفا عقاريا ؟ ستحصلون من هذا المصرف على قروض كبيرة تكفي للمشروع و زيادة و أنا شخصا و شركائي سنموّل من يشاركنا منكم ، و لن نأخذ منكم سوى ثلث الأرباح .

ما تم الإتفاق عليه في الإجتماع بيني و بين التجار كان بندا من مهمة أخرى كُلفت بها من قبل الكولونيل جيمس ، هذه المهمة كانت تمهيدا للضربة القاضية التي ستحطم كل إمكانية للثورة ضد سلطتنا المطلقة في البلاد ، و حتى يمكن فهم طبيعة هذه المهمة يجب أن أولا أخذ فكرة عن حالة العقارات في تلك الفترة :

كانت معظم أبنية البلاد في تلك الفترة مبنية من طابق واحد فقط أو طابقين غير منفصلين ، المنزل العادي كان مكونا في المتوسط من سبع غرف ، أربع منها للنوم و واحدة للمعيشة و واحدة للضيوف و أخرى للمؤنة ، و طبعا المطبخ و الحمام و الخلاء ، و كانت مساحة هذه البيوت لا تقل عن ثلاثمائة متر مربع ، نصف المساحة تبني عليها الغرف التي تتوزع على أطراف الأرض من الخارج بينما يبقى الوسط غير مبني ، النصف الثاني و هو الذي تحيط به الغرف من جهاته الأربع كان يبلط بالحجارة الملساء و يسمى "باحة الدار" المفتوحة للسماء و ربما تبني في وسطه بركة فيها نافورة ماء.

أسقف الغرف عالية جدا يزيد علوها على الخمسة أمتار ، و في الغرف التي تطل على الطرق تفتح نوافذ عالية تبدأ من أول النصف الثاني من الجدار الذي يطل على الشارع بحيث لا يستطيع المارة النظر إلى داخل المنزل و رؤية أهله.

أما الجدران فكانت كلها مبنية من الحجارة الصماء ، الجدران التي تطل على باحة الدار تفتح فيها عدة نوافذ واسعة و واطئة قريبة من الأرض بعضها كالأبواب تماما بحيث يرى داخل الغرف من الباحة ، باستثناء غرفة الضيوف التي تكون عادة قريبة من باب البيت و معزولة عن باحة الدار بممر طويل يفصل بين باب البيت و الباحة الداخلية.

هذه البيوت صممت لضمان خصوصيات السكان ، فالنساء في بلادنا و معظمهن محجبات كن يستطعن التحرك في البيوت بحرية تامة و دون حجاب و دون القلق من أن تتجسس عليهن عين رقيب من مارة أو جيران.

هذا التصميم كانت له مهمة أخرى و هي ضمان بقاء الأسر متماسكة و كبيرة العدد ، فالرجل يستطيع أن يسكن في منزل كهذا عدة زوجات و يمكن له أن ينجب عددا كبيرا من الأطفال ، و لا يحتاج في العادة إلى الخروج بنسائه إلى المنتزهات لأن المنزل نفسه كالمنتزه ، فمعظم البيوت تضم أنواعا من الأشجار المثمرة و الكثير جدا من نباتات الزينة و الزهور بأنواعها ، كان النسوة في ذلك الزمان يستعصن عن النزهة في البساتين بما يعرف بـ "الزيارة الدورية" ، و هي عبارة عن زيارة يومية أو نصف أسبوعية تستقبلها إحدى الجارات دوريا ، طبعاً هذه الزيارات كلها صباحية و تتمتع النسوة خلالها بجمال أفنية و حدائق منازل بعضهن بغياب أعين الرجال الذين يكونون عادة في أعمالهم.

و لهذا التصميم أيضا فوائد تربية كثيرة منها أن الأطفال يستطيعون أن يجدوا فيه ملعبا واسعا يغنيهم عن اللعب في خارج المنزل ، خاصة و أن الطرق التي كانت تفصل بين البيوت لم تكن واسعة و لا سهلة لجري الأطفال ، و هذا يحمي الصغار من مخاطر الشوارع و ما تجلبه من البلايا و الرذائل.

بسبب رخص العقارات كان الناس قادرون على بناء بيوت كهذه ، فلقد كان متوسط راتب الموظف الحكومي السنوي يعادل ربع متوسط ثمن المنزل في ذلك الوقت ، على الرغم من كل الأزمات التي مرت بها البلاد طوال عقد من حكم الكولونيل بديع بقيت البيوت رخيصة ، و كان الناس يضربون المثل للفقير جدا بقولهم : "بيته بالكراء و خبزه بالشراء" ؛ أي أنه يسكن بيتا بالإيجار و لا يخبز خبزه في تنور الدار ، طبعاً الشق المتعلق بالخبز من المثل الآنف كان قد صار بؤسا عاما يشترك فيه جميع أهل المدن تقريبا بعد قرارات التأمين الصناعية و الزراعية و إنشاء المؤسسات الحكومية أي بعد استيلاء الكولونيل بديع على الحكم بثلاث سنوات فقط ، إلا أن الشق الأول من المثل المتعلق بالبيت كان ينطبق على أقل من نصف عشر سكان المدن فقط في نهاية العقد الأول من حكم الكولونيل بديع.

في ذلك الوقت وُجدت في مراكز المدن عشرات المباني المكونة من خمسة أو حتى سبعة طوابق و لكنها كانت مبان للمكاتب و لم يكن يسكنها إلا القليلون ، و كان الناس يسخرون منها فيسمونها "شَقَّة" بكسر الشين و هي تأنيث مصنوع لكلمة "شَق" و هو القبر الذي يدفن فيه المسلمون موتاهم عادة ، و بعضهم كان يسميها "خشخاشة" تشبيها لها بالمقابر التي يدفن

فيها المسيحيون توابيت موتاهم ، و رغم أن الكثيرين من الحداثيين سكنوا الشقق و المباني المتعددة الطوابق في المدن و رغم أن الشقق كانت واسعة و أصغرها كانت مساحته تصل إلى المائتي متر مربع ، إلا أن معظم العامة لم يستسيغوا فكرة شراء أو بناء شقق سكنية على النموذج الأوربي.

قبل أن ينفذ التجار ما اتفقنا عليه في اجتماعنا الآنف وصل إلى البلاد الكولونيل جيمس و معه فريق متخصص في إنشاء المدن مكون من تسعة أشخاص كان عاشرهم البروفسور نيقولا ، و نيقولا هذا كان أستاذا في علم نادر اسمه "الهندسة الإجتماعية" ، هذا الاختصاص يدرس مكونات المجتمعات و طرق تطويرها و ترتيب طبقاتها و مستويات المعيشة فيها و يرسم المتخصصون في هذا العلم خرائط كبيرة رباعية الأبعاد للمجتمعات التي يدرسونها ، هذه الخرائط تشمل أساسا أشكال التغيرات المنتظرة على هياكل و تركيبات المجتمعات في المراحل الزمنية المتلاحقة ، من خلال مناقشاتي شعرت أن هذا الرجل هو الذي وضع تصميمات كافة المهمات التي قمت بتنفيذها خلال حياتي المهنية.

البروفسور نيقولا كان رجلا في السبعين من عمره ، إلا أنه كان يبدو أصغر من سنه بعشرين عاما ، وكان طويلا أوربي الملامح جدا إلا أنه مثلث الوجه كبير الأنف دقيقه ، عيناه عسلتان واسعتان و شعره أبيض مسترسل على كتفيه و كان حليق الوجه وسيما إذا ابتسم ، و هو شخص أنيق جدا ، لا يدخن و لا يشرب الكحول مطلقا.

عقدت مع الكولونيل و البروفسور نيقولا لقاء على العشاء في منزل الكولونيل بالحي المسيحي القديم في العاصمة و بعد التعارف بادر الكولونيل جيمس بالتحدث عن المهمات السابقة و لم يتحرز من حضور البروفسور نيقولا و استعرض معي ملخصات عن التقارير التي رفعتها له عما أنجزناه من هذه المهمات ، و أيضا استعرض معي ملخصات تقارير عن الأوضاع السكانية و الإجتماعية التي آلت إليها البلاد ، و خلال هذا الإستعراض كان البروفسور يبدي سعادته و رضاه عن ما أنجزناه و عن التغيرات الحاصلة !.

في الليلة التالية اجتمعنا ثانية و عدنا إلى بحث ملف العقارات العتيد ، حينها بدأ البروفسور الكلام في حين صمت الكولونيل و أخذ ينصت باهتمام ، قال نيقولا :

أنت تعرف جيدا أن زمن الإستعباد قد ذهب ، و لكن علينا أن نفهم أيضا أن ما يسميه الناس بـ "عهد الحرية" لن يأتي أبدا ، لأننا لو أخذنا تصورات كل إنسان من العامة لمعنى الحرية ثم طبقنا هذا التصور على أرض الواقع ضمن المنازل فقط ستتحول الحياة كلها إلى غابة للوحوش المفترسة خلال أيام فقط ، إذا لا بد من العبودية ، و لقد خضع الأحرار و حتى النبلاء في زمن الإمبراطوريات للعبودية الدينية ، لقد تقيد الناس كالعبيد بالقوانين آنذاك خوفا من الإله و مع ذلك كان لا بد للملوك من تقييد الناس إلى سلطتهم بأنظمة إقتصادية صارمة تجعل من التمرد على سلطة الملك سببا لجوع المتمردين و حرمانه من مقومات

الحياة ، حتى لو كان هذا المتمرّد يمارس قمرده بسلمية و دون عنف ، لقد كان الملك هو المالك لكل الأرض و صاحب الكلمة الأخيرة لكل شيء في البلاد.

قلت : هل سنؤمّم جميع الدكاكين و البيوت و الأملاك و نحول جميع السكان إلى موظفين في الدولة كما هو حال البلاد الشيوعية !؟.

قال نيقولا بجدية و صرامة : نعم تقريبا و لكن دون أن يكون هذا معلنا.

قلت : كيف يكون هذا ممكنا دون الإعلان عنه ؟.

قال البروفسور : نحن طبقنا هذا في أوربة و أمريكا بشكل غير معلن خلال ستة عقود و نجحنا ، و طبقناه في الدول الشيوعية بشكل معلن في نفس المدة و نجحنا.

قلت : الدول الشيوعية فهمتها و لكن كيف طبقتموه في أوربة و أمريكا ؟.

قال البروفسور : متوسط سعر المنزل في أوربة يبلغ عشرة أضعاف متوسط الأجور السنوية للعمال و الموظفين و أصحاب الأعمال الصغيرة و الحرفيين و هؤلاء تسعة و تسعون بالمائة سكان أوربة اليوم ، لقد كانت العقارات كلها في زمن الإمبراطوريات ملكا للأرستقراطيين الأوروبيين ، استطعنا نحن المصرفيون أن ننتزع منهم معظم هذه الأملاك من خلال فوائد القروض التي كانوا يأخذونها منا لينفقوها دون حساب ، و في عصر الجمهوريات استطعنا وضع أيدينا على معظم العقارات في سائر مدن أوربة من خلال إقراض الحكومات أموالا كانت تُنفق على سداد فوائد ديون هذه الحكومات لنا ، ببساطة أصبحنا نحن المصرفيون سادة الأرض في أوربة ، و صار تسعة أعشار الأوروبيين مستأجرون عندنا.

قلت : لكنني عشت هناك و رأيت أن معظم الناس يملكون بيوتهم !.

قال البروفسور بنفس الجدية : هذا الذي رأيته مجرد وهم نحن خلقناه في عقول الأوروبيين ، لقد أدخلنا إلى عقول الأوروبيين فكرة أن يملك كل واحد منهم بيته و يتخلص من دفع ثلث دخله لنا كإيجار لبيته فوجدوها فكرة رائعة ، و لتنفيذها فتحنا لهم البنوك و المصارف ليقترضوا منها أموالنا حتى يشتروا مَنّا عقاراتنا فتصبح لهم ، عملية حسابية بسيطة ستوضح الأمر :

سيكون على الإنسان الأوروبي الذي اقترض مَنّا ثمن منزله و هو في العشرين من عمره و في بداية حياته الوظيفية أن يمضي عقود شبابه القادمة كلها في العمل و الجهد المتواصل ليسدد لنا المال الذي اقترضه منا ليشتري منا منزله ، لقد بعناهم المنازل بأسعار تعادل عشرة أضعاف أجر أحدهم السنوي ، ثم ضاعفنا المبلغ بعد حساب الفوائد على القرض ثمن المنزل السعيد و قسمنا المبلغ على ثلاثين عاما ، و هكذا استولينا على ثلثي دخل كل واحد منهم طوال فترة شبابه ، و عندما ينهي الأوروبي

أو الأمريكي ثمن منزله يكون قد شاخ و كبر و لم يعد يفكر إلا في قضاء ما بقي من عمره في سلام و سرور و دون الكثير من الألم بسبب الشيخوخة ، و سيستريح من الإيجار و من أقساط القروض و لكنه سيكون عجوزا و وحيدا ، و بعد أن يموت نادرا ما يتحول منزله إلى إرث لإبنه أو ابنته لأن الأسر هناك لا تصمد أكثر عشرين عاما على أحسن الأحوال فالأبناء يهجرون آباءهم بعد سن العشرين إلى غير رجعة ، و الزوجات كذلك غالبا ما يتركن الأسرة بعد أقل من عشرة أعوام من الزواج ، عادة ينتقم هؤلاء الآباء من أبنائهم بحرمانهم من الإرث ، و تعود البيوت إلى الحكومات ثم تعود إلينا في المزايدات الحكومية التي لا يحضرها أحد سوى مندوبينا .

قلت : هل ستطبقون هذا في بلادنا ؟.

قال البروفسور بحزم : نعم و لكن دون أن نعطي للناس عندكم قروضا ليشتروا بها العقارات ، و دون أن نشترى نحن العقارات أو نستولي عليها لأن الوقت قد فات على هذا.

قلت : كيف لم أفهم ؟.

قال البروفسور : لقد عدلنا الخطة عندكم لتناسب ظروفكم و خططنا المستقبلية ، ما سيحصل عندكم هو التالي :

نرفع أولا أسعار العقارات إلى أكثر من عشرين ضعفا من متوسط أجور العاملين ، و لأن شعبكم ينجب كثيرا فسيكون لديكم دوما طلب كثير و متزايد على السكن ، و هذا سيبقي أسعار العقارات في مستويات متزايدة دوما ، ثم سنخفض القيمة الشرائية لعملتكم بحيث يكون من المستحيل على العامل أو الموظف شراء منزل و لو جمع رواتبه قرنا كاملا دون أن ينفق منها شيئا على نفسه ، عندها سيعجز معظم العاملين في بلادكم عن شراء المنازل ، ثم سنفتح لشبابكم سبل الخروج من بلادكم للعمل في الدول الأوروبية أو الدول العربية الغنية التي هي أيضا مستوطنات استثمارية أوروبية، و هكذا ستكون الوظائف في الغربية هي البديل عن القروض المصرفية للإسكان ، بهذه الطريقة سيمضي الشاب العربي أيضا شبابه و زمن قوته في شراء منزل في وطنه كما هو حال الشاب الأوربي و قد يموت عاثر الحظ في الغربية دون أن يشتري هذا المنزل ، بهذه الطريقة لن نحتاج لشراء العقارات لأن أنانية الناس عندكم ستبقي أسعار العقارات عالية كما لو أننا احتكرناها جميعا ، و لن نحتاج لدفع القروض ثمنا لهذه العقارات و نتعب في تحصيلها و تحصيل فوائدها.

قلت : و ما الذي ستفيدونه أنتم إذا ؟. و كنت أقصد الفائدة المالية طبعاً.

قال البروفسور : أولا سنقيد جيدا جدا جميع القادرين من شباب بلادكم على القتال و إثارة المشاكل بقيد الحاجة ثم سنربطهم إلى عربة سلطتنا ليجروها دون كثير من الإزعاج ، و ثانيا سنجنى أرباحا خيالية من أجور و رسوم الحوالات التي

يرسلها أبناءكم من مغترباتهم إلى أهلهم و مخطوباتهم لأن هذه الحوالات ستمر كلها من مصارفنا سنريح أجرة الحوالات و عمولة صرافة هذه الحوالات أيضا بطريقة أشرحها لك بعد قليل.

قلت : هل سيطرأ تعديل على نظام الصرافة في البلاد ؟.

قال البروفسور : نعم سيتمتع نائيا بيع العملة الأجنبية في بلدكم إلا عبر المصرف الوطني ، و سيتمتع المصرف الوطني عن بيع العملة الأجنبية إلا في حالات خاصة ، هذا النظام سيسمح بتمويه العجز المالي المتزايد في الميزانية ، سعر العملة الوطنية الرسمي مقابل العملات الأخرى سيكون مرتفعا و معقولا و ثابتا لفترات طويلة ، لكن ما يستطيع المرء أن يشتريه بهذه العملة سيكون أقل و أردء يوما بعد يوم ، و هذا سيضطر الجميع للبحث عن ملجأ من الفقر في مكان ما خارج البلاد ، و حين يرسل المال إلى البلاد ليبنى بيتا أو مستقبلا إقتصاديا كريما فإن هذا المال سيدخل البلاد بالتهريب من الدول العربية المجاورة التي تسمح بصرافة العملات الأجنبية ، و هناك ستكون بنوكنا في انتظار هذه الحوالات لتبقى فيها ، فهذه الحوالات سيشتري بها المغتربون عملتكم الوطنية بأرخص من قيمتها و سيرسلونها إلى بلادكم ، أو ستدخل العملة الأجنبية قريبا إلى بلادكم لتصرف بعملتكم الوطنية ثم ليحملها الصرافون إلى بنوكنا مرة أخرى في كلا الحالين ليحصلوا بدلا منها على عملة الدولة العربية المجاورة لكم ، و التي تعبر من بنوكها الحوالات ، خلال عمليات التبدل هذه نحن سنخضع أكثر من خمس هذه الحوالات كأجرة لعمليات التحويل المتسلسلة و فوائد مصرفية خلال فترة الإيداع ، ثم تعود العملة الأجنبية كلها إلينا مع أرباحها. انتهى كلام نيقولا ، و لقد تم تنفيذه كله بدقة.

في بداية العام الحادي عشر من حكم الزعيم الأوحده بديع كانت المهمات الآنفة الذكر قد استكمل تنفيذها جميعا و صارت المنظومات كلها قيد العمل ، و أرسلت للبارون تقريرا مفصلا عن الحالة العامة للبلاد ، التقرير كان ملخصا لمئات التقارير التي وردت إلي من أعضاء منظمتي من سائر أنحاء البلاد ، و هذا مختصر التقرير :

أولا التعليم : بلغ عدد المدرسين و العاملين في قطاع التعليم نحو من ثلاثين ألفا ما بين مدرّس و إداري ، و عدد المدارس و الجامعات و الكليات الحرفية زاد على الثلاثة آلاف ، و أعداد الطلاب فاقت الثلاثة ملايين طالب من مختلف المستويات. غرفة الدراسة في المدارس الابتدائية و العليا تضم أكثر من ستين طالبا ، و حصة كل مدرس مائة و خمسين طالبا.

المناهج كلها نظرية و كبيرة الحجم قليلة النفع بمتوسط عشرة كتب للعام الدراسي الواحد و لا يوجد فيها أي نوع من التدريس العملي سوى حصص الرياضة القليلة و هي حصتان أسبوعيتان بواقع ثلاثين دقيقة للوحدة ، و يعتمد التدريس على تحفيظ الطلاب نصوصا و صفحات كثيرة دون السماح لهم بمناقشة ما فيها و ذلك نظرا لضخامة المناهج حجما و ضيق الوقت المعطى لكل طالب بسبب قلة المدرسين و ضيق غرف الدراسة ، و لهذا فإننا نجد أن الطلاب الأذكياء

الذين يميلون للفهم و التمحيص قد هبطت درجاتهم إلى الرتبة المتوسطة لأنهم يرفضون النقل الحرفي لما يقرؤون و لا يكتبون في امتحاناتهم إلا ما فهموا و وعت عقولهم ، و لهذا سيحرمون من الجامعات العملية كالطب و الهندسة ، فلقد اشترطت وزارة التعليم حصول الطالب على أكثر من تسعين بالمائة من درجات امتحان الثانوية العامة ليدخل إلى إحدى هذه الجامعات ، فأعطيت هذه الاختصاصات للذين يجيدون الحفظ الحرفي للمناهج ، هؤلاء لا يميلون للتمحيص و التدقيق و لهذا سيخرجون من الجامعات دون أية طموحات أو قدرات على البحث العلمي و التجربة و تطوير المعرفة التقنية و العملية ، و حتى دراستهم في الجامعات مرهقة و ليس فيها أي هامش للبحث و التطوير و تعتمد الحفظ الحرفي في الأساس.

الطلبة الأذكاء من ذوي الدرجات المتوسطة و الطامحين إلى دراسات عملية سيكون عليهم الحصول على منح دراسية أوروبية أو أمريكية ، و منظمنا انتخبت من هؤلاء من كرهوا البلاد و صاروا يطمحون للعيش في أوربة على النمط الأوربي ، و لقد أرسلنا منهم بضعة مئات إلى أوربة خلال الأعوام الخمسة الماضية و لم يعد منهم إلا أقل من عشرة و معظم هؤلاء المبتعثين تخرجوا و صاروا مواطنين أوروبيين و تزوجوا من أوروبيات و استقروا في أوروبا و أمريكا إلى نهاية حياتهم.

عدد خريجي الجامعات و الكليات الحرفية خلال الأعوام الخمسة الماضية بلغ نحو من نصف مليون ، لقد تم توظيفهم جميعا في مؤسسات الدولة و الشركات الحكومية و في الجيش و الشرطة و المخابرات ، الفضل يعود إلى قانون "خدمة الدولة الإجباري" الذي يوجب على المتخرج أن يعمل موظفا عند الدولة مدة خمسة أعوام على الأقل لقاء مصاريف دراسته ، و أخيرا نسبة الأمية في البلاد تراجعت من تسعين بالمائة سُجلت في عام إنتهاء الإنتداب الأوربي إلى ستين بالمائة بعد الإستقلال بنحو من سبعة عشر عاما تقريبا.

ثانيا الجيش : و القوات المسلحة (الشرطة -المخابرات -الجمارك -حرس الحدود -أمن الدولة) : بلغ عدد منتسبي هذه المؤسسات مليوناً و نصف المليون ، موزعين على النحو التالي :

مائة ألف ضابط و ضابط صف يقودون هذه المؤسسات ، جميعهم من أبناء الريف و البادية ، نصف هؤلاء من الأقليات الدينية (غير مسلمين) و خاصة من أتباع الديانات السرية المنشقة عن المسلمين .

يوجد في كل وحدة من وحدات الجيش الصغيرة (فوج = مائة عسكري) موظفان سريان يعملان لصالح المخابرات و حماية أمن الدولة و يكتبان بانتظام تقارير عن الضباط و ضباط الصف العاملين في محيطهم أي بواقع ثلاثين ألفاً من المخبرين و المراقبين السريين ، و هؤلاء يتقاضون مرتبات القوات المسلحة و مرتبات خاصة من المخابرات ، و بفضل هؤلاء جعلنا ضباط الجيش يشعرون بأنهم مراقبون بشدة ، فلقد تعرض عدد كبير من الضباط للتحقيق و الإعتقال و التعذيب و السجن لفترات طويلة لأسباب تافهة بناء على تقارير من هؤلاء المخبرين ، و نفذ عدد من هؤلاء المخبرين عمليات إعدام ميداني

لضباط بتهمة الإشتباه بتفكيرهم بالتمرد ليصبحوا عبدة لغيرهم ، و بهذا تمت السيطرة الكاملة على القوات المسلحة من قبل المنظمات السرية التابعة للحكومة.

القائد العام للجيش هو "الملحق العسكري" لدولة الإنتداب الأوربية السابقة و هو برتبة كولونيل (عقيد) و يعاونه طاقم من المستشارين العسكريين الأوربيين.

رئيس الأركان العامة المارشال عبد الصبور ليس سوى واجهة تزيينية ، فالرجل منشغل كثيرا بالقاطنات في شارع الحرية الكبير في العاصمة (حي الطرب و الهزج) و هن جميعا من فنانات فريقنا الخاص الذي دربناه و رعيناه في فترة ما قبل عهد الكولونيل بديع ، لقد افتنن المارشال بمن واحدة تلو الأخرى و صار كاتباً للروايات الرومانسية و للشعر الغزلي الرقيق ، و أصدر دواوين للشعر في التشبيب بمن و لحنت بعض قصائده لتغنيها مطربة مشهورة من بلادنا ، هذه المطربة أسرت بأدائها و أغانيها قلوب الشعب حتى أنها تحتل في كل شهر سهرات كل أهل البلاد الذين كانوا ينصتون بشغف لأغنياتها الجديدة عبر الراديو و التلفزيون بينما يلتهمون أصناف الحلويات و الفاكهة و المكسرات.

طبعاً و باعتبار المارشال من فرسان البلاد فهو يهتم أيضاً بالفروسية و الصيد البري و تربية الصقور و لديه ناد للفروسية و الرماية يداوم فيه بشكل دائم تقريبا مع محظياته الكثيرات.

قسمنا الجيش الذي بلغ تعداده مليون جندي و ضابط إلى عشرة فيالق و عينا على قيادة كل فيلق ضابطاً برتبة لواء جميعهم من غير المسلمين و يتبعون الديانات السرية و تولى ضباط متوسطون من هؤلاء أيضاً قيادة جميع فرق الجيش و ألويته بشكل فعلي فالقطعة العسكرية التي لا يقودها واحد منهم يكون نائب قائدها واحداً منهم بالتأكيد.

الشرطة أيضاً كان جميع قادتها الكبار من أتباع هذه الديانات و إن كان عناصر و صف ضباط الشرطة في الغالب من أرياف المسلمين ، بلغ عدد رجال الشرطة في البلاد مائة ألف و حرصنا على أن يتوزعوا على كافة أرجاء البلاد.

المخابرات و مؤسسة حماية أمن الدولة ضمنا أكثر من ثلاثمائة ألف عنصر و ضابط ، و لقد توزع هؤلاء على أفرع و شعب بعدد مدن البلاد و قراها فلم تخل منهم قرية و لا مدينة و لا شارع و لا مؤسسة و لا مشفى و لا مصنع و لا مدرسة و كانوا جميعاً يرفعون تقارير منتظمة إلى رؤسائهم عن كل ما يحيط بهم ، لقد ضبطوا في تقاريرهم حتى أعداد المواليد و أجناسهم و حفلات طهور الأطفال و علاقات الغرام الناشئة بين المراهقين و طبعاً الوفيات بين الناس و بين البهائم الكبيرة أيضاً.

للمخابرات و حماية أمن الدولة صلاحيات واسعة لإعتقال من يشاؤون و لمدد غير محددة و دون أن يضطروا للإفصاح عن أماكن و مصير سجنائهم ، و لم يكن ممكناً للقضاة المدنيين أو المحامين متابعة قضايا سجناء هذين الجهازين ، الإعتقالات و التحقيقات في هذين الجهازين تتم كلها استناداً لتقارير المخبرين بغض النظر عن وجود أدلة أو شهود تؤيد هذه التقارير ، و

تستعمل في عملية الإعتقال و التحقيق كافة أصناف التعذيب الجسدي و الجنسي و النفسي ، فأن بقي السجين حيا و اعترف بالتهمة الموجهة إليه أحيل إلى محكمة عسكرية خاصة في السجن الحربي و هناك يتقرر مصيره ، فأما إن كان السجن فعلى الأقل يحكم عليه بسنوات عشر ، و إن أعدم لم تسلم جثته لأهله و أنما يتسلمون إخطارا بإعدامه ، و من تصرف من ذوي السجين الذي أعدم بما يشير إلى غضبه من إعدام قريبه يُعتقل هو الآخر و يجري عليه ما يجري على سجناء المخابرات و أمن الدولة ، و لهذا انعدمت الاعتراضات على أعمال هذين الجهازين تماما بعد عامين فقط من إطلاق صلاحياتهما وفق قانون الطوارئ .

عدد سجناء الجهازين بلغ عشرة آلاف و هو رقم صغير جدا قياسا لعدد السكان ، معظم هؤلاء من المتدينين و الشيوخ من معتقلي "ثورة بسطام" و من تعاطف معهم ، و القليل منهم شيوعيون من ضحايا عمليات سالم.

ثالثا الطبابة : يبلغ عدد المشافي في سائر أنحاء البلاد مائة مشفى تابع للحكومة ، و في هذه المشافي يعمل نحو من ألفي طبيب من سائر الاختصاصات ، و يقوم ببقية الأعمال أكثر من عشرة آلاف مستخدم ما بين ممرض و معاون طبي و طباط و عامل تنظيفات ، لا توجد في كل أنحاء البلاد إلا نحو مائة عربة إسعاف غير مزودة بأي نوع من الأجهزة الطبية سوى أنابيب الأوكسجين و بعض المعقمات و الضمادات ، و يبلغ عدد المسعفين المتدربين في كل أنحاء البلاد خمسمائة مسعف متدرب يتناوبون العمل في الليل و النهار.

مراكز الإسعاف في المستشفيات الحكومية غير مجهزة إلا للإصابات الطفيفة فقط ، و لا تتوفر في المشافي إلا خمس كمية و أنواع الأدوية التي تلزم لنزلاء المشافي ، و لهذا يقوم المرضى و ذويهم بتأمين الأدوية اللازمة لهم من أسواق التهريب و بأسعار عالية جدا ، إذ قد يزيد على نصف الراتب الشهري لأي مدير مدرسة ثمن أدوية مضادات الإلتهابات مثلا أو أدوية التخدير اللازمة لمريض واحد.

عدد أسرة المشافي في كل البلاد لا يزيد عن أربعين ألفا و لا تكفي إلا لعشر إحتياجات السكان الذين بلغ عددهم خمسة و عشرون مليوناً و زيادة ، و لهذا تزدهر العيادات و المستوصفات الخاصة و هذه العيادات لا توفر عادة أسرة للمرضى ، إذ عادة ما تجرى العمليات الجراحية للمرضى في هذه العيادات ثم يُنقلون إلى بيوتهم لإستكمال العلاج فيها ، و مع ذلك لا يستطيع العامل العادي أو الموظف الحكومي أن يرتاد هذه العيادات للحصول على العناية الطبية منها.

حصلت البلاد كلها على منحة أوروبية للقاحات ضد الأوبئة السارية و تم تلقيح أكثر من ثلثي السكان ، و على أثر هذه الحملة انتشرت في البلاد أمراض الحساسية بأنواعها و بدأ للمرة الأولى بيع مضادات الحساسية و أدوية الربو ، و هما المرضان الجديدان في البلاد ، ثم تلاهما ظهور طفيف لأنواع من السرطان الذي تتسبب به اضطرابات أجهزة المناعة.

رابعاً الصناعة : تراجعت قدرة البلاد على الإنتاج الصناعي كما و نوعاً إلى أقل من نصف هذه القدرة قبل إستملاك المصانع في البلاد ، رغم أن عدد العمال و الموظفين في المصانع قد زاد إلى أربعة أضعاف عددهم قبل الإستملاك ، و يرجع هذا إلى إنعدام الشعور بالمسؤولية تجاه المصانع لدى الإدارات و العمال و الموظفين ، فالجميع يسعى للهروب من الدوام بأية وسيلة ، و السبب هو أن العمال و الموظفين كانوا مطمئنين إلى تسلمهم رواتبهم في نهاية كل شهر سواء أخسرت المصانع أم ربحت ، و لذلك كانوا يهربون من الدوام بحجج كثيرة أو يستعملون ساعات الدوام للنوم و الراحة بحجة تعطل الآلات أو نقص المواد اللازمة لتصنيعها أو انقطاع الكهرباء أو .. إلخ و غالبية هذه التعطيلات كانت مفتعلة من العمال و الإداريين ، و مع هذا لم يعاقب أحد منهم على هذا الإهمال و التخريب ، و بهذا صار عادياً جداً أن تمر في مصانع الغزل و النسيج و هي المصانع الأساسية الكبرى في البلاد أو في مصانع تعليب الأغذية فتجد الآلات متوقفة و العمال ما بين نائمين و متحلقين حول أبريق الشاي و علب السجائر .

لقد تحولت الصناعات كلها إلى شفاطات للمال العام ، فالمصانع تستهلك ميزانيات ضخمة للرواتب و الأجور و تكاليف الصيانة و المواد و لا تعود منها إلى ميزانية الدولة أثمان لمنتجاتها المصنوعة إلا أقل من نصف ما تستهلكه من أجور و تكاليف.

أما على صعيد الصناعات الخاصة غير المملوكة للدولة فلم يسمح لأحد بافتتاح مصنع خاص يزيد عدد عماله على العشرين عاملاً ، و لهذا السبب بقيت الصناعات الخاصة التي يديرها أهل المدن في حيز ما تسمى بـ "ورشات" في أحياء مخصصة لهؤلاء الحرفيين سميت بـ "المناطق الصناعية" و ترواحت أعمالها ما بين الحدادة و النجارة و صناعة اللبن الإسمنتي و البلاط و الآجر و الزجاج البدائي و الخزف البدائي و تصليح الآليات و الخراطة اليدوية أو النصف آلية و تصنيع الألبسة و الأحذية و بعض مصانع النسيج الصغيرة جداً ، و تحصل هذه الورشات على المواد الأولية من مؤسسات الحكومة بأسعار مخفضة و هذا سبب جعلها تكتسب أيضاً بفضل هذه التخفيضات الكثير من ميزانية البلاد.

بقية المواد الصناعية كلها تستورد من الخارج عن طريق شبكات التهريب.

خامساً الزراعة : بقي الإنتاج الزراعي في البلاد في مستوياته التي كان عليها منذ عقد كامل رغم ازدياد عدد السكان و زيادة استهلاك الغذاء ، لأسباب هي : السبب الأول يعود إلى ترك أكثر من ثلث شباب الريف لقراهم و انتقلهم إلى العمل في الجيش و الشرطة و المخابرات .. إلخ .

و السبب الثاني يعود إلى انشغال سكان الأرياف الحدودية بالتهريب علماً أن هذه الأرياف تمثل ربع الأراضي الخصبة .

و السبب الثالث يعود إلى انتشار زراعة الخشخاش و القنب اللّازمين لصناعة الحشيش و الخشخاش و مشتقاتهما ، و لقد استغنى الفلاحون العاملون بهذه الزراعة (كلهم من أتباع الديانات السرية) عن إنتاج الأغذية و القطن و التبغ .. إلخ.

تراجعت كثيرا مساحات زراعة القمح و الذرة و كادت تختفي زراعة الأرز و قصب السكر و حلت محلها زراعة الفاكهة المطلوبة لدول الجوار العربية كالموز الصغير و التفاح الذهبي و الليمون و المندرين و الحمضيات الغالية و الكرز الممتاز و الفستق الأخضر و الفول السوداني و الزهور و الورود ، هذه المنتجات لم تكن متوفرة في أسواق استهلاك المدن في بلادنا و إنما كان يشتريها الأغنياء مهربة إلى بلادنا من أسواق الدول المجاورة لنا ، وحده الزيتون و مشتقاته بقي متوفرا و كثيرا لأنه ينبت في كروم و لا يحتاج للكثير من العناية!.

أما اللحوم و منتجاتها فلقد زادت أسعارها جدا و صار من المستحيل على الموظف أو العامل أن يأكل اللحم أكثر من مرة واحدة أسبوعيا لأن راتب العامل لا يمكن أن يشتري أكثر من عشرين كيلو غراما من اللحم أو الجبن أو السمن ، و هذا النقص في استهلاك البروتين الحيواني بين الناس مطلوب جدا لأنه يسبب ضعفا عاما في البدن و يحرم الجسم من زوائد الهرمونات الطبيعية التي تمنح القوة و الشجاعة و الذكاء للذكور و الجمال و النضارة للإناث.

الخضار بقيت متوفرة بأنواعها و رخيصة الثمن ، و كذلك الفاكهة الموسمية و لكن ما يطرح في الأسواق منها هو الصنف الثالث و الرابع لأن الصنف الأول و الثاني كانا يُهربان إلى دول الجوار.

الخبز صار رديئا جدا و لا يمكن لرغيف الخبز المصنوع من الطحين الذي توزعه الدولة على الأفران أن يبقى طريا إلى آخر اليوم ، و مع ذلك لا يتوفر للأسرة في اليوم إلا ما يكفي بالكاد حاجتها للوجبات الثلاث ، و لا بد لسكان المدينة من الإنتظار لساعة أو ساعتين في صباح كل يوم ليحصل على حصته من الخبز.

البذور و الأسمدة الكيميائية و أدوية الآفات الزراعية أصبحت تباع عبر المؤسسات الحكومية للفلاحين ، و لكنها لا تكفي لاحتياجات البلاد ، و أيضا من أراد الحصول عليها من الحكومة عليه أن يسلم كامل محاصيله للمؤسسة العامة للمحاصيل الزراعية بأسعار باهتة ، و لهذا لا يشتري معظم الفلاحين هذه المواد من المؤسسات الحكومية و يفضلون الحصول عليها من المهريين و شركائهم من تجار أسواق الجملة للخضار ، يقترض المزارعون غير القادرين على تأمين ثمن البذور و الأسمدة من المهريين و من تجار أسواق الجملة للخضار بشرط أن يبيعوا محاصيلهم حصرا عن طريق هؤلاء المهريين و تجار الجملة و يحصل التجار على أكثر من عشرين بالمائة من أسعار هذه المحاصيل على هيئة سمسة ، هي في الواقع فوائد لقروض المهريين و التجار الممنوحة للمزارعين.

سادسا الفساد و الرشاوى و الأخلاق العامة : انتشرت الرشاوى بفضل الضباط من أتباع الديانة السرية في كل أصناف القوات المسلحة ، فالجنود الإجباريون إن أرادوا أن يؤدوا خدمتهم العسكرية في مناطق سكنهم عليهم أن يدفعوا الرشاوى لضباط من هذه الديانات يعملون في توزيع المجندين على القطع العسكرية ، و عادة ما يرفض هؤلاء الضباط تلقي الرشاوى بشكل مباشر فيسعى المجندون إلى أقرباء هؤلاء الضباط للتوسط عندهم و لقبض الرشاوى نيابة عن الضباط ، و في داخل القطع العسكرية صارت مؤنة و أغذية هذه القطع نهباً لضباط الصف و كلهم من أتباع هذه الديانات ، و ندرت اللحوم و البروتينات الحيوانية في طعام المجندين و حل محلها العدس و الحمص و جريش الحنطة و صار طعام الجنود كطعام السجناء ، إجازات المجندين صارت تعطى فقط لمن يدفع للضباط الرشاوى.

مستودعات الجيش للمؤن و الألبسة و الذخائر و قطع الغيار كلها صارت مباحا لنهب الضباط بمعونة ضباط الصف من أتباع الديانات السرية ، و حتى بارود القذائف المدفعية و الألغام كان يباع للسوق السوداء لإحتياجات متعهدي شق الطرق و التعمير و صيادي السمك الفوضويين.

الرشاوى لم تصل إلى القيمين على السجون و المعتقلات السياسية و لكنها وصلت إلى السجون المدنية و صار السجناء طبقات فالسجين الفقير يجب عليه أن يصير خادما للسجين الغني حتى يضمن سلامته و احتياجاته في فترة سجنه ، و كل هذا بفضل الرشاوى التي يتلقاها ضباط و حراس السجون و معظمهم أتباع الديانات السرية.

الدعارة وصلت إلى جميع ضواحي المدن الكبيرة في البلاد بفضل الرشاوى ، فالضباط و صف الضباط من أتباع الديانات السرية سكنوا في ضواحي المدن الكبيرة في مساكن تابعة للجيش ليكونوا قريبين من مقرات عملهم ، و ليتمكنوا من التغلغل في مجتمعات المدن و الترويج لخدماتهم مقابل الرشاوى استعملوا زوجاتهم و بناتهم ليجذبوا التجار و شباب أبناء المدن لتعطي الجنس الرخيص معهن و ليشكلن شبكات التواصل بين هؤلاء العسكريين و بين زبائنهم من تجار المهربات أو المجندين الباحثين عن تسهيلات ، هؤلاء النسوة بفضل جرأتهن على الدعوة إلى الجنس و بيعه استطعن جذب الرجال و الشباب الخجولين و روجن بينهم الحشيش و تعاطي المسكرات و صار الجنس يعطى للزبائن مجانا كمقدمات للبضاعة الأساس و هي الرشاوى و مشتقات القنب و الخشخاش ، و صارت مساكن العسكريين الوجهة الأمثل لطلاب المتعة و السهولة و اللذة المجانية.

الإستنزاف الكبير للميزانية جعل جميع النفقات اليومية للدولة دينا عليها ، و لولا عائدات النفط و الغاز و ما يرسله البارون كمساعدات مستقطعة من أرباح تجارة الخشخاش و مشتقاته لإستحالة على البلاد الإستمرار كدولة و لو لشهر واحد.

سابعا العقارات و الإسكان : تجار الأسواق الكبار و كبار تجار المهربات بأنواعها نفذوا خططنا للعقارات بحذافيرها و اشتروا كافة العقارات الزراعية الملاصقة للمدن الكبيرة ، و آلاف العقارات السكنية الواقعة في مراكز المدن الكبيرة و دفعوا في هذه العقارات أضعاف قيمتها ، و بسبب هذه الحملة ارتفعت أسعار العقارات في كافة أرجاء البلاد إلى مستويات خيالية مقارنة لمثيلاتها في أوربة ، و أصبح سعر العقار في عاصمة بلادنا يعادل سعر نظيره في العواصم الأوربية الكبرى ، إلا أن العقار في بلادنا لا يمكن تأجيره بأكثر من ربع عُشر أجره نظيره في أوربة لأن أعلى دخل للعامل أو الموظف أو الحرفي الممتاز لم يعد يعادل ربع عشر دخل العامل الأوربي الفقير ، بعد أن كان دخل العامل في بلادنا يزيد على دخل نظيره الأوربي في عام الإستقلال عن الإنتداب.

قل كثيرا عدد مقتني العقارات بسبب ارتفاع أسعارها ، و زاد الإقبال على استئجار المنازل ، و لأن البيوت كثيرة في البلاد لم يجد الشباب صعوبة في الحصول على منازل ليستأجروها ، و للقضاء على هذه السهولة أصدرت الحكومة قانونا لحماية الشباب و ذوي الدخل البسيط من عمال مؤسسات الدولة و الموظفين العاديين ، هذا القانون يمنع إخلاء المستأجرين من هؤلاء و يمنع زيادة الأجرة المتفق عليها عند العقد .

بعد صدور هذا القانون بأسبوع واحد فقط امتنع الناس عن تأجير بيوتهم و دخلت مدن البلاد في أزمة للسكن ، و للإلتفاف على قانون الإيجار صار مالكو البيوت يشترطون على المستأجرين الجدد دفع ما يقارب نصف ثمن العقار الذي يريدون إستئجاره بشكل غير رسمي و لا مكتوب في العقود ثم يعقدون معهم عقود الإيجار ، سميت هذه الدفعة المخترعة بـ "الخُلو" و هي من ترويجات السماسرة التابعين لمنظمتنا السرية ، هذه الفكرة الرائعة كانت بإيجاء من طاقم المستشارين الأوربيين التابعين لنا.

الأبنية و المنشآت : أصدرت الحكومة للتجار جميع رخص البناء اللازمة لإنشاء الأحياء الجديدة على الأراضي الزراعية الملاصقة للمدن ، و بدأت أعمال الإنشاء بالفعل ، هذه الأعمال بدأت بطريقة معكوسة تماما للطريقة المعتادة لإنشاء الأحياء الجديدة ، إذا عادة ما يبدأ العمل بشق الطرق و مد أنابيب المياه العذبة و أنابيب صرف المياه المستعملة (الصرف الصحي) و تركيب خطوط الكهرباء و الهاتف أولا ، إلا أن هذه الأحياء بدأ العمل فيها أولا لإنشاء البنايات السكنية ، و بعد أن يكتمل العمل في البناية و تصير جاهزة يبدأ العمل بتسوية و تعبيد الطريق الموصل للبناية و تمديد أنابيب المياه بأنواعها و الكهرباء و الهاتف ، هذا الانقلاب في طريقة العمل أدى إلى إنشاء أحياء كبيرة و كثيرة غير مخدّمة بالحد الأدنى الضروري ، فقام سكان هذه الأحياء بحفر الآبار لشرب المياه و سالت مياه بلاعات هذه الأبنية في سواقٍ صغيرة تجري في وسط الطرق بين البنايات ، هذه الطرق صارت أشبه بجزر ترابية متقاربة ، و بات على سكان هذه الأبنية أن يقفروا كالقروء من جزيرة إلى أخرى منذ أي يخرج أحدهم من منزله و إلى أن يصل إلى أقرب طريق معبد ، و لتوفير الكهرباء راح سكان هذه

البنائات يسرقون الكهرباء من خطوط الكهرباء الرئيسية المارة بقرىهم ، و هذا أدى إلى انهيارات في شبكة الكهرباء و انقطاعات متكررة و طويلة للكهرباء عن المدن و القرى.

في هذه البيئة انتشرت الحشرات و الأوبئة و تفاقمت الأمراض ، أيضا انتشرت الجريمة في تلك الأحياء الجديدة بسبب عدم معرفة السكان لبعضهم البعض ، لقد كان المتعارف عليه في المدن أن أحدا لا يستطيع شراء منزل في أي حي دون أن يوافق جيران المنزل على صفقة تملكه للبيت ، هم عادة لا يوافقون على السماح لأحد بشراء منزل يجاورهم إلا أن يكون إنسانا معروفا لديهم و أن يكون حسن السيرة و السلوك ، في الأحياء الجديدة لا يمكن ضبط هذه الخيارات لأن التجار سيبيعون المنازل لمن يدفع الثمن بغض النظر عن سلوكه و شخصه.

بنائات هذه الأحياء الجديدة عبارة عن هيكل حديدي مكسو ببيكل من الإسمنت و جدارنه كلها إسمنت في إسمنت طلي أكثرها بالدهان الرديء سريع التشقق و الزوال ، هذه البنائات متقاربة و أحيانا متلاصقة ، تتكون هذه الأبنية من طوابق تم تقطيع كل طابق منها إلى شقتين أو ثلاث أو ربما أربع أو حتى خمس أو ست شقق ، للشقة نوافذ تطل حصرا على خارج البناية ، بدل الباحة التي تطل على السماء في البيوت القديمة أصقت بكل شقة شرفة تطل على خارج المبنى لا تزيد مساحتها عن عدة أمتار ، هذه الشقق أنهت تماما عزل ما هو داخل البيوت عن محيطها من الجيران و المارة ، النساء لسن قدرات في هذه الشقق على التجول بحرية و ستر عن عيون الغرباء دون إجراءات خانقة كإغلاق النوافذ بالستائر و تركيب زجاج مفصص على واجهات الشرفات لتتمكن النساء المحجبات من استعمال الشرفات لنشر الغسيل أو الجلوس في ضوء الشمس.

أيضا حرمت هذه الأبنية جميع الأطفال من اللعب الآمن في البيوت و صارت الشوارع هي المتنفس الوحيد لهم للعب و اللهو و الركض ، هذا يساعد كثيرا على تشجيعهم على الإستقلال بسرعة عن ذويهم و أقاربهم لصالح علاقات مع الغرباء و يساعد أيضا على انتشار السلوك الإجرامي العنيف بينهم.

هذه الأحياء يقطنها في وقت إعداد هذا التقرير غالبية ساحقة من الشباب المتزوجين حديثا من أهل المدن و من شباب آخرين من أهل الأرياف الذين التحقوا بصنوف القوات المسلحة من جيش و شرطة و مخابرات .. إلخ ، لهذا السبب أطلق عليها العامة لقب "أحياء الكنائن" ، جمع "كنة" و هي زوجة الإبن.

تنتشر في هذه الأحياء الدعارة و تعاطي المسكرات و القمار و الحشيش و مشتقات الحشاش ، و السبب يكمن في قلة أو حتى انعدام المساجد في معظمها و بعد الرقابة العشائرية عن سكانها الشباب و كثرة أتباع الديانة السرية بين سكانها .

افتتحت الحكومة عدة مدارس في هذه الأحياء و لكنها جميعا تقريبا مدارس ابتدائية ، و بدأت أعمال بطيئة لمدّ خطوط الكهرباء و ماء الشرب و تصريف المياه المستعملة و تعبيد الطرق إلا أنها لا تزال تغطي أقل من عُشر هذه الأحياء .

أخيرا هذه الأحياء شبه خالية تماما من المساحات الخضراء و الأشجار و الورود ، على عكس بيوت المدن القديمة و هذا أثر كثيرا على نفسية و سلوك سكان هذه المناطق فصار أكثرهم يميل للعصبية و العدوانية و السوداوية و الكآبة.

بيعت معظم بيوت هذه الأحياء الجديدة بأسعار تزيد عن عشرة أضعاف كلفة إنشائها ، الأمر الذي جعل التجار يكادون يسبحون بحمدنا من فرحهم بما جنوه من أرباح ، هذه الأرباح شجعت الكثير من سكان الأحياء القديمة على طلب تراخيص هدم بيوتهم - التي يزيد عمر بعضها على الألف عام - و بناء بنايات سكنية بدلا منها ، و لقد أعطت الحكومة للبلديات توجيهات بتسهيل هذه الرخص و أعطت توجيهات للمؤسسات العامة لمواد البناء لتسهيل بيع مواد البناء الحديثة و جعلها متوفرة دوما و أرخص بكثير جدا من الحجارة الصخرية التي بنيت منها جميع المباني في المدن القديمة ، و بالفعل بدأت عمليات إزالة المدن التاريخية من الوجود و بنشاط كبير ، فالأب الذي كان في الماضي يشتري لابنه أرضا غير مبنية و ينشيء له عليها دارا حجرية كبيرة ؛ وجد في الأبنية الإسمنتية الجديدة فرصة له للغنى و لتوفير سكن لأبنائه بالقرب منه ، إن هدم البيت القديم و بناء بناية جديدة على أرضه سيكون أرخص كلفة من شراء عقار جديد و إنشاء بيت حجري عليه.

في داخل المدن القديمة سيجبر من يجاور بناية جديدة على الهدم و البناء المرتفع لأن بيته القديم سيصبح مكشوبا لسكان البنايات العالية الجديدة ، هذا عامل آخر سيسرع وتيرة التخلص من المدن القديمة و من عائلاتها الضخمة و من عشائريتها العvisية على الإختراق.

بنيت بضعة مشاف و مدارس و كليات جديدة و سدود و قنوات ري و جسور و طرق جديدة و لكنها جميعا تفتقر إلى معظم التجهيزات اللازمة ، تم شحن المباني الجديدة بموظفين و كوادري ، و هم يؤدون أقل من خمس المهام المطلوبة منهم بسبب ضعف التجهيزات و المعدات و المواد اللازمة ، أطلق اسم العقيد بديع على جميع هذه المنشآت و غيرت معظم أسماء المدارس في البلاد لتصبح أسماءها ثورية بديعية.

أعطت الحكومة الأوامر لكافة البلديات في كافة المدن الكبرى لإقتلاع الحجارة الصخرية التي رصفت بها الشوارع و الساحات داخل المدن و استبدالها بالإسفلت.

أصدرت الحكومة ضمن خطة تطوير المدن توجيهات لإزالة كافة شبكات أنابيب مياه الشرب النحاسية و قنوات تصريف المياه المستعملة المبنية من الصخور (المجارير) التي مدت أيام الحكم التركي و في فترة الإنتداب الأوربي ، ثم مد شبكات أنابيب من الحديد المخلوط بالفحم لمياه الشرب عوضا عن أنابيب النحاس ، و مد شبكات من الأنابيب الإسمنتية بدلا من قنوات

الحجارة للمياه المستعملة ، شبكتا المياه يجري مدهما متلاصقتين جدا ، هذه الميزة ستتيح اختلاط المياه بين الشبكتين بعد عدة أشهر فقط على إنهاء مدهما دون أن يكون هذا ملحوظا ، و هذا وفر الكثير من الأمراض الباطنية و الهضمية العvisية على العلاج مهما كانت الأدوية فعالة ، هذه الأمراض تحول الشاب الشجاع إلى شيخ متهدم رعديد.

ثامنا الدين و رجاله و دور العبادة : دفعة كبيرة من رجال الدين المسلمين تم تخرجها من "الكلية الشرعية" ، هذه الكلية تأسست بعد "الثورة البسطامية" و تولى التدريس فيها طاقم من المشايخ ، هؤلاء المدرسون كلهم من أعضاء معابد و محافل بُناة الحرية ، و لقد اختير الطلبة لهذه الكلية من الفاشلين دراسيا و الحاصلين على الشهادة الثانوية بمعدلات منخفضة جدا ، هذا أتاح هؤلاء المدرسين فرصة كاملة ليزرعوا في رؤوس هؤلاء الطلبة المنخفضي الذكاء نسخة جديدة من الدين الإسلامي ، نسخة أعدت بعناية في أوربة بإشراف أساتذة و مستشرقين كبار ، تم توزيع هؤلاء الخريجين على المدارس العليا و الجامعات في البلاد ليدرسوا مادة "التربية الإسلامية" و تم تسليمهم أكثر من ربع مساجد البلاد دفعة واحدة ، هذه المساجد كانت شاغرة من الأئمة و الخطباء و منعت الحكومة من تعيين بدلاء لهم من تلاميذ المشايخ التقليديين بانتظار تخرج هؤلاء الطلبة الثوريين من الكلية الشرعية ، هؤلاء الخريجون كلهم مؤمنون بأن التعاون مع الحكومة واجب ديني بغض النظر عن شكل هذه الحكومة و مضمونها و هويتها و ديانة قادتها ، جميعهم يترددون على مكاتب خاصة تابعة للمخابرات العامة ليسلموها تقارير عن كل ما يُطلب منهم مقابل رواتب صغيرة تمنح لهم شهريا ، يتسلم كل من هؤلاء الخريجين شهريا من مكاتب المخابرات تعليمات عن مواضيع دروسهم و خطبهم في المساجد.

أيضا و أيضا استطعنا إرساء مشيخة للمسلمين موازية تماما لمشيخة علماء الدين المسلمين التقليدية المذهبية ، و هذه المشيخة هي "مشيخة الطرق الصوفية" ، هذه المشيخة تتشكل بمعظمها من أشخاص متدروشين أو حتى مشعوذين لا يملكون أي علم ديني سوى مواعظ كثيرة عن حتمية فناء الدنيا و عن الخوارق و الأعاجيب التي تظهر على أيدي شيوخ الطرق و الدراويش ، يدير هؤلاء الكثير من الزوايا و العشش التي يتم فيها ممارسة السحر و الشعوذة و جلسات تحضير الجن و العفاريت و تعاطي السحر العنيف كطعن الدراويش لأنفسهم و لزبائنهم بالمخارز و السيوف و أكل الزجاج و المشي على الجمر و غيرها ، و نشاطات أخرى كتعاطي الحشيش و غيره من التسالي الممنوعة في القانون و الدين ، يتأس هؤلاء شخص شبه عالم متخرج من مدرسة شرعية معروفة ، هذا الشيخ يؤمن بوحدة الأديان و بعثية العقاب و الثواب في الآخرة و بأن الإله الذي يعبدّه المسلمون هو نفس الكون و جميع الموجودات ، فهذه الموجودات يشكل كل واحد منها شيئا بذاته و لكنها جميعها ككتلة واحدة هي الإله الواحد الخالق الذي يخلق من نفسه صورا كثيرة هي المخلوقات كلها.

هذه المشيخة استطاعت تقليص شعبية علماء المسلمين بين الناس و صارت الخيار المفضل للحصول على الفتاوى من أكثر العامة ، فهذه المشيخة لا تكاد تحرم شيئا ، فمثلا جاء رجل مدمن للكحول إلى أحد أبرز وجوه هذه المشيخة الذي يعتقد

العامة بأنه أكثر من قديس و سألته : أنا أشرب الخمر و لا أستطيع تركه فهل من طريقة في الدين تمكنني من ترك شرب الكحول ؟. كان جواب الشيخ : اذهب و اشرب مزيدا من الكحول و ضاعف كمية ما تشربه فلقد قرأت في لوح القدر أن الله كتب عليك أن تشرب كمية كبيرة لكنها محددة من الكحول ، و أنت لا بد ستشربها فعجل بشربها حتى تنفذ بسرعة و بعدها لن تستطيع أن تشرب الكحول لأن ما قسمه الله لك منها يكون قد نفذ !.

زبائن هذه المشيخة صاروا الآن أكثر من ربع السكان ، فأعضاء هذه المشيخة يقدمون خدماتهم لحل كافة المشاكل العاطفية و الأخلاقية و الصحية و الإجتماعية و الإقتصادية و الأمنية و التناسلية و يوفرون التخطيط المستقبلي من خلال قراءتهم لأقدار الناس و إطلاعهم على مستقبلهم لإختيار الأفضل من القرارات ، هؤلاء المشايخ يتقاضون أجورا كبيرة ثمنا للأوراق التي يعطونها لزبائنهم ليعلقها الزبائن على ثيابهم أو أبواب بيوتهم أو لينقعوها بماء و يشربوا هذا الماء طلبا لقضاء حاجاتهم بأنواعها.. إلخ .

أفضل ما تقدمه هذه المشيخة لنا من خدمات هو أنها تقنع زبائنها بأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان و أن الواقع المعاش قدر الله المقدر و السعي لتغييره معاندة لإرادة الإله ، و لقد شاع بين الناس بفضلهم شعار "دع الخلق للخالق" و مثل "إن أردت أن تعيش مستريحا فاعتبر كل ما تراه مليحا". انتهى ملخص التقرير.

بعد إرسالنا لهذا التقرير بأسابيع جاء البارون جيمس إلى بلادنا و معه حقيبة صغيرة فيها ورقة واحدة ، كتبت فيها عدة بنود لخطه عمل للأشهر القليلة القادمة :

1 - يعين اللواء كامل عضو مجلس قيادة الثورة نائبا للرئيس بديع ، و يعين اللواء هرثمة (من الديانة السرية) وزيرا للدفاع و نائبا لقائد الجيش و رئيس الأركان المارشال عبدالصبور ، ينقل اللواء زيد و اللواء صويلح إلى قيادة الجيش ميدانيا على طول حدود جاراتنا اللدود ، و يعين المقدم رفاعه شقيق اللواء هرثمة قائدا للحرس الرئاسي بدل اللواء زيد بشكل مؤقت.

2- تبدأ "منظمة التحرير العربية" بعمليات عسكرية داخل الدولة الجارة العدو لنا ، و هذه العمليات ستسبب تصعيدا جديدا للتوتر بين الدولتين ، و ستستنفذ الجيوش نتيجة لذلك ، ثم تنشب الحرب التي قد استكملت كل الظروف لإنجازها بنجاح.

و بنود أخرى لتنفيذها لاحقا.

بدأ تنفيذ المهمة فورا ، و كانت المهلة المحددة لإنجازها شهر واحد فقط ، لهذا انتقل البارون ليقم في القصر الرئاسي و يشرف على الأمور بنفسه.

تمت النقلات و التعيينات في غضون يوم واحد فقط و على عجل و صدر الأمر لكافة قطعات الجيش للتحرك إلى قريب من حدود جارتنا العدو .

بعدها توجه اللواء زين إلى مقر منظمة الأمم و طلب من المنظمة سحب قوات مراقبة الهدنة مع جارتنا العدو ، كان الإنسحاب قد تم فعلا قبل زيارة اللواء للمقر ، و أعلن عن سحب جميع المراقبين بعد أسبوع واحد من الزيارة .

في الخطوة الثانية بدأت منظمة التحرير العربية بتنفيذ عدة هجمات على مواقع لجيش جارتنا و أعلن رئيس المنظمة السيد سهل على التلفزيون أن شعب الإقليم المحتل قد بدأ ثورة شعبية لتحرير الإقليم و أن المنظمة ستشارك في عملية التحرير بمباركة من حكومة بلادنا .

هذه الهجمات تسببت في مقتل عدد من رعايا جارتنا اللدود من غير العرب فثارت ثائرة حكومة جارتنا و ثائرة حلفائها أيضا ، و استنفرت الجيش بعد أسبوعين من الهجمات اليومية على قواعد قواتها المسلحة .

في نهاية الأسبوع الأخير للمهمة كانت قوات جيشنا كلها قد احتشدت على حدود جارتنا اللدود و أخذت تستعد لتحرير الإقليم المحتل ، لم تبن قواتنا الكثير من الدفاعات سوى دشم من أكياس الرمل و مرايض للمدفعية و حفرت عددا قليلا من الخنادق لم تغط ربع خط الجبهة الطويل لأن خطة تموضع الجيش كانت هجومية بحتة .

بعد استكمال الحشد العسكري للطرفين ، بدأت إذاعتنا و محطات إعلامنا بتعبئة الشارع للحرب ، و تصور الناس أن حربا طويلة جدا ستقع ، نفذت من الأسواق جميع المواد الغذائية و اختفى الشباب تقريبا من الشوارع أكثرهم كانوا قد التحقوا بمعسكرات الجيش ليصبحوا جنودا إحتياطيين .

بعد نهاية الشهر المحدد مهلة للمهمة و في صباح يوم صيفي و قبل طلوع الشمس أغارت عشرات الطائرات النفثة الحديثة المعادية و على عدة موجات على مطارات و دشم جيشنا و مرايض مدفعيتنا ، تم تدمير كل الطائرات الحربية و المروحية الموجودة في بلادنا و أكثر المدافع في ذلك الصباح و قبل أن يرتفع الضحى .

بعد الغارات أذاعت إذاعتنا و تلفزيون بلادنا بيانات عسكرية تعلن أن جيشنا يتقدم في داخل أرض العدو و بدأ يحرر مدن إقليمنا المحتل الواحدة تلو الأخرى و أن الهجمات الجوية أحبطت و أسقطت جميع الطائرات المهاجمة ! .

في اليوم التالي أرسل المارشال عبدالصبور إشارة للجيش كله بالإنسحاب إلى محيط مدينة الحربة و إخلاء المساحة التي تفصلها عن حدود الدولة العدو ، هذه المساحة تعادل عُشر مساحة البلاد و يسكنها نصف مليون من الناس .

هذا الإنسحاب كان انتحارا كاملا ، فطائرات العدو كانت تحلق فوق رؤوس المنسحبين و تقصف كل آلياتهم و دبابات العدو كانت تلاحق الأرتال المنسحبة و تدمرها و تحرق جنودها و تحصدتهم كالحراف.

أسبوع مر منذ بداية الحرب ، في نهايته كان الجيش كله تقريبا قد وصل هاربا إلى مدينة الحرية ، بقيت مع معظم الجنود فقط الأسلحة الفردية في أحسن الحالات ، أكثر من مائة ألف منهم كانوا قد ألقوا ملابسهم العسكرية و هربوا بملابسهم الداخلية من قصف طائرات العدو ، ترك الجيش جميع السيارات و المدرعات التي استوردها من الدول الشيوعية غنائم ليتسلى جيش جارتنا اللدود بتدميرها .

وحدها فرقة من دبابات جيشنا لم يصل إليها قرار الإنسحاب فقاتلت بشجاعة ، و تمكنت من إيقاف تقدم جيش العدو ، لكن هذه الدبابات كان مدى مدافعها قصيرا و لولا أن قوات العدو كانت تتقدم مطمئنة إلى انعدام المقاومة حتى وقعت ضمن مدى نيران فرقنا القصير لما استطاعت دبابات هذه الفرقة إصابة أحد من المهاجمين ، و بالفعل قتلت هذه الفرقة حوالي الألف من جيش العدو و لكن ما لبثت قوات العدو أن تفادت رمايات فرقنا و انسحبت إلى مدى لا تصل إليه مدفعية هذه الفرقة الشجاعة ، ثم بدأت على هذه الفرقة هجوما معاكسا من حيث تصل قذائف العدو إليها و لا تصل قذائف دباباتنا إلى قوات العدو ، بمعاونة الطيران أبيدت الفرقة بأكملها و كان عدد جنودها خمسة عشر ألف جندي و ضابط بين مشاة و محمولين ، احتاجت إبادة هذه الفرقة إلى عدة أيام فقط.

فرقة أخرى كان يقودها اللواء صويلح قائد الجبهة استسلمت بأكملها للعدو و عددها يزيد على العشرة آلاف و كان صويلح أول المستسلمين.

خلال أيام الحرب كلها كانت إذاعتنا تذيع بيانات عسكرية عن إحباط هجمات العدو المعاكسة و إبادة مئات آلاف من جنوده ، و كان الناس يرقصون فرحا بنصر قواتنا الشجاعة ، في اليوم الأخير أذيع بيان عسكري عن الأخبار الحقيقية للحرب ، و حتى لا يثور الناس على حكم البديع أمر البارون المقدم رفاعه بنشر فرقة من الحرس الرئاسي الضخم بدباباتها الحديثة و الكثيرة و بجنودها الأشاوس في كافة أرجاء العاصمة ، و هكذا كان.

في اليوم السابع توقف إطلاق النار ، و أصدرت منظمة الأمم قرارا يقضي بوقف الحرب فورا و البدء بمحادثات للسلام بين البلدين الجارين لترسيم الحدود بينهما و حل الإشكالات التي سببت الحرب ، و في خلال ساعات فقط عادت الحياة اليومية إلى طبيعتها ، فتحت المحلات التجارية أبوابها و عاد توزيع الخبز و المواد التموينية و كأن حربا لم تقع و كأن عشرات الألوف من الشباب المساكين لم يُقتلوا.

بعدها فورا غادر البارون البلاد قافلا إلى أوربة و في طريقه عرّج على عاصمة جارتنا اللدود ليؤمن إطلاق سراح قائد قواتنا الميداني اللواء صويلح و إعادته إلى البلاد سرا.

في اليوم التالي عقدت مع والدي و سفير الدولة الأوربية المنتدبة سابقا و العقيد بديع و اللواء زيد و اللواء هرثمة إجتماعا في القصر الرئاسي لبحث وقف إطلاق النار و لنسق الخطوة التالية حسب الجدول الزمني للمهمة ، كان أهم ما في الإجتماع بحث خطة إعلامية لتحميل أحد ما أعباء الهزيمة الكارثية التي حصلت لغاية إمتصاص غضب الناس و تهدئة نفوسهم.

بدأ والدي بالكلام قائلا : إن علينا أن نظهر للناس أن القيادة ليست كلها عاجزة و ضعيفة ، المفروض أن يبدو و كأن ملحمة كبرى كانت ستحصل إلا أن مؤامرة وقعت بغياء أو بخيانة بعض أعضاء القيادة الكبار هي التي أفشلت جهود الجيش و حولت النصر المنتظر إلى هزيمة ، فكرة البطل السليبي الخائن استطعنا أن نرسخها كثيرا في عقول الناس من خلال الأفلام و المسلسلات التي تبثها الشاشات على مر الساعة ، البطل السليبي في البداية يسبب كوارث للشرفاء و يحبط العمل الجماعي ، ثم ينكشف و يتخلص منه الناس الطيبون ، ثم يعيدون الكرة مرة أخرى فينجحون نجاحا باهرا و ينتصر البطل الإيجابي الخيّر . قلت : لدي خطة عمل لتحميل أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة مسؤولية الهزيمة ، و سيعلن عن إعدامه و يتقاعد الرجل كما تقاعد لويس و بسطام و غيرهم ، هذا ما اقترحه البارون دون تعيين أحد أو فرض للخطة هذا المرة.

قال والدي : لنلعبها بطريقة صحيحة ، لن نستطيع الآن التضحية ببديع و لا بكامل و لا بصويلح ، هؤلاء ليسوا في موقع عسكري كبير أصلا ، و لكن من الممكن التضحية بعبد الصبور أولا لأنه رسميا قائد الجيش و هو المسؤول الأول و الأخير عن حياة كل جندي ، و ثانيا لأن رائحة فساد قد أركمت الأنوف ، لقد تسربت صور عارية له مع راقصات و مغنيات إلى أيدي الشيوعيين و أعضاء الجمعيات الإسلامية السرية ، النقرة على هذا الرجل باتت كبيرة جدا ، أيضا لا تنسوا أن الجميع يعرف أنه قد جنى ثروة ضخمة من رشاوى نقل المجندين و ترفيعات الضباط و عمولات صفقات الجيش و تعهدات منشآته.

إن ضحينا بعبد الصبور سنقدم ببديع بطلا مطعوننا في ظهره ، هكذا سنستطيع لاحقا تأمين تقاعد آمن له و لبقية أعضاء مجلس القيادة دون أن نضطر لإنقلاب آخر ثم لإجراء تغييرات كبيرة في شكل نظام الحكم ، سنصنع من بديع المكروه و رفاقه أبطالاً أسطوريين غدر بهم الخونة ، على غرار كليب و الزير سالم و عنترة و غيرهم من الذين كانوا سيحولون الدنيا إلى جنة إلا أنهم راحوا ضحية طمع الجشعين و الجبناء ، هذا سنفيد منه لاحقا.

قال بديع : نعم رجاء أنا لم أعد أحتمل أكثر ، أنا لا أنام إلا بمنوم و لا أجرؤ على الظهور علنا و صرت أخشى من كل شيء ، أرجو ألا يطول هذا الأمر ، لقد تحملت الكثير في سبيل هذا التقاعد ، صدقوني أنا أخشى من الحرس و الطباخين و الخدم أن يهجم أحدهم علي ليقتلني في أية لحظة.

قلت له مهدئا : لا تهتم يا أبا سرمد (كنيته) لن يطول الأمر أكثر من عام واحد أو أكثر بقليل فقط اهدأ ، تستطيع إن شئت قضاء إجازة طويلة في أوربة سافر الآن إن أحببت .

قال بديع : هذا أفضل هذا أفضل .

نظر السفير إلينا مبتسما من فرع بديع و قال : الحل الذي اقترحه القاضي (لقب والدي) حل مناسب تماما ، و عليك يا كولونيل بديع أن تتحلى ببعض الصبر و الشجاعة ، أمر استبدالك ليس بهذه السهولة كما تظن .

قال بديع : يا سيدي أنا لست جبانا و لا أعترض على الخطة ، لكنك لم تجرب شعور رجل يعرف جيدا أن بضعة و عشرين مليوناً من البشر يعيشون حوله و كل واحد يشتهي أن يتفنن بقتله و شرب دمه ، تقارير المخابرات مفزعة و لم يعد هناك شيء أكرهه في الدنيا كقراءة ملخص رئيس المخابرات اليومي ، فهو لا يحمل إلا أخبار اعتقالات الناس الذين يشتموني و يصلون من أجل هلاكي .

قال والدي مبتسما : اطمئن و اهدأ بعد أسبوع واحد ستصير رمزا تعشقه هذه الملايين و يخلدون ذكره لعقود طويلة .

قال اللواء زيد : من سيحل محل العقيد بديع بعد نهاية التغييرات ؟ أظن أنني أنا الأكثر جهوزية لهذه المهمة .

نظر والدي إلى السفير جون ، و هز برأسه دون أن يلحظ أحد ما فعل .

قال السفير : هذا يقرره البارون إدموند و لا يعود لأحد غيره ، و لا أظن أنك ستكون سعيدا بحياة الرعب التي يعيشها الكولونيل بديع الآن .

قال زيد و قد بدا عليه امتعاض شديد كتمه بمشقة : لقد رتبت أمور فرقة الحرس الرئاسي و لن أعاني الكثير من القلق كما يحصل للقادة اليوم ، أنا لدي طائفة كبيرة منظمة و متماسكة و عشيرة ضخمة تحميني و لست كالعقيد بديع مقطوعا من شجرة كما يقولون .

قلت مقاطعا بإبتسامة عريضة : يا زيد هذا سابق لأوانه المهم أن تستمر الأمور مضبوطة ما أمكن . ثم قمت إلى خارج المكتب و أنا أظهار بأنني أريد الخروج لقضاء حاجة ، و دخلت إلى باب جناح المنامة ، من هناك رفعت السماعة و اتصلت بجلمود و أعطيته رمزا و عدت إلى الاجتماع .

قدمت الويسكي للجميع ، و شربنا في صحة تقاعد عبد الصبور ، و غادر السفير ثم والدي ثم اللواء زيد ثم العقيد بديع إلى جناح إقامته ، على باب القصر الرئاسي كانت سيارة مدنية سوداء مظلمة الزجاج تنتظر اللواء زيد ، ركب اللواء السيارة و

أغلق الباب ليفاجأ بجلمود جالسا على المقعد الخلفي، قيده جلمود بسرعة و كمنه و عصب عينيه و انطلقت السيارة إلى مكتي القديم الملحق بإدارة الأركان.

التحقت بهم بعد ساعة للتحقيق مع اللواء المعتقل و كان برفقي الكولونيل فيليب الملحق العسكري الأوربي و الأمر الفعلي للجيش و كان معنا ملف كبير عن تحركات زيد خلال العامين الماضيين ، كنا نراقب هذا الرجل باهتمام و لاحظنا أنه عين الكثير جدا من أقربائه في مناصب ميدانية مهمة في الحرس الرئاسي ، و كان أبناء طائفته يتعاونون معه بالتنسيق مع عدد من رجال دينهم لتشكيل هيكل استخباري خاص يتبع لزيد و لوالده و هو أحد رجال دين هذه الطائفة من ذوي المنصب.

في التحقيق أنكر زيد كل ما واجهناه به في الملف و زعم أنه فقط يريد حماية نفسه في حال انهيار النظام و بدأ الناس بالانتقام من رموزه و قادته ، هذا الكلام لم يقنع الكولونيل ، فقال له :

أنت تعرف جيدا أن سياستنا ثابتة في حال انهيار النظام و انتشار الفوضى و هي نقل جميع رجالنا إلى ملاذات آمنة مع أسرهم ليتقاعدوا بهدوء ، و أنت تعرف جيدا أن الطائرات التي ستقلكم و الأنفاق التي ستوصلكم إلى المطار جاهزة و أجريت بنفسك عليه التدريبات للإخلاء في العام الماضي ، الحقيقة هي أنك و طائفتك و عشيرتك تحاولون فقط أن تلجأوا ذراعي لتحصلوا على مكاسب أكبر مني ليس أقلها منصب الرئيس.

نظر زيد إلي باستعطاف ، و لكنني كنت متأكدا من أن كلام الكولونيل صحيح و أن زيد قد يكون فعلا قد خطط لإنقلاب أبيض و ربما لقتلي و قتل والدي و كنت أعرف أن طائفته يعتمدون على المؤامرات في كل شيء و لا يتورعون عن شيء ، فلقد قتلوا من شباب و شيوخ طائفتهم العشرات في فترة تشكيل منظومة "الخشخاش" لجرد الشك في قدرتهم على كتمان السر ، كنت متأكدا من أنهم لن يرحموا أحدا يقف في طريقهم ، و أن هؤلاء يجب أن يُجَمَّموا.

وضع الكولونيل مسدسه في رأس زيد و أعطاه اللاسلكي و أمره بالاتصال بكل أقاربه في لواء الحرس الرئاسي و استدعائهم فورا إلى مبنى الأركان العامة.

فعل زيد ما أمره به الكولونيل دون تردد و راح يمثل على أقاربه الجديدة حتى يقتنعوا بالحضور ، بعدها ركع بين يدي الكولونيل يستعطفه باكيا هو يقول : أنا كلبكم الوفي يا سيدي لم أخالف أوامركم أبدا و لم أفكر بهذا أبدا ، صدقني الأمر كله خوف من المجهول و أنت ترى ما يحصل فالأمور لا تسير بسهولة ، و لو لم يكن هناك خطر حقيقي فلماذا أنشأت شبكات الأنفاق و وضعتهم خطط الإخلاء.

نظر الكولونيل إلى زيد نظرة مشجعة و أمره بالقيام و الجلوس على كرسي ريثما يصل أقاربه و أعطاه كأس ويسكي و سيجارا ليذخن.

بعد ساعة اجتمع أقارب زيد في مكتبه في مبنى الأركان و كانوا نحواً من ثلاثين ضابطاً كلهم من رتب متوسطة ، تم اعتقالهم فور اكتمال عددهم و نقلوا جميعاً تبعاً إلى مكنتي القديم.

قال لهم الكولونيل بصلف و غضب : ستنزلون جميعاً في ضيافة المقدم دري في السجن الحربي ريثما تمر العاصفة.

أركبوا جميعاً في سيارة عسكرية مصفحة مقيدى الأيدي و معصوبي الأعين و نقلوا إلى السجن الحربي حيث احتجزوا في مهاجع خاصة بهم ، هناك كان يوجد من يراقبهم و يستمع لأحاديثهم على مر الساعة.

تولى النقيب رفاعه شقيق اللواء هرثمة قيادة الحرس الرئاسي بالوكالة بأمر من الكولونيل ، ثم صدر الأمر لرفاعة بالبدء بسحب قوات الحرس من شوارع العاصمة إلى مقراتها بشكل تدريجي خلال أسبوع.

في هذه الأثناء كان السفير قد اجتمع مع المارشال عبد الصبور ليبلغه بقرار تقاعده ، قال لي والدي الذي حضر اللقاء أن عبد الصبور هجم على يد السفير يريد أن يقبلها من شدة الفرح و بكى و قبل يد والدي و شكره على هذا الإقتراح و اتصل فوراً بزوجاته الأربعة و منهن راقصة ممثلة مشهورة و مذيعة في التلفزيون كانت متخصصة بإذاعة البيانات العسكرية الكاذبة و أمرهن بتوضيب الحقائق للسفر فوراً ، و غادر فعلاً إلى أوربة بطائرة خاصة في صباح اليوم التالي ، كانت إحدى زوجاته من شدة الفرح تدق على طبلية صغيرة و تغني خلال الرحلة و البقية كن يرقصن.

في اليوم التالي بدأت أرتال المنسحبين بالتقاطر إلى مقرات الفرق و القطع العسكرية ، و فرّ أكثر من نصف الجنود إلى بيوتهم و قراهم ، رغم أن معظم الجيش لم يقاتل و لم يتعرض لقصف أو سواه ، إلا أن مشاهد الفرار شجعت الكثيرين على الإستمرار في الهرب إلى منازلهم لا يلوون على شيء.

في صباح هذا اليوم صدرت الصحيفة الكبرى و في صدر عناوينها : المخابرات تعتقل المارشال عبد الصبور و مجلس قيادة الثورة يوجه إليه تهمة الخيانة العظمى . و في التفاصيل أن المخابرات داهمت مزرعة المارشال و اعتقلته فيها و التحقيقات جارية معه لعلاقته برجل أعمال و تاجر سلاح أوربي شرقي من أصول تركية .

ضجت البلاد بأسرها لهذا الخبر الذي بدا و كأنه تسريب من الجريدة بغير علم وزارة الإعلام ذلك أن الإذاعة و التلفزيون لم ينقلا النبأ ، و صار الناس ما بين مصدق و مكذب ، نسي الناس توابيت الجنود القتلى و مشاهد الجرحى و المعوقين ، و راحوا يتابعون هذا الخبر و يقرؤونه مراراً و تكراراً ، انمالت الإتصالات على الجريدة للإستعلام عن الأمر ، و بات الناس ليلتهم و هم يتداولون الإشاعات و القصص عمّا حصل ، لكن بالمحصلة كان جام الغضب قد صُبَّ على عبد الصبور و بدأ الناس يلعنونه حتى كتبت شتائم له على الجدران !.

في اليوم التالي أذاعت محطة الإذاعة بيانا رسميا هذا مختصره :

قبل يومين قدمت الإدارة العامة للمخابرات الوطنية بلاغا إلى رئيس البلاد يتضمن لائحة إتهام للمارشال عبد الصبور رئيس الأركان و قائد الجيش ، هذه اللائحة شُفعت بتسجيلات و صور للقاءات المارشال مع تاجر أوربي شرقي من أصل تركي يعمل في الواقع جاسوسا في مخبرات جارتنا العدو ، و لقد رصدت المخابرات اتصالات بين هذا الجاسوس و بين قيادة مخبرات العدو يُعلمهم فيها بموعد هجوم جيشنا على قواتهم ، كان هذا الموعد محددًا في مساء اليوم الذي أغارت في صباحه طائراتهم علينا مستبقة هجومنا الكبير ، هذا الموعد كان شخص واحد فقط يعرفه هو المارشال عبد الصبور ، لقد أصدر الزعيم بديع قرارا باعتقال المارشال و التحقيق معه و اعترف بما في الملف و أنه هو من سرب الموعد للجاسوس دون علمه بأنه جاسوس ، ثم المارشال طلب الإختلاء بنفسه في غرفته و منحه المحقق فرصة إلا أنه استغلها لينتحر برصاصة من مسدس كان يخفيه في محدته الخاصة ، هذا و سيلقي سيادة الرئيس البديع بكلمة هامة جدا للأمة في مساء اليوم بخصوص ما حصل. طبعًا الجاسوس كان شخصا وهميا لا وجود له ، إلا أن هذه القصة أفادتنا في اختراع ملف كامل من القصص الوهمية عن حرب الجاسوسية بيننا و بين جارتنا العدو ، أشغل هذا الملف الناس لعدة أعوام لاحقا.

كنا قد أوعزنا لمنظوماتنا العاملة في البلاد كلها بحشد أعداد غفيرة من العامة في صباح اليوم التالي في ميدان العاصمة الكبير لمهرجان سياسي ضخم ، لم يأت المساء إلا و قد تأكدنا من أن أكثر من نصف مليون من الفلاحين و أبناء البادية المجاورين للعاصمة سيحتشدون في الميدان الرئيسي صباح الغد ، وزعنا عليهم مبالغ جيدة و أمنا لهم الباصات و سيارات الأجرة لنقلهم مجانا.

في المساء خرج بديع على التلفزيون و دموعه في عينيه و قال : لن ألقى بتبعة ما حصل على قائد الجيش الراحل عبد الصبور ، و لن أكون جبانا لأهرب من مسؤولياتي كما فعل ، أنا أتحمّل أمامكم كامل المسؤولية عن الكبوة الضخمة التي كتبتها قواتنا و أعلن أنني مستقيل من مناصبي و سأعود إليكم واحدا منكم و ليس قائدا لكم.

فرح أهل العاصمة جدا بهذا البيان و لكن أحزانهم على أبنائهم منعتهم من النزول إلى الشوارع للتعبير عن سرورهم و بات أهل المدن في سرور إلى صباح اليوم التالي و هم يستمعون إلى خطاب العقيد الذي بثته الإذاعة مرارا و تكرارا.

في صباح اليوم التالي فوجئ أهل العاصمة بنصف مليون من الفلاحين و البدو يحتشدون في ميدان العاصمة الكبير و بأيديهم لافتات كبيرة تحيي الزعيم البطل كتب عليها شعارات مثل : أنت ضحية مثلنا فلا تتركنا - لا تزر وازرة وزر أخرى - الأب لا يترك أبنائه وقت الشدة .. إلخ ، و هتافات الفلاحين و المحتشدين تملأ جنبات العاصمة : يا بديع يا بديع الأمة دونك سوف تضيق !!.

بعد أن احتشد الناس في الميدان أطل عليهم بديع و هو يلوح لهم بيديه و خطبهم خطبة عصماء استعرض فيها منجزاته الثورية و صارحهم بأنه فوجئ بما صنعه عبد الصبور و بأنه لن يخيب آمالهم و سيستمر في منصبه.

كان التلفزيون يصور و ينقل مباشرة ما يحصل في ميدان العاصمة ، في بث حي لأول مرة في تاريخه ! و أسقط في يد الشعب في بلادنا.

عاد العقيد إلى القصر بعدها و هو في حالة نفسية سيئة جدا ، و اضطررنا لحقنه بمواد مهدئة لتخفيف حالة الرعب التي اجتاحت أعصابه ، بعد أن هدأ قال لوالدي : مشهد الناس المحتشدة هو ما أرعبني لقد كاد قلبي يتوقف أثناء الخطاب من خشيتي أن يهجموا علي ، لقد شعرت بأنهم جميعا يعرفون أنني أكذب.

في ليلتها كان أهل الريف - و من شبابهم معظم ضحايا الحرب - يهتئون بعضهم ببقاء الزعيم الخالد على سدة الحكم و يطلقون الرصاص في الهواء فرحا برجوع البديع عن استقالته !!.

إنطلقت أجهزة الإعلام تنشر الأخبار تلو الأخبار عن انتصارات المخابرات الوطنية و أمن الدولة على شبكات التجسس المعادية ، هذه الحملة بدأت في الفترة التي تلت خطاب الإستقالة و ما حصل بعده من مهرجانات تأييد للزعيم البديع ، و راحت الجرائد تنشر القصص المرعبة عن هذه الشبكات و كيفية اعتقالها و إعدام أفرادها ، حتى صار حديث الشارع و الجرائد و الأطفال في المدارس يدور عن اعتقال الجواسيس و طرق كشف شبكاتهم ، تكررت نداءات الحكومة عبر أجهزة الإعلام تناشد المواطنين سرعة الإبلاغ عن كل ما يشتبهون به و عن كل من يشتبهون بعلاقته بالتجسس على الوطن ، و ضمن هذه النداءات تكررت التأكيدات على أن الوشاة لن تعرف هوياتهم أبدا لأنها ستكون سرا عسكريا يعاقب من يفشيها بالإعدام !.

هذه النداءات طبعاً لم تكن جدية فشبكات التجسس هذه غير موجود أصلاً لأن أحداً ليس بحاجة لها ، لعل أكثر ما أثار ضحكي هو البلاغات التي أمطرت مخافر الشرطة و مقرات المخابرات عن شبكات الجواسيس التي يكتشفها المواطنون الغيورون من مدنيين و عسكريين ، معظم هذه البلاغات كانت كيدية يقدمها جيران بحق جيرانهم و عاملون بحق زملائهم في العمل ، أناس وصل بهم الأمر تقديم بلاغات بحق أقاربهم ، أما الدلائل التي يستند إليها أصحاب هذه البلاغات فهي التي أثارت ضحكي أكثر ، فمثلاً بعضهم كان يستدل على إتهاماته بظهور علامات بحبوحة على مُتَّهَمِهِ و بعضهم استدل على إتهاماته بسؤال مُتَّهَمِهِ عن أسعار مواد تموينية !! أعطيت بنفسى التعليمات بالألا يُمنع أحد من تقديم بلاغ أو رفع تقرير مهما كان سخيفاً ، و ألا يظهر الضباط و عناصر الشرطة و المخابرات أي استخفاف بأي تقرير ، و أن يقدموا الشكر و عبارات التشجيع السخية لهؤلاء المخبرين المتطوعين على جهودهم لحماية الوطن ، لقد كانت فرصة رائعة جداً لتجنيد أولئك

الفصوليين المتذاكين ذوي الميول المنحطة و الأصول الوضيعة إلى جانب منظمتنا السرية ، فهؤلاء يتبرعون بتقديم الوشاية بأقرب الناس إليهم عادة دون أن يُطلب منهم ، و إعطاؤهم مكافآت و ميزات سيجذب غيرهم لإستعمال سلاح الوشاية ضد الخصوم و لو كانوا من أقرب المقربين.

لقد نجحت هذه الحملة عن الجاسوسية في إخماد الغضب الشعبي الذي سببته الهزيمة المنكرة في حرب الصيف ، لدرجة أن معظم الناس صاروا يقيمون المشككين بصدق الزعيم بديع و شجاعته ، هذه الأجواء شجعتنا على نشر إشاعات و أخبار عن صفقات كبيرة للسلاح يجري الإعداد لها لشراء سلاح من الدول الشيوعية استعدادا لحرب التحرير القادمة قريبا ، و إشاعات أخرى عن أسلحة سرية فتاكة تمكنت الحكومة من شرائها بمعونة دول عربية غنية و هي لتسلية الناس عن مصابهم و إعادة قدرتهم على الحلم بصوت مرتفع إلى مستواها المعتاد !.

سافرت بعد هدوء الأوضاع مع أسرتي و عدد من أخوالي و أبنائهم إلى أوربة لقضاء عطلة تريح الأعصاب بعد عاصفة الحرب ، اصطحبت معي بديع و اللواء كامل و ريمون و والدي ، هناك أمضينا وقتا طيبا استرد فيه بديع و الباقون رباطة جأشهم و صحتهم بإشراف طواقم طبية من خبيرات التدليك و المساج و العلاج الطبيعي للضغط النفسي المُرهق.

بعد العطلة عقدت لقاء هاما مع البارون في قلعته السويسرية ، هذا اللقاء ضم عشرين شخصا من زملائي و نظرائي العاملين في عشرين دولة عربية ، كان اللقاء الأول بيننا جميعا و أشبه ما يكون باجتماع عسكري بين رئيس و مرؤوسين لتلقي الأوامر. موضوع اللقاء كان : الدستور الوطني الجديد.

ألقى البارون في الإجتماع كلمة قصيرة ثم أعطى الكلام للدكتور روبرت الذي شرع فيما جاء من أجله قائلا:

من الصعب جدا استمرار منظوماتكم الرائعة في السيطرة على الأوضاع في بلدانكم لفترة طويلة قادمة دون أن ننشئ نظام سيطرة و إنذار مبكر يتوزع أعضاؤه في كل زاوية من زوايا البلاد ، هذا النظام نقوم بتطبيقه حاليا في الدول الشيوعية ، اطمئنوا لن نحول بلدانكم إلى دول شيوعية لأن هذا صعب جدا ، و نحن لا نريد أصلا أن نمنح شعوبكم مميزات تقنية و صناعية كتلك التي نوفرها للمنظومة الشيوعية ، هذا النظام الذي نعهده لبلدانكم هو نظام "حزب السلطة".

قال أحد الزملاء و هو رشيد باشا : هل نحن أيضا معنيون بهذا النظام ؟.

قال الدكتور روبرت : نعم طبعا و لكن سنطبقه عندكم بطريقة مختلفة لا تزعج الأقليات الكبيرة غير المسلمة.

قلت : هل تعني أن الدولة كلها لن يكون فيها إلا حزب واحد ؟.

قال روبرت : كل الأحزاب في بلادكم نحن أنشأناها منذ عقود و نحن من يسيطر عليها ، حتى تلك التي تشتمنا ليل نهار قادتها يعملون عندنا ، في الواقع هذه الأحزاب لا تفعل شيئا سوى اجترار الكلام و المناقشات الفارغة و ترديد شعارات اخترعناها لهم لن يستطيع أحد منهم أن يطبق منها جملة واحدة لأن أحدا منهم لا يفهم أصلا معنى الكلام الذي يلوكة ، كل ما يفعلونه هو أنهم يجتذبون إليهم الشباب الذين يحملون بالسلطة و المجد ليعقدوا مجالس لأحلام اليقظة يتبارون فيها في التذاكي على بعضهم و استغناء جميع الناس سوى أنفسهم ، كما ترى ففي الحصلة هذه الأحزاب كلها حزب واحد أليس كذلك ؟!

قلت : إلغاء هذه الأحزاب أمر سهل و رسميا عندنا هي أحزاب منحلة بحكم قانون الطوارئ.

قال روبرت : لن نلغي أيا من هذه الأحزاب ، سنختار واحدا منها و نضخمه جدا و يكون هو الحزب الذي ينتسب إليه كل من له سلطة في البلاد ، هذا الحزب سيضم أيضا أعدادا غفيرة من العامة من كافة الأعمار.

قلت : كيف سنقنع العامة الساخطين علينا بالإنضمام إلى حزب يدعم السلطة ؟.

قال روبرت : هذا سهل جدا ، في البداية سنضم كافة أعضاء منظماتنا السرية إلى هذا الحزب ، هم سيقنعون عددا آخر من أقاربهم و أصدقائهم بالإنضمام للحزب ، سيقدمون لهم إغراءات معقولة ، تسهيلات في الرخص التجارية ، تسهيلات في الحصول على مقاعد دراسية ، تسهيلات في الترقيات الوظيفية ، هذا سيجعل من الإنضمام للحزب مكسبا ماديا مغريا.

قال زميل آخر لي يدعى الأمير شاكِر : الميزانيات لا تتحمل مزيدا من الأعباء ، و ما سيناله أعضاء الحزب لا بد من خصمه من مخصصات الآخرين و هذا سيزيد النعمة الكبيرة أصلا.

قال الدكتور ضاحكا : هل تعتقد يا صاحب السمو أن نفقات منظوماتكم و دولكم كلها تقلقنا ؟ لا يا عزيزي نحن اليوم و بفضل منظوماتكم و عملها الرائع نستثمر و بنجاح كل ما نحتاج لاستثماره من بلدانكم ، و هذه الإستثمارات توفر لنا أرباحا هائلة - أظن أنك تعرف الكثير عن حجمها من رصيدك في المصارف الأوروبية - نحن نحصل من بلدانكم على محاصيل نادرة كالخشخاش و غيره و مواد خام و معادن كثيرة و مواد أخرى نادرة جدا و بالجنان تقريبا ، ثم نبيع هذه المواد بعد تصنيعها بمبالغ ضخمة جدا هنا في أوربة و في آسيا و أمريكا ، نحن نستعمل بلدانكم حقلًا ضخما لتجربة الأدوية و الأمصال المضادة للأمراض البشرية و النباتية و الحيوانية ، و حقلًا كبيرا لتجربة أسلحتنا الحديثة و مدافن كبرى للنفايات الصناعية الخطرة ، و نستعمل الكثير من بلدانكم اليوم كمنتزه ضخم لمواطني أوربة الراغبين في قضاء عطل ممتعة و مثيرة للفضول ، بقاء شعوبكم على هذه الحال التي هم عليها هو ما نحتاجه لإستمرار استثماراتنا الضخمة ، و السماح لشعوبكم بالإعتماد على أي إنتاج ذاتي لها سيعني بداية نهاية سيطرتنا بواسطة منظوماتكم.

قلت : ما علاقة هذا بإيجاد حل لحالة الإفلاس الحقيقي في خزنتنا حاليا ؟.

قال روبرت ضاحكا : عندما تستأجر مزرعة ضخمة تنتج لك الملايين أَلن تدفع للمالك إيجارا بالآلاف ليبقي أرضه الخصبة بين يديك دون أن يزعجك ؟ سندفع ميزانيات لحكوماتكم تبقي هذه الحكومات مهيمنة و قادرة على فرض سلطتها على البلاد كلها دون خوف ، لن نترعجنا هذه الميزانيات لأن حجم اقتصاد جميع دولكم لن يصل إلى حجم اقتصاد أصغر بلد في أوربة ، هذه الميزانيات لن تكون كافية لتحقيق أي نمو حقيقي في بلدانكم و لكنها ستكون كافية ليعيش الناس عندكم دون طموحات تزيد على تأمين الوجبات اليومية و إيجار السكن و سد الإحتياجات الضرورية ، و مع هذا لن يحصل الناس عندكم على هذه الإحتياجات بطرق مستقيمة ، سيحصلون عليها دوما بطرق غير قانونية و هذه هي مهمة "حزب السلطة".

قال زميل آخر هو السيد بن عزيز : هل سيعطى الحزب مهمة الحكومة ؟.

قال روبرت : نعم و لا ، كل المسيطرين على وظائف الحكومة الكبيرة و المتوسطة سيكونون أعضاء في الحزب و لكن لن يكون كل أعضاء الحزب عاملين في الحكومة ، عموما هؤلاء جميعا ستكون لديهم حصانة من القانون لجرمة واحدة هي : الرشوة و المحسوبية ، المواد الإستهلاكية الأساسية كلها سنقدمها للناس عندكم عبر الحكومات ، سيحصل عليها الناس بدفع الرشوى للقائمين على توزيعها ، و هؤلاء الدافعون للرشوى سيكونون هم بدورهم قابضين للرشوى مقابل تقديم ما بين أيديهم من إحتياجات للناس و سأضرب لك مثلا : المدرس في المدرسة الابتدائية سيحصل على مواد البناء لمنزل العمر من مؤسسة مواد البناء بعد أن يدفع الرشوى للقائمين على هذه المؤسسة ، هو بدوره لن يعتني بتدريس طلابه ما يفيدهم ، و سيضطر آباء الطلبة لإستجاره بعد الدوام الرسمي ليدرس أبناءهم مقابل أجر أكبر من راتبه بكثير ، بعض هؤلاء الآباء سيكونون من القائمين على مؤسسة البناء ، و بعضهم سيكون من الأطباء الذين يأخذون من هذا المدرس رشوى ليمنحوا أمه المريضة سريرا في المشفى الحكومي و دواء فعالا و نادرا من مستودعات وزارة الصحة ، و بعضهم سيكون من شرطة البلديات التي تأخذ الرشوى من والده العجوز مقابل السماح له بوضع بضاعته على الرصيف أمام دكانه و حرمان المارة من كامل الرصيف ، و هكذا سيقبض الجميع الرشوى و سيدفع الجميع الرشوى ، سيحصل الجميع على حصتهم من الإيجار الذي ندفعه لحكوماتكم و لكننا لن نعطيهم إياه بأيديهم و رؤوسهم مرفوعة ، سنسمح لهم بسرقة في جو من الفوضى المنظمة و الصرامة في نفس الوقت.

قلت : لماذا ؟.

قال روبرت : بهذه الطريقة سيعمل الجميع ضد أولئك الطامحين إلى تحقيق أية تنمية حقيقية في بلادكم ، و سيكون الناس المخلصون للفضيلة و المبادئ الأخلاقية و الدينية المثالية أعداء للحياة و أناس مهووسون و مهترقون بنظر الجميع ، لأن

الوسيلة الوحيدة لإستمرار الحياة ستكون الرشوة ، هذا أيضا سيحرم الأغنياء الذين يجمعون المال في بلادكم من استثمار هذا المال في أوطانهم ، سيستثمرون منه قسما بسيطا قريبا منهم أما الباقي فسيستثمرونه عندنا في مصارفنا و أسواقنا الكبيرة المنظمة الآمنة التي لا يتعرضون فيها لعشرات حالات الإبتزاز باستخدام السلطة يوميا ، هؤلاء الأغنياء هم بدروهم ستكون الرشاوى هي المصدر الرئيسي لشراوتهم ، و هكذا سيعود معظم ما ندفعه لدولكم كميزانيات إلى خزانتنا مرة أخرى.

قلت : أنت قلت هذا الحزب سيكون نظام سيطرة و إنذار مبكر كيف ؟.

قال روبرت : هذه الحزب سيشرط على أعضائه الإخلاص و الولاء الكامل للحزب و لما يتبناه من أفكار و مبادئ سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى العام ، و ستكون مهمة كل عضو من أعضائه مراقبة كل زملائه و مدى تطبيقهم لما يُلقى إليهم في اجتماعات خلايا التنظيم الحزبي ، و بهذا سيتسابقون جميعا لتطبيق ما نقدمه لهم من أفكار طمعا في الحصول على مكاسب أكبر ، و سيكون مقياس ترفيع كل واحد منهم في مناصب الحزب هو عدد و نوع الوشائيات التي يقدمها لرؤسائه بحق زملائه و أقاربه و جيرانه و معارفه ، الترقى في الرتب الحزبية سيتيح فرصة أكبر للحصول على مزيد من الرشاوى و المكاسب من موجودات مستودعات الحكومة ، في البداية ستكون فرصة الإنضمام لهذا الحزب متاحة للجميع ، و بعد فترة سيدفع الأعضاء الجدد في الحزب الرشاوى لينالوا شرف العضوية فيه حزب الجماهير العريضة.

قلت : أنت قلت لن تلغوا الأحزاب الأخرى !.

قال روبرت : الأحزاب الأخرى حاليا كلها صغيرة الحجم و إن كانت أسماؤها كبيرة ، و ستبقى أسماؤها الكبيرة كشركاء في السلطة إلى جانب الحزب الكبير ، و لكنها ستبقى صغيرة الحجم و عديمة التأثير و سنحافظ على وجودها بميزانيات كافية ، للحفاظ على مظهر تعدد الأحزاب و مظهر سلطة مجالس نواب الأمة.

قلت : ما هو الحزب الذي سيكون حزب السلطة في بلادى ؟.

قال روبرت : إنه حزب الأستاذ عرجي الحزب القومي الإشتراكي العربي ، و سنتسخ منه أحزابا مماثلة في عدد من الدول العربية الأخرى ، ستكون الأحزاب في بلدان عربية أخرى بمسميات مختلفة كحزب الدستور و حزب المنظمة الثورية و الحزب الوطني و الحزب الإشتراكي ، لكنها جميعا ستكون مهمتها تجنيد الناس ليتجسسوا على بعضهم و ينصبوا لبعضهم الفخاخ و المكائد و يتبادلوا الرشاوى و يتعاونوا على فرض التغييرات على أنفسهم و نسائهم و أطفالهم و من حولهم كما نرسم لهم.

بعد عودتنا من الإجازة الأوربية كانت لدينا مهمات عالقة لا بد من إنهاؤها ، المهمة الأولى كانت مصير زيد و جماعته و المهمة الثانية كانت البدء في توسيع و تضخيم حجم الحزب القومي الإشتراكي العربي (مختصره - قاع) و الثالثة كانت السير بخطوات

واسعة نحو تشغيل النساء وإخراجهن من البيوت إلى سوق العمل ، و المهمة الرابعة كانت إعادة الحياة النيابية في البلاد و لكن على طريقتنا الجديدة.

في اليوم التالي لوصولي عقدت بحضور سفير دولتنا الأوربية الراحية إجتماعا هاما مع اللواء كامل ، كان كامل قد تسلم مؤقتا منصب قيادة الجيش و رئاسة الأركان العامة و منصب نائب رئيس الدولة ، هذا الإجتماع غايته ترتيب الأمور لإعطاء كامل مظهر ولي العهد المسيطر في الدولة للتمهيد لتقاعد بديع ، خلال الإجتماع أظهر كامل أنه غير مسرور بهذا القرار ، السبب كان هله من قرار التخلص فعلا من اللواء زيد و جماعته ، و قال لي بصراحة : أنا أيضا صرت خائفا أكثر من العقيد بديع ، و صرت خائفا من أن أرتكب أخطاء أدفع ثمنها حياتي كما سيحصل لزيد و جماعته ، أنا الآن أخاف من غضب الناس و أخاف منكم أكثر .

قال له السفير : زيد كان يخطط لأن يفرض علينا شروطا و يبتزنا و هذا لن نسمح به أبدا و هو لن يتوقف عن هذا لأن طائفته يريدون أن يكونوا شركاءنا ، أنت لا توجد لديك خطط من هذا النوع ، نحن لا نتخلى عن رجالنا أبدا و ما عليك إلا أن تتصل الآن بعبد الصبور لتسأله ، و لقد رأيت كيف أمنا عودة صويلح من الأسر ، لا تقلق.

قال كامل : و ما مصير طائفته ، هل سيقون ضمن منظومات الحشاش أم سيتم إقصاؤهم ؟.

قال السفير : لن يخرجوا من المنظومة و لكننا نريد تأديبهم فقط هم أناس عنيدون ، عكس طائفة هرثمة و رفاة.

قال كامل : و هل سيبقى الحرس الرئاسي في يد رفاة ؟.

قلت : نعم و لكنه ليس قائدا لأي شيء كما هو حالك الكولونيل فيليب هو صاحب الكلمة في كل شيء و لن يجرؤ لا رفاة و لا غيره على فعل أي شيء ، العقاب سيكون قاسيا لمن يفكر بالعصيان.

في اليوم التالي أصدر بديع مرسوما رئاسيا بترقية اللواء كامل لرتبة مارشال و تعيينه رئيسا للحكومة و تفويضه معظم صلاحيات رئيس الدولة و كلفه بتشكيل حكومة من التقنيين (التكنوقراط) مهمتها الإعداد لإنتخابات عامة في سائر أنحاء البلاد لإختيار أعضاء مجلس نواب الأمة.

بدأت المخابرات بنشر شائعات كثيرة مفادها أن العقيد بديع في وضع صحي سيء و أن المارشال كامل قد تسلم فعليا زمام الأمور ، هذه الشائعات تسبب في ارتياح كبير بين الناس لأن كامل لم يكن كثير الظهور الإعلامي و كان غير مكروه لأنه بقي بعيدا عن الأضواء ، بالتزامن مع حملة الشائعات بدأت موجة من الزيارات لحكام الدول العربية إلى عاصمتنا لإشغال الناس بتوقع تطورات ما ، راح الإعلام الرسمي يعرض مشاهد من لقاءات الزعيم بديع مع رؤساء الدول العربية المجاورة و ينقل عنه

تصريحات عن فحوى هذه القمم الرئاسية و ما سيقدمه الأشقاء العرب من دعم لبلادنا في مواجهة جارتنا العدو اللدود و تهديداتها لأمننا ، و بدأ ينتشر على الإعلام مصطلح "الأمن القومي العربي" و صارت معظم تصريحات بديع تتحدث عن تهديدات العدو لهذا الأمن ! هذه اللقاءات القممية لا تبحث عادة شيئا من أمور السياسة و الحكم لأن أطرافها ليسوا سياسيين و لا حكاما أصلا ، الحديث فيها يدور في معظمه عن الطرب و مفاتن ممثلات بلادنا و راقصاتها و عن حفلات صيد البط و الطيور البرية و الجنس و القمار و الخمر المعتقة و تهريب الخشخاش ، بالمختصر يبحثون في كل شيء عدا السياسة !.

في خطوة أخرى للتحضير لتقاعد بديع تجنب الزعيم الأوحده إلقاء الخطابات الحماسية التي كان يشنف بها آذان الأمة لساعات طوال ثم ينال عليها موجات التصفيق و الهتافات بحياته من الحشود.

كامل لم يكن رجل خطابة و مهرجانات و لذلك ندرت لقاءاته و ظهوره الإعلامي ، إلا أن قراراته الحكومية المتلاحقة جعلته حاضرا دوما في الإعلام ، أول هذه القرارات كانت مرسوم تنفيذيا لتشكيل الأحزاب ، حدد المرسوم الأحزاب التي يحق لها العمل في البلاد ، كان على رأس هذه الأحزاب الحزب القومي العربي الاشتراكي ، ثم الحزب الشيوعي ثم الحزب الاشتراكي الوسط ثم الحزب الوطني ، القرار الثاني كان قانون الإنتخابات العامة التي حدد موعدها بعد ستة أشهر من صدور القرارات الحكومية.

ركزت مع فريقتي كل جهودنا في هذه الفترة لتوسيع و تضخيم الحزب القومي الاشتراكي العربي (قاع) و اختيار أعضائه و كوادره و تنظيماته ، بداية قمنا بضم كافة عناصر المخابرات و تشكيلات الأمن السرية و كافة ضباط الجيش إلى الحزب ، أجبرنا الجميع على حضور دورات تثقيفية بأفكار الحزب مدتها بضعة أسابيع ، أشرف على هذه الدورات أعضاء الحزب القدامى و السيد بلطجي مؤسس الحزب و رئيسه ، و بدأت شعارات الحزب تظهر على واجهات المكاتب و علفت إلى جانب صور الزعيم بديع ، بعد هذه الدورة القصيرة بأسابيع التحق بتنظيم الحزب كل رؤساء منظومات التهريب من وجهاء القرى و رؤساء العشائر و رجال دين الطوائف السرية و رجال الدين الذين ترعاهم مخبراتنا و كل المدرسين الجامعيين و مدراء المدارس و كافة المدراء العاميين و رؤساء الدوائر في المؤسسات الحكومية و كافة المغنيات و الراقصات و المغنين و الممثلين و كل العاملين في قطاع التلفزيون و الصحافة و الإذاعة و المسارح و حتى بلطجية المواخير و المرافق الليلية صاروا أعضاء مناضلين و رفاقا ثوريين مدافعين عن حقوق الأمة العربية و كادحيها و رسالتها الحضارية التي لا تفنى ، حتى كاد حزب قاع يصبح أكبر حزب في العالم من حيث عدد الأعضاء.

نظام الحزب الداخلي كان يبدأ بالفرقة الحزبية و هذه الفرق تتوزع على القرى و الأحياء ، و من عدة فرق تتشكل شعبة حزبية لكل منطقة كبيرة و من عدة شعب كان يتشكل فرع الولاية و من مجموع الفروع يتشكل الحزب كله.

عقد حزب قاع الجديد مؤتمره الأول قبل الإنتخابات العامة بشهرين فقط ، افتتح المؤتمر الزعيم بديع بنفسه و ألقى فيه خطابا قوميا شاملا تحدث فيه عن حالة العرب كلهم بلدا بلدا و عن ماضيهم المجيد و المؤامرات العالمية عليهم و حدد في خطابه معالم خطة تاريخية لإعادة نهوض العرب جميعا من حالة التخلف و الفقر ليقودوا العالم مرة أخرى نحو التقدم و الحضارة ، طبعاً لم ينس الزعيم تكرار التهديد و الوعيد لأعداء الأمة في الخارج و أذناهم في الداخل من دعاة التخلف و الرجعية الأرستقراطية التي تمتص جهد الشعب ! جدير بالذكر أن تسعة أعشار الذين حضروا المؤتمر كانوا من زعماء منظومات تهريب الخشخاش و كافة البضائع بأنواعها ، أفقرهم مليونير صغير ، العشر الباقي كان مؤلفا من عدد لا بأس به من الراقصات و المغنيات و الممثلات المعروفات جدا و جميعهن قد أصبحن من ذوات الثراء الفاحش .

انتخب المؤتمر قيادة الحزب و على رأسها الزعيم الأوحده و عضوية أعضاء مجلس قيادة الثورة و أشهر راقصتين في البلاد (حصه المرأة) ، كما عين المؤتمر رئيسا رمزيا للحزب هو مؤسسها الأستاذ بلطجي و قيادات للشعب و الفروع و اتخذ مقرات هامة منها أن الحزب سيكافح جاهدا من أجل القضاء على روايب الماضي و التخلف و على رأسها العشائرية و التمييز ضد النساء ، و سيجعل من المساواة التامة بين المرأة و الرجل في الحقوق و الواجبات حقيقة تفاخر بها دولتنا على العالم بأسره.

بعد مؤتمر حزب قاع عقدت الأحزاب الأخرى مؤتمراتها و انتخبت قياداتها الخاصة ، ثم أعلن عن تحالف موحد لسائر الأحزاب و عن قائمة إنتخابية واحدة لجميع الأحزاب في كل ولاية ، و بعد هذه المعمعة الحزبية جرت الإنتخابات العامة و فاز بها تحالف الأحزاب بقيادة حزب قاع الذي حصل وحده على ثلثي مقاعد مجلس نواب الأمة و ذهب الباقي إلى حلفائه. في الجلسة الأولى للمجلس قدم رئيس المجلس للنواب مشروع الدستور الذي أعدته لجنة الدستور و الذي أشعل ثورة بسطام الشهيرة ، تم تعديل مشروع الدستور هذا بحيث يناسب بقاء حزب قاع في السلطة إلى أبد الأبدين ، وافق المجلس عليه بالإجماع بعد جلستين فقط لمناقشته.

بعد إقرار الدستور بأسابيع حضر الكولونيل ليلبع اللواء زيد بقراره بالعفو المشروط عنه ، الشرط كان أن يشكل زيد و جماعته فرقة عسكرية خاصة بهم لضبط حدودنا مع جارتنا العدو ، و بالفعل نُقل زيد بعد الإفراج عنه مع جماعته إلى المنطقة المجاورة لجارتنا المعادية ، كان الجميع بلباس عسكري كامل و أعطوا أسلحة و تجهيزات عسكرية و مركبات ، و أضيف إليهم عدة مئات من المجندين من أتباع الديانة السرية من نفس طائفة زيد (طائفة تختلف عن طائفة هرثمة و رفاعه) ، أخبرهم الكولونيل أن عليهم أن يربطوا في إحدى الشكنات القريبة للحدود لعدة أيام ، احتفل زيد و جماعته بهذا العفو المفاجئ و استقروا في ذلك الموقع بانتظار مزيد من الأوامر.

في اليوم التالي تحركت فرقة كبيرة من الجيش نحو ذلك الموقع و بدأت بقصفه ، فوجئ زيد بما يحصل فاتصل باللاسلكي بالأركان و بالكولونيل فكان الرد عليه بأن تمردا وقع في الجيش و عليك أن تقمعه.

بالفعل شرع زيد و جماعته بالرد و القتال و لكن ذخيرتهم نفذت في خلال ساعة واحدة و اكتسحت الفرقة موقعهم و أبادتهم جميعا باستثناء زيد و شقيقه و صديقته المغنية الجميلة التي كانت تشاركه زنزانته.

في تلك الأثناء بث التلفزيون بيانا من رئاسة الحكومة يعلن عن إحباط محاولة للتمرد برعاية جارتنا العدو ، المحاولة يقودها اللواء الخائن زيد قائد الحرس الرئاسي و عضو مجلس قيادة الثورة ، و أعلن البيان عن محاكمة هذا الخائن في اليوم التالي.

في مساء اليوم التالي عرض التلفزيون محاكمة صورية لزيد و شقيقه سلطان و صديقته المغنية و لشخص آخر أظهر على أنه ضابط من مخبرات جيش جارتنا العدو ، لم يتكلم أحد من المتهمين أثناء المحاكمة لأنها لم تكن محاكمة بل كانت مجرد تلاوة لأسماء المتهمين و التهم الموجهة إليهم و تلاوة لشهادة قائد الفرقة التي اقتحمت معسكرهم و هو العقيد علي (من أتباع الديانة السرية طائفة هرثمة) ، ثم حكم عليهم اللواء زين رئيس المحكمة العسكرية بالإعدام رميا بالرصاص في ساحة المحكمة و فورا ، نفذ الحكم على شاشة التلفزيون.

لم يستطع أفراد طائفة زيد إبداء أي تلمل أو اعتراض ، و بدأ شيوخهم بالتوافد على العاصمة للقاء الزعيم بديع و تقديم آيات الولاء له و للحزب الجديد "قاع" .

استقرت الأوضاع على الصعيد الأمني بعد تشكيل حزب قاع و إنضمام الناس إليه طمعا في المكاسب أو فرارا من المتاعب ، لكن على الرغم من هذا الإستقرار بقي هاجس الخوف من إنفجار غضب العامة قائما و بقوة ، تقارير المخبرات لم يخل منها تقرير واحد عن نقل عبارات السخط على الواقع و الحنين إلى الماضي ، أحاديث الناس كلها تتمحور حول فشل الدولة في كل شيء تقوم به ، السخرية من أجهزة الدولة باتت الفكاهة اليومية للناس ، و كل ما فعله الحزب هو زيادة هذه التقارير كَمَا ، على مدار الساعة كان الحزبيون يتجسسون على الناس و على بعضهم ، يرفعون إلينا تقارير عن تعبير هذا و ذاك عن السخط على النظام ، لكن حتى أولئك الوشاة جاءنا من يشي بهم و ينقل لنا سخطهم على النظام ، و يبدو أن هذا الوضع هو الذي كانت خطة إنشاء الحزب ترمي إليه ، فالبارون جيمس لم يكذب يقرأ تقارير عن عمل منظومة التجسس الحزبية حتى اتصل بي مهنئا و وصل بعدها إلى البلاد حاملا معه مهمة جديدة.

التقينا في سفارة دولة الإنتداب الأوروبية "سابقا طبعاً" و كان في الإجتماع كل أعضاء الفريق الإستشاري الأوربي المستوطن في البلاد ، كان أمام كل واحد من الحاضرين ملف ضخم جدا يضم في طياته بضعة و أربعين ملفا صغيرا.

بدأ البارون كلامه قائلا : لقد انتهى بالفعل الزمن الذي يمكن فيه قيام أي تحرك خطير ضد سيطرتنا على البلاد ، فعندما تنقلب حالة السخط عند العامة إلى فكاهاة و تندر فهذا يعني أن الناس قد استسلموا لسيطرتنا و خضعوا لقدرهم الذي أوصلناهم إليه ، اليوم سنبدأ في تكريس هذه السيطرة و تحويلها في نفوس العامة إلى سيطرة مقدسة يعظمونها بنفس درجة حقدهم عليها ، و سنجعل لسيطرتنا هذه واجهات ثابتة لا تتغير إلا كما يتغير شكل الإنسان بمرور الزمن البطيء جدا .

قال الدكتور مارتن رئيس المستشارين : لقد اخترنا هذه الواجهات بعناية كبيرة و بنفس المقاييس التي استعملناها في مستعمرات العالم الجديد ، و أظن أن كل ما نحتاجه صار جاهزا .

انحنى البارون شاكرا و أشار بيده للدكتور لترؤس الجلسة و البدء بالكلام ، فقام الدكتور إلى شاشة مثبتة على جدار القاعة و أدار أحد معاونية آلة العرض فظهرت صورة لمثلة معروفة و ممثل معروف في بلادنا ، قال الدكتور :

الجمال عادة هو ما يميز الأسر الغنية عن الأسر الفقيرة ، لأن الرجل الغني أو المرأة الغنية لن يفكر أحدهم بالزواج من شخص دميم ، لهذا نجد أن العامة حين يريدون أن يصفوا أحدا بالجمال يقولون عنه أنه "مَلَكِي" أو "أمير" ، حتى في التصرفات الجلبية نجد أن العامة يحترمون الشخص الجميل و يعاملونه على أنه إنسان قيّم ، رغم أنه قد يكون أقل منهم قيمة أو علما أو مكانة ، لهذا قررنا أن نختار واجهات النظام الدائمة من ذوي الهيئات الجسمانية الجميلة ، لا بد للوزير أو عضو مجلس الأمة أو عضو القيادة من كلا الجنسين أن تكون عيونه واسعة و ملونة ، و أن يكون مستدير الوجه ، أبيض اللون أو حنطي أو حتى أسمر إلا أنه لا بد أن يكون جذابا ، إبتسامته حلوة و شعره جميل و أن يكون طويل القامة و عريض الكتفين و خاليا من التشويه ، لا بد أن يكون صوته مقبولا للأسماع ، هذا في الصفات الجسمية للرجال و النساء ، و لعل هاتين الصورتين تعطيان نموذجا جيدا عن المواصفات التي اخترنا على أساسها أولئك الذين سيكونون واجهات النظام .

و استأنف قائلا : الأناقة طبعاً أمر مفروغ منه ، ستكون دوما حسب أحدث تصاميم الأزياء الأوربية ، بالنسبة للمواصفات الأخرى سأبدأ أولا بالأصل الطبقي :

يجب أن يكون هؤلاء جميعا من أصول طبقية منحطة على عكس ما تظهره ملامحهم تماما ، يجب ألا يكون أي منهم من أبناء الأسر النبيلة السابقة أو من أبناء العشائر الكبيرة المعروفة ، لقد اخترنا معظمهم من أتباع الديانة السرية من كافة طوائفها ، عدد آخر منهم من أبناء الأقلية غير المسلمة ، إلا أنهم جميعا يشتركون بأن عروقا غجرية تشترك في إنجابهم ، هؤلاء الأشخاص لن يحترموا أحدا لعلمه و لا لقدره و لا لنسبه و لا حتى لماله ، سيتعاملون مع الجميع بدون رحمة ، و سينفذون أوامرنا دون تمأون .

المواصفات الإجتماعية لهؤلاء نحن من صممها خلال الفترة السابقة ، عدد هؤلاء الأشخاص مائة ، خمسون رجلا و خمسون امرأة ، كل واحد منهم متزوج بواحدة منهن ، أي خمسون أسرة ، النساء كلهن من فريقنا الفني الذي دربناه خلال عهد الانقلابات ، من المغنيات و الراقصات و الممثلات و المديعات ، أما الرجال فكلهم قد تم اختيارهم بعناية من بين ضباط الجيش الجدد الذين تخرجوا في عهد العقيد بديع و نحن من رتبنا زواجهم ببعض قبل عقد تقريبا ، لقد أنجب جميع هؤلاء تقريبا أبناء و بناتاً هم الآن أطفال ، هذه الأسر ستتشعب منها كل واجهات النظام ، بداية من الوزراء و القادة و انتهاء بالمغنين و المخرجين المشهورين ، هذه الأسر ستكون هي الأرستقراطية الجديدة التي ستضبط أوضاع البلاد إلى الأبد ، بإشرافنا طبعا .

المواصفات الأخلاقية لهؤلاء تتلخص بأنهم أوغاد و مومسات ، لا يتورعون عن فعل أي شيء من أجل المكاسب و الغنائم ، و طبعا سجلاتهم حافلة بالفضائح الأخلاقية و الجرائم البشعة التي غطيناها و لكنها محفوظة لدينا إلى وقت الحاجة .

المواصفات العلمية : لقد أجهدنا أنفسنا في تلقين هؤلاء مبادئ معابد الحرية و هي : الحرية في اختيار الفكر و التعبير عنه ، طالما أن هذا الفكر غير أخلاقي ، و المساواة بين الناس جميعا في البهائية المطلقة من جهة افتراس الغذاء و تعاطي اللذات ، أخيرا الإخاء القائم على المصلحة مطلقا ، مع إسقاط كل اعتبار آخر لأي ارتباط ، أما عن المؤهلات العلمية و الثقافية فهم أشباه أميين إن لم نقل أن بعضهم أمي فعلا على الرغم من أنهم يحملون شهادات جامعية أو متوسطة .

بدأ الدكتور بفتح ملفات هؤلاء الأشخاص و عرض نبذة تعريفية بكل واحد منهم و علاقته الآخرين من نفس المجموعة ، كنت أعرفهم جميعا و أعرف عنهم كل شيء ، استمر العرض لعدة ساعات تخلله غداء لذيذ فعلا و ساعة راحة ، و بعد انتهاء العرض وزع البارون على كل واحد منا خطة العمل على ورقة صغيرة .

مختصر هذه الخطة : أولا سيتولى أعضاء هذه المجموعة شكليا مهمات إدارة كافة مؤسسات البلاد و منظومات التهريب التي شكلناها ، هذا يقتضي طبعا تحويل رؤساء العشائر و الأسر الكبيرة من المهريين إلى أتباع لهذه المجموعة .

ثانيا سترتبط كل أسرة منهم بمستشار من فريق المستشارين الأوروبيين ، ستخصص لهم حراسات من منظمتي الخاصة بعيدا عن التوظيفات الحكومية ، ستكون مهمة هذه الحراسات حماية هذه الأسر ، و طبعا تصفية تلك الأسر التي تشذ عن الجادة .

لا يفوتني أن أقول أن أعضاء القيادة الحالية لم يكن أي منهم من هذه الأسر ، باستثناء اللواء هرثمة و شقيقه المقدم رفاعة ، حصلا على ترقية مؤخرا .

في آخر فقرة من الاجتماع وضعنا ترتيبات لإجتماع عام لهذه الأسر في مبنى المسرح الوطني ، غادرنا على موعد للإجتماع لاحقا في المؤتمر الأسري العتيد بعد أسبوع .

أرسلت الإستدعاءات إلى الأسر الخمسين ، اقتصر كل إستدعاء على الزوجين فقط ، بالفعل كان الجميع في مساء أحد أيام الخميس الشتوية يجتمعون في مبنى المسرح الوطني في وسط العاصمة ضمن ترتيبات سرية و أمنية مشددة جدا تولتها منظمتي الخاصة بعيدا عن المخابرات و غيرها.

بعد اجتماع شملهم ، دخل والدي القاضي إلى الصلاة و بدأ بالحديث معهم بصوته الجمهوري قائلا :

لن أرحب بكم فأنتم مجرد حثالة و قمامة ، لكن اعتبارا من هذا اليوم سنرقيكم لتصبحوا من البشر ، ضمن شروطنا طبعاً ، و سأتلوها عليكم :

أولا يمنع أي واحد منكم من أي ظهور على الإعلام إلا بعد إذن و ترتيب و تنسيق كامل مع المستشار الأوربي المشرف عليكم و المخالف لهذا البند عقوبته الموت.

ثانيا يمنع أي واحد منكم من أن يطلق زوجته أو يتزوج بأخرى إلا بإذن مسبق و بترتيب مسبق مع المستشار المشرف ، و مخالف هذا البند عقوبته السجن إلى الأبد.

ثالثا يحظر على أي منكم أن يرتبط بأية علاقة جنسية أو عاطفية بغير إذن مسبق من المستشار و هذه أيضا عقوبتها السجن مدى الحياة.

رابعا يمنع أي منكم من تزويج أي ولد أو بنت من ذرايركم إلا بإذن مسبق و موافقة من المستشار الأوربي و يجب أن تعملوا لتزويج أبناءكم و بناتكم من ضمن هذه المجموعة تحديدا ، غالبا لن نوافق على أية مصاهرة بينكم و بين أسر من خارج المجموعة.

خامسا ستشتركون جميعا في عضوية نادي الأسرة الوطني ، و لن يسمح لغيركم بعضوية هذا النادي و لكن سنسمح لكم باستضافة أقاربكم من الدرجة الأولى فيه ، و ستتواجدون في النادي بشكل شبه يومي و ستمارسون هناك الرياضة و السباحة و ركوب الخيل و هواياتكم المفضلة ، و طبعاً لا مانع لدينا من أن تقيموا علاقات عاطفية فيما بين أفراد المجموعة ، بشرط أن تكون برضا الطرفين ، أي الرجل و المرأة ، العلاقات المثلية الشاذة سيكون عقابها الموت ، و عقاب تصرفات الغيرة المتخلفة سيكون السجن لعشر سنوات للرجال و النساء على حد سواء ، و هذا يشمل أيضا أبناءكم و بناتكم.

سادسا بعد ثلاثة أعوام سيكون أقاربكم جميعا من الأغنياء و يمنع أن يبقى فيهم فقير واحد ، أنا أعرف أن أقاربكم قليلوا العدد و لكنهم سيكونون مفيدين في المستقبل.

سابعاً تذكروا أن عيوننا لا تغيب عنكم أبدا فتصرفوا على هذا الأساس ، و تذكروا أنكم مجرد قمامة نحن من صنع منها هذه الدمى الجميلة ، و نحن من سيتلف الدمية التي لا تتحرك كما تريد أصابعنا ، سنوزع عليكم وظائفكم الجديدة و مهماتكم و سيتلوها عليكم مهران بك بعد قليل.

بدأت حديثي مع نادي الأسر السعيدة دون تحيات و لا مقدمات ، فقلت : لدينا في كل مدينة كبيرة عدد لا بأس به من الموظفين المبعوثين من أبناء طوائفكم و أتباع ديانتم ، سيحتاج كل واحد منكم و كل واحدة منكم إلى مندوب من أبناء طوائفكم في كل مدينة كبيرة ، عمل هذا المندوب سيكون تلقي طلبات الناس و نقل نسخ عنها إلى مكاتبكم مقابل أجره ، و بعد أن تقضى هذه الطلبات سيحيي المندوب أجره على قضاء حاجات الناس.

لقد اخترنا المندوبين و المندوبات و سيكون عليكم فقط التعرف عليهم ، يبلغ عددهم نحو من ألفين و جميعهم موظفون في دوائر حكومية و تمت ترقيتهم إلى وظائف إدارية كبيرة ، أما المندوبات من النساء فكلهن تقريبا من ربات المواخير و علب الليل ، و لعلكم ستسألون كيف سيعمل هؤلاء المندوبون ، و سأشرح لكم ببساطة : تخيلوا معي فندقا كبيرا جدا ، يقع في منطقة نائية و على طريق سفر طويل ، و لا بد للمسافرين من استعمال هذا الفندق للإستراحة ، اشترى هذا الفندق رجل يحب الربح الكثير و السريع ففرض على النزلاء دفع أجره باهظة للحصول على سرير أو غرفة أو وجبة .. إلخ ، صحيح أن النزلاء في أول الأمر سيدفعون الكثير من المال و سيربح هذا المالك كثيرا في بداية عمله ، و لكن بعد مدة سيجد أن نزلاء الفندق سيقبل عددهم ، لأن المسافرين سيتدبرون أمر استراحتهم في مكان آخر و لو في العراء و سيحملون ما يغنيهم عن خدمات هذا الفندق معهم ليوفروا على أنفسهم أتاوات هذا المالك الجشع ، و سيبقى الأمر كذلك حتى يقفر الفندق .

هذا حال الناس اليوم مع حكومتنا ، يدفعون الكثير من الضرائب لينالوا القليل من الخدمات ، و هم اليوم صابرون و لكن هذا لن يطول ، لنعد إلى مثال الفندق :

قرر هذا المالك الإستعانة بنصيحة رجل ذكي ليدبر الفندق بحيث يربح كثيرا و دون أن يفقد الزبائن و دون أن يرفع الأسعار ، فأشار عليه هذا الرجل الذكي بشراء آلة لصب المفاتيح ، و بتركيب أقفال على كل أبواب الفندق الداخلية و الخارجية لا تفتح إلا بمفاتيح ، أبواب المطعم و أبواب دورات المياه و أبواب المغاسل و أبواب الحمامات و أبواب غرف الجلوس و أبواب غرف الهاتف و أبواب خزانات الأواني .. إلخ ، و أمره بتعيين موظف يصب يوميا عشرات المفاتيح لكل قفل في الفندق ، و بأن توضع هذه المفاتيح عند موظفين في ممرات الفندق ، و أشار عليه بأن يجعل أجره الإقامة في الغرف أقل من نصف الأجرة المعتادة.

سينزل الناس في الفندق طمعا بالرخص ، و لكنهم سيدفعون الكثير من المال ثمنا للمفاتيح التي سيشترونها لفتح الأبواب التي تحجز خلفها ما يحتاجونه من الخدمات ، سيدفع كل منهم ثمنا لمفاتيح لغرف الحمامات و دورات المياه و صالات الجلوس و غرف النوم و خزائن الصحون و الأواني التي سيستعملونها للأكل و الشرب ..إلخ ، هذا الأسلوب سيحبه النزلاء لأن الإنسان يهوى بطبعه الإلتفاف على القوانين ، و يحب بطبعه القفز على الحواجز ، و سيواظبون على النزول في هذا الفندق إرضاء لهذا الهوى ، و هكذا سيجني هذا المالك أرباحا ضخمة و دون أن يرفع أجرة النزول في فندقه.

مندوبوكم هؤلاء و أنتم معهم ستكونون بائعي المفاتيح ، الدولة هي الفندق و المالك هو نحن و جميع الناس في هذه البلاد هم النزلاء.

في الفترة القادمة لن تجمع الدولة ضرائب كبيرة من الناس ، السبب هو أن الدولة لن تقدر على أن تقدم للناس خدمات تستحق الذكر ، ما عدا رواتب الموظفين التي سيستمر دفعها في مستوياتها المنخفضة لإبقاء الدولة موجودة فقط.

الناس سيتدبرون أمر الخدمات من خارج مؤسسات الدولة ، و هذه الخدمات سيتقاضى أصحابها ثمنها و سيربحون دون أن يدفعوا للدولة ضرائب ، فهذه الخدمات ستكون عشوائية و دون تخطيط عام و عبر السوق السوداء - التي نسيطر عليها الآن و لكنها ستخرج عن السيطرة قريبا - سيجد المشترون طرقا لجني المال اللازم لشراء إحتياجاتهم من السوق السوداء و في السوق ذاتها ، و بعد مدة سيخلق الناس إقتصادا موازيا تماما للإقتصاد الرسمي كما سيخترع المسافرون طريقة للإستراحة بعيدا عن فندق صاحبنا ، هذا لن نسمح به لأنه سيعني أن مستوى المعيشة سيتحسن و سيعود الناس لبناء ثروات تعينهم على تحدي سلطتنا مجددا.

نحن سنسمح للناس بالعودة إلى استيراد البضائع ، و سنسمح لهم بالعودة إلى تصدير البضائع ، و سنسمح لهم ببناء مصانع و مدارس و مشافي و مرافق سياحية و وسائل للنقل الجماعي ، و لكن سنكون نحن الشركاء في كل هذا بواسطةكم و بواسطة مندوبيكم ، و دون تخطيط وطني مسبق.

في البداية و قبل أن نسمح بأي شيء سنعين كل واحد منكم مسؤولا عن قطاع معين في حزبنا "قاع" و سنسميكم أعضاء اللجنة المركزية للحزب القائد ، سيكون إلى جانبكم أعضاء آخرون من بقية الطوائف و لكنهم سيكونون مجرد ديكورات و تكملة للعدد .

ثم سنعين مندوبيكم في اللجان القيادية الفرعية للحزب في سائر المدن الكبرى و مراكز الولايات ، و بناء على أحكام الدستور الذي يسمح للحزب الحاكم بمراقبة عمل إدارات الدولة و وزاراتها سنرتب الأمور بالشكل التالي :

سنعطي تعليمات لكل مدراء و رؤساء مؤسسات الدولة بعدم الموافقة على أي طلب لأية رخصة أو وظيفة أو ترقية أو نقل لموظف أو إستقالة موظف أو صرف راتب تقاعدي أو منح سرير في مشفى أو نقل جندي أو قرض من مصرف أو شراء بطاقة طائرة أو إصدار وثيقة ولادة أو زيارة سجين .. إلخ . ستمنح الموافقة فقط بعد مراجعة لجان الرقابة الحزبية ، فالحزب هو ممثل الشعب الكادح ، و قيادات الحزب هم الذين سينوبون عن الشعب في الرقابة على عمل الدولة ، و لن تمنح لجان الحزب القيادية أية موافقة على أي طلب ، إلا بعد أن يقبض مندوبوكم ثمن هذه الموافقة من أصحاب الطلب ، و لهذا سيتعين على مندوبيكم أن يزرعوا مندوبين عنهم في كل مكتب أو مؤسسة حكومية ليرشدوا أصحاب الطلبات إلى كيفية دفع الرشاوى إلى منظومتكم.

سيتطور الأمر لاحقا ليصبح من المستحيل أن يسمح أي موظف من تلقاء نفسه بتسجيل أي طلب في أية مؤسسة حكومية دون أن يقبض من صاحب الطلب الرشوة اللازمة لتمرير الطلب ، و هكذا و بعد أعوام قليلة سيكون جميع موظفي الدولة عاملين في منظومتكم ، و لن يفكروا برواتبهم عند تسلمهم وظائفهم و إنما سيفكرون بما يمكن لهم جمعه من الرشاوى.

الموظفون الصغار سيدفعون حصتهم لمن هم أعلى منهم ، و الذين هم أعلى سيدفعون لمن هم أعلى منهم و هكذا ، سيكون نصيبكم نصف أية رشوة تدفع ، هذا ما سيراه رؤوسكم ، الواقع أنكم ستحصلون فقط على خمسة في المائة تنفقونها على أنفسكم في داخل البلاد ، الباقي سيحول إلى سلع ثمينة كالذهب و الماس و الآثار و سينقل إلى خزائنا في أوربة ، ستكون لكم خمسة بالمائة أخرى من المدخرات في خزائن أوربة ، ستمتعون بها حينما تتقاعدون ، أنتم و عائلاتكم و أبنائكم و حفدتكم.

الطلبات التي سيقدمها الناس للحكومة سيكون منها الكثير جدا من طلبات رخص الإستيراد و التصدير و رخص إفتتاح مصانع و منشآت إقتصادية كالمتاجر الكبيرة و الصغيرة و المشافي و الفنادق و المواخير و المزارع و شركات النقل .. إلخ ، الرخص الكبيرة الحجم للمشاريع الكبيرة لن تصدروها ، إلا بعد أن يوافق طلابها على منحكم حصصا دائمة في ملكية هذه المشاريع لا تقل عن الربع.

الرخص الصغيرة ستأخذون منها الرشاوى بشكل يومي ، فصاحب المقهى و سائق سيارة الأجرة و الحمال و حتى البائع المتجول سيكون عليه دفع الرشاوى يوميا لعناصر الشرطة و مراقبي البلديات و مديريات مراقبة التجارة و الأسعار و مندوبي الضرائب و غيرهم ، حتى يُسمح لهؤلاء المتاجرين الصغار بالعمل و الكسب دون مضايقات ، و كل هذه الرشاوى ستنالون أنتم نصفها ، و أؤكد لكم أن واردات الرخص الصغيرة ستكون أكبر بأضعاف من واردات الرخص الكبيرة.

سنجعل لهذه الرخص تواريخ لإنهاء الصلاحية تجدد كل عام أو عامين أو ثلاثة ، و من أراد أن يجدد الرخصة فعليه أن يخضع لنظام الرشاوى الآنف الذكر كل بحسب حجم رخصته.

بالنسبة لرخص البناء ، سيتوجب على طلابها دفع الرشاوى في المناطق المصنفة مناطق سكنية ليحصلوا على رخصتهم ، أما بالنسبة للذين يريدون البناء على الأراضي التي صُنفت زراعية أو الأراضي التي لم تدخل ضمن مخططات تنظيم المدن فسيدفع هؤلاء الرشاوى لمندوبيكم حتى يأمرؤا الشرطة و مراقبي البناء بغض النظر عنهم ريثما يبنون منازلهم ، و لن نسمح لهم أبدا بتسجيلها أو تنظيمها أو إدخالها رسميا في المناطق السكنية ، كما أننا لن نسمح أيضا بهدمها بعد بنائها ، و لن يمنح أصحاب تلك المنازل رخصا للبناء حتى لا تكون الدولة مضطرة لتأمين الخدمات لهذه الأبنية "المخالفة" و التي ستتشر عشوائيا في محيط المدن.

هكذا سنضمن أن الناس لن يطوروا لأنفسهم ملاذات يجنون منها الثروات بعيدا عن سلطتنا ، و حتى أولئك الذين يهاجرون اليوم للعمل و جني الأموال من خارج البلاد سينفقون مدخرات غربتهم في وطنهم ضمن القنوات التي رسمناها لهم ، و ستعود كلها إلينا و بالطبع بعد أن تستقر منظومتكم سنستغي عن منظومات تهريب البضائع و ستبقى فقط منظومة الخشخاش تعمل بأيدي أبناء طوائفكم و بأمان كامل.

لقد وزعناكم على مكاتب الحزب المختلفة ، و كل واحد منكم سيدير مكتبا ، لدينا مكاتب في الحزب لكل شيء يتحرك في الدولة ، مكتب للشباب و الرياضة ، و مكتب للجيش و آخر للشرطة و ثالث للنساء العاملات و رابع لربات البيوت و خامس للتربية و التعليم و سادس للمعلمين و سابع للطلبة و ثامن للمغتربين العائدين و ثامن للمغتربين في الخارج و تاسع للفنانين الرسامين و عاشر للأدباء و مكتب للصحافيين و مكتب لشؤون الصحة و مكتب لشؤون الزراعة و مكتب لشؤون الصناعة ... إلخ.

من الآن فصاعدا أنتم الدولة ، لقد بنينا لكل منكم قصرا صغيرا في وسط حديقة متوسطة ، كل قصوركم متجاورة في ضاحية العاصمة التي بنيناها لسكن الدبلوماسيين و قادة الدولة و الوزراء و أعضاء مجلس الأمة و كبار التجار ، و منكم سيكون رئيس الدولة القادم بعد تقاعد العقيد بديع و فريقه بالكامل ، و ستكونون أنتم المعلمون لكل البلاد ، و كافة السكان سيكونون صبيانا عندكم يجمعون لكم الغلات.

زوجاتكم سيبقين نجمات الترفيه في البلاد ، سيبقين مغنيات و راقصات و ممثلات ، و من بعدهن سيكون المغنون و المغنيات و من نسميهم بأهل الفن كلهم من أبناءكم و بناتكم ، أنتم و أبناءكم و بناتكم ستكونون واجهة البلاد السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية و الترفيهية و لن تتصدر صفحات الإعلام و لن يبت في الإذاعة و على شاشات

التلفزيون إلا أصواتكم و صوركم و أصوات أبنائكم و بناتكم و صورهم و ستعرض طريقتكم في الحياة على أنها هي الحياة المثالية ، حتى تصاميم الأزياء ستقتبس من أزيائكم ، سنجعل منكم ملوكا أسطوريين لهذه البلاد.

و في نفس الوقت ستبقون الدمى التي صنعناها و سنتلفها حين ترزع أصابعنا ، و لن تفارقكم أبدا عيوننا و لن تعملوا إلا بإرشادات يومية من معلميك و هم أعضاء الهيئة الإستشارية الأوربية ، كل واحد منكم سيتبع لواحد منهم و سيتلقى منه التعليمات يوميا .

انصرفوا الآن كل إلى المزرلة التي يسكنها فلقد انتهى الإجتماع .

في الشهر التالي لإجتماعنا الكبير مع الأرستقراطية الغجرية الجديدة ، بدأ تنفيذ مقررات الإجتماع و عقدت في عواصم الولايات آلاف الإجتماعات بين أسر البلاد الحاكمة و بين المندوبين الذين وقع الإختيار عليهم ليمثلوهم ، هذه الإجتماعات كان يشرف عليها بالكامل أعضاء الفريق الإستشاري الأوربي ، و تم إفهام كل واحد من المندوبين مهمته و كيفية أداء الخطوات الأولى فيها .

لم تحدث صعوبات تذكر في توزيع المهام و إفهام هؤلاء المندوبين واجباتهم لأنهم أشخاص أذكاء اختيروا بعناية بالغة من الناس الذين يحبون الإختلاط بالآخرين و لديهم فضول كبير ، و أهم ما فيهم من الخصال الحميدة أنهم أنذال جدا و كل واحد منهم على استعداد تام للتضحية بأمه أو ابنته أو زوجته من أجل جلب مصلحة أو دفع خطر ، الأهم أنهم جميعها من أتباع الديانة السرية بطوائفها المتعددة ، هذا يعني أنهم متمرسون على الخداع و التمثيل و التجسس و الغدر دون تلثم أو تردد ، لأنهم تعلموا هذه المهارات من آبائهم و رجال دين طوائفهم منذ نعومة أظفارهم.

المصاعب الحقيقية واجهناها في محاولة إقناع عدد من شيوخ البدو من المهريين بالتبعية و الولاء لهذه الأسر ، فلقد كانت شبكة تهريب الخشخاش تضم عددا كبيرا من هؤلاء الذين يعملون أساسا لحسابنا ، هؤلاء البدو لم يكن لديهم مانع في التبعية لضباط في الحكومة من المسلمين أو المسيحيين ، لا مانع لديهم حتى من التبعية مباشرة لضباط أوربيين فأباؤهم قاتلوا إلى جانب قوات الإنتداب الأوربية المسيحية ضد الحكم التركي المسلم ، إلا أن مشكلتهم الكبرى كانت في القبول بالتبعية للفلاحين من أتباع الديانات السرية ، السبب هو تاريخ طويل من الإذلال الذي كان يمارسه البدو على هؤلاء الفلاحين ، فلقد كان البدو لوقت قريب يغزون قرى هؤلاء الفلاحين و ينهبون غلات أراضيهم و يخطفون بناتهم ليعملن جوار و صيفات في بيوت البدو ، الواقع أن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا يمانعون في بيع بناتهم و لكنهم كانوا يرفضون طبعاً أن يؤخذ منهم بلا ثمن .

المهم أن البدو كانوا يرون أن أعظم العار مجرد التواجد في مجلس واحد مع أحد الفلاحين من أتباع الديانة السرية ، و على رأس هؤلاء الشيخ بو طراد ، هذا الرجل كان يدير قطاعا كبيرا من الحدود الشرقية و الشمالية للبلاد ، أتباعه و رجاله كانوا ينقلون منتجات الخشخاش بانتظام من مناطق الفلاحين إلى نقاط الإستلام في الدول المجاورة ، طبعا كان رجلا عنيدا جدا و صلب الرأس للغاية.

عقدنا بخصوصه اجتماعا مع عدد من المستشارين و حضر الإجتماع اللواء صويلح و والدي "القاضي" و العميد "ريمون" ، و انتهى الإجتماع إلى خطة وضعها صويلح و بدأ تنفيذها أثناء الإجتماع نفسه.

اتصل والدي أثناء الإجتماع بالشيخ بو دحام و هو زعيم عشيرة مجاورة لعشيرة بو طراد هذا و قال له : "لقد قررت الحكومة تعيين رجل برتبة والٍ يمثل البدو في الحكومة ، هذا الوالي سيكون بمثابة وزير لشؤون البادية ، و لقد استقرت الترشيحات على أحد شخصين ، أحدهما أنت و الثاني هو ابن الشيخ بو طراد الكبير الشيخ طلال".

ثم أعطى والدي الكلام للواء صويلح الذي حيّا الشيخ بو دحام ثم قال له : يا طويل العمر أنا مؤيد لترشيحك أنت ، و لكن القيادة قررت أن يختار وجوه العشائر المرشح الفائز بالمنصب حتى لا يسخط أحد ، أرجو أن تحضر إلى العاصمة للقائي لنعد الترتيبات اللازمة.

عشيرة بو دحام هذه ليست عشيرة كبيرة و لا يعمل شيخها و رجالها في شبكة الخشخاش ، إلا أنهم يعملون في شبكات تهريب البضائع و الماشية ، الواقع أن بو دحام هذا لم يكن ليحلم أبدا بفرصة لمنافسة بو طراد و عشيرته ، لكن العرض جاءه كفرصة من الذهب للإنتقام من بو طراد و عشيرته التي كانت تختال على العشائر بقوتها نظرا لضخامتها ، لقد سقط في الماضي كثير من الضحايا من شباب العشائر الأخرى المجاورة بسبب شجارات مع أبناء هذه العشيرة الضخمة ، لكن لم يجرؤ أحد من أولياء دماء هؤلاء الشباب على الأخذ بثأر أي منهم على عادة البدو ، كان عقلاء العشائر الموتورة يرضون بالدّية من بو طراد و جماعته لأن الأخذ بالثأر قد يؤدي لفناء العشيرة الصغيرة المنتقمة لأبنائها ، أو لرحيل هذه العشيرة من المنطقة خوفا من الفناء.

في الإجتماع بين اللواء صويلح و الشيخ بو دحام دار حديث حميمي مفعم بالرغبة المشتركة في الإنتقام من عشيرة بو طراد ، فصويلح أيضا من عشيرة صغيرة مجاورة لعشيرة بو دحام و عانت ما عانت العشائر الأخرى من الخوف و القلق و المهانة على يد رجال بو طراد ، في نهاية اللقاء اتفق صويلح و بو دحام على خطة لتكسير أنف بو طراد و عشيرته و إرغامه على سحب ترشيح ابنه الشيخ طلال لمنصب والي البادية.

في نفس الوقت اتصل والدي القاضي بالشيخ بو طراد و أخبره بقصة الترشيحات و بأن ابنه طلال و الشيخ بو دحام يتنافسان على المنصب ، هذا الإتصال أثار حفيظة بو طراد جدا إذ كيف تسوي الحكومة بينه و بين أحد المقهورين تحت رحمته ؟! لهذا قرر بعنجهيته أن يثبت للحكومة أن أحدا لا يجرؤ على مجرد منافسته على شيء.

أرسل بو طراد أحد قضاة العشائر رسولا إلى بو دحام و معه رسالة تهديد بلغة دبلوماسية ، فحوى الرسالة كان : اتصل بمكتب الزعيم بديع و اعتذر عن ترشيح نفسك و أكد أنك ترشح الشيخ طلال لهذا المنصب لأن العين لا تعلق على الحاجب و لا تقاوم المخرز.

كان رد الشيخ بو دحام دبلوماسيا أيضا بعبارات تقطر سماء ، قال : يا قاضي العرب أبلغ من أرسلك أننا لم نسعى لهذا الترشيح و إنما الحكومة هي التي منحتنا إياه ، لن نعترض على قرار الحكومة مهما يكن ، أما عن الإتصال بمكتب رئيس البلاد فلن نقوم به لأن جوارنا من العشائر رحبوا بترشيحي و لم يتبرم منه أحد ، فدع الأمر للقضاء و القدر فالسلطان عطية من الله.

ثارت ثائرة بو طراد لهذا الرد الوقح و قرر تأديب بو دحام على طريقته المعتادة ، فأوعز لإبنه الشيخ طلال بتروؤس جماعة من الرجال ليقطعوا الطريق على نايف أحد إخوة بو دحام و خطفه.

أخبار خطة بو طراد وصلت إلى مكنتي بعد أن أبلغها لإبنه بساعة واحدة فقط ، لقد اخترقنا دائرة قرار بو طراد بفضل شراكته معنا في تهريب الخشخاش ، كنا على علم بأدق ما يجري في ديوانه و مجالسه الخاصة.

وصلت سيارة الشيخ طلال و رجاله إلى النقطة المحددة لنصب كمين لـ"نايف" شقيق الشيخ بو دحام و بعد ساعة واحدة وصلت سيارة يفترض أنها تقل الهدف ، كان طلال و رجاله قد قطعوا الطريق ببعض الصخور ، وقفت سيارة نايف قبل الحجرة بقليل و قفز منها رجل و راح يجري كالبرق ، لم يلتفت رجال طلال لهذا الهارب لأنهم ركزوا أنظارهم على دمية أجلسها رجال جلمود إلى جانب السائق و ألبسوها ثياب البدو و نقبوا بالطيلسان العربي (الشمخ) ، اقترب الشيخ طلال من السيارة مع رجاله و راح يصيح بصلف البدوي على الدمية : إنزل يا رويعي الغنم إنزل.

لم تجب الدمية طبعاً و هذا ما دفع طلال و رجاله الستة للإقترب بغضب من السيارة ، عندها انفجرت السيارة و حولتهم إلى أشلاء ، لم ينج من المذبحة إلا سائق الشيخ طلال لأنه كان ينتظر في سيارته إستعدادا للعودة بسرعة بالأسير العتيد.

عندما وصل الخبر للشيخ بو طراد قفز من مكانه مع أولاده العشرين و ألقوا بعقالاتهم و طيالستهم (شماختهم) على الأرض و أقسموا ألا يبيتوا إلا على قبر الشيخ بو دحام.

بينما كان إخوة الشيخ بو طراد يوارون الثرى قتلى عشيرتهم كان رجال بو طراد يتجمعون حول قصر شيخهم بأسلحتهم و مراكبهم و قد وضعوا عقالاتهم في أعناقهم.

وضع بو طراد و رجاله و على رأسهم ابن عمه بو رمّاح خطة الهجوم على قرية بو دحّام عند فجر اليوم التالي ، و اختار القائدان ألفا من رجال العشيرة لتنفيذ الحملة العسكرية.

سار رتل رجال بو طراد بعد منتصف الليل حتى وصلوا قريبا من قرية بو دحّام قبيل الفجر بنحو ساعة و اتخذوا أوضاع الهجوم و بدأوا بالتوزع على شعبتين ليطبقوا على القرية كالكماشة من جميع الجهات.

كانت العيون التي أرسلها بو طراد قبله قد أخبرته أن الوضع عادي و أن رجال بو دحّام يحتفلون بمقتل الشيخ طلال و نجاة الشيخ نايف و لا استعداداتٍ لقتال من أي نوع.

لم تكد شعبتا قوات بو طراد تنفصلان عن بعضهما و تتفرق بهما الطرق حتى انطلقت رشاشات لواء حرس البادية من جميع الجهات تحصد رجال بو طراد ، كانت الأوامر قد أعطيت بعدم التعرض للشيخ و موكبه الخاص ، لم تمض إلا دقائق قليلة بعد المفاجأة حتى هرب رجال بو طراد و هو معهم لا يلوون على شيء ، كانوا يطلقون النار في كل اتجاه من شدة الخوف ، و لقد قتل منهم العشرات برصاص الكمين و برصاصهم الطائش الذي أطلقوه على بعضهم.

بعد أن طلع الصباح كان ميدان القتال حافلا بجثث رجال بو طراد ، راح رجال بو دحّام يطلقون الرصاص في الهواء فرحا بانتصار لم يقاتلوا من أجله ، فلقد كان لواء حرس البادية قد كمن لحملة بو طراد و ارتدى رجال الحرس أزياء البدو ليبدو الأمر و كأن رجال بو دحّام هم الذين خاضوا المعركة.

في اليوم التالي وصل إلى قرية بو دحّام وفد من قضاة العشائر ليطلبوا منه جثث القتلى ، و عندما دخلوا إلى مضافة بو دحّام فوجئوا بجميع شيوخ عشائر المنطقة مجتمعين في ضيافة بو دحّام ، و لقد بدا واضحا أن حلفا عشائريا مضادا لبو طراد قد عُقد و أن بو طراد سيواجه قتالا شرسا إن أصر على الحرب.

عاد الوفد بجثث القتلى و بأخبار الحلف ، و أنذر القضاة أبا طراد أن هجوما كبيرا قد يقع على قصره خلال ساعات أو أيام. راح بو طراد يجمع شتات رجاله و يحرضهم على القتال ، و لكن رجاله لم يكونوا متحمسين للقتال أبدا.

هذا التخاذل بدا واضحا من المطالب التي راح يرددها رجال بو طراد ، فلقد طلبوا منه سلاحا ثقيلًا قادرا على قهر رشاشات بو دحّام الثقيلة جدا ، و منهم من راح يسخر من سرعة الهجوم و عدم التخطيط له و آخرون صبوا جام غضبهم على بو رمّاح جنرال الحملة ، و بعضهم دعى إلى التعقل.

مضى الأسبوع الأول على بو طراد في جنازات و لطم و سماع قصائد الرثاء و اللوم ، لكن لم يستطع الشيخ العنيد خلال هذا الأسبوع إقناع رجاله بغير ضرورة الصمود في وجه غزو الحلف العشائري المرتقب ، دفاعا عن أموالهم و حريمهم على الأقل. في بداية الأسبوع التالي وصل إلى قصر بو طراد موكب من المدرعات الصغيرة التابعة للحرس الرئاسي و كان اللواء هرثمة و أخوه العقيد رفاعه في قيادة الموكب.

فُتحت مضافة الشيخ بو طراد للضيوف و عكس ما كان متوقعا فلقد رحب الرجل بالفلاحين الغجريين التابعين للديانة السرية ، على الغداء قدم اللواء هرثمة رسالة مختومة من الزعيم موجهة للشيخ بو طراد تؤكد له أن منصب والي البادية قد ألغي ، إحتراما لذكرى الشيخ طلال و رجاله ، و أن الزعيم أعطى أوامره اللواء الحرس الرئاسي بضرورة حماية عشيرة بو طراد من أي خطر يتهددهم.

بهذا انتهت الحرب قبل أن تبدأ ، انتهت بحل سلمي يقضي بأن تدفع الحكومة ديّات القتلى من عشيرة بو طراد و أن تتصلح العشائر كلها في القصر الرئاسي ، و أن يعين الزعيم كلاً من بو طراد و بو دحام في مجلس الأمة عضوين دائمين عن العشائر في المنطقة.

عقد المؤتمر العشائري في القصر الرئاسي برئاسة الزعيم بديع و بحضور اللواء كامل و كافة أعضاء القيادة و تم فيه التوقيع على الصلح الذي حرره قضاة عشائريون و مهرهه بأختام و توقيعات الحاضرين ، و قبلت عشيرة بو طراد هذه المرة بالدية لقتلاها و عدلت عن الثأر لهم.

لم يكن هذا هو هدف العملية ، إلا أنه كان وسيلة لهدفنا و قد تحقق ، فلقد قبل الشيخ بو طراد رأس اللواء هرثمة و العقيد رفاعه و أعلن ولاءه التام لهما و استسلم تماما لشروطنا ، لقد أقسم على الولاء لفلاحين غجريين من أتباع الديانة السرية كان يمكن أن تكون أمهما جارية في قصره في زمن مضى ، و لكن الضرورات تبيح المحظورات ، هذا ما اعتذر به بو طراد لوجوه عشيرته الذين تساءلوا عن رميه لكل ثوابته و أنفته تحت أقدام هرثمة و رفاعه.

أما نحن فقد كنا بحاجة إلى بو طراد لتستمر شبكة تهريب الخشخاش بتشعباتها و تم لنا ما أردنا برضاه أو رغم أنفه.

بعد تجاوز هذه الأزمة كان يلزمنا دخان كثيف جدا نمّوه به النقلة الكبرى إلى "عصر الرشاوى و تأجير المناصب و الوظائف الحكومية" و لأجل هذا حضر إلينا صديقان من طرف البارون جيمس ؛ أمريكي و أوربي ، هذا الصديقان كان كل واحد منهما يدير شركة للمراهنات الرياضية يملكها البارون.

قدم لنا الأمريكي ملفا كبيرا عن رياضة "المصارعة القتالية" ، و قدم لنا الصديق الأوربي ملفا أكبر عن كرة القدم ، و لنبدأ أولا بملخص ملف صديقنا الأمريكي :

"المصارعة القتالية" أو "المصارعة الحرّة" هي نوع السيّرك البشري ، فاللاعبون في هذه اللعبة يمثلون على المتفرجين أنّهم يتقاتلون قتالا شرسا جدا بالأيدي و ببعض الأدوات كالكراسي الهشة و غيرها ، المباراة في هذه اللعبة مسرحية تامة الأركان تعتمد على مهارات اللاعبين في أداء حركات بهلوانية يبدو للمشاهدين أن صراعا حقيقيا يدور بين المتصارعين ، فترى اللاعب يقفز في الهواء و يلقي بنفسه على خصمه ، و يحاول خنقه أو كيّ ظهره ، و يتظاهر الخصم بأنه يتألم و يصرخ و قد يتظاهر بالإغماء ، و لا بأس ببعض الخدوش على أجسام المتصارعين ليبدو الأمر حقيقيا فعلا ، هذه المصارعة تُدرّ على شركات المراهنات آلاف ملايين الدولارات سنويا ، و لقد تسببت في هوس و جنون عند ملايين الناس في أمريكا ، فهي "الرياضة" الشيقة الأكثر متابعة على الشاشات الأمريكية ، يدفع الملايين أسبوعيا مبالغ كبيرة للرّهان على نتائج المباريات المرتقبة بين أبطال هذه اللعبة.

المتابع العاقل للعبة يرى بوضوح كمية التهريج و التمثيل الكبيرة في مبارياتها و في اللقاءات الصحفية مع لاعبيها ، لكن معظم الناس يعشقون القوة و تسحرهم استعراضاتها لذلك لا ينتبهون إلى زيف هذه المباريات و البطولات و إنّما تُشدّ أبصارهم إلى ضخامة اللاعبين و عضلاتهم المفتولة و تأسر أسماعهم أصوات قرقعة خشبة الحلبة التي تصدرها أقدام اللاعبين و هم يتظاهرون بأنهم يسددون ضربات قاتلة إلى رؤوس خصومهم !.

هذه الرياضة لم يكن لها وجود في بلادنا ، لكن كان في ذلك الوقت مهرج عربي من بلادنا يعمل لاعبا ثانويا مغمورا في أندية المصارعة في أمريكا ، و هذا كان كافيا لنا لنبدأ ، هذا المهرج يتمتع بعضلات مفتولة و جسم ضخم و اسمه أيضا له وقع خاص ، إسم هذا المصارع الهمام هو قيس العدناني ، هو اسم يشير إلى جد كبير من أجداد العرب.

وافقنا على خطة صديقنا الأمريكي لإحضار قيس هذا إلى بلادنا على أنه بطل عالمي للمصارعة ، و اطلعنا على تفاصيل الخطة الإعلامية لإشهاره في فترة قياسية ، وضعنا خطة صديقنا الأمريكي موضع التنفيذ خلال شهر واحد بعد الاجتماع. ثانيا ملخص ملف صديقنا الأوربي :

"كرة القدم" لعبة قديمة في أوربة و لكنها لم تدخل إلى بلادنا إلا مع قوات الإنتداب الأوربي ، لقد أسس في الماضي عدد من المبتعثين العائدين من أوربة سبعة أندية صغيرة و بدائية جدا لهذه اللعبة ، لم يكن وقتها عدد الممارسين لهذه الرياضة في كل البلاد يزيد على المائتي شخص ، و كانت هذه الأندية تنظم فيما بينها بطولات صغيرة ، المتابعون لهذه البطولات كانوا بالمئات فقط و هم معارف اللاعبين و أصدقائهم ، و المباريات كانت تقام على ساحات ترابية في ضواحي المدن في بلادنا ،

بينما سيطرت هذه الرياضة على عقول ملايين الشباب في أوربة في تلك الآونة ، حتى صارت هوسا جنونيا لديهم ، فالأندية بالهئات و اللاعبين بالألوف و المتابعون بالملايين ، و دَخَلُ شركات المراهنة على هذه الرياضة لم يكن يقل عن دخل نظيراتها للمراهنة على تمثيليات المصارعة الأمريكية.

وضعنا بإرشاد صديقنا الأوربي خطة لتحويل هذه الرياضة إلى جزء لا يتجزأ من حياة الأطفال و الشباب في بلادنا ، الخطة كانت تحتاج إلى عام واحد لتحول هذه الرياضة إلى هوس شعبي مجنون يستحوذ على مخيلة الأجيال الصاعدة.

لنعد لخطة صديقنا الأمريكي التي بدأ تنفيذها بخبر تصدر صفحات الجرائد الوطنية ، عنوان الخبر كان : العربي الذي قهر الأمريكيين في بلادهم ، و مع الخبر نشرت صورة لقيس العدناني و هو يبرك على ظهر مصارع أمريكي ضخم في حلبة مصارعة ، و في تفاصيل الخبر : قيس العدناني حصل على درع بطولة اتحاد المصارعة الأمريكي بعد أن صرع بطل أمريكا في مباراة من جولتين فقط و بالتثبيت ! في ذيل الخبر كتبت جملة صغيرة هي : و لقد قرر البطل قيس أن يعود إلى الوطن ليهدي فوزه إلى أمته و بلده.

في اليوم التالي صدرت الجرائد و على صفحتها الأولى مقابلة صحفية مع البطل الخارق قيس العدناني ، خلال المقابلة أكد الرجل أنه إنسان عربي خارق بكل المقاييس فهو قادر على أكل الزجاج و النوم على رؤوس المسامير و أن السكاكين لا تخترقه ، و زعم أن الأطباء فحصوه فوجدوه خارقا و قوته تزيد على قوة أربعمئة حصان بخاري ، و أرفق الخبر بصورة لقيس مستلقيا على سرير من المسامير و على صدره صخرة متحطمة و إلى جواره رجل ضخم بيده مطرقة ضخمة و هو يحطم بها تلك الصخرة ! ذُيل الخبر بجملة تفيد بأن قيس الفولاذي هذا سيصل إلى الوطن بعد أسبوع واحد.

نفذت كل جرائد ذلك اليوم و بدأت الضجة بخصوص صاحبنا تصل للتلفزيون الذي عرض تسجيلا للمباراة التاريخية بين قيس العدناني و مصارع الأمريكي ضخم يدعى "هرقل".

المباراة بين البطلين كانت قصيرة و لكنها مليئة بالإستعراضات البهلوانية ، كان مشهد انتصار قيس هذا مؤثرا جدا ، أضيفت إليه موسيقى تصويرية عاطفية ، و انتهى التسجيل بمشهد لقيس و هو يقفز في الحلبة و معه علم بلادنا و الدموع في عينيه !.

في الموعد المحدد وصل قيس إلى البلاد ، كان في استقباله اللواء كامل و اللواء هرثمة ، سجّل التلفزيون الإستقبال و بثه.

في المطار و على طول الطريق احتشد آلاف من المجندين الإجباريين بلباس مدني و بأيديهم صور لقيس و أعلام للبلاد يلوحون بها ترحيبا بابن الأمة البار العائد لحض الوطن.

كان هذا المشهد مقدمة لحملة إعلامية ضخمة إسمها "المصارع قيس" استمرت لعامين كاملين.

بنيت على عجل صالة كبيرة في العاصمة لتكون حلبة للمصارعة تتسع لآلاف المشاهدين ، في نفس الوقت كانت عشرة ملاعب كبيرة لكرة القدم تبنى في عواصم الولايات الكبرى ، فالبلاد تشهد نهضة رياضية كبرى بتوجيهات من الزعيم راعي الشباب ، عنوان الحملة : العقل السليم في الجسم السليم.

بدأت الجرائد تصدر بملحقات خاصة بأخبار الرياضة ، و خصصت مديرية الإذاعة و التلفزيون ساعات أسبوعية للبرامج الرياضية ، كان الموضوع الرئيسي لهذه الحملة هو "قيس العدناني".

في كل شهر كان قيس يواجه متحديا من أكبر مصارعي أمريكا ، و كان قيس هو المنتصر دوما ، أخبار هذه الإنتصارات لم تصل أبدا لأمريكا لأن هؤلاء المصارعين كانوا مهرجين يؤدون أدوارا مسرحية مدفوعة الأجر تماما كقيس هذا ، و الواقع أن هذه الرياضة لم تكن أبدا رياضة نظامية و ليست لها قوانين و لا إتحادات و كلها تهريج بتهريج ، إلا أن شعبنا ظن أن العالم كله يراقب انتصارات قيس هذا و أن الملايين من الأمريكيين يذهبون إلى بيوتهم ليناموا مقهورين كمدا على أبطالهم المسحوقين بأقدام البطل قيس !.

آلاف المواليد في هذين العامين حملوا اسم قيس و اسم عدنان تيمنا ببطولنا ، و صارت أخبار المصارعة القيسية هذه حديث الكبار و الصغار و النساء و المدارس و الأسواق و المقاهي ، و أنتجت مثلجات و حلويات و أنواع من العلكة باسم "العدناني" و تأسست نوادٍ للمصارعة في كل أحياء المدن الكبرى أمها آلاف الشباب السذج الحالمين بأعجاز قيسية كالتي تملأ سمعهم و أبصارهم.

لقد أمنت لنا حملة قيس هذه غطاء كبيرا من الدخان و الضجيج لعملية حصر السلطة كلها بيد الأسر الحاكمة التي صنعناها ، و لتثبيت سيطرة حزب قاع على مفاصل الدولة تحت قيادة أتباع الديانة السرية و لبداية عصر الرشاوى دون أن يشعر أحد ، و بعد نهاية مهمة العدناني رحل إلى أمريكا بحدوء ليتقاعد هناك و يتمتع بثروة هبطت عليه من السماء لم يكن ليحلم بها أبدا و لو صارع كل الناس في أمريكا.

أما كرة القدم فلقد تم نشر هوسها متزامنا مع حملة مصارعنا الهمام ، و خلال عام واحد استكملت شركة أوربية للإعمار بناء عشرة ملاعب كبيرة لكرة القدم بسعة عشرة آلاف متفرج ، و تأسس للبلاد ناديان كبيران ، واحد باسم "الجيش" و الثاني باسم "الشرطة" ، الناديان ضمما لاعبين من الجنود و عناصر الشرطة ، و لقد أشرف على تدريب الفريقين مدرب أوربي متخصص عاونه طاقم من الأطباء و مدربي اللياقة ... إلخ.

أيضا تم استئجار مدرين أوربيين لتدريب الأندية السبعة الصغيرة ، و تضخمت هذه الأندية خلال عام واحد فقط.

لجذب المتفرجين و الشباب إلى اللعبة أسس إتحاد وطني للعبة برئاسة ضابط في الجيش ، و نظم هذا الإتحاد بطولة وطنية لكرة القدم بمشاركة أندية البلاد التي صارت تسعة في بداية العام الثاني للخطوة ، في كل أسبوع كان التلفزيون ينقل من ملعب العاصمة مباراة بين نادي الجيش أو نادي الشرطة و أحد الأندية السبعة الأخرى و كان المدرجات تحتشد بآلاف المتفرجين كلهم كانوا في البداية من المجندين باللباس المدني.

راحت المدارس تنظم رحلات للطلبة إلى ملاعب الكرة و تعطيهم بطاقات مجانية ليحضروا المباريات أيام الجمعة ، و وزعت على كافة المدارس كرات للعبة كرة القدم ، و نظم وزارة التربية بطولة لفرق المدارس.

أقيمت دورات تدريبية لحكام الكرة ، و انتشرت اللعبة خلال عامين حتى ليخيل للمتابع للإعلام الوطني أن بلادنا إحدى الولايات البرازيلية أو الأرجنتينية !.

بدلا من أن يصب الشباب جام غضبهم العارم على المتسبين بطروفهم المعيشية القاسية صاروا يصبون غضبهم على لاعبي الفرق التي لا يشجعونها في الملاعب ، و على حكام المباريات ، و بدل أن يتناقشوا في معاناتهم و الولايات التي تسحق سعادتهم صارت نقاشاتهم تدور حول صواب قرار المدرب الفلاني بتبديل اللاعب العلاي أو باعتماد خطة للعب بطريقة أربعة إثنان أربعة أو خمسة ثلاثة إثنان .. إلخ.

كان نجاحا رائعا وفر علينا الكثير من التعب و المخاطرة و الدماء التي كنا سنبدلها لنثبت دعائم عصر الرشاوى و تأجير المناصب الحكومية للمتعهدين من كافة الأحجام.

في خلال عقدين من الزمن أعقبا مرحلة تأسيسنا لنظام أسر الحثالات الحاكمة حصلت الكثير من الأحداث ، فلقد تقاعد بديع و أعلن عن وفاته و دفن تابوته الفارغ في جنازة مهيبة ، و تسلم من بعده اللواء كامل لفترة قصيرة انتهت بقتله لمحاولته التمرد على إرادة دولة الإنتداب الأوربية "سابقا" ، ولهذا قصة تستحق الذكر :

بعد أن تقاعد بديع و تسلم كامل منصب الرئاسة تزايد الضغط الشعبي كثيرا بسبب الإحباط من هزيمة الجيش المنكرة أمام جارتنا اللدود ، و كان لا بد من تنفيس الغليان الذي اجتاحت معظم البلاد العربية و صار يهدد بما لم يكن بالحسبان ، و لقد كانت تقارير المخابرات حينها و تقارير المستشارين الأوربيين تثير قلق البارون و فريقه ، و لهذه الغاية اقترح البروفسور أوسكار اقتراحا ذكيا وافق عليه الجميع.

باختصار اقترح أوسكار أن تقوم حرب أخرى و أن يبدو الأمر فيها انتصارا لجيشنا على جارتنا اللدود ، تعقبه مفاوضات و إتفاقية سلام لا يطبق منها شيء يستحق الذكر.

بعد أسابيع على إقرار الخطة بدأت الأسلحة ترد إلى بلادنا من الدول الشيوعية ، و تولى البارون بنفسه الإشراف على عمليات الإستيراد و تحديد كميات و أنواع الأسلحة ، كانت أسلحة قديمة في معظمها باستثناء بعض الطائرات الحربية النفثة و بعض أنظمة الدفاع الجوي ، و تم تدريب فرق الجيش على استعمالها مدة زادت على عامين ، و وضعت خطة الحرب على الشكل التالي :

تبدأ قوات جيشنا المجوم على الإقليم الذي سيطرت عليه جارتنا اللدود خلال الحرب السابقة ، و يستمر المجوم بشكل جدي ليومين متتاليين ، ثم يبدأ هجوم معاكس لقوات جارتنا اللدود تستعيد فيه السيطرة على معظم ما فقدته خلال هذين اليومين ، ثم يتوقف إطلاق النار و تبدأ مفاوضات الهدنة ، ثم مفاوضات السلام.

بدأ هجوم قواتنا في صباح خريفي و في يوم عطلة مقدسة عند جارتنا اللدود ، و صدح تلفزيون بلادنا و معه محطات الإعلام الغربي بالإعلان عن "اجتياح عربي" لجارتنا اللدود ، و راحت المنظمات الغير حكومية و المؤسسات الخاصة الضخمة التي يملكها مواطنوا جارتنا اللدود تطلق الزعيق في أرجاء أوربة تحت شعار إنقاذ تلك الجارة من براثن العرب ، و لزيادة حشد الشعوب الأوربية خلف قيادة منظومات البارون الأوربية اتخذ البارون قرارا ذكيا ، فلقد أمر شركات النفط العالمية - جميعها تأتمر بأمره - بأن تخفض كثيرا توزيع النفط في أسواق أوربا و أمريكا ، تمت تغطية هذا القرار بقنبلة دخانية من العيار الثقيل ، فلقد أصدر حاكم أكبر دول الجزيرة العربية تصريحاً نارياً عن منع تصدير نفط الجزيرة العربية إلى أمريكا و أوربة.

القرار كان مفيداً جداً للبارون و شركائه و أتباع منظوماته ، فلقد رفع كمية الحقد الشعبي الأوربي على العرب و الشيوعيين إلى أقصى درجة أشبهت أجواء الحرب العالمية ضد الحور ، و هذا أَمَن تغطية كبيرة لخطط و مشاريع إنشاء مؤسسات عسكرية و منظومات تسليح و مخبرات تحد كثيرا من الحرية التي يتمتع بها الأوروبيون و الأمريكيون ، تحت ذريعة حماية الأمن القومي الأوربي و الأمريكي ، فأطلقت يد منظمات المخابرات لفرض هيبة مرعبة و للقيام بأعمال مفزعة في أمريكا و أوربة تحت ستار مواجهة الحلف الشرقي العربي الشيوعي هذه الأعمال استهدفت تصفية حسابات قديمة متراكمة مع الأوروبيين البيض و مع الكاثوليك.

في الواقع لم يتوقف النفط للحظة عن التدفق بنفس الوتيرة إلى الخزائن الإحتياطية الفلكية الحجم الموزعة في أمريكا و أوربة ، و مع هذا لم تستمر مسرحية النفط طويلاً و انتهت بعد أقل من عام واحد.

و نعود إلى الحرب ، بعد الهجوم المفاجئ وصلت قوات جيشنا إلى حدود إقليمنا الذي تحتله جارتنا اللدود ، إلا أن هذا التقدم لم يستمر إلا ليوم واحد فقط ، ثم بدأ الهجوم المعاكس ، هذا الهجوم كان تكراراً لما حصل في الحرب السابقة ، و لقد انهارت تشكيلات جيشنا كما حدث في المرة السابقة تماماً ، و انطلق الجنود يهربون في كل وجه لا يلوون على شيء بعد أن

استعاد طيران جارتنا السيطرة على الأجواء التي فقدتها لبرهة بسبب بضعة صواريخ مضادة للطيران أسقطت بها قواتنا بعض الطائرات القديمة في أول يوم للحرب ، ثم أن استعاد جيش جارتنا ما فقدته في بداية الحرب و توقف عن الهجوم البري . استمرت مناقشات جوية قادها طيران تلك الدولة ضد قواتنا ، و لقد أوقعت غارات هذا الطيران آلاف الإصابات في جيش بلادنا أو فيما تبقى منه .

بدأت المفاوضات السلمية بعد بداية الحرب بأسابيع ، ثم وُقعت إتفاقية وقف إطلاق النار ، و بعدها بعام واحد بدأت مفاوضات السلام و توجت بعقد اتفاق سلام مع جارتنا اللدود يقضي بإقامة سلام كامل مع جارتنا و حل كل المشاكل العالقة .

الإعلان عن النصر و استنفار الشارع الأوربي و عاصفة الأخبار و الأخبار المضادة حصدت منها منظومات البارون أموالا هائلة ، و أيضا حصد منها البارون مزيدا من القوة المطلقة أتاحت له إخلاء المراكز القيادية في أوربة من أي شخص مشكوك بولائه ، أما في بلادنا فلقد غطت هذه العاصفة الدخانية على مقتل عشرات آلاف الشباب المسلمين المجندين في جيشنا ، و على الكوارث التي حلت بأموال و ممتلكات شعبنا ، و أيضا غطت على موجة ضخمة من الإلحاد و دعم الشيوعية اجتاحت بلادنا بقوة بفضل دعاية الدعم الشيوعي لمظلومية بلادنا العادلة .

مع اتفاق السلام طالب كامل كثيرا بتخفيف الضغط الإقتصادي على شعبنا ، و نجح فعلا في إقناع البارون برفع الكثير من القيود التي فرضت على اقتصاد بلادنا ، كانت فكرة كامل نابعة في الظاهر من خوفه من انفجار ثورة شعبية حقيقية ، و كانت بالفعل قد بدأت الإحتجاجات العفوية تشب هنا و هناك في البلاد .

كامل كان يفكر جديا في الواقع ، و يعمل على استنهاض قاعدة شعبية موالية له يعتمد عليها في تحقيق سلطة حقيقية تتبعه في البلاد ، و كان يتحدث كثيرا إلى زوجته الأوربية عن أحلامه في تحويل بلادنا إلى دولة غنية و مستقلة فعلا .

لقد حقق كامل نجاحا في تخفيف القيود القمعية و الحواجز الإقتصادية المفروضة على البلاد في عهد بديع ، و تحسنت الأمور بشكل لافت و لكن دون تغييرات جذرية في قواعد حكم البلاد ، إلا أن كامل تجاوز دون قصد خطوط البارون الحمراء ، فلقد عمل مساندة و دعم المشايخ التقليديين ، و سعى لتحقيق تواصل بينهم و بين العامة ، كانت ذريعتة إيقاف المد الشيوعي الذي يحتاج البلاد ، إلا أنه كان يبني منظومة مضادة للمنظومات المهيمنة على كل شيء في بلادنا .

دفع كامل ثمن طموحاته هذه في يوم استعراض عسكري كبير بمناسبة ذكرى النصر الزائف ، فلقد هاجمه جنود من القوات التي يستعرضها ، و أطلقوا عليه رصاصهم و أردوه قتيلا ، بحضور أعضاء الحكومة و قيادة الجيش و أمام شاشات التلفزة ،

القتلة كانوا من الجمعية الإسلامية ، حتى يبدو الرجل وكأنه عدو للدين و المتدينون هم من قتله ، و أنا أشهد بأن هذا ليس صحيحا و أن كامل كان متدينا حقا.

ثم تسلم السلطة اللواء هرثمة بحكم أنه كان نائب رئيس البلاد ، هذه الأحداث في الواقع لا قيمة لها لأنها مجرد تغييرات في لون واجهة الدولة فقط ، الأحداث الهامة الحقيقية كانت نشاطات الأسر الحاكمة التي صنعناها و منظومات الرشاوى التابعة لها ، فلقد سيطرت هذه العائلات الخمسون برعايتنا و تدريجيا على كل ما يدب في الأرض أو يطير في السماء في كل أرجاء البلاد و استثمارته لصالحنا بنجاح تام ، من الصعب رواية الأحداث التي جرت في تلك الفترة و إلى يومنا هذا إلا من خلال رواية تاريخ كل أسرة على حدة و التطورات التي حصلت على القطاع الذي تسيطر عليه ، و هذا ما سأفعله لاحقا في هذه المذكرات ، و سأبدأ بأكثر هذه العائلات تأثيرا و قوة ، و هي عائلة القاضي "فاضل" :

فاضل هذا كان أحد أبناء مشايخ الديانة السرية ، و لقد ورث عن أبيه المشيخة في طائفته ، كان رجلا داهية شديد الحقد على الناس و على المتدينين منهم بشكل خاص و هذا يعود لتعصبه الشديد لديانته التي تدعوا للإباحية الجنسية أولا ، و أيضا بسبب حبه الشديد للعلاقات الغرامية مع المراهقات الصغيرات!.

تخرج فاضل هذا من كلية القانون في أواسط عهد الزعيم بديع ، في الأعوام التالية لتخرجه أنهى بضعة مئات من زملائه و أتباع ديانته تحصيلهم العلمي في نفس الاختصاص ، و لقد تم توزيعهم فور تخرجهم على جميع مدن البلاد ، كثير منهم عينوا في النيابة العامة ، آخرون كثيرون عينوا في مناصب قضائية ابتدائية ، بينما أتم بعضهم الآخر دراسة الشريعة الإسلامية ليعملوا في محاكم الأحوال الشخصية قضاة شرعيين أو محامين شرعيين!.

زوجة فاضل هذا كانت مغنية معروفة تدعى شرف ، و الواقع أنها كانت إسما على مسمى ، فهي كزوجها تماما مولعة جدا بالعلاقات الغرامية مع من هم أصغر منها سناً ، و لقد كان الزوجان الفاضلان من أنشط أعضاء نادي الأسر الحاكمة في مجال الجنس بكافة أنواعه و خاصة الأنواع الجماعية منه ، و مع هذا لم يكونا يميلان لتعاطي الكحول كثيرا و لا يتعاطيان المخدرات ، و لكنها كانا يلعبان القمار بشكل متقطع كوسيلة للتعرف على أخدان جدد من فترة لأخرى ، و لا يكادان يغادران النادي لا ليلا و لا نهارا.

في نهاية عهد الزعيم بديع تولى فاضل منصب معاون وزير العدل ، منصب الوزير كان حينها للعميد دري (المدير السابق للسجن الحربي) ، اقتسم الرجلان العمل ضمن إرشادات صارمة من الدكتور كلايتون المستشار الأوربي المسؤول عنهما ، و أبدا في تحقيق المطلوب منهما في فترة قصيرة.

في بداية عمل فاضل لم يكن القضاء المدني ضعيفا أو غير حر في و لم تكن إجراءاته معقدة و لا طويلة ، كانت مهمة القاضي فاضل تحويل القضاء المدني إلى استثمار كبير يدر سنويا لمنظومتنا الكثير من المال.

بدأ فاضل عمله بإحالة كافة القضاة الذين جاوزوا الخمسين من العمر إلى التقاعد ، و عين بدلا منهم رؤساء للمحاكم من مستشارين أصغر سنًا ، لكنه عين إلى جانب كل رئيس محكمة أعضاء في هيئة المحكمة من القضاة الصغار من أتباع ديانتهم و خريجي دفعته و ما تلاها.

و استكمالا لهذه الخطوة أصدر برلمان بديع قانونا يقضي بإبرام أحكام هيئات المحاكم الكبيرة بأغلبية مستشاري هذه المحاكم ، بعد أن كانت قرارات محاكم الجنايات و النقض و الإستئناف و غيرها تتخذ بالإجماع ، هذا القرار أتاح لفاضل عبر أتباعه من المستشارين التحكم في جميع الأحكام الصادرة عن هذه المحاكم من حيث الإدانة أو التبرئة أو من حيث مدة العقوبة و نوعها.

على الجانب الآخر من عملية التقاضي عمل في منظومة القاضي مائتان من المحامين الموزعين على العاصمة و مدن البلاد كافة إضافة لأكثر من مائة وكيل للنائب العام ، و مئات ضباط و صف ضباط الشرطة القضائية.

عمل منظومة القاضي فاضل الإستثمارية بدأ أولا مع زبائن المحاكم الموسرين من مرتكبي الجرائم الكبيرة ، فمثلا لو أن شخصا موسرا ارتكب جريمة قتل أو اغتصاب أو اختلاس أو احتيال و تم اعتقاله فإنه سيمر حتما بالمراحل التالية : في قسم الشرطة و قبل تنظيم الضبط بالحادث يتعرض هذا المعتقل لأهوال من الضرب و الإهانة و التعذيب على أيدي عناصر الشرطة و ضباط الصف و بعد عدة أيام يقلع الشرط عن تعذيب هذا المعتقل ثم تبدأ المفاوضات بعد أن يستسلم السجين نفسيا و يحلم بأي مخرج من الجحيم الذي سقط فيه ، هذه المفاوضات تكون أولا بين ضابط الصف و بين المعتقل لتخفيف حدة الإتهام و كتابة الضبط بطريقة تسمح بتبرئة المعتقل أو تخفيف جرمه مقابل مبلغ كبير ، ثم يقترح ضابط الصف على المعتقل توكيل محام من أتباع القاضي فاضل لحضور التحقيق.

بعد توكيل المحامي و حضوره للتحقيقات تبدأ عملية الإستثمار ، ففي اللقاءات الأولى للمحامي مع المعتقل يتحدث المحامي بصراحة عن إمكانية إخراج هذا المعتقل من جنائنه كالشعرة من العين و يصارحه بأن هذا لا يكون إلا برشوة المحكمة و وكلاء النيابة و قضاة التحقيق ، ثم يتفق الطرفان على مبلغ محدد يتسلمه المحامي على دفعات خلال فترة المحاكمة.

عملية مقاضاة المتهمين لم تعد تتم ببساطة في بلادنا و الفضل في هذا يعود لقرارات قاضي قضائنا فاضل ، فلقد رُتبت مراحل كثيرة إجبارية لا بد لكل من تعتقله الشرطة بتهمة ما من المرور بها قبل أو يواجه القضاة و المحاكم ، فأولا يبدأ الأمر بتحقيق الشرطة ليحرر ضبط الواقعة ، ثم يحول المعتقل إلى قاضي التحقيق ليراجع الضبط و أقوال المعتقل و الشهود و الأدلة

الإتهامية ، ثم يحال الملف إلى النيابة العامة لتحريك الدعوى ضد المعتقل ، ثم تبدأ المحاكمة بسماع المعتقل ، ثم تؤجل لسماع الإدعاء العام و بعدها تؤجل لسماع الشهود ، ثم تؤجل لإعداد الدفاع و مرافعاته ، ثم تؤجل لسماع رد الإتهام ، ثم تؤجل لسماع رد الدفاع على رد الإتهام ، و هكذا لا تنتهي إجراءات أبسط محاكمة جنائية بأقل من عام واحد يقضيها المعتقل في السجن "المدني" !.

خلال هذه الفترة يتضاعف المبلغ الذي اتفق عليه المعتقل و المحامي إلى عدة أضعاف بسبب مطالبات المحامي بزيادة الرشاوى في كل مرحلة ، طبعاً هذه الزيادة تُطلب بذرائع كثيرة منها تغير القاضي مثلاً أو تغير أحد أعضاء هيئة المحكمة ، أو أن أحداً ما من خصوم المعتقل دفع للموظف المعني بكل مرحلة مبلغاً مضاداً للرشوة المقترحة .. إلخ.

المُعتقل سيدفع هذه الرشاوى بسرور سواء أكان جانياً أم بريئاً لأن هذه الرشاوى هي سبيله الوحيد للخروج من مأزقه الفظيع.

أما خلال فترة الاعتقال على ذمة القضية و التي قد تطول لسنوات فإن الرشاوى هي وحدها التي تضمن لهذا المُعتقل المؤسّر تجنب التعذيب و التعرض للإبتزاز و الإهانة و الضرب على يد زملائه السجناء و جلاديه الشرطيين ، و حتى إن أمكن الإفراج عن المُعتقل بكفالة خلال فترة محاكمته فإن الكفالة تكون أقل بكثير من الرشوة التي يدفعها هذا المُعتقل للمحامي حتى توافق النيابة على قبول الكفالة.

و مع هذا فإن المُعتقل يبقى معرضاً للخطر بإدانتِهِ أو بالحكم عليه بعقوبة كبيرة إن تمكن محام آخر من منظومة القاضي فاضل من التوكل عن خصوم هذا المُعتقل و دفع رشاً أكبر للقضاة الفضلاء ، و سيكون على هذا المُعتقل حينها أن يعود لدفع الرشاوى مجدداً في الإستئناف و النقض.

هذه الرشاوى كلها لا ترد و لا تستبدل ، و كل مبلغ يدفع كرشوة لا يمكن إسترداده بحال من الأحوال حتى لو غدر المرتشون براشيهم ، و من ذا الذي سيجرؤ بالمطالبة برشوة دفعها لقاضٍ أو ضابطاً !.

الطريقة الآنفه التي شرحتها لاستثمار القاضي فاضل للقضاء و مؤسسات وزارة العدل ليست سوى البداية فقط من سلسلة نجاحات هذا القاضي الرائع و التي سأفصلها تالياً .

كنت أتابع التغيرات التي طرأت على قطاع القضاء بإهتمام زائد ، فهذا القطاع هو الذي يضبط كافة التغيرات الحاصلة في كافة قطاعات الدولة و الحياة على الإطلاق ، الواقع أن عملية استثمار القضاء احتاجت إلى وقت ليس بالقصير و إلى مساعٍ كثيرة ، هذه المساعي لم تكن مجهدّة إلا أن كثرتها كانت متعبة لي ، في البداية اعتمدت على معونة والدي الذي تفرغ خزيناً

لقطاع القضاء في فترة حكم الزعيم بديع و أثناء فترة حكم اللواء كامل و صدرا من عهد الجنرال هرثمة ، إلا أن والدي توفي فجأة في العام الثالث لحكم هرثمة عن عمر مهني ناهز الثمانين فاضطرت لمتابعة هذه التغييرات كلها بنفسه.

كان والدي قد تمكن من إنجاز تغييرات ضخمة في ملاك القضاة خلال عقد كامل من الزمن ، فلقد أُحيل جميع القضاة من غير أتباع الديانة السرية إلى التقاعد و استبدلوا بأتباع تلك الديانة من أولئك الخريجين المختارين المشار إليهم آنفا.

أما المحامون العاملون كسماسرة للرشاوى فلقد زاد عددهم إلى الضعف و توسع عملهم ليشمل كل أنواع التقاضي بعد أن كان مقتصرًا على قطاع القضايا الجنائية فقط.

الواقع أن أهم التغييرات في قطاع القضاء بدأت بعد عودتي من لقاء كبير للمشرعين في البلاد الإسلامية عُقد في أوربة ، عُقد هذا المؤتمر السري بعد تولي الجنرال هرثمة للسلطة بأربعة أعوام ، و طبعا كان البارون جيمس هو الراعي لهذا المؤتمر.

بحثنا في المؤتمر ثلاثة مواضيع مفصلة على التوالي :

الموضوع الأول صكوك الديون : منذ صدر الإسلام و إلى ما بعد هذا المؤتمر بقليل كانت صكوك الديون تشكل الضمانة الوحيدة و الأكثر أمانا لجميع الدائنين ، مهما كان حجم الدين و مهما كانت ظروفه ، و ببساطة كان أصحاب الأموال يُقرضون المحتاجين مبالغ من المال مقابل صك للدين يوقعه المقرض على نفسه و يحدد فيه مبلغ الدين و موعد السداد و كفيته و يشهد و يوقع عليه شاهدان من الوجهاء ذوي الفضل المعروفين ، هذا الصك كان كافيا جدا لضمان إعادة المبلغ المُقرض في الوقت المحدد ، إذ ما على صاحب القرض إلا أن يُسلم الصك للقضاء في أي وقت بعد انقضاء موعد التسليم ، حتى يصدر استدعاء قضائي للمقرض تنفذه الشرطة القضائية فوراً ، و عندما يمثل المدين في المحكمة يخيره القاضي بين الدفع أو الحبس ، فإن دفع الغرام الدين انتهى الأمر ، و إن رفض حَجَز القاضي على أملاكه و عرضها للبيع في المزاد العلني ليتم سداد القرض من ثمنها ، أما إن كان المقرض مفلسا فهذا يعني أن السجن سيكون بانتظاره حتى نهاية شهر رمضان من عامه ، ففي هذا الشهر تؤدي الزكاة إلى دوائر الأوقاف التي تسدد الديون عن الغارمين و تُصالح أصحاب القروض الكبيرة على جدولة ديون غرمائهم لعام أو عامين قادمين.

صدرت إلينا خلال المؤتمر تعليمات بإلغاء فاعلية صكوك الدين بالتدريج خلال عام واحد ، أما الكيفية فتُلخص بما يلي :

أولا يصدر مجلس الأمة باقتراح من رئيس الدولة قانونا يخول وزير العدل تفسير أحكام القانون المدني إلى إجراءات إدارية خلال عملية التقاضي أمام المحاكم المدنية.

ثانيا يصدر وزير العدل سلسلة قرارات تتضمن : إلغاء إمكانية وضع صكّ الدين في ديوان المحكمة ليتم تنفيذه بشكل آلي ، سيكون على صاحب صكّ الدين أن يرفع دعوى أمام المحكمة عبر محام موكل عنه بعد دفع رسوم باهظة ، و لا يصدر القاضي استدعاء للمُقترض إلا بعد الإطلاع على الصكّ في جلسة تُعقد و لكن بعد مرور وقت غير قصير على رفع الدعوى.

إستدعاء القاضي المدني للغارم إلى المحكمة لا يكون باعتقاله و سوجه إلى المحكمة كما كان في الماضي ، و إنما يكون بإرسال رسالة إليه بيد شرطي فيتسلمها و يوقع على استلامها ، فإن لم يجده الشرطي تأجل النظر في الدعوى إلى حين النجاح بتبليغه ، و لا بد من منح ديوان المحكمة عدة مهل متجددة لإبلاغ المُقترض المدعى عليه.

في حال لم يحضر المدين إلى المحكمة أو حضر و لم يدفع فإن المحكمة ستحجز على أمواله و أملاكه ، و لكن هذا الحجز لا قيمة له لأن هذا المدين يستطيع بسهولة تامة أن يرفع دعوى مضادة يُلغي بها الحجز و يطعن في صحة الصك ، هنا يتحول عمل المحكمة إلى التحري و التقصي لإثبات صحة الصكّ و تُضطر لإستدعاء الشهود بنفس طريقة استدعاءها للمدين الآنفة الذكر.

بهذا سيحتاج أي صكّ للدين حتى يتم تنفيذه إلى سنوات طويلة ، و سيكون صاحب الصكّ مضطرا لدفع مبالغ تجعل من استرداد الدين أمرا لا نفع منه هذا إن حصل.

الموضوع الثاني هو "تأجيل النظر في القضايا" : في الماضي كان طلب تأجيل النظر في أية قضية أمرا غير سهل على الإطلاق ، إذ يتوجب على المتقاضي تقديم مبررات مقنعة و أدلة قاطعة على احتياج القضية لتأجيل النظر فيها ، ذلك أن تأجيل القضايا تضيق لوقت المحكمة و يسبب زحاما في جدول عرض القضايا عليها و يؤخر النظر في سائر القضايا الأخرى و يضر بالمتقاضين و بخزينة الدولة.

تعليمات المؤتمر كانت تقضي بتسهيل موافقة المحاكم على تأجيل النظر في القضايا في أية مرحلة من مراحل التقاضي و لأتفه الأسباب بل و لجرد طلب التأجيل من أحد المترافعين.

الموضوع الثالث هو "حبس المفلسين" : في الماضي كان يُحبس الغارم مُدّعي العجز عن الدّفع و لا أملاك له و ذلك للتضييق عليه لإجباره على إظهار ما يخفي من مال عن غرمائه قهريا من قضاء الدين ، و بعد انقضاء مدة لا تزيد عن السنة تتاح له فرصة الإستعانة بلجان الصلح المدني و معونات الأوقاف فيطلق سراحه و تنتهي قضيته بردّ الدين أو معظمه للدائنين ، و طبعا هذا الحبس سيردع الناس عن اقتراض مال للعبث ، مال لا يقدرّون على استثماره و سداده لأصحابه عند حلول الأجل.

قضت تعليمات المؤتمر باعتماد مبدأ جديد هو : "المفلس لا يُجس" و إنما يصار إلى تجريده من بعض الحقوق المدنية ، و يضيع حق غرمائه إن عجز عن أداء الديون خلال خمس سنوات من إعلان إفلاسه.

عدت بهذه المقررات الثلاثة إلى البلاد ليضعها فريق القاضي فاضل و شريكه الوزير دُرّي موضع التنفيذ.

تم إصدار القوانين اللازمة و القرارات الوزارية خلال أقل من شهر واحد و بدأ العمل بها فور صدورهما ، و صارت دواوين المحاكم ترفض قبول صكوك الديون مهما كان نوعها ، طبعاً كان المحامون السماسرة بانتظار حملة صكوك الديون الكبيرة جداً لمفاوضتهم على رشاوى مناسبة لتحصيل ديونهم بالسرعة اللازمة بقرارات قضاة المحاكم المدنية ، أما أصحاب الديون فاضطر معظمهم للجوء إلى أساليب متعبة و بعيدة عن القضاء لإسترجاع حقوقهم ، بسبب هذا وقعت الكثير من حوادث العنف كالقتل و الإعتداء في تلك السنة بسبب صكوك الديون ، و انتشرت أمثال بين الناس تحض على العنف لإسترداد الديون على غرار : من أخذ مالك فخذ روحه ، و أضيفت لإستثمارات ضباط المخابرات و المتنفذين من أتباع الديانة السرية فرصة جديدة هي تحصيل الديون الميئة ، إذ صار أصحاب الديون الضائعة يدفعون هؤلاء مبالغ ليحبوا غرماءهم على سداد الديون ، و صار عادياً جداً أن يختطف أحد ضباط المخابرات شخصاً غارماً ليحبسه على سداد ديونه ، و هكذا عاد عناصر المخابرات من القضايات و الفتوات إلى مهنتهم القديمة و لكن دون وصاية من أحد الأفاضل عليهم ، إلا وصايتنا نحن طبعاً ، و تمكن جلمود و سالم و أصدقاؤهما من جمع ثروات كبيرة من هذا العمل ، دفعوا نصفها طبعاً ضرائب لنا ، تم تحويلها إلى أوربة.

عاد المشايخ في تلك السنة للنشاط و التفاعل مع التجار و العامة بسبب تكاثر الخصومات على القروض و لكن العامة لم يعودوا يصغون لتعليمات المشايخ كما كانوا في الماضي ، لقد نجحنا خلال الفترة السابقة لهذه الأزمة في عزل المشايخ كثيراً عن التأثير على العامة و تجرباً عليهم الناس كثيراً ، و رغم أن المشايخ عادوا للنشاط لفض الخصومات بسبب غياب القضاء و يأس العامة من جدواه ، إلا أن المتقاضين عند المشايخ نادراً ما كانوا يلتزمون أحكامهم ، و غالباً ما كانت الديون تضيع على أصحابها لإنعدام إمكانية إجبار المقترضين على السداد بغير معونة البلطجة المخابراتية الباهظة الكلفة.

بعد هذا العام تغيرت الأمور كثيراً جداً ، فصار الإقتراض بين الناس شبه مستحيل ، و انتشرت بينهم أقوال و أحاديث دينية اخترعوها مثل : الدين ضالّ إلا ما رده الله ، و اطلب من المقترض أن يقبل يدك عندما تعطيه لأنك ستقبل قدمه حين تستقصيه ، و الدين كغضب الوالدين ، و غيرها كثير في ذم الدين و القرض.

بهذه الخطة صار من المستحيل على الشباب الطامحين ذوي الخبرة إنشاء مشاريعهم الخاصة بهم و الإستقلال عن أرباب العمل الذين يوظفونهم و بالتالي تحسين دخلهم ، فالقروض الشخصية الفردية التي كانت المصدر الرئيسي لإيجاد أرباب عمل جدد

من الشباب قد انعدمت تماما ، و هؤلاء الشباب لا يملكون في الغالب أصولا عقارية أو تجارية يمكن رهنها أو بيعها للبدء بمشروع استثمار و إنتاج صغير جديد ، لقد نجحت هذه الإجراءات في إرغام الشباب الذين استكملوا أهليتهم و خبرتهم على الهجرة إلى خارج البلاد بحثا عن فرصة عمل جيد تؤمن لهم ما يلزم لبناء أسرة و مورد رزق محترم يؤمن لهم حياة كريمة ، و فقد هؤلاء تماما رعاية العشيرة و العائلة و الأقارب و المجتمع لمساعدتهم لبناء مستقبل جيد.

كنا طبعاً قد جهزنا هؤلاء الشباب الخبراء من يسهل لهم الهجرة إلى خارج البلاد لقاء مبالغ زهيدة تستهلك جميع مدخراتهم و مدخرات ذويهم قبل أن يهاجروا و إلى ما بعد أن يهاجروا بعام أو عامين.

كثيرة جدا هي التعديلات التي طرأت على القضاء خلال فترة حكم الجنرال هرثمة ، و أنا هنا بصدد رسم صورة عامة يمكن من خلالها تصور أدق التفاصيل بالإستنتاج.

لم تقتصر إستثمارات القاضي فاضل على القطاع القضائي ، فلقد توسعت هذه الإستثمارات أيضا إلى قطاع التجارة كلها ، فمع انتهاء الثقة بين التجار و إنعدام القروض البنينة بين الناس توجهت الأنظار إلى المصارف ، و لكن القاضي فاضل لم يكن مشرفا على قطاع الصرافة و الأموال لأنه كان من اختصاصي أنا شخصا.

من القطاعات التي استثمر فيها القاضي فاضل عبر وزارته قطاع العقارات و تنظيم المدن ، فلقد كانت ضمن أعمال وزارة العدل مهمة خطيرة للغاية هي : التسجيل العقاري و تقسيم الميراث.

في الماضي كان تقسيم الميراث العقاري أمرا سهلا و متيسرا ، فبمجرد وفاة مالك عقار تنتقل ملكية العقار إلى الورثة بشكل شبه آلي ، و لم يكن يحتاج الأمر لأكثر من شهادة تحديد و تسمية الورثة الموقعة من أمين السجل المدني و مختار المحلة أو القرية و ينتهي الأمر ليُصدر السجل المدني شهادة ملكية جديدة للعقار الموروث بأسماء المالكين الجدد من الورثة ، و كانت كافة العقارات تُقسم عند انتقالها بالإرث وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، هذا الأسلوب في تقسيم الإرث كان يسهم في توسيع المدن و إبقاء أسعار العقارات متوازنا بين مراكز المدن و أطرافها ، إذ غالبا ما كان المنزل أو المتجر الواقع في مركز المدينة يؤول إلى أحد الورثة مقابل سعر معقول يُرضي به شركاءه من الورثة ، هؤلاء بدورهم يفيدون بثلث حصصهم في شراء و بناء عقارات قريبة الحجم و المساحة و الجودة من عقار آبائهم و لكن في أحياء جديدة أو في أطراف غير معمورة من حيهم الأول.

لتنظيم هذه المهمة بأسلوب جديد عقدنا لقاء تشاوريا في أوربة برعاية البارون جيمس ، و تلقينا خلال اللقاء خطة صارمة لإلغاء نظام الإرث و تسجيل العقارات القديم لصالح نظام جديد تماما ألبس ثوبا مزيفا من النظام القديم .

النظام الجديد يقوم على أسس أهمها :

أولا يمنع تماما تقطيع أي عقار و إنشاء أية عقارات جديدة و تغيير أوصاف أي مبنى دون إذن مسبق من السلطات البلدية ، و تتأسس لهذه الغاية مكاتب هندسية في كل البلديات مهمتها دراسة التعديلات المطلوب إجراؤها على العقارات و ذلك لقبولها أو رفضها حسب قائمة شروط تصدرها وزارة الإسكان و البلديات و تجددتها في كل سنة ، تمنع هذه القائمة تقسيم العقارات التي تقل مساحتها عن أربعمئة متر مربع إلى أكثر من قطعتين متساويتين ، مساحة كل منهما مائتا متر مربع في المدن و تضاعف المساحة إلى عشرين ضعفا في الريف .

ثانيا يمنع تماما نقل سجلّ العقار من مالك متوفى إلى ورثته إلا بعد إجراءات طويلة و معقدة تبدأ بتحديد و تسمية الورثة و لا تنتهي عند الحصول على براءة ذمة المتوفى من القروض الحكومية و الحجوزات القضائية ، و بعد انتهاء الإجراءات يُفرض على الورثة دفع ضريبة باهظة تصاعدية على التركة لا تقل عن عشر قيمة الموروث و تصل أحيانا إلى نصف قيمة الإرث .

ثالثا يسمح ببيع العقارات و نقل ملكيتها إنما بعد إجراءات معقدة و بعد دفع ضرائب باهظة للدولة إسمها الضريبة العقارية .

رابعا تفتتح مكاتب تمهيدية لتنظيم و تسجيل عقود بيع العقارات و الحصص العقارية تسمى بـ "الكاتب بالعدل" و لكن لا يمكن نقل الملكية إستنادا للعقود التي تنظمها هذه المكاتب دون رفع دعوى أمام المحكمة العقارية لإثبات صحة العقد و نفاذه .

هذه الأسس طبقت كلها في العام الأول من عهد هرثمة ، و حولت السوق العقارية في البلاد إلى ما يشبه المتاهة التي لا يمكن أن يتخيل أحد مداخلها و مخارجها ، ذلك أن منظومات الرشاوى القضائية من محامين و سماسرة استثمرت هذا القطاع بكل الوسائل التي قد يتخيلها العقل .

فلتجاوز ضريبة التركات كان لا بد للورثة من محام له صلات وثيقة باللجنة الهندسية و اللجنة المالية في البلدية التي يقع عقارهم في حدودها ، هذا المحامي ستقنع رشوته هذه اللجان بتقييم العقار بقيمة ضئيلة جدا تجعل من الضريبة العقارية مبلغا يمكن تحمله ، هذا إن كان الورثة متفقون أما إن كانوا متنافسين فسيدفع بعضهم الرشاوى للجان المختصة لتقييم العقار بأضعاف قيمته حتى يجبروا شركاءهم على بيع حصصهم بمبالغ زهيدة ، ثم و بعد إنفراد الراشي بملكية العقار يطعن بقرار اللجان برشوة جديدة و اللجنة توافق لأنها ستقبض أجراها في المرتين .

و أما مسألة تقسيم العقارات فلقد كان تجاوزها مستحيلا في المدن ، فكان الورثة يضطرون دوما لتصفية التركة ببيعها لأحد التجار بمبلغ زهيد ، ثم يقوم التاجر بضم عقارات متجاورة لبعضها ، و يقوم بهدم الأبنية القديمة ثم يحصل على رخصة لبناء كبير جديد من عدة طوابق إسمنتية يباع بأضعاف أضعاف سعر العقارات الأصلية ، لقد نجحت هذه السياسة في هدم تسعة أعشار المدن القديمة الأثرية في البلاد خلال العقد الأول من حكم هرثمة و أحلت محلها أبنية تشبه أقفاص الطيور الدواجن

مليئة بالظلمة و الزحام و الرطوبة و تفتقر إلى نور الشمس و الراحة و الهدوء و الهواء النقي ، هكذا استكمل مشروع تدمير المدن القديمة و الأسر الكبيرة الذي بدأناه في عهد الزعيم بديع في ضواحي المدن بأن أجهز على المباني القديمة في مراكز المدن فزالت تماما ، حتى ليخيل للقادم إلى هذه المدن أن بلادنا اكتُشفت بعد إكتشاف جزر هاواي بقرنين كاملين.

كل عمليات نقل الملكية سواء خاسرة كانت أم رابحة كنا نحصل على حصتنا فيها من البائع و من المشتري على حد سواء ، كانت نصف الرشاوى تصلنا صافية و دون تعب في تحصيلها ، و كان النصف الثاني يكفي لسد احتياجات العاملين في منظومة القاضي فاضل من قضاة و محامين و شهود زور و لجان ترخيص و تقييم .. إلخ.

أما اختراع "الكاتب بالعدل" و إضافة العقارات لمهامه فله قصة أخرى أجمل بكثير من سابقاتها ، فلقد أتاح هذا المكتب إيجاد فرصة بيع العقارات و شرائها و حتى بيع السيارات و الآليات و شرائها دون نقل ملكية هذه العقارات إلى المالكين الجدد في السجل العقاري أو في سجل المركبات ، و أصبحت تسعة أعشار البيوت و العقارات في الريف و في أطراف المدن و أكثر من نصف العقارات داخل المدن في يد مشترين أو مالكين جدد لم تسجل أسماءهم في السجل العقاري ، أي أن تسعة أعشار العقارات بقيت إلى يومنا هذا مسجلة بأسماء مالكين قدامى باعوا هذه العقارات بعقود عند كاتب العدل.

هذه الحالة جعلت من دفع مبالغ ضخمة لمنظومة القاضي فاضل أمرا لا مفر منه لكل من يريد أن يبدأ بمشروع عقاري ، و لذلك وصل الأمر إلى أن اقتصررت هذه المشاريع على أتباع الطائفة السرية حصرا و من يعمل إلى جانبهم من الأقليات الدينية.

أيضا فتح إنشاء مهمة الكاتب بالعدل باباً لعمليات الإحتيال الجماعي الضخمة في كل البلاد ، فمثلا :

يشترى أحد ما أرضا و يضم إليها أرضا أخرى لتصير عقارا ضخما ، ثم يستصدر رخصة لإنشاء بناء ضخم على هذه الأرض ، و يعلن عن بيع شقق و محلات هذا البناء قبل إنشائها و يوزع خرائط البناء على السمسارة.

كافة عقود بيع الشقق الهوائية و المحلات الافتراضية تعقد عند الكاتب بالعدل ، و يمكن هنا لصاحب المشروع أن يبيع الشقة أو المحل الواحد لعدد كبير من المشترين ، و خلال البيع ينجز قسما من البناء لتتم الخديعة ، ثم يعلن إفلاسه بعد يجمع مبلغا ضخما من ضحاياه و بعد أن يبيع العقار لمشتري جديد إنما هذه المرة بعقود مسجلة في السجل العقاري و بمبلغ كبير.

يقوم المشترون للوهم برفع دعاوى على صاحب المشروع و تتلقى المحاكم عشرات الدعاوى ضده ، و أقصى ما في الأمر أن صاحب المشروع هذا يُسجن لبضعة أشهر بتهمة النصب و الإحتيال دون أن يضطر لإعادة فلس واحد لضحاياه ، و تضيع أموال المشترين بعقود كاتب العدل ، و يُنجز البناء لصالح المشتري الأخير - هو غالبا شريك لبائع الوهم - ثم يباع المبنى بعدها بمبالغ ضخمة.

منظومتنا كانت ترعى معظم هؤلاء المحتالين و تحميهم ، أكثرهم كانوا من الأسر الحاكمة أو من الذين يمثلونها من السماسرة و ضباط المخابرات و المدراء ، التجار غالبا هم المستفيدون أخيرا من هذه المشاريع إنما بنسب لا تصل إلى ربع ما غنمته منظومتنا منها ، كنا أوفياء دوما نقتسم الأرباح مناصفة مع أتباعنا هؤلاء .

بعد تولي الجنرال هرثة للحكم بخمسة أعوام تقريبا ظهرت بين غالبية السكان من المسلمين موجة من التدين و العودة للإلتفاف حول المشايخ ، لقد كانت تصرفات الأسر الحاكمة و خاصة القاضي فاضل سببا في تنامي سخط راح يتكتل بصمت و ظهر في زيادة في التدين ، فلقد امتلأت المساجد عند صلاة الفجر كما كانت تمتلئ في صلاة الجمعة قبلاً ، و تقلص عدد النساء الغير محجبات بعد أن كانت نسبة الغير محجبات تقارب ثلث عدد نساء المدن .

ما أعطى تلك الموجة قوتها أن مشايخ البلاد التقليديين من الفقهاء المتصوفين اندفعوا بحماسة للتدريس و الدعوة ، عدد هؤلاء المشايخ كان قد تقلص كثيرا بسبب حملات الإقصاء و الإفكار و الحصار التي شنتها عليهم الدولة خلال عهد بديع و ما تلاها ، و لكن بقي آحاد منهم في كل منطقة و مدينة ، هؤلاء كانوا كفاية لتحريك موجة كبيرة من التدين ، و كانوا محاطين دوما بعدد من التلاميذ من الشباب ، هؤلاء الشباب برعوا و نشطوا في الدعوة للتدين بتوجيهات أساتذتهم ، و إن كان المشايخ قد أطلقوا تلك الموجة فإن الشباب من تلامذتهم استطاعوا أن ينهضوا بأعباءها حتى غمرت البلاد كلها تقريبا .

أثارت هذه الموجة ردة فعل عند الأقليات من غير المسلمين و أتباع الديانة السرية ، فانتشر بينهم التدين و التشدد في الإلتفاف حول رجال الدين في طوائفهم ، فموجة التدين بين المسلمين أذكت عند الأقليات الدينية خوفا من ثورة شعبية تطيح بنفوذهم و سيطرتهم على معظم مؤسسات الدولة و مكاسبها و قد تنتهي بحرب تتسبب في إبادة هذه الأقليات عقابا لها على ما فعلته بالأكثرية المسلمة .

لمواجهة هذه الموجة استدعى البارون جيمس صديقه رافع أفندي زعيم الجمعية الإسلامية (من أتباع الديانة السرية ، نُفي سوريا بعد ثورة بسطام) و اتفق معه على تفاصيل خطة متسلسلة المراحل لإجهاض تكتلات العامة من الأغلبية و القضاء على المشايخ التقليديين و نفوذهم نهائيا ، كانت الخطة مقدمة من البروفسور أوسكار و ابنه الدكتور برنار ، طبعا كنت حاضرا في اللقاء و مشاركا فيه .

قبل خمس سنوات خلال عهد اللواء كامل و ضمن عفو عام شمل كافة السجناء أُطلق سراح أعضاء الجمعية الإسلامية القدامى من نزلاء السجن الحربي ، كان هؤلاء الأعضاء الأوفياء مصممون على الثأر لإخوانهم الذين قُتلوا خلال "ثورة بسطام" ، نواياهم هذه كانت معروفة لمخابرات حكومتنا جيدا ، لكن بتوجيهات من البروفسور أوسكار تركتهم قيادة

المخابرات و أمن الدولة يعيدون تشكيل تنظيم سري جديد لجمعيتهم ، و لقد تمكنت من اختراق هذا التنظيم من قاعدته إلى أعلى قمته أثناء تشكيله.

بدأ تنفيذ الخطة التي اتفقنا عليها خلال إجتماعنا مع البارون و رافع أفندي خلال أسابيع قليلة ، أول خطوة كانت إجتماعا ضم رافع أفندي و أعضاء جمعيته الكبار (المفرج عنهم) من كافة مدن البلاد ، كان اللقاء في عاصمة أوربية غربية صغيرة ، خلال الإجتماع سلم رافع أفندي لقادة الجمعية ميزانيات ضخمة و ملفا ضخما من التعليمات التي تنظم عمل الجمعية و خطط الدعوة فيها.

عاد هؤلاء القادة إلى البلاد و قد انتشوا بما معهم من وعود رافع أفندي و بما أخبرهم به ، فلقد قال لهم : إن الأوروبيين الغربيين مسيحيون ، و هم مؤمنون بالله و يرفضون الإلحاد و يحاربونه و يحاربون الشيوعية ، و لقد تعاطفوا معنا كثيرا و يعتبرون أن مواجهتنا القادمة مع نظام هرثمة جزء من حربهم على الشيوعية ، لذلك أعطونا المال و المعونة السياسية و التسليحية ، و ستقدم لنا الدول العربية المتحالفة مع الغرب كل العون اللازم.

هذه الأخبار بالإضافة إلى ذكريات المعاناة في فترة الإعتقال و ذكريات سحق ثورة بسطام دفعت جميعا هؤلاء القادة للعمل ليل نهار على تنفيذ التعليمات التي لديهم ، و بالفعل أكملوا المطلوب بعد ثلاثة أعوام فقط من بدء التنفيذ.

بدأ التنفيذ باختيار طواقم للدعوة من بين الشباب المتعلمين ، و تم تفريغ هؤلاء الشباب للعمل لصالح الجمعية ، و تم تدريبهم في مقرات سرية للجمعية في قرى نائية إمعانا في التمويه ، كان هدف عمل هؤلاء الشباب هو حلقات تدريس المشايخ التقليديين الفقهاء المتصوفة و تلامذتهم و خلفائهم ، بعد إنهاء التدريب التحقت كافة هذه الطواقم بهذه الحلقات ، داوموا عليها بحرص و نشاط مميز ، طبعا دون الإفصاح عن انتسابهم للجمعية الإسلامية ، بعد فترة قصيرة من الوقت نال هؤلاء الشبان ثقة المشايخ الكبار و ثقة تلامذة المشايخ من الشباب.

معظم هؤلاء الطواقم كانوا من المدرسين و الخريجين الجامعيين الجدد ، و كانوا جذابين كثيرا للطلبة الصغار في حلقات المشايخ ، لاحظ المشايخ قدرة شباب الجمعية على ضبط و اجتذاب أعداد كبيرة من النشأ و المراهقين الصغار ، فوكلوا إليهم مهمة إعداد هؤلاء الصغار و تأهيلهم لحلقات التعليم التي يديرها المشايخ.

لم يكن المشايخ يعرفون أن هؤلاء الشباب من أعضاء الجمعية الإسلامية ، و لم يخطر ببال أحدهم أن هؤلاء الشباب كانوا ينظمون المراهقين الصغار في سلك الجمعية ، و أن هؤلاء الشباب لقنوا أتباع المشايخ الصغار مبادئ و فكر رافع أفندي عن الإسلام ، و لم يتخيل المشايخ أبدا أن هؤلاء الشباب كانوا ينظمون رحلات تدريبية لأولئك الفتيان الصغار لتدريبهم على حمل السلام و إطلاق الرصاص و فنون القتال و استعمال القنابل الصغيرة و العمل ضمن خلايا سرية ، كان جلمود و رجال

منظمي الخاصة -الذين اخترقوا تنظيم الجمعية الجديد - هم من يمد هذه المجموعات و الخلايا بالسلاح و الذخائر و كافة احتياجات المخيمات .

تطورت كثيرا جدا تلك الموجة الدينية ، و أعطى شباب الجمعية الإسلامية زخما كبيرا زائدا لهذه الموجة ، و عادت المنشورات و الكتب الدينية للإنتشار في مكتبات كثيرة حملت أسماء إسلامية افتتحت في أرجاء البلاد ، طبعت هذه الكتب في مطابع تتبع للجمعية الإسلامية ، و كثرت أيضا المنتجات الإعلامية كأشرطة التسجيل و النشرات و المجلات السرية.

بعد عامين تقريبا تسيدت الجمعية الإسلامية مشهد الموجة الدينية ، و شعر المشايخ بخطر تمدد الجمعية مرة أخرى و شعر بعضهم متأخرا باختراقات دعاة الجمعية لحلقات التدريس ، و بالفعل بدأت مواجهات غير صاخبة بين الفريقين ، إلا أن هذه المواجهات كانت تنتهي دوما لصالح الجمعية و أتباعها و كثيرا ما نتج عنها أن معظم تلامذة الشيخ الفقيه الذي يواجهه الجمعية كانوا ينفضون من حوله و يلتحقون بالجمعية و حلقاتها نهائيا ، لقد كان دعاة الجمعية بارعون في تشويه صورة خصومهم و خاصة من المشايخ ، هذه المهارات اكتسبوها خلال حلقات تدريبهم السرية ، تعلم هؤلاء الشباب في هذه الحلقات أيضا أن معظم المشايخ أعداء للدين و منافقون و أن الكذب عليهم و اصطناع التهم الكاذبة و إصافها بهم نوع من الجهاد الديني بالكلمة و عمل من أعمال الدعاية الحربية.

على الرغم من تضخم الجسم العسكري للجمعية إلا أن قرارا بإعلان ثورة مسلحة على الدولة لم يصدر أبدا ، و السبب طبعا هو أن أعضاء الجمعية كانوا ملتزمين بقسم الولاء لأوامر إمام الجمعية الأكبر "رافع أفندي" ، و هو بالطبع لن يصدر لأتباعه أي قرار بالثورة على حكومة قوامها أتباع ديانتهم السرية ، هذا من جهة و من جهة أخرى لأنه لن يخطر بباله أن يتصرف دون أوامرها.

لكن في بداية العام الثالث من تجدد نشاط الجمعية حصل ما لم يكن بالحسبان ، ذلك أن مجموعة من شباب الجمعية من أبناء ريف البلاد الشمالي قرروا الإنشقاق عن الجمعية سرا و أن يبدووا بالحرب ضد الحكومة ، كان الشيخ "ريحان" قائد هذه المجموعة أحد تلامذة القائد المعنوي للثورة البسطامية واثق أفندي الذي شُنق منذ نحو عقدين إلا قليلا.

ريحان هذا كان متدينا جدا و غنيدا جدا و محبوبا جدا في المنطقة الشمالية و الوسطى في البلاد ، هذه المنطقة التي شهدت ثورة بسطام و فقدت ألفا من شبابها في تلك الفترة.

أخطر ما في هذه المجموعة أن عددا غير قليل من شباب الجمعية انضموا إليها سرا و لم تستطع مخبراتنا معرفة الكثير عن أعدادهم و سلاحهم ، و لكن كان عدد من أولئك القادة الذين أطلقناهم من السجن الحربي يعرفون كل شيء عن هذا

الإنشقاق و كانوا يؤيدونه سرا و بسبب غيبتهم استطاع عملاء حماية أمن الدولة الإطلاع على بعض المعلومات عن هذا التنظيم المنشق الخطير .

استطاع رافع أفندي من خلال تحقیقاته في جمعيته أن يحدد الأب الروحي للإنشقاق و هو الشيخ ریحان و على الفور أصدر اللواء رفاعة أمرا باختطافه و التحقيق معه ، لكن الرجل كان صامدا حقا و مات تحت التعذيب دون أن ينطق بكلمة واحدة تدل على أتباعه .

بعد وفاة ریحان تولى الشيخ أبو معد و هو من أخلص تلامذة ریحان الرئاسة الروحية للمجموعة ، و كان رجلا شجاعا و ذا همة و لكنه كان فقيرا تماما في القدرات السياسية .

عرفت مخبراتنا باستلام أبي معد للتشكيل المنشق ، و لكنه ترك لأن اعتقاله لن يفيد بقدر ما تفيد مراقبته على صعوبتها الشديدة فالرجل كان كثير التنقل و هو حريص جدا على التخفي .

بعد توليه القيادة بقليل قرر أبو معد أن يبدأ حربا ذات ضجيج ضد حكومتنا ، و بدأ حربه الصاخبة تلك بضربة كبيرة جدا و مذهلة ، الضربة وقعت في حديقة الجامعة الوطنية في عاصمة بلادنا و هدفها كان القاضي فاضل نفسه ، ففي صباح ذات يوم كان القاضي كعادته يلقي محاضرة على طلاب كلية القانون ليتصيد بعض التلميذات الجميلات ، و بعد المحاضرة خرج القاضي فاضل بصحبة إحدى التلميذات الفاتنات إلى حديقة الجامعة و راح الرجل يتمشى مع الفتاة و يحدثها بود زائد قليلا ، ابتعد الحرس عن القاضي بأشارة منه و راحوا يراقبون المشهد من بعيد ، فجأة خرجت من بين أشجار الحديقة دراجة نارية يركبها اثنان من الشباب الملتئمين و اقتربت من القاضي ، و أفرغ أحدهما رصاص رشاشه في جسد عطوفته فإرداه قتيلا و أصيبت الفتاة بجروح ، هرع الحرس إلى سيدهم و لكن بعد فوات الأوان بينما اختفا الشابان كما ظهرا .

كانت العملية ناجحة و صاعقة و متقنة فعلا ، على أثرها أعلن اللواء رفاعة قائد الحرس الرئاسي حظر التجول في وسط العاصمة و انتشرت في المدينة قطع من فرقة الحرس الرئاسي و أقيمت الحواجز ، اعتقل كل طلاب و أساتذة كلية الحقوق و كل الموجودين فيها و في محيطها و نقلوا إلى مطار الرئاسة العسكري للتحقيق معهم .

و بعد شهر من الجهود فشلت كافة التحقيقات في التوصل إلى منفذي العملية ، و أفرج عن جميع المعتقلين على ذمتها بعد حفلات تعذيب وحشية أنستهم أسماءهم ، ثم تسلم ملف ملاحقة المسؤولين عن العملية أحد أهم الخبراء في طاقم المستشارين الأوروبيين الذي يدير البلاد .

هذا المستشار هو البريغادير فيليب و كان حينها يدير قطاع السجون و المعتقلات و التحقيقات السياسية في البلاد ، و قد وضع خطة ذكية جدا لكشف المنشقين عن رافع أفندي و القضاء عليهم ، ثم الإستفادة من هذا لاحقا ضمن سياق الخطة العامة.

بدأت خطة البريغادير بافتعال توتر في العلاقات بين حكومة بلادنا و بين حكومات بلدان عربية مجاورة لنا تعلن خصومتها للإشتراكية و المعسكر الشيوعي و تحالفها مع الغرب.

ظهر هذا التوتر في العلاقات على شكل حملات إعلامية شنتها أجهزة إعلام هذه الدول على حكومتنا و طبعاً ردت حكومتنا بالمثل ، ثم تطورت الحملات إلى خطابات ألقتها الجنرال هرثمة شتم فيها حاكمين من هؤلاء يحكمان دولتين تجاورنا جنوباً و شرقاً.

الأول كان الرئيس كسّار ، كان رجلاً مجهول الأصل و النسب و يحكم دولته الغنية بالثروات بنفس طريقة حكم دولتنا حتى أن الحزب الحاكم في بلاده كان نسخة أخرى عن حزب قاع و يحمل نفس الإسم ، كسّار هذا كان أصلاً على شاكلة جلمود و بسطام و سالم رجل عصابات و يؤمن كثيراً ببث الرعب بين الناس لضبطهم ، لكنه في النهاية كان مثل غيره مجرد صورة أخرى كهرثمة و بديع و سواهما كثير.

الثاني كان يلقب بالملك الوسيم و كان واجهة لدولة صحراوية تتحكم في طرق استراتيجية هامة ، شعبه كان جله من أبناء العشائر الفقيرة التي تعتاش على رعي الغنم ، ويعود نسب هذا الملك إلى أسرة من أتباع الديانة السرية ، و كان جده قد تسلم حكم الأرض المقدسة أيام الدولة التركية بضغط من أوربة ، ثم كانت أسرته واجهة لحرب عربية على الدولة التركية ، هذه الحرب قادتها أوربة و على أثرها انهارت الإمبراطورية التركية و استولت جيوش أوربة على ما تبقى من بلاد المسلمين.

نعود للحملة الإعلامية ضمن سياق خطة فيليب ، و بعدها أعلنت القطيعة بين حكومتنا و بين هذين البلدين ، في هذه الضجة و الصخب أرسل ضمن الخطة إلى الشيخ أبي معد أحد الشيوخ الموالين لمخابرات كسّار ليطلب منه المساعدة لإطلاق حملة للدعوة في بلاده تماثل الحملة التي تحصل عندنا منذ خمسة أعوام ، اقتنع أبو معد بالفكرة فأوعز لبعض القادة من تشكيله بالسفر إلى دولة كسّار و مساعدة الشيخ الناصر على النهضة بأمر الدعوة هناك.

عندما وصل موفدوا أبي معد إلى بلاد كسّار كان بانتظارهم في منزل الشيخ عدد من كبار القادة في حكومة البلد ، تفاجأ هؤلاء الموفدون بهذا ، و لكنهم اطمأنوا لاحقا بعد أن أقنعهم هؤلاء القادة بأن الرئيس كسّار نفسه هو الذي دعاهم لأنه يريد أن يقلب الوضع في بلاده و يحول البلد إلى بلد متدين يُحكم بالشرع الإسلامي.

بعد أيام التقى الدعاة بالرئيس كسّار نفسه ، و عرض عليهم أن يقدم لهم السلاح و الخبرة التي في جيشه للقضاء على حكم هرثمة و طائفته (التي يعاديه كسّار في الظاهر و هو من أخلص رعاها سرا).

كان وفد الدعاة هؤلاء مكونا من شباب مخلصين لفكرتهم و لكن خبرتهم السياسية و العسكرية كانت ضعيفة ، فاستطاع كسّار بسهولة أن يقنعهم بالتعاون الكامل مع مخابراته خلال شهر واحد فقط.

الواقع أن كسّار هذا لم يكن أبدا متدينا و قيادة مخابراته كانت بيد ضابط اسمه يوحنا و مع ذلك اقتنع أتباع الشيخ أبي معد بصدق نوايا الرئيس القائد كسّار في معاونتهم و دعمهم.

لإتمام الأمر سافر الوفد بطائرة الرئيس كسّار إلى مملكة الملك الوسيم ، هناك سمع هذا الوفد نفس الوعود و عبارات التأييد و الترحيب من الملك الوسيم و قائد جيشه و مخابراته الجنرال زيدان.

عاد هذا الوفد إلى بلادنا سرا عبر الصحراء محملا بالمال و العتاد و معه شحنة من أجهزة الإتصالات الخاصة و المعدات القتالية الممتازة ككواثم الصوت و مؤقتات العبوات الناسفة و رافق العائدين ضابطان من مخابرات كسّار خبيران في تفخيخ السيارات و صناعة العبوات الناسفة.

رحب أبو معد كثيرا بالتعاون مع مخابرات الجيران ، و وجد فيما عاد به الوفد أخبارا سارة كالمعجزة السماوية ، و أعطى فورا إشارة للبدء بحرب شاملة ، فبدأت حملة كبيرة من حرب العصابات في شوارع عاصمة بلادنا ، و استطاع رجال أبي معد أن يقتلوا ضباطا كبارا و مسؤولين و صحافيين في حزب قاع و مع ذلك لم تعتقل مخابراتنا أحدا من المقاتلين ، لأنهم كانوا ينتظرون أن يتسلم اللواء يوحنا رئيس مخابرات كسّار من موفدي أبي معد تفاصيل كاملة عن أسماء و أماكن تواجد أعضاء الجماعة المسلحة المنشقة عن الجمعية الإسلامية.

لم تضع المخابرات و حماية أمن الدولة الوقت خلال فترة الإنتظار هذه فشنت مباشرة بعد مقتل القاضي فاضل حملة اعتقالات مركزة على مدى عامين متواصلين ، هدف الحملة كان تلامذة المشايخ الفقهاء المتصوفين و أولاد المشايخ و شملت الحملة بعض بناتهم و زوجاتهم ، كانت لدى مخابراتنا برئاسة العميد فائق قوائم كاملة بأسمائهم قد جمعتها طواقم الجمعية الإسلامية ، المفارقة أننا اعتقلنا هؤلاء بتهمة الإنتساب للجمعية الإسلامية "المحظورة" !!.

طالت فترة الإنتظار هذه و استمرت مدة أربعة أعوام ، لكن في منتصفها كان قد اجتمع في السجن الحربي نحو من عشرة آلاف شاب من تلامذة المشايخ و أبناءهم و أقاربهم ، كلهم من النخب المتعلمة و من أبناء أسر متدينة و متوسطة أو من أصول أرستقراطية ، معظم هؤلاء اعتقلوا دون تهم و بدون أسباب سوى أنهم متدينون ، عندها رأى البارون و البروفسور أن

الوقت قد حان للبدء بعملية سحق موجة التدين و توجيه ضربة قاصمة للمشايخ ، فأعطيت التعليمات للبريغادير فيليب بالبدء بهذه العملية.

بإشراف البريغادير شخصيا راح السجنانون في السجن الحربي (كلهم من الغجر و من أتباع الديانة السرية) يمارسون أنواعا فظيعة من التعذيب بحق السجناء ، فمثلا أرغموا السجناء من عائلة واحدة على اغتصاب بعضهم ، و كانوا يسقون السجناء من مياه المراحيض و يرغمونهم على أكل العذرة ، و كسروا مفاصل معظمهم و شوهوا وجوههم و أحرقوا الكثيرين منهم بالأحماض ، و أجلسوا الكثيرين منهم على الخوازيق ، و صلبوا بعضهم في الشمس بعد أن طلوا أجسادهم بالقار و تركوهم يموتون جوعا و عطشا ، و سقوا بعضهم الآخر البنزين ثم فجروا بطونهم ، و قيدوا إلى بطون السجينات خوذا داخلها جردان أكلوا أجوافهن أمام بقية السجناء ، باختصار كان التعذيب تكرارا لعقوبات محاكم التفتيش ، تسربت أخبار التعذيب في البلاد فروعته الناس جدا و ازدادت بسببها وتيرة العمليات العسكرية لتنظيم أبي معد حتى اتخذت طابعا علنيا تقريبا ، و مع هذا لم تفلح هذه العمليات في إضعاف قبضة منظومتنا ، و لم تفلح في تخفيف وتيرة حملة الإعتقالات و قسوة تعذيب المعتقلين بل على العكس زادت من حدتها.

بعد ثلاثة أشهر من التصعيد بدأت المرحلة الثانية من خطة القضاء على المشايخ ؛ فلقد طوق لواء من عناصر الحرس الرئاسي مبنى السجن الحربي بقيادة اللوائين دري و رفاعه ، ثم سُربت معلومات في محيط السجن عن تمرد كبير للسجناء ، هذه المعلومات أذاعتها وكالات الأنباء الغربية و جاء في حيثيات الخبر أن قوة من الحرس الرئاسي تقاتل دفاعا عن السجن لأن السلاح قد سُرِب إلى السجناء !.

في الليلة التالية للتطويق و كانت ليلة شتوية باردة جدا اقتحمت قوات الحرس السجن و قضت على جميع من فيه من السجناء ، ثم حفرت وحدة الجرافات لهم في محيط السجن خنادق كبيرة و دفنتهم أكواما أكواما ، في نهاية العملية وقف اللواء دري على كوم من جثث السجناء القتلى و أخذ صورا تذكارية و هو يحمل لوحة كتب عليها : لتهنأ بالثأر روحك الطاهرة أيها الشهيد القاضي الفاضل.

بعد اغتيال القاضي الفاضل نفذ التنظيم المنشق عن الجمعية الإسلامية عمليات كبيرة و مع ذلك لم يأمر البريغادير فيليب بملاحقة قيادة هذا التنظيم أو عناصره ، السبب هو أن هذه العمليات لم تكن تهدد سيطرتنا بشكل جدي ، و أيضا لأن المعلومات الكاملة عن التنظيم لم تكن قد وصلت بعد إلى اللواء يوحنا قائد مخبرات كسار.

أكبر هذه العمليات كانت مذبحة كبيرة لمئات الضباط و الجنود من أتباع الديانة السرية ، وقعت هذه المذبحة في كلية عسكرية لتخريج طواقم المدفعية الميدانية ، تولى أبو معد زعيم التنظيم بنفسه التخطيط لهذه العملية و قام الكابتن خليل و هو أحد

ضباط هذه الكلية بتنفيذها ، و في التفاصيل أن الكابتن خليل كان هو الضابط المناوب مساء في إدارة الكلية ، فأعطى للحرس أوامر بالإجتماع مع سائر الطلاب في مطعم الكلية ، كان عدد من عناصر التنظيم قد دخلوا إلى مبنى الكلية بأسلحتهم فأغلقوا الأبواب على الطلبة و الحراس و الضباط المناوبين في المطعم و أعدموهم جميعا بالرصاص و القنابل اليدوية ، ثم اختفى المهاجمون مع كميات كبيرة من السلاح و الذخيرة في أحياء أكبر مدن شمال البلاد.

أمر البريغادير بالتكتم على المجزرة و لم يعلن عنها إلا بعد فترة ، هذا التكتم منح عناصر التنظيم ثقة زائدة فراحوا يظهرون أنفسهم و ينفذون إشتباكات عشوائية مع دوريات مخبرات الحكومة و دوريات حماية أمن الدولة و سقط من الجانبين الكثير من المقاتلين ، و راح الناس يتناقلون أخبار الإشتباكات بينهم بأمل كبير في الخلاص و مع هذا لم يعلن إعلام الحكومة عن أي شيء.

هذه الإشتباكات دفعت بأي معد و نائبه الكابتن المتمرد خليل إلى طلب المزيد من السلاح كسّار ، أحال كسّار طلب أي معد إلى اللواء يوحنا ، فأرسل يوحنا شحنات صغيرة و نوعية من السلاح إلى أي معد تتضمن قناصات متقدمة و أجهزة تفجير ، أرسل يوحنا أيضا مع هذه الأجهزة عشرات من ضباط مخبراته لتدريب عناصر أي معد على استعمال الأسلحة الحديثة و العبوات الناسفة.

بعد أربعة أعوام اكتملت في حوزة يوحنا كافة المعلومات اللازمة عن تنظيم أي معد ، فقام كسّار بنفسه بتسليم المعلومات كاملة للبارون جيمس في زيارة سرية له إلى أوربة.

بعدها سافرتُ إلى أوربة بصحبة البريغادير فيليب و هناك التقيت بجيمس و برافع أفندي الذي أصبح الرئيس العالمي لتنظيمات الجمعية الإسلامية و بنائيه عروة أفندي المسؤول عن تنظيم بلادنا.

في اللقاء شرح فيليب الوضع العام و عرض علينا خارطة عسكرية لتنظيم أي معد ، لم يكن في الواقع سوى تنظيم تافه لا يزيد عدد أعضائه عن الثلاثة آلاف مقاتل ، سحقهم كان أمرا بسيطا ، إلا أن وجهة نظر جيمس كانت أن مجرد تواجد هذا التنظيم اختراق و شرخ في سيطرة منظوماتنا التامة على الأحداث و لا يجوز التهاون معه أبدا ، إذ يجب أن نبقي نحن فقط من نستطيع أن يوجد أي تشكيل سياسي أو ديني و نحن فقط نستفيد منه.

قدم لنا البارون خطة متكاملة لحملة تأديبية كبيرة جدا لأغلبية سكان بلادنا لمنع تكرار ما حدث ، و عدنا إلى البلاد جميعا لتنفيذها ، كان رافع و عروة في نفس الطائرة التي عدنا بها ، في الأسبوع التالي لوصولنا بدأ تنفيذ الخطة التمهيدية للحملة.

اتصل رافع أفندي و عروة أفندي بقيادة الجمعية الإسلامية في العاصمة ، ثم تجولا في بقية الولايات سرا و اجتماعا بكافة قادة الجمعية في البلاد و أبلغوهم رسالة واحدة هي : لقد قرر حلفاؤنا في الغرب أن يسلمونا السلطة في البلاد و لكن لا بد لنجاح

هذا من التخلّص من عقبتين ، الأولى هي قوات هرثمة المتحالفة مع الشيوعيين و الثانية هي قوات أيّ معد التي تعادي الجمعية و قيادتها ، و حتى لا تتفتت الجمعية و لا تتلاشى قواعدها يجب أن يغادر جميع قادة و أعضاء الجمعية و عائلاتهم البلاد إلى دول عربية مجاورة ريثما تنتهي الحرب ، ليعودوا لاحقاً لتسلم الحكم و قد خلت لهم الساحة.

صدق هؤلاء القادة كلام رافع و عروة خاصة و أن العميد ريمون معاون رئيس المخابرات و معه سفير الدولة الأوروبية كانوا حاضرين لهذه الاجتماعات ، لم يمانع معظم قادة الجمعية في الخروج من البلاد ، حتى أولئك المتعاطفون مع أيّ معد و كانوا يدعمونه سرا وافق معظمهم على الإنصياع و الخروج.

قلة قليلة من قادة الجمعية رفضوا التعاون و غادر بعضهم إلى قواعد تنظيم أيّ معد بعد الاجتماع برافع أفندي و صحبه ، التحق أيضا هؤلاء القادة عدد غير قليل من عناصر الجمعية خاصة الشباب منهم.

بعد انتهاء جولة رافع أفندي و صحبه هذه بأسبوعين ، سلم قادة الجمعية قوائم بأسماء كافة أعضاء الجمعية الإسلامية إلى ضباط مخابرات اتصلوا بهم لاحقاً ، كان هذا حسب الإتفاق مع العميد ريمون و الذي يقضي بتسهيل إصدار جوازات سفر هؤلاء و لعائلاتهم و تسهيل خروجهم من البلاد.

بالفعل صدرت جوازات سفر ذات مدة طويلة هؤلاء جميعاً ، استثنى فقط من رفضوا الإنصياع لأمر المغادرة ، و في فترة الأشهر الثلاثة التالية للجولة غادر أربعون ألفاً من أعضاء الجمعية البلاد مع زوجاتهم و أولادهم ، معظمهم انتقل إلى الجزيرة العربية ، قسم آخر وصل إلى مملكة وسيم و قسم آخر وصل إلى دولة كسّار ، بينما غادر معظم القادة الكبار إلى أوربة مباشرة.

حمل هؤلاء معهم ما خف حملة و غلا ثمنه ، لم تفتش حقائبهم و لم يتعرضوا لممانعة أحد ، و كان في انتظارهم ضباط مخابرات من الدول التي استضافتهم و استقروا في أعمال و وظائف و سكنوا في منازل كانت أعدت لإستقبالهم ، غالبيتهم كانوا متعلمين و لديهم أموال كافية للإستقرار و العمل.

أثناء مغادرة هؤلاء بدأت الحملة التأديبية ، إذ أرسلت إدارة الأركان إلى كافة أقسام المخابرات و حماية أمن الدولة الموزعة في كافة أرجاء البلاد جداول سرية تتضمن أوامر يومية لمدة ستة أشهر تفتح تباعاً ، في كل يوم كان قائد كل قسم يفتح مغلفاً منها ، كان كل مغلف يتضمن أوامر بالإعتقال أو المداهمة لمجموعة من عناصر تنظيم أيّ معد ، أو لمجموعة من أعضاء الجمعية الذين رفضوا المغادرة ، هذه المداهمات كانت دموية جداً سقط خلالها الكثير من القتلى من الطرفين و من الناس العزل و النساء و الأطفال ، أوامر الإعتقال كانت تقضي باعتقال المطلوب فإن لم يكن موجوداً ساعة المداهمة يتم اعتقال أكبر الذكور و أقربهم عصبية إلى المطلوب كرهينة فإن لم يوجد رجال فامرأة أو بنت هي الأقرب للمطلوب ، و يُبلّغ أهل المطلوب

بأن إطلاق الرهينة مشروط بتسليم المطلوب نفسه إلى القسم المُداهم ، أيضا ضمت قوائم المطلوب اعتقالهم كافة أقارب و أصدقاء أعضاء تنظيم أبي معد من الرجال و النساء و حتى الشيوخ و الأطفال .

أعلنت الحكومة عبر الإعلام مع بداية فترة المداهمات عن الهجوم الذي نفذته الكابتن خليل في كلية المدفعية ، على الفور أصدرت الجمعية الإسلامية بيانا تبرأت فيه من تنظيم أبي معد و أعلنت أن الجمعية ترفض القتال ضد الحكومة و أن أعضاء تنظيم أبي معد مارقون من الدين و خارجون عن الجماعة و عن طاعة إمامها الأكبر رافع أفندي .

اعتقل خلال هذه المداهمات مائة ألف شخص ، تم توزيعهم على كافة السجون في البلاد ، كانت كافة السجون المدنية و العسكرية و حتى الملاجئ العامة و ملاجئ المشافي و أقبية المباني الحكومية قد أعدت لاستقبال هؤلاء البؤساء و لمدة طويلة ، كافة السجون قسمت إلى قسمين ؛ الأول سجن عام و هو للمحكومين بقضايا جنائية عادية ، الثاني كان معزولا عن الأول و هو لسجناء أقسام المخابرات و حماية أمن الدولة .

حرص البريغادير فيليب على أن تكون هذه السجون نسخا مطابقة للسجن الحربي ، و لهذه الغاية قام بنقل كافة الجنود من الغجر و رعاة الغنم (يعرفون بالشوايا) إلى تلك المعتقلات ليعملوا فيها سجانين و جلادين ، كانت العبارة الأولى التي استقبل بها السجنانون ضيوفهم هي : سنجعل الموت حلما جميلا تحملون به كل لحظة .

عُيِّن لكل قسم من أقسام المخابرات سجناء خاصا بمطلوبيه ، هذه الإجراءات توافقت بنشر الحواجز العسكرية و المخابراتية في كل البلاد ، على كافة الطرق و في كافة محطات السفر البري الجماعي و في كل منطقة مزدحمة و سوق ، اخترع فيليب ما تسمى بالحواجز المتنقلة ، فكانت دوريات المخابرات تتوقف بشكل عشوائي و مفاجئ على الطرق العامة و الفرعية و توقف المارة و تدقق بهوياتهم و تطابقها على قوائم المطلوبين ، و تعتقل عشوائيا أي إنسان لا يحمل بطاقة هويته أو جواز سفره ، و أثناء التدقيق كان الناس يتعرضون لشتى أنواع الإهانة و الضرب ، الرجال الذين يصطحبون زوجاتهم و أطفالهم كانوا يتعرضون لشتى أنواع الإهانة و الإذلال على الحواجز عمدا و بشكل خاص .

خلال هذه الحملة فر المئات من أعضاء التنظيم و متمردو الجمعية إلى المدينة التي تقع في شمال وسط البلاد ، تلك المدينة التي شهدت الثورة البسطامية ، هناك كان معقل أبي معد و إلى هناك انتقلت قيادة تنظيمه .

بعد انتهاء خروج عناصر الجمعية و أثناء حملة الاعتقالات الكبرى أعلن أبو معد الحرب على الحكومة و سيطر تنظيمه على عاصمة شمال الوسط الثائرة ، فقتل معظم ضباط المخابرات و قادة أجهزة الدولة في تلك الولاية ، لم يتردد البريغادير فيليب في إرسال أكبر ألوية الحرس الرئاسي بقيادة اللواء رفاعة إلى تلك المدينة ، حاصر فيليب المدينة على طريقة العصور الوسطى ، و بدأ عناصر لواء الحرس بقصف المدينة بالمدافع عشوائيا ، شاركت الطائرات النفاثة و المروحية في ضرب المدينة ، و تحول

ليل المدينة إلى نهار جحيمي و نهارها إلى ليل فاحم ، بعد أسبوعين من القصف المتواصل اقتحم لواء الحرس المدينة مدعوما بعشرات آلاف المتطوعين المسلحين المتحمسين من أبناء الطائفة السرية القادمين من ريف البلاد و من ريف دولة رشيد باشا المجاورة لنا ، أتباع الطائفة السرية يكون لهذه المدينة حقدا رهيبا ، ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا جميعا من المسلمين المتدينين و من أبناء و أقارب الأرستقراطيين الترك و الكورد المستعربين ، كان هؤلاء الأرستقراطيون هم سادة القرى التي يسكنها أتباع الديانة السرية ، كان أتباع هذه الديانة حينها عبيدا أجراء أذلاء هؤلاء الأرستقراطيين.

بعد نجاح إقتحام المدينة و قتل كافة المقاتلين فيها استباحت قوات رفاة كل شيء في تلك المدينة و ما جاورها ، اغتصبت عشرات ألوف النساء و قتل عشرات ألوف الرجال و النساء و الأطفال بالرصاص و الحناجر و الفؤوس ، قطعت رؤوس الآلاف و بقرت بطون آلاف الحبالى ، نهب كل البيوت و دمرت كل المساجد في المدينة و قتل كافة المشايخ فيها و طلبة الدراسة الدينية و محيت المدينة القديمة من على وجه الأرض ، فبيوتها القديمة تحمل ذكريات بائسة لأتباع الديانة السرية و لشيوخ هذه الديانة إذ كان الباشوات و البكوات و الأغاوات يقيمون هناك ، و هناك كانت تنتصب أهم المدارس الدينية و كان يسكن أكبر علماء المسلمين قَدرا في البلاد.

بعد شهر انجلت الحملة التأديبية لتلك المدينة عن خمسين ألف قتيل دفنوا جميعا في مقابر جماعية و عن خمسين ألف معتقل أضيف إليهم خمسون ألفا آخرين من بقية أرجاء البلاد بعد عام تلى إنهاء تدمير المدينة الثائرة و تحويلها إلى المدينة الخاملة. بعد اغتيال القاضي فاضل تولى كل من اللواء دري و العميد فائق مهمات القاضي فاضل بينما ترك منصبه شاغرا نحو من عقدين من الزمن ، أصلا لم يعد للقضاء أي وجود مستقل بعد سحق المدينة الثائرة و صارت منظومة جباية الرشاوى عبر القضاء تدار من قبل بقية الأسر الحاكمة كل حسب علاقته بها بحكم القطاع الذي يديره ، و على رأس هذه الأسر كانت أسرة الجنرال هرثمة و اللواء رفاة .

الأزعر أو البلطجي أو المُشَلِّح أو الجُنَك ؛ أسماء يطلقها العامة على اللص الوقح الذي يمتهن الإبتزاز و السلب بالقوة من الضعيف أو المستكين ، شخصية هذا اللص تتمحور حول فكرة واحدة هي : سرقة اللذة و اغتنامها بغير تورع عن فعل أي شيء في سبيل حصوله على اللذة ، و فوق ذلك فإن هذا اللص لا يمكن أن يتحمل أية مسؤولية مهما كانت صغيرة ، فهو لا وعد له و لا أمان و لا صدق إلا خوفا ممن هو أقوى منه ، و هو شخص يحتقر الضعفاء و يمتهن إذلالهم و يعتبره لذة عظيمة.

باختصار هذه هي صفات هرثمة و أخوه رفاة ، هما من أتباع الديانة السرية و لكنهما ليسا من عشائرها القوية ، و لقد وقع اختيار البارون جيمس عليهما بسبب علاقة قديمة بين آبائهما و آباء البارون ، و بسبب رعاية البارون القديمة لهما سُمح لهما

بالإلتحاق بالجيش رغم أنهما لا يملكان أهلية تعليم كافية ، و في الجيش تسلما مناصب هامة و تدرجا في الرتب دون استحقاق يذكر ، سألدا بالحديث عن رفاة و دوره في المنظومة قبل أخيه لأنه كان و لا يزال الأكثر ظهورا و شهرة بين أتباع الديانة السرية و بين المسلمين و غيرهم من سكان البلاد.

رفاة هذا و غد بلطجي أو أزعر مثالي ، يعشق شرب الكحول و معاشرة النساء و قيادة السيارات السريعة و اقتناء الجواهرات ، لم يكن يتورع عن فعل أي شيء في سبيل الحصول على ملذاته ، هذا الأمر جعله خاضعا لإرادة منظومتنا بشكل تام تماما ، لم يكن هذا الشخص غير موهوب بالمطلق ، لقد كانت لديه موهبة قيادية في عالم اللصوص ، فهو قادر على إدارة عصابات كثيرة من اللصوص و المهربين بسهولة تامة ، و هو أيضا قادر على التفاهم مع أمثال هؤلاء و استقطابهم و تجنيدهم بسرعة مذهلة.

تولى رفاة هذا مهمات كثيرة ضمن فرقة الحرس الرئاسي بداية من عهد الزعيم الراحل بديع ، و وافق البارون في نهاية الأمر على تسليمه قيادة فرقة الحرس الرئاسي ، في الواقع لم يكن رفاة قائدا لأي تشكيل عسكري ، كانت مهمته في الحرس هي أن يتلقى الأوامر من المستشارين الأوربيين و يلقبها بدوره على ضباط هذه الفرقة ، فلقد أصبحوا جميعا من أتباع الديانة السرية منذ تولي هرثة للسلطة ، معظمهم أيضا من قرية رفاة و هرثة نفسها ، لم يكن رفاة مولعا بالرتب العسكرية و الأزياء و الإستعراضات العسكرية ، لأنه عشق بعد أن تولى أخوه الحكم حياة البذخ و الترف ، و كثيرا ما طلب مني التوسط لدى البارون لتكليفه بمهمات في أوربة حيث المتعة و العيش الرغيد.

كان هذا الشخص حيويا جدا و مفيدا لنا في ضبط و تنظيم عمل منظومات التهريب و الرشاوى ، فلقد أقام علاقات كثيرة مع جميع رؤساء العشائر البدوية و الأسر الريفية التي عملت في منظومات الخشخاش و كانت لديه معلومات كاملة عن كل شحنة من الخشخاش تنتج و تنقل على جميع أراضي البلاد و البلاد المجاورة ، و لهذه الغاية دبرت له مصاهرة ممتازة مع الأسرة الحاكمة في الجزيرة العربية ، فتزوج شقيقة زوجة أحد إخوان ملك تلك الأسرة و قائد الحرس الملكي البدوي هناك ، هي امرأة من أسرة عجرية استقرت في بلادنا من عهد قديم و لا ديانة لها ، هذا الزواج جعل من هذا الشخص صديقا مقربا للكثيرين و خاصة لدى البدو.

بسبب براعة رفاة هذا في إدارة عصابات التهريب و ضبط أعضائها فوضه البارون في التصرف تماما مع أعضاء هذه الشبكات ، كان رفاة و لا يزال يتعامل مع هؤلاء بمزيج عجيب من القسوة و اللين ، و ربطهم إلى منظومة التهريب بطريقة العصا و الجزرة القريبة من فم المطيئة ، فلقد منحهم تغطية كاملة و حماية تامة من القضاء و الملاحقات و في نفس الوقت فرض عليهم قواعد صارمة جدا تقضي بعدم الظهور العلني و عدم الإقرار بتبعيتهم لرفاة أو لحزب قاع أو لأية جهة حاكمة ، هذه الطريقة جعلت وجودهم محسوسا و ظاهرا دون أن يكون رسميا ، و أتاح لهم كسب المال من تعاطي النشاطات

المنوعة قانونا كتنظيم القمار غير الرسمي و العمل في تجارة الدعارة و الإستيلاء على الأملاك بالإبتزاز و الإحتيال و فرض الأتاوات هنا و هناك ، كانت حصّة رفاة من أرباح هذه النشاطات تدفع له دون صعوبات و لكن هذا أتاح لهؤلاء نفوذا و أموالا أكبر مما يحلمون به.

عاقب رفاة من خالف أوامره من مرؤوسيه عقوبات فظيعة جدا ، فلقد كان يحتطف زواجهم و بناتهم و يأمر باغتصابهن أمام أزواجهن و آبائهن ثم يأمر بقتل الجميع ، كان أيضا ماهرا في اختراع طرق تعذيب هؤلاء العصاة و ترويعهم ، هذا ردعهم تماما عن أية محاولة للعمل بشكل مستقل ، في نفس الوقت كان رفاة يتواصل مع مرؤوسيه بنفسه ، بل كان يمضي وقته كله في زيارة هؤلاء و الإشراف على أعمالهم و مشاركتهم في أفراحهم و أحزانهم و همومهم ، كان يقدم لهم ما يحتاجونه وقت أزماتهم و لهذا كان مشايخ أتباع الديانة السرية يشيعون بين رعيّتهم أن روح إلههم حلّت في رفاة هذا و أنه ظهر في شخصه ليرفع شأن المؤمنين بهذا الإله ، فصار عامة هؤلاء يلقبونه بـ "الرب".

على عكس ما يشاع عنه من القسوة كان رفاة هذا أجنب من قطّ ، لم يجرؤ في حياته على ذبح خروف و لم يشارك أبدا في قتال مباشر ، جل عمله كان في غرفة اللاسلكي ينقل أوامر الضابط الأوربي بعد أن يترجمها إلى العربية بلهجته إلى مرؤوسيه ، شجاعته كلها كانت تتجلى في شتم من هم أضعف منه و إهانتهم و التلذذ بتعذيب من يريد تعذيبهم.

أهم منجزات رفاة في عمله تأسيس شبكة عربية للأفلام الإباحية ، فلقد كُلف في أوربة بإنشاء شبكة للأفلام الجنسية الإباحية ، و لهذه الغاية نشط رفاة بجد و تمكن في فترة قصيرة من أن يستقطب مئات الفتيات الجميلات و الصغيرات للعمل في هذه الأفلام ، سوّقت منتجات رفاة الوثائقية هذه في أوربة بأسعار باهظة ، بسبب أن أبطالها مغايرين للمظهر الأوربي و متنوعين في السن و هذه الأفلام كانت عفوية و دون ضوابط و هذا مرض جدا للمستهلك الغربي ، معظم أولئك الفتيات اللواتي ظهرن في هذه الأفلام كنّ من أتباع ديانة رفاة أو من العجريات قريبات زوجته (شقيقة الأميرة و خالة الأمراء) .

في نشاط معاكس تولى رفاة عبر منظومات التهريب توزيع مجلات إباحية أوربية مستعملة أو قديمة بشكل شبه مجاني في طول البلاد و عرضها ، و حين وصل الفيديو إلى البلاد تولى رفاة الإشراف على افتتاح شبكات ضخمة من محلات بيع و تأجير أشرطة الفيديو ، كل هذه المحلات كانت توزع الأشرطة الإباحية التي يستوردها رفاة ، هذه الأشرطة كانت مستهلكة تماما في أوربة.

اهتم رفاة أيضا بالنشاط الفني في البلاد فكان الراعي الدائم و الحامي لكل الراقصات و الممثلات و المغنيات في البلاد ، و إن كان المارشال عبد الصبور المتقاعد غاويا للنساء فإنه لم يكن ليصل لرتبة تلميذ عند رفاة في هذا المجال.

كل مغنية أو ممثلة أو راقصة جديدة في البلاد أقام معها رفاة علاقة جنسية قصيرة ، ثم زوجها من أحد أتباعه على أن تكون حاضرة لمؤانسة ضيوف رفاة وقت الطلب ، استطاع رفاة بهذا أن يربط جميع المرتبطين بشبكات التهريب من تجار و ضباط و شيوخ عشائر و وجهاء و صناعيين ، إذ لم تخل ليلة تواجد فيها رفاة في البلاد من حفلة ماجنة جدا كان يقيمها في مكان ما من البلاد ، هذه الحفلات كلها كانت تنتهي بعريضة ضيوفه مع اللواتي أحيين الحفلة من الراقصات أو حتى من الخادومات ، فجميع الحضور ينتهي بهم الأمر سكارى يرقصون و يهرجون لرفاة لنيل رضاه ، ثم يأمر رفاة لكل منهم بمن تقضي معه الليلة ، في الصباح كان يوزع عليهم مستحقاتهم و الأوامر الجديدة و توجيهاته لأعمالهم.

لم يسمح رفاة أبدا لأحد الحاضرين في هذه الحفلات بالتناول عليه ، و لقد أمر حرسه مرارا بضرب و إهانة و أحيانا قتل من يسيء إليه بكلمة واحدة ، حتى و لو كان هذا المخطئ سكرانا ، لهذا كان الكثيرون يتظاهرون بالسكر في هذه الحفلات لإرضاء غرور رفاة بينما تمر الليلة بسلام.

من مواهب رفاة أيضا اختراعاته الكثيرة لإكرام ضيوفه من أعضاء شبكات التهريب الكبار ، فبعض هؤلاء من كبار السن و هم غير قادرين على ممارسة الجنس ، صنع رفاة هؤلاء فندقا كبيرا في العاصمة بني على عجل ، في قبو هذا الفندق أمر رفاة ببناء مسبح من الزجاج ، و تحت هذا المسبح أمر ببناء صالة كبيرة فيها كراسي وثيرة و طاولات للأكل و الشرب ، كان ضيوف رفاة من أبناء سن اليأس يجلسون للسمر في هذه القاعة ، ثم تطفأ الأنوار فيها كصالة السينما ، و يضاء المسبح بطريقة فنية ، ثم تنزل إلى المسبح فتيات عاريات يسبحن و يؤديين حركات إغراء ، بينما الضيوف يتفرجون عليهن من خلال الزجاج ، لقد أعجب هذا الابتكار الكثير من أمراء الأسر الملكية الحاكمة في الدول العربية و الأوروبية و صار منتشرا في قصورهم و صار يعرف بـ "سينما رفاة".

عمل رفاة لم يقتصر على شبكات التهريب في بلادنا بالنظر إلى الشعبية الكبيرة و الهيبة التي يتمتع بها عند أتباع الديانة السرية ، و لقد اعتمد البارون كثيرا على أتباع هذه الديانة في تثبيت أركان منظومة "طريق الخشخاش" أو "طريق الخشخاش". لا أبالغ إن قلت : لقد وقف الحظ إلى جانب البارون و أتباع الديانة السرية حتى أنجزوا جميعا منظومة "طريق الخشخاش" ، فالبارون ورث من والده الكثير جدا من أسهم الشركات الأوروبية التي كانت تزرع الخشخاش في كشمير و السند و تسوقه في شرق آسيا خلال القرن الثامن عشر ، لعل معظم ثروة أسرة البارون و معظم نجاحات الدول الأوروبية في السيطرة على الشرق جاءت بفضل الخشخاش ، هذه النبتة لم تكن معروفة كثيرا في الماضي كمصدر للترفيه و المتعة ، إلا أن اتباع الديانة السرية كانوا يعرفون الكثير عن ميزاتها الترفيهية ، و لقد ساهم أتباع هذه الديانة كثيرا في دخول الأوروبيين إلى الهند و أقصى شرق البلاد الإسلامية ، ثم منحوا الأوروبيين سلاحا فعالا جدا لإستمرار فتوحاتهم شرقا وصولا إلى الصين و اليابان ، هذا السلاح كان "متعة الخشخاش".

في البداية كان الخشخاش قانونيا حتى أمكن نشر الإدمان عليه في سائر المستعمرات الأوروبية في الشرق الأقصى بشكل واسع إلى أن حل محل الكحول في المرتبة الأولى للعقاقير المسكرة المستهلكة في شرق آسيا و وسطها ، ثم تم حظره لرفع سعره و ضمان استبعاد المجتمعات كلها عن طريق سلطانه ، و تحولت تجارته إلى ما يشبه الانضمام إلى أساطيل القراصنة بحثا عن الثروة ، عندما اكتشف "الهرويين" صارت تجارة الخشخاش المحظورة هي التجارة الأضخم على مستوى العالم كله ، لكن شيئا لم يتغير بالنسبة للبارون ، فجده و والده كانا من صمم قوانين مكافحة الخشخاش و مشتقاته في أوربة و مستعمراتها ، و هما اللذان ورثا كافة حقول الخشخاش و مزارع الخشخاش في كل أنحاء العالم ، و هما اللذان يوظفان أولئك المغامرين - الخارجين على القانون الحاملين بالثروة السريعة - في شبكات نقل و تهريب الخشخاش و مشتقاته.

يبدأ طريق الخشخاش من مزارعه في أواسط الهند و شمالها و بلاد الأفغان و شرق هضبة إيران و ريف بلادنا الساحلي ، و جميع أرباب هذه المزارع من أتباع الديانة السرية بمذاهبها المختلفة ، في الماضي كان هؤلاء هم أرباب هذه المزارع و العاملون فيها أيضا ، إلا أنهم اليوم يعملون فقط في إدارة المزارع و في شبكات النقل و التصنيع و التهريب ، و يستأجرون الفقراء من الناس الآخرين للعمل في زراعة الخشخاش.

ينتهي طريق الخشخاش البري في الشواطئ الشرقية و الجنوبية للبحر المتوسط ، هناك يبدأ القسم البحري من هذا الطريق. في أوائل عهد هرثة كانت منتجات الخشخاش تحمّل في سفن مجهولة الهوية من موانئ سرية بنيت على سواحلنا ، ثم تستلم سفن أخرى هذه المنتجات و توصلها إلى البر الأوربي و الأمريكي ، جميع هذه السفن المجهولة و بحارتها و مالكوها كانوا من أتباع الديانة السرية ، في الموانئ الأوربية كان المغامرون و الموظفون الحكوميون الأوربيون العاملون في منظومة البارون الأوربية هم من يستلم شحنات المورفين ، ثم يسلمونها ثانية للمهاجرين من أتباع الديانة السرية ، ليوزعها هؤلاء في شوارع أوربة و حاناتها و مواخيرها و حتى في سجونها و مستشفياتها.

بنظرة سريعة نجد أن جميع أتباع هذه الديانة تقريبا يعملون في شبكات نقل و تصنيع الخشخاش التابعة للبارون و أسرته ، و هذا بالطبع جيش سري كبير جدا ، للحفاظ على انضباط هذا الجيش تم توزيع عناصره إلى ثلاثة أصناف ، الصنف الأول هم قادة عشائر و أسر أتباع الديانة السرية ، و هم الذين يصدرون الأوامر لصغار رعيتهم ، و الصنف الثاني و هم رجال الدين من أتباع هذه الديانة ، و مهمتهم تغذية عقول قادة و عامة رعيتهم بالكثير جدا من الحقد الشديد على الإسلام و المسلمين بل و على البشر أجمعين من خلال تكرار أساطير كثيرة و قصصا متوارثة عن اضطهاد المسلمين لهم في الماضي ، و يقومون أيضا بتغذية هذه العقول بالكثير جدا من الأمل بالخلاص الموعود على يد إمامهم المخلص المزعوم الذي ينتظرونه منذ قرون دون جدوى ، المخلص الذي سيحول الأرض بزعمهم إلى جنة الخلد ، و سيعيد لهم كل أمواتهم إلى الحياة ، و سيقتل كل أتباع الديانات الأخرى عدا ديانتهم ، و أخيرا تغذية نفوس هذه الرعية بالكثير من الفرح بما تحققه لهم سيطرة الأوربيين و

منظومات زراعة الخشخاش من فرص للعيش الرغيد و فرص للانتقام على مدار الساعة من أعدائهم المسلمين بكافة صنوف الإذلال و القتل و الابتزاز و التعذيب بأنواعه من خلال سيطرتهم على الجيش و الشرطة و القضاء و السجون و المخابرات و الصحة و دوائر التفتيش و الرقابة .. إلخ .

على رأس هذا الجيش يتربع رفاعه ، فهو الرجل الذي يعرف جيدا كيف يجند جميع أتباع ديانتته في منظوماتنا المختلفة ، و يعرف أيضا كيف يؤدب من يعصيه من أتباع ديانتته ، هو يعرف جيدا كيف يسلط بعضهم على بعض و يبيقهم دوما في حالة من التنافس و العدواة و الخصومات ، فهم جميعا يختصمون عنده بسبب مشاكل بينهم اختلقها لهم رفاعه نفسه دون أن يعرفوا ، و هو نفسه من يفصل فيها بقسوة بالغة على البعض ليؤدب بهم الآخرين ، لقد اخترع لهم الكثير جدا من العقوبات الرهيبة بداية من الإغتصاب أمام ذويهم مروراً بقطع أعضائهم (خاصة التناسلية) و انتهاء بإطعامهم للوحوش أو طبخهم في الأفران و هم أحياء ، ناهيك عن إبادة أسر بكاملها منهم إن ظن مجرد ظن بأن تمردا ما قد يقع من بعض أبناء هذه الأسر ! بصدق أقول لقد ألهمت مخترعات رفاعه مخيلة مؤلفي أفلام الرعب و أفلام العصابات الهوليوودية فاقتبسوا منها الكثير .

جدير بالرواية أن زعماء عشيرة من الكورد من أتباع ديانة رفاعه تمردوا جميعا على إرادته في فترة متزامنة مع اجتياح المدينة الثائرة ، طلب رفاعه من البارون الإذن في معاقبتهم فأذن له البارون بسرور ، فما كان من رفاعه إلا أن أرسل بالتعاون مع قوات كسار لواء كاملا من الحرس الرئاسي فجمعوا سبعة آلاف من الرجال و النساء و الكبار و الصغار من هذه العشيرة ، ثم وضعوهم جميعا مقيدون في أكياس ، كل شخص في كيس من القنب و حملوهم فوق بعضهم كالبضاعة في شاحنات كثيرة مخصصة لنقل الحصى و الرمل ، كانت قد صودرت مع سائقيها مؤقتا لتنفيذ هذه المهمة القومية العظيمة ، ثم أفرغت حمولة الشاحنة في واد قريب من أحد الأنهار الكبرى في البلاد ، و بعد ذلك فُجرت فوق هؤلاء قنابل من غاز سام ، و أجهز على الباقي بالرشاشات ، ثم أهيل التراب عليهم جميعا و بسماكة كبيرة ثم صُبت فوقهم حمولات من الحجارة الثقيلة الضخمة ، ثم حول مجرى النهر ليمر فوقهم إلى الأبد في احتفال رسمي و شعبي ، ذلك أنهم دفنوا في حوض سد كبير ، و صاروا في قعر بحيرة هذا السد ، الذي انتهى بناؤه منذ وقت قريب من هذه العملية العقابية الضخمة جدا .

هذه العملية أغضبت البارون جيمس جدا على رفاعه إلى درجة أنه أطلق عليه النار في قدمه و أحرق دبره و عضده بسيخ المدفأة الحمى أثناء لقاء جمعنا في قصر رفاعه على شاطئ بلادنا الشمالي .

سبب غضب البارون كانت التقارير التي جاءتته من زعماء هذه الديانة ، فلقد أجمعت كلها على التعبير عن الغضب الشديد على رفاعه و على ما صنعه .

على أثر هذا الحادث العرضي و لمنع المشكلة من التفاقم قررت أن أنقل رفاة إلى أوربة ، و عرضت الفكرة على البارون فوافق بشرط أن لا يؤثر هذا على مهمات رفاة في ضبط أتباع ديانتته في منظومة الخشخاش .

فرح رفاة كثيرا بهذا القرار ، فلقد كان الدافع الرئيسي لما قام به ضد تلك العشيرة المتمردة هو رجاءه بأن يكون أوثق و أقرب للبارون من ذي قبل حتى يتجرأ و يطلب منه النقل إلى أوربة.

أيضا كان قرار نقل رفاة بناء على إلحاح كبير منه ، فلقد كان شديد القلق من انتقام أسر ضحايا عمليات اجتياح المدينة الثائرة و إخماد تمرد السجن الحربي.

مع نقل رفاة قرر البارون تغيير أسلوب نقل الخشخاش من شواطئنا إلى البر الأوربي ، فافتتحت في مناطقنا الساحلية و خلال عام واحد مصانع كثيرة لتعليب الخضار و الفاكهة و المخللات بأنواعها ، هذه المصانع كانت كلها مملوكة لهرثة و أقارب زوجته و لرفاة و أقارب زوجاته ، طبعا كان لأخوالي حصة كبيرة من هذه المصانع ، راحت هذه المصانع تصدّر جميع منتجاتها إلى أوربة على متن خط بحري ضخيم تعمل فيه عشرات السفن الضخمة ، لهذه الغاية تم توسيع جميع مرافئنا الوطنية خلال فترة قياسية لتستوعب هذا الخط البحري الكبير .

هذه المنتجات هي الوعاء الذي وضعت فيه كل شحنات الخشخاش القادمة من الشرق إلى أوربة.

تولى رفاة و عدد من شركائه من العرب غير المسلمين استقبال هذه الصادرات في أوربة ، و من ثم استخلاص منتجات الخشخاش منها ثم تسليمها لشبكات التوزيع ، بهذا تبقى لدى رفاة و شركائه الخضار المعلبة و بقية المعلبات مجانا تقريبا ، و لقد قام الشركاء ببيع الخضار و المعلبات بأسعار منافسة لضمان استمرار تسويقها و الحاجة لإستيرادها بشكل طبيعي.

تمكن رفاة و شركائه بسبب قدرتهم على تخفيض أسعار المعلبات الشرقية من ضرب كل أولئك الطامحين من المغتربين المسلمين الذين حاولوا نقل الأطعمة الشرقية الجاهزة إلى أوربة و الإتجار بها بشكل مستقل ، و صار على كل مغترب مسلم يحاول التجارة بالبضائع و الأطعمة الشرقية أن يتوجه إلى مستودعات رفاة و شركاه لشراء هذه البضائع بدل أن يسافروا لاستيرادها من بلادنا ، ذلك أن مستودعات رفاة و شركاه تبيع هذه البضائع بأسعار هي أرخص من أسعارها في بلاد المنشأ !!.

مهمات رفاة لم تكن تنحصر في منظومة الخشخاش ، لقد عمل في مهمة أكبر بكثير و أتم إنجازها تماما في نهاية خدمته داخل البلاد ، ففي أول عهد هرثة حضر البارون جيمس إلى عاصمتنا و معه فريق من الخبراء و عقدنا لقاء هاما جدا في قصر والدي على الساحل ، لم يحضر اللقاء من أصحاب السلطة في بلادنا إلا ثلاثة : أنا و خالي الأصغر و هو أغني أخوالي ، و أخي الطبيب أبو العلا.

كان لقاء سريا جدا و استمر لعدة أيام استمعنا فيه لمداخلات من مرافقي البارون ، المداخلة الأولى ألقاها البروفسور آلان ، كان رجلا هادئا جدا و بطيء الكلام و كأنه صخرة تتكلم ، قال : تعرفون أن بنك أمريكا قد قرر التوقف عن تحديد قيمة الدولار قياسا على الذهب ، بهذا صارت العملات في العالم كله مجرد أوراق يحدد قيمتها بضعة رجال من المتحكمين ببورصة الأوراق المالية في نيويورك لا يزيدون عن أربعة أشخاص ، هذه الخطوة الأمريكية استهدفت منع عودة عقارب الساعة إلى الوراء ، فبعدها بات من المستحيل عمليا على أية دولة مهما كانت قوية و ثرية أن تعتمد عملة ذهبية بدل العملة الورقية ، أو أن تعتمد الذهب و المعادن الثمينة رصيذا لعملتها ، لفهم هذه الإستحالة علينا أن نقول : لو أننا توقفنا عن إصدار أي دولار و جمعنا كل الدولارات الأمريكية على وجه الأرض في مبنى واحد و قمنا بعدّها ، ثم أحرقنا جميع النقود الأخرى سوى الدولار ، ثم جمعنا كل الذهب في العالم ثم وَزَنّا هذا الذهب ، ثم قسمنا عدد الدولارات التي لدينا على وزن الذهب الذي بحوزتنا سنجد أن غرام الذهب الواحد يقابل ألف دولار أمريكي على الأقل.

نظر البروفسور إلى الدهشة التي علت وجوهنا ، استمر في كلامه بابتسامة خفيفة قائلا : نعم لقد خدع جميع الناس بمزاعم الحكومات الأمريكية حول إحتياط الذهب مقابل الدولار ، لقد احتجنا لقرن كامل من التعتيم و الكفاح حتى استطعنا إقصاء الذهب نهائيا عن سوق العملات ، و لقد حولناه إلى مجرد سلعة معدنية تخضع لقانون العرض و الطلب لتحديد سعرها و فرضنا عليها سعرا هو أقل من خمسة بالمائة من سعرها الحقيقي ، الذي يريد أن يستعمل الذهب كعملة أو كرصيد ثابت لعملته سيكون عليه أن يجمع أضعاف كمية الذهب الموجودة في العالم ليغطي إحتياجات بلد صغير كبلدكم للعملة لمدة عام واحد على الأكثر.

قلت : ما الهدف من إخراج الذهب من سوق العملات ؟

قال : كان الذهب عملة عالمية موحدة لكل البشرية ، و الأمة التي تملك الكثير من الذهب هي الأمة القادرة على تجييش الجيوش و قهر الأمم و احتلال الأراضي و تكوين الإمبراطوريات ، ببساطة كان ممكنا لأية جهة قادرة على جمع الذهب بواسطة التجارة أو الصناعة المتقدمة أن تتحول إلى قوة عظمى و تفرض قرارها و قوتها على غيرها و تصير مستقلة عن سلطتنا و تعرقل تنفيذ خطتنا العالمية لأرض المستقبل السعيدة.

اتكأ الرجل على مسند كرسيه و احتسى من كأس النبيذ المعتق الفاخر جدا رشقات ثم قال : بعد أن أخرجنا الذهب من سوق العملات لم يعد ممكنا لأية دولة أن تنجح في الإستقلال بقراراتها بعيدا عن التنسيق معنا ، مهما بلغت قوتها العلمية و الصناعية و الإقتصادية ، إذ أن إخراج عملتها من سوق العملات هو كل ما علينا أن نفعله لمعاقبته حتى تركع أمامنا طالبة الصفح ، الآن كل دولة على وجه الأرض لها كميات ضخمة من عملتها في أسواق الأموال المالية ، مصارف هذه الدول المركزية أصدرت مقابل كل دولار أمريكي دخل إلى خزينتها عددا محددًا من وحدات عملتها الخاصة ، و كانت هذه المصارف

تتلف من مخزونها من عملتها الوطنية نفس عدد الوحدات النقدية مقابل كل دولار تنفقه ، لكنهم اليوم عندما ينفقون هذا الدولار لا يتلفون مقابله نفس العدد من وحداتهم النقدية ، لأننا أخرجنا الذهب من سوق الأوراق النقدية ، فقط سنوعز للمشتريين الكبار أن يمتنعوا عن شراء عملة البلد الذي نريد معاقبته ، ستهدب قيمة هذه العملة حتى تصير في نقطة أقرب من الصفر خلال أيام ، ثم و بعد فترة سيكون مستحيلا على تجار هذه الدولة أن يستوردوا شيئا من خارج بلادهم ، فعملتهم لم يعد ممكنا استبدالها بعملة أوروبية أو بدولارات أمريكية كافية ليشتروا نفس كمية البضاعة التي باعوها بعملتهم الوطنية قبل أن نعاقبهم ، و قد تصير ملايينهم من عملتهم لا تساوي مئات الدولارات.

قلت : لماذا إذا لا تزال مصارف أوروبية و أمريكا تخزين الذهب ؟.

ضحك البروفسور آلان من سؤالي ضحكة خبث ، نظر إلي و قال بحزم : سيأتي قريبا اليوم الذي نلغي فيه كل العملات الورقية في العالم و ننهي هذه الفوضى ، سنستبدلها بعملة عالمية موحدة.

قلت : هل ستكون عملة ذهبية ؟ هذا مستحيل كما قلت لنا منذ قليل لأن احتياجات الناس للنقد أضخم بكثير من كمية الذهب في العالم !!.

قال البروفسور : لا طبعا و لكن العملة العالمية الجديدة سيكون من الممكن أن تستبدلها بالذهب في أي وقت ، سيكون رصيدها الذهب و سيكون سعر الذهب مقابل هذه العملة ثابتا تماما مثل ثبات عدد ساعات اليوم و الليلة ، و لن نسمح حين صدورها بأن يسمم إقتصاد العالم أي قرش لا رصيد له و ليست له قيمة حقيقية ، لهذا تقوم مصارفنا بجمع الذهب و تخزينه.

وجه خالي مدحت بك للبروفسور سؤالا ذكيا : هل وضعتم آلية لسد عجز الميزانيات بعد أن تصدروا العملة الموحدة ، غير إصدار عملات رصيدها الديون ؟.

قال البروفسور : بالطبع سد عجز الميزانيات وقتها سيكون بإلغاء الميزانيات العامة كلها من أساسها ، و الإنفاق الحكومي سيكون محدد فقط بما تمت جبايته من الضرائب كما كان الحال دوما على مر التاريخ قبل أن يصل أقارب البارون العظماء إلى مناصب المستشارين الإقتصاديين لممالك أوروبية ذات يوم ، منذ قرنين .

قلت مقاطعا : ما هو دور بلادنا في هذا كله ؟.

صمت البروفسور آلان و تولى الرد على سؤالي البروفسور ويليام ، هو رجل كبير في السن و متخصص في التاريخ ، قال ويليام : إن عمر صناعة الذهب أكثر من عشرة آلاف سنة ، و لقد تركزت قديما في منطقة حوض البحر المتوسط ، استعمل

الذهب كعملة مسكوكة لأول مرة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كان الشرق الأوسط هو مكان صدور هذه العملة ، تماثيل الذهب و منحوتاته و خيوطه كانت تصنع في الشرق الأوسط دوما منذ سبعة آلاف سنة ، الذهب كله كان مركزه على مر أكثر من خمسة آلاف سنة في الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى أن ثلثي عواصم العالم التجارية منذ ألف و خمسمائة عام كانت في الشرق الأوسط.

قلت : مناجم الذهب الكبرى في العالم الجديد و في أفريقيا و ليست في الشرق الأوسط !.

قال البروفسور ضاحكا : البشر يستخرجون الذهب بنفس الوتيرة و بنفس الطرق تقريبا منذ ثلاثة آلاف عام و كان كله يتجمع خلال هذه القرون هنا على أرض بلادكم ، إن أكبر منجم للذهب في العالم موجود بين بيوتكم و تحت تلال أرضكم الترابية ، يا عزيزي البنوك لم تكن أبدا موجودة في بلادكم ، و مدخرات الناس من الذهب كانت كلها تحبأ في دفائن هنا و هناك ، غالبا كان الناس الذين دفنوا الذهب يموتون دون أن يجدوا فرصة لإبلاغ ورثتهم عن مكان دفائنهم ، لقد عاش على أرضكم خلال هذه الفترة مليارات من الناس كلهم عملوا و ادخروا ، تخيل يا عزيزي حجم الدفائن الموجودة في بلادكم العربية كلها و في بلادكم أنتم خاصة.

نظرت أنا و خالي إلى بعضنا باندھاش و ذهول ، لم أشعر إلا و أنا أقول للبروفسور ويليام : هل المطلوب منا التنقيب عن هذا الذهب في كل البلاد ؟.

ضحك البارون و جميع مرافقيه من سؤالي ، ثم قال لي ضاحكا : كولونيل مهران ، هل تظن أننا جئنا لنحكم عليك بالأشغال الشاقة المؤبدة ، و أن عليك أن تحمل فأسك و مسحاتك و تحفر ملايين الأمتار المربعة ، لا تخف لم نأت لهذا !!.

قال البروفسور ويليام : شعبكم و فلاحوكم كانوا دوما يكتشفون كنوز الذهب في أرضكم ، لكنهم كانوا يستخرجونه من مكان ليعود أثرياء آخرون من نفس بلادكم لدفن هذه الكنوز في مكان آخر ، توجد في بلادكم آلاف أو ربما عشرات آلاف المدن و القرى المطمورة ، كلها تحتوي على دفائن الذهب و المجوهرات ، هذه المدن ترقد اليوم تحت آلاف من التلال الترابية الموزعة في كل بلادكم ، و لا يزال فلاحوكم يكتشفون منها كنوزا ضخمة ، لكنهم لا يزالون يخبئونها على هيئة كنوز بنفس طريقة الغابرين.

قلت : ما هو المطلوب ؟.

عرض علينا البارون و البروفسور آلان خططهم الجديدة القديمة لجمع الذهب و المجوهرات من البلاد ، و وقع اختيارنا على رفاعة لتنفيذها ، و اتفقنا على إحالته إلى التقاعد دون اختفاء بعد أن ينهي المهمة التي استمر تنفيذها مدة عقد و نصف تقريبا.

بعد اللقاء استدعيت رفاة إلى مكثي و أخبرته بتفاصيل المهمة ، و أطلعتة على مكافأته إن أنهاها بنجاح ، فرحب بذلك كثيرا ، لكنه بقي يلح طوال أعوام تنفيذ المهمة طالبا إحالته إلى أوربة ، حتى تم له ما أراد بعد أن عاقب تلك العشيرة الكوردية المتمردة بدفنها في قعر بحيرة سد كبير .

أصدرت حكومة هرثة بعد اجتماعنا العتيد هذا قانونا يقضي باستملاك كل موقع أثري في البلاد و بأن جميع الكنوز و المكتشفات الأثرية تعود ملكيتها حصريا للدولة ، و تضمن القانون عقوبات قاسية على الذين يمتنعون عن تسليم الآثار التي بحوزتهم للحكومة .

تحت غطاء هذا القانون أسسنا مديرية وطنية للآثار تتبع للحكومة ، هذه المديرية تعاقدت مع عشرات فرق خبراء التنقيب عن الآثار في أوربة ، كل هذه الفرق تعمل لدى البارون جيمس .

كانت مهمة رفاة ذات تشعبات كثيرة ، فلقد تولت فرقته العسكرية إغلاق كافة المواقع و التلال التي ينقب فيها خبراء الآثار ، و بعد أن تكتشف الآثار كانت فرقته تؤمن تفريغ الموقع المكتشف من كل ثمين خفيف الوزن ، بعد هذا كانت قوات رفاة تؤمن وصول هذه المكتشفات إلى الموانئ ، ثم شحنها بأمان إلى مستودعات البارون في أوربة.

لم يكن البارون يدفع لرفاعة و جنوده حصتهم بالعملة الأوربية ، و إنما بعملات وطنية و عربية غير مزيفة مطبوعة بغير علم البنوك المركزية العربية ، كان على رفاة و جماعته أن يبدلوا حصصهم إلى عملات أوربية أو أمريكية ، يشترونها من أسواق البلاد العربية ليتسنى لهم تخزينها لاحقا في حساباتهم في مصارف أوربة.

عبر شبكات التهريب و منظومات الخشخاش استطاع رفاة أن يؤسس شبكات أخرى مهمتها الإتصال بأهل الأرياف و إقناعهم ببيع ما بحوزتهم من مكتشفاتهم الأثرية ، و تشجيعهم على التنقيب سرا عن المزيد ، بالفعل خلال العقد الأول من عهد هرثة نشطت أعمال التنقيب عن الآثار في كافة أرجاء البلاد و ما حولها ، اشترى هرثة كميات كبيرة جدا من الذهب الأثري المكتشف مقابل عملة وطنية و عملات عربية أخرى ، و كان ينقل جميع هذا الذهب إلى أوربة و بأمانة تامة و يحصل على أجوره بالعملات العربية.

بسبب هذه المهمة و غيرها من أنشطة التهريب كانت العملة الوطنية و غيرها من العملات العربية تهبط بشكل طفيف و لكنه متواصل ، في كل يوم كانت هذه العملات تفقد شيئا من قيمتها مقابل البضائع و الخدمات ، في كل يوم كانت ترتفع أسعار السلع و الخدمات بنسب ضئيلة غير محسوسة في بلادنا .

بعد وصول المحصول إلى أوربة تصنف المكتشفات في مستودعات البارون ، فيعزل الذهب و يرسل إلى خزائن البنوك في سويسرا ، أما بقية الآثار فكانت ترسل إلى المزادات العلنية لتباع بأسعار خيالية يدفعها أثرياء أوربة بكل سرور ، قيمة هذه

الآثار كانت تحددها مقالات المجلات الباحثة في الآثار ، هذه المجلات يملكها البارون ، وكتاب هذه المقالات من فريق البارون الخاص.

المرحلة الأخيرة من المهمة كانت أشبه بحكاية مضحكة جدا ، فلقد أرسل البارون إلى رفاة عدة حاويات من عملتنا الوطنية من فئة نقدية جديدة و كبيرة نقلت كلها إلى المصرف المركزي الوطني و أودعت في حساب "الحرس الرئاسي" ، في أثناء ذلك في عاصمتنا كان عدد من الصاغة من غير المسلمين (أقارب البارون) يعلقون على واجهات حوانيتهم لوحات صغيرة مكتوب عليها : نشترى الذهب المستعمل بسعر مرتفع .

راح هؤلاء الصاغة في البداية يشترون الذهب المستعمل بسعر يزيد بنسبة عشرة في المائة على سعره المعتاد و بنقود من فئات معتادة ، في الشهر التالي أمر رفاة بصرف رواتب جميع موظفي الجيش و الحكومة بالفئة الجديدة للعملة ، كان الناس يتداولون النقود الجديدة بخوف بالغ خشية أن تكون غير ذات قيمة ، لتجاوز هذا الخوف أوعز رفاة للمهربين بقبول العملة الجديدة دون أي نقص في قيمتها ، هذا طمأن الناس إلى أن نقودهم الجديدة معترف بها في أسواق العالم.

بعد أسابيع من صرف الرواتب راح الصاغة آنفوا الذكر يدفعون ثمن مشترياتهم فقط بالفئة النقدية الجديدة و رفعوا ثمن مشترياتهم من الذهب إلى ضعف الثمن المعتاد ، فرحف الناس إلى العاصمة بذهبهم لبييعوه لأصدقاء رفاة ، و للتخفيف عن هؤلاء الصاغة اشترك كل الصاغة في البلاد في عميلة شراء الذهب هذه و كانوا يدفعون للناس أسعارا أقل بقليل من أسعار أصدقاء رفاة ، ثم ينقلون الذهب إلى العاصمة بالشاحنات أحيانا لبييعوه إلى أصدقاء رفاة بأكداس من العملة الوطنية الجديدة ! .

بعد ثلاثة أشهر جمع رفاة و أصدقاؤه الصاغة تلاً كبيراً من الذهب ، نقل هذا الذهب كله إلى أوربة إلى مستودعات البارون ، ثم اختفى هؤلاء الصاغة لأنهم هاجروا إلى أمريكا سرا.

بعد ستة أشهر من إنهاء رفاة لمهمته هذه سریت مخبراتها معلومات مفادها أن رفاة حاول أن يقوم بانقلاب على أخيه ، و لقد فشل الانقلاب و نفي رفاة و كبار معاونيه إلى أوربة ، بعد أيام أعلن تلفزيون الحكومة عن عزل رفاة من قيادة الحرس الرئاسي و تعيينه في منصب سياسي كبير .

هذه الأخبار تسببت في دعر بين تجار البلاد فراحوا يشترون بنقود رفاة الكثير من العملات الأوربية بشكل سبب ضغطا كبيرا جدا على قيمة العملة الوطنية فهبط سعرها إلى خمس قيمتها في أول ذلك العام و اضطر البارون إلى التدخل لتثبيت سعر عملتنا لمنعها من الإختيار إلا أنها استقرت على مستوى منخفض جدا يعادل أقل من عشر قيمتها يوم تسلم هرثمة السلطة.

هذه الأخبار تسببت أيضا في انقسام تام بين أتباع الديانة السرية ، فصار قسم منهم يؤمن بأن رفاة هو الإله المتجسد في صورة إنسان ، و القسم الثاني صار يؤمن بأن هرثمة هو الإله المتجسد ، و صار لكل من الأخوين كهنة يصلون باسمهم من كهنة الديانة السرية.

انتقل رفاة إلى أوربة ليتمتع بتقاعد أسطوري حقا فلقد جنى من ترويجه للفئة الجديدة من عملتنا ثروة ضخمة ، تقاعد رفاة في فندق فخم ضخم اشتراه لسكنه على شاطئ المتوسط ، و راح يمارس هواياته النسائية بنهم متوحش ، لكنه لم يتوقف مع ذلك عن إدارة و ضبط أعضاء شبكات التهريب من أتباع طائفته.

تولى تمثيل رفاة و متابعة القيام بمهامه في البلاد ابنه الأكبر و الإبن الأكبر لشقيقه هرثمة.

بالطبع كانت حصتي و حصة أخوالي من أرباح مهمات رفاة هي الحصة الأكبر بعد حصة البارون إلا أن هذا لا يعني أن حصة أسرتي رفاة و أخوه هرثمة كانت ضئيلة فلقد رفعتهم هذه الحصص إلى مراتب الأثرياء الكبار في العالم.

الأسرة الثانية في ترتيب الأسر الحاكمة بعد أسرة هرثمة هي : أسرة العميد فائق.

في بداية عهد هرثمة اختير العميد فائق ليتسلم رئاسة مخابرات البلاد ، ثم و بعد عدة أعوام تسلم فائق رئاسة مخابرات الجيش بالإضافة لرئاسة المخابرات ، في الواقع لم يكن هذا الرجل أبدا من رجال المخابرات و لم يعمل طوال فترة رئاسته للمخابرات رئيسا للمخابرات ، السبب هو أن هذا المنصب كان دوما مرتبطا بالبريغادير فيليب و بقيت مسؤولية المخابرات بالقسم العربي كلها بيد "الرفيق ريمون" ، لم يبقى ريمون عسكريا و تقاعد من سلك الجيش رسميا عند تسلم هرثمة للسلطة ، و ذلك بسبب مقتضيات النظام الجديد ، تسلم ريمون منصب مساعد الأمين العام في حزب قاع الحزب الحاكم في البلاد ، مكتب ريمون في مقر الحزب في العاصمة كان مقر إدارة المخابرات الجديد في كل البلاد ، منصب الأمين العام لحزب قاع كان مخصصا صوريا لهرثمة ، الحزب كله أصلا كما أسلفت سابقا حزب صوري و ليس حزبا حاكما و لا من يجزئون ، هو مجرد تشكيل مخبراتي بحت هدفه تجنيد الناس جميعا في منظوماتنا ، منظومة الرشاوى ، منظومة التهريب ، منظومة الخشخاش ، وصولا إلى منظومة تجارة رقيق التجارب ؛ هذه المنظومة الأخيرة تولى العميد فائق القيام بمهامها و متابعة تشكيلاتها و عناصرها و أنشطتها ، العاملون في هذه المنظومة كانوا جميعا و حصرا من أتباع الديانة السرية.

بدأ عمل هذه المنظومة في أواخر عهد الزعيم بديع ، في ذلك الحين حضر إلى البلاد وفد أرسله البارون جيمس ، كان الوفد برئاسة البروفسور ألبرت ، عقد ألبرت و وفده عدة اجتماعات مع شقيقي أبو العلا و مع ابن خالي الدكتور عدنان و مع ريمون و البريغادير فيليب و عدد آخر من المستشارين الأوروبيين المقيمين في بلادنا ، مهمة ألبرت كانت تنحصر في موضوع واحد : التجارب العلمية على عينات من البشر ، في أحد اللقاءات شرح لنا ألبرت مهمته قائلا :

لقد حققنا في أوربة فتوحات كبيرة على الصعيد الكيميائي العضوي (كيمياء الأجسام الحية) ، هذه الفتوحات كلها ما كانت لتحصل لولا الحروب و التوسع العسكري في بلاد العالم ، فالحروب أتاحت لعلمائنا الفرصة لإجراء مئات آلاف التجارب على أجساد بشرية حية ، لم يكن هذا ممكنا في الماضي بسبب الحرمان الديني على استخدام الأجساد البشرية في التجارب العلمية ، و بسبب قوانين حماية الأسرى ، لقد استطعنا بالإضافة إلى تجارب التشريح لملايين الجثث البشرية أن نجري تجارب لآلاف المركبات الكيميائية ، على مئات الألوف من الناس الأحياء ، هذه التجارب أتاحت لنا تطوير آلاف الأنواع من العقاقير و المركبات و المضادات و اللقاحات و حتى الجراثيم و الفيروسات و المكروبات ، بفضل هذه العقاقير قهرنا مئات الأمراض و استطعنا أن نوجد مئات الأمراض أيضا ، و بفضل هذه العقاقير زدنا من متوسط أعمار البشر ، و بفضلها طورنا مئات الأنواع من الأسلحة و مئات الأنواع من المعدات الوقائية للجنود و المدنيين.

و لكن لم يعد ممكنا في أوربة و أمريكا إجراء تجارب على عينات من البشر في هذا الوقت ، السبب هو انكماش النمو في السكان بسبب قلة الإنجاب ، و شمول التسجيل لكل السكان ، و تغير القوانين في البلاد الغربية و منعها لهذه الأنشطة ، هذا في الواقع أثر كثيرا على مسار نمو المعلومات في مجال كيمياء الأجسام الحية ، و في مجال تأثير المبتكرات الحديثة على الأجسام الحية.

في بلادكم لا تزال الفرصة متاحة لهذا النوع من التجارب ، الإنجاب لديكم كثير ، السجلات السكانية لا تأثير لها و غير منضبطة و لا تشمل كل السكان ، القوانين عندكم لا قيمة لها ، و قوانين أوربة و أمريكا لا تسري علينا هنا ، إذاً نستطيع إكمال ما بدأناه في أوربة و آسيا في بلادكم .

وجه ابن خالي الدكتور عدنان للبروفسور ألبرت سؤالاً هو : ما هي الفائدة المادية التي سنجندها من مساعدتكم على إجراء التجارب على عينات بشرية في بلادنا ؟.

قال البروفسور ألبرت : في أوربة و أمريكا توجد آلاف الشركات التي تطور مختلف أنواع الأبحاث ، يتقدم أحد العلماء إلى الشركة بمشروع اختراع ما ، إذا قبلت الشركة هذا المشروع ستبحث في الأرباح المحتملة للإختراع ، ثم ستخصص ميزانية للتكلفة ، هذه الميزانية عادة ضخمة و تشمل تكاليف إجراء التجارب ، هذه التكاليف تزيد عادة عن نصف تكاليف المشروع برمته ، حصتكم ستكون بحسب كل تجربة و كل عينة و لكل شيء ثمنه ، و ستقبضون في سويسرا و بدون مشاكل ، عليكم ألا تنسوا أنكم تعملون مع البارون و معظم هذه المشاريع تتبع لشركاته ، هو رجل لا يبخل العاملين معه حقوقهم ، أليس كذلك؟.

بدأ تنفيذ المشروع بإنشاء مستشفى عسكري كبير في العاصمة ، هذا المستشفى كان مكونا عن عشرين طابقا كبيرا ، نصف هذه الطوابق كان تحت الأرض ، قسمت المستشفى إلى أربعة أرباع ، ربع واحد منها تولى علاج المرضى من العسكريين و ثلاثة أرباعه الباقية كانت مخبرا مخصصا لمؤسسة البروفسور ألبرت و لاستقبال العينات البشرية التي كان العميد فائق مسؤولا عن توريدها لتجارب فرق الخبراء التي كان يستضيفها البروفسور في مخبره.

في كل قسم من المشفى كان يوجد مكتب مخفي خاص للمراقبة يطل فورا على قسم الإسعاف ، هذا المكتب كان يداوم فيه خبراء يعملون في المشاريع التي تستضيفها المستشفى ، مهمة هؤلاء الخبراء اختيار ما يناسبهم من الواصلين إلى قسم الإسعاف ليتم نقلهم إلى الأقسام المخصصة لمخابر البروفسور ألبرت.

بدأت توريدات فائق إلى المستشفى مع بداية القلاقل التي تلت اغتيال القاضي فاضل ، فالكثير من الجنود المصابين في تلك المصادمات كانوا يصلون إلى المشفى العسكري الجديد ، فإن وقع اختيار الخبراء على بعض هؤلاء الجنود كانوا ينقلون من ممرات سرية إلى قسم المخابر ، يصدر أطباء المشفى شهادات وفاة هؤلاء الجنود ، ثم توضع جثث مجهولة الهوية أو قطع من جثث أو حتى بعض الحجارة في تواييت ، تسلم هذه التواييت مختومة إلى قسم الجنازات العسكرية ، ضباط هذا القسم يتولون إخبار أهالي الجنود (القتلى الإفتراضيين) و ترتيب جنازات و دفع بعض التعويضات هؤلاء الأهالي ، ثم تدفن التواييت دون فتحها في مقابر خاصة بالعسكريين ضمن مراسم جنازية عسكرية مهيبه و تمنح هذه التواييت ألقاب الشهداء الأبطال و أوسمة البطولة و الوفاء.

هؤلاء الجنود كانوا يجلسون في أقبية المشفى في غرف خاصة منفردة ، ثم تجرى عليهم عشرات التجارب ، عند نهاية التجارب يتم إتلاف هذه العينات بالحرقة و ينتهي الأمر.

العاملون في هذا المخبر كانوا جميعا من أتباع الديانة السرية ، كانوا يتقاضون أجورا خيالية على عملهم ، بالعملية الوطنية طبعاً ، لم يبيع منهم أحد أبدا بما كان يدور في المخبر لأنهم كانوا يعتقدون أن هذا المخبر مجرد مُعتقل ، لم يكونوا يعرفون شيئا عن التجارب لأن علاقتهم مع الخبراء كانت عبر مترجمين يحضرون من أوربة بصحبة فرق الخبراء الزائرة و يغادرون معهم ، رغم أن هؤلاء العاملين كانوا هم من ينقل العينات و هم من يخضعها للتجارب ، إلا أن شيئا لم يتسرب لأن هؤلاء العاملين كانوا أجهل من أن يفهموا حقيقة ما يحصل و ما يقومون بفعله ، بل لقد هلك الكثير منهم بسبب آثار تلك التجارب ، و لم يعرفوا لماذا مرضوا فجأة ثم لماذا يحتضرون ! .

الخبراء كانوا يقيمون دوماً في فندق فخيم يملكه رفاة في وسط العاصمة ، للتغطية على مهماتهم كان يُعلن بين الحين و الآخر عن زيارة وفد طبي من أوربة ، ثم يُجري بعض هؤلاء الخبراء عدداً من العمليات العلاجية لمرضى مقربين من الدولة أو من كبار أصحاب المناصب ، و قد يلقي أحد الخبراء محاضرة في الجامعة أو في بعض المراكز "الثقافية" .

بعض فرق الخبراء كانت تقيم لأسابيع و بعضها لشهور ، و البعض كان يقيم لفترة ثم يترك العينات في أقسام المراقبة مدة أعوام يزور خلالها بعض الخبراء هذه العينات لأخذ النتائج و إجراء الفحوصات بشكل دوري و متقطع.

بعد أحداث المدينة الثائرة توسع كثيراً عمل مؤسسة البروفسور ألبرت في البلاد و بنيت عدة مخابر سرية في البلاد بالإضافة لمخبر المشفى العسكري ، و تطور كثيراً عمل منظومة العميد فائق.

جميع السجناء في تلك الفترة و قد زاد عددهم على المائة ألف خضعوا لتجارب مؤسسة البروفسور ، بعض التجارب كان جماعياً ، كتجربة عقاقير معينة في طعام السجناء أو شراهم ، بعضها أجري إفرادياً على مختارين من السجناء ، الكثير من التجارب أجري على مجموعات من السجناء في مختبرات عسكرية صحراوية لتجربة أسلحة بعينها أو مواد جرثومية أو أسلحة كيميائية أو مواد مشعة أو معدات عسكرية للحماية كالدرع و العربات العسكرية و حتى صواريخ الطائرات و القذائف الصغيرة الذكية جربت على عينات من السجناء.

كان العميد فائق هو الذي يقود المجموعات السرية من حرس السجون و الممرضين و الأطباء العاملين في المشافي العسكرية و مشافي السجون و بعض المشافي العامة ، هذه المجموعات التي كانت تنفذ عمليات الإستيلاء على العينات المختارة ثم نقلها إلى المختبرات ، كل هذه المجموعات من أتباع ديانة فائق و من أبناء عشيرته و منطقته.

السجناء الذين كانوا يُختارون ليتحولوا إلى عينات تجارب بشرية كانت تصدر عليهم أحكام غيابية بالإعدام من محاكم السجون الميدانية ، ثم تصدر لهم شهادات وفاة ، و يبلغ زملائهم السجناء بأنهم أعدموا.

من أصل مائة ألف سجين اختير أكثر من أربعين ألف عينة اختبار بشرية ، كلهم ماتوا أثناء التجارب أو بعدها ، بعضهم مات بعد تجربة واحدة و آخرون طبقت عليهم عشرات التجارب ثم ماتوا مشوهين جداً.

هؤلاء أحرقوا جميعاً في محارق ضخمة مخصصة للجثث ، أحرقت كل متعلقاتهم و أخفيت آثارهم و كأنهم لم يكونوا.

في أثناء عملية اقتحام المدينة الثائرة كانت فرق العميد فائق تجوب بشاحنات مُبرّدة تلك المناطق التي هاجمتها قوات الحرس الرئاسي ، هذه الفرق كانت مصحوبة بخبراء تابعين لمركز البروفسور ، جمعت هذه الفرق عدة آلاف من الجرحى خاصة من

النساء و الأطفال و كبار السن و عدة آلاف من الجثث خاصة جثث الأطفال و جثث النساء و العجائز ، كانت فرصة كبيرة لإجراء تجارب على عينات من هذه الفئات التي لا تتوفر كثيرا في السجون و المشافي العسكرية.

كل جثة أو عينة كان ثمنها يختلف عن الأخرى في جداول حسابات منظومتنا في أوربة ، و لكن في البلاد كان الدفع بسعر موحد للعينات كلها و بالعملة الوطنية.

مختبرات البروفسور ألبرت لم تكن تجاربها مقتصرة على السجناء ، فهناك أيضا اختبارات علمية لا بد فيها من تجارب تجرى على أعداد كبيرة جدا من البشر ، ربما ملايين البشر ، و لقد عمل العميد فائق و فريقه من أتباع الديانة السرية بجد و حرص على أن يتيسر للبروفسور كل ما يحتاجه لإجراء تجاربه الكبرى ، الفوائد المالية التي حصل عليها فائق و فريقه كانت ضخمة ، فالتجارب الجماعية ترصد لها ميزانيات كبيرة جدا في العادة .

سأروي جانبا من هذه التجارب لتتضح طبيعتها ، حتى يمكن فهم الصورة الكاملة لعمل فائق و أسرته الحاكمة ، و أثر هذا العمل على الصورة العامة للبلاد.

أكبر هذه التجارب بدأت في العام التالي لإقتحام المدينة الثائرة ، ففي بداية الصيف في تلك السنة حضر إلى البلاد فريق طبي كبير يعمل في مؤسسة كبيرة لأبحاث كيمياء الأحياء ، كانوا يحملون جدولا ضخما جدا لمشاريع أبحاث أذكر منه : تطوير عقاقير لعلاج عدد من أمراض الكبد ، و تطوير عقاقير لعلاج أمراض الكلى ، تطوير عمليات نقل الكلى ، تطوير عمليات نقل الكبد ، تطوير عمليات الفحص المخبري لأكثر من مائة مرض تتعلق بوظائف الكلى و الكبد و الغدد الملحقة بهما .

لقد كان هذا الفريق مكونا من أطباء و كيميائيين و صيادلة و فيزيائيين و حتى من خبراء في علم النفس الجماعي .

إطلاق جميع هذه الأبحاث كان بحاجة إلى عملية واحدة ، هذه العملية كانت سيطرة الفريق على مراكز تحلية مياه الشرب و مخازن هذه المياه التي تسقي مختلف أحياء المدن الكبرى في البلاد.

ترافق مع وصول هذا الفريق تركيب معملين كبيرين لإنتاج الكلور ، هذان المعملان كانا في نقاط قريبة من محطات تنقية مياه الشرب ، اعتبر الإعلام المحلي و الأوربي أن تركيب هذين المصنعين فتح صناعي كبير للحكومة ، و هلل الجميع لهما لدرجة أن الرئيس هرثمة شارك بنفسه في قص الشريط الحيري للمعملين ، الواقع أن المعملين وفرا عددا كبيرا من الوظائف ، في البداية فقط استوعب كل منهما مئات العمال و الموظفين و الكوادر الفنية.

لقد وفر هذان المعملان كل احتياجات البلاد لمادة الكلور ، و أسهما في تطوير صناعة المنظفات و الكثير من الصناعات الكيميائية ، ثم ألحقت بهما على مر السنوات اللاحقة وحدات أخرى لإنتاج غازات أخرى قابلة للإنحلال التام في الماء ، و وحدات أخرى لتخزين مادة "الفلورايد" السامة جدا و نقلها.

عقدنا اجتماعا مع هذا الفريق العلمي الرائع في قصر أخي الطبيب أبو العلا ، شرح لنا رئيس هذا الفريق البروفسور "إدوارد" لماذا تم بناء هذا المصنع ، و لماذا يحتاج فريقه إلى السيطرة على محطات تحلية مياه الشرب ، قال الرجل الهرم بهدوء و رصانة :

إن إضافة عناصر كيميائية إلى المياه لتنقيتها من البكتيريا و الجراثيم و الطفيليات الحية اختراع قديم ، هذا الاختراع بدأه الصينيون عندما اخترعوا الشاي ، معنى كلمة "شاي" في اللغة الصينية القديمة هو "مطهر الماء" ، إلا أننا في أوربة اكتشفنا خلال القرنين الماضيين طريقة تنقية الماء بالكلور ، هذه الطريقة لها فوائدها و لها أيضا مضارها ، فالكلور المنحل بالماء ينقيه من الرواسب النباتية و الجرثومية إلا أنه ينتج مركبات تنحل في الماء ، لذلك لا يستعمل الكلور لتنقية المياه في أوربة إلا بعد مراحل كثيرة من ترسيب المياه و بكميات قليلة جدا ، لأن هذه المركبات تسبب في إحداث تلف في الكبد و الكلى ، هذا التلف ليس أكيدا عند كل شخص ، إلا أنه يصيب أولئك الذين تضعف قوة هذه الأجهزة عندهم و تقل متانتها ، و هم كثيرون إلا أننا بحاجة للكثير منهم لإجراء أبحاثنا عن أمراض هذين الجهازين ، و ستسألون لماذا ؟ سأقول لكم لأتخما الجهازان الوحيدان اللذان يمكن لنا نقلهما من جسم لآخر ، طبعا مع الكثير من الصعوبات ، و لأتخما الجهازان الأكثر تضررا من شرب الكحول ، تعرفون أن الكحول مشروب عام في أوربة و أمريكا و لا يمكن التخلي عنه ، رغم أنه السبب في تلف الكلى و الأكباد.

حتى نحصل على بضعة ألوف من أولئك الذي يحملون كلى و أكباد ضعيفة لنجري عليهم تجاربنا لا بد لنا من أن نسقي ملايين الناس موادا مضررة بالكبد و الكلى ، هذا لا يتيسر إلا من محطات تحلية المياه.

قال أخي الطبيب أبو العلا للبروفسور : هذا يعني أنكم ستبنون مخابر لفحص و معالجة هؤلاء الآلاف و ستكون على هيئة مشاف تخصصية ، أليس كذلك ؟.

قال البروفسور : نعم لقد خصصت مؤسستنا عشرات الملايين من الدولارات الأمريكية لبناء هذه المختبرات و لدينا توجيهات من البارون ، هذه التوجيهات تقضي بأن تشرف أنت يا دكتور على بناء هذه المختبرات في المشافي الخاصة التي تملكها أسرتك ، بالنظر لسرية المشروع برمته ، أهنتك على ثقة البارون جيمس.

قال أبو العلا : شكرا لك و للبارون ، إذا المشروع سيشمل أيضا تطوير أدوية لعلاج أمراض الكبد و الكلى ، أليس كذلك ؟.

قال البروفسور : طبعا ستتم تجربة أكثر من مائة نوع من العقاقير المتعلقة بهذه الأمراض ، و أيضا ستتم جراحات كثيرة جدا ضمن هذا المشروع الضخم جدا و الهام جدا لمستقبل البشرية ، أهم هذه الجراحات نقل الكلى و الأكباد من المعافين إلى المرضى.

بدأ الفريق بالتحكم في محطات تحلية المياه بعد عام واحد فقط من وصوله إلى البلاد ، كان الفريق يضم أكثر من مائة عالم متخصص ، طبعا لم يكونوا يقيمون في البلاد ، إلا أنهم أنشأوا مؤسسة خاصة تابعة لمنظمة الأمم و وظفوا فيها عددا من الجامعيين في بلادنا ، هؤلاء الجامعيون و منهم أطباء و كيميائيون كلفوا بمهمات جزئية ضمن الأبحاث ، هم يجمعون العينات ، يسجلون قياسات من مراقبة التجارب على العينات ، و لا تتعدى مهمتهم هذا ، علماء الفريق هم فقط من كان يعرف لماذا تجرى هذه التجارب.

بدأت نتائج عمل الفريق تظهر بسرعة ، فبعد عامين من بداية سيطرة هذا الفريق على محطات المياه انتشرت في البلاد الكثير من أمراض الكلى و الكبد ، أصيب بهذه الأمراض ألوف الناس ، من هذه الأمراض كان تليف الكبد ، و الحصى بأنواعها في الكلى و توابعها ، الفشل الكلوي و الكبدي و الفشل القلبي ، أمراض في الدم و الطحال ، أنواع من أمراض المرارة و المعدة ، الواقع أن هذه الأمراض لم يكن لها وجود يذكر في البلاد و الفضل يعود في انتشارها للبروفسور و لتجاربه فريده البار.

كان العميد فائق و عبر منظومته من أتباع ديانتته يتابع جمع العينات لفريق البروفسور ، الطريقة كانت سهلة ، فلقد توزع عدد كبير من خريجي و خريجات المعاهد الصحية على كافة المشافي الخاصة و أجبر أطباء العيادات الخاصة على توظيف موظفي استقبال من شباب و صبايا فرق العميد فائق في مستوصفاتهم و عياداتهم .

هؤلاء الممرضون أو المساعدون الصحيون كانت مهمتهم مراقبة سجلات زبائن عيادات هؤلاء الأطباء و تصيد مرضى الكبد و توابعه و مرضى الكلى ، بمجرد أن يتوفر عدد من هؤلاء المرضى ، كانت تنتهي مهمة فريق العميد فائق لتبدأ مهمة فريق أخي أبو العلا ، فهؤلاء كانوا يتصلون بالأطباء و يعرضون عليهم استقبال هؤلاء المرضى في أقسام مشافي أبو العلا و أسرته مقابل عمولات للأطباء ، هذه الأقسام هي التي تجري فيها اختبارات فريق البروفسور إدوارد على الأدوية و العلاجات الجراحية .

لم يخطر أبدا ببال أحد من الأطباء أن العلة في فرض المخبرات توظيف ممرضين و ممرضات من أتباع الديانة السرية هو هذه الغاية العظيمة ، لقد كانوا يظنون أنه مجرد إجراء آخر لنشر العيون و المخبرين و التجسس على أخبار الناس ، هؤلاء

المرضون و تلك الممرضات كانت مهمتهم أيضا التجسس و الإستطلاع و كتابة التقارير اليومية لمديرية المخبرات ، لكن هذه ليست إلا مهمة جانبية دخانية فقط إلى جانب مهمتهم في مساعدة فريق الأبحاث الأوربي.

في السنوات التالية كانت التجارب تختلف كما و نوعا من فترة لأخرى ، فمرة تضخ كميات كبيرة من الكلور للماء و مرة أخرى تضخ كميات قليلة و أحيانا تستعمل معقمات آمنة كالأوزون ، ثم يعود الفريق لإضافة الكلور و مرة بعدها يضاف الفلورايد إلى الماء ، و مرات كانت تضاف بكتيريا مطورة و أحيانا فيروسات مطورة و في بعض التجارب أضيفت للمياه مضادات حيوية ، و مرة أخرى أضيفت أملاح معدنية عديمة اللون و الطعم و الرائحة ، الزئبق و الرصاص و النحاس و أملاح الحديد و الكبريت و الكالسيوم ، و مواد كثيرة جدا أضيفت للمياه في هذه التجارب التي بلغت مئات التجارب.

مع هذه التجارب كانت تتوسع دائرة الأمراض ، و تزداد أنواعها الجديدة ، فلقد انتشر السرطان بأنواع كثيرة في البلاد و ظهرت منه حالات نادرة غير معروفة في السابق ، كثرت الوفيات المفاجئة ، وفيات الأطفال عادت لتكثر ، تم نشر أنواع من الأمراض الخطيرة جدا عبر محطات ضخ المياه ، إلا أن هذه الأمراض كلها كانت تفتتح لها أقسام و مستوصفات في مشافي أخي أبو العلا لمعالجتها ، و أيضا كانت تضاف إلى المواد التي يدرسها طلابنا في كليات الطب الوطنية ، و هذا كان إنجازا رائعا لتطوير حرفة الطب في بلادنا يحسب لفريق البروفسور إدوارد العجوز.

هذه التجارب قدمت معلومات لا تقدر بثمن لمؤسسات الدواء التي يعمل الفريق لصالحها ، صحيح أن الملايين و ربما مئات الملايين تضرروا بسبب التجارب التي أوصلت لهذه المعلومات ، إلا أن فوائد هذه المعلومات أفاد منها مليار من الناس على الأقل يسكنون في أوربة و أمريكا.

هذه التجارب أفادت البلاد إقتصاديا ، فلقد انتشرت مصانع المياه المعقمة و المياه النقية للشرب ، و لكن هذه المياه الغالية المعبأة في قوارير من البلاستيك كانت تطابق في مواصفاتها الكيميائية مياه الصنابير و لم تكن مفرا من تجارب فريق البروفسور ، هذه المصانع كانت مملوكة للعميد فائق و أسرته ، كان الأطباء يحذرون مرضاهم و أحباءهم من شرب مياه الصنابير و يرشدونهم لشرب مياه مصانع العميد فائق.

بعض هذه التجارب تسببت في تلف في أسنان الناس في بلادنا على نطاق واسع جدا لدرجة أنك لم تعد ترى ابتسامة تامة الأسنان حتى على وجوه الصبايا و الشباب اليافعين ، هذا أيضا ساهم في تطوير حرفة طب الأسنان و تجميلها على نطاق واسع جدا.

قدما قال الحكماء : لو كانت الجرار لا تتحطم لأغلقت معامل الخزف كلها.

تجارب فريق البروفسور ألبرت كانت متنوعة جدا و لا تقتصر على مشاريع مؤسسته ، الكثير من فرق البحث التابعة لمؤسسات أخرى كانت تجري تجاربها على مشاريعها الخاصة في بلادنا ، كانوا يعملون في شبكة مختبرات البروفسور ، شبكة متوزعة على كافة المشافي الخاصة التي يملكها أخي الطبيب اللبيب أبو العلا و شريكه ابن خالي الطبيب عدنان.

أكبر هذه المشاريع أجريت تجاربه في بلادنا على يد فريق علمي يتبع لمؤسسة كبيرة لأبحاث كيمياء المادة الحية مقرها في أميركا ، ترأس هذا الفريق البروفسور "سالك" ، استمرت تجارب هذا الفريق مدة تزيد على الثلاثين عاما ، و كانت متنوعة جدا و عامة جدا ، التقينا هذا البروفسور عدة مرات في قصر أبي العلا في العاصمة ، في أول هذه اللقاءات استمعنا لعرض موجز عن بعض مهمات هذا الفريق من البروفسور سالك ، قال البروفسور الشاب :

نحن نبحث في تركيب الأجسام الحية بكافة أنواعها ، و مشاريعنا تهدف إلى إجراء تجارب تتضمن تغييرات قسرية نطبقها على هذه الأجسام ، نتائج هذه التغييرات سنفيد منها في إنتاج أمراض جديدة و اكتشاف علاجات لهذه الأمراض ، طبعا بعض هذه الأمراض قد تكون مستعصية على العلاج ، و البعض الآخر سيكون علاجه ممكنا ، فإذا توصلنا لمرض جديد و لعلاج هذا المرض يعني أننا حصلنا على حقبة استثمارية لإنتاج الثروة ، نشر المرض ثم علاجه يشكل استثمارا هو الأكثر نجاحا في العالم ، إنه يوفر المردود المالي الأعلى بين جميع الإستثمارات في الدنيا.

أضاف سالك : نحن نبحث في النباتات و الحيوانات و البشر ، طبعا المخلوقات المجهرية كالجراثيم و الفيروسات هي الموضوع الأهم لأبحاثنا.

قال أبو العلا متسائلا : هل ستنشئ مراكز لدراسة النباتات و الحيوانات ؟.

قال البروفسور : نعم لكنها لن تكون سوى حقول للتجارب فقط ، العقاقير و المواد التي ستتم تجربتها ستأتي من مختبراتنا في أميركا و أوربة و نتائج التجارب ستدرس هناك.

أنشأ هذا الفريق ثلاثة مراكز جديدة و كبيرة ، الأول كان مركز بحوث زراعي ضخم في العاصمة الريفية في شمال البلاد ، الثاني كان مركزا للثروة الحيوانية تابعا لوزارة الزراعة الوطنية ، الثالث كان مؤسسة تابعة لحكومة بلادنا سميت بالمؤسسة الوطنية للقاحات.

الواقع أن عمل المراكز الثلاثة كان متكاملا ، و لم يكن عملا بحثيا فقط و إنما كان مشروعا له أهداف سياسية سنراها بعد هذا الإستعراض المختصر لما تم إنجازه بواسطة هذه المراكز :

أولا بدأ عمل مركز البحوث الزراعية بعد حرب المدينة الثائرة بثلاثة أعوام ، و كان عمل هذا المركز الأساسي هو تعميم استنبات بذور مطورة في مختبرات مؤسسة سالك ، و تعميم استعمال أنواع من الأسمدة الصناعية الخاصة.

في البداية بدأ العميد فائق بلقعات مع عملاء المخابرات في حزب قاع الذين يعملون في المناطق الريفية و الزراعية الملاصقة للمدن ، في هذه اللقاءات أعطى فائق توجيهات بملاحقة الفلاحين الذين يصرون على استعمال الأسمدة الطبيعية (روث الحيوانات) و إجبار الجميع على استعمال الأسمدة الكيماوية الصناعية بذريعة أن الأسمدة الطبيعية مخرثة ! طبعاً كانت الحكومة قد سنت قانوناً يجرم استعمال الأسمدة الطبيعية.

المؤسسة العامة للأسمدة كانت قد أنشأت في عهد الزعيم بديع ، لكن منتجات هذه المؤسسة كانت قليلة و غير مرغوبة لذلك كان معظمها يصدر خارج البلاد ، إلا أن البروفسور سالك أصر على تعميم هذه الأسمدة و أسهمت مؤسسته في تضخيم مصنع السماد الكيماوي ليكفي إنتاجه استهلاك البلاد كلها.

الجمعيات الفلاحية عمت على سائر القرى و الأرياف ، في مقراتها افتتحت أفرع للمؤسسات الزراعية المختلفة ، فهذه الجمعيات صارت مسؤولة عن توزيع البذور و الأدوية الزراعية و السماد بأنواعه الصناعية ، و ظهر في البلاد ما عرف بـ "الصيدلية الزراعية".

بعد عامين على بداية عمل فريق البروفسور سالك تغيرت تماماً طبيعة الخضار و الحبوب و الكثير من الفاكهة في البلاد ، الخضار صارت كلها أجمل شكلاً و لوناً و لكنها فقدت أكثر من ثلاثة أرباع نكهاتها و زيوتها العطرية التي تمنحها رائحتها المميزة ، و صارت هذه الخضار أكثر توفراً و أرخص ثمناً بكثير من السابق ، و مع نشر تقنية البيوت الزجاجية (البلاستيكية) في كل البلاد صارت الخضار تتوفر بكل أنواعها في كافة المواسم ، و لم تعد هناك خضار صيفية و أخرى شتوية.

السر في التغيرات كان يكمن أولاً في البذور الجديدة و ثانياً في نوع من السماد يسمى "الهرمون" ، هذا السماد الخاص يتم رشه على أزهار الخضار و في فترة اخضرار الحبوب ، و يتسبب هذا الهرمون في مضاعفة سرعة نمو النباتات عدة مرات ، لدرجة أن بعض المزارعين الذين كانوا يستعملونه كانوا يقطعون محاصيلهم كل شهرين تقريباً ، و ليس كل سنة كما جرت العادة.

هذه الهرمونات أعطت للنباتات قوة في النمو حتى بعد قطعها ، فمثلاً راحت ثمار كالخيار و البندورة و الكوسا و الباذنجان و القرع الأخضر تنمو في برادات البيوت و تتضخم و يزيد وزنها و حجمها إن تركت في البراد لأيام !.

الحبوب أيضاً زاد إنتاجها كثيراً ، إلا أن بذور الحبوب لم يتم تبديلها ، و لكن فرضت الحكومة على المزارعين بيع جميع حبوبهم لمؤسسة المحاصيل الوطنية التي كانت تصدر هذه الحبوب النفيسة لأوروبا ، و تمت تغطية استهلاك البلاد من حبوب تم

استيرادها من الخارج بإشراف البروفسور سالك ، لم يعد الخبز يصنع من الخنطة الوطنية و إنما من قمح ردى جدا و معدل وراثيا مستورد من أمريكا الشمالية.

لقد كان لعمل العميد فائق و أتباعه من ذوي الديانة السرية أهم أثر في إنجاح تعميم تجارب مركز البحوث الزراعي الآنف الذكر ، و لقد جنى العميد و أتباعه الكثير من الأموال بسبب هذا المركز ، خاصة و أن الفلاحين أدمنوا على استعمال المبيدات و الأسمدة و البذور الجديدة لأنها كبيرة المردود ، و صارت عمولات فائق و جماعته تزيد على نصف ثمن ما يشتريه الفلاح من هذه المواد الأولية.

المركز الثاني كان مركز رعاية الثروة الحيوانية ، هذا المركز كان أسرع نجاحا من مركز الأبحاث الحيوانية ، فلقد تمكن هذا المركز من تعميم منتجاته على كل البلاد خلال عام واحد فقط ، و السر هو : التركيز على الدجاج و البيض.

أنشأت برعاية فريق سالك أكثر من مائة مدجنة ضخمة لتربية الدجاج و إنتاج البيض في كافة المدن في البلاد ، هذه المراكز كانت مملوكة لشركات خاصة أسسها خالي بالتعاون مع أخي الطبيب و بالتشارك مع العميد فائق و شقيقه قائد سلاح المدرعات العميد رؤوف ، و ألحقت بهذه المداجن مئات المطاعم و المحلات الخاصة ببيع الدجاج و البيض ، لقد ظهرت بسبب هذا المركز و مداجنه ما عرفت بمطاعم الوجبات الجاهزة أو ما تعرف بمطاعم "الفروج" بأنواعه المشوي و المقلي . سر نجاح هذا المركز كان يعتمد على نوعية الدجاج المهجن المستورد أصلا من أميركا ، و على العلف الصناعي الذي كان يتضمن الكثير من هرمونات النمو التي تجعل الصيصان تتحول إلى دجاج متوسط في أسابيع قليلة ، و يجعل الدجاجات الإناث يبضن الكثير من البيض في فترات متقاربة.

جميع أنواع الهرمونات التي استعملت في تربية هذا الدجاج كانت من النوع الأنثوي ، حتى تلك التي أعطيت لذكور الدجاج و هي التي تؤكل عادة.

لقد حل الدجاج في موائد البلاد كلها محل لحوم البقر و الغنم الباهظة الثمن ، لقد صار لحم الدجاج و بيضه أرخص من الخضار و من زيت الزيتون و من سائر المأكولات ، و مع هذا فهو يعتبر طعاما لذيذا و ذا قيمة فلهم الطيور أنفس اللحوم ، هذا الرخص كان من أهم أسباب نجاح مهمات البروفسور سالك.

المركز الثالث كان المؤسسة الوطنية للقاحات ، هذه المؤسسة دُعم عملها بقوانين "رعاية الطفل" التي أصدرتها وزارة الصحة الوطنية ، هذه القوانين فرضت على جميع الأطفال أخذ لقاحات يزيد عددها على الثلاثين لقاحا للطفل بين الستة أشهر الأولى من عمره إلى عامه العاشر ، و لقد تم تطبيق حقن الأطفال بهذه اللقاحات في كافة مدارس البلاد ، و لم تمض ثلاثة

أعوام حتى كان جميع الأطفال في البلاد قد حقنوا بهذه اللقاحات ، و صارت هذه اللقاحات جزءا لا يتجزأ من ثقافة الناس في بلادنا.

أهم ما أنجزته مراكز البروفسور الثلاثة كانت قائمة كبيرة جدا من الأمراض ، و قائمة موازية لها من الأدوية و جميع هذه الأمراض جربت في بلادنا أولا ، ثم جربت معها الأدوية الجديدة لفترة ، حتى تم التأكد من صلاحيتها ، لتعود هذه الأدوية لتختفي نسخها الفعالة من البلاد ، و لتحل محلها أدوية مستوردة أو مهربة أو محلية الصنع تحمل نفس أسماء الأدوية الأصلية ، لكنها تفتقر إلى فاعليتها الحقيقية.

أذكر من هذه الأمراض "الإنحطاط العام المزمن" و أعراضه الجنب و التردد و السمنة و الحمول البدني و الذهني عند الذكور ، و أسبابه كثيرة ، أولها الهرمونات الأنثوية التي تحملها لحوم الدجاج بكثرة بسبب حقن الفراخ بها في المداجن ، و الثاني بسبب أمراض الجهاز الهضمي التي سببتها الحبوب المستوردة التي يستهلكها الناس في الخبز و الحمص و العدس و الفول و الرز ، فهذه الحبوب تحمل أنواعا من النشاء ذي الطبيعة الدبقة ، فهو يلتصق على جدران الأمعاء الدقيقة و القولون و يتعب الكبد و يتسبب في خمول عام و تعب عام في الجسم و اضطرابات و غازات دائمة في البطن و إسهالات و إمساكات متناوبة تجعل الإنسان في حالة من الخور و التردد و العصبية و الإضطراب الذهني الغير مبررة .

و عند النساء أيضا ظهر هذا الخمول إلا في الناحية الجنسية ، فلقد انخفض سن بلوغ الفتيات بسبب محتويات لحوم الدجاج إلى التسع أو الثمان سنوات ، و تضاعف لدى النساء عموما الميل الجنسي ، و لكن انتشرت بينهن الإضطرابات الوظيفية في الأجهزة التناسلية ، كثر بعدها المواليد المشوهون و التوائم المريضة و انخفضت نسبة الولادات الطبيعية و صارت أكثر من ثلث الولادات قيصرية ، و ارتفعت نسبة المواليد من الإناث و انخفضت كثيرا نسبة المواليد من الذكور ، و تفشى العقم بين الجنسين.

الأمراض الجلدية و التحسسية صارت عامة لا يكاد يخلو منها إنسان واحد في البلاد كلها ، عدا عن الربو بأنواعه و الروماتيزم و أنواع كثيرة جدا من السرطان ، أكثرها انتشارا سرطان الثدي و الرحم.

المحظوظون الذين جربت عليهم الأدوية المضادة لهذه الأمراض الجديدة كانوا قلة ، فكما قلت آنفا بعد نجاح التجارب على كل عقار كان يختفي هذا العقار من التداول في البلاد ، أو توزع منه نسخ عديمة الفاعلية مهمتها فقط تخفيف أعراض هذه الأمراض دون مداواتها.

معظم هذه الأدوية الفعالة لا يتم تداوله حتى اليوم في كل العالم ، لأن الأدوية ناقصة الفاعلية تضمن ربط الناس بمصانع الأدوية و تجبرهم على شرائها لتخفيف أوجاعهم و معاناتهم دون معالجتها التامة.

فائق و أتباعه جَنَوْا من كافة هذه المنظومات و المشاريع التي عمل عليها سالك و فريقه أموالا ضخمة لدرجة أن جميع العاملين في القطاع الطبي صاروا يؤدون الأتاوات و العمولات لفائق و أتباعه ، أتاوات على كل حبة دواء تباع في البلاد ، قسمة عائدات المبيعات كلها كانت نصفا لفائق و أتباعه ، و النصف الثاني لمنظومتنا.

تقاعد العميد فائق منذ عقد و نصف بعد عمر حافل بالإنجازات العظيمة في خدمة العلم و الإنسانية و هو اليوم يعيش في بقصر فاره في ساحل البلاد الشمالي و يتمتع بتقاعد هادئ ، خلفه في منصبه في رئاسة مخبرات الجيش ضباط آخرون لكنهم جميعا مجرد دمي و واجهات لا تأثير لهم على منظومة العميد فائق ، لأن ابنه أحمد هو من استلم فعليا قيادة المنظومة و ضبط أعضائها و حسن سير عملها.

خلال عهد هرثمة تم تشكيل سبع منظمات للمخابرات ، تربعت واحدة من الأسر الخمسين الحاكمة على رأس كل منظمة ، أهم هذه المنظمات كانت : حماية أمن الدولة.

كنت قد قلت أن هذه المنظمة تأسست في عهد الزعيم بديع ، معظم أعضائها و قادتها كانوا من أتباع الديانة السرية بفروعها و مذهبها ، في بداية عهد الرئيس هرثمة تولى العميد "مغيرة" إدارة أمن الدولة ، في ذلك الوقت كان مغيرة رجلا في ريعان الشباب ، كان أيضا غاية في الوسامة ، أخضر العينين ممشوق القامة و جميل الوجه ، مغيرة من أقارب هرثمة لجهة أمه و هو من نفس قرية هرثمة.

في عهد هرثمة تغيرت طبيعة و أسلوب جهاز المخابرات بكامله ، فمع نهاية العقد الأول من هذا العهد تقاعد معظم "الفتوات" ، أولئك الذين كنت قد ألحقتهم بهذا الجهاز بمساعدة فرساني الثلاثة ، و حتى فرساني الثلاثة كانوا قد تقاعدوا من عملهم في إدارة منظومة المخابرات القديمة ، ثم تحولت للإعتماد الكامل على تقارير فرق المستشارين الأوربيين ، هذه الفرق كانت و لا تزال تتحكم في كل مؤسسات الحكم و في كل المنظمات العاملة في البلاد ، بينما اقتصر عمل القادة من أبناء البلاد على ما يشبه عمل "رئيس العمال" أو "كبير الصبيان" باللغة العامية ، مهمتهم تقتصر على التوسط بين العاملين في سائر المؤسسات الحكومية و سائر العاملين في منظوماتنا من العرب و بين فرق المستشارين الأوربيين التي كانت تعمل كمؤسسة واحدة تتجمع فيها كل المعلومات من سائر أنحاء البلاد و منها تصدر كافة الأوامر ، أما أنا فأصبح عملي هو ضبط التنسيق بين المنظومات التي شكلناها و قادتها من الأسر الحاكمة (رؤساء العمال أو الصبيان) و بين فريق المستشارين ، و صرت العين الثالثة التي تراقب و تنقل للبارون و من البارون المتطلبات و المستجدات و الأوامر.

المخابرات بكافة أجهزتها تحولت طبيعة عملها إلى النحو التالي :

أنشأت في كل مدينة كبيرة و متوسطة في البلاد مبان للمخابرات ، و أنشأت في كل قرية خلية لحزب قاع يترأسها عنصر تابع لأحد أجهزة المخابرات.

مباني المخابرات في المدن مكونة من خمس طبقات ، اثنتان تحت الأرض و ثلاث فوق سطح الأرض.

الطبقة السفلية الأدنى هي المقبرة ، و الطبقة التي أعلى منها هي الزنازين ، تتراوح مساحة كل زنزانة بين المترين المربعين و التسعة أمتار مربعة ، في زاوية القبو توجد غرف التعذيب أو "الإستنطاق".

الطبقات العليا تضم مكاتب عناصر المخابرات من ضباط و صف ضباط و حجلات لإقامتهم مؤقتا و أرشيف المبني ، الطبقة الأرضية للمبني تضم غرف عناصر المخابرات من المجندين.

ضباط الصف و الضباط كلهم أو تسعة أعشارهم من أبناء الريف و من أتباع الديانة السرية ، و العناصر المجندون في المخابرات معظمهم من أبناء الأرياف من المسلمين.

في الطبقة الأرضية توجد غرف لإستقبال "المخبرين" ، هؤلاء المخبرون معظمهم من المسلمين و مهمتهم كانت مراقبة أشخاص بعينهم ، مشايخ أو أساتذة أو تجار أو ضباط ..إلخ.

تجنيد المخبرين يتم بطريقة بسيطة ؛ عندما يلتحق الشباب المسلمون بالخدمة العسكرية يرسل بعضهم لأداء خدمته في إحدى منظمات المخابرات ، خلال فترة خدمتهم كان قسم كبير منهم يُجبرون على العمل في الأسواق و في الساحات العامة ، بعضهم كان يعمل بائعا متجولا ، و بعضهم كان يعمل كناسا ، و بعضهم كان يعمل متسولا ، و البعض الآخر كان يعمل متسكعا في المقاهي و دور السينما.

لم يكونوا يكتبون أية تقارير لرؤسائهم ، لأن عملهم كان التبليغ عبر اللاسلكي أو الهاتف عن أي شيء مريب يروونه ضمن تعليمات محددة ، فإن سمع أحدهم شخصا يشتم الرئيس هرثمة أو حزب قاع أو الغلاء أو الحكومة كان يبلغ عنه عبر اللاسلكي فورا ، ثم يقبض فورا على الشاتم و يضعه في صندوق سيارة الدورية التي تحضر لإعتقال هذا المتجرئ على شتم أسياده ، نهاية هذا الشاتم كانت دوما في الطبقة السفلى من مبني المخابرات حيث يرقد هناك بسلام للأبد ، طبعاً بعد أن ينال من التعذيب في الطبقة العليا من القبو على مدى أشهر ما لا يطيقه فيل أفريقي لمدة ساعة ، جميع هؤلاء مصيرهم الموت الزؤام تحت التعذيب.

المجندون المسلمون الذين تنتهي خدمتهم في منظمات المخابرات كانوا يُجبرون على الإنتساب لحزب قاع و كانوا يجبرون أيضا على العمل كمخبرين مدى الحياة.

تقارير هؤلاء المخبرين لم تكن لها أية قيمة لأنها جميعا كانت تنتهي في حاويات الإتلاف ، المطلوب فقط هو تحويل هؤلاء المخبرين إلى تهديد دائم لحيطهم و أهلهم و جيرانهم ، كل مخبر يتبع لأحد ضباط الصف من أتباع الديانة السرية ، ضابط الصف يقرأ تقارير المخبرين ، لكنه يرمي بها دوما في القمامة ، ما يعلق منها في ذاكرته يستعمله خلال مقابلاته الأسبوعية مع المخبر ليجعل هذا المخبر يشعر دوما بأهمية تقاريره.

عمل المخابرات الحقيقي كان شيئا مختلفا عما يظنه الناس و حتى العاملون في المخابرات ، كان العميد مغيرة و قائده الميجور رولان فقط من يعرف حقيقة هذا العمل.

عمل المخابرات لم يعد جمع المعلومات كما الماضي ، فتقارير الأوضاع في البلاد كلها توضع من خلال المعلومات التي تجمعها مؤسسة المستشارين الأوروبيين عبر موظفيهم من الأقليات غير المسلمة الذين يشرفون على عمل كل إدارات البلاد و مؤسساتها و مصانعها و أسواقها و حتى أسرها ، من خلال وظائفهم "التقنية" البحتة كأمناء عامين أو محاسبين أو أطباء أو مدراء إداريين (مدير مالية - مدير تخطيط ..) إلى جانب الوزراء و المدراء العامين ، فسجلات كل شيء كانت و لا تزال تحت أيديهم.

تقارير هؤلاء مهنية و حرفية و دقيقة جدا ، تكفي تماما لرصد كل شيء في البلاد ، فلا حاجة إذاً لتقارير أشخاص من أنصاف الأميين عن تلميحات لفلان عن السخط و إجتماعات مريبة لبعض الأشخاص المفلسين الفقراء و عبارات ملغومة قالها علان.

مهمة المخابرات كانت فقط جعل الجميع يشعر بالرعب و الملح و بأن الحكومة تعد عليه أنفاسه ، لكن الحكومة لم يكن أبدا بمقدورها ضبط عصابة صغيرة لسرقة إطارات السيارات أو حتى سرقة غسيل البيوت ، لأن الحكومة مجرد موظفين لا عمل لهم سوى تمضية الوقت في أماكن محددة ، و تعقيد حياة الناس و تحويلها إلى لُهاث وراء الرُخص و ما تعرف به "المعاملات" ، ثم ابتزاز الرشاوى من الناس ، ثم قبض رواتب زهيدة تكفي لإطعامهم فترة أسبوع أو أقل ، و المخابرات لم تكن شيئا سوى ذلك في نهاية الأمر.

في بداية عهد هرثمة وصلت إلى البلاد بعثة نسائية من طرف البارون جيمس ، هذه البعثة كانت برئاسة ابنته السيدة الفاضلة "كايت" و كانت بصحبته عدة سيدات فاضلات منهن إحدى الممثلات الأوروبيات المعروفات ، رافق الوفد فريق ضخم من البنائين و فنيي التصوير السينمائي و الفوتوغرافي و خبراء الفنادق و عدة قهرمانات خبيرات في المساج.

اجتمعت بالبارونة في منزلي في الساحل بحضور ريمون و أخي أبو العلا ، كان اجتماعا طويلا ، و تحدثت فيه البارونة كاييت لساعات متواصلة ، سأعرض أهم ما قالته :

في بلادكم ميزة لا توجد إلا في القليل من بلاد العالم ، هذه الميزة هي : إختلاط العروق لعدة قرون ، لا تتمتع بهذه الميزة إلا عواصم الإمبراطوريات الكبرى طويلة العمر كـ "روما" و "استانبول" و "فلورنسا" ، لقد تعاقبت على بلادكم عدة طبقات حاكمة من عدة عروق ، الأغنياء عادة لا يتزوجون إلا فتيات جميلات ، و دون أن يشعروا يقومون بإنتاج جيل من الأبناء أجمل من الجيل الذي سبقه ، في حال استقرار الثراء لأسر بعينها لعدة أجيال ستجد أن الجيل الثالث أو الرابع من هذه العائلات سيكون كثير العدد و سيتمتع أبناؤه و بناته بجمال و جاذبية خاصة نادرة ، ففي بلادكم تجد الشعور السوداء و البشرة البيضاء الرقيقة و العيون الواسعة الملونة بألوان مختلفة ، و تجد الوجوه المدورة الآسيوية تضم تفاصيل عربية و أوربية و تغطيها بشرة ناصعة نضرة لامعة قليلة الشعر ، و تجد أجساما و أطرافا متناسقة و متوسطة الطول عادة و جميلة جدا ، هذا نادر في شعوب العالم ، و الأهم من هذا أن الأنوثة في بلادكم من النوع المتطرف جدا فالنساء هنا لا يملن إلى العناد و التكبر و يمارسن مُتَع الفراش مع الرجال بكثير من الطوعية ، هذه الخواص لو جمعناها لوجدنا أن النساء في بلادكم فائتات جدا بكل معنى الكلمة.

قال الدكتور أبو المجد : نعم الأوربيات يفتقدن للتواضع و لجمال التفاصيل و تنوعها ، خاصة في الأطراف ، أما الآسيويات فجماهن موحّد تقريبا و هذا ممل فعلا.

ضحكت السيدة الفاضلة كايث ، ثم تابعت : نعم يا دكتور هذا صحيح تماما ، إلا أن مهنة بيع مُتَع الفراش لا تنتشر بين الحاملات لهذا الجمال في بلادكم ، و هن بنات المدن من الأسر العريقة ، لذلك نحتاج إلى طريقة لإدخال عدد كاف منهن إلى هذه المهنة لنستثمر إمكانياتهن النادرة في وظيفة هامة جدا لإستمرار أعمالنا على مستوى العالم بأسره.

في أوربة و في بلاد العالم تنتشر شركاتنا السياحية ، زبائن مكاتبنا الخاصة في هذه الشركات جميعهم من الأثرياء جدا ، هؤلاء الأثرياء أكثرهم من متوسطي العمر من الرجال و النساء ، الرحلات السياحية هؤلاء لا هدف لها في الحقيقة سوى المتعة ، و أعظم متعة يريدونها هي الجنس ، متعة تقدمها الجميلات و يقدمها الواسيمون ، هم يبحثون باستمرار عمن يشاركونهم الفراش خلال عطلم من الأشخاص ذوي الجمال الفريد ، أشخاص لا يعاندون في ممارسة هذه اللذة و لا يترددون في ممارستها عندما يريد هؤلاء الزبائن ، دون التضجر من قذارة و شيخوخة هؤلاء الزبائن ، و هذا نادر و صعب جدا.

عبر مؤسستنا الإستشارية العاملة عندكم سنختار من طالبات و طلاب الجامعات و المدارس الثانوية مائة شاب و فتاة سنويا من بين آلاف أصحاب الصور التي يجمعها العاملون في مؤسستنا ، هؤلاء الشباب سيتم نقلهم إلى قصور صغيرة سنبنها في غاباتكم الشمالية ، هناك سيقدمون لزبائننا من الطبقة العليا خدمات المتعة الليلية على الطريقة الشرقية الملكية التي تعتبر عادية جدا في بلادكم.

من بين صور الضباط و أعضاء الأسر الحاكمة في البلاد اختارت السيدة الفاضلة كايت صورة النقيب مغيرة - كان حينها نقيبا- و قررت أن توليه مهمة رئيس العمال في هذه المنظومة الجديدة.

في العام الأول كان فريق المستشارين الأوربيين يرسل صورا تجمعها زوجات و قريبات الموظفين آنفي الذكر الذين يعملون في كتابة التقارير لهذا الفريق ، هذه الصور كانت بالآلاف لفتيات صغيرات من ذوات الجمال الخاص ، معظم هؤلاء الفتيات كن من بنات المدن المراهقات من الأسر المحافظة المتوسطة المستوى ، بنات الأسر الغنية لم يكن من ضمن القائمة لأن خطفهن ليس سهلا ، أما الشبان فكانت أعمارهم لا تزيد على الثامنة عشر ربعا معظمهم من طلبة الثانوية.

كان النقيب مغيرة يتلقى في كل شهر قائمة من صور و عناوين الفتيات المطلوبات و الفتيان المطلوبين ، فيرسل دورية خاصة لخطف المطلوبين إنما من مدينة أخرى غير المدينة التي انطلقت منها الدورية ، طريقة الخطف سهلة جدا ، يراقب عناصر الدورية الفتاة أو الشاب المستهدفين ، ثم يقومون باختيار نقطة لخطفهم ، جميع العاملين في الخطف من صف الضباط من أتباع الديانة السرية ، و كانوا يقبضون عمولات جيدة لقاء عملهم ، أهالي المخطوفين و المخطوفات لم يكونوا يعلمون أساسا بأن أبناءهم أو بناتهم خُطفوا ، كل ما في الأمر يعتقدون بأن صغارهم مفقودون.

كان المخطوفون يوزعون فورا معصوبي الأعين على المباني السياحية التي أنشأت بسرعة مذهلة ، بلغ عددها مائة قصر ريفي صغير ، هناك كان هؤلاء المراهقون يُجبرون بإشراف طبي على تعاطي الهروين ، هذا العقار كان يعطيهم شعورا بالهدوء و الفرح الكاذب و النشوة و الشهوة العارمة ، و يربطهم بإدمان لا يمكن الخروج منه ، هكذا أصبحوا عبيدا لدى مغيرة ، تم اغتصاب جميع الفتيات في اليوم الأول تحت تأثير المخدر ، حتى يعتدن على الممارسة ، و أما الشبان فلقد تعاطوا المتع مع فتيات من أتباع الديانة السرية تحت تأثير المخدر ، جميع هؤلاء لم يكونوا يفكرون حتى في الهروب لأن كل ما يفكر فيه المراهق من اللذات كان متوفرا لهم فضلا عن أنهم كانوا يظنون أنهم في بلد آخر بعيد عن البلاد كلها .

بعد شهر كان هذا الطاقم مستعد للعمل ، و تم استقبال ثلاثمائة زبون و زبونة من الأثرياء و الثريات في تلك القصور الريفية النادرة الرفاهية المشحونة بكل أنواع الملذات ، كانت الزبونة أو الزبون يقيم أحدهم شهرا من الصيف في القصر يُقضى مع شريك فراش غرض طري و مليء شبابا يتم تبديله أسبوعيا ، حسب اختيار الزبون من قائمة الصور التي تُقدم له مع قائمة الطعام و المشروبات الكحولية و أنواع المخدرات.

ما لم يكن يعرفه أحد هو أن صورا كثيرة كانت تؤخذ هؤلاء الزبائن مع شركاء الفراش من طاقم المتعة هذه الصور كانت تذهب لأرشيف شركات البارون لإستخدامها عند اللزوم.

كثير جدا من هؤلاء الزبائن من السياسيين و أشخاص ذوو مناصب عالية قي أوربة و غيرها ، و كثير منهم كانوا من أصحاب الثروات و الشركات الكبيرة التي تدور في فلك منظومة البارون.

بعد أربعة أعوام مات جميع هؤلاء الشبان و تلك الفتيات بجرعات زائدة من الهرويين و تم دفنهم في أقبية مخابرات المقدم مغيرة ، كان مغيرة قد استثمرهم أيضا في الشتاء في تمثيل أفلام إباحية تم تصديرها لأوربا.

بعد تلك الفترة بدأت القلاقل ، و صار الخطف متيسرا جدا و دون تبعات ، و بالأعداد المطلوبة ثم و بعد حرب المدينة الثائرة ، لم تعد هناك حاجة للخطف ، فلقد كان مغيرة يقابل الكثيرات من زوجات و بنات و أخوات الأسرى و المخطوفين خلال حملات الإعتقال الهائلة التي تمت بعد الحرب و أثناءها ، و معظمهم من الأسر المدنية المتوسطة ، لقد اختار مغيرة منهن الكثيرات اللواتي أجبرن على العمل في منتجعاته السياحية المذكورة مقابل السماح لهن برؤية قريب لهم مأسور ، مع وعد كاذب بإطلاقه لاحقا.

جميععاملات و العاملين في طواقم اللواء مغيرة ماتوا في نهاية الأمر بسبب جرعات مخدرة زائدة و دفنوا في أقبية مباني المخابرات ، عددهم كبير يزيد على عدة آلاف من الفتيات و الشبان الصغار ، قضوا جميعا خلال ثلاثة عقود من حياة اللواء مغيرة الحافلة بالإنجازات الوطنية و التي انتهت بانتحاره في مكتبه بمبنى رئاسة الحكومة بتسع رصاصات أطلقهن على رأسه مباشرة من مسدسه الشخصي.

اقتسم مغيرة السيطرة على منظمة حماية أمن الدولة مع لواء آخر من رؤساء الأسر الحاكمة ، هذا اللواء كان من نفس عائلة هرثمة ، و اسمه اللواء "منصف" ، هو طبعا من أتباع الديانة السرية و يعتبر أحد مشايخ هذه الديانة الكبار في بلادنا و المنطقة بأسرها ، الصفة الرسمية للواء منصف كانت "مستشار الرئيس" للشؤون الأمنية ، إلا أن عمله الحقيقي كان مستقلا تماما عن هرثمة و عن الرئاسة ، بل لم يكن أصلا لعمله أية صلة بالمهام الأمنية أو العسكرية.

في أول عام تولى فيه هرثمة السلطة زارت البلاد وفود كثيرة من الخبراء الأوربيين في مختلف المجالات لتنظيم الشكل النهائي للدولة في بلادنا ، كان أحد هذه الوفود برئاسة الجنرال هنري ، هذا الوفد ضم عددا من ضباط المخابرات الأوربيين و كانت مهمتهم ترتيب أمور السفر و المنافذ الحدودية و الموانئ و المطارات و سلطات الجوازات و التأشيرات و إتفاقيات الحدود .

اختار هذا الفريق من عناصر المخابرات الوطنية و حماية أمن الدولة مجموعة مكونة من سبعة آلاف عنصر ، و تم إخضاع هؤلاء العناصر لدورات تدريبية مكثفة لتعليمهم كيفية أداء مهماتهم في ضبط المنافذ الحدودية ، أنا كنت من رشح اللواء منصف لتولي قيادة هذه المنظومة.

بدأ عمل هذا الفريق في العام الأول من حكم هرثمة و لم يكتمل إلا في العام الثالث ، و لقد أشرف الجنرال هنري بنفسه على تركيب كافة الأجهزة و المجموعات التي تتحكم في المنافذ الحدودية في البلاد و كان عمله أكثر من رائع ، لدرجة أنه نال مكافأة كبيرة من البارون عند عودته إلى أوربة.

لقد كان للمنافذ الحدودية و لمديرية الجوازات سلطتان ، الأولى هي السلطة الرسمية الظاهرية ، هذه السلطة مكونة من عناصر الشرطة و حرس الحدود و الجمارك الوطنية ، مهمة هذه السلطة هي تسلم الطلبات الورقية للجوازات و نقلها للأرشيف و إصدار الجوازات ضمن الآلية القانونية المعروفة ، إلا أن هذه السلطة صممت لتكون موبوءة تماما بعناصر من المرتشين و يمكن بسهولة من خلاهم إصدار أية وثيقة سفر أو تأشيرة أو ما شئت بمجرد دفع المبلغ المطلوب من قبل الضابط ، طبعا يمكن بالرشاوى الدخول إلى البلاد و الخروج منها عبر أي منفذ و إدخال أية بضاعة من أي نوع و إخراج أي شيء من المطار أو المنافذ الحدودية دون حسيب و لا رقيب ، فقط على العابر أن يدفع لعناصر اللواء منصف المبلغ المناسب.

أما المسكين الذي لا يعرف بأمر الرشاوى فإن عبوره للحدود عبر أي منفذ سيكون مشقة هائلة لن ينساها مدى حياته ، و سيفكر بعدها ألف مرة قبل أن يمر على منفذ حدودي لبلادنا.

لقد صمم الجنرال هنري إجراءات معقدة جدا لإصدار التأشيرات و جوازات السفر و لإجراءات الدخول إلى البلاد و اجراءات المغادرة ، و لكن يمكن اختصار جميع هذه الإجراءات بدفع رشوة مناسبة للضابط المسؤول.

تعيين الضباط المسؤولين على المنافذ الحدودية كان يتم عبر مزاد مغلق يُعقد في مكتب اللواء منصف في كل عام ، يقف منصف أمام موظفيه فيقول مثلا : منصب مدير المطار مدة سنة ، الحد الأدنى كذا و كذا ، من يفتح المزاد ؟. يبدأ الضباط برفع أيديهم و كل واحد يزيد على غيره حتى يتوقف المزادون عند مبلغ معين فيرسو المزاد على صاحب الرقم الأعلى ، و هكذا بالنسبة لبقية المنافذ.

في كل عام يرتفع المبلغ ، و ترتفع معه الصعوبات و قيمة الرشاوى التي يجب دفعها لضباط الحدود ، و تزداد في كل عام التعقيدات المفروضة على استصدار الوثائق اللازمة للسفر و التنقل ، و في كل عام يغادر مزيد من الشباب بلادنا إلى الخارج بحثا عن فرص عمل و مستقبل اقتصادي أفضل ، فتزداد موارد المعابر المالية ، حصة منصف من موارد هذه المعابر هي العشر ، و الباقي يتم تحويله لمصارف أوربة لصالح منظومة البارون جيمس ، طبعا حصتي و حصة أسرتي ثابتة في كل ما يتم نقله لأوربة.

هذا ما يتعلق بالقسم الرسمي العلني من سلطات الحدود ، أما القسم السري فيتكون من عدة مئات من المحاسبين من أبناء الأقليات الدينية (طائفة ربمون) ، هؤلاء المحاسبون كانوا موزعين على جميع الإدارات الخاصة بمنافذ الحدود و سلطات

الجوازات ، دون إذن هؤلاء المحاسبين لا يصدر أي جواز سفر لأي أحد ، و دون إذنتهم لا تمنح أية تأشيرة خروج لأي إنسان من البلاد ، و دون إذنتهم أيضا لا يسمح لأحد بالحصول على إذن إقامة في أي مكان من البلاد.

يتبع هؤلاء المحاسبين فريق كبير من المخبرين التابعين لمنصف و من أتباع ديانتهم ، مهمة هؤلاء المخبرين كانت رصد بيانات دقيقة عن كل إنسان يغادر للعمل خارج البلاد ، تتضمن هذه البيانات تفاصيل هوية هذا الإنسان و مهنته ، و أيضا تشمل هذه البيانات الوجهة التي سيسافر إليها و العمل الذي سيمارسه و عنوانه الذي سيقوم فيه إن أمكن ، و حتى الأجر الذي سيحصل عليه هناك ، قد يعجز المخبرون عن الحصول على كل المعلومات المطلوبة ، عندها يقوم طاقم المستشارين الأوروبيين بإيعاز للبحث في البلد التي سيغادر إليها المغترب ليتم استكمال المعلومات المطلوبة بشكل تام.

شاع بين الناس أن مخبرات منصف قادرة على مراقبة المغتربين من أبناء بلادنا حتى في مغترباتهم ، و لقد انطلقت هذه الفكرة على الجميع ، حتى أن المغتربين من أبناء بلادنا كانوا يخافون من أن يلتقوا في الغربة و إن التقوا فإن علاقهم هناك غالبا ما تكون سطحية و آنية ، و السبب هو هذا الخوف المتجذر في نفوسهم من قدرة مخبرات منصف المزعومة على عدّ أنفاسهم حتى و هم بعيدون عن منصف و هرثة آلاف الأميال !! هذا الشعور وفر أمانا رائعا لحكومة هرثة ، فأولئك الهاربون من سلطة حكومة هرثة و سطوة مخبراتها و جنودها لن يفكروا أبدا بالتجمع في مكان بعيد عن البلاد لينظموا أنفسهم و يحاولوا الانتقام من هذه الحكومة التي يكرهونها و التي تسببت في حرمانهم من الاستقرار في وطنهم.

المطلوب من فريق المتابعة هذا كان أمرا لم يتوقعه أحد من أولئك المغتربين الذين كانوا يتناقلون سرا و بخوف شديد قصصا عن مغتربين عادوا إلى البلاد ليجدوا أنفسهم في السجون بسبب تقارير و وشايات نقلها مخبروا منصف.

كل مغترب يحلم حين يغادر البلاد بأن يعود إليها غنيا ليستقر فيها و ينشئ أسرة سعيدة في منأى عن الفقر و المشقات المعاشية ، و أهم ما يعمل المغتربون من أجله هو "العقارات" ، فمعظم هؤلاء من الشباب الذين عجزوا و عجز آباؤهم عن إيجاد عقارات تؤويهم و تؤمن لهم عشا للزوجية و مكانا للعمل.

تصل باستمرار تقارير مفصلة إلى مجموعة المحاسبين الذين يديرون مخبرات منصف ، هذه التقارير تتضمن معلومات عن مستوى أجور المغتربين ، و تقديرات عن الأموال التي يوفرونها من عملهم في مدة عام ، هذه التقارير تستعمل في صناعة إحصائيات تقديرية عن عدد أولئك الذين سيقرون العودة إلى البلاد ، و عن حجم الأموال التي سيعودون بها لشراء بيوت و عقارات .

إحصائيات مجموعة المحاسبين ترسل إلى مؤسسة المستشارين الأوروبيين ، و بناء عليها يتم تحريك سوق العقارات في بلادنا صعودا دوما لتكون أسعار العقارات أكبر من قدرة أولئك العائدين ، فإذا ما عاد المغترب ليشتري دارا أو بستانا أو محلا

تجاريا فإن ما يحمله من المال لن يشتري له في الغالب ما كان يخطط لشراؤه قبل عودته ، و سيضطر إما للتخلي عن فكرة الإستقرار أو لتأجيلها أو لشراء عقارات أقل مما كان يطمح إليه.

في كل الأحوال سيعود هذا المغترب إلى بلاد الغربية ليجمع مزيدا من المال ليكمل مشروع العودة إلى الوطن و الإستقرار في ربوعه .

بعد أن يشتري المغترب عقارا لسكنه أو عمله يبدأ دور مخبرات منصف ، فمثلا عاد أحد الأطباء إلى البلاد بصحبة زوجته و ابنته المراهقة ، و اشترى هذا الطبيب عيادة ظريفة و منزلا جميلا و بستانا واسعا للنزهة ، و بالطبع اشترى سيارة فخمة ، بعد أن استقر به الحال بنحو عام واحد ، تعرضت ابنته و زوجته لابتزاز خطير جدا من إحدى مخبرات منصف ، فلقد تقربت هذه المخبرة من هذه الزوجة و تعرفت عليها في إحدى صالونات الحلاقة النسائية ، و لأن البضائع الأوروبية و خاصة منها العطور و مساحيق الزينة نادرة في البلاد ، عرضت هذه المخبرة على هذه الزوجة بعض البضائع المهرية ، اشترت الزوجة لنفسها في البداية بعض هذه البضائع ، و بعد فترة وجيزة استدرجت هذه المخبرة زوجة الطبيب إلى منزلها بحجة بيعها المزيد من البضائع النفيسة المستوردة ، في إحدى زيارات هذه الزوجة إلى منزل المخبرة التاجرة انتهزت هذه المخبرة الفرصة و قامت بتخدير زوجة صاحبنا الطبيب و ابنتها و تجريدتهما من ثيابهما و تصويرهما عاريتين تماما و في أوضاع مشينة جدا ، و بعد هذا اتصل الضابط المسؤول عن هذه المخبرة بهذا الطبيب و استدعاه للقاء خاص و عرض عليه الصور ، و أخبره بأن زوجته و ابنته سلمتا من الإغتصاب هذه المرة ، و لكن على هذا الطبيب أن يشتري صور أسرته التذكارية بمبلغ ضخم !.

دفع الطبيب للضابط هذا المبلغ ، و حصل على الصور و أتلفها بسرور مع شريط التصوير الأصلي ؛ بعد مدة استدعاه ضابط آخر و عرض عليه نفس الصور و طلب مبلغا آخر و أعطاه مهلة للدفع !.

في خلال هذه المهلة أرسل الضابط إلى هذا الطبيب مخبرا من أقارب الطبيب ، فاجأ هذا المخبر قريبه الضحية بأنه يعرف قصة الفضيحة ، ثم تقمص هذا المخبر دور الناصح الأمين و أقنع قريبه الطبيب بمغادرة البلاد و بالعودة من حيث أتى لأن الخلاص من شبكة الإبتزاز هذه مستحيل ، و قد يتطور الأمر لتوريط الطبيب نفسه في ما هو أخطر كاتهامه بجرمة أو فضيحة جنسية مثلا ، فهؤلاء الناس لا يخافون من الله و من لم يخف من الله عليك أن تخاف منه !.

قرر الطبيب أن يخرج من البلاد قافلا إلى الغربية مرة أخرى و هو يلعن تلك الساعة التي فكر فيها بالعودة إلى وطنه ، و اضطر إلى بيع ممتلكاته بأقل بكثير من قيمتها ، المشتري كان واحدا من مخبري اللواء منصف ، و بعد هذا اضطر الطبيب لدفع مبلغ كبير من الرشاوى لأحد ضباط اللواء منصف حتى تمكن من تحويل ثمن ممتلكاته و جنى عمره إلى العملة الأوروبية ، و مغادرة البلاد بهذا المال الذي بقي له بعد أن سُلِب منه أكثر من نصفه خلال عام و نصف العام فقط.

تختلف كثيرا القصص التي تعرض لها ملايين المغتربين العائدين ، لكنها كلها كانت تنتهي بهروبهم من بلادنا إلى الغربة مرة أخرى و هم يلحقون جراحهم و يندبون خسائرهم و يلعنون بلادهم و حظهم العاثر الذي كان سببا في ولادتهم في أرض السعادة تلك ، و ليحذروا ذريتهم من العودة إلى تلك الأوطان التعسة ، هذا كله بفضل التخطيط الرائع للجنرال هنري و التنفيذ البديع لمنظومة اللواء منصف.

منذ أن تولى الزعيم بديع السلطة مرورا بعهد هرثة و إلى يومنا هذا غادر البلاد أكثر من عشرة ملايين من الشباب و الفتيات ، كلهم من ذوي الحرف و المهارات أو من حملة الثقافة العلمية بأنواعها ، هؤلاء جميعا جربوا مرارا أن يعودوا إلى البلاد لينقلوا إليها أموالهم و خبراتهم الجديدة و يبنوها و يسكنوا فيها ذريتهم ، و لكنهم فشلوا جميعا في الإستقرار في وطنهم مرة أخرى ، فغادروا إلى المغتربات غير آسفين و لم يعودوا منها أبدا و لم يعد من ذريتهم إلى بلادنا أحد ، بلغ عددهم اليوم أكثر من أربعين مليوناً من "المغتربين" و أبنائهم .

و لا زلنا في ذكرياتي عن الأسر الحاكمة ، في أول سنة من تولي هرثة للسلطة قدم لنا البريغادير فيليب (كان وقتها ميجور) شخصا مثيلاً للإشمئزاز و الغيظ ، ليس بسبب شكله و لا بسبب طريقة حديثه ، السبب كان في دناءة طبيعة هذا الشخص ، إنه شخص لا يمانع في فعل أي شيء يُطلب منه مقابل المال ، هو محام مغمور وسيم الحيا و منحط النسب جدا لدرجة أنه غير مسجل لأب معروف ، أمه كانت مومسا معروفة في قريتها ، هو بالطبع من أتباع الديانة السرية ، اسمه الأستاذ لبيب. تم ضم لبيب هذا و أسرته المكونة من زوجته و بناته إلى نادي الأسر الحاكمة بترشيح خاص من فيليب ، فلقد قدم لبيب هذا للميجور خدمات جليلة في مهماته ، طبعاً زوجة لبيب و بناته كنّ من وسائل الترفيه الحبية لفيليب لأنهن أصلاً يتحدّرن من أمهات خبيرات في فن الترفيه الجسدي.

عُيّن لبيب هذا أولاً كمستشار لوزير العدل اللواء دري - بطل السجن الحربي و شريك القاضي فاضل - ثم تدرج في المناصب حيث عين وزيراً في عدة وزارات و استقر به الحال بعد عقد واحد ليصبح رئيساً لمؤتمر الأمة و مشرفاً عاماً على الجمارك في البلاد.

ليب هذا من منطقة جنوبية غنية جداً بمزارع الخشخاش في البلاد ، و العجيب أنه كان الوحيد في منطقته من حملة الشهادات الجامعية رغم أصله الوضيع ، فلقد حالفه الحظ في مطلع شبابه بأن كانت أمه محظية لدى أحد شيوخ الديانة السرية الكبار ، هذا الشيخ ساعد لبيب على إكمال دراسته على نفقة أتباع الديانة ، كان هذا بسبب إصرار أم لبيب على مطالبتها بتعليمه مقابل خدمات بناتها الترفيحية.

بعد موت هذا الشيخ الجليل تولى ليبب بتوصية منه قيادة أتباع الديانة السرية في تلك المنطقة بالنظر إلى علاقات الأخير بالميجور فيليب خلال فترة دراسته و تدريبه على المحاماة في العاصمة الساحلية.

ليبيب هذا ماهر جدا في الكذب و التمثيل و تصنع الجدية ، و شخصيته التي تبدو رصينة هادئة و محبة تخفي الكثير جدا من الوحشية الغير معقولة ، لدرجة أن البريغادير فيليب قال لي مرة : لم أر في حياتي شخصا مخلصا لنا و هممت بقتله كلما تكلم إلا الأستاذ ليبب ، و لكنني أخاف أن أغضب البارون.

نجح ليبب هذا في الجزء الجنوبي من البلاد و من الكرة الأرضية في تأسيس و تثبيت أكبر شبكة للتهريب و السرقة و القتل بالأجرة عرفها العالم على الإطلاق ، و لست أبالغ في هذا الوصف.

تولى ليبب إعادة تأسيس جهاز الجمارك في البلاد بعد حرب المدينة الثائرة ، و بالتعاون مع رفاة و هرثة و بتسهيلات من البارون تمكن من توطين عشرات الآلاف من أتباع الديانة السرية الجنوبيين في غرب أفريقيا و قارة أمريكا بكاملها و أوقيانوسية و جنوب أوربة و وسطها ، هؤلاء جميعا عملوا في شبكة رفاة لإستلام منتجات الخشخاش المهربة في حاويات نقل المواد الغذائية المعلبة ، تلك الحاويات التي يتم تصديرها إلى أوربة و أمريكا ضمن شبكات طريق الخشخاش كما أسلفت سابقا.

أتباع الأستاذ ليبب و أتباع رفاة متكاملون و متعاونون ، على الرغم من أنهم من مذهبين مختلفين من أتباع الديانة السرية ، إلا أن العداوة الأبديّة للمسلمين هي ما يجمعهم ، لم يكن ليبب هذا أقل قساوة من رفاة في ضبط أتباعه و إلزامهم التعاون و السرية لتسهيل عمل شبكاته و ضمان استمرارها ، بل لعل ليبب أقسى بكثير من رفاة ، فهو لا يتوانى عن إبادة الذين يخالفون أوامره و إبادة عائلاتهم معهم في حفلات دموية رهيبة يقشعر البدن من مجرد وصفها ، و أتباعه قساة و متوحشون جدا ، سلاحهم المفضل هو البلطة و الفأس.

أضاف ليبب إلى مهمات شبكاته عددا غير قليل من الأعمال الضخمة ، ففي خلال عقد واحد من عمله خارج البلاد نجح في تركيب شبكة لنقل المواد الغذائية الرديئة من غرب أفريقيا و جنوب أمريكا إلى بلادنا و إلى البلاد العربية في شمال أفريقية ، هذه الشبكة كانت غطاء لنقل خلاصة ثمار "الكوكا" الخام إلى مناطق إنتاج الخشخاش في بلادنا ، ثم و في المناطق التي تتبع للأستاذ ليبب يتم تحويل هذه الخلاصة إلى "كوكاين" نقي ، ثم يعاد تصدير هذا الكوكاين برفقة الهرويين و بقية مشتقات الخشخاش إلى أوربة و شمال أمريكا و البلاد العربية الغنية بالنفط في جزيرة العرب.

مهمة أخرى أضافها الأستاذ للشبكات هي مهمة سرقة السيارات ، فلقد قام أتباعه بتأسيس شركات كبيرة للشحن البحري في كافة أرجاء أوربة ، اشترى ليبب مع عدد من شركائه من رؤساء الأسر الحاكمة أعدادا كبيرة من سفن الشحن و حاويات النقل البحري ، إلى درجة أن أتباع الأستاذ ليبب سيطروا على عدة أرصفة للشحن في موانئ أوربية هامة و كبيرة.

أفراد شبكات الأستاذ عملوا على تجنيد لصوص شوارع أوربة من الملوئين ، بحيث يقوم اللصوص بسرقة السيارات الحديثة و الفخمة من شوارع أوربة ، ثم يبيعونها لأتباع ليبب بأسعار مضحكة ، تُستلم السيارات في ورشات لجمع الخردة ، هناك يتم تقطيع هذه السيارات بطريقة فنية ، ثم توزع قطع كل سيارة على عدة حاويات يتم إرسالها إلى بلادنا على أنها حاويات قطع تبديل لسيارات مستعملة ، في بلادنا تتم إعادة تجميع هذه السيارات و تعطى هويات و أرقاما متسلسلة جديدة ثم يعاد شحنها إلى البلاد العربية و الأفريقية لتباع بأسعار باهظة قريبة من أسعارها في أوربة ، فكرة شبكة سرقة السيارات هذه كانت من بنات أفكار البارون ، لقد شكلت هذه الشبكة الحافز الدائم للمواطنين الأوروبيين و الأميركيين على دفع أكثر من (ترليون) مليون مليون دولار سنويا لشركات البارون للتأمين على السيارات ، مبالغ أخرى مشابهة لشركات أجهزة الإنذار و الأقفال الإلكترونية التي تتبع للبارون أيضا ، بينما لم يزد حجم تجارة السيارات المسروقة على عدة مليارات في أعظم الأحوال!!.

لعل أخطر المهمات التي أضافها الأستاذ ليبب لشبكاته كانت مهمات رعاية رحلات "الصيد البري" ، ذلك أن شركات البارون السياحية الخاصة بعلية القوم في أوربة و أميركا و بلاد النفط افتتحت فرعا خاصا لهواة الصيد المثير و الدموي جدا ، هذا الفرع ينظم رحلات صيد لهواة الصيد المترفين من علية القوم ، هذه الرحلات باهظة الثمن جدا و مفيدة جدا للبارون ، لأن جميع أنشطة القتل في هذه الرحلات كانت مصورة و باحترافية لتكون وثائق بحوزة البارون يتم بها إبتزاز زبائنه الفاحشي الثراء من رواد هذه الرحلات المنحرفين عقليا.

في أفريقية و الهند و جنوب أميركا يقوم رواد هذه الرحلات بالصيد في الحميات الطبيعية التي يحظر فيها الصيد ، هناك يقتل الأثرياء فيلة و غمورا و ذئابا و غزلانا و ثيرانا برية و قرودا و دببة ، و أيضا يقتلون بشرا من أبناء القبائل البدائية ، قتل يتم بكافة الوسائل بداية من القتل بالبنادق و القناصات و انتهاء بالقتل بالأفخاخ و شرك الصيد المعدنية.

شبكات الأستاذ ليبب من أتباع الديانة السرية هي التي تقدم التسهيلات و الخدمات و المرافقة و الإرشاد و الحماية لهؤلاء السائحين و لحفلات الصيد التي يتمتعون بها في رحلاتهم ، و طبعا يتقاضى هؤلاء الأتباع أجورا ضخمة من سيدهم ليبب ، هذه الأجور لا تشكل مع هذا سوى ربع حصة ليبب من أجور هذه الرحلات الباهظة الأجر.

من خلال علاقات اللواء دري مع الأستاذ لبيب تم تأسيس فرع لسياحة الصيد هذه في بلادنا ، إذ لدى شبكات الأسر الحاكمة الكثير الكثير من الطرائد التي يجب التخلص منها بين الوقت و الآخر ، فمثلا مختبرات اللواء فائق للبحوث الطبية تصدر إلى سجون دري مئات الشباب سنويا ، هذا عدا عن أولئك الذين تفرزهم نشاطات شبكة مغيرة و شبكات رفاة و منظومات التهريب من الرجال البؤساء و النساء البائسات غير المرغوب بهم و بمن على قيد الحياة.

اخترع الأستاذ لبيب مع اللواء دري ميدانا خاصا لصيد البشر الغير مرغوب بهم من نفايات عمل منظومات السيطرة المختلفة.

يستقبل أتباع لبيب أولئك الصيادين القادمين من أوربة و غيرها ، ثم يخصص لكل منهم يوما خاصا للصيد ، في صباح هذا اليوم الموعود يُنقل الصياد إلى ميدان كبير في البادية ، هذا الميدان مسور ، يقع الصياد في مكنن محصن مموه مخفي مع بندقيته القناصة ، ثم يتم إطلاق عدد من السجناء من نزلاء و نزيلات سجون اللواء دري في ذلك الميدان ، و يتكون في هذا الميدان دون حراسة ليشعروا بأنهم قادرون على الفرار ، فإذا ما بادروا في التجول في أطراف الميدان الترابي يقوم الصياد الضيف بصيدهم الواحد تلو الآخر بعد أن يستدرجهم إلى حيث يظنون أنهم سيجدون ماء أو مهربا ، ذلك أن هذا الصياد يستطيع فتح مضخات مياه أو بوابات وهمية في جوانب الميدان عبر لوحة تحكم موجودة أمامه ، أجر رحلة كهذه يزيد على المليون دولار أمريكي للسائح الواحد ، لكنها رحلة مثيرة و تنطبع في ذاكرة هواة الصيد هؤلاء لبقية أعمارهم.

على مدى أربعة عقود من العمل حصد لبيب هذا ثروة تفوق الحصر من أعماله ، تجمعت كلها في أرصدة خاصة به في عدة مصارف أوربية ، إلا أن أكبر جزء من ثروته تيسر له جمعه بعد توليه لمهمة كبيرة قام بها في بداية العقد الثاني من عهد هرثمة. في بداية تلك الفترة عقدنا اجتماعا صيفيا في قصري في سويسرا مع البارون و صديقه البروفسور وليام ، و خلال الاجتماع عرض علينا البروفسور المهمة الكبرى التي تولى الأستاذ لبيب أدائها و لا يزال .

قال البروفسور : لقد أجرينا أبحاثا كثيرة على كيمياء الأحياء ، خاصة كيمياء الأمشاج الوراثية التي تحمل مواصفات الأجسام الحية ، من جملة هذه الأبحاث أجرينا أبحاثا على تعديل مورثات النباتات ، هذه التعديلات كان أحد أهدافها جعل النباتات مقاومة للحشرات الطفيلية ، ضمن البحث عن هذا الهدف تحديدا أجرينا أبحاث و تجارب كثيرة لإكتشاف ما يجذب الحشرة إلى النبتة ، و بعد عدة إكتشافات قمنا بتعديل المورثات للنباتات حتى تصبح غير مقبولة لدى الحشرات ، بعض التعديلات جعلت النباتات سامة لهذه الحشرات ، لكن هذه التعديلات كان يجب أن تتم بحيث لا تلغي ما يجذب الإنسان لتناول هذه النباتات ، و هكذا أجرينا تعديلات على هذه النباتات فصارت مقاومة للآفات الحشرية و لمبيدات الأعشاب و في نفس الوقت مرغوبة لدى الإنسان.

خلال هذه التجارب اكتشف علماؤنا أن الجسم البشري و جسم الحشرة و أي جسم حي يعرف سلفا المواصفات الكيميائية للنباتات التي تناسبه لتكون طعاما آمنا ، فالأنف يشتم الروائح بتحليل الكيميائي للزيوت الطيارة و الغازات التي تطلقها النباتات ، و الفم يستسيغ مكونات النباتات بتحليل الكيميائي المسمى "التذوق" ، و في المعدة و الأمعاء أيضا يعرف جهاز الهضم ما هي الأجزاء التي يجب امتصاصها من النبات.

لقد نجحنا في تعديل النباتات بحيث تكون غير مستساغة أو حتى سامة للحشرات ، إلا أن هذه التعديلات أثرت على استساغة الإنسان لهذه النباتات عبر مستقبلاته ، فطعم و رائحة هذه النباتات تغيرا بعض الشيء و أيضا تغير تركيب النباتات الكيميائي فصار غير مناسب جزئيا لأجهزة الجسم الداخلية كجهاز الهضم و جهاز المناعة و مستقبلات و أجهزة النقل الدموية.

النباتات كانت قبل هذه التعديلات مناسبة تماما للمعلومات المخزونة في ذاكرة المورثات و في أجهزة الإنسان ، لهذا لم يكن استهلاك هذه النباتات يحفز و يستفز الجهاز المناعي كونه يعرف هذه النباتات مسبقا ، إلا أن هذه التعديلات جعلت استهلاك هذه النباتات مستفزا للجهاز المناعي للإنسان و يجعله في حالة تأهب جزئية قابلة للزيادة دوما و دوما ضوابط محددة يمكن توقعها.

هذا الإستفزاز الذي تسببه هذه النباتات للجهاز المناعي يسبب عشرات الأنواع مم يعرف بـ "الحساسية" للأجسام البشرية ضد أشياء بعينها ، هذه الحساسية بدورها تسبب أمراضا مزمنة لمستهلكي النباتات التي عدلناها وراثيا ، أكثر هذه الأمراض انتشارا هو القلق و التردد الدائم و عصبية المزاج و التهور نتيجة للتوتر الدائم للجهاز الهضمي و خاصة في أجزائه الأخيرة ، أقصد القولون و المستقيم ، أيضا هذا التأهب المتواصل لجهاز المناعة يسبب اضطرابات عامة في عمل الغدد و يسبب خمولا عاما في أعضاء الجسم يؤدي للسمنة الزائدة و ما يتبعها من أمراض كثيرة.

الشخص المصاب بالحساسية المفرطة و خاصة في جهازه الهضمي يكون محروما من الصفاء الذهني و من القدرة على الإستيعاب و الصبر و التفكير السليم العميق ، و هذا بالضبط ما يجعله يتكل على غيره من الناس الأكثر إتزان ليتخذوا له القرارات التي يحتاجها حياته ، هؤلاء الناس هم نحن بالطبع.

قلت للبروفسور : ألا تؤثر هذه النباتات أيضا على صحة الجسم ؟ ألا تسبب أمراض قاتلة كالسرطان ؟.

قال البروفسور وليام : نعم بالتأكيد و هي مضرّة بالفعل بالصحة و لكن ليس على المدى القريب ، ما ذكرته لك من آثار استهلاكها هو الآثار التي تظهر خلال فترة قصيرة على مستهلك هذه النباتات.

قلت : هل هذه المحاصيل أرخص من الطبيعية ؟.

قال البروفسور : كلفة إنتاجها أقل من عشر كلفة المحاصيل الطبيعية ، و هي و إن كان طعمها غير مطابق للمحاصيل الطبيعية إلا أن شكلها مطابق للطبيعي بل و أكبر و أكثر بريقا من الطبيعي بكثير.

قلت : هل المطلوب أن نزرع هذه المحاصيل في بلادنا ؟.

قال البروفسور : نعم لكن في فترة لاحقة ، إلا أننا اليوم ننتج هذه النباتات في مزارع هائلة في أوربة و أمريكا و لسنا بحاجة لزراعتها عندكم و بيد مزارعكم ، لكن ستكون كل الحبوب التي يستهلكها الناس من تلك التي قمنا بتعديلها وراثيا.

في الإجتماع اقترحت على البارون أن تتولى شبكات الأستاذ لبيب مهمة شراء و نقل هذه المنتجات إلى بلادنا و تسويقها ، و أن تحل هذه الشبكات محل المؤسسات التي أنشأت على عهد الزعيم بديع و الموجلة بالإستيراد و التصدير.

بعد عودتي إلى البلاد من تلك الصائفة السويسرية التقيت بلبيب و أفهمته ما يجب عليه فعله ، و لقد فرح بشدة لتوليه هذه المهمة التي رأى فيها فرصة تاريخية لإنتقام أتباع ديانتة السرية من سكان بلادنا المسلمين دون حروب أو دماء.

بعد عدة أشهر أصدر هرثة عدة رخص و استثناءات لإستيراد الغذاء باسم شركة يرأسها لبيب و يملك أسهمها عدد كبير من رؤساء الأسر الحاكمة في البلاد.

لم يترك البارون للبيب مهمة شراء النباتات المعدلة وراثيا من السوق العالمية ، فقط كان على لبيب أن يستقبل تلك الشحنات الضخمة من الحبوب المعدلة وراثيا عبر الموانئ ، ثم تخزين هذه الحبوب في مخازن لبيب ، ثم بيعها رجال لبيب في السوق المحلية جملة إلى التجار.

احتكرت شركة لبيب هذه استيراد و توزيع كل حبة ذرة و حمص و قمح و فول و عدس ، و كل نقطة زيت نباتي في طول البلاد و عرضها ، و صار لقب الأستاذ لبيب عند العوام رئيس مجلس الحبوب و الزيوت النباتية بدل لقب رئيس مجلس الأمة.

أرباح هذه الحبوب كانت تزيد على الألف بالمائة ، ذلك أن هذه المحاصيل المعدلة وراثيا ليست مرغوبة في أسواق أوربة و أمريكا ، لكن الناس في بلادنا لا تعرف شيئا عن هذه الحبوب و الزيوت المعصورة منها.

بعد عقد واحد فقط ازدادت الأمراض التحسسية و أمراض جهاز المناعة و الهضم و السرطان و أمراض المواليد الجدد إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل بداية استيراد هذه المحاصيل ، ازداد أيضا استيراد الدواء من الخارج لعلاج هذه الأمراض ، فخطرت على بال لبيب فكرة ذكية جدا تم تنفيذها عبر شركة أخرى يرأسها لبيب أيضا ، لكن هذه الشركة لم يكن عملها في البلاد هذه المرة و إنما في بلد آسيوي كبير منفتح صناعيا و تجاريا.

هذه الشركة كانت تقوم بإنتاج أدوية ، هذه الأدوية لها نفس الأغلفة و الأسماء و التركيبات للأدوية الأوربية المتداولة ، إلا أن أدوية الأستاذ ليبب تحتوي على ربع الجرعات الدوائية للأدوية الأصلية و بقية مركبات الحبة الدوائية من المادة المغذية التي يُحمّل عليها المركب الدوائي.

هذه الأدوية تشحن اليوم إلى البلاد في نفس حاويات شحن الدواء التابعة لوزارة الصحة الوطنية ، و تباع في المخازن الدوائية و الصيدليات على أنها الأدوية الأصلية المستوردة.

طبعاً أرباح هذه المهمات اللببية كانت ضخمة جداً ، لدرجة أن أرقام حساباتها صارت فلكية حقاً في بنوك أوروبا و خلال أقل من عقدين فقط على بدء العمل بها ، من وجهة نظر البارون يستحق ليبب أضعاف ما حصل عليه فعلاً ، لأنه مهد لنجاح طواقم البارون العلمية في إخضاع سكان كوكب بأكمله لسلطان المنظومات و في تحويلهم عضواً إلى ما يشبه الأرناب المرعوبة.

ليبيب لا يزال رمزاً للديمقراطية و لوحدة الأمة و لسيادة القانون ، إنه المحامي الخالد الذي يرأس مجلس الأمة الكبير ، رمز القانون و التشريعات ، و إلى نهاية العمر و إلى ما بعد نهاية العمر.

الصحافة الأوربية و العربية أطلقت على رؤساء الأسر الحاكمة في بلادنا لقب "البارونات" و الواقع أن هؤلاء ليسوا سوى رؤساء عمال أو نظّاراً للعبيد عند البارون جيمس ، إلا أنهم نظّار شرسون و قساة فوق حد الوصف ، و إذا نظرنا إلى هذه الأسر لوجدنا أن أكثرها شراسة على الإطلاق هي أسرة اللواء "همام" و شقيقه اللواء "راضي" ، لم يتخرج أي واحد منهما من كلية عسكرية ، و لكنهما تأهلا لهذه الرتب العسكرية بسبب قرابتهما الوثيقة من هرثمة ، و لقد كانا لفترة متوليان لحراسة هرثمة الشخصية في داخل قصره و خلال تنقلاته دون أن يكونا من موظفي الجيش ، ثم رُتبت لهما رتبة عسكرية تصاعدت على مرّ ثلاثة عقود حتى بلغا رتبة اللواء.

يلقب هذا الرجلان في أوساط الحكومة بـ "المقاولان" أو "المتعهدان" ، و لعل هذا يعود إلى ما غلب على عملهما و المهمات التي كانا يريعاها ، ففي بداية النصف الثاني من العقد الأول من عهد هرثمة حضر إلى بلادنا وفد كبير من التقنيين و المهندسين المدنيين و معهم خرائط كثيرة جداً للأودية و الأنهار و مساقط المياه و الطرق العامة في البلاد كلها ، كان على رأس الوفد مهندس أرمني يدعى الدكتور "كالوست" ، هذا الرجل كان خبيراً في اختصاصين ، الأول هو البنى التحتية و السدود ، الثاني هو التنقيب عن المناجم و الثروات المعدنية ، الوفد الذي كان بصحبته أيضاً كان ينقسم إلى هذين الإختصاصين.

قبل عهد الزعيم بديع كانت البلاد تعتمد على أسلوب التنمية التدريجي الصارم ، فشبكات الطرق و الري و تصريف المياه المستعملة كانت تبني بمواصفات تضمن عدم انهيارها لمدة قرنين من الزمن على الأقل ، و لقد كانت توجد في وزارة الإنشاءات العامة خرائط توضيحية تقسم هذه الشبكات بحسب تاريخ إنشائها و مع هذه الخرائط جداول زمنية لواجبات ورشات الصيانة و التجديد تلاحق أجزاء الشبكة بحسب أقدمية وجودها ، هذه الورشات كانت دوما تهدم الأجزاء الأقدم و تستبدلها بأجزاء جديدة مطابقة للمواصفات الأصلية لهذه الشبكة ، هذه المواصفات كانت ممتازة حقا ، الزيادات و التوسعات في هذه الشبكات كانت تتم بتخطيط مسبق ، و بتنفيذ متقن بحيث لا تكون أية توسعة أقل جودة من بقية الشبكات.

وفد الدكتور كالوست كان يحمل خطة ثورية تماما لتوسعة شبكات الطرق العامة و البنى التحتية ، هذه الخطة كانت أيضا تشمل التنقيب عن مزيد من حقول الوقود الأحفوري و المناجم المعدنية في سائر أرجاء البلاد ، مهمة كالوست جاءت بتوصية من فريق المستشارين الأوربيين و نتيجة لأبحاث كثيرة قامت بها عدة وزارات دفاع أوربية كانت قد شاركت في الحرب العالمية الأولى ضد المحور الألماني النمساوي التركي و انتصرت عليه و راحت تحصد نتائج النصر معا على مدى قرن متواصل. قام كالوست بتوزيع الخرائط على عدة وزارات في الدولة ، هذه الخرائط تحولت لاحقا إلى مشاريع إنشائية أنجزتها كل وزارة بحسب تخصصها ، هذه الوزارات هي وزارة الري و وزارة المواصلات و وزارة الإنشاءات العامة و وزارة الدفاع و وزارة الزراعة و استصلاح الأراضي و وزارة التعدين.

بعد زيارة الدكتور كالوست الطويلة إلى البلاد غادر الرجل إلى أوربة ، لكنه ترك وراءه نصف أعضاء فريقه ليشرفوا بشكل دائم على تنفيذ هذه المشاريع العملاقة.

التقيت مع كالوست في أوربة بعد مغادرته لبلادنا في اجتماع هام في قصر البارون ، و استمعت منه إلى ملخص لمهامه كلها ، هذا الملخص قرأه كالوست علينا بحضور عدد من ضباط جيش الدولة الأوربية المنتدبة سابقا على بلادنا ، قال كالوست :

إن قوة شبكة الطرق و الري و تصريف الماء المستعمل في بلادكم مثيرة للقلق في أية حرب قادمة ، لأن هذه الشبكات لا يسهل تدميرها و إخراجها من العمل بسبب متانتها ، و سيمكن استخدامها بطاقة كبيرة حتى لو تم استهدافها بالقصف أو التدمير الحربي ، هذا يحتم علينا استبدالها بشبكة أخرى هشة سريعة العطب ، و سيكون لهذا فوائد كثيرة ، أولها أن أي تمرد عسكري قد يقع في بلادكم سيكون قمعه سهلا من خلال تركيع المناطق المتمردة بحرمانها من الماء و من التخلص من الماء المستعمل و بحرمانها من شبكات المواصلات بين القرى و المدن ، لن يكلفنا هذا سوى حملة من القصف المركز لتتم تسوية أجزاء كبيرة من هذه الشبكات بالأرض و تحويلها إلى ركام.

الثاني أن هذه الشبكات ستكون عرضة للخراب بشكل دائم ، سيحتاج إصلاحها إلى الكثير من العقود المكلفة مع الشركات و الفرق الهندسية و المتعهدين ، و هذا بحد ذاته فرصة استثمارية كبيرة ، سنفيد في البداية من استبدال الشبكات القديمة ، ثم سنركب مضخة كبيرة تشفط الضرائب و المزيد من الضرائب من جميع أهل البلاد ، سيدفع الناس هذه الضرائب و هم مرغمون لأن أحدا لا يستطيع أن يبقى دون ماء أو صرف للمياه المستعملة أو دون طريق يوصله إلى ممتلكاته اليومية.

ثالثا ضمن خطتنا إنشاء الكثير من السدود السطحية و السدود المائية على الأنهار ، هذه السدود ستحجز وراءها بحيرات كبيرة ، و لن نبني أمام أي من هذه السدود قنوات إحتياطية لتبعثر مياه البحيرات إلى مجارٍ و قنوات آمنة في حال انهيار هذه السدود ، هذه السدود سيكون تحطيمها في جولة قصيرة من القصف الجوي كفيلا بإغراق ثلاثة أرباع مدن و قرى البلاد بمياه بحيرات السدود بأنواعها ، هكذا سنضمن أن أي تمرد واسع في بلادكم سيمكن تحويله إلى كارثة كبرى لا تقوم بعدها للبلاد قائمة ، لأنها ستفقد في هذه الكارثة و ما يليها من التشرذ و النزوح و الدمار أكثر من ثلثي سكانها بسبب الجوع و المرض. شبكاتنا ستكون بمثابة الفرقة العسكرية الهندسية التي تدمر المواقع الصديقة ، حتى لا تقع في يد العدو في حال عجزت الفرق القتالية عن الدفاع عنها ، هي ببساطة خطة شمشون الجبار لإسقاط الهيكل فوق رؤوس الجميع ، طبعا سيسقط في بلادكم فوق رؤوس الشعب المتمرد فقط.

لقد استمعت إلى كل أولئك الذين كان يرسلهم البارون إلينا في مهمات كبيرة ، لكنني لم أسمع واحدا منهم يتحدث عن الشعب في بلادنا بمثل هذا الحقد الفظيع ، لقد كان وجه الرجل الأصفر أصلا يقطر سما زعافا طوال اللقاء ! لا أعرف لماذا .!

بعد عودتي إلى البلاد أعطيت توجيهاتي لهرثة لتعيين كل من المقدم همام و أخوه راضي في منصبين إداريين في وزارة الدفاع ، ثم تم تفرغهما تماما لتأسيس شركة كبرى للمقاولات ، هذه الشركة لم يكن لها في الواقع أي عمل يمت بصله إلى المقاولات ، لم تكن في هذه الشركة آليات و ليس لديها عمال و لا فنيون و لا بناؤون و لا مهندسون و لا من يجزئون ، هذه الشركة كانت تشكيلا كبيرا لمخابرات خاصة ، مهمة هذا التشكيل هي السيطرة على كافة المقاولات و التعهدات التي تعلن عنها الوزارات الآنفة من أجل تنفيذ مشاريع كالوست ، ثم تضمين عقود تنفيذ هذه المقاولات و التعهدات لشركات و مهندسين وطنيين ، نسبة أرباح هذه الشركة ثابتة و هي نصف أرباح أي عقد تعهدي على الأقل ، مثلا تعلن وزارة الري عن إنشاء سد سطحي لحجز مياه الأمطار في منطقة معينة ، و تدعو الوزارة كافة المتعهدين لتقديم عروضهم في مناقصة بالظرف المختوم ، بعد أن يتقدم المتعهدون بعروضهم يقوم همام أو أخوه راضي باستدعاء كافة المتقدمين إلى مقر شركتهم الكبرى ، و هناك تتم مفاوضات على طريقة المزاد ، من يدفع حصة أكبر لشركة الأخوين الهمامين سيحصل على التعهد لتنفيذ السد ، في المقابل سيغطي الهمامان على المتعهد عند تسليمه للمشروع ، طبعا سيكون السد أسوأ بكثير من المواصفات المطلوبة لأن المتعهد

سيستعمل مواد بناء بكميات أقل و من نوعيات أردء مما يحتاجه السد للتماسك طويلا أمام الظروف الصعبة ، الهمامان يحصلان فقط على عشر الدفعة التي سيدفعها لهما المتعهد و الباقي يتم تحويله لصالح منظومتنا في بنوك أوربة ، و حتى حصة الهمامين سيتم حفظها لهما في مصارف أوربة .

خلال ثلاثة عقود من عمل الهمامين أنشأت عشرات آلاف الكيلومترات من الطرق و عشرات السدود السطحية و المائية في مختلف مجاري أودية السيول في البلاد و على جميع الأنهار تقريبا و بالقرب من أغلب المدن الكبرى ، تم أيضا مد آلاف الكيلومترات من أنابيب المياه و قنوات الري الزراعي و قنوات تصريف المياه المستعملة.

لقد دفع سكان البلاد أموالا طائلة لإنشاء هذه الشبكات و المنجزات العظيمة ، و لكنهم دفعوا أيضا عشرين ضعف كلفة هذه الشبكات و المنشآت من أجل صيانتها و إصلاحها ، قتل مئات الألوف بسبب انهيارات السدود السطحية و حوادث الطرق و حوادث الغرق في السواقي و شبكات الري و التسمم بتلوث مياه الشرب نتيجة اختلاطها بمياه شبكات تصريف الماء المستعمل و مياه المراحيض و البلاءات بين الحين و الآخر ، إلا أن شبكات الهمامين بقيت من أعظم منجزات الثورة على الرجعية.

هذه كانت المهمة الأولى للهمامين.

مهمة الهمامين الثانية كانت أكبر و أعظم و لكنها أيضا تدخل تحت نفس أهداف المهمة الأولى ، ففي نهاية العقد الثاني من عهد هرثمة وصل إلى البلاد واحد من أعرق خبراء التنظيمات السرية في العالم يدعى الجنرال ريتشارد ، و أجرى هذا الرجل جولة ميدانية على السجون و المعتقلات في البلاد و أمضى ستة أشهر كاملة و هو يدرس ملفات مئات السجناء من أتباع الجمعية الإسلامية و مناصريها ، ثم عاد إلى أوربة و بعدها أرسل إلي البارون دعوة للحضور إلى اجتماع مع الجنرال ريتشارد ضمن مؤتمر ضيق يعقد في قصر العائلة في سويسرا.

خلال اللقاء تحدث الجنرال مطولا عن المهمة الجديدة التي نحن بصدددها و عن أبعادها و أهدافها و الجدول الزمني المحدد لتنفيذها ، مختصر ما قاله الجنرال هو :

إذا كنت تريد أن تغطي على ضجيج ما ، عليك أن تصدر ضجيجا أعلى منه ، و إذا أردت أن تضع جريمة قتل ما ، تنوي ارتكابها ، فأشعل حربا في مكان ارتكابك لهذه الجريمة ، عندها ستغطي جريمتك و سيكون لديك الفرصة الكافية لجعلها قتلا و سرقة و تخريبا ؛ منظومتنا لم تعد اليوم بحاجة إلى الحروب لتفرض سيطرتها و توسيع مناطق نفوذها ، و لكنها بحاجة للحرب لتغطي على التغييرات الكبرى التي تجريها في كل مكان في العالم ، فالحرب تشد إنتباه الجميع و تصدر أعلى ضجيج يمكن أن

تسمعه الأذن البشرية ، و روائح دخانها و جثث ضحاياها كافية لتغطي على كل روائح الأعمال القذرة الأخرى التي تُرتكب في وقتها.

لقد احتجنا إلى الحرب الباردة بين الشيوعية و الرأسمالية ، و إلى الحروب الصغيرة التي صاحبته و نشأت عنها ، لنشغل العالم كله عن تحقيق مشروعنا الأضخم في التاريخ ، هذا المشروع الذي حول البشر من كائنات متدبنة خائفة من قوى غيبية خفية إلى كائنات واقعية تتناول ما ترغب في تناوله دون الالتفات إلى قوائم المحظورات الطويلة التي فرضها عليهم رعاة الأديان ، هذه القوائم استبدلناها بقوائم محظورات مشابهة من حيث الشكل إلا أنها تسير نحو إباحة كل المحظورات بالتدريج و دون صدمة الفوضى التي يتحول البشر بسببها عادة إلى وحوش تتصارع على الإحتياجات و الرغبات.

المشروع الثاني الذي سننجزه ينبنى على ما أجزأناه أساسا في المشروع الأول ، هذا المشروع الجديد هو إلغاء المحظورات كلها أصلا و بشكل رسمي و عالمي ، هذا الهدف لا بد لتحقيقه من إلغاء إيمان البشر بالقوى الغيبية و بفكرة الحياة بعد الموت ، يمكن للبشر أن يحصلوا على ما يشاؤون و ما يحتاجون دون أن يتصرفوا برعونة و بهيمية و يمكن لهم أن يشبعوا كل رغباتهم و احتياجاتهم دون التصارع عليها كالوحوش الجائعة ، إذا استطعنا أن نبدل أفكارهم ثم نبدل تصرفاتهم لتكون وفق نظام شامل متكامل ينشأ عليه الصغار و يعملون وفقه بتسليم و يقين و بشكل غريزي يشبه تسليمهم و يقينهم الغريزي بإرشادات رجال الدين ، هذه الإرشادات التي يزعم رجال الدين أنها تهدف لتجنيب البشر غضب القوى الغيبية التي تتحكم بمصيرهم بعد الموت ، لكننا نعلم أن هذه الإرشادات في الواقع كانت تهدف دوما لإقناع البشر العاديين بإطاعة قوانين الأديان بشكل ذاتي و تلقائي و دون الخوف من العقاب القانوني البشري ، لقد نصّب رجال الدين الخوف من غضب القوى الغيبية في قلوب البشر و زرعوه في نفوسهم من الطفولة ، ليكون هذا الخوف شرطيا و قاضيا وهمين يسكنان في قلوب الرعاة فيزجراهم عن مخالفة القانون في غيبة الشرطي و القاضي الحقيقيين ، غضب القوى الغيبية سيحرم البشر من الفردوس و السعادة الأبدية في عالم ما بعد الموت ، و سيكون هذا الغضب سببا في شقاء و عذاب أبديين في الجحيم لمن يعصي القوانين التي يراها رجال الدين.

نحن لدينا أيضا بديلان عن هذين الزاجرين الوهميين ، الأول هو حب الحياة و حلم الخلود في ملذاتها و هو مطمع واقعي و أقرب لنفوس البشر من الطمع في فردوس بعيد لا بد من الموت حتى يصلوا إليه ، و الثاني هو الخوف من المرض و الموت و بالتالي الحرمان من متع الحياة ، هذا الخوف هو أشد إرعابا للبشر من رعبهم من نيران متقدة و شياطين التعذيب في جهنم التي تتحدث عنها الأديان و لن يراها الناس إلا بعد أن يموتوا.

لكن لا بد من القضاء على زاجري الديانات الوهميين في قلوب البشر أولا ، حتى نقدر على تنصيب زاجرنا الوهميين مكائهما في نفوس البشر دون إربكات ، نحن بصدد شن حرب أخيرة فمحو بها أساطير الديانات و أوهامها ، تلك الأوهام و

الأساطير التي تسبب في كافة الحروب على مر التاريخ ، حرب يحل بعدها السلام الأبدي و الدائم في نفوس البشر و في كل أرجاء الأرض ، سلام ينهي الصراعات على الرغبات و الإحتياجات و يُحلّ محل هذه الصراعات نظاما تلقائيا غريزيا ، ينال فيه كل إنسان رغباته و إحتياجاته بمجرد أن يتبع تعليمات هذا النظام الذي وضعناه بعد جهد قرون متوالية من الأبحاث و من استقراء التجارب الإنسانية على مر تاريخها الطويل ، سنبقى نحن رعاة هذا النظام الجديد و العالم الجديد لأننا نحن من صنعناه و نحن من نستطيع منحه الإستمرار و البقاء و التطور المتوازن.

قلت متسائلا : هل ستشنون حربا عالمية جديدة ؟ و على من هذه المرة ؟ هل ستكون ضد الكائنات الفضائية ؟.

ضحك ريتشارد كثيرا و ضحكنا كلنا ، فنحن نعلم جيدا أن أعداء منظومتنا الجديين لم يعودوا موجودين في أي مكان في العالم ، تدخل البارون قائلا : كما تعلم يا كولونيل مهراڤ لقد حاولنا كثيرا و على مر عقدين أن نخلق أعداء من الكواكب الأخرى ، حتى نجعل حربنا عليهم مبررا لتوحيد حكومات العالم و لنستعيز بهذا المبرر عن ضجيج الحرب الباردة و سخافاتها ، لكن هذا لم ينجح و لم نستطع أن نجعله يبدو حقيقيا لأن التطور التقني لم يبلغ بعد درجة القدرة على تصنيع حرب كهذه ، لو أننا استطعنا إنجاز حرب الفضاء و تصنيع أعداء فضائيين لضربنا كل عسافيرنا بحجر واحد ، كنا سنقضي على أساطير الأديان و على فكرة القوى الغيبية و على الفوارق العرقية و الفكرية و الإجتماعية و العسكرية و السياسية بين البشر دفعة واحدة و لمرة واحدة و إلى الأبد ، كل هذا كان الناس سيطرحونه و يضحون به من أجل إنقاذ الكوكب ، نحن نستعمل اليوم فكرة مشابهة بدأت تتبلور عن خطر التدمير الذاتي للأرض بسبب مخلفات التقنيات الصناعية و أنظمة الإستهلاك الحديثة لنجعل منها عدوا مشتركا لكل البشر يوحدتهم لتفادي خطره ، إلا أن هذه الفكرة لن تكون كافية وحدها لتحقيق القضاء على الفوارق الدينية و العرقية و غيرها بين الناس.

قلت متسائلا : من هو العدو الذي سيكون خصمنا في هذه الحرب إذا ؟ لا بد أنه سيكون عدوا وهما آخر و صعوده و تدميره سيحقق نفس الأهداف.

قال ريتشارد : بالضبط ، هذا العدو يكون جيش من القرون الوسطى ، سنعيد خلقه مرة أخرى في عقول و أجساد بشر يقيمون شخصيات جنوده ، لكنهم يعيشون معنا في هذا الزمان ، سنسلح هذا الجيش بأسلحة ضعيفة و لكنها من أسلحة هذا الزمان ، جيش همجي متوحش قاس قمعي بغيض ، جيش سيعيد إلى الحياة مؤقتا حكم رجال الدين و قوانينهم و أساطيرهم ، لكن سيكون هذا الحكم أقرب ما يكون إلى كابوس بشع أو مسلسل من تمثيلات الرعب التي تصور محاكم التفتيش و محارق الساحرات الأسطورية ، هذا الجيش سيقا تل منظومتنا و سيبدو في وضع الهجوم و سنبذو في وضع الدفاع ، و سيقتل هذا الجيش الكثير من جنودنا و أتباعنا ، حتى يشعر البشر جميعا بأننا في خطر حقيقي و أن البشرية أمام خيارين لا ثالث لهما ؛ فإما نحن أو هؤلاء الهمج المتوحشون ، فيضطر الناس لأن يقفوا معنا جميعا ضد هذا الغزو القادم من الماضي

البشع المظلم ، عندها سنقضي على هذا الجيش الكرتوني بضربات متوالية رائعة و مدهشة ، و سنقضي معه على الأديان و على الخوف من القوى الغيبية و على الشرطي و القاضي الوهميين الذين نصبهما رجال الدين في أذهان الرعاع من كل البشر و إلى الأبد ، و سيكون هذا العمل بتوافق عالمي غير مسبوق مطلقاً.

قلت : و أين سيكون هذا الجيش ؟ و ما مدة هذه الحرب ؟.

قال ريتشارد : هذه الحرب لن تزيد مدتها عن نصف مدة الحرب الباردة ، مع أنها بديل للحرب الباردة ، سيكون هذا الجيش عندكم في بلادكم ، لقد أوجدنا الآلات و الآليات اللازمة لتوليد جنود هذا الجيش منذ قرون عدة في أرضكم ، و كل شيء معد ليكون ظهوره طبيعياً و ناتجاً عن الظروف البائسة التي وصلت إليها منطقتكم ، الأهم من هذا أن الدين الوحيد المنتشر على مساحات شاسعة و بين جموع هائلة و يملك نظاماً قانونياً كاملاً في عالم اليوم ، الدين الذي يجمع بين الإرشادات الروحية لتجنب غضب القوى الغيبية و بين القوانين التي تستهدف هذه الإرشادات تطبيقها ، الدين الذي يصف ملكوتا فردوسياً رائعاً ينتظر من يلتزم إرشادات رعاته ، و يصف عذاباً مرعباً و فظيماً ينتظر من يعصي قوانين شريعته ، هذا الدين موجود في بلادكم و كاد يحكم العالم كله في الماضي ، هذا الدين استصنعنا منه نماذج و نسخاً مزيفة تحمل كافة ملامح الدين الأصلي إلا أنها نسخ غير قابلة للحياة و الإستمرار ، سيقا تل هذا الجيش لإحياء حكم إحدى هذه النسخ ، نسخة سيظن الناس جميعاً لشدة شبهها بالدين الأصلي أنها هي وحدها دين أمتكم الصحيح الحقيقي ، و سيطبقها هذا الجيش بمعونة رجال دين مزيفين نحن من صنعهم بعناية فائقة خصيصاً لهذه المهمة ، هذه نسخة بعد تطبيقها ستقنع أبناء أمتكم قبل غيرهم أن الديانات كلها أنظمة همجية متوحشة قمعية بشعة مرعبة و أن الخلاص منها لمرة واحدة و إلى الأبد هو خير ما يجب فعله حيالها.

في إجتماع آخر ملحق بهذا الإجتماع انضم إلينا البروفسور آكنات ، هذا الرجل كان أستاذاً في الفقه الإسلامي و التاريخ و علوم مقارنة الأديان ، رجل طاعن في السن إلا أنه يبدو في الستين ، كان حديثه محدداً و مضبوطاً تماماً أجبرنا على الإستماع إلى كلمة قالها ، و لا زلت أذكر جيداً كلامه رغم مرور ثلاثة عقود تقريباً على هذا الإجتماع ، قال آكنات : الإسلام و اليهودية و غيرها من الديانات النامة تتمتع بصورة هندسية رباعية الأبعاد لأي مجتمع إنساني ، صورة حية تعمل بإنسيابية و بسهولة و إستمرارية منقطعة النظير ، إذا حللنا هذه الصورة إلى أجزاء سنجد ما يدهشنا من التنسيق التكاملي الذي يشبه تماماً التنسيق التكاملي في الجسم الحي الواحد ، أو في أجسام حية متنوعة تشكل بيئة متكاملة لها دورة حياة مكونة من عدة دورات للحياة ، تكامل يحسب حساب كل شيء بما في ذلك الموت و العجز و الفقر و النكبات ، إضافة إلى النمو و النشاط و الإزدهار.

لم تتح لليهودية نفس الفرصة التي أتاحت للإسلام لتتمكن من رسم صورتها الخاصة المستقلة لمجتمع بشري و نشر هذه الصورة على الملأ ، إلا أن جميع مرشدي الديانة اليهودية الصغار لديهم في الحد الأدنى تصور متكامل لهذه الصورة و إن كان

تصورهم يفتقر إلى التفاصيل الدقيقة ، بينما نجد هذه الصورة توضح بالحياة و الجمال الكامل في مجموع التراث الإسلامي المكتوب ، العجيب أننا لا نجد هذه الصورة متكاملة إلا لدى القلة من مرشدي الديانة الإسلامية الكبار في هذه الأيام.

سأعطيكم فكرة عامة و دقيقة عن هذه الصورة ، لدى كل إنسان جوانب كثيرة من الإحتياجات و الأنشطة التي يشترك بها مع جميع أبناء جنسه دون إستثناء ، فجميع البشر لديهم إحتياجات جسمانية يومية للبقاء على قيد الحياة ، و لديهم أيضا إحتياجات موسمية للتعامل مع تغيرات البيئة الدورية من حولهم ، كتغيرات الطقس و تغيرات البيئة النباتية و الحيوانية ، و إحتياجات فطرية تكوينية كالتناسل و الطفولة و الشباب و الكهولة و الشيخوخة و الموت و المرض ، و إحتياجات نفسية كالحب و الإلفة الإجتماعية و الحزن و الفرح و الكره و الغضب و الرضا ، ثم إحتياجات دائمة كالطموح و الإستطلاع و التجدد .

هذه الإحتياجات بتنوعاتها موجودة في البيئة المحيطة بكل إنسان ، إلا أنها ليست متاحة بحيث يحصل منها كل إنسان على إحتياجاته منفردا و بمعزل عن غيره من الناس ، إذ يجب على الإنسان أن يشارك غيره من البشر في كل شيء تقريبا من إحتياجاته ، و معظم هذه الإحتياجات تقع ضمن مجالات تنافس بين الناس ، و لا يمكن التحكم بهذه المنافسات المتجددة في كل لحظة و ضبطها إلا بأنظمة دقيقة جدا و شاملة جدا ، بحيث لا تشكل هذه المنافسة في نهاية الأمر عائقا أمام استمرار الحياة بشكل طبيعي لأي شخص كان في المجتمع.

نجد في الإسلام و اليهودية و غيرها من الديانات التامة أنظمة دقيقة لتوزيع هذه الإحتياجات على كل فرد و كل أسرة و كل فئة من المجتمع الإنساني بحيث يحصل الجميع على هذه الإحتياجات دون مشقات كبيرة ، و دون إنقطاع أو استثناء لأحد أو لفئة و من المهد إلى اللحد .

ففي هذه الديانات نجد نظاما لتوزيع الغذاء و تأمينه ، و نظاما لتوزيع التعليم و المهارات ، و نظاما لتنظيم العمران و توسيعه ، و نظاما لتوزيع النقد و تأمينه و تدويره ، و نظاما لحماية النسل و تنظيم استمراره و رعاية الأسرة ، و نظاما لتبادل المنافع و الخبرات و السلع ، و نظاما لتأمين المواصلات و النظافة العامة و آخر لتأمين الطبابة ، و نظاما لرعاية الشيخوخة ، و نظاما للتعامل مع الموت و آثاره على الأحياء ، و نظاما للتعامل مع البيئة ، و نظاما للتعامل مع الآداب العامة و السلوك الشخصي الفردي و السلوك ضمن الجماعة.

هذه الأنظمة ضخمة و هائلة و مع هذا فإن تركيبها و تطبيقها لا يحتاج إلى الكثير من الوقت و الجهد لأن الناس يألّفون هذه الأنظمة بتركيبتهم الوراثية و معظمهم يتوقع بسهولة الخطوة التالية بعد التعامل مع كل جزء من هذه الأنظمة حتى لو كان يتعامل معه لأول مرة ، إنها موجودة في غريزة كل إنسان.

أخيرا توجد في هذه الديانات أنظمة أمنية و قضائية و عسكرية مهمتها حماية كل هذه الأنظمة الآتفة الذكر من العبث و الإهتار و سوء الممارسة و الإستغلال الأتاني الضار.

أنظمة الحماية و ضمان الأمن في هذه الديانات لا تعتمد على قوة الردع المسلحة إلا في أضيق الحدود ، لأننا نجد في هذه الديانات نظاما آخر لحماية الأنظمة السابقة بما فيها الأنظمة المسلحة نفسها ، هذا النظام هو الحماية الروحية ، أو التربية الروحية التي تنشئ أفراد المجتمع على تقدير و إحترام الأنظمة العامة تقديرا و إحتراما يصل حدّ التقديس المطلق ، تربية تجعل في نفس كل فرد في المجتمع قاضيا و حاكما على هذا الفرد و سلوكه في سره و علانيته ، هذه التربية تجعل تدخل أنظمة الحماية المسلحة أمرا نادر الوقوع في الحياة اليومية للإنسان لدرجة أن أكثر من تسعة أعشار المجتمع يولدون و يعيشون حياتهم و يموتون دون أن يرى أحدهم قاضيا في محكمة.

عندما نشأت دولة المسلمين الأولى كانت دولة صغيرة ، إلا أنها كانت معجزة حقيقية ، فهذه الدولة الصغيرة في "المدينة" كانت تؤمن لجميع أفرادها كل احتياجاتهم تقريبا ، دون مشقات كبيرة و دون خوف و دون ذلّ و بدون ارتباكات في النظام العام ، كانت واحة من الأمان و العيش الكريم و العدالة التامة في وسط بحر من الرعب و الفوضى و الإستعباد و الظلم الرهيب ، هذا البحر كانت أمواجه تضرب في كل أرجاء العالم ، من أجل هذا النجاح المنقطع النظير الذي حققته هذه الدولة انهارت كل النظم التي اصطدمت معها ، و هربت رعايا هذه النظم إلى ظل هذه الدولة ، لا بل و تحول هؤلاء الرعايا إلى جنود أوفياء لهذه الدولة ، هذا هو سر المعجزة ، أيضا كانت مملكة داود في الأرض المقدسة تتمتع بنفس سر النجاح لذلك حققت توسعا كبيرا جدا في زمن قياسي.

السّر في النجاح هو أنظمة توزيع الثروة و السلطة و المنافع ، إن فهم هذه الأنظمة و تطبيقها في أرض الواقع ممكن بسهولة ، إن توفرت إحتياجات أساسية لعلماء الدين الفاهمين ، أولها إنقياد العامة من أتباع ديانتهم لأوامرهم و التزامهم لإرشاداتهم ، أؤكد لكم أن السلطة السياسية و العسكرية ليستا ضمن هذه الإحتياجات ، فكثيرا ما سقطت الحماية السياسية و العسكرية عن مجتمعات متدينة ، و مع ذلك بقيت هذه الأنظمة الرعوية المثمرة تعمل و بسلاسة و أمان لمجرد استمرار العلاقة الوثيقة بين رجال دين هذه المجتمعات و بين عامة الناس فيها ، فاليهودية بقيت مستمرة لآلاف السنين رغم فقدانها لسلطتها السياسية و قوتها العسكرية ، و رغم أن أتباعها عاشوا دوما في بيئة غير متسامحة معهم ، و الفضل في هذا يعود لإنضباط عامة أتباعها و إنقيادهم الكامل لرجال ديانتهم ، مع وضوح الرؤية لدى هؤلاء الرعاة الروحيين.

لقد حرصنا خلال الفترة التي تلت إنقلاب أيّ الحُسن على أن نجد المشايخ عندكم من كل امتيازاتهم و سلطتهم على العامة ، و صاروا اليوم على هامش الحياة لا يعبأ بهم إلا القلة.

قلت : و ماذا يفيدكم هذا في مشروع الجيش الأسطوري الذي تعتزمون تشكيله ؟.

قال البروفسور بثقة : يا سيادة الكولونيل إن هؤلاء المشايخ هم وحدهم القادرون على أن يفشلوا هذا المشروع العالمي الضخم ، لأنهم يستطيعون تمييز النسخ المزيفة من دينهم و يعرفون كيف يبعدون العامة عنها ، و هم قادرون على تأجيل تحقيق مشروعنا العالمي ربما إلى الأبد.

قلت : كيف لم أفهم ؟.

قال البروفسور : لنؤسس جيشا أسطوريا لا بد لنا من أن نجمع جنوده على أسطورة يحلمون بتحويلها إلى حقيقة ، لقد أقمنا عندكم نظاما تعليميا نظريا مليئا بالصور الجميلة عن ماض العرب المجيد ، هذه الصور ستحول رجل الشارع العادي إلى إنسان حاقد على كل ما حوله ، فهو سيقارن هذه الصور بالواقع البائس الذي يعيشه في بلاده ، و سيقارن الذل الذي يتعرض له بعزة الماضي و أمجاده ، و سيقبل دون تردد أي مشروع من أي نوع يصور له طريقة لهدم الواقع و تحويله إلى أنقاض ، ثم يتيح له إعادة بناء تلك الأمجاد الرائعة.

قلت : ما هي الأسطورة التي ستجمع عليها جيش الحاقدين الأسطوريين هذا ؟.

قال : تذكر طبعاً تجاربكم مع الجمعية الإسلامية ، هل سألت نفسك لماذا نجحنا مرات متعددة في تجنيد الشباب في هذه الجمعية ، على الرغم من كل النكبات التي سببتها للذين قاتلوا و عملوا في صفوفها ؟.

قلت : نعم و هذا حيرني جدا.

قال : لقد صنعنا أسطورة يمكن شرحها بجمل قليلة : لقد صنعنا لهذه الجمعية نسخة من الدين تزعم أن السر في انتصار دولة المسلمين الأولى و انتشارها المذهل كان يكمن "فقط" في تطبيق هذه الدولة لنظام الأمن و الحماية القضائية ، و نظام الحماية العسكرية ، تطبيق هذه النظم الرادعة بقوة السلاح "أولا" و بصرامة و دون هوادة و لا تسامح.

هذه النسخة ليس فيها شيء عن الأنظمة الرعوية ، و لا عن نظام الحماية الروحية ، و فوق ذلك فإن هذه النسخة ترسم للمشايخ صورة شريرة جدا ، هذه الصورة قدمت المشايخ على أنهم كهنة يعملون على إسترضاء الملوك المتجبرين و على إقناع العامة بالخضوع هؤلاء الملوك و الرضا بالعذاب الذي ينالهم على أيديهم و على منع العامة من الثوران على طغيان هؤلاء المتجبرين.

نحن حمينا هذه النسخة من الإفتضاح و التلف على يد المشايخ بأن جعلناهم كاذبين في أعين العامة ، و سيفسر هؤلاء العامة أي انتقاد من المشايخ لهذه النسخة و لأتباعها على أنه ممالأة للملوك الطغاة الذين تستهدف الجمعية الإسلامية سلبهم السلطة ، فإذا ما أضفنا إقصاء المشايخ عن الهيمنة على العامة سيكون خطر هؤلاء المشايخ قد ابتعد تماما عن طريقنا.

أيضا بفضل هذه النسخة أخذنا العامة رأسا إلى الشككات الحربية ، لأنها صارت بنظرهم الطريق المختصر و الوحيد لتحقيق حلمهم بالخلاص ، و هكذا سيكون دوما أي خيار مسلح هو الخيار الأمثل عند العامة دون النظر في عواقبه ، ففي حال النجاح يكون الخلاص قد تحقق ، و في حال الفشل فالفردوس في انتظار أولئك الذين حاولوا و سقطوا.

قلت : نحن ما دورنا ؟ نحن اليوم في نظر العوام أعداء و ملوك متجبرون و نحن الذين يريد الناس التخلص منا و من حكمنا !!.

ضحك البروفسور لأول مرة في الإجتماع ، ثم قال بعد نوبة من السعال : من سجونكم سيخرج أولئك القديسون الفرسان قادة هذا الجيش و ضباطه الكبار ، سيخرجون و معهم كل المصداقية التي يحتاجها العامة حتى يثقوا بهم ، بعد سجنهم الطويل سيكونون في نظر العامة نسخا حية عن أولئك الصادقين الأوائل الذين ضحوا بأعز ما يملكون و صبروا و نجوا من تعذيب متجبري مكة ، ثم انتصروا بعد ذلك على أولئك المتجبرين عندما ملكوا السلاح و القوة.

قلت : تقصد سجناء الجمعية الإسلامية ؟.

قال : نعم بالضبط.

قلت بدهشة : هل سنطلقهم ؟.

قال : نعم ، و ستسلحوهم و ستوفرون لهم ما يحتاجونه لنشر دعوتهم و تجنيد الشباب من مختلف أرجاء البلاد و مختلف أرجاء العالم لاحقا !!.

قلت : سيرفضون دون شك أي تعاون معنا فنحن في نظرهم مجدفون و مطرودون من الدين ، نحن من قتلهم و سجنهم و اضطهدهم ، أصلا هم يؤمنون بأن تعاليم دينهم تحرم عليهم أن يسالمونا فكيف بأن يتحالفوا معنا !!.

قال : لا سيوافقون إن أفهمتموهم أنكم قررتم تغيير سياستكم من التحالف مع أوربة و أمريكا إلى محاربة السيطرة الأوربية ، ستقولون لهم : نحن و أنتم نواجه نفس العدو ، لنهزمه معا ثم نحل مشاكلنا ، و نحن اليوم بتنا مقتنعين بصوابكم ، لكننا لا نستطيع أن نعلن هذا ، سنكون نحن القناع التمويهى لكم من خلال إدانة إعلامنا العلنية لكم ، و لكننا سنؤمن لكم كل ما تحتاجونه لتجنيد العامة في دعوتكم ، و كل ما تحتاجونه لقتال عدونا و عدوكم ، نحن لن نهزم الأوربيين بجيوش نظامية ، لن

نخزهمم إلا بحرب العصابات و بالضرب تحت الحزام ، و أنتم من سيقوم بهذه الضربات و سنتظاهر بأننا معهم ضدكم ، لكننا سنكون معكم أنتم ضدهم في الواقع ، و سنحسب معا لكل خطوة حسابها ، لدينا خارطة أهداف واضحة لضربها و لدينا الخطط الكاملة و أدوات التنفيذ و كل ما نحتاجه للنصر .

أضاف البروفسور مبتسما : سيصدقونكم ، ألا تذكر كيف أقنع كسار و رئيس مخابراته جماعة أبي معد بالتحالف معهم ، مع أن كسار كان رسميا رجلا ملحدا مؤمنا باللا دينية ؟ ألا ترى أن الناس في بلادكم لا يزالون ينظرون إلى كسار على أنه الحليف الحقيقي لهم ، رغم ما فعله بثورتهم و ثوارهم ؟؟ .

قلت : و هل سننفذ وعودنا لهؤلاء القديسين ؟ .

قال البروفسور آكنات : نعم إلى حد معين ، حتى يكتمل عددهم مع أتباعهم و يصيروا جيشا أسطوريا ، و يصبحوا سمانا بشكل كاف لجعل نحرهم أمرا مثيرا للضحيج و ملفتا لانتباه عامة الناس في كل مكان ، هذا الجيش سيصاحب ظهوره المتكرر ، حملات إعلامية متكررة تذكر العالم المسيحي بحروبه المقدسة مع المسلمين ، هذه الحملات ستكون على هيئة موجات من الأفلام السينمائية و المقالات و التحقيقات الصحفية و البرامج الوثائقية ، سيشعر المسيحيون في أوربة بالرعب من وحوش الماضي المفترسة قبل و أثناء كل ظهور لهذا الجيش ، و سيشعرون بإرتياح كبير لأخبار تدمير هذا الجيش و سحق قاداته في كل مرة .

قلت : هل سيظهر هذا الجيش مرة واحدة أو مرات متكررة ؟ .

أجاب بجزم : مرات عديدة و في عدد كبير من الأماكن و في أزمنة متقاربة ، أنت تعرف جيدا أن أي مشروع ضخيم نتبناه لا ننفذه بصورة نهائية إلا بعد أن ننفذ نسخا مصغرة عنه حتى نتأكد جيدا من فاعليته و من إمكانية تنفيذه كاملا و بحجمه الأكبر دون مشاكل و لا مفاجآت مزعجة ، أنت تعرف كم نكره الأخبار السيئة يا سيادة الكولونيل ، في الواقع لقد ظهرت نسخ مصغرة من هذا الجيش في عدة أماكن حتى الآن ، ففي آريانا أو ما تسمونها بخراسان تمكنا من تأسيس عدة جيوش قادمة من الماضي كانت مهمتها الحرب ضد الشيوعيين .

قلت : هذه الجيوش تأسست كلها بيد أتباع الجمعية الإسلامية ، و هذه الجيوش كانت جزءا من الحرب الباردة ، هل الجمعية الإسلامية هي المنظمة التي سيولد منها الجيش الأسطوري الكبير ؟ .

قال آكنات : للجمعية الإسلامية نسخة بدوية قديمة كنا قد أسسناها في الجزيرة العربية ، أتباع هذه النسخة كانوا بدوا شرسين جدا و عدوانيين للغاية ، لقد اعتمدوا في ذلك الوقت نسخة من الإسلام صنعها لهم رجل أوربي رائع ، هو من الرواد العظام لاستكشاف المشرق الساحر الجمال ، هذه النسخة يؤمن أتباعها بأنهم أعادوا إكتشاف ركن الإسلام الأكبر بعد أن

انطمست حقيقته على مر الزمان و بتعاقب القرون ، لقد آمنوا بهذه الفكرة تماما و استطعنا أن نشن بهم حربا لتقويض أركان الإمبراطورية التركية منذ قرنين و نصف من الزمن ، لقد كانوا يعتقدون أنهم يكررون تلك الحروب المقدسة التي شنّها العرب المسلمون الأوائل لمحاربة الوثنية في جزيرة العرب ، و لا يزال أتباع هذه النسخة يرون أن جميع المسلمين في أيامنا هذه وثنيون و يجب أن يُخضعوا لنفس الحروب التي شنّها خليفة الإسلام الأول على القبائل العربية التي انشقت عن الإسلام مباشرة بعد وفاة نبي الإسلام.

قلت : لقد لاحظت تزاوجا بين أفكار هؤلاء البدو و بين أفكار الجمعية الإسلامية ، هذا التزاوج كان واضحا عند تلك الجيوش التي ظهرت في خراسان ، و لكن لماذا هذا التزاوج .؟

قال آكنات : يا عزيزي الكولونيل إن أهم سمة في هذه الجيوش القادمة من الماضي هي : عدائيتها للمسلمين أنفسهم ، لأن هذا هو السبيل الوحيد لحرماتهم من أية فرصة للبقاء على قيد الحياة مدة أطول من تلك التي تحددها لهم ، صحيح أن جنود هذه الجيوش من شباب المسلمين الغاضبين من الإستبداد و الفقر في بلادهم ، إلا أننا لا نريد هؤلاء الشباب أن يكتشفوا بأنفسهم أسباب هذا الإستبداد و ما يجره من العذاب لهم و لا أن يبتكر أحدهم طريقة واقعية للخلاص منه ، نريد أن نوجه أنظارهم إلى أسباب أخرى ، أسباب إفتراضية نظرية بحتة ، لقد جعلنا هؤلاء يؤمنون بأن ما يجري في بلادهم سببه غضب إلهي على المسلمين لأنهم لم ينفذوا تعاليم الإسلام ، و لن ينطفئ هذا الغضب و لن يزول الإستبداد إلا بأن يعود المسلمون كلهم إلى تنفيذ تعاليم الإسلام كلها بحرفية و بانضباط كامل ، شرط خيالي و شبه مستحيل التحقق طبعاً ؛ لذلك سيكون هدف هذه الجيوش الأول هو تأديب المسلمين و إجبارهم جميعاً على تنفيذ تعاليم دينهم ، قادة و أتباع هذه الجيوش لن ينظروا إلى الأمام في أية مواجهة قادمة بيننا و بينهم ، بل على العكس سينظرون إلى الوراء إلى جموع المسلمين و سيرون أنها هي العدو الأول الذي يهدم دفاعاتهم من الداخل بسبب عدم انضباط هذه الجموع و عدم تنفيذها الدقيق لتعاليم الدين.

قلت : الآن فهمتك جيداً ، فالجمعية الإسلامية التي أسسها رافع أفندي تتهم المسلمين بالخروج من الدين لأنهم لا يطبقون القوانين الإسلامية و لأنهم يخضعون لحكومات لا تطبق هذه القوانين ، و أما الجمعية البدوية في الجزيرة العربية فيؤمن قاداتها و أتباعها بأن المسلمين قد خرجوا من الدين لمجرد رفضهم لأي شيء من تعاليم نسخة الإسلام التي تتبناها هذه الجمعية ، و هكذا لن يجد الذين ينضمون لهذه الجيوش سبيلاً للمصالحة و التعاون مع جمهور المسلمين المحيط بهم ، فهؤلاء لم يعودوا بنظرهم مسلمين لأسباب كثيرة ، بل على العكس سيرون أن جماهير المسلمين أعداء يضربون الدين من الخلف ! لكن هل ستستخدمون نفس أساليب الجمعية الإسلامية لتجنيد الشباب في هذه الجيوش .؟

قال آكنات : لا لا بالطبع ، سنستخدم أسلوباً جديداً سيكون الأسلوب القديم مجرد جزء صغير منه ؛ القيادات الروحية و العسكرية العليا لهذه الجيوش الأسطورية ستكون كلها من ضباط الخدمات السرية للجيوش الأوروبية ، أما الدعاة الصغار

فستكون عليكم أنتم مهمة تجنيدهم ثم ربطهم مع القيادات العليا ، و سيكون عليكم أيضا تسهيل مهمة هؤلاء الدعاة لإصطياد الشباب و تجنيدهم في هذه الجيوش .

قلت : هؤلاء الدعاة هم أتباع الجمعية الإسلامية الموجودون في السجون عندنا !.

قال آكنات : نعم تماما .

قلت : القيادات العليا أين هي ؟.

قال آكنات : هذه القيادات بدأنا بصناعتها في آريانا أو ما تسمونها خراسان ، فلقد اخترنا منذ عشرين عاما عددا لا بأس به من طلاب الجامعات المتفوقين من ذوي المكانة العشائرية الأرستقراطية ، ثم ألتنا لهم فرصة الحصول على دراسات عليا في إختصاصات علمية شتى لتكون لهم مكانة خاصة في مجتمعاتهم ، ثم أخضعوا لدورات للتعليم الديني ، كان هذا أثناء فترة تدريبهم كضباط لقسم الخدمات العسكرية السرية في عدة مدارس حربية أوربية ، ثم أرسلناهم ثانية إلى بلادهم و زدناهم لاحقا بالمال و السلاح لقتال الشيوعيين ، لقد كلفنا كل واحد منهم بتشكيل جيشه الخاص به ، و قامت مخابراتنا في الجزيرة العربية بتجنيد آلاف من الشباب المسلمين للقتال ضمن هذه الجيوش التي خاضت حربا مقدسة على الشيوعيين ، تم هذا بمعونة من قادة الجمعية الإسلامية البدوية التي تحكم الجزيرة رسميا ، و بمعونة المنفيين إلى الجزيرة العربية من قادة و دعاة الجمعية الإسلامية التابعة لرافع أفندي ، خلال هذه الحرب صنعنا قيادات عليا عربية لجيوش أخرى قادمة من الماضي ستظهر في بلادكم قريبا ، جيوش تزوج بين نسختي الإسلام اللتين صنعناهما للجمعيتين الإسلاميتين البدوية و الرافعية ، نسخة أشد عنفا و عدائية من كل ما سبقها و سيكون تدجينها و الرد على دعايتها أمرا صعبا جدا على مشايخ المسلمين التقليديين ، لأنها ستكون جذابة جدا للشباب المتحمسين الغاضبين و المتمردين على كل شيء .

قلت : كيف سنجمع بين هؤلاء القادة و بين أتباع الجمعية الإسلامية الموجودين في سجوننا ؟.

قال : أولا يجب أن تعقدوا إجتماعات مع هؤلاء الأتباع و تقنعوهم بما شرحت لك سابقا من المزاعم عن نواياكم للحرب على الأوربيين و الأمريكيين ، ثم تتفقون معهم على التحالف ، ثم تطلقوهم إلى بيوتهم لفترة ، سيعتمدون خلالها على موارد مالية سخية تقدمونها لهم ، بعدها ستلحقوهم بمعسكرات للتدريب تابعة للحرس الرئاسي و لفدائيي منظمة تحرير إقليمكم المحتل ، هناك سيجمعون بالقيادات العليا التي جهزناها خلال حروب خراسان ، و سيتلقون من هذه القيادات تدريبات عقائدية و عسكرية و دعوية ، و ليستأنس هؤلاء الطلقاء سيحضر هذه التدريبات قادة كبار من جمعية رافع أفندي الذين يُفترض أنهم منفيون .

قلت : ثم نرسل هؤلاء الدعاة الصغار إلى مساجد البلاد الريفية لتجنيد الشباب !.

قال آكنات : لا ليس كلهم ستطلقون قلة منهم نحو مساجد الأرياف ، الغالبية سيقون في المعسكرات ليستقبلوا المتطوعين في هذا الجيوش و يدربوهم و ينظموهم.

قلت : من سيجمع المتطوعين إذا ؟.

قال آكنات : هل نسيت الكليات الدينية التي أسست في عهد الزعيم بديع ؟ لقد تخرج منها مئات من الأساتذة و الشيوخ كلهم في الواقع ضباط و ضباط صف في مخابراتكم ، هؤلاء سيفتتحون جامعات و معاهد إسلامية خاصة ، مهمتها استقطاب طلاب العلوم الدينية من كل أرجاء الأرض ، الدراسة في هذه المعاهد ستكون مجانية و سيتقاضى الطلبة خلالها رواتب مجزية و ستكون الدراسة داخلية في الغالب.

قلت : نعم هذه المعاهد و الجامعات ستكون مكاتب التجنيد لهذه الجيوش.

ابتسم آكنات و قال : استنتاج صحيح و لكنه متأخر لا يثير الدهشة ، نعم هذه المعاهد و الجامعات ستجذب الشباب الفقراء من أرياف آسيا الوسطى و شمال الهند و غرب الصين ، هؤلاء الشباب سيلتحقون جميعا بدورات سرية في المعسكرات التي تحدثنا عنها ، ثم ستم إعادةهم إلى بلادهم مع أموال و إمكانيات و وسائل إتصال ، في بلادهم سيقومون بتجنيد أبناء الأرياف و السذج و إلحاقهم بمعسكراتكم بنفس طريقة "حسن الصباح" و أتباعه ، هؤلاء السذج سيعتقدون بسبب إرشادات الدعاة أنهم سيقفون على عتبات فردوس السماء بمجرد أن يلتحقوا بجيوشنا الأسطورية ، و أنهم سيهزمون الدبابات و الطائرات ببعض الأنايب و المقذوفات أو ربما بأكف عارية لجرد أن ينفذوا تعاليم الدين الإجتماعية و القانونية و التعبدية بدقة !.

قلت : من أين التسليح و التمويل لهذه الجيوش ؟.

قال آكنات : السلاح سيتم شراؤه من السوق السوداء و لن يكون باهظ الثمن فكله سلاح صغير و فردي ، و الأموال سنضخها نحن عبر جمعيات دينية في الجزيرة العربية لتبدو كأنها تبرعات من متدينين متحمسين ، سيبدو كل شيء طبيعيا في عيون رجل الشارع العادي ، و لن يكون سهلا على أحد أن يكتشف أننا نحن من أسس هذه الجيوش ، و حتى إن اكتشف البعض هذه الحقيقة فلن يفهم أحد لماذا نفعل هذا ، سيظنون أن أحد الفاسدين من المخابرات يفعل هذا من أجل المال ، و سنروج لهذه الفكرة بمعونة هوليوود.

هذه المهمة كانت مشروعاً ضخماً ، و لقد شعرت بعد استلامها من البارون أنني أصبحت من أعمدة هذا المشروع العالمي الكبير ، تسلمت من البارون ملف ضخماً للمهمة و عدت به إلى البلاد ، أمضيت عدة أشهر في دراسة الملف و دخلت في

الكثير من المناقشات مع فريق المستشارين الأوروبيين حول آليات تنفيذه ، في نهاية الأمر وضعنا خطة مفصلة و مقسمة على عدة مراحل و عدة منظمات و مجموعات.

يحتاج المشروع إلى آلية متماسكة للتمويل و الإمدادات و النقل ، لهذه الغاية اجتمعت مع الهمامين في قصري في الساحل عدة مرات و شرحت لهما تفاصيل دورهما في هذه المشروع ، هذا الدور يعتمد على تأسيسهما لعدة شركات إستثمارية للبناء و الإنشاءات الهندسية كواجهة يتم من خلفها نقل الأموال إلى مناطق عمل دعاء المشروع ، و أيضا تقوم هذه الشركات بنقل أولئك المجندين الذين يجذبهم الدعاء إلى مواقع التدريب و التجهيز التابعة لمشروع الجيش الأسطوري ، هذه الشركات مهمتها أيضا شراء السلاح و الذخيرة و معدات الإتصال من السوق السوداء و نقلها إلى مواقع تدريب و تجنيد أعضاء هذا الجيش العتيد ، و أيضا تقوم هذه الشركات بنقل جنود هذا الجيش من معسكراتهم في بلادنا إلى مناطق العمليات التي سيخوضون فيها معارك مصطنعة ضد أعداء الدين.

بعد هذا الإجتماع أصدر الرئيس هرثمة قانونا يسمح بالإستثمار الأجنبي في بلادنا ، هذا القانون تضمن تسهيلات كبيرة لتأسيس شركات متعددة الجنسيات ، تتيح هذه التسهيلات استيراد و نقل المعدات و العاملين و الأموال من و إلى البلاد ، في الواقع لم يستفد أحد من هذا القانون سوى عدد قليل من التجار و المستثمرين كلهم كانوا يعملون ضمن منظوماتنا بطريقة أو بأخرى.

شركات الهمامين التي أسسها كانت كلها متخصصة في الإنشاءات الهندسية ، و لقد عمل الهمامان بنفس الطريقة التي اتبعها في مشاريعهما في بلادنا ، أتاحت هذه الشركات لهما فرصة مشاركة العشرات من ذوي المناصب العالية في حكومات البلاد العربية و الإسلامية التي استهدفها قسما التجنيد و العمليات الخاصة التابعان لجيشنا الأسطوري.

أرسلنا إلى عشر دول اختيرت بعناية مائة من الدعاء المدربين و المتخصصين في نشر نسخة الإسلام المصطنعة التي اعتمدناها عقيدة دينية لجيشنا القادم من الماضي ، النسخة المؤلفة من مزج النسخة البدوية و نسخة الجمعية الإسلامية كما أسلفت ، هؤلاء الدعاء و معظمهم من العرب هم الذين تم إعدادهم بعناية فائقة خلال حرب الجماعات الدينية ضد الشيوعيين في "آريانا" (خراسان) ، لقد منح هؤلاء هويات جديدة و دخلوا إلى تلك البلاد المستهدفة بصفة عاملين في شركات الهمامين ، ثم و بتمويل من هذه الشركات أنشأ هؤلاء الدعاء عدة مئات من المساجد في أرياف نائية في بلاد السند و وسط آسيا و القوقاز و شمال و غرب أفريقيا و في القرن الأفريقي و في أوربة الشرقية التي كانت قد تحللت من الحكومات الشيوعية و انتقلت لحكم عصابات الجريمة المنظمة ، كل هذا في فترة قياسية لم تتعد السنة ، و بعدها تحول هؤلاء الدعاء إلى آباء روحيين لمجموعات ضخمة من الشباب الريفيين البسطاء ، ثم صار لهم نفوذ في مناطق ريفية كثيرة هنا و هناك في أقل من عام آخر انقضى بعد تأسيس مساجدهم الآتفة الذكر ، مخبرات تلك البلاد كانت تلتزم أوامر واضحة بعدم التعرض بسوء

لهؤلاء الدعاة و لا لأتباعهم الجدد ، على أن تتظاهر هذه المخابرات باستهدافهم بين الفينة و الفينة لتضمن عدم شك البسطاء بصدق دعاة مشروعا و مناهضتهم للطغيان و الفساد و مناصرتهم للمستضعفين في الأرض.

هذه المساجد الجديدة يسرت تجنيد نوعين من الشباب ، النوع الأول هو المتطوعين مباشرة في جيشنا الأسطوري القادم و هؤلاء كانوا قلة في السنوات الخمس الأولى ، و النوع الثاني هو طلاب المعاهد و الكليات الدينية الآنفة الذكر في بلادنا. أمنت شركات الهمامين الحماية و التمويلات لهذه المساجد و لدعاتها و لمجنديهها ، و لقد غطى الدعاة المائة علاقتهم بشركات الهمامين بمزاعم حقنوها في أدمغة أتباعهم ، ألخصها بما يلي :

"إن الله قد قيض لهذه الدعوة تجاراً مسلمين صالحين يمولونها سرا كما كان عثمان بن عفان و عبد الرحمن بن عوف يمولون الدعوة الإسلامية الأولى ، و قيض أيضا أصحاب مناصب متدينين صادقين يعملون سرا في الحكومات اللادينية التي تحكم بلاد العرب ، هؤلاء الصادقون الأخفياء يسهلون مهمة الدعاة و الممولين ذوي الإحسان !".

بفضل هذه المزاعم سار عمل هؤلاء الدعاة بسلاسة و سهولة و استطاعوا استقطاب عشرات الآلاف من الشباب دون أن يثيروا شكوكهم حول مصادر تمويل هذه الدعوة و حول أسباب دعمها أمنيا و تغطيتها سياسيا من قبل حكومات تعتبر معادية للإسلام علنا ، و تمكن هؤلاء الدعاة من نقل مجنديهم "من و إلى" بلادنا تحت غطاء العاملين و المتعاقدين و طلاب المنح الدراسية السخية التي قدمتها شركات الهمامين للقادمين إلى معاهدنا و كلياتنا الدينية.

لا يفوتني أن أذكر أن المنات الذين اختارهم الجنرال ريتشارد من بين سجناء التابعين للجمعية الإسلامية وافقوا جميعا على التعاون معنا و اقتنعوا بأن حكومة هرثمة تبرز للأوروبيين وجها ماليا و تعمل في الخفاء على الحرب على الهيمنة الأوروبية على بلاد العرب ، و لقد التحق هؤلاء جميعا بمعسكرات التدريب التي خصصت لهم ، و عملوا فيها بحماسة كبيرة على عادة أعضاء الجمعية الإسلامية ، هناك تدربوا على التوجيه العقائدي حسب نسخة الإسلام الجديدة الآنفة ، ثم ألحقت بهم مجموعات كبيرة من المجندين لجيشنا الأسطوري ليكونوا تلامذة لهم و أتباعا لنسخة الدين الجديدة التي اخترعها لهم البروفسور آكنات و رفاقه.

بعد اجتماعي مع الهمامين و وضع الجزء المتعلق بهما موضع التنفيذ ، تفرغت عدة أيام للقاءات متتالية مع مفتي البلاد الشيخ الجمعي و فريق عمله و معاونيه الكبار ، شرحت في هذه الاجتماعات دور الجمعي و دور المعاهد و الكليات الدينية التابعة له في برنامجنا.

الجمعي هذا كان أستاذا أعظما من أساتذة الحرية و تولى الإفتاء في بداية عهد هرثمة ، هذا المفتي كان لا يؤمن بأي دين بعينه ، مع أنه يؤمن بإله واحد خالق للعالم ، و لقد سمعت منه الكثير عن اعتقاداته الخاصة هذه ، كثيرا ما كان يقول في مجالسه

الخاصة جدا : إن الذي خلق هذا الوجود كائن عظيم قوي رائع ، هو في الواقع أعظم من جميع تلك الأوصاف التي نسبته إليها جميع الأديان ، و هو أجلّ من أن تصفه أي من هذه الأديان.

عقيدة الشيخ الجمعي التي تنفي القدسية عن جميع الأديان أتاحت للرجل فرصة ضبط أوجه الشبه بين جميع الديانات المعروفة ، براعة الجمعي في هذا الجانب دفعته للبحث في كتب التراث الإسلامي عمّا يخدم فكرته ، فوجد في فلسفة وحدة الوجود الغنوصية الضالة المنشودة ، تبنى الرجل هذه الغنوصية بشكل شبه علني ليصرفها إلى خدمة عقيدته التي تحتقر جميع الأديان ، و كان بارعا في الربط بين العقلانية و الغنوصية بشكل مذهل حقا.

تحت غطاء هذه العقيدة و شعار التسامح الإسلامي الشهير أسس الجمعي كلية دينية لتخريج شيوخ مسلمين يؤمنون بأن الأديان الموجودة اليوم موحدة في جوهرها ، إلا أن الخلافات بينها تظهر في تفاصيل جانبية لا علاقة لها بهذا الجوهر ، تفاصيل مصطنعة أضافها رجال الدين لتثبيت مكانتهم في المجتمع من خلال التميز عن الآخرين ، و هكذا صار الجمعي معروفا بشيخ وحدة الأديان ، حتى أنه أسس مع أحد الفلاسفة الأوربيين مجمعا أكاديميا لوحدة الأديان ، صديقه الفيلسوف هذا أعلن أنه اعتنق الإسلام ، ثم راح يتحدث عن وحدة الأديان!.

مهمة المفتي الجمعي كانت حماية نسخة الإسلام التي صممها فريق آكنات لجيشنا الأسطوري من هجمات المشايخ التقليديين ، لأن هؤلاء المشايخ فقط هم القادرون على كشف تزييف هذه النسخة و فضح أمرها بسهولة أمام العامة و بحوارات بسيطة ، بل لعل هذا هو أبسط ما يتقنه هؤلاء المشايخ ، مهمة الجمعي كانت حماية هذه النسخة من خلال رفضه و أدانته لها على الدوام ، و تكرار إدانته لهذه النسخة في كل مناسبة علنية ، و ليس من خلال الترويج المباشر لها.

الجمهور عادة أنثوي التفكير و عاطفي ، و العامة لا يميلون إلى التفكير و التعليل المنطقي للأحداث ، في نفس الوقت يفاخر كل واحد منهم بأنه يحتكر التعليل الصحيح لكل ما يمر على حواسه من أحداث ، و تراه يصل إلى هذه النتيجة بمجرد أن يفكر لبرهة قصيرة فيما يمر عليه ، العامة أسرع من البرق في إصدار الأحكام و تبنيها ، و هم أبطأ من سلحفاة عندما يتعلق الأمر بالعودة عن هذه الأحكام المتعجلة إلى الصواب و التروي ، هذه النقطة هي ما استند إليه دور الجمعي ، و هي ما يستند إليه جميع الإعلاميين الناجحين على مر التاريخ.

بعد سحق المدينة الثائرة وقع معظم المشايخ التقليديين فريسة للخوف و الإنطواء، السبب كان خوفهم الشديد من الإبادة التي تعرض لها الكثيرون منهم على يد مخابرات هرثمة ، و حتى يتم إسقاط هؤلاء المشايخ تماما من عيون العامة تولى الشيخ الجمعي رعاية هؤلاء المشايخ ، فاعتنى بتولييتهم المنابر و صرف لهم الرواتب المعقولة لتأمين حد أدنى من العيش المقبول ، فأنسوا بالرجل و اعتبروه نعمة بعد نقمة و تعاملوا معه على مبدأ "الكحل خير من العمى" ، لكن الجمعي أجبرهم في نفس

الوقت و بمعونة المخبرات على التزام نوع من الخطابة و التدريس البعيد تماما عن الواقع البئيس الذي يعيشه الناس ، ثم فرض عليهم جميعا الدعاء علنا لهرثمة على المنابر و في ختام الدروس و الإحتفالات الدينية بأنواعها ، ثم طبق عليهم رقابة صارمة منعتهم من التحدث إلى الناس عن أي شأن أو معاناة عامة ، فاقترصت خطابتهم على مواعظ في الزهد و الخض على العبادة و الكلام عن الحياة القادمة بعد الموت ، هذا النمط الذي فرض على هؤلاء المشايخ جعلهم يبدون منفصلين تماما عن الواقع ، و وضعهم في نظر العامة في نفس حضيض هرثمة و أعوانه و طائفته ، بهذا صارت مجالس و مواعظ و خطب المشايخ التقليديين تستفز سخط العامة على رجال الدين ، أتاح هذا الوضع فرصة ذهبية لأتباع الجمعية الإسلامية و النسخة البدوية للإسلام ، فراحوا يشتمون المشايخ التقليديين - أعداءهم القدامى - بأقذع الألفاظ و يسموئهم بـ "كهنة السلاطين" و "أبواق الطغاة" و "سحرة فرعون" و "سدنة الأوثان" .. إلخ.

ما زاد الطين بلة هو أن مخبرات هرثمة فرضت على المشايخ التقليديين زيارات دورية لمقراتها في المدن الكبرى و في ساعات النهار ليبراهم أكبر عدد من العامة و هم يدخلون لهذه المقرات مرارا و تكرارا فثبتت قم العمالة و التواطؤ مع هرثمة و نظامه على هؤلاء المشايخ في لاوعي العامة.

في المعاهد و الكليات الدينية التابعة للمجمعي كان الوضع أسوأ بكثير جدا ، فلقد أحاط الجمعي نفسه بقداسة و طقوس تعظيم مبالغ فيها جدا ، فمثلا نرى أن قاعة الدرس الأسبوعي المخصصة لدرس الجمعي كان يتصدرها عرش عظيم من الخشب المزخرف و عليه وسائد من الحرير و الديباج ، و كان الدرس يبدأ و يختتم بطقوس لتعظيم الجمعي ، منها أن يسبق درسه تقديم من أحد المدرسين يمدح فيه الجمعي بما يرفعه إلى مصاف الآلهة اليونانية ، و منها أن يطلب هذا المدرس من الحضور أن يغمضوا أعينهم و أن يتخيلوا في أذهانهم صورة الجمعي و يتوجهوا بها إلى الخالق العظيم ليقبلهم و يرضى عنهم ، و يختتم الدرس بحفلة لتقبيل أيدي و أرجل الجمعي يشارك فيها جميع الحضور ، الأنكى من كل هذا أن حضور الدرس الأسبوعي للمجمعي فرض لا يجرو على التهرب منه أي طالب من طلاب المعاهد و الكليات التابعة له ، طبعاً كان الجمعي يفتح دروسه و خطبه و يختتمها بوصلة تمجيد لهرثمة تضعه في مصاف الملوك القديسين كداود و سليمان و الخلفاء الراشدين. بدأت هذه الطقوس كلها بمجرد أن بدأ التحاق طلائع أفواج الطلبة الذين يرسلهم الدعاة الآنفا الذكر بالدراسة الداخلية في المدارس الجمعية ، هؤلاء الطلبة القادمون من الآفاق الآسيوية و الأفريقية و الأوروبية غالبيتهم الساحقة من الريفيين السذج ذوي الأنفة ، و لقد أثارت تلك الطقوس سخطهم الشديد.

كانت الخطة دقيقة ، فلقد تضمنت توظيف عدد كبير من الدعاة السريين لجيشنا في معاهد و كليات الجمعي ، هؤلاء الدعاة كانوا مدرسين و إداريين و بعضهم كان يبدو من طلبة الدراسات العليا ، مهمة هؤلاء الدعاة هي اصطيد الطلبة القادمين من الآفاق و تنمية حقدهم على الجمعي و على أتباعه و أعوانه و على سائر المشايخ التقليديين و على حكومات الدنيا بأسرها

، ثم إتمام عمل ما بدأه الدعاة الذين أرسلوهم ، فكانوا يؤمنون هؤلاء الطلبة الخروج بيسر من مساكن الطلبة و حضور دروس مشايخ يدعون إلى إسلام النسخة المهجنة بين النسخة البدوية و نسخة الجمعية الإسلامية ، ثم بعدها يتم إلحاق هؤلاء الطلبة بمعسكرات التدريب العسكري و تنظيمهم جنودا في المنظمات السرية للجيش الأسطوري.

أيضا كان من جملة الموظفين في هذه الكليات و المعاهد عدد غير قليل من الدعاة إلى "الديانة السرية" بمختلف مذاهبها ، و هؤلاء أيضا كانوا يصطادون الذين يستفهمهم الجمعي ، ثم يلحقوهم بحلقات لدراسة الديانة السرية ، و بعدها يلحقوهم في صفوف جناح الجيش الأسطوري الذي يتبنى عقيدة الديانة السرية.

هذه الجناح كانت قد تأسس في بداية عهد هرثمة تحت شعار "مقاومة عدوان جارتنا العدو على بلدنا" ، و بعد أن نهضت في جنوب غرب آسيا دولة الديانة السرية تحت إسم جمهورية دينية ، اتخذ هذا الجناح هيئة شبه علنية و صارت منظمات حربية خاصة لهذه الديانة ، و صار لهذه المنظمات معسكرات و مناطق شبه مستقلة تخضع لها و تتبع إسميا لحكومة هرثمة.

هذه المنظمات تشكل الجناح الأيسر لجيشنا الأسطوري ، و لعلها الجناح الأكثر أسطورية فيه ، إذ يؤمن قادة و أعضاء هذه المنظمات أن الذي يقودهم فعلا هو رجل مقدس خفي عمره أكثر من ألف سنة ، و هذا القائد الأسطوري يتجول في العالم في موكب خفي من الخدم و الحشم ، و يعتقد هؤلاء أن هذا القائد الخفي يرسل إليهم تعليماته عبر القائد الروحي للجمهورية الدينية الآتفة الذكر ، و الأعجب من هذا يؤمن هؤلاء بأن العالم كله سيكون في يوم ما تحت حكمهم بعد أن يتخلى قائدهم الخفي عن التخفي و يظهر نفسه للعالم ، هذا القائد لديه قوى أسطورية ستحطم كل القوى المناوئة لهم ، و بهذه القوى سيجبر الناس جميعا على الإيمان بالديانة السرية التي ستتحول حينها إلى الديانة العلنية الوحيدة على وجه الأرض !.

الجناح الأيمن و الأكبر من الجيش الأسطوري هو الذي يتبنى نسخة الإسلام البدوية المهجنة مع نسخة الجمعية الإسلامية ، يؤمن أتباع هذا الجناح أيضا بأن جيشهم حين تتكامل استعداداته سيهزم كل جيوش العالم في حرب عالمية مقدسة ستقع معركتها الفاصلة في الأرض المقدسة على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، و يؤمنون بأن جيشهم سيسيطر على العالم و سيفرض على الناس أتباع نسختهم الإسلامية الخاصة بهم !.

يتمتع المنضمون إلى جناحي هذا الجيش عبر معاهد و كليات الجمعي بمناعة نفسية تمنعهم من الإصغاء لحوارات و حجج مشايخ الإسلام التقليديين ، السبب هو أن هؤلاء المشايخ مدانون عندهم بجرم الكهانة و النفاق و الدجل و التبعية للحكومات أيا كانت و لو كانت هذه الحكومات بقيادة الشيطان نفسه ، هذه المناعة تصل إلى حد أن يرفض هؤلاء المجندون مجرد السماع لهؤلاء المشايخ و مجرد قراءة ما يسطرونه ، فلقد أتحم الجمعي قلوب و عقول هؤلاء المجندين بالسخط على كل المشايخ التقليديين ، من خلال سخطهم على الجمعي و طقوسه العجيبة و آرائه الأعجب ، و لعل البعض من هؤلاء يخوض

بعض الحوارات مع مشايخ تقليديين حول حقيقة عقائد هؤلاء المجندين إلا أن هذه الحوارات تنتهي دوما بسيل من الشتمات يكيلها مجندوا جيشنا الأسطوري و المتعاطفون معهم للشيوخ التقليديين مع وصف هؤلاء المشايخ بالمنافقين و بالخونة و بكهنة الطغيان ! حوارات كهذه لن توصل أحدا إلى أي نتيجة بالطبع ، و هذا هو المطلوب .

في جميع الحروب المصطنعة يمسك الصانعون دوما بأسلحة حاسمة تمكنهم من إنهاء الحرب لصالحهم في أية لحظة ، و في حروب الجيش الأسطوري التي خاضتها و تخوضها أجنحتنا و فرقته المتنوعة أمسك صانعوا هذه الحرب بقوتين حاسمتين لا يسمح أبدا لهذا الجيش الأسطوري بالحصول على شيء منهما ، أو على ما يكافئهما أو حتى على ما يخفف من قدرة هذين السلاحين على الحسم السريع لأية معركة ضد الجيش الأسطوري ، هاتان القوتان هما : المراكب الطائرة و مضاداتها و منظمات التجسس .

المفتي الجمعي رجل مثير للجدل منذ نشأته الأولى ، فهو واحد من مئات من رجال الدين المسلمين التقليديين ، الذين تولوا منصب الإفتاء في جميع بلاد المسلمين بعد الهيمنة الأوربية ، لقد تربوا جميعا بعناية فائقة و عملوا بجهد ضمن معابد الحرية ، ثم إنهم خدموا أهداف معابد الحرية و خططها بكل دقة و وفاء على مر قرن كامل تقريبا ، تعاقب خلاله على مناصب المفتين ثلاثة أجيال من هؤلاء المتحررين دون انقطاع ، و مع هذا فلقد فشل هذا الرجل و أمثاله في تحقيق اختراق فعال لكتلة رجال الدين المسلمين التقليديين ، هذه الكتلة التي تعتمد على التوارث المعرفي الموثق المتواصل منذ أربعة عشر قرنا ، إلا أن الجمعي و رفاقه و بالتعاون مع أساتذة "كليات الشريعة" في بلادنا و غيرها نجحوا في صناعة جيل مواز لعلماء الإسلام التقليديين ، جيل يشبه هؤلاء العلماء في كل شيء إلا أنه في نفس الوقت مزيف تماما ، فخريجوا معاهد و جامعات الجمعي و كليات الشريعة يؤمنون كلهم بوحدة الأديان بطريقة أو بأخرى ، و لا توجد عندهم حدود واضحة تفصل بين المسلمين و غيرهم ، حتى أن أكثريتهم الساحقة يؤمنون بأن المخلوقات و خالقها كائن واحد !! و الأهم من هذا أنهم نجحوا كثيرا في إقناع الكثير من المسلمين بالتخلي عن إيمانهم بأن الخالق لا يقبل من البشر ديناً سوى الإسلام ، و بالتخلي عن الاعتقاد بأن من يترك الإسلام أو بعض أحكامه ليؤمن بغيرها و يعمل بما شخص مطرود من رحمة الإله الواحد و أنه سيكون في الجحيم إلى ما لا نهاية ، و مع هذا و من خلال تقارير المخابرات و الوزارات التي كانت ترد إلى مكنتي لم ألاحظ نجاحا عميقا في تعميم فكرة وحدة الأديان في بلادنا ، قلة من المثقفين هم من يعلنون أن هذه الفكرة من المُسلّمات ، إلا أن تصرفاتهم أظهرت دوما أنهم يؤمنون بعكس ما يعلنون .

الجمعي و رفاقه و جيلهم الموازي من المشايخ المزيفين و معهم مشايخ الجيش الأسطوري و الجمعية الإسلامية ، هؤلاء أحكموا حلقة الحصار و التهميش و الإقصاء للمشايخ التقليديين ، و لكن دون أن يخترقوهم أو أن يقضوا عليهم ، هذا النجاح الكبير يعود كله إلى فريق البروفسور آكنات و أساتذته و تلامذته الذين درسوا الشرق و دياناته ، و عرفوا نقاط

القوة في نسيجه الاجتماعي ، و فهموا جيدا أسباب النجاح المتكرر للمشايخ التقليديين في تحطيم و ابتلاع الحملات الأوربية المتكررة التي غزت الشرق و حاولت تغيير هويته بالكامل ، فأحبطوا هذه الأسباب و عطلوها تماما .

لقد سلب الجمعي و رفاقه و جيله المزيف من المشايخ التقليديين زمام المبادرة في التصدي لدعاة الجمعية الإسلامية و الجيش الأسطوري بفرقه المتعددة ، فكان أسلوبهم في التصدي هؤلاء يعتمد على القليل جدا من المعالجة الفكرية الجذرية ، و الكثير جدا من التهيب السلطوي و القمع المخابراتي ، و بفضل هذا نجحنا في إقناع عوام المسلمين بوضع المشايخ التقليديين في سلة واحدة مع إستبداد هرثمة و رفاقه من الدمى التي تحركها أيدي منظوماتنا المتعددة ، ذلك أن الجمعي و زملاءه يبدون في عيون أكثرية العامة سادة المشايخ التقليديين و طبقتهم العليا ، و بهذا أقنعنا الشباب بأن المهرب الوحيد من الإضطهاد الحكومي لهم هو الانضمام للجمعية الإسلامية أو للجيش الأسطوري ، و لاحقا أقنعنا أولئك الشباب أنفسهم بأن الجمعي و رفاقه و جيله المزيف هم الملجأ من نيران الفوضى ، و من القمع الرهيب الذي تمارسه تشكيلات الجمعية الإسلامية و الجيش الأسطوري في مناطق سيطرتهم التي تسمح خططنا بخلقها بين الفينة و الأخرى .

نجح الجمعي و رفاقه و أتباعه في تمهيد الطريق لدعاة الديانة السرية في مجتمعات المسلمين ، فلقد روجوا لفكرة انتماء أتباع هذه الديانة للإسلام و أن هذه الديانة مجرد مذهب إسلامي آخر ، و هكذا حشروا أنفسهم و بالحاصل أيضا حشروا المشايخ التقليديين في نفس سلة دعاة الديانة السرية ، و لقد قمع الجمعي بقوته السلطوية كل أولئك المشايخ الذين حاربوا هذه الفكرة ، فالسجن و التعذيب و القتل المصير المحتوم للشيخ الذي يجرؤ على الجهر بتحريم التزواج بين المسلمين و بين أتباع الديانة السرية أو يجهر بتحريم الصلاة على موتاهم ، و طبعاً هذا المصير يكون بتوقيع الجمعي نفسه و بمباركة منه ، و بفضل الجمعي و جهود منظومته انتشر التزواج بين شباب المسلمين و بين الفتيات من أتباع الديانة السرية ، و نشأ في العقد الثالث من حكم هرثمة جيل ينتسب إلى المسلمين و ولاؤه مطلق للديانة السرية و أفكارها ، و راح شباب هذا الجيل يروجون أفكار هذه الديانة في مجالس المسلمين الخاصة و ينشرون بجرأة تلك الإنتقادات التي لا يجرؤ أكبر دعاة الديانة السرية على مجرد الإشارة إليها في محافلهم ، كإنتقاد الخلفاء الراشدين و الصحابة و الرعيل الإسلامي الأول و إنتقاد القرآن و السنة الحمديّة و المذاهب الفقهية .. إلخ ، مع هذه الأفكار راح أبناء هذا الجيل المهجين يؤسسون لجيل كامل من شباب البلاد ينتسب بغالبيتهم لجماعات الجريمة المنظمة و يؤمن بأنها السبيل الوحيد و الأفضل و الأسرع لتحقيق الثروة و الطموحات بعيش كريم ، فالديانة السرية لا يؤمن أتباعها بالقانون و لا بحماية الأموال و الحقوق ، بل على العكس يؤمنون بأن السرقة و الإغتيل و الغدر الإحتيال و نشر الإدمان على المسكرات و القمار و الرشوة و العلاقات الجنسية الإباحية بأنواعها عبادات و قربات لمعبوداتهم و يرونها من أعظم طقوس ديانتهم قداسة ، لقد ساهم الجمعي و منظومته في إنشاء هذا الجيل و ترسيخه

بمجموعة كبيرة من الفتاوى التي تسهل هذه الممارسات و تجعلها مشروعة دينيا بوسيلة أو بأخرى تحت بند اختراعه هو :
المقاصد المصلحية لأحكام الإسلام !.

إلى ما يقارب نهاية عهد الزعيم بديع كان عامة الناس في بلادنا يحاربون البنوك ، و يقاطعون الجمعيات النسائية و المواخير و
الفنون بأنواعها و تجارة الخمر و فوائد القروض ، و يدينون ما يسمى بـ "بدل إفراغ المستأجرات العقارية" أو ما يسمونه بـ
"خلو الرجل" و الطلاق التعسفي و تمرد الأبناء و الزوجات ، و من يقع في هذه الأمور كان يخجل من مجرد ذكر وقوعه فيها
، إلا أن الجمعي و فريقه تمكنوا من تحويل جميع هذه القطاعات و الأفعال إلى قطاعات و أفعال مشروعة تماما تمارس بشكل
إعتيادي و دون أي تأنيب من الضمير ! ثم لم يعد أحد من المشايخ يجرؤ على مجرد إنتقاد شيء من هذه الأعمال ، و هكذا
تركت مهمة محاربة هذه الأعمال لدعاة الجمعية الإسلامية و الجيش الأسطوري ، و هذا ما كنا نبحت عنه تماما ، ذلك أن
رعونة و قسوة هؤلاء الدعاة أدت لزيادة عناد العامة و إصرارهم على ممارسة هذه الأعمال ، بل لقد صار العوام ينظرون إلى
هذه الأعمال على أنها نوع من العبادات بفضل توجيهات الجمعي ، أليس أن الإسلام سمى العمل لكسب المال عبادة ،
فصرت ترى في البلاد راقصة حاجة ! و تاجر مخدرات يرعى دار أيتام ! و قاتلا مأجورا يبني مساجد ! و بلغ الأمر بأحد
القوادين الأتقياء من المدمنين على حضور دروس الجمعي أنه كان يدل زبائنه على عميلاته الأرامل كي ينال ثواب و بركة ما
يسوقه لهن و لأيتامهن من كد أعضائهن التناسلية !!.

لقد كان للمجمعي و منظومته دورا حاسما في جعل معظم المتدينين في بلادنا و غيرها يعيشون حالة من الحيرة الرهيبة بين
تناقضات الفتاوى و الفتاوى المعاكسة ، و بين تناقضات مستلزمات الدين من الصدق و العفاف و بين ما يروج له
الحسوبون على الدين من الدعوة للإباحية و التحايل و ممارسة الرذائل براحة ضمير ، الأمر الذي أدى لهروب معظم المتعلمين
و المثقفين من الدين عموما و دفع بمعظمهم إلى تبني تدين الجمعية الإسلامية أو الجيش الأسطوري بفروعه المتعددة.

من أخطر المهمات التي أسندت للمجمعي كانت تأسيس تيارات دينية شديدة الغموض و التناقض ، عملت هذه التيارات
على تهديم ما بقي من ثقة العوام بالتدين ، و تسببت في يأس العوام تماما من الجانب العملي لدين الإسلام ، أي جانب تنظيم
المعاملات الإجتماعية و الإقتصادية ، هذه التيارات كانت تعتمد في إنتشارها على النساء و على أنصار المجتمع الأنثوي .

لعل أشرس هذه التيارات كانت مجموعة ظهرت في نهاية العقد الثاني من حكم هرثمة تُنسب لأحد أتباع الجمعي و يدعى
"الإفريقي".

زعم هذا الإفريقي أنه ولد من أم عجوز يئست من الحيض و من أب شيخ فانٍ ! و ادّعى الخوارق و العجائب و أنه على
اتصال روحاني بالأنبياء و الأتقياء الموتى ، هذا الزعم المدعوم بأموال و تغطية الجمعي كان سبيله لإضفاء القداسة على آرائه

و تحليلاته للنصوص الدينية الإسلامية المقدسة ، هذه الآراء كانت كلها تصب حول محور واحد هو : إن هرثمة و نسله و أتباع ديانتهم أناس تولوا السلطة بإرادة إلهية و أي اعتراض على حكمهم جريمة يستحق فاعلها الموت الزؤام حسب أحكام دين الإسلام !.

و ليغطي على مهمة مجموعته زعم الإفرقي أنه يريد إحياء الإسلام التقليدي و مذاهبه المعروفة و محاربة من يريد الخروج عنها ! مع أنه هو نفسه لا يتقيد بشيء من هذه المذاهب و لا بترائثها و إنما يفتي بما يحلو له ، ثم و للإمعان في التمويه زعم أن الله قيضه لمحاربة النسخة البدوية للإسلام المعتمدة لدى ملوك الجزيرة العربية ، و استعمل نفس أساليب أتباع هذه النسخة تماما ، فأصدر مئات الفتاوى بالحكم بكفر أتباع النسخة البدوية و بوجوب قتلهم كيفما اتفق ، ثم نشر بين أتباعه عقيدة سرية مفادها أن كل من ليس من أتباع آراء الإفرقي هذا ليس سوى مجذّف و كافر بملة الإسلام يجب قتله و أخذ ماله كيفما اتفق ، أي بالغدر أو بالخدعة أو بما أمكن ، طبعاً باستثناء أتباع الديانة السرية لأنهم طائفة مختارة من الإله للحكم و السلطة !.

أتباع الإفرقي هذا نالوا عناية كبيرة من شركات و مؤسسات الهُمامين على مدى ثلاثة عقود ، فلقد تبنت هذه الشركات رعاية و نقل دعاة جماعة الإفرقي إلى كافة أرجاء أوربا و أمريكا حيث انتشروا بكثافة في كل تجمع للمغتربين العرب ، و أيضا تكاثروا في مناطق شرق المتوسط بحماية رسمية من مخبرات هرثمة و ضباط جيشه.

افتتح الهمامان مراكز دعوية ضخمة لجماعة الإفرقي و فرغوا لها عددا كبيرا من الدعاة و أعوانهم من الرعاع و الفتوات (القبضيات) لنشر مؤلفات و فتاوى و آراء الإفرقي ، و لقد تمادى الإفرقي كثيرا في تحريض أتباعه على إحتلال مساجد المسلمين القريبة منهم بالقوة و قرض إدارتهم و خطابتهم و إمامتهم عليها ، و لقد وجدت دعواته صدى كبيرا في بلاد أوربة بين عامة المهاجرين العرب المشاركة و دارت معارك دموية بالسلاح الأبيض و صراعات كبيرة في المساجد و المراكز الإسلامية في المهاجر و في شرق المتوسط بين أتباع الإفرقي و خصومهم ، و لقد كانت السلطات دوما إلى جانب جماعة الإفرقي و ضد خصومهم حتى استولوا على واجهات عدد ضخم من الجاليات الإسلامية في أوربة و أمريكا و غيرها.

جماعة الإفرقي هؤلاء جميعهم يعملون لدى مخبراتنا في التجسس على كل من يتحرك تحت سمعهم و بصرهم ، و هم متخصصون في متابعة المعارضين المسلمين لحكم هرثمة و غيره من حكام بلاد العرب ، و في نفس الوقت يعمل معظمهم في شبكات السرقة و الإحتيال و القوادة ، ذلك أن الإفرقي أفنأهم بأن هذه الأفعال حلال للمسلمين القاطنين أو المارين في بلاد غير المسلمين !.

زعم الإفرقي بعد أن قوي أمره أن الله قد عصمه من الخطأ و أنه خلاصة علماء الإسلام التقليديين ، فأفتى في مسائل العلاقات الإجتماعية فتاوى كلها تصب في مصلحة نشر الإباحية الجنسية و العلاقات السهلة بين الجنسين ، و ليبقي الباب

مواربا بين أتباعه و بين أتباع الديانة السرية ألف كتباً في سبِّ و إنتقاد عدد من الصحابة ، أو رعبيل الإسلام الأول ، هذه الكتب مع مزاعمه بأنه عالم إسلامي تقليدي صبت في ترسيخ فكرة أن الديانة السرية مجرد رأي إسلامي آخر.

استفاد الهمامان كثيرا من جماعة الإفريقي في نقل الأموال من و إلى بلاد أوربة و أمريكا ، و استفادوا منهم كثيرا في تأمين نقل المجندين للجيش الأسطوري من و إلى أوربة و أمريكا ، و لا أبالغ إن قلت أن حجم التمويلات التي تملكها و تديرها الشركات الهمامية المتعاونة مع جماعة الإفريقي تزيد على ميزانية بلادنا بعدة أضعاف.

الشيخ الجمعي كان طوال حياته رجلا خلاقا و فعالا و يملك قدرات خاصة للمبادرة ، ففي نهاية العقد الثاني من حكم هرثمة حضر سماعته بعض إجتماعاتي مع مستشارين أوربيين ، كان الإجتماع لمناقشة إحصائيات سكانية أنجزها الفريق الإستشاري الأوربي ، أشارت بعض هذه الإحصائيات إلى ارتفاع كبير لسن الزواج و إلى ارتفاع أكبر في عدد الفتيات العوانس و اللواتي لم يتزوجن ، أيضا لاحظت هذه الإحصائيات ارتفاعا ضخما في عدد الفتيات المتحجبات و المتدينات عموما ، أشارت الإحصائيات أيضا إلى ظهور توجه لتخفيض متطلبات زواج الشباب بين الأهالي ، و إلى نشوء ظاهرة تزويج الشباب في بيوت ذويهم و توسع هذه الظاهرة !.

قال الدكتور جان مدير الإجتماع : هذه التطورات سيئة جدا و تعاكس أهداف سياساتنا التي طُبِّقَت بالتدريج على مدى أربعة عقود ، و لا بد من تخفيض هذه الظواهر على الأقل إن تعذر محوها.

قال المفتي الجمعي بهدوءه المميز : لدي خطة جيدة للتخفيف من هذه الظواهر كثيرا.

أشرنا بالموافقة على سماعه ، فانطلق يشرح فكرته قال بوقار : يوجد في بعض مدارس التربية الروحانية الإسلامية توجه معقول لإدانة الجنس و اعتباره عائقا كبيرا أمام الخلاص النوراني.

قاطع الدكتور جان قائلا : هل تعني الرهبانية ؟ إنها مدانة في القرآن و في نصوص الديانة الإسلامية و يعتبر الجنس الشرعي "الزواج" نوعا من العبادات في الإسلام !!.

ابتسم سماحة المفتي و قال : المدارس الروحانية لديها أساليب كثيرة لفتح هوامش تعبدية بعيدة تماما عن الفقه و القرآن و الحديث و التعاليم الرسمية للدين ، و يوجد يا عزيزي الكثير من التقارير الإسلامية لمعظم علماء الدين التقليديين تبرر لأتباع المدارس الروحانية تصرفاتهم و سلوكياتهم المخالفة للنصوص الرسمية و تمنع إدانة هؤلاء الأتباع بسبب مخالفتهم المتنوعة حتى تلك التي تعتبر منها "إجرامية".

قلت مبتسما : يا سماحة المفتي هل ستفتح ديرا للمسلمات ؟.

قال سماحته بعد نوبة من الضحك الجماعي : لا ليس ديرا رسميا ، و لكن سيكون لدينا منظمة نسائية كبيرة تضم مئات آلاف الفتيات المترهبات ، و ستكون كلها بإدارة واحدة و تعمل لهدف واحد.

وافقنا على فكرة سماحته بعد أن عرضها علينا ، ثم رفعناها للبارون فصادق على مقررات إجتماعنا و على الميزانية اللازمة لتطبيق فكرة المفتي الجمعي.

بعد عدة أسابيع افتتح الجمعي مصنعا للألبسة النسائية للمتدينات ، و صمم بنفسه تلك الألبسة لتبدو و كأنها لباس موحد لراهبات مسيحيات أرثوذكسيات إلا أن هذا اللباس كان ملونا.

كلف الجمعي إحدى قريباته من مدمات الرياضات الروحية و قراءة كتب الجن و السحر الأسود بمهمة تولي إدارة مركز دعوي نسائي خاص افتتحه في مقر جامعته في العاصمة ، قامت هذه المرأة و بأمر الجمعي بتوظيف عدد كبير من صديقاتها في هذا المركز للعمل كمرشدات.

في البداية كانت مهمة المركز تحفيظ القرآن للبنات و تعليمهن التجويد ، ثم و بعد عدة أشهر توسع المركز و صار يضم أقساما لتعليم الفقه و السيرة و العقائد .. إلخ.

لم تكن أبدا مهمة التعليم هي هدف المركز ، فأثناء تدريس البنات كانت مهمة المرشدات الإتصال الحميم بالبنات و بناء صداقة متينة مع كل واحدة منهن على حدة ، و بعد بناء الثقة تتحدث المرشدات للبنات عن العجائب و الخوارق التي سيصلن إليها إن اتبعن رياضات روحية خاصة للإتصال بالعالم الآخر !.

للوصول إلى إقناع الفتيات باتباع هذه الرياضات الروحية تنظم المرشدات حصصا كثيرة يروين فيها للبنات مئات القصص عن الخوارق و العجائب التي تظهر لأتباع هذه الرياضات ، تزعم المرشدات أن هذه الرياضات الروحية من الوحي الإلهي الخاص الذي أمر بتبليغه للخاصة من الصحابة فبلغوه لتلامذتهم الخواص و هكذا توارثه خاصة الخاصة من علماء الإسلام جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا ، بعد أن تقتنع التلميذات بهذا تختلي كل مرشدة بتلميذاتها كل على حدة و تقول لها :

لقد جاءني الأمر النبوي الروحي بتبليغك العلم الروحاني الخاص و بتدريبك على الرياضات الروحية التي توصلك إلى أن تشاهدي الخالق العظيم و أنت لا زلت هنا في هذا العالم ، لتصبحي واحدة من خاصة خواص الإله الخالق الواحد !.

هذه الرياضات كلها تعتمد على مبدأ إدانة كل الشهوات و الملذات و تعذيب الذات عن طريقة معاكسة رغباتها و فعل عكسها ، فيبدأ التدريب على قلة الطعام و الشراب و النوم ، و طبعاً الإمتناع نهائياً عن التفكير بالجنس و تعاطيه و مقاومة الرغبات الجنسية و كتبها حتى تموت تماما إن أمكن ، ثم تأمر المرشدة تلميذاتها بتلاوة صلوات و تسييحات و مدائح متكررة

و لفترات طويلة ، و بالتزام جداول زمنية صارمة لحفظ القرآن و قراءة كتب معينة جلها من تأليف الجمعي و فريقه ، هذه الجداول وضعت لتملأ البنات أوقاثن بما يشغلهن عن تعاطي ملذات النفس "الشريرة" .

ثم تأمر المرشدات تلميذاتهن بالتزام الرّي الذي تصنعه معامل الجمعي الآنفة ، و يأمرن تلميذاتهن بالإمتناع الكامل عن كل الزينة و أدوات التجميل مهما كانت ، بعدها تنتقل الفتيات إلى مرحلة أعلى تبدأ بالطلب من كل واحدة منهن التزام متابعة مرشدتها إلتراما تاما ، و تقليدها في كل حركة و سكونة ، و حتى في طريقة الكلام و المشي ، و لإقناع الطالبة بتنفيذ هذا الطلب تقول لها المرشدة : إن هذه الحياة متاهة كالأدغال الإفريقية المظلمة مليئة بالمخاطر و المزالق و المهالك ، المحظوظ فقط من يجد في هذا الغابة من يرشده لطريق آمن للخروج إلى خارج هذه المتاهة ، و طبعا حتى يخرج العالق بأمان عليه أن يتبع تعليمات المرشد و أن يقلد خطواته و حتى أن يكرر أنفاسه إن استطاع ، فكلما استنسخ في نفسه شخصية و أفعال المرشد كلما كان أقرب إلى السلامة و أسرع في الخروج لرؤية النور ، و هذا النور هو الإله الخالق ، و المرشدة هي الدليل الذي يقود التلميذة الحيرانة إلى طريق الخلاص من عتمة أدغال هذا العالم التعيس ، ثم تطلب المرشدات من تلميذاتهن تحيل أن المرشدات يراقبن التلميذات في غيابهن و حضورهن معهن ، و أنهن يحضرن بأرواحهن ليراقبن التلميذات في أثناء صلاتهن و تلاوتهن لوظائف التلاوة و المدائح المقدسة المكررة !.

بعد هذا تنظم المرشدات لتلميذاتهن مجالس أسبوعية لتلاوة الصلوات و المدائح المقدسة بشكل جماعي و على إيقاع الأناشيد الدينية ، هذه الأناشيد كلماها ساذجة و بسيطة تتحدث عن عبادات و مدائح نبوية بلهجة عامية و ألحانها هي نفس ألحان الأغاني المشهورة التي تتردد على الألسنة و يغنيها المغنون المشهورون العاملون في محطاتنا الإعلامية !.

في هذه المجالس تكرر المرشدات على تلميذاتهن التنبيهات المعروفة بوجوب طاعة المرشدات و عدم فعل أي شيء دون الرجوع إليهن و استئذانهن في الصغيرة الكبيرة ، و خاصة في أمر الزواج ، و طبعا يذكرنهن بعواقب مخالفة أوامر المرشدات الوخيمة في الحياة و بعد الموت ، فدخول الحمام ليس كالخروج منه.

بعد مدة تختفي شخصية التلميذة الخاصة لتحل محلها شخصية ببغائية همها تقليد المرشدة في كل شيء ، شخصية فتاة منفصلة تماما عن واقع الحياة و طموحات الناس الطبيعيين ، تؤمن فقط بأفكار المقتي الجمعي و على رأسها فكرة أن المخلوقات بمجموعها هي الخالق الواحد بذاته ، و أن الأديان كلها تعبد في الواقع إلها واحدا تختلف مسمياته و يتحد معناه ، أما شكل التلميذة فيصبح أقرب ما يكون لشكل الساحرات اللواتي يظهرن في مشاهد الرعب في أفلام هوليوود ، فهي ترتدي السواد و حاجباها سميكان و و عيناها محمرتان محاطتان بمالات داكنة من طول السهر و وجهها مليء بالوبر و مصفر ، و تراها نحيلة و صفراء كالموتى أو كمرضى الكوليرا.

لم تمض أربعة أعوام على بداية مشروع الجمعية النسائي حتى بلغ عدد المنضمات إليه أكثر من مائة ألف فتاة و بعد عامين تضاعف العدد في العاصمة وحدها حتى لم يخل فيها بيت للمسلمين من واحدة من تلميذات مشروع الجمعية النسائي ، الفضل في هذا يعود للخطط الدعوية التي حولت كل منضمة لهذه الجماعة النسائية إلى داعية مستقلة لجذب غيرها من الفتيات إلى طريق "النور الأبدي" و الخلاص من ظلمة أدغال العالم التعس ، خطة الدعوة التي تتبعها التلميذات هي نفس الخطة التي اتبعتها المرشدات الكبيرات حتى استقطبن التلميذات إلى الجماعة.

أغلب المنضمات إلى هذه الجماعة كن في البداية من الفتيات اللواتي فاتحن قطار الزواج أو كاد ، بعد فترة سمح للراغبات بالزواج منهن بأن يتزوجن ، و سمح للمتزوجات أيضا بالانضمام ، و هنا بدأت مرحلة أخرى لعمل هذه المجموعة ، فلقد تعاظمت سلطات المرشدات على التابعات بشكل كبير جدا ، فلم تعد التلميذات يعترفن بأي سلطة عليهن لآبائهن أو أمهاتهن أو أزواجهن ، و لا يرين أن لأحد عليهن أية سلطة سوى سلطة المرشدات ، فالضرورات تبيح المحظورات و الأهداف الأسمى يُضحى من أجلها بالأهداف السامية ، هكذا قالت المرشدات لتلميذاتهن ، فالتلميذة طالما أنها لم تشهد الإله الخالق فهي لا تزال في تيه و ظلمات أدغال الحياة الفانية و الآباء و الأزواج هم أنفسهم تائهون فلا يسوغ أن يطيع التائه تائها ، إذاً فلا طاعة في التيه إلا للدليل المسترشد ، و لا مسترشد إلا المرشدات ، فترى تلميذات مجموعة الجمعية من العزبات و المتزوجات يغبن عن بيوتهن بغير تشاور مع ذوبهن أو أزواجهن إلى ساعات متأخرة من الليل ، و هن لا يرين أن عليهن خدمة أزواجهن و أطفالهن ، فإن اعترض الأزواج رددن عليهم بفتاوى الجمعية التي توجب على الأزواج استئجار الخادومات ، طبعاً عذر الغياب هو : الإنشغال بالدعوة و مهماتها! فما هي هذه المهمات ؟.

الجواب : حاجات النساء العاطفية كثيرة جدا و متنوعة ، و بسبب ضعف قوة المرأة و سلطتها تلجأ الكثيرات منهن إلى وسائل "مما وراء العالم" (ماورائية) أو "غيبية" أو "سحرية" لقضاء هذه الحاجات ، فمنهن من تريد الزواج ممن تحب ، و منهن من تريد الطلاق من زوج تكرهه ، و منهن من تريد أن تجعل زوجها أعمى لا يرى سواها ، و منهن من تريد أن تحول زوجها إلى حمار تمتطيه نحو رغباتها ، و منهن من تريد أن تقتل قريبات زوجها دون مباشرة ذاتية .. إلخ ، و لقد وفرت مجموعة الجمعية كافة هذه الإحتياجات لنساء بلادنا بالوسائل "الماورائية" ، فلا تكاد ترى بيتا في مدن بلادنا إلا و تزوره بانتظام إحدى داعيات هذه المجموعة لتوفر العلاجات "الماورائية" الروحية لربّات هذه البيوت و فتياتها ، فتدخل إلى البيت بالأدوية السحرية و تخرج منه بأسراره و أسرار جيرانه و أسرار الحي بأسره ، و بالكثير من المال و الحلي و النفائس ، لقد امتلأت بفضلهن ياقات سُتر رجال بلادنا و حشوات وسائدهم و مقابر المدن المهجورة بملايين اللقافات الورقية ، رسمت عليها طلاسـم السحر و عزائم ملوك الجن و العفاريت بأنواعها ، و طبعاً امتلأت في المقابل خزائن منظومتنا بأموال ضخمة ثمنا لهذه اللقافات ، و بفضل هذه المجموعة امتلأت أيضا سجلاتنا بمئات آلاف الصور و الوثائق الفضائحية التي يمكن بها إذلال

التجار و الأثرياء و استجلاب أموالهم و تعاونهم و صفقاتهم ، و أيضا صار لمخابراتنا منظومة نسائية ضخمة أكبر و أعظم و أكثر مهارة و احترافية و إطلاعا من منظومة مخابراتنا الذكورية ، و لقد تمكنا عبرها من تنفيذ عمليات خطيرة و بحدوء و نظافة مذهشة و جمعنا بواسطتها معلومات و إحصائيات لم نحلم أبدا بجمعها بوسائلنا العادية.

توسعت كثيرا نشاطات المجموعة و صار لها فروع في جميع الدول العربية ، لقد نجح الجمعي في صناعة الدير الإسلامي دون أن يفتح ديورا ، و بفضل الرهبانية و العنوسة ظهرت في بلادنا المثلية الجنسية بين النساء و صار لها مجتمع سري ينادي بالمثلية الجنسية و ينافح عنها ، و يعتبرها شذوذا طبيعيا قمعه ظلم و تحد لإرادة الخالق الذي أوجد هؤلاء الشاذين !.

لقد نجح المفتي الجمعي في نشر و تثبيت ما فشلت فيه كافة الأحزاب العلمانية في البلاد ، لقد صنع دينا يقبل بكل الديانات و صنع تدينا يقبل بكل المحرمات ، و صنع إلها هو المادة بذاتها و حرر النساء من سلطات الأسرة ، و عزل رجال الدين التقليديين و أبطل كل خططهم لمنعنا من نشر الإباحية الجنسية بأسلوب بديع و مبتكر ، و ترك بعد موته جيلا كاملا مستنسخا عنه فكريا و عقائديا و عملا.

في نهاية العقد الثاني من حكم هرثة تثبتت تماما أعمدة نظام الأسر الحاكمة الذي أقمناه ، و مع بداية العقد الثالث توجهت إلى قصر البارون الصيفي في جبال الألب السويسرية لقضاء وقت طويل من الراحة و الإستجمام ، في كل عام كنت أقوم برحلة كهذه مع أسرتي ، في هذه الرحلة أعقد لقاءات متعددة مع البارون جيمس ، في هذا العام انضم إلينا الإبن الأكبر لجيمس و هو البارون ياكوب ، تلوت على دفعات في هذه اللقاءات التقرير السنوي عن منجزات منظومتنا ؛ هذا التقرير هو ملخص عام عن آلاف التقارير التي تتجمع في أرشيف مكتبي في ديوان رئاسة البلاد ، تقارير مخابراتية و أخرى حكومية و إحصائيات يقدمها الفريق الإستشاري الأوربي المقيم في بلادنا ، و تقارير منظومتي الإستخبارية الخاصة ، و تقارير مجموعة رجال الأعمال التي يديرها إبن خالي و أخي الدكتور أبو العلا.

تقرير هذا العام كان ذا وقع خاص جدا ، لدرجة أن البارون و أعضاء مجلسه الإستشاري كانوا يهتزون طربا لدى سماعي ، و في نهاية تلاوة كل جزء منه كانوا يتحلقون و ينشدون و يرقصون و يدبكون بأقدامهم من شدة السرور ، لقد كان هذا التقرير في الواقع إشارة للبدء في مرحلة أخرى من العمل في منطقتنا كلها ، مرحلة سهلة و طريفة و ممتعة لنا ، لكنها كانت في الواقع الأكثر إبلاما و قسوة على جميع الشعوب في المنطقة بأسرها و ربما في العالم كله ، سألخص هذا التقرير ما استطعت في الصفحات التالية :

أوضاع البلاد و مختلف قطاعات النشاط البشري فيها :

1 - القوات المسلحة : تضاعف عدد منتسبي القوات المسلحة من كافة الصنوف إلى نسبة غير مسبقة أبدا على مر تاريخ الإنسانية ، فنسبة العاملين في هذا القطاع المعتمدين على رواتبه و عائداته من العسكريين حملة السلاح و الإداريين زادت على عُشر عدد السكان ، و هو ما يزيد على ربع القوى العاملة في البلاد ، و تستهلك هذه القوات رسميا ربع الناتج الإقتصادي العام للبلاد ، واقعيا تستهلك القوات المسلحة أكثر من نصف هذا الناتج على هيئة مصروفات للميرة و الإمداد و الرواتب ، و على هيئة رشاوى .

القوات المسلحة : صنفان لا ثالث لهما ، الجيش و الشرطة بأنواعها ، و ينقسم الجيش إلى قسمين : الأول هو : "القوة الضاربة" أو ما نسميها بقوات النخبة ، تتشكل أساسا من فرقتين كبيرتين ، الأولى هي الحرس الرئاسي بكافة كتائبه ، الثانية هي سلاح الطيران مع كافة توابعه ، هذه القوة بكاملها يقودها البريغادير المعين من قبل البارون ملحقا عسكريا في سفارة دولة الإنتداب الأوربية ، و يقودها في الظاهر فقط "اللواء مرتضى" و هو أحد المرشدين الروحيين للديانة السرية من عشيرة هرثمة ، و لقد اختير لهذه المهمة لأن تسعة أعشار الضباط و ضباط الصف و معظم الطيارين في هاتين الفرقتين من أتباع الديانة السرية ، إضافة إلى أن ثلثي الجنود المحترفين فيهما من أتباع هذه الديانة و من الطائفة التي يتبع لها هرثمة (رسميا فقط) ضمن هذه الديانة ، لأن طائفة هرثمة الحقيقية هي طائفة أخرى من الديانة السرية تعتبر الطائفة النبيلة و القيادية لكافة مجتمعات الديانة السرية في العالم ، يقيم الموجه الأعظم و "الإله الأكبر" لهذه الطائفة في سويسرا بصفة دائمة .

ضباط و جنود هذا القسم من الجيش بعيدون تماما عن الإختلاط بعامة الناس ، هم دوما في حالة استنفار و تدريب على خطط عسكرية و مهارات قتالية و أسلحة فعالة ، تدريباتهم ليست للقتال ضد جيوش أخرى ، بل على العكس هم يتدربون على عقيدة قتالية واحدة هي : "إبادة كل من يحمل السلاح في البلاد من غير هاتين الفرقتين و أكثر من نصف سكان البلاد بلا تردد في حال نشوب تمرد عسكري أو شعبي عام" ؛ إبادة شاملة بلا رحمة و لا هوادة و لا تمييز بين مقاتل و مسالم و لا بين كبير و صغير ، لأن التمرد العام سيحول جميع من يدب على أرض البلاد من بشر أو دواب إلى عدو يعمل مباشرة أو بشكل غير مباشر على تقويض الدولة ، و على إبادة أتباع الديانة السرية و تراثها الثقافي و الفكري و الإجتماعي و العسكري العريق للغاية .

تعداد هاتين الفرقتين يزيد على ربع تعداد الجيش النظامي ، و أسلحتهما هي وحدها الأسلحة الفعالة في كل البلاد ، تتمركز وحدات من هاتين الفرقتين في محيط كافة المدن الكبرى البالغ عددها عشرين مدينة .

القسم الثاني من الجيش هو : ما يعرف بـ "الجيش الحكومي" ؛ هذا الجيش مكون أساسا من المجندين الإجباريين و الإحتياطيين من عامة أبناء البلاد ، تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشر و الخمسين عاما ، و تسيطر على هذا الجيش منظومة

من المخابرات و من ضباط الصف يقودها أتباع الديانة السرية ، و يوجد في هذا الجيش عدد كبير من الضباط المسلمين إلا أنهم مجرد زخرفة تُزيّن واجهة هذا الجيش لا أكثر.

هذا الجيش بكل تشكيلاته ليس إلا معسكرا ضخما للسخرة و الإستعباد على الطريقة الرومانية القديمة ، فالجند الذي يُجبر على الإلتحاق بخدمة هذا الجيش لا يتدرب على أي نوع جدّي من القتال ، هم يتدربون فقط على ما يسمى الإصطفاف العسكري و المشية العسكرية و بعض أنواع الرمايات ، و غالبا ما يدخل المجند إلى هذا الجيش و يخرج منه دون أن يحمل بندقية أو يطلق رصاصة واحدة.

معظم الأهالي يعتقدون صفقات مع آمري هذا الجيش من أتباع الديانة السرية ، كل هذه الصفقات مضمونها شيء واحد : أن يعمل المجند طوال فترة خدمته العسكرية - من عامين إلى ثلاثة أعوام - في حرفته التي اعتادها ، أو في مصنع أو مزرعة أو ورشة بناء أو تصنيع يملكها الأمر ، جميع ربيع عمل هذا المجند يكون حقا خالصا للضباط ، و على أهل المجند أن يتكفلوا بإطعام المجند و مصاريفه ، مقابل أن لا يلتحق بخدمة عسكرية فعلية من أي نوع.

عائدات هؤلاء المجندين كلها يتم تقسيمها إلى نصفين ، الأول للآمرين و الثاني يرفع لمنظومتنا ليحول إلى معادن نفيسة تجمع من أسواق البلد أو إلى عملات أوروبية ، ثم لتشحن إلى مصارف أوروبية.

هذا الجيش لا يقدر على قتال أحد و يمكن لقوات النخبة أن تبيد فرقه كلها في أيام قليلة ، آليات هذا الجيش كلها قديمة متهالكة و من مخلفات مستودعات الجيوش الشيوعية و الجيوش الأوروبية العائدة للحرب العالمية الثانية.

تنفق الخزينة من أموال دافعي الضرائب مبالغ سنوية ضخمة على ميرة و إطعام الجنود ، الواقع أن تسعة أعشار هؤلاء الجنود لا يستهلكون و لا يأكلون شيئا من هذه الميرة ، لأن صف الضباط و الضباط يستلمون محصصات المجندين التابعين لهم و يبيعونها في الأسواق ، ثم يأمرّون جنودهم بأن ينفقوا على أنفسهم من أموال أهليهم ، أيضا هذه العائدات تقسم بنفس الطريقة الآنفة الذكر.

أسلحة و آليات هذا الجيش معظمها معطل دوما ، و على الدوام تطلب إدارات مستودعات هذا الجيش قطع غيار مستوردة من الخارج ، معظم هذه القطع تباع في السوق السوداء بيد الضباط و صف الضباط ، و يُكتب في تقارير السجلات العسكرية أن الآليات قد تم إصلاحها ، ثم بعد فترة يعاد تسجيل نفس الآليات على أنها تعطلت مجددا بنفس العطل السابق مضافا إليه عطل جديد ، و هكذا حتى تسجل الآلية ضمن التالف و تباع في مزادات المعادن المستعملة "الخردة" ، ليشتريها الضباط أنفسهم من أنفسهم ثم لبيعوها بعد إصلاحها إلى إحدى الدول الفقيرة الأخرى الحكومة بمنظومات تشبه منظومة بلادنا ، تصدّر هذه الآليات من الميناء رسميا تحت بند "خردة".

طبعاً لا ينسى إعلام الحكومة أن يعلن عن مناورات لفرق هذا الجيش بين الحين و الآخر ، هذه المناورات جميعها وهمية أو فاشلة بشكل مضحك جداً ، لأن أي تشكيل من جيش الحكومة لو أمر بالتحرك من مقره إلى مكان المناورة سيتحول إلى رتل من الآليات المعطلة الملقاة على جوانب الطرق خلال ساعة واحدة أو أقل ، لن يصل منه إلى الميدان سوى عربة الأمر و بعض عربات الحراسة المرافقة للضباط.

في كل شهر تخصص الحكومة مبالغ طائلة لإحتياجات الجيش الحكومي للطاقة على هيئة "قسائم مجانية" تعطى لأصحاب محطات الوقود ، هذه القسائم تصرف من الخزينة دون أن يشتري بها أي وقود ، هذه المبالغ يذهب تسعة أعشارها أيضاً إلى الضباط و صف الضباط ، بعد خصم حصص أصحاب المحطات ، ثم تقسم العائدات كما سبق و بينت ، هذا عدا عن الوقود الذي يُشحن من مستودعات الجيش الحكومي و يباع في محطات الوقود و يعود ثمنه للضباط و ضباط الصف بنفس الترتيب المعتاد.

الصنف الثاني من القوات المسلحة : الشرطة بأنواعها ، و تنقسم إلى نوعين ، الأول هو الشرطة التابعة لوزارة الداخلية ، و النوع الثاني هو المخابرات بأفرعها و أجهزتها الكثيرة.

أما الشرطة التابعة لوزارة الداخلية فتتكون في معظمها من أبناء الريف المسلمين ، قيادتهم الفعلية مكونة أيضاً من صف الضباط التابعين للديانة السرية ، تشرف هذه الشرطة على المرور و المنافذ الحدودية و المخافر و السجون الجنائية ، و يتبع لهذه الشرطة قسم سري من المخبرين و الشرطة المتخفين بزي مدني و يدعى بـ "الشرطة السرية الجنائية" ، هذه الشرطة على كثرة عناصرها لا توفر الأمن لأي شارع في البلاد فجميع منتسبيها من ضباط و جنود يطلبون الرشوى علناً من كل من يمر عليهم من العامة ، فلا جواز سفر يصدر و لا ورقة إثبات هوية و لا يعبر عابر الحدود و لا تسير على الأرض مركبة و لا ترفع دعوى مدنية أو جنائية و لا يُستدعى شخص إلى محاكمة و لا يقوم عناصر هذه الشرطة بأي عمل من الأعمال المنوطة إلا و يأخذون عليه رشوى من زبائنهم ، و لو أن شخصاً ما تعرض لسرقة أو اعتداء و استدعى عناصر الشرطة فسينتهي به الأمر حتماً إلى أن يدفع لهؤلاء العناصر أضعاف ما خسره على يد المعتدين ليتخلص من تسلط الشرطة عليه ، و إن لم يدفع لهم الرشوى فستكون نهايته أن يتهم بنفس الجناية الواقعة عليه ، إضافة لجنايات أخرى مسجلة في سجلات الشرطة وقعت في الماضي و قيدت ضد مجهول ، ثم يحاكم و يسجن و يصير عبرة لغيره و قد تنشر قصص "جرائمه" في الجرائد و على وسائل الإعلام.

معظم قادة هذه الشرطة مرتبطون بعلاقات تجارية مع عصابات ترويج الحشيش و المخدرات و عصابات سرقة السيارات و الآليات ، و لهم حصص ثابتة من عائدات هذه العصابات ، جميع عائدات الشرطة أيضاً يتم تقسيمها كما ذكرت آنفاً.

النوع الثاني من الشرطة هم : المخابرات بأفرعها و أنواعها : العمل في المخابرات صار المهنة الرئيسية لجميع أتباع الديانات غير الإسلامية في عهد هرثمة ، فلا تجد أسرة واحدة غير مسلمة إلا و فيها شخص أو شخصان يعملون في المخابرات ، الواقع ليس لهذا الصنف من إسم المخابرات سوى الحروف فقط ، فهذه المخابرات لا تعمل شيئا سوى تنفيذ ما يصدر إليها من أوامر الفريق الإستشاري الأوربي ، يقوم كل عنصر من المخابرات و كل مخبر من المدنيين بكتابة تقارير عن المناطق و القطاعات التي كلف بمراقبتها ، ثم تشحن هذه التقارير إلى المقر الرئيسي للمخابرات ، ثم تلقى في حاويات القمامة ، لأن جهاز الإستطلاع و الرصد التابع لفريق المستشارين الأوربيين و الجهاز التابع لمكتبي الخاص ينقلون صورة رباعية الأبعاد و إحصائيات تامة عن كل ما يدب في البلاد ، و لا حاجة بهم لأكاذيب قطاع الطرق و المحتالين العاملين في المخابرات [هذه الحقيقة نوهت إليها سابقا في هذه المذكرات] إلا أن عناصر هذه المخابرات يعملون ليل نهار على ترويع كل من يدب على الأرض في بلادنا ، إذ تضم أبنية إدارات المخابرات و مقراتها الفرعية معتقلات سرية مليئة دوما بالمختطفين من أبناء العامة المسلمين تحديدا و دون شوائب ، فلا تجد في سجون البلاد سوى المسلمين فقط ، و لقد أطلقت يد هذه المخابرات في إبتزاز أسر المخطوفين جنسيا و ماليا و مصادرة حقوقهم و ممتلكاتهم حسب الإمكان ، و بحيث لا يصل الأمر حد الثورة و هيجان القلاقل العامة .

الشرطة باختلاف تخصصاتها و المخابرات بكافة فروعها لا تملك سوى أسلحة فردية قديمة ، و مركبات مدنية قديمة أيضا ، في الواقع يمكن لأي قاتل محترف أو لص خبير مدرب أن يحدث في هذه القوات مجازر حقيقية دون أن يستطيعوا فعل شيء يذكر لحماية أنفسهم ، فضلا عن أن يوقعوا بخصمهم ، فكيف يُتصور لهم النجاح في حماية المجتمع ؟.

معظم عناصر الشرطة و المخابرات أيضا من المجندين الإجباريين ، و يسري عليهم ما يسري على مجندي الجيش الحكومي ، و يسري على آلياتهم و ميرتهم أيضا ما يسري على زملائهم في الجيش ، و عائدات عملهم الحرفي التسخيري و عائدات آلياتهم و مخصصاتهم جميعها تقسم كما تقسم عائدات الجيش .

المتطوعون في الشرطة و المخابرات من الجنود و صف الضباط يتنوع عملهم بين ضبط جباية الرشاوى لصالح الضباط ، أو تعذيب السجناء و المخطوفين ليل نهار ، أو خدمة رؤسائهم في مزارعهم أو مصانعهم أو مؤسساتهم التجارية أو نقل المخدرات و زراعتها في محميات زراعة الخشخاش التي صارت منتشرة في مناطق البلاد المختلفة ، آخر ما يُتصور أن يفعله شرطي في بلادنا هو ضبط الأمن .

بفضل خدمات الشرطة و المخابرات صارت نسبة الجرائم في البلاد عالية جدا و خاصة الإحتيال و الإختلاس و السطو و السرقة ، لهذا تدنى مستوى الأعمال التجارية و الصناعية إلى أدنى مستوى له منذ نهاية الحرب العالمية الأولى قياسا إلى عدد السكان .

2- القطاع الإقتصادي : لقد تم بنجاح تنفيذ المرحلة الثانية للخطة الإقتصادية العامة التي وضعها البروفسور آلان.

هذا كل ما قلته في التقرير و لكنني سأشرح هنا الخطة الإقتصادية كلها التي وضعها البروفسور آلان ، و حتى تصبح الخطة مفهومة سأشرحها كما شرحها هو في إجتماع سابق عقد منذ عقد كامل ، أي منذ أن تولى رفاة بأمر من آلان عملية ضخ الذهب من بلادنا إلى أوربة ، قال آلان يومها بصوته الصخري :

لنفترض أن العالم كله مدينتان ، في إحدى المدينتين كان يوجد شخص ذكي جدا ، هذا الرجل كان لا يجب أن يعمل بيده أو يخاطر بماله و ممتلكاته ، و كان هذا الرجل يملك بعض المال الذي ورثه عن أبيه ، اتصل هذا الرجل بحاكم المدينة و اقترح عليه فكرة ذكية ، قال : يا مولاي إن الذهب هو دمّ التجارة و أنت ترى كم يتعب الناس في التنقيب عنه ، و كم يتعبون من أجل اقتنائه ، و مع هذا فهو يتعرض لسرقة اللصوص و للحتّ بأيدي المتداولين ، هذا الفقد خسارة للجميع ، فما رأيك بأن تسمح لي ببناء مبنى كبير فيه خزائن محروسة ، في هذا المبنى يودع الناس ذهبهم و يأخذ كل مودع صكا بكل دينار ذهبي أودعه عندنا ، قيمة هذا الصك دينار ذهبي واحد ، على أن يمهر الصك بخاتم الخازن ، هكذا سيكون الذهب بأمان و سيتداول الناس بحرص صكوكهم ، و من فقد صكا أو تلف صكه كتبنا له ورقة بديلة عما ضاع منه ، الورق و الخبر يا مولاي يُستبدل ، أما الذهب إن تلف فلا عوض عنه .

أعجبت الفكرة هذا الحاكم و عرضها على الناس فأعجبتهم ، و بدأ العمل بها و صار هذا الرجل الذكي هو الخازن ، بعد مدة احتاج الحاكم للمال لينفق على إنشاء طريق عام ، فطلب من أعوانه أن يجمعوا له ضرائب من الناس غير الضريبة المعتادة لينفق على إنشاء الطريق ، اعترض الناس على هذه الضريبة و لم يقدر الحاكم على جمع كل ما يحتاج بسبب تهرّب العامة ، سمع الخازن الجديد الذكي بما حصل و جاء إلى الحاكم فقال : يا مولاي إنك تجمع من الناس في كل عام ضرائب تنفق منها على احتياجات البلاد ، و أية ضريبة أخرى سيرها الناس حملا ثقيلا سيتهربون منه حتما ، عندي فكرة أفضل ، ما رأيك لو أنك أعلنت للناس ما يلي :

من يقرض الحكومة مالا بفائدة سنوية قدرها كذا ؟ إنك ستجد الكثيرين يفعلون هذا من أصحاب الأموال الكثيرة الذين لا يقدرّون على العمل بأنفسهم لتشغيل أموالهم المجمدة.

سأل الحاكم : و من أين نسدد لهؤلاء فوائد قروضهم ؟.

قال الرجل الذكي : ستزيد الضريبة السنوية قدرا قليلا جدا ، هذا القدر سيكون كافيا لسداد هذه الفوائد و سنسدد منه أيضا جزءاً من ديون الحكومة لهؤلاء المقرضين .

أعجبت الحاكم الفكرة و قرر أن يجربها ، فأصدر إعلانا كما أشار عليه الرجل الذكي ، و جاء الناس إلى الحاكم فقدموا له صكوكا بقيمة المبلغ الذهبي الذي يحتاجه مشروع الطريق ، و نُفذ المشروع بالفعل بنجاح ، في نهاية العام أعلن الحاكم أنه سيزيد الضريبة السنوية بمقدار طفيف لسداد القرض الذي أنفق على الطريق ، و لم يعترض الناس لأن الزيادة كانت طفيفة و غير محسوس بها ، و الطريق كان مفيدا لهم.

بعد فترة جاء أصحاب القرض يريدون أموالهم ، و لم يكن لدى الحكومة ما يكفي لسداد قرضهم ، استشاط الحاكم غيضا و استمهلهم ثم استدعى الرجل الذكي ، و قال له : كيف السبيل للخروج من هذه الورطة ؟ الناس يظنون أن الزيادة الطفيفة تكفي لسداد قيمة القرض ، و هؤلاء يريدون أموالهم و أنا لا أستطيع أن أجمع لهم الضرائب ، و إن لم أسدد لهم ستسقط هيبتى و سينتهى إحترام الرعية لي !.

قال الرجل الذكي : يا مولاي هذه سهلة جدا ، سأعطي هؤلاء الناس صكوكا جديدة بقيمة القرض و ستكتب لي سندا أضعه في الخزانة ، في هذا السند تعهد من الحكومة بسداد قيمة القرض و فوائده إلى حين موعد إنتهاء السداد في القرض الأصلي ، هذا السند فقط لحمايتي من مطالبة القضاء في حال جاء الناس جميعا و قرروا ترك التعامل بالصكوك الورقية ، و طلبوا ذهبهم و لم يكن عندي ذهب يقابل صكوك أولئك المقرضين التي أصدرتها لك لإسكاتهم ، و سيكون جزء من فوائد القرض هدية لي تقابل تعطيني لك.

أعجبت الحاكم الفكرة ، فالناس لن يفكروا جميعا باستبدال صكوكهم بالذهب ، لأن هذه الأوراق أسهل حملا و أسهل للحماية و اعتادها الجمهور كله ، و بالفعل قام الخازن بإصدار صكوك ورقية جديدة هؤلاء الناس ، و أودع خزانته سندا من الحكومة بقيمة القرض و فوائده ، كان القرض كبيرا ، لكنه لم يؤثر كثيرا على ميزان العرض و الطلب بالنظر إلى ضخامه المبلغ الذي يتداوله الناس في تلك المدينة ، ارتفعت أسعار البضائع قليلا بسبب ارتفاع الضريبة و بسبب الزيادة في الصكوك المتداولة ، هذه الزيادة عبارة عن صكوك لا يوجد ذهب في الخزينة ليتم إبدالها به حين الطلب ، فلقد عادت إلى سوق التداول صكوك بقيمة القرض الأصلي على هيئة أجور عمال و ثمن حجارة لإنشاء الطريق ، و أيضا عادت صكوك أخرى بنفس قيمة القرض حصل عليها الدائنون السابقون مع فوائد عام عن القرض الأول ، القرض الأول و فوائده كانت صكوكا حقيقية ، أموال السداد صكوك وهمية لا يوجد ما يقابلها من الذهب في الخزينة ، صارت الصكوك أكثر بعض الشيء من الذهب الموجود.

احتاج الحاكم في العام التالي أموالا لمزيد من الطرق ، فاستشار الخازن العبقري في مسألة طرح قرض آخر على الناس ، فقال الخازن : يا مولاي لماذا تعلن للناس عن قرض ما يلبثون أن يعودوا لمطالبتنا به ؟ فقط اكتب لي سندا بقيمة كلفة الطريق ، و أنا سأصدر لجنابكم صكوكا بكلفة المشروع الجديد ، و بنفس شروط القرض القديم و دون ضجة و لا بلبلة .

فعل الحاكم ما أشار به خازنه العبقري ، و بالفعل نجح الأمر و تم إنجاز الطريق الثاني ، و لاحظ الحاكم أن هذه الطرق أنعشت التجارة و زادت إيداعات الذهب عند الخازن و معها زادت الصكوك الصادرة عنه ، هذا شجع الحاكم على أن يرفع الضرائب السنوية قليلا ليسرع في سداد القرضين ، ثم إن الفكرة أعجبت الحاكم جدا ، فراح يشق الطرق و يُنشئ المباني و يستصلح الأراضي و يوظف العمال في حكومته في أنواع الخدمات ، و صار ينفق على هذه المشاريع بنفس الطريقة السابقة ، بعد عدة أعوام كثرت في الخزانة سندات الديون على الحكومة ، و صارت كمية الصكوك التي يتداولها الناس ضعف كمية الذهب الموجود في الخزانة ، و لم تزد كميات السلع التي تنتجها المدينة بما يوازي زيادة عدد السندات ، و لأن الصكوك زادت في أيدي الناس زاد طلبهم على السلع فارتفعت أسعارها ، و بدأت كرة الثلج بالتدحرج من أعلى الجبل ، و بدأت أجور العمال بالارتفاع ، و معها عادت الأسعار لتزداد و ازدادت أيضا الضرائب لأن الحاكم يحتاج إلى رفع رواتب عماله و حراسه و أعوانه حتى تناسب الغلاء الجديد ، و مع ارتفاع الضرائب عادت الأسعار لتزداد ، فالحاكم لا يستطيع سداد ديونه إلا من الضرائب لأن معظم القروض التي يأخذها ينفقها على خدمات مجانية ليست لها عوائد تجارية مباشرة و يسميها "إنجازات عامة" !! نسب الزيادات على الأسعار طفيفة و على مدد متباعدة بعض الشيء ، و لهذا لم يشعر بها الكثيرون ، و لكن بعد مدة تضاعفت الأسعار عدة مرات عما كانت عليه قبل أن يأخذ الحاكم قرضه الأول ، مع زيادة القروض أيضا زادت فوائد هذه القروض ، و كان الخازن الذكي حريصا دوما على أن يأخذ فوائد قروضه غير ناقصة ، و إن لم يكن يبالي كثيرا بسداد القروض نفسها ، فهو أصلا لم يدفع شيئا منها ، لقد كلفته "الورق" فقط !!.

احتاج التجار و الصناعيون و المزارعون الطامحون لتطوير أعمالهم و زيادة إنتاجهم إلى اقتراض المال بسبب زيادة الأسعار ، و أيضا احتاج الناس الذين يبنون مساكن جديدة إلى اقتراض الأموال ، انتبه الخازن الذكي لهذا ، فراح يقرض هؤلاء الناس المحتاجين صكوكا ليسدوا بها احتياجاتهم مقابل فوائد سنوية على القروض ، و احتجز أملاكا لهم بقيمة قروضه و فوائد لها إلى حين السداد.

إلا أن كرة الثلج ما تزال تتدحرج ، خاصة عندما عجز الحاكم عن فرض ضرائب جديدة على الناس بسبب تفاقم الغلاء حتى يسدد بها القروض و فوائد لها ، فلجأ إلى الخازن العبقري مرة أخرى يستشير ، قال له الخازن : الأمر سهل يا مولاي ، أنت تسدد لي الآن قروضا قديمة بفوائد عالية ، لماذا لا تقترض مني قروضا أخرى بفوائد أقل من القديمة لتسدد بها أجزاء من القروض القديمة و فوائد لها ؟

قال الحاكم : فكرة رائعة جدا ، و لكن لماذا لا تخصم فوائد من القروض القديمة بدل هذا اللف و الدوران ؟!!.

قال الخازن العبقري : يا مولاي خزانةكم شبه خاوية من الصكوك ، و أنا بحاجة لفوائد الديون القديمة حالا لسداد ديوني و التزاماتي الكثيرة التي تحول دون إفلاس البلاد.

اقتنع الحاكم و أصدر سندات جديدة للخازن للحصول على قروض أقل فائدة لسداد فوائده و أقساط من القروض القديمة ، و أصدر الخازن في المقابل صكوكا جديدة للحاكم ، قبضها الحاكم ثم أعادها للخازن على هيئة سداد أقساط و فوائد مستحقة.

راح الخازن يقرض الناس من الصكوك الجديدة ، و استمرت كرة الثلج في التدحرج حتى صار عدد الصكوك مئات أضعاف عدد دنائير الذهب في الخزانة و صار في مقابل كل دينار ذهبي في الخزانة مئات الصكوك التي يتداولها الناس في الأسواق و يدخرونها في بيوتهم مكتوب على كل صك منها : هذا صك بقيمة دينار ذهبي واحد !! صارت الأسعار أيضا مئات أضعاف ما كانت عليه قبل القرض الأول.

في إحدى الليالي طلب الخازن لقاء الحاكم على عجل ، سمح الحاكم له بالحضور و سأله عن سبب هذا اللقاء فقال الخازن : يا مولاي لقد أخبرني عدد من التجار أن شائعة تسري بين الناس بأنكم تسرقون من الذهب في الخزانة لتزخرفوا به قصركم و لتصنعوا به أثاثا فخما لعرس ولي عهدكم ، و هذا أغاظ العامة و قد تجدهم غدا يتجمهرون على باب خزانتي يطالبون بإعادة الصكوك إلي و أخذ الذهب الذي يودعونه و بالطبع عندما لن يجدوا إلا واحدا بالألف من الذهب الذي يظنون أنه مخزن عندي سيذبحونني ثم سيذبحونك و سيطبخوننا و يأكلوننا.

قال الحاكم و هو يرتجف من الرعب : و ما العمل ؟ أنت ورطتني و أنت من سينقذني و إلا قتلتك و هربت من المدينة إلى البرية .

قال الخازن : يا مولاي هذه سهلة أيضا.

قال الحاكم بدهشة : كيف ؟

قال الخازن : ستصدر لقائد الجيش الأمر بأن يصدر بيانا يقول فيه : إن المدينة معرضة لهجمات من وحوش خطيرة تأكل الناس ، و هذه الوحوش لا تزال بعيدة عن المدينة ، و لن تقتل هذه الوحوش إلا بأسلحة و أدوات ذهبية لأنها وحوش لا تعمل فيها المعادن الأخرى ، و لقد قررنا أن نجمع الذهب الموجود في الخزانة و نصنع منه أسلحة للجنود الذاهبين لقتال تلك الوحوش في أوكارها و القضاء عليها و على مخاطرها.

ثم سيصادق الكاهن الأكبر و كبير القضاة و الأطباء على هذا البيان ، و سنري العامة عينات من هذه الأسلحة الذهبية.

قال الحاكم : و هل سيصدق الناس هذا ؟.

قال الخازن : نعم إن صادقت أنت على البيان مع الكاهن الأكبر و بعض الأطباء و التجار.

قال الحاكم : و الصكوك ؟ ستصير بلا قيمة لأن الذهب سيختفي !.

قال الخازن العبقري : سنقول للناس في نفس البيان : إن الحكومة و القضاة قرروا اعتبار قيمة هذه الصكوك كما هي عليه دون تغيير مؤقتا ريثما ينتهي الحاجة الحربية للذهب ، على أن تمنع نهائيا المطالبة باستبدال أي صك بدينار من الخزانة حتى إشعار آخر بنهاية الأزمة !.

قال الحاكم : و هل سيوافق هؤلاء الكبار و القادة على مساعدتي ؟.

قال الخازن : لم آت إليك إلا بعد أن أقنعتهم ، فهم جميعا مدينون لي و بيوثهم مرهونة لي مقابل ديونهم.

وافق الحاكم و اجتمع الجميع و وقعوا على البيان ، و أعلن البيان أمام دار الحاكم و أمام قيادة الجنود و أمام دار القضاء و في المعبد الأكبر و سائر المعابد.

لم يبال الناس كثيرا بمصير الذهب ، و إنما أقلقهم جدا أمر الحرب على الوحوش التي تهدد بافتراسهم ، و بالفعل شاهد العامة بعد مدة كتائب من الجنود تغادر المدينة و معها حراب رؤوسها مذهّبة ، و عادت هذه الكتائب بعد مدة و معها جلود نمور و أسود و أفاعي و كلاب برية و غيرها من الوحوش ، و احتفل الناس بالنصر و نسوا أمر الذهب تماما و هم يحملون على أكتافهم شباب جيشهم الأبطال.

استمر الخازن في إقراض الحاكم و إصدار الصكوك له ، و استمر الحاكم في إصدار السندات للخازن ، و بعد مدة جاءت للخازن فكرة عبقرية أخرى طرحها على الحاكم ، قال الخازن :

يا مولاي إن الناس يحتاجون إلى القروض الكثيرة ، و زيادة عدد الصكوك كثيرا سيجعل منها النهاية أقل قيمة من الورق الذي كتبت به بالنظر لتفاقم الغلاء و كثرة الصكوك و قلة البضاعة .

ارتاع الحاكم مرة أخرى من الفكرة و قال للخازن : ما الحل ؟.

قال الخازن : الناس يثقون بالحكومة و بدلا من أن أقرض التجار صكوكا سأقرضهم قروض الحكومة .

قال الحاكم بتعجب : كيف ستقرض القروض ؟.

قال الخازن : سنجمع سندات الديون على الحكومة ، و سنقسم المجموع على ألف ، على عدد حاصل القسمة ستصدر لي سندات جديدة كل سند بقيمة بألف دينار ، و سيكون من حق صاحب السند أن يأتي في نهاية كل عام إلى خزائني ليأخذ فائدة على سنده بقيمة اثنين بالمائة من قيمة السند ، و سنعطي طالبي القروض الكبار سندات من هذه السندات بدل

الصكوك و سيقبلون بها ، لأنهم سيكونون قادرين على بيعها وقت شأؤوا بزيادة قليلة على قيمتها أو بأقل من قيمتها بقليل ، و ستسجل عليهم قروضهم بفائدة ثلاثة بالمائة مثلا ، و هم سيحصلون على اثنين بالمائة من هذه الثلاثة من مستحقات فوائد سندات الديون الحكومية السنوية المسددة إلى خزانتى ، و هكذا ستصير فوائد ديونهم واحدا بالمائة فقط .

وافق الحاكم على التجربة ، و افتتح الخازن مكتبا خاصا للقروض الكبرى لكبار التجار و الصناعيين و المزارعين ، و بدأ بمنحهم القروض من سندات الديون الجديدة .

بعد عامين آخرين صارت هذه السندات تتداول بين الناس كما تتداول الصكوك ، و خف الإحتياج لطبع صكوك جديدة ، الصكوك الجديدة صارت تصدر فقط لتغطي فوائد سندات قروض الحكومة .

و صار الناس يتداولون هذه السندات كما الصكوك على مدار الساعة ، و تحول إسم الصكوك إلى "دنانير" و صار إسم السندات "ألف دينار" ، و لم يدفع الخازن أبدا أية فوائد عن هذه السندات .

بعد عقد واحد صار الخازن مالكا لأكثر من نصف بيوت و بساتين و دكاكين و بضائع المدينة الأولى بسبب تراكم ثروته دون استنزاف .

المدينة الثانية : تقع قريبا من المدينة الأولى و هي أغنى و أجمل منها ، إلا أن سكان هذه المدينة مسالمون أكثر و أقل قسوة و مكرا و مهاراتهم الحرفية أقل من نظرائهم في المدينة الأولى ، و حاكم المدينة الثانية طيب القلب و متدين ، تتميز المدينة الثانية عن الأولى بأن الذهب فيها أوفر و المحاصيل فيها أكثر تنوعا و لذة ، و جوها أدفاً و أكثر رطوبة .

كان لخازننا العبقري هذا ابن عم تاجر بارع يقيم في المدينة الثانية ، و كان الإثنان يتراسلان و يتزاوران بين الفينة و الفينة ، و اتفق كلاهما على خطة عبقرية لمستقبل العلاقة بين المدينتين .

في الفترة التي سبقت تلك الزيارة الخطيرة التي قام بها خازننا لحاكم المدينة الأولى ، تلك الزيارة التي أفضت لنسيان أهل المدينة الأولى للذهب ، كان هذا الخازن العبقري قد زار الحاكم زيارة عمل ودية و قال له :

يا مولاي ، المدينة المجاورة مليئة بالذهب و المال المحاصيل الرائعة و السلاح فيها قليل ، و لقد اخترع أحد العاملين عندي سلاحا لجيشكم يرمي العدو من بعيد فيقتله دون أن يصل مدى سلاح العدو إلى جنودكم ، و أرسل لي ابن عمي أنه قد رشا قادة جنود تلك المدينة في غفلة حاكمها الأبله ، و لن يقاتلوا بخطط ناجحة ضد جنودنا ، إنها يا مولاي مدينة كبيرة الأرياف و فيها الكثير من الثمار الطيبة ، و ما عليك إلا أن ترسل جيشك ليحتل تلك المدينة و يقضي على حاكمها لتصير أنت حاكمها .

قال الحاكم : و لماذا أضيف إلى نفسي أعباء حكم جديدة و رعية آخرين ؟ يكفيني ما أنا فيه من الهم بسبب الديون التي ترهق كاهل دولتي الآن و أخشى من انهيار حكمي بسببها.

قال الخازن : يا مولاي إن انهيار دولتك سيكون حتميا إن عجزنا عن سداد الديون و انكشف أمر احتيالنا على ميزان مال الدولة ، أما إن أضفنا ذهب المدينة الثانية إلينا فسنسد الديون و سيفيض عندنا الذهب أيضا.

ثم عرض الخازن على الحاكم الخطة العسكرية لإحتلال المدينة ، وافق الحاكم الطامع و في العام التالي شن جيشه على المدينة الثانية حملة مدعومة بسلاح قوي بعيد المدى ، فانكسر جنود المدينة الثانية و قُتل حاكمها و أمراؤها و استولى جيش المدينة الأولى عليها و على ذهب حاكمها.

لم يجد جيش الفاتحين كثيرا من الذهب في خزائن حاكم المدينة الثانية ، و أسقط في يد حاكم المدينة الأولى و استشاط غضبا و أرسل للخازن يستدعيه ، قال : فعلت ما طلبته مني فكانت النتيجة قليلا من الذهب و قتل من جنودي الكثيرون و زادت ديوني بسبب كلفة الحملة ، ما الحيلة الآن في هذه الورطة العظيمة المدمرة ؟.

ضحك الخازن العبقري طويلا ، ثم قال للحاكم المغتاط : هون عليك يا مولاي ، هون عليك ، لم تتورط في شيء سيء و الخطة لسد الديون جاهزة لدي و أكثر.

قال الحاكم بغضب شديد : أخبرني بكل خطتك قبل أن يفور بركان غضبي و أمسحك و أمسح ابن عمك و أسرترك من الوجود .

قال الخازن بهدوء : يا سيدي بما أننا اليوم نحكم المدينة الثانية بالقوة سيصدر قائد جنودنا هناك أمرا للناس بتسليم ذهبهم كله إلى خزينة محروسة مقابل صكوك .

قال الحاكم مقاطعا بغضب : اللعنة على الصكوك ، سنقع في نفس الورطة التي نحن فيها هنا ، لا بد لنا من أن ننشئ المباني و نشق الطرق و نهض بحال المدينة الثانية حتى لا يثور علينا أهلها و هذا سيكون مكلفا و ستتكرر المشكلة بشكل مضاعف.

قال الخازن : يا مولاي بعد أن نعطيهم الصكوك مقابل ذهبهم ، سنقول لهم أننا قد نقلنا الذهب إلى مدينتنا لأن لصوصا من مدينتهم حاولوا سرقة ، سندبر من المثلثين من يحاول سرقة خزينة المدينة الثانية ليلا ثم نتهم بها بعضا من سكان مدينتهم ، و نسجنهم لنعود و نطلقهم بعفو بعد أن ننقل الذهب ، سنطلقهم لأن الأدلة لم تثبت أنهم الجناة ، هكذا نبدو حازمين و عادلين و منصفين في نظر أهل المدينة الثانية و سنضم ذهبهم لذهينا.

قال الحاكم و قد هدا قليلا : و بعد ؟ سيأتون إلى هنا ليبدلوا صكوكهم بالذهب ليشتروا بضائع تجارنا و صنّاعنا الماهرين كالعادة أليس كذلك فما الحيلة أيضا؟.

قال الخازن : لن نعطيههم بدلا منها ذهبا ، سنعطيههم بدلا منها صكوكا من صكوك مدينتنا نحن ، و سيستطيعون بصكوكنا أن يشتروا بضائعنا المتطورة التي سيعونها بريح كبير عند عودتهم لبلادهم.

قال الحاكم : و ماذا سنفعل بصكوكهم التي استبدلناها ؟ أسنتلفها ؟.

ضحك الخازن و نظر في وجه الحاكم ليرى أثر رده عليه : طبعا لا سنحتفظ بها لنبيعها لتجارنا بصكوك من صكوكنا ، حتى يشتري تجارنا من بضائعهم و محاصيلهم و حطب أشجارهم و مواشيهم .

دُهِش الحاكم من رد الخازن و نظر إليه بذهول : لكن صكنا مجرد بديل عن صكهم ، فصكهم مقابل دينار الذهب المخزون عندنا ، و نحن بدلناه لهم بصك من عندنا مقابل نفس الدينار ، فكيف سيكون للدينار الواحد صكان ؟.

قال الخازن : يا مولاي هم سيدفعون ثمن بضاعتنا ذهبا ، و نحن سندفع ثمن بضاعتهم وَرَقًا.

رغم أن الحاكم لم يفهم كثيرا إلا أنه اقتنع من الخازن ، و رأى أن الحل العاجل لمعضلة المدينة الثانية يكمن في جمع الذهب من الناس هناك و استبداله بالصكوك ، فأمر قائد جنده في المدينة الثانية بالتنفيذ.

بعد أن نفذ قائد الجند المهمة انتشرت الصكوك في المدينة الثانية و سميت بالدرهم نسبة لإسم العملة الذهبية التي كان يتعامل بها أهل المدينة الثانية قبل القرار ، كان وزنها و عيارها هو نفس نفس وزن الدينار الذهبي للمدينة الأولى.

بالتأكيد لم يكن الخازن يخطط إلا لسحب الذهب نهائيا من كونه نقودا ، و جعل صكوكه هي البديل عن الذهب ، الصنّاع المهرة هم أعظم الناس نفودا في أية أمة لأنهم يجنون النقود بسهولة كبيرة ، و لكن من سيكون أكثر ثراء و نفودا في العالم كله من الذي يصنع النقود نفسها متى شاء ، فيعطيهما من يشاء و يمنعها عمن يشاء ؟؟.

حتى يحافظ الخازن على سيطرته على كل شيء و حتى يكون المتحكم المطلق في كل شيء قرر أن يخترع آلية تجعله يحدد أيضا من الذي سيكون ثريا و من الذي سيكون فقيرا ، الآلية الأولى اخترعها في المدينة الأولى ، فبعد أن عقد مع الحاكم لقاءه الحاسم الذي أخرج به الذهب من كونه نقودا ، و بعد أن أصدر السندات على السندات ، اخترع شيئا آخر تماما و عرضه على الحاكم - الذي صار إسميا حاكما للمدينتين - و لكنه لا يقدر على رفض شيء من مقترحات الخازن ، قال الخازن : يا مولاي إن عقود الشراكة اليوم قاصرة عن تحقيق التقدم و الثراء و اجتماع القوى و ذوي الحرف لإنجاز العمران اللازم لجعل مدينتنا مدينة الرفاه و السعادة العامة لجميع الناس .

قال الحاكم : لدينا نظام صارم لعقود الشراكة يمنع الخصومات ، و يضبط الخلافات و يجعلها في الحد الأدنى بين الشركاء .

قال الخازن : يا مولاي الشركات هي المظهر الوحيد تقريبا للتعاون اللازم بين الناس لينجزوا الأعمال الكبيرة الضخمة ، و لكن الناس يخافون من عقود الشراكة لأن الشركة إن خسرت فقد يخسر الشركاء كل أموالهم و حتى بيوتهم و أسباب معيشتهم الضرورية لسداد ديون و خسارة شركتهم ، و لحل هذه المشكلة اخترعت لهم نظاما جديدا للشراكة ، نظام سيجعلهم يتشجعون على إقامة أكبر عقود الشراكة و بأكبر عدد من الشركاء ، دون تردد أو قلق .

قال الحاكم : هات ما عندك فأنت رجل لا تنتهي تحفك .

قال الخازن : لو أننا أردنا أن نبني جسرا ، فلا بد لنا من عمال بنائين مهرة و مهندسين و عمال قطع حجارة و عمال لحفر الأسس و إزاحة المياه إلى آخر ما هنالك ، و لإنجاز جسر كهذا حاليا لا بد من أن يمول الحاكم نفسه هذا المشروع ، و أن يعين مشرفا من عنده يرأس العمال و المهندسين ، فلو احتاجت المدينة إلى مشاريع أخرى ضخمة لن يقدر الحاكم على إنجازها جميعا ، أيضا المصانع الكبيرة لصناعة الثياب و الدواء و الطحين و غيرها ، كل هذه المشاريع يقوم الحاكم بها اليوم ، و لحل هذه المشكلة و إطلاق عجلة البناء و التوسع في الأعمال ، و لجعل الأعمال الضخمة من اختصاصات الجمهور ، و جعل دور الحكومة هو الرقيب على منفذي هذه الأعمال الكبيرة ، و الحسيب عليهم الذي يجمع منهم الضرائب ، أقترح ما يلي لإنشاء الجسور على سبيل المثال :

يعلن الحاكم عن رغبته في بناء جسر في مكان ما ، فيدعو المهندسين البنائين ليتقدم الراغبون منهم بخطط لبناء الجسر تتضمن تقديرات لكلفة بنائه مع أرباح المنفذين للمشروع ، سيقبل الحاكم العرض الذي يكون أقل كلفة من غيره ، و بناء عليه سيرصد الحاكم مبلغا لبناء الجسر من أموال الضرائب التي يتوقع أن يجمعها ، و سيوقع المهندس تعهدا بالتنفيذ في فترة محددة و ضمن الكلفة التي حددها في خطته الخاصة التي تقدم بها .

يسمح لهذا المهندس الفائز بـ "مناقصة بناء الجسر" بأن يعلن عن حاجته لشركاء لبناء الجسر ، هؤلاء الشركاء لن يشتركوا معه في العمل ، و إنما سيشاركونه في كلفة بناء الجسر ، سيقول مثلا : أحتاج إلى ألف ألف دينار لبناء الجسر ، و لقد تعهد الحاكم بأن يدفع لي من الضرائب مبلغ ألف ألف و مائتي ألف دينار ، فمن اشترك معي في رأس المال كانت له حصة من الأرباح ، فإن وقع في العمل ما يرفع كلفته بحيث تزيد على ما سيدفعه الحاكم فإن الشركاء سيقسمون الخسارة ، كل بحسب حصته من رأس المال ، و لن يدفع شيئا من ماله الخاص (غير حصته في الشركة) ليسدد الخسارة ، فقط سيخسر من المال الذي ساهم به في هذه الشركة ، و لو ضاع كل رأس المال فلن يحجز القاضي على أموال المساهمين في هذه الشركة لسداد ديونها ، و لأداء ما عجزت عن دفعه من مستحقات متأخرة للعمال ، و تجار مواد البناء و غيرهم ، المساهمون سيخسرون

مساهمتهم فقط ، و فوق ذلك سيكون بإمكان كل واحد من هؤلاء المساهمين أن يبيع أسهمه في هذه الشركة و بالسعر الذي يتفق عليه مع المشتري في أي وقت شاء ، و ليس بالضرورة بقيمة المال الذي ساهم به ، بل ربما بسعر أكثر بكثير من مما دفعه عند بداية مساهمته ، و سنسمي هذه الشركة : الشركة المساهمة العامة .

قال الحاكم : و من سيسدد ديون هؤلاء المستحقين ؟.

قال الخازن : سنؤسس صندوقا حكوميا لمساعدة ضحايا إفلاس هذه الشركات و نموله من الضرائب العامة ، و لكن على العموم لن نخسر الكثير من هذه الشركات لأنها ستكون مدروسة بعناية.

قال الحاكم : ثم و بعد أن ينفذ المهندس الجسر بأمواله و أموال شركائه ، كيف سنسدد له مستحقاته ؟.

قال الخازن : إن وجد الحاكم في خزينته صكوكا جمعت من الضرائب تكفي للسداد فسيسدد بعد أن يفحص خبراء من مهندسي الحكومة هذا الجسر ، و إن لم يجد الحاكم مالا فسيصدر سندات للخازن ليصدر له صكوكا بقيمة الجسر.

قال الحاكم : فكرة جيدة ستسمح لي بشق الكثير من سواقي الري و الماء إلى المدينة و الريف ، و الكثير من الطرق و بناء الكثير من المدارس و المصانع .

قال الخازن : نعم و سنفرض على المنتفعين من هذه المشاريع ضرائب جديدة على منافعهم لنسدد منها جزءاً من تكاليف المشاريع ، و سنؤسس أيضا لتجارة جديدة ، هي تجارة أسهم الشركات ، فالمساهمون في هذه الشركات لا يجب عليهم أن يقابلوا المهندسين و المزارعين و التجار ليساهموا في شركاتهم ، يكفي الراغب في المساهمة و الربح أن يأتي إلى قاعة كبيرة في وسط المدينة ، يجلس في هذه القاعة مندوبون عن هذه الشركات و سماسرة ، فيتخيروا من أسهما من هذه الشركات ليشتروها ، و إن أرادوا بيعها فما عليهم سوى إعادة طرحها للبيع عند نفس المندوبين الذين يبيعونها لمساهمين آخرين بسعر جديد يوافق سعر السوق الخاضع للعرض و الطلب.

الشركة التي تربح و توزع أرباحا أكثر على المساهمين سترتفع أسعار أسهمها ، و التي تخسر ستهبط أسعار أسهمها ، و سيحصل المندوبون (السماسرة) على عمولة صغيرة من بائع الأسهم و من المشتري.

أيضا سنجعل من شراء هذه الأسهم و بيعها مصدرا كبيرا لدخل الخزانة ، ببساطة سنسمح للمشتري بأن يحجز كمية من الأسهم بمجرد أن يدفع عربونا صغيرا جدا من ثمنها ، ستبقى هذه الأسهم محجوزة له إلى أن يحل موعد سداذه لكامل قيمة الأسهم ، هذا سيغري الجميع للمحاولة ، فإن ارتفع سعر الأسهم قبل حلول موعد السداد سيتمكن المشتري من بيعها و جني الربح ، و إن هبط السعر طالبه المندوب بأن يسدد كامل قيمة الأسهم أو أن يدفع ما يعوض به عن هبوط السعر ليبقى

محتفظا بالأسهم حين حلول موعد السداد الكامل ، فإن تخلف عن سد الفرق ألغيت الصفقة و احتفظ البائع و السمسار بالعربون .

هذا سيغري المقامرين و المغامرين و المتهورين و هم كثر جدا ليقامروا في هذه السوق الجديدة التي لا يباع و لا يشتري فيها إلا الأوراق ، و ستفرض الحكومة ضريبة على كل صفقة تلغى تساوي ربع العربون .

سأل الحاكم بذلك : فإن هبط سعر أسهم شركة بشكل كبير ماذا نصنع ؟ .

قال الخازن العبقري : سيكون على مدير الشركة أن يمنع المساهمين من بيع أسهمهم ريثما تعود ثقة الناس بشركته و قدرتها على الربح ، فإن عجز عن تحقيق أرباح سنجره على أن يوقع عند القاضي وثيقة "إفلاس الشركة" و سنصادر الشركة و ممتلكاتها و أسهمها و نبيعها في المزاد لسداد ديونها و ما يتوجب عليها من الضرائب ، هذا سيكون مصدرا جديدا لدخل الخزينة .

قال الحاكم : هذا سيفتح بابا كبيرا للإحتيال ، فقد يوجد من يؤسس شركة لتنفيذ مشروع كبير أو لإنشاء مصنع جديد ، ثم يجمع أموال الناس و ينكرها ! .

قال الخازن : لن نوقف عجلة التقدم من الإنطلاق بسبب الخوف من محتال هنا و هناك ، و سنتمكن من التحقق منه و من معاقبته على أي حال عندما يقع أمر كهذا .

نظر إلي البروفسور آلان و قال : الواقع أن هذه الفكرة الأخيرة عن المحتالين لم تخطر ببال الخازن جديا ، إلا أنه أنشأ لاحقا الكثير جدا من الشركات الوهمية لإنشاء مشاريع وهمية ، هذه الشركات أسسها بأسماء الكثير من المحتالين من أقاربه و أتباعه و أصدقائه و أصحاب النفوذ في الدولة ، و طارت مع هذه الشركات ملايين الدنانير من أموال المساهمين المغفلين ، و بعد كل مرة كان يعود لتأسيس شركات جديدة و كان يجد دوما من يشتري منه أسهمها و يفقد فيها أمواله ، و لكن خازنا العبقري هذا كان يؤسس أيضا شركات حقيقية ناجحة و رابحة ، نفذت الكثير جدا من الأعمال الهائلة الضخامة ، إلا أنه لم يسمح لأحد بمشاركته في إدارة و ملكية هذه الشركات سوى أولئك الذين اختارهم للنجاح و الثراء من أقاربه و أتباعه و عبيده ، لم يكن ممنوعا على أحد أن يحاول إنشاء عمل ضخم أو أن يُكَبَّر عملا صغيرا ناجحا ، إلا أن الخازن كان يقضي ببساطة و سهولة على أولئك الذين يريدون أن يكبروا دون إذن ، ليس عليه إلا أن يشتري الكثير من أسهم الشركة التي يريد تخطيطها ، ثم يعرض هذه الأسهم للبيع دفعة واحدة ، ستهبط أسعار أسهم هذه الشركة و ستتهتز ثقة المتعاملين معها ، و ستعجز عن إنشاء مشاريع جديدة و بهذا ستتقلص ثم تنهار خلال وقت قصير ، لم يخطر ببال الحاكم أو غيره أبدا أن يصل سلطان و نفوذ الخازن إلى هذا الحد .

ثم قال آلان : قال الحاكم : و ماذا سنفعل بصكوك المدينة الثانية ؟.

قال الخازن : يا سيدي المدينة الثانية ستكون في الظاهر مدينة حرة تحت حمايتكم ، و هذا سيقنع الرعا فيها حتى لا يثوروا ، و في نفس الوقت سنجعل منها حظيرة كبيرة للعبيد ، نحن سنسمح لهم بأن يشتروا فقط أردأ البضائع التي نصنعها في مدينتنا ، و لن يكونوا قادرين على صناعتها ، و سيشترونها بأعلى الأسعار الممكنة ، و سنشتري منهم نفائس بضائعهم و محاصيلهم بأرخص الأثمان الممكنة ، و سيكونون راضين و مقتنعين.

تساءل الحاكم : كيف سيكون هذا و ما فائدته ؟.

قال الخازن : سترى يا مولاي كيف بعد حين.

بعد فترة قصيرة حدد الخازن علاقة صكوك المدينة الثانية (الدراهم الورقية) بصكوك المدينة الأولى (الدنانير الورقية) بهذه الطريقة التي عممها على جميع الصرافين و الصناع و التجار و كبار المزارعين :

1 - لا يسمح بتبديل دراهم الورق بدنانير الورق في المدينة الأولى القوية ، و إنما يسمح بتبديل هذه الدراهم الورقية بدنانير ورقية فقط في سوق المدينة الثانية .

2- لا يسمح لتجار و صناعي المدينة الأولى ببيع منتجاتهم لسكان و تجار المدينة الثانية بغير الدنانير .

3- يسمح لتجار المدينة الثانية أن يبيعوا بضائعهم و محاصيلهم للمدينة الأولى مقابل الدنانير الورقية.

بهذا سيتوجب على سكان المدينة الثانية أن يشتروا بدراهمهم الورقية ما يجدونه من الدنانير الورقية المتوفرة في مدينتهم من حاصل بيعهم لبضائعهم و محاصيلهم لتجار المدينة الأولى ، ثم سيقدرّون بعدها على أن يشتروا بضائع و مصنوعات من المدينة الأولى بهذه الدنانير .

4- لا يسمح بأن يباع لتجار المدينة الثانية أي نوع من أنواع الآلات اللازمة لتصنيع محاصيلهم ، فهم سيجمعون جلود حيواناتهم مثلا و سيدبغونها و لكنهم لن يستطيعوا أن يصنعوا منها حقائب و أحذية متينة و جيدة و منتجات جلدية أخرى ممتازة ، سيكون عليهم أن يبيعوا الكثير من جلودهم المدبوغة لتجار المدينة الأولى و بأسعار رخيصة ، ليحصلوا على دنانير ورقية ثم سيشترون بهذه الدنانير أحذية و حقائب و مصنوعات جلدية ممتازة بأسعار غالية ، و لذلك ستكون كميات المصنوعات الجلدية التي سيشترونها قليلة و لا تفي باحتياجات سكان مدينتهم.

بعد مدة سيعرض عليهم تجار المدينة الأولى مقابل دنانيرهم القليلة أنواعا رديئة مهندمة من المصنوعات الجلدية و لكن بكميات كبيرة نوعا تكفي حاجات أسواقهم ، و لأن ما يشترونه هو الرديء المهندم من المصنوعات ، سيكونون دوما بحاجة لتجديد هذه المصنوعات التي تتلف بسرعة.

و مثلا لو أرادوا أن يصنعوا مصاص السكر ، فلن يقدروا على ذلك باعتماد قصب السكر أو السكر الذي يصنعونه في المدينة الثانية ، سيكون عليهم أن يبيعوا السكر إلى المدينة الأولى ثم يستوردون منها الشراب الحلو (قَطْرُ السَّكَّر) و العصائر الجففة ، ثم يصنعون من هذه المستوردات مصاص السكر ، و مع هذا لن يكونوا أبدا قادرين على صناعة مصاص السكر بنفس الجودة و اللذة التي يتمتع بها مصاص السكر المصنوع في المدينة الأولى.

هكذا ستبقى دراهم المدينة الأولى فيها بكميات شبه ثابتة ، و إن زادت بسبب ما يجنيه الناس هناك من الذهب ، فستكون زيادة قليلة و غير مهمة ، و سيبقى دخل العامل و التاجر في تلك المدينة ثابتا ، و سيكون أثرى أثرياء المدينة الثانية محروما من أبسط ما يتمتع به أفقر فقراء المدينة الأولى ، طبعا باستثناء أقارب الخازن المستوطنين في المدينة الثانية.

و أيضا لن يتم توسيع طرق تلك المدينة الثانية التعسة ، و حتى صيانة الطرق الموجودة أصلا لن تتم إلا ببطء شديد ، و لن يتمكن أهل المدينة التعسة من الإستغناء عن مصنوعات المدينة الأولى ، هذه المصنوعات التي سيرتفع سعرها دوما بسبب زيادة الدنانير المطبوعة في تلك المدينة و انخفاض قيمتها مقابل السلع و البضائع ، و في نفس الوقت ستوسع طرق المدينة الأولى و ستكون البضائع فيها نفيسة دوما لأن الطلب على البضائع يتزايد دوما بتزايد الدنانير ، و ستكثر فيها الأبنية الجديدة و تكثر فيها الشركات و تتوسع و تتضخم و ستزداد أجور العمال هناك دوما لتناسب زيادة الأسعار.

بينما ستبقى المدينة الثانية فقيرة و سكانها محرومون من البضائع الجيدة ، و حتى لا يعجز هؤلاء السكان عن شراء الرديء من المدينة الأولى و حتى لا يجوعوا و يثوروا ، يقوم الخازن بإصدار دراهم جديدة لتلك المدينة تكفي فقط لسد الفجوة بين ما يرد إليها من دنانير و بين ما تحتاج لدفعه ثمنا للإحتياجات ، التي تُستورد كلها من المدينة الأولى ، دوما بأسعار متزايدة في كل موسم تجاري ، و هكذا سيبقى دائما نصيب المدينة الثانية هو أردأ أصناف البضائع و ستكون أردأ باستمرار بسبب جشع تجار هذه المدينة و انتشار الرشاوى فيها و انعدام الرقابة على الأسواق ، و سيبقى نصيب الأولى هو البضائع الممتازة جدا و التي ستكون أفضل دوما بفضل المشاريع الجديدة و الدنانير الكثيرة التي يصدرها الخازن و بفضل الرقابة الحكومية على النوعية و الجودة لكل بضاعة تباع في الأسواق.

انتهى كلام البروفسور آلان.

الجزء الخاص بالمدينة الثانية من خطته هذه تم تطبيقه بالكامل على بلادنا ، كل شيء صار أردأ ، و دوما يتجه نحو الأردأ ، تكاثرت البضائع المستوردة و المصنّعة في أسواق بلادنا ، لكنها دوما كانت أردأ و أسوأ من حيث النوع و الكفاءة ، المارّ بأسواق بلادنا سيلاحظ دوما أمرين اثنين لا تخطئهما العين ، الأول هو كثرة البضائع المعروضة في الأسواق ، و الثاني هو تجهم و عبوس الناس الماشين في الأسواق حتى أنه ليصعب على المرء أن يجد شخصا يبتسم في الطريق ، حتى الأطفال صارت وجوههم مكفهرة دوما.

هذا القسم من التقرير و هو القسم الإقتصادي أثارت قراءتي لتفاصيله سرورا جامحا و نشوة هائلة في نفس البارون و ضيوفه فراحوا يرقصون و يغنون و يتبادلون الأتخاب ، و كنت أنظر إليهم و أنا أتصنع الإبتسام دون أن أفهم حينها سبب سرورهم العارم ، ثم عرفت السبب بعد عقدين كاملين من الزمن .

انتقلت في تلاوة تقريرتي إلى البند المفصلي و هو : 3- الوضع الإجتماعي : نُفِذَت المهمة الكبرى التي أنيط تنفيذها بمنظومة الشيخ الجمعي ، و في التفاصيل :

لا يوجد في البلاد كلها يومنا هذا أي نوع من العمل الشعبي الجماعي ، فلقد أمدتنا منظومة الجمعي بعدد كبير من رجال الدين المزيفين ، و تم حقنهم في مختلف أنواع المؤسسات الخيرية في البلاد ، بداية من الجمعيات الخيرية و انتهاء بدور الأيتام و رعاية المسنين و المستوصفات الخيرية و لجان رعاية المساجد و غيرها ، و لقد قام هؤلاء الرجال بحملة من الإختلاسات الضخمة جدا على نطاق واسع ، حتى فرغت خزائن هذه المؤسسات تماما و أغلق معظمها.

لم نتدخل لا لقمع الإختلاسات و لا لإنقاذ المؤسسات ، و لقد نُفِذَت الحملة حسب خطة مرحلية مضبوطة بعناية ، في البداية يتم تعيين رجل الدين التابع للمجمعي في مركز حساس في المؤسسة الخيرية ، ثم يتدرج في المناصب بسبب حملاته الدعوية و توسعه في العمل الخيري و نشاطاته المميزة في هذا المجال ، حتى يحقق شعبية كبيرة بين الناس ، ثم يُختار برضا الجميع ليرأس المؤسسة الخيرية التي اخترقها ، و بعد مدة يبدأ بحملة الإختلاسات على نطاق ضيق ، و يفتح مشاريع جديدة كبناء مسجد أو عدة مساجد و مدرسة دينية ، ثم يجمع لها مبالغ كبيرة من التبرعات ، و لكن هذه المشاريع ناقصة ، إذا لا توجد أوقاف استثمارية منتجة ملحقه بهذه المشاريع للإنفاق عليها بعد الإنجاز ، و لا توجد رقابة مالية على الحسابات ، و لا توجد رقابة هندسية أو عمرانية من أي نوع على المخططات.

بعد ذلك يبدأ هذا الرجل بحملة الإختلاسات برعاية و حماية مباشرة من ضباط المخابرات ، و لقد اعتنينا كثيرا بإظهار علاقة المخابرات بهذا الشيخ الجليل المزيف ذو الشعبية الواسعة ، و بعد فترة تنتشر أخبار اختلاسات الأئمين المؤتمن بين الناس ، و تبدأ عناصر المخابرات بتبيين أدلة هذه الإختلاسات لعامة الناس في المجالس الخاصة و المقاهي و أماكن الإجتماع العامة ،

بعدها يستقيل الأمين المؤتمن و يخطب خطبة نارية يرى نفسه فيها ، لكن أحدا لن يصدقه ، فأى مشروع من هذه المشاريع لم يتم إنجاز شيء يذكر منه ، بينما ظهرت آثار الغنى الفاحش على فضيلة المؤتمن و أسرته بحيث لا تخطئها العين.

و أخيراً تستولي مديرية الأوقاف الحكومية على المشروع و تنفذه بطريقة متقشفة و سيئة جدا ، و تسقط ثقة العامة في تلك المنطقة بالمؤسسات الخيرية و بالعمل الخيري و بالقائمين عليه و برجال الدين جميعا و لو كانوا خارجين من أبواب السماء طالما أن الأمر يتعلق بالمال أو بالعمل الجماعي الخيري.

هذه الخطة نفذت في كل البلاد تقريبا على مر العقد الثاني من حكم هرثمة ، و لقد وصلت إلى منتهاها في هذا العام رأس العقد الثاني لعهد هرثمة ، حتى أن أحداً لم يعد أبداً قادراً على إقناع العامة بالمعاونة على إنجاز أي مشروع خيري من أي نوع كان ، حتى و لو كانت معونة بالكلمة أو بالجهد العضلي ، و اليوم صارت البلاد خالية تقريبا من أية خدمات خيرية جماعية ، فلا يوجد فيها ما يستحق أن يسمى بـ "دور العجزة" و لا دور لإيواء الأيتام و المشردين ، و لا مشافي خيرية و لا مطاعم خيرية و لا منافذ لدفع أموال الصدقات للمحتاجين ، و اختفت تماما دفعات الزكاة التي كانت تدفع للمشايخ لينفقوا منها على أنفسهم و تلامذتهم و على من يلوذ بهم من ذوي الحاجة ، في نفس الفترة تعطلت جميع الملاحقات للمحتالين و مقترفي جرائم النصب و الخداع و الإختلاس المالي ، و صارت الرشاوى هي الضمان الوحيد لنجاح و استمرار أي عمل كان سواء أكان عملاً مشروعاً أم غير مشروع ، و في غياب القانون انطلقت أعمال النصب و الإحتيال حتى وصلت إلى العلاقات الزوجية ، و انعدمت الثقة تماما بين الناس إلا ضمن نسبة قليلة جدا من الناس لا يتجاوز عددهم المئات في المدينة المليونية الكبيرة.

ظهرت أيضاً في هذه الفترة اللصوصية و السطو على المنازل و السيارات و المحلات و المخازن و وقعت حوادث سطو كبيرة و بطرق خداعية ظريفة جدا و ذكية جدا ، طبعاً لم تتم ملاحقة هذه الأوضاع جدياً ، و هكذا انتقلت من كونها ظاهرة جديدة إلى كونها أمراً معتاداً تماماً و لا يلفت الإنتباه.

في ظل أجواء انعدام الثقة بين الجميع صارت النقود وحدها هي الضمان المقبول لأي شيء و اختفت الوعود نهائياً من قاموس لغة و سلوك الناس و طرق مبادلاتهم ، فمثلاً لم يعد ممكناً أن توصي حلوانياً على كمية من الحلوى دون أن تدفع له جزءاً من الثمن مقدماً ، و حتى إن فعلت هذا فقد لا تحصل على ما أوصيت عليه إن جاء للحلواني من يشتري ما طلبته أنت بسعر أكبر مما وعدت به أنت ، و حتى إن دفعت ثمن البضاعة مقدماً فلن تسلم من أن يطلب منك الحلواني زيادة على السعر تحت أية ذريعة مختلفة ، و طبعاً جميع هذه المنازعات لا تجد لها حلاً عند أحد ، أياً كان ، فلا قضاء و لا شرطة و لا شيوخ صناعات و لا شيوخ دين و لا شيوخ عشائر قادرون على حل الإشكالات ، و إن تدخلوا فهيئات أن ينصفوا في

الحكم ، لأنهم سيحكمون للأقوى دوما ، لذلك طور الناس أنواعا كثيرة من آليات العمل و التجارة ليس فيها للإئتمان أي اعتبار .

بسبب هذه الفوضى انتشرت أنماط كثيرة من المجتمعات العشوائية ، بدأ ظهورها منذ نهاية عهد الزعيم بديع و إلى نهاية العقد الثاني من حكم هرثمة ، فبعد انتشار الرشاوى نشأت مدن كبيرة بتوسع عشوائي في المناطق الفاصلة بين المدن المنظمة تنظيميا هندسيا و عمرانيا و بين الأرياف و المساحات الزراعية المحيطة بها ، معظم سكان هذه المناطق العشوائية من الريفيين الهاريين من تعب الزراعة إلى سراب رفاهية المدن ، في هذه المناطق لا يتعارف الناس إلا قليلا و لا توجد خدمات و لا مرافق أساسية ، فلا توجد شبكات ماء و لا صرف صحي و لا كهرباء و لا مستوصفات طبية و لا مدارس ، و لقد زاد عدد سكان هذه العشوائيات على ضعف عدد سكان العاصمة و المدن الكبرى المنظمة هندسيا ، البيت في العشوائيات مبني على أراض زراعية مهجورة أو أراض حكومية مهملة ، تجده مبني على طريقة بيوت الريف ، غرف من الخفان الإسمنتي تستقر على أرضية من الطين أو من الإسمنت المصبوب طبقة رقيقة ، نوافذ هذه البيوت و أبوابها و أسقفها من الحديد الصدئ أو ألواح التوتياء المموجة ، و ليس في هذه البيوت مجاريير و إنما توصل بلاعات المياه المختلفة بأنبوب واحد مدفون تحت أرض المنزل و يفتح على الشارع من فتحة قريبة من باب البيت ، و طرقات هذه العشوائيات كلها ترابية ضيقة لا تكاد تمر فيها سيارة ، تتوسط هذه الطرق خنادق طينية قليلة العمق تجري فيها مياه البلاعات المختلفة.

أما المياه فتجد أن معظم هذه البيوت تشرب من آبار عشوائية حُفرت في داخل البيوت ، و جميع هذه الآبار تقريبا يصل إليها رشح مياه البلاعات الجاري باستمرار في الطرق.

أما القمامة فتتجمع على مفترقات الطرق بين هذه العشوائيات و على أطراف أحياء المدن المنظمة ، و هي كالجبال في الحجم و المنظر.

في هذه العشوائيات انتشرت العلاقات الجنسية الغير منضبطة ، و نتيجتها ولد جيل كامل من الأطفال المشردين الذين ولدوا لأمهات ريفيات هاربات من أسرهن الفقيرة ، و مع انعدام شبكات الرعاية الاجتماعية و المؤسسات الخيرية و العمل الجماعي صار هؤلاء الأطفال اليوم بأعداد كبيرة يعيشون كالوحوش البرية أو كالكلاب الضالة في الشوارع ، يأكلون من الإستجداء و السرقة و القتل و العمل في الدعارة للجنسين ، و ليست لهم أشكال البشر و لا أعمالهم ، ناهيك طبعا عن أن يكونوا متعلمين ، و العجيب أنهم جميعا تقريبا بصحة جيدة و نادرا ما يوجد موتى منهم في الشوارع ، تحصل بينهم معارك و يُقتل منهم البعض ، لكنهم يسارعون لدفن بعضهم سرا و دون ضوضاء ، و هم يتوالدون في الشوارع كما تتوالد القطط تماما و دون أية فرصة للإستقرار ، لقد عاد جيل الصعاليك و الفتاك إلى الحياة مرة أخرى في بلادنا العربية ، و صاروا يغزون أرجاء المدن في البلاد ، و عدنا نسمع عن مغامراتهم بفضل المفتي الجمعي و منظومته الرائعة.

مع كل هذا لم تتحرك أية مجموعة من الناس في تلك المناطق أو حتى في المدن المنظمة لإيواء هؤلاء الأشقياء أو لإعادة توطينهم أو حتى لجمع القمامة من زوايا الشوارع ، لم يبادر أي طبيب أو تاجر أو ثري أو شيخ لفعل أي شيء لجمع معونات لهذه المخلوقات ، و السبب يرجع إلى يأسهم المطلق من أن يصدق أحد أنهم غير محتالين و نصابين ، لم يجرؤ أحد حتى على فتح مضافة صغيرة أو حتى حظيرة لإيواء واحد أو مجموعة صغيرة من المشردين ، لأن هذا قد يدمر سمعته و يجعله في عيون الناس نصابا آخر ، فبفضل منظومة الجمعي و أعمالها الباهرة صارت النشاطات الخيرية مدانة ، و كل من يعمل بهذه النشاطات مدان باللصوصية و الاختلاس و لو ثبتت براءته آلاف آلاف المرات ، أيها السادة لقد انعدم الإحساس بالاجتمع بين الأفراد في بلادنا ، و صار كل واحد يعيش في صحراء موحشة وحيدا مرعوبا ، لا يؤمن إلا بما في يده من المال و المنافع ، على الرغم من تواجد الناس من حوله و كثرتهم.

ارتفعت جدا نسبة الطلاق في الأسر و تضاعفت كثيرا عما كانت عليه في فترة حكم الزعيم بديع ، خاصة بعد تدمير المدينة الثائرة ، و صار استمرار الزيجات أمرا غير متوقع في الغالب ، و السبب هو فقدان الثقة بين الزوجين ، فمعظم الزيجات صارت تبنى على خداع الخاطب لذوي مخطوبته ريثما يتزوج ثم ينكشف عجز هذا الزوج عن القيام بأعباء الأسرة المالية ، فيضطر إلى إعادة عروسه إلى بيت أهلها و السفر إلى الخارج للعمل في قعر مجتمع المهجر أو الهرب من عروسه لتحصل على الطلاق من القضاء لاحقا أو يضطر إلى تطبيقها مقابل بعض العوض.

انتهى تعدد الزوجات أيضا و صار من الماضي إلا بالنسبة للكهول الأثرياء و هم قلة قليلة جدا ، و مع هذا لا يزال الإنجاب كثيرا و نسب المواليد مرتفعة جدا مقارنة ببلاد العالم الأخرى.

عاد عدد كبير من الشباب إلى الالتفاف مجددا حول رجال الدين التقليديين في النصف الثاني من العقد الماضي ، و لكنهم لم يستمروا طويلا لاستحالة تفرغهم للدراسة مع هؤلاء المشايخ الفقراء و المهملين ، فضلا عن أن يتفرغوا للإرشاد و الإصلاح الإجتماعي و الروحي ، انتشرت كثيرا دعوات الجمعية الإسلامية و الإسلام النجدي ، الفضل يعود إلى التمويل الذي يتمتع به أصحاب هذه الدعوات و إلى اليأس الهائل الذي يعيشه الشباب ، التحاق هؤلاء الشباب بهذه الجمعيات و التيارات لا يعود إلى أسباب فكرية بقدر ما يعود إلى نقيمتهم على واقعهم الإقتصادي و الإجتماعي الأمني المتردي ، و لَدَيّ تقارير تؤكد أن انفصا لهم عن هذه الجمعيات و التيارات و إنقلابهم عليها سيتم بمجرد تعرضهم لما يخيفهم على أمنهم أو بمجرد حصولهم على مكاسب مادية أكبر مقابل هذا ، لأن أفكار هذه التيارات و الجمعيات مصادمة تماما للواقع الإجتماعي المباشر لكل من ينتسب إليها ، و لا تتضمن هذه الأفكار آليات واقعية للتكيف مع الواقع أو لتبديله لا على المدى القريب و لا على المدى البعيد.

لقد فقد الآباء و الأمهات دور القيادة في الأسر ، و انتقل هذا الدور إلى المصادر المالية التي يرتبط بها الأبناء ، فمعظم الشباب مرتبطون بأعمال مختلفة في سن مبكرة ، و هذه الأعمال غير ثابتة و يمكن أن يخسروها بسهولة ، علاوة على كونها قليلة المردود جدا ، و صار عاديا أن تسمع عن ابن ضرب أباه أو قتل أخاه أو قود على أخته ، و عن أب قود على ابنته أو عن ابنة تزوجت عشيقها و فرت من المنزل بعد أن كانت هذه القصص تعتبر أساطير خيالية قبل عقود قليلة. انتهى التقرير.

صفق الجميع بسرور تعليقاً على هذا القسم الأخير من التقرير ، و طلب البروفسور ريكارد الكلام ، و البروفسور ريكارد سياسي أوري من أقارب البارون و يتولى مناصب هامة في الإدارة الأمريكية باستمرار ، هو رجل بعيد النظر و يدير القسم الأكبر من ملفات الجيش الأسطوري بمختلف تنوعاته.

قال ريكارد : اسمح لي سيدي البارون أن أقول : لقد آن الأوان لإطلاق المراحل الكبرى من مشروع الجيش الأسطوري ، سيكون سهلا جدا في ظل هذه الظروف أن نجند على الدوام مئات الألوف أو حتى الملايين ضمن هذا الجيش ، دون الخوف من أن ينقلب هذا الجيش علينا ، فلو أن المسيح عاد و ظهر بين هؤلاء الناس الذين وصفهم التقرير لوجدتهم جميعا يلتفون حوله بسرعة ، و في نفس الوقت سيعرضون جميعهم علينا خدمات "يهودا الأسخريوطي" بمجرد أن نلوح لهم بالعصا أو برزمة من الورق النقدي.

ضحكنا جميعا من المفارقة العجيبة ، و من صدق و حقيقة هذه المفارقة التي يندر أن تحدث و بهذه الضخامة في تاريخ أمة.

بعد أن هدأت موجة الضحك قلت لريكارد : ما هي الخطوة الأولى ؟.

قال ريكارد : لقد اتفقنا على أن نعدّ ميدانا كبيرا جدا و واسعا و يقع في وسط العالم ، هذا الميدان سيكون مسرح ظهور الجيش الأسطوري بأجياله و أنواعه ، و سيكون أيضا مسرح القضاء على هذه الأجيال المتعاقبة و المتنوعة ، سيبدأ العمل أولا لإزالة الأقنعة و الستائر (الديكورات) القديمة من على خشبة هذا المسرح لتظهر الشخصيات الجديدة بدلا منها.

قلت : هل ستحيلون القيادات الموجودة إلى التقاعد ؟.

قال البروفسور : نعم تباعا ، لكن سنبدأ بتجربة واحدة كالعادة ، هذه التجربة ستكون في الدولة التي يحكمها كسار المجاورة لكم ، و سنجعل من هذه التجربة حافزا على تأجيج الرغبة في الحرب حتى الموت ضد الدول الأوربية و أمريكا لدى كل شاب يسير على الأرض في بلادكم ، و أيضا ستؤجج الرغبة في الهجرة إلى أوربة و أمريكا و لو كان ثمن هذه الهجرة حياة هذا الشاب ، ستكون تجربة محطة جدا لشعوبكم و ستجعل اليأس إلى درجة الرغبة في الإنتحار أمرا ثابتا في شخصيتهم و تفكيرهم ، بل و أكثر ثباتا من الغريزة نفسها.

اجتمعنا مرة أخرى ، و ذلك في اليوم التالي لتلاوتي التقرير عن العقد الثاني من عهد هرثمة ، في هذا الاجتماع استمعنا لخطبة المرحلة الأولى من مراحل إطلاق الجيش الأسطوري ، و لقد شارك في عرضها جميع الحضور تقريبا بما فيهم البارون ياكوب ، بدأ البروفسور آلان بالكلام :

أيها السادة ، توجد ثغرة كبيرة جدا في عمل نظام التجارة "الحرّة" الذي نعتمده في الغرب ، و هذه الثغرة يمكن إيضاها بهذا المثال ، لو فرضنا أن منطقة معزولة من العالم فيها عدة مدن صغيرة ، و في إحدى هذه البلدات يوجد رجل ثري ماهر افتتح مصنعا للأحذية الممتازة و الحقائق الجلدية الفخمة ، و بدأ ينتج بضاعة نفيسة و سعرها يعادل المنتجات الجلدية القليلة الجودة التي تباع في أسواق المنطقة ، سنجد بعد مدة أن هذا الرجل سيحتكر وحده صناعة الجلوديات في المنطقة ، و سيتحول كل العاملين في هذه الصناعة إلى عمال في مصنعه ، أو إلى بائعين موزعين لبضاعته ، لأن الناس سيقبلون على بضاعته و سيقبلون عن شراء البضاعة التي اعتادوا على شرائها.

ستتوسع ثروة الرجل و سيفتتح مزيدا من الورشات في مصنعه و سينتج أنواعا مبتكرة من الجلوديات ، و سيستولي على مصانع الدباغة و بعدها سيسيطر على أسعار الجلود و سيتحكم بهذه الصناعة لوحده.

نتيجة لهذا النجاح و اتساع السيطرة سيرفع هذا الرجل ثمن بضاعته تدريجا ، و سيجبر المزارعين على أن يبيعوه جلود حيواناتهم بأسعار أقل و ستتسع ثروته كثيرا ، لأن أرباحه ستزيد بإطراد بسبب إجراءاته هذه و بسبب طمعه و انعدام منافسيه.

بعد فترة ستتناقص مبيعات مصنوعاته بالتدريج ، نتيجة لإرتفاع أسعارها المتزايد و ضعف قدرة الناس على شرائها ، و أيضا بسبب تناقص استهلاك هذه البضاعة ، لأنها بضاعة جيدة و تدوم طويلا ، و أيضا بسبب ظهور حرفة جديدة هي "إصلاح الجلوديات" على هامش صناعة الجلوديات التي يسيطر عليها هذا الرجل الماهر ، فمعظم الناس سيفكرون بإصلاح ما لديهم من جلوديات صاحبنا ، عوضا عن شراء بديل لها في حال انخرقت أو أصابها بعض التلف.

هذا التاجر لن يرضى بتناقص أرباحه ، و للحفاظ على مستواها مرتفعا سيضطر لصرف عدد من عمال مصنعه ، و للإستغناء عن موزعين لبضاعته ، هؤلاء لن يبحثوا عن مهنة أخرى ، و سيعملون في إنتاج جلوديات أقل جودة من جلوديات صاحبنا و أرخص سعرا ، لأن السوق سيستوعب طلبا على بضاعتهم القليلة الجودة ، فالناس يحبون الأحذية و الحقائق الجديدة ، و لا ضير في أن يشتري الفقير حذاء جديدا قليل الجودة طالما أنه عاجز عن استبدال حذائه القديم المصنوع في مصنع صاحبنا بحذاء جديد غالٍ من نفس المصنع.

هؤلاء المنافسون الجدد سيتوسعون أكثر ، و سيقضمون مساحات أكثر من السوق ، و سيجبرون هذا الصناعي على أن يصرف مزيدا من عماله ، حتى يبقى نسبة أرباحه الحالية قريبة من أرباحه في ذروة نجاحه ، و سيحاول تخفيض أسعار الجلود التي يشتريها من المزارعين ، لنفس السبب الآنف ، فانخفاض الأرباح يعتبر نوعا من الخسارة عند من ذاق طعم النجاح .

بصرف المزيد من العمال و بالضغط على أسعار الجلود غير المصنعة ، سيهرب المزارعون و الصناع الذين فقدوا أماكنهم في مصنع الجلوديات ، و سينضمون إلى مزيد من الورشات الصغيرة التي تنتج جلوديات رخيصة و مناسبة للفقراء ، و فوق ذلك سيحاولون تحسينها لتنافس منتجات مصنع الجلوديات الكبير بما اكتسبوه من خبرة خلال عملهم في المصنع المتطور .

سيضطر صاحب المصنع إلى تحمل مزيد من التقلص في تجارته و صناعته باستمرار ، حتى يضطر في النهاية لإغلاق مصنعه ، لأنه لم يعد يربح شيئا من مصنوعاته الممتازة بسبب عجزه عن بيعها بكثرة و بأسعار عالية ، و بسبب رفضه لتخفيض سعر بضاعته الممتازة و إذلالها ، إنه سيفضل دوما كساد بضاعته على أن يبيعها بسعر أرخص ، لقد راح هذا البارح ضحية لعدم قدرته على كبح طمعه و بسبب تكبره ، و بسبب هوائية الناس و تموج رغباتهم صعودا و نزولا ، فالناس يهونون أمرا جديدا ثم يكرهونه و يملّونه ، و ينتقمون منه بتركه و البحث عن غيره ، حتى أنهم يقبلون بما كانوا قد تخلوا عنه سابقا لصالح هذا الجديد الذي ملّوه ، إن لم يجدوا جديدا يثير دهشتهم .

و هذا هو حال جميع الصناعات ، كلها تبدأ بابتكارات عبقرية ، و تنتهي لصالح ابتكارات أحدث ، أو لصالح قديم يحل إليه هوى العامة المتقلبين ، و لتجنب هذا المصير اخترعنا آليات مضادة لأضرار هذه التموجات ، آليات حولتها إلى دوائر و دوامات ، تدور حولها و بما كل القوى الاقتصادية إلى ما يشبه اللانهاية .

الآلية الأولى هي : للحفاظ على السيطرة على أية صناعة لا بد من السيطرة على المنافسة العفوية التي تنشأ كردة فعل طبيعية على الإحتكار ، هذا لا يكون إلا باستباق نشوء المنافسة العفوية ، عن طريق صناعة منافسة مزيفة تندرج ضمنها كل تلك المهارات التي تنشأ عن الصناعة الإحتكارية ، فلو أن صاحب مصنع الجلوديات سألني عن طريقة لإبقائه متحكما في صناعة الجلوديات في منطقته ، كنت سأقول له : افتتح مصنعا آخر ينتج جلوديات أرخص من جلوديات مصنعك الأول و أقل جودة من منتجات مصنعك الأول و لا تخبر أحدا بأنك تملك المصنعين ، و بهذا فإن أرباح الجلوديات التي كنت ستخسرهما لصالح أولئك المفصولين من مصنعك الأول ستعود إلى جيبيك عبر مصنعك الثاني ، و ما تقلص من أرباح و منتجات مصنعك الأول سيصبح تضخما في مصنعك الثاني ، و ستستطيع أن تصغر حجم مصنعك الأول دون أن ينهار .

فإن بدأ المصنع الثاني أيضا بمواجهة كساد فافتتح مصنعا ثالثا بضاعته أرخص و أردأ من بضاعة الأوليين ، و هكذا ستبقى سيد هذه الصناعة إلى الأبد ، فالفقراء و الأغنياء و المتوسطوا الأحوال سيشترون بضاعتك ، و بهذا لن يوجد منافسون لك

و لن يصلح أحد بضاعتك المستعملة ، و سيرميها و يشتري بدلا منها ، لأن الفقير و الغني و المتوسط الحال سيكون بمقدور كل منهم أن يشتري ما يناسب قدرته من دكاكين بيع الجلوديات في المنطقة ، هذه الدكاكين التي لا تبيع إلا بضاعتك بأنواعها و أصنافها المتنوعة الجودة ، و سينسى جميع محترفي العمل في الجلوديات فكرة إنشاء مصنع حرفي صغير للجلوديات ، لأن أحدا منهم لن يقدر على بيع منتجاته!.

لقد طبقنا هذه الآلية على كل الصناعات في العالم ، و بفضلها نسيطر اليوم على كل آلة تنتج موادا مصنعة في العالم ، و على كل منجم أو حقل أو بئر ينتج مادة أولية غير مصنعة في العالم.

الآلية الثانية : لقد أصدرت حكومات العالم بأمرنا قانونا إسمه "حماية الملكية الفكرية" ، يبدو هذا القانون رائعا جدا لأولئك العباقرة الذين يبتكرون أنواعا جديدة من الصناعات ، أو آليات جديدة لتطوير الصناعات الموجودة ، بموجب هذا القانون يحق لكل مخترع أن يسجل إختراعه في سجل عالمي ، و لا يحق لأحد أن يستنسخ هذا الإبتكار و ينتجه ، لأنه هذا "سرقة للأفكار" بموجب القانون طبعا ، هذا التسجيل يسمى "براءة الإختراع" ، و سمحنا بالقانون لهذا المبتكر أن يبيع هذه البراءة و أن يتخلى عنها ، فإن باعها انتقل حق احتكار إنتاجها إلى هذا المشتري الجديد.

هذا السجل أتاح لنا معرفة هوية و مكان كل شخص مبتكر في العالم ، فإن اخترع أحدهم آلة أو طور صناعة ، أو اكتشف دواء أو مادة جديدة أو أي شيء نافع جديد ، كنا نحن السباقين إليه لنشتري منه "براءة الإختراع" و لنحتكرها إلى حين نقرر أن ننتجها ، أو أن نرميها في الأدراج إلى أجل غير مسمى.

بهذا احتكرنا العبقرية البشرية نفسها و جعلناها عاجزة عن صناعة ما ينافس مصانعنا ، و زال خطرنا عن سيطرتنا على الصناعات و الزراعة و التجارة الدولية و الوطنية في كل مكان.

الآلية الثالثة : كنت قد شرحت خطتنا الإقتصادية لإبقاء ثلاثة أرباع شعوب الأرض في الطبقة السفلى من الحياة ، يعملون و يجهدون من أجل يزداد الربع الباقي رفاهية و غنى ، و يزدادوا أيضا ولاء مطلقا لنا دون حدود ، أتذكرون خطة صديقنا الخازن بخصوص العلاقة بين الدنانير الورقية لمدينته و الدراهم الورقية للمدينة التعيسة المحتلة ؟.

لقد قسمنا الربع المرفه من شعوب العالم إلى قسمين متساويين ، القسم الأول هم الأوروبيون و اليابانيون ، و القسم الثاني هم الأمريكيون ، نحن نسيطر على كافة المصانع في كلا القسمين ، و لقد قسمنا هذه المصانع بالتساوي بين القسمين ، ففي كل قسم توجد منتجات عالية الجودة و متوسطة الجودة تمثل ثلاثة أرباع منتجات هذه المصانع ، و منتجات رديئة الجودة تمثل ربع منتجات مصانعنا ، رحنا نصدر بضائعنا الجيدة و المتوسطة من القسم الأمريكي إلى الأوربي و بالعكس ، بينما تذهب

بضائعنا الرديئة و الرخيصة إلى الأرباع الثلاثة النعسة من سكان الأرض ، أيضا يتم إرسال البضائع الجيدة المستعملة التي يستغني عنها المرفهون إلى الأرباع النعسة على هيئة "معونات" و "هبات" و "تبرعات" و تجارة بالمستعمل.

لقد قسمنا الدنانير الورقية في هذا الربع المرفه إلى قسمين ، الأول هو النقود الورقية الأمريكية "الدولار" و الثاني هو النقود الورقية الأوروبية و اليابانية أو ما تسمى بـ "سلّة العملات".

هذا التدبير سمح لنا بإيجاد إقبال متجدد دوما لشراء بضائع مصانعنا ، فالناس يحبون الأشياء التي تُجلب من بعيد ، حتى لو كانت أقل جودة من الأشياء التي يصنعونها هم بأنفسهم ، و هكذا صار للمصنع الأمريكي زبائن أوروبيون و يابانيون أثرياء و متوسطوا المستوى ، و للمصنع الأوربي و الياباني زبائن أمريكيون من أصناف مشابهة.

الزيادة المطردة في الأسعار نتيجة لطباعة مزيد من العملات الورقية بسبب الديون الحكومية ، و الزيادة الإنتاج المطردة في الإنتاج بسبب طمع أصحاب الشركات الفرعية التي تتشكل منها شركاتنا الضخمة ، هاتان الزادتان المتصاعدتان دوما ستسببان في النهاية كسادا حتميا ، و انهيارا شبيها لذلك الذي سيواجهه صاحب مصنع الجلديات إن لم يصغ لنصحي ، و شبيها لذلك الذي كاد يقضي على أمريكا و أوربة في فترة ما قبل الحرب العالمية ضد دول المحور.

لقد اخترعنا لهذه المعضلة حلا عبقريا بدأ تنفيذه بعد النصر النهائي على المحور إليكم ملخصه :

قمنا في الفترة التي أعقبت نهاية الحرب برفع قيمة الدولار مقابل العملات الأوروبية و اليابانية ، فراحت مصانع أوربة و اليابان تدور و تبيع بضائعها في السوق الأمريكية المزدهرة ، و بأسعار أرخص من أسعار البضائع الأمريكية ، و في المقابل أيضا كانت أصلا البضائع الأمريكية رائجة في أوربة بين الأثرياء و المتوسطي الحال ، بعد مدة انتعشت كثيرا الصناعات في أوربة و اليابان ، و في نفس الوقت زاد إقبال الناس هناك على بضائعهم المنتجة محليا ، بسبب الدولارات الكثيرة التي دخلت جيوبهم ثمنا لصادراتهم ، و أصبح لدى الجميع في أوربة و اليابان وظائف و موارد مجزية للرزق ، بعد عقد و نصف من الزمن عاد شبح الكساد إلى أمريكا ، فخفضنا سعر العملة الأمريكية مقابل بقية العملات ، و أقبل الأوروبيون و اليابانيون على إعادة فوائض الدولارات التي لديهم إلى السوق الأمريكية ، و اشتروا بها بضائع أمريكية بأسعار رخيصة (بسبب انخفاض الدولار) و باعوا هذه البضائع في أسواقهم بربح نظري بسبب ارتفاع أسعار عملات بلادهم بالنسبة للدولار ، فانتعش الطلب على البضائع الأمريكية المصنوعة ، و ازدادت أرباح الصناعيين الأمريكيين و توظف مزيد من العاطلين عن العمل ، و فاض في الميزانية الأمريكية كمية كبيرة من العملة الورقية ، فقررنا إعادة هذا الفائض إلى الأسواق لئيشغل المزيد من المصانع ، فأصدرت الحكومة الأمريكية قانونا يسمى "الضمان الإجتماعي و الصحي" ، هذا القانون يقضي بمنح العاطلين عن العمل

رواتب تكفي لسدّ احتياجاتهم اليومية من الغذاء و اللباس و السكن ، و يمنح جميع الأمريكيين الحق في الطّابة مجاناً في عيادات و مشافي الدولة في كل البلاد ، و في معظم العيادات الخاصة.

ثم عاد الكساد لأوروبا في نفس الوقت التي بلغ فيه الإنتعاش ذروته في أمريكا ، أي بعد عقد و نصف ، فخفضنا قيمة العملات الأوروبية و اليابانية ، و انعكس إتجاه تصدير البضائع إلى أمريكا ، فراح التجار الأمريكيون يشترون البضائع الأوروبية و اليابانية بأسعار رخيصة و يبيعونها بأسعار عالية في بلادهم (لأن الدولار صار أغلى من العملات الأوروبية و اليابانية) ، و هكذا عاد الإنتعاش إلى أسواق أوربة و اليابان و تمكنوا هم أيضا من رد فوائض الأوراق المالية في خزائهم إلى أسواقهم بطريقة الضمان الإجتماعي و الصحي ، و في فترة الذروة في أوربا و اليابان عاد الكساد لأمريكا ، فخفضنا سعر دولارها ليميل ميزان التصدير لصالح مصانعها ، ثم و هكذا دواليك إلى يومنا هذا .

هاتان الدوامتان تدور إحداهما الأخرى إلى ما يشبه اللانهاية ، و بهاتين الدوامتين أبعدنا - إلى مستقبل غير منظور - ذلك الخطر المدمر المسمى "الكساد الناتج عن الإحتكار" ، أبعدناه عن صناعاتنا و عن سيطرتنا على أسواق العالم ، و أبعدناه عن الربع الحرفه من سكان العالم الذي نعتمد على ولائه لنا في إخضاع بقية البشر لسيطرة منظومتنا.

أيها السادة : نحن اليوم بصدد إنهاء المرحلة الشيوعية و تحويل البلاد الشيوعية الأوروبية إلى نظام السوق الذي نعتمده في غرب أوربة ، و هذا سيحتاج إلى حقن الكثير من العملات الأوروبية في بنوك و مصارف دول أوربة الشرقية ، نحن لن نخاطر بطبع المزيد من الدولارات الأمريكية لنضعها في تلك البنوك ، خاصة و أننا الآن بصدد تخفيض سعر الدولار نظرا لبداية الكساد الأمريكي الجديد ، هذا قد يضعف جدا قوة الدفع في الدوامتين الأنفتي الذكر ، و قد لا نكون قادرين رفع سعر الدولار مقابل العملات الأخرى في الوقت المناسب ، فتنهار الصناعات الأوروبية و اليابانية بسبب غرق أسواق أوربا و اليابان بالبضائع الأمريكية الرخيصة ، و أيضا بسبب المنافسات الأوروبية الشرقية الصاعدة ، الحل هو :

لقد ارتفعت أرصدة الأسر التابعة لنا التي تحكم الدول المصدرة للبترول و الغاز ، هذه الأرصدة المتجمعة خلال العقود الثلاثة الماضية صارت مبلغا هائلا يعادل حجم الدولارات اللازمة للنهوض بالدول الشيوعية السابقة و رفعها إلى مستوى مقارب لمستوى أوربة الغربية ، و للإستيلاء رسميا على هذه الأرصدة سنحتاج إلى حدث كبير ، هذا الحدث سيكون الذريعة للحصول على هذه الأموال ، و سنقدم لتلك الدول بدلا منها خدمات حيوية ظاهريا و جوفاء واقعا .

صمت البروفسور آلان و ترك الكلام للبروفسور ريكارد ، قال ريكارد :

منذ بداية القرن الحالي ركبنا في كل أرجاء الشرق و الجنوب منظومات شبيهة بتلك التي يديرها الكولونيل مهران و فريقه ، و قضينا على كل الطبقات الأرستقراطية العنيدة التي رفضت أن تندرج في منظوماتنا ، و في "أورك" الدولة التي يحكمها كسار

تحكم ذلك البلد منظومة أخرى لنا ، يقود تلك المنظومة اللواء حنا رئيس المخابرات ، في ذلك البلد جيش مشابه تماما لجيش دولة الكولونيل مهرا ، هذا الجيش مكون من فرق من المجندين معظمهم من أتباع الديانة السرية (هي علنية جزئيا هناك) و من الكورد و الترك المسلمين ، و هي فرق ضعيفة و مسلحة تسليحا ردينا ، و فيه فرق أخرى قوية و مسلحة تسليحا كافيا للسيطرة على بقية الجيش و للقضاء على أي تمرد من أي نوع في كل أرجاء البلاد ، هذه الفرق القوية جميع قادتها و جنودها من العرب المسلمين ! هم في النهاية مسلمون و إن كانوا يعتقدون أفكارا لادينية و يؤمنون بقوة بالفكر القومي الذي صنعه لهم أساتذة الحرية الأوروبيون الأفاضل.

يخضع هذا الجيش و كل القوات المسلحة في ذلك البلد لإمرة الجنرال وولتر ، هو يقود أيضا بنفس الطريقة و التقسيم القوات المسلحة في "مملكة أصحاب النسب المقدس" الصغيرة المجاورة لأورك.

نحن نواجه في بلد كسار عقدة لا بد من إزالتها ، المسلمون في ذلك البلد ينقسمون إلى قسمين ، قسم العرب و قسم الكورد و الترك ، لقد قضينا على الأرستقراطيين الترك و الكورد في ذلك البلد في بداية العقد السادس من القرن الحالي دون مقاومة تذكر ، كان ذلك على يد حزب "قاع" و الأحزاب الشيوعية العاملة إلى جانبه ، و لكن بقيت الأرستقراطية العربية ، هذه الأرستقراطية كانت موالية للترك ضمنا ، و لأن هذه الأرستقراطية تعتمد على قاعدة شعبية من العشائر البدوية المستوطنة ، لم يجد قادتها غضاضة في التعاون مع الجيوش الأوربية التي انتزعت بلادهم من حكم الترك ، لكن من عجيب ترتيب الحكم التركي أن هذه الأرستقراطية تتحكم بعشائر وسط البلاد و هم عرب مسلمون ، و أيضا تتحكم نفس الأرستقراطية بعشائر جنوب البلاد و هم من العرب أتباع الديانة السرية.

لكسر سيطرة هذه الأرستقراطية على العشائر التي تدين بالديانة السرية ، افتعلنا حربا ضروسا بين دولة كسار و بين الدولة الآسيوية الغربية التي استولى على الحكم فيها القادة الروحيون للديانة السرية (العلنيون جزئيا) بعد ثورة دينية ، هذه الحرب دامت لسنوات ، بسببها وقع في أسر جيش هذه الدولة الآسيوية كثير جدا من المجندين أبناء عشائر العرب ، هؤلاء الأسرى من أتباع الديانة السرية ، فأكرمت الدولة الآسيوية وفادتهم و جندتهم للحرب على جيش بلادهم.

أيضا و بذريعة هذه الحرب أوعزنا لكسار لنفي الكثير من أتباع الديانة السرية من سكان بلاده إلى بلاد العدو الآسيوي المجاور ، هكذا استطعنا أن نحشد جيشا و شعبا من أتباع الديانة السرية في هذا البلد الآسيوي ، تركز هؤلاء على حدود بلد كسار.

تم إعداد هذا الجيش و هذه القاعدة الشعبية بشكل جيد على يد القادة الروحيين لأتباع الديانة السرية ، و لم تنقطع الاتصالات بين هؤلاء الأسرى و المنفيين و بين ذويهم و أقاربهم في أورك ، هذه العلاقات كانت برعاية القادة الروحيين لديانتهم في بلد كسّار نفسه ، إذ يعد هذا البلد المقر الروحي لأتباع هذه الديانة.

بالتدريج انتقل ولاء العشائر العربية التي تدين بالديانة السرية إلى القادة الروحيين لديانتهم بعد أن كان هذا الولاء للأرستقراطيين العرب المسلمين من شيوخ عشائريهم ، هؤلاء الشيوخ المتحالفون مع كسّار و حزب قاع.

مشكلة أخرى لهذه الأرستقراطية يجب حلها : إن الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية تستند إلى ولاء عشائر عربية كبيرة ، هذه العشائر كانت تخضع لشيوخ العشائر في بلد كسّار ؛ بترتيب تركي أيضا نظرا لقرب مساكن هؤلاء الشيوخ من مقر الوالي التركي ، و نظرا للنسب المقدس الذي يتمتع به هؤلاء الشيوخ ، و نظرا لأنهم كانوا المسيطرين على المنتجات الزراعية و الصناعية التي كان أهل الجزيرة العربية يشترونها من بلاد كسّار الخصبة جدا ، بسبب هذه العلاقة استطاعت هذه الأرستقراطية أن تربي جيلا الشباب العرب المتعلمين في أرقى الجامعات الأوربية ، و بفضل هذا الجيل قُضي على الأمية في بلد كسّار ، رغم كل القمع و كل أجواء الرعب الرهيب التي فرضناها هناك على يد مخابرات اللواء حنا ، و رغم الإستبداد الرهيب باسم تقديس كسّار و أسرته ، و بذريعة الحرب على الجارة الآسيوية العدو.

لكن هناك نقطة هامة لصالحنا في هذه المواجهة ستفيدنا جدا في مراحل قادمة من مشروع الجيش الأسطوري ، أولها أن هذه الأرستقراطية غير متدينة و قد ساعدتنا على القضاء تماما على رجال الدين المسلمين و على التدين الإسلامي التقليدي ، تم ذلك بذريعة الحرب "القومية العربية" الآنفة على الجارة العدو الآسيوية "الشعبوية" ، فلقد دبرنا خلال الحرب تمردا ضعيفا للكورد المضطهدين في شمال شرق أورك ، و منحنا القوميين الكورد ملاذا في الجارة الآسيوية العدو ، بهذه الذريعة شن جيش كسّار حربا هائلة على الكورد ، استهدفت هذه الحرب تدمير أكثر من خمسة آلاف مسجد و زاوية و ما يتبعها من الحجرات التي كان مشايخ المسلمين الكورد ينشرون منها تعاليم دينهم في أرجاء المنطقة بأسرها ، أبيد معظم أولئك المشايخ في هذه الحملة التي أشرف عليها الجنرال وولتر بنفسه ، و دمرت في تلك الحملة أربعة آلاف قرية ، و هجر قسم من أهلها إلى مناطق أتباع الديانة السرية العرب.

هذه النقطة حرمت العرب المسلمين و الكورد و الترك المسلمين في بلد كسّار من المناعة من النسخ الإسلامية التي صنعناها و التي تحكم إسميا الجزيرة العربية ، هذه المناعة التي وفرها لهم الشيوخ المسلمون الكورد.

بسبب العلاقات العشائرية الوثيقة بين سكان أورك و بين سكان الجزيرة العربية ستدخل إلى أورك النسخ الإسلامية المصنّعة في مختبراتنا ، كافة أنواع هذه النسخ ، نسخة الجمعية الإسلامية و النسخة النجدية و غيرها ، ستدخل كلها إلى العامة في

أورك و ما جاورها دون مقاومة ، بل على العكس ستجد ترحيبا حارا بين شباب المسلمين هناك و سيكون هؤلاء الشباب هم المجددون الأساسيون في الجيش الأسطوري ، و ستكون عشائرتهم هي التربة التي تغذي الأجيال المتتالية من فرق هذا الجيش .

بقيت نقطة هامة ستكون هدفا للمرحلة القادمة : التعاون و التوحد هو الجزء الفعال من الإسلام ، و كل شعائر الإسلام توجه نحوه ، و هو مستقر في أحلام المسلمين جميعا ، لقد تمكنا من إذابة هذه الفكرة و محوها من عقول المسلمين ، و ذلك بفضل منظومة الشيخ الجمعي و نظيراتها في بلاد المسلمين ، و بفضل قوة حكم المخابرات و التجسس التي تسيطر حتى على أحاديث المسلمين في أجواف بيوتهم .

لكن بقي حلم الوحدة و التعاون يداعب مخيلتهم ، نحن سنصنع لهم من كسار بطلا وهميا ، سيرون جميعا فيه ذلك الموحد الجبار للأمة الذي يشبه أبطالهم الموحدين الذين درسوهم في كتب تاريخهم ، لن يطول هذا الحلم لأننا سنقضي عليه بسرعة و عنف و سنذل هذا البطل و سنحوله و نحول جيشه إلى أفراخ دجاج مذعورة تركض بحثا عن الأمان ، هكذا سنجعل من الوحدة و التعاون حلما مؤلما لكل عربي و مسلم ، و سيكون الحديث عن هذا الحلم هرطقة و سخافة تسخر منها البنات و العجائز المسلمات ، من بقي مصرّا على هذا الحلم ، سمنحه مكانا في الجيش الأسطوري ليقاتل من أجل حلمه و ليقتل شهيدا دون تحقيقه .

أعطى البروفسور ريكارد بعدها الحديث لرئيس الجلسة البارون ياكوب ليلخص الخطة برمتها فقال :

لقد انتهت الحرب بين جيش كسار و بين جارتها الآسيوية ، و لقد حققت كل أهدافها ، أورك ذلك البلد صار جاهزا ليكون الميدان الرئيسي لحروب الجيش الأسطوري ، الحروب التجريبية و الحرب الكبرى ، و الدول الشيوعية صارت جاهزة للتغيير ، لدينا أموال عائدات النفط و الغاز و هي كافية لتغطية تكاليف التغييرات الكبرى القادمة في أوروبا ، ببساطة سنأخذها من تلك الحسابات ، و سنبيع بدلا منها لأصحاب هذه الحسابات ألعابا نارية و عواصف رملية ، أرجو أن توغزوا للجنرال وولتر ليأمر جيش كسار بغزو بعض حقول النفط المجاورة لبلاده في الجزيرة العربية و أن يستولي عليها ، و أرجو أن يبدأ الإعلام في أوربة بتشبيه كسار بعدونا اللدود الأمير "فون بسمارك" موحد ألمانيا .

بعد هذا الاجتماع استنفرت كافة منظومات المخابرات العاملة لدينا في جميع البلاد العربية و الإسلامية ، في نفس الوقت أعطيت تعليمات صارمة بتجنب القيام باعتقالات بسبب الآراء ، و منحت هذه المنظومات مدة سبعة أشهر لإعادة تفعيل و إعداد كافة المخبرين التابعين لها ، المطلوب لم يكن معلومات تتعلق بضبط الأمن ، المطلوب كان معلومات عن آراء الناس و ردّات أفعالهم على الأحداث التي تجري حولهم ، لهذا تركت الأجواء لتهدأ ، و راحت الصحف تنشر مقالات نقدية قاسية

عن الأوضاع في المنطقة العربية و البلاد الإسلامية ، و كثرت البرامج التلفزيونية الساخرة من تردي الأوضاع المعيشية ، و كثير كثيرا نقل الأخبار عن بطولات المحاربين الخراسانيين الذين أرغموا الشيوعيين على الفرار من بلادهم.

و انتشرت أيضا مطبوعات كثيرة تحدث عن المجتمعات السرية مثل "معابد الحرية" و "فرسان جزيرة المتوسط" و غيرها ، و كثر الحديث عن الوحدة العربية و عن مشاريع عملية لتحقيقها ، مثل إنشاء أسواق عربية إقليمية محدودة و إتحادات جمركية و غيرها ، و شعر الجميع في تلك الآونة بأن أمرا جيدا قد يحصل.

كانت مهمة المخبرين إعداد تقارير عن كل ما يدور في المجالس الخاصة ، و كل ما يتناقله الناس عن علاقة الشرق بالغرب و عن موضوع الهيمنة الأوروبية و الأمريكية على الشرق ، و بالفعل توافدت التقارير إلى مقرات المنظومات و كان فرزها يشبه الإحصاء أو فرز الإستفتاء ، الغاية كانت تحديد نسبة النعمة على الهيمنة الأوروبية الأمريكية.

اطّلت على نتائج هذه الإحصائيات ، كانت النعمة على الهيمنة الأوروبية و الأمريكية في أدنى مستوياتها و آراء غالبية المسلمين كانت قد تحولت إيجابياً بخصوص علاقة الأوربيين و الأمريكيين بالمسلمين ، و كانت العيون كلها تتجه إلى أوربة الشرقية لمتابعة سقوط الدول الشيوعية تباعا ، و الجميع مشدود إلى فكرة امتداد التغيير إلى البلاد العربية و إلحاقه هذه البلاد بموسم الحرية الذي يحتاج أوربة الشرقية ، باعتبار أن أنظمة الحكم في البلاد العربية تتبع نفس أساليب الإستبداد في معاملة الناس.

في بلادنا أيضا كانت الآمال في أوجها و كان التعاطف مع الأمريكيين و الأوربيين الغربيين في أوجه ، و ظهر أن معظم العامة يحملون التقارب مع الشيوعية مسؤولية ما يعانيه من الصعوبات الحياتية ، و من أجواء الخوف و الرعب الذي تفرضه سلطات التجسس و المراقبة التابعة لمنظوماتنا بأنواعها.

لدى مراجعة هذه الإحصائيات في زيارتي لأوربة مع البارون ياكوب و البروفسور ريكارد سمعت تعليقات كثيرة هامة ، منها ما علق به البارون على نتائج التقارير قائلا : إن نسبة خيبة الآمال و المرارة التي ستجتاح بلاد العرب و المسلمين بعد تنفيذ مهمة كسار ستكون غير مسبقة ، و ستسبب تجاوزيف نفسية لا تمحى ، تجاوزيف ستنتقل بالوراثة إلى عدة أجيال ، عبرها سنمرر خيوطا كثيرة نجذب بها الكثير جدا من هذه الأجيال إلى مشروع الجيش الأسطوري ، ثم نعلقهم بخشبة التحكم و نحرّكهم كيفما نريد ، سيكون لدينا أعداد كبيرة من الدمى لتمثل ما نشاء على هذا مسرح عمليات هذا الجيش ، بداية من أدوار الثوار التحرريين من اضطهاد الشيوعية ، و انتهاء بأدوار الشهداء القديسين الذين يزفون إلى قبورهم كالعرسان.

علق ريكارد بدوره على التقارير قائلا : سيدي البارون أظن أن أكبر خيبة للأمل سيكون مصدرها شعور العرب بأن الأوروبيين لا يهتمون أبدا بامتداد "الحرية" على النمط الأوروبي إلى بلاد العرب و المسلمين كما يهتمون بامتدادها إلى الأوروبيين الشرقيين ، هذا سيخلق حقدا لا يمكن إطفائه ، أتوقع أن تُظهر التقارير التي سترد بعد انتهاء مهمة كسّار صحّة ما أقوله.

اختتم البارون الاجتماع بعبارات هامة ، قال : أيها السادة إنها الفرصة الذهبية لنقدم للناس آلهة جديدة تتفوق على أعظم آلهة الأساطير قوة و رهبة في نفوس البشر ، إنها آلهة وكالات الفضاء و الأقمار الصناعية. ثم نظر البارون إلى البروفسور آلان قائلا : هل عرفت الآن لماذا أنفق البارون ديفيد قبل عشرين عاما تلك المبالغ الضخمة على أسطورة السفر إلى القمر ؟!

ضحكنا جميعا و انفض الاجتماع.

في بداية الثلث الأخير من ذلك العام و في ساعات مبكرة من الصباح دخلت عدة فرق من جيش كسّار إلى دولة نفطية عربية مجهرية مجاورة و احتلتها بالكامل خلال ساعات ، كان أعضاء الأسرة الحاكمة في ذلك البلد قد غادروا إلى أوربة قبل ذلك الموعد بأسابيع مع حاشيتهم ، بقي في تلك الدولة بعض من لا أهمية له من أعضاء الأسرة الحاكمة ، بقي معهم عدة آلاف من الجنود الأجانب المرتزقة المتعاقدين في ما يسمى جيش تلك الدولة ، استسلم معظمهم دون قتال.

وقعت عدة اشتباكات بين بعض حرس المباني الرسمية و المخافر ، انتهى النهار بإعلان كسّار أن جيشه دخل إلى تلك الدولة بعد انقلاب عسكري نفذه ضباط من جيشها على الأسرة الحاكمة ، و أن الإنقلابيين هم من طلب معونة جيش كسّار ، راح إعلام كسّار يصرح بأن قائد الأمة كسّار قد أعاد إلى دولته جزءا كان قد فصل عنها بقرار ظالم من الإحتلال الأوروبي.

لم ينم معظم الناس في بلاد العرب تلك الليلة ، الجميع كان قد أدار إبرة أجهزة الراديو على تردد إذاعة كسّار ، و راحت تلك الإذاعة تبث فورا أناشيد عسكرية و موسيقى حربية.

الدول الأوروبية كلها و جميع الدول العربية ما عدا ثلاث منها ؛ أعلنت جميعا قبل نهاية اليوم إدانتها لإحتلال جيش كسّار لجارته الصغيرة ، و بدأت وسائل الإعلام الأوروبية بتغطية الحدث معتمدة على أربعة مزاعم :

الأول : أن كسّار يسعى لسيطر على منابع النفط في الجزيرة العربية و يضمها إلى منابع نفطه الغزير ، و بهذا يسيطر على معظم نفط العالم ، ثم يرفع أسعار النفط إلى مستويات خيالية ، و هكذا ستعود أوربة و أمريكا إلى عصر ما قبل الثورة الصناعية ، و ستتحول معظم آلات هذه البلاد و مصانعها إلى خردة ميتة !.

الثاني : أن جيش كسّار هائل جدا عددا و تسليحا و قتاله يحتاج إلى حلف عسكري عالمي كبير ، و أن الإنتصار على هذا الجيش الهائل ليس مضمونا ، لأنه يملك أسلحة دمار شامل !.

الثالث : أن الأقمار الصناعية تخلق فوق أورك و تراقب كل شبر منها ، و تنقل إلى قيادة الجيوش الأوروبية والأمريكية كل حركة و سكة هناك !.

الرابع : لدى كسّار خطة لإعادة توحيد جميع البلدان العربية في دولة واحدة تسيطر على قلب العالم ، و على جميع المضائق البحرية الحيوية و الطرق الجوية التجارية ، و سيحيل حياة الأوروبيين و الأمريكيين إلى جحيم من الغلاء و الفقر ، بسبب ضرائب المرور المتصاعدة التي سيفرضها على إمداداتهم التي ستمر عبر دولته الكبرى ، و يتوجب منع كسّار من تنفيذ هذه الخطة المميتة بأي ثمن !.

أثارت هذه المزاعم الهلع و الرعب في جميع البلدان الأوروبية و الأمريكية ، و في نفس الوقت أشعلت الحماسة في نفوس جميع العرب و المسلمين ، باستثناء أصحاب المناصب الكبرى و الأسر الحاكمة طبعاً.

تحالف إعلام كسّار مع إعلام المملكة العربية المجاورة له التي تحكمها أسرة من النسب المقدس ، و راحا يبتان حملات إعلامية متلاحقة من نوع جديد ، بدأت هذه الحملات في اليوم التالي للإحتلال ، هذه الحملات كانت تهاجم المبادئ الفلسفية و الفكرية للبلاد الأوروبية ، و كانت تسخر من فلاسفة النهضة الأوروبية كجان جاك روسو و هيغل و سارتر ، و تستهزئ بالإباحية المنتشرة في تلك البلاد ، رغم أن كسّار نفسه و حليفه الملك ذو النسب المقدس كانا من أول الدعاة للإباحية و من أشد المناصرين لها ، لدرجة أن كسّار كان قد أصدر سابقاً قراراً يفرض بناء ماخور و حانة في زاوية كل شارع من مدن بلاده الكبرى.

خلقت هذه الحملات في نفوس جميع المستمعين من العرب أملاً كان قد مات لعقود ، و دفن مع جثث جنودنا الذين قضوا في حروبهم ضد جارتنا العدو اللدود ، لقد داعبت الآمال بإحياء الإمبراطورية العربية القديمة مخيلة كل من تابع إعلام كسّار ، و كل من حضر جلسة خاصة في أي بيت عربي يوجد فيه مذبح تصل إليه موجات إذاعات كسّار و حلفائه ، لقد تحول كسّار إلى أسطورة مقدسة في نظر جميع العرب ، طبعاً باستثناء أبناء شعب بلاده و جنود جيشه الذين كانوا يبغضون اسمه و صورته ، أكثر من أي شيء آخر ، و استمرت هذه الحملات الحماسية إلى آخر لحظة من عمر هذه العملية.

بعد أسبوع واحد من اجتياح جنود كسّار لجارتهم الصغيرة تصاعدت اللهجة الأمريكية و الأوروبية ، و أعلن حاكم أكبر دول الجزيرة العربية عن استغاثته بالقوات الأمريكية ، و دعا إلى تحالف دولي عربي و إسلامي للدفاع عن دولته التي تسيطر على أقدس بقاع المسلمين ، و بدأ شيوخ هذه الدولة و كلهم من أتباع النسخة الإسلام النجدية بإصدار الفتاوى بجواز الإستعانة بغير المسلمين للقتال ضد غير المسلمين ، و راحت الفتاوى تصدر تباعاً في أكثر من ثلاثين دولة عربية و إسلامية ، هذه

الفتاوى كلها تصنف كسّار و جيشه ضمن القوى المعادية للإسلام نفسه ، و تؤيد التحالف مع الأمريكيين و الأوروبيين لأجل قتال كسّار و جيشه ، و حماية مقدسات المسلمين من إحد هذا "الطاغية" المجرم.

بدأت أيضا حملات إعلامية خاصة بهذه الدول كلها تهاجم القومية العربية و الاشتراكية و حزب قاع (حزب كسّار) و اللادينية بأنواعها ، المستمع لهذه الحملات ربما يظن أن دول أوربة و أمريكا قد اعتنقت الإسلام ، و أن كسّار و شعبه قد صاروا جميعا لا دينيين ، أو أنهم عادوا إلى وثنية العرب القديمة ، إلا أن هذه الحملات لم تُغيّر شيئا من موقف العامة من العرب و المسلمين ، لقد أكدت التقارير الواردة أن جميع أبناء العامة يحملون كراهية شديدة لدول الجزيرة العربية المنتجة للنفط ، و جميع العرب كانوا يؤمنون بما تبثه إذاعات كسّار و حلفائه إيمانا مطلقا !.

المفتي الجمعي و زملاؤه جميعا أيدوا الحرب على كسّار ، و أصدروا لأجل هذا فتاوى بحثيات غير مسبقة حتى أن بعضهم جعل هجرة عدد من الصحابة إلى الحبشة دليلا على إجازة التحالف مع غير المسلمين للقتال ضد الخصوم من المسلمين ، لم تعتبر هذه الفتاوى كسّارا و جيشه غير مسلمين ، لأن الجمعي و زملاؤه من المفتين لا يؤمنون بكفر أحد ، على عكس أتباع نسخة الإسلام النجدية الذين يعتبرون أن الإدانة بالكفر هو أهم أسس ديانتهم.

دخلت القوات الأمريكية و الأوروبية إلى الجزيرة العربية في نفس اليوم الذي أعلن فيه عن الإستنجد بهم ، و صاحب دخولهم حملات إعلامية ضخمة في أرجاء العالم تتحدث عن الخطر الهائل الذي يمثله كسّار ، كسّار الساعي للحصول على أسلحة الدمار الشامل ليحقق توازن رعب ضد العالم كله ، كسّار الذي يمتلك برامج ناجحة للصواريخ العابرة للقارات و القدرة على الإنفلات من الجاذبية الأرضية ، و هي تهدد كل عواصم العالم بالدمار الشامل ، و لقد صدّق الأوروبيون و الأمريكيون كلهم هذه المزاعم !.

بدأت منظمة الأمم بإصدار قرارات متلاحقة ، هذه القرارات كلها تدين إحتلال جيش كسّار لجارته الصغيرة ، و تطالب هذه القرارات بإنسحاب جيش كسّار إلى ما وراء الحدود ، ثم تلتها قرارات متلاحقة فرضت حظرا على تصدير دولة كسّار للنفط ، ثم حظرا آخر على تصديرها لأي شيء ، ثم حظرا أخيرا يمنع هذه الدولة من إستيراد كل شيء ، هذا عدا عن منع تداول عملة بلاد كسّار في كل العالم.

القرارات كانت تُكتب و تُذاع بصيغ مستفزة جدا لكل عربي يسمعها ، صيغ مذلة و مهينة للغاية ، نستطيع أن نجملها كلها بصيغة واحدة تكررت في جميع هذه القرارات هي : "على حكومة كسّار أن تخضع ! أو تنصاع ! لقرارات و أوامر منظمة الأمم و الحلف الأوربي الأمريكي و أتباعه من الحكومات العربية و الإسلامية ، أو ستطبق على دولة كسّار عقوبات كذا و كذا".

هذه الصيغ كانت تُذاع في الإعلام الأوربي الموجه باللغة العربية بشكل متكرر ، و كل التقارير اليومية عن ردّ فعل المتابعين العرب كانت تؤكد أن هذه الصيغ كانت فعالة جدا في إثارة مزيد من غضبهم ، و أن جميع العامة العرب كانوا يتمنون أن يرفض كسّار هذه القرارات.

كانت توجيهات البارون صارمة بأن تكون كل تصرفات كسّار و ردوده العلنية على إجراءات منظمة الأمم ، و على تهديدات دول الحلف موافقة تماما لأمنيات عامة العرب ، و لهذا كان كسّار و وزرائه يؤكدون رفضهم لهذه المقررات بشكل قاطع و باحتقار شديد لها ، هذه التأكيدات كانت تثير التصفيق و الحماس و الفرح في قلوب جميع العامة العرب و المسلمين.

قلة قليلة جدا من الناس في بلاد العرب و المسلمين رفضوا تصديق دعاية كسّار و حلفائه ، و يرفضون أيضا دعاية الحلف المضاد ، معظمهم كانوا يطرحون نفس السؤالين : الأول : طالما أن كسّار يريد أن يهزم الهيمنة الأوربية و الأمريكية و يحرر شعوب العرب ، فلماذا لا يهاجم "هرثمة" الذي لم يتردد في الإنضمام للحلف المحارب لجيش كسّار ، هرثمة الذي وقف علنا مع الأمريكيين و الأوربيين ، رغم تكراره كثيرا أنه ملتزم أيضا بمبادئ حزب قاع و بمشروعه لتوحيد العرب و تحريرهم من الهيمنة و الإحتلالات ؟.

الثاني : طالما أن كسّار يستهدف إرغام الأوربيين و الأمريكيين على ترك العرب و شأنهم ، فلماذا لا يحتل جيشه سائر منابع النفط في جزيرة العرب ، قبل أن تصل قوات أوربية و أميركية ضاربة كافية إلى الجزيرة العربية ، لماذا لا يُرّكّع الأمريكيين و الأوربيين بأن يحجز عنهم النفط ، لماذا ينقلب إلى الدفاع بعد أن كان في وضع الهجوم بتفوق واضح ؟!

هؤلاء القلة لم يكونوا يجرؤون على طرح تساؤلاتهم علنا بين الناس ، فالسخرية و الإهانات ستتهال عليهم بمجرد تعبيرهم عن الشك بصدق أسطورة كسّار و بقدرة جيشه الجبار على قهر العالم بأسره.

لطمس هذه التساؤلات من أذهان العامة اخترع اللّواء حنا حلا عبقريا ، فلقد أصدر تعليماته باعتقال الخبراء الأوربيين الغربيين و الخبراء الأمريكيين المقيمين في بلاده مع عائلاتهم ، و أعلن إعلامه أن الجيش قد وزع هؤلاء الخبراء على المباني العسكرية الحساسة في البلاد ، و هذا بدا إجراء جديا لمنع التحالف الأوربي الأمريكي من الهجوم على أورك.

استمرار هذا الإجراء كان مستحيلا و تم حل هذه المعضلة ؛ فقبيل اندلاع الحرب زار السيد سهل قائد منظمة التحرير العربية عاصمة كسّار ، و أعلن عن أنه توسط لإطلاق سراح هؤلاء الرهائن ، و قام كسّار بإطلاقهم فعلا ، و راح إعلامه يهمل لشهامة كسّار العربية الأصيلة ، و لأخلاق الفرسان التي يتحلى بها و تأبى عليه أن يحتمي بالرهائن العزل ، هذا الإجراء زاد انبهار العامة بكسّار و إيمانهم بثقته بقدرات جيشه على كسر قوات أوربة و أمريكا!.

استمرت عملية حشد قوات الحلف الأمريكي الأوربي في جزيرة العرب أربعة أشهر ، كان خلالها كسّار يتوعد الجميع بالويل و الثبور و عظام الأمور ، و عقد في عاصمته مؤتمرات حضرها قادة الجمعية الإسلامية على مستوى العالم الإسلامي ، و احتشد لهذه المؤتمرات عشرات قادة الجماعات السياسية الدينية الإسلامية و أعلنوا جميعا النفير العام إلى الحرب الدينية الكبرى لتحرير مقدسات المسلمين في الجزيرة العربية ، و لكن كسّار شكرهم و أبلغهم عدم الحاجة لمتطوعين و أن لديه ستين فرقة عسكرية كافية لهزيمة الحلف المعادي و إجتياح كل أرجاء الجزيرة العربية !.

خلال هذه الأشهر توالى الزيارات الدبلوماسية لعاصمة كسّار ، و في ختامها جميعا كان قادة دولة كسّار يؤكدون عنادهم و إصرارهم على استرداد كافة حقوق العرب الضائعة من أيام سيف بن ذي يزن و إلى يومهم الحاضر ، و في ختام كل زيارة كانت آمال العامة العرب تتعاضم و تزداد في قرب نهاية مأساتهم و معاناتهم تحت حكم الأسر الحاكمة.

بعد اكتمال العرض أعطى الحلف إنذار نهائيا و مهلة نهائية لكسّار بالانسحاب و "الإنصياع" و "الخضوع" لقرارات منظمة الأمم ، و رفض كسّار كما يظن به العامة العرب هذا الإنذار و قال عبارته الشهيرة : كسّار لا يستسلم ، و إذا سمعتم قرارا بالانسحاب أمام قوات الحلف فلا بد أن كسّار ليس هو من أصدره أو شارك في إصداره ، لا بد و أن كسّار قد مات.

في نهاية المهلة بدأت الطائرات حملة جوية ضد دولة كسّار ، و شنت آلاف الطائرات المتطورة الحديثة جدا آلاف الغارات الجوية على أهداف كانت محددة مسبقا على مدى خمسة أعوام كاملة ، استمرت الغارات شهرا و نيف ، كان رد جيش كسّار إطلاق بضعة مقذوفات هنا و هناك ، لم بالتحالف تلحق خسائر تذكر إذا ما قورنت بحجم الإعلام الذي غطى هذه المقذوفات ، و إذا ما قورنت بحجم الخسائر الماثل جدا الذي وقع لقوات كسّار في الأرواح و العناد بسبب الحملة الجوية للحلف ، أو مقارنة بحجم خسائر شعب بلاده من المدنيين ، و حجم الدمار في المباني الأساسية كمحطات توليد الكهرباء و المدارس و المشافي و المصانع بأنواعها و وسائل المواصلات ، لقد عادت البلاد إلى العصر الوسيط فلا كهرباء و لا ماء للشرب و لا طرق و لا جسور و لا مشافي و لا مدارس و لا وزارات و لا مديريات و لا حتى مخافر أو مصانع.

هذه الغارات استهدفت القوات المصنفة ضمن فرق "المجندين الإجباريين" و لم تستهدف أيّا من قوات النخبة و الحرس الرئاسي ، و هي قوات ضخمة و محترفة و ليس فيها مجندون إجباريون.

كان الجنرال وولتر قد أقام على طول الحدود بين دولة كسّار و بين دول الجزيرة العربية خطا دفاعيا ، لكن على طريقة جيوش القرن التاسع عشر ، خط من الخنادق و السواتر الترابية ، حشر فيه ما يزيد على النصف مليون مجند عربي و كوردي ، قتل منهم في القصف خلال شهر واحد فقط أكثر من مائة ألف و دفنوا في رمال الصحراء ، و بعد انتهاء حملة القصف هلك

عشرات الألوف منهم جوعا و عطشا بسبب انقطاع الإمدادات عنهم ، كان جنود كسّار يصرخون على أجهزة الإتصال العسكرية : ماء .. ماء ..

فر معظم الباقين بأسلحتهم و عرباتهم إلى المدن و القرى الصغيرة القريبة ، منهم من قتلوا ضباطهم و منهم من فرّوا بأوامر من ضباطهم ، و توالى التقارير بأن هؤلاء قد تمردوا ، و احتل بعضهم عدة مدن صغيرة قريبة من عواصم الأقاليم ، عندها قرر الحلف أن يبدأ حربا برية لاستعادة الدولة المجرية التي يحتلها جنود كسّار.

بعد عدة أيام أعلن كسّار عن انسحاب جيشه من تلك الجارة العربية ، و صدرت أوامر الجنرال وولتر بإنسحاب الجيش الذي لا يُهزم من الجارة المحتلة ، و بالفعل تجمعت قوات كسّار في رتل طويل امتد مسافة مائتي كيلومتر بقصد العودة إلى بلادهم ، كان رتلا بانسا جدا ، الجنود شبه عزل و دون غطاء جوي ، كان طياروا الحلف قد قصفوا عدة حقول نفط في الدولة الصغيرة و أعلن كسّار أن قواته هي التي أحرقتها لتغطية الإنسحاب و منع طيران الحلف من قصف المنسحبين ، انطلقت سحب الدخان في السماء لتغطي مساحة مائة ألف كيلومتر مربع في كارثة بيئية غير مسبوقة.

لكن هذا الدخان لم يكن أبدا لتغطية الإنسحاب ، فلقد كانت القوات المنسحبة هدفا واضحا لطيران الحلف الذي أباد بمئات الغارات ثلثي الرتل المنسحب ، كانت عملية إعدام جماعية هي الأضخم في التاريخ ، قتل خلالها أكثر من مائة ألف مجند بانس ، و في الغرب من هذا الطريق و على الخط الدفاعي الصحراوي الآنف الذكر تمكنت قوات الحلف من إقتحام هذا الخط ، على جبهة عرضها مائة كيلومتر بتغطية جوية و باستعمال الجرافات و دفنوا في طريقهم أكثر سبعين ألفا من مجندي جيش كسّار البؤساء المنقطعين في الصحراء أصلا بغير إمدادات ماء و أو وقود أو طعام.

استسلم أربعون ألفا من المجندين و الضباط لقوات الحلف ، و أعلن الأوروبيون بعدها أن الحملة قد حققت أهدافها ، و أن الدولة الصغيرة المحتلة قد تحررت من جيش كسّار ، و أعلن كسّار بنفسه عن قبوله التام بالإنسحاب و الخضوع الكامل لقرارات منظمة الأمم.

في نفس اللحظة ، توقفت إذاعة كسّار عن بث البيانات العسكرية عن إنتصارات جيش كسّار الجبار ، و توقفت إذاعات حلفائه أيضا عن تغطية أحداث الحرب ، و بدأت هذه الإذاعات تبث التسجيلات موسيقية و تسجيلات بانورامية عن حياة المشاهير من المطربين العرب الموتى ، المذيعون الذين كانوا يذيعون البيانات العسكرية عن الإنتصارات ، هم أنفسهم الذين أذاعوا هذه البانواما الإبداعية الموسيقية الغنائية المجيدة ، و وصل الأمر إلى درجة التوقف عن بث نشرات الأخبار على هذه المخطات الإذاعية!.

على مدى شهر كامل كانت بقايا الجيش المدمر في كافة مدن بلاد كسار قد تمردت جميعا ، في جنوب البلاد و شرقها تمرد المجندون من أتباع الديانة السرية ، و في شمال البلاد تمرد العرب و التركمان و الكورد المسلمون ، و تحولت ولايات البلاد كلها إلى مناطق خارج السيطرة باستثناء العاصمة.

خلال هذا الشهر انتقل المتابعون العرب المذهولون من السماع لإذاعة كسار و شريكه الملك الوسيم إلى متابعة وسائل الإعلام الأوربية باللغة العربية ، و قفز إلى أذهانهم جميعا ما حصل للعامة العرب و المسلمين من الإحباط و اليأس و الذلّ بعد الإعلان عن تدمير جيش الزعيم بديع في حربه التحريرية ضد جاراتنا اللدود.

مع ذلك توالى التقارير خلال هذا الشهر عن تفاؤل كبير سرى بين العامة من العرب ، تفاؤل بالقضاء على كسار و حكمه الإستبدادي المرعب ، و امتداد تساقط "الديناصوات الشيوعية" إلى البلاد العربية عبر محطة أولى هي رأس كسار و نظامه. هذه التقارير تزامنت مع الخطوة التالية للعملية ، فلقد أعطى الجنرال وولتر الأوامر لقوات النخبة من جيش كسار للتحرك ، و انطلقت ست فرق من هذه القوات مدججة بالسلاح من محيط عاصمة كسار بحماية جوية أوربية و أميركية ، ثم قضت على كل المجندين المتمردين في كل ولايات البلاد ، و أخمدت الثورة في أسبوعين فقط.

في الشمال رفض الكورد قبول الهزيمة ، و تركوا جميعا مدغم و قراهم و زحفوا رجالا و نساء و أطفالا على الطريق الجبلي الذي يصلهم بتركيا ليلجؤوا إليها فرارا من وحشية قوات كسار الزاحفة إليهم ، فاضطر الأوربيون للقبول بخرق الحظر المفروض على أي استقلال كوردي ، و أعطوا الأمر لقوات كسار للإنسحاب من مدن الكورد و تركها لإدارة زعامة كوردية كانت قد أعدت إحتياطيا ، لتمسك الأمور حال الإضطراب للقبول بشيء من الإستقلال الكوردي ، سبب التراجع الأوربي كان الخوف على اهتزاز الهيمنة الأوربية على تركيا بسبب ملايين النازحين الناقمين.

التقارير الواردة عن العملية كانت كلها تشير إلى نجاح كافة التجارب السياسية و السلطوية و العسكرية و التقنية و العلمية و الطبية التي أجريت خلال هذه العملية المفصلية في تاريخ العالم.

بعد هذه العملية بستة أشهر و بفضلها تمت بنجاح و سلاسة عملية تفكيك أكبر الدول الشيوعية في العالم بسهولة و أمان و عزل تام ، و تم تحول الإمبراطورية الشيوعية الكبرى إلى دولة تشبه إلى حد ما النمط الأوربي الغربي ، لقد وفرت عملية كسار أجواء آمنة في جميع البلاد العربية و الإسلامية ، فلقد نسي العامة العرب حلم امتداد موجة التحرر من دول الرعب المخبراتي العسكري إلى أرضهم ، و علموا أن الأمريكيين و الأوربيين وحدهم من يسمح بأي تغيير في بلاد العرب و المسلمين ، و وفرت عملية كسار ستمائة ألف ألف دولار أمريكي تكلفة التفكك الشيوعي من حسابات الأسر الحاكمة للجزيرة العربية ، و من حسابات الأسر الحاكمة في أورك التي باتت بلادا محطمة و محاصرة و جائعة.

التقارير الواردة بعدها و كافة الإحصائيات أشارت إلى أن الحلف الأوربي الأمريكي بات يتصدر قائمة الحقد الذي يغلي في صدور العامة من العرب و المسلمين في كل أرجاء العالم ، و هذا هو المطلوب الذي انتظر البروفسور ريكارد تحقيقه بفرار الصبر .

جميع التقارير و الإحصائيات التي تجمعت عن نتائج عملية كسّار كانت موضوع مؤتمر هام و كبير و مفصلي ، هذا المؤتمر عُقد بعد عدة أشهر من نهاية العملية و ذلك في قصر البارون في جبال الألب ، ضم هذا اللقاء إلى جانب البارون الكثير من الخبراء و ألفت فيه كلمات هامة ، و سأوجز ما تُلِي على المؤتمر من نتائج كبرى و ما نتج عنه من مقررات :

قال البروفسور برنار و هو ابن البروفسور أوسكار الذي كان قد رحل منذ أعوام : لقد أثبتت عملية كسّار أن جميع المنظومات العاملة لدينا فعالة جدا ، و أن العبقرية التي صممتها ليست من مستوى عبقرية البشر العاديين ، فهذه المنظومات قامت قبل العملية بمهماتها المعتادة ، و بعد العملية قامت بمهمات الطوارئ و استطاعت تفعيل آلية الإصلاح الذاتي تلقائيا و بنسبة فشل تساوي الصفر ، فمثلا نجد أن "القوات المسلحة" التي أسست و رتبت بطريقة تقسيم هذه القوات إلى قسم محترف ضارب و آخر مجند في غاية الهشاشة ، هذه المنظومة عملت بروعة و كفاءة غير مسبوقة في حالة حكومة كسّار ، فالقوات الضاربة "الحرس الرئاسي" تمكنت من سحق أربعة أضعاف عددها من القوات الحكومية المجنّدة ، و سحقت معها أكثر من مثل هذا العدد من المتمردين الذين أرسلناهم من الشرق ، و على الرغم من أن القوات التي انشقت كانت موزعة على مساحة كبيرة و ضمن مجتمعات متمردة و حاقدة حدّ الموت على كسّار و حكومته و من كافة الطوائف و الديانات ، و على الرغم من أن الأسلحة الثقيلة جدا كالدبابات و المدفعية و المتفجرات و الرشاشات الثقيلة و مضادات الطيران و الدروع توفرت لدى المتمردين ، استطاع الجنرال وولتر بقفازاته العربية أن يحسم الحرب لصالح القوات الرئاسية لكسّار و أن يوقع مجزرة هائلة في المتمردين ، لقد تجاوز عدد قتلى التمرد المائة ألف في فترة قياسية.

في الواقع لقد برزت نجاحات أخرى لم تكن متوقعة تماما إلى جانب سرعة الحسم ، فلقد أبدى قادة الميدان في قمعهم للتمرد قسوة تستفز الموتى و تدفعهم إلى التمرد و القتال ، و لكنها مع ذلك لم تستفز الملايين التي ظننا أنها ستزحف إلى ثكنات و مقرات الحرس الرئاسي و مقرات كسّار بمجرد سريان الأخبار عن دخول الحرس الرئاسي إلى المواقع المقدسة جدا لدى أتباع الديانة السرية ، فلقد أهينت هذه المواقع بشكل رهيب و دمر معظمها و نُهب كل نفيس فيها و قتل الكثير من سدنتها و زوارها بطرق مذلة جدا ، و نفذت إعدامات مرعبة و ضخمة جدا في ساحات تلك المواقع ، فلقد كان الجنود يأمرّون أسراهم بشرب النفط الخفيف ، ثم يطلقون على بطونهم رصاصا حارقا فينفجر الجزء الأعلى من أجساد الأسرى على طريقة الألعاب النارية وسط ضحكات الجنود ، و مع هذا لم يثر إلا القليل جدا من الأهالي رغم أن جميع الرجال تقريبا يجيدون استعمال

السلاح ، و رغم أنهم كانوا مسلحين أيضا ، و فوق هذا لم تتعطل عمليات أي فرع صغير من مخبرات اللواء حنا ، و استمرت التقارير تفد إلى هذه الفروع و تمكنت من تجنيد المزيد من الجواسيس أيضا .

في بقية المناطق حصل نفس الشيء تقريبا ، و حتى الكورد فإنهم عندما أيقنوا باجتياح القوات الضاربة لمناطقهم نرحوا منها بالماليين ، و كان يمكنهم ببساطة أن يقاتلوا و يحققوا نصرا هائلا على العدو فلقد كانوا جميعا رهن إشارة قادة المتمردين الكورد ، و هذا حدث لم يكن مسبوqa في تاريخهم ، معلوم أن بضعة آلاف من القوات الضاربة لن يدخلوا إلى مدينة متوسطة صمم أهلها جميعا على القتال.

أستطيع أن أقول لكم بكل ثقة : لقد ماتت الروح القتالية التلقائية الغريزية من أجل الحقوق أو المقدسات لدى جميع سكان الأرض ، أيها السادة تلك المنطقة التي نبعث منها الديانات و المثل العليا و أفكار القداسة ، و لم يغب عنها التدين يوما واحدا ، تلك المنطقة فقد أهلها الأصلاء كل غيرة على أي حق أو مثل أعلى أو مقدس ، فمن باب أولى أن بقية شعوب العالم التي استوردت الديانات - من تلك المنطقة - قد فقدت هذه الروح و إلى الأبد ، لقد أهنا بعض مقدساتهم و هددنا أقدسها ، و مع ذلك لم يتحرك أحد أو يستنكر تواجدنا هناك بشكل جدي.

إن استفزاز هذه الروح لن يعود ممكنا إلا من خلال الحوافز المادية ، و هذا يعني أن مشروع الجيش الأسطوري سيكون ضمن دائرة التحكم المطلقة لمنظوماتنا ، من لحظات انبعاثاته الأولى المتكررة ، و إلى آخر اللحظات التي ستسبق فناءاته المتكررة أيضا.

لذلك و لمزيد من التأكيد أقترح أن نبدأ أول عمليات بعث هذا الجيش في ميدان بعيد تماما عن منطقة كسّار و الجزيرة العربية و ما جاورها ، و أرشح شمال إفريقيا ليكون هذا الميدان.

حظي مقترح البروفسور برنار بموافقة البارون بعد مداولات ذلك أن البروفسور برنار كان قد هيئ الساحة هناك لبعث أول أمواج الجيش الأسطوري.

من الكلمات الهامة كانت كلمة البروفسور آلان التي قال فيها : لقد وفرت لنا هذه العملية أرقاما فلكية من الدولارات الأمريكية و الذهب و الأسهم و السندات ، فاتورة أجرة القوات و ثمن الذخائر و الأسلحة و تكلفة إنشاء القواعد و نقل الجنود و تعويضات الإصابات استهلكت كامل مدخرات الأسر الحاكمة في الجزيرة و دولة كسّار ، لقد زادت هذه المبالغ عن ألف ألف ألف دولار ، و لقد أفدنا جدا من الحظر الإقتصادي على دولة كسّار ، فلقد أخرج الشعب هناك جميع مدخراته من نفائس و نقود و أنفقها على شراء التموين الأساسي ، أو ما تبقى من التموين الأساسي في مخازن تجار البلاد ،

لقد ارتفعت أسعار تلك المواد الأساسية من غذاء و لباس و دواء إلى أرقام خيالية. هنا صمت البروفسور آلان قليلا و التفت إلى البروفسور برنار قائلا : و مع هذا لم تقم ثورة جياح يا بروفسور برنار ، لقد قام والدك الرائع بعمل رائع.

ثم تابع البروفسور آلان قائلا : المنظومات العاملة مع مهران بك أبو المجد و اللواء يوحنا أمنت نقل هذه النفائس إلى مستودعات أوربة ، لدينا أيها السادة من هذه النفائس ما يعادل نصف المبلغ الآنف الذكر الذي فرضناه أجرا للقوات و العملية العسكرية ، أي خمسمائة ألف ألف دولار تقريبا حتى اليوم.

نعم سيدي البارون أحيي عبقريتك الموروثة ، لقد بعناهم طعامهم بأموالهم و اشترينا منهم النفط و المعادن بأثمان رخيصة ، ثم استرجعنا هذه الأثمان و بعناهم مقابلها جثث شباهم و ألعابا نارية ، و تمكنا من تأمين ما يلزم لإعادة تشكيل البلدان الشيوعية على طريقة تشبه البلدان الأوربية الغربية.

تابع البروفسور آلان قائلا : أيها السادة بعد تفكيك أكبر الإمبراطوريات الشيوعية أقترح قبول مشروعني الذي أسميته "الحي الصناعي العالمي" ؛ لقد اخترت أفقر و أكثر الدول الشيوعية سكانا لتكون هذا الحي العالمي و ذلك لأسباب :

أولا يوجد في هذا البلد مئات ملايين العمال شبه المجانيين ، هؤلاء العمال قادرون على العمل بدأب طيلة نهارهم ، و دون تدمير ، و من أجل وجبتين يوميا فقط لا تزيد قيمتهما على بضعة سنتات ، أيضا هؤلاء العمال لا يفكرون أبدا بالثورة ، لأنهم ببساطة منعزلون عن بعضهم تماما و لا يثق أحدهم بزوجته و لا حتى بأمه أو بأبيه فضلا عن أن يثق بصديقه أو بزميله في العمل ، ذلك البلد كبير جدا و خاضع جدا لإرادتنا ، و على الرغم من أن جميع سكانه يقرؤون و يكتبون إلا أنهم أميون تماما فيما يتعلق بمعنى الحق و معنى الواجب ، فهذا المعنى ينحصر عندهم في إحساس واحد هو "الخوف" ، الخوف من الموت جوعا أو قتلا برصاص الجنود الشيوعيين ، إنهم قطع كبير جدا من العبيد الصم البكم المهرة.

قال آلان : لقد سُحقت منذ ثلاثة أعوام انتفاضة في قلب عاصمة ذلك البلد ، و أتمنى أن تلغى كافة مشاريع التغيير السياسي في ذلك البلد إلى أجل غير محدد لصالح مشروعني.

يتضمن مشروعني باختصار نقل كافة المصانع الكبرى في العالم إلى تلك المنطقة الصناعية ، كافة مصانع الآلات الصغيرة و المركبات و السفن و الأجهزة الكهربائية و الألبسة و الأدوات المنزلية ، سنبقى في أوربة و أمريكا تلك المصانع العملاقة الأساسية فقط ، كمصانع التعدين و الدارات الإلكترونية و الصناعات المؤلدة للتقنيات و صناعة الأدوية و المعدات الطبية.

أيها السادة ؛ سيصدر قانون للإستثمار الصناعي و التجاري في ذلك البلد ، و سيسمح هذا القانون للأجانب بالعمل و الإقامة و الإستثمار بحرية تامة هناك و بامتيازات خاصة ، إن رخص اليد العاملة هناك سيجذب كل الشركات إلى تلك الأرض ، هكذا سيعمل إقتصاد هذا البلد عمل المضخة تماما ، ستنقل إليه المواد الأساسية المصنعة تصنيعا أوليا ضخما ، ثم

سيتم في هذا البلد تجميعها كأجهزة بكلفة مجهرية ، ثم ستعاد هذه المواد إلى الأسواق العالمية عبر الوسطاء الأوروبيين و الأمريكيين (مدراء الشركات الصناعية التي ستنقل مصانعها لذلك البلد) ، لكنها ستباع بأسعار مقاربة لأسعار مثيلاتها المنتجة في اوروبا و أمريكا و هذا سيجعل هامش الربح فيها مسيلا للعاب كل الصناعيين و التجار ، في الإتجاه المضاد سيدفع المستثمرون إلى خزينة هذا البلد ضرائب على صناعة و تصدير هذه البضائع ، هذه الضرائب ستوازي الفوائد التي تنتجها آليات الفوائد المصرفية المفروضة على طبع العملة الورقية ، هكذا سنقوم بسحب معظم السندات و العملات الورقية الفائضة من التداول في الدول الكبرى ، و نقلها إلى مستودع كبير و سنعدم هذه الفوائد عند بلوغها للنقطة الحرجة ، إعدام هذه الفوائد سيغطيه مشروع ثورة تقضي على الحكم الشيوعي في نهاية المطاف و تحل محله حكومة متحررة على طريقة أوربة الغربية.

سيقفز إلى أذهانكم سؤال ، و ماذا سنفعل بعمال أوربة و أمريكا بعد أن ننقل مصانعهم إلى هناك ؟.

الجواب بسيط : سيعملون جميعا في توزيع المصنوعات المستوردة من ذلك البلد على بعضهم البعض ، ثم سيعملون في تنظيف بلدانهم من مخلفات ما استهلكوه من تلك المصنوعات ، أيها السادة عند بداية مشروع سيودع العالم عصر المصنوعات المتقنة الممتازة التي تدوم و تدوم ، سيدخل عصر المصنوعات الجميلة الرخيصة قصيرة العمر ، ستصبح دورة الإستهلاك أقصر بكثير عما كانت عليه أبدا على مر التاريخ ، و سيبقى الجميع لاهثين وراء المصنوعات الجديدة لأن ما يملكونه من المواد المصنعة سيتلف في أيديهم على مدار الساعة و سيكون عليهم تعويضه دوما.

وافق البارون على هذا المشروع بعد مداولات طويلة ، و نفذ المشروع بكامله لاحقا باستثناء المرحلة الأخيرة ، و سيتم تنفيذها قريبا.

تحدث أيضا البروفسور ريكارد ملخصا نتائج العملية على الصعيد العسكري فقال : أيها السادة لقد أتاحت لنا هذه العملية التاريخية تجربة آلاف الأنواع من الأسلحة الجديدة و الذخائر و آليات التحكم و الإستطلاع و السيطرة ، و طبقت مئات الخطط العسكرية في مناورات بذخائر حية على أهداف حية و لقد سجلت جميع هذه التجارب و المناورات أداءا عاليا جدا و كفاءة قتالية زادت على تسعين بالمائة.

الأهم من هذا أن الجميع ابتلع طعم السيطرة الفضائية على العالم ، لقد بات كل أحد في العالم يعتقد أنه مراقب من الأعلى ، ليس من الإله ، و إنما تراقبه عيوننا السماوية التي لا تغيب عن كل سنتمر من العالم ، لقد محونا فكرة الخوف من الإله من عقول الناس و صار الخوف منا هو الإيمان الذي يحركهم جميعا.

و لعل من أعظم نجاحاتنا هو أن جيوش أوربة و أمريكا تمكنت للمرة الأولى في التاريخ من الحصول على ذريعة للتمركز في قلب الجزيرة العربية و احتلالها علنا ، و فوق هذا فلقد تحولت جيوش تلك الجزيرة و قواتها المسلحة بكافة صنوفها إلى مجرد فرقة أخرى في الجيوش الأوربية و الأمريكية ، أيها السادة لا يوجد اليوم في الجزيرة العربية جندي أو حارس أو فوهة بندقية واحدة لا تأتمر بأوامر مباشرة من ضباط أوربيين و أمريكيين ، يقيمون علنا في تلك الجزيرة و يأمرون قواتها المسلحة علنا و في وضح النهار ، و برضا أهل الجزيرة العربية جميعا و ترحيبهم ، و بفتاوى دينية من أعلى مرجعياتهم الدينية في تلك الأرض ، فتاوى تُحرّم أي اعتراض على تواجد هذه القوات ، هذا يعتبر فتحا لم يحلم به سليمان الحكيم نفسه !.

الأهم من هذا كله أن العرب و المسلمون جميعا قد فقدوا أحلامهم الوردية بإتمام ما قام به أجدادهم من فتوحات و أمجاد ، و صاروا يسخرون من أحلامهم هذه ، لقد صار الجميع هناك نسخا أخرى عن الأوربيين في بدايات القرن الثامن عشر ، مجرد أناس يحلمون فقط بامتلاك بيوت و موارد رزق و أسر متماسكة ، و يلهثون وراء هذه الأحلام بكل قوتهم و على مر أعمارهم ، و أحلامهم هذه نحن فقط يسمح لهم بتحقيق أي منها.

تحدث أيضا البروفسور آكنات عن نتائج العملية فقال : إن أورك تضم اليوم - حسب إحصاءات فرقنا الإستشارية - أكثر من أربعين مليون نسمة ، و شعب هذه الدولة من أكثر الشعوب العربية ذكاء و قوة بدنية و قدرة على الإنجاب ، و لقد صار من أكثر الشعوب خضوعا للسلطة أيا كانت ، بعد أن كان هذا الشعب من أكثر الشعوب العربية تمردا على السلطة. أيها السادة تعرفون جيدا أن قوانين الأسرة في أوربة و أمريكا ، قد تسببت في إنتشار مذهل للإباحية في كل أرجاء القارتين ، و لقد تسبب هذا في تناقص هائل في عدد السكان هناك ، و هذا يهدد بتحول مجتمعات البيض الأوربيين إلى مجتمعات هرمة منقرضة خلال أقل من أربعة عقود ، إننا بحاجة ماسة لبقاء أوربة و أمريكا لفترة أطول ريثما تتحقق النبؤات ، هذا الخلل في خطط و جداول تنفيذ عملنا سيسدّ الهاربون من جحيم حكم كسّار و حروبه و المشاريع الإمبراطورية لحزب قاع ، سنسمح للملايين من سكان أورك بالمغادرة إلى الدول العربية المجاورة ، ثم سنسهل زحفهم إلى أوربا و أمريكا على شكل أمواج من اللاجئين ، و سيتم توطينهم في أوربة الغربية و أمريكا ، هناك سنكون بانتظار أجيالهم الجديدة التي سينتجونها و يقدمونها لنا بكل سرور ، إنهم سيكونون فرحين بالأمان و الرفاهية التي وصلوا إليها ، و سيكونون مؤمنين بأن أعظم هدية يقدمونها لأطفالهم هي حق الإقامة الدائمة أو الجنسية الأوربية و الأمريكية ، لن نجعل رحلتهم إلى أوربة و أمريكا سهلة و إنما سنجعلها كرحلة هيركوليس إلى جبل الأوليمبس ، رحلة طويلة حافلة بالمشقات ، الواصلون منها إلى بر الأمان الأوربي و الأمريكي سيؤمنون بأنهم من القلائل الحظوظين في هذا العالم بالإقامة في جنة الخلود و السعادة ، و لكن على الأرض و ليس في السماء ، سيذكروننا لأننا دمرنا بلادهم و طاردناهم منها ، و سيكافئوننا بعشرات الملايين من المواليد الأوربيين و الأمريكيين الجدد ، إنما من ذوي البشرة الحنطية !.

هذا المشروع أيضا حظي بترحيب حار من البارون و من الحاضرين جميعا و نُفذ بتمامه في فترة قصيرة .

بعد هذا المؤتمر استنفرت جميع أجهزة المخابرات التابعة لمنظوماتنا في كل البلاد العربية و الإسلامية مرة أخرى ، التعليمات الصادرة لهذه الأجهزة كانت مطابقة لتلك التي صدرت قبيل عملية كسّار ، مجرد مراقبة و نقل آراء دون استفزاز أحد باعتقالات و إجراءات قمعية ، هذا الإستنفار جاء ليمهد الأجواء لتنفيذ خطة البروفسور برنار الجديدة في الدولة العربية الشمال إفريقية.

كان البروفسور قد أعد الأوضاع في ذلك البلد قبل عدة سنوات من عملية كسّار ، تمت هذه الإعدادات وفق الجدول الزمني التالي :

1 - قبل عملية كسّار بثلاثة أعوام تم تحريك عدة مظاهرات عنيفة في شوارع ذلك البلد الإفريقي الشري بالنفط و الغاز و المنتجات الزراعية و الصناعية البسيطة ، هذه المظاهرات جاءت على خلفية أزمة غلاء و فقدان للمواد الغذائية ، حصلت هذه الأزمة على الرغم من أن هذا البلد زراعي و منتج لكل أنواع المواد الغذائية تقريبا!.

لتهدة هذه المظاهرات صدرت مجموعة قوانين غير مسبقة لتنظيم الحياة السياسية في ذلك البلد ، أول هذه القوانين كان قانون ينظم تشكيل الأحزاب السياسية ، و قوانين أخرى تنظم العلاقة بين الحكومة و بين مجلس نواب الشعب ، قوانين تسمح بحرية الإعلام و الصحافة ، جميع هذه القوانين كانت نسخا عن مثيلاتها في أوربة الغربية ، إلا أن أهم هذه القوانين صدر ليعطي الشرعية لأحزاب و تجمعات سياسية تابعة للجمعية الإسلامية ، تحت عنوان "التحالف الإسلامي" ، لقد كان قانونا غير مسبوق في ذلك البلد و في جميع الدول العربية و الإفريقية.

2- وضعت قوانين لتنظيم الإنتخابات في جميع أرجاء البلاد و على جميع المستويات ، فلقد نظمت مجالس مدنية في جميع ولايات ذلك البلد الكبير ، و منحت لهذه المجالس سلطات البلدية ، و وضعت قوانين و جداول زمنية لمواعيد إنتخابات بلدية ثم إنتخابات نيابية على مدى ثلاثة أعوام.

تمت إنتخابات المجالس المحلية قبل بداية عملية كسّار بأسابيع ، التحالف الإسلامي هو الذي فاز في هذه الإنتخابات بثلثي الأصوات ، و سيطر على ثلاثة أرباع مقاعد المجالس المحلية ، هذا الفوز الكاسح تحقق من الجولة الأولى للإنتخابات !.

حُدد موعد الإنتخابات النيابية بعد عدة أشهر من انتهاء عملية كسّار ، و تقرر أيضا إجراؤها على دورتين ، بدا و كأن قانون الإنتخابات قد أعد ليناسب الحزب الاشتراكي الحاكم في ذلك البلد.

3- اتخذت إجراءات إقتصادية للسماح باستيراد مواد استهلاكية و بضائع أوروبية و آسيوية ، و ظهرت البضائع التي كانت مفقودة في الأسواق كما و كأنها كانت مخبأة و أفرج عنها ، كان اقتصاد ذلك البلد مغلقا و موبوءا و شبيها جدا باقتصاد بلادنا ، و تتحكم في ذلك البلد منظومات مستنسخة عن المنظومات التي تحكم بلادنا .

بُعِدَ المؤتمر الذي عقد لتقييم نتائج عملية كَسَّار حضر البروفسور برنار إلى بلادنا ، غاية زيارته كانت استكمال الإستعدادات اللازمة لإطلاق النموذج الأول من الجيش الأسطوري في ذلك البلد العربي الإفريقي الكبير ، الخطة كانت مؤلفة من عدة أجزاء ، منها ما كان متعلقا بالمنظمة العالمية للجمعية الإسلامية ، و منها ما كان متعلقا بالقوات المسلحة في بلادنا و في ذلك البلد العربي الإفريقي ، و منها ما كان متعلقا بالمخابرات الأوروبية ، و المنظومات التابعة لها ضمن التشكيلات الإسلامية ، تلك التي كانت تقاقل ضد الشيوعيين في بلاد خراسان .

في أثناء تواجد البروفسور برنار حضر إلى بلادنا البارون ياكوب و البروفسور آكنات و البروفسور آلان و عقد لقاء سري كالعادة قي قصر عائلتنا على شاطئ البحر ، خلال اللقاء شرح برنار تفاصيل الخطة لصناعة النموذج الأول من الجيش الأسطوري ، فقال :

خلال حرب خراسان توفر لدى منظوماتنا المخبرانية عدة مئات من المجندين الشباب العرب الأفارقة ، هؤلاء الشباب كنا نحن من جندهم بالتعاون مع مخابرات دول الجزيرة العربية و دولة الديانة السرية الآسيوية ، و لقد أصبح هؤلاء قادرون على تشكيل تنظيمات عسكرية سرية ذات عقيدة دينية قتالية ، كلهم تقريبا قد درسوا نسخة الإسلام النجدية التي صممناها ليكون أتباعها ساخطون حد الموت على كل ما يحيط بهم ، و مستعدون لقتل كل من يقف في طريقهم لتحقيق عالمهم المثالي ، هؤلاء القادة الشباب تدربوا على كل أنواع القتال ، هم يعشقون العنف كما هو حال جميع عناصر مخابراتنا ، أيضا هم مستعدون لتنفيذ كل ما نطلبه منهم ، لأننا قد أنجزنا لهم كثيرا مما وعدناهم به بعد أن استقدمناهم إلى خراسان ، إنهم اليوم أثرياء و لديهم المال و لكنهم لا يستطيعون التقاعد إلا بإذننا ، لقد وعدناهم بتقاعد مريح و مكاسب ضخمة إضافية بعد نهاية هذه العملية ، هؤلاء جميعا موجودون الآن في معسكرات منظمة التحرير العربية التي يقودها السيد سهل ، أي في بلادك يا كولونيل مهران .

قلت للبروفسور : لقد قابلت عددا منهم و رأيتهم أشخاصا مميزين فعلا ، لديهم مهارات كبيرة في قتال الشوارع ، في إعداد المتفجرات ، في الرماية القريبة و البعيدة على كافة الأسلحة الميدانية ، في أنواع القتال القريب و الإقتحام ، و أيضا في تركيب شبكات الإتصالات ، إنهم باختصار قوات نخبة ممتازة للعمليات الخاصة ، هذا بالإضافة إلى أنهم قساة جدا .

شكري برنار ثم تابع قائلا : سننقل هؤلاء بسرعة إلى البلد العربي الإفريقي ، هناك سيلتحقون بتشكيلات الجمعية الإسلامية ، و سيقدمهم قادة الجمعية للعامة على أنهم "المجاهدون العائدون" ، سيتلقفهم المجتمع المتدين بترحاب شديد و ستكون لهم هالة من التقديس تسهل عملهم لتجنيد أنصار الجمعية الإسلامية و المتعاطفين معهم في صفوف الجيش الأسطوري.

لا بد أيضا من أن ننقل معهم فرقة من الحرس الرئاسي الخاص التابعة للرئيس هرثمة ، ستكون فرقة مكونة فقط من أتباع الديانة السرية ، هذه الفرقة ستكون مهمتها تنفيذ عمليات الصدمة و الترويع التي ستنفذ خلال الحرب بين الجيش الأسطوري و بين القوات المسلحة في هذه الدولة العربية الإفريقية.

سألت البروفسور باستغراب : ألا توجد في ذلك البلد منظومة عسكرية تشبه الموجودة هنا ، أنا أعرف قادة ذلك البلد جيدا من عسكريين و سياسيين و جميعهم تقريبا من أتباع الديانة السرية ، أو من الملحددين القساة اللقطاء الذين استقدموا من أوربة و لا أقارب لهم في البلاد ، لن يترددوا في فعل أي شيء نطلبه منهم !.

قال برنار : أنت تعرف يا كولونيل مهران أن أتباع الديانة السرية قليلون في ذلك البلد ، و لم نتمكن من تشكيل فرقة عسكرية مقاتلة من شبابهم ، هم يقودون فرق القوات المسلحة هناك ، إلا أن جنود هذه الفرق و ضباطها الصغار و ضباط الصف مسلمون ، و الكثير جدا منهم متدينون ، و لن ينفذوا عمليات قتل كبيرة بين العامة في البداية ، سنعتمد أولا على الفرقة الخاصة التابعة لكم.

تابع برنار : بعد أشهر قليلة سن عقد انتخابات نيابية ، و سيفوز بها تحالف الجمعية الإسلامية و التشكيلات الإسلامية التي تتبنى نسختنا النجدية للإسلام ، و سيتولى هؤلاء السلطة لمدة قصيرة سيتلوها فشل سياسي كبير ثم ترد كبير في الأحوال المعاشية و سيلقى باللوم على هؤلاء الحكام الجدد ، ثم ستبدأ قلاقل ، بعدها سيقوم قادة القوات المسلحة في ذلك البلد بإنقلاب عسكري ، و على أثره سيعتقل القادة السياسيون للتحالف الإسلامي ، ثم سينتقل هذا التحالف للنشاط العسكري المعارض الذي سيتطور ليصبح حربا بين الجيش التابع لهذا التحالف و بين القوات المسلحة الرسمية.

جيش التحالف سيشكله أولئك "المجاهدون العائدون" و سيكون هو النموذج الأول من الجيش الأسطوري الذي سيستنفر الشعوب الأوربية كلها لعدة أعوام.

رفع البروفسور آلان يده بإشارة اعتراض و طلب الحديث ، تكلم قائلا :

أنا أعترض تماما على فكرة تسلم التحالف الإسلامي للسلطة ، حتى و إن كنا نحن من صنعه و من يقوده ، أيها السادة إن وجود هذا التحالف رسميا في السلطة سيكون خطرا جدا على كل المنظومات التي نتحكم من خلالها بذلك البلد ، خاصة

بوجود حرية الكلام و الإعلام ، يكفي أن يتكلم عدد من المشايخ التقليديين في مواضيع مفصلية بشكل علني و واسع حتى تبدأ كرة ثلج بالتدحرج لترتطم بكل شيء و تحطمه في النهاية.

قال آكانات : المشايخ التقليديون في ذلك البلد موجودون لكنهم في حالة إقصاء تامة ، و العامة لا يصغون إليهم مطلقا ، ثم ما هي المواضيع المفصلية التي قد يتحدثون عنها ، هل تظن أنهم يعرفون أصلا بوجود منظوماتنا ، هل تظن أنهم يعرفون كيفية عمل النظام من حولهم ، كل ما يروونه هو أن مجتمعاتهم تنحدر بعيدا عن الفضيلة و تغرق في الرذيلة و المعاصي !.

قال آلان : لو أن بعضهم فقط طالب بإلغاء قانون الإيجار الذي يعطي المستأجر الحق في اغتصاب العقار المُستأجَر ، أو أصدر فتوى بوجوب إخلاء العقارات المغتصبة و تركها لأصحابها و شرح علاقة القانون الحالي بأزمات البلاد الإقتصادية ، أو لو أن بعضهم أعاد نشر الفتوى التي تمنع إنفاق أثمان العقارات في غير العقارات ، أو لو أن بعضهم شن حملة للحض على تعدد الزوجات و إعادة نظام التكافل العشائري لزواج الشباب ، لو أن أي من هذه الفتاوى أعيد نشره ضمن حملة للمشايخ و نجحت واحدة منها فقط في أن يعمل بها العامة مرة أخرى ، عندها سيتحطم عمل منظوماتنا خلال قرنين من الزمن في أقل من عقد واحد على الأكثر في تلك المنطقة بأسرها.

قال برنار و قد شعر بجدية آلان : يا عزيزي كما تعلمون فإن قادة التحالف الإسلامي لا يملكون أية أفكار عن آلية عمل السلطة في الإسلام الذي يتصدرون لتمثيله و للدعوة للحكم باسمه ، و سيطبقون حال حكمهم آلية العمل الإسلامية المزيفة الضبابية التي تصفها كتب منظري التشكيلات الإسلامية التي صنعناها ، هذا طبعا سيقود البلاد إلى ما يشبه الفوضى و الإنهيار الإقتصادي و الأمني في أقل من عام واحد من حكم التحالف ، و لا يخفاك أيضا أن قادة و أتباع و أنصار هذا التحالف يعادون الشيوخ التقليديين و يُقصونهم.

قال آلان : العامة في ذلك البلد لن يُفرقوا بين شيخ و آخر لو حكم التحالف ، و سيرون أن جميع رجال الدين هم الشرعية و هم السلطة و كلهم يمثلون القانون ، و سيتلقفون عنهم ما يقولونه على أنه قانون ، العامة في ذلك البلد يميلون لطاعة الحكام أيا كانوا ، هذا خطير و لن أسمح به أبدا من جهتي.

قال البارون و قد اقتنع بوجهة نظر آلان : أنا أوافق على وجهة نظر البروفسور آلان ، و طالما أنها التجربة الأولى فلا داعي للمخاطرة ، لدي تقارير خطيرة من بلاد خراسان عن موجة كبيرة من التفاف العامة حول رجال الدين المسلمين التقليديين هناك ، لقد فشلت تشكيلات الجمعية الإسلامية و غيرها في إقناع الناس بالتخلي عن الدين ، على الرغم من القتال الهائل الدائر بينهم و على الرغم من أنهم دمروا أكثر من نصف البلاد في حروبهم البينية !.

قال برنار : سنجد حلا لهذه المشكلة ، ما رأيكم في أن يكون موعد الانقلاب العسكري بعد الإعلان عن نتائج الانتخابات مباشرة ، ثم تتلو الانقلاب فترة من المواجهات السلمية و المظاهرات و الإضرابات المدنية ، بعدها تبدأ الحرب ، هكذا سنحقق هدفنا بإدانة الحكم الديني في نظر العامة دون كبير مخاطرة؟.

قال آكنات : هذا سيجعل التعاطف الشعبي مع التحالف جارفا جدا ، و قد ينفلت الأمر من أيدينا تماما ، هذا البلد كبير و إعادة ضبطه عمل مكلف و شاق جدا إن عمت فيه الفوضى.

قال برنار : هذه النقطة لا أخشاها أبدا ، العامة و كلهم ساخطون على الحكومة الحالية لا يتحركون إلا بناء على تعليمات قادة التحالف الإسلامي ، و هؤلاء لن يقولوا إلا ما نغليه عليهم ، و هم لن يطلبوا من الناس عصيانا عاما و لن يطلبوا من الجنود مغادرة الثكنات ، و لن يطلبوا من أهالي الموظفين منع أبنائهم من الالتحاق بأعمالهم ، و لن يشعلوا حرب تحرير شعبية جديدة ، ما سيحصل سيكون انزلاقا إنسيايا نحو الحرب في النقاط و القطاعات التي نحددها ، و بين المقاتلين الذين نجندهم و دون أن تتوسع الحرب إلى خارج هذه النقاط ، إنزلاق أضمن أنه سيكون بطيئا على مدى عامين ، خلال هذه المدة سيكون زخم التعاطف الشعبي مع التحالف قد تلاشى تقريبا.

قلت : ما الذي يجعلك تراهن على تلاشي هذا الزخم و لماذا لا تتوقع أنه سيزداد بدل أن يخبو ؟.

ابتسم آكنات و طلب من برنار أن يجيبني هو فقال : يا عزيزي إن الشعوب العربية و الإسلامية تحلم بدولة مثالية إسلامية على نموذج عادل و يشبه ذاك الذي كان في فترة صدر الإسلام ، إلا أن تسعة و تسعين بالمائة من هذه الشعوب لا يؤمنون بهذه الدولة ، أولئك الذين أسسوا الدولة الإسلامية الأولى كانوا جميعا مؤمنين بهذه الدولة ، لم يكونوا يحلمون بها ، كانوا يعملون ليل نهار لأجل إنجازها ، و كلهم كان يقدم كل ما يملك لأجلها حتى تظهر و تنتصر و تستمر ، ليس لأنهم يريدون أن يتمتعوا بغنائمها و منافعها و لكن ليرضى عنهم إلههم ، هم آمنوا بأن إلههم أمرهم بإقامة هذه الدولة و بذل كل شيء لأجلها ، هم يضحون ليرضوا إلههم ، و ينتظرون المكافأة على تضحياتهم في العالم الآخر ، لم يكونوا يضحون بحثا عن السعادة في هذا العالم في ظل دولة إسلامية عادلة ، بينما الشعوب العربية و الإسلامية يحلمون بدولة إسلامية عادلة توفر لهم العيش الكريم في هذا العالم ، و حين لا تلوح لهم فرصة لنجاح مشروع إقامة هذه الدولة في مدى منظور فسيتخلون عن هذا الحلم ، لأن أعمارهم قصيرة و أحلامهم لا تمتد إلى العالم الآخر ، سينسون حلم تحقيق السعادة في ظل هذه الدولة المثالية لصالح أحلام أخرى كحلم الهجرة إلى البلاد الثرية أو حلم الثراء السريع عن طريق الإحتيال ، أو حلم التسلق بالتزلف لذوي السلطة و المال و الحظوظ الكبيرة !.

ابتسمت و شكرت البروفسور آكنات على هذا التوضيح ، و أخذ البروفسور برنار في متابعة حديثه عن مشروعه قائلا : هل الجميع موافق على فكرة تقديم موعد الإنقلاب التي ستجنبنا المخاطرة بتسليم السلطة للتحالف الإسلامي ؟.

قال البارون : نعم فكرة رائعة ، و هي أيضا ستؤثر كثيرا في زيادة الإحباط بين العامة المسلمين ، جميعهم يجتزون اليوم مرارة تحطم أحلامهم بعد أن شهدوا سحق جيش كسّار ، و لقد توجهت أنظارهم إلى ذلك البلد الإفريقي بعد الأخبار التي تنتشر في العالم عن اكتساح شعبية التحالف الإسلامي هناك ، جميع التقارير التي بين أيدينا تشير إلى هذا الإهتمام العارم ، هذا سيصرف أنظار العامة المسلمين عن حرب الجيش الأسطوري ، و سيجعل نطاق تلك الحرب محدودا ضمن حدود البلد العربي الإفريقي ، و أيضا سيمنحنا هذا الإجراء فرصة التصرف بحرية في هذه التجربة الرائدة ، و سيعطينا فرصة تعميم إعلامي شامل على الأحداث بعد الإنقلاب.

انتهى الإجتماع بإقرار الشكل النهائي للخطّة ، و بدأت بسرعة عملية نقل القادة "المجاهدين العائدين" إلى بلدهم العربي الإفريقي الأم ، و نقلت إلى هناك أيضا عجل الفرقة الخاصة من حرسنا الرئاسي.

انتقل البروفسور برنار بدوره إلى بلد إفريقي عربي آخر ملاصق للبلد المستهدف ، أقام هناك غرفة عمليات كبيرة و التحق به عدد كبير من ضباط المخابرات الأوروبية و العربية ، و ركب خطا ساخنا بين هذه الغرفة بين مكتي و مكتب الجنرال وولتر الذي تولى أمر قواتنا المسلحة بعد عملية كسّار و تقاعد الجنرال فيليب.

ثم أعطى البروفسور برنار الأمر لرئيس تلك الدولة العربية الإفريقية بالدعوة إلى انتخابات نيابية تشارك فيها كافة الأحزاب و على رأسها التحالف الإسلامي بقيادة الزعيم الشيخ غضبان و مساعده الزعيم الشاب المتحمس الشيخ فائق.

بعد أيام قليلة أشرفت على وداع الفرقة الخاصة من الحرس الرئاسي التي نقلت بحرا إلى البلد العربي الإفريقي ، في نفس الفترة عاد إلى ذلك البلد مئات من أبنائه "المجاهدين العائدين" الذين كانوا في معسكرات السيد سهل في بلادنا ، و في نفس الفترة أيضا وصلت إلى ذلك البلد العربي خمسة أفواج من مشاة البحرية الأوروبيين المستعربين و أقاموا قواعد استناد حول عاصمة ذلك البلد تحسبا للطوارئ ، طبعاً هذه القواعد كانت داخل مقرات عسكرية لجيش ذلك البلد.

كان البروفسور برنار قد أقام في عاصمة ذلك البلد غرفة عمليات كبيرة ، انضمت لفريق مستشاري هذه الغرفة و بقيت على اتصال دائم معها طيلة أعوام لاحقة هي مدة العملية ، سألخص أحداث تلك الفترة الرائعة المليئة بالعمل الجاد الناجح و المتواصل:

أولاً - بدأت الحملات الإنتخابية التي دعا إليها الرئيس ، لكنها ما لبثت أن تحولت إلى موجات من المظاهرات الحاشدة ، و المواجهات العنيفة في الشوارع بين أنصار التحالف الإسلامي بقيادة الشيخ غضبان و بين عناصر المخابرات و جنود الجيش ،

هذه المواجهات كانت بسبب القانون الإنتخابي الإستفزازي جدا الذي أصدره الرئيس ، كان قانونا يمنح أعضاء الحزب الحاكم الفرصة الكاملة لحشد التأييد اللازم عن طريق الولاء المناطقي و العشائري ، توجت المواجهات بقرار آخر أكثر استفزازا يقضي باعتقال الشيخين غضبان و فائق و عدد من أعوانهما ، بعدها عقد مؤتمر للتحالف الإسلامي في مدينة جبلية صغيرة ، انتخب المجتمعون زعيما شابا يدعى الشيخ السدادي ، و كان معظم الحاضرين من أعضاء الجمعية الإسلامية (فرع شمال إفريقيا).

كان لهذا التصعيد بين التحالف و الحكومة هدف كبير ضمن العملية ، فالشباب المتحمسون للتغيير وجدوا أن طريق العمل السلمي لإسقاط الحكم مغلق تماما ، راح هؤلاء يبحثون عن بديل إنقلاي سريع و عنيف على عادة الشباب ، ذلك البديل قدمه "المجاهدون العائدون" من الحرب الخراسانية على الشيوعية ، لقد كانت الإشتراكية هي العدو الذي قاتله العائدون من خراسان ، و هي ذات العدو الذي يحكم رسميا ذلك البلد العربي ، في خلال أقل من ثلاثة أشهر فقط تمكن المجاهدون العائدون من تجنيد عشرات آلاف الشباب المتدينين العاطلين عن العمل في خلايا منظماتهم السرية المتعددة ، و بمعونة من مخبرات ذلك البلد أنشأ المجاهدون العائدون عشرات معسكرات التدريب المتوارية في أودية نائية تتوسط الجبال العالية جدا التي تغطي شمال غرب إفريقيا ، في هذه المعسكرات تدرب المجندون على مختلف صنوف السلاح و العتاد ، و حصلوا على كل ما يحلم به شاب متحمس مندفع ، يحلم بمحاربة حكومة تضطهده و تسرق أمواله و تحرمه حقوقه.

إلى جانب السلاح و التدريب حصل هؤلاء الشباب على أفكار جديدة جذابة عن العالم و الدين ، هذه الأفكار كانت مطبوعة في كتيبات متوسطة الحجم و لغتها سهلة و طريقة عرضها تناسب تماما أشخاصا من ذوي المعرفة الضحلة ، هذه الكتيبات كانت كلها تشرح النسخة النجدية للإسلام ، فكرتها الجامعة كانت بسيطة و هي : أن المسلمين لم يعودوا في الواقع مسلمين ، لأنهم أهملوا تعلم دينهم من مصادره المعصومة و هي القرآن و كتب الحديث النبوي و راحوا يأخذون دينهم من كتب الفقهاء و رجال الدين التقليديين ، و أيضا لأنهم لوثوا صفاء عبادتهم للإله الواحد و عبدوا معه الموتى الصالحين و الأنبياء و الجن و الملائكة ، و تعقد هذه الكتب مقارنات بين أحوال العرب قبل الإسلام و بين المسلمين في الحاضر ، دُعِمت هذه المقارنات بآيات قرآنية و أحاديث نبوية و أقوال للصحابة فُسِّرت كلها بطريقة بسيطة على طريقة المدارس الابتدائية ، أي عرض النص ثم شرح المفردات الصعبة ثم استنتاج المعنى و مطابقته على واقع المسلمين و على ما ورد عن أحوال العرب قبل الإسلام ، و تخلص تلك الكتيبات أن على من يؤمن بما جاء فيها أن يقرأ القرآن و الحديث بنفسه دون حاجة للعودة إلى الفقهاء و المفسرين أو للتقيد بأقوالهم ، فالقرآن و الحديث النبوي جاء بلغة مبسطة ، و موجهان لكل إنسان بسيط أو متعلم ، و لا حاجة لوسطاء لفهمهما و العمل بما جاء فيهما.

التعامل مع الواقع الذي ترسمه هذه الكتيبات يستند إلى أن المؤمن بأفكار هذه الكتيبات شخص أعاد اكتشاف الإسلام ، و صار كواحد من الرعيل الأول من الصحابة الذين أعادوا اكتشاف أساس الدين الحقيقي الذي جاء به الأنبياء جميعا ، ثم حصلوا على تكملته التي جعلته غير قابل للزيادة أو التغيير و التحديث ، و يجب على من آمن بهذه الكتيبات أن يفعل كما رعيل الإسلام الأول ، أي أن يدعوا الناس جميعا من حولهم إلى أن يؤمنوا بالدين الصافي الخالي من الشوائب الفكرية البشرية.

إلا أن حال المسلمين اليوم يفترق عن حال العرب قبل الإسلام ، فالمسلمون يعتنقون الإسلام بترديدهم لشهادتيه ، ثم و بنفس الوقت يتركون هذا الدين لأنهم يلوثون صفاء إيمانهم بهاتين الشهادتين ، عندما يقدسون قبور الأنبياء و الصالحين ، و عندما يطيعون حكومات تحارب الإسلام كالحكومة الإستراكية التي تحكم ذلك البلد العربي ، بسبب ما سبق فإن عامة المسلمين المعاصرين يُعتبرون منشقين عن الإسلام و لا يعتبرون مجرد أشخاص غير مسلمين ، هذا الفرق بيّنت تلك الكتيبات نتيجته ، فلقد انشقت قبائل عربية عن الإسلام بعد اعتناقها له على عهد خليفة الإسلام الأول ، فلم يكن ردّه عليهم بدعوتهم إلى الإسلام بشكل سلمي ، و إنما ردّ عليهم بالقتل و الحرب ، و أجبرهم بقوة الجيوش على العودة إلى الإسلام ، إذاً يجب على هؤلاء المؤمنين الجدد أن يحاربوا كل من تقع عليه عيونهم ممن لا يؤمنون بما يؤمن به أتباع النسخة النجدية ، فإما أن يقتلوا جميع من حولهم من الناس ، و إما أن يعتنق هؤلاء الناس العقائد البسيطة التي تعرضها تلك الكتيبات الرائعة.

كان قادة التحالف الإسلامي و قواعده التنظيمية يعرفون بأمر هذه المعسكرات ، و كانت الصلة بين التحالف و المجاهدين العائدين صلة تحالف و تعاون يومي ، إلا أن تمويل و توجيه كل فريق كان يأتي من جهة تختلف عن جهة توجيه و تمويل الفريق الآخر ، فمثلا التحالف الإسلامي كان قاداته يتلقون التمويل و التوجيهات من المنظمة العالمية للجمعية الإسلامية ، كان السيد كرم قد تولى قيادة هذه المنظمة ، و لقد أدى دوره كاملا في توصيل أوامر غرفة عمليات البروفسور إلى قادة التحالف ، دون أن يُشعرهم بأنهم ينفذون في الواقع أوامر نفس الجهة التي تقود الحكومة التي يحاربونها !.

أما تمويلات الجيش الأسطوري الأنف و توجيهاته فكانت تصدر في النهاية من "الجنرال بيير" القائد العام للقوات الأوروبية التي رابطت في ذلك البلد ، و هو يعبر عن غرفة عمليات البروفسور برنار و فريق مستشاريه.

عقدت الإنتخابات في نهاية ذلك العام ، عام "عملية كسّار" ، قانون الإنتخابات كان يقضي باستفتاء على دورتين في جميع الدوائر ، و انتهت الدورة الأولى بنجاح ساحق جدا للتحالف الإسلامي ، فلقد صوّت لمرشحيه تسعة أعشار السكان ، على الرغم من أن قاداته الكبار معتقلون.

بعد الإعلان عن النتيجة بدأت التداعيات تتوالى ، ففي أوربة سادت موجة من الحذر الشديد ، و راحت وسائل الإعلام تذكر الأوربيين بموجات الفتوحات الإسلامية التي تلت تخلص العرب من هيمنة أوربة في القرون الماضية ، و ترددت في جنوب أوربة تقارير تتحدث عن نوايا السيئة لحكومة التحالف الإسلامي القادمة ، زعمت هذه التقارير أن قطع إمدادات الغاز الإفريقي من أولويات قادة التحالف.

بعد أسابيع من بداية هذه الموجة أعطى البروفسور أوامر لرئيس ذلك البلد بالاستقالة و تسليم الحكم لمجلس من قادة الجيش ، بالفعل تقاعد الرئيس و سلم الحكم للمجلس العسكري العتيد ، و أعلن المجلس الجديد عن تعليق الدستور و إلغاء نتائج الانتخابات النيابية.

في نفس اليوم اندلعت المواجهات في شوارع العاصمة و سائر المدن ، حسب أوامر البروفسور برنار للسيد كرم كانت المواجهات سلمية من جهة العامة ، أما أوامر البروفسور للجيش فكانت مواجهة السلمية بعنف شديد ، و لقد نفذ الجيش الأوامر رغم تعاطف الجنود مع مطالب العامة ، و قُتل في هذه المواجهات الألوف من المتظاهرين العزل ، تم التعتيم على أعداد القتلى و على معظم أحداث المواجهات.

في الأيام التالية تمادى الجيش في استخدام العنف ، و انتشرت حواجز التفتيش العسكرية في كل أرجاء المدن الكبرى و على أواسط الطرق الرئيسية ، بسرعة انحدرت الأمور نحو الحرب ، فالمواجهات السلمية لم تؤد إلا إلى المزيد من عنف الجيش ، و اعتقل أكثر من عشرين ألفا من أعضاء الجمعية الإسلامية ، و نُقلوا إلى سجون صحراوية جنوب البلاد ، صار التحالف الإسلامي بغير قيادة سياسية مدنية تقود الجموع ، فانضمَّ معظم أنصاره إلى المجموعات العسكرية التي يقودها "المجاهدون العائدون" .

بعدها بدأت المجموعات العسكرية بقيادة المجاهدين العائدين حربها على الحكومة و الجيش ، في البداية تعرضت بعض الثكنات الحكومية لعمليات نهب ، و ذلك لإقناع الشباب بأن تمويل و تسليح المجموعات العسكرية ذاتي و أن مصدره ما يُنتزع من أيدي الجنود ، ثم توقفت الهجمات على الثكنات و لكنها استمرت على حواجز الجيش و دورياته بلا رحمة ، هذه الهجمات الدموية المتلاحقة و ما صاحبها من إعدام قاس جدا للمستسلمين من الجنود جعل المواجهات تتخذ منحى آخر ، فمعظم الجنود من أبناء الأرياف ، و أرياف ذلك البلد واسعة جدا و منعزلة كثيرا عن المدن ، و تسيطر على هذه الأرياف نزعة التدين الإسلامي التقليدي ، كان المجاهدون العائدون يرون التكيل الرهيب بالجنود بأن هؤلاء الجنود ليسوا مسلمين و إنما هم منشقون عن الإسلام ، فهم أولا يحمون حكومة معادية لـ "الإسلام" الممثل بالتحالف ، و ثانيا هم من أتباع التدين التقليدي الذي يعتبره قادة المجموعات مروقاً من الدين الإسلامي الحق في اعتقادهم و هو تعاليم النسخة النجدية.

مشاهد جث الجنود المشوهة استفزت قبائلهم و أقاربهم ، بهذا أتيحت للشيوخ التقليديين في الأرياف فرصة لتصدّر المشهد ، فهاجموا بعنف أفكار النسخة النجدية و أصغى لهم بانتباه أهل الريف و الأحياء النائية في المدن ، استطاع هؤلاء الشيوخ تخذيل الآلاف من الشباب عن مناصرة المجموعات العسكرية ، هذا لم يكن ضمن خطة البروفسور برنار إلا أنه تلافى هذا الحل بعقوبة نادرة فعلا .

اعتبر البروفسور أن هذه المرحلة قدمت له فرصة يستحيل أن تتكرر لتوجيه الحرب نحو صيد الكثير جدا من العصفير بحجر واحد ، ففي أحد لقاءاتي مع البروفسور في مقره المؤقت في عاصمة البلد المشتعل قال لي :

الناس منقسمون نحو الأفكار إلى قسمين : قسم سلمي يفكر و يحلم و يتحدث و لا تحركه الأفكار مهما كانت عظيمة و رائعة ، و هؤلاء هم تسعة أعشار الرجال و جميع النساء ، و قسم آخر إيجابي يفكرون و حين يقتنعون بفكرة يندفعون لتنفيذها ، بغض النظر عن معظم العواقب السيئة المتوقعة لها ، فإن جمع هؤلاء القوة و الفكر و التنظيم فإنك ستري حضارة جديدة تبرز إلى الوجود ، في هذا البلد يوجد الكثير جدا من هؤلاء الإيجابيين ، معظمهم في الأرياف و يتبعون للمشايخ التقليديين ، هؤلاء الرجال تمكنوا من حماية الدين التقليدي و الأخلاق المتزمطة طيلة فترة الإنتداب الأوربي ، و طيلة فترة حكم الضباط "المتفرجين" (كما يسميهم الناس هنا) ، أولئك الضباط القساة الذين سلطناهم على البلاد بعد مجازر ما يسمونها "حرب التحرير" ، رغم تلك المجازر التي أتلقت مئات الألوف من رجال أرياف هذا البلد حتى اعتقدنا أنه لم يعد بينهم إيجابيون ، رأينا أجيالا من الإيجابيين ينهضون بينهم مرة أخرى ، ليمنعوا تقدم الإلحاد و أفكار النسخ الإسلامية المستحدثة من السيطرة على ريفهم.

يقابل هؤلاء عشرات الألوف من رجال المدن الإيجابيين أيضا ، الذين آمنوا إلى درجة الموت بأفكار النسخ الإسلامية التي صنعناها ، و انضموا إلى تنظيمات التحالف الإسلامي ، ثم إلى جيوش المجاهدين العائدين ، إنها فرصتنا الكبرى اليوم للخلاص من هؤلاء الإيجابيين جميعا من كلا الفريقين ، سنجعلهم يبيدون بعضهم بأيديهم و بأيدي مجندي الجيش الحكومي ، بهذا سنقتل و إلى الأبد الروح الإيجابية هنا ، و في المستقبل القريب سيجد أصحاب هذه الروح أنفسهم غرباء و منبوذين بين أبناء بلدهم و حتى بين أهلهم و أقاربهم.

بدأ البروفسور تنفيذ فكرته العبقريّة ، و راح قادة المجموعات العسكرية يصدرّون الفتاوى لأتباعهم بضرورة استئصال الإلحاد و الإنحراف في البلاد من جذوره ، و ذلك باستئصال أهل الريف و القرى التي ينتسب إليها الجنود و العسكريون ، و اندفعت جموع الجيش الأسطوري نحو القرى و الأحياء النائية في البلد الإفريقي لتقتل و تبعد المشايخ التقليديين و أتباعهم ، و بالفعل أبعد من هؤلاء عشرات الألوف في مجازر متتالية القليل منها نفذته قوات يد الجيش الأسطوري ، و البقية نفذتها فرقة الحرس الرئاسي لهرثمة القادمة من بلادنا.

رد أهل الريف على الجيش الأسطوري بالمثل و صارت الحرب دوامة ضخمة تبتلع يوميا مئات من الرجال من جميع أطراف الصراع ، لكن جميع هؤلاء القتلى كانوا من سكان ذلك البلد ، سواء أكانوا من الريفيين أو من المجندين في الجيش الحكومي أو من مجندي الجيش الأسطوري ، و جميع الذين كانوا يضحكون كثيرا في نهاية المعارك هم جنود فرقنا الرئاسية أو جنود أفواج مشاة البحرية الأوروبيون المستعربون ، و طبعا البروفسور برنار و مستشاروا غرفة عملياته.

تفاصيل الحرب الأولى للجيش الأسطوري تم توثيقها في سجلين ، الأول هو سجلّ غرفة عمليات البروفسور برنار ، فمن تلك الغرفة كانت تصدر الأوامر اليومية لكل أطراف الحرب ، الثاني هو سجلّ فرق المستشارين الأوروبيين في ذلك البلد و في بلادنا ، لقد عملوا يجد من خلال منظوماتهم على جمع معلومات دقيقة عن كل نتائج العمليات ، و عن كل تفاصيل الحرب في كل زاوية و ركن و على مدار الساعة.

كنا نرسم خارطة شهرية لتطور الأحداث في غرفة عمليات البروفسور برنار ، ثم نرسل إلى البارون تقريرا مختصرا عن الأوامر و مدى تنفيذها و نتائج التنفيذ ، و سأحاول أن أوثق أحداث الحرب التي استمرت فعليا لقراءة عقد في هذا المختصر :

في بداية الحرب التحق بالجيش الأسطوري أكثر من عُشر أنصار التحالف الإسلامي ، كان عددهم يقدر بثلاثمائة ألف شاب ، معظمهم كانوا قد تدربوا بشكل بدائي على القتال أثناء تجنيدهم الإجباري في الجيش الحكومي ، هؤلاء جميعا كانوا مسلحين بأسلحة خفيفة مصنوعة في الدول الشيوعية ، أغلب أسلحتهم كانت بنادق فردية و قناصات و بعض مضادات الدروع و القنابل اليدوية ، لم يكن هؤلاء يتبعون رسميا لتنظيم عسكري واحد ، فلقد تضمنت الخطة أن يقوم كل واحد من المجاهدين العائدين بتأسيس فرقته الحربية الخاصة ، كل فرقة من هذه الفرق كانت تتبنى نسختها الخاصة بها للإسلام ، نسخة تتضمن أسسا عقائدية و قانونية ، لكنها تختلف تماما عن النسخ التي تتبناها بقية فرق الجيش ، سميت هذه الفرق بـ "الجماعات المجاهدة" و اتخذت كل منها إسمًا خاصا ، و في الظاهر لم تكن لهذا الجيش قيادة موحدة رسميا ، لكن في الواقع كانت قيادته كلها بيد الجنرال بيير قائد القوات الأوربية المستعربة الخاصة المرابطة حول العاصمة ، الجنرال بيير كان هو نفسه القائد الفعلي للجيش الحكومي لذلك البلد و قائد فرقة الحرس الرئاسي القادمة من بلادنا ، مقر قيادة الجنرال كان غرفة عمليات البروفسور برنار كما أشرت سابقا.

شكل الحرب كان في ظاهره فقط فوضويا جدا ، لكنها كانت في الحقيقة مضبوطة بجدول عمليات صارم و دقيق ، الإجراءات التي منحت الحرب شكلها الفوضوي كانت كثيرة أهمها أنه : لم يكن لكل فرقة من الجيش الأسطوري حيزا من البلاد يشكل مسرح عملياتها ، لقد تواجدت فصائل صغيرة من كل جماعة من الجماعات المجاهدة في كل منطقة و حيّ و شارع ، هذه الفصائل الصغيرة كل واحد منها كان يأخذ أوامره من القائد المجاهد العائد الذي يقود الجماعة المركزية التي يتبع لها هذا الفصيل !.

على الرغم من أن أعضاء هذه الفصائل الصغيرة المختلفة في الحي أو الشارع الواحد يؤمنون بآله واحد و يقرؤون نفس الكتب المقدسة ، و هم جيران في حي واحد منذ الأزل تقريبا ، و على الرغم من أنهم قد يكونون جميعا من نفس العشيرة ، و على الرغم من أنهم كانوا يقاتلون ضد عدو واحد هو الجيش الحكومي ، على الرغم من ذلك كله لم يكن بين أعضاء هذه الفصائل في الحي الواحد أو حتى في الشارع الواحد أي تنسيق أو تعاون ، فلا يقتسمون مالا و لا طعاما و لا ذخيرة ، و حتى المعلومات الميدانية أثناء الاشتباكات مع القوات الحكومية لم يكونوا يتبادلونها ، السبب يعود إلى أنهم جميعا يؤمنون بأن على المؤمن المجاهد الذين يعاهد أحدا (آمرا) على السمع و الطاعة ألا يتصرف إلا بإذن هذا الأمر ، و من هذا المنطلق كان أعضاء كل من هذه الفصائل يجمعون عن الإختلاط مع أعضاء الفصائل الأخرى ، و عن التنسيق معهم و عن مشاركتهم القتال ضد الجيش الحكومي إلا بإذن من قائد الجماعة المجاهدة ، هذا من الناحية النظرية ، أما من الناحية العملية فإن كل عضو في كل من هذه الفصائل الصغيرة كان يتلقى راتبا شهريا و طعاما و سلاحا و ذخيرة من قيادة الجماعة التي يتبع لها فصيله ، إذا خالف هذا العضو تعليمات قيادة الجماعة أو اجتهد من عنده دون إذن آمر جماعته ، كأن يقرر أن يتعاون مع جيرانه أو أبناء عشيرته في القتال ضد الحكومة ، فإن عواقب جريمته هذه ستكون وخيمة ، تبدأ بقطع راتبه و مخصصاته من العتاد ، و لا تنتهي عند قتله بتهمة "الخروج" أو "الإنشقاق" أو "النكوث بالعهد" أو حتى "الكفر بعد الإسلام" ، إذ قد تصل يد انتقام الأمر إلى أقاربه و ذويه و زوجته و أولاده إن كان له زوجة و أولاد.

لقد وقعت حوادث كثيرة من هذا القبيل في بداية الحرب ، و قتل بسبب هذه الحوادث ألوف من الشبان على يد إخوانهم و زملائهم في نفس الجماعة التي عاهدوا أمرها على السمع و الطاعة ، أما آلية إيقاع هذه العقوبات فكانت طريفة حقا :

يكفي أن يشي أحد أعضاء فصيل مجاهد صغير بأحد زملائه إلى آمر الفصيل حتى تبدأ الإجراءات ، التعليمات لدى آمري الفصائل كانت تقضي بعدم التحقق من الوشاية ، و إنما يرفعها الأمر سرا إلى القيادة ، ثم و بسرعة ترسل القيادة إلى موقع الفصيل قاضيا عسكريا ميدانيا من هذه الجماعة ، يستدعي القاضي الشخص موضوع الوشاية و يسأله عدة أسئلة عن أحكام الشريعة المتعلقة بحقوق الأمر ، و بعقوبة النكوث بعهد طاعته ، ثم يؤكد لهذا الشخص أنه متهم بالنكوث بالعهد و أن الأدلة كلها تدينه ، و يرفض السماع لدفاعه و يسكته بعنف إن حاول تبرئة نفسه ، بعدها يأمره بالتوبة و الإستغفار ، ثم يصدر حكمه عليه بعد جدل قصير مع آمر الفصيل الصغير ، فإن كان الحكم أيسرها و هو طرده من الجماعة فقد فاز هذا الشخص بسلامته ، و إن كان الحكم بقتله فإن القاضي نفسه هو الذي ينفذ الحكم في مكان المحاكمة على طريقة رعاة البقر في الغرب بطلقة مفاجئة ، ثم يأمر القاضي بتغسيل القتيل و يصلي عليه و يسير في جنازته و يحضر دفنه و يدعو له طويلا عند القبر !!! الأطراف أن هذا القاضي يكون عادة ملثما حتى لا يلاحقه أقارب المنتهم بدم قتيْلهم ، فالجتماع هناك قبائلي

عنيف جدا و حساس لمسألة الثأر القبلي ، و الأكثر طرافة أن هذا القاضي عادة ما لا يتجاوز العشرينيات من العمر و يرتدي ثيابا تشبه ثياب أولئك الذين يمثلون أدوار العرب القدماء في التمثيليات و الأفلام و المسلسلات !.

في بعض الجماعات كانت تختلف فقط آلية إيقاع العقاب ، دون آلية إصدار الحكم فهي موحدة ، فبعض الجماعات كانت توقع الحكم على الناكثين بتهجيرهم مع أسرهم من مناطقهم ، و أخرى كانت تقتلهم غيلة ، و أخرى و هي التي تتبنى النسخة النجدية القديمة الأصلية كانت تنفذ الحكم بهم قتلا بشكل علني و بطريقة الذبح بقطع الحلقوم و على يد أقرب أعضاء الجماعة إلى المحكوم عليه ، حين سألت البروفسور آكنات عن سبب تنفيذهم الحكم بهذه الطريقة قال لي : هم يأخذون بقصة مفادها أن الخليفة الثاني اقترح إعدام أسرى قبيلة قريش على يد أقاربهم من المهاجرين المسلمين في موقعة بدر. قلت : لكن هذا الإقتراح مرجوح و جاءت آيات تسمح بإطلاق الأسرى و مفادتهم ، فكيف يأخذون بهذا الإقتراح المرجوح في دينهم ؟.

قال : يوجد في نفس الحديث الذي يحكي هذه القصة و في نفس الآيات التي تتحدث عن الحادثة عبارات يُفهم منها أن هذا الإقتراح كان هو الخيار الأرجح ، و أن الفداء كان خيارا مرجوحا.

قلت : لكن جميع أساتذة الإسلام و قضاته و مشايخه و من ضمنهم الخليفة الثاني نفسه و إلى المعاصرين منهم يرون أن الفداء هو الحكم الإلهي و ليس إقتراح الخليفة الثاني !.

قال : إنهم يؤمنون بأن جميع أجزاء الرسالة الإلهية الإسلامية لم تجتمع بكاملها إلا في أيديهم هم ، و لهذا لا يلقون بالا لمن يخالفونه من مشايخ الإسلام و أساتذته ، فهم متأكدون من أنهم قد تلقوا النص الكامل للرسالة الإلهية الإسلامية ، و من أنهم وحدهم من يعرف تفسيراتها الصحيحة دوناً عن أهل الأرض و حتى أهل السماء إن شئت.

أعود لترتيبات إنشاء الجيش الأسطوري و تقسيماته و تحركاته : في بداية الأمر كان البروفسور برنار قد اضطر للإستعانة بمخبرات ذلك البلد العربي لتأسيس الهياكل الأولى لفرق هذا الجيش ، فالجاهدون العائدون كانوا قليلي المعرفة بالشباب من حولهم ، و لكنهم قُدموا للعامة من قبل قيادات التحالف الإسلامي على أنهم ملائكة و قديسون ، جاؤوا لبناء جنة سماوية على أرض ذلك البلد التعس ، هذا منحهم ثقة كبيرة بين الشباب ، لكن ليس بما يكفي لجعل هؤلاء الشباب منضبطين تنظيميا ، موجة التفاف الشباب حول هؤلاء العائدين صاحبتهما موجة أخرى من أعضاء المخبرات التائبين الذين التفوا بدورهم حول العائدين ، و أخذوا المسؤوليات القيادية في الجماعات المجاهدة ، ليس بسبب خبرتهم و إنما بسبب أوامر الجنرال بيير للعائدين و للتائبين.

برزت اعتراضات من الشباب على سرعة الثقة بهؤلاء التائبين ، خاصة و أنهم كانوا قد ساموهم سوء العذاب كثيرا ، هذه الإعتراضات كانت تُرد من قبل القادة العائدين بحزم ، فلقد كانوا يفحمون المعترضين بتشبيه هؤلاء التائبين بأبرز القادة العسكريين من الصحابة ، ذلك البطل الملقب بسيف الله و هو الذي كان قد أنزل بالمسلمين هزيمة عسكرية ، ثم أسلم فلم يُهزم في أية معركة بعدها ، و يذكروهم بحديث : خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا !.

كانت هذه فكرة البروفسور برنار ، و لقد نجحت جدا ، و استطاع هؤلاء "التائبون" أن يجندوا أعدادا ضخمة من الشباب في فرق العائدين ، و أن يضبطوهم تنظيما بمنتهى القسوة و الحزم ، بواسطة هؤلاء التائبين تمكن الجنرال بيير من ضبط إيقاع الحرب بدقة كبيرة و ضمن الخطة المسبقة.

بفضل هذا التقسيم و التوزيع لفرق الجيش الأسطوري صارت الصورة العامة للبلد تبدو فوضى عارمة ، و في نفس الوقت أمكن منع ظهور أية قوى مستقلة من الشعب لم يُحسب حسابها ، هذه القوى المستقلة كانت سرعان ما تباد بضربات مشتركة من الجيش الأسطوري و من الجيش الحكومي في نفس الوقت.

بدأت الحرب بتقدم كبير لفرق الجيش الأسطوري ، فلقد سيطرت هذه الفرق على كافة الأرياف ، و سيطرت على المدن الكبرى بشكل جزئي ، سيطرت هذه الفرق أيضا على أحياء كبيرة من العاصمة بشكل متناوب مع القوات الحكومية ، فكان ليل العاصمة لجنود الأسطوري و نهارها للجيش و فرق المخابرات الحكومية.

هجمات فرق الجيش الأسطوري كانت ضمن حدود لا يُسمح بتجاوزها ، الحد الأول : المقرات العسكرية و معسكرات الجيش ، فلم تحتاج فرق العائدين أي معسكر للجيش الحكومي إلا مرات معدودة ، كانت غايتها إيهام الشباب بأن الجيش الأسطوري يمون نفسه بغنائم الجيش الحكومي كما ذكرت آنفا.

الحد الثاني : المطارات و الموانئ و خطوط إمدادات و إتصالات الجيش الحكومي ، لقد قاتلت فرق الجيش الأسطوري لسنوات و لم تدمر مطارا واحدا أو ميناء أو حتى بدالة هاتف أو محطة و لو صغيرة لتوليد الطاقة.

الثالث : خطوط النفط و الغاز التي كانت تنقل نفط و غاز ذلك البلد العربي إلى أوربة ، معارك كبرى بين الجيشين الأسطوري و الحكومي وقعت بجوار و ربما فوق هذه الخطوط و لكنها لم تخرب واحدا منها.

الرابع : السفارات و مقرات البعثات و الشركات الأوربية و هي بالآلاف ، و مع أنها كانت إلى جانب الحكومة إلا أن ثوار الجيش الأسطوري لم يقتربوا منها.

الخامس : مضادات الطائرات ، فلم يحصل أي مقاتل من الجيش الأسطوري على أي سلاح فعال في مواجهة الطيران الحكومي ، و لم يحاول أي منهم الحصول على أسلحة كهذه رغم أن الطيران الحكومي كان يقتل ثوار هذا الجيش يوميا و بلا رحمة ، و بالطبع كان يقتل مع كل تائر عددٌ من المدنيين بالخطأ !.

السادس : التعاون و التنسيق بين فرق الجيش الأسطوري تحت أي ظرف ، ذكرت هذا آنفا.

السابع : السماح لأية فصيلة من فرق الجيش الأسطوري بالحصول على سلاح أو تمويل مستقل عن القيادة ، حاولت بعض الفصائل تجاوز هذا الخط فأبيدت بسلاح الفصائل المجاهدة المجاورة لها.

الثامن : التعاون و التفاهم مع أي رجل دين إسلامي تقليدي ، بل كانت عقوبة من يتصل بهم من أعضاء فرق الجيش الأسطوري القتل الذريع ، و منعت في مناطق سيطرة هذا الجيش إمامة و خطابة أي شيخ تقليدي ، هذا إن ترك حيا و لم يُقتل ، هؤلاء الشيوخ مدانون بحسب تعليمات كتب النسخة النجدية ، مدانون بأنهم أعوان لحكومة الكفار العسكرية ، و بأنهم صاروا سدنة للأصنام و كهنة وثنيين .

التاسع : نقل العمليات العسكرية إلى خارج الأحياء السكنية ، فلم تجر معارك تذكر خارج الأماكن المأهولة ، إلا في فترات متأخرة جدا من الحرب ، أي عندما انسحبت فلول و بقايا فرق العائدين إلى الجبال ، و بهذا أتيحت للقوات الحكومية فرصة تأديب العامة بضربات الطيران و المدفعية ، بقسوة جعلتهم يندمون على اللحظة التي فكروا فيها بمعارضة الحكومة.

العاشر : عرقلة وصول الموظفين الحكوميين و غيرهم من العاملين إلى أعمالهم و وظائفهم ، فعلى الرغم من خروج تسعة أعشار البلاد عن سيطرة الحكومة في بداية الحرب إلا أن المؤسسات الحكومية بقيت تشتغل و استمر الطلبة و المدرسون و العاملون في دوامهم و استمر قبضهم للرواتب الحكومية.

هذه الحدود أو الخطوط الحمراء ، لم يتجاوزها الجيش الأسطوري في أية فترة من الحرب و لم يحاول تجاوزها أي من قادته. في بداية الحرب اختلط كل شيء بكل شيء ، و انتشرت الفوضى الأمنية و السلب في كل أرجاء ذلك البلد ، القتل لأخذ الثأر و الإنتقام ، فرض الأتاوات من قبل قطاع الطرق و فصائل فرق الجيش الأسطوري و من قبل ضباط الجيش و المخابرات أصبح أمرا طبيعيا ، انتشر خطف الأثرياء و ابتزازهم ، و نهب الشاحنات التجارية ، هوجمت الفنادق و الملاهي و المراكز الترفيهية ، اضطرت جميع النساء لإرتداء اللباس الإسلامي المحتشم التقليدي ، و مع هذا لم يسلمن من الخطف و حملات الإغتصاب المنظمة.

انتشرت الهجمات بالعنوت الناسفة على دوريات الجيش و الشرطة و المخابرات ، و هوجمت مقرات حزب السلطة بالمتفجرات بأنواعها ، و تعطلت الكثير من الخدمات ، ارتفعت الأسعار بشكل جنوني ، و انخفض المستوى المعيشي بشكل كبير ، و انتشر الفقر و العوز بعد أقل من عام واحد على بداية الحرب.

لاحقا و بمعاونة من اليأس و الرعب و الفقر ، و برعاية و حماية المجاهدين التائبين بدأ تعاطي المخدرات ينتشر في ذلك البلد على نطاق واسع رغم أنه كان شبه خالٍ من مدمني الكحول فضلا عن مدمني المخدرات و تجارها ، و مع الإدمان انتشرت الدعارة في أطراف المدن الكبيرة ، ذريعة القادة العائدين و معاونيهم التائبين للإتجار بالمخدرات كانت :

استخدم المجاهدون العائدون من خراسان الخشخاش كسلاح ، لتمويل قواهم و لنشر الإدمان بين جنود الشيوعيين ، و الظرف هنا يشبه الحال هناك و الضرورات الحربية تبيح المخطورات !.

أما ذريعة الجيش الحكومي فكانت : إن جنود الجيش الحكومي كانوا مترددين جدا في القتال ، و انتشر بينهم الرعب من قسوة مقاتلي الجيش الأسطوري ، فاضطر الضباط لاستعمال المخدرات لقتل الخوف و الشعور بالألم في نفوس جنودهم !.

عمت الإشتباكات بطريقة الكرّ و الفرّ كافة أرجاء الريف و أطراف المدن ، كانت تنتهي الإشتباكات دوما بمجازر ضخمة في صفوف الريفين من العزل ، فإن سيطر الجيش الحكومي على قرية أو حيّ كان ينتقم من الأهالي ، بذريعة أنهم كانوا مناصرين للجيش الأسطوري و لم يُقاتلوه ، و إن عاد الجيش الأسطوري للسيطرة على نفس المنطقة فسيحصد بدوره عددا كبيرا من أهلها بتهمة الكفر و الخيانة للإسلام بدليل عدم مقاومة الأهالي لجيش الحكومة ، و لقد أيدت في هذه الإشتباكات قرى بكاملها على أيدي المتحاربين ، و على يد فرقة الحرس الرئاسي القادمة من بلدنا ، فرقة أنصار الزعيم هرثمة التي يدين أعضاؤها بالديانة السرية.

بعد عامين من بداية الحرب بدأت الدائرة تدور على قوات الجيش الأسطوري ، كان اغتيال هذا الجيش تدريجيا و بشكل مدروس ، فالمناطق التي كانت تسيطر عليها فرق المجاهدين العائدين راحت تتقلص يوما بعد يوم ، لأسباب كثيرة أحدها تناقص أعداد جنود هذه الفرق بسبب القتال بينهم ، هذا القتال الذي لم يتوقف أبدا ، كان الإقتال يهيج بين هؤلاء الجنود لأتفه الأسباب كمجرد خلاف مثلا على جواز الترحم على ميت من أقارب أحد الجنود ، فبعضهم يرى أن هذا الميت كافر لا يجوز الترحم عليه لأنه لم يكن مؤمنا حقيقيا ، فهو لم يؤمن بما يؤمن به هؤلاء المجاهدون قبل موته ! و آخرون يرون أنه كان معذورا كأهل الفترة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ، لهذا يجوز الترحم عليه ! فيتطور الخلاف بسرعة إلى أن يكفر المتخاصمون بعضهم ، ثم يقتل بعضهم بعضا ، و يهيج القتال بين الفصائل الثائرة في الشارع أو الحي الواحد مدة أسابيع دون توقف ، حتى يتدخل قادة الفرق لوقفه بعد عشرات القتلى من المتقاتلين و من الأهالي العزل .

أيضا من أسباب انهيار هذا الجيش كان اندفاع مقاتليه برعونة كبيرة في المعارك ، فلقد كان هؤلاء المقاتلون يُدربون أن القتال ضد العدو يستلزم الشجاعة و الجرأة بحيث ينتهي نهائيا الحذر ، فكان اندفاعهم و عدم حذرهم سببا في مقتل معظمهم بسهولة على يد جنود الجيش الحكومي المدعورين.

أيضا عندما قررت غرفة العمليات بداية انهيار الجيش الأسطوري بدأت نوعية شحنات السلاح إلى فرق العائدين بالتقلص و تغيرت نوعية ذخائرها إلى الأردأ ، بالإضافة إلى أن أماكن تواجد فصائل الجيش الأسطوري كانت معروفة تماما لقوات الجيش الحكومي ، بفضل غرفة البروفسور برنار طبعاً ، حتى صارت الحرب بين الجيش الحكومي و الأسطوري كالقتال بين دبابتين ، الأولى مدافعها ذات مدى بعيد و تسديدها دقيق و تصفيحها قوي و مناورتها سريعة و مموهة جيدا و محمية جواً ، و الثانية مدى مدافعها قصير و تسديدها مضطرب و تصفيحها رقيق و مناورتها بطيئة و مكشوفة بلا حماية ، النصر محسوم للأولى بالطبع ، و هذا ما كان ، فلقد تقلصت مناطق سيطرة فرق الجيش الأسطوري و تضاءلت تدريجيا حتى انتهى الأمر بأن بقي من هذا الجيش بضعة مئات من الفارين المعتصمين بالجبال الهائمين بين الكهوف.

حرص الجنرال بيير على ألا يبقى من عناصر "التائبين" الذين شاركوا في بناء فرق الجيش التي قادها العائدون إلا عدد قليل جدا ، تم تدبير فرارهم إلى أوروبا و تقاعدتهم هناك بصحبة قادتهم من المجاهدين العائدين ، طبعاً أعلن عن مقتلهم جميعاً في الإعلام الرسمي ، و هذا لم يحصل و لقد قابلت بعضهم في مقر إقامتي في أوروبا ، الطريف أنهم لم يكونوا يعرفون بما حلّ بزملائهم من عناصر المخابرات الحكومية ، و لم يتخيلوا أبداً أن الجيش الحكومي قتل زملاءهم على أنهم من جنود الجيش الأسطوري أثناء قيامهم بمهمة خاصة خدمة لحكومتهم !!.

صاحبت هذه الحرب حملة ضخمة من التعقيم الإعلامي على مجرياتها ، فبالرغم من أن العامة من العرب كانوا يتابعون باهتمام كبير أحداث المواجهة في ذلك البلد العربي الإفريقي الكبير ، و كانوا يرونها أملاً بالعق من منظومات الحكم العسكري ، إلا أن أحداث هذه المواجهة تقلص حضورها تدريجياً على وسائل الإعلام حتى غابت تماماً بعد عدة أشهر فقط على بداية الحرب ، و نسيها العامة تماماً بمجرد غيابها عن الإعلام.

التعقيم الإعلامي على تجربة الجيش الأسطوري الأولى اقتصر فقط على الإعلام العربي و الإسلامي ، إلا أن الإعلام الأوربي كان مشحوناً على مدار الساعة بأخبار معارك هذا الجيش ، و خاصة إعلام جنوب أوروبا ، فعلى مدى خمس سنوات من القتال لم تخل جريدة أو نشرة أخبار من تقرير عن مجريات الأحداث في ذلك البلد العربي الإفريقي القريب من أوروبا ، هذه التقارير كانت دوماً متشائمة حول وضع حكومة ذلك البلد و كلها تتوقع انهيارها قريباً ، و لم يكذب يخلو أي مقال منها عن إشارة إلى احتمال حرمان أوربة من إمدادات نفط و غاز شمال إفريقيا ، هذه التغطية ساهمت في حشد اهتمام و حذر العامة في أوربة باتجاه الإسلام و المسلمين بعدما كان متجهاً بالكامل إلى الخوف من الشيوعية.

لقد تُرجم هذا الحذر إلى نقمة و حملة تحقير و إنتقادات مهينة للمسلمين في أوروبا ، و تصاعدت حتى صار طبيعيا أن تجد مسلما يهان و يشتم بسبب دينه ، و صار طبيعيا أن تخلو محاكم أوروبا من قضية بُرء المتهم فيها إن كان مسلما ، و صار طبيعيا أن يكون أكثر من ثلث نزلاء السجون في أوربة و أمريكا من المسلمين ، دخلوا السجون لأجل جنح قد لا يحكم على غيرهم بغرامة من أجلها.

هذه الحملة ترافقت مع تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين الجدد من شمال إفريقيا زحفوا بقوارب صغيرة ، أو متسللين بأوراق مزورة عبر مطارات أوروبا إلى مدنها العامرة ، و على الرغم من هذه النقمة إلا أنه تم استيعاب جميع أولئك النازحين ، و حصلوا على إقامات و جنسيات أوربية لاحقا ، و بانضمامهم إلى إخوانهم العرب الآسيويين النازحين من دولة كستار تمكنت أوروبا من سد نقص كبير في تعداد السكان بسبب نقصان الولادات المذهل على مر ثلاثة عقود من الإباحية التي عاشتها أوروبا إبان المواجهة مع الشيوعية ، أو ما تسمى بـ "الحرب الباردة" ، حملة النقمة و التحقير أضافت إلى رعب النازحين رعبا زائدا و حذرا مزمنا من احتمالات طردهم إلى بلدانهم العربية مرة أخرى ، فالتزموا في منفاهم تجاه الأمور العامة نفس ما التزموه تحت حكم الإستبداد في بلادهم ، من تحاشي التدخل أو حتى تحاشي محاولة فهم ما يجري حولهم ، و صار شعارهم في المغتربات : "اللهم إني أسألك نفسي" ، لقد سهل هذا الإجراء ذوبانهم و تلاشي هويتهم الثقافية تماما لصالح الهوية الأوربية ، بهذا ضمنت المجتمعات الأوربية جيلا جديدا من الأوربيين السمر شبه اللقطاء ، فاقدى الإنتماء لغير أوروبا و ثقافتها.

تعليقا على هذا النزوح و على مصيره قال البروفسور آكنات مرة : "إنه تاريخ عظمة روما يعيد نفسه ، فكما أن شوارع روما كانت تعج بجميع صنوف العبيد من مختلف الأعراق التي خضعت بالقوة لسلطة الرومان ، كذلك اليوم تعج مدن أوروبا بجميع صنوف المسخرين بلقمة عيشهم و أمنهم من القتل ، نازحون من كافة الأعراق التي تخضع لهيمنة و مصالح أوروبا ، لقد ذابت مئات الأجيال من العبيد في مجتمعات روما ، و صاروا رومانيين و لكن بعد أن مات القادمون الأوائل و تركوا ذريتهم دون هوية أو لغة سوى الهوية الرومانية و اللغات الأوربية ، و هذا بالتأكيد ما حصل و ما سيحصل للنازحين إلى أوروبا في هذا العصر.

أما في البلد العربي الإفريقي الذي شهد هذه التجربة فإن النتائج كانت مذهلة حقا ، لخصها البروفسور برنار ، في الاجتماع السنوي الخامس المنعقد بعد بداية التجربة في قصر البارون ياكوب ، قال البروفسور على مائدة العشاء منتشيا و هو يحتسي كأسا من النبيذ الفرنسي الفاخر المعتق جدا :

سيدي البارون يشرفني و يسعدني جدا أن أتلو على هذا الاجتماع ما اعتبره نجاحا أسطوريا ، لتجربة اختراع قوة أسطورية تهدد أمن أوروبا و البلاد المتحضرة ، لقد فاق نجاح هذه التجربة كل توقعاتنا و حقق لنا مكاسب ما زلنا غير قادرين على إحصائها بدقة ، سأعدد ما تم إحصاؤه باختصار أمام سيادتكم :

أولا : انتهت نهائيا من أذهان الشعب في ذلك البلد العربي كل أحلام الخلاص من هيمنة أوروبا ، و ذلك بانتهاء أحلام أبناء ذلك الشعب بالخلاص من حكم الأسر الحاكمة ، تلك الأسر التي تستعبدهم بقسوة تفوق استعباد أفارقة مزارع قصب السكر في البرازيل إبان القرن الثامن عشر ، لقد حلم ذلك الشعب باستبدال هذه الأسر بحكام قديسين على طراز أباطرة صدر الإسلام ، و لكنهم حين رأوا أن حلمهم قد تحقق على يد أولئك الشباب ، الشباب الذين ظن العامة أنهم نسخ عصرية من قديسي زمن الإسلام الأول ، انقلب حلمهم إلى كابوس مرعب قاتل على أيدي هؤلاء القديسين العائدين من الماضي ، لقد أقنعتهم الفظاعات التي ارتكبتها الجيش الأسطوري بأن الإسلام إن خرج من محارب الصلاة و حلقات الذكر و مجالس تلاوات القرآن و الحديث إلى مراكز السلطة سيتحول إلى سجان مبير متوحش.

أيها السادة بعد أن استيقظ العامة المسلمون البسطاء في ذلك البلد من كابوس الجيش الأسطوري استقرت في أذهانهم فكرة ، قد لا يجروون على الجهر بها ، إلا أنها صارت يقينا يتصرفون على أساسه ، هذه الفكرة هي : "إن أسلافهم من المسلمين الأوائل كانوا يعيشون في الواقع في سجن فظيع اسمه الحكم الإسلامي ، و محاولة إحياء هذا الحكم لا تعني إلا اختيار العيش في هذا السجن الوحشي الرهيب مرة أخرى ، سجن يتحكم فيه الرعاع من الشباب غير المتعلمين بكل تفاصيل الحياة ، شباب هائجون بلا سبب واضح ، لا ضابط لتصرفاتهم و أهوائهم ، لأنهم لا يحترمون أحدا و لا يلتزمون بشيء ، و إن التزموا شيئا ذات يوم فأسهل ما يفعلونه هو نكث هذا الإلتزام ، سجن لا يأمن فيه أحد على روحه من الإغتال أو الخطف ثم القتل ، ربما عقابا على كلمة قالها بشكل عفوي و لم ترق لبعض هؤلاء الشباب .

لا أبالغ أيها السادة إن قلت لكم ، إن العامة من المسلمين في ذلك البلد و بعد هذه التجربة القاسية باتوا يفضلون العيش عبيدا عند الأوربيين على أن يعيشوا أحرارا في ظل حكم إسلامي ، أي حكم إسلامي ، لأنهم لا يميزون بين الإسلام بنسخته الأصلية و بين نسخه التي صنعناها و صنعنا منها جحافل الجيش الأسطوري الرهيب.

ثانيا : بعد أن قضى الجيش الأسطوري على معظم المشايخ التقليديين في ريف ذلك البلد ، انعدمت نهائيا قدرة الشعب على إعادة التكتل و التعاون ، و انتهت فرص المقاومة السلبية لفرض اللادينية على حياة الأفراد و العائلات ، مع فقدان هؤلاء المشايخ فقد ذلك البلد أيضا الروابط القبلية التي تضررت حد الإهتراء بسبب التذابح ، و الإقتال الذي هيجته فصائل الجيش الأسطوري ، قتال دموي بلا رحمة بين أهل البلد الواحد و الدين الواحد و القبيلة الواحدة و التي كان يُظن بأنها الثورة الواحدة .

هذا الواقع نقل ذلك الشعب إلى ما يشبه الحالة الأوربية في عصر الجمهوريات الوسيطة ، لقد تفككت الروابط الأسرية الضخمة في الأرياف و المدن ، و صارت كل أسرة مكونة فقط من أب و أم و أطفال ، منعزلة تماما عن العشيرة و القبيلة و الأسرة الكبيرة ، الخوف و الفقر و انعدام التوجيه الحكيم جعل الأسر في ذلك البلد أشبه بأسر الأرانب ، إلا أنها أرانب

شرسة جدا على بعضها البعض ، و أجبن من الفئران حتى و لو هاجمتها أضعف المخلوقات من غير جنسها ، أرانب تحيا لتأكل و تبقى بأمان ليوم آخر ، على أمل أن تنتهي معاناتهم في إحدى المدن الأوروبية أو الأمريكية ذات يوم ، أيها السادة صدقوني لو خيرنا أي شخص هناك بين أن يعيش ثريا في بلده إلى الأبد و بين أن يكون زبّالا في أوروبا لاختار الثانية دون تردد .!

من يصدق أن هؤلاء هم أحفاد أولئك الرجال الشرسين الذين أطعموا رؤوسهم لمدافع الجيوش الأوروبية ، بعناد و بمنتهى الإصرار جيلا بعد جيل مدة قرن و ربع من أجل أن يطردوا المحتل "الكافر" ؟؟!

ثالثا : بعد انتهاء التجربة تقبل الشعب في ذلك البلد حالة الفقر بصبر و اقتناع ، لقد كانت الحكومة مضطرة دوما لتأمين الحدود الدنيا اللازمة لمعيشة السكان ، لقد كان النظام "الإشتراكي" الذي تتبناه الحكومة رسميا مطبقا على الأساسيات ، فالدعم الحكومي للمواد الأساسية و لرواتب عمال المؤسسات لم ينقطع نهائيا قبل الثورة العتيدة ، صحيح أن الناس هناك كانوا يفتقدون الكثير من السلع الترفيهية ، إلا أن الأساسيات كانت دوما متوفرة و بأسعار قريبة من متناول الجميع ، بينما تجدون اليوم أسواق ذلك البلد غارقة في الأساسيات و الكماليات ، لكن لا يستطيع إلا أقل من عشر السكان شراء الكماليات و الترفيهيات ، في حين لا يستطيع أكثر من تسعة أعشار الناس أن يوفروا أساسيات السلع إلا بمشقة بالغة ، نظرا للغلاء الفاحش و المتصاعد على مدار الساعة.

أما الخدمات فلقد انخفضت إلى أقل من نصف ما كان متوفرا قبل أن يمر جيشنا الأسطوري من هناك على الرغم من تزايد السكان الكبير ، فلقد دمرت معظم المرافق الحيوية الهامة في الأرياف و أطراف المدن ، و انتهى عصر رعاية الحكومة للخدمات الأساسية و إن بقي رسميا و إسميا ، كل شيء هناك صار باهظ الثمن ، بعدما كانت معظم الخدمات الأساسية شبه مجانية و متوفرة للجميع ، السكن و التعليم و الطبابة و المواصلات و الإتصالات صارت باهظة الكلفة جدا ، بينما لم ترتفع رواتب العمال و الموظفين إلا بنسبة هي أقل بكثير من ربع نسبة نمو الأسعار ، و لا تزال الهوة تتزايد بين الدخل و أسعار الاحتياجات.

أيها السادة هذا الشعب الذي ثار قبل أقل عقد واحد من أجل ارتفاع ثمن الخبز بضعة قروش ، و كاد يطيح بالنظام و بالأسر الحاكمة ، يعيش اليوم مستجديا عطف الأسر التي حَكَمَناها في كل احتياجاته ، الأسر التي تسمى هناك بجنرالات المطبخ ، فلقد صار لكل سلعة أساسية جنرال يحتكر استيرادها و بيعها في السوق ، هؤلاء الجنرالات يرفعون أسعار محتكراتهم يوميا دون أن يجرؤ إنسان على أن يفكر بالثورة مجرد تفكير ، ليس خوفا من انتقام الجنرالات ، و إنما خوفا تكرار حقبة استيلاء الجيش الأسطوري على شوارع البلاد.

أيها السادة ، كما تعلمون فإن شعب ذلك البلد يميل للقسوة و الحزم ، و لو خلطنا جميع رجال ذلك البلد و نساءه و حولناهم لرجل واحد ، فإننا سنحصل على شخص واحد أهم صفاته العناد و قلة الكلام و الشجاعة المفرطة ، لقد عانى المحتلون الأوربيون الأمرين من عناد هذا الشخص و كتمانته و قسوته ، إلا أننا استطعنا اليوم ، بفضل تجربتنا ، أن نجعل أهل ذلك البلد أنفسهم يعانون من أنفسهم ، من قسوة هذا الشخص و عناده و كتمانته و عنفه ، لقد تحولت الحياة في ذلك البلد إلى فسيفساء مكونة من عصابات إجرامية منظمة ، عصابات تسيطر على كل شيء ، و تفعل كل شيء لتبقى و تستمر ، عصابات تحصل من الحكومة على كل ما تحتاجه ، لتمارس إجرامها على كل أحد في ذلك البلد ، و لم يعد أحد يقدر بل لم يعد أحد يجرؤ على التفكير بمحاربة هذه العصابات ، لقد صارت تجارة المخدرات و الدعارة و أعمال الإحتيال و السطو جزءا لا يتجزأ من مصادر دخل ملايين الشباب العاطلين عن العمل المتسكعين في كل زاوية في البلاد.

ثالثا : صحيح أن معظم النساء هناك يرتدين الحجاب إلا أن الغالبية الساحقة من النساء في ذلك البلد لم يعدن حبيسات البيوت كما كنّ في عهد الحكم المسمى "إشتراكي تقدمي" ، فبعد أن كانت مهمة خطبة العرائس للشباب من اختصاص النساء الكبيريات فقط ، صارت مهمة البحث عن عريس مناسب هي الواجب و الهاجس الأول لكل فتاة و امرأة غير متزوجة في ذلك البلد ، و لم يعد الآباء و الأمهات يعترضون على اختيار ابنتهم لرجل أعجبها فاستدرجته بفتنتها حتى يقترن بها ، بينما كان هذا من أكبر العار عند أهل ذلك البلد المحافظين جدا.

هذا التقدم الهائل يعود الفضل فيه إلى فتاوى مشايخ الجمعية الإسلامية التي انتشرت بين الشباب ، الفتاوى التي تجد ثوبا دينيا يناسب كل مُبتدع من السلوك المتحرر من قيود الفضيلة الدينية ، و يعود الفضل أيضا إلى كثرة أرامل الحرب و إلى اختفاء المشايخ التقليديين تماما من الحياة العامة .

رابعا : انحدر التعليم إلى مستوى غير مسبوق ، فعلى الرغم من أن جميع الشباب و البنات تقريبا يدرسون في المدارس ، إلا أن غالبيتهم أميون في الواقع ، و يفتقرون حتى لأساسيات المعرفة كالقراءة و الكتابة و الحساب بشكل صحيح ، لقد أكلت الحرب نخبة المدرسين الأكفاء ذوي العناد و الإصرار ، فلقد قاوم قسم منهم اجتياح الجيش الأسطوري ، و تورط قسم منهم في دعمه ، فدفع كلاهما حياته و ذهب إلى الماضي ، و حل محلهم معلمون لا يعرفون من أساسيات حرفتهم إلا مزقا ممزقة من هنا و هناك .

استغلت الحكومة هذه النقطة ، فأنشأت جيلا من الأئمة و المشايخ و الخطباء ، هذا الجيل يبدو في الظاهر أنه امتداد للمشايخ التقليديين ، إلا أنه جيل من المشايخ المزيفين الذين لا عمل لهم سوى تقديس ذوي السلطة ، تعميم الجهل بين الشباب الناشئ في زمن الحرب و ما تلاها ، أتاح لهؤلاء المشايخ السيطرة على التدين و الشباب المتدينين ، و إقناعهم بأن

الدين شيء و الحياة العملية شيء آخر ، و بأن المسلم المتدين التقى لا يعترض على شيء يخالف تعاليم الدين من حوله ، و إنما يعترض و يحارب بدموية و قسوة من يعترض على ما يخالف الدين .

أيها السادة : استنادا إلى هذا النجاح الباهر ، أرجو الإيعاز للكولونيل مهران ليجهاز معسكرات قوات جيش بلاده الخاصة ، حتى تستقبل الدفعة الكبرى من المجاهدين العائدين من خراسان ، هي دفعة تضم الآلاف من جميع الجنسيات العربية و غيرها ، سنبدأ أيها السادة بعد نهاية هذا الاجتماع و بمجرد إقراركم ، إعداد الأجيال التالية من الجيش الأسطوري .

وافق البارون و الحاضرون على مقترح البروفسور ، و عدت بعد الاجتماع لأشرف بنفسى على ترتيبات استقبال هذا الفوج الضخم من القديسين المحاربين .

قبل عامين من هذا الاجتماع ، كانت كل التقارير تشير إلى أن تجربة إنشاء جيش أسطوري عائد من الماضي قد نجحت ، و بسبب تواتر هذه الأخبار قرر البارون دعوتي لحضور اللقاء السنوي لمجموعة البارونات من أسرته ، هذا اللقاء يعقد سنويا في جزيرة في البحر المتوسط ، لا يوجد في هذه الجزيرة إلا قلعة قديمة حولها البارون إدموند جد البارون ياكوب إلى قصر كبير ، و فيها مدرج لإقلاع الطائرات الصغيرة و هبوطها .

في هذا اللقاء يستمع المجتمعون إلى خطاب طويل يلقيه واحد من الأساتذة الكبار المدعويين ، نص هذا الخطاب هو عبارة خطة عمل مئوية ، تتكرر تلاوته في كل سنة ، و تُجرى عليه في كل مرة مراجعة و تعديلات ، بحسب مقترحات المجتمعين ، تُقرّ التعديلات بمجرد قبول البارونات العشرة لها ، كانت المرة الأولى التي أحضر فيها لقاء ضخما كهذا .

مدة هذا الاجتماع ستة أيام ، تبدأ الأحد و تنتهي الجمعة قبل غروب الشمس ، و لقد استمعنا في هذا اللقاء بعناية إلى ما يزيد على المائتي صفحة ، و ناقشنا التعديلات المقترحة عليها ، و انتهى الاجتماع بمقررات هامة جدا أعظمها كان الموافقة على إطلاق المرحلة النهائية من مهمات البارون روبرت ، بناء على توصية من البروفسور ويليام و البروفسور ريكارد ، هذه التوصية و هذا الجزء من الخطاب حفر في ذاكرتي فلم أنس منه حرفا واحدا ، لأنه فسر لي الهدف النهائي من جميع المهمات التي نفذناها و نفذتها منظوماتنا كلها على مر حياتي المهنية .

في الخطاب الذي قرأه نيابة عنه البروفسور ريكارد بسبب كبره قال البروفسور ويليام :

أيها السادة : تعرفون أن الممالك كلها إنما نشأت بسبب الديانات ، و لقد وفرت الديانات للأرستقراطيين و للملوك الأمان الكامل من ثورة الرعاع عليهم ، و لأجل تثبيت حرس ملكي في ضمائر العامة أجبر رجال الدين أتباعهم من العامة على تبني الكثير جدا من العادات و السلوكيات التي تقمع غرائزهم و تقيد تعاطيهم لمشتهايتهم ، هذه القيود القمعية أو ما تعرف بـ "الحرمات الدينية" كان هدفها في المحصلة دوما هو : أن يتناول الفرد من العامة أقل من نصف ما ينتجه من المنافع ، و يترك

الباقى راضيا لمعبوداته ، هذا الباقي يأخذه الأرستقراطيون فينفقون جزءا منه على حماية هذه القيود و تعزيزها ، بقوة الجند و بإبداعات الكهنة ، ثم ينفقون الباقي على انغماسهم في إرضاء غرائزهم و شهواتهم دون حدود و لا قيود و لا ضوابط.

هؤلاء الأرستقراطيون كانوا دوما متحللين من معظم المحرمات الدينية ، و لم يتعرضوا على مر التاريخ لهجمات رجال الدين بسبب هذا التحلل ، فلقد استخدم الأرستقراطيون الطامحون للتوسع تلك المحرمات لتكون ذريعة للقيام بحروب توسعية ، و أنشئوا على أثرها ممالكهم الخاصة جديدة ، ففي كل مرة ثارت فيها حرب بين الأرستقراطيين كانت الذريعة الرسمية للحرب هي : نشوء دين جديد ، هذا الدين الجديد كان ينشأ دوما من خلال تعديلات على المحرمات ، فتتم إباحة محرمات سابقة في الديانة السابقة ، و تضاف محرمات جديدة بدلا منها في الديانة الجديدة ، الديانة الجديدة تنشأ على يد رجل دين ذكي و يقتل من أجل تثبيتها العامة ، و يجني ملذات عرش مملكتها الجديدة أرستقراطيون طامحون أنفقوا على مشروع الديانة الجديدة و جنوا وحدهم ثمار المشروع الحقيقية و هي "المملكة".

في سعيها الدؤوب المستمر منذ قرون لإنشاء مملكة عالمية سعيدة تدوم للأبد يجب علينا أن نكسر هذه الحلقة و أن يكون جميع سكان العالم من البشر الطبيعيين تماما ، فالإنسان شأنه كشأن كل الكائنات على هذا الكوكب ، يكون في أفضل حالاته عندما يكون طبيعيا تماما ، مطلق الغرائز و خال من التدخلات المصطنعة ، سيكون الناس بهذا الشكل كورقة بيضاء ، سنكتب عليها ما نشاء عندما تظهر مملكتنا إلى العلن ، عندها سيؤمن سكان مملكتنا كلهم بنفس الأفكار الكبرى ، و سيقبلون نحونا للبحث عن أجوبة لكل أسئلتهم ، مملكة بهذا الشكل لن يقدر أحد على خداع سكانها و دفعهم ليقتلوا بعضهم بمنتهى الحماسة من أجل مصلحة حفنة من الطامحين المغامرين ذوي الذكاء الزائد عن الحد اللازم للبشر ليعيشوا بسرور دائم.

إن بحثنا عن نموذج الإنسان الطبيعي الصافي ، المنطلق الغرائز المتحرر من القيود - المخترعة لخداعه و سرقة ثمره تعب - فسنجد هذا النموذج في نوعين فقط من البشر ، النوع الأول هو : الأرستقراطيون أنفسهم ، إن أردنا أن نجعل جميع سكان مملكتنا من الأرستقراطيين ، فسنكون بحاجة لسكان عشرة كواكب أخرى ككوكبنا هذا لينفقوا على مملكة كوكبنا ، و هذه فكرة سخيفة تماما و مستحيلة التحقيق.

النوع الثاني أيها السادة هم : العجر ، هذا الشعب المشتت ليس شعبا واحدا ، و ليس عرقا واحدا ، و ليس أمة لها ثقافة بعينها ، أو لغة موحدة ، هم مجموعات متفرقة من البشر ، كانوا أولا من الهنود الذين طردوا من قراهم و من عشائريهم ، تجمع هؤلاء الناس في مجموعات من الرّحل ، بعيدا عن السلطة و الأديان و التعقيدات الثقافية و الفكرية التي تحكم المجتمعات الموبوءة بالديانات ، و التحقت بطريقتهم في الحياة مجموعات من كافة أرجاء الأرض على مر القرون.

لقد فرضت حياة التنقل على هؤلاء أن يتعاونوا كما تتعاون قطعان الحيوانات البرية تماما ، لكنهم قطعان من البشر البرّيين ، لم ينشأ من بينهم من يضحك عليهم ليسلبهم نصف منتجاتهم أو أكثر ، لأن منتجات كل منهم تكفيه بالكاد ليبقى حيا ، لهذا نجدهم بلا دين منذ آلاف السنين ، بل هم يستعملون أساطير دينية للإحتيال على المتدينين و سلبهم أموالهم ، فهم ماهرون في التكهّن و التنجيم و السحر ، و في الواقع هذه مجرد خدع للضحك على السذج و تخبيهم ، لأجل هذا كان الغجر هم الملهمين الأولين لأولئك الفلاسفة الذين حطموا قلاع الديانات في أوربة و بقية العالم.

إذا نظرنا إلى طريقة حياتهم نجد أنهم قد طوروا أساليب و معارف تبقّيهم على قيد الحياة ، هم ماهرون في الطب الطبيعي لأنهم يمرضون في البراري و لا يجدون إلا الطبيعة مصدرا للشفاء ، و هم ماهرون في صناعة المرح لأنهم غير قادرين على القتال ، و بالمرح يطفنون جذوة المتربصين بهم شرا ، و هم ماهرون في الحرف الزراعية بأنواعها رغم أنهم لا يملكون أرضا ، لأنهم يعملون في كل الأرياف التي يمرون بها حتى يحصلوا على طعامهم فهم غالبا لا يملكون ثمن الطعام ، و هم ماهرون في السرقة و الإحتيال لأنهم يمرون دوما بأوقات عصيبة تجربهم على السرقة حتى لا يهلكوا جوعا ، و هم ماهرون في صناعة الزينة لأنهم لا يجدون سواها بضاعة يبيعونها للبدو و للفلاحين مقابل الغذاء ، و هم يعيشون في تجمعات متعاونة لأنهم إن تفرقوا هلكوا و مات معظمهم في عالم لا يرثي لضعيف محتاج.

أيها السادة : نحن لسنا بحاجة لإقتباس عادات المجتمعات الغجرية و تلقينها للعرب و المسلمين ، نحن بحاجة فقط لإقتباس سلوك الفرد الغجري لنلقنه للفرد المسلم المعاصر ، فالسياسيون و العسكريون و التربويون و رجال الدين المصطنعون قد هيئوا الأفراد جميعا في بلاد العرب ليتقبلوا أي نموذج سلوكي سنلقنهم إياه عبر منظومتنا الإعلامية الكبرى التي يقودها البارون روبرت ، فالأحزاب اللادينية و المجموعات الإسلامية التي صنعناها استطاعت أن تمحو من ذهن المسلم فكرة "العقيدة الثابتة" ، و صارت المفاهيم و المقدسات و المبادئ و الأخلاق و العادات خاضعة لقانون التغير حسب الحاجة ، لقد سَقَّت هذه التشكيلات كل مسلم خيبة الأمل المرّة ، مرات و مرات و مرات ، و في كل مرة كانت هذه التشكيلات تقدم للمسلمين أنوارا من المبادئ الثابتة البراقة تلوح في آخر أنفاق البؤس ، لكنهم كانوا يسقونهم مرارة اليأس و الخيبة بعد كل لهث وراء هذه الثوابت ، لقد أكدت الدراسات و الأبحاث أن الثوابت قد أصبحت أبغض المكافه إلى نفوس المسلمين ، و صار تحريضهم على تحطيمها و استبدالها بشكل متكرر أمرا سهلا ، الرغبة الجارحة في التخلص من الثوابت مجرد أنها ثوابت ، صارت هي الثابت الوحيد في نفوس كل المسلمين اليوم ، لقد نجحنا في تغيير المسيحيين الأوروبيين منذ قرن و نصف في هذا الإتجاه ، و اليوم نكرر هذا النجاح في تغيير المسلمين إلى الأبد .

أيها السادة :

إن شخصية الإنسان المتدين الملتزم بالتعاليم التربوية الروحية ، شخصية بعيدة تماما عن شخصية الغجري المتحرر مطلقا من هذه التعاليم ، يجب أن نتبع الفروق بين الشخصيتين لتركز عليها أجهزة الإعلام المسيطرة على أثير المسلمين ، حتى تلقن الفرد المسلم سلوكيات الغجري على أنها حذاقة و نباهة و عظمة ذاتية ، و تبرز في المقابل الثوابت السلوكية الموروثة عند المسلمين على أنها عجز و غباء و حقارة ذاتية و قيود مضرّة يجب التخلص منها ، و لنستعرض أهم هذه الفروق :

أولا : الإنسان المتدين خجول ، يستحي من أن يتصرف تصرفات تثير استمزاز الآخرين ، فهو لا يجذ التعري أبدا ، بينما الإنسان الغجري لا يجد أبدا مشكلة في التعري ، فهو يغطي بدنه من الحرّ و القرّ و الأذى و ليس حياء من أحد ، فهو يبول و يتبرز و يمتخط و يبصق عندما يحتاج لفعل ذلك دون أن ينتظر توفر مكان مستور عن العيون لقضاء هذه الحاجات ، يجب أن تركز جميع أجهزة الإعلام و كافة الأعمال الفنية بأنواعها على هذه النقطة ، لتبرز الحياء على أنه عجز و تشوه نفسي و يجب التخلص منه ، فيصبح التعري ما يسمى بـ "الوقاحة" هو التحضر و العظمة الرقي ، و يصبح اللبس الساتر للجسم و الحياء و الخجل عيبا و عارا و بدائية بشعة.

ثانيا : الإنسان المتدين كريم و مانح دوما ، و هذا من ضروريات التدين ، لأنه يسمح لأولئك العامة بأن يخففوا باستمرار عن بعضهم معاناة فقرهم ، و هو يحمل حياتهم و يجعلها مسلية ، و يضمن أيضا تعاونهم الطوعي الذي يوفر على الملوك الكثير من المسؤوليات العامة الثقيلة ، بينما نجد أن الأغنياء و الأرستقراطيين بخلاء دوما و ليسوا مانحين ؛ الغجري أيضا بخيل و لا يكرم الضيف و لا يعطي المتسول ، لأنه هو نفسه متسول و كالضيف العابر السبيل أينما حل و ارتحل ، لهذا يجب أن يمجّد الإعلام الشخصيات البخيلة ، و أن يقدم لها الأعذار لبخلها ، و أن يُقرن البخل بالقدرات الإستثنائية على تحقيق الثراء ، و يجب أن يُقدّم الكرم و العطاء على أنه غباء و تضييع للثروات ، و إن قدم العطاء و الكرم فيجب أن يبدو محدودا و لإحتياجات وقتية و ضيقة.

ثالثا : الوقار من أشد أعداء التطور السلبي أو الإيجابي ، فهو يمنح المرء فرصة للتفكير العقلاني الهادئ ، و هذا هو العدو الأول للتصرفات الغريزية العفوية ، الغجر هم أبعد الناس عن الوقار ، إذ لا يتردد أحدهم في انتهاك أي محرم أو قانون أو عرف من أجل الحصول على حاجته ، هذا ما يجب أن يركز الإعلام على نشره كثيرا ، يجب ألا يخلو عمل فني عن قصة شخص ما ألقى عنه الوقار ليحصل على حاجة حال الوقار بينه و بينها ، و يجب أن تصبح الثروة الفارغة نوعا من اللطف و الظرف و ليست عيبا أو عارا.

رابعا : عفة اليد و الإمتناع عن المكسب غير المشروع ، هذا المبدأ يحول بين العامة و بين التخلص من عقدة الذنب ، الغجري لا يهتم مصدر المال طالما أنه مال ، و لهذا تجد السرقة و التسول و الإحتيال من أهم مصادر دخل الغجر ، و هذا ما يجب أن يسعى الإعلام لإبرازه و تلقينه للفرد المسلم ، يجب أن تكون الأعمال الفنية المميزة جدا هي تلك الأعمال التي

تحدث عن لصوص أذكاء و قتلة مأجورين خاضوا مغامرات ضخمة حتى حققوا الثروة ، أو راحوا ضحية مغامراتهم فيجب هنا أن تقدمهم الأعمال الفنية على أنهم فدائيون شجعان ، و أفذاذ عظماء لكن لم يحالفهم الحظ ، بينما يجب أن يُقدم ضحاياهم على أنهم مجرد أغبياء بلهاء محظوظين بثروات لا يستحقونها.

خامسا : الغيرة على النساء ، هي أحد أكبر الموانع التي تقف في وجه الخلاص من التدين ، خاصة و أن التدين و التقرب من المعبود يرتبط في أذهان العامة في تحديد تعاطي الجنس ، و في إقتصار العلاقات الجنسية على الأزواج و الزوجات ، و في الوفاء الأسري ، و لأن العجر غير موبوئين بالتدين فإننا نراهم لا يشعرون أبدا بالغيرة على النساء ، بل على العكس هم يعرضون خدمات نساءهم الجنسية الترفيفية على الرجال الغرباء دون تردد من أجل المال أو الحماية.

فكرة الغيرة يجب أن تبرز في كافة الأعمال الفنية على أنها ضعف في الشخصية و نقص في العقل ، و لا تليق بالرجال العقلاء ، الطريقة لإبراز الغيرة بهذا الشكل تكون بإبراز غيرة المرأة على أنها سلوك طبيعي يليق باللاعقلانية التي تسيطر دوما على النساء ، يجب ألا تخلو الأعمال الفنية من شخصيات ذكورية جذابة لا تغار من ممارسة إناثهم للجنس مع ذكور آخرين ، بينما تبرز في نفس الأعمال شخصيات أنثوية تعاقب الذكور و الإناث الأخريات بقسوة بسبب الغيرة ، و على الشخصيات التي تقود هذه الأعمال أن تبرز غيرة الإناث و تمجدها و تجدها للأعذار ، و أن تدين غيرة الذكور و تقدمها على أنها وحشية غير عقلانية و غير مبررة ، و على أنها جريمة يستحق مرتكبها كل إحتقار.

سادسا : الصدق ، هو ألد أعداء الغريزية العفوية ، لأنه غالبا ما يكون متصنعا ، و غالبا ما يجبر الإنسان نفسه عليه لأسباب دينية ، ضمن هذه المجتمعات البائسة التي يعيش فيها الناس اليوم بفضل عملنا الدؤوب لقرون متوالية .

العجري لا يعرف الصدق أبدا و لا يستحيي من الكذب ، لأنه خائف دوما و يحتال دوما ليحصل على أسباب معيشتة ، فهو كالثعلب لا بد له من الحيلة ليعيش ، و الكذب هو أساس الحيلة ، هذا هو حال المسلمين في جميع بلدانهم اليوم ، يؤس و خوف و قلق و ضعف ، لذلك يجب أن تسقط قداسة الصدق ، و يجب أن تعرض الأعمال الفنية بإستمرار مشاهد عن غباء الصادق ، و عن أضرار الصدق على صاحبه و على من حوله ، و يجب أن تُظهر هذه الأعمال الشخص الصادق في أبشع صورة ، شخصا أبله غيبا منفصلا عن واقعه يعيش أوهاما لن تتحقق أبدا.

سابعا : الشجاعة و المواجهة هي أعظم الأوامر الدينية في كل الديانات الكبيرة الظاهرة ، و هي أول ما يجب أن يمحى من سلوك المسلمين ، لأنها تعني عددا لا نهائيا من المشاكل و حالات التمرد على سلطة الأسر الحاكمة بأمرنا ، عانينا منها كثيرا في الماضي.

العجري لا يقاتل ولا يحارب ، وإنما ينحني دوماً ليقبل أيدي أولئك الذين يهددونهم ويهزجهم ، و يقدم لهم المرح و المشتبهات الممكنة ، ريثما ينجو من قبضتهم ، رغم أنه قد يقع قريباً في قبضة أقوياء آخرين ، ليكرر فعله معهم مرة أخرى و أخرى إلى ما لا نهاية ، يفعل كل شيء حتى يتجنب القتال ، جميع الأعمال الفنية الضخمة يجب أن تقدم ذلك الذي يتحدى الغزاة أو السلطة الظالمة و أصحاب الثروة و يواجههم على أنه أحمق غبي منتحر ، و يجب أن تقدم في المقابل شخصاً عظيماً ذكياً يحتال على السلطة و أصحاب الثراء ، و يقتنص منهم حاجته ثم يفر بمهارة دون أن يمسكوا به ، أو دون أن يشعروا به.

ثامناً : الشرف و الولاء هو الرابط الذي يجمع كل المجتمعات الإنسانية ، و هو الشرط الأساس للإنتساب إلى أي دين أو تشكيل مجتمعي من أي نوع ، و هو أشد أنواع السلوك ضرراً على فرص التغيير في الشخصية ، لذلك يجب أن يسقط تماماً من نفوس المسلمين.

العجري ليس له ولاء لشيء أو لأحد أو لفكرة ، و ولاؤه لعشيرته ينبع من ضرورة البقاء فقط ، و حين لا يكون لبقائه ضمن عشيرته نفع أكبر من تركها فسيتركها دون تردد ، يجب على الأعمال الفنية كلها أن تجعل الولاء في قعر سلّة العار ، و في قمة جبل الغباء و حماقة ، يجب أن تقدم الأعمال الفنية شخصيات جذابة عظيمة ناجحة مبتسمة دوماً ، لا تعترف بالشرف و الولاء إلا ضمن حدود ضيقة ، كالولاء لعصابة سرقة ، أو عصابة قتل بالأجرة ، أو عصابة تهريب ممنوعات و إحتيال ، تماماً كالولاء عند العجبر ، فالشرف عندهم ألا تشي بمن تسرق معه ، و ليس الشرف في أن تحمي المجتمع من السرقة ، هذا هو المفهوم الذي يجب أن تلقنه الأعمال الفنية للفرد المسلم.

تاسعاً : الإحترام و الأدب في السلوك ، هو من أهم الجسور التي تنتقل عبرها الدعوات الدينية ، و جميع الديانات الكبرى تحرص عليه حرصاً كبيراً ، لأنه هو الذي يجبر الصغير على الإستماع للكبير و تلقي التوجيهات منه ، و هو الذي يجبر العامي على الإصغاء للمتعلمين و رجال الدين و تلقي نصائحهم المدهشة لعقله المحدود ، ثم الإنقياد لها ، هذا الإحترام و الأدب معدوم تماماً في شخصية العجري ، لأنه لا يجب التفكير و لا يؤمن بعقيدة و ليس له ولاء و لا صدق و لا عفة و لا يتعاطى بجدية مع سوى بطنه و فرجه و ملذاته بأنواعها و وسائل الحصول عليها ، فلماذا الإنصات للمحترمين؟.

يجب أن تقدم الأعمال الفنية كل شخصياتها على أنها شخصيات معدومة الأدب ، و لا تؤدي الإحترام لذوي المقامات ، يجب أن تُقدم الكلمات النابية و البذيئة و الإشارات الجنسية على أنها جرأة و ظرف و خفة دم و ذكاء ، و يجب أن يُقدم الإحترام خاصة للكبار و للوالدين و لذوي الهيئات على أنه ذلّ و قيد ، و استغلال من شخص كبير عاجز لجهد شخص صغير السنّ مليء بالقوة و القدرة ، و مجرد فرصة يمنحها الشاب الصغير بغبائه لعجوز بشع حتى يضحك هذا العجوز عليه

و يخدمه بنصائح مكذوبة ، ثم يقوده بها إلى حيث يتسخر الشاب لخدمة العجوز مجانا ، فيفقد بذلك وقتنا و جهدا ثمينا من شبابه ، يعطيها لعجوز جشع ، أنفق شبابه و يريد أن يستغل شباب غيره بلا مقابل.

هذه النقاط التسعة و غيرها ستكون هي العلامات التي تميز سلوك الفرد المسلم ، بعد عقد واحد فقط من يومنا هذا ، و سيتحقق هذا التغيير عبر جيش لجب من الإعلاميين و المؤلفين و المخرجين و الممثلين و المنتجين الذين سيوظفهم البارون روبرت في مؤسساته التي ستتحكم فيما يراه و يسمعه و يقرؤه الإنسان المسلم لفترة طويلة قادمة خاصة و أن البث التلفزيوني الدولي العالمي بمحطاته الكثيرة جدا سيغطي بلاد المسلمين خلال فترة وجيزة .

تابع البروفسور ريكارد تلاوة خطاب البروفسور ويليام :

إن توحيد البشرية في مجتمع واحد قدر حتمي ، و نحن الذين إختارتنا العناية الإلهية لتحقيق هذا القدر السعيد ، و بالنظر إلى أن هذا هو المقصد النهائي لكافة مشروعاتنا ، سيخصص القسم الأكبر من المهمة الضخمة التي نحن بصدددها لصالح تحقيق هذا المقصد ، و سيعمل أخطبوط المؤسسات الإعلامية التابع للبارون روبرت بكل قوته في هذا الإتجاه العظيم.

إن توحيد المعتقدات الدينية ليس بالأمر الهين ، و الأديان هي التي ولدت دوما معظم السلوك الإنساني الواعي ، بل حتى السلوك الغريزي العفوي تتحكم الأديان في الجزء الأكبر منه ، لقد هاجمنا في الماضي أصل فكرة الأديان و الرؤوس الكبيرة التي تحميها ، و حققنا تقدما كبيرا في جعل الأديان مجرد أفكار إنسانية كغيرها ، و أسقطنا عنها و عن حمايتها هالة القداسة ، و استبدلناهم جميعا برجال دين مصطنعين في مخابرة العريقة و ما عليكم إلا أن تنظروا إلى المرجعيات الدينية الكبرى في العالم ، و أن تراقبوا كيفية إصدارها للتعاليم الدينية و القوانين الروحية ، لتجدوا أنها صارت كلها تعتمد على آلية "المؤتمرات" التي اخترعناها نحن أصلا للمسيحية الأولى ، المسيحيون كانوا أول الذين تبناوا المؤتمرات الروحية لقادة ديانتهم لتكون مصدر ما نسميه "الفتوى الدينية" التي تحكم على المشكلات الجديدة التي نخبرهم بها يوميا ، حتى المسلمون الذين رفضوا حتى الموت على مر تاريخهم أي تدخل بشري في صناعة "الفتوى الدينية" نجدهم اليوم يعقدون المؤتمرات ، و يصدرون "الفتاوى" بعد مناقشات سطحية جدا في هذا المؤتمرات ، و نتائج هذه المؤتمرات تكون دوما في مصلحة تسهيل تحقيق التغييرات التي نفرضها عبر منظوماتنا و أسرنا الحاكمة في بلدان المسلمين.

لكن هذه الهجمات لم تفلح بكل أسف إلا في تغييرات غير ثابتة عند المسلمين ، و يمكن محو هذه التغييرات ، و إعادة المجتمعات إلى نماذجها خلال عهود سيطرة الدين الإسلامي السابقة ، بمجرد حصول أي تغيير سياسي متصالح مع شعوب المسلمين ، لذلك كان لا بد لنا من تحقيق تغيير من الأسفل إلى الأعلى ، و هذا ما تتيحه لنا سيطرتنا الإحتكارية على وسائل الإعلام.

حين تتغير كافة العادات و السلوكيات لتطابق سلوكيات مضادة للمعتقدات الدينية لأي شعب ، ستصبح هذه المعتقدات عند هذا الشعب أمرا يسهل جدا رمية في مجاهل النسيان ، و ستحل محلها المعتقدات التي تناسب العادات و السلوكيات الجديدة ، هل يوجد اليوم في العالم كله من لا يحتفل بالعيد المزعوم لميلاد المسيح ، بكافة طقوسه و تقاليده التي اخترعناها و نشرناها عبر إعلامنا ؟.

حين نفرض تغييرا سلوكيا معنا فلن نفرضه عبر المناقشات العقلية كما كان الحال قبل نصف قرن ، بل سنفرضه بحكم تيارات الغوغاء الجارفة ، تعرفون أن العامة كالبغاوات تماما ، يحبون تقليد من يرونهم عظماء تقليدا أعمى.

أيها السادة : لقد ولى زمن تعظيم المصلحين و سيأتي زمن تعظيم سفلة "العجر الأثرياء" كما أسلفنا ، فسلوك و أخلاق و عادات هذا النوع من البشر ، هي ما سيتبناه و يمارسه جميع الذين تقدمهم وسائل إعلام البارون على أنهم عظماء العالم ، دون أن يحرصوا على هذه العادات بكلمة واحدة ، هم فقط سيمارسون هذه السلوكيات أثناء ظهورهم على الإعلام ، و سيسخرون باستهزاء و إحتقار شديد ممن يرفضها ، و سيصوره الإعلام أبلها متوحشا بشعا ، و سنجد أن العامة سيقلدوهم دون أي تردد أو حتى مجرد التفكير في عواقب هذا التقليد ، قد نجد اليوم أن بعض العامة قد تبني سلوكا يخالف الموروث الديني ، و بسبب هذا يشعر بالحرج و الضيق ، إلا أن هذا سيزول تماما حين يرى الإعلام "المقنن" يقدم سلوكه على أنه السلوك المثالي المحتذى.

لقد ضربنا و بقسوة كبيرة قدسية قمم المعتقدات و المثاليات الدينية في سائر بلاد العالم ، و بفضل تخطيطنا لقدسية هذه القمم تمكنا من تخطيط هذه القمم نفسها ، و أمسكنا من وراء الستار بعنان كل شيء ، و بفضل هذه السلطة الجديدة استطعنا أن نفسح الطريق لسلطاننا الحقيقية لتستلم قياد عقول العامة و الخاصة ، سلطتنا الحقيقية هي الإعلام ، و كله اليوم بات تحت تصرفنا المطلق ، و بهذه السلطة محونا آثار كافة الديانات تقريبا من سلوك معظم البشر حتى الآن ، و بهذه السلطة سنوحد عاداتهم و تقاليدهم و سلوكهم ثم معتقداتهم ثم عالمهم كله ، و سيستمر نجاحنا حتى أننا سنجعل لغتهم التي يتحدثون بها لغة واحدة في القادم الآتي ، و حتى تنوعهم العنصري سنجعله أمرا من الماضي المنسي في المستقبل غير البعيد.

اليوم يقدم إعلام البارون روبرت للعالم الأوربي كل النماذج السلوكية و الأنماط اليومية للحياة ، و كافة النماذج الأخلاقية و حتى كيفية الأكل و التبول و التبرز و تعاطي الرذائل ، و طبعا تصاميم الثياب و الأبنية و كل شيء مصنوع ، أي ببساطة كل ما كانت الديانات تقدمه للناس ، و هذا ما ستقدمه وسائل إعلام البارون للمسلمين قريبا.

سيوحد إعلام البارون كل العامة في بلاد المسلمين ، و سيجعل منهم نموذجا لإنسان غجري واحدا ، سنعلمهم كيف يستيقظون و كيف ينامون ، و بماذا يحلمون ، و سنلقنهم طريقة التحدث مع بعضهم ، حتى الشتائم التي سيتبادلونها نحن من

سيختارها لهم ، سنعلمهم كيف يبيعون و ماذا يشترون ، و كيف يتزوجون و كيف ينجبون ، و كيف يربون أطفالهم ، و كيف يعاملون كبار السن و الجيران و المدرسين و ذوي الهيئات ، و ما هي اللهجة و ما نوع الألفاظ التي يتحدثون بها إلى كل صنف من البشر من حولهم.

حتى القبح و الجمال نحن من سيحدد مواصفاته ، ستكون طواقمنا الطبية جاهزة لتغيير وجوه أولئك المشاهير و العظماء الذين تقدمهم وسائل إعلام البارون ، حتى يصبحوا "معبودات العامة" ، و جميع هؤلاء ستكون صور وجوههم ، و تسريحات شعرهم و ألوان عيونهم و طول رموش تلك العيون ، حسب المواصفات التي نحددها ! لدرجة أن من سيراهم سيظن أنهم أقارب من أسرة واحدة تتبع أبا صارما في تحديد سلوكيات ذريته ، سنقضي على الإعتزاز بالتميز بين العامة ، بل سنجعله عارا ، و سيصبح التقليد الأعمى و التماهي مع تيارات الغوغاء هو ما يفتخر به العامي المسلم ، و ما يسعى ليمارسه بكل جهده ، حتى لا يكون محل احتقار المجتمع من حوله.

على هامش هذا المؤتمر المفصلي تبادلنا الحديث مع البروفسور ريكارد ، و سألته : طالما أننا قادرون على صناعة نسخنا الخاصة من سائر الديانات لماذا لا نستبدل الديانات الحالية بنسخنا المصنوعة ، بدلا من الكفاح المير ضد التدين ؟!.

أجابني قائلا : يا عزيزي إنما الوصايا العشرة ، لن نستطيع أن نلغيها جميعا من أية نسخة نصنعها لأية ديانة كبرى ؛ كولونيل مهران : البشر جميعا على اختلافهم و تنوعهم يوجد في نظامهم النفسي نقاط مشتركة تجدها لدى كل إنسان ، هذه النقاط إن لمسناها أو حركناها لدى أي شخص لا على التعيين سنجد أنه يصدر ردة الفعل ذاتها التي يصدرها أي إنسان آخر لمسنا منه نفس النقطة ، هذه النقاط نحن نعرفها جيدا ، و نعرف كيف نلمسها جيدا عبر أسماع و أنظار البشر ، إلا أن هذه النقاط يمكن أن تغطي تماما بغطاء سميك من العقائد الدينية المثالية ، هذه العقائد تحمي هذه النقاط من التأثير لدى لمسها ، و بالتالي فإننا عندما نلمس هذه النقاط لن تصدر عن البشر ردات الفعل الطبيعية الغريزية !! سأضرب لك مثلا : إن جميع البشر يطمعون بالربح السريع و الوفير ، فلو أننا عرضنا مادة تموينية ضرورية للبيع بشكل إستثنائي و بسعر رخيص في أماكن محددة و لوقت محدد قصير ، سنجد أن العامة يتهافتون لشرائها ، فإن كانوا متدينين و كرماء النفس و متمسكون بالوقار و الحياء ، سنجد أن معظمهم يشتري فقط كفايته لمدة مستقبلية قصيرة ، و لن يبذل معظمهم ماء وجهه ليخترق الزحام ليحصل على المزيد ، أما إن فقد هؤلاء العامة حياءهم و كرمهم و وقارهم فإنهم سيقبضون على منفذ بيع هذه المادة ليحصل أحدهم على أكبر كمية منها يستطيع الحصول عليها ، ليس لسد احتياجاته منها ، و إنما ليخزنها و يبيعها بسعرها العادي المرتفع بعد نفاذ الكمية الرخيصة الإستثنائية منها ، و عندما يقتتلون من أجل هذه المادة في منطقة معينة سنجد أن الفوضى ستدب فيها لفترة و سنستثمر هذه الفوضى في اتجاه آخر نريده ، بقية النقاط أخطر بكثير ، لقد درسناها لقرون

طويلة و طورنا وسائلنا لتكون أنجع و أسهل لنا للتحكم بجميع هذه النقاط عن بعد ، و لدى أكبر عدد من الناس في وقت واحد ، وسائل التحكم هذه معظمها إن لم نقل كلها إعلامية.

تناول البروفسور كأسا من الشراب المعتق و أشعل غليونه ففاحت منه رائحة التبغ الفاخر العطرة ، و أصلح جلسته ثم تابع :
يا عزيزي الكولونيل لقد إنطلق مشروعنا لتغيير العالم منذ ثلاثة قرون ، بعد دراسات عميقة و تغييرات ضخمة أحدثناها في المسيحية أكبر الديانات على وجه الأرض ، و استطعنا أن نستولي على كل المراتب الأرستقراطية في أوربة و لاحقا في أمريكا ، حتى تمكنا اليوم من جعل هذه المراتب كفنادق الدرجة الممتازة تستضيف أسرا مسيحية لفترة ثم يتم طردهم لاحقا لتحل محلهم أسر أخرى نختارها بعناية ، ذلك أننا أفقدنا الأرستقراطية قدرتها على السيطرة على العامة في العالم المسيحي ، لقد انتقلت السيطرة على العامة إلى وسائل إعلامنا و نحن نتحكم اليوم بالعامة المسيحيين و غيرهم في كل أرجاء العالم من خلال ما يشاهدونه و يسمعون و يقرؤونه من منتجاتنا الإعلامية فقط ، لقد استطعنا بعد كفاح قرون جربنا خلاله كافة الوسائل و قدمنا فيه توضيحات غالية أن نصل إلى تعرية نقاط التحكم الحساسة عند الإنسان في أوربة و أمريكا و معظم آسيا و إفريقيا ، و صار الإنسان هناك يتصرف بشكل تلقائي بطريقة الإنسان العجري الغريزية ، و صرنا نتحكم بتصرفات الأمم بأسرها من خلال التحكم بهذه النقاط ، تماما كما يتحكم طفل صغير بسيارة كهربائية تقاد عن بعد ، لكننا واجهنا الإسلام العنيد خلال القرن الماضي فقط ، و بما أن نجاحاتنا في العالم المسيحي و ما يتبعه جعلت وسائلنا لتحطيم التدين و أكثر قوة و نجاحا و سرعة في تحقيق المطلوب و هو إزالة العوائق بين أجهزة البارون روبرت و بين نفوس العامة ، فإنني أؤكد لك بحزم أننا سنحصل في العالم الإسلامي على نفس النتائج التي حصلنا عليها في العالم المسيحي خلال العقد القادم فقط.

قلت : لماذا إذا تجربة الجيش الأسطوري ؟.

قال البروفسور ضاحكا : عزيزي الكولونيل ، عندما نريد أن نلقح مريضا ضد مرض فتاك ، نقوم بإدخال جراثيم ضعيفة تسبب هذا المرض إلى الجسم ، فينهض إليها جهاز المناعة فيقتلها ، و هكذا ينتصر الجسم على المرض المزيف و ينتج المصل المضاد الذي يقتل المرض الحقيقي.

نظرت إلى البروفسور بحيرة !! فابتسم و تابع : أفهم حيرتك ، نحن سنعكس العملية ، لأننا نحن من يدخل المرض إلى الجسم ، فإننا سندخل إلى الجسم جراثيم قوية تبدو ضعيفة ، فينهض إليها جهاز المناعة و ينتج المصل المضاد لجراثيمنا ، لكن هذا المصل لن يقتل جراثيمنا و إنما سيضعفها فقط ، عندها ستطور جراثيمنا ووسائلها للحماية من المصل ، و سيعجز جهاز المناعة عن حماية الجسم فيسقط مريضا بجراثيمنا ، يا عزيزي هل تظن أن أوربا و المسيحية لم تقاوم هجماتنا بعناد ؟ لقد أنشأنا في أوربة إمبراطوريات أسطورية كاملة لا تؤمن إلا بكرهيتنا ، و قضينا عليها بضربها من داخل قلاعها فتهافت أسرع من أنبية الدومينو ، و بشكل مروع أربع العالم كله فتخلى الجميع عن فكرة مقاومة سيطرتنا على مفاصل كل شيء في حياتهم.

هزرت رأسي مؤكدا فهمي لعبقرية الفكرة و بساطتها.

هذا اللقاء السنوي الذي حضرته جاء بعد حرب كسار بعامين و بضعة أشهر ، عدت بعده إلى البلاد و معي مهمة كبيرة ، ملخص هذه المهمة كان : الإحتكار . و هدف المهمة كان مساعدة أجهزة إعلام البارون روبرت الناطقة بالعربية على أداء مهمتها بنجاح في توحيد العامة في بلادنا ليكون كل منهم وفق نموذج موحد لإنسان غجري صعلوك.

بدأت العمل على تنفيذ المهمة بإجتماع كبير للأسر الحاكمة حضره البروفسور آلان أستاذ الإقتصاد العظيم ، و تحدثت أنا نيابة عن البروفسور للمجتمعين شارحا المهمة :

يوجد في البلاد مئات آلاف المحلات التجارية ، و كلها تبيع سلعا و خدمات ، يجب ألا يباع في هذه المحلات أي شيء سوى بضائعكم.

أما كيف يتم هذا ، فجوابه : سنجر كافة أصحاب رخص إستيراد البضائع المصنوعة و المواد الأولية على عقد شركات معكم ، و سيكون جميع المنتجين لبضائع محلية مجبرون على تسويقها لشركاتكم فقط ، هذه الشركات سيكون لكل منكم الحصة الكبرى في عدد منها ، و سيصبح جميع التجار و الصناعيين عندكم كالموظفين الأجراء ، و حتى تلك المواد التي تستوردها مؤسسات الحكومة ستسوق حصريا عن طريقكم ، لأن شركات لكم ستوقع عقود إحتكار النقل و التسويق مع هذه المؤسسات و لمدة غير محددة.

أيها السادة سيتخصص كل منكم ببيع و تسويق أنواع من السلع و الخدمات ، و سيتم عن طريقكم فقط تحديد أسعار هذه السلع و الخدمات في جميع أسواق البلاد ، و لن يسمح لأحد ببيع أية بضاعة بالجملة في كل البلاد ، تجارة الجملة ستكون كلها محتكرة بأيديكم.

طبعا أنتم تعرفون جيدا أن أرباح شركاتكم سيتم تحويلها لحسابات في أورو ، و ستعزل حصصكم في حساباتكم الخاصة بتقاعدكم الباخذ.

هذا القسم سيتم إنهاء تنفيذه خلال خمسة أعوام فقط .

القسم الثاني : إحتكار العقارات ، و العقارات بالنسبة لنا هي الأرض فقط ، و سيتم تحقيق إحتكار ملكية العقارات و جمعها في أيديكم خلال عقد و نصف أو عقدين على الأكثر تبدأ اليوم ، و الخطة بسيطة ، سترفع أسعار العقارات بطريقتنا المعتادة ، سنضخ أموالا و نشترى بضعة عقارات في كل مدينة بأضعاف ثمنها ، ثم نتنظر لترتفع أسعار علب الإسمت المتراكبة التي يسميها العامة "عقارات" ، بعدها سيغلي السوق بالمشتريين و سيخرج الناس مدخراهم للإستثمار في العقارات ، و لكنهم

سيشترون بها عقارات قليلة تستهلك معظم هذه المدخرات بسبب الغلاء ، بعدها بعام واحد أو أكثر بقليل سنحبط السوق بعمليات بيع خرافية ، و سنعرض كميات كبيرة من العقارات التي نملكها بأسعار تافهة ، نحن من سيشتري هذه العقارات عبر وسطاء لنا ، ثم تنهار الأسعار ، لكن لن يكون العامة قادرين على شراء العقارات الرخيصة ، و سيفزع الجميع من إستهلاك مدخراتهم في سوق هائل ينهار المعروض فيه ، إلا نحن بالطبع ، فإننا سنقوم بحصاد كميات ضخمة من العقارات بأسعار تافهة ، ثم سنكرر رفع الأسعار ، ثم نخفضها ، و هكذا حتى نحتكر الملكية العقارية في مراكز المدن و في النقاط الحساسة و في المناطق الخصبة المروية جيدا.

بعد حرب كسار دخلت بلادنا و المنطقة كلها في عقد كامل من التحولات ، خلال هذا العقد تغيرت مظاهر مراكز المدن الكبرى و المدن المتوسطة الحجم ، هذه التغيرات في المظاهر صاحبها تغيرات كبيرة في طرق المعيشة و توزيع الثروات ، و أشكال التبادل التجاري و الإنتاج الصناعي ، و لقد لخص لي أحد المستشارين الأوربيين في تقرير شامل له كافة هذه التحولات ، سأعرض بعضا مما ورد فيه :

على الصعيد الطبقي تضخم كثيرا حجم الطبقة الفقيرة ، و صارت كلها من المسلمين و خلت تماما من أبناء الأقليات الدينية بأنواعها ، و تأكلت الطبقة المتوسطة حتى صارت لا تزيد عن خمس عدد السكان ، و صار أكثر من نصف هذه الطبقة من أتباع الديانة السرية ، و بقي حجم الطبقة الثرية على حاله ، إلا أن أبناء هذه الطبقة تبدلت هويتهم تماما و صارت غالبية تسعة أعشارهم من غير المسلمين ، و انحصرت كافة الثروات الضخمة في أيدي الأسر الحاكمة و أتباعها الأوفياء في مختلف المدن و الولايات.

اقتنع أغلب المسلمين بهذه التغيرات و تعاملوا معها بواقعية ، و بعد أن كان جميع الخدم و العاملين في التنظيفات و الأعمال الدونية من أتباع الديانة السرية و بقية الأقليات الدينية ، صار جميع العاملين في هذه المهن من المسلمين ، خاصة من أبناء الريف الذين انخدعوا بموجة التوظيف التي بدأت قبل عقدين من الزمن ، ذلك أن رواتب هذه الوظائف لم تعد كافية لإطعام أسرة أكثر من بضعة أيام ، و تضاعفت كثيرا عوائد الرشاوى ، فجميع الموظفين تقريبا صاروا يطلبون الرشاوى علنا من زبائنهم ، و نصف السكان من الموظفين ، و لهذا فإن الرشاوى التي تجبى لا تلبث أن يتم دفعها و تداولها كرشاوى مرة أخرى !.

لمزيد من السخرية من العامة قامت الحكومة بمنح زيادات كبيرة و متتالية في رواتب الموظفين ، و في نفس الوقت كانت تفرض زيادات كبيرة على أسعار المواد الأساسية ، زيادات الأسعار كانت تلتهم بسرعة البرق زيادات الأجور و تمحو آمال العامة بفترة من البحبوحة أو حتى بفترة من الراحة من الضنك و لو لشهر واحد.

في هذه الفترة فقد أكثر من ثلث السكان من المسلمين أملاكهم العقارية ، السبب كان ضغط المديونية و العجز الكبير عن القدرة على سد الضروريات ، هذه الأملاك تم تداولها حتى استقرت في أيدي الأسر الحاكمة ، معظم هذه الأملاك كانت في

مراكز المدن ، بعد نهاية تنفيذ هذه الخطة كانت مراكز كافة المدن الكبرى قد صارت مملوكة لهذه الأسر بكافة تفرعاتها و أعضائها الجدد.

بسرعة تم هدم المباني القديمة في مراكز المدن و حلت مكانها مباني أخرى كبيرة و ضخمة ، معظم هذه المباني كان خاليا فعليا و لا يستخدم لغرض تجاري أو خدمي ، في كل يوم يتم بيع أو تأجير أجزاء من هذه المباني ، ثم ما تلبث هذه الأجزاء أن يتم بيعها و تداولها بأسعار أكبر ، دون أن تستخدم لشيء أو تستثمر في شيء ، لأن مالكيها و متداوليها هم فقط أبناء الأسر الحاكمة ، لقد تم نصب هذه المباني الضخمة لإدخال الرهبة في نفوس الجميع ، و حتى يشعر كل من يراها بأنه مجرد قرم تافه يواجه عملاقا عاتيا لا يرحم ، الغاية الثانية كانت التحكم بأسعار العقارات و جعل هذه الأبنية لوحة التحكم بتقلبات السوق العقارية ، لقد تورط بعض الأثرياء من غير أبناء الأسر الحاكمة في شراء أو محاولة استثمار بعض هذه الأبنية في موجات ارتفاع الأسعار ، إلا أن الأمر انتهى بهم إلى خسائر هائلة جدا جعلتهم يتخلصون من هذه الأملاك بأسعار زهيدة في فترات انخفاض الأسعار مجددا ، و هكذا بقيت أبنية مراكز المدن مناطق مرعبة للمتسوقين و للتجار المسلمين ، و مراكز للترفيه و التسوق و التسكع للأثرياء من أبناء الأقليات.

من شوارع البلاد كلها اختفت تلك اللوحات المرسومة بالخطوط العربية الجميلة التي كانت تعلو بوابات المتاجر ، و حلت محلها لوحات كهربائية ملونة لا يستطيع الناظر إليها تمييز موضوعها ، فاللوحات المنصوبة أعلى أبواب المطاعم هي نفس اللوحات المنصوبة في أعلى أبواب الورشات الميكانيكية ، أو في أعلى أبواب عيادات الأطباء أو الصيدليات ، اختفى في شوارع البلاد كل أثر لذلك التنوع و الترتيب و التناسق الجمالي الذي كان يضاهي جمال الشوارع الكبرى في أوربة ، اختفت الواجهات الخشبية الكلاسيكية المزخرفة ، حلت محلها الواجهات المعدنية و الزجاجية الضخمة ، هذه التغيرات في المظاهر من البساطة و اللين و الدفء إلى التعقيد و القسوة و البرودة إنتقلت إلى الناس ، لقد صار التسول و التشرذ منظر عادي بالنسبة للعامة من المسلمين ، و لم يعد للرحمة و اللين مكان في معاملاتهم ، ذلك أن سلوك الأغنياء هو الذي يطبع سلوك عامة المجتمع ، و الأغنياء صاروا جميعا من أبناء الأقليات الحاقدين حد الموت على العامة من المسلمين ، و هؤلاء الأغنياء صاروا يتلذذون بإذلال من يلجأ إليهم أو يعمل في خدمتهم من خصومهم التاريخيين ، بدورهم راح هؤلاء المُستذلُّون من المسلمين يمارسون الإستذلال على من هم دونهم أبناء ديارهم نفسها، منذ تلك الفترة أصبح احتقار الفقراء و الإمعان في استذلالهم و تسخيرهم سلوكا عاديا جدا يفاخر المسلمون بممارسته على بعضهم البعض ، لقد تحولت الحياة إلى ما يشبه الحياة في نيويورك في بداية القرن العشرين ، مزيج من الرعب و الخوف و الفقر و المرض و الذل و الحرمان المزمن هو الجرعة اليومية التي يجب على أي إنسان من الغالبية المسلمة تناولها في بلادنا ، بغض النظر عن جنسه و عمره ، بينما صارت اللذة و المتعة

و التبخر و التعالي و استدلال أحد ما من المسلمين الوجبة اليومية التي لا بد أن يتمتع بها أبناء الأقليات الدينية ، بغض النظر عن أعمارهم و أجناسهم و انتماءاتهم.

في نفس الفترة تحول الإعلام كله تقريبا إلى ما يشبه "الهايد بارك" ، و صار يتحدث بسخرية مرّة عن هذه التغييرات نحو الأسفل ، و تناول هذا الإعلام في نقده و سخريته كل شيء بصراحة تقريبا باستثناء موضوع اضطهاد المسلمين طبعاً ، بذلك أدى مهمات كثيرة حسب الخطة الموضوعة :

لقد ساعد أولاً على تسهيل هضم هذه الدفعة الهائلة من الإضطهاد الجديد المطبق على الغالبية ، و ذلك بإشعار كل واحد من الناس أن هذا الإضطهاد لا يستهدف أتباع ديانة أو مجموعة بعينها ، و إنما هو عاصفة من الفساد الناتج عفويا عن سوء التخطيط الحكومي ، و أيضا فإن الناس صاروا يتفرون على الإعلام يسخر من مآسيهم و راحوا يضحكون على عذاباتهم مع مهرجي "الكوميديا الناقدة" !.

موجة إعلام "هايد بارك" هذه بُنّت عبر محطات التلفاز الدولية العربية الجديدة ، لقد بدت و كأنها صوت المعارضة الصادق للمنظومات التي تستبعد كل كيان الإنسان العربي ، و تحدثت بوضوح شديد وقح عن معاناة الناس و عن أسبابها ، و لكنها أرشدت المتابعين إلى الإحتجاج على هذا الواقع البشع بتبني سلوك "الغجر" ، و ممارسة هذا السلوك كنوع من الإحتجاج الساخر الفج و كتعبير على السخط مما يحصل ، فمثلا الإنسان الذي كان يدخل في ضائقة كان يستحي من الإقتراض أو من أن يظهر فقره للناس ، و لكن الإعلام نجح في إسقاط هذا الحاجز و جعل التذلل للحصول على المبتغيات و الإحتياجات أمرا عاديا لا يدعو للخجل و لا يسبب الشعور بالعار ، و صارت الإستدانة و جحود الدين نوعا من السلوك الإحتجاجي المبرر على العوز ! و بعدما كان الصديق يداري الفقر و العوز عن صديقه صار يجاهر به ، و يجاهر بحسده لصديقه إن رأى عليه أثر نعمة أو مجبوحة ، صار كل أحد ينتهج هذه السلوكيات لمجرد أنه رأى هذا في مسلسل أو تمثيلية ساخرة ، و هكذا حصل مع سائر السلوكيات التي كان تغييرها مطلوبا في شخصيات الأفراد و في أدبيات المجتمع.

لقد نجح هذا الإعلام بمهرجيه العباقرة في إقناع الإنسان المسلم في بلادنا و بقية البلاد ، بأن عليه أن يرضى باستعباده ، و إن تبرم من هذا الإستعباد فأفضل ما يفعله هو أن يسخر من آلامه ، و أن يتحلل من قيود المحرمات الدينية و الأخلاقية ، و أن يبحث عن وسيلة للفرار من بلاده إلى أي مكان آخر ، لأن جميع إستعراضات و تمثيلات الكوميديا الناقدة كانت تقدم للمشاهد في نهاية كل رواية و قصة واحدا من هذه الحلول للخلاص من المعاناة ، مع التئيس المطلق من إحتمال تغير الأوضاع نحو الأفضل و إلى الأبد.

بعد عقدين من الزمن استولى السلوك "العجري" على تسعة أعشار المناخ الاجتماعي القائم ، و حقق تحولا فجاً و فصلا واضحا عموديا عميقا جدا بين جيلين صارا مختلفين في كل شيء ، جيل ما قبل إعلام قنوات التلفزة الدولية و جيل ما بعد ظهور هذه القنوات، حتى بات الكهول و الشيوخ يستنكرون ما يرونه من التحولات في تصرفات و أفكار الشباب و اليافعين و النساء عموما ، و انقلب استنكارهم إلى دهشة العاجز الذي يحتج على الفظائع بالصمت و الترفع و الأسف.

بدأت أيضا إستعراضات إعلامية جديدة تسمى "الإستعراضات الحوارية" ، هذه الإستعراضات بدت للجميع نوعا من الحرية و الإنطلاق من قيود الإعلام الإستبدادي المغلق ، نوقشت خلال هذه الإستعراضات قضايا التدين و التمسك بالأخلاق الدينية فقط ، كلها كان عملها إبراز التدين و ممارسته بطريقة تجعل المتدينين يبدون أشخاصا مقرفين و مجرمين و معقدين نفسيا ، فمثلا يعلن الإعلام عن إكتشاف رجل متدين حبس ابنته و عذبها مدة خرافية ، ثم اكتشف أمره ، ثم ظهر في الإستعراض الحواري و هو يناقش مذيعة شبه عارية ، و توجه له هذه المذيعه أبشع السباب ، و يدافع هو عن نفسه بترداد أنه تمسك بمبادئ دينية معينة ، و بعدها ينتقل الإستعراض الحواري ليظهر فيه شيخ يرتدي عمامة و لا حول له و لا قوة و يحاول عبثا أن يصد هجمات هذه المذيعه شبه العارية على الدين ، و يبدأ بإدانة هذا الأب المجرم بأنواع الإدانة و يتحدث للمذيعه و كأنه متهم يدافع عن نفسه أمام قاض ! و الحقيقة هي أن الإستعراض كله تمثيلية معدة و مدفوعة الأجر لكل من شارك فيها ، بينما تقدم هذه المحطات الإستعراضات الحوارية مع المهرجين و المغنين و المغنيات و الممثلات ، و ترى المذيعات يتحدثن إلى هؤلاء المهرجين و المغنين و كأئمن عابدات في كنيسة يتوسلن إلى إحدى أيقونات الصلوات المسيحية المقدسة !.

بفضل هذه الإستعراضات انتقلت مناقشة العقائد الدينية و المبادئ الأخلاقية و الفتاوى القانونية الإسلامية ، من محارب و منابر المساجد لتكون مهمة فرق بث "الإستعراضات الحوارية" ، و كنوع من إظهار الإنصاف أنشأت محطات دينية دولية عربية ، هذه المحطات قدمت للناس نجوما جددا ليسوا للأفلام و المسرحيات و لكن للخطابة الدينية ! ، هؤلاء النجوم كانوا يتحدثون عن الدين بطريقة جذابة و جديدة ، و لكنهم كانوا يتحدثون عن دين يشبه في ظاهره فقط الإسلام ، و لا يتضمن أي شيء من مضامين هذا الدين ، أو حتى أي دين ، يتحدث هؤلاء النجوم عن العقائد و عن التنبؤات المستقبلية و عن نهاية العالم ، و عن العالم ما بعد الموت و عن الأعمال الصالحة و عن مثالية النفس و عن أشكال الملائكة و عن أشكال زوجات الصالحين بعد موتهم ، و لكنهم لم يتحدثوا و لا يتحدثون أبدا عن ما يواجهه الإنسان المسلم من معاناة و مشاكل حقيقية ، لأن مناقشة هذه المشاكل من إختصاص القنوات التلفزيونية الأخرى التي تبث الإستعراضات الترفيهية و صور الفتيات الجميلات هن يتمايلن على أنغام الأغنيات "العجرية" و يبدن أجزاء جذابة من أجسادهن الفاتنة ، و هذه القنوات الأخرى تناقش المشكلات بنفس طريقة الإستعراضات الترفيهية.

قد يناقش نجوم الخطابة الدينية مشاكل الناس اليومية و معاناتهم ، و لكنهم يقدمون دوما لهذه المشاكل حلولاً خيالية عجيبة مستخدمين نصوصاً دينية مقدسة و قصصاً عجيبة قديمة لتبرير هذه الحلول ، فمثلاً قد يناقش هؤلاء النجوم مشكلة تأخر سن الزواج و الصعوبات الهائلة التي تواجه الشباب الراغبين في تأسيس أسرة ، إلا أنهم يقدمون حلولاً لهذه المشكلة من مثل أداء عبادات أو تلاوة أدعية!.

المخططات الدينية كانت لها أيضاً إستعراضاتها الحوارية ، هذه الإستعراضات يقدمها نجوم الخطابة الدينية هؤلاء ، إلا أن جميع هذه الإستعراضات تنتهي دوما بإعلان هؤلاء النجوم عن : "إباحة أمر ما محرم في الدين" ، طالما توارث الناس كابراً عن كابر البقن بتحريره ، و بتأكيد هؤلاء النجوم على أن الأجيال السابقة من المشايخ و المتدنين كانوا جهلة و فهموا العبارات التي أشارت لتحريم هذا الأمر الآن فهما خاطئان إنطلاقاً من توجهه للتعزمت و الظلامية كان سائداً في الماضي !!.

لقد مهدت هذه المخططات بنجومها هؤلاء كل السبل لنشوء جيل جديد متدين ، يؤمن بأن المسلم الصحيح هو من يعطي ما لله الله و يعطي ما لقيصر لقيصر ، و أن المسلم الصحيح هو الذي لا يدين و لا يحارب حتى ما يتيقن أنه محرم في دينه ، لأن هذا المحرم لا بد و أنه حلال في الدين إن نوقش بطريقة ما لعل هذا المسلم الطيب لا يعرفها ، لكن لا بد و أن أحد نجوم الخطابة الدينية المشهورين يعرفها.

أظرف التحولات التي قدمها إعلام المخططات الدولية العربية ؛ كان تحول شهر رمضان إلى ما يشبه مهرجانات المدن البرازيلية و الإسبانية في الصيف ، فرمضان أصبح موسم المسرحيات و المسلسلات الجديدة بأنواعها ، خاصة الكوميديا الناقدة ، هذا عدا الحفلات الراقصة و كل جديد في عالم الترفيه ، و صارت الأغاني الأكثر فتنة و إغراء جنسياً تبث في رمضان ، حتى أن إحدى نجومات هذا الإعلام الفاتنات و هي مسيحية إختترت للمسلمين تحية رمضان خاصة برمضان بدل تحيات الإسلام المعتادة ، و صارت شائعة كسائر التحيات الدينية ، رمضان كريم .. الله أكرم ..

في نفس هذه الفترة كانت ثلاث دول في المنطقة تتبنى كل منها نسخة مصنوعة للإسلام ، فمملكة الجزيرة العربية تبنت النسخة النجدية ، و البلد الإفريقي العربي المجاور للجزيرة العربية تبنت نسخة الجمعية الإسلامية ، و البلد الآسيوي الغربي كان يتبنى نسخة الديانة السرية بأنواعها.

جميع المخططات الدينية العربية الدولية كانت برعاية إحدى هذه الدول ، و جميع نجوم الخطابة هؤلاء كانوا موظفين لدى وزارات الشؤون الدينية لهذه الدول ، كل واحد من نجوم الخطابة الدينية في هذه المخططات كان يدعو الناس لتبني نسخة مصنوعة للإسلام من نسخ منظوماتنا ، و هو في نفس الوقت يشن الحرب على أتباع و أفكار بقية النسخ الأخرى و على التدين التقليدي الشائع ، إلا أن الجزء الأكبر من حربه هذه كانت على التدين التقليدي و تراثه و مشايخه.

انتهى الإقتباس من التقرير الآنف .

في أجواء كهذه بدأ العمل في تلك الفترة على إطلاق النسخة الثانية من الجيش الأسطوري ، و كانت الدول الثلاث الآنفة بالإضافة إلى بلادنا و بلاد خراسان مركز العمل على هذا المشروع الكبير .

في نفس العام الذي أقرت فيه خطة البارون روبرت ، و بالتزامن مع إطلاقه لخطته الإعلامية الكبرى ، حضر إلى عاصمتنا وفد سري من المشايخ الرسميين للنسخة النجدية للإسلام (صنعتها منظومتنا) ، هذا الوفد كان يتضمن عددا من ضباط مخبرات مملكة الجزيرة العربية و عددا من المستشارين الأوربيين ، التقيت الوفد في قصري المطل على الساحل و هناك عقدنا لقاءات كثيرة حضرها المفتي الجمعي و عدد من كبار مساعديه ، كانت مهمة الوفد التوصل إلى آلية لنقل النسخة النجدية إلى بلادنا ، في نهاية الإجتماعات اتفقنا على ما يلي :

أولا - يتجنب مشايخ النسخة النجدية (الرسميون) التعرض لنظام الحكم عندنا و لأتباع الديانة السرية بشكل علني و إلى أمد غير محدود.

ثانيا - يعود إلى بلادنا عدد من مواطنينا الشباب المقيمين في الجزيرة العربية ، هؤلاء الشباب كانوا قد درسوا جيدا منطق النسخة النجدية و الدعوة إليها ، و هم ماهرون في تفريع أفكارها إلى مناهج متناقضة في النتيجة متفقة في المقدمة ، سيكون عملهم نشر هذه الدعوة و تنظيم إيصالها إلى أطراف المدن و الأرياف و العشائر البدوية ، و سيتلقون دعما ماليا و بالمطبوعات و المواد الإعلامية مباشرة من سفارة مملكة الجزيرة.

ثالثا - يمنح هؤلاء الدعاة و كافة دعاة هذه النسخة حصانة من ملاحقة و مضايقات مخبرات بلادنا لفترة طويلة تنتهي بإشعار آخر.

رابعا - يمتنع الجمعي و كافة أتباعه عن الرد و لو بكلمة واحدة على هذه الحملة الدعوية، و يمتنعون من إنتقاد النسخة النجدية و الرد على ادعاءات منظريها ، و يعمل الجمعي على إقناع المشايخ بأن خير رد على أتباع النسخة النجدية هو تجاهلهم.

خامسا - بالإضافة إلى أتباع النسخة النجدية يسمح لأتباع الجمعية الإسلامية بالعودة إلى مزاولة نشاطات الدعوة في بلادنا ، لكن بطريقة سرية ، و غير ذات طابع تنظيمي حزبي كما كان الأمر في الماضي .

سادسا - يمنع أتباع الجماعات و الأحزاب اللادينية من الدخول في حوارات و صدامات مع القائمين على هذه الحملة الدعوية.

سابعاً - يسمح فقط لأتباع الديانة السرية بالدخول في مناظرات و حوارات علنية مع أتباع النسخة النجدية ، على أن تكون حوارات مكتوبة و مطبوعة فقط ، مع الحرص الشديد على تجنب أية إحتكاكات شخصية بين الجهتين.

هذا الإتفاق دخل حيز التنفيذ فور التوقيع عليه ، ثم تسلمت قوائم بأسماء الدعاة الذين سيقومون بالحملة ، كان معظمهم من الشباب الصغار الذين لم يجاوز أحدهم الثلاثين عاما ، كلهم كانوا ملتحين جدا و حاصلين على درجات عالية من جامعات مملكة الجزيرة و أوروبا في اختصاصات كالطب و الهندسة و الكيمياء ، و هم موزعون بعناية على كل مدن البلاد و مناطقها ، و لقد بلغ عددهم المائة تقريبا ، و تم تعيينهم مسبقا في وظائف هامة في شركات خاصة تملكها أسرنا الحاكمة ، إلا أنهم كانوا في الواقع متفرغين لمهامهم الدعوية.

كان هؤلاء الشباب جزءا من مجموعة كبيرة ملأت المدن الرئيسية في مملكة الجزيرة ، هذه المجموعة الكبيرة كانت تتبع نظريا لأعلى مجلس للإفتاء الرسمي في ذلك البلد ، إلا أن الواقع أن قادتها كانوا جميعا من مجموعة من الكهول الذين تم تجنيدهم في معابد الحرية أثناء زيارتهم لإمارة عربية مجاورة ، هؤلاء الكهول كانوا نجوما في الخطابة ، ماهرون في التمثيل و لغة الجسد و التلاعب بالصوت و إنتقاء العبارات ، و العزف على أوتار العمامة الحساسة ، و لقد قاموا بمهمة إطلاق الموجة الأولى من النسخة الثانية للجيش الأسطوري دون أن يعلموا.

خلال لقائي بذلك الوفد من المشايخ و ضباط مخبرات مملكة الجزيرة حصلت على ملخص لخطة هذه الموجة ، كان البارون ريكارد قد أعطاه للأمير رشيق قائد مخبرات تلك المملكة و كلفه بنقله إليّ ، هذا الأمير هو نظيري في الجزيرة العربية ، أسرته المالكة كلها من أقارب البارون و لكن للأمانة أقول: أن رشيق بقي دوما لمعهم و أشدهم ذكاء و دهاء ، و قدرة على الإقناع و تنفيذ و صناعة الخطط.

ورد في تلك الوثيقة :

1 - سيبدأ نجوم الخطابة في مملكة الجزيرة بحملة كبيرة ضد القنوات التلفزيونية العربية العابرة للقارات ، هذه الحملة ستتركز كثيرا على العروض التي تدعو لإباحة العلاقات الجنسية خارج الزواج ، و على العروض التي تؤديها ممثلات و مذيعات و مغنيات يعتمدن الظهور بمظاهر مثيرة جنسيا و مستفزة ، سيستخدم هؤلاء الخطباء عبارات تحريضية قاسية جدا ، تصل إلى درجة الحكم على كافة حكام الجزيرة بالخروج من الإسلام ، و تحمل في طياتها الدعوة إلى العنف في مواجهة هؤلاء الحكام.

2- أثناء هذه الحملة سيبدأ الشيخ "فراس" - من شباب إحدى الأسر الحاكمة في مملكة الجزيرة - بإعادة تجنيد العائدين من خراسان من أبناء الجزيرة في تنظيم سري قوي و ممول جيدا ، و جديد و معادٍ جدا لنظام حكم تلك المملكة ، سيجند فراس إلى جانب العائدين عددا كبيرا من الشباب المتحمسين المتأثرين بحملة "الخطباء النجوم" الآنف الذكر ، فراس سيعمل بترتيب

و سرعة مستغلا علاقاته المباشرة مع جميع هؤلاء الخطباء ، و إنطلاقا من أنه كان مندوب الأمير رشيق في حرب خراسان ، و كان المسؤول عن تمويلات المعسكر الذي كان يؤوي المتطوعين العرب في الحرب ضد الشيوعيين و كانوا منه يلتحقون بسائر تنظيمات "الجمعية الإسلامية" في ذلك المصير المنكوب.

3- بعد عامين من بداية الحملة و إكمال حشد أعضاء التنظيم تبدأ المرحلة الثانية من الخطة ، ستقوم الحكومة في مملكة الجزيرة باستفزاز جماعات المتدينين و أتباع الخطباء ، و ستعتقل عددا كبيرا من هؤلاء الخطباء و عددا آخر من أتباعهم ، ثم ستبدأ بعض المظاهرات التي ستقمع و لن تستمر طويلا لكنها ستكون ذريعة لإرساء دعائم دول بوليسية تماما في سائر بلدان الجزيرة العربية على غرار الجمهوريات العربية الأخرى التي يحكمها جنرالات الجيوش.

بعد قمع المظاهرات مباشرة سيغادر الشيخ فراس و جميع أفراد تنظيمه الجديد إلى البلد العربي الإفريقي الذي تحكمه الجمعية الإسلامية و الذي أشرت إليه آنفا.

4- سيعلن الشيخ فراس خلال تواجده في عاصمة ذلك البلد العربي الإفريقي عن معارضته للأسرة المالكة في مملكة الجزيرة ، و سيبدأ حملة تحريضية ضد أمريكا و أوروبا كونها الراعية و الحليف لأسرة الجزيرة المالكة ، بعدها ستقع عدة انفجارات في عدد من عواصم دول إفريقية مسلمة ، هذه الانفجارات ستدمر مبان لسفارات أوروبية ، و سيُتهم الشيخ فراس بنتيجة التحقيقات بتدبير التفجيرات ، ثم سيغادر إلى خراسان ، و لإكمال المشهد ستقصف القوات الأمريكية مواقع حيوية تزعم أنها مملوكة لفراس في البلد الإفريقي .

5- هذه الخطة تهدف إلى تسويق فراس و جماعته من أتباع النسخة النجدية في داخل خراسان ، على أنهم أعداء ألداء لأوروبا و أمريكا و حلفائهما ، هذا التسويق غايته إيصال فراس و جماعته إلى مقرات قيادة "الدولة البتانية" و اختراقها تماما ، تلك الدولة التي نشأت في خراسان على أنقاض الجماعات المسلحة المتقاتلة التابعة للجمعية الإسلامية.

القوات القبائلية التي فرضت سلطة هذه الدولة البتانية على خراسان ، كانت قد نشأت عفويا بجهد قبائلي و بتوجيه و قيادة من مشايخ الإسلام التقليديين ، و بغفلة تامة من جميع مستشاري منظومات السيطرة الأوروبية ، لقد شكلت هذه القوة ثغرة هائلة في منظومة السيطرة على السند و الهند و خراسان التي تعتمد على سيطرة أتباع الديانة السرية على الجيوش و السلطة ، تكمن خطورة هذه الثغرة في التحالف غير المسبوق بين الأرستقراطية الخراسانية ممثلة بشيوخ العشائر و بين مشايخ الإسلام التقليديين ، هذا التحالف كانت الجمعية الإسلامية و منظمتها قد فككته على مدى أربعة عقود من الحروب المتواصلة ، و لقد شكلت عودة هذا الحلف خطرا كبيرا على سيطرة أتباع الديانة السرية على الهند و السند و خراسان ، لأن هذا الحلف نفسه كان قد دمر في الماضي دولا عدة لأتباع الديانة السرية في خراسان و بلاد فارس و غيرها و محايها من الوجود ، إذ يحمل

قادة و جنود هذا الحلف حقدوا لا يشبهه حقد على الديانة السرية و على أوروبا و أمريكا ، هذا الحلف أيضا تصدى في نهاية القرن التاسع عشر بقوة مذهلة للغزوات الأوروبية و حطمها تباعا ، إن عودة هذا الحلف وضع البارون في موقف لا يحسد عليه ، و كان لا بد من إحتواء الموقف الخطير .

بعد تردد كبير أوعز البارون إلى مخبرات دولة السند بدعم القوات البتانية الناشئة ماليا و تسليحها ، و ذلك بهدف إختراقها و التحكم بقرارات قادتها ، ثم أوعز بمنع الدعم عن قوات منظمات الجمعية الإسلامية ، ثم أمرها بالإنكفاء إلى جيوب بعيدة في أطراف البلاد ، و هكذا تمكنت القوات البتانية من السيطرة على كافة أرجاء خراسان بسبب هذا الدعم بعد نهاية حرب كسار بخمسة أعوام ، و أقامت دولة دينية ناجحة قدمت للخراسانيين أمنا و إستقرارا و نموا ذاتيا لم يكونوا يحلمون به لعقود خلت .

لقد كان قرار البارون هذا ترجيحاً لأهون الخطرين ، فمحاربة البتانيين وجها لوجه خيار إنتحاري تماما ، و سيكون سببا في تشقق سائر المنظومات التابعة للبارون ثم إنهاؤها لاحقا ، و أيضا فإن دعم البتانيين بهدف السيطرة عليهم ؛ خيار خطير ينطوي على مجازفات كبيرة بسبب عناد هؤلاء الرجال الذي لا مثيل له ، و بسبب وضوح أفكارهم و تنسيقها في أذهان قادتهم من كافة الرتب .

و لقد وقعت فعلا أعظم المحذورات التي كانت متوقعة من دعم الدولة البتانية بعد أربعة أعوام من نشوئها فقط ، فلقد أقدم قادة هذه الدولة على منع زراعة الخشخاش من سائر أراضي خراسان ، و كادوا ينهون صناعته نهائيا ، و بذلك جف طريق الخشخاش ، حتى كادت منظومات هذا الطريق و سائر التشكيلات السياسية و الإقتصادية أن تنهار ، و حتى اضطر البارون لإستخدام إحتياطات الخشخاش المخزنة منعا لكارثة كادت تؤدي بكل شيء في كل مكان .

لكن من حسن تدبير فريق البارون ياكوب أن جفاف طريق الخشخاش وقع بعد وصول الشيخ فراس و جماعته إلى خراسان بأربعة أعوام ، خلال هذه الأعوام كان فراس الثري و البار قد حقق إختراقات كبيرة داخل الدولة البتانية ، فلقد تمكن مع جماعته من إعادة الشقاق إلى الحلف بين القبائل البتانية و مشايخ الدين التقليديين ، و لقد كان سر نجاحه يكمن في إقناعه لعدد من قادة الدولة البتانية من المشايخ بتبني عقائد النسخة النجدية ، رغم أنه فشل في جعلهم يتبنون طريقة هذه النسخة في إستخراج القوانين الإسلامية ، هذه العقائد كانت كافية لتحقيق الشقاق المطلوب ، لأنها تصادم كل الموروث الديني التقليدي لقبائل البتان ، و لقد تسببت في نفور كبير بين قادة القبائل المتمسكون بموروثهم و بين عدد من قادة الدولة البارزين من الشيوخ الشباب الذين تسبب فراس بانقلابهم على تعاليم مدرستهم و أساتذتهم الذين يبغضون "نجد" و كل ما يأتي منها .

هذا الشقاق سيتعمق لاحقا إلى أن يصل إلى حد القطيعة ، عندها سيعلن فراس عن إنطلاقة النسخة الثانية من الجيش الأسطوري من خراسان في مشهد تمثيلي هائل سيحتل أذهان البشر جميعا ، سيكون هذا المشهد هو المغناطيس الذي يجذب الملايين من الشباب لأعتناق النسخة النجدية من الإسلام التي صنعها عباقرة منظومتنا منذ قرون ، و صمموها لتفتيت البنى الدينية للمجتمعات الإسلامية و إلى الأبد ، و سيكون هذا المشهد الذريعة للقضاء على الدولة البتانية بيد نفس القبائل التي ساندتها ، حتى تعود زراعة أنقى أنواع الخشخاش الطبيعي إلى الحياة في موطنها الأصلي "خراسان" و لتعود المتعة إلى شوارع و ملاهي أوربة و أمريكا رخيصة و مفيدة و لتعود الحياة إلى التدفق في عروق منظومات "طريق الخشخاش المقدس".

6- سيشكل فراس و مجموعته النواة و النموذج العالمي للجيش الأسطوري ، هذا النموذج الذي صممه البروفسور برنار لن يكون تنظيما عنقوديا ، و إنما سيكون "تنظيما خطابيا روحيا" ؛ ففراس سيتحول إلى بطل أسطوري حاضر في كل مكان ، و ستبث خطبه إلى كل العالم و سيسمعه الجميع من مسلمين و غير مسلمين ، خطبه ستتضمن سرا كبيرا و هو :

كل من يسمع لخطب فراس سيعتقد أن الانضمام إلى تنظيم هذا الشيخ الأسطورة لن يحتاج إلا لأن تؤمن بما يقول ، و دون أن تحتاج إلى الإتصال بالتنظيم سيستطيع كل من آمن بفراس أن يصنع تنظيمه الخاص ، تنظيم يؤمن بعقائد و أساليب و قوانين فراس ، و له نفس أهداف تنظيم فراس ، هذه الأهداف سيحددها فراس في كل مرحلة من خلال خطبه.

لن يكون على منظومات البارون و المخابرات أن توفر أجواء و أسباب منطقية لظهور فرق من الجيش الأسطوري في أي مكان ، فحيث يوجد شباب مسلمون سيكون ممكنا أن يظهر فجأة و دون مقدمات تشكيل عملاق للجيش الأسطوري ، تشكيل له جسد واحد و رؤوس متعددة مجهولة متنوعة الوجوه ، و سيضرب بعنف و قوة و بطش ، ثم و حين تنتهي مهمته سيتمزق هذا العملاق إلى أقزام بعدد رؤوسه ، ثم ستختفي الوجوه و الأسماء و سيعلن عن موتها و ستدفن دون جناز و لا مآتم.

خطة إنشاء النسخة الثانية من الجيش الأسطوري كانت إحدى الخطط العالمية الكبرى ، لتلك المرحلة التي تلت حرب كسار الكارثية ، بقية الخطط الكبرى كان نصيب منطقتنا منها الحصاة الأوفر ، لقد وضعت حرب كسار جميع بلدان الشرق العربي في محور كافة الأحداث في الإعلام ، في الشؤون الحربية و الأمنية طبعاً ، و في السياسة و الإقتصاد بأنواعه ، فخلال الحرب ارتفعت أسعار النفط كثيرا و جنى أفراد الأسر الحاكمة و أفراد منظوماتهم الكثير من المغامم جراء هذا ، و خلال فترة التحول التي تلت الحرب ظهرت مجموعات كثيرة منظمة خارجة عن السلطة ، كلها كانت تعمل في أنواع التجارة الممنوعة ، بداية من تجارة العبيد أو ما تسمى حديثا "شركات استقدام العمال" التي ملأت البلاد العربية كلها و خاصة بلاد الجزيرة ، مروراً بتجارة العقاقير المنبهة الرخيصة كحبوب "الأمفيتامين" بأنواعها ، و تجارة الأعضاء البشرية ، و انتهاء بتجارة السلاح و الآثار ، و رغم أن الكثير من أرباح هذه المجموعات كانت تصب عبر منظومات البارون في بنوك سويسرا ، إلا أن الكثير أيضا من هذه

الأرباح عادت إلى الداخل ، سواء أكان هذا في بلادنا أو في البلاد العربية الأخرى ، و هذا يعني أن نموا إقتصاديا حقيقيا قد حصل فعلا في المنطقة ، لقد أثار هذا الأمر قلق البارون ، و اعتبره في عدة اجتماعات خرقا خطيرا لا بد من تلافيه حتى لا يتسع على الراقع لاحقا ، فالتنمية هي آخر ما يريد البارون أن يراه في بلاد العرب ، لأنها تعيق سير جميع المنظومات في كل العالم ، و تسبب يقظة بين العامة و المتعلمين قد تدمر كل ما بُني على مرّ ثلاثة قرون من العمل الدؤوب المتواصل.

خلال هذه اللقاءات الطارئة قُدمت إقتراحات كثيرة لإحتواء هذا التسرب المالي ، كلها كانت واقعية و ذكية للغاية ، لكن أفضلها و أكثرها فاعلية على المدى البعيد كان اقتراحا تقدم به البروفسور برنار ، كان هذا الإقتراح يتضمن : تعيين حاكم مباشر من قبل البارون يدير كل عاصمة عربية على حدة ، و أن يكون هذا الحاكم من أقارب البارون حتى لا يسهو عن مراعاة الأهداف الحقيقية لما يصنع ، و بالطبع أن يكون غير ذي صفة رسمية حتى لا يهيج ثورة غير محسوبة ، و أن يتولى أمر التجارة الممنوعة بالتحديد لأنها مصدر التسرب.

سيعين هذا الحاكم طاقم مسلح كبير يرتدي أفرادَه الزي الرسمي لجيش و شرطة البلد ، و لديه كامل معدات و عناصر فرقة عسكرية ذات مهارات و قدرات خاصة ، و سيكون لهذا الطاقم القدرة و الإذن المطلق لإعتقال و قتل أي شخص دون الرجوع إلى السجلات أو إلى الأجهزة الرسمية ، على أن يحمل أفراد هذا الطاقم بطاقات تعريف رسمية تحت عنوان "قوات المهام الخاصة".

وافق الجميع على الإقتراح ، و لتنفيذه اختار البارون عددا كبيرا من أقاربه ، من ذوي الخبرة بالبلاد العربية ، عارفون باللغة العربية ، و لديهم قسوة و كراهية للعرب لا تتعاش مع الرحمة و اللين ، و في عام واحد انتقل هؤلاء جميعا إلى العواصم العربية مع عائلاتهم.

أقيم لكل واحد من هؤلاء قصر كبير على أطراف كل عاصمة نزلوها ، و بدأوا عملهم فور وصولهم ، و لقد اخترنا لهم لقب "الخوارج" ليعرفوا به بين أتباعهم و بين الذين سيلتقون بهم من أهل البلد.

في بلادنا نزل أحد هؤلاء ، و أسميناه بـ "الخواجة موري" ، لقد أشرفت بنفسي على ترتيبات استقباله و إقامته ، و خلال أشهر قليلة قمت بتعريفه بجميع زعماء الطبقة المتوسطة من منظوماتنا المتخصصة في التجارة الممنوعة ، طبعا باستثناء منظومات الرشاوى و العقارات و الإبتزاز المخبراتي و القضائي و غيرها من المنظومات الرسمية ، لقد تعرف على جميع قادة منظومات النقل و التسويق و الإنتاج العاملة في تجارة العقاقير الممنوعة ، و الآثار و السلاح و تجارة الأعضاء البشرية.

استعان موري بخبرات الرفيق ريمون القائد العام التنفيذي الحقيقي لكل أجهزة المخابرات في البلاد ، و الذي يشغل رسميا منصب نائب زعيم حزب قاع .

من أجل الجيش الذي سيتبع الخواجة ، قدم ريمون قائمة طويلة بأكثر الضباط و الجنود حرصا على كسب الغنائم من الناس ، بغض النظر عن وسائل الكسب ، هذه القائمة شملت عددا كبيرا من أتباع الديانة السرية ، و من العجر و من أبناء الريف القاصي الذين يسميهم الناس في منطقتنا و في شمال إفريقيا العربي بـ "الشوايا".

على رأس هذه القائمة تربع شخص من أتباع ديانة ريمون يدعى "الدكتور ساين" ، هذا الرجل كان كهلا جامعا متخصصا في الهندسة الميكانيكية ، و يعمل أيضا في قطاع الإتصالات ، ذو طموحات كبيرة و فاقد للرحمة ، شديد الحقد على العرب و الإسلام ، و لديه نظريات حول إعادة إحياء الحضارات و اللغات التي كانت سائدة في المشرق قبل الإسلام و قبل الرومان. أهمية ساين كانت تكمن في خبرته بمجالات الحواسب الإلكترونية و بمعرفته الوثيقة بكافة المتخرجين من جامعات أوربة في بلادنا ، و أيضا لديه معارف كثر من أساتذة التاريخ و الآثار من أبناء البلد ، و فوق هذا لديه فريق متطور للخرائط الصغيرة و المحلية يعمل في شركته المتخصصة في مدّ خطوط الهاتف.

منح الخواجة موري للدكتور ساين و شركته مبلغا كبيرا ، ثم أصدر الخواجة أمرا لهزيمة يقضي بالتوقيع على عقد تكليف شركة ساين بتعهد إنشاء شبكة للهواتف اللاسلكية في البلاد ، طبعا وقع هزيمة على العقد و بدأ العمل فورا.

الجيش الخاص بالخواجة كان بإمرة مباشرة من ساين ، و لم تكن له ثكنات خاصة ، فلقد انتشر أفرادهم و هم ألف و ثلاثمائة عنصر بالضبط في بيوت كثيرة في العاصمة مع معداتهم ، و كانوا يداومون في سبعة مراكز أحدها كان "قلعة الخواجة" ، هذه القلعة عبارة عن مبنى من عشرة طوابق على مساحة عشرة آلاف متر مربع في إحدى ضواحي العاصمة الغنية ، انقسم المبنى إلى أربعة طوابق تحت الأرض مخصصة للخرينة و لاحتجاز المزعجين و تسفيرهم إلى العالم الآخر ، و ستة طوابق أخرى فوق الأرض للشحن و التفريغ و لإقامة العسكر و الضباط و بقية الطاقم.

أما الخواجة موري نفسه فلقد كان رجلا كهلا ، قصير القامة أصلع و أبيض اللون ، عيناه سوداوتان صغيرتان ، و شعره أشمط و أذناه كبيرتان ، حليق الوجه و يرتدي نظارات صغيرة ، تعابير وجهه قاسية ، شديد الأنافة و اللياقة البدنية ، و يتحدث العربية بطلاقة و بعدة لهجات محلية لأنه أصلا مهاجر من بلادنا إلى أوربة ، يتحدث أيضا عدة لغات أوربية ، خبير جدا بأمور الإقتصاد و السياسة و متخصص في تجارة الآثار.

لقد كان عمل الخواجة موري هو ضمان احتكار السيطرة على كل العاملين في التجارة الممنوعة في البلاد ، بداية من مصادر البضاعة الأصلية و انتهاء بأصغر عامل في هذه التجارة ، لم يكن عملا سهلا و كانت مهمة غارقة في الدماء ، فلقد اضطر جيش الخواجة لإبادة المئات من المهريين و تجار الممنوعات العاملين خارج منظوماتنا و حتى لإبادة أسرهم ، و تم اختطاف المئات من الآخرين حتى تم إخضاعهم ، استعان الخواجة بملفات و سجلات مخبرات ريمون لتحديد هويات العاملين في

جماعات السوق السوداء التي يستهدفها ، إذ غالبا ما كان هؤلاء يعملون تحت ألقاب تخفي هوياتهم ، و بعد أن حدد طاقم الخواجة هويات أهدافه بدأ بمراقبتهم ثم استدرجهم لصفقات كانت مصائد لهم ، ثم قادتهم هذه الصفقات إلى أقبية الخواجة ، حيث تتم معالجة عنادهم و إستقلاليتهم بوسائل تعذيب و إبتزاز لا تخطر على بال ، و النتيجة ستكون : إما أن يعودوا إلى الشارع بامرة أحد أتباع الخواجة ، أو أن يذهبوا إلى قبورهم بصمت مطبق ، ثم ليلحق بهم كل من له معرفة بأمر الصفقات المصائد الآنفة.

شروط إطلاق سراح المهربين و تجار الممنوعات من أقبية الخواجة كانت بسيطة : الأول ألا يعمل أحد دون أن يقدم تقريراً شفهيًا مفصلاً لرئيسه المباشر (التابع مباشرة للخواجة) ، و الشرط الثاني أن يحصل الخواجة على نصف أرباح أية صفقة مهما كانت تافهة ، و الشرط الثالث أن لا يستثمر الذين أطلق سراحهم أي مال فائض لديهم بغير استشارة مركز الخواجة. من أطاع الشروط بقي حيا و عمل بمأمن من أية سلطة أيا كانت ، و من خالف شروطا منها فإن جيش الخواجة سيتولى إخفاءه من على وجه الأرض تماما.

نظم الدكتور ساين خرائط كاملة لكل أماكن تواجد التجارة الممنوعة ، و سجلات لكل العاملين فيها ، و حتى لزبائنهم المحليين و لزبائنهم في الدول المجاورة ، لقد برع ساين في مهمته و أنجزها في عامين فقط ، و هكذا باتت ما تسمى بـ "الجريمة المنظمة" تحت سيطرة الخواجة و فريقه مطلقا.

هذا فيما يتعلق بتجارة السلاح و العقاقير و الأعضاء البشرية ، أما فيما يتعلق بتجارة الآثار فلقد أفرد لها الخواجة اهتماما خاصا ، و الواقع أنه قدم خصيصا لهذه التجارة ، و هو خير الآثار الأكاديمي الكبير ، السبب هو أن دراسات ضخمة أعدت عن الآثار في بلادنا أكدت وجود كميات هائلة جدا من الذهب و الأحجار النفيسة تحت تراب كل أرض مزروعة ، تزيد عن أضعاف احتياطيات الذهب و الجواهر في العالم كله ، و أكدت الدراسات أن هذه الكنوز الضخمة لم يستخرج إلا أقل من واحد بالمائة منها طوال القرنين الماضيين ، هذه الدراسات أوضحت استحالة تحديد أماكن هذه الكنوز بغير عملية ضخمة منظمة جيدا و مجدولة جيدا ، و لا بد لنجاحها من منع فوضى استخراج الآثار على يد الفلاحين و المغامرين و المنقبين الباحثين عن الثروة.

في تلك الفترة كانت البطالة في البلاد قد زادت عن نصف عدد السكان ، و انتشر اليأس بين الناس و مع اليأس انتشرت بينهم حمى البحث عن الآثار ، فصار عاديا أن تجد رجالا في البراري يحفرون في أراض مهجورة ، و كثر كثيرا انتشار المشعوذين و المحتالين الذين يزعمون أن لديهم طلاس و تعويذات و اتصالات بالجن تساعد على كشف الكنوز ، و استفحل

الأمر جدا حتى ظهرت عصابات بسطت نفوذها على مناطق مهجورة بجوار المدن و راحت تبيع حقوق التنقيب للحاملين بالثروات بأسعار خيالية .

للقضاء على فوضى إستخراج الآثار أسس الخواجة منظمة مكونة من أبناء البلد ، كلهم أساتذة جامعيون متخصصون في الآثار و في اللغات القديمة و في تاريخ البلاد و الحضارات التي عاشت فيها ، لم تكن مهمة هذا المنظمة التنقيب عن الآثار ، كانت مهمتها إحتلال ركن في كل مقهى شعبي في البلاد ، هذا الركن متخصص في شراء القطع الأثرية من العامة ، لفهم عمل هذا الركن و هذه المنظمة أذكر قصة مروان :

مروان هذا كهل مغترب في أوروبا ، عاد إلى البلاد ليتزوج بعد رحلة من المشاق جنى خلالها مبلغا كافية ليبنى حياته بهدوء.

اشترى مروان مزرعة جميلة و بنى فيها حظيرة للمواشي ، و غرس في أرضها عرائش عنب و شجر موز و أشجار الجوافة الممتازة ، بعد مدة اكتشف أنه يحتاج إلى بئر لسقاية مزرعاته و مواشيه ، فدفع رشوة كبيرة للبلدية و حصل على إذن لحفر البئر .

بعد أن حفر في الأرض عدة أمتار لا تريد عن عشرة علقت مطرقة الحفر في جيب صخري عنيده ، فاضطر العمال لتوسيع الحفر يدويا لتخليص المطرقة الثمينة ، لكنهم اكتشفوا أن المطرقة وقعت على سطح حجري كبير .

بعد إخراج المطرقة توقف الحفر و إنتقل لمكان آخر حتى تم حفر البئر و نبعت المياه ، إلا أن مروان و بنصيحة من أقاربه عاد إلى موضع الحفر الأول و أعاد نبشه ليلا ، فاكشف أن السطح الحجري سقف لحجرة في مدفن أثري قديم جدا ، وجد مروان في الحجرة مائة و سبعين تمثالا من الذهب يزيد وزنها على الطن ، و عددا مشابها من التماثيل الحجرية بنفس الترتيب ، و وجد معها مجوهرات نادرة و كنوزا أخرى من العاج و الأحجار الكريمة .

قام مروان و إخوته بإفراغ الحجرة و نقلوا جميع محتوياتها إلى مكان آمن ، ثم أعادوا ردم المكان و موهوه بأن نصبوا فوقه أشجارا قديمة منقولة و غراسا ، بعدها حمل مروان أصغر تمثال حجري - بحجم قبضة اليد - إلى المدينة ، و بإرشاد من أحد أقاربه اجتمع مروان بـ "شاكر" أحد أعضاء منظمة الخواجة المموهين في ركن في مقهى شعبي قديم ، عرض مروان تمثاله على شاكر الذي كان في الواقع خبير آثار ، و دار الحديث التالي : مروان : هل لديك فكرة عن قيمة هذا التمثال ؟.

شاكر : نعم هذا التمثال جزء من حراس الموتى النبلاء ، و لا بد أنه وجد في مقبرة أثرية تحتوي مئات أخرى من التماثيل الذهبية و الحجرية.

قال مروان بدهشة كتمها : ما علينا ، كم قيمته و هل تستطيع بيعه ؟.

شاكر : سأرى الخواجة الذي يشتري هذه الأشياء ، و سأعرضه عليه و إن اهتم بشرائه فسيُدفع لك قيمته نقداً ، لكن أرجوك أن يبقى الأمر سرا فتجارة الآثار جريمة عقوبتها قد تصل إلى السجن المؤبد.

وافق مروان ، ثم دس تمثاله الصغير في جيبه و عاد إلى البيت بانتظار الرد.

بعد عدة أيام اتصل شاكر بمروان و دعاه إلى ركن المقهى ، و هناك دار حوار آخر :

شاكر : لقد وافق الخواجة على شراء كل محتويات المدفن ، و هو يعرف جيدا قيمتها ، و لعلمك فهي جزء من مدفن كبير يضم حجرات كثيرة كل واحدة منها تضم مئات القطع الذهبية و الجواهرات ، فإن استطعت أن تتوسط لي مع مكتشف المدفن فسأعطيك عمولة ضخمة.

قال مروان : كم قيمة الصفقة ؟.

قال شاكر : هذا التمثال ينتمي لحجرة متوسطة الفخامة ، و لقد قدر الخواجة قيمة محتويات الحجرة بألف و مائة ألف دولار أمريكي.

فغر مروان فاه ، ثم جمع قواه و قال : هل تسخر مني ؟.

نظر شاكر لمروان بغضب و قال : أنا لا أعب ، أنا أعيش من هذا العمل.

صمت مروان و قد عقدت لسانه الدهشة ، و بعد برهة قال : سأفعل فقط إن قابلت الخواجة.

قال شاكر : حسنا سأرى و سأعود إليك.

بعد يومين اتصل شاكر بمروان و أخبره أن الموعد سيكون بعد أسبوع.

في يوم الموعد حضر مروان للمقهى ، وجد شاكر بانتظاره و استقل الرجلان سيارة أجرة حملتهما إلى العاصمة ، ثم إلى قلعة الخواجة موري.

في القلعة كان موري ينتظر مروان و شاكر في مكتبه ، دخل مروان و شاكر إلى المكتب ، قدّم شاكر مروان إلى الخواجة ، ثم خرج و بقي الخواجة و مروان ، قال موري : حبيبي أنا مهتم جدا بهذا المدفن ، سأدفع في محتوياته مبلغا ضخما.

قال مروان : كم ستدفع ؟. قال موري : أربعمائة مليون دولار نقدا. قال مروان بذهول : و كم ستريح أنت ؟. قال الخواجة : ثمانمائة مليون و لكن على مدى عدة أعوام ريثما أجد مشترين للبضاعة.

قال مروان : سأفعل ، و لكن يجب أن أعود إلى قريتي لأتفق مع أصحاب البضاعة.

قال الخواجة : سأعطيك الآن عشرة آلاف دولار للمصاريف ، و هاتفين لاسلكيين (جوالين) لأتصل بك ، و ستجد سيارة بانتظارك في الشارع سيعطيك السائق مفاتيحها ، و ستعود إلي بعد ثلاثة أيام ، و لا تتصل بشاكر بعد اليوم.

عاد مروان بسيارة الخواجة إلى قريته و أقنع أهله بالموافقة على العرض ، و اتصل بالخواجة عبر هاتفه و أخبره بالموافقة.

قال الخواجة لمروان خلال المكالمة : أعط الهاتف الثاني لرجل يقدر على تسليم البضاعة ، و تعال إلي بعد يومين برفقة صاحب البضاعة و معك عدة رجال آخرين تثقون بهم لحراستكم من أجل تسلم المال.

في اليوم الموعد وصل مروان و جماعته إلى مكتب الخواجة ، و في اللقاء قدم مروان أخاه سالم على أنه مالك المدفن ، هشّ لهم موري و قدم لهم الشراب و السجائر ، ثم اتصل بسابين و أمره أن يصطحب الشباب إلى الخزينة و أن يسلمهم أربعين صندوقا كرتونيا في كل واحد عشرة ملايين دولار ، و أن يسمح لهم بالتأكد من كل صندوق و من سلامة النقود من التزوير بفحص أوراق منها لا على التعيين.

بعد أن تسلم الشباب المبلغ اتصل موري بسابين و طلب الحديث مع مروان ، قال موري : سأقدم لكم هدية أيضا هي سيارة مدرعة واقفة في مرآب المبنى لتحملوا بها المال ، و سيعطيكم سابين قطع سلاح لحماية أنفسكم ، و لكن لن تغادروا المرآب إلا بعد أن يصل رجالي إلى صاحبكم الذي يحرس التماثيل و الآثار و يتسلموها منه ، فاتصل به يا مروان فوراً ليسلمهم بضاعتي.

اتصل مروان بالهاتف اللاسلكي بشقيقه الذي يحمي البضاعة ، و طلب منه أن يسلمها لرجال موري من مخزنها .

وصل رجال موري إلى المكان و تسلموا التماثيل بعد نصف ساعة فقط من اتصال مروان ، سُحّ لمروان و نقوده و جماعته بمغادرة قلعة موري بسلام ، و ودعهم سابين بجرارة كما استقبلهم.

قبل أن يصل مروان إلى قريته بعدة كيلومترات استوقفه على الطريق حاجز للشرطة ، كان هذا الحاجز بقيادة رجل يحمل رتبة عميد ، وقف مروان و جماعته على الحاجز ، مد يده بأوراقه إلى الشرطي و في الأوراق رشوة هي ورقة من فئة العشرين دولارا .!

خلال ثوان أحاط بمروان و جماعته مائة شرطي بأسلحتهم ، قفز عدة رجال بزي الشرطة إلى السيارة ، أخرجوا مروان و جماعته منها و بطحوهم أرضا ، نزعوا سلاحهم ثم أوقفوهم ، قال العميد لهم : أنتم تحملون مالا لجماعات تعمل على قلب نظام الحكم ، و ستذهبون إلى ما وراء الشمس.

ارتعد مروان و جماعته و راحوا يتصايحون ، ثم طلب مروان من العميد أن يكلمه على انفراد ، فقال العميد : اسمع أنا سأصادر السيارة و محتوياتها ، و سأسجل أنكم هربتم و لم نستطع تحديد هوياتكم ، و لكن بشرط ألا تتفوه بحرف واحد و إلا سنعود إليك و سنمحوك و أسرتك من الوجود.

خلال دقيقة واحدة اختفت فرقة الشرطة و معها سيارات الخواجة موري و ما تحتويه من نقود ، و بقي مروان في الشارع مع جماعته مذهولين ينظر بعضهم إلى بعض.

في اليوم التالي اتصل موري بمروان و قال له : أنا أعرف أنكم موهتكم المدفن ، و أعرف جيدا كيف أنتزع الأرض كلها من عينيك في الوقت المناسب ، الآن عليك أن تغادر البلاد إلى البلد الأوربي الذي كنت تعيش فيه ، و لا تعد حتى أسمح لك ، و لا تظن أنك ستكون هناك بمنأى من سطوتي ، فأنا ملك هناك كما أنني ملك هنا.

حزم مروان حقائبه و عاد إلى منفاه إثارا للسلامة ، و بعد عام واحد تسلم عشرة ملايين دولار ثمن أرضه من مندوب الخواجة موري في أوربة بشرط أن يبقى المبلغ في أوربة و أن لا يرسل إلى بلادنا سنويا أكثر من قيمة الفائدة المصرفية للمبلغ ، و أن يستثمره فقط في أوربة إن أراد استثماره.

استأنف الخواجة الحفر و استخرج رجاله بقية كنوز المقبرة ، و أضاف سابين موقع مزرعة مروان إلى خرائطه.

لقد كان الحاجز و العميد و الشرطة من أعضاء فوج من جيش الخواجة.

الخطط التي اعتمدها البارون بعد حرب كسار تم تنفيذها كلها بشكل متزامن خلال عقد واحد ، افتتحت في بداية ذلك العقد عدة قنوات تلفزيونية عربية ذات بث دولي ، أول هذه القنوات كانت قناة إخبارية بانورامية ، هذه القناة كانت في الأساس فرعا لتلفزيون إخباري لأقوى دولة أوربية يبث الأخبار باللغات الآسيوية الغربية ، مقر هذا الفرع في دويلة صغيرة نفطية تقع شرق الجزيرة العربية ، نقلت ملكية هذا الفرع لشركة مساهمة ضخمة تتبع لهذه الدويلة ، و تم تعيين طاقم إعلامي كبير في هذه القناة معظمه من أتباع الديانة السرية من أبناء الإقليم الذي تحتله جارتنا العدو اللدود.

في نفس الوقت تم مد خطوط شبكة المعلومات الإلكترونية الدولية إلى بلادنا و معظم البلاد العربية ، سُمح أيضا باستيراد كافة أنواع أجهزة الحاسب الإلكتروني ، أيضا انتشرت الخطوط الهاتفية اللاسلكية و الهواتف اللاسلكية بأنواعها ، شاركت جميع الأسر الحاكمة في بلادنا في هذه التغييرات ، و لم يكد هذا العقد يشرف على النهاية حتى اكتملت تركيبات كافة هذه الخدمات الإلكترونية في كافة أرجاء البلاد و دخلت كل بيت في البلاد تقريبا.

على الرغم من الفارق الهائل بين القدرة الشرائية المتدنية للعرب و بين تكلفة هذه الخدمات الباهظة في مصدرها الأوربي و الأمريكي ، إلا أن هذه الخدمات تم إيصالها بأسعار بخسة مناسبة للقدرة الشرائية للأسر العربية ، و على الرغم من قوانين الإستيراد و الحماية النقدية المشددة في بلادنا فإن هذه الخدمات تم استثنائها تماما ، و لقد تولى الخواجة موري بنفسه الإشراف على تأسيس الشركات المحلية التي تباع لاقطات المحطات الدولية ، و الشركات التي تباع الهواتف النقالة و توزع مستقبلات شبكة المعلومات الإلكترونية الدولية ، كلها تقريبا كانت مملوكة إسميا لمساعدته سابن.

لا أبالغ إن قلت أن الخسائر المالية التي تكلفتها منظومات البارون في بلادنا كانت هائلة جدا خلال هذه الفترة ، لقد أنفقت هذه المنظومات مبالغ طائلة لدعم أسعار المعدات الإلكترونية و الخطوط و محطات البث التي اجتاحت بيوت بلادنا ، لقد خلق هذا الدعم أيضا آلاف الشركات الصغيرة ، كلها اعتاشت على شركات البارون روبرت ، الرجل الذي رعى تقديم هذه "الخدمات" لعموم البلاد العربية.

لقد أضفت هذه الحملة على البلاد شكلا متناقضا غريبا جدا ، فلقد صرت ترى الشاب العربي عاطلا عن العمل ، و تراه مفلسا و فقيرا معدما و مع هذا تجد في بيته العفن لاقطا للقنوات الدولية و حاسبا الكترونيا ، و أيضا تجده يحمل هاتفا لاسلكيا ، و حرصا على مبدأ المساواة بين الجنسين لم تستثن خدمات البارون روبرت النساء العربيات ، فلقد تمتعن أيضا بخدمات شركات البارون و بكافة الميزات !!.

في البداية كانت الخدمات تصل لبيوت الأغنياء ثم و بعد فترة قليلة جدا انتشرت في كل البيوت و لكافة الطبقات بأنواعها و دون استثناء لأحد ، لقد صارت خدمات البارون روبرت أهم عند أبناء بلادنا من الغذاء و الدواء.

في الحقيقة لم أتعجب من هذا التحول الكبير و ما صاحبه من تناقضات مذهلة ، لأنني أعرف جيدا كمية الحسد المتجذرة في نفوس أبناء بلادنا ، و أعرف مدى ما يصاحب هذا الحسد من حرص خرافي على المظاهر ، ففي معظم البلاد العربية تجد أبناء المدن يحرصون على اللباس الأنيق و نظافة المظهر بينما لا يجد معظمهم فرصة للإستحمام مرتين في الأسبوع ! و بالنتيجة فإن وصول خدمات البارون روبرت إلى بيوت بعض قليل من الأغنياء سيجعل إقتناء البلاد بأسرها لهذه الخدمات حتما مقضيا ، و خلال أمد قصير ، و هذا ما حصل.

لم تقدم هذه التقنيات أي شيء لتنمية بلاد العرب ، على عكس أثر هذه الخدمات الإيجابي المذهل على نمو كل شيء في أوربة و أمريكا ، إلا أن هذه التقنيات ساعدت كثيرا على ظهور موجة كبيرة من الإباحية الجنسية بين الشباب ، و ساعدت القنوات و المواقع الإلكترونية الجنسية كثيرا على هذا ، و صار عاديا جدا إقامة علاقات جنسية بين الشباب و الفتيات دون زواج في الكثير من بلاد العرب ، و خاصة في الجزيرة العربية التي ينتشر الترف كثيرا بين أهلها ، و معظم العواصم العربية صار

أمرًا عاديًا أن يجد العريس عروسه ليست بكرا و أن يسكت على هذا ، بل لقد أوعز الجمعي إلى أتباعه بنشر قصص عن قديسين مجهولين وجدوا زوجاتهم غير عذاري ، و ستروا عليهن فاستحقوا التقديس الإلهي لأرواحهم النبيلة !.

كثيرة جدا تلك اللقاءات التي عقدت في عاصمتنا بخصوص هذه الموجة ، و لعل كتابا بحجم آلاف الصفحات لا يكفي لتغطية الخطط العامة و الفرعية التي رُكِّبت على هذه الجائحة الهائلة ، و لكنني سأذكر أهم لقاء و أهم خطة منها على الإطلاق.

في بداية النصف الثاني من العقد الآنف الذكر عقد لقاء ضيق جدا في عاصمتنا في جناحي الخاص بقصر هرثمة ، حضر اللقاء "الكونت ستيفنسون" رئيس أكبر مؤسسات التجسس في العالم ، و بصحبته السيد كرم القائد العام للجمعية الإسلامية في العالم ، و البروفسور برنار و البروفسور نيقولا المتخصص في الهندسة الاجتماعية و علم النفس ، و طبعًا ريكارد. تحدث البروفسور برنار خلال اللقاء عارضا على الحضور ورقة عمل كبيرة ، قال :

نحن الآن بصدد الإعداد لنسخ متتالية كبيرة من الجيش الأسطوري ، و كما تعلمون فإن هذا الجيش يحتاج إلى مجندين كثر من الشَّباب الغاضبين ، و لحسن الحظ فإن معظم الشباب العرب غاضبون جدا هذه الأيام ، لكننا لا نحتاج إلى كل هؤلاء في هذا الجيش ، نحن بحاجة فقط إلى أصناف معينة من الشباب.

نحتاج إلى أولئك الشبان القادرين على استيعاب المهارات اليدوية و العضلية بعمق ، القادرين على استيعاب الأفكار المجردة التصورية بشكل سطحي ، الذين يشعرون أنهم يجب أن يكونوا مميزين عن أقرانهم ، و الذين يملكون جرأة و شجاعة أكثر من المعتاد.

كيف نجد هؤلاء ؟.

أولا لا بد من البحث عن هؤلاء الشباب و تحديد هوياتهم ، ثم نستهدفهم بوسائل التجنيد ، و أخيرا نلحقهم بالمشروع في التخصصات المطلوبة و ضمن التشكيلات المحددة.

و لنبدأ أولا بالبحث : القناة العربية الإخبارية التي أطلقناها مؤخرا ستعمل عمل المغناطيس الذي يجمع الإبر من أكوام القش ، ذلك أنها ستبث على شاشاتها جميع الأخبار التي تدفع العرب للغضب من أحوالهم بشدة و بشكل غير مسبوق ، و ستقدم هذه الأخبار بطريقة مستفزة للغاية و ستهاجم خدمنا و ماشيتنا الذين يسموهم "أصحاب المناصب" ، هجوما متواصلا غير معتاد ، لكن دون اجتياز حدود الخطر ، التي توصل إلى انفلات غير مضبوط و لا يمكن احتواؤه ، إلا أنها ستبقي متابعيها

مشدودين إليها و أعصابهم متوترة ، و في حالة ترقب لشيء ضخم قادم سيعصف بكل واقعهم المزري ، لكن ما هو هذا الشيء و كيف سيأتي سيبقى سؤالا نحن فقط من يجب عنه.

هذه الأخبار ستعمل عمل المدراة التي تحرك القش فهي ستثير النفوس ، و ستحمس الجميع لعمل شيء ما أي شيء في اتجاه التعبير عن السخط ، أما الحدودة المغناطيسية فستكون خطوط هاتف هذه القناة الرائعة ؛ ستبث هذه المخططة عروضاً حوارية مع العامة ، سيقعد مذيع أمام الكاميرات ، و سيتحدث إلى المتصلين بالمخططة من الجمهور واحدا تلو الآخر لعدة ساعات يوميا ، لقد اختار البروفسور نيقولا لهذه العروض إسما هو : "العروض التفاعلية" ، و ستجد إقبالا كبيرا عند شعب العرب الذي يعتقد معظم أبنائه أنهم أهل لقيادة العالم و للتحدث إلى العالم كله و إرشاده إلى الصواب .

ضحكنا بشدة من هذه الجملة الأخيرة ، ثم بعد أن هدا الضحك عاد البروفسور العبقري برنار للكلام ، فقال :

كيف تعمل الحدودة المغناطيسية؟ بالقرب من مقر هذه القناة توجد قاعدة عسكرية ضخمة تابعة للحلف الأوربي الأمريكي ، في هذه القاعدة توجد محطة الإتصالات المركزية لتلك الدولة التي "تملك" تلك القناة الإخبارية ، أكثر المتصلين سيتصلون من بيوتهم بالقناة ، و لن يتعرض أي منهم لأية ملاحقة نتيجة لمداخلتهم في برامج المخططة ، هذه الإتصالات سيستمع إليها خبراء نفسيون من فريق البروفسور نيقولا ، و سيحللون شخصيات المتصلين من خلال بياناتهم و كلامهم و حتى نبرات أصواتهم ، في كل أسبوع سيتم ترشيح عدد من المتصلين ، بعدها ستقوم منظومات المخابرات التابعة للكونت ستيفنسون بتحديد هويات هؤلاء المتصلين و أماكن تواجدهم ، و ستتم مراقبتهم و جمع معلومات كافية عنهم .

الخطوة الثانية : الإستهداف بوسائل التجنيد : هذه المهمة ستقع كلها على كاهل الدعاة المتخصصين التابعين للجمعية الإسلامية بشقيها ، الشق الذي يتبع نسخة الإسلام الخاصة بالجمعية ، و الشق الذي يتبع النسخة النجدية الذي أسسه الشيخ فراس و فريق عمله.

لقد تم تدريب آلاف من هؤلاء الدعاة على مر الأعوام الماضية ، هم اليوم جاهزون لجذب المتميزين من الرعا و تجنيدهم ، قادة الجمعية الإسلامية المحليون سيزودون الدعاة الذين يعملون تحت أيديهم ببيانات أولئك الشباب الذين رشحتهم غرفة البرفسور نيقولا ، و سيقوم الدعاة باصطيادهم من خلال بناء الثقة و منح التمويل و التشارك الفكري تمهيدا لتنظيم الطرائد المختارة في تشكيلات الجيش الأسطوري الكامنة قيد الإنشاء.

أيضا ستقوم المواقع الإلكترونية الحوارية التابعة لهذه القناة و غيرها بإثارة و اصطياد الشباب الغاضبين ، و باستعمال خوارزميات الحواسيب التجسسية ، و بنفس الطريقة السابقة المتبعة مع الإتصالات الهاتفية ، و سنشيع بين الناس فكرة مفادها أن شبكة المعلومات الدولية الإلكترونية يمكن استعمالها بطرق خاصة بحيث تتجنب عيون الرقباء القمعيين.

سيتم نقل جميع المجندين عبر شبكة غير متجانسة من أعضاء منظمة السيد سهل إلى معسكرات تدريب خاصة في البلد العربي الإفريقي الذي تحكمه الجمعية الإسلامية ، هناك سيتدربون على القتال و استعمال المتفجرات ، و سيتلقون ما يحتاجونه من الشحن العقائدي و الثقافة التنظيمية ، و سيشاركون في القتال إلى جانب جيش ذلك البلد في حروبه الإفريقية التي لا تنتهي. هذه المنظومات ستبقى و لمدة طويلة الوسيلة الأمثل لتجنيد الجيش الأسطوري بكافة تشكيلاته و لكافة نسخه ، المتتالية منها و المتزامنة.

هذه المنظومات أيضا ستعمل على تنظيم نوع آخر من الشباب ، هذا النوع هو الشباب التحرريون ، أولئك الذين يؤمنون بفلسفات أجدادنا العظماء ، الفلسفات التي صنعوها و قامت عليها معابد الحرية و كافة النظم التي تحكم معظم دول العالم المتقدمة صناعيا.

هذا النوع من الشباب سنختاره من الجامعيين ، و سنؤمن لهم الكثير من الدعم المالي و سنستقدم الكثيرين منهم إلى أوربة و أمريكا ليحصلوا على دورات تدريبية سرية ، في هذه الدورات سنعلمهم أساليب الجدل اللازم لجذب العامة و إبحار عقولهم و تحطيم ثوابتها الموروثة ، سيتعلمون الكثير من خبراتنا في علم النفس الجماعي ، و سيكونون خاضعين مباشرة لقيادة منظومات محابرات الكونت ستيفنسون و ريكارد العظيم.

طبعاً سنستغل هذه الدورات لإطلاع هؤلاء الشباب و تلك الشابات على الحياة في أوربة ، و سنعرض عليهم نماذج مثالية جدا عن العلاقة بين الحكومة و الشعب في البلاد "التحررية" ، و سنقارن بينها و بين تلك النماذج المقدسة للحكام القديسين الخمسة "الراشدين" الذين يتباهى بهم المسلمون ، و سيحضر هؤلاء الشبان الجدد في مجالس النواب و الشيوخ الأوربيون ، و سيتعرفون على عدد منهم و سنتعمد إطلاعهم على المهارات التي يواجهها الوزراء و الرؤساء من أعضاء مجالس النواب ، و سيشهدون المظاهرات السلمية كيف تحرسها الشرطة بدل أن تقمعها ، و سيمارسون حياة الإنسان الأوربي العادي بتفاصيلها الممتعة و دون خوف.

هؤلاء الشباب التحرريون سيعودون إلى البلاد العربية مع حصانة غير مكتوبة ، و تمويلات مريحة ، و سيسمح لهم بالدعوة إلى أفكارهم عبر أجهزة الإعلام غير الرسمي ، إذ سننشئ لهم إعلاما خاصا بهم ، سيكون عملهم هو السخرية من كل الموروثات الفكرية و التقاليد الشعبية و الأخلاق ذات المنبع الديني و المثالي ، و سيكون هدفهم الأول هو السلطة بأنواعها ، الأسرية و العشائرية و الدينية و السياسية و المهنية ، و ستكون لهم تشكيلات صغيرة تتدرب على إثارة القلاقل و حشد الجماهير و تنظيم الاحتجاجات ، لكنهم لن يتحركوا إلا بعد مدة طويلة من الآن.

حدد البروفسور برنار مدة لا تزيد عن الخمسة أعوام لإكمال تنفيذ هذه الخطة ، و عيني مشرفا على حسن سير العمل و طلب إلي رفع التقارير اللازمة إلى البارون عن سير العمل و التنفيذ و عن مقترحات التعديل التي يتقدم بها المستشارون الأوروبيون.

تنفيذ خطط العقد الذي تلا حرب كسار تم بسلاسة غير مسبقة و دون صعوبات تذكر ، و لعل أكثرها نجاحا كانت خطة الشيخ فراس لإطلاق النسخة الثانية من الجيش الأسطوري ، فلقد أطلقت الجمعية الإسلامية ما سميت بـ "إنتفاضة نجد" في موعدها تماما بعد حرب كسار بعامين و نيف ، ذريعة الإنتفاضة كانت احتجاج المتدينين على رعاية الأسرة الحاكمة للمحطات التلفزيونية الدولية ، هذه المحطات التي أثرت عميقا في سلوك جميع العرب حتى أنها صنعت طريقة حديثهم و سلوكهم الفردي و الاجتماعي.

"انتفاضة نجد" كانت مجرد مسيرة صغيرة في مدينة نجدية صغيرة احتجاجا على اعتقال شيخين من أعضاء الجمعية الإسلامية ، إلا أن الإعلام الأوربي منح الحدث الصغير أهمية كبيرة مبالغ فيها جدا ، على أثر هذه الإنتفاضة التي استمرت بضع ساعات تمت حملة اعتقالات واسعة بحق الرجال الذين عادوا قبل أعوام من حرب خراسان ، بعد الإنتفاضة سافر عدد من نجوم الخطابة بشكل رسمي من مطار المملكة النجدية إلى أورو ، و هناك أنشؤوا ما تسمى بالمعارضة للأسرة الحاكمة النجدية !. استمرت حملات الإعتقالات مدة عام كامل بعد هذه الإنتفاضة ، و استمرت أيضا بعد هذه الإعتقالات عمليات إفراج مشروط عن المعتقلين أعقبها انتقامهم جميعا إلى خراسان مرة أخرى ، و عن طريق مطارات الجزيرة العربية مرورا بعاصمة البلد العربي الإفريقي المجاور!.

فراس كان قد سبق الجميع إلى ذلك البلد العربي الإفريقي المجاور بحريا للمملكة النجدية ، و من هناك بدأ باستقبال المفرج عنهم من معتقلي انتفاضة نجد ، و راح يرسلهم تباعا إلى خراسان ، أصدقاء فراس في الدولة البتانية كانوا قد اخترقوا جسم الحكم هناك و وصلوا إلى رأس الدولة الشيخ الحمود ، و أقنعوه بأن هؤلاء العرب النجديين و أبناء الجزيرة أشخاص نافعون للدولة البتانية ، و سيوفرون لهذه الدولة اتصالات واسعة في السوق السوداء لتأمين ما تحتاجه لتحقيق نخضة صناعية و زراعية و عمرانية عسكرية و مدنية ، و كانت مبالغ و مشاريع يراها فراس قد انتقلت إلى خراسان ، كعيّنات من خدمات هذا الحليف الجديد للبتانيين.

بعد حرب كسار بثلاثة أعوام وصلت شبكة المعلومات الدولية إلى معظم أرجاء الجزيرة العربية ، و شمال إفريقيا و معظم ما يسمى بـ "الهلال الخصيب" ، لقد وفرت هذه الشبكة للشيخ فراس و فريق عمله قناة اتصال واسعة الإنتشار ، تمكن فراس من خلالها من تسويق أفكاره و دعوته ، فلقد تأسست على الشبكة عدة مواقع إلكترونية حوارية ، هذه المواقع كانت قوية

و منتشرة بين الشباب المتدينين و الباحثين الجادين عن متنفس لمناقشة همومهم و معاناتهم و نقيمتهم على ما يجري من حولهم ، و لقد رفعت القيود الرقابية عن هذه المواقع و امتنعت كافة أجهزة المخابرات عن ملاحقة أولئك الذين يكتبون في هذه المواقع ، و بلغ الأمر حد أن يقوم أعضاء في الأسر الحاكمة في البلاد العربية بإجراء حوارات مع العامة على هذه المواقع ، كانت هذه المواقع نفسها نافذة جماعة فراس إلى عقول الشباب و قلوبهم.

الحوارات التي دارت في هذه المواقع كانت كثيرة و لكنها جميعا تمحورت حول موضوع كبير واحد هو : "السبيل إلى الخلاص من الأسر الحاكمة في البلاد العربية" . إلا أن هذه الحوارات كشفت أن الشباب العرب لا يعرفون شيئا عن حقيقة ما يجري عليهم و في بلادهم ، و بينت أنهم متأثرون حتى النخاع بأفكار الجمعية الإسلامية و ثوابتها التي اخترعها أساتذة معابد الحرية ، و لذلك كان أولئك الجديون في البحث عن طريق للخلاص يقعون بسهولة في شباك فريق الشيخ فراس ، فراحوا يتبنون أفكاره و كأنها قوانين الخلاص الإلهية التي لا تقبل الجدل.

أضاف الشيخ فراس إلى أفكار الجمعية الإسلامية إضافات هامة اقتبسها من معتقدات النسخة النجدية ، و لعل أكثر هذه الأفكار انتشارا هي فكرة الجماعة المثالية الممهدة للخلاص الأرضي ، هي عقيدة قديمة متجددة لا وجود لها في الواقع و لا في تراث الإسلام ، و إنما هي مقتبسة من تراث عبادة ما يسمى بـ "إله النور" أو ما يسمى بـ "لوسيفر" ، هذه الفكرة ببساطة هي : إيجاد جماعة متجانسة صافية تؤمن بالحقيقة المطلقة ، ثم السعي لأن تحقق هذه الجماعة متطلبات محددة وضعها "إله النور" ، إن وجود هذه الجماعة و تنفيذها لشروط إله النور سيكون مقدمة لقدم إله النور إلى العالم متجسدا و مُخْلِصاً ، و سيكون هذا القدم سببا في محو آلام البشر و تحويل الأرض إلى الفردوس الموعود !.

هذه الفكرة اقتبسها البروفسور آكنات و السيد رافع و جعلوها أساسا لكل خطط عمل الجمعية الإسلامية و ما انشقت عنها أو تولدت منها ، لقد انتقلت هذه الفكرة لاحقا إلى كافة أتباع الجماعات الدينية حتى غير الإسلامية منها على مدى قرن مضى ، كل واحدة من هذه الجماعات اخترعت أسطورتها الخاصة عن هذا الخلاص الأرضي ، ما تعيننا هي أسطورة جماعة الشيخ فراس ، هذه الجماعة اختارت من نبؤات كتب الحديث النبوي نصوصا تصف وقائع بدأت في خراسان و تكاملت في الهلال الخصيب ، كان الناس يربطونها منذ ألف و مائتي عام بـ "الإنقلاب الهاشمي" الذي أسس للدولة العباسية ، إلا أن جماعة فراس أعطت لهذه النبؤات أبعادا معاصرة ، فالنبوءة الرئيسية منهن تتحدث عن قوات كبيرة تتقدم من خراسان إلى الهلال الخصيب ، هذه القوات تتقدم بسرعة كبيرة دون هزائم ، ثم تشكل هذه القوات في ما سيطرت عليه دولة عادلة يرضى عنها المؤمنون ، شعار هذه الدولة و شعار هذا الجيش الأعلام السوداء ، باختلاق روابط بين نبؤات أخرى مع هذه النبوءة ، ستكون هذه الدولة (النبوءة) هي التي ستحقق "الخلاص الأرضي" في كل العالم.

لجعل حزمة النبؤات هذه تتحدث عن عصرنا الحالي و تنطبق على جماعة فراس لا بد من : أولا وجود هذه الجماعة في خراسان ، و ثانيا لا بد من أن يكون هدفها هو السيطرة على الهلال الخصيب بأكمله ثم العالم بأسره ، و ثالثا لا بد أن تستعد بجيش كبير ، و رابعا لا بد أن يكون شعارها الأعلام السوداء.

حقق فراس أولا و ثانيا بعد خمس سنوات مرت على لجوئه من الجزيرة إلى إفريقيا ، و بقي ثالثا و رابعا ، فلنرى كيف تحققا :

من خلال المواقع الحوارية انتشرت المعلومة التالية في أوساط الشباب المتدينين : إن الدولة البتانية تعتبر نفسها دولة الإسلام في العالم أجمع وتعتبر أن كل مسلم و مسلمة هو من رعايا هذه الدولة بغض النظر عن عرقه و موطنه و لغته ، و على هذا الأساس راحت جماعة فراس تدعو الناس إلى "الهجرة الواجبة شرعا" إلى دولة الإسلام (البتانية) تاركين البلاد المحاربة للإسلام ، بمعنى مغادرة كافة دول العالم و خاصة الدول العربية باتجاه خراسان ، لأن دول العالم كلها محاربة للإسلام بحسب فتوى فراس و زملائه ، و بحسب الفتاوى الضمنية للجمعية الإسلامية التي تنتشر في أوساط غالبية الشباب المتدينين المتعلمين. و للتحريض على التجمع حول جماعة فراس قام عدد من الشيوخ المعترين للنسخة النجدية للإسلام بنشر فتوى عجيبة ، مفادها أن أي جيش مسلم قوامه اثنا عشر ألفا من المسلمين (أتباع هذه النسخة) لن يهزم أبدا و لو كان مسلحا بالمُدَى و الحصى و خصومه مسلحون بالطائرات! و استدلوا على فتاواهم بحديث من السنة نصه : ما هزم اثنا عشر ألفا من قلة . علما أن هذا الحديث كان نبوءة بهزيمة لمعظم فرق جيش من المسلمين كان قوامه اثنا عشر ألفا ، و مفاد هذه النبوءة أن سبب هزيمة هذه الفرق هو إعجاب جنود الجيش بعددهم (اثنا عشر ألفا) الذي كان يعتبر ضخما في جزيرة العرب قبل ألف و أربعمئة عام !!.

هذه الفتوى حرضت عشرات آلاف الشباب العرب على ترك الجزيرة العربية و الالتحاق بجماعة فراس في خراسان ، و لإتمام إلتحاقهم كان لا بد من آليات لتجنيدهم ، و لقد بحثنا هذه الآليات في اجتماع هام سري عقد في أوربة حضرته برفقة البارون و البروفسور برنار و السيد ويليامسن مالك و مدير أكبر مؤسسات الحواسيب الإلكترونية في العالم ، في هذا الاجتماع قدم السيد ويليامسن للبروفسور طريقة فعالة لإدارة الجانب الإلكتروني لمشروع التجنيد في الجيش الأسطوري.

قال ويليامسن خلال اللقاء موجها كلامه للحاضرين :

أيها السادة كنت قد قدمت إليكم سابقا تصورا عاما مفصلا عن عمل شبكة المعلومات الدولية بجانبها المضىء و المظلل ، و سأكرر على مسامعكم هذا التصور باختصار :

تتكون الشبكة من خزائن رئيسية كبيرة تتجمع فيها المعلومات ، و تتصل هذه الخزائن ببعضها بقنوات اتصال كثيرة جدا تجعل الوصول إلى أي من هذه الخزائن يعني الوصول إلى البقية ، و ترتبط هذه الخزائن بمعالجات كبيرة جدا تسمى "الخوادم" مهمتها ربط كافة خطوط الشبكة الفرعية مع شبكة الخزائن ، بداية من تلك التي تصل إلى المنازل و انتهاء بتلك التي تصل إلى المؤسسات الكبيرة.

أولا عندما يتصل أي شخص عبر خطه بالشبكة الدولية فإنه يتصل بأحد الخوادم الفرعية ، و هذا الخادم يرسل المعلومات المطلوبة من المتصل إلى خوادم الخزائن الرئيسية ، و تقوم هذه الخوادم بالبحث عن المطلوب في فهارس الخزائن ، ثم يأخذ ما يجده و يرسله إلى المتصل ، ثانيا يستطيع المتصل أن يرسل ما شاء من المعلومات إلى الخزائن ليتم تخزينها في مخزن الكتروني مفهرس ضمن آلية رياضية معقدة بحيث يتمكن المتصلون الآخرون من الحصول على هذه المعلومات لاحقا بنفس الآلية الأولى ، الحيز الذي يشغله المتصل الذي يخزن معلوماته في خزائن الشبكة يسمى "الموقع الإلكتروني" .

للشبكة جانبان ، الأول هو الجانب المضيء ، و هو ما يستطيع المتصلون أن يتصفحوا محتوياته أو يعالجوها من خلال اتصاهاهم بالخوادم العادية المعروفة المتاحة للجميع ، الجانب الثاني هو المظلل ، و للوصول إليه لا بد من متصفحات الكترونية خاصة تتصل بخوادم خاصة و تبحث في الخزائن عن معلومات مفهرسة بأحرف و رموز سرية لا يعرفها إلا أعضاء منظوماتنا ، هذه الفهارس تتجدد رموزها بشكل دائم بحيث لا يمكن اختراقها.

قاطعته بسؤال : هل تعني شبكة المعلومات الدولية العميقة ؟.

أجاب السيد ويليامسن : لا يا عزيزي ، هذا الجانب المظلل الذي أتحدث عنه لا علاقة له بمواقع و نشاطات تلك العصابات من المُخترقين و القراصنة الذين يعملون على الجانب المضيء للشبكة و يظنون أنهم قد أنشؤوا شبكة خاصة بهم تعمل في الظل و تمارس أنشطة القرصنة و السرقة و الابتزاز و تنظيم الإحتجاجات .. إلخ ، و أحب أن أعلمك بأن هذه النشاطات نحن من بدأها و نسيطر عليها تماما و على العصابات التي تشارك فيها ، و معظم عوائد هذه العصابات تصب في حساباتنا و مصالحنا ، و أخيرا كلها في النهاية موجودة في خزاناتنا و تمر عبر خوادمنا و نستطيع إلغائها كلها و محوها بحيث تتلاشى تماما خلال ساعات ، إلا أنها تبقى موجودة لتفيدنا و لتتعذب بها أجهزة الشرطة و المخابرات ريثما يكتمل مشروعنا الكوني ، و أيضا لتكون مبررا لتدمير كافة السجلات الرسمية في العالم قبل إكتمال مشروعنا ، لتحل محلها سجلاتنا التي نعدّها عن كل ما يدب على الأرض و التي لا تحتوي إلا على ما نريد أن يقرأه العالم في المستقبل الذي نصنعه له.

ثم التفت إلى الحضور قائلا : سيدي البارون ؛ سنقدم للبروفسور برنار مساحة كافية على الشبكة الظل ، هذه المساحة سيدير منها أعمال تجنيد المقاتلين للجيش الأسطوري ، و ستعمل كالتالي :

سنبنى موقعا الكترونيا خاصا بالبروفسور على أحد الخزانات العامة ، و سنجعل هذا الموقع مرموزا تماما بحيث لا يمكن التعامل معه إلا من خلال متصفح خاص يشبه المتصفحات العادية إلا أنه يتميز برقم خاص لكل نسخة و بخاصية تسمح لمستهعمله باستخدام موقع البروفسور و قراءة رموزها و قد ترجمت إلى لغة مقروءة و مفهومة ، و سنسمي الموقع بإسم الشيخ فراس .

هذا المتصفح سيتيح لنا تحديد موقع الشخص الذي يستعمله بدقة ، طبعا لن يتمكن أحد من استعمال المتصفح الآنف إلا بعد اجتياز امتحان معقد لشخصيته بآلية خاصة تبث من الموقع نفسه ، امتحان يتكرر عند كل اتصال ، يحدد هوية المستخدم و رقم و هوية نسخة المتصفح الإلكتروني نفسه .

هذا الموقع سيتصل بغرفة عمليات البروفسور و سيشرف على عمله فريق كبير من خبراء مؤسساتنا المتخصصة ، و سيمكن عبره نقل الأموال و شراء المعدات و تنظيم الرحلات و تنقلات العناصر و المعدات ، و سيضم سجلاً ضخماً كاملاً لكل أعضاء الجيش الأسطوري مع تفاصيل كاملة عن هوياتهم و بصماتهم حتى الوراثة منها و تواريخ حياتهم .

في اليوم التالي تحدث البروفسور برنار ؛ فشكر السيد ويليامسن ، ثم راح يشرح للحضور عن كيفية استخدام الموقع في تجنيد العناصر الجدد فقال :

هذا الموقع الإلكتروني الضخم سيجعل المجندين في جماعة الشيخ فراس يشعرون بأنهم قد وجدوا ما كان يحلم به آبائهم ، سيشعرون أنهم انضموا إلى جيش يملك أسباب القوة و العظمة و تقنيات الحرب الحديثة ، و أن هذا الجيش منظم و قادر على مناصرة الجيوش الحديثة بكفاءة و قوة ، إنه حلم العرب القديم المتجدد منذ أن جلت عن بلادهم القوات التركية بداية هذا القرن .

غرفة عملياتنا التي تدير القناة الإخبارية في الدولة العربية المجهرية ستختار من بين المتواصلين العرب أولئك المتحمسين المطابقين للمواصفات المطلوبة ، سنرسل إليهم الدعاة المدربين من جماعة فراس و الجمعية الإسلامية ، هؤلاء الدعاة ستكون لديهم نسخهم الخاصة من المتصفح الخاص بموقعنا ، ستكون نسخهم ذات قدرة محددة على التجول في الموقع و تصفحه ، إذ ستسمح لهم بقراءة أدبيات الجماعة و الإستماع لخطب فراس و أعوانه ، أيضا ستتيح لهم متابعة الأشخاص الذين نكلفهم بدعوتهم ، و تلقي الأوامر و المعونات المالية اللازمة ، بدورهم سيمنحون أهدافهم الذين يتم تجنيدهم نسخا من نفس المتصفح لا تتيح لهم أكثر من سماع خطابات فراس ، و تلقي الأوامر و التوجيهات من قادتهم المباشرين ، و تلقي المعونات المالية و المعدات ، طبعا سنحرص على أن تنقطع علاقة المجند بالداعية الذي جنده ، و ذلك بمجرد التحاقه بمعسكرات التدريب الخاصة بالجماعة في الصحارى الإفريقية الشمالية الشرقية .

مهمة الدعاة محدودة ، إذ سيكون على كل منهم تجنيد عدد معين من الأهداف لا يزيد على المائة مثلا ، ثم ينتقل الداعية إلى بلاد خراسان ملتحقا بجماعة فراس ، ليعمل في الإرشاد العقائدي ضمن فصائل جماعة فراس المرابطة في ثكنات خراسان.

هذا فيما يتعلق بالدول العربية ، أما في أوربة و أمريكا فستقوم الجمعيات الدينية الإسلامية التي تتبنى النسخة النجدية للإسلام باختيار الشباب الناجحين ماليا و تعليميا لتجنيدهم في سلك الجيش الأسطوري ، كالأطباء و الصيادلة و التقنيين و البنائين ، كما تعلمون فإن جميع زعماء هذه الجمعيات يعملون في منظوماتنا بشكل غير مباشر ، و سيكون لهم ارتباط بالموقع الإلكتروني ، إلا أن الإتصال الشخصي سيكون هو أساس العلاقة بين الدعاة و بين الجماعة من جهة ، و بين الأهداف المطلوب تجنيدهم و بين تشكيلات الجماعة من جهة أخرى ، و ذلك لسهولة تنقل هؤلاء الناس من و إلى خراسان بتغطيتنا الكاملة.

بعد هذا الإجتماع انطلقت المنظومات تعمل في كافة الإتجاهات ، فلقد تأسست المواقع الحوارية على الشبكة ، و نمت في وقت قصير جدا ، و بدأ الدعاة في استهداف أولئك المتحمسين المتفاعلين مع القناة الإخبارية و مع المواقع على الشبكة ، و بدأت أمواج "المهاجرين" في التقاطر إلى مدن خراسان ، عشرات آلاف المهاجرين من الشباب المتعلمين جيدا مع زوجاتهم المتدينات و أطفالهم و مدخراتهم و جميع مقتنياتهم ، و لقد أقيم من أجلهم جسر جوي بين عاصمة البلد العربي الإفريقي الذي يؤوي فراس و بين عاصمة بلد عربي صغير في الجزيرة العربية وصولا إلى خراسان.

أيضا بدأت قوافل المهاجرين بالتحرك من أوربة إلى خراسان ، و طبعاً عبر نفس العاصمة العربية الآنفة ، هذه الرحلات تمت بأمان و دون عراقيل على مدى ستة أعوام ، على الرغم من أن الدولة البتانية لا تحظى بأي اعتراف من دول العالم ، و على الرغم من أنواع الحظر التجاري و السياسي المفروض عليها ، و لعل هذا النجاح قد عزز مكانة فراس و جماعته في الدولة البتانية ، فبدا و كأنه المنقذ الهابط من السماء الذي أخرجته العناية الإلهية لمساعدة الدولة الناشئة المحاطة ببحر الأعداء ، و صارت أجواء خراسان جاهزة لإستقباله هناك..

لعل أكبر اختراق قام به الشيخ فراس داخل الدولة البتانية كان عن طريق عدد من وكلائه في مستشارية الشيخ أحمد قائد الدولة ، فلقد نجح فراس في تغيير آلية عمل الجهاز القانوني في الدولة ، و تمكن من تحويل هذا الجهاز إلى مثار نقمة الناس بعد أن كان مصدر محبتهم للدولة ، و بعد أن كان المنقذ الذي فرض الأمن و الإستقرار و الإنصاف بعد طول زمان من التعسف و الفوضى و الرعب.

هذا الإختراق تم بإشراف مباشر من البروفسور ميشيل و هو متخصص في الهندسة القانونية و الأخلاقية في الإسلام ، و يقدم نفسه للجمهور على أنه مؤرخ ، هو من أقارب البارون و من أكثرهم خبرة في هذا المجال ، ما فعله فراس كان وفق خطة

مجدولة زمنيا وضعها ميشيل و نفذها فراس و أعوانه ببراعة كبيرة ، هذه الخطة استمعت إليها مطولا في اجتماع تم في قصر البارون على شاطئ البحر المتوسط بعد حرب كسار بأربعة أعوام ، قال البروفسور ميشيل :

سيدي البارون ، إن النظام القانوني في الإسلام يعتمد على منظومة واحدة لها وجهان و مضمونها واحد ، هذه المنظومة مكونة من الشيوخ التقليديين ، و تعمل بآليات عفوية و لكنها رغم ذلك متوازنة بدقة كبيرة تشبه دقة عمل الساعة ، فهؤلاء الشيوخ هم الجهاز القضائي في الدولة ، و هم أنفسهم يقومون بعمل "المُرشدِين القانونيين" للشعب ، و لتتابع المثال التالي لفهم آلية عمل هذا الجهاز :

خداع المستهلكين محرم في القانون الإسلامي ، و تترتب عليه عقوبات كبيرة تقع على المخالفين ، و هذه العقوبات متروكة لنظر القضاة بحسب الضرر الذي تسبب به هذا الخداع ، فيبدأ بالغرامة و المصادرة و قد ينتهي بالإعدام في حالات مخلة بالأمن القومي.

و بحسب القانون الإسلامي فإن المخالف لا يعاقب على فعل إن لم يعرف أن فعله جرم يُعاقب عليه ، و هنا يبدأ عمل الجهاز القانوني ، إذ يشن المشايخ دوريا في المساجد و الملتقيات حملة توعية و تحذير و وعظ للناس من "الغش في البيع" و يعددون لهم أمثلة كثيرة من هذا الخداع ، و يحذروهم بتحذيرات بليغة من عقوبة هذه الجريمة التي يوقعها الإله على مرتكبيها في هذا العالم و بعد الموت ، و يحذروهم من ضخامة هذا الجريمة ، ذلك أن ضرر الغش قد يتعدى المشتري الواحد أو مئات المشتريين إلى آلاف آخرين انتقلت إليهم البضاعة المغشوشة ، و هؤلاء الآلاف قد يعجز القضاء عن حصرهم و أخذ حقهم في هذا العالم ، و لكن الإله لن يعجز عن هذا و ملائكة الحساب سيسجلون كل الأضرار التي تسبب بها الغشاش و سيرزونها ضده في محكمة العالم الآخر ، و سيعاقب هناك بقسوة رهيبة لا يتحمل العقل تصورها أو تصور مثال قريب لفظاعتها.

هذ الوعظ سيؤدي تسعة أعشار عمل الجهاز القانوني لأنه سيردع الناس المؤمنين عن الغش خوفاً من الإله الذي يعرف ما يفعلونه علنا و ما يفعلونه سرا.

بعد المواعظ يبدأ عمل آخر للشيوخ التقليديين ، فالناس يشكون إليهم ما يجدونه مخالفا لمواعظهم و إرشاداتهم من عمل بعضهم البعض ، فيتصل المشايخ سرا بمرتكي المخالفات ، حتى لا يهينوهم بوعظهم علنا و لا يدفعوهم للعناد و النقمة على الدين ، فيحذروهم بالنصح السري و التوعية الشخصية المباشرة ، و غالبا ما ينجحون في مسعاهم هذا بنسبة تسعة أعشار الحالات ، فإن فشل هذا المسعى يقوم المشايخ أخيرا بإرشاد أصحاب الشكايات إلى رفع شكاياتهم للقضاء ، و هكذا نرى أن عمل هؤلاء المشايخ الإرشادي الاجتماعي قد وفر وقاية كبيرة للناس من الوقوع تحت طائلة المقاضاة بسبب الغش ، و لو

ألغى هذا العمل الإرشادي لتضاعف عدد المتهمين بالغش مائة مرة على الأقل و لعجت بهم قاعات المحاكم و مراكز التوقيف.

في النهاية يقوم القضاة و هم أيضا من الشيوخ التقليديين بعملهم في قمع مرتكبي الغش و معاقبتهم و التعويض على ضحاياهم ، ضمن آلية تبدأ بتقديم الشكوى من الضحايا إلى القاضي ، ثم التحقيق السري في الشكاوى بإشراف موظفي الإستقصاء و الشرطة ، ثم يوجه الاتهام للمخالف و يحاكم حسب الأصول و يعاقب إن وجدته القاضي مذنباً ، و بهذه الآلية يكافح المسلمون الغش.

إلا أن البروفسور الكبير مخترع النسخة النجدية للإسلام أضاف إلى هذه الآلية جهازاً جديداً جذاباً ، حولها إلى أداة للفوضى و الوشائيات و نشر الرعب و القلق ، و صارت وسيلة للانتقام الفردي بين أبناء المجتمع بعضهم من بعض ، هذه الآلية سميت بـ "هيئة الأمر بطاعة الإله و الزجر عن معصيته".

ظهرت هذه الآلية على يد جماعات البدو التي أسست الدولة النجدية الدينية الأولى قبل نحو من قرنين و نصف ، و لقد برر البروفسور تأسيس هذه الهيئة بآية في القرآن هي : {و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون}. الواقع أن المشايخ التقليديين يفسرون هذه الآية بأنها أمر بمنح المشايخ الإستقلالية و التفرغ المالي و السلطة للقيام بما يقومون به من عمل بحسب الآلية التي ذكرتها آنفاً ، إلا أن بروفسورنا العظيم جعل هذه الآية مبرراً لإنشاء هيئة خاصة للشرطة الدينية ، شرطة أعضاؤها من الرجال أشباه المتعلمين ، و لديهم سلطات واسعة لتوقيف المشتبه بارتكابهم مخالفات دينية لأدنى شك ، و سلطات غير محدودة للتفتيش و التحقيق مع من يشك بارتكابهم للمخالفات ، سواء أكان شكاً تسببت به شكاية كيدية ، أو كان باجتهاد أفراد دوريات هذه الشرطة .

لقد جعلت النسخة النجدية قمع المخالفات لقوانين الإسلام مهمة متعلقة بهذه الشرطة أساساً ، و تركت الإجراءات الشكلية و الورقية لقضاة الدولة النجدية لتدوين و إبرام أحكام العقوبات على المخالفين.

بموجب هذه السلطات لاحقت هذه الشرطة أولئك الذين يغيبون عن الصلاة في المسجد خمس مرات يومياً ، و راح عناصرها يدهمون البيوت التي يشكّون بأن فيها رجالاً لا يحضرون الصلاة في المساجد بانتظام ، أو يشكّون بأن فيها آلات موسيقية أو حفلات غنائية أو حتى أشخاص يدخنون الشيشة ، و راحوا يجرون في الطرق خلف النساء اللواتي لا يحققن لباسهن شروط الحشمة الدينية بنسبة مائة في المائة ، و يعتقلونهن و يقتادونهن إلى مقراتهن للتحقيق ، و راحت دوريات هذه الشرطة تلاحق النساء في الأسواق لمنعهن من التحدث إلى الباعة ، و منعهن من التسكع في الطرق للتسلية و الترويح ، و لم يتردد أفراد هذه الشرطة في توجيه التوبيخ و الإهانة إلى من يرون أنه يخالف قانون الإسلام مهما كانت مكانته بين أبناء

مجتمعه و أينما كان مكان وجوده ، سواء في جوف بيته أو في محل عمله ، لقد تدخلت هذه الشرطة في كل شيء ، و صارت سببا في نقمة الناس على رجال الدين كلهم دون تمييز ، و جعلت التدين شيئا مقترنا بالقمع و التجسس و الرقابة الخائقة ، و لم يفرح العامة يوم أن قضى باشاوات الأتراك على الدولة النجدية الأولى كفرحهم بالخلاص من هذه الهيئة و أعضائها الشباب الأجلاف القساة المتعجرفين ذوي الوجوه العابسة المكفهرة دوما.

يجب على فراس و رفاقه الذين يحيطون بالشيخ أحمد أن يقنعوا قادة الدولة البتانية بتأسيس هيئة مماثلة لتلك التي أضيفت للنسخة النجدية للإسلام ، و أن يوفرها لعناصرها الفرصة حتى يحلّوا تدريجيا محل الشيوخ التقليديين ، و عندما تحين ساعة العمل ستستهدف ضرباتنا المدمرة تلك الهيئة ، حتى يهلل الناس لضرباتنا و يشكرونا على سحقتنا للدولة البتانية و للجيش الأسطوري الحليف لها.

وافق البارون على مشورة البروفسور ميشيل ، و أبدى إعجابه بذلك الإقتراح ، و لقد وقفنا و صفقنا طويلا في نهاية حديث البروفسور إعجابا بحكمته و براعته.

لقد استطاع فراس أن يحقق هذا الإختراق لنظام الحكم في الدولة البتانية في العام الأول لوصوله إلى خراسان ، و كان نجاحا عجبيا لدرجة أن الهيئة البتانية كانت مطابقة للهيئة النجدية انطباق الكف بالكف ، فانتشرت في شوارع مدن خراسان مجموعات كثيرة من الشباب الملتحين بلحي مشعثة ، يرتدون سراويل مشمرة عن أقدامهم ، و بأيديهم العصي و السياط الجلدية و يضعون في أفواههم أعواد تنظيف الأسنان ، و ينظر الناس إليهم بعيون تقطر حقا و احتقارا ، و لقد كان هؤلاء الشباب يرون هذه النظرات و يفسرونها بأنها تعبير عن ضلال المسلمين في خراسان و حقدهم على الإسلام ، فهؤلاء الشباب يؤمنون بأنهم يمثلون الإله الواحد على الأرض و من يعترض عليهم سرا أو علنا يعترض على الإله و من يعترض على الإله مجدف و منافق.

و بالعودة إلى بلادنا فلقد سارت بنجاح معظم الخطط التي أبرمت لها خلال العقد الذي تلا حرب كسار ، و بالخصوص خطة انتشار النسخة النجدية بين الشباب ، و جدير بالذكر أن المفتي الجمعي قد ساهم مع فريقه في نشر هذه النسخة بشكل كبير.

هذا العقد تميز بسيطرة الخواجة موري على كل شيء ، و لقد أدى تضخم احتكاراته بشكل كبير جدا إلى ضيق هامش الأعمال الفردية و المتوسطة و الشركات الصغيرة حتى كادت أن تنعدم فرص هذه الأعمال في البقاء ، لقد تحول جميع الشباب تقريبا إلى أجراء لا يحلمون بأي نوع من الإستقلال المهني ، أو إلى عاطلين مزمنين عن العمل يلهثون وراء أية فرصة عمل من أي نوع دون جدوى ، هذا عدا عن انتشار ظاهرة جديدة تماما على المجتمع سميت بـ "العنوسة" ، فصار عاديا جدا

أن ترى فتاة بلغت الثلاثين و لم تتزوج و أن ترى رجلا في الأربعين دون زواج ، و لقد تفاقمت نسبة هؤلاء (اليائسين) حتى صاروا أكثر من ربع الشبان و الفتيات ، و لعل هذه الظاهرة كانت السبب الأكبر في احتقان الشباب إلى درجة الانفجار.

رغم كل هذا الإحتقان راح المشايخ التابعون للمجمعي يستفزون مشاعر الغضب عند الشباب بشكل وقح للغاية ، فلقد حفلت القنوات التلفزيونية بلقاءات معهم و حوارات ليس فيها سوى كيل المديح لحكم هرثمة و لإنجازاته الباهرة على صعيد التقدم العمراني و الرفاهية الاقتصادية و الإجتماعية التي ينعم بها الشعب ، و فوق ذلك منع المجمعي كافة المشايخ من التصدي لأية أفكار أو دعوات للنسخ غير التقليدية للإسلام ، و هكذا خلا الجو تماما من الموانع الحقيقية لنجاح خطتنا ، فتكاثر أتباع النسخة النجدية بين الشباب في المدن الكبرى خاصة حتى بين أبناء الأثرياء ، و انتشرت أفكار هذه النسخة في البلاد انتشار النار في الهشيم ، لقد نجح الدعاة الذين انتقلوا من الجزيرة العربية إلى بلادنا في الظهور و كأهمهم هم المشايخ الحقيقيون في البلاد ، و راحوا يصورون جميع المشايخ و خاصة التقليديين منهم على أنهم مجرد منافقين و موظفي دعاية أجراء عند هرثمة.

أيضا انتشرت مجموعات صغيرة سرية للجمعية الإسلامية في سائر أرجاء البلاد ، و استطاعت أن تحقق اختراقات كبيرة في الأرياف ، إلى درجة أنهم أقاموا كيانات ريفية شبه مستقلة في الأرياف المحيطة بالعاصمة و المدن الكبرى ، و استطاعوا إنشاء مؤسسات تجارية و طبية كلها عملت تحت سماع و بصر منظوماتنا من مخبرات و مراقبين و مستشاريين أوروبيين.

بعد حرب كسار بعامين حصلت "مصادفة" سيئة ، فلقد مرض كل من هرثمة و كسار و حاكم الدولة العربية المجاورة ذو النسب المقدس بمرض قاتل و بدأ البحث جديا عن خلفاء لهم في واجهات الدول الثلاث ، و لأجل هذه الغاية عقدت عدة لقاءات في أوربة لبحث أمر خلافتهم ، في البداية كان البحث جاريا في كبار الأسر الحاكمة في هذه البلدان لتولي السلطة تاليا ، إلا البارون ياكوب حسم الأمر في النهاية لصالح تولى أبناء هؤلاء الثلاثة لواجهة الحكم بعدهم ، كتم البارون غايته من هذا القرار و لم يشرحها لأحد إلا بعد عدة سنوات.

إلا أن الأمور لم تسر على مايرام بالنسبة لكسار ، فابنه الكبير مصاب بنوع من الجنون حوّل إلى شخص ساديّ فظّ جداً ، و لم تفلح كافة محاولات المدرّبين و الخبراء النفسيين في ترميم شخصيته بحيث يبدو حاكما ، فهو يرى في قتل الناس متعة كبيرة خاصة عندما يكون المقتول منتشيا من الخمر أو الجنس !.

أما ابنه الأصغر فلقد كان رجلا مهووسا بالصيد و الرحلات و لم يكن قادرا على الظهور بشكل جدي و مقبول ، إلا أنه كان من الممكن تأهيله بعد فترة غير قصيرة من التدريب .

أيضا هرثة لم يكن أفضل حظًا من كسار في هذه النقطة ، فلقد كان ابنه الكبير مصابا بنوع خطير من جنون العظمة يمنعه من التصرف بلباقة في اللقاءات و المحافل ، أما ابنه الثاني فهو شخص مهزوزا جدا و مصاب بما يشبه الفصام ، و السبب كان اضطهاد هرثة له لأنه كان في الحقيقة ابن أحد منافسي هرثة العشائريين من زوجة هرثة التي كانت تدمن العلاقات الجنسية الجانبية حدّ الهوس ، و لم يكن هرثة يجرو على التصريح بهذه الحقيقة طبعاً.

رغم أن إخوة كسار و هرثة كانوا يتمتعون باستعدادات كافية لتسلّم الواجبة في بلدانهم إلا أنّ البارون أصرّ على تعيين الأبناء ، و أمر بمباشرة مراحل الإعداد ، و بنصيحة من البروفسور برنار تقرر إيفاد ابنين من أبناء كل واحد من هؤلاء الزعماء إلى أوربة للإلتحاق بكليات خاصة لإعدادهم لخلافة آبائهم.

الحاكم المنتسب للسلالة المقدسة كان الأوفر حظا ، فإبنه الأكبر كان ضابطا في مخبرات دولة أوربية ، و لم تكن لديه مشكلة سوى أنه كان يجهل اللغة العربية تماما ، و يعتنق ديانة البارون بحكم أنه تربى عند أمه التي تنتسب إلى عشيرة البارون.

التحق هذا الإبن بدورات مكثفة لتعلم اللغة العربية ، و تلقى دروسا في الثقافة العشائرية في بلاده ، فغالبية أهل بلاده من عشائر العرب البدوية ، و لكن الفتى كان بارعا حقا و صار جاهزا بعد أعوام ليحل محل أبيه.

أكثر ما كان يصرّ البارون على المحافظة عليه في شخصية هؤلاء الخلفاء القادمين كان التفاهة و الركافة و الإرتباك ، فلقد كان يوصي دوما بعدم إظهار أي احترام لأولياء العهود هؤلاء أثناء تدريبهم أو اللقاء بهم ، و أصرّ على إبقائهم في خوف دائم من العقاب بالموت في حال ارتكاب أحد منهم لأي خطأ ، و هذا حوّلهم بالفعل إلا ما يشبه الممثلين المبتدئين الذين يلعبون أدوار البطولة في مسرحيات يمثل فيها ممثلون كبار.

بالعودة إلى خطط الجيش الأسطوري ، فلقد عقدت في جزر المتوسط التي يملكها البارون عدة لقاءات خاصة و مغلقة دعيت إلى عدد منها ، في أحد هذه اللقاءات تحدث البارون ياكوب بإسهاب نادر ، و سأذكر نتفا من حديثه هذا ، قال البارون : إن نهاية ما سمينها بالحرب الباردة قد خلق صفّا من الضباط الأوربيين و الأمريكيين الراغبين في عالم بلا حروب ، الإيمان المسيحي هؤلاء و إطلاعهم على زيف مواجهات تلك الحرب التي استهلكت نصف قرن من حياة الكوكب ، تسببا في نقمتهم على كل النظام القائم ، و لقد أعطانا هؤلاء إشارات لا تخطئ حول توجهاتهم و مشاعرهم الحقيقية تجاه الشعارات الكبرى و فكرة القوى العالمية العظمى ، هذه الإشارات قرأناها في آرائهم المعارضة دوما على خطط تطوير و إنتاج أسلحة مدمرة جديدة ، هؤلاء ليسوا منظمين إلى هذه اللحظة إلا من خلال التوافق الفكري و العاطفي ، و لم تشر مخبراتنا إلى أي نوع من التنسيق بينهم ، و لكن من خلال متابعتنا لهم وجدنا أنهم موبوؤون تماما بأفكار جماعات الرفق بالفقراء و المعدمين و المحرومين ، و معظم هؤلاء قدموا تبرعات سخية لملاجئ أيتام و لمعاقبي حروب و حملات إزالة آثار الحروب و غيرها ، و هذا

يعني أنهم في طريقهم الحتمي للتلاقي و التنسيق و الإنتظام في سلك واحد ، و لكم أن تتخيلوا ما قد يفعله هؤلاء إن تجمعوا ، و لعل ذكريات دمار أوربة و اليابان و شرق آسيا لم تُنَح بعد من ذاكرة أهلنا و إخواننا.

إن ترك هؤلاء سيوصلنا إلى صحراء قاحلة في نهاية الأمر ، و سيجعل كل جهودنا خلال القرون الماضية رمادا ذرته الرياح ، و سنقف لنتفرج على منظوماتنا تنهار أمامنا كأحجار المعبد المقدس الذي هدمه أعداؤنا ، و هدموا معه أمجاد أجدادنا ، لقد تسبب بتلك الكارثة الغابرة جيل من أجدادنا آمنوا بالسلام و رفضوا خوض الحروب المقدسة ، فأضاعوا فرصة إنجاز إمبراطوريتنا العالمية الواعدة آنذاك.

أيها السادة نحن بحاجة إلى ضربة واحدة تعيد إلى عيون و قلوب رعييتنا الحماسة للحرب ، و الخوف من العدو و الحلم بعالم مثالي جميل يأتي بعد النصر على الأعداء المتوحشين الذين يفسدون روعة مسيرة العالم التي نوجهها نحو التقدم و الكمال.

الجيش الأسطوري سيوفر لنا هذا العدو العالمي ، لذلك يجب أن تكون النسخة التالية من هذا الجيش عابرة للقارات ، و ذات حجم عالمي مبهر لا يقل ضخامة عن ضخامة الفزاعة الشيوعية ، و يجب أن تكون نسخة مفرعة حقلا لا من حيث عدد ضحايا هذا الجيش ، و لكن من حيث قسوة و بشاعة أسلوب قتلهم ، و من حيث قرب خطر هذا الجيش من أي إنسان مهما ظن أنه بمنأى عن أذى جنوده عديمي الرحمة ، و أيضا يجب أن تكون هذه النسخة غير مرئية بحيث تكون فكرة تعقبها أمرا مقعدا جدا ، يسبب تخيله و التفكير بصعوبته مغصا و قلقا للإنسان في أوربة و أمريكا أكثر من تخيل غزو للجيش الأحمر لعواصم العالم المسيحي.

أما عن تقديم الجيش الأسطوري للعالم ؛ فلن نقدمه هذه المرة على أنه حركة ثورية تناضل ضد الإستبداد و الهيمنة ، و إنما سنقدمه على أنه جيش يقاتل من أجل فرض عقيدته ، جيش قادر على الغزو و الضرب عميقا و بقوة في أعظم حصون العالم المتقدم.

لقد اقترح علي بعض المستشارين أن نصنع لهذا الجيش معركة كبيرة جدا ، على غرار هجوم اليابانيين على ميناء البحرية الأمريكية بيرل هاربر إبان الحرب العالمية السابقة ، و قبلت الفكرة.

وضع المستشارون أمامي عدة مخططات للهجوم ، و لقد اخترت أحدها و أجريت عليه تعديلات هامة ، و إليكم التفاصيل :

باعتبار أن الجيش الأسطوري مقره في خراسان فليس معقولا طبعاً أن تغزو إحدى فرقه أرضاً أوربية و تحتلها ، و إنما سيظهر هذا الجيش في أراضي الدول المتقدمة من خلال ضربة إنتحارية كبيرة ، تستهدف رأسا كبيرا جدا في هذه البلاد ، و وقع اختيارنا على عاصمة المال و التجارة العالمية لتلقي هذه الضربة ، و ليكون هدف الضربة هو أكبر المباني التجارية في المدينة ، بهذا سيبدو هجوماً مجنوناً همجياً قاسياً على سعادة و رفاهية و تقدم كل العالم المتقدم .

و عرضت علي عدة أفكار لنوع هذه الضربة ، بعضها اقترح صاروخا ، و بعضها اقترح هجوما كبيرا لمسلحين يختطفون المبنى ، و أما أذكائها فكانت فكرة معدلة عن هذه الأخيرة ، و هي أن يختطف مسلحون عدة طائرات في وقت واحد و يقومون بضرب المبنى إنتحاريا بأجسام هذه الطائرات المخطوفة مع حملتها.

واجهت هذه الفكرة الرائعة عقبة فنية كبيرة ، و هي أن ارتطام الطائرة بهذا المبنى سيكون أشبه بارتطام قارورة مليئة بالوقود بجدار إسمنتي ، لن يحدث سوى تجويف سطحي و حريق يمكن تداركه ، فجسم الطائرة هش جدا و أجوف و مصنوع من الألمنيوم المعدن الضعيف المتانة ، بينما هيكل جسم المبنى مصنوع من أمتن أنواع الفولاذ في العالم !.

هذه العقبة تمكن أحد مهندسينا العباقرة من تجاوزها بفكرة رائعة لا تخطر في بال أحد من غير أولئك الذين يحملون مورثات أجدادنا العظماء ، هذه الفكرة هي صناعة طائرة لها نفس حجم و وزن الطائرة العادية ، إلا أن جدران القسم الأمامي منها مكسوة بطبقة من المتفجرات تحيط بقمع معدني كبير ، على طريقة الحشوة الجوفاء المضادة للدروع و تتركب عليها نفس الآليات التي تتركب على مضادات الدروع ، و توزيع حشوات مماثلة على الأجنحة حتى يبدو و كأن جسم الطائرة اخترق جسم المبنى ، طائرة كهذه سترتطم بالمبنى و ستخترق جسمه الفولاذي موصلة اللهب إلى الطرف الثاني منه في نقطة واحدة فقط ، هكذا سيبدو مشهدا مخيفا و مدمرا ، ثم و بعد اشتعال الحريق ستتخلص من المبنى بنفس طريقة هدم المباني العالية المعتادة على أن يبدأ الانفجار المتسلسل من نقطة ارتطام الطائرة ، أو الطائرتين ليبدو و كأن المبنى سقط بفعل الارتطام.

مقاتلوا الجيش الأسطوري الذين سينسب إليهم الهجوم ، سيتولى البارون روبرت و البروفسور برنار اختيارهم من بين أولئك الذين تلتقطهم خلايا التجنيد التابعة للجيش الأسطوري.

طبعاً لا داعي لتذكيركم بأن هؤلاء لن يختطفوا أية طائرات و لن يفعلوا شيئاً سوى أن يتلاشوا في مكان ما ، لتبقى هوياتهم و أشخاص عائلاتهم الشكلى حتى تعمل ضمن المسلسل الروائي الطويل ، ذلك الذي ستعرضه قنوات البارون روبرت لأعوام لاحقة ، عن الهجوم الأسطوري للجيش الأسطوري على القوة الأسطورية العظمى الأكبر في التاريخ.

طبعاً ستكون لهذه الخطة كغيرها ثغرات كثيرة سيتولى المختصون النفسانيون في قنوات روبرت تغطيتها ، و أنا واثق من أن الخوف و الرعب من غضب الأسد الأمريكي الجريح سيكونان ستارا سميكا ، سيمنع أي أحد من التدقيق للبحث عن الأخطاء الفنية فيما سيعرضه الإعلام من استعراضات هائلة عن "بيرل هاربر" الجديد.

هذه الضربة ستكون عالمية و ستعطي الذريعة الكاملة لتشكيل حلف أوربي أمريكي يجدد حلف الحرب الباردة ، و سيقوم هذا الحلف بحرب محدودة على المملكة اللبنانية ، تحالفنا الجديد سيحرر من الفناء المصدر الأعظم للدخل و النفوذ ، ذلك الذي

غذى و يغذي منظوماتنا ، إنه أفيون خراسان ، الذي بات يُخشى عليه من الإنقراض على يد البتانيين المتخلفين أعداء السرور و المتعة و النشوة.

طبعا سيتبنى فراس الهجوم بطريقة ما ، و سيكون هدف الحرب المعلن هو تدمير الجيش الأسطوري - الذي يقوده فراس و تؤويه مدن و جبال خراسان - انتقاما لآلاف من القتلى الذين راحوا ضحية مأساة بيرل هابر الجديدة. انتهى كلامه.

بعد عدة أعوام علمت أن شركات الإنتاج السينمائي التابعة للبارون روبرت تمكنت فعلا من إنتاج فيلم قصير من عدة دقائق يظهر هجوما انتحاريا بالطائرات على أعلى مبنيين في عاصمة التجارة العالمية ، و لم أتمكن من رؤية هذا الفيلم إلا بعد عرض نسخته الحقيقية على شاشات القنوات الإخبارية التابعة لروبرت في أنحاء العالم ، البارون كان قد شاهد المقطع بعد حرب كسّار بسبعة أعوام و أعطى الموافقة على المضي في تنفيذ الخطة ، و لقد كانت المحاكاة أكثر واقعية من الواقع نفسه كما أخبرنا.

بعد حرب كسّار بسبعة أعوام أيضا مات كسّار ، و لم يخلفه أحد إبنه بسبب تغير الخطط ، و إنما نابت عن كسّار في الواجهة أشرطة كثيرة سجلت قبل موته و عرضت بعده تباعا بحسب المناسبات ، كان شقيق الخواجة موري قد تولى عمليا أمور دولة كسّار بمعونة الجنرال حنا.

و في نفس العام مات الحاكم ذو النسب المقدس و عيّن إبنه مكانه ، و بعد عام مات هرثمة العظيم و خلفه ابن زوجته المهزوز.

لم تتح لابن هرثمة الأكبر "غطريف" فرصة تولي السلطة لأنه قُتل قبل موت هرثمة ، و قصة قتله طريفة بعض الشيء فلقد نشأ الفتى و هو يرى والدته تنتقل بين أيدي العشاق ، لكن لم يكن هذا مزعجا له و لا لهرثمة و لا لأي أحد ، إلا أنه عندما صار رجلا و بدأ يقيم علاقات جنسية مع الفتيات اللواتي يحضرن إلى نادي الأسر الحاكمة تعرف إلى فتاة من أقارب اللواء ريمون ، أخبرته هذه الفتاة الحلوة أن هرثمة ليس والده و أن والده الحقيقي هو صديق أمها (أي أم الفتاة) ، و بالفعل تحرى غطريف نسبه و تعرف على أبيه أنتوني ، أجرى الفحوصات الطبية اللازمة في مخابر أوربة ، و تأكد بشبه يقين من أن أنتوني هو أبوه الحقيقي ، خلال لقاءتهما أقنع الأب الحقيقي ابنه باعتناق دينه و ترك الديانة السرية و أعبائها الثقيلة و طقوسها المهينة جدا لأتباعها ، بقي فقط أمر تعميده و إشهار اعتناقه لديانة أبيه ، حاول غطريف أن يقنع أمه بالفكرة فرفضت و جمعت أخواله و هم رؤساء أتباع الديانة السرية في البلاد ، فتداولوا الأمر و بيعاز من البارون تم رفض الطلب ، و لكن الفتى أصّر و هدّد بعقد مؤتمر صحافي أو بتسريب الأمر للإعلام ، هذا ما أدى لأن يصدر البارون أمرا سريريا لرفاعة شقيق هرثمة بتصفية غطريف.

لم يفرح رفاعه بأمر كهذا الأمر فلقد كان يبغض غطريف جدا ، لأنه تفوق على رفاعه في دمويته و وحشيته ، و انتزع بهذه الوحشية بطاقة خلافة هرثمة من رفاعه ، و لهذا تفنن رفاعه بمهمة إعدام غطريف و أداها بسرور بالغ و بسادية و قسوة ، فلقد استعمل الفتاة الحلوة التي ملكت قلب غطريف طعما ليستدرج العاشق إلى حتفه ، و في التفاصيل التقى درغام بن رفاعه بالفتاة في بعض السهرات الخاصة ، و أقنعها بالانتقام لأبيها من عشيق أمها أنتوني (والد غطريف) ، و ذلك بأن تحرق قلبه على إبنه العائد ، و بأن تنتقم أيضا من غطريف الذي رفض الزواج منها و أصر على متابعة علاقته الجنسية معها دون زواج ، و بالفعل ألحت الفتاة على غطريف ليصحبها في نزهة إلى أوربة خلال أعياد نهاية السنة ، و تواعدت معه على اللقاء في مطار عاصمتنا ، لم يكن ممكنا لرجال رفاعه تحديد وقت مرور غطريف على أي طريق و لا استدراجه إلى طريق مقفر دون حراسة إلا بهذه الوسيلة.

تنكر غطريف و اصطحب معه شخصا واحدا و لم يخبر أحدا بخروجه أو بوجهته ، ثم خرج بسيارته إلى المطار ، في الطريق كانت سلسلة من العبوات الناسفة ذات الوهج الحراري المرتفع بانتظاره ، طارت سيارته المدرعة في الهواء و انقلبت عدة مرات ، بعد أن استقرت السيارة لم يكن غطريف قد قتل ففي سيارته الأوربية الخاصة الكثير من وسائل الأمان ، لكن و بخطوة غبية جدا فتح مرافق غطريف باب السيارة المدرعة لينجو من جحيم حرارة السيارة ، فتلقفه رجال رفاعه الذين كانوا يراقبون الموقع و أجهزوا عليه و على غطريف بالعصي المعدنية ليبدو الأمر و كأن مقتله كان بسبب الصدمة.

و لتسوية الأمور أوعزت للجميع بالبدء بحملة إعلامية من الندب و المآثم على غطريف و كأن السماء سقطت على الأرض ، خلال هذه الحملة راح رجال المخابرات و حزب قاع يتفنون في إظهار عبادتهم المطلقة لهرثمة ، و ملأوا شوارع البلاد و راحوا يتبارون في التنكيل بمن يُرى مبتسما علنا ، و أغلقت المحلات التجارية لأيام ، خلال هذه الحملة تم جمع عدد غير قليل من الشامتين بفقيد الأمة العظيم و شحنت أجسادهم قبل موتها إلى منظومات تجارة الأعضاء و غيرها ، كان موسم عمل نشط لهذه المنظومات و غيرها و جنت جميعها أرباحا معقولة جدا.

بعد هذه العاصفة الضبابية الملونة التي استمرت لأسابيع أمر البارون بتوجيه الأضواء نحو مرسال ، إنه الأخ - غير الشقيق طبعا - لغطريف و هكذا استقرت الأمور لمرسال المهزوز المريض ابن الصديق الحميم لهرثمة من "فرحة" زوجة هرثمة الشهوانية اللعوب .

تابع مرسال الحضور إلى أوربة لحضور دورات التأهيل و التدريب التي أمر البارون بإجرائها له و لأخيه القليل و لإبني كسار و لعباد ابن الحاكم ذو النسب المقدس.

مرسال هذا مصاب بعدة أمراض نفسية و تعرض لاعتداءات قاسية عدة مرات من رفاقه في المدرسة الداخلية الأوربية التي كان يرتادها في مطلع صباه ، لديه أيضا عقدة مزمنة في الخوف من المرتفعات و من الأصوات المرتفعة ، و الواقع أن البلاهة هي الطابع الغالب على شخصيته الإجتماعية ، و مع ذلك فهو واسع الإطلاع و كثير القراءة و مهووس بالإلكترونيات و ألعاب المراهقين و إنطوائي إلى حد كبير .

لم يستطع مرسال استيعاب التدريبات في تلك الدورات ، و لم يستطع تعلم لغة الجزيرة الأوربية العظمى ، و أصر على استخدام لغة دولة الإنتداب السابقة حيث تربى و درس في صغره ، و مع هذا أعلن عن أنه تخرج من إحدى جامعات الجزيرة الأوربية العظمى بدرجة الدكتوراة في الطب البصري !! .

طريقة تسلم مرسال و زميله ابن الحاكم ذو النسب المقدس لمنصب الزعامة كانت بدورها طريقة للغاية ، فالدستور في كلا البلدين لم يكن يسمح لأي منهما بتولي منصب الزعيم ، فمرسال كان أصغر من السن القانونية اللازمة للترشح لهذا المنصب بعدة أعوام ، و الأمير جميل شقيق الحاكم الوسيم ذو النسب المقدس كان هو ولي العهد رسميا ، و لكن عندما يأمر البارون تنهار القوانين و الحواجز ، فالحاكم ذو النسب المقدس كان في مشفى أوربي يواجه الموت و آلامه ، و مع هذا تم حقه بمسكنات للألم و بمنشطات و أجبر على العودة إلى بلاده ليصدر أمرا بعزل أخيه من ولاية العهد بعد أن أرسل له في الإعلام رسالة توبيخ و إهانة أذيعت على تلفزيون البلاد ، ثم قام بتعيين ابنه عبّاد بدلا عن أخيه وليا للعهد و مات بعدها بأيام .

أما عن مرسال فلقد قام ريمون بجمع ما يعرف بمجلس نواب الشعب و كان على جدول أعمال الإجتماع بند واحد هو : تعديل الدستور لتصغير السن القانونية لمن يحق له الترشح للزعامة ، و وافق المجلس على البند بالإجماع بعد مناقشات استمرت ثلاث دقائق ! لم يرغب أي نائب عن هذا الإجتماع و لم يتمتع أي منهم عن التصويت ، و طبعا لم يصوت أحد منهم ضد القرار !! الواقع أن هذا الحدث لم يقع مثله أبدا في تاريخ مجالس الحكم و النيابة و لا في جميع الدساتير في العالم أجمع منذ أن دوّن البشر تاريخهم و إلى هذه اللحظة !. كل ما حصل كان بتفاصيله بحسب أوامر مباشرة من البارون .

لقد كان العجب سيتسلل إليّ من ركافة و هزلية هذه التغييرات و افتضاح زيفها للعامة ، لولا أنني كنت قد فهمت منذ عدة أعوام السرّ في هذا التحول في طريقة إخراج الأحداث السياسية ، ففي المؤتمر الذي تقرر فيه الإذن بعملية الجيش الأسطوري الكبرى تقرر أيضا أمر هام جدا كان إقتراحا من البارون جوناثان الأب الروحي لعشيرة البارون .

في إحدى هذه الجلسات تحدث جوناثان قائلا :

أيها السادة منذ أن تسربت محاضر خطيرة عن إجتماعاتنا و خططنا قبل نحو قرن أعاد آباؤنا إحياء طريقة قديمة لتدوين تفاصيل الخطط التي نرسمها لمنظوماتنا ، أنتم تعرفون هذه الطريقة جيدا و ماهرون في التعامل بها ، إننا اللوحات المرسومة يدويا

التي تتضمن رموزا لا يفهمها إلا أولئك السادة الذين حضروا الإجتماعات و اطلعوا على الخطط و شاركوا في إبرامها و يحتفظون بها في قاعات قصورهم ، اليوم أطلب إليكم أن نصنع لوحات مقتبسة من اللوحات الـ "سجلات المستقبل" الموجودة عندنا ، هذه اللوحات المقتبسة ستحمل تفاصيل أقل و رموزا أقل بكثير من لوحات السجلات إلا أنها تتضمن رموزا واضحة جدا تشير إلى الأهداف التي نسدد نحوها في خططنا لعقود قادمة ، المفاجأة هي أنني أقترح عليكم أن نسرب اللوحات المقتبسة و نضعها في متناول يد العامة من الناس!.

سأل البروفسور برنار بدهشة : ما الحكمة من هذا التسريب ؟!

قال جوناثان : أنتم تعرفون أن عقيدتنا هي أقدم العقائد المكتوبة على وجه الأرض ، و أن جميع الأديان الموجودة اليوم مشتقة من عقيدتنا ، أو مشتقة من ديانة مشتقة بدورها من عقيدتنا ، ما تعرفونه جيدا هو أن الديانات الجديدة كلها أتت تقليدا متوحشا مشتركا ، فلقد كان أتباع كل دين جديد يدينون أتباع الديانات السابقة لديانتهم الجديدة لأنهم يدينون الديانات القديمة الأصلية التي انشقت عنها الديانات الجديدة ، السبب في هذه الإدانة أن مؤسسي الديانات الجديدة يزعمون أن أتباع الديانات السابقة قد انحرفوا في تطبيقاتهم و إيمانهم و شوهوا دياناتهم بحيث يتعذر إصلاحها و تجريدها من الشرّ الطارئ عليها و المتراكم عبر الزمن ، و صارت إعادتها إلى أصلها الحبرّ الذي وضعه الإله الحكيم أمرا عبثيا لا طائل منه ، لهذا فإن الإله الذي وضع الديانة السابقة أرسل مؤسسي الديانة الجديدة و كلفهم بفرضها بديلا عن تلك التي تشوهت ، ثمّ و إن حالف الحظ الديانة الجديدة و استقرت و بنت دولة و سلطة ، عندها يأمر قادتها أتباعهم بإذلال و اضطهاد الديانة الأصلية السابقة لظهورهم و التي انشقا عنها ، و بعد ذلك يأمرهم بإدانة كل الديانات السابقة لهم ، و لحماية ديانتهم الجديدة يزعمون أنها الديانة الإلهية الأصحّ و الأخيرة ، و أن كل من يأتي بديانة جديدة في المستقبل كذاب ملعون محتال يدعي القدسية و يبحث عن مجد زائف.

هكذا وقعت عشيرتنا و عقيدتنا ضحية لإدانات متكررة من جميع الديانات التي انشقت عنها و ظهرت بعدها ، و كلما جاءت ديانة جديدة ألصق أتباعها بنا تهماً جديدة و أضافوا إلى قائمة شرورنا (المرعومة) شرورا جديدة لم نسمع نحن بها ، و هذا هو سبب تخفيّنا و عملنا السري ، ذلك أننا مدانون بسبب إيماننا من كل أديان الأمم تقريبا.

إلا أن مؤسسي جميع الديانات التي انشقت عن عقيدتنا قد بنوا دياناتهم على أسس مقتبسة من عقيدتنا ، مع تحويرات احتاجوا إليها لجذب أنظار الرعايا إليهم و إقناعهم باتباع دياناتهم الجديدة ، لقد بنت كل الديانات أمما و صروحا إجتماعية كبيرة ، إلا أن هذه الصروح جميعا كانت تقليدا أعمى لنظام الهندسة الإجتماعية الذي جاءت به عقيدتنا ، لقد اقتبسوا أسسه العظيمة دون أن يشعروا و مارسوها بنجاح بعفوية ، و المضحك أن رجال هذه الديانات و مفكروها لم يستطيعوا أبدا عزل هذا النظام في مدونات خاصة بحيث يمكن أن تتم دراسته و فهم آلية عمله و البحث عن مفاصله ، حتى يمكن العمل

على تعديله دون أن يتحطم أو أن تتعطل منه أجزاء لا تعوض ، ذلك أنهم نظروا إلى دياناتهم نظرة ملؤها الرهبة و التقديس ، و اعتبروا أنظمتها طقوسا مقدسة لا حاجة لفهم أهدافها و إنما يجب أن تمارس حرفيا و لا حاجة لانتظار منافعتها لأنها ستظهر لوحدها بقدرة إلهية مباشرة (مكافأة إلهية) ، و المضحك أن هذه النظرة مجرد بند من بنود نظامنا العظيم اقتبسته جميع الديانات مع عقيدتنا إلا أنها نظرة يجب أن يتبناها العامة فقط حتى ينقادوا لأوامر رجال الدين ، و ليست نظرة يمكن لرجال الدين تبنيها لأنها تضعهم في حالة من العجز المطبق على مواجهة التغيرات في أشكال و أنواع التصرفات البشرية ، تلك التغيرات التي لا يمكن أن تتوقف أبدا !.

و حدهم أجدادنا العباقرة وضعوا أسسا لتدوين هذا النظام ، و إظهاره علميا كهيكل جامع يعمل عمل المكبر البصري تُقرأ من خلاله كل تعاليم عقيدتنا الأخرى ، و حدهم أجدادنا و أساتذتنا اليوم من يعرف كيف يمكن تفكيك هذا النظام و إعادة بنائه ، و حدهم من يستطيع أن يضع فيه ألغاما ذاتية الفعل تصنع آليات إنقيار متسلسلة عبر جدول زمني لا يخطئ و لا يتأخر ، و بإرشاد أجدادنا العباقرة قام إخوانهم الصغار من المغامرين الشجعان باختراق كل الصروح الاجتماعية التي أنشأتها الديانات الجديدة ، و وضعوا فيها ألغاما زمنية فأسقطتها جميعا في وقت واحد تقريبا على مدى قرن واحد من الزمن ، القرن الذي توجناه بانتصارنا الكبير مطلع هذا القرن الرائع الحافل بالمجد ، يوم أن داس آباؤنا على كل تيجان العالم و أجلسوا على عروشهم عبيدا لهم لا يملكون إلا أن يطيعوهم طاعة عمياء.

بسبب هذا العمل العظيم انتقلت كل الأملاك و السلطات إلى حيازتنا ، و بقي فقط أن نعلن للأمم التي تُديننا و تكرهنا أننا الآلهة الحقيقية التي يُصلّون لها عندما يتوجهون إلى معابدهم و أيقوناتهم و أنصأهم ، بقي علينا أن نقنعهم بأن إدانتهم لنا كانت غباء و أتباعا لخطالين اخترعوا لأجدادهم أديانا حرمتهم من النعيم الذي كانوا سيعيشون فيه في ظل عقيدتنا العظيمة ، بقي علينا أن نقنعهم بأن يستمروا في السجود لنا و تقديم القرابين حتى بعد أن نلقي أرضا تلك الأيقونات و الأقنعة التي نترع خلفها على عروش كل شيء ، تلك المقدسات التي يعتقد هؤلاء أنها رمز لغيرنا .

لقد حططنا بقوة منظوماتنا يقين البشرية في كل شيء مقدس أو حتى شرير ، و دمرنا ثقتهم في أي شيء حولهم ، و جعلناهم في حيرة مشدوهين مستذلين لقوة تزيقهم أنواع العذاب لأسباب لا يعرفوها ، و يحارون في استنتاجها و استكشافها من الأحداث الفظيعة التي جرت و تجري لهم.

اليوم آن الأوان لمرحلة أخرى نحو هذا الهدف النهائي لكل جهودنا و جهود أجدادنا ، هذه المرحلة هي مرحلة الإبتزاز العلني ، سيعرفون جميعا أننا بأسمائنا و أشخاصنا و مؤسساتنا نسيطر على كل شيء ، دون أن تكون لهم حيلة أو قدرة على فعل أي شيء حيال هذا ، و أننا انتزعنا منهم كل شيء بحكمتنا و صبرنا التي يسمونها (مؤامرات) ، و أننا نخترق كل القوانين و نخورها كيف نشاء ، و أننا ندمر أهدافا في أجسادهم و كياناتهم و مقدساتهم و أسرهم متى شئنا و كيف شئنا و بكل اقتدار ، و أن

اقتدارنا صار مطلقا لا يعوقه شيء كالقاتل المحترف الخارق الذي تعرضه قصص السينما ، سنحدد الأهداف التي سندمرها قبل تدميرها ، و سنعلن للجميع أننا سندمرها ، و سنعطيهم وقتا كافيا لحمايتها و لعرقلة خططنا و مع ذلك فإننا سندمر هذه الأهداف بلا رحمة و دون أي تعديل في خططنا المعلنة ، لأن أولئك الذين سينهضون لتحدينا من بينهم سيكونون في الحقيقة صنائع و مخلوقات لنا ، و بعض من عبيدنا الأوفياء رغم أنهم سيظهرون في مظهر المقاتلين المستقلين في محاربتنا.

سيتبارى العباقرة و الأذكىء منهم بعد أن يطلعوا على رسومنا المسربة لتوقع أهدافنا القادمة ، سيطلقون التحذيرات و سيصرخون بأعلى أصواتهم في كل محفل منذرين من الكارثة القادمة التي أعلننا في هذه الرسوم أننا سنوقعها بهم ، لكن هؤلاء العباقرة جميعا سيكونون محل سخرية كل من يسمعهم ، حتى أولئك الذين سيموتون و يسحقون تحت أنقاض هدفنا التالي سيسخرون من تلك التحذيرات قبل أن تقع فيهم ضربتنا ، و حتى بعد أن تسحقهم ضرباتنا لن يعترفوا بأننا نحن من ضربهم و سيسخرون من إتهامنا بضربهم ، لأنهم يخافون أن نوجه إليهم أبواقنا لتسخر منهم و تسخفهم و تجعلهم أضحوكة الرعاع و سخرية المجتمعات ، مع أنهم يعرفون جيدا أن الجميع يرون الإمبراطور عاريا كما يرونه هم .

أية قوة هذه التي نتمتع بها بسبب عبقرية أجدادنا العظماء الذي شقوا لنا الطريق عبر قرون ، حتى أقوى الآلهة التي تتحدث عنها كتب الديانات المقدسة لا تملك سطوة و رهبة و سلطة كتلك التي نملكها.

هذه الخطوة سيعقبها حتما يأس كامل من محاولة خدش أو خمش سلطتنا و عندها سنقف أمام الجميع لنعلن لهم أنهم عبيدنا الأقنان ، و أنهم لا يملكون شيئا مما في أيديهم لأنهم و ما يملكون ملك لنا ، و أنهم لن ينتفعوا بشيء من أملاكنا إلا بالطريقة التي نسمح بها و إلى الحد الذي نسمح به ، و سنحرق كل صكوك الملكية و نطمس كل السجلات العقارية.

رحب الجميع بأوامر جوناثان و صفقوا طويلا و أنشدوا و رقصوا ، و بعدها بأشهر قليلة ظهرت اللوحات ، و وصلت إلى موائد الرعاع و صارت من يومها حديث مجالسهم ، و صارت عرافتهم التي يقرؤون من وجهها مستقبل أمهم .

عند نهاية العام الثامن بعد حرب كسار تجمعت في مكتبي تقارير كثيرة عن رحيل الكثير من أتباع نسخة الإسلام النجدية إلى خراسان ، الأكثرون منهم كانوا من ريف بلادنا الشمالي و من ريف عاصمتنا ، أيضا الكثيرون من أتباع هذه النسخة من أبناء بلاد الحاكم ذو النسب المقدس التحقوا بخراسان ، و لكن الأكثرية الكاثرة من هؤلاء كانت من أبناء الإقليم الذي تحتله جارتنا اللدود ، و لعل اللافت للإنتباه قلة أولئك الذين هاجروا إلى خراسان من بلاد كسار مقارنة بنظرائهم من أبناء الجزيرة العربية ، على الرغم من انتشار النسخة النجدية للإسلام في بلاد كسار انتشارا كبيرا بعد حربه العتيدة ، لقد عرفت سر هذا التفاوت بعد عدة أعوام.

المهاجرون إلى خراسان كان معظمهم من الشباب المتعلمين و المتزوجين أيضا ، و اصطحبوا معهم زوجاتهم ، كان طريقهم إلى خراسان عبارة عن جسر جوي طويل ، يبدأ من بلادنا و يمر بدويلة للزيت الأسود تقع شرق الجزيرة العربية ، و ينتهي في مطار عاصمة خراسان.

كان رجال فراس يستقبلون هؤلاء الشباب و يلحقونهم فوراً للعمل بمخافر "هيئة الأمر بطاعة الإله و الزجر عن معصيته" ، كان عمل هؤلاء الشباب ينحصر في تلك الهيئات تقريبا ، إلى درجة أن هذه الهيئات ارتبطت في أذهان العامة هؤلاء المهاجرين الغرباء.

جهل هؤلاء الشباب باللغة الوطنية في خراسان ، و جهلهم بعادات الناس هناك لم يكونا عائقا يمنعهم من محاولة فرض ما يؤمنون به على السكان ، و بفظاظة كبيرة و قسوة بالغة ، و بسبب هذا تعرض الكثيرون منهم للإغتيال ، أو للخطف ثم القتل في عدد كبير من المدن و القرى ، و لقد تعمد فراس و أصدقاؤه في الدولة البتانية أن يجعلوا الإمرة في هذه المخافر شبه حصرية لهؤلاء المهاجرين ، و تعمدوا أن لا يكون للمتطوعين المحليين سلطان على تلك المخافر ، هذا الأمر جعل هؤلاء الغرباء يتحملون وحدهم المسؤولية عن كل الأذى الذي صدر عن تلك الهيئة ، و جعلهم يتلقون لاحقا الحصة الكبرى من عواقب هذا الأذى.

كانت أخبار الدولة البتانية و إنجازاتها حديث معظم الشباب المتدينين في بلاد العرب ، و خاصة في بلادنا بسبب عدم انقطاع تواصل المهاجرين مع بلدانهم الأصلية ، و لقد تأكدت كافة منظوماتنا من عدم إعاقة هذه الإتصالات أو المسائلة عنها مهما كانت خطيرة.

في نفس الوقت كان الجميع يتربص حصول تصادم ما بين الدولة البتانية و بين المنظومة الرسمية الدولية ، فلقد تتالت زيارات وفود من المنظمة الأممية إلى خراسان لبحث طلبات الشيخ أحمد للإعتراف الأممي بحكمه ، و لكن هذه الزيارات كانت تبدأ دوما بعرض الشيخ إنجازات حكومته في تنفيذ مطالب سابقة تقدمت بها وفود المنظمة ، و تنتهي دوما بمطالب جديدة تقدمها هذه الوفود للشيخ المرهق من المخاطر المحيطة بدولته و التي تكاد لا تحصى .

في ذلك العام جاءت أكبر المطالبات ، كانت مطالبة المنظمة الأممية بمنع تجارة و زراعة الخشخاش الخراساني ، كان البروفسور برنار الذي اقترح هذا المطلب مخطئا جدا ، لأنه ظن أن هذا الطلب تعجيزي مستحيل التحقيق ، و أنه سيكون جيدا لشراء الوقت و مماطلة البتانيين في الإستجابة لطلبهم بالإعتراف بحكومتهم ريثما تكتمل الإستعدادات لضربهم ، لكن بعد أشهر قليلة من تقديم هذا الطلب اختفت مزارع الخشخاش من جميع أراضي خراسان ، باستثناء منطقة صغيرة جدا كانت خارج سلطة الشيخ أحمد و كانت تسيطر عليها قوات متنوعة تابعة لأحزاب الجمعية الإسلامية و جميعها موالية لأميركا و أوربة.

عندها دق جرس الخطر بالفعل ، فلقد تضاعفت أسعار الخشخاش و مشتقاته في كل العالم أضعافا كثيرة ، و راح تجار هذه المواد يبحثون عبثا عن بدائل له من المخابر الكيميائية و المركبات النباتية النادرة ، و بدأت المخزونات التي بحوزة منظومات البارون بالنفاذ.

لحسن حظ العاملين في تجارة الخشخاش كانت الإستعدادات لبرل هاربر الجديد قد اكتملت ، ففي تلك الفترة انتهى تجهيز الطائرات الصاروخية المتفجرة التي ستنفذ الهجوم ، و تم بنجاح اختبار طيراتها دون طيارين و تمت الإستعدادات لتعمية أجهزة الدفاع الجوي في أميركا بحيث لا تُعترض أيّ منها ، أيضا انتهت التعديلات اللازمة على نصوص المشاهد التلفزيونية و تجاربها الافتراضية ، و اكتملت تدريبات طواقم تصوير الحدث و شبكات الإتصال التي ستقله ، بقي فقط التصعيد السياسي و الإعلامي مع الدولة البتانية ، تمهيدا ضروريا لتنفيذ الهجوم حتى يقتنع الجميع بعد وقوعه بأن فراس يقف وراءه بأمر و دعم من دولة البتانيين.

طبعاً كافة الخطط الحربية لتدمير الدولة البتانية كانت جاهزة و كل التدريبات عليها كانت قد انتهت إلى ذروتها ، و تم شحن إدارة السجلات الحربية في الجيش الأمريكي بخرائط كثيرة جداً لأهداف البنى التحتية للدولة الخراسانية ، و الفضل طبعاً يعود لفراس و منظمته و رجاله الذي عملوا بدأب على نقل كل حركة و سكة في الدولة البتانية إلى منظومات البارون ، لقد نقل رجال فراس إحداثيات كل شيء إلى الأمريكيين عبر مخبرات ريمون و بقية زملائه من رؤساء أجهزة المخابرات العربية المتنوعة ، لقد كان عملاً جدياً جداً و كانت حرباً حقيقية تم الإستعداد لها بكل قوة ممكنة.

في ذلك العام وصلت إلى البارون مشاريع كثيرة اقترحتها طواقم المستشارين ، من أهمها مشروع ضخم تقدم به السيد ويليامسن بالإشتراك مع البروفسور ريكارد ، اسم هذا المشروع "الكوكب" ، كنت قد استمعت إلى تفاصيل المشروع في شتاء ذلك العام في قصر البارون في جبال الألب ، كان اجتماعاً ضم عدداً من أقرباء البارون و تم على هامش احتفال ابنة البارون بزواجها الرابع ، التقت دائرة ضيقة من الشخصيات المعنية في غرفة مكتب البارون ، و تحدث إلينا ريكارد قائلاً :

أثناء الحرب الباردة نصبنا في أذهان العامة إلهاً اسمه "التنصت" ، و لقد ترسخت في أذهانهم جميعاً أن أجهزة المخابرات تنصت على كل حركة و سكة تحصل على وجه الأرض ، حتى في استعراضات هوليوود السينمائية ، و في مسلسلات التلفزيونات قدم منتجوا مؤسسات البارون روبرت أجهزة المخابرات على أنها الإله الذي يراقب كل شيء و يعرف كل شيء ، إذ عندما تعجز الشرطة عن اسكتشاف أحداث ما فإن سجلات المخابرات التي لا تغفل كفيلاً بسد ثغرة الغموض هذه في الوقت المناسب . ثم نظر ريكارد إليّ و إلى اللواء حنا متبسماً و قال : في بلادكم يعتقد الناس أن مخابراتكم تنصت على الناس من سماعات الهاتف و من أجهزة التلفزيون و يستمعون إلى ما يدور في بيوتهم !! انفجرنا جميعاً بالضحك المستيري من طرفة الحقيقة التي قالها ريكارد ، حتى شرق اللواء حناً بريقه و كاد يخنق من السعال و الضحك معاً.

بعد أن هدأت موجة الضحك استأنف ريكارد كلامه قائلا : إن هذا الخيال العلمي بات اليوم أمرا قابلا للتطبيق بفضل تقنيات الإتصالات الحديثة و التقدم الإلكتروني الكبير ، و لقد طلبت من السيد ويليامسن أن يشاركني التفكير في تحقيق هذا الحلم مع طواقم مهندسيه العباقرة ، و بالفعل لقد عاد إلينا بمشروع هائل جدا و رائع جدا سيعرضه عليكم .

بدأ ويليامسن بالحديث فقال : سأدخل مباشرة في التفاصيل ، سنركب على كافة بدالات الهواتف الإلكترونية المركزية في جميع أنحاء العالم خزانات للتسجيل ، عبر هذه الخزانات ستجري كافة المكالمات الهاتفية و كافة الإتصالات بشبكة المعلومات الدولية ، و سيتم تسجيل كل المحادثات التي تجري و الإحتفاظ بها مفهرسة في هذه الخزانات ، بحسب توقيت وقوعها و بأرقام الهواتف التي أجرتها ، طبعا سيتم تفريغ هذه الخزانات و إتلاف التسجيلات القديمة كل خمس سنوات لأننا لن نحتفظ بها للأبد و لن تكون لدينا خزانات قادرة على ذلك .

أؤكد لكم أنه لدينا القدرة و التقنيات اللازمة لهذا المشروع الضخم خلال عام واحد فقط .

طلبت الكلام و قلت : يا سيدي هناك أمر يصعب تصوره في هذا المشروع ، هل الهدف هو التنصت على جميع المكالمات في العالم و مراقبتها ، ألا ترى معي أن هذا الأمر خيالي جدا؟؟! .

ضحك الجميع مؤيدين لكلامي ، و قاطع ضحكنا ريكارد ببجدية مرحة قائلا : نعم يا كولونيل مهران فسلطتنا في أذهان الناس على هذا الكوكب أعظم من كل آهتهم ، و لكننا في الواقع لا نطمح لأن نكون آلهة حقيقية ، الجنون فقط من يصدق أن مؤسسة مهما كانت ضخمة سيمكنها التنصت على كل المكالمات في العالم و لو لساعة واحدة ، هذا يحتاج لأن يتحدث نصف البشر على الهاتف و أن يتنصت عليهم النصف الثاني ! .

قلت مؤكدا : يا سادة لو افترضنا أن كل شخص بالغ أجرى مكاملة من دقيقة واحدة يوميا ، إذا سيكون لدينا أكثر من ثلاثة مليارات دقيقة من التسجيلات أي سنحتاج إلى خمسين مليون ساعة عمل يوميا للإستماع إلى هذه المكالمات و مراقبتها ، و سنحتاج إلى ستة ملايين متنصت و محلل للمكالمات ، و الواقع أن عدد المكالمات و مدتها يوميا مئات أضعاف هذا العدد .

قال ريكارد : تماما الإنسان الذي يستمع إلى الجميع لا يسمع في الواقع أحدا ، و لهذا نحن نحتفظ بمنظومات المخابرات و المخبرين و الجواسيس و المخترقين ، و لا يزالون يعملون بنفس الأساليب البدائية كالتنكر و تزييف الشخصية و التمثيل على الأشخاص المستهدفين ، التقنيات الحديثة ستسهل لنا فقط إمكانية الوصول إلى إتصالات أولئك الذين يقعون تحت أنظار جواسيسنا ، و لن نكون بحاجة لتجاوز أية معوقات في حال قررنا مراقبتهم و التنصت عليهم ، و هكذا كنا دوما في الماضي .

قلت : لماذا إذا تسجيل كل هذه المكالمات ، التنصت في أمريكا و أوربة ليس دليلا معتمدا لأغلب المحاكم ؟ .

قال ريكارد : لأننا سنصدر مجموعة من القوانين بعد الحرب مع الدولة البتانية ، هذه القوانين ستسمح باستعمال التنصت و التسجيلات التجسسية أدلة في المحاكمات ، بهذا سيكون الجميع فعلا عبدا لنا ، يا مهران بك لا يوجد أحد في هذا العالم لم يخالف تلك القوانين التي صنعناها لشقاء البشر ، لأن من يطيع هذه القوانين بإخلاص سيصبح فريسة للجوع و المرض و الفقر لا محالة ، مشروعا هذا سيجعل كل البشر يؤمنون بألوهية المخابرات كما يؤمن بها شعب بلادك اليوم ، لن يكون هذا الإيمان محصورا ببلاد العرب و البلاد الفقيرة ، و سيعلم كل شخص له منصب أو سلطة في العالم المتقدم أننا نملك دوما ما يدينه و يلقي به في هاوية الإذانة و السجن و الإذلال و العار في أي وقت نريده.

قلت : المشروع سري ، فكيف سيحقق هذا الهدف ؟.

قال ريكارد : يا مهران بك سنسرب عنه ما يكفي ليعرف الجميع كل شيء عنه ، و ليطلع على تفاصيله خاصة أولئك الذين يراهم العالم كبارا.

قلت : لكنهم لن يخافوا منه لأنهم سيعرفون فورا أنكم لن تستطيعوا التنصت على كل الكوكب !.

قال ريكارد بثقة مفحمة : يا كولونيل مهران الذين يفكرون بهذا الذي تفكر به قلّة في هذا العالم ، لا يتجاوز عددهم عدد الموجودين في هذه الغرفة فقط ، أنا متأكد أن جميع أولئك الذين سيعرفون بوجود هذا المشروع لن يفكروا إلا في كيفية تجنب تسجيل مكالماتهم ، و بالبحث عن وسائل تمنعنا من التنصت عليهم أثناء تحديثهم إلى خيالاتهم على الهاتف ، أو حتى في الفراش ، حين سيأتي الوقت لتصبح سلطتنا علنية سيغلقون أفواههم جميعا خوفا من أن نخوهم إلى أشقياء تعساء منبوذين مطاردين و خارجين عن كل القوانين و مدانين في ساعات قليلة.

ضحكنا جميعا موافقين على كلام ريكارد ، و وافق المجتمعون على المشروع و صدرت الأوامر لتزويد خزانات ويليامسن في كل أرجاء العالم ضمن شبكات الهاتف المتنقل .

بعد حرب كسّار بسبعة أعوام حان وقت المواجهات التمهيدية ، ذلك أن شاحنتين ضخمتين كانتا قد انفجرتا أمام مبان تضم مقرات دبلوماسية أميركية في عاصمتين أفريقيتين ، قُتِل نتيجة الهجوم مئات الأفارقة من المارة و عدد من حرس السفارة الأمريكيين لا يجاوز العشرة ، و تبنى فراس العملية بكل صراحة و افتخار ، حصل هذا بعد أن دخل فراس في حلفه مع البتانيين بعام واحد فقط.

حشد هذا الهجوم الكثير من الغاضبين الحانقين على الإسلام و المسلمين في شوارع أوروبا و أمريكا ، و شعر هؤلاء بأن مواجهة ما ستحصل بين الحلفاء الأوروبيين و الأمريكيين "منقذي العالم !" و بين قوة صاعدة شريرة أخرى تتحداهم ، و تهدد العالم بإغراقه بالشرب .

رد الجيش الأمريكي بهجمات صاروخية على مصنع للدواء في عاصمة البلد العربي الإفريقي الذي كان يؤوي فراس ، و الذريعة كانت اتهام ذلك البلد بـايواء مجموعات تابعة لفراس أعدت و نفذت الهجمات ، و هكذا حرمت الزاوية الشمالية الشرقية من إفريقيا من الدواء الحقيقي ، و أيضا وجهت ضربات إلى بعض المباني التابعة للبنانيين في خراسان.

هذا الرد كان في الحقيقة مجرد تحضير للمجتمعات الأميركية و الأوروبية لتقبل فكرة الدخول في حرب بعد الحرب الباردة ، لقد كانت تلك الشعوب تحلم بعصر من الرفاهية الاقتصادية المطلقة و بفترة ترواح فيها نفوسهم من أخبار الحروب و توتر المواجهات ، و لكن هيهات فالمنظومات التي استولت على كل شيء بذريعة مواجهة "أعداء الحرية" لا يمكن أن تتخلى عن السلطة ، و لا عن مبررات وجودها في السلطة و مراكز القوى.

بعد هذه المواجهة انفجرت الحملات الإعلامية للشحن العاطفي ، شحن مع البنانيين و فراس تولتها القناة العربية الإخبارية الأولى التي ذكرتها آنفا ، و من جهة ثانية شحن ضد البنانيين و فراس تولتها بقية أجهزة الإعلام في العالم ، حملات كثيفة استمرت ثلاث سنوات ملأت خلالها أخبار خراسان أسماع و أبصار العالم ، ثم وصلت الأمور إلى الحافة فعلا بعد مضي عقد كامل على حرب كسار ، و حانت ساعة الصفر.

صبيحة يوم من آخر أيام الصيف في ذلك العام تغيب و تأخر عن العمل في أضخم مراكز الإقتصاد في شرق أمريكا أكثر من أربعين ألف شخص بذرائع كثيرة جدا ، كان تغييبهم عملية عبقرية حقا لدرجة أنهم لم يشعروا هم أنفسهم بأنها متعمدة ، و عقد في ذات تلك الصبيحة في مقر قيادة الجيش الأمريكي لقاء ضخم ، دعي إليه مئات الضباط الأمريكيين الذين ذكروا سابقا ، أولئك الذين صنفتهم تقارير المخابرات ضمن "أعداء الحرب" أو "رافضي تطوير الترسانة".

في نفس الوقت أدخلت خوارزميات تعطيل إلى النظام الإلكتروني للدفاع الجوي التلقائي الأمريكي في شرق أمريكا ، هذه الخوارزميات عطلت الردود التلقائية للصواريخ المضادة للطائرات ، أيضا في نفس الوقت انطلقت ثلاث طائرات تقاد عن بعد من قاعدة جوية مهجورة في منطقة قريبة من الساحل الأمريكي الشرقي ، و وصلت إلى أهدافها في أوقات متقاربة ، تمكنت اثنتان منها بفعل الحشوات المتفجرة الجوفاء من اختراق الصف الأول الوجيهي من أعمدة الهيكل الفولاذي لمباني مراكز الإقتصاد ، و وصلت نيران صهاريج الوقود الذي كان في هاتين الطائرتين إلى أقصى بعض الطوابق العلوية في تلك المباني عرضيا من الجهة المقابلة ، قدمت هذه الطائرات استعراضا للألعاب النارية استمر لثوان ، تم تصوير الإستعراض من زاويتين فقط و لم يزد على دقائق قليلة أو أقل من ذلك ، احتل هذا الإستعراض لمدة أسابيع متواصلة كل شاشات التلفزيون في كل أنحاء العالم.

الطائرة المتفجرة الثالثة ضربت مبنى قيادة الجيش في مقر الإجتماع الآنف الذكر و حولت معظم الحاضرين لإجتماع "الضباط المحبين للسلام" إلى رماد ، هذه الطائرة كانت مزودة بمحرك صاروخي واحد و أجنحة خفيفة و قصيرة تلاشت تماما لحظة الإصطدام ، و لم يتم تصوير استعراض هذه الطائرة.

بعد الهجمات بقليل انهارت فجأة ثلاثة مبان متجاورة في قلب العاصمة التجارية لأمريكا ، اثنان منها انهارا بطريقة فنية متسلسلة بسرعة مذهلة هي سرعة السقوط الحر ، أي بنفس سرعة سقوط حجر لو ألقيناه من سطح إحدى هذه المباني نحو الأرض ، ظنّ المشاهدون أن المبنيين قد انهارا بسبب ارتطام الطائرات ، المبنى الثالث كان مجاورا لهما و لم ترتطم به أية طائرة لكنه انهار أيضا بنفس الطريقة ، المباني الثلاثة كانوا مشمولين بعقد تأمين واحد تم إبرامه قبل الهجمات بأشهر قليلة ، قتل خلال الإختيارات بضعة مئات من عمال الصيانة و عمال المطافئ و الإنقاذ و عدد من سيئي الحظ الذين تصادف وجودهم في تلك الساعة.

لإكمال المشهد تم تفجير عبوة كبيرة في أرض جرداء قريبا من إحدى المدن الأمريكية الشرقية و زعمت السلطة أنها طائرة رابعة مخطوفة سقطت قبل الوصول لهدفها ، و أعلن الأمريكيون فورا عن مسؤولية تنظيم فراس عن الهجوم ، خرجت رواية إلى الإعلام تقول أن عددا من الشباب العرب المقيمين في أمريكا ، الذين تدربوا على قيادة الطائرات الزراعية الصغيرة المروحية في بعض مدارس الطيران البدائية الأمريكية ، و كلهم تابعون لمنظمة فراس ، قد اختطفوا أربع طائرات للركاب في أجواء أمريكا و غيروا مسار الطائرات ، ثم طاروا بها بعد التخلص من طيارها نصف ساعة في مجال أقوى نظام مضاد للطائرات في العالم ، دون أن تعترضهم أية عوائق ، ثم هاجم المختطفون بكل راحة و حافية أبنية المراكز الإقتصادية و مبنى قيادة الجيش الأمريكي ، على طريقة الطيارين الإنتحاريين اليابانيين ، و ارتطمت الطائرات بالمباني و تسببت في مقتل ثلاثة آلاف شخص ، و قالت الرواية أن الطائرة الرابعة كانت تستهدف مبنى مجلس نواب الشعب الأمريكي و لكنها سقطت في الأرض الخلاء.

الرواية الرسمية كانت مرعبة فعلا ، مع أنها كانت مضحكة فعلا ، فعلى الرغم من أن أي خبير في الطيران يمكنه إن يكذبها بالأدلة القاطعة و ببساطة ، و على الرغم من ادعاءات الشرطة الأمريكية أنها تملك أدلة تدين الخاطفين و بالأسماء ، و أنها عثرت على جواز سفر أحدهم في ركام المباني المنهارة لم تحرقه النيران التي حولت هياكل المباني المعدنية إلى أنهار من الصُّهارة الحمراء !! و يبدو أن الجواز اعترف بأن صاحبه كان هو من يقود الطائرة التي ارتطمت بالمبنى دون المائتي راكب الذين كانوا معه في الطائرة (حسب الرواية الرسمية) !!.

رغم كل هذه التفاهات ، إلا أن أحدا لم يجرؤ على أن يفتح فمه معترضا مدة عام كامل ، و قدمت أجهزة إعلام البارون روبرت آلاف المقابلات و الحوارات و الأفلام الوثائقية خلال أشهر تلت الهجوم ، كل هذه البرامج كانت فقط لإثبات صدق و معقولة ، لا بل و بدهاة الرواية الرسمية الأمريكية ، لقد خيم شبح المنظومات المرعب القاسي الذي لا يرحم على مخيلة

الجميع ، و خرس العالم كله أمام عورة الإمبراطور العاري تماما ، و هتفوا غاضبين على أولئك الأشرار الذين تجرؤوا على تلويت حله الباهية الفاتنة التي يرتديها !.

كم كنت و لا أزال أضحك بشدة عندما أتابع أولئك الصحفيين و "الخبراء" الذين كانوا يتبارون في إظهار عبقرية فراس الهندسية و كيف استطاع أن يجعل اشتعال الكيوسين القادر على إذابة الفولاذ الصلب الذي يشكل قلب المبنيين !! لدرجة أن هذا الفولاذ ذاب كله رغم احتراق كل الكيوسين قبل سقوط الهيكل المعدني العملاق جدا و ذوبانه !!.

لقد عرف الشيخ أحمد و قادة البتانيين يقينا أن فراس لا علاقة له بالهجمات ، و أنها ليست سوى مبرر لضرب بلادهم ، و لذلك أنكروا تماما مسؤولية فراس عن العملية ، و بدوره فراس أصدر عدة بيانات مكتوبة نفى فيها أية علاقة له بالهجمات ، كان هذا في بداية الأمر ، و أكد فراس في بياناته أنه من رعايا الشيخ أحمد البتاني الأوفياء ، و أنه أطاع أمر الشيخ أحمد بعدم توجيه أية ضربة للأمريكيين أو الأوروبيين ، لم يجرؤ فراس حينها على ادعاء مسؤوليته عن الهجمات كما كان مقررا ، لأنه خاف البتانيين ، فهم كانوا معه على خلاف كبير ، و الأمور بين الطرفين تتجه نحو مواجهة حتمية لم يفوت فرصة حدوثها إلا "بيرل هاربر" الجديد.

خلال ستة أشهر أنجزت العملية العسكرية التي تم الإستعداد لها منذ عقد كامل ، و دخلت القوات الأوربية و الأمريكية إلى جميع المدن في خراسان ، و توارت قوات الشيخ أحمد البتانية عن الأنظار لتلتحق بالجبال العالية العصية و لتبدأ من هناك حربا جديدة لطرد الغزاة الجدد و أعوانهم ، كتلك التي خاضها آباؤهم ضد الشيوعيين و خاضها أجدادهم ضد الأوروبيين ، و خاضها أجداد أجدادهم ضد الفرس و المغول و الصينيين.

في التمهيد للغزو استهدف طيران الأمريكيين مباني و مقرات "هيئة حماية الفضيلة" ، كانت خطوة هامة لإقناع العامة من أهل خراسان بأن هذا الغزو خلاص لهم من حكم متسلط عليهم بالقوة ، حكم يريد الإستبداد حتى بخطرات أذهانهم و نظرات عيونهم و ما تسمعه آذانهم ، لقد نجحت هذه الخطة كثيرا ، إذ و بمجرد دخول القوات الغازية رأينا العامة من أهل مدن خراسان ، الذين امتلأت قلوبهم حقدا على أعضاء هذه الهيئة من المهاجرين ، يهاجمون بيوت المهاجرين العرب ، أعضاء و مسؤولي هيئة حماية الفضيلة ، و كانوا يقتلون الرجال بحقد و قسوة و يستعبدون النساء و الأطفال ، و لقد تسبب هذا في فقداننا للمئات من الكوادر التي دربناها طويلا و ألحقناها بمنظمة فراس ، فلقد خسر ريمون وحده أكثر من مائة من خيرة ضباط مخبرات بلادنا ، فقدوا مع عائلاتهم خلال هجمات الغوغاء الإنتقامية الحقودة.

معظم القوات التي تسير في طليعة القوات الغازية كانت من الترك ، من البلاد التركية الواقعة وسط آسيا و الخاضعة للحكومات الشيوعية ، مع هذه القوات بعض قوات الأقلية التركية التي تحمل الجنسية الخراسانية ، هذه القوات التي كانت

تتحصن في واد شهير شمال البلاد ملاصق لجمهوريات الترك الشيوعية ، و كانت تحتمي بالدعم الأوربي و الأمريكي من سطوة قوات الشيخ أحمد ، لقد استهدفت هذه القوات بشكل خاص المقاتلين المهاجرين العرب و استهدفت عائلاتهم انتقاما لقائد كبير لهذه الأقلية قتله المهاجرون العرب بتفجير انتحاري.

تعهد الشيخ أحمد و جماعته التواري و الإنسحاب المنظم أمام أعنى قصف جوي شهده التاريخ كله ، و رغم أنهم فقدوا عدة آلاف من مقاتليهم إلا أنهم أحرزوا معظم قوتهم و وفروها لحرب صمموا على خوضها و لو استمرت إلى الأبد.

بعد التأكد من عدم قدرة الشيخ أحمد و البتانيين على الإنتقام من فراس ، و تأمين سلامة بضعة آلاف من تنظيم هذا الأخير ، و بعد اطمئنانه على جماعته و عائلته قام فراس بإصدار شريط يتبنى فيه العملية و يتضمن صورا لأولئك "الأبطال" الذين تضمنتهم لائحة الإتهام الأمريكية ، و مع هذه الصور عبارات رثاء بلهجة عاطفية تلاها فراس على طريقة الأفلام و المسلسلات الدينية ، و عندها قال أكثر العوام في العالم المسيحي : نعم لقد كان الأميركيون على حق ، لقد ضرب المسلمون قلب أمريكا و كادوا يقتلوها ، و يحق للأمريكيين الإنتقام منهم .

فراس و جماعته كلهم انتقلوا إلى الدولة الآسيوية الغربية معقل الديانة السرية ، فلقد تم نقلهم على دفعات أكثرها دخل إلى بلاد السند ، ثم انتقلوا إلى معقل الديانة السرية ، و أيضا اعتقلت القوات المتحالفة ضد البتانيين عددا من القادة الصغار من جماعة فراس ، و اعتقلت أيضا عددا من القادة من مختلف المستويات من أتباع الدولة البتانية ، هؤلاء المعتقلون تم نقلهم إلى معتقل حربي في جزيرة في البحر الكاريبي ، و تم وضعهم في أقفاص تشبه التي توضع في حديقة الحيوان ، و تولت بعناية و تركيز القناة العربية الإخبارية نقل تفاصيل اعتقال هؤلاء و إذلالهم و تعذيبهم و ظروف سجنهم القاسية جدا و دون محاكمة.

لقد أحبب العرب و تألموا جدا و انهارت أحلامهم بعد هزائم بديع في حروبه ضد جارتنا العدو اللدود ، و انهارت أحلامهم بعد هزائم كسار و عمليات الإذلال التي تلتها ، و أدمت قلوبهم مشاهد إذلال أبنائهم الأسرى المجندين في جيش بديع و جيش كسار ، و مشاهد جثث أولئك الشبان المرمية كأكوام القمامة بعد أن قتلتهم طائرات أعدائهم ، و لقد تكررت نفس المشاهد في حرب البتانيين ، و لعل المراقب لشوارع بلادنا في تلك الفترة يلاحظ مدى الإحباط و العبوس الذي صار سمة مشتركة لكل الوجوه المارة في كل شارع و زقاق و مقهى ، و لكن الملاحظ أن هذا الإحباط كان أخف تأثيرا على الشعور العام من كل ما سبقه من خيبات الأمل ، فلا مظاهر للغضب و لا دعاء على أعداء البتانيين في المساجد ، و لا حملات تطوعية لنقل الإغاثة و الطبابة إلى خراسان ، و لعل هذا يرجع إلى حصول ما يشبه الإدمان لدى أهل بلادنا على النكبات و الويلات و الهزائم المتلاحقة و بنفس الطريقة ، هذا الإدمان في الواقع تحول إلى يأس بدأ يتجذر في نفوسهم من أي تغيير للأحوال البائسة التي يعيشونها.

بعد حرب البتانيين استقرت بشكل كبير فكرة واحدة في نفوس معظم الناس في بلاد العرب ، فكرة تراكمت مكوناتها عبر تجارب استمرت لعقود طويلة ، و جاءت نتيجة لمعاناة طويلة ، تختصر ب : إن أردت تحيا بسلام و أمان أكثر ، و أن تكون عن المخاطر أبعد ، و أن يكون كسبك لمعيشتك أسهل ، فابتعد ما استطعت عن مظاهر التدين الإسلامي بكافة أنواعه ، و ابتعد عن العادات الأسرية المحافظة و خاصة فيما يتعلق بالنساء و الشباب ، و لتكن تصرفاتك كلها توحى بأنك لا تقيم وزنا لمحرمت الدين ، و اهرب من فكرة تغيير أي شيء في الأوضاع السياسية مهما كانت وسيلة هذا التغيير .

إلا أن هذه الفكرة بقيت تنازعها في نفس كل عربي كل لحظة مشاعر الغضب الرهيب ، الغضب من الإستفزاز اليومي الذي تمارسه عليه مختلف أنواع تشكيلات السلطات التي تحكم بلاده ، استفزاز يلاحق كل واحد في كل لحظة و عند كل عمل يؤديه ، و كلما سعى أحد منهم ليحصل على أية حاجة من حاجات حياته اليومية مهما كانت تافهة ، استفزازات أرست جدارا عاليا من اليأس في صدر كل عربي يفكر في تحسين أوضاعه معتمدا على مهاراته و خبراته و قدراته ، أو حتى معتمدا على أخطّ الوسائل و أقذرها و أكثرها التوائية و احتيالا ، فالأماكن في المجتمع المرفه الثري محدودة ، و قد تم إشغالها كلها ، و لا مكان لنزلاء جدد و لا فرصة لزيادة هذه الأماكن ، فإذا ما أضفنا تأثير الثقافة القادمة من أوربة على الناس ، هذه الثقافة التي جعلت الثراء و الرفاهية الهدف الذي يعيش من أجل تحقيقه كل أحد ، فإن مشاعر استفزازية جديدة قد ظهرت في نفوس الناس و هي مشاعر الحسد و البغض للمرفهين و الأثرياء ، لجرد أنهم أثرياء .

هذه النوازع النفسية المتعاكسة التي تتحكم في الشعور العام في بلادنا و سائر البلاد العربية ، وصلت كل منها بعد حرب البتانيين إلى نقطة مساوية تماما لنظيراتها فصار تأثيرها مجتمعة على الحركة و الفعل يساوي الصفر تماما ، و إذا ما أضفنا عامل الخوف المزمن من القمع الهائل نجد أن المشاعر العامة قد ركدت بشكل كبير و صارت جاهزة و قابلة لتوجيهها في عدة إتجاهات و بأمان كامل ، و دائما بحسب تقارير المستشارين الأوروبيين المقيمين في بلادنا .

في لقاءات كثيرة سابقة للحرب على البتانيين نوقشت الكثير من هذه الإتجاهات المحتملة لسير الأحداث ، و منها مشروع تقدم به البروفسور ريكارد ، فكرة هذا المشروع الأساسية كانت إنهاء الحكومات الإستبدادية التي تحكم بلدان العالم الفقير تدريجيا ، ثم فتح آفاق التقدم العلمي و التقني أمام هذه البلاد تدريجيا و بشكل متوازن لتلحق بنظيراتها الأوربيات ، و احتج ريكارد لفكرته بأن تقليد الضعفاء للأقوياء و اقتباسهم منهم أمر حتمي و بالتالي فإن التقنيات الصناعية ستكون مشاعا في نهاية الأمر مهما كانت الإجراءات الإحتكارية قوية ، فالواجب هو أن يتم التعجيل بهذا التوزيع و الإقتباس ، و لكن لا بد لتحقيق هذا التعجيل من تحقيق شرطا أساسيا ، هو فرض التغييرات الأخلاقية و السلوكية و القانونية و الإجتماعية على الدول الفقيرة ، و ذلك لتكون مطابقة تماما لمعايير نظيراتها في أوربة ، و ذلك في وقت مترامن مع نقل التقنيات .

فكرة ريكارد كانت مغرية نوعا ما مع ما تحمله من مخاطرة ، فهي ستحقق التناقص في تعداد سكان الكوكب كله خلال عقدين أو ثلاثة على أبعد تقدير ، و ستسمح لمنظومات البارون بإطلاق ما لديها من رصيد معرفي تقني على كافة الصعد في وقت قصير و بشكل آمن ، ليصبح في متناول الجميع ، فلا خطر من إنقلاب هذه التقنيات إلى أسلحة بأيدي أولئك الطامحين للسلطة ، و هذا سيجعل من تحقيق الهدف النهائي لمشروع البارون أقرب و أسرع ، و دون الكثير من الحروب و الضوضاء.

احتج المخالفون لريكارد و منهم البروفسور برنار بأن إنهاء مظاهر الإستبداد في البلدان الفقيرة ، و إطلاق ما تسمى بـ "حرية التعبير" أو "الإعلام الحر" سيدخل هذه البلدان في خضم الثورة الحقيقية على منظومات السيطرة كلها ، و سيجعل المشروع كله في مهب الريح ، و قد نضطر في نهاية الأمر لخوض حرب على مستوى الكوكب كله لنعيد الأمور إلى نصابها. مؤيدوا ريكارد ، و منهم الدكتور بولس و هو أحد أكبر المصرفيين من أقارب البارون ، ردوا بخبرة و ذكاء نادرين على مخاوف برنار ، فقال بولس في رسالة له للبارون :

أنتم تعرفون جيدا يا سيدي أن أجهزة الإعلام كلها لا تستطيع بتحريضها محضا أن تسيير مسيرة من عشرة أشخاص عندما تحمر عيون قوات السلطة ، و حتى في الظروف العادية لن تستطيع من دون أن توجد قوة سلطة أخرى معادية تنظم و تدعم و تمول هذه المغامرة الخطرة ، فكيف بأن تتسبب في تشققات في هيكل الدولة أو نظام القوات المسلحة ذات التراتبية الصارمة و المنضبطة بعبودية الرواتب المالية المجدولة ؟.

يا سيادة البارون : إن بقاء الجيوش في مأمن و في نظام سيجعل من أية ثورة شعبية مجرد زوبعة في فنجان ، و بالعكس فإن هذه الثورة ستصب في نفس الاتجاه لترويض الشعوب على الرضا و القناعة بالإستعباد مقابل الحياة ، لأنها ستفشل حتما في مواجهة قوة جيش السلطة المهلكة ، و هذا هو نفسه الهدف الأساس من مشروع الجيش الأسطوري الذي يتبناه البروفسور برنار.

هذه اللقاءات و المناقشات استمرت لعدة شهور ، و تطورت بين رد و رد معاكس حتى استقر أخيرا رأي البارون على الخطة التالية :

أولا - إستمرار مشروع الجيش الأسطوري على نطاق ضيق و محدود ، أي في مجال الإختراقات المخيفة غير ذات الضرر كـ "الإغتيالات" و "التفجيرات" و "أخذ الرهائن" لإبقاء الشارع الأوروبي و الأمريكي و حتى العربي و الإسلامي في حالة تأهب و خوف ، كما كان الحال مع التنظيمات اليسارية و الشيوعية في الحرب الباردة.

ثانيا - البدء بحملات إعلامية تتضمن الحديث عن إجراءات دبلوماسية و إقتصادية و قانونية ، تهدف لتمهيد نفسي لفكرة "تخلي أنظمة الحكم في البلاد الفقيرة عن الإستبداد و القمع" ، ثم تحول هذه الدول إلى نمط مطابق للنظم الأوربية.

ثالثا - تلميع عدد كبير من الشخصيات اللادينية ، و خاصة من الشيوعيين السابقين و تبني هذه الشخصيات لخطاب تصادمي مع الأنظمة القائمة ، و المطالبة صراحة بإلغاء سيطرة القوات المسلحة بأنواعها على السلطة و إعادة الإدارة لذوي الكفاءة من المدنيين.

رابعا - إظهار كافة أنظمة الحكم في البلاد العربية بمظهر الخائف من ممارسة القمع ، و تبني الدول الكبرى لخطاب إعلامي حازم ضد انتهاكات هذه الأنظمة لما يعرف بـ "حقوق الإنسان" .

خامسا - تخفيف القبضة الجاسوسية عن الشارع العربي و الإسلامي ، و إطلاق حرية العمل مع الحصانة لفريق الدعاة المتخرجين من معابد الحرية ، هذا الفريق الذي تم تدريبه خلال العقد الذي تلا حرب كسار في أمريكا و أوروبا.

سادسا - أن تبقى كافة الجيوش بمنأى تام عن جميع هذه الإجراءات ، مع زيادة إرتباطها بالملحقين العسكريين الأوربيين و الأمريكيين الذين يقودون في الواقع هذه الجيوش ، مع زيادة حجم و قوة تلك الفرق المتخصصة في حرب الشوارع و قمع التمرد بأنواعه.

سابعا - زيادة عدد القنوات الإخبارية و السياسية التي تبث خطابا "معارضاً" لأنظمة الحكم في بلاد العرب و المسلمين ، و السماح لها بالتواصل بحرية مع العامة.

ثامنا - تخفيف الضغوط الإقتصادية ، و السماح ببعض التوازن بين الدخل و الإنفاق على مستوى الأسرة العربية العادية.

تاسعا - عدم التهاون مع رجال الدين المسلمين التقليديين ، و إطلاق الحرية بشكل جزئي لرجال الدين الذين يتبنون نسخ منظومات البارون الإسلامية المتعددة.

عاشرا - التركيز كثيرا على نشر البرامج الإعلامية المترجمة من أجهزة الإعلام الأوربية ، و افتتاح عدد كبير جدا من الجامعات و الكليات الخاصة التي تدرس المناهج الأوربية بلغات أوربية ، و جعل الدراسة فيها متاحة بأسعار معقولة ، و إنهاء احتكار التعليم الرسمي للدراسة الجامعية في بلاد العرب ، و في بلادنا خاصة و زيادة عدد و حجم البعثات الدراسية إلى أوربة و أمريكا ، تلك البعثات التي ترعاها مؤسسات دينية غير إسلامية .

هذه الخطة احتاجت لإطلاقها إلى تخطيط نموذج من الأنظمة المستبدة ، نموذج سيء السمعة و فائق القمع للناس ، فوقع الإختيار على نظام كسار مرة أخرى ، و كان هذا القرار قد اتخذ بعد موت الرجل بعام واحد.

بعد نهاية حرب البتانيين بأسابيع بدأ العمل بخطة ريكارد ، طبعاً بعد أن عدلها مجلس البارون الإستشاري و تم اعتمادها ، و انطلقت اللجان و ورشات التدريب و الإعداد و التجنيد مباشرة بعد حرب البتانيين.

كثيرة جداً هي الخطط الجزئية و الميدانية التي نفذت ضمن هذه الخطة ، و ضخمة جداً تلك الموازنة التي اعتمدت للإنفاق عليها ، السبب هو أن الخطة أطلقت لتغطي كافة أرجاء الدول الفقيرة ، و لقد شملت أمريكا الجنوبية و إفريقيا و وسط آسيا و شرق أوروبا ، و لقد تم إلحاق عشرات الآلاف من "المكافحين السياسيين" كمجندين في جيش ريكارد السلمي.

وردت إلى مكتبي مئات التقارير الشاملة الموجزة عن أعمال هذه الخطة و سير تنفيذها ، و لعل أكثرها وضوحاً كان أحد التقارير التي أعدت قبيل الحرب الثالثة للتحالف الأوربي الأمريكي الجديد ، تحدث هذا التقرير بشكل مفصل عن مواصفات أعضاء جيش ريكارد السلمي ، و عن كيفية تجنيدهم و تدريبهم و عن تمويلهم و عن إعادة تموضعهم في بلدانهم تمهيداً لانطلاق أعمالهم.

الذين رشحهم فريق ريكارد لعضوية الجيش السلمي في جميع البلاد العربية و غيرها كانوا ينتسبون إلى فريقين لا ثالث لهما : الفريق الأول : أعضاء الأحزاب و التيارات و الجمعيات الشيوعية و القومية ، و هؤلاء كانوا معروفين جيداً لدى المخابرات الأمريكية و الأوروبية ، و طبعاً كانوا زبائن مداومين على الحضور في جميع مقرات المخابرات العربية بأنواعها ، و كثير منهم تعرضوا للإعتقال و التعذيب و الترويض في معتقلات هذه المخابرات.

على رغم أن الكثيرين منهم مؤمنون بعقائد الأحزاب التي ينتسبون إليها إلا أن هؤلاء كانوا دوماً مزدوجي الولاء ، فلقد أقنعهم قادة أحزابهم بأن مدارة الحكومات المستبدة القائمة أمر ضروري ، و دون هذه المدارة لن يستطيع هؤلاء "المكافحون السياسيون" أن يبنوا لأحزابهم قواعد فكرية و أن ينشروا الوعي بين أبناء الشعب المضطهد ، و الوعي هو الخطوة الأولى نحو التحرر.

هذه المدارة تحولت في الواقع إلى تحالف و ولاء حقيقي ، و إلى تعاون كامل مع أجهزة المخابرات العربية و غيرها ، هذا على صعيد القيادات المتوسطة المستوى ، أما القيادات العليا لهذه الأحزاب فهم جميعاً أعضاء في معابد الحرية ، و لديهم جميعاً حضور مستمر في العواصم الأوروبية التي تضم كبريات معابد الحرية في العالم.

لم تشمل خطة ريكارد القادة الكبار لأعضاء هذه الأحزاب ، لأنهم أصلاً تحت إمرة ريكارد ، و إنما شملت القيادات المتوسطة المستوى و بعض الشخصيات ذات الشعبية من قادة القواعد المتدنية المستوى ، و اختير منهم أولئك الذين تعرضوا للإعتقال و التعذيب في أقبية رمعون و زملائه في البلدان الفقيرة.

الصفات الجامعة هؤلاء الذين اختيروا لجيش ريكارد هي : أولا أنهم "لادينيون" و لا يؤمنون بالغيبيات و يعادون المتدينين بشراسة ، و ثانيا هم حاملون حتى في اليقظة و حد الجنون بتولي السلطة ، و بأي ثمن ، و ثالثا جميعهم يفضلون الموت على أن يعيشوا في ظل حكم متدين من أي نوع ، فهم يعتبرون أن الديانات مجرد نتاج لتطور الفكر الإنساني في مرحلة سابقة طوّقتها ثورة المعرفة ، و رابعا و هو الأهم أنهم جميعا قد صاروا بعد تجنيدهم أعضاء في معابد الحرية ، و هناك تعلموا أن مبادئ الحكم و السياسة و الأخلاق مجرد معارف إنسانية تتطور على مر الزمن ، و يجب أن تتطور دوما نحو السهولة و التفلت من القيود ، تماما كما أن الصعوبات الحياتية تتدلل ، ثم تحل محلها التسهيلات كلما تطورت معارف الإنسان التقنية المادية ، و لقد تعلم هؤلاء بأن أي توجه كان نحو تقييد القوانين و الأخلاق و السياسة هو حركة معاكسة لحركة الحياة المتجهة نحو المشاعية الحيوانية دوما بشكل عفوي طبيعي ، و أن الحركة الطبيعية للقوانين يجب أن توجه حركة الحياة لتكون مشاعية متحضرة لا توجد فيها وحشية و فوضى و صراعات عالم الحيوان الدموية على المكاسب و اللذائذ.

بمعنى آخر يؤمن هؤلاء كما جميع أعضاء و أتباع معابد الحرية ، بأن التطور المعرفي و التقني عند البشر سيصل إلى نقطة تباح عندها جميع الممنوعات ، لأن أضرار هذه الممنوعات سيكون من الممكن تجاوزها بالحلل العلمية ، و سيتحرر الإنسان عند هذه النقطة من كل الواجبات لأن التقنيات ستقوم بها بدلا عنه.

من المؤكد أيضا أن هؤلاء ليست لديهم أية تصورات واقعية لأية خطة سياسية متكاملة ، و لا يقدرّون جميعا أو منفردين على إدارة قرية يسكنها بضعة آلاف من الناس ، إنهم يدعون إلى أفكار و مبادئ و ينافحون عنها بشراسة ، و لكنهم لا يعرفون كيف يمكن أن تطبق هذه الأفكار على الواقع ، كل ما لديهم نظريات و فرضيات مؤيدة بجدل خيالي إستنتاجي بحث ، لا يستند إلى أية تجارب أو خبرات.

الفريق الثاني: هم أعضاء الجمعية الإسلامية بمختلف أفرعها ، و لقد وقع الإختيار على قادتهم الكبار و القادة من أعلى المستوى المتوسط ، و التحق هؤلاء بجيش ريكارد السلمي و توافدوا خلال ثلاثة أعوام على عواصم أوربة ، و هناك تلقوا التدريبات اللازمة و حضروا دورات الإعداد ، و تم إلحاقهم جميعا بمعابد الحرية ، و من كان منهم عضوا في هذه المحافل تمت ترقيته إلى درجات أعلى.

هؤلاء لا يختلفون سياسيا و فكريا عن زملائهم القوميين و الشيوعيين إلا في المظهر فقط ، و لقد كان أحد منظريهم الكبار في بلاد شمال إفريقيا ، هو الشيخ مُهتدي قد ألقى خطابا في لقاء عقد بأحد معابد الحرية ، لخص فيه الإتجاه العقائدي و القانوني الإسلامي الذي يؤمن به هو و أتباعه ، فقال ما ملخصه :

التراث الإسلامي ينقسم إلى قسمين :

الأول هو القسم الثابت ، و هو النصوص المقدسة أي القرآن و الحديث النبوي ، و القسم الثاني هو القسم المتحرك ، و هو تفسيرات هذه النصوص ، و هذا القسم الثاني ينبنى كله على ما يسميه علماء الإسلام بـ "المقاصد" ، أي الأهداف التي وضعت من أجل تحقيقها الأحكام و القوانين ، و جميع الأحكام الإسلامية القانونية إنما تستهدف تحقيق هذه المقاصد ، إلا أن هذه المقاصد غير موضحة بعبارات مستقلة في النصوص الثابتة ، لذلك عمل علماء الإسلام على استكشاف هذه المقاصد من خلال دراسة معمقة للنصوص المقدسة .

أيها السادة :

إن أمكن عزل هذه المقاصد و تحديدها بدقة من خلال دراسة النصوص المقدسة بعمق ، و باستعمال الفلسفة الحديثة التي تتبناها معابد الحرية ، فسيمكننا ببساطة التخلي عن حرفية النصوص المقدسة ، و عن القوانين المتشددة لصالح تفسيرات قانونية و أخلاقية و حتى عقائدية تسير التقدم المعرفي الهائل الذي وصل إليه التطور الإنساني .

أيها السادة :

بغض النظر عن مصدر نصوص الإسلام ، سواء أكانت إلهية و فوق المادة ، أو أنها نتاج عبقرية بشرية ، فإن الإسلام يتفق مع جميع القوانين و النظم على هدفين أساسيين أو مقصدين كليّين : الأول هو : إن التشريعات كلها تستهدف أمان الجنس البشري و استمرار تواجده على الأرض إلى ما لا نهاية يحددها البشر ، و الثاني هو : أنها تستهدف حصول الإنسان على المتع التي توجد على هذا الكوكب بأفضل الوسائل و أيسرها و أقلها ضررا بالفرد و بمن حوله من الكائنات الحية البشرية أو غيرها .

و لقد أدت قوانين الإسلام أفضل الأداء على مر قرون متتالية ، و حققت الهدفين ، أو المقصدين السابقين بكفاءة كبيرة ، إلا أن هذا حصل عندما كان التقدم العلمي في الأرض كلها لا يزال في الطور البدائي أو المتوسط ، و لم يكن قد وصل بعد إلى النقطة الحرجة للثورة العلمية و المعرفية التي نعيشها ، هذه الثورة التي كان لمعابد الحرية أكبر الفضل في إنجازها .

بناء على هذه الخطة البسيطة نستطيع أن نرسم أبعاد نهجنا الفكري و القانوني ، فمثلا :

نجد في نصوص الإسلام المقدسة قانونا يحرم تعاطي الجنس دون زواج ، و يجرم مخالفته و يسميهم "زناة" و "فجرة" ، و يعاقب المخالفين بعقوبات رهيبة جدا ، كالرجم بالحجارة حتى الموت ! لكن بالبحث الفلسفي العميق يتضح بجلاء أن هذا القانون يستهدف أساسا الحفاظ على تواجد النسل البشري على وجه الأرض ، ذلك أن الجنس دون زواج سيجعل الإنجاب أمرا غير مرغوب فيه عند الذكور و الإناث ، و سيجعل البشر يتعاملون مع الجنس على أنه مجرد لذة و مرح لا غاية لها سوى ذلك .

أيضا نجد في النصوص الإسلامية المقدسة قوانين أخرى ، هدفها قطع كل الطرق على السماح بتعاطي الجنس دون زواج و التزامات و تقيّد بشركاء معينين ، من هذه القوانين قوانين الحجاب ، و منع إختلاط الجنسين و قوانين تجبر الذكور على الإنفاق على الإناث ، و أخرى تلزم الإناث بطاعة الذكور ، و غيرها.

طبعاً هذه القوانين لا يمكن أن تكون مقبولة عند الإنسان المعاصر ، لكن مجرد الإعتراض عليها عند العوام من المؤمنين سيعتبر حرباً و تجديفاً على الإله و على الدين.

حل هذه المعضلة ستكون مهمتنا هي البحث أولاً :

في الوسائل التي تجعل من ممارسة الجنس دون زواج و دون قيود و قوانين متشددة أمراً لا يشكل خطراً على بقاء النسل البشري ، يجب أن نجد هذه الوسائل و أن نقدمها في قالب خطابي إسلامي تدريجي غير مصادم لـ "حرفية" عبارات النصوص المقدسة ، على طريقة محامي "تاجر البندقية" الشكسيري ، بحيث يتقبل العامة هذه الممارسة دون أن تبدو لهم أنها "فجور" و "فاحشة" و "زنا".

و يجب أن يبدأ هذا الخطاب بالمعالجة التدريجية للقوانين الفرعية التي تقطع الطريق على ممارسة الجنس بحرية ، و تخفيف هذه القوانين تدريجياً بطريقة آمنة ، و استبدالها على مراحل بقوانين أخف ، و أكثر مناسبة لنموذج الحياة العصرية الأوربية ، وصولاً إلى إقناع المسلمين بأن ممارسة الجنس بحرية كما يحصل في الغرب أمر ليس مضاداً لمقاصد الإسلام ، طبعاً ستبقى هناك قيود شكلية ، لا بد من الحفاظ عليها مراعاة لرغبة المؤمنين بأن يكونوا ضمن دائرة "المطيعين المتدينين" ، و دون أن يفقدوا مشاعر التعبد و التدين.

أيها السادة :

في الغرب يتعاطى الذكور و الإناث الجنس بحرية ، و مع ذلك ينجبون و يربون أطفالهم بشكل أفضل بكثير مما يفعله المسلمون المتشددون ، و ينظمون علاقاتهم الجنسية بحيث يمكن للمرأة أن تعاشر عدداً من الرجال في وقت واحد دون يؤثر هذا مثلاً على معرفة أنساب الأطفال الذين قد تنجبهم من هذه المعاشرة ، و هذا كله بفضل العلم.

نحن نجد في كتب القانون الإسلامية التقليدية مبررات لمنع تعاطي الجنس بحرية ، منها الحرص على مستقبل الأطفال و عدم حرمانهم من رعاية آبائهم ، فالجنس الحرّ سيحرم الأطفال من معرفة هوية آبائهم الذكور ، لقد تجاوز العلم هذه العقبة أيها السادة ، بقي علينا أن نجد العبارات المناسبة ذات القالب الديني ، العبارات المستندة إلى النصوص المقدسة ، العبارات التي تفهم المؤمن العامي أن تعاطي شريكته للجنس مع غيره لن تجبره على تربية أطفال غيره ، و لن تحرم أطفاله من أبوته ، و أن قيادة الأنثى للأسرة هو الوضع الطبيعي ، و ليس عاراً و ليس ضعفاً من الذكر ، صدقوني سنتمكن في يوم ما من سن قوانين

تستند إلى النصوص الإسلامية تنظم تعاطي الجنس بحرية و دون قيود ، قوانين تفرض على ممارسي الجنس فقط : أن يكونوا صادقين و غير مخادعين لبعضهم ، حتى يحافظوا على حقوقهم و حقوق كل واحد من المشاركين في هذا التواصل الممنوع ، و يحافظوا على أمان مستقبل الأطفال القادمين من هذه العملية الطبيعية ، التي تمارسها جميع الكائنات على الأرض بحرية و أمان ، ما عدا الإنسان .

أيها السادة لقد تسبب ذكاء البشر و عنفهم المتفوق على ما تملكه الأنواع الأخرى بحرمان البشر من ممارسة ما يحبون بحرية ، لأن الكثيرين منهم يحتالون للحصول على المزيد ، و على ما هو أكثر من حصص أقرانهم من الملذات الطبيعية ، سواء باستعمال الخديعة ، أو باستعمال العنف ، فأدى هذا إلى القوانين المتشددة و العقوبات العنيفة لردع الطامعين عن الإعتداء على حقوق غيرهم بشكل يهدد بقاء النوع الإنساني ، و لقد عاد هذا الذكاء ليعمل مرة أخرى على تجاوز مخاطر الطمع الإنساني ، و ليستغني مجددا عن وسائله القديمة المؤلمة لتفادي هذا الخطر التي سماها بالقوانين دون وجود يهدد بقاء البشر .

أيها السادة إن بقاء النوع البشري هو في الواقع أكبر مقاصد القوانين الإسلامية ، و توجد مقاصد أخرى يمكننا التعامل معها بنفس الطريقة ، لتحقيق هي أيضا بوسائل لا تعاكس المسار الطبيعي للفكر و السلوك الإنساني العام ، هذا المسار الذي يتوجه دوما نحو المزيد من الحب و السلم و الرفاهية و الأمان و التحرر من القيود المزعجة التي تحرم البشر الكثير من متع الحياة ، و نحو المشاعية النامة للذة و المتعة .

جميع القوانين المستوحاة من النصوص المقدسة للإسلام ستخضع للمسار الإجباري لحركة التاريخ القادم ، إن هذه الحركة تسير نحو عالم خال من القيود ، و خال من الواجبات ، و خال من الآلام و الشقاء و الخوف ، أي خوف سواء أكان خوفا من إله غائب حاصر ، أو من سلطان يهدد بقوته . انتهى كلامه .

لقد تتبعنا ما تحدث عنه هذا القيادي ، و وجدت أن الجيش الأسطوري يخدم هذا التوجه أيضا ، و إنما بشكل سلمي ، فالمؤمنون في كافة الأديان يقومون بالكثير من واجبات ديانتهم ، و يمتنعون عن الكثير من محرماها ، دون أن يفهموا السبب المادي الذي من أجله يؤدون هذه الواجبات ، و دون أن يفهموا لماذا حرمت عليهم هذه المحرمات .

و لقد وجدت أيضا أن الجماعات التي انشقت عن بحر الإسلام التقليدي الهائل ، انقسمت إلى قسمين : الأول يريد إهمال اعتبار "المقاصد" أو الأهداف من التشريعات ، و الالتزام بحرفية النصوص المقدسة ، و يرون أن البحث عن هذه المقاصد يقدح في تقديس هذه النصوص و يجعل الإنسان شريكا للإله في سن قوانين الحياة ، و هذا أيضا قدح في تقديس الإله الذي يعرف وحده حكمة قوانينه ، و الإله ليس ملزما أبدا بإظهار هذه الحكمة لعبيده الضعفاء ، محدودي القدرات الفكرية و المادية ؛ من هذا القسم "النسخة النجدية" التي يتبناها الجيش الأسطوري ، و للعارف بنصوص الإسلام المقدسة أن يتخيل

الكم الهائل من القوانين و القوانين المناقضة لها التي يمكن سنّها باعتماد "حرفية النصوص المقدسة" ، هذه النصوص المترتبة من عبارات موجزة تلخص معان كثيرة جدا .

القسم الثاني هو القسم الذي يتبنى الإتجاه الإسلامي الذي شرحه الشيخ مُهتدي الآنف الذكر ، طبعا هذا القسم لا يتبنى نهاية التاريخ التي يؤمن بها اللادينون كما فعل الشيخ مُهتدي ، و لكنه يشترك معه في نظرية هي : لكل قانون مقاصد و أهداف وضع من أجل تحقيقها و يتضمن آلية لتحقيق هذه المقاصد ، و عندما يمكن تحقيق المقصد بآلية أخرى فلا مانع طالما أن هذه الآلية لا تمنع تحقيق مقاصد أخرى سنت من أجلها قوانين أخرى ، ضمن نفس المنظومة التشريعية ؛ و من هذا القسم كافة مذاهب و مدارس الديانة السرية ، و الجمعية الإسلامية بكافة فروعها ، و أيضا للعارف بالشأن الإسلامي أن يتخيل الكمية الهائلة من النسخ المتناقضة للقوانين الإسلامية التي يمكن أن نصنعها باعتماد "المقاصد" فقط ، خاصة و أن هذه المقاصد لم يبين منها سوى بضعة مقاصد في النصوص المقدسة ، بينما راح منظرو الجماعات التابعة لهذه القسم يستنتج كل منهم بطريقته الخاصة بقية المقاصد التي لم تفصح عنها نصوص القرآن و الحديث النبوي .

الإسلام التقليدي يقف من هذه المسألة موقفا ثابتا لم يتغير ، و هو اعتبار المقاصد وسيلة لإستكشاف القوانين من النصوص المقدسة و استخراجها من هذه النصوص ، كما تستخرج المعادن من المناجم ، و كما تستخرج العناصر الكيميائية من المركّبات الكبيرة ، و ذلك عندما تكون هذه المقاصد قد أفصحت عنها النصوص المقدسة ، و ضمن الحد الذي تسمح به النصوص ، و دون إطلاق العنان للمعرفة الإنسانية لتحديد كيفية و شكل هذه القوانين ، و من الجهة الأخرى عدم البحث عن المقاصد عندما تكون خفية و الإكتفاء بما رسمته النصوص من تشريعات قانونية ، و النتيجة أن القوانين الإسلامية التقليدية إنما اكتشفت إكتشافا و استُخرجت إستخراجا بكاملها من النصوص المقدسة دون أي دور للعقل في صناعتها أو صناعة أهدافها ، و لا تصنعها العقول بإرشاد النصوص المقدسة كما تقول الفرق المنشقة ، و في النهاية فإن الإسلام التقليدي لا يسمح أبدا بأية تغييرات للقوانين الإسلامية تحت أي ظرف ، و لا يقبل المشايخ التقليديون تبديل مدوناتهم القانونية أو "الفقهية" ، لا بتبدل الزمن ، و لا بتبدل الظروف .

إن عمل الجيش الأسطوري هو تبني جزء من طريقة الإسلام التقليدي ، و إفهام العامة أن هذا الجيش يعمل لحماية الدين من عبث أولئك الذين يريدون التلاعب بقوانينه ، لكن الحقيقة هي أن هذا الجيش التلاعب سيمارس بقوانين الإسلام بشكل أسوأ و بطريقة قاسية و مؤلمة جدا ، و سيفرض قيودا رهيبية على ما كان مسموحا في القوانين الإسلامية التقليدية ، و على المقلب الثاني ستقدم الجمعية الإسلامية منهجا يتبنى أيضا جزءا صغيرا من طريقة الإسلام التقليدي ، ستقدمه لأولئك المتدينين الهاربين من تزمّت و قسوة أتباع الجيش الأسطوري ، و لكن سيكتشف هؤلاء المتدينون الهاربون تناقضات أكبر بكثير في المدونات العقائدية و القانونية التي تتبناها الجماعات المتفرعة من الجمعية الإسلامية .

النتيجة ستكون تخلي المتدينين عن التدين بسبب الحيرة ، و التوجه إلى الفرق اللادينية بحثا عن الأمن و النظام ، و طلبا لحياة هائلة وادعة كتلك التي يعيشها الأوروبيون ، إلا أن هؤلاء أيضا لن يكونوا سوى نسخ أخرى أردأ و أكثر رعونة و سداجة من الحكومات المستبدة التي سيجمع الكل على وجوب التخلص منها.

و لقد اعترف برنار في لقاء تشاوري بعقوبة الخطة الجديدة ، و بأمانها المطلق ، فقال :

حتى لو سقطت كل الأنظمة الحاكمة ، و تولت محلها هذه المعارضة التي نعدّها ، فلن يتجه مسار الأحداث في البلاد الفقيرة و خاصة العربية و الإسلامية نحو الإستقلال عن السيطرة الأوروبية و الأمريكية أبدا ، فالجيش الأسطوري لا يعرف معنى كلمة "حكم" ، و الجمعية الإسلامية و كافة تفرعاتها لا تملك أية وسيلة أو تصور للسير بأي مجتمع نحو التدين التقليدي الراض للادينية بكل أشكائها ، و إنما ستعمل على تسويق اللادينية بعبارات و أدبيات دينية ، أما اللادينيون كالشيوعيين و القوميين فلا يملكون أي تصور لممارسة السلطة بشكل يختلف عن الحكام المستبدن الذين يعملون عندنا في رعاية ممتلكاتنا التي تسمى "الدول الفقيرة" ، و في النهاية لا يعرف أحد من أتباع هذه المعارضة كيف يمكن أن نحقق على الأرض دولة تخدم الأمة ، لأنهم لم يروا يوما الأمة إلا خادما و عبدا لدى أصحاب الدولة.

و من حيث النتيجة نحن نعرف أن جميع ما يؤمن به هؤلاء من تصورات لنهاية التاريخ ليست واقعا ، و لا يمكن تحقيقها ، لأن الإنسان إنسان ، و الحيوان حيوان ، و لن يصبح الحيوان إنسانا و لن يكون الإنسان حيوانا. انتهى كلامه.

بعد أن انتهى إعداد جيش ريكارد من المعارضين السياسيين ، جاء دور البارون روبرت في الخطة ، و في غضون العام الثاني بعد حرب البتانيين احتل هؤلاء المعارضون واجهات البرامج التلفزيونية في كافة المخطات غير الرسمية ، و صار ظهورهم و صارت المقابلات معهم و صارت تحليلاتهم التي تعرضها أجهزة الإعلام أكثر بعشرين ضعفا من تلك التي تعبر عن آراء الحكومات الرسمية ، و التي يعرضها الإعلام.

كان هذا تحولا غير مسبوق في تاريخ الإعلام العالمي برمته.

قبيل حرب البتانيين صدرت في بلادنا و في جميع البلدان العربية تقريبا سلسلة قوانين ، هذه القوانين أوجت في ظاهرها بتصورات إيجابية كانت تعاكس تماما الحصيلة الأكيدة لنتائج تنفيذها التي ظهرت بعد فترة قصيرة ، أخطر هذه القوانين ثلاثة قوانين :

الأول : كان قانونا يسمح بافتتاح أفرع صيرفة في كافة العواصم العربية و المدن الكبرى ، هذه الأفرع مملوكة لشركة عالمية متخصصة في "الحوالات المالية"، تضمن هذا القانون إعفاء هذه الشركة من معظم القيود القانونية و التبعات الضريبية ، و سمح لهذه الشركة بموجب هذا القانون بالقيام بأعمال الصيرفة و الإتجار بالعملات الأوروبية و الأمريكية و العربية ، كل هذه

المميزات كانت في نفس الوقت ممنوعة حتى عن البنوك و المصارف الحكومية و الخاصة ، و لقد كان واضحا أن القرار يستهدف منح إحتكار لهذه الشركة للقيام بأعمال "الحوالات المالية" .

هذه القوانين أشرف على إصدارها و تنفيذها الخواجة موري بنفسه ، و كان حريصا على أن يفتح في كل حي كبير من كل مدينة فرعا لهذه الشركة ، و لعل هذا يصير مفهوما بعض الشيء إذا ما علمنا أن الشركة من أقدم و أعظم ممتلكات البارون ياكوب ، و هي شركة قديمة أسسها جده البارون الأول في أوربة أولا ، بناء على فكرة عبقرية اخترعها بنفسه ، ثم و بعد أن نجحت في أوربة افتتح البارون الأكبر فرعا لهذه الشركة في أمريكا بإسم آخر ، بعد عدة عقود سميت كل الشركة في أوربة و أمريكا باسم الفرع الأمريكي المستحدث.

فكرة الشركة الأولى كانت عبقرية و بسيطة ، تفترض أن صيرفيا يمتلك حانوتين في مدينتين ، و لديه هاتف يصل بين الحانوتين ، و لديه في كل حانوت منهما خزانة للمال تضم مبلغ ألف قطعة ذهبية مثلا ، فيأتيه إلى الحانوت في المدينة الأولى "زيد" يريد أن يرسل مائة ذهبية إلى "عمرو" في المدينة الثانية ، مقابل أجرة نقل قدرها ذهبيتان ، سيقبض الصيرفي المائة ذهبية من زيد مع أجرة نقلها ، ثم سيجري إتصالا مع حانوته في المدينة الثانية ، و سيطلب من وكيله في الحانوت الثاني أن يصرف لـ "عمرو" مائة ذهبية ، و هكذا سيكون الحساب كالتالي :

في خزانة حانوت المدينة الأولى توجد ألف و مائة ذهبية و ذهبيتان ، و في خزانة حانوت المدينة الثانية توجد تسعمائة ذهبية فقط .

في اليوم التالي سيأتي "عبيد" و غيره إلى حانوت المدينة الثانية ، و سيطلبون من وكيل الصيرفي أن ينقل لهم مائتا ذهبية إلى "زيد" في المدينة الأولى ، سيقبض الوكيل مائتان و أربع ذهبيات ، ثم سيتصل بحانوت المدينة الأولى و سيطلب من الصيرفي أن يعطي لـ "زيد" مائتا ذهبية ، الحساب سيكون كالتالي :

في خزانة حانوت المدينة الأولى ستوجد تسعمائة ذهبية و ذهبيتان ، و في خزانة حانوت المدينة الثانية ستوجد ألف و مائة و أربع ذهبيات .

فإن تكررت هذه العملية عددا من المرات يوميا فإننا سنجد أن خزانة الحانوتين ستتضاعف محتوياتهما في أقل من عام واحد عدة أضعاف ، و دون أن تسافر قطعة ذهبية واحدة من مدينة إلى مدينة أخرى ، و سيكون هذا الصيرفي قادر على نقل ثروات بأكملها بين المدينتين دون أن ينقلها فعلا و دون أن يخاطر بقرش واحد .

فإن فرضنا أن الصيرفي يملك في كل مدينة حانوتا و خزانة مترعة ، فما علينا إلا أن نتخيل السرعة الهائلة التي ستتضاعف بها ثرواته خلال فترة لحظية ، هذه الفكرة اخترعها البارون الأكبر و أسس على أساسها أول شركة صيرفة عالمية في التاريخ ، و استطاع من خلالها بعد عقود أن يجمع أموالا لا تحلم دول كبرى بامتلاكها .

لولا تشتت عشيرة البارون في أرجاء العالم و توزعهم على مدن الدنيا لما كان لهذه الشركة أن توجد أصلا ، هذا التشتت مع التعاون و الثقة بين المشتتين ، كان الميزة التي لا يقدر يملكها أحد إلا البارون و عشيرته ، و لهذا لم يستطع أحد أن ينافسهم في هذا العمل فاحتكره البارونات جيلا بعد جيل و حصدوا من خلاله نصف ثرواتهم ، و لا يزالون يزدادون بفضل ثراء باطراد إلى يومنا هذا.

بعد خمسة أعوام من إفتتاح أفرع هذه الشركة في بلادنا و البلدان العربية صارت هذه الأفرع ثوابتا في حياة التجار و العمال و الأغنياء و الفقراء ، و صارت لافتها معتادة في كل حي كلافات المشافي و أقسام الشرطة و الإطفاء ، و عبر هذه الأفرع باتت تعقد معظم الصفقات التجارية العابرة للحدود ، و من كافة الأحجام و الأنواع و بجميع العملات، لقد حصدت الشركة من هذه الأفرع أموالا ضخمة تضيق عن حصرها أكبر أنظمة الإحصاء و أدقها ، ذلك أنها تجني الأموال من أجور الحوالات ، و أيضا من أرباح صرف العملات ، و دوما دون مخاطرة أو كلفة تذكر.

لم تُمنح الأسر الحاكمة في بلادنا و في الدول العربية أية سلطة على هذه الأفرع ، و بقيت مسألة حمايتها و إدارتها و الإشراف عليها حكرا على الخواجة موري و إخوانه و أبناء عمومته من الخوالات في البلاد العربية و الإسلامية أيضا.

رحب الناس في بلاد العرب و غيرها بهذه الشركة ، و ظنوا أنها باب تيسير لأموالهم و راحة من قيود الإجراءات المصرفية الحكومية المعقدة ، و لكنهم لم يعرفوا أنها و منذ أن افتتحت كانت السبب في تسارع إختيار قيمة النقود التي يملكونها و التي يجنونها ، و أنها حصدت معظم مدخراتهم و تسببت في ارتفاعات جنونية لأسعار الأساسيات ، لأنها عملت عمل الشفافة للعملات الأوروبية و الأمريكية من الحوالات القادمة إلى بلادنا ، فهي تمنع وصول النقود الأوروبية و الأمريكية السائلة من المُرسلين إلى أسواقنا ، فالمرسلون لأموال الحوالات إلى بلادنا سيدفعونها للشركة بالعملات الأوروبية ، و لكن المستقبلين للحوالات سيستلمونها في بلادنا بالعملات العربية ، و بأقل بكثير من قيمتها الحقيقية ، الفارق سينقل إلى الخارج ، و الذين يرسلون أموالا من بلادنا إلى خارجها سيكون عليهم أن يشتروا العملات الأوروبية من أسواق بلادنا بأسعار أعلى من السعر الحقيقي ، و أن يسددوا بهذه العملات قيمة حوالاتهم التي سيستوردون بها السلع ، و بفضل هذه العمليات "المنشائية" ركبت عملات العرب قطار الإنحدار السريع ، و ركبت كلفة المعيشة صاروخا صاعدا إلى الجو بإطراد و ثبات.

القانون الثاني : يسمح هذا القانون باستيراد البضائع الإستهلاكية من المناطق الحرة ، و من شرق آسيا ، ضمن شروط مخففة و بتعرفة جمركية قليلة ، و دون قيود تقريبا .

كنت قد تحدثت عن خطة البارون لنقل المصانع و الآلات الإنتاجية إلى شرق آسيا ، و لعل أخطر ما في هذه الخطة كان القسم المتعلق بالمدة التي تسبق تلف منتجات هذه المصانع ، عندما صدر هذا القانون كانت معظم المصانع العالمية الكبرى قد هاجرت من أوربة و أمريكا إلى شرق آسيا ، حيث العمالة الرخيصة ، إلا أن هذه المصانع لم تُنقل إلى آسيا فقط لأجل العمالة الرخيصة ، و إنما نقلت إلى هناك لأنها تستطيع من هناك أن تنتج بضاعة كثيرة جدا بجودة قليلة مقارنة بالمواصفات و المقاييس الأوروبية و الأمريكية ، هذه المواصفات التي تفرض على المنتجين إتقان منتوجاتهم بشكل يمنع من تلفها بسرعة . لقد تمكنت هذه البضائع القليلة الجودة جدا من غزو أسواق أمريكا و أوربة ، الفضل يعود في ذلك إلى إتفاقية التبادل التجاري الحر التي وقعت عليها دول أوربا و أمريكا و دول شرق آسيا .

هذه العلاقة المزدوجة حققت أرباحا مذهلة للشركات الصناعية الكبرى التي نقلت مصانعها إلى شرق آسيا ، السبب هو أن منتجات هذه الشركات سيطرت على أسواق الدول الغنية بفضل رخص أسعارها ، و أيضا بسبب كثرة مبيعاتها لأن سلع هذه الشركات قصيرة العمر و لا بد من استبدالها خلال فترة قصيرة ، بينما نجد أن البضائع المماثلة التي تنتجها المصانع الأوروبية و الأمريكية تعتبر باهظة الثمن بسبب كلفة اليد العاملة ، و بسبب متطلبات الجودة و الإتقان حسب قوانين البلدان الصناعية ، و هي بضائع لا تتلف بسرعة فلا تستبدل بسرعة و لهذا نجد أن بيعها بطيء جدا مقارنة بالبضائع القادمة من آسيا ، و بسبب هذه الخطة انتهت تماما المنتجات الوطنية الأوروبية و الأمريكية ، و أغلقت معظم تلك المصانع العنيدة التي أصرت على البقاء في بلدانها الأصلية .

نفس المعادلة طبقت على جميع البلاد العربية ، و بلادنا كانت في طليعتها ، ففي خلال أعوام قليلة من صدور هذا القانون أغلقت معظم المصانع المحلية ، حتى تلك التي تنتج الصناعات التقليدية اليدوية القديمة فشلت و أغلقت ، و بدلا من البضائع المصنوعة في بلادنا احتلت أسواقنا البضائع الآسيوية .

قانون "الجودة و الإتقان و الأمان أولا" اختفى تماما بعد حرب البتانيين بخمسة أعوام فقط ، و صارت أسواق بلادنا و جدران بيوتنا حاويات لأردأ المنتجات الآسيوية ، بداية من أثاث المطبخ و انتهاء بالأدوات الحرفية ، و حتى شوارع بلادنا صارت مرتعا للعربات الآسيوية الرديئة الصنع و الشكل ، و بسببها جميعا امتلأت المشافي و برادات الموتى بمئات الآلاف من ضحايا حوادث السير و الحوادث المنزلية و الحرفية المروعة .

جودة البضائع الآسيوية التي تحمل علامات تجارية أوروبية شهيرة ، و القادمة إلى أسواق أوروبية و أمريكا ، لا تصل إلى عُشر جودة هذه البضائع فيما لو أنتجت في أوروبية و أمريكا ، و مع هذا فإن البضائع الآسيوية القادمة إلى بلادنا لا تصل جودتها إلى عُشر معشار نظيراتها المُصدّرة إلى أوروبا و أمريكا ، و لذلك فهي أسرع إستهلاكاً بكثير جداً.

القانون الثالث : قانون يمنع إحراق القمامة في كل مكان ، بحجة حماية أجواء كوكب الأرض من تراكم غاز الفحم ، و استبدال المحارق بمكببات كبرى للقمامة.

هذا القانون في الواقع كان مكملاً للقانون الثاني ، فبفضل البضائع الآسيوية الرديئة تضاعفت عشرات الأضعاف كميات القمامة التي تنتجها الحياة اليومية في بلادنا ، و بدلاً من أن يمر المسافرون إلى مدن بلادنا بمدخل مشجرة جميلة ، صاروا يمشون أمام تلال هائلة من القمامة تحيط بهذه المدن من عدة جهات.

حاول الكثيرون من التجار العرب و الصناعيين اختراق هذا القانون بتبني مشاريع لتحويل محارق القمامة إلى مولدات حرارية للطاقة الكهربائية ، أو حتى بفرز القمامة إلى عضوية و كيميائية كما يحصل في أوروبا ، أو بدفنها في الصحاري الواسعة بعيداً عن المدن ، لكنهم فشلوا جميعاً أمام إصرار الخواجات على الرفض بحجة : "حماية البيئة الأرضية الهوائية و الجوفية" !. دار حوار بيني و بين موري حول هذه الشبكة من القوانين ، و سألتته عن السبب في الإصرار على الحفاظ على القمامة و على أن تغرق شوارع البلاد فقال :

يا مهران بليك : القمامة لها فوائد كبيرة جداً لنا ، لقد رفعنا قيود الإستيراد هنا و في البلاد العربية ، و نريد أن نسوق بضائع تنتجها مصانعنا الضخمة الموزعة هنا و هناك ، فمثلاً القمامة تسبب انتشار الحشرات بكثرة ، و هذا يسمح لنا ببيع المبيدات الحشرية بكثافة ، و لقد كنا حريصين على ضعف فاعلية هذه المبيدات ، لتستهلك بكثرة أيضاً ، و القمامة و الحشرات ينشران الأمراض البكتيرية بأنواعها ، و هذا يسمح لنا ببيع الأدوية السريعة بكثافة و تواتر ، و القمامة تسبب تلوث الثياب و الأبدان بالغبار و الروائح البشعة ، و هذا يسمح لنا بتسويق منتجات العطور و التجميل و الغسيل . القمامة تسبب انتشار الجرذان و الفئران بكثافة في المدن ، و هذا يسبب خراباً دائماً في الأبنية و كسوتها و يساعدنا على بيع منتجاتنا اللازمة للأبنية بشكل أكبر و أوسع ، هذا عدا بيع مبيدات الفئران و الجرذان بكثافة.

القمامة تزيد تلوث الماء و المجاري المائية السطحية ، و بالتالي تزيد تلوث المزروعات و الحيوانات ، و هذا يتيح لنا بيع منتجاتنا لتعقيم و معالجة النباتات و الحيوانات .

و زيادة القمامة تستنزف المزيد دوما من دخل الأسرة ، و هذه الزيادة تزيد معدلات الفقر ، و الفقر يكسر شوكة العناد عند الناس و يجعلهم أكثر خضوعا لسلطتنا ، و أكثر توسلا لنا بالتخفيف من عذاباتهم ، و طبعاً لن نفعل هذا حتى يستسلموا لإرادتنا التي تقهرهم كالإرادة الإلهية ، استسلاماً غير مشروط ، و في فترة قصيرة ، و أحب أن أخبرك بأن القمامة الآسيوية ستنتصر قريباً على مصانع التدوير في أوروبا و أمريكا ، لأن هذه القمامة تزداد يومياً بمتواليات حسابية ، بينما حجم مصانع التدوير ثابت ، لا بل هو آخذ في التقلص.

صدرت حزمة القوانين الجديدة - التي شملت منع إحراق القمامة - لتمهيد لمرحلة سياسة جديدة تشمل كل المنطقة و ما جاورها ، و لقد توافقت أيضاً بإصدار مجموعات المستشارين الأوروبيين لعدد كبير من الأبحاث أرسلت إلى مقر البارون ، هذه الموجة من الأبحاث كانت أشبه بموسم الحصاد ، إذ أن معظمها بحث في ثمرات تشريعات ؛ كان بعضها قد صدر في بداية عهد الإنتداب الأوربي ، هذه التشريعات كانت قد صُممت لتحقيق تغييرات كبيرة في شكل المجتمع في بلادنا و في سائر البلاد العربية الأخرى ، تغييرات تستمر حتى تأخذ هذه المجتمعات شكلاً يناسب مشروع البارون العالمي الكبير.

أكثر ما لفت إنتباهي من هذه الأبحاث كان مؤلفاً ضخماً أعده برفسور متخصص في هندسة المجتمعات ، هذه الكتاب كان عبارة عن خريطة رباعية الأبعاد ترسم صورة لتطور المجتمع في بلادنا خلال مائتي سنة خلت ، تركز هذه الخريطة على تأثير قوانين الزواج و الأحوال الشخصية في صناعة الصورة الحالية لمجتمعنا العربي الكبير ، هذا المؤلف أثر في نفسي و في عائلتي كثيراً ، سأعرض فيما يلي أفكار هذا الكتاب باختصار كبير :

استقرأ الكاتب معلومات بحثه الطويل من إحصائيات رياضية استنتجها من سجلات حصر الموارد و سجلات القيود العقارية في سائر أرجاء البلاد ، و اعتمد أيضاً على الإحصائيات الحالية الصادرة عن فرق المستشارين الأوروبيين السرية لتعداد للسكان ، و تلك الصادرة عن فرق الإحصائيات الطبية التي تراقب سرّاً عمل المؤسسات الطبية في كافة المدن و القرى ، و اعتمد أيضاً على الأرشيف الضخم الذي تملكه وزارات الخارجية الأوربية و وزارات المستعمرات سابقاً.

تحدث الكاتب في بداية بحثه عن تفاصيل قوانين الزواج في بلادنا أيام الحكم التركي و خلال العقود الثلاثة الأولى للإنتداب الأوربي ، فقال :

قانون الزواج في الإسلام هو الذي كان سائداً في تلك الفترة ، و هو قانون ينظم الزواج على أساس أنه عقد تبادل منافع ، فعلى الصعيد المنفعي : تقدم المرأة لزوجها الخدمة المنزلية و رعاية الصغار ، و ذلك في مقابل حصولها على النفقة و السكن و الحماية الكاملة و عدد كبير من الخدمات الأخرى يقدمها لها الرجل .

أما على الصعيد النفسي : فتقدم المرأة لزوجها الطاعة التامة و الإنقياد برضا تام ، مقابل الود و العطف و الأمان (الأبوي) الذي يقدمه الرجل .

ثم على الصعيد الجنسي : تقدم المرأة الإستسلام الإيجابي للإتصال الجنسي ، مقابل أن يقدم الرجل للمرأة متعة الجنس في فترات متقاربة و بإتقان يشبع نهمها .

توجد في هذا القانون بنود هامة رتبت مع ما سبق ذكره من بنود معظم آليات حياة المجتمع ، بشكل قد لا يتخيله الكثيرون من الخبراء في هذا المجال ، هذه البنود هي :

أولا الطلاق حق حصري للزوج و ليس لأحد غيره سلطة فرضه ، و يحق للمرأة طلب الطلاق في حالات محدودة و عن طريق القضاء فقط ، و للقاضي منح الطلاق للزوجة في حالات خاصة جدا .

ثانيا يحق للرجل أن يجمع في بيته أربع زوجات ، و لا يحق لأحد أن يمنعه من ذلك ، و خاصة زوجته أو زوجاته ، إذ ليس هن حق الاعتراض على ذلك ، و يعتبر القانون الإسلامي أن طلب المرأة للطلاق من زوجها اعتراضا على زواجه بأخرى عمل محرم و ذنب كبير و ليس لها أي حق في الحصول على الطلاق لهذا السبب ، بل يحرم هذا القانون عليها أن تفتعل المشاكل أو الخلاف أو أن تمتنع عن أداء واجباتها المادية و السلوكية تجاه زوجها ، و يمنعها من أن تغادر بيتها بسبب الاعتراض على زواج زوجها من أخرى .

ثالثا المرأة ترث و تملك بما يناسب واجباتها و حقوقها ، و لا يحق لأحد أن ينتزع منها ملكيتها لا زوجها و لا غيره ، و لها حق التصرف الكامل بأموالها دون وصاية من أحد أو إكراه ، و حال وفاتها لا يرث زوجها مالها بالكامل و إنما يرث جزءا صغيرا منه .

رابعا الزوج مجبر بقوة القانون على النفقة على زوجته و ذريته ، و في حال قصر في أداء حقوقها يتم تحصيل هذه الحقوق منه على أنها ديون مستحقة ذات أولوية مطلقة ، و قد يجبس و يصادر حتى يؤديها .

هذا القانون رسم الشكل الكامل للمجتمع في بلادنا خلال فترة الحكم التركي و لعدة عقود تلتها من خلال آلية تتضح في هذه الصورة :

الإنسان يجمع المال ليس من أجل تحقيق الضروريات الأساسية للحياة فقط ، و إنما من أجل الحصول على أكبر مساحات زمنية ممكنة مشغولة بالتمتع بالملذات ، و أعظم هذه الملذات هي متعة الجنس ، و للمتشكك من ذلك نقول : عليك النظر

في كافة القصص الشعبية و العادات و التقاليد ، و حتى الأمثال الشعبية و الأغاني و اللوحات الجدارية ؛ لنجد أن "الزواج" أو لقاء الرجل و المرأة جنسيا دون معكرات هو غاية السعادة في هذه الحياة لدى غالبية البشر الساحقة.

المرأة تميل إلى الجنس أكثر من الرجل ، إلا أنها لا ترغب إلا في رجل واحد ، و ترغب بشدة في أن تستأثر به وحدها بسبب نهمها الجنسي و حرصها الشديد على الحصول على هذه المتعة غير ناقصة ، إلا أن هذه الرغبة تحبو عندها كثيرا بعد أن تنجب طفلها الثاني ، إذ يتحول جل إهتماماتها إلى ذريتها ، و يصبح الجنس الإهتمام التالي على ترتيب أولوياتها ، و كلما أوغلت في مهمات العناية بالذرية كلما قل نهمها للجنس.

الرجل يميل إلى إقامة علاقات جنسية مع أكثر من امرأة و بانتظام و دون إنقطاع ، و لا يقل نهمه لممارسة الجنس طالما أنه يجد امرأة مقبلة عليه ، و يجد مناخا خاليا من المعكرات ، و لقد راعى قانون الزواج في الإسلام هذه النقاط و على أساسها سمح بتعدد الزوجات لغاية أربع زوجات ، و منع المرأة من تهديد فرص الرجل في الحصول على احتياجاته الجنسية لمجرد مؤثرات نفسية مزاجية محضة.

بحماية قانون الزواج الإسلامي كان تعدد الزوجات هو القاعدة في العلاقات الإجتماعية في سائر تاريخ المسلمين ، و من ضمنه زمن الحكم التركي و لعدة عقود تلتها ، و كان معيبا الإقتصار على زوجة واحدة في ذلك العصر ، هذا النظام جعل من الزواج محورا أساسيا لجميع النشاطات الحياتية في ذلك المجتمع ، ففي كل أسرة توجد دوما مشاريع زواج جديد على مدار العام ، و هذه المشاريع تحتاج دوما إلى الإنفاق على احتياجاتها الكثيرة ، السكن و الكسوة و مصدر الرزق للزوجة القادمة ، حتى الإحتفالات بالزواج و لأنها تضمنت دوما الكثير من الطقوس الإجتماعية فإنها تحتاج إلى نفقات كبيرة.

في ذلك المجتمع الزراعي العشائري كان تدبير هذه النفقات عملا جماعيا ، إذ يتعاون العشرات و ربما المئات على إنجاز أي مشروع للزواج ، و لهذا كانت هذه المشاريع تنجز بإتقان و كمال ، فالسكن مؤمن و يملكه الزوج ، و الكسوة و الأثاث يتم تأمينهما بنجاح و كمال دوما ، و كذلك مورد الرزق اللازم للزوجة الجديدة يتم تأمينه بمعونة العشيرة أو الأسرة الكبيرة ، أو بمعونة الأوقاف الخيرية الخاصة بهذا الأمر.

لقد كان الفشل قليلا جدا في إنجاز مشاريع الزواج ، و هذا يعود إلى الحرص التقليدي و المثابرة بصبر و تأن ، و إلى دقة التدابير التي اعتاد الناس في ذلك العصر على ممارستها و تطويرها ، و توارثوها جيلا بعد جيل.

فمثلا تحتاج العروس الجديدة إلى ملءات السرير و أغطيته و وسائله ، فيقوم الأهل بتفصيل و شراء ما يكفيها لعقد أو عقدين من أطقم هذه الملءات ، و لا يجهزونها بما يكفيها عاجلا فقط ، و هذا سيحتاج إلى قطن كثير و غزل و نسج و خياطة و عدة عمليات نقل حتى تصل الملءات من حقل المزارع إلى منزل العروس مروراً بالصانعين و التجار.

نعم الأسر الموجودة ستستهلك ملاءات قطنية ، إلا أنها لن تشتري الملاءات بكميات كبيرة ، فلعل عشرات من هذه الأسر لا تشتري في عام كامل من هذه الملاءات ما تشتريه عروس جديدة واحدة.

قس على ذلك الأثاث الخشبي و الطعام اللازم لفترة العرس و الإحتفالات المصاحبة ، وحدها زيادة الإنتاج الزراعي للمواد اللازمة هي القدرة على تلبية الطلب الكبير على هذه البضائع ، و ذلك بسبب ثبات قيمة العملة الذهبية في هاتيك الفترة ، إذ أن ثبات قيمة الذهب جعل من استيراد البضائع المطلوبة عملا غير مربح للتجار نظرا لتماثل الأسعار في مختلف الأنحاء.

لتحقيق زيادة الإنتاج لم تكن الزراعة الكثيفة و المواسم المتكررة خيارا متاحا ، فالآليات الزراعية كانت بسيطة ، و لذلك لا حل لزيادة هذا الإنتاج إلا باستصلاح أراض جديدة و إضافتها للمساحات المزروعة ، و لتحقيق هذه الغاية لا بد من يد عاملة جديدة ، و هذا يتطلب من المزارع زيادة عدد زوجاته ، ثم زيادة عدد أولاده و بناته ، فالزراعة كانت دوما عملا أسريا و عشائريا.

بدوره المزارع سيقدمُ إلى المدينة لطلب احتياجات زواجه الجديد ، و هذا يعني أنه هو نفسه يساهم في نمو قطاع عمله و زيادة الطلب على منتجات نفسه ، هذا النظام جعل الطلب و زيادة الإنتاج و مصادره أشبه ما يكون بكرة الثلج المتدحرجة من جبل عال.

استصلاح أراض جديدة سيعني أيضا زيادة عدد المواشي و الدواجن لتكفي احتياجات هذه الأراضي ، و سيعني أيضا زيادة حجم قنوات الري و أحواض السقاية اللازمة لهذه الأراضي ، و سيعني زيادة الطلب على أدوات النقل و الزراعة و الحصاد ، كل هذا يوظف مزيدا من العمال المهرة المحترفين.

لقد كان عدد السكان شبه ثابت خلال تلك الفترة مع نمو بسيط لا يزيد على واحد بالمائة سنويا ، السبب في هذا كان الحجم الكبير لوفيات الأطفال خاصة و سائر الوفيات عموما ، هذا الحجم كان كبيرا في كل العالم إلى أن اكتشفت المضادات الحيوية و التعقيم المخبري و الجراحي.

و رغم ذلك كان نمو القطاع الزراعي و لواحقه يزيد على الخمسة بالمائة سنويا ، أي أضعاف النمو السكاني ، السبب هو نمو الطلب دوما على المنتجات الزراعية و لواحقها ، بسبب كثرة مشاريع الزواج و كثافتها ، هذه النسبة في نمو الإنتاج كانت كافية تماما لجعل البطالة عدما محضا في كل البلاد و سببا محضا في إعدام الفقر تماما.

هذا النمو بالإضافة إلى تفتيت الثروات المتواصل بالميراث و خاصة بحمص النساء من المواريث تسبب في توزيع عادل للثراء و جعل الطبقة المتوسطة هي الغالبية الساحقة من سكان البلاد ، مع تزايد مطرد للأثرياء من التجار و الحرفيين و البنائين و

المزارعين ، دون أن تكون هذه الزيادة على حساب أحد سوى الأراضي البور التي كانت تتناقص مساحتها سنويا ، و على حساب أعداد الفقراء التي كانت تتناقص بزيادة عدد الأثرياء .

تلك الفترة انعدمت فيها جباية الضرائب ، و انعدمت فيها المصارف و عوائدها الناتجة عن تأجير الأموال النقدية (فوائد مصرفية) ، و ازدهرت فيها الطلبات على البضائع ، هذا جعل من الوصول إلى الثراء المعقول أمرا متاحا للجميع ، فما على الحرفيين إلا أن يجتهدوا في عملهم خلال العقد الأول من شبابهم حتى يصبح كل منهم مالكا لمؤسسته الحرفية ، فتجد أن العمال الأجراء هم العمال المتدربون على حرفهم ، و بمجرد أن يتقنوا هذه الحرف يصبحون أرباب صنائع مستقلين ، و طبعا مالكين لمساكنهم و موارد معيشتهم و معيشة زوجاتهم .

و بعد أن يجاوز أحدهم الخمسين يعتمد كليا على جهد أبنائه الكثر في تأمين تقاعد مبكر له ، و غالبا ما يفتتح هذا التقاعد بزواج جديد من امرأة كهلة تصغر الزوجات اللواتي عشن معه في فترة شبابه.

ضعف زيادة السكان لم يمنع من استصلاح متزايد للأراضي ، لأن نمو الطلب يدفعه هذا الإقبال المنقطع النظير على الحياة ، إلا أن هذا الضعف كان سببا في إهمال زراعة مساحات من الأراضي المستصلحة و المغروسة أصلا ، ذلك أن الأوبئة و الجوائح كانت تبعد أحيانا أسرا كاملة من المزارعين ، فتبقى ممتلكاتهم دون عناية و دون أن يلتفت إليها أحد ، فتتحول أشجارها إلى النمو البري ، لكن دون أن تتصحر لأنها غالبا ما تكون محاطة بأراض خضراء مزروعة ، فكان معتادا وجود غابات برية لأشجار مثمرة منتشرة هنا و هناك في كل قرية و منطقة ، أو ما يمكن أن نسميه بالمزارع المهجورة.

لقد غمى الغطاء النباتي بفضل هذا النمو الإقتصادي ، و تمت حمايته من التقلص دوما ، حتى أن بلادنا كانت تتضمن غابات من الأشجار المثمرة البرية المعمرة دائمة الخضرة كالزيتون و ما شابهه ، غابات غطت في يوم ما مئات آلاف الكيلومترات المربعة بشكل متصل من الجهات الأربعة و بكثافة كبيرة .

لقد ولدت مشاريع الزواج طلبا متزايدا مصطنعا على البضائع ، ذلك أن متطلبات هذه المشاريع كانت متضخمة و مبالغ فيها ، فالجهاز و الأثاث و بقية المتطلبات لم تكن لتصمد لعقود ، و الأسر الجديدة ستصبح كبيرة بعد فترة قصيرة و ستعود لطلب الاحتياجات رغم تكديس تجهيزات هذه الأسر التي رصدت في بداية الزواج ، لأن هذه التجهيزات صممت لشخصين فقط رغم أنها كثيرة و متكدسة لتكفي لفترة طويلة ، إلا أنها لشخصين فقط ، كثير من الناس كانوا ينتقدون المبالغة في هذه المتطلبات ، لكنهم لم يدركوا أن هذه المبالغة هي التي ولدت دوما الطلب المتزايد على السلع الذي دفع الإقتصاد برمته إلى النمو المتصاعد دون تراجع.

لم تكن الأمراض النفسية كالكتابة و اليأس موجودة ، بسبب وجود الرضا النفسي لدى رب الأسرة و انعكاسه على الجميع ، لذلك لم توجد في تلك الفترة بطالة حقيقية و لا مقنعة ، لقد كانت الزيجات ناجحة جدا لدرجة وصلت إلى ما يقارب إنعدام حالات الطلاق في معظم بلاد المسلمين ، أما خصوبة النساء و الرجال فلقد كانت تعمر إلى فترة متأخرة من العمر ، حتى بعد العقد السابع لدى الرجال ، و ذلك بسبب تجدد الحياة الجنسية النظيفة لدى الرجل ، و تمتع المرأة بالجنس بشكل كبير مع زوجها المقبل عليها دوما ، و السلطة الأبوية المطلقة جعلت من الجريمة مجرد أحداث نادرة الوقوع .

قدرة هذا النظام الهائلة على ضبط المجتمع و سد احتياجاته تتضح من العملية الحسابية التالية :

في عام ما وُلد أربعة من الذكور و أربعة من الإناث ، و في العام الذي يليه حصل نفس الأمر ، و كذلك في العامين القابلين ، على رأس العام الرابع سيكون لدينا ستة عشر طفلا و ست عشرة طفلة ، بعد ثماني عشرة سنة سيكون لدينا ما يلي :

أربعة شبان عُمر كل منهم ثنتان و عشرون سنة ، أي بالكاد هم مستعدون للزواج ، و بقية الشباب لا يزالون مراهقين ، و سيكون لدينا ست عشرة فتاة جاهزة للزواج منذ سنوات خلت ، لم يتزوجن بعد .

حل مشكلة تراكم الفتيات العاطلات عن الزواج ببساطة لا بد لكل شاب قادر من أن يتزوج من فتاتين فأكثر على الأقل ، و هذا ما كان يحدث فعلا ، لقد كانت الفتاة الجميلة البكر الصغيرة تتزوج من شاب عازب و هي في ريعان صباها و خصوبتها ، و بعد عدة أعوام يتزوج الشاب نفسه من فتاة ثانية أقل جمالا و أكبر عمرا و بعد أعوام يحصل نفس الشيء و غالبا ما تكون الثالثة أرملة أو مطلقة ، و هكذا فإن ما تسمى بـ "ظاهرة العنوسة" لم تكن موجودة مطلقا ، و لم تكد تخل امرأة من زوج مهما كان سنها ، حتى و لو كانت أرملة أو مطلقة ، لأن جميع الرجال في المجتمع لديهم مشاريع زواج ، لقد سبب هذا النظام ندرة النساء ، فإذا ما أضفنا احتجاجهن و شدة الميل إليهن سنفهم لماذا انتشرت الأدبيات العاطفية كثيرا بين الناس تلك الأيام ، حتى أن الأدب كله كان مشغولا بقصص العشق و العشاق العذرية الحالية من الإشارات الجنسية ، و كانت أحاديث المجتمعات كلها تقريبا عن الزيجات الجديدة و أخبارها و احتفالاتها .

هذه الأحوال لم يوجد ما يماثلها في أوربة المسيحية في تلك الفترة ، فالكنيسة كانت تحظر تعدد الزوجات ، و تحظر الطلاق ، و هذا تسبب في انتشار الكتابة الرهيبة بين المتزوجين ، فالرجل يمل من زوجة واحدة بعد مضي عامين أو ثلاثة فقط من الزواج ، فإن كان عفيفا و متدينا انقلبت حياته مع زوجته إلى صراع مرير ، فهو يمل منها و يبدأ بمعاملتها بجفوة ، و هي ترد على ذلك بالمثل و أكثر بدافع الغيرة ، و ينعكس هذا على إنتاج الرجل و على سلوك الأطفال ، ثم يصاب الجميع بكتابة مزمنة بعد فترة من الإحتقان الجنسي قد تتخللها مغامرات اغتصاب و علاقات جنسية سرية عابرة ، كثيرا ما تكون فظيعة و مرعبة

، ثم تنتهي الحياة الجنسية للزوجين في فترة مبكرة لا تتعدى العقد الرابع أو الخامس على أبعد تقدير ، و ينتهي النمو السكاني عند حد لا يتعداه بالنظر إلى النهاية المبكرة للخصوبة لدى الزوجين بسبب الكآبة المزمنة.

هذا المناخ المقيد في أوربة جعل من إنتشار الإلحاد أمرا سهلا عند أولئك الذين لا يفهمون لماذا يجب على الرجل أن يلتصق بامرأة واحدة كل حياته ، و عند أولئك الراغبين في الجنس كما يتمتع به كل رجل ، متجدد و متواصل و على فترات متقاربة دوما.

لقد انتشر الإلحاد هناك أساسا على يد الفئات التي ترعى تجارة الجنس بغير زواج ، و معظم الفلسفات الإلحادية كانت تصب جام غضبها على فكرة الزواج و على تحريم تعاطي الجنس خارج مؤسسته.

العمال الأوربيون مهرة و مجدّون في أعمالهم ، لكنهم كانوا يفقدون الرغبة في الإستمرار في عزّ نضوجهم أي في الأربعينيات من أعمارهم ، و ذلك بسبب فقدان الحافز الجنسي على الإنتاج ، و لم ينكسر هذا الطوق إلا بعد إنهاء سلطة الكنيسة و إلغاء إدانة العلاقات الجنسية خارج الزواج ، فانتهى الإحتقان الجنسي لكن حلت محله الإباحية الجنسية الفوضوية.

بعد دخول الإنتداب الأوربي إلى بلادنا و البلاد العربية سنّت حُزم من القوانين تحد من السلطة الأبوية و سلطة الأزواج ، و حورب تعدد الزوجات قانونيا و إعلاميا و تربويا ، و حظر على رجال الدين الدعوة إلى ممارسته لدرجة أن بلادا عربية صدرت فيها قوانين تجرم تعدد الزوجات كما في أوربة المسيحية ، و تم تدبير إصدار عدد من الفتاوى التي تجبر الزوج على استئذان زوجته الأولى قبل الزواج بثنائية.

لكن بالنظر إلى أن العلاقات الجنسية المنتظمة خارج الزواج شبه مستحيلة في المجتمعات العربية بقي التعدد معمولا به لعقود تلت بداية الإنتداب الأوربي ، إلا أنه كان يتقلص يوما بعد يوم بفعل الضغط الكبير المضاد له.

في المرحلة التي تلت الإنتداب الأوربي نجحت الخطط التي وضعت لنفتيت تماسك قانون الزواج الإسلامي ، و حورب تعدد الزوجات بشكل غير مسبوق ، و لم يمض عقدان من الزمن على نهاية الإنتداب الأوربي حتى كان التعدد في المدن شيئا من الماضي ، و بقي في الأرياف لكن في حالة تقلص مستمرة.

في الفترة التي تلت حرب كسّار كانت ثمار سياسة الحرب على تعدد الزوجات قد نضجت تماما ، إذ وصل حال الرجال في بلادنا إلى ما هو أسوأ بكثير من أحوال نظرائهم في أوربة قبل سقوط الكنيسة النهائي ، لأن إدانة الجنس خارج الزواج لم تسقط أبدا ، نعم انتشر البغاء في البلاد إلا أن زبائنه من رجال البلاد كانوا قلة قليلة دوما ، و لقد سرى الإحتقان الجنسي إلى داخل الأسر و تحول بسرعة إلى كآبة مزمنة انعكست سلبا على الرغبة في الإنتاج.

لقد صارت الأعمال التجارية و الحرفية تسير من سيء إلى أسوأ ، و كاد الإتقان و الصدق المهني يختفيان تماما من أسواق الحرف و الصنائع ، ذلك أن معظم الرجال أصبحوا يائسين من تجديد حياتهم الجنسية حتى و لو ملكوا القدرة المالية لفعل ذلك ، لأن عادات المجتمع كلها تغيرت و صار الزواج من زوجة ثانية عارا على الزوجة الأولى و الزوجة الثانية ، لا بل لقد صار أولئك المتزوجون من أكثر من امرأة محل سخرية العامة ، و صار البحث عن زوجة ثانية مهمة تفوق صعوبة و عارا مهمة استئجار عاهرة لممارسة الجنس معها على قارعة الطريق ، فما يكاد يفصح الرجل عن رغبته في الزواج من امرأة ثانية حتى تنهال الإدانات و الإهانات من أقرب الناس إليه ، فلماذا يجهد الرجال أنفسهم من أجل المزيد من المال ؟ .

بسبب هذا اليأس انخفضت سن الخصوبة عند الرجال و النساء على حد سواء إلى ما دون الخامسة و الأربعين ، و كثرت حالات الطلاق بين الشباب لأن الزواج لم يعد مكلفا جدا ، و الطلاق لم يعد تضحية كبيرة يخاطر بها الشاب ، بل على العكس صار الطلاق سبيلا للتخلص من قفص الزوجية الأشبه بسجن مغلق مع شخص مكروه مضافة إليه الأشغال الشاقة للإنفاق على هذا السجن ، و انتشرت الجرائم الجنسية المرعبة الناتجة عن الإحتقان الجنسي بشكل مشابه تماما لما حصل في أوربة أيام السيطرة الكنسية.

هذا اليأس و ما يسببه من كآبة سرى إلى الأطفال و اليافعين و الشباب ، و صارت مشاريع الزواج أشبه ما تكون بمشاريع إستبعاد للرجال لصالح النساء ، و تقلصت كثيرا رغبة الشباب في الزواج ، و بسبب انعدام التعدد تكدست ملايين الفتيات في سوق الزواج دون راغبين ، و ظهرت ما تسمى بـ "العنوسة الوبائية" ، و معها انتشرت المثلية الجنسية و الرهبانية النسائية التي رعتها مؤسسات دينية كمؤسسات المفتي الجمعي ، و مع ذلك ازداد إصرار النساء على رفض التعدد و محاربتة ، حتى أولئك اللواتي عانين من تأخر سن الزواج أو حتى من اليأس من الزواج ؛ نجد أن إحداهن إن تزوجت ستتحوّل إلى وحش مسعور مستعد لأن يفترس بلا رحمة كل أنثى تقترب من زوجها الجديد ، و إلى ما يشبه شمشون ، فهي مستعدة لقتل زوجها قبل أن تراه يتزوج بامرأة أخرى ، و تزداد سعارا و وحشية في مقاومتها لهذه الفكرة بعد أن يدخل زواجها في مرحلة ملل زوجها المزمّن منها ، لأنها تعتقد أن إغواء الأخريات هو ما يحجب انتباه زوجها إلى جمالها ، و أن امرأة أخرى ستجعل مشاعر زوجها تجاهها تسير بعيدا نحو القرف و الكره إلى نقطة اللاعودة ، و لقد غذى الإعلام برعاية البارون روبرت هذه الأفكار عند النساء حتى صارت يقينا ، رغم أن الحقيقة هي العكس تماما.

هذا التكدر جعل مشاريع الزواج رديئة جدا ، فلم تعد تحظى بتلك العناية و الرعاية و النفقة ، و صار الزواج أشبه ما يكون بعملية تخلص من الفتيات بالنسبة للأهل ، و بمناقصة لتحقيق خدمة ضرورية بأقل الخسائر بالنسبة للشبان ، انعكس هذا مزيدا من الإحباط و الإنكماش على الأسواق و قدرات الإنتاج ، و إذا ما أضفنا إلى ما سبق الفساد القانوني و الحكومي و التجاري و تسلط الجريمة المنظمة و التخطيط المتعمد للتخريب نجد أن تقلص النمو الصناعي و الزراعي قد بلغ ذروة

تسارعه في تلك الفترة ، فلقد تقلصت المساحات المزروعة إلى أقل من نصف المساحات المزروعة قبل الإنتداب الأوربي ، أي قبل سبعة عقود و أكثر ، كل هذا بسبب اليأس الآنف الذكر و ما تبعه من قلة الطلب على منتجات الأرض ، لقد اختفت الغابات البرية بشكل شبه تام في تلك الفترة ، و انعدم الغطاء النباتي و صار التصحر كالقدر الآتي لا محالة ، و بدلا من استصلاح مزيد من الأراضي البور ، بارت أكثر الأراضي المستصلحة ، و حلت العواصف الرملية محل الفيضانات و السيول المطرية.

لم تكن خطط التخريب المتعمد لتنجح أبدا لو بقي الحافز الجنسي مسيطرًا على الرجل الفرد ، لأن تفاؤل الأفراد و إصرارهم على التحسين و النمو قادر على هزيمة كافة الصعوبات الموضوعية أمام التقدم الإنتاجي و الإستهلاكي و هذا التفاؤل لا يحفز شئ إلا المكافأة الجنسية المجزية . انتهى اقتباسي من الكتاب الهام.

بعد أن قرأت هذا الكتاب أمرت أبنائي الستة بالزواج مجددا ، و تزوجت أنا بـزوجة ثالثة ثلاثينية جميلة رغم أنني كنت في سن متقدم ، و فهمت السر وراء زواج البارون من أربع زوجات ، و على إصراره على تزويج أقرابه و أبناء عشيرته بأكثر من زوجتين.

ناقشت هذا الكتاب مع البارون في بعض اللقاءات فقال معلقا عليه : إن عملية تفتيت نظام الأسرة القائم على سيطرة الرجل و على التعدد قد أتاح لنا أن نجند جيشا ضخما مهمته تحطيم العوائق أمام مشروعنا العالمي ، جيش حقوق مثابر يعمل كالنمل ، جنوده مليارات من النساء الجميلات العنيدات المتعاليات.

أضحكني رده بشدة و شاركني هو الضحك و غرقنا في موجة من القهقهة كنتك التي كنا نغرق فيها أيام والده البارون الراحل جيمس.

هذا المناخ اليأس خصب لنمو المشاريع الانتحارية المجنونة ، و مناخ رائع لتجنيد الشباب لهذه المشاريع برضا الكهول و الشيوخ ، لقد صارت الأمور جاهزة لظهور النسخة الثالثة الضخمة من مشروعنا العتيد "الجيش الأسطوري".

بعد حرب البتانيين مباشرة بدأ الإستعداد لإجتياح دولة كسار ، ففي تلك الفترة تكاملت كافة الظروف لإطلاق المرحلة التالية من الخطة المتكاملة المتعددة الاحتمالات لمستقبل المنطقة ، حصة بلادنا من هذه الإستعدادات كانت الحصة الأكبر ، لدرجة أن البارون كلفني بالإشراف مباشرة على تنفيذها ، فخصصت لهذه الغاية غرفة عمليات خاصة في أحد الجبال الجرداء القريبة من ريف عاصمتنا ، هذه الغرفة تقع في مقر تابع لإحدى منظمات التحرير للإقليم الذي تحتله جارتنا اللدود ، و لقد احتجت لمساعدة ولدي الأكبر البريغادير "شامل" لإدارة الغرفة في حال غيابي عنها ، آنذاك بدأت مرحلة من العمل الكثيف و المشاغل الجمة ذكرتي بفترة بدايات عملي.

جدول مهماتي كان مزدحما جدا ، أذكر من ضمن تلك الأعمال أنه كان عليّ أن أوجه نجما شعبيا للخطابة ، كنت قد صنعتته خلال فترة سبقت حرب البتانيين ليصبح وجها بارزا من شيوخ النسخة النجدية التي نشرها دعاة كثر استقدمناهم من الجزيرة العربية في مرحلة سابقة ، و أيضا كان هذا الشخص مرشحا ليكون واجهة للنسخة الثالثة من الجيش الأسطوري.

عندما قمت بتجنيد الشيخ "مرتضى" قبل عامين كانت الخيارات المتاحة أمامي كثيرة ، فالمتخرجون من الجامعات الدينية كانوا كثيرا ، و معظمهم كان متجندا للمخابرات التابعة لريمون ، لكنني لم أبذل الكثير من الجهد لأحسم خياراتي لصالح هذا الشيخ الشاب الطويل الوسيم ، صراح الصوت ، الخطيب مفوه الموهوب ، كانت لديه مقدرة كبيرة على إثارة العامة و تهيج عواطفهم ، لدرجة أنني سميت "ميرابو الشمال" (تشبها بميرابو خطيب الثورة الفرنسية الشهير) كان متفوقا في الدراسة و يمتلك ذخيرة كبيرة في ذاكرته من النصوص الدينية الإسلامية ، و الأهم من هذا أنه لم يكن متدينا مطلقا و كانت لديه ميول سادية ، فلقد عمل بإخلاص خلال خدمته العسكرية الإلزامية ضمن مخبرات ريمون ، أظهر أيضا خلال خدمته قسوة شديدة جدا على السجناء و خاصة الأغنياء منهم ، لعل هذا يرجع إلى حقده على أهل المدن و الأثرياء بسبب أصوله الفلاحية الفقيرة ، و بسبب الحي الفقير الذي نشأ فيه شرق عاصمة المنطقة الشمالية للبلاد ، تلك المدينة التي صارت رمزا للشراء الفاحش و البذخ الأسطوري خلال نهايات عهد هرثمة و بدايات عهد خليفته مرسال ، و في نفس الوقت كانت بعض أحيائها تحتوي تجمعا ضخما للفقراء و المسحوقين القادمين إلى المدينة من الريف ، جميعهم من الذين يحملون بنومة هنيئة و لو لليلة واحدة.

لذلك كان مرتضى هذا وفيما جدا لمن يدفع ، و متفانيا في إتقان تنفيذه للمهمات الموكلة إليه ، كانت لحيته كثة طويلة ، و سبب إطلاقه لها أنه قُدم للناس في مدينته على أنه من دعاة نسخة الإسلام النجدية كما أسلفت ، و أتباع هذه النسخة يعتبرون تقصير لحي الرجال أو حلاقتها جرما لا يكاد يغتفر.

احتاج مرتضى إلى هذا المظهر ليسافر إلى خراسان قبيل حرب البتانيين ، حيث التقى هناك بضباط ريمون العاملين ضمن منظمة الشيخ فراس ، و نقل إليهم جرعات من المال و التعليمات بالثبات و عدم مغادرة أعمالهم إلا بأوامر مباشرة من ريمون ، معظم هؤلاء فُقدوا خلال الحرب مع أسرهم ، ثم علمنا لاحقا أن العامة الخراسانيين الغاضبين قد قتلوهم شرّ قتلَةٍ في أعقاب سقوط حكم البتانيين ، كما كنت قد ذكرت سابقا في موضعه.

عمل مرتضى هذا كان كعمل المغناطيس الجاذب للبسطاء الباحثين عن التغيير و العدالة ، هو مجرد ظاهرة صوتية مميزة تبث الخطابات الدينية الحماسية ، و تشحن الشباب حماسة ل يتم تجنيدهم لاحقا في مجموعات أعدت لتشكيل الجيش الأسطوري بنسخته الثالثة الكبيرة .

خصّصْتُ لهذا الشاب المتألق مبلغا ماليا ضخما ، و أمنت له حصانة مطلقة للعمل و الدعوة إلى العقيدة و الأفكار التي يدعو إليها فراس و بشكل علني ، و من على منابر الأحياء الفقيرة في المدينة الثرية جامعة المتناقضات .

لقد كان مرتضى هذا ظاهرة عجيبة في بلد الحزب الواحد و الزعيم الأوحـد ، و في بلد تحكمه طائفة متسلطة معادية للإسلام بشكل علني ، و لم يكن على أي عاقل إلا أن ينظر إلى هذه النقطة ليكتشف أن هذا الشخص ليس سوى أداة لمخابرات ريمون ، و مع هذا تمكن مرتضى من اجتذاب مئات الآلاف إلى تياره من بلادنا و غيرها ، و أقنع هذه الألوف بالتحاق بأفواج الإنتحار التي تلاحقت على مدى عدة أعوام .

بعد أن كلفت مرتضى بمهمته حرصت على أن أجمع حوله أكبر عدد من أتباع النسخة النجدية ، و أطلقت يده في الإنفاق و توزيع الرواتب و المساعدات على أتباعه و على المنجذبين إليه ، فأنفق بسخاء و ذكاء نادر ، و خلال أشهر قليلة اكتسحت شعبية الشيخ "أبو الرعد" (كنية مرتضى) أوساط الشباب في ريف بلادنا ، و صار المسجد الذي يخطب فيه مكتظا دوما بالمنصتين إلى خطبه المتزاحمين على تقبيل يده و تعظيمه ، و الواقع أنني أمنت له دائرة تزيد على المائة شخص من العاملين في منظومتي المباشرة ، كان هؤلاء ماهرون جدا في إظهار التعظيم و التقدير لأبي رعد في غيبته و حضوره ، و كانوا يبادرون دوما في القيام بطقوس التشريفات لصاحبنا فيشجعون الجموع الغفيرة على الإقتداء بهم ، حتى صار مظهر أبي رعد أشبه ما يكون بمظهر ملك عادل أو قديس أسطوري .

في بداية الأمر كانت خُطب أبي رعد منحصرة في الدعوة إلى الحرب المقدسة على جارتنا اللدود لإنتراع إقليمنا المحتل من قبلها ، و لم يكن هذا الخطاب يلقي الكثير من الأذان الصاغية و التجاوب لدى العامة ، إلا أن حرب البتانيين و لقاء مرتضى بفراس قبيل الحرب شكلا منعطفًا كبيرا ، فلقد ركب مرتضى موجة السخط الشعبي العارم على الأمريكيين و الأوربيين ليحوّلها إلى ضوضاء كبيرة جذبت إليه الجموع الغفيرة في وقت قياسي .

لقد قرأ العامة صورة أبي رعد خطأ كعادتهم ، فلقد رأوا في سكوت المخابرات و قوى السلطة عنه تحولا في موقف السلطة ، فالدولة عندنا تحت سيطرة غير رسمية لأتباع الديانة السرية ، و الدولة الآسيوية التي تتبنى الديانة السرية ما فتئت تعلن مرارا و تكرارا عداؤها لأوربة و أمريكا ، فظن أغلبهم و خاصة المشايخ البسطاء أن حلفا غير مكتوب قد انعقد بين زعماء النسخة النجدية للإسلام و بين الجمعية الإسلامية من جهة ، و بين أتباع الديانة السرية و دولتهم الآسيوية من جهة أخرى ، و لقد حرصنا على أن نبث هذا الوهم و على أن نوحى به في كل مناسبة ممكنة ، دون أن نسمح لأحد كائننا من كان بالتحدث علنا عن هذا الأمر .

الواقع أن الحلف كان قائما و لا يزال ، و لكنه لم يكن أبدا موجها ضد أوربة و أمريكا ، و إنما كانت له مهمة أخرى تماما لا علاقة لها بأي صراع حقيقي من أي نوع كان.

تحول الحي الذي يقطنه أبو رعد بعد حرب البتانيين إلى قبلة لأولئك الباحثين عن وسيلة لإستنساخ أبطال المسلمين الأوائل ، و معارك و انتصارات المسلمين في فترة الرعيل الأول ، و الباحثين عن وسيلة للثأر من أوربة و أمريكا لقرن و نصف من الإذلال و الإضطهاد و المذابح المتكررة بحق المسلمين.

هذا الحي تحول إلى ما يشبه القلب ، تأتي إليه الدماء الشابة من الأرياف و الأحياء الفقيرة في بلادنا و ما جاورها ، و تتوزع منه إلى المعسكرات التدريبية المعزولة التي أنشأناها في الصحاري و الأودية النائية ، معسكرات كثيرة و صغيرة يشرف عليها مدربون عسكريون و تربويون ، تدرب فيها هؤلاء الشباب على يد ضباط مخبرات ريمون و المخابرات الأوربية على مختلف صنوف الأسلحة الفردية و المتوسطة و على استخدام العبوات الناسفة و صنعاتها ، و حصلوا هناك على دورات مكثفة في أصول و مبادئ النسخة النجدية الإسلامية ، و خاصة مسائل تصنيف الناس إلى مؤمنين و غير مؤمنين ، بحسب المعايير و المقاييس الخاصة بتلك النسخة ، و تؤدي هذه المعايير إلى اعتقاد من يتبناها بأنه وحده فقط المؤمن الصحيح ، و هو وحده من يحق له الحكم على إيمان الناس بالإسلام أو الوثنية ، و المؤمنون في الدنيا هم الذين يعترف هو بإيمانهم ، و الباقون وثنيون تجب إبادتهم و محو آثارهم بأمر إلهي لا لبس فيه.

لقد التحق هؤلاء الشباب بمعسكراتنا لأنهم يرغبون في قتال الأمريكيين و الأوربيين ، إلا أن الموجهين التربويين أقنعوهم بأن الإنتصار على الأمريكيين و الأوربيين مستحيل قبل أن تصفوا مجتمعات المسلمين و جموعهم القتالية من أولئك الذين يحملون عقائد دينية مزيفة ، و هي باختصار جميع العقائد في الدنيا ؛ بإستثناء عقيدة النسخة النجدية العتيدة.

بحسب النسخة النجدية فإن الواجب فعله لتصفية هذه المجتمعات من هذه العقائد هو إبادة الدعاة و المخلصين لكل عقيدة سوى عقيدة النسخة النجدية ، لأن هؤلاء في الواقع وثنيون و لا يستحقون الحياة و إن اعتبروا أنفسهم و اعتبرهم الناس من المسلمين ، و بالتالي فقتالهم أولى من قتال الأوربيين و الأمريكيين لأن وجودهم هو السبب في ضعف المسلمين ، و سبب فشلهم في مواجهة القوى العالمية المهيمنة ، و بالتالي هو التعليل الوحيد لتفوق قوة الأمريكيين و الأوربيين على قوة المسلمين.

و بناء عليه تجب أيضا إعادة كتابة التفسيرات المعتمدة للنصوص المقدسة الإسلامية ، لأنها جميعها مزيفة و غير مطابقة لحقيقة معانيها ، إن المطلوب إذا هو محو جميع الذين يختلفون مع النسخة النجدية في العقائد و غيرها ، و أيضا محو جميع تراث هؤلاء لأنه وثني ، و هذا يعني ببساطة محاربة العالم بأسره في نهاية الأمر.

هذه القناعة لا يصرح بها الشيوخ الرسميون للنسخة النجدية ، و يتهربون دوما من التصريح بها بالتورية ، و بالرد بعبارات فضفاضة تغطي هذه القناعات دون أن تنفيها ، و هذا التهرب يشترك فيه جميع شيوخ النسخة النجدية ، سواء أكانوا من المؤيدين للمؤسسة الدينية الرسمية التابعة للأسر الحاكمة في الجزيرة العربية ، أو كانوا من المعادين لهذه الأسر علنا .

لقد تدرب الشباب في معسكرات رمون على تجنب التصريح بهذه الحقيقة ما أمكن ، و أيضا على تجنب إجراء حوارات مع خصومهم من الشيوخ التقليديين و غيرهم تحضرها جماهير كبيرة ، لكنهم في الواقع يتصرفون و يفكرون فقط على أساس القناعة الآنف الذكر .

لقد أشرفت غرفة عملياتي الخاصة على ترتيب و توزيع مجموعات سرّية تتبنى أفكار فراس في كلّ أرجاء الأرياف ، و في كافة الأحياء الفقيرة في المدن في بلادنا ، و في جميع مدن و أرياف المسلمين في دولة كسّار ، و خلال عام واحد وُزِعَ على الشباب أكثر من ألف كراس من كتب عقائد النسخة النجدية للإسلام التي صنعتها منظوماتنا قبل قرنين و نصف ، كانت هذه النسخ تُتداول بين أيدي الجميع على أنها كتب ممنوعة رغم أن أحدا لم يكن يجهل وجودها ، هذه الصفة منحتها قداسة كبيرة في نفوس الناس و جعلتها متداولة بكثافة و قبول كبير لأن كل ممنوع مرغوب .

تَوَزَّعَ أيضا على المناطق الآنف الذكر ألوف الشباب من دعاة النسخة النجدية الذين تم إعدادهم بسرعة ، معظمهم كانوا لا يتقنون القراءة الصحيحة ، و لكنهم كانوا ماهرين في كيل التهم و الإدانات و استنزال اللعنات على خصوم عقيدتهم بفظاظة كبيرة و جرأة تصل حد "البلطجة" ، و بطريقة تجعلهم يبدون للسذج و كأنهم أصحاب الفضيلة الذين أوقعوا بالمخادعين المدانين ، و لقد راجت دعوتهم حتى صار العامة يرون أنهم محلّصون مستنسخون عن أبطال القرن الأول من تاريخ الإسلام ، و أنهم ذلك القدر السعيد الذي يحلم به المسلمون منذ قرن كامل .

على الجانب الآخر من الحدود كان اللواء حنا يعد العدة بدوره لعملية اجتياح القوات الأوروبية و الأمريكية لدولة كسّار ، و كنت على إطلاع واسع على خطة عمله .

أذكر منها مثلا : في العقد الذي تلا حرب كسّار فُرضت على بلاد أورك قيود إقتصادية ضخمة ، هذه القيود تسببت في فقر مدقع غير مسبوق في البلاد ، و أدى هذا إلى انتشار الجريمة خاصة في المناطق التي يسكنها أتباع الديانة السرية ، و أدى هذا أيضا إلى احتشاد مئات الألوف في سجون الجنايات المختلفة ، و هذا الإحتشاد مع سوء المعاملة المنقطع النظير أدى لتحول أولئك السجناء إلى أشخاص عديمي الرحمة ، و فاقدي الإحترام لكل عرف أو خلق أو قانون أو لأي كائن مهما كان ، ففي تلك السجون كان سهلا جدا أن يجد النزلاء مشتقات الحشخاش بأنواعها ، و كان سهلا عليهم أن يجدوا أسلحة ليقتلوا

بعضهم و يبتزوا بعضهم ، و كان مستحيلا عليهم أن يجدوا واعظا أو مرشدا نفسيا ، أو حتى كتابا أو نشرة تدعوا إلى الفضيلة و تدم الرذيلة.

معظم هؤلاء السجناء كانوا قد خرجوا من السجون خلال ذلك العقد ، بسبب مراسيم العفو المتكررة بمناسبة كعيد ميلاد كسّار ، و مناسبات غيرها من تلك التي اخترعها اللواء حنا لتملاً تقويم البلاد السنوي ، إلا أن هؤلاء السجناء كانوا يعودون إلى السجن بسرعة لأنهم لن يجدوا خارجه متطلبات حياة آدمية ، ناهيك عن أن المخدرات أغلى في خارج السجن من ثمنها بين جدران مباني "الإصلاح و التهذيب".

قبيل عملية الإجتياح بأشهر قليلة أصدرت حكومة كسّار عفوا عاما عن جميع السجناء ، من جنائيين و سياسيين ، و جميع هؤلاء تقريبا كانوا من أتباع الديانة السرية ، فعادوا إلى مناطقهم ، و هناك كان شيوخ الديانة السرية بانتظارهم ، و تم تجنيدهم جميعا في تشكيلات أحزاب المعارضة لحكم كسّار ، هذه المعارضة كلها من أتباع الديانة السرية ، و قادتها جميعا من أولئك الذين تم إعدادهم بعناية كبيرة في مراكز ريكارد لصناعة المعارضين العرب.

لقد التحق هؤلاء السجناء المحررون بهذه التشكيلات لينالوا فيها ما يحتاجونه من مال و مخدرات و أسلحة ، و أيضا حصلوا على شحنات كبيرة من التحريض الديني ضد المسلمين ، تحريضٌ تاريخي عاطفي مُركّز ، يزداد صراحة و مرارة كلما وجد أتباع الديانة السرية في أنفسهم القدرة على التنكيل بخصومهم الأذليين و هم : رجال الدين المسلمون و المسلمون المتدينون. كانت مخبرات الجارة الآسيوية معقل الديانة السرية تنسق ليل نهار مع اللواء حنا لتأمين استيعاب معظم السجناء المحررين في تشكيلات المعارضة لكسّار ، علما أن مقرات هذه المعارضة الرسمية كلها تقع في تلك الدولة ، و أيضا كانت تعمل على نقل السلاح و إنشاء مراكز التدريب و السيطرة لهذه التشكيلات ، ضمن مناطق أتباع الديانة السرية ، و لقد كانت هذه التشكيلات على أتم الإستعداد عندما حان وقت الإجتياح.

تسلمت غرفة عملياتي قوائم ضخمة بأسماء و صور حديثة و عناوين السكن لأولئك الأشخاص المسلمين من ذوي الكفاءات العالية في دولة كسّار ، كإساتذة الجامعات و الأطباء المهرة و التقنيين رفيعي المستوى في كافة المجالات ، كالكهرباء و الماء و الصرف الصحي و الزراعة و متعلقاتها ، و كافة العاملين في الملاحاة الجوية العسكرية و المدنية ، و جميع خبراء وسائل الدفاع الجوي و المدفعية الميدانية ، فلقد أنجزت مخبرات اللواء حنا صناعة ملفات حديثة و متكاملة عنهم قبيل الإجتياح بقليل ، و بهذه الملفات تم استكمال جدول أهداف ضيوف الشيخ أبي رعد في الحرب القادمة للجيش الأسطوري بنسخته الثالثة.

عملية إجتياح دولة كسّار كانت منعطفًا كبيرا لم يسبق لنا المرور بمثله ، كنت أراه خطوة في الفراغ ، و الكثيرون من المحيطين بالبارون رأوه كذلك ، سبب مخاوفنا كان مصدره عدم وجود تصورات واضحة لكافة الخطوات التالية كما كانت العادة قبل

تنفيذ أية خطة ، هذه المرة وضعت عدة إفتراضات و إفتراضات مضادة ، و خطط كثيرة أساسية و خطط بديلة لكنها كانت أقل حجما و دقة ، لقد كانت هذه العملية تمهد لصناعة نموذج نهائي لشكل دول المنطقة بأسرها ، و لكنه نموذج خرائطه غير جاهزة ، وضع يشبه تماما الوضع الذي تلا سقوط الإمبراطوريات التركية و الروسية و النمساوية و الألمانية قبل قرن تقريبا .

في عدد من اللقاءات التشاورية مع البروفسورين ريكارد و برنار تم تداول عدد من النماذج ، التي قد تطبق على دولة كسار فيما بعد اجتياحها ، كانت هذه أهمها :

النموذج الأول : التقسيم التام : دولة كسار كانت في الأساس ثلاث ولايات كل واحدة منها متجانسة عرقيا و دينيا و تتبع للتاج التركي ، فالولاية الجنوبية كانت كلها من العشائر العربية التي تتبع الديانة السرية ، و لهذا السبب عين الأتراك لإدارتها باشاوات مسلمين عربا من أصول مقدسة ، كان هذا مُرضيا بعض الشيء لشيخ تلك العشائر ، و هم الذين يؤمنون بوجوب نقل السلطة في العالم بأسره إلى نواب المختارين إلهيا من أبناء السلالة النبوية المقدسة .

الولاية المتوسطة كانت كلها من المسلمين العرب ، و هؤلاء لم يكن لديهم الكثير من الإعتراضات على الحكم التركي ، و لهذا كانت عاصمة ولايتهم مقرا للوالي التركي الممثل للإمبراطور الأعظم ، كانت هذه الولاية محكومة بشكل تام تقريبا بسلطة رجال الدين المسلمين التقليديين و منها كان يتم إرسال القضاة و المفتين إلى ولايات أخرى مجاورة ، و من هذه الولايات بلادنا ، فقد كان أحد أجداد والدتي مفتيا منتدبا من بلاد كسار إلى بلادنا أيام الأتراك ، سلطة المفتين كانت تستعين بسلطة معاونة من الوجهاء و شيخ القبائل و هم موالون تماما للدولة التركية آنذاك .

الولاية الشمالية كانت خليطا من العشائر الكوردية و التركمانية بالإضافة لأقلية من أتباع المسيحية التقليدية الشرقية ، و هذه الولاية كانت أشبه ما يكون بمعسكر حربي كبير ، فجميع سكانها من الكورد و التركمان كانوا مرتبطين بالجيش التركي بشكل أو بآخر ، و يعتبرون الخزان البشري لهذا الجيش في تلك المنطقة و ما جاورها ، خاصة في الولايتين الأنفتي الذكر ، و كانت هذه الولاية كسائر الولايات التركية خاضعة لسلطة رجال الدين المسلمين التقليديين بما يشبه ترتيب الولاية الوسطى .

الولايات الثلاث كن خاضعات للسلطة العليا لوالي الولاية الوسطى ، و لكنهن كن يتمتعن بحكم ذاتي يقوم على تعاون ذوي الألقاب النبيلة و زعماء المناطق المحليين بأنواعهم ؛ من شيخ عشائر و تجار و وجهاء و رجال دين .

بعد سقوط الدولة التركية قام الأوروبيون بتوحيد الولايات الثلاث في دولة "عربية" واحدة ، لا يكاد يجمع بين مكوناتها أي جامع مشترك ، و مع عجز الأوروبيين عن إيجاد قادة لهذه الدولة من أتباع الديانة السرية تم اختيار طبقة سياسية لهذا البلد من المسلمين المتخرجين من الجامعات الأوربية ، و كلهم من الأعضاء الكاملي الإعداد في معابد الحرية ، لكن بقيت عقبة كداء في وجه إتمام السيطرة عموديا على البلاد ، هذه العقبة كانت تكمن في أن الولايتين الوسطى و الجنوبية تفتقران تماما

للمحاربين المطيعين و الرجال الذين يملكون مواهب عسكرية ، و هذا أجبر الإنتداب الأوربي على تشكيل جيش محلي لهذه الدولة قوامه المسلمون الكورد و التركمان ضباطاً ، و حشوه العرب من أتباع الديانتين جنوداً.

في عملية تدريجية مشابهة و موازية لتلك التي تمت في بلادنا في بداية شبلي تم سحب الجيش من سيطرة الكورد ، و بعد عدة حركات تمرد عسكرية تم تعريب قيادة الجيش ، و تسلمت مناصب هذه القيادة طبقتان :

الطبقة العليا كلها من أبناء العشائر العربية الصّغيرة التي كانت تمتن الأعمال الديانة كالعربي و قطع الطرق ، و منها كانت عشيرة كسّار الذي امتن في بداية شبابه مهنة الفتوة و جامع الأتاوات في حي الرافصات و منطقة ملاهي العجر.

الطبقة المتوسطة كانت من أبناء شيوخ العشائر العربية من كلا الديانتين ، الديانة السرية و ديانة الإسلام ، و هذه الطبقة كانت منقسمة بدورها إلى قسمين ، الأول كان مؤلفاً من ضباط يؤمنون حتى النخاع بمبادئ حزب قاع و بتفوق العرق العربي على سائر البشر ، و هم أيضاً مؤمنون حتى النخاع بمشاريع إحياء الإمبراطورية العربية ، تلك التي كان يروج لها كسّار في حياته خلال لقاءاته مع الضباط المخلصين ، هؤلاء كلهم من العرب المسلمين.

القسم الثاني كان من الضباط من أتباع الديانة السرية ، و لم يكن أي منهم مؤمناً بمبدأ أو بدين ، كانوا يؤمنون بالولاء لمن يدفع و كان كسّار يجزل لهم العطاء ، فعملوا خلال فترة حكمه جلادين لأبناء طائفتهم خاصة و لسائر أبناء البلد عامة ، و كانت معظم قسوتهم موجهة ضد الكورد بصفة خاصة ، و لقد نفذوا عدة حروب على المناطق الكوردية في فترات سابقة لحرب كسّار الكبرى ضد الجزيرة العربية ، و نفذت القوات التابعة لهم و جلّها من المجندين من أتباع الديانة السرية هدم أربعة آلاف قرية كوردية و معها مساجدها ، و قتلوا مائة ألف فلاح و أعزل و امرأة و طفل في إحدى هذه العمليات ، تلك العملية التي وقعت قبل حرب كسّار الكبرى بعامين ، كان الآمرون لجنودها من كافة طبقات الضباط الآنف الذكر ، بيد أن القوة من الجنود و ضباط الصف و الضباط الصغار ، و هي التي نفذت عمليات التدمير و الإبادة كانت بغالبيتها الساحقة من أتباع الديانة السرية ، لقد استمتعوا حقاً بما فعلوا ، فلاحقوا بغير رحمة الشيوخ و الزعامات و خاصة رجال الدين المسلمين الكورد و كلهم من المشايخ التقليديين ، و دَفَنُوا معظمهم تحت ركام مساجدهم و زواياهم و تكاياهم و حجراتهم مع ملايين النسخ من القرآن و كتب القانون الإسلامي و مؤلفات العلوم الإسلامية المتنوعة.

القيادة العليا كان خاضعة تماماً لأوامر الجنرال الأوربي وولتر الذي تحدث عنه سابقاً و لمدة زادت عن أربعة عقود كاملة ، مع هذا الواقع كانت فكرة التقسيم التام و إعادة الحدود إلى ما كانت عليه قبل الإنتداب الأوربي أمراً غير مقبول عند البارون و مستشاريه ، لأن هذا سيتيح للعرب المسلمين و للكورد فرصة تأسيس جيوشهم الخاصة بهم الخالية من أتباع الديانة السرية ،

و هذا سيعني أن هذه الجيوش ستكون للبارون كاللغم الذي لا يستطيع أن يرفع قدمه عنه ، فالتاريخ حافل بنكسات كبرى للمشاريع الأوروبية في المنطقة بسبب جيوش كهذه مهما كانت صغيرة و محدودة الإمكانيات.

في حال اعتمد هذا النموذج فإن الخطة الإحتياطية التي سيتم العمل عليها حال فشله هي :

حرب طاحنة بين الدويلات الثلاث ، ثم توزيع دولة كسّار على الدول المجاورة لها الأقرب للأقرب ، و كلها خاضعة للمنظومات تماما ، و هكذا يتم دفن التجربة و آثارها حال فشلها ، و ينسحب الحلفاء الأوروبيون و الأمريكيون بسلام.

النموذج الثاني : كان الإبقاء على الدولة الواحدة و على الجيش موحدًا مع تسليم تام لقيادة هذا الجيش لأتباع الديانة السرية ، هذه الفكرة كانت شبه مستحيلة تقنيا ، لأن الضباط القادة من أتباع الديانة السرية في جيش كسّار كانوا غير مؤهلين فنيا لتسلم مهمة كهذه ، و سيطرتهم على أبناء طائفتهم كانت شبه معدومة ، بل كانوا مكروهين من طائفتهم أكثر من كونهم مكروهين لدى بقية أهل البلد ، و إعداد ضباط آخرين سيحتاج لوقت طويل ، و تسويقهم على بقية الجيش سيحتاج لوقت أطول ، لذلك رفض هذا النموذج أيضا.

الخطة الإحتياطية لهذا النموذج حال فشله هي إنقلاب يقوده كسّار جديد ، بدعم من القوات المجتاحة للبلاد ، و تعاد صياغة حكم كسّار بحزب واحد متسلط جديد غير حزب قاع ، و بواجهات يتم تلميعها من أعضاء قيادات حكومة كسّار و حزب قاع ، ثم ينسحب الأمريكيون و الأوروبيون .

النموذج الثالث : كان تسليم واجهة الحكم في البلاد إلى بعض أبناء شيوخ العشائر العربية ذات الإختلاط الطائفي بين المسلمين و أتباع الديانة السرية ، و هؤلاء أصلا كلهم من خريجي أوربة و من منتسبي معابد الحرية ، ثم تحويل البلاد إلى ما يشبه مملكة عابد ابن الملك الوسيم ذو النسب المقدس ، ما حال دون قبول هذه الفكرة هو أنها كانت ستؤدي إلى استقرار و رفاه سريع في بلد غني بالموارد كدولة كسّار ، و هذا سيحرم البروفسور ريكارد و فريقه من فرصة تجربة فترة من الفوضى الأمنية و العسكرية في بلد متعدد الطوائف و الأعراق كذلك البلد الضخم ، و سيعيد البلاد إلى فترة ما قبل الحكم العسكري الوطني و إلى أحلام الملكية الوردية ، و هذا ما رفضه البارون بإصرار.

الخطة البديلة حال فشل هذا النموذج كانت حربا أهلية محدودة ، يتلوها فرض وصاية دولية بطلب من هذه الواجهة العشائرية آنفة الذكر ، على أن تتولى هذه الوصاية الدول المجاورة بإمرة قيادة أوروبية و أمريكية ، ثم يتم تشكيل جيش محلي يتسلم السلطة على طريقة تمرد بديع ، تكون قيادته من أتباع الديانة السرية الذين تم إعدادهم خلال الفترة الإنتقالية الطويلة نسبيا .

النموذج الرابع : كان تقسيم البلاد إلى عدة جمهوريات متجانسة ، ثم توحيد هذه الجمهوريات ضمن حكم إتحادي فضفاض ، بعد حرب أهلية قصيرة يحسمها الجيش مع القوات الأمريكية و الأوربية لصالح نظام كهذا ، طبعاً مع الحفاظ على جيش واحد و قوات أمن موحدة ، هذه الفكرة كانت غير ممكنة التحقيق بسبب تعنت أتباع الديانة السرية و إصرارهم على إقصاء الجيش الحالي و ضباطه من المسلمين العرب و تبديده إن أمكن ، و إغضاب أتباع الديانة السرية قد يؤدي بخطة الإجتياح بأكملها.

الخطة البديلة حال فشل هذا النموذج كانت نفس الخطة البديلة للنموذج السابق ، أي حرب ثم وصاية ثم التوحيد تحت سلطة جيش واحد قادته من أتباع الديانة السرية.

النموذج الخامس : كان فكرة الجنرال وولتر ، و هو أن يتم التطبيق الجزئي المتزامن لكافة الخطط السابقة ، مع إجراء احترازي كبير و هو حلّ الجيش الحالي و القوات شبه النظامية و المخابرات التابعة لحزب قاع ، و إبقاء ضباط هذا الجيش على اتصال تام مع القيادة العسكرية للتحالف الأمريكي الأوربي ، ثم إعادة تشكيل الجيش على يد ضباط من الجيش المنحل بما يناسب النموذج الذي سيعتمد بعد الإجتياح بعام أو عامين.

هذا النموذج كان هو الأكثر قبولا لدى البارون و مستشاريه ، و هو النموذج الأكثر مرونة و يضمن هامشا واسعا يتسع لعمليات الجيش الأسطوري بنسخته الثالثة.

قبل الإجتياح بأشهر أعطى وولتر تعليماته لقيادة جيش كسار و حكومته كما يلي :

أولاً : يتم تفريغ معظم مخازن السلاح الخفيف الفعال و الذخيرة و المتفجرات و المدفعية المتوسطة ، و نقل محتوياتها إلى الممتلكات الخاصة للضباط العرب المسلمين ، كانت ممتلكات واسعة تمتد على مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية و أراضي البادية الرعوية ، ثم دفن هذه الذخائر و المعدات في مواقع و مخابئ لا يعرفها إلا الضباط أنفسهم ، و هذا كان أمراً سهلاً للتنفيذ.

هذا الإجراء كان متعدد الأغراض و يتوافق تماماً مع كافة النماذج التي عرضتها آنفاً ، لأنه يفسح المجال لإنتاج حرب أهلية ، أو لإنتاج جيش جديد ، أو لإنتاج تشكيلات مسلحة عشوائية ، أو لإستيعاب قطعات الجيش الأسطوري كامنّة حين إطلاقها للعمل.

ثانياً : نزع الأسلحة الثقيلة و المعدات الفعالة من القوات المتمردة الكوردية التي كانت تسيطر على الزاوية الشمالية من البلاد بحماية الطيران الأمريكي و الأوربي ، و ذلك لضمان عدم تحرك هذه القوات بشكل غير محسوب ، خاصة و أن جميع

الكورد كانوا مصرّين على إنجاز دولتهم الخاصة بهم و الانفصال تماما عن دولة كسّار ، و هذا الأمر يعتبره البارون من أكبر الحرمات التي لا يسمح بارتكابها مهما حصل.

ثالثا : حشد أكبر عدد من أتباع الديانة السرية على الحدود مع الجزيرة العربية ليكونوا في مواجهة القوات التي تجتاح البلاد ، و تسليم قيادتهم للضباط القادة من أبناء طائفتهم بحجة أن الدفاع المحلي هو أقوى و أفضل خيارات الدفاع ، و إجبارهم على القتال بالتهديد بفرق الإعدام الميدانية.

رابعا : الإبقاء على الفرق الخاصة كالحرس الرئاسي و غيره ضمن مناطق العرب المسلمين ، علما أن كل منتسبي هذه الفرق من سكان هذه المناطق ، و إعطاء تعليمات مشددة لهذه الفرق للتلاشي بطريقة أن يتوجه كل فرد إلى بيته بسلاحه و ما معه من العتاد ، و أن يخفي ما بحوزته من معدات و يظهر بمظهر المدني العادي ، و تتم هذه العملية بسرعة و في توقيت واحد.

هذا الإجراء كان كما أسلفت لغرض إبقاء إمكانية إنشاء جيش جديد بسرعة و في أي وقت عند الحاجة ، و أيضا ليكون هؤلاء الحاضن القادم للجيش الأسطوري بنسخته الثالثة حال اعتماد فكرة إطلاق هذا الجيش ، و لم تكن فكرة قد اعتمدت بعد رغم الإعداد لها.

خامسا : إنشاء قنوات إتصال متينة مع كافة ضباط جيش كسّار القيايين المسلمين العرب ، و ذلك عبر أقاربهم و عشائريهم في الدول الخيطة بهم ، ثم ربط كافة هذه القنوات بغرفة العمليات التي أديرها قرب عاصمتنا.

سادسا : خروج كافة أعضاء قيادة كسّار و أفراد أسرته إلى أوربة للتقاعد ، و لقد اصطحبوا معهم كل ما تحتويه الخزائن من أوراق نقدية أجنبية ، و لم يسمح لهم باصطحاب الذهب و الجواهرات و الأثريات و تركوها في المصارف لتتولى القوات الغازية نقلها إلى أوربة لاحقا.

سابعا : خروج كافة أسر التجار و رجال المال من المحيطين بحكومة كسّار إلى دول الجوار ، و خاصة إلى بلادنا و إلى مملكة عابد ابن الملك الوسيم و بقية دول الجزيرة العربية ، و قد اصطحبوا معهم أموالهم النقدية و ذخائريهم ، ثم تم ربطهم جميعا بمخابرات هذه الدول و أسرها الحاكمة.

ثامنا : إعداد طواقم متكاملة من المحررين الصحفيين و المصورين التلفزيونيين و المخرجين إلخ ، هذه الطواقم كانت للعمل في المحطات التلفزيونية العالمية الموجهة إلى بلاد كسّار بلغاتها و ثقافتها و دياناتها المختلفة ، هذه القنوات ستبدأ فوراً الفراغ الذي سيتركه غياب التلفزيون الرسمي لحكومة كسّار ، و معلوم أن تلفزيون هذه الحكومة كان يقوم بثلاثي أعباء إدارة البلاد و توجيه كافة الناس فيها.

و لقد قدم البارون روبرت كل الإمكانيات اللازمة لتحل فوراً ثلاث قنوات محلية على الأقل محل تلفزيون كسّار ، بالإضافة لقناة رابعة أمريكية موجهة خاصة إلى بلاد كسّار.

تاسعا : استقبال عشرات الآلاف من المتطوعين المسلمين الشباب ، هؤلاء المتطوعون كان قد جندهم طاقم الشيخ أبو الرعد ضمن حملة الدفاع الشعبية عن بلاد كسّار بوجه القوات التي تنوي اجتياحها ، كانت هذه الجموع تحتشد في المعسكرات التي تديرها غرفة العمليات التي كنت أقودها ، و هناك كانوا يتلقون تدريبات على السلاح البسيط ، و دروسا كثيرة عن السعادة التي سيتمتع بها الشخص الذي يُقتل على يد الغزاة الغرباء ، طبعاً في العالم الآخر !.

هؤلاء المتطوعون كانوا على قسمين :

الأول : هو القسم الذي سيموت خلال عملية الإجتياح ، و جلّ هذا القسم من الفقراء و أبناء الأرياف و البسطاء الذين أسرهم أبو الرعد بشعاراته و خطبه و أناشيده و أزيائه الجذابة ، لقد تم توزيعهم بعد دخولهم إلى دولة كسّار على معسكرات جيش هذه الدولة ، و هناك تم تدريبهم على عجل على استعمال البندقية الرشاشة و رمي القنابل اليدوية و الإسعافات الأولية و بعض أنواع المسير الحربي ، ثم أعطي كل واحد من هؤلاء المتطوعين بندقية و بضعة مئات من الطلقات و بعض القنابل اليدوية و بعض الأطعمة المحفوظة و بطانية و عدداً من عبوات الماء ، و جمعوا في مجموعات وزعت على خنادق الخطوط الأمامية لمواجهة مواقع احتشاد قوات الحلفاء الأوروبيين و الأمريكيين ، أي بين القوات المهاجمة و بين خطوط جيش كسّار.

القسم الثاني : مكون من أولئك الدعاة للنسخة النجدية للإسلام ، و جميعهم من أعضاء منظمة فراس العائدين من خراسان ، و لقد تلاشى هؤلاء بين سكان مناطق العرب المسلمين ، و تركز عدد منهم في الجبال النائية في مناطق الكورد ، و لقد حرصنا على أن يندمج هؤلاء بين السكان بحماية زعماء العرب المسلمين ، و معظم هؤلاء الزعماء كانوا من ضباط مخبرات اللواء حنّا ، كنا على اتصال يومي هؤلاء الدعاة ، و نتابع نشاطاتهم الدعوية و نؤمن لهم كل ما يلزمهم من إمكانيات لتجنيد أكبر عدد من العرب المسلمين لصالح فرق الجيش الأسطوري ، بنسخته الثالثة القادمة.

عاشرا : توزيع السلاح الخفيف بأنواعه على جميع سكان دولة كسّار ، بحيث لا يبقى ذكر بغير سلاح ، و إدخال كميات كبيرة من الذخائر بأنواعها إلى البلاد من دول الجوار.

على الجانب الآخر من الإجتياح كان الأمريكيون و الأوروبيون يعدون قواهم على مدى العامين السابقين لموعد العملية ، هذه القوات كانت مكونة من ضباط من نخبة القوات الخاصة ، إلا أن الجنود و صف الضباط كانوا من مواطني الدرجة الثانية في تلك البلدان ، أي من الملونين ، و خاصة القوة الأمريكية ، فلقد كان معظم عديد جنودها من المهاجرين الإسبان الذين

تسللوا إلى أمريكا قادمين من أمريكا الجنوبية ، غالبيتهم التحقوا بالحملة للحصول على حق الإقامة الدائمة ، لقد كانوا متدربين على القتال بشكل غير كاف لخوض حرب حقيقية ، لكنهم كانوا معقولين جدا لتمثيل دور المحاربين ، و أيضا كانوا مؤهلين لقتل أولئك العزل الذين لا يعرفونهم دون أسف ، خاصة و أن معظم هؤلاء كانوا يعملون ضمن عصابات توزيع و تهريب المخدرات في شوارع الولايات الأمريكية المزدهمة ، و لا قيمة لحياة أي كائن عندهم.

أيضا في تلك الحقبة تغيرت أساليب عمل أجهزة المخابرات الأوروبية بشكل كبير ، فلقد انتهى تماما أسلوب الترتيب الوظيفي و حل محله تعاقد الشركات الخاصة ، و هي طريقة تسير كما يلي :

تقلص عدد العاملين التابعين للدولة في أي جهاز المخابرات إلى عدد صغير جدا ، و أُعطي هؤلاء مميزات واسعة جدا لجمع المعلومات و حصانة شبه مطلقة و رخصة مفتوحة لإرتكاب كل أنواع المخالفات القانونية ، ابتداء من مخالفات السير و انتهاء بالقتل.

الحصانة و الرخصة الأنفي الذكر ليستا مكتوبتين ، و لكنهما معلومتان لكل عامل في السلطة ابتداء من حارس الحدائق و انتهاء بالحاكم الأعلى للدولة ، و بالإضافة إلى هاتين الميزتين منحت كل إدارة للمخابرات ميزانيات سرية و إمكانيات مادية كأجهزة التجسس و الأسلحة السرية ، إلا أن هؤلاء العناصر لا يعملون في خارج إداراتهم إلا نادرا ، فلنرى كيف يعملون :

أولا يتوزع هؤلاء العاملون في أجهزة المخابرات على كل قطاعات الحياة و على كافة بلدان العالم ، فتجد مثلا ضباطا للمخابرات يعنون بشأن بلد عربي ما ، هؤلاء الضباط يتولى كل منهم التجسس و التدخل في قطاع من قطاعات هذه الدولة ، فأحدهم يتولى المصارف ، و الآخر يتولى الجيش ، و الثالث يتولى القطاع الطبي ، و الرابع يتولى القطاع التجاري و خامس يتولى القطاع الزراعي .. إلخ.

ثم يقترح كل ضابط منهم خطة للتوسع في الإختراق و التدخل و الهيمنة على قطاعه ، و يقترح ميزانية لخطته ، بعد الموافقة على الميزانية يقوم هذا الضابط بتجنيد أشخاص من العاملين في هذا القطاع ، بصفة متعهدين لتنفيذ المهمات التي يطلبها منهم الضابط ، قد يكون هؤلاء المتعهدين من نفس الدولة التي يعمل الضابط على أرضها أو من دولة أخرى يستترونها بصفة مستثمرين أو مستشارين أو رجال أعمال ، المهم أن يكون المتعهد المُقترح قادرا على تنفيذ المهمة ، ثم يتم التعاقد بين المتعهد و بين الضابط على تنفيذ كل مهمة على حدة مقابل مبلغ يحصل عليه المتعهد على دفعات خلال إنجاز عمله ، تماما كمتعهد البناء أو التوريد ، غالبا ما يقدم الضابط نفسه للمتعهد بإسم مستعار ، و يتم الإتفاق على التواصل بشيفرة محددة يتم تغييرها دوريا ضمن قواعد حسابية معينة.

بدوره يقوم المتعهد بتجديد مرتزقة يعملون لصالحه ؛ جميعهم من سكان البلد المستهدف و من العاملين أو ذوي الصلة بالقطاع المراد اختراقه ، طبعا لا توجد صفة رسمية لا للمتعهد الذي جُند و لا لمرتزقته ، و أيضا لا يوجد ما يربط مباشرة بين ضابط المخابرات و بين المتعهد ، إلا هذا الضابط يقدم الحماية و المساعدة للمتعهد و عماله في وقت اللزوم ، و غالبا قبل أن يحتاج المتعهد للمعونة و دون أن يشعر بها ، لأن الضابط يكون متابعا لمتعهديه عبر غرف المراقبة التي لا تهدأ على مدار الساعة ، و من هذه الغرف يحدد الضابط ظروف المتعهد و ظروف مهمته و سير عمله فيها ، تضاف إلى معلومات هذه الغرف التقارير التي يقدمها المتعهد نفسه ، و غالبا ما يجند الضابط متعهدا آخر ليراقب له متعهد التنفيذ و مجموعته دون أن يعلموا طبعا .

بعد إنجاز كل مهمة ينتقل المتعهد إلى مهمة أخرى و هكذا ، و في حال تعرض المتعهد للمتابع يتدخل الضابط عبر العلاقات الخاصة للمنظومات التابعة للبارون لإنقاذ مجنديه ، و المتعهد الذي تتكرر أخطاؤه يتم التخلص منه دون التخلص من أتباعه إن أمكن بالنظر لإنقطاع اتصالاتهم بجهاز المخابرات الذي يعملون لصالحه ، و جهلهم حتى بهوية هذا الجهاز و لأية دولة يتبع .

مهام هذه المخابرات صغيرة عادة و يقترحها الضباط كأجزاء حين تتكامل تحقق أهدافا كبيرة ضمن خطة أكبر تحددها قيادة المخابرات العليا ، تتراوح هذه المهمات الصغيرة ما بين نشر الرشاوى و اختلاق أسباب الفضائح و الإبتزاز ، مروراً بافتعال الإشتباكات و الإقتال ، و لا تنتهي عند تخريب الصناعات و القطاعات التي يستهدفونها و اغتيال و خطف و تهريب المميزين في هذه القطاعات ، و بعبارات أخرى هم يقومون بأعمال المخابرات المعتادة و لكن دون توظيف رسمي لعناصر مخبرانية ، في هذه الحالة حتى و لو تم إنهاء عمل أي متعهد أو متجند لن يكون ذلك خطيرا لأن المعلومات التي بحوزته ستدينه هو أولا ، و هي معلومات ضيقة و مجتزأة من مخطط كبير لا يمكن تجميع أجزائه إلا بالقبض على الضابط المخبراتي المسؤول عنه ، و هذا غير ممكن لأن هذا الضابط الأوربي أو الأمريكي غالبا ما يكون في بلده و يتابع من هناك إنجاز عمله ، أو أنه يكون حاملا لصفة دبلوماسية تمنحه الحصانة التامة ليغادر البلاد بسلام و دون أن يتعرض له أحد ، هذا في حال تم تحديد هوية هذا الضابط ، و هذا يشبه المستحيل في نظام كهذا ، فضلا عن استحالة الحصول على ملفات المخطط لأنها لا يمكن توجد قطعة واحدة إلا في مقرات المخابرات الكبرى و ضمن تشفير عال و سرية و حراسة كبيرة .

في الفترة التي سبقت إجتياح دولة كسار تم توظيف مئات المتعهدين في كافة أرجاء هذه الدولة ، معظمهم تم تجنيدهم على يد القائمين على سفارة الملك عابد ابن الملك الوسيم ذو النسب المقدس ، تم أيضا توظيف عشرات آخرين لمهام تتعلق بضيوف أبي الرعد و دعاة النسخة النجدية من جماعة فراس ، هؤلاء العشرات تم توظيفهم عبر غرفة عملياتنا ، ثم تم ربطهم

مباشرة مع ضباط المخابرات الأمريكيين و الأوروبيين ، أو تم ربطهم هؤلاء الضباط عبر وسطاء من كبار السياسيين العرب من أعضاء منظوماتنا .

مهمة هؤلاء في دولة كسار لم تكن الإختراق في البداية، و إنما كانت مهتهم إرشاد الطائرات الأمريكية و الأوروبية إلى التجمعات السكنية التي تضم أسرا و شخصيات هامة في المجتمع ، و أيضا إرسال صور مفصلة للمرافق الهامة و للبنى الهندسية المدنية الأساسية كشبكات الماء و الصرف و الكهرباء ، و المشافي و الجسور الهامة و عقد الطرق ، و مخازن الأدوية و المخابر الطبية و الدوائية ، و الكليات العلمية و بيوت الأساتذة الجامعيين ، و تعيين أماكن هذه المرافق على الخريطة بدقة ، و ذلك حتى تقصف الطائرات جميع تلك الأهداف خطأً ، خلال فترة لا تزيد على خمسة أعوام تالية .

الدولة الآسيوية الغربية التي تتبنى الديانة السرية قامت أيضا بإرسال مئات من المتعهدين ، جميعهم من مواطني دولة كسار اللاجئين إلى الدولة الآسيوية قبل عقدين من موعد الإجتياح ، و هؤلاء كانوا قد تربوا جيدا في الدولة الآسيوية الغربية على أعمال هامة و كبيرة و مؤثرة ، أهمها :

أولا إنشاء عصابات الجريمة المنظمة ، التي تمتن الخطف و الإبتزاز و القتل بالأجرة و السرقة و السطو المسلح .

ثانيا إنشاء شبكات الدعارة بأنواعها و شبكات الإتجار بالأطفال و النساء و الإستعباد الجنسي المنظم .

ثالثا إنشاء شبكات توزيع و ترويج الخشخاش و مشتقاته ، و المشروبات الكحولية بأنواعها بين الصبايا و المراهقين .

رابعا إنشاء عصابات الفساد و الرشوة و الإستيلاء على المرافق الحكومية و تحويلها إلى مؤسسات إستثمارية تديرها و تنتفع من إرادتها هذه العصابات . خامسا التحريض على قتل المسلمين و تحويلهم في نظر العامة إلى العقبة الوحيدة التي تحول دون تحوّل الأرض إلى جنة الخلود .

سادسا ربط جميع ما سبق بضباط المخابرات الأوروبيين و الأمريكيين الذين يديرون هذه الشبكات من وراء البحار ، طبعاً الربط يتم عبر سياسيي الدولة الآسيوية الغربية ، فهم قد تحولوا إلى متعاقدي تنفيذ عند ضباط المخابرات آنفي الذكر .

دخل هؤلاء المتعهدون جميعاً بالتزامن مع ما عرف بتبويض السجون في كل أرجاء أورك ، إجراء أشرف عليه اللواء حنا كما سبق و أشرت ، و بدا وكأنه مصالحه بين حكومة كسار و بين أتباع الديانة السرية من أبناء شعبها ، و لقد تلقف المتعهدون أولئك الذين غادروا سجون كسار و أحقوهم فوراً بشبكاتهم .

قبيل الإجتياح تصاعدت الحرب الكلامية بين إعلام حكومة كسار و بين إعلام الحلفاء الأوروبيين و الأمريكيين ، كثرت المؤتمرات الصحفية لمسؤولي الحلفاء و مسؤولي حكومة كسار ، و أعلن عن تسيير حملات تفتيش دولية لبيوت أصحاب

المناصب في حكومة كسّار بحثا عن أسلحة الدمار الواسع ، كالأسلحة الإنشطارية الذرية وغيرها ، و بثت القناة الإخبارية العالمية المتمركزة في الجزيرة العربية (فجع) موادا إعلامية عجيبة ؛ مثل تسجيل صوتي للشيخ فراس يحرض فيه الشباب المسلمين على الإلتحاق بجيش كسّار ، و ضمن التسجيل نصائح قتالية طريفة ، كأن يحفر أصحاب البيوت خنادق يؤون إليها هربا من القصف الجوي لطائرات الحلفاء ، و الأعجب أن إعلام حكومة كسّار بث تسجيلات بصوت كسّار يدعو فيها شعبه لاتباع نصيحة فراس ، و أن يحفر كل شخص في بيته خندقا ، و أن تحفر الخنادق أمام الأبنية الهامة ، طبعاً لم ينصت أحد لنصيحة فراس بحفر الخنادق فضلا عن أن يعمل بها ، إذ لدى الجميع خبرات سابقة عن فشل أعتى الأقبية في حماية الهاربين من قنابل طائرات الحلفاء ذات الطاقة التدميرية الكبيرة.

في صباح ربيعي يوافق عيد النار الفارسي القديم بدأت عملية الإجتياح ، كان البلد خاليا تماما من كل أصحاب المناصب العليا في حكومة كسّار و من جميع أفراد أسرهم ، و خاصة أسرة كسّار ، لقد كان الإجتياح تدريباً عملياً ضخماً على نموذج حديث تماماً للحروب الهجومية :

يعتمد الهجوم على رتل واحد ضخّم جدا محمول آلياً ، و يتكون هذا الرتل من آلاف المدرعات القتالية و حاملات الجنود المسلحة بأفضل الأسلحة ، تمهد الطريق لهذا الرتل من الأمام أسراب من الطائرات الحوامة المقاتلة المضادة للدروع و التحصينات ، و تحمي الرتل و الحوامات طائرات قتالية نفّاثة كثيفة العدد ، و تسبق هذا الرتل طائرات قصف عملاقة و صواريخ مدمرة تحطم دفاعات العدو المتتالية.

و تقوم الحوامات أيضاً و مدافع دبابات الرتل نفسه بحماية جانبي الرتل ، هذا الأسلوب القتالي يقضي تماماً على جدوى الخطوط الدفاعية التقليدية و كلها خطوط عرضية ، إذ يكفي لإختراق الدفاعات فتح ثغرة فيها بعرض عدة كيلومترات حتى تسقط الجبهة بكاملها ، فهذه الدفاعات ستفقد خطوط إمداداتها و كلها من الخلف بعد أن سيطر العدو على المؤخرة ، و ستصبح خطوط الدفاع عديمة الفائدة لأنها صممت لتحمي ما ورائها ، و قد وصل المهاجمون إلى ما ورائها و سيطروا عليه ، فلماذا يبقى الجنود متحصنون في خنادقهم و تحصيناتهم طالما أنهم لن يواجههم العدو لا من أمامهم و لا من خلفهم.

يحتاج هذا الأسلوب لينجح إلى تسيير أرتال موازية ملاصقة للرتل الرئيسي ، أحد هذه الأرتال مهمته نقل الإمدادات و إخلاء المصابين و إصلاح المتعطل من المركبات ، الأرتال الأخرى مهمتها الإنطلاق إلى المدن و القصبات و احتلالها ، بحيث تسيّر إلى جانب الرتل الرئيسي مسافة ثم تنعطف متوجهة إلى أهدافها بحماية جوية مشابحة لحماية الرتل الرئيسي.

في البداية تقدم الرتل الرئيسي إلى عاصمة الإقليم الجنوبي من دولة كسّار ، هي مدينة تسكنها أغلبية من أتباع الديانة السرية ، كانت مهمة الدفاع عن المدينة منوطة رسمياً بفرقة كبيرة من جيش كسّار يقودها ضباط مسلمون ، معظم محاربي الفرقة من

المجندين من أتباع الديانة السرية ، و لقد توقف الرتل لمدة غير قصيرة قبالة هذه المدينة ، و أحاطت بها أرتال موازية للحلفاء من جيوش أوربة ، و لكن هذه الأرتال لم تتقدم إلى داخل المدينة ، ذلك أن معظم القوات التي حوصرت في عاصمة الإقليم الجنوبي كانت من المتطوعين المسلمين الذين لبوا نداءات أبي الرعد و الشيخ فراس ، و كانوا يقاتلون إلى جانب الفرقة الأنفة الذكر .

هاجم هؤلاء الشبان ببسالة نادرة أرتال القوات الأوربية ، و لكنهم أبيدوا بسرعة لأن أسلحتهم كانت كأعواد الثقاب مقابل مدافع ، و أما من بقي منهم داخل المدينة و هم بعشرات الآلاف فقد تولى سكان المدينة أنفسهم قتلهم و إبادتهم ، ذلك أن ضباط الفرقة الحامية للمدينة و كلهم مسلمون تقريبا غادروا المدينة إلى جهة مجهولة ، في الحقيقة عادوا إلى مدنها في وسط و شمال البلاد ، و بقي الجنود بالآلاف و هم من أتباع الديانة السرية في المدينة ، هؤلاء الجنود استولوا على مخازن الذخيرة التابعة للفرقة ، ثم التحقوا بمقرات رجال ديانتهم السرية ، و بأوامر من رجال الدين هؤلاء قام الجنود و الأهالي بحصاد المتطوعين المسلمين بلا رحمة.

لم يكن لدى هؤلاء المتطوعين فرصة للدفاع عن أنفسهم ، فإمدادهم تعتمد على مخازن فرقة الحماية من جيش كسار ، و هذه المخازن صارت بأيدي أعدائهم من أهل المدينة ، و لعل أكثر ما حطم قوتهم كان عنصر المفاجأة ، فجميع هؤلاء المتطوعين لا يعرفون الكثير عن أتباع الديانة السرية ، و كانوا يظنون أنهم يقاتلون معهم ضد عدو مشترك هو الغزاة الأوربيين الذين يعتبرونهم من الوثنيين و الملحدين ، و لهذا كان هجوم جنود جيش كسار و أهالي المدينة على هؤلاء المتطوعين أمرا صاعقا لم يتوقعوه أبدا ، فلقد كان سكان المدينة يعاملونهم بمنتهى الحميمية قبل بداية الإجتياح ، هذا كان تمويهها يمارسه أتباع هذه الديانة مع المسلمين فقط حال عدم القدرة على قتال المسلمين و قتلهم ، مات هؤلاء المتطوعون دون أن يفهموا لماذا قتلهم أهالي البلد الذي تركوا أهلهم و أبناءهم من أجل الدفاع عنهم و مؤازرتهم ضد غزو الحلفاء.

بعد الفراغ من هؤلاء المتطوعين لم تتقدم قوات الحلفاء إلى داخل عاصمة الجنوب إلا بعد الفراغ من سائر المدن الجنوبية بنفس الطريقة ، فلقد كانت القوات الأوربية تحاصر المدن الجنوبية ذات الغالبية من أتباع الديانة السرية ، ثم يختفي قادة جيش كسار ، ثم يباد المتطوعون المسلمون ، ثم يتحرك الرتل شمالا ، حتى وصل الرتل إلى العاصمة ، و حصلت في ضاحية العاصمة الجنوبية الغربية عملية إبادة مكررة لما حصل في المدن الجنوبية ، و في تلك المنطقة إنتهى جميع هؤلاء المتطوعين تقريبا ، بقي منهم المئات من دعاة النسخة النجدية في مدن المنطقة الوسطى من البلاد ذات الغالبية من المسلمين لمهمة لاحقة.

بعد الفراغ من المتطوعين تلاشى جيش كسار تماما ، و دخلت الأرتال الأوربية عاصمة البلاد بطريقة مسرحية هزلية ، و أسقط الجنود الأمريكيون تمثالا لقائد الشيوعية إبان الحرب العالمية الثانية ، كان هذا التمثال منتصبا وسط العاصمة على أنه تمثال لكسار و هو يمد يده مؤديا تحية حزب الاشتراكية الوطنية الجرمانى ، و هكذا أعلن عن سقوط العاصمة.

و في نفس الوقت أعلن عن دخول الحلفاء لسائر المدن الجنوبية ، و بعدها بأيام إلى بقية مدن البلاد ، تم الفراغ من الإجتياح التدريبي في الوقت المحدد تماما بعد ثلاثة أسابيع من عيد النار ، كان وقتها قد بدأ الإحتفال بعيد التضحية و القيامة المسيحي.

بعد الفراغ من التدريب عين الحلفاء حاكما أميريكيا عاما للبلاد المحتلة ، و كان أول قرار له إلغاء جيش كسّار ، و إلغاء كل مؤسساته و فصل جميع منتسبيه و حرمانهم من رواتبهم و تقاعدهم ، الضباط لم يكونوا بحاجة لذلك التقاعد لأن اللواء حنا كان قد أتهمهم بالأموال و الممتلكات خلال عقد كامل سبق الإجتياح.

أيضا في نفس الوقت انطلق المتعهدون آنفوا الذكر في تنفيذ مهمتهم الأولى بعد نهاية الإجتياح ، و هي إطلاق الرعاع و تخريضهم على سلب الدوائر الحكومية و المصارف ، طبعا كانت كلها تقريبا خالية من الأموال سوى العملة المحلية و هي عديمة القيمة ، و كل ما سرق كان أثاثا و أشياء عديمة الفائدة للشخص العادي ، لكنها ذات نفع عظيم للعامة ، و استبدالها مكلف للغاية.

بعد الفراغ من الإجتياح بثلاثة أشهر عرضت القنوات التلفزيونية التي يملكها البارون روبرت صورا لجنث مشوهة أخرجت من المشرحة و تم إلصاق أقنعة شمعية على وجوهها ألصقت بطريقة بدائية جدا ، و أعلنت هذه القنوات أنها جنث الذكور من ذرية كسّار الذين حاصرتهم قوات الحلفاء و قتلتهم في عاصمة البلاد الشمالية ، فهم المسلمون من أهل البلاد بعد هذا الخبر أن عرش كسّار قد انتهى إلى الأبد بموت ورثته و أن عهدا جديدا قد بدأ و لا عودة.

احتفلت مع البروفسور برنار في غرفة عملياتي بنهاية التدريب ، و عدت لقضاء إجازة طويلة في قصري بأروبة للإستعداد للقاءات أخرى و رافقني إلى هناك كل أفراد أسرتي ، و اصطحبنا معنا عددا من أقارب الراحل كسّار ، إلى حيث مقرات إقامتهم الجديدة للتمتع بالتقاعد الرائع.

عودة لأحداث "أورك" دولة كسّار ؛ فبمجرد الإنتهاء من إكمال سيطرة جيوش الحلفاء على الدولة تم تعيين حكام عسكريين للبلاد ، كان على رأسهم في الواقع الجنرال وولتر ، و لكن الواجهة كانت شخصا دبلوماسيا أميريكيا مرحا يشبه الممثلين الكوميديين يدعى "بولس".

بدأ وولتر بالتعاون مع اللواء حنا بتطبيق جميع النماذج المستقبلية المقترحة التي ذكرتها آنفا لشكل الدولة في بلاد أورك ، أقصد تلك النماذج التي حظيت بإعجاب البارون ، فأصدر وولتر بيد بولس قرارات متعددة متزامنة تقريبا كالتالي :

أولا قرار بحل جيش كسّار و إلغاء وزارة الدفاع و كافة أجهزة المخابرات ، و تسريح كل العاملين فيها تعسفا دون تعويضات مالية ، و شمل قراره نصف مليون شخص و يزيدون.

هذا كان قرارا لتأمين الأرض و المناخ الحربي لمنع حدوث مفاجآت تمنع تحقيق بقية الخطوات التالية.

ثانيا قرار بحل حزب قاع و حظره و إلغاء كافة التشكيلات العسكرية و شبه العسكرية التابعة له ، و ملاحقة أعضاء قيادته جميعا و إحالتهم للمحاكمة.

هذا القرار لإراحة أعصاب الذين يريدون أن يثأروا لأنفسهم و ذويهم الذين اضطهدهم حكم حزب قاع ، و لتسهيل إطلاق الأعمال الإنتقامية ضد أتباع هذا الحزب و أنصاره و أنصار حكومة كسار.

ثالثا قرار بإلغاء العملة السابقة و إصدار عملة جديدة ، النقود الجديدة صدرت بقيمة ثابتة مقابل العملة الأمريكية و بدأت عملية استبدال العملة القديمة بالعملة الجديدة فورا ، قيمة العملة الجديدة كانت أضعاف القديمة مقابل العملة الأمريكية التي كانت تافهة القيمة ، فمثلا كانت الوحدة النقدية الأمريكية تساوي أربعة آلاف أو خمسة آلاف من نقود حكومة كسار ، و مع هذا تم استبدال كل وحدة نقدية قديمة واحدة بوحدة نقدية جديدة واحدة.

هذا القرار كان لإشعار الناس في دولة كسار أن ما يحملون به من الرفاهية و التمتع بثروات بلادهم بات قيد التحقيق ، علما أنها الثروات الأضخم في شرق الكرة الأرضية كلها ، هذا الأمل سيجعل تجاوبهم مع القرارات القادمة أسهل ، بعبارة أخرى كانت رشوة جماعية مجانية لكنها وهمية ، ذلك أن هذا الإجراء لم يمنح هؤلاء الناس أية مجبوحة حلموا بها كما سيتضح لاحقا.

القرار الثالث كان إصدار دستور جديد ، هذا الدستور كان بنده الأساس هو : إن الدولة القادمة على أرض أورك (دولة كسار) ستكون دولة إتحادية لولايات متعددة ، و سيتم إنشاء هذه الولايات لاحقا !.

هذا الدستور كان مضحكا لدرجة الإغماء إذا قرأه أي مهندس إجتماعي حتى لو كان مبتدئا ، فلقد قلب هذا الدستور كل القواعد السياسية و التاريخية رأسا على عقب ، ذلك أن الأنظمة الإتحادية دائما تبدأ بتخلي دول صغيرة عن سيادتها على أرضها و عن استقلالها لصالح حكومة وحدة تجمع هذه الدول ، مع احتفاظ هذه الدول الصغيرة بسلطات و حكومات محلية تشمل الشرطة و التعليم و الصحة و الخدمات ، و تُترك سلطات المالية العامة و العلاقات الدولية و الجيش و الحدود للحكومة الإتحادية.

إلا أن بلاد أورك الجديدة ستحصل على حكومة إتحادية أولا ، ثم ستقوم بتقسيم البلاد إلى دويلات تتمتع بسلطات محلية تتخلى لها عنها الحكومة الإتحادية بالتدريج ، أي أن السرج سيُرَبط و يُمتطى قبل أن يُخلق الحصان !.

هذا القرار كان خطوة باتجاه نموذج تقسيم البلاد على أساس عرقي و ديني متجانس ، و هو النموذج الأوفر حظاً في التنفيذ عند البارون ، إلا أن هذا الدستور العجيب جعل كل العمليات السياسية المستقبلية حُددًا لا أمل لها بالحياة.

القرار الرابع كان تشكيل مجلس للحكم الوطني ، و تسليم "السيادة" على البلاد لهذا المجلس ، و ترأس هذا المجلس رجل من شيوخ أكبر القبائل العربية ذات الإختلاط الديني ، فنصف هذه القبيلة كان من المسلمين ، و النصف الآخر من أتباع الديانة السرية ، هذا الشيخ كان من المقربين للأسر الحاكمة في الجزيرة العربية ، و كان رجلا من أخلص أتباع معابد الحرية.

هذا القرار كان خطوة باتجاه تحويل البلاد إلى نسخة أخرى من ممالك الجزيرة العربية المصطنعة المؤقتة ، إلا ان هذا النموذج سقط تماما بعد أسابيع فقط من الشروع في خطواته الأولى ، كان إسقاطه بأمر مباشر من البارون الذي أخافته هذه الفكرة.

هذه القرارات توافقت مع بداية الأعمال الحقيقية لطواقم المتعهدين التابعين للمخابرات الأوربية و الأميركية و توابعها من مخابرات بقية دول جوار أورك.

عمل هؤلاء المتعهدين كان ضخما جدا ، فلقد حلوا محل الأسر الحاكمة أيام كسار ، و ذلك خلال الأشهر الأولى بعد الإجتياح ، و بدأوا بإنجاز مهمات ضخمة لا يمكن تفصيلها إلا ضمن سجل ضخم ، إلا أن لهذه المهمات خطوطا عامة سأحاول تلخيصها بشكل سريع :

أول مهمات هؤلاء المتعهدين كان تأسيس عصابات الجريمة المنظمة لتسيطر على كافة أرجاء البلاد ، بدأ تنفيذ هذه المهمة أثناء الإجتياح العسكري لجيوش الحلفاء في مدن جنوب البلاد ذات الغالبية من أتباع الديانة السرية ، فلقد تم إلحاق معظم المجندين الفارين من أبناء تلك المدن بالتشكيلات العسكرية لأحزاب المعارضة القادمة من الجارة الآسيوية الغربية عاصمة الديانة السرية ، هذه التشكيلات التي استولت على السلطة في سائر مناطق أتباع الديانة السرية بتسهيل قوات الحلفاء ، لم يكن لهذه الأحزاب مصادر تمويل خاصة بالأعضاء الصغار ، و إنما كانت تمويلا تكفي بالكاد حاجات القيادات و من يرافقها من الأتباع المقربين كالحرس و المهرجين و المومسات ، و ما يلزمهم من مصروفات للهو و المجون و مستلزمات الحياة ، أما الأتباع الصغار فكانوا يقيمون الحواجز على الطرق و على مداخل مدتهم و يفرضون الأتاوات على المراكب و العابرين.

عناصر هذه الأحزاب بدأوا فوراً بترويج المشروبات الكحولية المصنوعة في أوربة و التي كانت ممنوعة في عهد كسار ، و أيضا بدأوا بترويج مشتقات الخشخاش و بيعها علنا في شوارع البلاد طولها و عرضها ، و راحوا يفتتحون دور تأجير النساء لممارسة الجنس برعاية دينية ، ذلك أن هذه الخدمات الجنسية المأجورة تعتبر أمرا تعبديا في الديانة السرية.

بعد برهة تطور الأمر لتبدأ عمليات الخطف و أخذ الرهائن مقابل الفدية ، فراح هؤلاء الأتباع الصغار لأحزاب الديانة السرية يخطفون أبناء التجار و الأثرياء في مدنهم و المدن المختلطة ، ثم يطالبون بفدية للإفراج عنهم ، و كثيرا ما كان ذووا المخطوفين يعجزون عن تأدية الفدية فيقوم الخاطفون بقتل الرهائن بلا رحمة.

أيضا بدأ هؤلاء الأتباع الصغار و بأمر من قادتهم بالإغارة على الطرق الواصلة بين المدن و القرى ، و راحوا يسلبون العربات الكبيرة و المسافرين دون رحمة و ارتكبوا مذابح كثيرة و رهيبة ، و كل هذا دون حسيب أو رقيب ، بل كانوا يحصلون على مكافآت على أفعالهم هذه.

و تحولت مناطق جنوب البلاد و المدن المختلطة كالعاصمة و جوارها إلى ما يشبه مدن الغرب الأمريكي أيام الفوضى ، و تقاسمت أحزاب المعارضة المدن و أحياءها و شوارعها ، و صار لكل شارع حاكم و قاض و شرطة خاصة و قانونا خاصا يشرعه المسيطر على هذا الشارع.

خلال العام الأول بعد الإجتياح وقعت آلاف آلاف جرائم القتل و الخطف و النهب بالقوة و الإغتصاب و الإستعباد الجنسي ، و كل هذا دون أدنى محاسبة أو رقابة ، و حتى الشرطة الوطنية التي شكلها الحلفاء من نفس أعضاء عصابات الأحزاب كانت لها حصتها الوافرة من غنائم السلب و النهب و الخطف و تجارة الجنس و مشتقات الخشخاش ، ريع هذه النشاطات كلها كان يصب في النهاية في جيوب المتعهدين آنفي الذكر ، ثم يتم شحنه إلى المصارف الأوربية ليصل إلى بر الأمان.

أسست هذه العصابات الحزبية تجارة السلاح بأنواعه أيضا ، معلوم أن قوات الإحتلال كلها تفرض على السكان تسليم أسلحتهم إليها مباشرة بعد الإستيلاء على البلاد ، إلا أن الحلفاء لم يجمعوا السلاح ، بل أصدرت قرارات صورية لجمع السلاح لم يُنفذ منها شيء ، و على العكس راحت معسكرات قوات الحلفاء تبيع للمدنيين السلاح و الذخائر التي استولت عليها من مستودعات جيش كسار النائبة عن المدن ، هذا البيع كان يتم بواسطة المتعهدين آنفي الذكر ، و حرص الجنرال وولتر على أن لا يخلو بيت في أورك كلها من قطع كثيرة من السلاح الفردي الخفيف و المتوسط.

توقع الجميع أن تقوم قوات الحلفاء بقمع العصابات الحزبية ، إلا أن العكس هو ما حصل ؛ فلقد راح ضباط تلك القوات يدربون تشكيلات العصابات الحزبية لأتباع الديانة على مختلف أنواع السلاح ، و يشرفون بكل مباشر على تخريبهم على التنكيل بجيرانهم المسلمين من سكان أورك ، و يمدونهم بمعلومات عن أشخاص من ذوي الجدة لبيتروهم أو يخطفونهم .

في المناطق الجنوبية من أورك اندلعت حرب من نوع آخر ، حرب الثأر القبلي ، ذلك أن معظم سكان أورك ما زالوا ينتظمون ضمن قبائل و عشائر ، و لقد تعطلت القوانين العشائرية مدة حكم كسار ، إلا أن هذه القوانين عادت للحياة بقوة بعد

الإجتياح ، و بدأ أصحاب الثارات القديمة ينتقمون لقتلهم الذين سقطوا منذ عقود ، و ذلك بقتل أكفائهم من شباب العشائر التي ينتسب إليها غرماؤهم.

هكذا عادت دوامات الثأر لتحصد شباب العشائر العربية من أتباع الديانة السرية ، و تحولت تلك المناطق إلى ساحات معارك صغيرة عشائرية بين أحياء و شوارع متجاورة ، و رغم صغر تلك المعارك فقد استخدمت فيها أحدث الأسلحة الفردية كالقناصات و القواذف الصاروخية و المدافع المضادة للطيران في بعض الأحيان ، و لم تهدأ تلك المعارك إلا بعد عامين عندما بدأت الحرب الدينية في البلاد.

وسط الدولة و شمالها كانا هادئين في العام الأول بعد الإجتياح ، و هذا الهدوء كان فرصة جيدة لدعاة النسخة النجدية من أتباع فراس و غيرهم ، فضموا إلى منظوماتهم أعدادا كبيرة من الضباط القادة المسلمين ذوي الرتب المتوسطة من جيش كسار السابق ، و حصل هؤلاء على رواتب مجزية من هؤلاء الدعاة ، و أيضا حصلوا منهم على تركيبات كيميائية جديدة للمتفجرات القادرة على إذابة دروع مركبات الحلفاء.

بقيت الأمور هادئة في الوسط و الشمال إلى أن اكتملت منظومات أتباع النسخة النجدية ، عندها صدر قرار الجنرال وولتر بإشعال الفتيل هناك ، فدخلت سيارة تقل عناصر من متعهدي المخابرات الأمريكية إلى مدينة للمسلمين تعتبر موطن معظم ضباط الحرس الرئاسي في جيش كسار ، و كان هذا خرقا متعمدا لإتفاق بين مجلس إدارة المدينة و بين الأمريكيين ، و ردّ الأهالي بقتل العناصر و سحلهم ثم صلبهم في ظاهر المدينة ، حدث هذا بعد عام كامل من الإجتياح.

أعلن الحلفاء على أثر المذبحة عن عملية للإستيلاء على المدينة ، و بدأت معركة بين لواء من قوات الحلفاء و بين أهالي المدينة ، عجز اللواء عن الإقتحام بسبب حجب وولتر للمعلومات الإستخبارية عن قائد عملية الإستيلاء ، و فقد اللواء مئات من جنوده اللاتنيين ، و بعد شهر أصدر قائد القوات الأميركية أمرا لقواته بوقف إطلاق النار ، و جرى الإتفاق على تسليم المدينة لضابط كبير من جيش كسار.

هذه العملية كانت تجربة ناجحة لإعادة تشكيل جيش أورك من عناصر جيش كسار ، كل ذلك لوضع أسس لنموذج إعادة البلاد لحكم "كسار جديد" باسم آخر ، إلا أن هذا النموذج صار مستحيلا ، إذ انخرط جميع ضباط كسار السابقين من المسلمين الشباب في تنظيمات النسخة النجدية بأنواعها بإقبال غير محسوب سابقا ، لقد كان سر نجاح دعاة النسخة النجدية في ضم هؤلاء الضباط هو الغياب الكامل لرجال الدين المسلمين التقليديين عن الحياة العامة في أورك ، فلم يجد أتباع النسخة النجدية من يقاوم دعوتهم سوى أتباع الديانة السرية ، و هؤلاء كانوا متهافتي الحجب و أساليب الإقناع و عديمي التواجد

تقريباً في مناطق المسلمين ، هذا الغياب لرجال الدين التقليديين المسلمين حرص عليه الجنرال وولتر و اللواء حنا طوال فترة حكم كسّار.

بعد هذه العملية الفاشلة عمدا لجيش الحلفاء انطلقت حرب عصابات هائلة ضد القوات المتحالفة ، هذه الحرب كانت ساحتها مناطق المسلمين العرب و أطراف مناطق المسلمين الكورد .

بدأت هذه الحرب أولاً بزخم قليل لكنه قوي ، و ازدادت بوتيرة ثابتة في الكثافة و النجاح ، و اتسعت لتشمل العاصمة و المدن الكبرى في وسط البلاد و أطرافها الشمالية ، و نال رجال هذه الحرب إعجاب و تعاطف المسلمين في كل العالم و في بلادنا نحن خاصة و في مناطق المسلمين في أورك بالطبع .

هذا النجاح تم تضخيمه جداً بمعونة قناة "فجع" الإخبارية آنفة الذكر ، هذا التضخيم منح كل من يشارك في هذه الحرب ضد الحلفاء ما يشبه القداسة ، فصاروا بالنسبة للناس العاديين كالملائكة أو كنواب الأنبياء المقدسين ، لدرجة أن الناس صاروا يخافون من مجرد التفكير في انتقاد أي من تصرفات هؤلاء الأبطال الجبابرة ، و هذا بالضبط ما كان مطلوباً للجنرال وولتر.

الجموعات التي قاتلت الحلفاء لم تتخذ لنفسها معسكرات في مناطق وعرة و نائية ، كعادة قوات المقاومة على مر التاريخ العسكري ، و إنما اتخذت من بيوت عناصرها مقرات للإطلاق نحو الهجمات ، و بعد الفراغ من الهجمات كان عناصر هذه المجموعات يعودون إلى بيوتهم التي انطلقوا منها ، هذا منح الذريعة التامة لولتر لإطلاق المرحلة الثانية من الحرب و هي مرحلة "القصف الخاطئ".

بدأت بتنفيذ هذه المرحلة طائرات الحلفاء بمساندة الأرتال البرية التي تتعرض للهجوم ، و راحت تستهدف المناطق التي انطلق منها "المقاومون" ، و لكنها لم تكن تقتل من هؤلاء المحاربين الشجعان إلا قلة نادرة ، بقية قذائفها كانت تحرق الأهداف التي حددوها متعهدوا المخابرات خلال العام الذي سبق الإجتياح ، و تحصد العزل و الأبنية الهامة.

خلال عام واحد من دوامة الفعل و رد الفعل تم تدمير نصف هذه الأهداف بالقصف الخاطئ ، و راح ضحية هذا القصف عشرات آلاف الرجال و النساء و الأطفال من أسر العلماء و رجال الأعمال و الوجهاء و الأدباء و رجال الدين التقليديين من المسلمين ، و بتهمة مساندة المقاومين أعيد شحن سجون كسّار الخاوية بنصف مليون سجين من المسلمين العرب و الكورد و التركمان ، حملة ضخمة من الاعتقالات كان متعهدوا المخابرات قد أعدوا لها بعناية و إتقان ، معظم السجناء كانوا من الرجال المتعلمين ذوي الكفاءات العلمية العليا ، خلال هذا العام و بالخطأ أيضاً أبيض معظم الطيارين العسكريين و المدنيين في البلاد و كلهم عرب مسلمون و تركمان و كورد.

لم يبق بيت من بيوت المسلمين في البلاد إلا و منه سجين في تلك المعتقلات اعتقل بتهمة القتال ضد الحرية القادمة مع الحلفاء ، و معظمهم اعتقلوا بتهمة الإنضمام لتنظيم فراس الذي يتبنى النسخة النجدية ، مع أنهم لم يكونوا كذلك ، مع أن حملة الاعتقالات تجنبت أتباع النسخة النجدية تماما .

هنا بدأ المتعهدون بالعمل على المرحلة التالية ، فتم نشر وسطاء في كل مدن المسلمين في أورك ، مهمة هؤلاء الوسطاء تسهيل إطلاق سراح السجناء من معتقلات الحلفاء و سجون حكومة البلاد الجديدة ، كان هؤلاء الوسطاء يتصلون بأسر السجناء و يعرضون خدماتهم مقابل المال ، في البداية نقلوا الرسائل من السجناء لذويهم ، ثم بدأت أعمال الفداء و تصاعدت تدريجيا . أورك كانت و لا تزال منجما كبير و ضخما جدا للآثار و خاصة الذهبية منها ، و مناطق المسلمين مشحونة بها لأنها مناطق ذات مناخ غير رطب و كانت مرغوبة للسكن في العهود القديمة على عكس المناطق الجنوبية الحارة و الرطبة ، تلك المناطق الجنوبية الخصبة التي كان معظم سكانها من العبيد و الفلاحين الفقراء .

لقد توافرت في أيدي المسلمين في وسط و شمال أورك ملايين التحف الأثرية و خاصة الذهبية منها ، و كانت كلها مخبأة في بيوت الناس بانتظار الفرصة لبيعها ، و كانت هذه التحف هي الثمن الأكثر إغراء للمتعهدين ، هكذا جمع المتعهدون المخبريون في العام الثاني و الثالث و الرابع لإجتياح أورك كميات هائلة من الذهب الأثري ، و تم إطلاق سراح مئات الآلاف من السجناء بشرط أن يغادر هؤلاء البلاد فورا ، ليبدأ هؤلاء رحلة النزوح القسري إلى أوربة و أمريكا عبر محطات في دول جوار أورك ، و ليحل محل المهاجرين الأوركيين مئات الآلاف من الشباب المتطوعين للقتال ضد الحلفاء في الحرب المقدسة للجيش الأسطوري بنسخته الثالثة ، متطوعون قدموا من كل أرجاء الأرض بتنسيق من غرفة العمليات في بلادنا و نظيرتها المتواجدة في الجارة الآسيوية ذات الديانة السرية .

بعد احتياح بلاد أورك بعدة أشهر انتهت حيرة البارونات ؛ إزاء المسار المحدد نحو المستقبل المنظور لمشروعهم ، و الفضل في هذا عاد إلى البروفسور برنار ، فلقد عاد إلى مجلس البارون ياكوب بتحفة نادرة صنعها بالتعاون مع فريق المؤرخ العظيم البروفسور ويليام ، و لقد استمتعنا فعلا ببساطة شرحه و دقة تحديده للجدول الزمني لجميع أجزاء خطته ، لقد أدهشتني الخطة لدرجة أنني قرأت نسختها التي وزعها علينا برنار مرارا ، و اصطحبت هذه النسخة معي بعد عودتي إلى البلاد خلافا للتعليمات الصارمة بهذا الخصوص ، هذه التعليمات التي تقضي بإتلاف كافة وثائق الاجتماعات السرية للمنظومات .

الاجتماع الذي استعرضنا فيه هذه الخطة كان في أحد قصور الراحل كسار المطلة على قلب عاصمة أورك ، حضر الاجتماع عدد غير قليل من أقارب البارون و أصهاره الذين تولوا مهمات "الخواجهات" في البلاد العربية ، و تصادف أنهم كانوا في

زيارات تفقدية لأملاك أسرهم الأثرية في مدن أورك المختلفة ، و لأول مرة غلب على اجتماع هام كهذا طابع عاطفي خاص بالنظر إلى أهمية بلاد أورك لعشيرة البارون التي تنحدر أساسا من سلالات استوطنت تلك الأرض .

"المستوطنون" ، هذا كان عنوان مشروع البروفسور برنار ، و بدأ شرحه للخطة باستعراض تاريخي هام جدا ، فقال :

جميع الممالك نشأت من تمدد سيطرة أسرة أرستقراطية على ما جاورها من الكيانات الإجتماعية الإنسانية الأخرى ، هذا التمدد يتم دوما بالطريقة التالية :

تظهر أسرة ثرية طموحة تملك الموارد المالية و المقاتلين ذوي الشجاعة ، ثم تستولي هذه الأسرة على ممتلكات أسر ثرية أخرى مجاورة ، بالقوة أو بالإبتزاز و الخديعة ، و غالبا ما يفتك مقاتلوا هذه الأسرة برؤوس الأسر المهزومة و يبيدون جميع الذكور من أبنائها القادرين على القتال ، ثم يستبعدون سكان الأرض التي استولوا عليها ، فيجعلونهم عمالا مزارعين في أراض شاسعة.

يحصل هؤلاء العبيد على ما يكفيهم من محصول الأرض التي زرعوها ، ليعيشوا و يعملوا و ينجبوا و يمرحوا وقت راحتهم ، و الباقي و هو الحصة الكبرى من المحصول ينالها أعضاء الأسرة الثرية ، التي نسميها "الأرستقراطية".

هذا الفائض من المحصول يوفر لهذه الأسرة أموالا تكفي لتحول قصرها الريفي الذي تقطنه إلى مدينة صغيرة محصنة ، مدينة منعزلة عن الأراضي التي يسكنها الفلاحون ، جدران هذه المدينة و أسوارها عالية و مبنية من الصخور الضخمة ، يسكن هذه المدينة أبناء الأسرة الأرستقراطية ، و يجاورهم فيها حراسهم و أتباعهم من المقاتلين الأشداء ، هذه المدينة تسمى "قلعة" أو "حصن".

الأرض كلها كانت هكذا يوما ما في الماضي القريب ، الأسرة الأرستقراطية التي تحصل على فائض مالي و قوة مسلحة و خطة قتالية ناجحة ، بحيث تتفوق على ما جاورها من الأسر الثرية ستبدأ هجومها أسرع ، ثم ستخضع هذه الأسر لسلطانها بالتهديد ، أو بالإرغام بالقوة ، ستتحول هذه الأسرة بعدما تبتلع عددا كبيرا من القلاع إلى أسرة مالكة ، و ستتحول قلعة هذه الأسرة إلى وسط لعاصمة المملكة الجديدة ، إذ سيشتري أو سيستأجر الناس من هذه الأسرة أراض ملاصقة لتلك القلعة لينبوا فيها بيوتا ، هذه البيوت سيسكنها الحرفيون المهرة و التجار و رجال الدين و أصحاب المهارات العلمية ، و جميعهم سيكونون في خدمة الأسرة المالكة.

الرفاهية في الممالك تنوزع على السكان بحسب قربهم من الأسرة المالكة و بعدهم عنها ، فالفلاحون و عبيد الأرض سيكونون الأقل حظا من الرفاهية و من القدرة على تحقيقها ، و ينال الحرفيون و أرباب الصناعات من الرفاهية نصيبا أوفر قليلا من العبيد و الفلاحين ، و يحصل الحرس و المقاتلون على نصيب يزيد قليلا على نصيب الحرفيين من الرفاهية ، و أما

رجال الدين فإن كانوا على دين الأسرة المالكة فهم الأعلى نصيبا بين المنتفعين من حماية و عطاءات الأسرة المالكة ، و أما إن كانوا من دين آخر فإن حياتهم ستكون بئسة كحال رعيّتهم من المحكومين لملك لا يدين دينهم.

يتمتع الأرستقراطيون الذين خضعوا للأسرة المالكة بحصة الأسد من الرفاهية ، تلك التي يصنعها دوما أولئك المزارعون و الحرفيون المهرة و أصحاب المعرفة و العلوم و الفنون.

هذا الترتيب الطبيعي للطبقات تكونت منه كل الممالك ، يقفز هنا إلى الذهن سؤال كبير هو :

لماذا يحصل الملوك و الأرستقراطيون و جنودهم على معظم محاصيل عمل المزارعين و الحرفيين و التجار ، دون أن يزرعوا أو يصنعوا شيئا ، أو حتى دون أن يشاركوا في صناعة و زراعة شيء مما يحصلون عليه ؟ و ما هو المقابل الذي يقدمونه للصناع و الزراع لينالوا حصة الأسد من الرفاهية ؟.

الجواب هو : إنهم لا يقدمون شيئا لهؤلاء الصناع و الزراع و التجار و أرباب العلوم سوى الرعب و الخوف ، فالمزارعون و التجار و الصناع و غيرهم من المنتجين النافعين يخافون من بأس الجنود ، و الجنود يخافون من انقطاع أرزاقهم التي يوفرها لهم الأرستقراطيون ، فسيتمرون في طاعة أسيادهم ، و الأرستقراطيون يخافون أن تقصر مواردهم عن رواتب جنودهم فيتمردوا عليهم أو يخذلوهم ، فيأمروهم بالمزيد من التخويف و الإرهاب للمنتجين ، و هكذا تستمر دائرة الرعب بالعمل تحت عنوان زائف هو : "الحفاظ على النظام و الأمن و حماية البلاد".

هذه الدائرة عندما تتسع لتضم عدة ممالك تسمى بالإمبراطورية ، و للإمبراطورية نموذجان لا ثالث لهما ، الأول هو الإمبراطورية ذات الهوية ، و هي الإمبراطورية الدينية التي يدين النبلاء و الجند و العامة فيها بدين تتطلب تعاليمه التمدد ، و هذه الإمبراطورية تدمج شعوب الممالك التي تبتلعها في نفس مستوى السيادة و الحماية و الحضارة الذي يعيشه شعب المملكة البالعة ، دون كبير سفكٍ للدماء ، بل لعلك تجد بعض هذه الشعوب المغلوبة تسيطر على الإمبراطورية و تقضي عن القرار شعب و قادة الأمة التي تأسست بقوتها الإمبراطورية .

أما النموذج الثاني فهو الإمبراطورية الإستعبادية ، تتأسس هذه الإمبراطورية عادة بسبب مطامع أرستقراطيي إحدى الممالك القوية بثروات ممالك أخرى ضعيفة ، هذه الإمبراطورية لا تحمل إلى الشعوب التي تخضع لها أية قيم أخلاقية أو إجتماعية أو قانونية مفيدة ، و إنما تتأسس بالشكل التالي :

تقوم جيوش مملكة قوية ما بغزو أرض مملكة ضعيفة لمبررات واهية ، ثم تحطم قوات الملك القوي جيش المملكة الضعيفة ، و بعدها تقتل القوات الغازية كل زعماء المملكة المغلوبة ، و يقتسم أرستقراطيوا المملكة القوية كل أراضي المملكة المُبتَلَعَة ، ثم يعاملون سكان تلك المملكة معاملة العبيد المقهورين ، فينزعون سلاحهم ثم يجبرونهم على دفع الأتاوات للغزاة القساة ، و

ينهبون أموالهم دون رحمة و لا شفقة ، و يمعنون فيهم القتل لأتفه الأسباب ، و بعد أن يستتب الأمر للغزاة ينزلون عن الشعب المغلوب ، فيقيم الجنود و قادتهم في القلاع ، و لا يدخل إليهم المغلوبون إلا بذل و إنكسار لأداء الأتاوات و تقديم فروض الطاعة ، من دون أن يقدم الغزاة للمغلوبين أي شيء نافع ، فلا خدمات و لا تقدم و لا أمن و لا قضاء بالحد الأدنى من المعقولية ، و بسبب هذا الذل عادة ما تنشب الثورات هنا و هناك بين المغلوبين ، فيخرج لهم الغزاة من قلاعهم ليفتكوا بالثائرين ، ثم لينكلوا بالسكان العزل و ليجعلوهم عبدة لمن يفكر بالثورة ، و بعدها يعود الجنود لقلاعهم بعد أن أفرغوا مناطق واسعة من المملكة المغلوبة من نخبة أبنائها و قادتها و عقلائها ، فتدب في تلك المناطق الفوضى و تزداد هذه الفوضى حتى تنحدر الأوضاع إلى ما يشبه حياة الهمج ، فينتشر الجهل و الجريمة حتى يسودا ، و يصبح المنتجون و النافعون في هذا المجتمع كالذي يبني بيتا من الأغصان في عاصفة هوجاء ، فلا يلبث أن يجمع عبدانه و ينصبها حتى تعصف بها هبة من ريح فتبعثرها ، ليعود لجمعها مجددا و هكذا حتى يستئسوا من أن يبنوا أي شيء نافع في وطنهم البائس فيكون أمامهم خياران : الأول الرحيل إلى حيث يظنون أنهم سيجدون مناخا للبناء ، و غالبا ما يرحلون إلى المملكة الغالبة التي ابتلعت وطنهم ، حيث يجدون استقرارا و خدمات سلطوية معقولة ، فيشاركون في بناء و رفع صروح تلك المملكة كأي من أبنائها.

الخيار الثاني هو : أن يتحولوا إلى عبيد خاضعين للمكارة و البؤس ، دون أمل أو تخطيط للخلاص من هذا الإستعباد ، و يرضون بما ترضى به الماشية من طعام و مبيت و تزواج مع الإعتياد على التسخير و الذبح و الإفتراس من قبل الأقوياء.

هذا النموذج للإمبراطورية هو الذي تشكلت على أساسه كافة الإمبراطوريات الأوروبية ، سواء في آسيا أو في إفريقيا البائسة أو في الأرض الجديدة أمريكا و غيرها ، فلقد اعتبر الغزاة البيض أن تلك الأراضي مجرد أدغال خالية من سوى الحيوانات و الهمج ، فبنوا مستوطناتهم لتصبح قلاعا منعزلة عن شعوب تلك البلاد ، و راحوا يفتكون بتلك الشعوب على مراحل ، و في نفس الوقت كانوا يستأجرون أبناء تلك الشعوب ليعملوا في مشاريعهم و في مزارعهم ، أو حتى ليصبحوا جنودا في جيوش المستوطنين البيض ، فيقتلون أبناء جلدتهم بسلاح الغزاة البيض و تحت أمرتهم.

إلا أن الإمبراطوريات الأوروبية لم تتبع نهج الإستعباد وفق النموذج السابق في بلاد الشرق العربي إلا بدرجة ضعيفة ، و كان ذلك طمعا في الرقي بشعوب تلك المنطقة إلى مستوى الشعوب الأوروبية اللادينية ، لكونها بلادا قريبة من أوربة جغرافيا و من حيث الطبيعة البشرية.

على الرغم من تخلف الحكومات العربية التي تحكم بأمر سادتها في أوربة ، و على الرغم من القسوة الرهيبة لممارسات هذه الحكومات ، إلا أنها قدمت بعض الأمن و الخدمات للشعوب العربية ، بحيث بقي الباب مواربا أمام تلك الشعوب للتخلي عن هويتها و ديانتها و الإلتحاق بركب الشعوب الأوروبية ، إلا أن هذا التخلي لم يحدث مطلقا إلا بدرجات لا تبلغ أبدا درجة

اللاعودة ، الأمر الذي جعل من الحفاظ على هيمنة أوربة و أمريكا على هذه المنطقة أمرا شاقا جدا ، و بالتالي جعل الهيمنة على جميع بلاد العالم الإسلامي مهمة مضطربة مقلقة و متعبة على الدوام.

إن فكرة الرقي بشعوب الشرق العربي إلى مستوى أوربة اللادينية قد أصبحت من الماضي ، فشعوب هذه المنطقة عبيدة و منغلقة دينيا بشكل كبير جدا ، و ما رأيانه من عودة سكان أورك إلى التعصب الديني بعد عقود من حكم معاد للدين يؤكد هذا بجلاء ، و الحل للخلاص من وقوف هذه الشعوب أمام مشروعا العالمي يكمن في أن نحول تلك الحكومات العربية مع جيوشها إلى جيوش غازية أوربية ، جيوش ذات أبدان و ألسنة عربية ، فتتصرف هذه الحكومات تماما كما تصرفت الجيوش الأوربية في شمال و وسط أفريقيا و جنوبها ، تنعزل بقواتها عن الشعوب ، و تترك البلاد للفوضى ، و لا يكون لها عمل سوى السلب و إخضاع الثائرين و التنكيل بذويهم بكل قسوة.

هذا الحل يضمن تحول شعوب العرب و المسلمين إلى الهمجية التامة في فترة قصيرة ، و يضمن نقل محاصيل الإستثمارات الأوربية من مناجم تلك البلاد بأمان و سهولة ، و الهمجية ستؤدي حتما إما إلى فناء تلك الشعوب أو إلى تحولها إلى ما يشبه فقراء أرياف الهند القاصية ، أي إلى ما يشبه المواشي .

سأل ريكارد : هل ستخرج تلك الحكومات من البلاد مع جيوشها ، ثم ستعود لتحتلها ثانية ؟ أم يمكن أن نرتب لهذا ؟.

ضحك برنار ضحكة الهازئ المنتصر ، فلقد علم أن فكرته انتصرت عند البارونات على أحلام ريكارد بنشر النموذج الأوري في بلاد العرب و المسلمين ، ثم صمت قليلا و أجاب بهدوء :

نعم ، و لكن هذا سيتم دون أن تخرج تلك الحكومات أو الجيوش من بلدانها ، و دون أن تغادر الأسر الحاكمة إلى خارج تلك البلاد ، سيكون هذا وفق الجدول التالي :

أولا نبدأ بتخفيف قبضة شرطة و مخبرات الحكومات العربية عن الأرياف و المدن الصغيرة و الأحياء الفقيرة في المدن الكبرى ، و هذا سيتيح لنا نشر أربعة تيارات في تلك المناطق : التيار الديني العنيف متمثلا بتشكيلات الجيش الأسطوري بأنواعها ، و الثاني التيار الإلحادي المستنسخ عن ملحدي البلاد الأوربية ، و الثالث تيار الجريمة المنظمة و العصابات التي تنهب و توزع الرعب و المواد و الأعمال المنافية للأخلاق و الديانة ، و الرابع تيار الموتى الأحياء ، أولئك الذين يحلمون بالعالم الآخر و يعيشون أحلام الفردوس الإلهي حتى ينفصلوا تماما عن الوعي و عما يحدث حولهم .

جميعهم سيكونون يائسين من أي إصلاح لما يحيط بهم ، و لا يرون لما يعيشونه من بؤس أية نهاية سوى الفناء ، هذه التيارات هي التي ستشعل القلاقل و ربما الثورات هنا و هناك ، ستمدد القلاقل لبعض الوقت لإغراء الثائرين ، ثم ستخرج إليهم قوات الحكومات التابعة لمنظوماتنا ، فتبيد خضراءهم و تنكل بذويهم ، و تدمر مدائنهم و تنهبها ، و بعد ذلك تعود تلك

الجيش إلى قلاعها ، لتتصرف بعدها مع الشعوب كما كان يتصرف المستوطنون البيض مع سكان إفريقيا و السكان الأصليين للأميريكيتين و غيرها من البلاد المكتشفة.

ستعود تلك الجيوش لتغزو بلادها نفسها ، و سيعززون بلادهم تحت قيادة الضباط الأوربيين هذه المرة و بشكل علني و دون أقنعة ، و سيضربون بلا رحمة ، و بسبب و بلا سبب ، في أي مكان يختارونه ، و لن يختاروا الأماكن التي سيضربونها إلا عشوائيا ، و لن يضربوها إلا عشوائيا ، و لن يجرؤ أحد على أن يعترض على ما يفعلونه ، أو حتى على انتقاده أو حتى على التصريح عن طبيعته الدموية ، لأن مصيره سيكون كمصير هؤلاء البؤساء .

سنبدأ بتنفيذ هذه الخطة في أورك ، و بعد أن تصبح الفوضى في أورك شكلا معتادا لدى الناس ستنتقل العدوى إلى بقية البلاد.

الخطوة الأولى الآن هي إصدار الأوامر لسائر الحكومات العربية بتقليص قبضتها السلطوية عن الأرياف و المناطق الصغيرة و الأحياء الفقيرة في المدن بشكل تدريجي اعتبارا من نهاية العام الأول بعد اجتياحنا لأورك.

صفقنا طويلا لبرنار ، و أول المصفقين كان البارون حتى أنه وقف و احنى رأسه قليلا تحية لبرنار الرائع .

تحدث إلينا البرفسور ديفيد في نفس الاجتماع الذي عرض فيه برنار خطته الرائعة ، ديفيد هذا رجل كبير في السن و يتحدث بارع و متخصص في "علم النفس الجماعي" و يلقب بـ "برسول الانتحار" ، و كان حديثه لإيضاح الجزء الأهم من خطة برنار ، قال ديفيد :

كما هو واضح من خطة البرفسور برنار فإن "انعدام الأمن" هو أهم نتائج تطبيق خطته ، و هو من أهم عناصر تنفيذ هذه الخطة في مراحلها المتتالية ، و لكن كيف نكمل هذا الجزء و ما هي فوائده ؟.

استأنف ديفيد قائلا و قد نظر إلينا نظرة الأستاذ الذي ألهم مخيلة تلامذته : أنتم تعرفون جيدا أن المجتمعات البشرية تعود بسرعة إلى الاستقرار بعد أن تَهْزأ العواصف و الإضطرابات ، ذلك أن الإستقرار وحده هو الذي يوفر للناس أسباب معيشتهم و يسمح بتدفق موارد الحياة من بعضهم إلى بعض ، فالاستمرار في الحياة هدف غريزي لكل الأحياء على وجه الكوكب ، حتى بعد أن تغزى البلاد مثلا بجيش همجي نجد أن الجماعات البشرية سرعان ما تلتق جراحها ، و تعود ثانية للحياة اليومية و لتوفير متطلباتها تدريجيا ، و لكن بسرعة كبيرة تفوق بآلاف المرات سرعة انزلاق هذه الجماعات نحو الفوضى ، و تفوق سرعة تجميع الحطب اللازم لإيقاد أي حرب ، مهما كانت حربا صغيرة و محدودة التأثير و الرقعة ، هذه مشكلة كبيرة ستجعل من خطة البرفسور عديمة الفائدة إن لم تعالج بعلاج مناسب يمنع مجتمعات البلاد العربية و غيرها من العودة إلى الإستقرار خلال تطبيق الخطة بمراحلها المتتالية.

العلاج المناسب يكون باستعمال ذات السلطة التي أردنا لها أن تتقلص في الأرياف و الأحياء الفقيرة في المدن ، هذه السلطة يجب أن تبقى متواجدة في تلك الأماكن و لكن بحيث لا يعتمد عليها لحفظ الأمن ، و إنما لتعمل محرضاً على الصراعات بين أقوياء المجتمع على السلطات المحلية التي تصنعها الجماعات البشرية غريزيا ؛ في حال غياب الدولة الرسمية.

إن غياب السلطة الرسمية و عدم قيامها بفرض سيطرتها على الزوايا المعمورة سيحول تلك الزوايا إلى مراتع للفوضى ، و لكن بشكل مؤقت فقط ، ثم تبدأ الجماعات البشرية المتقاربة بإنشاء سلطات محلية بيد أقويائها ، هذه السلطات ستعمل وفق قانون غير مكتوب عادة ، و يشرف عليه أشخاص لديهم الصبر و القوة الكافيان لإخضاع محيطهم من الناس لقوانينهم التي يخترعونها ، و سيطبق هؤلاء تلك القوانين باستنسابية و بقسوة مفرطة مما يحولهم لاحقاً إلى مستبدين صغار ، و بالطبع سيجنون ثمار السيطرة أموالاً و نفوذاً و ملذات متنوعة ، و سيكون لهم ضحايا ثم خصوم و أعداء يصارعونهم على مكاسبهم ، في وقت قصير جداً.

سينتصر في هذا الصراع أولئك المستبدون الصغار إن لم تتدخل قوة ثالثة بن المتصارعين ؛ ترجح كفة الثائرين على القادة الجدد الصغار ، هذه القوة الثالثة ستكون دوماً هي "السلطة الرسمية" الغائبة الحاضرة ، غائبة في وقت الفوضى و حاضرة عندما تقبل الأمور إلى الإستقرار بظهور قادة محليين ، تحضر لتهدئ الصراع بين القادة المحليين و بين حسادهم و خصومهم ، و حاضرة لتتصر الحساد و خصوم القادة في هذا الصراع ، ليصبحوا بدورهم قادة جدد لفترة ، ثم يصنع هؤلاء القادة الجدد أعداءهم بجهلهم و انعدام خبرتهم السياسية و القانونية ، ثم تتدخل الحكومة الرسمية لتغذي قوة هؤلاء الأعداء الثائرين الجدد ، ثم يباد القادة المحليون أو يهربون و يحل خصومهم محلهم ليعيدوا الكرة و هكذا دواليك ، في دوامة لا تنتهي من الصراعات بين قوى جديدة طامحة و أخرى مستبدة منقرضة ، و بين قوانين زائلة و قوانين صاعدة.

تابع ديفيد و هو راض عن فهمنا قائلاً : دوامة الصراعات هذه لا تسمح للأمن و الإستقرار أبداً بالبقاء و لو لفترة قصيرة ، و بالتالي يصبح تدفق أسباب الحياة إلى المجتمعات متقطعاً دوماً و صعباً دوماً ، و يزداد صعوبة كلما دارت دوامة الصراع الأنفة الذكر لأنها تستهلك باستمرار مزيداً من الموارد البشرية التي تنتج مقومات الحياة ، و تستهلك دوماً أجزاء كبيرة من مصادر الإنتاج الأساسية في المجتمعات ؛ لتحوّلها إلى وقود للصراعات دون أن يتم تعويض هذا الفقد ، ذلك أن أوقات الإستقرار قصيرة جداً لا تسمح بإصلاح الخراب و إعادة عمران ما تدمره الصراعات المتلاحقة.

الأمن لا بد من وجوده حين يريد الإنسان أن يأكل أو ينام أو يفكر أو يشرب أو يمارس الإتصال الجنسي ، أو حتى إن أراد أن يطرح فضلات جسمه ، و عندما ينعدم الأمن تتحول هذه الإحتياجات إلى مجرد أعباء تعترض تركيز الإنسان على تحقيق أكبر أهدافه ؛ و هو استعادة الأمن حال فقدانه ، فالأمن هو حاجة الحاجات كلها ، هو وعاء الملذات و الطموحات كلها.

الشباب الذين يعيشون في ظل إنعدام الأمن لن يفكروا في بناء مستقبل ، و إنما سيجدون أنفسهم في وسط صراعات تحيط بهم و تهديدات لحياتهم لا تنقطع ، و كل ما سينونه سيتحول إلى هباء عند أول صدمة مع أحد أولئك الذين لا يفكرون إلا في الحصول على رغبتهم دون تعب ، بحق القوة و التسلط ، ذلك أن كل المنتجين المسالمين سيدفعون ضرائب لأولئك الشبان و الرجال المتسلطين على الشوارع بفوهات أسلحتهم و بقوة عضلاتهم ، ضرائب لأولئك الشبان المستهترين الذين لا توجد في قلوبهم رحمة ، و لا يوجد في عقولهم علم ، هؤلاء "الفتوات الجدد" أو "القبضايات الجدد" هم سيكونون السلطة الجديدة الحاكمة و التي تفرض الأمن بطريقتها.

في المرحلة الأولى سيندفع الشباب اليائسون من السلامة و الإستقرار للإلزام لعصابات "الفتوات" ، و سيرون أن هذا الحل أفضل لهم من أن يكونوا ضحايا للفوضى ، و بعدها سيجدون أن هذه العصابات لن تؤمن لهم إلا أقل القوت و الإحتياجات ، و سيبحثون عن السبب ليجدوا أن قادة العصابات هم من يجني لحم الفريسة و يترك لهم الجلد و الأمعاء ، عندها سيتمردون على هؤلاء القادة بمجرد أن يلوح لهم تجمع منافس لعصابتهم الحالية ، و هذا ما ستؤمنه دوما قوى الحكومة الرسمية من تحت الغطاء ، و هكذا سيخوض أولئك الشبان حروبا ضد قادتهم و ضد الذين يتمسكون هؤلاء القادة .

حتى أولئك المتمسكون بقادة العصابات لن يكون تمسكهم إلا من باب الخوف المعتاد من المجهول و الضياع إن تخلوا عن عصابتهم ، و هنا ستتدخل الحكومة الرسمية بواسطة مخبراتها و شرطتها السرية لدعم الثائرين ، و سيلتحق الجميع بعدها بعصابات جديدة كما أسلفت آنفا .

الشباب قليلوا الطموح الميالون لجمع المال بالعمل و الصبر سيتصنعون الإستقرار ، و معهم معظم الناس في القسم المستهدف بالفوضى من البلاد ، و سيذهبون إلى أعمالهم في كل صباح ، و لكنهم في كل يوم سيجدون أن ما جمعه و بنوه عرضة للضياع في أية لحظة ، و في كل يوم سيتحطم المزيد منهم على يد الفتوات و القبضايات ، و رغم هذا لن ييأس هؤلاء الشباب ، و سيعملون على أمل أن يعود أولئك القبضايات إلى رشدهم في نهاية المطاف ، و يقتنعوا بفوائد الأمن و السلام و الإستقرار و ما يتوفر بهم من اللذات و المتع ، لكن سيكتشف الشباب المستقيمون المسالمون أنهم يجرون وراء سراب ، و أن الذين يعودون إلى رشدهم من الفتوات لن يقلصوا حجم العصابات ، و لن يخففوا مما تسببه من ويلات ، إذ سرعان ما سيخلفهم شباب أكثر رعونة و عنفا و جهلا من التاركين لتلك العصابات.

عندها سيبدأ عدد الشباب المسالمون بالتناقص دون تعويض ، و سيرحلون إلى حيث يظنون أن الإستقرار موجود ، و هناك سيواجهون الحضيض و الفقر و البداية من أسفل السلم ، بالطبع سيلحق بهم ذووهم و آباؤهم و أمهاتهم هربا من الجحيم .

لن يستطيع الجميع بالطبع أن يهاجروا إلى بلاد أوربة و غيرها ، و سيتوجه معظم الهاربين إلى مناطق سيطرة الحكومات العربية ، و هناك سيجدون خوفا و رعبا من نوع آخر ، إنه الخوف من الهلاك جوعا و تشردا و مرضا ، ستكتظ المدن بالنازحين و سيجد معظمهم أن العودة إلى مناطق العصابات أقل سوءا ، و سيعودون ليطعموا أنفسهم لئيران صراعات الفوضى التي لا تنتهي .

بلاد العرب و غيرها من البلاد التي سنطبق فيها خطة برنار ستكون فيها الحياة هكذا ، أشبه بالجحيم ؛ ذلك الذي يؤمن المسلمون بأنه سيكون مصير الأشرار و غير المؤمنين من الناس ، و سيكون الصبر و انتظار الفرج في هذا الجحيم كالسعي للهروب منه ، كلاهما بلا فائدة ، و لهذا سيكون الإنتحار هو الحل الأفضل للخلاص من هذه الويلات.

المسلمون يرفضون فكرة الإنتحار إلى درجة أن عوامهم يعتبرون المنتحر "كافرا" ، أي مجذّف على الإله و غير مؤمن و لا مجال لدخوله إلى الفردوس الموعود في العالم الآخر الذي يؤمن به المسلمون.

قال ديفيد مستطردا :

لقد حاول أجدادنا كثيرا أن يقنعوا المسلمين بقبول الإنتحار في قوانينهم الدينية ، لكنهم لم يستطيعوا إلا إقناع فئة معزولة من أتباع الديانة السرية المحسوبة على الإسلام ، هذه الفئة لم تنجح أبدا في الإندماج بين المسلمين بحيث يكونون فرقة شرعية منهم ، هم يعيشون اليوم بين المسلمين متوارين بينهم و لا يجروؤن على التصريح بمعتقداتهم ، ، استعملت هذه الفئة الإنتحار في الحروب التي خاضتها ضد خصومها من المسلمين ، ثم توارت هذه الفئة و اختفت فكرة الإنتحار ، إلى أن أعددنا العدة لإحيائها و نجحنا نحن هذا الجيل و بمعونة الجمعية الإسلامية في إحياء و حقن هذه الفكرة في أذهان عامة المسلمين ، و في أذهان عدد لا يستهان به من مشايخهم ، لقد صار الإنتحار أيها السادة مقننا و يعتبر ثاني أفضل الأعمال الصالحة الدينية في نظر نسبة تكاد تكون الغالبية من المسلمين ، و صاروا ينظرون إلى المنتحرين على أنهم قديسون.

لقد نجح أتباع الجمعية الإسلامية في إقناع شباب المسلمين بفكرة استخرجها البروفسور الراحل أوسكار و زملاؤه العباقر من كتب تاريخ أمجاد المسلمين العسكرية ، فلقد ترسخ في أذهان هؤلاء الشباب أن هزيمة الطائرات بالبنادق أمر ممكن ، و أن هزيمة المدافع و الدبابات بالخناجر و الرصاص العادي أمر حتمي ! فقط في حال قاتل باندفاع حتى الموت أولئك الذين يصارعون آلات الحرب المتطورة الضخمة بأدواتهم البسيطة.

مؤلفوا كتب الجمعية الإسلامية تباروا في إبراز الإحصائيات عن قلة أعداد جيوش المسلمين في حروبهم المجيدة على مر تاريخهم ، و عزّا أولئك المؤلفون كل انتصارات تلك الجيوش إلى سبب واحد هو : الإندفاع في مقاتلة العدو حتى الموت ،

حتى جعلوه في أذهان متابعيهم الخطة العسكرية الوحيدة لرعي المسلمين الأول ، و الخطة اليتيمة لما تلاه من أجيال المقاتلين المسلمين.

هذه الفكرة رسخت في أذهان شباب المسلمين جيلا بعد جيل خلال قرن كامل ، كل من فكر بخوض حرب ضد السلطات التي تسيطر على بلاد المسلمين خلال القرن الفائت كان همه الأول و الوحيد هو : جمع أكبر عدد ممكن من الشباب الحالمين بالموت في الحروب من أجل الإسلام ، و هذه كانت خطتهم الوحيدة ، و تعرفون جيدا كيف انتهت مواجهتهم مع جيوش حكومات بلدانهم الرديئة التسليح و المهلهلة تنظيما حتى العظم ، فلقد أيبس الملايين من أولئك الحالمين بالنصر في تلك المواجهات دون أن يحققوا أي نصر بالطبع.

هذه الفكرة طورناها خلال مراحل ظهور الجيش الأسطوري ، و اقتبسنا فكرة طياري "المهاركوري" من اليابانيين و حقناها في مدونات الجمعية الإسلامية و الجماعات التي انبثقت من عباءتها ، خاصة تلك التي تتبنى نسختنا النجدية للإسلام. لقد اتضحت تماما الآفاق القادمة لمستقبل تلك المنطقة ، فبهذه الخطة و باستثمارنا لهذا النجاح الباهر للجمعية الإسلامية و ما تلاه من تطورات لفكرة الإنتحار نستطيع أن نطلق عجالات طواحين "الجيش الأسطوري" لتعمل بنجاح و تدفع شعوب المنطقة نحو الإنقراض.

أيها السادة : كمية هائلة من اليأس ستغمر الناس بسبب أمواج الفوضى المتلاحقة المتلاطمة ، هذا اليأس سيجعل الإنتحار خيارا واقعا متاحا لهؤلاء اللئسين ، لكن بسبب التدين الإسلامي سيستبعد هؤلاء فكرة الإنتحار من أذهانهم ، و سيواجهون مصائبهم و كوارثهم بصبر إنتظارا للموت الطبيعي و الرحيل إلى الفردوس الموعود حيث يجدون عوضا عما سلب منهم من السعادة و المحبوبات في هذا العالم.

إلا أن تحويل الإنتحار إلى عبادة جعل منه خيارا مفضلا ، بل هو الأفضل في لاوعيهم جميعا ، بقيت فقط عملية التشجيع و التجنيد ثم اقتحام ما بين حجري رحى الطاحون ، و هذه ستتكفل بها النسخ المتتالية من الجيش الأسطوري.

قاطعتُ برنار سائلا : هل ستستمر نسخ الأسطوري في الظهور حتى ينقرض الجميع ؟ هذا سيحتاج لقرن أو أكثر ، فالسكان الأصليون للأمريكتين احتاجوا لقرون حتى انتهى وجودهم ، رغم اندفاعهم نحو فوهات بنادق و مدافع الغزاة الأوروبيين بأموال متلاحقة ، هذه الأمواج التي أشبهت كثيرا أمواج الجراد المتدافعة نحو خنادق المزارعين.

أجاب : لن نحتاج إلا لعدد قليل من النسخ ، لأن الفوضى ستتكفل بإيجاد خيار آخر للليئسين ، خيار مغاير الكفاح في سبيل التحرر من قبضة منظوماتنا و الحكومات التابعة لها ، إنه خيار الهمجية القبلية البدائية ، بالتدريج ستزول حتى تلك الحكومات التي تتخذها منظوماتنا قفازات لحكم بلاد العرب و ما جاورها ، و ستتحول إلى ما يشبه تماما مستوطنات البيض

في مستعمراتهم ، و ستحل محل هذه الحكومات الفوضى العارمة ، فوضى بدون أية مقومات للحضارة ، دون خدمات ، دون تقنيات ، دون طاقة ، و حتى دون مياه شرب و شبكات صرف صحي أو ري زراعي أو طرق معبدة.

سألت متعجبا : ثم ماذا ؟.

قال برنار : هؤلاء الهمج سيكونون قد عادوا إلى همجيتهم الأولى التي غلفها الإسلام بأغلفة من الفضيلة و المثالية و التحضر على مر قرون طويلة ، سيعودون إلى تلك الهمجية بجنين زائد و هم ناقمون على ذلك الدين ؛ الذي سيرون أنه تسبب في إنتحار ملايين من أحببتهم و أبنائهم و بناتهم أمام فوهات أسلحة جيوش منظوماتنا.

ذلك الدين الذي رفضوا التخلي عنه لصالح المدنية العصرية و مكاسبها سلميا أو بشكل منظم على مر القرن الماضي ، رغم كل ما صنعناه ، سيتخلون عنه هذه المرة و هم ناقمون عليه ، و سينسونه تماما ، ثم سنقدم لهم الحضارة المدنية دون أديان مطلقا هذه المرة ، لا المسيحية و لا حتى الإلحاد ، المدنية فقط لتكون بديلا وحيدا عن الفوضى و عذاباتها الجهنمية ، أو بدل الفناء التام و الإبادة الشاملة.

صفق الجميع للمتحدثين ، و وافق البارون تماما على الخطة ، و عكفنا أسبوعا آخر على إعداد ملحقاتها العملية ، ثم تفرقنا بعد أيام ممتعة قضيناها في قصور كسار ، تلك القصور المبنية على ضفاف أنهار أورك العظيمة ، أنهار يعتقد المسلمون أنها تنبع من فردوس السماء ، أو أنها جاءت من فردوس السماء ، عاد كل منا إلى بلاده لنبدا في تنفيذ خطة برنار المبتكرة هذه المرة ، خطة الرحيل إلى الفردوس بالانتحار.

المرحلة التي تلت اجتياح بلاد أورك وضعت لها خطط متشعبة و لها آليات تنفيذ و خطط إحتياطية كثيرة و معقدة ، و السبب هو أن البارون و مستشاريه كانوا مترددين جدا ، و سبب تردددهم هو أن المشروع العالمي الذي ورثوه كان يسير وفق خطة تتدفق كالساعة في جميع أجزائها ، و لكنها كانت متعثرة جدا في جزء واحد فقط ، ظن القائمون على المنظومات أن تعثر هذا الجزء لا يهدد المشروع بحال ، و تبين لاحقا لأنهم كانوا مخطئين جدا ، فلقد تكاملت كافة أجزاء المشروع و لكن هذا الجزء المتعثر حال دون تنفيذ المرحلة النهائية الحتمية و قطف ثمار حلم آلاف السنين ، هذا الجزء هو الشرق العنيد ، و بالتحديد هو التدين الإسلامي ، لقد فهمت جيدا من خلال خبرتي و إطلاعي أن العالم الذي سعى أجداد البارون و عشيرته و منظوماته لبنائه لا يمكن أن يولد بوجود تدين عميق متجذر كالتدين الإسلامي ، لأن هذا العالم يفترض به أن يحمل في أذهان سكانه إيمانا واحدا مؤخداً مختلفا تماما عن جميع المبادئ و الأسس و الأديان التي تسيطر اليوم على الأذهان ، اعتقد أجداد البارون أن زرع هذا الإيمان و جعل تقبله أمرا ممكنا لدى جميع البشر لا بد أن يسبقه تنظيف أذهان البشر من كل المعتقدات السابقة التي تحتل قلوبهم و عقولهم ، طبعاً الطريق الوحيد لهذا هو جعلهم يفقدون الثقة بكل ما يعتقدون ، و بكل

ما يقدسون و إسقاط كل ما يحترمون ، لكن ليس للأبد و ليس لفترة طويلة ، لأن هذه الأذهان إن تعودت على عدم تقديس و تعظيم شيء فلن يمكن إقناعها بسهولة بالعودة إلى التقديس و التعظيم لرموز و أشخاص و مبادئ و معتقدات ، حتى و لو قدمت لها كل البراهين على أحقية و ضرورة النظر إلى هذه المقدسات الجديدة بالتعظيم و التقديس .

المشكلة الكبرى التي يواجهها هذا المشروع أن العالم الذي ينتظره البارون و حاشيته ؛ سيحكمه إيمان يقوم أساسا على التقديس المطلق لرموز و أشخاص فوق حد العبادة ، و سيرعى هذا الإيمان قانونا دينيا صارما جدا بلا رحمة ، بل هو أكثر القوانين التي عرفت البشرية صرامة و قسوة .

إشغال الفراغ الذي أحدثته "اللا دينية" في نفوس البشر - غير المسلمين - بذلك الإيمان البديل المؤخذ سيكون عملا صعبا ، و كلما تأخرت بدايته يوما آخر صارت عملية إشغال هذا الفراغ أكثر صعوبة بأضعاف ما كانت عليه هذه الصعوبة في اليوم السابق ، فاللا دينية تعني ببساطة في نهاية الأمر احتقار القانون ، أي قانون كان ، لقد بُنيت اللا دينية على رفض حقيقة أن الوجود الحي مبني على ترتيب عاقل و متكامل ، و أدخلت في نفوس أتباعها أن الفوضى و اللاتعيين و اللا عقل هو حقيقة الوجود ، المفارقة المثيرة للضحك جدا تعجبا هي ؛ أن منظري اللا دينية جزموا بعدم وجود قوانين مسبقة حكيمة تكون على أساسها الأحياء ، و استدلو على هذا الجزم بقوانين أخرى في الوجود ؛ هي قوانين الرياضيات و الفيزياء و الكيمياء الفيزيائية بأنواعها ، و كأن قوانين الفيزياء و الكيمياء و الرياضيات ليست قوانين ذكية و عاقلة و حكيمة و مسبقة متحكممة بصرامة بكل كائن صغير من أصغر كائنات الوجود التي نسميها (جمادات) ، و التي هي في الواقع كائنات حية أيضا تتشكل من حياتها حياة الأحياء !! و رغم هذا التناقض الفاضح جدا في اللا دينية وُجِدَ أناسٌ بالمليارات يؤمنون بها ، و يقودهم ملايين ممن لُقّبوا بالعابرة و الفلاسفة و المفكرين العظماء !! السبب في انتشار اللا دينية لا يكمن في أحقية مبادئها و قوة براهينها ، بل يكمن في أن النفوس البشرية تكره القيود من أي نوع ، و تميل إلى الهمجية المطلقة من دون سلطة صارمة متجذرة في العقول البشرية و في وعيهم و لا وعيهم ، قبل أن تكون هذه السلطة متحكممة في الشوارع و في التصرفات العلنية للناس ، فالقانون الذي يطاع جهرا و يعصى دوما في الظلال لا يمكن أبدا يثمر استقرارا من أي نوع إلا بدرجة متدنية جدا لا تكفي لأمد طويل ، فيعتمد أرباب السلطة لاستحداث قانون أشد منه ، و هكذا دواليك إلى أن تنتصر الفوضى العمياء في نهاية الأمر .

من يفهم هذا يدرك صعوبة مهمة البارون ياكوب و فريقه ، المهمة التي ورثها واعدة جدا من البارون جيمس ، ثم تحولت إلى بسرعة إلى مهمة تشبه قيادة فيل عملاق هائج في منحدر موحل دون لُجْم.

لقد تحولت جميع المجتمعات في كل بلدان العالم إلى ما يمكن أن نصفه مجتمع الأدغال الإسمنتية المسفلتة المزججة المصبوغة المضاعة المؤللة ، تُصنع لهذا المجتمع في كل يوم آلاف القوانين و القيود الجديدة ، بدل تلك التي اهترأت بسبب انتهاكها في

الظل خلال اليوم السابق من قبل جميع أبناء هذا المجتمع و دون استثناء حتى لأولئك الذين شرعوها ، و في كل يوم يزداد احتقار هذه المجتمعات لفكرة القانون و للمقدسات و تقترب من همجية الأدغال الحقيقية أكثر فأكثر .

تساءلت كثيرا في نفسي خلال العقود الماضية ، لماذا لا يخطو البارون نحو المرحلة النهائية لمشروعه و يعلن عن سيطرة عشيرته على السلطات في هذا الكوكب ، و ينهي هذا الصراع و يفرض بقوة الحكم إيمان عشيرته على جميع العواصم ؟ و سرعان ما وجدت الجواب عندما سألت هذا السؤال للبروفسور أوسكار قبل أن يموت بعام واحد ، فقال لي : أنت تستطيع أن تتسلل إلى مزرعة أحدهم و أن تسيطر على جميع الموارد القادمة إليها و الخارجة منها احتيالا و بطريقة مُقنعة ، و بشكل محسوس جدا لدى مالكي المزرعة ، و لكنك لن تستطيع أبدا أن تقنع هؤلاء المالكين بالإعتراف بملكيتك للمزرعة إن أعلنت أنكها لك و برهنت على ذلك بممارسة سيطرتك على مواردها و مصادرها ، قد يتعايشون مع سيطرتك هذه لفترة ما ، لكن عندما تعلنها لن يجدوا أمامهم إلا قتلك دفاعا عن مالههم و مصدر استمرار حياتهم و مأواهم ، و سيجدون من ينصرهم و يتعاطف معهم ضدك بسهولة كبيرة ، حتى تعلن عن سيطرتك هذه لا بد أن تسيطر على المالكين أنفسهم و أن تستعبدهم و تجعلهم يقرون بألوهيتك عليهم ، فالإنسان لا يعطي ثمار تعب و ما يملك راضيا دون مقابل إلا لمن يعبد .

سألته بحدوء : و كيف ستقنعون هؤلاء بأنكم آلهتهم و أن عليهم أن يعبدوكم و أن يمنحوكم ما يملكون راضين طائعين ، ثم يعملون فيما بَنَت أيديهم أفنانا مسخرين ليعطوكم جنى كدّهم ؟.

قال : بأن نرسل لهم أنبياء و رسلا يبرهنون لهم بأنواع الجدالات و الأعاجيب على أننا آلهة ، و أن ما يعبدونه من معبودات باطل و وهَمٌ و لا وجود له ، لقد أرسلنا إلى الناس أنبياء كثيرا ، من شتى الأنواع ، معظمهم كانوا من دعاة "اللا دينية" ، و بشروا بفردوس أرضي اسمه العالم الحرّ المتحضر ، و برهنوا على وجود هذا الفردوس بحوارات و جدالات متناقضة و متهافنة و لكنها مترابطة مظهريا ، مثل نبوءة "أصل الأنواع الحية" و قصة تطور الأحياء حتى ترقى نحو الإنسانية .

قلت : في المناطق التي لا تتقبل اللا دينية و تتجذر فيها الديانات ، ما نوع الأنبياء الذين ترسلوهم ؟.

قال الراحل الكبير أوسكار : كولونيل مهران أنت أذكى مما تخيلت ، سأجيبك . ثم صبّ لنفسه كأسا كبيرا من المارتيني و أشعل غليونه كعادته و بدأ يتحدث بجدية صارمة و هو يثبت عينيه في وجهي :

في الماضي لم يكن لدى أجدادنا أي مجال أو تصور للادينية ، فالعلوم لم تكن تجريبية و الديانات كانت هي التفسيرات لكل ما يدور حول البشر ، و مع هذا صنع أجدادنا الكثير جدا من الأنبياء ، باستعمال الديانات القائمة نفسها ، و باستعمال تراث مؤسسي هذه الديانات ذاته فكم كان أجدادنا عباقة ؟.

الديانات كلها في الأساس مجموعة من النبؤات ، هذه النبؤات مزاعم أطلقها "أنبياء" الديانات ، هذه المزاعم تتحدث عن أحداث مستقبلية ستقع حتما (بحسب تلك المزاعم) و عن أحداث وقعت في الماضي السحيق جدا تبرر ما نراه في الواقع ، و عن أحداث ستقع للإنسان في حياته اليومية إن فعل أفعالا بعينها يؤمر بها أو إن ترك أوامر "إلهية" بعينها ، و طبعا هذه الأوامر و النواهي كلها ينوب الأنبياء عن إلههم بنقلها للناس و تبين تفاصيلها.

مثلا الأنبياء يتحدثون للناس عن نهاية للعالم و عن انتقال لعالم آخر ، و يرهنون على أنهم صادقون بأعاجيب و حوارات مفحمة لخصومهم ، و يزعمون أن على البشر أن يفعلوا جملة من الأمور و ينتهوا عن جملة من أمور أخرى ليصنعوا لأنفسهم في العالم الآخر سعادة أبدية و خلاصا دائما من التعب و الكد و المزعجات ، هذه نبؤات أيضا و على البشر أن يشاركوا بتحقيقها و أن يخرجوها من العبارات الكلامية إلى الحقائق الموجودة الملموسة بأفعالهم و تصرفاتهم اليومية ، هذه النبؤات هي كل الديانات في الواقع.

هناك نبؤات أخرى أطلقها أنبياء الديانات المختلفة ، هذه النبؤات كلها تتحدث عن أحداث ستقع بعدهم ، معظمها أحداث سيئة ، و ستكون علامات تشير إلى وقوع أحداث أخرى أكبر منها لكنها جيدة في الغالب ، فمثلا يوجد عن المسيحيين الجدد خاصة الكثير من النبؤات بأحداث سيئة و كارثية ستقع قبل عودة إلههم المسيح إلى الأرض ليحولها إلى فردوس خالد ، و مثلها كثير من النبؤات التي يؤمن بها المسلمون عن أحداث سيئة أو غير سيئة ستقع قبل ظهور الحاكم المخلص ذو النسب المقدس ، الذي سيحول الأرض أيضا إلى فردوس سعيد و لكنه مؤقت لأن المسلمين لا يؤمنون بالخلود على هذا الكوكب.

استعمل أجدادنا هذه النبؤات فحولوها إلى ديانات جديدة ، ديانات لها أنبياء جدد و شرائع جديدة ، و إيمان جديد و فردوس جديد من تصميم عباقرة عشيرتنا المجيدة.

في إيمان المسلمين التقليدي لا يلزم هذا النوع من النبؤات الثانوية أحداً بفعل شيء و لا بترك شيء ، و لا يمكن لأحد أن يحدد أو يتوقع موعدا لوقوعها ، و لا يمكن لأحد من مشايخ الإسلام التقليديين أن يزعم أن لديه جدولا زمنيا و لو تقريبا لمواعيد ظهور هذه النبؤات ، و لا يقول أحد من هؤلاء المشايخ أنه توجد أفعال إن فعلها المؤمنون فستقع هذه النبؤات نتيجة لهذه الأفعال ، لأن المشايخ التقليديين يؤمنون بأن الإله الواحد هو فقط من يعلم موعد وقوع هذه النبؤات ، و أنه ما على المؤمن بهذه النبؤات إلا أن يحمدا الإله و يزداد يقينه بنبوة نبي الإسلام حينما يرى تحقق بعض هذه النبؤات في زمنه ، طبعا تحقق متيقن واضح كالشمس و مطابق لظاهر و حرفية عبارات النبؤات ، و ليس تحققا مستنتجا من البديع اللغوي لعبارات التنبؤات ، و لهذا لا يجوز بحال للمسلم المؤمن بالإسلام التقليدي أن ينتظر وقوع هذه النبؤات ، و لا أن يعلق فعل أي أمر أو ترك أي أمر انتظارا لوقوع أي من هذه النبؤات ، و هذا موقف صارم جدا كما ترى .

جاء عباقرة أجدادنا إلى هذه النبؤات فحولوها إلى ديانات فكيف كان هذا ؟.

عدلت جلستي و أنصت باهتمام كبير لما سيلقيه إلي العبقرى العجوز ، قال أوسكار بعد كأس آخر من المارتيني :

لقد أوحى أجدادنا إلى جماعات من العامة من المسلمين و المسيحيين و غيرهم بفكرة هي :

يمكن أن يفعل المؤمنون أفعالا محددة ، بسبب هذه الأفعال ستظهر "الأحداث الجيدة" التي ستقع بحسب النبؤات تاليا لوقوع الأحداث السيئة التي تصفها النبؤات ، الأحداث السيئة السابقة لظهور المخلص ذو النسب المقدس ، و حدث ظهوره السعيد مثلا ، يبرهن على هذه الفكرة أحد عباقرة أجدادنا الذين ادّعوا اعتناق الإيمان الإسلامى ، و يبرهن على الفكرة باستعمال جدالات و حوارات متماسكة تربط أحداثا تجري أو جرت في زمنهم بالأحداث التي تصفها النبؤات ، فمثلا وقعت أحداث سيئة أو جيدة في عصر جدنا العبقرى هذا ، فيقوم بربطها بأحداث تصفها نبوءة المخلص تسبق ظهوره ، ثم يزعم باستنتاجات ملفقة ذكية أن هذه الأحداث الواقعة يجب أن يواجهها المؤمنون بأفعال معينة حتى تتحول إلى أسباب ينتج عنها ظهور المخلص ، كإعداد جيش ما أو كتصيب شخص ما ، أو حتى كتأسيس دولة ما .

ثم يربط داعيتنا العبقرى جميع نصوص و أحكام الدين الإسلامى بهذه النبوءة و بما تصفه من أحداث ، و باستنتاجات تبدو منطقية يجبر كل أوامر الدين فعلا أو تركا أو توجيهها لتخدم فكرة : "العمل من أجل تحقيق تلك النبوءة".

ببساطة تحول داعيتنا هذا إلى نبي جديد له دين جديد اشتق من دين قائم ، و هذا الدين الجديد يشبه الدين الأصلي في كل شيء تقريبا من حيث الظاهر ، إلا أنه دين آخر تماما من حيث النتيجة ، بل هو دين مضاد و محارب للدين الأصلي و لأتباعه ، و يُدين إيمان الدين الأصلي و أتباعه من مرشدين و مسترشدين.

قلت : أرجو مزيدا من الإيضاح لماذا هو دين جديد ؟

ضحك كثيرا و قال : هذا الدين الجديد يتحدث عن عالم آخر جيد و مثالي ، عن فردوس قادم ، سيظهر إن فعل المؤمنون أفعالا بعينها أو تركوا أمورا بعينها ، الذي يحدد هذه الأفعال هو داعيتنا ، أو النبي الجديد ، هذه الأفعال و التروك هي الدين الجديد ، و هذا المخلص المنتظر هو الإله أو نائب الإله المُسترضى بطاعة النبي الجديد ، يا عزيزي هو دين جديد ، يحمل نفس إسم الدين الأصلي ، لكن حرص أجدادنا كل الحرص على أن تكون كل تعاليمه توصل إلى الفوضى و الدمار ، و أن تعاكس في مضمونها كل تعاليم الدين الأصلي.

قلت و قد علتني دهشة من حلّ أخيرا لغزا معقدا : هل ستتكرر هذه العملية في الشرق الإسلامى العنيد في وقتنا هذا ،

أليس هذا ترسيخا لتدين جديد و نحن نبحت عن وسيلة لحو التدين كله؟.

قال ضاحكا ببحث : عامة أتباع الديانة الأصلية ، هم من أصحاب الإيمان التقليدي ، أي يتدينون بالوراثة و بدون جدال أو بحث عن براهين ، يا عزيزي سينظر هؤلاء للديانات الجديدة على أنها أجزاء أو أفرع من دينهم ، و على أنها أجزاء تستند إلى نبؤات يؤمنون هم أيضا بها ، و عندما تنتج الديانات الجديدة كوارث تستهلك أمن و سعادة هؤلاء العامة فإنهم سيدينون تلك النبؤات التي في دينهم ، و لن يدينوا أنبياءنا الجدد ، و سيستقر اليأس في نفوسهم من فكرة الخلاص التي يبشر بها دينهم الأصلي ، بسبب خيبة أملهم المريعة من إمكانية تحقق خلاص أرضي و لو كان محدودا ، خلاص بشرت بها نبوءة فرعية ، لكنها هي أيضا جزء من دينهم الأصلي.

عندها سنقدم لهم أنبياء جددا من دعاة اللادينية ، و عينات من فردوسهم الأرضي تُرى و تُلمس ، لهذا سيرحب هؤلاء العامة بهم بهم أيما ترحيب ، و سيضربون عرض الحائط تحذيرات رجال دينهم ، بل سيضربون عرض الحائط دينهم كله. انتهى كلام البروفسور أوسكار.

رغم عبقرية هذا التخطيط و التنفيذ ، إلا أنني متيقن من أنه سيفشل تماما في تسهيل القضاء على التدين الإسلامي إلا ضمن حدود ضيقة جدا ، و متيقن أيضا من أن نشر الإلحاد في نفس إنسان ما تمهيدا لإقناعه بإيمان ما من أي نوع عمل غبي جدا ، وصول الإلحاد إلى فكر شخص ما من فكرة : " طالما أن الخالق أو الإله موجود ، فلماذا لا نراه ؟؟ " سيقضي تماما على أي احتمال لتيقن هذا الشخص مستقبلا بأي نوع من الإيمان بمغيبات عن حواسه ، حتى و لو كان البرهان المقدم له على أحقية هذا الإيمان إحياء الموتى أنفسهم ، إذ أن سؤال : لماذا يستتر الكائن القدير المتمكن الذي لا يخشى شيئا عن أنظار مخلوقاته الضعفاء العاجزين عن إيذائه ؟!. هذا السؤال سيعيد إيمانه دوما إلى نقطة الصفر ربما عشرات المرات يوميا ، و إن قدم له المتدينون عشرات الأجوبة و المبررات المقنعة .

بعد أسابيع قليلة من نهاية إجتياح بلاد أورك تدفقت إلى تلك البلاد أرتال متلاحقة من طلائع النسخة الثالثة لـ "الجيش الأسطوري" ، هذه الأرتال دخلت البلاد من الحدود الواسعة الفاصلة بين أورك و جوارها ، حدود هائلة معظمها صحراوي ، و كانت قد خلت تماما من الحراسة بعد تلاشي دولة كسار و مؤسساتها ، قاد هذه الأرتال عدد من أكفأ ضباط مخبرات بلادنا و بلاد الملك ذو النسب المقدس ، و كانوا على مستوى عال من البراعة في أداء مهماتهم ، كانوا يأسرون قلوب شباب بلاد أورك الذين يروهم ، و لقد تلمس فيهم كبار السن أيضا أحلام الشجاعة و القوة و آمال إحياء الأجداد الغابرة التي تربوا على التغني بها أيام الطفولة و الشباب.

عشرات الألوف من الشبان المتحمسين لهزيمة الغزاة انحدروا إلى أورك من سائر بلاد العرب ، و التحقوا بمئات سبقوهم إلى أورك من دعاة النسخة النجدية ، هؤلاء الدعاة كانوا قد هيئوا لهذه الأرتال أماكن الإيواء و التدريب في معظم أقاليم

المسلمين في أورك ، لقد تم هذا بمعونة مخبرات اللواء حنا و مخبرات الملك ذي النسب المقدس و مخبراتنا طبعا التي قادت العملية بأسرها .

لقد كانت غرفة عملياتنا على علم بتحركات كل فرد من هذه الأرتال ، و لدينا سجلات كاملة لكل شيء عنهم ، و كانت التقارير عن تحركاتهم تصلنا تباعا على مر الساعة ، و كنا نصدر إليهم تعليمات الجنرال وولتر و فريقه على مر الساعة .

في نفس الوقت كانت أرتال أخرى للجيش الأسطوري نفسه بنسخته السلبية تندفق إلى جنوب البلاد ، هذه الأرتال من أتباع الديانة السرية و كلهم قادمون من الجارة الآسيوية التي تتبني علنا هذه الديانة ، بنفس الطريقة استقرت هذه الأرتال بين إخوانهم من سكان جنوب البلاد ، هناك وجدوا كل شيء جاهزا لإيوائهم و وجدوا كل المعدات التي يحتاجونها في أداء مهمتهم القادمة .

بعد نهاية العام الذي عرف بعام "المقاومة" للغزاة كان كل شيء جاهزا لوضع النموذج التقسيمي لبلاد أورك موضع التنفيذ ، الجيش الأسطوري كان هو المكلف بتنفيذ هذا النموذج على الأرض .

انتظر وولتر مدة ثلاثة أعوام حتى اكتملت إستعدادات الجيش الأسطوري المادية و العقائدية ، بعدها أعطى الضوء الأخضر لبدء التنفيذ الميداني ؛ كان انطلاق الشرارة عملية تفجير في معبد مشترك بين المسلمين و بين أتباع الديانة السرية ، هذا المعبد كان يضم قبة تعلو ضريحين لاثنيين من أبناء السلالة المقدسة يعتبران كآلهة في الديانة السرية ، المسلمون أيضا يعظمون هذين الضريحين لأنهما لرجلين يعتبران من صلحاء المسلمين و علمائهم الكبار ، يقع هذا المعبد في وسط مدينة غالبية سكانها عرب مسلمون لكنها ملاصقة تقريبا لحدود الجارة الآسيوية الآنفة الذكر .

إثر التفجير أعلن قادة الديانة السرية الحرب على المسلمين ، و انطلقت أرتال النسخة السلبية للجيش الأسطوري لغزو مدن المسلمين في أورك بوحشية نادرة مدفوعة بأحقاد على العرب و على الإسلام و على كل ما يمت إليهم بصلة ، أحقاد تراكت عبر قرون مديدة غذتها عقود قاسية من حكم كسار و اضطهاده لأتباع هذه الديانة .

بدأت أرتال النسخة السلبية باجتياح أحياء المسلمين في عاصمة بلاد أورك ، و في كل المناطق المشتركة بين أتباع الديانتين "الإسلامية" و "السرية" ، كانت لديهم قوائم خاصة محددة ، كلها تضم أسماء الأسر ذات الأنساب الأرستقراطية و الألقاب العشائرية ، عائلات الضباط السابقين في جيش كسار و مخبراته و مدراء مؤسسات حكومته المنحلة و أصحاب الكفاءات العلمية العالية ، و رجال الدين المسلمين التقليديين ، و للتغطية على هذه القوائم كانت هذه الأرتال تستهدف عشوائيا كل مسلم أو مسلمة تصل أيدي مقاتليها إليهم ؛ لقد هاجموا المساجد و البيوت أحرقوا ضحاياهم و هم أحياء و طبخوا أطفالهم

و أطعموا الآباء لحوم صغارهم ، نهبوا كل ما وجدوه في طريقهم من غال و رخيص ، و حولوا أحياء المسلمين إلى ما يشبه المسالخ الكبرى التي تعمل ليل نهار و تتدفق الدماء منها بغزارة على مدار الساعة.

كان المسلمون في أورك قد فقدوا معظم رجالهم من المحاربين و القادة العسكريين المهرة في ما عرف بـ "عام المقاومة" ، و مع هذا تحرك منهم الألوف من أقاليم الوسط نحو المناطق التي نُكبت بغزو النسخة السلبية للجيش الأسطوري ، إلا أن وولتر كان أسرع منهم فدفع إلى خط المعركة الأول أرتال الجيش الأسطوري من أتباع النسخة النجدية ، هذه الأرتال أيضا كانت تملك قوائم إعدام بأسماء قادة مجتمع أتباع الديانة السرية ، من أصحاب الألقاب العشائرية و أصحاب الكفاءات العلمية ، و قوائم أخرى بأسماء و هويات أبناء الطبقة الراقية من مسلمي أورك.

تحوّلت مدن أورك الواقعة في المناطق المختلطة بين الديانتين إلى ما يشبه مدن الموتى الأحياء المتوحشين التي تظهر في أفلام الرعب الهوليوودية ، و وقعت في تلك المناطق مئات المجازر الضخمة ، أصغرها كان عدد ضحاياها بالمئات ، نصبت الحواجز على الطرق و كانت توقف السيارات بأنواعها عشوائيا ، و يتم تدقيق هويات الركاب و يتم فصلهم بحسب ديانتهم ، ثم يعدمون بوحشية و يدفنون في مقابر جماعية ، تحوّلت المشافي إلى مسالخ و نصبت طواحين آلية لطحن الجثث و رميها في أنهار أورك العظيمة ، و صار الجميع يتحسر على زمن حكومة كسار الجميل !!.

كانت قوات الأمريكيين و حلفائهم تتفرج على ما يحصل في البداية ، ثم أمر وولتر هذه القوات بالتدخل بشكل فج لمساعدة أتباع الديانة السرية و تأمين التغطية لهم ، هذا الأمر أعاد نقمة المسلمين على الغزاة إلى التآجج ، و أيضا و بأمر من وولتر سبقت أرتال الأسطوري نقمة أبناء أورك من العرب المسلمين ، و انطلقت أرتال الإنتحاريين من جنود النسخة الثالثة نحو العربات الأمريكية لتدمرها.

وجد المسلمون من أبناء أورك أنفسهم في مسار إجباري وضعه لهم وولتر بحنكة ، كان عليهم أن يلتحقوا بأرتال الجيش الأسطوري إن أرادوا الدفاع عن أنفسهم و الإنتقام من أتباع الديانة السرية و من الغزاة الأمريكيين و حلفائهم ، و كان عليهم أن ينصتوا لقاداته و دعائه و لتعاليم النسخة النجدية للإسلام التي صنعتها ببراعة فائقة منظومات البارونات في جامعات أوربة ، لم يكن بمقدور من يرفض هذا الخيار الأوحده أن يحصل على أي سلاح أو معلومات قتالية أو استطلاعية أو حتى على عناية طبية أو معاشية.

بهذا صارت الحرب كلها بين أرتال الجيش الأسطوري بنسخته السلبية و الإيجابية ، قائد الحرب هو الجنرال وولتر ، و ضحايا الحرب هم الطبقات الراقية من أبناء أورك بغض النظر عن ديانتهم ، إضافة إلى مئات آلاف العزل ليكمل تمويه المشهد ، و حتى يستمر زخم التعاطف مع الجيش الأسطوري وقعت عشرات الهجمات الإنتحارية على دوريات الأمريكيين التي كانت

تطوف في شوارع أورك لا غاية لطوافه سوى أن تكون أهدافا للإنتحاريين من جنود الجيش الأسطوري و لفرق مهندسي المتفجرات التابعة له.

سقط في هذه الحرب أكثر من عشرين ألف جندي أمريكي ، و أصيب مثلهم بعاهات دائمة ، أخبار هذه الخسائر الأمريكية كانت الحافز الأكبر لإنخراط المزيد و المزيد من شباب المسلمين في أرتال الجيش الأسطوري بنسخته النجدية.

في لقاء لي مع وولتر سألته بحرفية الرجل العسكري قائلا : لماذا تتم تصفية الطبقات الراقية من سكان أورك ؟ و لماذا تصعد من أمجاد الجيش الأسطوري على جثث الجنود الأمريكيين ؟ ألا تخشى من أن يتعاضم أمر هذا الجيش حتى يخرج عن السيطرة .؟؟

ضحك وولتر من كلامي كثيرا و قال : إنه سر سبارتاكوس يا عزيزي ، هو ما يبذل كل هذه المخاوف .

أدرت رأسي متسائلا : و ماهو سر سبارتاكوس ؟.

قال وولتر : هل تعرف قصة هذا الوحش الغبي ؟.

قلت : و من لا يعرفها ؟ لكنني لا أعرف سر سبارتاكوس هذا !.

قال وولتر : سبارتاكوس هذا عبد مملوك تجمعت لديه بالصدفة قوات هائلة تقدر بمائة ألف مقاتل عنيد و متدرب ، و كانت لديه الأسلحة الكافية لهؤلاء الرجال الشجعان ، و كان قريبا جدا من معظم مدن الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، و كان قادرا على سحق روما خلال أيام فقط لو أنه هاجم العاصمة أو استولى على عدد من المدن الرومانية الكبرى ، و كان هذا متيسرا له ، فالعبيد و عامة الشعب الروماني كانوا يؤيدونه و مستعدون للإلتحاق بجيشه ، إلا أنه لم يفعل و أصر على أن يقاتل خارج مدن الرومان و في البراري غير المعمورة .

قلت : فعلا هذا كان خطأ قاتلا فلقد أتاح لأرستقراطية روما فرصة حشد القوات النظامية و إرسالها إلى تلك الجبال و الكهوف التي كان يأوي إليها مع أتباعه و أنصاره ، فلماذا فعل هذا ؟.

قال وولتر : لأنه لم يخلق ليكون ملكا !.

قلت : و هل يوجد أناس خُلقوا ليكونوا ملوكا ؟.

قال وولتر : طبعاً ، كالنحل و النمل و كسائر الكائنات الأخرى على وجه الأرض ، يوجد أناس خلقوا ليكونوا ملوكا كما أن ملكة النحل و ملكة النمل و كبيرة قطيع الفيلة خُلقن للقيادة و الرئاسة ، أيضا هناك رجال خلقوا لهذه المهمة.

قلت : كنت أظن أن الذين يملكون القوة و الشجاعة و المهارة للحرب هم المؤهلون طبيعيا ليكونوا ملوكا و أرسقراطين !
هل من أوصاف إضافية لهذه ليتأهل الإنسان للقيادة ؟.

أجاب بحسم : طبعاً ، إنها القدرة العقلية و الكفاءة النفسية و هي الأساس ، أنا اليوم قائد لملايين الجنود الذين لا يعرفون بوجودي أصلاً ، و مع هذا لست أقواهم جسدياً و لست أمهرهم في الرماية ، و لست أشجعهم ، لكنني بلا شك أكثرهم عقلاً و دراية بأمور القيادة.

قلت : هل كان سبارتاكوس فاقدا للحكمة و الدراية العسكرية ؟ لقد هزم عدة حملات رومانية ، و استنزف روما حتى كادت تنهار !،

قال وولتر : و هذا هو سر سبارتاكوس ، لم يفكر هذا الرجل يوماً بأن يستولي على إحدى المدن الرومانية و أن يشكل فيها مملكة لنفسه و لو فعل إذا لصار شريكاً في حكم روما تماماً كما فعل "سولا الخظوظ" الذي تحول من متمرّد هارب كسبارتاكوس إلى حاكم مطلق لروما كـ "نيرون" ؛ كل ما فعله سولا هو أنه أمسك رأس الإمبراطورية الرومانية و هو شيوخها الأرسقراطيون و جعلهم رهائن عند جنوده ، ثم أقنعهم بالخضوع له باستعمال الترهيب و الترغيب ، و قتل من جنود روما الألوف ، و مع هذا استقال طوعاً و مات مجداً و لم يتجرأ أحد على أن يلاحقه بجرائمه.

هل تعرف لماذا ؟ لأن النحلات العاملات لا يخطر ببالهن أبداً أن يقتلن الملكات ، و لأن النملات العاملات كذلك ، و لأن الفيلة الصغار و الذكور لا يفكرون أبداً في قتل الأنثى الكبرى قائدة القطيع ، ذلك لأنهم لا يستطيعون أبداً مهما اكتسبوا من الخبرات أن يصيروا ملوكاً ، تماماً مثل سبارتاكوس ، سولا كان ملكاً و قائداً بتكوينه ، و سبارتاكوس كان ثوراً للحرابة و الفلاحة بتكوينه ، قد يقتل الثور أسداً ، لكنه لا يصير أبداً ملكاً للغابة ، لأنه لا يطمح لهذا ببساطة و لا يعرف كيف يصبح ملكاً.

انظر لتاريخ المسلمين أنفسهم ، لقد ثار الزوج و العبيد في بلاد أورك أيام الإمبراطورية العباسية ، و لكنهم أبعدوا و انتهوا و لم يقيموا محكمة و لا مخفراً لشرطي واحد ، و لم يفكروا أبداً بالزحف إلى العاصمة و لو أنهم فعلوا لما وقف في وجه قوتهم شيء ، لكنهم توقفوا حيث هم و راحوا يثبتون لأنفسهم أنهم أكفأ لسادتهم الذين ثاروا عليهم ، بماذا ؟ بمجرد التصدي لحملات الإخضاع المتتالية التي وجهها إليهم سادتهم !!. بينما ثار الهاشميون على أبناء عمومتهم الأمويين ، و انتصروا عليهم نصراً ساحقاً دون تراجع و في زمن قياسي جداً ، لماذا ؟ لأنهم قاتلوهم كملوك و لم يحاربوهم كعبيد يبحثون عن الحرية و اللقمة و الكرامة ، و ثار أمير أموي على إمبراطور عباسي في أوج مجده و انتزع منه حكم شبه جزيرة أيبيريا كلها و لم يقدر الإمبراطور على سحقه ، لأن هذا الأمير ثار كملك و أمير ذو نسب نبيل و ليس كعبد آبق هارب من سيده.

قلت : لقد فهمت جيدا .

قال : لقد أبدنا النحلات الملكات في جميع خلايا المجتمع في أورك ، و مهما تجمع في أرتال الجيش الأسطوري من أعداد من المقاتلين المهرة و الشبان الشجعان فلن يشكلوا أي خطر على سلطتنا ، لأنهم لن يتوجهوا أبدا إلى عاصمة أورك ، و حتى إن استولوا عليها فلن يعرفوا كيف يحولوها إلى مملكة تجند الجيوش و تقاتل من أجل السيادة على أرضها ، و لن يعرفوا أبدا معنى للنصر سوى سلب غنائم القتلى و نهب بيوت الهاربين من وجههم ، و مهما تركناهم ليتوسعوا و يتضخم عددهم و يعظم نفوذهم فلن يكون لهم سوى مصير سبارتاكوس و رفاقه ، سيصلبون جميعا ليكونوا عبرة خالدة في أذهان كل المسلمين ، عبرة لكل لمن يفكر في أن يتخلص من العبودية و يصبح سيدا حرا كما كان أجداده يوما .

قلت : نعم تماما ، بدون تلك الطبقات الراقية ستكون كل الثروات و الإنتفاضات و الفورات و الهيجانات و القلاقل مجرد "طبخة حصى" لن يأكل منها طابخها إلا أسنانه و لحم لثته.

ضحك وولتر طويلا و قال لي : مهران بك لقد أسست أنت عشرات من الأسر الحاكمة ذات الأصول الوضيعة هل وجدت منهم من يقدر على التصرف بأي شيء من سلطته دون توجيهاتنا ؟.

قلت بحزم : لا و لن يوجد منهم أحد مؤهل لهذا أبدا ، و لو درس في كل جامعات الدنيا و كل قصور الحكم في أوربة بقية عمره.

تطورت الأمور في بلادنا باتجاه تغييرات حادة تحمل الكثير من المجازفة ، تغييرات سرية كانت تعاكس تماما الصورة الظاهرة للسياسة العامة ، هذه التغييرات تم التأسيس لها دون عقبات ، ذلك أن معظم هذه التغييرات بدأ تنفيذه خلال الفترة الصاخبة من حروب نسختي الجيش الأسطوري في أورك ، و تحت غطاء ضجيجها الذي يصلك الآذان ، هذه التغييرات كانت عبارة عن عملية كبيرة مجدولة هدفها شغل كافة مناصب الحكومة و المؤسسات في البلاد بأتباع الديانة السرية ، طبعا بعد إقصاء كافة المسلمين عن هذه المهام ، ضمن هذه العملية أطلقت حملة لدمج كافة أتباع الديانة السرية تحت إدارة مؤسسة دينية واحدة مقرها في عاصمة الدولة الآسيوية التي تتبنى الديانة السرية ، "بارسيا".

بدأت الحملة خطواتها العملية بموت المفتي "الجمعي" بطريقة "طبيعية" ، و تم تسليم المؤسسة الدينية بالكامل لشيوخ يدينون باطنيا بالديانة السرية النسخة البارسية و يظهرون أنهم مسلمون تقليديون ، و حتى المؤسسات الدينية لأتباع الديانة السرية في بلادنا تم تسليمها للبارسيين ، و انطلقت بقوة حملات الدعوة شبه السرية لنشر لديانة السرية ، كانت الأجواء بين المسلمين و غيرهم مهياة تماما لنشر أي دعوة جديدة على بلادنا مهما كان نوعها ، و دون عقبات أو مقاومة تذكر ، فرجال الدين المسلمين التقليديين كانوا مشغولين بلقمة عيشهم المكلفة الباهظة ، و خائفون مرعوبون من التنكيل و العقوبات الفظيعة ، و

لهذا كانوا عاجزين تماما عن التصدي لهذه الحملات علنا ، و إن كانوا في الواقع يتصدون لها بكل ما يستطيعون سرا و همسا ، و فوق هذا كان العامة قد تخلوا عنهم تماما و لم يعودوا يصغون لهم.

التغيرات الآتية أمر البارون بنفسه باتخاذها بعد سلسلة مشاورات مع كبار أبناء عشيرته ، و تم تنفيذها على مراحل و خلال ثلاثة أعوام متتالية صاحبت حرب أورك الداخلية ، تم التضييق على جميع ذوي المناصب العليا من المسلمين ، و أجبروا على حضور محاضرات و اجتماعات دعوية لشيخ متخصصين من أتباع الديانة السرية ، هذه المحاضرات كانت مليئة بحوارات و نقاشات تركز كلها حول نقطتين أساسيتين بنيت عليهما الديانة السرية ، النقطة الأولى :

هي المزاعم بأن كل الرعيل الأول من المسلمين كانوا متورطين في مؤامرة هدفها القضاء على أبناء السلالة المقدسة ! و أن هذا الرعيل بكامله قد خرج من دين الإسلام الحقيقي بسبب هذه المؤامرة ! و أن كل من يؤمن بتراث هذا الرعيل أيضا خرج من دين الإسلام الحقيقي و صار "مرتدا" أو "مجدفا" أو "منافقا".

النقطة الثانية : أن السلالة المقدسة هي وحدها الوارثة لتعاليم دين الإسلام الحقيقي ، و أن هذه السلالة أعادت نشر تعاليم هذا الدين سرا بسبب ارتداد الجيل الأول و ما تلاه من المسلمين عن دين الإسلام ، و أن أبناء هذه السلالة هم أعظم البشر قداسة ، و هم أعظم قداسة من الملائكة و الأنبياء و كل المقدسات ، بل و حتى من كتاب الإسلام المقدس ، و أن الإله الخالق فوض إليهم أقدار الخلق.

هذه الأفكار لم تأتي في الواقع من فراغ ، كنت قد لقيت البروفسور هنري منذ عقود خلت أثناء رحلة صيفية إلى شاطئ أوربي جنوبي ، و سألته كثيرا عن أصل فكرة الديانة السرية ، و من أين نبعت أفكارها ، و أجابني الرجل بإسهاب و تطويل ، و ذلك خلال عدة لقاءات على ولاثم من الأصناف البحرية الرائعة و النبيذ المعتق ، هذه الولاثم كنت أقمته خصيصا على شرف هنري ، فقط لأسمع منه ، فهو الرجل الذي ادعى أنه اعتنق الديانة السرية و يعرف باريسا جيدا جدا و يتقن لغتها و مطلع على كل تراثها تقريبا ، و فوق هذا كان هنري على اطلاع كامل على علاقات البارون و منظوماته بالديانة السرية و أتباعها.

لا زلت أذكر أهم ما جاء في كلامه ، سألته عن أصل الديانة السرية الحقيقي ، فأجابني جوابا طويلا جدا ، في بداية كلامه نظر إلي نظرة مازحة و قال بصوته الهادئ :

أنا لا أؤمن بفكرة الروح و الجسم ، و لكنني متأكد من أن الديانات كلها التي اخترعت هذه الفكرة لها أرواح و أجسام. قلت مبتسما : و لماذا تحتاج الأفكار إلى أجسام ؟.

قال هنري : أجسام الأديان هي القوانين بأنواعها ، قوانين العقاب و الأموال و الأحوال الشخصية و ما إلى هنالك ، الحقيقة يا كولونيل مهران أن جميع القوانين في حياة البشر صنعتها الأديان ، أو هي من ثمرات الأديان دون شك ، حتى القوانين التي تحكم الدول "اللاينية" في أيامنا هذه نبعت أصلا من أديان.

سألته باهتمام : فما هي أرواح الديانات ؟.

قال هنري بلهجة قاطعة : الإيمان بالعالم الآخر ، عالم ما بعد الموت .

قلت : نعم فهمت ، إن إيمان المتدينين بمكافآت و عقوبات العالم الآخر هو الذي يجعلهم يطيعون القوانين في غياب عيون الرقيب ، و هو ما يضمن تسعا و تسعين بالمائة من مهمة حفظ الأمن و سيادة القانون .

هز هنري رأسه موافقا و تبسم بسرور ، ثم تابع قائلا : سهّلت عليّ الشرح ، فإذا أردت أن لا تطيع قانونا ما عليك إلا أن تفرغه من روحه و تتركه جسدا ميتا ، و إفراغه من روحه يكون بقطع العلاقة في أذهان العامة بين هذا القانون و بين العالم الآخر .

النهم محدثي قطعة كبيرة من جراد البحر و مضغها جيدا و أتبعها برشقات من خمر معتق و هو يتلمظ متلذذا ، ثم تابع قائلا : الديانات الإبراهيمية المتلاحقة صنعت قوانين قاسية و متشددة جدا ، لكنها قوانين نجحت في صنع أمم و حضارات كبرى ، و على الرغم من الإيجابيات الكبيرة لهذه القوانين إلا أن البشر كانوا يسعون بصمت للتخلص من قبضتها ، لأن الإنسان في النهاية حيوان يبحث عن إشباع غرائزه بنهم ، تماما كباقي الحيوانات و أكثر ، حتى و إن غلبت عليه سيطرة العقل و مفرزاته ، و لهذا تجددت الديانات الإبراهيمية مرارا على يد من نسميهم "أنبياء" ، الأمر الذي دفع لهذه التجديدات أن القائمين على هذه الديانات كانوا يفرغون قوانين دياناتهم من أرواحها بالتدرج البطيء ، فكانت تصل دوما إلى إباحة كل ما حرّمته تلك الديانات في نهاية الأمر مقابل طقوس أو أموال يدفعها من فعل تلك المحرمات ، هذا التفريغ تم باستعمال أدوات جراحية دقيقة .

قلت : ما هي الأدوات التي تتحدث عنها ؟.

قال : إنها إستنتاجات من حرفية نصوص هذه الديانات المقدسة ، هذه الإستنتاجات تستخرج بمهارة من ظواهر ألفاظ النصوص ، ثم تتحول إلى أدوات تقطع علاقة القوانين التي تستخرج من تلك النصوص بالعالم الآخر ، و سأعطيك مثلا قريبا إلى معرفتك :

تعتبر الخمر محرمة في الإسلام ، و لكن تحريمها جاء في كتاب الإسلام المقدس "القرآن" بجمل تتضمن تعليقات لحزمة الخمر ، هذه التعليقات هي مخاطر الخمر على العلاقات بين المؤمنين ، على الرغم من قصر هذه العبارات إلا أن المؤمنين امتنعوا عن الخمر تماما لأنهم فهموا من تلك النصوص و غيرها أن شرورا أخرى تختبئ وراء تعاطي الخمر سوى تلك التي ذكرها كتابهم المقدس ، و فهموا من النهي الوارد في القرآن ؛ أن العقاب سيزترب على متعاطي الخمر في العالم الآخر .

إذا أردت أن تفرغ هذا القانون من روحه فليس عليك أن تلغي العقوبة المادية لشرب الخمر ، فقط عد إلى ظاهر ألفاظ تحريم الخمر في كتاب الإسلام المقدس ، و فسرهما بمكر باحثا عن استنتاجات من هذه الألفاظ تخفف أو تلغي عقوبة تعاطي الخمر في العالم الآخر ، و تستطيع أن تستعمل تعليقات التحريم نفسها الواردة في تلك النصوص لجعلها أسبابا للإباحة ، فلو قلت

هب أن متعاطي الخمر تجنب الإساءة للآخرين عندما يكون تحت تأثير الخمر فهل سيكون مرتكبا لأية جريمة ؟ الجواب سيكون بالنفي لأن العلة التي حرمت الخمر من أجلها لم تقع منه ، فما على المؤمن إلا أن يشرب الخمر في مكان منعزل و يحرص على عدم الإختلاط بالآخرين حتى يتجنب عقاب الإله في الآخرة لشاربي الخمر.

إنتشار فكرة كهذه أمر سهل بين عامة المؤمنين لأنهم أناس بسطاء ، ليست لديهم معرفة بالنصوص المقدسة و معانيها و كيفية استخراج القوانين منها ، و لا يقدرّون أبعاد انتهاك حدود هذه القوانين ، فإن اقتنع كثيرون بهذه الفكرة ستجد أن الخمر تنتشر في أكثر مجتمعات المسلمين محافظة و تشدداً ، و لكن سيكون تعاطيها لفترة عملا سرياً بيد أنه شائع و كأنه علني ، و ستزدهر تجارة و صناعة الخمر في ذلك المجتمع ، ثم سيصبح عملاً علنياً لأنه صار أكثر بكثير من أن تقدر السلطات على احتوائه مهما كانت متشددة.

قلت متعجلاً على غير عادي : ما علاقة هذا بالديانة السرية ؟.

قال هنري : الديانات الإبراهيمية المتتالية تحطمت بهذه الطريقة ، و تجددت و ازدادت تشدداً عند كل تجديد لمعكسة هذه الطريقة التفتيتية ، و لكنها تساقطت جميعها بعد كل تجديد قبل أن يظهر من يعرف بـ "يسوع" في أرض السلام ، لقد ظهر يسوع في شعب له ديانة ميتة تماماً ، قوانينها كلها منتهكة و ملغية بصورة شبه علنية ، لأن هذا الشعب كان قد قطع كل علاقة لديانته بالعالم الآخر ، لقد كانوا و لا يزالون يؤمنون بأنهم أبناء الإله المدللون ، و أنهم خلقوا وحدهم بأرواح البشر ، و أن كل من سواهم من الناس أرواحهم أرواح بهائم ، و كانوا يؤمنون بأنهم سيعودون إلى الحياة بعد موتهم بأن تدخل أرواحهم في أجساد مواليد جدد من شعبهم ، حتى الأشرار منهم و الذين تخلوا تماماً عن إيمانهم بديانتهم تلك سيعودون إلى الحياة السعيدة الأبدية على هذا الكوكب ، لأن أجسادهم نشأت من نطاف تلك السلالة المدللة ، هؤلاء الأشرار ستعذب أرواحهم في نار خاصة مدة عام واحد حتى تغسل من الآثام ، ثم يعودون إلى الحياة ، لكن عودتهم ستكون في نهاية التاريخ عندما يظهر ملكهم المقدس و يحكم العالم كله بقوة السحر الإلهي ، و يجبر بقية الناس من غير أبناء شعبه على البقاء عبيدا لشعبه ، سيجبرهم بقوة السحر و سيكونون عبيدا مطيعين لشعبه كالدواب الأليفة السلسة.

اعتدل هنري و نظر إلى ليراقب تأثير ما سيقوله علي ، ثم قال : هل تعرف لماذا كل هذه العقائد المعقدة جدا ؟. قلت مستفهما : كنت سأسألك هذا السؤال ، لماذا ؟.

قال و قد رفع حاجبيه : ليقتلوا قوانين ديانتهم طبعاً ، لقد استباحوا كل محرمات هذه الديانة بالإلتفاف عليها ، مستعينين بالحيل اللفظية المضحكة كتلك التي ضربتها لك مثالا ، و صارت مهمة رجال الدين هي إرشادهم إلى ما يجب عليهم دفعه أو قوله حتى تصبح استباحتهم لهذه المحرمات أمراً سائغاً و مشروعاً و قانونياً في الديانة ، أي بلغتكم "حلال" ، فمثلاً إن سرق أحدهم أو قتل أو مارس الجنس مع امرأة بغير زواج فما عليه إلا أن يأتي لرجل الدين ليرشده إلى ما يغسل به عن روحه تلوثها

بـ "الإثم" ! حتما لن يرشده رجل الدين إلى إعادة ما سرق أو تسليم نفسه ليعاقب على قتله لإنسان بريء ، و إنما سيرشده إلى دفع أتاوة للمعبد و تلاوة صلوات خاصة و أداء بعض الطقوس و ينتهي الأمر ، فأين هي قوانين الدين الصارمة التي قاتل من أجل فرضها أنبياء هذا الشعب مرارا و تكرارا ؟.

أشرت برأسي موافقا ، ثم سألته أيضا بتعجل : ما علاقة هذا بالديانة السرية ؟.

قال هنري بعد أن عاد لجلسته المريحة و ارتشف شيئا من كأسه :

اصبر لتعرف ، هل تعلم يا كولونيل أن رجال ديانة هذا الشعب قد حووا من نصوص كتبهم المقدسة كل ما له علاقة بالعالم الآخر ؟ لقد أبقوا فقط على نصوص مقتضبة تشير إلى حياة أخرى لكنها تحتل الكثير من المعاني ، و الواقع أن معظم هؤلاء كانوا لا يؤمنون أبدا بالعالم الآخر ، لقد تحداهم يسوع و جاء إليهم بكتاب مقدس إضافي لإعادة ما محوه من كتبهم ، كل ما في كتابه كان عن العالم الآخر و إثبات أن الناس سيعودون إلى الحياة بعد موتهم في يوم الدينونة ، و أنهم سيعاقبون على مخالفتهم للقانون "الإلهي" و أن المطيعين سيثابون ، و العقاب أبدي و الثواب أبدية .

قلت : لكن يا بروفيسور لا توجد أية قوانين دينية في المسيحية.!

قال هنري مبتسما : عجيب أن يخفى عليك يا كولونيل أن المسيحية جاءت لإعادة فرض قوانين الديانات الإبراهيمية التي سبقتها ، مع بعض التخفيفات ، و أن المسيحيين التقليديين لا يزالون يطبقون على أنفسهم الكثير من القوانين الدينية للديانات الإبراهيمية المتعاقبة .

قلت : لكنني لم أرَ من المسيحيين ذلك التمسك بقوانين دينهم ، التي تتحدث عنها ، على عكس بقية أتباع الديانات الإبراهيمية .

قال هنري : تحقق هذا في المسيحية لأن أحد أسلافنا العظماء تدارك هذا الأمر ، و استطاع أن يفرغ كافة القوانين المسيحية من روحها بضربة واحدة ! إنه باولو ؛ أذكى رجل في التاريخ ، لقد كان العبقرية المتجسدة في رجل .

صمت هنري قليلا ثم شرع يحدثني عن "أذكى رجل في التاريخ" فقال : علم باولو أن جسد يسوع قد اختفى و لا يعرف مكانه ، و باستعمال هذه القصة ابتكر محرزا أسال دم المسيحية كله و جعلها مرة أخرى جسدا بلا روح حتى قبل أن تصبح ديانة رسمية لأي أحد ، لقد زعم أن يسوع قد ظهر له بعد اختفائه ، و أنه أمره بأن يخبر الناس بأن يسوع في الواقع "ابن الإله" و أنه حوكم و نُكل به رغم قدسيته ليسدد بآلامه فاتورة الآلام و العذاب عن كل أتباعه ، تلك الآلام التي يفترض أن يعانونها عقابا على انتهاكاتهم لقوانين الإله ! نعم يا كولونيل ؛ لقد عادت المسيحية بهذه الفكرة إلى نفس وضع ديانة شعب يسوع الميتة ، تلك الديانة التي ضحى يسوع بكل شيء من أجل أن يعيد إلى قوانينها الحياة بأن يربطها بالعالم الآخر من جديد .

وقف هنري و راح يحرك يديه و جسده و كأنه يمثل على المسرح و هتف بصوت عالٍ :

باولو عبقرى لم يعرف التاريخ مثله ، كلنا عالة على عبقريته ، لقد استعمل غاية يسوع نفسها سلاحا حطم به اليسوعية ، لقد حول المسيحية إلى دين غايته الوحيدة هي الخلاص في العالم الآخر فقط ، و هذا ليس إلا نصف ما جاء يسوع لأجله ، لأن يسوع جاء ليجعل الخلاص في الدينونة بإحياء قوانين الديانات الإبراهيمية في هذه الحياة ، جاء لجعل طاعتها سرا و جهرا في هذه الحياة سببا للخلاص في العالم الآخر ، اختطف باولو فكرة الخلاص في الآخرة و عزها عن تلك القوانين القاسية ، بفكرة بسيطة هي أنك لو خالفت تلك القوانين الإلهية فلا عليك و لا تقلق لأن يسوع العظيم جدا قد دفع عنك ثمن مخالفتك و تلقى العقاب بدلا منك ، لأنه يحبك و يقدر على تحمل هذا الكم الهائل من العذاب بدلا عن أحبابه و المؤمنين به ! فإذا خالف تلك القوانين المرهقة و أنت مرتاح البال بشأن العالم الآخر ، أما بخصوص عواقب المخالفة في هذا العالم فما عليك إلا أن تخالف هذه القوانين دون أن يراك "قيصر" أو أحد أعوانه.

جلس هنري و تابع بحماس قائلا : باولو أعظم العباقرة ، حين سأله بعضهم : ألا يستطيع الإله الخالق أن يسامح الخاطئين من البشر دون أن يجعل ابنه يتحمل كل هذه الآلام بدلا منهم ، أليس هذا سهلا عليه ؟ أجابه باولو : إن الإله الخالق لا يحنث و لا يبدل أوامره ، لأنه إله و لقد ملأ كتب الديانات الإبراهيمية بأشد الوعيد بالعقاب لمن عصاه ، و حتى لا يحنث و لأنه أحب البشر رغم أخطائهم أراد أن يتصل من تعذيبهم دون يتخلى عن تنفيذ وعيده فيهم ، فأخرج ابنه من رحم امرأة من البشر ليكون إنسانا ، ثم سلط عليه كل الآلام التي توعده بها الخاطئين ليكون وعيده قد وقع على إنسان بشكل ما ، فوقع وعيده كله ، و نجى البشر الخاطئون من طائلة هذا الوعيد !!.

بهذا الجواب زواج باولو بين المسيحية و الديانات الإبراهيمية السابقة نصف تزواج ، حمل صرامة الكتب المقدسة السابقة ليسوع ، و أضاف إليها نصف فكرة العالم الآخر ، هذا النصف هو السعادة فقط ، الثواب فقط ، دون العقاب لأن العقاب كله تحمله الإله نفسه ، كالذي يحب أولاده جدا ، فأغضبوه جدا ، لكنه في عز غضبه عليهم أخذته الرقة عليهم و الرحمة بهم ، و بدل أن يبطش بهم فرغ غيظه في نفسه ، و نفس عن غضبه بإيلاء نفسه بأن عض يده أو ضرب الجدار ، و هكذا يسوع هو الإله الخالق نفسه أو جزء من هذا الإله ، هو يد الإله الأخرى التي ضربها الإله بيده الغاضبة لينفس عن غضبه. قلت : الحق أقول لك يا برفسور لم أفهم أبدا فكرة الصلب و الفداء كما فهمتها منك الآن ، نعم باولو كان عبقرى جدا ، لقد عقد المسيحية عقدا كثيرة جدا و متتالية و متماسكة بحيث أنه أبعداها تماما عن فكرة إحياء قوانين الديانات القاسية. صفق هنري ، ثم قال : أظن أنك فهمت الآن أصل الديانة السرية .

قلت : نعم إنه بلا شك باولو آخر .

قال هنري بحسم : أرجوك ، لا هو مجرد تلميذ نجيب من تلامذة باولو ، لقد قلد جد آخر لنا ما فعله باولو ، إلا أنه لم يستطع أن يطبق على نبي الإسلام ما طبقه باولو على يسوع ، فطبق أفكار باولو على ابن عم و ربيب نبي الإسلام ، هذا التلميذ كان أيضا عبقرى فذا ، فلقد زعم أنه مسلم شديد الحرص على الإسلام ، و أنه أراد للإسلام أن يستمر بنسخته

الأصلية الوحيدة ، نسخة نبي الإسلام ، هذه النسخة التي يحملها كلها شخص واحد دون نقص أو سوء فهم ، إنه وريث النبي الأوحى ، إنه ربيب النبي و ابن عمه و زوج ابنته و والد سلالة النبي الوحيدة من ابنته ، لقد كان سهلا على جدنا هذا ترويح نفسه عند البسطاء من المؤمنين بهذه الفكرة ، و هذا الزعم فتح له الباب مشرعا ليصمم كما يشاء النسخة الأصلية الوحيدة للإسلام ، النسخة التي أصبحت سرية لأنها النسخة "المضطهدة" باضطهاد الوارث الذي يحملها ، و باضطهاد ورثته من بعده .

لقد جعل جدنا تلك النسخة من الإسلام عبارة عن نسخة مكررة من المسيحية التي صنعها باولو ، قوانين ميتة ، و دينونة لا عقاب فيها للمؤمنين بألوهية هذا الوريث و سلالته المقدسة جدا ، نسخة كلها عبارة عن حيل لفظية توصل إلى إباحة كل محرمات الإسلام الحقيقي ، و طبعا أسطورة أخرى عن الفداء و المخلص المقدس الغائب تبلورت لاحقا و على عدة نسخ متباينة صنعت منها مذاهب الديانة السرية المتنوعة ، فقط تم تبديل الأسماء المسيحية العبرية بأسماء عربية إسلامية .
يا عزيزي لقد جاء من نسميهم أنبياء بأديان رسمت صورا واضحة بالأبيض و الأسود لمجتمعات متدينة محكومة بقوانين صارمة ، و لقد صنع أجدادنا في المقابل صورا سلبية لتلك الديانات أيضا بالأبيض و الأسود ، تبدو من بعيد مطابقة للصور التي رسمتها الديانات ، لكن المشاهد يرى بوضوح عندما يقترب منها أنها تعاكس تماما تلك الصور الأصلية في كل شيء ، المجتمعات التي تصورها تلك النسخ المصنوعة مفككة و فاقدة للأمن و الاستقرار و السلام ، و كل قوانينها جوفاء ميتة لا يطاع منها قانون واحد إلا قانون الخضوع المالي لرجال الدين .

قلت متسائلا : لقد حكمت الديانة السرية مرارا في قلب عواصم المسلمين ، لكنها لم تقض على تدينهم و لم تنجح في فرض نفسها بديلا عن الإسلام ، فهل ستجح الآن ؟ .

عدل هنري جلسته و صار صوته جديا حين أجابني قائلا : لم يكن حينها لتلك الديانة سطح الماسة .
قلت : لم أفهم ! .

قال هنري : في كل الديانات هناك قانون هو الأصلب و الأقسى ، أنا أسميه قانون "سطح الماسة" ، إنه قانون "مكافحة التجديف" و اسمه في الإسلام قانون "مكافحة الردّة" و هو أقسى القوانين التي عرفتها الأديان ، فبموجب هذا القانون يعاقب الشخص الذي يقلع عن الإيمان بدينه بالقتل بأبشع الوسائل ، و يسلب ماله و يلغى زواجه و حتى جثته تدفن بعيدا عن مقابر المؤمنين ، و لا يسمح أبدا للقاضي أو الحاكم بالعفو عن هذا "المجذّف" الشقي ، و لا يسمح للمؤمنين بالتعايش معه أو التزواج معه ، فإن كان المجدفون كثرا كأن يكونوا قرية أو مدينة فيجب على المؤمنين أن يببّدوا أهل تلك القرية تماما دون رحمة ، و يعتبر قتال هؤلاء المجدفين حتى يببّدوا الواجب الأوجب على المؤمنين ، و هو أوجب و أهم بكثير من قتال الأعداء الذين هم من ديانات أخرى .

قلت : لماذا هذه القسوة المبالغ فيها ؟ .

قال هنري : لأن الديانات تعتبر أن الذي يؤمن بها ثم يجدف عليها مجرد "خائن" و عدو داخلي ، كما تعلم يا كولونيل ؛ فإن من أول بديهيات السياسة و الحرب أن الخائن أخطر على الأمن الوجودي من جميع الأعداء ، إن غاية هذا القانون هي حماية الديانات من الإضمحلال ، لولا هذا القانون ما عاشت ديانة على الأرض أكثر من قرن واحد.

قلت : و هل يوجد هذا القانون في الديانة السرية ، معظم المسلمين يعتبرونهم مجدفين ؟.

ضحك هنري للمرة الأولى في ذلك المجلس حتى قهقهه ، ثم قال : يا كولونيل الديانة السرية اليوم تقوم كلها على هذا القانون ، هذه الديانة تقوم كلها بالجملة على أساس أنها هي النسخة الحقيقية الوحيدة للإسلام ، و كل مذهب من هذه الديانة يعتقد أتباعه أنهم هم وحدهم الحملة للنسخة الأصلية الوحيدة للإسلام ، و جميع أتباع هذه الديانة يؤمنون بأن عليهم واجبا واحدا هو واجبه الأكبر إنه : تطبيق عقوبة قانون مكافحة الردة على جميع المسلمين على وجه الأرض ، لأن المسلمين خرجوا من إيمانهم بالإسلام عندما رضوا بأن يحكمهم أحد سوى وريث نبيهم و الحامل الأوحده للنسخة الأصلية الوحيدة لدينهم ، لم يكن هذا القانون في الماضي يستهدف المسلمين ، فقادة الديانة السرية كانوا يؤمنون بأن المسلمين أناس جهلة مخدوعون يجب أن يوقظوا و أن ينبهوا إلى أنهم يؤمنون بنسخة مزيفة على دينهم ، و لكن بعد قيام دولة الديانة السرية التركية في باريس منذ خمسة قرون تبنى أتباع الديانة السرية فكرة تطبيق قانون مكافحة الردة على المسلمين ، و نشروا دينهم بالقوة فخيروا كل مسلم تحت حكمهم بين أن يؤمن بديانتهم أو القتل ، تماما كمحاكم تفتيش الكنيسة في القرون الوسطى ، لقد قتلوا من أجل هذا ملايين المسلمين.

قلت : هم في هذا متطابقون مع أتباع النسخة النجدية للإسلام التي أوجدها عباقرة المنظومات ، لكن ما علاقة الماس بهذا القانون ؟.

قال هنري : حين اكتشف الماس لم يكتشفه أحد أجدادنا ، إلا أن مكتشفيه و معهم كل البشر عجزوا عن صقله لأنهم لم يجدوا ما هو أفسى منه ليقطعه ، إلا أن أجدادنا العباقرة قطعوا الماس و صقلوه و حولوه إلى جواهر للزينة بعد أن كان مجرد حجر يُقطع به الزجاج و تُحفر به المعادن ، لقد حكَّ أجدادنا سطح الماس القاسي بسطح الماس القاسي في أحواض الماء ، فأكل سطح كل ماسة سطح الماسة الأخرى الحنكة بها ، هكذا صقل أجدادنا الماس بالماس ، و عندما تطبق مجموعتان دينيتان على بعضهما قانون مكافحة التجديف ، قانون سطح الماسة ، فإنهما ستتآكلان و ستضمحلان في النهاية ، فإن كان احتكاكهما بدون تبريد فإنهما ستحترقان كما يحترق الماس إن حككناه ببعضه دون تبريد و بشكل متواتر و سريع. كما يحترق الماس إن حككناه ببعضه دون تبريد متواصل .

قلت بدهشة كتمتها : إن تأمين السيطرة اليوم للديانة السرية يعني أن قانون مكافحة الردة سيطبق على جميع المسلمين في العالم في يوم ما أليس كذلك ؟ أي بنفس الطريقة التي طبقها ملوك الترك من أتباع هذه الديانة في باريس.

قال هنري : أنا أوؤمن بأن هذا هو السبيل الوحيد للقضاء على التدين الإسلامي بعد أن قُضي على الأرستقراطيين المسلمين

، لأن التاريخ علمنا أن المسلمين لا يتخلون عن عنادهم وإصرارهم على تدينهم إلى درجة العدم إلا بنسبة ضئيلة جدا ، و لقد نجح وكلاء منظوماتنا في الجمعية الإسلامية و غيرها في إزالة هذا القانون من التدين التقليدي عند المسلمين من العامة ، فصاروا دون سطح صلب ، و عندما يحتكون مع السطح الماسي للديانة السرية سيتفتتون كما يتفتت الزجاج حين يحكه الماس ، و بعد أن ينتهي التدين الإسلامي سنحك مذاهب الديانة السرية ببعضها بعد أن نجعل لها جميعا سطوحا ماسية ، و ستطبق هذه المذاهب على بعضها قانون مكافحة التجديف و تضمحل بدورها حتى العدم . انتهى كلام هنري.

في الفترة التي لقيت فيها هنري أي قبل ثلاثين عاما من إجتياح أورك لم تكن فكرة السماح بدولة دينية من أي نوع مقبولة لدى البارون جيمس ، و لكن بعد وفاته و تولي البارون ياكوب صار الأمر واردا ، و فكرة هنري أصبحت من الخيارات التي يحتمل البارون اتخاذها عندما تضيق عليه المسالك .

بالعودة إلى فترة الحرب في أورك فإنه و بعد خمسة أعوام من بداية حملة نشر الديانة السرية في بلادنا اعتنق جميع المديرين تلك الديانة ، و جميع الموظفين الكبار و أفراد الأسر الحاكمة فعلوا ذلك ، و كلهم صار بشكل مباشر يتبع لسلطة رجل دين واحد هو القائد الروحي الأعلى لدولة بارسيا ، لقد كان هذا شرطا وحيدا لبقائهم في مناصبهم ، و لقد توجه عدد منهم علنا إلى بارسيا و التقى أمام الإعلام بالقائد الروحي الأعلى ، و هناك أعلن علنا أنه اعتنق الديانة السرية و خرج من دين المسلمين التقليديين .

كانت فترة مليئة بالعمل ؛ فترة الحرب بين أجنحة الجيش الأسطوري بنسخته الثالثة ، كنت خلالها مشغولا حتى أذني في الإشراف على حملات إرسال الشباب المجندين إلى جبهات تلك الحرب ، لم تختلف حملات تجنيد هذه النسخة من الجيش الأسطوري عن حملات سابقاتها ، كلها كانت تعتمد على ضباط بارعين تابعين لمنظومات مخابرات حكوماتنا الرسمية ، هؤلاء الضباط المنتكرون يعملون دعاءً للنسخة النجدية للإسلام ، و هم من يجذب الشباب إلى فكرة الإلتحاق بالجيش الأسطوري ، ثم يقوم فريق من الصيادين على شبكة المعلومات الدولية بإقناعهم بالإلتحاق الفعلي ، بعدها يسافر الشباب المجندون إلى محطات الإستقبال المتواجدة كلها في بلادنا و في بارسيا ، ثم ينتقل هؤلاء إلى معسكرات الإعداد الذهني و البدني ، و بعدها يتم إرسالهم إلى مواقعهم المفترضة ليلتحقوا بالعمليات الحربية ، هذه الآلية كانت تعمل بشكل ممتاز ، و مع متابعتي هذه المنظومة كنت مشغولا بمهمتي الأساسية ، تلك التي ورثتها عن والدي و هي : "تصميم الردود المفحمة على التساؤلات الخطيرة" ، فتلك الفترة كانت مفصلية و تحتاج إلى خدماتي الخاصة جدا ، في التفاصيل فإن مهمتي الكبرى تتضح في الآتي :

عندما تُتخذ أية خطوات أو قرارات كبيرة أو صغيرة ذات تأثير كبير ، نجد أن الكثير من التساؤلات المنطقية تقفز لأذهان العامة ، و هذه التساؤلات كلها في الواقع محققة و تستند إلى مبررات منطقية ، ترك حبال هذه التساؤلات على الغارب ، حتى يبحث العامة بأنفسهم عن إجابة لها يُعتبر مخاطرة كبيرة و مدمرة ، و لا بد من إيجاد آلية لمنع هذه التساؤلات من الوصول

بأصحابها إلى الحقيقة ، كانت هذه هي مهمة والدي العظيم ، تبدأ هذه المهمة بصناعة ردود على تلك التساؤلات ، ثم نشر هذه الردود عبر قنوات منظمة و دقيقة لتصل إلى آذان العامة .

هذه الردود يجب أن ترتدي ثوبا منطقيا و أن تكون في نفس الوقت قادرة على قلب المنطق و الواقع رأسا على عقب ، و يجب أن تكون قادرة على تجذير الأوهام في أذهان العامة بحيث تتسبب في ضبابية متراكمة في هذه الأذهان ، ضبابية تجعل قدرة العامة على التحليل الفكري السليم للأحداث أمرا شبه مستحيل مع مرور الزمن ، و مع تتابع الأحداث الغامضة ، ثم يصبح من المستحيل على أبرع الحكماء أن يبددوا هذه الأوهام و يعيدوا أذهان العامة إلى الوضع السليم ، هي مهمة تشبه صناعة مناظير مضللة و تثبيت هذه المناظير على عيون الناظرين إلى الأبد ، حتى أن انتزاعها قد يعني انتزاع عيونهم نفسها .

الأحداث التي وقعت خلال تلك الفترة كانت مفصلية و تاريخية و تمهد لتغيرات كبرى قادمة ، و كان علي أن أسيطر تماما على كل التساؤلات التي تفرزها تلك الأحداث ، و على ما تثيره هذه التساؤلات من حوارات تجري بين العامة في مجالسهم العلنية و السرية ، و أن أتحكم بهذه الحوارات تماما و بنجاح كبير ، كما فعل والدي العظيم على مر ثمانية عقود متتالية .

لقد ترك لي والدي قبل رحيله دليلا ضخما اعتمدت عليه كثيرا في عملي ، و جهازا ضخما من العاملين الأفذاذ ، و لقد تمكنت من تطويره و تكبيره بإضافة الكثير مما جمعته من دراساتي للإسلام و للتراث العربي المعاصر ، و مما جمعته من خبرتي العملية على مر عقود كثيرة أمضيتها في هذا الحقل ، الذي يعتبر الأكثر خطورة في كل الخارطة التنظيمية السياسية لبلادنا.

تبدأ مهمتي بقراءة التقارير الواردة إلي من فريق عملاء مكنتي الخاص ، هذه التقارير ليس فيها إلا نماذج عن الحوارات التي تدور بين العامة عن حدث أو قرار تم إتخاذه ، أو يجري الإستعداد لإتخاذه و فرضه قانونا ، هذه الحوارات يتم نقلها لي بحرفيتها الدقيقة ، و أقوم بدراستها بشكل عميق ثم أضع الردود عليها .

تقسم الردود التي أضعها إلى نوعين ، نوع إيجابي و نوع سلبي ، أما النوع الإيجابي فهو :

الذي يعمل على إفحام تساؤلات العامة و سدّ مسارات التحليلات الصحيحة للأحداث أمام أذهانهم ، و بالتالي إحباط ردود الفعل الصحيحة تجاه هذه الأحداث ، بحيث تصبح ردود الأفعال كلها تتراوح بين العجز و التسليم و بين الموافقة و التأييد.

أما الردود السلبية فهي : تلك التصريحات و البيانات الرسمية الحكومية ، التي يراد منها إثارة سخط العامة ، ثم توجيه سخطهم نحو الإقتناع بردود النوع الإيجابي الآنف الذكر ، و هي التي يشيعها عملاء مكنتي الخاص.

أضرب مثالا على ما سبق : عندما اجتاحت جيش كسار تلك الدولة الزيتية الصغيرة فرح العامة كثيرا في بلادنا ، و أظهروا الكثير من الشماتة بأهل تلك الدولة ، من المبدزين و المتكبرين ، لقد كان أهل تلك الدولة يؤمنون ببلادنا في الصيف و يستدلون العامة بنقودهم الكثيرة و العالية القيمة ، و كانوا يتعاملون مع الناس بكثير جدا من التعالي و التكبر و الإستفزاز ، هذا أثار حقدا عميقا جدا في نفوس المسلمين في بلادنا تجاه سكان ممالك خليج الزيت كلها.

هذه الشماتة أظهرها العامة أيضا تجاه أبناء بلادنا الذين يعملون في تلك الممالك عمالا أجراء مغتربين ، لقد غطت هذه الشماتة كثيرا على المنطقية في تحليل هذه الخطوة التي قام بها كسار ، و ذلك في بداية الأمر ، لكن و بعد قليل من تطور الحدث بدأ العقلاء في إكتشاف التحليلات الصحيحة للأمور ، فقال معظمهم : لو أن كسار أراد فعلا توحيد العرب و التخلص من تحكّم الأوروبيين و الأمريكيين بمنابع ثروات الأمم ، فلماذا احتل تلك الدولة الصغيرة ؟ لماذا لم يقتحم بقية أرجاء ممالك خليج الزيت ، فجيوش و دفاعات هذه الممالك لن تصمد أمام جيش كسار الضخم سوى لساعات ، و دخوله إلى تلك الممالك سيعني وقوع العالم بأسره رهينة لكسار الذي سيتحكم حينئذ في وريد الحياة و الطاقة للعالم بأسره عامة ، و لدول أوربة و أمريكا خاصة ، و سيسطر بلا منازع على قلب العالم ، جزيرة العرب و الهلال الخصيب؟!.

هنا بدأ مكثي بالتعاون مع اللواء حنا بنشر الرد الإيجابي المفحم لهذه التساؤلات الخطيرة المحقّة ، كان ردنا هو :

إن قوات كسار ستقدم لاحقا لإجتياح تلك الممالك ، و لكن بعد أن تنهار سيطرة حكومات تلك الممالك على شعوبها ، فهذه الشعوب مضطهدة و تتطلع إلى الوحدة العربية كغيرها ، و ستتحرك في الوقت المناسب ، خاصة و أن مخبرات كسار كانت تعد للثورة في سائر أرجاء الجزيرة العربية ، و تحرك هذه الشعوب سيقطع على أوربة و أمريكا سبيل التدخل العسكري في الصراع ، لأن الشعوب ستكون في صف كسار ، و هذه الشعوب هي من سيمنع إمدادات الطاقة من الصدور إلى العالم ، و هذه الشعوب لن تسمح بجعل أرضها حاضنا لهذه التدخل ، و سيضطر الأمريكيون و الأوروبيون عندئذ للخضوع لشروط العرب لعودة إمدادات الطاقة ، و مرور التجارة شرقا و غربا !.

اقتنع غالبية العامة بهذا التبرير ، و راحت إذاعة كسار تبث تصريحات و برامج و أناشيد حماسية كلها تتحدث عن عذابات شعوب ممالك الزيت و الولايات التي يعيشونها !.

بهذا حافظنا على الحماس و التعاطف الجارف مع كسار و جيشه طيلة فترة الحرب ، تعاطف غمر كل بلاد العالم الإسلامي ، بإستثناء ممالك الزيت و شعب أورك نفسه ! هذا الحماس كان هو القمة العالية التي ستهوي منها و تتحطم أحلام و آمال العامة من العرب و المسلمين بتغيير شيء في خارطة الواقع ، و ستوصلهم إلى محطة جديدة من اليأس ، و الإقتناع بالتأقلم مع واقعهم البائس.

في نفس الوقت صممنا ردودا سلبية أذاعها إعلام الدول المتحالفة "ضد" كسّار ، هذه الردود كان الإعلام الأوربي و الأمريكي يثبتها في جمل و عناوين صيغت بألفاظ في غاية الإستفزاز ، كلها تسخر من حلم الوحدة العربية ، و تهنأ من معاناة الشعوب العربية و تصور هذه الشعوب على أنها متخلفة بطبعها لا تستحق الرفاهية و التقدم ، و شعارات أخرى تحشد شعوب ممالك دويلات الزيت حول التمسك بالبذخ الخيالي الذي توفره لهم سيطرة الأمريكيين و الأوربيين على مناجم و منابع الثروات العربية .

هذه الردود السلبية حشدت الرأي العام في كل بلاد العرب و المسلمين نحو مناصرة كسّار ، و زادت من حقد العرب و المسلمين على ممالك الزيت التي يرى العرب أنها تهدد موارد الأمة الكبرى على البذخ الخيالي ، و تحرم منها بقية الأمم العربية و الإسلامية.

كانت هذه الحملات الناجحة في حرب كسّار تكرارا لتلك الحملات الرائعة ، التي قادها والذي خلال أيام حروب بديع العجيبة ضد جارتنا اللدود ، الحروب التي انتهت كلها بكوارث ألجمت أفواه الملايين لشدة الكآبة و الإحباط الذي أصابهم ، و جعلتهم يستسلمون بخضوع نادر لإجراءات متصاعدة من الحرمان و الإذلال و التجويع .

لقد كان الوصول إلى ذلك الإحباط و ما صاحبه من كوارث على المنطقة بأسرها من أهم أهداف عملية اجتياح جيش كسّار للدويلة الزيتية الصغيرة ، إلا أن هذه العملية لم تكن الأخيرة لكسّار و جيشه "البطل" ، و من أجل إتاحة الفرصة له ليؤدي مهمات تالية ؛ كان لا بد من إبقاء التعاطف الشعبي العربي معه ، لهذا سارعت مع فريق عملي في مكنتي الخاص لإعداد ردود مفحمة لأولئك العقلاء الذين أظهروا شماتتهم بالعامة المتحمسين لكسّار الذين قمعوهم بردودنا الإيجابية المبتكرة في بداية العملية ، فهؤلاء العقلاء كانوا يقولون : ألم نقل لكم إن كسّار خائن ؟ و أنه مجرد ممثل بارع في مسرحية دموية كبرى ، ألفها و أخرجها الأمريكيون و الأوربيون ، لزيادة سيطرتهم على المنطقة و تعميقها و توسيع رقعتها ؟.

ردودنا على هذه التساؤلات كانت أيضا مكررة لردود قديمة ، اخترعها والذي في بدايات عهد الإنتداب الأوربي ، هذه الردود كانت بالمختصر قلبا لكل مفاهيم العقل حول معنى "النصر" و معنى "الهزيمة" ، فلقد قامت باستبدال معنى البطولة الحربية بما يشبه معنى البطولة الرياضية !.

معنى النصر عند جميع العقلاء و على مر التاريخ معنىً بديهي موحد ، لا يحتاج لبراهين ، لأنه تماما كمعنى كلمة الشمس ، لا يحتاج لتفسير و هذا المعنى هو : تدمير قوات العدو تماما و الإستيلاء على ما بيده من ممتلكات و موارد و إنهاء سلطته على البقعة المتنازع عليها إلى أجل غير محدود .

لا يوجد للنصر أي معنى آخر سوى المعنى الآنف ، إلا أن والدي العظيم اخترع للعرب معنى آخر للنصر ، و أقنعهم به أيضا حتى نسوا تماما المعنى البديهي لهذه الكلمة "النصر" ! المعنى الجديد : إن النصر هو أن يواجه المقاتل تحديات أكبر من طاقته فيتحمل عبء هذه التحديات لأطول فترة ممكنة ، ثم يتراجع به "شرف" من أمام هذه التحديات مضطرا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه !.

الحرب صارت بهذا المفهوم أشبه بمباريات رفع الأثقال ، فالرباع يتحدى الأثقال التي تزيد على ضعف وزن جسمه ، فيرفعها إلى فوق رأسه لبرهة ثم يلقاها أرضا بعيدا عنه ، هاربا من ثقلها حتى لا تُحطم رأسه بعد أن تنتهي قدرة يديه و بدنه على مقاومة عبء الوزن.

حسب هذا التعريف نجد : أن الجيش الضعيف الذي يواجه جيشا أقوى منه ، و ينجح في الصمود لفترة معقولة قبل أن يُسحق ، يُعتبر جيشا "منتصرا" و جيشا بطلا و جيشا مغوارا ! و يعتبر الجيش الكبير الذي تغلب عليه مجرد جائحة طبيعية كالبركان أو الزلزال ، أو كالجاذبية الأرضية التي تشد الأثقال الهائلة فوق رأس الرباع نحو الأسفل ، حتى تضطره في النهاية لترك هذه الأثقال تهوي نحو مسارها الطبيعي ! و هو لا يستحق بانتصاره أي تمجيد فلقد انتصر في مباراة "غير متكافئة" ، هو جيش جبان فاته شرف النزال المتكافئ !!

بحسب هذا التعريف فإن هدف الحرب لم يعد سحق قوات العدو ، و لا سلبه ما بيده ، و إنما هدف الحرب هو إظهار شجاعة الجنود و صبرهم ، و إقدامهم أمام الأهوال ، ثم الحصول على ميتة بطولية في ميدان الحرب !!.

على مرّ عقود متتالية أعقبت سقوط الإمبراطورية التركية ؛ تبارى الإعلاميون و الأدباء العرب في نشر و مدح و تزيين هذا المعنى الجديد المبتكر ، و أذكر بيتا من الشعر نظمته شاعر عربي كبير يخلّد هذا المعنى الجديد للنصر ، قال فيه :

شرف الوثبة أن تُرضي العلا .. غلب الوائب أم لم يغلب.

هذا الشاعر كان من المقربين لوالدي و من أعز أصدقائه و من أخلص العاملين معه ، و كان لوالدي الفضل في نظمه لهذا البيت الخالد !.

بهذا التعريف المبتكر أعاد مكتبي و توابعه التعلق بخطب كسّار إلى نفوس العامة ، و التعلق بأساطير بطولات جيشه ، و بالآمال بنهوض هذا البطل الشجاع المتفرد من بين أنقاض مدائن أورك ، ليخوض ملحمة أسطورية أخرى نحو إحياء أمجاد العرب الغابرة ! أليس أن كسّار صمد أمام تحالف أقوى جيوش العالم ؟ أليس أنه قاتل مع جيشه بكل شجاعة رغم عدم تكافؤ المعارك ؟.

دليل العمل الذي تركه والدي العظيم كان حافلا بهذه الأفكار العبقورية التي لا تخرج إلا من رأس رجل فذّ ، قلّ أن يظهر مثله في هذا العالم بأسره ، لقد صاحبت أفكار والدي كل تطورات أحداث المنطقة ، و كل الخطط التي أنجزها فريق البارون خلال ثمانية عقود هي حياة والدي المهنية.

مثلا في فترة بداية الإنتداب الأوربي على بلادنا اخترع والدي شعارات كثيرة ، و أحيا شعارات أخرى ، منها : "لكل امريّ دينه و الإله يُعينه" و شعار "العين لا تقاتل المخرز" ، هذه الشعارات كانت ردا إيجابيا على أولئك المشايخ الذين كانوا يحرضون المسلمين على خوض الحرب المقدسة ضد الإنتداب الأوربي ، و ضد أعوان هذا الإنتداب من أبناء الأقليات غير المسلمة ، الذين تسلموا مقاليد البلاد بسلطة الإنتداب و رعايته ، أولئك المشايخ المحرضون على الحرب المقدسة برروا دعوتهم بنصوص الإسلام المقدسة و بأحكام القانون الإسلامي.

الرد السلبي على هذا التحريض الخطير كان التصريحات النارية ، التي أطلقها قادة الإنتداب الأوربيون ضد مشاريع استقلال الكيانات العربية ، التي صنعها الإنتداب نفسه ، و التصريحات ضد أولئك السياسيين العرب من غير المسلمين ، الذين تصدروا واجهة الدعوات لتحويل تلك الكيانات إلى ما عرف بـ "الدول العربية" ! هذا الرد السلبي ساهم في حشد العامة حول أولئك السياسيين العرب غير المسلمين ، و في انفضاض العامة من حول دعاة الحرب المقدسة ، لأن العامة رأوا أن هذه الدعوات تعسف و ظلم للأقليات غير المسلمة التي تتصدر - كما يرى العامة - مشهد العمل لطرد الغزاة الغير المسلمين ، أو مشهد حركة التحرر الوطني ضد الإنتداب الأوربي !!.

واكبت أفكار والدي العظيم الراحل مراحل تطور الأحداث و كافة الخطط التي نفذت في المنطقة ، و لقد شهدت في شبابي ابتكاره لبعض منها ، و البعض قرأته في سجلات عمله العظيم التي تركها لي ، و أسرد هنا بعضاً منها على سبيل العرض السريع :

ظهرت إعتراضات كبيرة للمشايخ التقليديين على أفكار الجمعية الإسلامية ، و ذلك في فترة إنشاء هذه الجمعية و بدايات إنتشار دعوتها و دعاها ؛ فابتكر والدي شعارات لضرب المشايخ التقليديين و تفنيد إعتراضهم على دعوة الجمعية ، منها حديث مفبرك منسوب لنبي الإسلام هذا نصه : "امتدح قوم رجلاً إلى رسول الله بالاجتهاد في العبادة و الغنى عن العمل ، و قالوا : صحبناه في سفرنا فما رأينا بعدك يا رسول الله أعبد منه ، كان لا ينتقل من صلاة و لا يفطر من صيام . فقال لهم النبي : فمن كان يُؤمنه و يقوم به؟ فقالوا كلنا يا رسول الله. فقال : كلكم أعبد منه !.

هذا الحديث أحياه والدي من كتب مندثرة ، و اعتمده لتقوم منظومته لاحقا بتوزيعه في المجالس و الحوارات الشعبية الخاصة ، و طبعا صاحبت هذا الحديث مئات النكات الساخرة من المشايخ ، كلها تنسبهم إلى الكسل و التطفل على أرزاق العامة

المنتجين ، و جميعها تستهزئ بأعمالهم و صلواتهم ، و تظهرها نوعا من الحيل التي يفعلها الشطار و المختالون الكسالى الفاشلون مهنيا لينالوا بها أموال المنتجين المهرة النشيطين البسطاء.

لقد عمل هذا الحديث في تلك الفترة عمل السحر بإضافة وصفة أخرى و هي شعار : "المشايخ المتفرغون رجال دين ، و رجال الدين كهنوت و ليس في الإسلام كهنوت" ، هذه الخلطة سهلت على دعاة الجمعية الإسلامية إقناع الشباب بفكرة تحريم تقليد المشايخ و تحريم التزام فتاواهم ، و لقد تحولت لاحقا هذه الأفكار إلى ما يشبه العصائب على عيون الشباب تمنعهم من أن يطبقوا النظر في وجوه المشايخ التقليديين ، و تحولت إلى ما يشبه القطن الكتيمة الذي يحشو آذان العامة فلا تخترقها أصوات المشايخ التقليديين.

من الأفكار التي روجت لها الجمعية الإسلامية ، و غيرها من الأحزاب اللادينية كانت فكرة القبول بتولي غير المسلمين للسلطة على المسلمين في بلدان المسلمين ، و لقد تصدى والدي لدعمها بنشر أحاديث كهذا :

"الناس سواسية كأسنان المشط" و هذا طبعاً يشمل المسلم و غير المسلم ، و لقد اخترع والدي وصفة أخرى هي : الرجل المناسب للمكان المناسب ، و الكفاءة قبل الولاء ، ثم أضاف إليها هذه القصة :

أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم قال : عدت بمعاذ ، قال : سأبقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربني بالسوط و يقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ، و يُقدم بابنه معه ، فقدم ، فقال عمر : أين المصري؟ خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط ، و يقول عمر : اضرب ابن الأليمين (اللائم) ، قال الراوي : فضرب القبطي ، فو الله لقد ضربه و نحن نحب ضربه ، فما أفلح عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه ، ثم قال عمر للمصري : ضع على صلعة عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني ، وقد اشتفيت منه. فقال عمر لعمرو : مُدِّ كم تعبدتم الناس و قد ولدتم أمهاتهم أحراراً؟. القبطي في هذه القصة مسيحي.

اخترع والدي أيضا في تلك الفترة مقولة صارت شهيرة هي : موسى نبي و عيسى نبي و محمد نبي و كل من له نبي فليصلي على نبيه.

بفضل هذه الوصفة صار تولي الأقليات من غير المسلمين للسلطة و المناصب ، و إقصاء المسلمين عنها أمراً مبرراً ، بل صار هو الوضع الطبيعي في أذهان العامة ، و صار استنكار هذا الأمر عاراً و عصياناً للإله و تنكباً لسماحة الإسلام و تعصباً مقيتاً مفترى على الإسلام !!.

شعارات كهذه استخدمتها كل الأحزاب التي نشأت في فترة الإنتداب و ما تُعرف ببدايات عهود الإستقلال الوطنية العربية ، و كلها تصدرت حوارات الشباب على أنها مسلمة ، و بديهيات لا تقبل النقاش.

لقد أسهم والدي العظيم في شبابه في صناعة كلمة "العلمانية" لتكون الترجمة العربية لمصطلح "اللا دينية السياسية" ، هذا المصطلح اللاتيني الذي أطلق على الأحزاب التي حكمت أوروبا وأمريكا ، و بدأت بنشر اللا دينية في بلاد المسلمين المختلفة بعد القضاء على الإمبراطورية التركية و سلطتها الدينية ، كلمة العلمانية سمحت للمنظومات بخلق ازدواجية متناقضة تماما ، عاشت و تجذرت في عقول العامة دون تساؤل أو استنكار منهم ، إنها ازدواجية وجود حكام يحكمون باللا دينية ، و يحاربون الدين و قوانينه و معتقداته كلها ، و هم في نفس الوقت مؤمنون متدينون و الولاء لهم واجب ديني !! لقد أتاحت كلمة العلمانية للمنظومات جمع هذه المتناقضات تحت سقف ديني جديد هو "تقديس العلم".

الكثيرون من الكورد و التركمان القاطنين في الدول العربية استنكروا فكرة التعصب للعرق العربي و فكرة باتت تعرف بـ "القومية العربية" ، فابتكر لهم والدي العظيم تهمة كبرى قاتلة هي : "الشعوبية" ، و هي في الواقع مصطلح قديم أطلقه المؤرخون المسلمون على حركات سرية نشأت داخل الإمبراطوريات الإسلامية العربية (الأمويون - العباسيون) ، هذه الحركات كانت تنشر الدعوات لإحتقار العرب و إذلالهم أو حتى إبادةهم و جميع القائمين عليها لم يكونوا مسلمين ، و لكن والدي حوّل بعبقريته المصطلح الميت إلى تهمة حيّة بالعداوة العنصرية للعرب ، تهمة توجه إلى كل من يعترض على التمييز العنصري الذي مارسه أحزاب القومية العربية ضد من تحكمهم من المسلمين من أبناء العرقيات الأخرى !.

عملت كثيرا بنفس الآلية في فترات إنشاء نسخ الجيش الأسطوري المتتالية ، و ابتكرت أفكارا كثيرة في ضوء ابتكارات والدي ، لو عايشها لافتخر بها كثيرا ، فمثلا كان الشباب يتساءلون : لماذا لا ينفذ القادة في الجيش الأسطوري هجمات إنتحارية ؟ أليست طريقا مختصرا للفردوس ؟ و هل يعقل أن يتأخر المؤمن عن دخول الفردوس عند أول فرصة ؟!.

صممت هذا الرد الإيجابي على هذه الأسئلة : ألم يكن خليفة الإسلام الأول و الخلفاء بعده يوقنون بالفردوس و نعيمه الخالد ؟ و مع هذا لم يشاركوا في معارك المسلمين أيام حكمهم ! السبب هو أنهم مكلفون بإرشاد أكبر عدد ممكن من الناس إلى طريق الفردوس ، و هم غير محروسين بوعد إلهي بالحماية كما كان حال نبي الإسلام ، و مقتلهم قد يكون سببا في مصائب ماحقة للإسلام و لأمة المسلمين بأسرها ، لقد كانوا يصبرون على منع أنفسهم من السفر إلى الفردوس بأمر إلهي قاهر لا مفر لهم منه ، فمسئولياتهم جعلت حفاظهم على سلامتهم ضمن الواجبات التي سيسألهم الإله عنها و سيعاقبهم على التفريط بها ، و بذلك فهم يعيشون في سبيل إرضاء الإله ، بينما يُقتل المقاتلون المؤتمرون بأمرهم في سبيل إرضاء الإله نفسه ! الرعيل الأول من المسلمين هم الذين منعوا الخلفاء الأوائل و القادة الكبار من خوض الحروب ضد الجيوش المعادية للمسلمين ، بينما كان هؤلاء الخلفاء و القادة يتحرقون شوقا و تأسفا لفوات مشاركتهم البدنية في تلك الحروب .

لهذا السبب العظيم يمتنع قادة و مشايخ النسخة النجدية من تنفيذ الهجمات الإنتحارية رغم أنهم يحرضون عليها ليل نهار ، و رغم أنهم يؤكدون و يقسمون مغلفات الأيمان في كل حين على أنها السبيل الأقصر لدخول الفردوس !. انتهى الرد.

و عندما انتقل المقاتلون المتطوعون من إفريقيا و الجزيرة العربية وسط آسيا إلى أورك ، و التحقوا بالجيش الأسطوري ، ثارت أيضا تساؤلات بين الشباب العرب و الكورد و التركمان المسلمين ، من هذه التساؤلات : لماذا لا يقاتل هؤلاء ضد التسلط الأمريكي و الأوربي و اللاديني على بلادهم ؟ أيذهب الرجل ليصلح بيت أخيه و يترك بيته و نساءه و أطفاله تحت الهدم فلا يساعدهم ؟.

صممت لهذه التساؤلات ردا إيجابيا مفحما ، هذا الرد هو : إن قتال هؤلاء في بلادهم تشتيت لجهود المقاتلين المسلمين في حربهم المقدسة ضد الأوربيين و الأمريكيين ، و اجتماع هؤلاء المقاتلين في أورك و في خراسان سابقا كان أمر ضروريا ؛ لتحقيق نصر حاسم على العدو ، فهزيمة كبيرة و موجعة للتحالف الأوربي الأمريكي في "معركة فاصلة" كتلك المعارك التي خاضها الرعيل الأول من المسلمين ضد الرومان و الفرس ، هذه الهزيمة ستكون قاصمة و أفضل بكثير من خوض المعارك الصغيرة ضد عبيد التحالف الذين يحكمون بلاد إفريقيا و آسيا الوسطى و الجزيرة العربية.

إن اختيار التحالف في حرب أورك يعني أن معظم قوته الضاربة سقطت ، و يعني أن انتزاع السلطة في أراضي المسلمين الأخرى سيكون أسهل كثيرا و مضمون النجاح !.

إن تجمع هؤلاء الشباب دليل على أن خطط الأوربيين للقضاء على الرابطة الدينية بين المسلمين قد فشلت ، و أن الروابط القومية و الوطنية التي اخترعها الأوربيون و حاولوا نشرها بين المسلمين صارت واهية و لم تعد تتقدم على رابطة الدين العالمية ، هذا التجمع بشارة عظيمة بإحياء أمجاد الأمة الإسلامية مرة أخرى .

أثناء اجتياح التحالف الأمريكي الأوربي لبلاد أورك أرسل إلي البارون وفدا يحمل تعليمات خاصة ، هذه التعليمات كانت تقضي بتفعيل منظومة "حروب الجبل الأبيض" و تكليفها بالسيطرة على الوضع الميداني في مناطق المسلمين في أورك تزامنا مع انتشار وحدات الجيش الأسطوري السرية هناك ، تم هذا العمل بهدوء و دون كبير عناء نظرا لوجود علاقات قديمة بين هذه المنظومة و بين قادة مجتمعات المسلمين في أورك ، كانت هذه الخطوة تهدف إلى تطبيق تجربة حروب الجبل الأبيض على أورك بنفس الآلية مع تغير الظروف و الأشخاص ، مخبرات بلادنا و غرفة العمليات التابعة لي كانت مشرفة على تفعيل هذه المنظومة ، بالنظر لأنني كنت مشرفا مباشرة على إنشاءها خلال فترة حروب الجبل الأبيض.

حين قرأت تلك التعليمات و اجتمعت بالفريق المتخصص للتنفيذ رجعت بي الذاكرة إلى أكثر مهماتي متعة و أسهلها إنجازا ، أنجزتها ببراعة فائقة قبل ثلاثة عقود تقريبا ، و لقد تمتعت حقا بإدارة أحداثها على مدى عقد و نصف من الزمن و هي ذكرى تستحق التدوين .

بدأت تلك المهمة الممتعة في أواخر كهولتي قبل أربعة عقود و نيف من يومنا هذا ، كنت وقتها أمضي أسبوعا جميلا في "دويلة الجبل الأبيض" ضيفا على رشيد باشا في قصره الجبلي الجميل المطل على البحر ، في نهاية ذلك الأسبوع وصل البارون الراحل جيمس برفقة عدد من مستشاريه ، اجتمع بنا مطولا لعدة أيام و ألقى علينا تفاصيل المهمة ، في آخر يوم من تلك الزيارة التحق بنا كل من هرثمة و السيد سهل رئيس منظمة التحرير العربية و إمبراطور بارسيا (لم يكن كهنة الديانة السرية قد تولوا حينها حكم بارسيا) بالإضافة إلى عدد من زعماء طوائف الجبل الأبيض ، تلقى هؤلاء الجداول الزمنية المحددة لمهامهم و ألقيت عليهم بعض العبارات المفتاحية ليستعملوها في خطبهم ، و انصرف كل منا إلى عمله ، جميع خيوط المهمة كانت متجمعة في غرفة العمليات التي شكلتها للبدء في التنفيذ بتكليف من البارون.

"دويلة الجبل الأبيض" مقاطعة صغيرة جبلية ساحلية جميلة تقع على شاطئ المتوسط و لها مناخ رائع متطرف في التمايز بين فصول السنة الأربعة ، هذا التمايز في الفصول لا ينعكس على الطوائف المتباينة التي تسكن هذا البلد الصغير ، إذ توجد في هذا البلد ثلاث مجموعات دينية كبيرة ، الأولى و الأكبر هي المسلمون و يشكلون نصف السكان ، و ربع سكان البلاد من أتباع الديانة السرية بمذاهبها المختلفة ، و الربع الباقي من أتباع الديانة المسيحية بأنواعها ، و أكثر هؤلاء من أتباع تعاليم باولو ، هؤلاء يعتبرون أنفسهم مواطنين أوروبيين و إنما من عروق سامية قديمة ، آرامية بالتحديد ، العداء للمسلمين من أهم أولوياتهم الدينية ، إذ يؤمن هؤلاء بأن بلاد شرق المتوسط ملك لهم و قد اغتصبها "العرب الهمج" منهم بعصبية الإسلام ، حسبا أعلنوا و يعلنون في كل فرصة تسنح ، و يؤمنون بأنه لا بد من طرد أو إبادة الغزاة المغتصبين و استعادة هذا الملك من أيديهم .

رغم هذا التباين فإن جميع سكان هذا البلد متشابهون في العادات و التقاليد و السلوك العام و الفردي ، فهم أناس يعتبر معظمهم أن اليقين الوحيد الذي يستحق الاعتقاد به و السعي إليه هو المال و الرفاه بلا شريك و لا منازع ، و بحسب المواصفات الأوروبية و الأمريكية ، و يعتبرون أن أفضل مصير قد يصير إليه المرء هو أن يهاجر إلى أمريكا أو أوروبا ليعيش هناك كما يعيش الأوروبيون .

في القرنين الأخيرين من عهد الإمبراطورية التركية كان الجبل الأبيض مقاطعة صغيرة جدا تتبع لولاية كبيرة ، بلادنا أيضا كانت جزءا من هذه الولاية التابعة للتاج التركي ، خلال هذين القرنين نجح الأوروبيون في استثمار الكراهية للمسلمين لتجنيد أتباع الديانة السرية و أتباع باولو لصالح الحرب الصامتة التي شنتها أجهزة المخابرات العسكرية الأوروبية على إمبراطورية الأتراك. هذا الإستثمار أنتج عدة موجات من التمرد العسكري ضد الحكم التركي في الجبل الأبيض ، و أنتج أيضا تجنيدا عاما لهاتين الطائفتين لصالح مشروع تأسيس معابد للحرية في الشرق المسلم ، ثم نشر عقائد هذه المعابد بين أبناء الطبقات المثقفة و الغنية في سائر أرجاء الإمبراطورية التركية .

التسامح التركي الساذج مع البعثات الأوربية الدعوية لكنيسة باولو الغربية ساهم في إنجاح هذه المشاريع ، و رغم الفشل المتتابع لأعمال التمرد التي عملت تلك البعثات على التخطيط لها و تنفيذها ، و رغم أن الأتراك كانوا يكتشفون دور تلك البعثات إلا أنهم لم يعرقلوا قدومها ، و لا إنشاءها لمؤسسات دينية تزايدت على مر الزمن حتى سيطرت بشكل غير معلن على كامل فعاليات سكان الجبل الأبيض ، و على عدد كبير من المدن المختلطة الديانات التي تجاوره .

هذه البعثات أقامت رؤوس جسور متعددة على شواطئ المتوسط ، و من هذه الرؤوس تدفقت القوات الأوربية التي انتزعت السيطرة على البلاد العربية من أيدي الأتراك قبل قرن من الآن.

بعد هزيمة الأتراك في الحرب العالمية و سيطرة قوات الإنتداب الأوربية على الجبل الأبيض ، قامت هذه الأخيرة بتصفية من بقي في تلك المقاطعة من رجال الدين المسلمين التقليديين ، و قامت بتصفية أوقافهم بطرق كثيرة منها تأجيرها بعقود لا نهاية لها و بأثمان بخسة ، و منها بالإستيلاء عليها تدمير وثائقها و محو هويات هذه الأوقاف ، و لم يبقَ بعد هذه التصفية من المشايخ التقليديين سوى آحاد مغمورين لا سلطة لهم و لا جاه بين العامة و لا حتى بين الخاصة.

في نفس الوقت حرص الأوربيون على القضاء على أسر المسلمين الأرستقراطية التي كانت تملك جميع قرى و أرياف الجبل الأبيض ، تلك القرى التي عمل فيها أتباع الديانة السرية و أتباع ديانة باولو عبيد أرض أرقاء لقرون متعاقبة ، ثم فلاحين و مزارعين أجراء في أواخر عهد الحكم التركي .

هذه الأسر الأرستقراطية أبيد أكثرها أو هُجروا إلى تركيا ، بينما اضطرت بعض هذه الأسر لإعتناق ديانة باولو و الديانة السرية رسمياً ليحتفظوا ببقائهم و بممتلكاتهم في ظل سلطة الإنتداب الأوربي ، و بالفعل أقرت سلطات الإنتداب الأوربي هؤلاء على ما تحت أيديهم ، هذا ما حصل للأرستقراطيين المسلمين المالكين لمناطق الديانة السرية و أتباع ديانة باولو في الجبل الأبيض.

الأرستقراطيون الذين كانوا يحكمون مناطق المسلمين في الجبل الأبيض حوصروا بشدة ، و قتل عدد كبير منهم ، و صاروا عاجزين عن العمل السياسي في مناطقهم ، و تحول من بقي منهم إلى مجرد مستثمرين زراعيين للأراضي الريفية الشاسعة الخصبة التي يملكونها ، و دون أي نفوذ سلطوي يذكر.

في العقد الثاني من عهد الإنتداب الأوربي تم اصطناع أسر حاكمة - كتلك التي اصطنعت لاحقاً في بلادنا على عهد هرثمة - هذه الأسر تولت حكم مناطق المسلمين في الجبل الأبيض بإشراف كامل من سلطة الإنتداب ، جميع هذه الأسر كانت من أتباع الديانة السرية الذين أظهروا أنهم اعتنقوا الإسلام التقليدي ، و فوق هذا كانوا جميعاً أعضاء مؤمنين حتى العظم في معابد الحرية ، من هؤلاء كان صديق أسرتي الراحل "رشيد باشا" .

بعد ربع قرن من الإنتداب الأوربي استقر الأمر لهذه الأسر الحاكمة ، و تم القضاء تماما على قيادات المسلمين السياسية و الإجتماعية و الدينية التقليدية في جميع أرجاء الجبل الأبيض ، و هكذا أتاحت الفرصة للإنتداب الأوربي للتظاهر بمنح الجبل الأبيض استقلاله كدولة متعددة الديانات .

هذه الدولة أريد لها أن تكون دعاية لفكرة لتعايش بين أتباع الديانات المختلفة ، و لكن الواقع كان شيئا آخر ، إذ بعد ما عُرف باستقلال الجبل الأبيض نشأت في تلك البقعة دولة صغيرة ، سادة هذه الدولة أتباع ديانة باولو ، و جميع الناس في تلك الدولة كانوا مجرد أتباع أذلاء و خدما و عبيدا لهؤلاء السادة ، لا قيمة لهم و لا حرمة تذكر، فمثلا في المدن الكبرى و معظمها مملوكة و مسكونة للمسلمين كانت توجد في دور القضاء محكمتان جنائيتان منفصلتان ، الأولى لمحكمة الجناة من المسلمين ، و جميع أحكامها لا تقل عن عدة أعوام من السجن ، و كثير من أحكامها يصدر بالإعدام لأتفه الأسباب ، محكمة أخرى متخصصة بمحاكمة الجناة من أتباع ديانة باولو و من دار بفلكها من أتباع المسيحية ، أحكام هذه المحكمة لا تزيد عن بضعة أشهر من السجن ، حتى لو كان هؤلاء الجناة مدانون بجرائم قتل من الدرجة الأولى .

هذه الدولة كان كل شيء فيها لخدمة أتباع ديانة باولو ، رئيسها و قادتها و كل موظفيها كانوا تقريبا من أتباع تلك الديانة ، رغم ما يعلن عنه دوما من تقاسم المناصب و الوظائف الحكومية مناصفة بين المسلمين و بين أتباع تلك الديانة ، الواقع أن جميع الوظائف العليا و فرص التعليم كانت متاحة لغير المسلمين أولا ، و بعدها تترك المهمات الشاقة و المتعبة و المكربة و الأعمال المهينة للمسلمين ، جولة بسيطة في الجبل الأبيض كافية لتمييز العين بسهولة بين مناطق المسلمين الفقيرة البائسة و بين مناطق أتباع ديانة باولو ، التي يخال المرء أنها قطعة من أوربة الثرية نقلتها جنيات الأساطير إلى شرق المتوسط ، و بينما يعيش المسلمون يؤسا أبديا يعيش أتباع دين باولو حياة باذخة تشبه قصص ألف ليلة و ليلة .

بعد ما عرف باستقلال الجبل الأبيض قامت جارتنا العدو اللدود باحتلال إقليم من بلادنا - الإقليم الذي يقود السيد سهل منظمة تحريره - ربع النازحين من ذلك الإقليم دخلوا إلى الجبل الأبيض ، معظمهم مسلمون و كثيرون الإنجاب ، أجبر هؤلاء على السكن فيما يشبه المعتقلات الجماعية المنعزلة عن البلاد ، و تولت إدارة هذه المعتقلات دول أوربية عبر منظمة الأمم .

نال هؤلاء النازحين اضطهاداً فظيع على يد سلطات الجبل الأبيض ، ما جعلهم يندمون لأنهم لم يستسلموا لنيران جيش جارتنا اللدود ليموتوا على الأقل فوق تراب وطنهم المسلوب منهم ، فالمناطق التي أسكنها هؤلاء ليست إلا مجرد مدن من الصفيح ، تحولت لاحقا إلى غابات مجنونة عشوائية من الإسمنت لا يستطيع عابرٌ أن يرى الشمس إن مشى خلالها مهما بحث عن شعاعها ، و لا يشم أثناء مشيه إلا روائح البؤس و قنوات مياه المراحيض و القمامة المتحللة ، فقط المقابر هناك تستطيع أن ترى ضوء الشمس ، لقد طبقت دولة الجبل الأبيض على هؤلاء و بحرص شديد شعار : المسلم السعيد هو المسلم الميت .

في دولة الجبل الأبيض يسافر الرئيس و الوزراء و القادة و العسكريون الكبار و حتى رئيس الدولة إلى الخارج بصمت ، إلا شخص واحد هو الكاهن الأكبر لديانة باولو في تلك الدولة ، فإنه يسافر و يعود إلى البلاد بمراسم وداع و استقبال عسكرية و من فوق السجاد الأحمر كما يُستقبل و يُودّع الملوك و الرؤساء !.

جيش دولة الجبل الأبيض ليس سوى قوة من المرتزقة المدربين جيدا مهمتها الوحيدة قمع أي تمرد للمسلمين ، و إشعارهم دوما بأن سيف القمع مسلط فوق رقابهم ، يتكون هذا الجيش من طبقتين :

الطبقة العليا هم أتباع ديانة باولو ، و هم الضباط و صف الضباط المتنفدون ، و الطبقة السفلى هي الجنود المحترفون و جميعهم من المسلمين و من أجهل و أفقر و أكثر طبقات أبناء الأرياف المسلمين بؤسا ، لذلك صار هؤلاء الجنود مخلصون لهذا الجيش و مهمته القمعية أكثر من قادتهم بكثير ، لأنهم كانوا يقبضون رواتب سخية لم يحملوا بمثلها في حياتهم ، إضافة للعناية الطبية لهم و لأسرهم.

في دولة الجبل الأبيض توجد مؤسسات إعلامية و صحفية يظن المرء لأول وهلة أنها صحافة حرة ، فهي تنتقد كل شيء بعبارات فجحة ، تنتقد السياسيين و رجال الدين و القادة العسكريين و الزعماء الشعبيين ، و تنتهكم على الأوضاع الاقتصادية و المعاشية و لكنها لا تتحدث أبدا عن الحقيقة ، و لا عن الإضطهاد و التمييز ضد المسلمين و ضد المسيحيين من غير أتباع كنيسة باولو ، و لا يمكن أن تتحدث عن الجرائم الجنائية التي تقع في المجتمعات المسيحية بأنواعها ، بينما تعتبر مادتها المفضلة للنشر تلك التي تظهر الجرائم و الحوادث المشينة التي يرتكبها المسلمون ، و بأبشع الألوان و أشدها سطوعا. وصلت الكراهية للمسلمين إلى أعلى درجاتها بين أتباع ديانة باولو بعد الإنتداب الأوربي و بعد ما سمي بـ "الإستقلال" ، و بلغ بهم الأمر حدّ منع تدريس المناهج العلمية باللغة العربية ، و جعلت كلها باللغة الأوربية ، و حتى أن أبناء تلك الطائفة صاروا يرفضون التحدث بالعربية في بيوتهم و في العلن ، و صارت أسماؤهم كلها أوربية و نادرا جدا ما يوجد منهم من يتسمى باسم عربي.

في عهد بديع أجريت عدة تجارب لهزاهز و اضطرابات في الجبل الأبيض ، من بينها افتعال تمرد للمسلمين على السلطة ، و مرت التجارب بنجاح إذ حصل التمرد و تم قمعه بسهولة و بعد فترة وجيزة ، و عادت الأمور في الجبل الأبيض إلى ما كانت عليه قبل التمرد ، بل و أكثر سوءا بالنسبة للمسلمين.

بعد تولي هرثمة للحكم بخمس سنين اتخذ البارون جيمس قرارا بإجراء تجربة لوصفة تقسيم بلاد المشرق على أسس متفجرة ، تلك الوصفة التي وضعها والده الراحل ، و نفذتها سلطات الإنتداب الأوربية بعناية و دقة و مهارة ، و رسمت على أساسها خرائط دول العرب و المشرق بأسرها ، التجربة التي أمر بها البارون كانت إشعال حرب أهلية دينية أساسها تمرد الأكثرية

المسلمة المضطهدة على سلطة أتباع ديانة باولو ، تم توزيع المهمات و الجداول الزمنية على الفرقاء في الإجتماع الذي تحدثت عنه آنفا.

في بداية تنفيذ التجربة بدأ التوتر الإعلامي بين زعماء طائفة باولو في الجبل الأبيض و بين ضباط منظمة السيد سهل ، فلقد كان مقاتلوا هذه المنظمة ينطلقون من أراضي الجبل الأبيض لينفذوا عمليات "حرب عصابات" ضد جارتنا العدو اللدود ، أو كما كان يبدو للعيان ، بعد كل إعلان لمنظمة سهل عن عملية حربية كانت قوات الجارة اللدود ترد بقصف على أراضي الجبل الأبيض ، هذه الاشتباكات كانت ذريعة لأتباع ديانة باولو لإطلاق حملات من التحريض ضد الغرباء النازحين ، للمطالبة بنزع سلاحهم و منع منظماتهم من العمل المسلح إنطلاقا من أراضي الجبل الأبيض ، و لترحيلهم من الجبل الأبيض لاحقا.

هذه الحملات قابلتها حملات مضادة لها شنها وجهاء الأسر الحاكمة المسيطرة على المسلمين ، آنفة الذكر (من أتباع الديانة السرية باطنيا) ، و أيضا انبرى زعماء أتباع الديانة السرية العلنيين لتأييد منظمة سهل و تبرير أعمالها ، و تصاعدت الحملات و الحملات المضادة ، إلى أن بدأت سلسلة من الإغتيالات و الإغتيالات المضادة بين الطرفين ، كلها كانت ضمن صفوف الطبقة المتوسطة من الفريقين ، أي أنها كانت غير ذات بال ، هذه الأحداث تم تضخيمها كثيرا إلى أن آن أوان إشعال الفتيل ، عندما قامت مجموعة مسلحة تابعة لحزب من أحزاب السلطة في الجبل الأبيض بمجزرة بحق عدد من أعضاء منظمة سهل في كمين على طريق عام ، انطلقت بعدها قوات سهل و قوات الأحزاب التابعة للديانة السرية تقصف و تحتاج مناطق المسيحيين عموما و مناطق أتباع ديانة باولو خصوصا.

اجتاحت قوات منظمة سهل و قوات حلفائها معظم أرجاء البلاد في بداية الحرب ، و تشقق بسرعة جيش دولة الجبل الأبيض إلا أن الهيكل الإداري و المالي لهذا الجيش بقي متواجدا ، و رغم تشقق هذا الجيش استمر ضباطه و جنوده في تلقي الرواتب من مقر قيادته الرسمي.

رغم انهيار سيطرة السلطة الرسمية على مناطق البلاد استمرت جميع مؤسسات السلطة في تقديم الرواتب لموظفيها ، و لكافة العاملين و المتعاقدين معها ، علما أن هذه السلطة فقدت كافة مصادر تمويلها بين عشية و ضحاها بسبب الحرب ، فلا ضرائب و لا جبايات و لا رسوم مرور ، و مع هذا بقيت وزارة المالية و المصرف الوطني قيد العمل ، و استمرت الحكومة في إقرار ميزانياتها ، و السر في هذا أن البارون كان قد أمّن التمويلات اللازمة لهذه الحكومة بما يكفل بقاء معظم السكان معتمدين على الرواتب التي تدفعها "حكومة الجبل الأبيض" ، هذه الميزانية هي التي أمنت القدرة للجميع للإستمرار في الصراع ، و سهلت على المدنيين الصبر على ويلات الحرب ، و منعت تقسيم البلاد رسميا إلى أجل غير مسمى !!.

لن أتحدث كثيرا عن تفاصيل هذه الحرب الطويلة التي تحتاج إلى مجلدات كثيرة ، مع أنها حرب مجهرية مضحكة حسب كافة المقاييس العسكرية ، إلا أن ما يجدر ذكره هو منظومة حروب الجبل الأبيض و كيف أنشأت :

بعد استيلاء قوات المتمردين المسلمين على معظم أجزاء البلاد تأسست في مناطقهم مجموعات مقاتلة معظمها لا تحمل أي توجه عقائدي أو حزبي ديني ، و هذه المجموعات كانت كبيرة و تتحرك بدافع الإنتقام من أتباع ديانة باولو ، و كانت تقاتل بشراسة و عناد منقطع النظير على الرغم من فظاعة أعمال القمع المضادة التي مارستها قوات أتباع باولو ضد المسلمين دون تمييز بين مسلم محارب و آخر مسلم ، فلقد كانت هذه القوات تنصب الحواجز على الطرق و تخطف المسلمين دون تمييز بين رجال و نساء و أطفال ، ثم يعدم المخطوفون بأساليب عجيبة و غريبة ، كطحنهم أحياء في معاصر الزيتون ، أو سلخهم أحياء بعد تعليقهم من عراقيهم بأعمدة الكهرباء ، أو إحراقهم أحياء في ساحات قرى أتباع دين باولو و على مرأى من العامة .

مجموعات المقاتلين المسلمين العنوية هذه ؛ هي التي كان البارون يريد رؤيتها كإفراز أولي من إفراغات الحرب ، و بمجرد ظهورها بدأ تأسيس منظومة الحروب آنفة الذكر ، لمواجهة هذه المجموعات و السيطرة عليها ثم محوها من الوجود .

أشرف البروفسور الراحل أوسكار على تركيب هذه المنظومة ، و خلال عمله شرح لي الفكرة الأساسية التي يعتمد عليها نجاح عمل هذه المنظومة ، قال لي عاشق الخمر المعتق ذات يوم على هامش أحد اللقاءات :

مهما تكتل المسلمون في الجبل الأبيض و اتفقوا فإن شرذمتهم أمر سهل ، و السبب في هذا أن مجتمعاتهم تخلو تماما من أرستقراطية حقيقية تدير الأمور محليا .

قلت : ألا تشكل القيادات الجديدة التي يفرزها التمرد بديلا عن تلك الأرستقراطية ؟ .

ابتسم البروفسور العجوز و قال : سأشرح لك الفرق بين الأرستقراطي و بين أي قائد آخر ؛ الأرستقراطي يا عزيزي ملك حقيقي من الحجم الصغير ، فهو يحكم منطقة نفوذه أو "مقاطعته" مهما صَغُرَتْ حكما فرديا مطلقا ، و لا يسمح أبدا لأي كان بمشاركته في حكم مقاطعته إلا بإرادته هو و حسب مصلحته ، فقد يعطي الأرستقراطي ولاءه للملك أو حاكم عام لعدة أقاليم تتكون منها دولة أو مملكة ، و لكنه لا يسمح بتطبيق أحكام هذا الملك أو الحاكم إلا عن طريقه و بطريقته الخاصة ، و ضمن قاعدة ولاء سكان المقاطعة المطلق لهذا الأرستقراطي و لأسرته و لوريثته من بعده ، و هذا بالضبط هو السبب في تماسك جميع الممالك و الدول و المجتمعات على مر العصور الماضية .

الأرستقراطي مستعد لإعدام أي متحد لسلطته و نفوذه ، و يعتبرُ المال خادما ذليلا لهذه السلطة ، و الحفاظ على السلطة و تعميق جذورها هو المحرك الأول لكل تصرفات هذا الشخص من تصرفات حرة و إجبارية ، و هو لا يمكن أن يتخلى عن أمجاد سلطته بسهولة و دون قتال شديد و عنيد.

القادة الذين نصنعهم أو نفرزهم الأحداث التي نصنعها لا يملكون هذه الميزة ، و لا يفهمونها أصلا و لا يعرفون أهميتها مطلقا ، فلو حكم أحد هؤلاء أية منطقة مهما كان حجمها فإن أهم ما يعنيه من حكمه هو الميزات و المنافع التي توفرها له السلطة ، فالسلطة عنده وسيلة لتحصيل المال و المنافع ، و ليست غاية يبذل من أجلها المال و الدم ، و إذا لن يقاتل بشراسة لسحق أي منافس له على حكم منطقته ، طالما لم يهدد هذا المنافس منافعه و مكاسبه المالية ، و في المقابل سيفعل أي شيء للحفاظ على هذه المنافع و استمرارها ، و هذا بالضبط المفصل القاتل الذي سنضع سكين منظومتنا الجديدة بن عظميه في كل مرة نصنع فيها تمردا للمسلمين.

سنقوم أولا بربط هذه القيادات (ذات الأصول المحرومة) من شرايينها بمضخات تضخ في عروقهم المال و المنافع ، سنرسل لهم أموالا مع السيد سهل و ضباطه الكبار و مع بعض أبناء عموماتهم من أبناء الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية ، و سيخبرهم هؤلاء المبعوثون أن هذه الأموال لدعم حربهم المقدسة من أجل استرداد حقوقهم ، و هم بدورهم سيشكرون كثيرا هذا الدعم من إخوانهم في الدين و الهوية.

بعد أن يعتمد هؤلاء القادة على هذه الأموال و يتذوقوا لذاتها و تصبح المصدر الأساس لتمويل جماعاتهم بالذخائر و المؤن بدلا من الغنائم المنتزعة من يد العدو ، سيصبح قادة التمرد الثائرون من أجل الحق مجرد موظفين كسالى أو مقاتلين محترفين مرتزقة يخدمون عند من يدفع لهم المال ، و مقابل استمرار تدفق هذا المال سيتنازل هؤلاء القادة بالتدريج عن مطالب شعبهم الحقبة التي قاتلوا من أجلها ، و التي قُتل لإحقاقها زملاؤهم و أصدقاؤهم و إخوانهم ، هم سيخلقون آلاف الأعذار ليبرروا تنازلاتهم ، و سيتفهم تلك الأعذار أتباعهم المتذوقون بدورهم للذات المال السهل القادم دون تعب ، و معهم أسر و عائلات أولئك الأتباع ، أليس أن تحسين ظروف الحياة كان الدافع للتمرد ؟ طالما أن هذا التحسن قد حصل فالحفاظ عليه هو أوجب الواجبات و أضر الضروريات ، من أي طريق جاء هذا التحسن و مهما كانت أثمان استمراره .

لنكمل الحلقة من حولهم سنلاعبهم لعبة أخرى ؛ لكن بعد أن نتأكد من تلوث دمائهم جميعا و دماء أتباعهم بلذات أموالنا، هذه اللعبة ستجعل هؤلاء القادة المتمردون من أجل العدالة أشخاصا ملعونين في نظر عامة المضطهدين الذين قامت الحرب من أجلهم ، و سيتحولون إلى مستبدين و طغاة يكرههم العامة أكثر من كرههم لمن طحن أهلهم أحياء في معاصر الزيتون ، هذه اللعبة هي :

لعبة التشطي و التشقق و التشرذم ، سندرسل كل مجموعة من هذه المجموعات على حدة ، و سنختار من كل منها شخصا غير قائدها الأول المؤسس ، هذا الشخص سنموه و نعلمه كيف يقنع زملاء له بالمجموعة بالإنشقاق عن القائد الأول و الإلتحاق بطاعته هو ، و سيقوم المال باللازم لتسهيل إقناعهم بخيانة ولائهم لقائدهم الأول ، ثم سيبدأ الفريقان بالقتال ، و سيرشق كل منهما الآخر بالخيانة و بالتعامل سرا مع سلطة القمع و الطغيان.

بعد الإنشقاق و الإقتتال سيلتقي القائدان في مكاتب منظومتنا للتمويل و الإمداد ليتصالحا سرا ، و سيقبض كل منهما ميزانية مجموعته ، و معها جدول الواجبات القتالية لمجموعته ، و سيكون من ضمنها صب حمم ذخائر مجموعته على أبناء حيه أو منطقته من المسلمين ، و سيقول لمقاتليه ، هؤلاء خونة متآمرون و منافقون ، و التخلص منهم هو أول خطوة نحو النصر على سلطات القمع ، فالقضاء على الخائن و الضارب في الظهر أولى من التفرغ للعدو المجابه العلني.

و ستتقاتل المجموعتان نهارا ، بينما سيسهر قائداها مساء مع بعضهما و هما يتضحكان بسرور ، و يتمتعان باللهو و اللذائذ التي توفرها لهم أموالنا ، في نفس المساء الذي سيرقد فيه ضحايا ذلك القتال في قبورهم التي تسقيها دموع ذوبهم المفجوعين. بعد فترة سنشقق هاتين المجموعتين لأربع مجموعات ، و سيكون عندنا أربعة من القادة و مزيد من الإشتباكات و الضحايا و الدمار بين المسلمين ، و سيستمر الأمر بهذا الشكل إلى نهاية التجربة.

قلت : و هل سنطبق نفس الخطة على قوات غير المسلمين ؟.

ابتسم النعلب العجوز و قال : طبعا و لكن فقط إن شعرنا بأن هذه القوات قد تنتصر على الجميع ، أو قد تحشد كافة أتباع ديانتها وراء قيادة موحدة تطمح للإستقلال عن إرادتنا ، بمعنى آخر سنشقق هذه القوات و نضع سلاحها في مواجهة أنفسها منعا لإنهاء الحرب بنصر عسكري حاسم على طريقة القرون الوسطى.

قلت : و هل ستستعملون نفس المبعوثين لتشقيق قوات غير المسلمين ؟.

قال البروفسور : طبعا ، و تكون لقاءات قادة هذه القوات مع المبعوثين من أعضاء الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية حميمة أكثر بكثير من لقاءات هؤلاء المبعوثين مع قادة مجموعات المتمردين المسلمين ، الذين سيتم التخلص منهم لاحقا بالتدريب إلى وقت نهاية التجربة. انتهى كلامه.

بعد أن تأسست منظومة حروب الجبل الأبيض دخلت قوات هرثة إلى ذلك البلد للإشراف على استمرار التجربة و عمل المنظومة ، و استمرت تلك الحرب مدة زادت على عقد و نيف ، سقط خلالها مئات آلاف الضحايا ثلاثة أرباعهم من المسلمين ، ثم انتهت التجربة بتوقيع اتفاق سلام عنوانه انتصار تورد المسلمين على دولة الإضطهاد !! أما مضمونه فهو تحويل

المسلمين في الجبل الأبيض إلى أقل و أدلّ بكثير من عبيد أو سكان مضطهدين ، لقد صاروا بموجب هذا الإتفاق مجرد مواشٍ و دوابّ جرّ و حراثة و حمل و حراسة و تنظيف قمامة ، تأكل و تنام على وقع سياط الجلادين من إخوانهم المجندين المسلمين في جيش دولة الجبل الأبيض الذي يقوده أتباع دين باولو و يعاونهم أتباع الديانة السرية.

حرص البارون جيمس و خليفته ياكوب على الحفاظ على مبدأ أساسي ، و لم يسمحا بالمساس به ، منذ أن اتخذوا قرار إشعال حروب الجبل الأبيض ، هذا المبدأ هو عدم تغيير أو هدم أسس الدولة التي صنعتها سلطات الإنتداب الأوربية ، بحيث تكون هذه الدولة كعلبة معدنية قاسية تحيط بالبلاد من جهاتها الستة ، تضم هذه العلبة في جوفها جدراناً قابلة للكسر ، فإذا ما أرادت الشعوب المحبوسة في جوف العلبة أن تتخلص من الحبس ثارت على ما يسمح بتخطيطه ، فتحطمه ليعاد بناؤه لاحقاً بشكل آخر ربما أكثر من ضيقاً من شكله قبل الثورة ، و لكن لا يمكن للشعوب أبداً تغيير أي شيء من هيكل العلبة القاسية ، أو ما يعرف بـ "الدولة" التي صنعتها سلطات الإنتداب الأوربية بأمر من آباء البارون.

و تطبيقاً لهذا المبدأ تقررت لدولة الجبل الأبيض ميزانية سنوية متصاعدة ، هذه الميزانية تصرف مباشرة من خزانة البارون جيمس ، و تغطي هذه الميزانية تكاليف عمل جميع المؤسسات الكبرى العسكرية و السلطوية و القضائية و الحكومية و الخدمية ، كالجيش و الشرطة القضائية و المشافي العامة و مخازن الدواء و احتياطات الأغذية الأساسية (الطحين - السكر - الزيوت .. إلخ) ، و المدارس و الجامعات و الموانئ الكبرى و محطات ضخ المياه و الكهرباء ضمن الحد الأدنى.

بدأت حروب الجبل الأبيض و انتهت دون أن تسيطر التشكيلات المتحاربة على مقر أية مؤسسة من تلك المؤسسات ، و بقيت تلك المؤسسات تعمل و تدفع مرتبات التقاعد ، و تعويضات الوفاة و و الإصابات و الرواتب و تكاليف العمل لموظفيها و طواقمها و جيشها ، رغم المعارك التي انتشرت في بعض الأحيان في كل شارع و زقاق و بيت في البلاد طولها و عرضها ، و رغم أن الدمار طال كل بيت و طريق في كافة المدن ، بقي الموظفون الحكوميون يغادرون بيوتهم كل صباح إلى أعمالهم في مؤسسات الدولة ، و بقيت رواتبهم تصرف بعملة الجبل الأبيض ، و بقيت تلك العملة تحمل نفس قيمتها قبل اشتعال الحرب ، دون أن تجي تلك الدولة أية رسوم أو ضرائب أو دون أن تكون لها أية موارد من أي نوع لأعوام و أعوام .

كثير من الأذكيا كانوا يتساءلون عن سر هذه القدرة العجيبة لدولة الجبل الأبيض على الإستمرار ، و لقد اخترعت لهم أسطورة مضحكة جداً هي أن مصرف دولة الجبل الأبيض يملك احتياطياً من الذهب يكفي لتغطية تكاليف الحكومة لعقود !! و العجيب أن هؤلاء الأذكيا ابتلعوا تلك الأسطورة و تعاملوا معها و كأنها بديهية لا تحتاج لبرهان ، حتى أنني قرأت عنها في مقالات لصحافيين أوروبيين و أمريكيين معروفين بتحري الحقائق بدقة قبل النشر !! لم يخطر ببال أحد من هؤلاء - الذين ردّدوا أسطورتهم كالببغاوات - أن احتياط الذهب الأمريكي كله لو أنفق بسعره الحالي (الزائف) لما كفى لميزانية خمسة أعوام لدولة باهظة التكاليف كدولة الجبل الأبيض تستورد كل شيء حتى مياه الشرب و بذور النباتات و الألبسة الداخلية و لا

تنتج واحدا بالمائة مما تستهلك ، فكيف إذا كان احتياطي الذهب المرعوم لتلك الدولة لا يتجاوز الثلاثمائة طن ، و أن هذا الإحتياطي محتجز كله في مصارف أمريكا ، و أن أحدا لم ينفق منه وزن ذرة من الذهب !!.

أسطورة أخرى اخترعها صديقي رشيد باشا لتفسير هذه الظاهرة العجيبة ، تقول هذه الأسطورة أن ميزانية الجبل الأبيض تعتمد على التحويلات المالية لأبناء الجبل الأبيض من دول أوربة و أمريكا و من الجزيرة العربية ، و لقد صارت هذه الأسطورة أرسخ في أذهان الناس هناك من مشاهد الشروق و الغروب ، و لم يفكر أحد منهم يوما بأن يسأل نفسه كم من ملايين الحوالات يجب أن ترسل إلى تلك الدولة يوميا حتى تغطي أرباح تلك الحوالات تكاليف دولة بأسرها ، تنفق على ملايين الناس ، علما أن مصرف الجبل الأبيض لا يحصل إلا على رسوم تحويل العملة من تلك الحوالات في أحسن الأحوال ، و علما أن معظم هذه الحوالات لا تتم إلا بالنقل الشخصي و دون المرور بالمصرف ، و أن الدولة لا تجمع الضرائب أصلا حتى تحصل على حصتها من الحوالات المزعومة.

كم كنت أضحك عندما كنت أسمع تلك الأسطورة الظريفة المتقنة ، كان جزء مني يتمنى لو أنها كانت حقيقية ، إذاً لوجب ألا تقوم في الجبل الأبيض حرب بين اثنين من الناس ، فتلك الحوالات ، التي تكفي رسومها للإنفاق على دولة ، لا بد و أن الحاصلين عليها أثرياء إلى درجة أسطورية خرافية ، و يلزم من هذا أن يكون اسم تلك الدولة هو : دولة جبل الماس ، أو دولة جبل الذهب ، و ليس دولة الجبل الأبيض !!.

مبدأ آخر لم يسمح البارون و خليفته أبدا بتجاوزه ، هذا المبدأ هو الحفاظ على سلطات الأسر الحاكمة التي اصطنعتها سلطات الإنتداب الأوربية ، و رغم أن الحرب قامت رسميا في الجبل الأبيض لهدف التخلص من استبداد و فساد هذه الأسر ، إلا أن هذه الأسر ذاتها هي التي قادت هذه الحرب في جميع مراحلها ، و هي التي وقعت إتفاق إنهائها العجيب .

هذه الأسر كانت كلها تنتظم ضمن غرفة العمليات التي أدرتها بنفسها طوال تلك الحرب ، عبر هذه الأسر تم تمويل كل التشكيلات شبه العسكرية التي خاضت الحرب ، و عبر هذه الأسر تم تنفيذ كافة النشاطات الإقتصادية و السياسية التي رافقت أحداث المعارك .

لم يكن تمويل أطراف تلك الحرب يشكل معضلة في أي وقت طوال زمن القتال ، لأن ميزانيات هذه الأطراف كانت مؤمنة تماما بدورها و من خزانة البارون مباشرة ، صحيح أنها كانت تدفع بأيدي الأسر العربية الحاكمة ، إلا أنها بقيت دوما مكفولة الجريان بإشراف البارون .

بحجة تمويل أطراف الحرب بدأ في الجبل الأبيض تنفيذ مشروع "الفوضى المنضبطة" الرائع ، في التفاصيل :

إن غياب سيطرة الشرطة و القضاء عن الشوارع أعطى مظهرا فوضويا لأوضاع البلاد أثناء الحرب ، إلا أن الواقع أن هذه الفوضى كانت تدار بدقة و صرامة من غرفة العمليات التي أشرفت عليها بنفسى ، أهم مظاهر تلك الفوضى تم إنشاؤه برضا الأهالي من كل طائفة بذريعة تمويل التشكيلات الحربية الخاصة بتلك الطوائف ، رغم أن أول المكتوي بنار تلك الفوضى كان الأهالي أنفسهم .

في البداية كانت الحواجز المسلحة التي تقطع الطرق و تجبي الرسوم من العابرين مصدرا مزعوما لدخل المتقاتلين ، و لقد أدت هذه الحواجز دورا هاما في نشر الرعب و الفظائع في كل جزء من البلاد ، و أذاقت كل من دب على أرض الجبل الأبيض ألوانا من العذاب و الإهانة و التنكيل ، إلا أن جميع أفعال هذه الحواجز كانت مرصودة بدقة و منضبطة بأوامر حرفية و مُجدولة بعناية تامة .

قبل الحواجز كان القناصة ، ففي بداية الحرب كان صعبا جدا دفع شعب يعبد الرفاهية كشعب الجبل الأبيض إلى الإنزلاق نحو شقاء و ويلات الحرب الداخلية ، و لتحقيق هذا الإنجاز الكبير قام ملك بارسيا بإرسال مائة من أبرع قناصة مخبراته إلى مدن الجبل الأبيض ، و اتخذ هؤلاء مواقع لهم على كافة خطوط التماس بين مناطق الطوائف المتجاورة ، و بمجرد اندلاع شرارة القتال الأولى بدأ هؤلاء القناصة بقتل كل ما يمر تحت أنظارهم بلا رحمة ، استفزت مشاهد جثث الضحايا من مختلف الطوائف كل همة للحرب ، و قضت نشاطات القنلة على كل فرصة لسماع أصوات دعاة الهدوء و الروية.

هؤلاء القناصة البارسيون انضموا لاحقا إلى قوات أتباع الديانة السرية في الجبل الأبيض ، و عملوا على تدريب هذه القوات و تأهيلها عسكريا لتكون الأقوى في الميدان ، و لقد حذت كل التشكيلات المتحاربة حذو هؤلاء القناصة فيما بعد ، و صار القنص عملا مأجورا يقبض عليه قادة المجموعات المتحاربة مبالغ على كل رأس يتم قنصه ، الدفع كان يتم بأيدي ضباط مخبرات الحكومات العربية التي ترعى هذه المجموعات ، و كان يتم بالآلية التالية :

مثلا يتحالف سرا قائد مجموعة مسلم مع قائد مجموعة مسيحي ضد مجموعة ثالثة ، هذه الأخيرة تسيطر على منطقة تجاور منطقة القائد المسيحي ، فيقوم قناصة القائد المسيحي بقتل المارين في منطقة المجموعة الثالثة ، و يدفع قائد المجموعة المسلم مكافآت للقناصة المسيحيين على كل رأس يحصده من المنطقة الثالثة لصالح هذا القائد ، و هكذا دواليك ، لقد قام الجميع في النهاية بالتجارة بالقنص ، و اعتبروه جزءا من مصادر دخلهم نظرا لضرورات المعركة ، و لم يعلم أبدا أي من هؤلاء القناصة أن الذي يدفع أجورهم جميعا مصدر واحد هو : غرفة عملياتنا .

بعدها بدأت عملية نشر الخشخاش و زراعته و استصناعه و الإتجار به ، و صارت لاحقا المصدر الرئيسي لتمويل كل المجموعات المتحاربة و من كل الطوائف دون استثناء ، الواقع أن ثمن هذه المنتجات كان يدفع كله من ميزانيات الحرب التي

تصرف بإشراف غرفة العمليات الآنفة ، و أن كل هذه المنتجات كانت تنقل إلى منظومة طريق الخشخاش التي أشرفت عليها أسرة هرثمة و رفاة ، و كل أرباحها كانت تحصدتها خزائن البارون ، و لا تزال كذلك حتى هذه اللحظة.

عمليات الخطف و طلب الفدية من ذوي المخطوفين لم تكن مصدرا حقيقيا لدخل أية مجموعة في تلك الحرب ، إلا أنها كانت ضرورية لبث الرعب و أجواء الحرب في كل البلاد ، و أبرزت لتبدو مصدرا من مصادر تمويل الحرب ، و لهذا حرصت غرفة عملياتنا على ألا يخلو يوم من حادث خطف و طلب فدية ، و غالبا ما كان القتل مصير المخطوفين رغم دفع الأهالي للفدية ، و لم يُعرف أبدا أي أحد من الذين نفذوا هذه الأعمال ، و لن يُعرف .

التنقيب العشوائي عن الآثار و استخراجها و تهريبها إلى أوربة كان أيضا من المصادر المزعومة لتمويل الحرب ، و لقد استخرجت من هذه الآثار كميات هائلة و نقلت إلى أوربة بأسعار تافهة ، و الأهم من هذا أن الجبل الأبيض أصبح الميناء الأكبر لتهريب الخشخاش و الآثار في شرق المتوسط بأسره ، و لقد صارت تلك البلاد التجمع الأكبر لجميع آثار المشرق ، قبل أن تنقل هذه الآثار إلى أوربة و أمريكا .

جميع تلك الآثار كانت تصل في النهاية إلى مخازن البارون ، لم تكن معظم تلك الآثار من المعادن النفيسة ، و لكنها جميعا كانت تشكل وثائق تاريخية تحكي كل منها عبارة هامة من تاريخ المنطقة و العالم القديم .

أحد المشرفين على عمليات نقل الآثار كان البروفسور أوسكار نفسه ، و سألته ذات مرة عن سر حرص البارون على جمع آثار المنطقة عبر منفذ الجبل الأبيض ، كان ذلك قبل يومنا هذا بثلاثة عقود نصف ، أجابني حينها جوابا مذهلا ، قال البروفسور :

البارون لا يجمع فقط آثار المنطقة العربية أو العالم الإسلامي ، إنه و أقاربه يجمعون آثار العالم كله في مستودعاتهم ، و يحرصون على إتلاف الكثير منها ، بل معظمها ، بعد شرائهم لها ، و يحرصون على إتلاف أكثر المواقع الأثرية المكتشفة حتى تتحول أثرا بعد عين.

قلت بدهشة بادية : لماذا ؟.

قال البروفسور : لقد أسس أجدادنا معابد الحرية ، و في تلك المعابد تم حشو فكرة رائعة في عقول أعضائها ، هذه الفكرة هي :

"إن كل الحضارات القائمة منذ فجر التاريخ إنما هي أساسا من صنع أحد أساتذة الحرية ، بداية من حضارة الفراعنة و انتهاء بحضارة أوربة الحديثة مرورا بكل الحضارات من أقصى شرق الأرض إلى أقصى غربها" ! هذه الفكرة ترسخت في أذهانهم يقينا

ثابتاً ، الغاية منها أننا حين نكشف عن سلطتنا العالمية علناً ، ستكون عشيرة البارون هي الأسرة التي ينتمي إليها كل أساتذة الحرية الأفذاذ العظماء المعمورون صناعات الحضارات الحقيقيون ، فبناة الأهرامات الفرعونية و الأمريكية و بناة معابد الهند الكبرى و أيقونات العمارة الرائعة في كل أنحاء العالم ، هم أجداد البارون المشتتون في أرجاء الأرض منذ آلاف السنين ، و هم وحدهم أصحاب الفضل في كل ما هو جميل و نافع على وجه الأرض !.

في المقابل فإن كل حضارة تنكر فضل هذه العشيرة سيتم طمس كل دليل على أن مؤسسها أشخاص حقيقيون ، وُجدوا يوماً على وجه الأرض ، لقد نجح أجدادنا في محو كل أثر يدل على وجود المسيح ، لقد أقنعنا الناس بأن الآثار المادية المستخرجة من باطن الأرض هي وحدها الدليل على وجود أية شخصية من الماضي ، مهما كانت هذه الشخصية مشهورة ، و أقنعناهم أن الشخصيات التي لا تدل الأحافير الأثرية على وجودها ليست سوى أساطير شعبية صنعها سحر ليالي الشتاء الطويلة ، ها أنت ترى يا كولونيل أن الكثيرين اليوم ينكرون بجرأة و تحدٍ أن المسيح أو مريم وُجدا أصلاً على وجه الأرض ، رغم إيمان المليارات بوجودهما و بل و بألوهيتهما ، إذ لا توجد آثار مادية تدل على وجودهما في أي متحف أو موقع أثري ، لأننا ببساطة محوناها ، و سيأتي قريباً اليوم الذي نلحق فيه مؤسس الديانة الإسلامية بالمسيح من حيث أسطورية وجوده ، فجميع الآثار التي توثق أخباره في فترة حياته قد محيت ، حتى قبور أصحابه و زوجاته و المنازل التي أقام فيها تم محوها ، و حين نعلن عن سلطتنا لن يتمكن أتباعه من إثبات أن : نبيهم المقدس شخص وجد يوماً على وجه الأرض.

اعتدل البروفسور كعادته حين يريد أن يقول شيئاً هاماً ، و ارتشف شرابه و نظر إلى قائلاً : مصدر المعلومات التاريخية الوحيد اليوم هو الآثار ، و كلها عندنا ، إذا نحن فقط من نملك القدرة على كتابة التاريخ كله استناداً للبراهين المادية الملموسة ، و بفضل مخزونات البارون سيكون هذا التاريخ كله هو :

فقط قصة كفاح عشيرة البارون على مر الزمن ، و قصة مساهماتها التأسيسية في صنع كل ما يطلق عليه تسمية حضارة ، و سيكون هذا التاريخ هو المبرر الشرعي الذي لا يرد على أحقية هذه العشيرة بحكم العالم ، لأنها الأم الرؤوم لكل الحضارات و الأحرص على مصلحة العالم و أممه المختلفة على مرّ الدهر ، و هي مهندس العالم الأكبر ، المهندس العبقري الذي عمل بصمت طوال عشرات القرون لتصل الإنسانية إلى هذا القرن العظيم من الرقي و التقدم ، يا كولونيل مهراڻ : نحن نؤسس لإحتكار التاريخ كما نحتكر اليوم السياسة و المال و الديانات و الأخلاق و الإعلام و الحروب و ملح الطعام و الماء الصالح للشرب . انتهى كلامه .

لقد أرست منظومة حروب الأبيض نموذجاً فريداً جداً للحروب الداخلية ، ثم صار في الواقع نموذجاً موحداً لهذه الحروب معتمداً لدى البارون ، يتم تطبيقه على كافة الثورات ، و الهبّات الشعبية ، و القلاقل التي تقع في أي مكان في العالم بأسره .

الخطوات الابتدائية لمواجهة أي زلزال شعبي هي : أولا محاولة سحق الثائرين بسلاح القوات المسلحة التابعة لدولتهم ، أو إعلان قادة هذا القوات دعمهم للثائرين حتى يضمنوا ولاء الشعب لهم ، ثم ينقلبون عليهم لاحقا ليعيدوهم إلى حظيرة الإستبداد ، ثانيا تحويل الثورات إلى حروب داخلية طاحنة ، ثم تحويل هذه الحروب إلى دوامة من العذاب لا نهاية لها ، حتى يكره الشعب الثائر كلمة "حرية" و يعشق دفء الإستبداد عشقا صوفيا لا رجعة عنه ، و يرضى و عنه كأنه القدر الإلهي الأقدس .

الخطوتان الأوليان باعتماد القوات المسلحة نجحتا بإجهاض ثورتين ثورتين سابقتين للمسلمين في الجبل الأبيض ، لكنهما فشلتا في محو حلم الحرية من مخيلة مسلمي ذلك البلد ، فكان لا بد من تجربة الحل الثالث ، و لذلك أشعلت الحرب هناك ، و بالفعل تمكنت هذه المنظومة و ببراعة فائقة من تحويل حروب الجبل الأبيض إلى دوامة لا نهائية من الدمار و الويلات ، ثم إلى نموذج مثالي ناجح جدا لترسيخ عشق الإستبداد عند الشعب المسلم ، بفضل سلاحين لا ثالث لهما :

الأول : هو الدناءة و اللأولاء اللامتناهيان اللذان يتصف بهما عادة العامة و الدهماء ، و هم الغالبية الساحقة في أي شعب فقد قيادته الروحية و صارت الديانة عنده أمرا ثانوياً .

الثاني : هو النقود الورقية التي تقوم بتوزيعها بسخاء أجهزة مخابرات الدول المتعاطفة مع قضية " الشعب الثائر " على قادة الشعب الثائرين المتحررين من كل قيود و ضوابط "بالية" ، و هذه الأموال كلها من خزينة البارون .

لفهم طبيعة السلاح الأول لا بد من أخذ أمرين هامين بالاعتبار ، الأول : هو ضعف سلطة رجال الدين و تعاليم الدين على نفوس العامة ، إلى درجة انحصار هذه السلطة في مراسم الشعائر المتعلقة بالموت و الولادة و الزواج و بعض حالات الطلاق ، هذا الضعف انعكس على سلوك رجال الدين ، فلقد صاروا يهرون من تبيان قوانين الدين للعامة ، و يحاولون بكل وسيلة استرضاء العامة بفتاواهم و مواعظهم حتى لا يهرب العامة منهم نهائيا ، فيفقد رجال الدين مبرر وجودهم و وظائفهم ، و لقد بالغ رجال الدين المسلمين في الجبل الأبيض في التزلف للعامة ، إلى درجة أنهم صاروا يمجنون القلة من زملاءهم الذين ينشرون تعاليم الإسلام بشفافية و صدق ، بل راحوا يعزلونهم و يلمزونهم عند العامة على طريقة نقابات الحرفيين التي تحارب معلمي الحرف الذين يحطمون أسعار البضائع و أجور الصنعة ، و هكذا لم يعد هناك أي حد لمطامع العامة ، و لم يعد لديهم وازع ديني يردعهم ، و لم تعد لديهم ضوابط لوسائل حصولهم على مطامعهم .

عقود متتالية من تهميش رجال الدين المسلمين و اختلاط عامة المسلمين مع أتباع ديانة باولو ، هذه العقود أنتجت شخصية من عوام المسلمين في الجبل الأبيض ترى أن المال و الثراء هو كل ما يحلم به المرء ، و أما أمر الحياة بعد الموت فلا داعي

للتفكير به طالما أن رجال الدين موجودون ، و أنهم سيقومون بطقوس الجنائز و اجتماعات العزاء بما يكفل للميت دخول الفردوس و النجاة من الجحيم ، خاصة إن هذه المراسم عالية الكلفة و تتضمن توزيع الكثير من الطعام على قراء المآتم !.

و لقد عزز رجال الدين المسلمون هذه الفكرة عند رعيتهم في الجبل الأبيض ، من خلال خطبهم و دروسهم التي لا تتحدث إلا عن الطرق المختصرة جدا لدخول الفردوس و النجاة من عقاب العالم الآخر ، هذا المنحى أدى إلى أن يكون رجال الدين هم الرعية ، و أن يصبح العامة هم الموجهون و المرشدون الروحيون لشيوخ طائفتهم بحسب رغبتهم !.

الأمر الثاني هو قانون السيادة الأزلي الذي رسم تاريخ البشرية بأسره ، إنه قانون نجاح مغامرة القوة و مخاطرة الحرب ، فالحرب في الواقع مغامرة قصيرة محدودة ، يخاطر المغامر فيها بحياته و ممتلكاته في جولة زمنية قصيرة ، فإن نجح و قضى على قوة أعدائه استحوذ على ما بأيديهم من مال و منافع و ممتلكات ، و استعبدتهم بقانون الخوف من العذاب ، ثم أمضى بقية حياته بعد هذه المغامرة يتمتع بما جلبته له مجازفته من مغامر ضخمة ، فلا أعباء و لا واجبات و لا قلق على مستلزمات المعيشة ، بل هو الثراء الفاحش و السلطة غير المحدودة.

معلوم أن هذه المكاسب ليست بحال من نصيب الجنود الصغار ، الذين يساقون إلى الحرب بخدعة الدفاع عن المبادئ العظيمة ، و تحقيق أمجاد الأمة و مستقبل الأجيال القادمة ، هذه المكاسب هي فقط من نصيب القادة الكبار الذين يوجهون المتحاربين الصغار إلى ميدان القتال ، بينما يتعرضون هم لأقل مخاطر الحرب.

هذا القانون على إجحافه و سخافته بقي يحكم الصراعات البشرية و يرسم خرائط التاريخ على مر العصور ، و هو يسيطر على اللاوعي لدى قادة المعارك التي حدثت في الماضي و ستحدث في المستقبل ، مهما كانت هذه المعارك صغيرة و محدودة ، إغراءات هذا القانون بالإضافة إلى الأمر الأول (سقوط سلطة الديانة) أطلقا العنان للعامة من المسلمين في الجبل الأبيض ليتحول أكثرهم إلى مخلوقات جائعة لا تدانيها في دنائها أردأ وحوش الغابات طباعا و أشدها قسوة و غدرًا.

لقد استمتعت كثيرا باستعمال هذا السلاح في إدارتي لحروب الجبل الأبيض ، و أما السلاح الثاني و هو المال فإنه لم يكن أبدا ليعمل لولا السلاح الأول الأنف الذكر ، سلاح دناءة العامة و لا محدودية الخسة في وسائل حصولهم على المنافع .

لنأخذ دورة حياة حركة ثورية ما نموذجاً عاماً ؛ نفهم من خلاله كيف استعملت منظومة حروب الجبل الأبيض هذين السلاحين بفاعلية.

في البداية تختار غرفة العمليات - التي أديرها - شخصا من عامة المسلمين ، هذا الشخص يجب أن يكون من طبقة متوسطة قريبة من الطبقات العليا و من الطبقة الشعبية الفقيرة في آن معا ، و يجب أن تكون لديه شخصية قادرة على توجيه العامة ، ثم يتم الإتصال بهذا المرشح لمراتب الجمد عبر وسيط سري من أعضاء الأسر الحاكمة في الجبل الأبيض ، بعد تجنيد رجلنا هذا

يُغَيَّب لفترة عن منطقته ، خلال هذه الفترة يخضع لدرورة تدريبية مركزة يتعلم خلالها مبادئ فكرية من نوع شائع ، كالأفكار الوطنية أو القومية أو الاشتراكية الأهمية أو الدينية الحزبية ، لا بد أن تكون هذه الأفكار متبناة من أحد الأحزاب الحاكمة لبلد ما يعلن عن تعاطفه مع ثورة شعب الجبل الأبيض ، ثم يتعلم هذا الشخص أساليب الدعوة لهذه الفكرة و الدفاع عنها و إقناع الشباب بأنها هي القدر المحتوم الذي لا مفر منه لإنجاح ثورة الشعب ضد الإستبداد و الإضطهاد العرقي و الديني .

بعد الغيبة يعود هذا الفتى إلى الجبل الأبيض ليقوم في إحدى قواعد منظمة التحرير العربية التابعة للسيد سهل ، هناك يتم جمع هذا الفتى بعدد من أقرانه من الشباب المسلمين الحاملين بالحرية من أبناء منطقته ، من الذين تطوعوا للقتال ضمن إحدى الفصائل المسلحة التابعة لمنظمة السيد سهل ، و هكذا تتشكل الحركة الثورية الجديدة في رحم حركة ثورية أخرى ، بعدها يحصل هذا الفتى و مجموعته المؤسسة على دعم مالي و على عتاد حربي برعاية السيد سهل .

يعود الفتى بصحبة مجموعته مدججا بالمال و السلاح إلى منطقته ، و هناك يحتل عددا من المباني التي هجرها أصحابها فرارا من الحرب ، ثم يرفع على المباني علم حركته الثورية الجديدة التي جاءت لإنقاذ الفقراء و الضعفاء ، يعود و هو يحلم بأن يصبح ملكا لكل البلاد في يوم ما ، جميع أفراد قيادته حركته غارقون أيضا بنفس الطموح ، و لم لا فالسلطة لا تحتاج إلا مال و سلاح ، و لقد حاز الفتى عليهما ، فليصبح ملكا إذا ، الآن أو في المستقبل .

في البداية تقدم هذه الحركة الثورية بعض الخدمات لأهالي المنطقة ، فتوفر لهم عادة مستوصفا طبيا ، ثم مركزا لتوزيع بعض المعونات الغذائية و الدوائية المقدمة من الدولة الصديقة المتعاطفة التي تفرغت منها الحركة الثورية الجديدة ، ثم تصبح هذه الدولة الراعي الرسمي لهذه الحركة الثورية ، بعدها يبدأ قائد الحركة الشاب بالاتصال مع المقاتلين في منطقته ، و مع الشباب ذوي القوة ليعرض عليهم العمل معه لقاء رواتب "ثورية" و نفوذ ، و "غطاء" ، و معنى كلمة غطاء هنا : الحماية من عواقب أي اعتداء يقوم به أحد هؤلاء ، سواء أكان قتلا أم سلبا أم اغتصابا ، يقوم المال طبعا بمهمة إقناع هؤلاء الشباب ببيع ولائهم للحركة الثورية و قائدها الملهم .

بعد مدة تنظم الدولة الراعية للحركة الثورية منحا دراسية علمية للطلبة المسلمين المنتسبين لهذه الحركة ، أو للذين يرشحهم "المكتب السياسي" لهذه الحركة ، و يفتح باب الطلبات ، و يفوز بالمنح أقارب قائد الحركة و أعوانه ، إلى جانب هذه المنح تنظم الدولة الراعية دورات على أراضيها لأعضاء قيادة الحركة الثورية الجديدة ، يسافر المختارون لكلا المنحيتين إلى الدولة الراعية ، ثم يعود أعضاء القيادة إلى الجبل الأبيض بينما يبقى الشباب الدارسون المتعلمون في غربتهم إلى الأبد .

الأعضاء العائدون يبقى قسم منهم مع القائد المؤسس للحركة الثورية ، بينما يعود آخرون بأموال و أوامر بالإنشاق عن الحركة الأصلية و تأسيس حركة ثورية موازية ، على سبيل المثال يكون إسم الحركة الثورية الأولى : حزب الكادحين الثوريين .

فيصير إسم الحركة الجديدة الموازية ، حزب الكادحين الثوريين (قيادة الطوارئ) ، يصدر قادة الإنشقاق بيانا موجها إلى الشعب الصابر ، بيانا مليئا بالشنائم لقادة الحركة الثورية الأصلية ، يتهمهم بالنكوث على مبادئ الثورة الشعبية ، و بالخيانة .. إلخ ، و يبشر الشعب بتصحيح المسار نحو النصر !.

الأموال التي بحوزة المنشقين تحفز المزيد من الشباب على الانضمام إلى الحركة الجديدة ، لأنهم يجدون في الإنشقاق فرصة في اغتنام الأموال و النفوذ و الغطاء ثمنا لولاء يحتاجه القادة الجدد ، و أيضا كل واحد منهم يعتبر أن انضمامه لهذه الحركة الجديدة خطوة نحو المجد و في سبيل الملك و العظمة !.

ثم تبدأ الحرب بين الحركتين كما شرحت في ما سبق ، ميدانها بين بيوت المسلمين ، و ضحاياها هم العامة منهم و الفقراء و الرافضون لخوض أي صراع ، يتساقط الشباب المسلمون صرعى على جانبي القتال ، ثم تتدخل الدولة الراعية لفض القتال و الإصلاح بين رفاق المبادئ المشتركة و الثورة الواحدة ، و ينتهي القتال باتفاق صلح "تاريخي" يقتسم بموجبه الرفاق الأعداء المنطقة التي يقتتلون على أرضها ، و يستولي المنشقون على مبان جديدة ، و تنصب كل حركة ثورية حواجز خاصة بها للتفتيش و قطع الطرق ، و تجبي كل منها الأتاوات من المارة و الجوار ، و تمتلئ جدران المنطقة بصور الشباب القتلى خلال صراع الإخوة من مقاتلي الحركتين ، صور مذيلة بعبارات مؤثرة مثل "شهيد الثورة" و "الشهيد الخالد في ضمائرنا" .. إلخ ، و إلى جانبها عبارات مثل "كلنا قيادة الطوارئ" أو "كلنا كادحون ثوريون" ، و صور لقادة الحركتين و هم يرتدون النظارات الشمسية و يلبسون الزي العسكري مذيلة بعبارات مثل : "نحن معك حتى آخر قطرة دم" أو "معك حتى الجدار الأخير" .. إلخ.

و طبعا ينسى الجميع أولئك القتلى و المعاقون و المشردون و المنكوبون و المغتصبات من العزل الذين سقطوا خلال صراع التصحيح الثوري ، يسجل تاريخ الحرب ذكرى هؤلاء باسم "ضحايا مجزرة منطقة كذا" ، لقد حفل تاريخ الحرب في الجبل الأبيض بعشرات المجازر على هذه الشاكلة ، بعد كل مجزرة كان بعض قادة الحركات الثورية يصعدون إلى مصاف الأثرياء جدا. بعدها تنتقل الحركتان إلى العمل الحقيقي ، و هو خدمة المؤسس الأول للحركتين و هو الأسرة الحاكمة التي اختارت الشاب المؤسس الأنف الذكر ، هذا العمل يكون إما في تجارة السلاح ، أو تجارة الخشخاش و مشتقاته ، أو تجارة الدعارة و الجنس ، أو السلب المسلح للمارة و التجار و الأثرياء ، أو القتل بالأجرة و تنفيذ المجازر العشوائية هنا و هناك بالكمان أو بالسيارات المتفجرة أو العبوات الناسفة أو القنص ، و معظم أعمال القتل هذه كانت تنفذ دون أية أهداف مباشرة سوى نشر الرعب و الخوف و اليأس بين الناس ، لجعل كلمة كـ "ثورة" أو "حرية" تصيبهم بالغثيان لجرد سماعها.

تذهب غنائم معارك الحركة الثورية و معظم الأموال التي ترصد لها دائما إلى جيوب قادة هذه الحركات ، بينما لا ينال المقاتلون الصغار من هذه المكاسب إلا الفتات الذي لا يكاد يسد الرمق ، و هذا دوما حسب إرشادات صارمة لغرفة العمليات التابعة لنا ، فالمطلوب من الحرب هو تعميم الشقاء و اليأس و ليس تعميم الغنى و الطموح ، و مع هذا لم نجد أبدا صعوبة في تجنيد المزيد من الشباب من عامة المسلمين للقتال في الحركات الثورية التي نؤسسها ، لقد كانت الرواتب التافهة التي نجند بها هؤلاء أشد إقناعا لهم من كل مبادئ الحكمة و العقل و المنطق و الوفاء و الوازع الوجداني ، و لتأمين انشقاق أي مقاتل من هؤلاء عن حركته إلى أية حركة أخرى لم نكن نحتاج إلا لبضعة أوراق نقدية نضيفها إلى راتبه الذي يحصل عليه من حركته التي نريده أن ينشق عنها ، و يقاتلها لاحقا إن اقتضت رغبة دافعي الرواتب .

لقد انتهك مقاتلوا هذه الحركات الثورية حرمت و دماء المسلمين في الجبل الأبيض بما يفوق آلاف أضعاف انتهاكات قوات الطوائف الأخرى لهذه الحرمت و الدماء .

في مرحلة أخيرة و بعد مدة من الفوضى ، يتم اختيار حركة ثورية ثالثة من قبل غرفة عملياتنا ، هذه الحركة تعلن الحرب على الحركتين آنفتي الذكر ، و تجتاح مكاتب و مناطق نفوذهما ، و تقتل عددا من مقاتلي هاتين الحركتين ، ثم يهرب قادة الحركتان بشرواقتهم إلى الدولة الراعية و من هناك يتابعون نضالهم الثوري عبر البيانات و المقابلات الصحفية التي يتابعها أقاربهم بأسى حزنا على الفرصة التاريخية للحرية ، تلك التي أضاعتها الحركة الثالثة العميلة المتآمرة على الثورة !.

هذا النموذج لدورة حياة حركة ثورية ، كنت أنا من وضع تصميمه و طوره على مراحل خلال خمسة أعوام من البحث و المراقبة ، كان اللواء مغيرة هو الذراع الذي اعتمدت عليه في عملي هذا في الجبل الأبيض ، فلقد أسس بإشرافي منظمة للاستخبارات تابعة لجيش هرثمة الشقيق الذي حضر لإنقاذ شعب الجبل الأبيض ، لقد جمعت هذه المنظمة سجلا من المعلومات غاية في الدقة ، ضم كل حركة و سكنة و كبيرة صغيرة و كل همسة قيلت في تلك الفترة ، لقد جندت منظمة مغيرة كل من هب و دب على أرض الجبل الأبيض لصالح هذا العمل الإستخباري الضخم ، لقد سجلنا حتى وقائع الخطبة و الزواج و الطلاق و الفراق و العلاقات العاطفية بين السكان .

تمتع مغيرة كثيرا بالعمل على إنشاء هذا السجل ، فلقد أقام علاقات مع جميع زوجات قادة الحركات الثورية و زعماء الأسر الحاكمة رغم أنهم موالون لنا حد العبادة ، و استعمل هذه الفضائح ليرغمهم جميعا على العمل بجد و نشاط و مراقبة كل شيء حتى أنفسهم و رفع تقارير يومية عن كل شيء يدب أمامهم .

بتحليل دقيق لكل المعلومات في هذا السجل توصلنا إلى صناعة نموذجنا الذي عرضته سابقا ، نموذج شامل ينظم الثورة و عناصرها الفاعلة و يبيئتها الحاضنة ، و مسار تطوراتها و مصير مجموعاتها ، لقد استنتجنا بفضل هذا السجل مسارا صارما ناجحا إلى درجة مطلقة لا مجال للفشل معها ، كان هذا قد تم حتى قبل ظهور فكرة الجيش الأسطوري للوجود .

طبقت منظومات البارون هذا النموذج عدة مرات بشكل ناقص في عدة بلدان ظهر فيها الجيش الأسطوري ، و لكن البارون قرر لاحقا تطبيقه بشكل كامل في جميع البلدان العربية في فترة لاحقة ، أخذنا بنصيحة البروفسور برنار التي أشرت إليها سابقا ، لقد عاد الجبل الأبيض بعد اجتياح أورك ليكون نقطة إنطلاق لتنفيذ هذا النموذج في كل المنطقة و ربما في العالم الفقير بأسره .

كانت حروب الجبل الأبيض قد انتهت قبل اجتياح أورك بعقد و نصف من الزمن ، و ذلك باتفاق أشرت إليه سابقا ، توسط ظاهريا لعقده رجل تولى بعد نهاية الحرب حكم ذلك البلد ، كان هذا الرجل ابنا غير معترف به لإحدى الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية ، وُلد في الجبل الأبيض لأُم من ذلك البلد و لأب من أسرة تحكم في الجزيرة العربية و تنتسب لعشيرة البارون .

لقد أدار الرجل البلاد بكفاءة عالية ، و نفذ بنود الإتفاق الذي أنهى الحرب بدقة متناهية ، فنهضت كل المناطق التي تسكنها الأقليات غير المسلمة نهضة كبيرة ، و صار لكل طائفة في البلاد جيشها السري الخاص و امتلأت بيوت أتباع هذه الطوائف بالأسلحة و الذخائر و الأموال و الخدمات و أنواع الرفاهية ، و تمتعت مناطقهم بالخدمات الممتازة ، بينما تحولت مناطق المسلمين إلى ما يشبه مجمعات القمامة الضخمة جدا ، فقر و عوز و جهل و فوضى و بيوتهم خالية من أي سلاح فعال يذكر ، و بينما كان مرضى المسلمين يموتون على أبواب مشافي حكومة الجبل الأبيض ، بسبب عجزهم عن سداد الفواتير الطبية ، كانت مناطق غير المسلمين ترفل بأفضل مراكز و خدمات الطبابة في شرق المتوسط ، بعضها كان هبة من هذا الحاكم المسلم (رسميا) و باسمه شخصياً .

و مع هذا فإنه أقنع عامة المسلمين في الجبل الأبيض بأنه منهم و أنه يمثلهم في تشكيلة الحكم الطائفية ، و أنه ساهر على مصالحهم و يسعى للنهوض بأحوالهم ! .

كان هذا الرجل مطالعا تماما على تفاصيل السجل الذي صنعناه مع اللواء مغيرة ، و صار لاحقا من أصدقاء مغيرة المقربين ، و تشارك معه في تجارة اللحوم البشرية البيضاء التي تخصص بها مغيرة ، و بهما تحولت عاصمة الجبل الأبيض إلى مأخور ضخم يشبه عاصمة القمار الأمريكية في كل شيء تقريبا .

كان السيد "لطيف" - اسم صاحبنا - مطالعا أيضا على أعمال تأسيس الجيش الجيش الأسطوري ، و أشرف على نقل آلاف من أعضاء هذا الجيش عبر مطار عاصمة الجبل الأبيض إلى معسكرات منظمة سهل في بلادنا.

لطيف شخص طموح جدا بشكل غير محدود ، و لديه الكثير من البراعة في تجزئة الخطط و تجميع خيوطها في يديه ثم تحريكها بشكل متناسق غير محسوس ، طموح هذا الرجل كان السبب في إختيار رأسه من قبل البارون ليكون شرارة لإشعال أول ثورة عربية في سلسلة الثورات التي أعد البروفسور برنار خططها و طواقمها.

لقد أراد السيد لطيف أن يبنى لنفسه دولة جديدة كبيرة ، تضم بلادنا و الجبل الأبيض و مناطق المسلمين في بلاد أورك ، و لهذه الغاية راح يشكل منظمة سرية غير مكرسة رسميا ، قوامها شخصيات من الأسر الأرستقراطية السابقة و الأسر الحاكمة المستحدثة في تلك المنطقة ، و لقد اتصل هذه الغاية بالكثير من رؤوس الأسر الأرستقراطية المسلمة من المنفيين ، و راح يسهل أمور أعمالهم في الجزيرة العربية و شارك العديد منهم و صاهر بعضهم .

رغم أن هؤلاء كانوا جميعا تقريبا أعضاء في معابد الحرية إلا أنهم كانوا جميعا من المسلمين ، و رغم أن لطيف أقام تحالفات علنية مع هرثة أثناء حكمه و مع قادة أتباع الديانة السرية و مع قادة أتباع ديانة باولو ، و رغم أنه كان قاسيا جدا في اضطهاده للمسلمين إلا أن تحركاته أقلقت البارون و خاصة بعد موت هرثة و تولي مرسال للحكم ، فلقد رفض لطيف الظهور بمظهر الحليف لمرسال مطلقا ، و صرح لمستشاري البارون عدة مرات بأن ظهوره بمظهر الموالي لمرسال يعتبر إهانة شخصية له ، رغم أن اتخاذ مظهر الولاء لمرسال كان بأمر من البارون نفسه .

أكثر التذمر كان يأتي من قادة الديانة السرية الذين اعتبروه شخصا أرعنا يلعب بالنار ، و رغم كل الشكوك المثارة حول لطيف بقي البارون صبورا معه على غير العادة مطلقا ، إلا أن الضربة القاضية جاءت من تقرير أعده أحد قادة معابد الحرية و هو الوصي على عابد ابن الملك الوسيم ذو النسب المقدس ، هذا التقرير تحدث عن تأثير حقيقي للطيف بديانة أمه المسلمة ، و عن عقدة تختبئ في نفسه بسبب الدونية التي عومل بها هو و أمه من قبل أبيه الذي رفض إلحاقه بنسبه علنا بالنظر إلى أن أمه مسلمة من أصول تركية ، و لقد أنهى هذا شكوك البارون و ريبته حول أهداف تحركات لطيف ، فقرر أن يكون مقتل هذا المسكين بداية لشرارة مشروع البروفسور برنار ، البارون عادة لا يطالب أحدا و لا يحذر أحدا و إنما يأمر ، و ما على الرفض للأمر إلا تحمل عواقب عمله ، التي تكون رهيبة جدا في العادة.

جاءت الأوامر للطيف بالتصرف بشكل يبدو و كأنه يتحدى سلطة مرسال في الجبل الأبيض ، ففرح بهذا و شعر بأن مطالبه لدى البارون قد تحققت ، تلا هذا موجة من الزخم الإعلامي و الحملات الإعلامية التي تحمل انتقادات مبطنة من كل من الجهتين للجهة الأخرى ، و تصاعدت الأمور حتى أعلن لطيف عن استقالته من حكم الجبل الأبيض على أمل أن يعود لاحقا

إلى السلطة على رأس حكومة تعلن الحرب على مرسال و حكمه للجبل الأبيض ، لقد طالب لطيف عدة مرات صراحة بتولي السلطة بدلا من مرسال و باستنساخ حكومة شبه ملكية تدين بالنسخة النجدية رسميا و تعتبر صورة محدثة للتدين الإسلامي ، أظن أن الغرور هو ما دفع لطيف لفعل هذا ، خاصة و أنه أرفق بطلبه خارطة لعلاقاته مع الشخصيات المسلمة الآنف الذكر ، لغرض دعم طلبه ، و أكد أن حكومته ستكون بديلا أكثر أمانا من حكم أتباع الديانة السرية ذوي الأطماع الإمبراطورية التي يراها كل أحد رغم استبطانها .

تظاهر البارون بأنه موافق ضمنا على طلب لطيف ، و بهذا استدعاه إلى المقصلة فسار إليها و هو يظن أنها المجد المنشود . كان برنار - الذي علم بقرار البارون - قد أعد العدة لإشعال ثورة شعبية ضد حكم مرسال و أتباعه في الجبل الأبيض ، لم تكن طواقم موقدي هذه الثورة على الأرض من المسلمين و إنما كانوا من أتباع ديانة باولو ، و من أتباع فرع صغير من الديانة السرية ، هو أقوى فروع هذه الديانة ، و أوكلت مهمة إلحاق عامة المسلمين بالثورة لحزب لطيف ، دون معرفة لطيف طبعا أو معرفة أعوانه بما قرره البارون من أن مقتل لطيف سيكون شرارة الثورة و السبب المباشر لإشعالها .

من المفارقات القاسية أنه كان من جملة إعدادات برنار تهيئة إعلام حزب لطيف لتحريض المسلمين على الثورة ، و يعلم لطيف المسكين نفسه الذي كان يظن أن هذه الإعدادات للتمهيد لإطلاق مشروعه الآنف .

في صباح شتوي حلقت في سماء عاصمة الجبل الأبيض عدة طائرات دون طيار ، كلها حملت أجهزة لتشويش كافة الإشارات الإلكترونية في كل أرجاء المدينة و محيطها ، و بعد هذا بقليل سقط على موكب لطيف صاروخ من إحدى هذه الطائرات يحمل شحنة ناسفة متطورة جدا بقوة كبيرة أحرقت الرجل في داخل سيارته المصفحة ، كان مشهدا مأساويا ذكر المسلمين بمناظر ضحاياهم خلال الحرب الداخلية ، و على إثر هذا اندفع آلاف من أتباع ديانة باولو إلى ساحات عاصمة الجبل مطالبين باستقلال بلادهم من احتلال جيوش بلادنا ، و أشعلوا ما عرفت بثورة أشجار الجبل الأبيض .

منظومة حروب الجبل الأبيض كانت بقيادة لطيف نفسه عندما أعيد تفعيلها لتعمل في بلاد أورك بعد اجتياحها ، و لقد عملت في بلاد أورك بنفس الآلية التي عملت بها في حروب الجبل الأبيض ، مع بعض الفوارق التي فرضها واقع بلاد أورك ، فالمسلمون في أورك كانت لديهم أسر حاكمة و إن كانت من أصول متواضعة ، إلا أن أبناء هذا الأسر كانوا يحاولون تقليد الأرستقراطيين الحقيقيين ، و يتمنون أن يستنسخوا سلوكيات و تراث الأسر النبيلة العريقة ، و لأجل هذا قرر وولتر التخلص منهم جميعا بعيد الإجتياح ، و تم له ذلك كما أسلفت في معرض حديثي عن السّنة التي أعقبت سقوط حكم كسار ، و بهذا وصلت أورك كلها إلى مرحلة انعدام القادة الاجتماعيين ، عند المسلمين و عند أتباع الديانة السرية في آن معاً ، فتولت منظومة حروب الجبل الأبيض صناعة أسر حاكمة جديدة لذلك البلد .

الأسر الحاكمة الجديدة للمسلمين في أورك كان معظمها من أولئك التجار و الضباط الصغار ذوي رؤوس الأموال المتوسطة الحجم ، الذين وصلوا برحلات عمل إلى الجبل الأبيض بعد سقوط حكم كسّار ، فالجبل الأبيض كان منطقة استيراد مفتوحة و تتوفر فيه بضائع كثيرة بأسعار بخسة مقارنة بدول المنطقة ، و السبب يعود لشبه إنعدام الرسوم الجمركية و لعراقة تجارة التهريب من و إلى ذلك البلد ، هؤلاء التجار الصغار و الضباط الصغار جاؤوا للجبل الأبيض لينقلوا إلى أورك بضائع كان استيرادها محظورا أيام حكم كسّار ، كالفاكهة الإستوائية بأنواعها و السيارات الحديثة و الإسمنت و حديد البناء ، المولدات الكهربائية الصغيرة و المتوسطة التي تشتغل على الديزل ، الألبسة الرياضية و النسائية ، المأكولات المسلية كالشوكولا و الأساسية كالأجبان ، و المشروبات الغازية و غيرها ، هذه المواد طافحة في أسواق الجبل الأبيض ، بينما اعتاد سكان أورك على ندرة هذه السلع في بلادهم ، و كانوا يدفعون أسعارا باهظة ثمنها في العام الأول للإجتياح.

كانت مخبرات مغيرة تنصيد من هؤلاء الزوار من تختارهم غرفة عملياتنا التي أشرت إليها ، الغرفة التي أشرفت على عملية اجتياح أورك استخباريا ، هذه الغرفة كانت مزودة بمصنفات تفصيلية عن كل من يحمل جواز سفر صادر من حكومة كسّار ، هذه المصنفات قدمها لنا اللواء حنا و كانت تتضمن أيضا معلومات عن جميع منتسبي جيش كسّار و ميولهم السياسية ، و لقد اخترنا منهم الأردأ سلوكيا و الأميل إلى المكسب بغض النظر عن الوسيلة .

كانت مخبرات مغيرة تعتقل المختارين من هؤلاء ، ثم تنقلهم إلى معسكرات لمنظمة السيد سهل في مناطق حدودية تابعة للجبل الأبيض ، و هناك كان يتم تجنيدهم بإشراف السيد لطيف ، لقد تم إقناعهم جميعا بالإغراءات المالية و التهيب من مصير مجهول ينتظرهم إن رفضوا العروض المقدمة إليهم ، و الواقع أن هذه العروض كانت توافق ميولهم للسيطرة و الكسب ، فلقد منح كل واحد منهم ميزانية كبيرة ، و عين له ضابط يشرف على عمله ، و قدمت لهم قوائم بأشخاص من دائرة معارفهم لإستهدافهم و تجنيدهم ، الغاية المعلنة كانت تشكيل منظمات مقاومة شعبية للغزاة الأمريكيين و الأوروبيين ، لتحرير أورك و إعادة أمجاد العروبة و الإسلام إليها .

مخبرات اللواء حنا كانت قد أعدت هذه المصنفات و القوائم بعناية تامة قبل الإجتياح ، حتى الخرائط و سلاسل الرتب العنقودية لتلك المنظمات كانت جاهزة ، لم يكن على منظومة حروب الجبل الأبيض سوى التنفيذ دون اجتهادات في أكثر الأحيان.

أولئك الذين جُندوا في هذه العملية (صناعة أسر حاكمة) لم يكن مطلوبا منهم أن يقاتلوا ، كان المطلوب منهم أن يؤسسوا منظمات تقاتل ، بينما يقومون هم بتمويل هذه المنظمات و تزويدها بالمهام و جداول الأهداف و خرائطها ، التي نرسلها لهم تباعا ، أما عملهم الظاهر فهو التجارة و الإستثمار و الأعمال الإنشائية ، كان يتم تجهيزهم ليكونوا الأسر الحاكمة الجديدة لمسلمي أورك بدل الذين هجرهم وولتر .

ما ميّز هؤلاء الجدد عن سابقهم كان تمتعهم بكمية ضخمة من الانتهازية و النذالة ، و قدرتهم الهائلة حقا على فعل أشنع الأفعال من نقض عهود و كذب مفضوح وقح للغاية و سلب و غدر و ابتزاز علني ، و حتى قتل بلا رحمة و دون حدود أبدا ، فإن أي واحد منهم على استعداد لإعطاء أية عهود و موثيق من أي نوع ، و على استعداد لنقضها و النكوث بها في نفس اللحظة و علنا و دون أن يرف له جفن ، على طريقة قطاع الطرق في الغرب الأمريكي بعد الحرب الأهلية بين الشمال و الجنوب .

هؤلاء تحولوا فيما بعد إلى ممثلين للمسلمين الأوركيين في تشكيلة الحكم التي صنعها وولتر لدولة أورك "الإتحادية" الجديدة ، و صاروا أعضاء دائمين أبديين في مجالس نواب الشعب و حكومات أورك في فترة ما بعد الإجتياح .

جنّد أعضاء الأسر الحاكمة لمسلمي أورك عشرات الآلاف من شباب طائفتهم ليحاربوا الغزاة ، كان القتل مصير هؤلاء الشباب جميعا في نهاية الأمر ، و من بقي منهم حيا فهو الآن نزير أحد المعتقلات الأبدية الكثيرة التي أقامها الراحل وولتر في كافة أرجاء البلاد .

مع هذا بقي أعضاء هذه الأسر يتمتعون بمميزاتهم و ثرواتهم و مناصبهم ، و رغم أن معظمهم أعلن الحرب على أتباع الديانة السرية في فترة الحرب الداخلية ، و رغم أن معظمهم دفع أجرة القناصين الذين قتلوا جنودا أمريكيين و أوربيين ، و رغم أن معظمهم مول مئات التفجيرات في كافة أرجاء البلاد و خاصة في مناطق أتباع الديانة السرية ، و حتى خارج البلاد أحيانا ، و رغم أنهم وفروا المأوى مرات عدّة لقادة و دعاة الجيش الأسطوري ، رغم كل هذا لا يزال جميع أفراد و مسؤولي حماية هذه الأسر و ممتلكاتها من الجنود أتباع الديانة السرية !! .

هذه التركيبة العجيبة أجبرت مسلمي أورك على التعامل مع أعضاء هذه الأسر على أنهم أسر حاكمة ، فعن طريقهم فقط يستطيع المسلم أن يعرف مصير ابنه أو أخيه أو أخته إن اختطف أحدهم مجموعة مسلحة تابعة للديانة السرية ، و عن طريقهم فقط يمكن للمسلم أن يدفع الفدية لنفسه أو لذويه من ضحايا انتقام قوات الديانة السرية ، سواء أكانت تلك القوات قادمة من باريسيا أو أنها من سكان أورك .

ليست مهمة هذه الأسر قيادة المسلمين في أورك ، و إنما تقييدهم دوما إلى الجدار ؛ إذ بعد كل مجزرة من مئات المجازر التي أوقعتها مجموعات الديانة السرية بالمسلمين ، كان أفراد هذه الأسر يقومون بتهدئة أقاربهم و أبناء جوارهم و مناطقهم من المنكوبين ، و يكررون عليهم دوما شعارات حرب قاع المترسخة في أذهان مسلمي أورك مثل : "الطائفية مقبحة و عار" ، "العرب إخوة و الدين لا يفرقهم" ، "أورك وطن واحد و تقسيمه خيانة كبرى" ، "أتباع الديانة السرية إخوان للمسلمين في الإنتساب للوطن و العروبة" ! و تصرفات هذه المجموعات المقاتلة لأتباع هذه الديانة من قتل و للمسلمين و تنكيل بهم و تهجير إنما حصلت بسبب تغريب و خداع مخابرات باريسيا لأفراد هذه المجموعات ، و سيعودون إلى رشدتهم في نهاية الأمر ،

فصبوا فالوطن يستحق التضحية !! و لتكتمل الخدعة يقوم هؤلاء بتخليص بضعة محتطفين من المسلمين و الكشف عن مصير البعض منهم و تخفيف أحكام عن آخرين ، حتى يقتنع عامة المسلمين بأن حكومة أورك الجديدة التي يسيطر عليها أتباع الديانة السرية تضم أشخاصا يكرهون بارسيا و الطائفية و يحبون المسلمين الأوركيين فقط لأنهم أوركيون ، و بأن ما يردده أبناء الأسر الحاكمة التي صنعناها لهم من شعارات : صحيح !.

و من أهم واجبات هذه الأسر ترسيخ مبدأ هام عُمّم في جميع بلاد المسلمين على مدى قرن من الحكم الأوربي ، هذا المبدأ هو : يحق لكل إنسان غير مسلم يعيش في بلد مسلم أن يتحدث بحرية نيابة عن ديانته و أن يدافع عن حقوق طائفته و حصتها في السلطة و السيطرة و أن ينتقد الإسلام و المسلمين و يسخر منهم و من ديانته كما يشاء (ضمن حدود لغوية فقط) ، بينما لو تجرباً مسلم على الحديث عن حقوق أبناء ديانته سيُدان فوراً بجرمة التمييز الطائفي ضد مواطنيه من غير المسلمين ، و سيعدم سياسيا فوراً و ربما جسديا لاحقا بحسب كمية و جرأة تصريحاته.

لقد صدرت تصريحات كثيرة من المرموقين من أبناء أورك المسلمين ، كلها تتحدث عن القتل و الاضطهاد الذي ينزل بمسلمي أورك ، و بعد كل تصريح من هذه التصريحات كانت الأسر الحاكمة الأنفة الذكر تصدر التعليقات و البيانات على مدار الساعة في إدانة طائفية أولئك المسلمين الذين تجربوا على مجرد وصف أتباع الديانة السرية بأنهم : أتباع الديانة السرية !.

أما الأسر الحاكمة في مناطق أتباع الديانة السرية فقد اختيروا من صنف آخر من الناس ، لا يقل رداءة عن صنف نظرائهم في مناطق المسلمين ، فخلال الحرب بين حكومة كسّار و دولة بارسيا الدينية أسر مئات آلاف الجنود الأوركيين ، جميع هؤلاء تقريبا كانوا من أتباع الديانة السرية ، السبب في هذا كان الدعاية الدينية لقادة الديانة السرية ، فلقد أفتوا جميعا بتحريم القتال ضد إخوانهم البارسيين ، و أوصوا المجندين من أتباع ديانتهم بالإستسلام لقوات بارسيا عند أول فرصة.

هؤلاء الأسرى كانوا يتعرضون لأبشع أنواع الإذلال في البداية ، ثم يُختار منهم عرفاء لهم ينظمون أمور معتقلاهم ، ثم يُخضعون لدورات تأهيلية دينية لتحريضهم على المسلمين ، و في النهاية يُرسلون إلى معسكرات لمنظمة تتبع لجيش بارسيا ، هذه المنظمة سُميت بـ "منظمة ثورة الإسلام في أورك" ، هذا الإسم يعود إلى أن أتباع الديانة السرية يؤمنون بأنهم هم وحدهم من يستحق صفة "المسلمين" ، و أن ديانتهم هي وحدها الإسلام الحقيقي.

هؤلاء العرفاء كانوا يختارون عادة من الغجر ، و لم يكن أي منهم عربيا أو ينتسب لقبيلة عربية ، بعد الإجتياح تم ترتيب أنساب لهم جعلت منهم شيوخا لعشائر العرب أتباع الديانة السرية ، و لقد قبلت بهم لاحقا هذه العشائر و قدمت لهم الولاء طمعا في مكاسب الرعاية و السيادة على البلاد بأسرها ، و رغبة في الإنتقام من المسلمين.

كل واحد من هؤلاء العرفاء كان يتبع لسيد من قادة جيش بارسيا ، و لقد خضع هؤلاء العرفاء هؤلاء السادة خضوعا يفوق كثيرا خضوع العباد ، فلا يتحرك أحدهم و لا يغير شيئا حتى في هندامه بغير إذن سيده البارسي ، و لقد أقيمت هذه العلاقة بين هؤلاء العرفاء و بين أسيادهم حتى بعد أن تحولوا إلى قادة أسر حاكمة لبلادهم ، و لكنها صارت علاقات مراقبة تماما و خاضعة لإشراف غرفة عملياتنا ، و لا تزال كذلك حتى اليوم.

أشرفت منظومة حروب الجبل الأبيض برعاية السيد لطيف على تأهيل جميع الأسر الحاكمة الجديدة في أورك ، فهم جميعا لا يعرفون شيئا عن السياسة و لا عن مفهوم الحكم ، و لم يكن أي منهم قادرا على إصدار تصريح صحافي متوازن سياسيا و إعلاميا ، و لو كان مكونا من سطر واحد أو حتى بضعة جمل ، لقد أقاموا جميعا بشكل دوري في الجبل الأبيض ، و تعلموا من نظرائهم آداب السلوك و الكلام و المقابلات و إطاعة الأوامر ، و رموز الإتصال و التعارف و ألحقوا بمعابد للحرية و أجبروا على دراسة كتب هذه المعابد لفترة طويلة .

أما الكورد فلم تكن بحاجة لتأسيس أسر حاكمة جديدة لهم ، إذ أن فترة ثورتهم ضد حكم كسار قد ثبتت ولاءهم المطلق لقيادات عشائرية و حزبية ، أشرف البارون على صناعتها و تأهيلها في معاهد و دوائر مخبرات جاراتنا الدولة العدو اللدود ، هؤلاء القادة ليست لديهم أية مطاعم أو طموحات ، و هم مخلصون لعملهم و لخدمة المنظومات حد العباد العمياء ، جميعهم من أتباع الديانة السرية بفرعها الأقوى ، و هم يظهرون للعامة أنهم مسلمون.

إعداد الأسر الحاكمة الجديدة لأورك كان عملا شاقا و متعبا ، لأنه تم في فترة قصيرة و قياسية ، و لقد كُرس هذا العمل بنجاح بعد أن نظم وولتر ما عرف بانتخابات نيابية لمجلس لنواب شعب أورك ، جميع أعضاء هذا المجلس كانوا قادة هذه الأسر ، افتتح هذا المجلس بجلسة مغلقة خطب فيها شامل بك أبو المجد هؤلاء ، خطابه كان نسخة عن خطابي بأعضاء الأسر الحاكمة في بلادنا لكنه تضمن عبارات بذينة جدا لتناسب طبيعة المُخاطبين ، و لقد امتنعت وجوههم جميعا بعد خطاب شامل بك لأنه كان يتضمن تهديدات مروعة حقا لمن يخطر بباله أن يخالف الأوامر .

أسس وولتر في أورك حكومة و مؤسسات جديدة على أنقاض مؤسسات حكومة كسار ، و لقد تم توزيع هذه المؤسسات إلى مناطق نفوذ لأبناء الأسر الحاكمة ، بنفس طريقة التوزيع المعمول بها في كل بلدان العالم الإسلامي ، فكل أسرة تشرف على قطاع معين من الأعمال و المسكونات ، و في كل عام تصرف إلى هذه الأسر ميزانيات هذه القطاعات من مصارف البارون ، فتتفق هذه الميزانيات حسب التوزيع الآتي :

ربع الميزانية يصرف للسلع و الخدمات بأنواعها ، و من ضمنها رواتب الموظفين و سائر نفقات الحكومة التي تصل للعامة صافية .

ثلاثة الأرباع الباقية تذهب لصالح نفقات الأسر الحاكمة و الطواقم العاملة بأمر كل منها ، إذ يتقاسم أبناء هذه الأسر أحياء المدن و المناطق و يسيطرون عليها بقوة المجموعات المقاتلة التي تتبعهم و من ضمنها تشكيلات الجيش و الشرطة و غيرها ، فتجد في المدينة مثلاً عشرة أقسام للشرطة كل منها ولاؤه لإحدى هذه الأسر ، و في الفرقة العسكرية تجد عدة كتائب كل منها ولاؤه لأسرة من هذه الأسر و يرفض قادة أية كتيبة التصرف إلا بأمر من الأسرة الحاكمة التي يتبع لها ، قيادة الجيش و الشرطة مجرد قيادة صورية لا تسيطر على شيء في الواقع ، و لا حاجة للتذكير بأن هذه القطاعات الخاضعة للأسر آنفة الذكر تعيش صراعاً أبدياً متعمداً فيما بينها يستهلك كل الأمن و كل الرفاه في أورك و ما حولها .

حسب الإعلانات الرسمية تبلغ ميزانية حكومة أورك الجديدة مائة ضعف ميزانية البلاد أيام كسّار ، و تحسب باعتبار صادرات النفط الوطني لأورك ، الواقع أن هذه الصادرات كلها تذهب إلى مؤسسات البارون في أوربة و أمريكا ، و لا يدفع من ثمنها شيء ، و حتى الميزانية التي يصرفها البارون بعملة أورك المحلية تعود إلى مصارف البارون ثمناً لواردات أورك ، فبلاد أورك بعد الإجتياح صارت عاجزة عن إنتاج أقل من ربع احتياجات البلاد من المحاصيل الكبرى كالحبوب و غيرها ، و صار كل استهلاك هذه البلاد من البضائع المستوردة من مؤسسات البارون ، بضائع تباع للأوركيين بعشرين ضعف أسعار كلفة إنتاجها الحقيقية ، و بهذا فإن ميزانية أورك بعد الإجتياح أقل بكثير من ميزانية البلاد أيام حكومة كسّار .

و بفضل جهود منظومة حروب الجبل الأبيض تولت حكم بلاد أورك أسر حاكمة علمت شعب أورك معنى البحث عن لقمة العيش في حاويات القمامة ، و في بيوت بيع الجنس و المتعة الجنسية ، و في مختبرات الأعضاء البشرية و المواليد الفقراء و البنات الجميلات الصغيرات للإستعباد الجنسي على طريقة العصور القديمة ، لقد حقق بهذا أتباع الديانة السرية جزءاً يسيراً من انتقامهم التاريخي من المسلمين الذين دمروا إمبراطورية بارسيا القديمة و أذلوا نبلاءها و حكامها و سيدات البلاط فيها و باعوه عبيداً في أسواق النخاسة ! .

فترة التحولات الكبرى في المنطقة و العالم بدأت عندما غزا جيش كسّار الدولة الزيتية ، و من تلك النقطة تصاعدت الأحداث المتسارعة ذات التحولات الفجائية ، و لأن هذه الفترة هامة جداً لمستقبل المشروع العالمي الذي يعمل من أجله البارون ، و لأن التطورات أفرزت نتائج معقدة ، و لأن تقنيات الإحصاء و القياس و التوزيع و النشر صارت متقدمة جداً ، من أجل ما سبق تضاعف عمل المستشارين الأوربيين في بلادنا بداية من تلك النقطة و إلى هذه اللحظة ، هذا العمل الرقابي صار دقيقاً و واسعاً بشكل مذهل حقاً ، لدرجة أن مكاتي صارت تزدهم يومياً بتقارير ضخمة ترسم صورة ثلاثية الأبعاد لحركة الحياة و الطبيعة في بلادنا على مدار الساعة ، تقارير مفصلة بالأرقام و الأفلام و الخرائط ثلاثية الأبعاد و الخطوط البيانية لكل مجال من مجالات الحياة ، و صار من المستحيل عليّ أن أتابع كل شيء ، فصرت أعتمد على التقارير اليومية الملخصة الشاملة التي يعدها رئيس فريق المستشارين و يرسلها إلى البارون ، إلا أنني كنت أنجذب من خلال هذه التقارير إلى

تطورات مجالات محددة فأتعمق في دراسة التقارير المفصلة عنها ، و لعل أهمها على الإطلاق كانت تقارير المستشارين عن "زحف الصحراء" ؛ هذه التقارير كانت ضخمة و مفصلة للغاية ، و لقد شدتني حتى أنني أردت معرفة كل شيء عنها ، فرجعت إلى السجلات القديمة الأولى المحفوظة في مكتبي في أوربة ، لقد قرأت تلك التقارير بعناية ، و طرحت تساؤلاتي عنها على عدد من مستشاري البارون المقربين ، وفوجئت بأجوبة مدهشة و لم أكن أحلم بسماعها ، أحاول فيما يلي تلخيص هذا السجل الضخم بشكل شامل و مفهوم ؛ لكن بعد عرض هذه الحقيقة :

"زحف الصحراء" ليس حدثا طبيعيا ، و ليس من الأعراض الجانبية العفوية التي تظهر بسبب سياسات خاطئة ، إنه شيء آخر تماما و تطور مدروس جيدا جدا و متعمد و متتابع بعناية فائقة ، و هو يسير ضمن جدول زمني دقيق و صارم ، و يستند إلى بحوث علمية كبيرة و واسعة النطاق أفقيا و عموديا.

أسس لهذا الحدث الأكبر في التاريخ أحد أذكى علماء عشيرة البارون جيمس ، هذا الرجل يدعى البروفسور كينيث ، و كنت قد قرأت كتابا ضخما ألفه هذا الرجل منذ مائة و عشرين عاما يتحدث عن فكرة التصحر ، و برفقة هذا الكتاب الموسوعي كانت توجد رسالة خطية من كينيث إلى البارون إدموند والد البارون جيمس ، هذه الرسالة تتضمن هذه العبارة :

"يا صاحب العظمة ، أؤكد لجلالتكم أن جيوش الرمال العاصفة التي فتت أسوار مدن أعداء جدك العظيم ممتطي الرياح ، ستزحف مرة أخرى لتبيد أعداءكم ، و تخرجهم من البرزخ المقدس إلى الأبد".

في هذا الكتاب تحدث كينيث مطولا عن أسباب قوة الإنتاج الزراعي في الشرق ، و خاصة في منطقتي جنوب و شرق المتوسط و ما يعرف بالهلال الخصيب ، و عزا هذه القوة إلى المناخ المداري الدافئ ، و إلى دقة و مهارة الأساليب التقليدية الموروثة للزراعة الشرقية ، تلك الأساليب التي أنتجها تراكم خبرات استمر لعشرات آلاف السنين من الحضارة الزراعية التي لم تفارق تلك الأرض .

قال كينيث في فصل آخر من كتابه : إن الدفء الذي تتمتع به هذه المنطقة يمكن أن يتحول إلى سلاح مميت يفتك بالزراعة و بالحياة نفسها في هذه البلاد ، و هذا ممكن جدا بمجرد إزالة الغابات التي تحمي المناطق المأهولة و المزروعة من خطر الجفاف و الموت ، و بالقضاء على أساليب الزراعة التقليدية التي تحمي التربة من الإنهاك .

ضمّن كينيث كتابه خرائط للغابات المدارية المطرية التي كانت تملأ الهلال الخصيب و أراضي جنوب المتوسط ، تضمنت هذه الخرائط تفاصيل كثيرة عن طبيعة هذه الغابات و أنواع أشجارها و طبيعة تربتها و مناخها و خرائط بيانية لمعدلات هطول الأمطار و جداول لتبدلات الحرارة على مدار العام ، فضلا عن أنواع الحيوانات البرية و الطيور و النباتات الطبية و غيرها من أشكال الحياة في هذه الغابات .

هذه الخرائط كانت مذهلة قياسا على قدرات تلك الفترة ، و كان واضحا منها أن كينيث هذا ترأس فريقا ضخما من الباحثين المهرة الذين جمعوا معلوماتهم بمهارة و صبر ، و أن بعثته هذه كلفت البارون إدموند مبلغا كبيرا ، لكن هذا الجهد الجبار لم يضع سدى .

بناء على توصيات كينيث هذا صدرت أوامر خاصة لقادة جيوش الحلفاء الأوروبيين المنتصرين في الحرب العالمية الأولى ، هذه الأوامر تتلخص بجملة واحدة : القضاء على الغابات المدارية الممتدة في الهلال الخصيب و بلاد جنوب المتوسط واجب حربي .

و سأعرض مثالا على تطورات هذه الخطة في الهلال الخصيب :

كانت الغابات المدارية في الهلال الخصيب تمتد على أكثر سبعين بالمائة من مساحة هذا الإقليم الجغرافي الغارق بالمياه ، ففي شرق الهلال الخصيب كانت الأجزاء الجنوبية كلها مغطاة تماما بغابات النخيل ، و لقد وفرت هذه الغابات مجالا ضخما لزراعة محاصيل أخرى كثيرة في المساحات الفارغة بين الأشجار ، أما في وسط و غرب هذا الهلال فكانت غابات الزيتون البري تغطي أكثر من نصف المساحة ، و بين هذه الغابات انتشرت القرى و الأرياف ، أما الجبال فكانت مغطاة تماما بالحراجيات و الأشجار المثمرة بأنواعها ، هذه الغابات الضخمة شغرت معظم المساحات غير المأهولة في فترة بدايات القرن الماضي ، أما المناطق المأهولة فلقد كانت متركزة حول أودية الأنهار بالنظر لقلّة عدد السكان نوعا ما ، و لقد كانت البؤر المأهولة محاطة بالغابات من كافة الجهات تقريبا و لمسافات شاسعة إنطلاقا من كل منها .

بسبب هذه الغابات كانت الثروة الحيوانية هائلة إلى درجة كبيرة و ضخمة ، سواء المدجنة أو الثروة الحيوانية البرية ، فالبقر الوحشي و الجمال البرية و الغزلان بأنواعها و حيوانات الفراء و الطيور الممتازة شبه الأليفة سهلة الصيد ، هذه كلها كانت بالملايين الكثيرة .

احتلال الجيوش الأوربية لتلك المنطقة كان حاسما في تغيير هذه الصورة تماما ، فلقد وصلت مع هذه الجيوش آلات ضخمة و طواقم كثيرة لقطع الأشجار و تحويل أخشابها إلى ألواح معدة للنجارة ، و أما الأغصان الصغيرة و الأشجار الغير قابلة للنجارة فتحولت إلى فحم نُقل بالقطارات ثم بالسفن على مدار الساعة إلى أوربة ، و خلال عشرة أعوام فقط تمكنت هذه الطواقم من إبادة ثلث هذه الغابات و ما تحويه .

تركزت أعمال القطع في المناطق غير المأهولة ، و لم يشعر الكثيرون بما يحصل و بخطورته ، بل راح السكان يعملون و يساعدون طواقم القطع في العمل ، و لم تظهر أية اعتراضات تذكر على ما يجري ، فالفلاحون لم تتأثر أراضيهم مباشرة بالقطع ، و سكان المدن لم يشعروا بما حصل لبعدهم عن الغابات و لأن إمدادات الطعام و المنتجات الزراعية لم تشح بسبب هذه

الحمالات ، و على العكس من القلق انتشر في المدن رضا عن قطع الغابات بسبب ما وفرته من أخشاب رخيصة للنجارة و من فحم رخيص للتدفئة و الطهو و الإستحمام ، بعد فترة من غلاء هذه المواد أثناء الحرب ، و بالنظر لما وفرته من مساحات كبيرة لحراستها و زراعتها بالمنتجات الرعوية الهشة .

و على العموم لم يكن في ذلك الزمان أحد يحزن على ظلٍ اضمحل أو حيوان هلك جوعاً أو مساحات خضراء تحولت إلى أراضٍ جرداء مقفرة ، فلقد كان الناس يعتقدون أن هذه الغابات ستعود للنمو مرة أخرى على أي حال بشكل طبيعي ، تماماً كالشعر المخلوق ، فالمطر لا يزال يهطل و التراب موجود و لم يخطر ببال أحد منهم يوماً أن هذه الغابات إنما زرعها أجدادهم على مر بضعة عشر قرناً ، و أنها جميعاً كانت أصلاً كروماً و مزارع هجرت لموت سكانها أو لنزوحهم ، و أن هذه الغابات لن تعود إلى الوجود مرة أخرى إلا بأن يعيد الناس غرسها بأيديهم و بجهد جبار جداً .

في أثناء الحرب الأوروبية الثانية ارتفعت وتيرة قطع الأخشاب و لم يبق من هذه الغابات سوى أقل من الربع مع انتهاء الحرب ، هذه الغابات الباقية ظلت تحيط بالأرياف و المناطق المأهولة ، إلى أن جاء عصر ما بعد الإنتداب الأوربي . بقي الوضع على حاله و انخفضت كثيراً وتيرة القطع بعد خروج الجيوش الأوروبية و طواقمها ، و استمر تجار الفحم و الخشب المحليون بإمكانياتهم البسيطة يحتطبون ما بقي من الغابات .

ثم جاء عصر بديع ، و تسارعت وتيرة القطع بحجة أعمال البناء و النمو العمراني ، و اكتسحت مؤسسات حكومة بديع كثيراً مما بقي من الغابات في سهول البلاد ، و قضى التمرد النسائي في المدن على النمو الزراعي الريفي العفوي - كما أسلفت سابقاً في هذه المذكرات - فانتهت الغابات المدارية تماماً في الهلال الخصيب بأسره ، صارت الأراضي الجرداء هي التي تحيط بالأرياف من معظم الجهات و بدأ ما عرف لاحقاً بزحف الصحراء .

مجرد مواجهة الأرياف للصحاري لم يكن هو المطلوب من الحملة ، بل كان اجتياح الصحراء للأرياف نفسها هو المطلوب ، و لقد تكفلت حكومات التقدميين الثوريين المتعاقبة منذ عهد بديع بإنجاح المهمة كما أوضحت في مواضع كثيرة من هذه المذكرات ، في البداية حورت الأساليب التقليدية للزراعة و الري ، و حلت محلها أساليب جديدة مستنسخة عن أساليب الزراعة الأوروبية و الأميركية ، إلا أن هذه الأساليب لم تكن مطابقة لما في أوربة و أمريكا و إنما كانت تشبهها فقط في المظهر ، فمثلاً اختفى الري بالقنوات الصغيرة و السواقي بسبب انخفاضات كبيرة في منسوب الأنهار ، و السبب يعود في هذا إلى انخفاض كبير في كميات المطر الهاطلة على البلاد ، و كادت الزراعات البعلية تختفي تماماً كزراعة القمح و الشعير و الشوفان و غيرها ، و جاءت عمليات التأميم و استقطاب الفلاحين إلى المدن و مشاريع الري المدمرة للزراعة كالسدود العشوائية على الأنهار و السدود السطحية لنتهي العمل .

بانتصار الصحراء صارت شعوب الهلال الخصيب تعتمد على استيراد الغذاء بأنواعه من أوربة و أمريكا ، فالحاصيل التي كانت تفيض في بداية القرن الماضي كالقمح و الرز و الحبوب صارت تقريبا كلها ذكريات ، حلت محلها محاصيل رديئة مستوردة تملأ الأنابر و المستودعات .

بعد اجتياح أروك و بداية حروب البلاد الداخلية و انتشار الفوضى و تنصيب الأسر الحاكمة الجديدة انتهت الزراعة تماما كمورد للغذاء و الدخل ، و صار الدخل كله يأتي من خزائن البارون ، و الغذاء كله يأتي من مزارع أوربة و أمريكا .

و بنظرة على الخارطة للهلال الخصيب يرى بوضوح أن الخصوبة في هذا الهلال صارت جزرا مجهرية في محيط هائل من الأراضي الجرداء القاحلة ، و صار يستحق بجدارة إسم الهلال الجذب ، بينما كانت الصحاري تحتفي في نفس الفترة من أراضي أمريكا بفعل شركات قطع الأشجار التي كانت تزرع عشرين شتلة مقابل كل شجرة تقطعها من الغابات ! .

في الفترة التي تلت اجتياح أورك التقيت بشكل اعتيادي البروفسور برنار ، و أثرت معه هذا الموضوع ، و عرضت عليه خرائط و أحصائيات عن الجذب و التصحر و شح المياه في أورك و في بلادنا و غيرها من البلاد العربية ، و سألته عن جدوى هذا العمل سؤال مستعلم غير مستنكر ، فقال بارتياح : يا عزيزي لقد أثبتت هذه الخطة أننا نستطيع بسهولة أن نقوم بعمل الآلهة الغاضبة ، كما تعلم فإن الأمطار الهاطلة على كوكب الأرض كمية ثابتة في كل عام ، هذه الأمطار تتوزع على أقاليم الأرض تبعا لضوابط طبيعية ، كبرودة الجو و عمليات البخر و هذه كلها تتوفر بوجود الغابات ، و كلما زادت ضخامة الغابات كلما زاد هطول الأمطار بسبب البرودة التي توفرها الأشجار و بسبب البخر الذي تقوم به الغابات على مدار الساعة ، و وجود الغابات يضبط أيضا مسار المياه بعد الهطول ، فالأشجار و المتسلقات و الأعشاب الحبيطة بها تنفخ الطبقات الترابية و تجعلها هشة بالعة للماء ، القضاء على الغابات سيعني إنخفاض الأمطار و ارتفاع الحرارة و تراس التربة ، و هذا يؤدي إلى ما تعرف بالبادية ، أراض جافة حارة فقيرة مجدبة ، و حتى إذا نزل فيها المطر بكثافة بسبب العصر الجليدي الذي تدخله الأرض حاليا فإن هذا المطر سيكون غير ذي نفع بل سيكون مدمرا .

قلت : لم أفهم لماذا كل هذا يا بروفسور ؟ أليست هذه الأرض جزء من مشروع عالم الغد الذي نعمل عليه ؟ ما الفائدة من تدميرها إلى الأبد ؟!

ضحك برنار و قال لي بحنو : لا ليس إلى الأبد يا مهران بك ، و لكن مؤقتا ، أتذكر مشروع الحزام الأخضر الحراجي الذي أوعزت بتنفيذه على جانبي الطريق الرئيسي بين عاصمتكم و شمال بلادكم ؟ .

قلت : نعم كان مشروعا ناجحا و جيدا لو أنه استمر و توسع .

قال برنار : هذا المشروع كان فقط لإثبات أن هذا التدمير ليس أبديا ، و أن إعادة الخصب للهلال أمر ممكن و سهل جدا ، لقد كان مشروعا بدائيا جدا للتشجير ، و لكنه نجح حتى في استقطاب المطر لتلك المنطقة ، و نمت أشجاره بسرعة رغم رداءتها ، تراب تلك الأرض يا عزيزي تراب سحري ، لقد اتهمته نشراتنا عن التصحر ظلما بأنه تراب فقير ، و اتهمت نشراتنا ظلما مزارعي تلك البلاد بأن بدائيتهم و تقليديتهم سبب لدمار التربة المزعوم ، كل هذا لنقنع الجميع بأن الدمار نهائي .

قلت : لماذا ؟.

قال برنار : لنشر اليأس ، إن تلك البقعة ، أي جنوب و شرق المتوسط هي عاصمة العالم القادمة عند اكتمال مشروعنا ، و يجب أن تكون خالية من الشعوب التي تعادينا و تصر على عدم التخلي عن دياناتها و معتقداتها لصالح ما سيؤمن به البشر جميعا في ذلك اليوم العظيم ، أنت ترى أن هذه الشعوب اليوم تعيش حالة على معوناتنا المالية و الغذائية ، بفضل زحف الصحراء الذي أطلقناه ، إن شعوب "وادي نهر أترو" الإفريقي العظيم تعد اليوم مائة و عشرين مليوناً ، كلهم يأكلون الخبز من مخازن الغلال التي نديرها ، كما أدارها أجدادنا في ذلك الوادي على عهد جدنا الأول ، و لكننا اليوم ندير هذه المخازن من خارج وادي أترو ، تخيل لو أننا أوقفنا معوناتنا عن هذا الوادي ؟.

قلت : سيأكل السكان بعضهم خلال فترة قصيرة ، و سيجتاح نزوحهم الأرض إلى وسط أفريقيا ، سيكون أمرا هائلا جدا . قال برنار : لكنه سينتهي بأن يخلو الوادي من الهمج الذين يعيشون فيه حاليا ، و عندها سنملا ذلك الوادي بسكان قادمين من أروبة الشرقية الباردة بعد أن نزرعه و نؤهل صحاريه بغابات النخيل و كروم العنب و أنواع الأشجار المثمرة الجاهزة للغرس و القطاف ، و من سيحزن على همج عاشوا في جنة وارفة و حولوها بهمجيتهم إلى صحراء قاحلة ، ثم ماتوا جوعا أو تاهوا في البراري فرارا من الجذب ؟.

قلت : حدث كهذا قد يدمر النظام في إفريقيا كلها ، و ربما يهدد أروبة نفسها .

قال برنار : عندما يحين الوقت سنهيئ كل الظروف ليبدو هذا النزوح حدثا طبيعيا ، تماما كما جعلنا التصحر حدثا طبيعيا تماما ، عندها سنوقف تدفق الأوراق النقدية و الطعام عن ذلك الوادي ليبدأ المهرجان المفزع ، و سنتأكد أن أروبة ستكون بمأمن من الهاربين من القيامة التي نعدّها لجيران نهر أترو العظيم .

قلت : لقد بدأ النزوح من الهلال الخصيب ، رغم استمرار إمدادات الطعام و النقود ، فهل سيكون قطع الإمدادات أمرا واردا ؟.

قال برنار : نعم لا بد منه لإتمام المهمة ، و لكن دويه في الهلال الخصيب لم يعد ممكنا سماعه بوضوح في زحمة ضجيج الأحداث هناك و لذلك سيكون أسهل و تمهيدا ناجحا لما هو أكبر في شمال إفريقيا.

أذهلتني إجابات برنار ، و فهمت لماذا يجب أن تخدم خيام المنظومة القديمة في منطقتنا كلها ، واحدة بعد الأخرى .

تقارير فرق المستشارين الأوربيين التي تدفقت من بلاد أورك رسمت صورة كاملة لأحوال بلاد أورك كلها بعد الإجتياح ، و صورة مستقبلية نموذجية لكل البلاد العربية و معظم البلاد الإسلامية بعد تطبيق خطة برنار الكبرى لاحقا ، هذه الصورة استقرت في ذهني كما لم تستقر أية صورة بيانية اطلعت عليها في الماضي رغم أنني حين قرأتها كنت في العقد الثامن من عمري ، الآتي هو لوحة مختصرة أرسمها بالكلمات تصف هذه الصورة :

أولا : بلاد أورك على الصعيد السياسي : لم يعد في البلاد كلها شخص واحد يصح أن يقال أنه يشتغل بالسياسة ، فالسياسة فن قيادة الأمم أما الذين يوصفون بأنهم سياسيون في أورك فليسوا سوى واجهات لمجموعات من القتلة المأجورين و عصابات اللصوصية و الإبتزاز و الإحتيال و التهريب و السرقة المسلحة و تجارة الأعضاء و الأطفال و الجنس و السلاح و المخدرات .

لقد تأكد وولتر من أن أحدا منهم لا يملك سجلا إجراميا يحتوي على أقل من عدة جرائم قتل متعمد ، لا من رجال و لا من نساء ، و ليس منهم شخص واحد يملك أي شيء بطريقة مشروعة ، أو حتى يعرف كيف يحصل على شيء بطريقة مشروعة ، و لكنهم جميعا ممثلون بارعون جدا في أداء مشاهد خطابية عن حماية الفضيلة ، و البكاء على الضعفاء و الرثاء للمصابين و الغضب للحرمان ، و لقد فاقوا في براعتهم أكثر ممثلي المسارح مهارة في التمثيل و خداع السمع و البصر ، و فوق ذلك كانوا دوما بارعين في انتقاء العبارات اللازمة لإسباغ صفات البطولة و الملاذ الأخير الإضطراري على جرائمهم و جرائم المجموعات التي يمثلونها ، و لكم تمنيت عند متابعتي لأدائهم الإعلامي أن يوجد مخرج تلفزيوني بارع يوثق هذا الأداء ، و يؤلف متناقضاتهم ليصنع منها استعراضا تلفزيونيا فكاهيا مضحكا مبكيا ، أظن أنه سيكون الأكثر سخرية و مرارة في تاريخ التلفزيون ، و المضحك أكثر هو أسماء أحزابهم و ما تسمى بكتلهم النيابية ، فهي كلها شعارات تدعو إلى الفضيلة و النقاء و الشرف و احترام العدالة و القوانين !.

ثانيا : بلاد أورك على الصعيد الأمني : يوجد في كل شارع و مجمع سكني في أورك عصابة أو أكثر من المسلحين من نفس الأسرة ، يقودهم رجل من أكبرهم سنا ، تسيطر هذه العصابة على سكان الشارع أو الحي الذي تتواجد فيه سيطرة مطلقة ، تفرض الأتاوات و الغرامات على كل فرد ضمن نطاق سيطرتها ، و يختار أفراد العصابة ما شأؤوا مما تحت أيدي رعيتهم ليأخذوه ، بداية من نفائس المال و انتهاء بالنساء و حتى الصبيان لإغتصابهم و استعبادهم جنسيا أو حتى بيعهم ، على مدار

الساعة تحتكّ هذه العصابات ببعضها على حدود مناطق سيطرتها ، و في كل يوم يسقط عشرات القتلى و المصابين بسبب هذه الإحتكاكات .

تتبع هذه العصابات لعصابات متجولة أكبر منها تقودها شخصيات معروفة ، مثل نائب في مجلس نواب الشعب ، أو شيخ عشيرة تم تنصيبه بعد الإجتياح ، أو رئيس فرقة من الشرطة أو الجيش ، أو مدير منطقة إدارية سكنية ، أو رجل دين من أتباع الديانة السرية أو ممن يواليهم من الديانات الأخرى ، أو مطرب أو غانية معروفة ، أو صاحبة دار للدعارة ، أو وزير أو صاحب منصب ، و تقوم هذه العصابات المتجولة بأخذ حصتها من الأتاوات و عوائد الخطف و السلب و الإحتيال و الإبتزاز و غيرها ، و تقدم بدورها السلاح و الحماية للعصابات الصغيرة المحلية ، تفرض الخصومات بين مجموعات المجرمين بأحكام قضاء خاص ، هو قضاء العصابات المستنسخ من قضاء عصابات المافيا الأوروبية و الأميركية.

في كل يوم و في كل حي جريمة جديدة من نوع مفرع جدا للشخص العادي ، و في كل شارع في كل يوم يسقط ضحايا و مصابون ، و لا يجد هؤلاء شرطيا يسمع شكواهم أو محكمة تنصفهم و تحميهم ، أو حتى دائرة إسعاف تغيثهم أو حتى توثق إصابتهم ، بل على العكس فالشرطة يتممون مهمة المجرمين بحق الضحايا إن لجأت إليهم ضحية بائسة ، البلاد كلها ليس فيها قانون واحد محترم ، القانون الوحيد الساري المفعول هو : "البقاء للأقوى" ؛ إنه ليس قانون الغابة بحال من الأحوال ، فالغابة محكومة بقانون التكامل الطبيعي بين الكائنات و موارد الغذاء ، لا تشبه أبدا أحوال بلاد أورك أحوال الغابة التي يجد كل مخلوق منها احتياجات حياته الكريمة .

ثالثا : قطاع الصحة في بلاد أورك : لا يشبه هذا القطاع شيئا أكثر من شبهه بحقل الألغام الكثيف النبات ، فالأطباء كلهم تقريبا يتبعون بشكل أو بآخر لأحدى العصابات المسيطرة على مناطق عملهم ، و يتنوع انخراط هؤلاء الأطباء في عمل هذه العصابات ما بين الإشتراك في عمليات تجارة الأعضاء و استدراج المرضى لإجراء عمليات أو الخضوع لمداواة باهظة دون وجود سبب طبي حقيقي و لجرد استدراج أموال الزبائن ، و لقد صارت كالمستحيل عملية البحث عن طبيب صادق و مخلص لشرف المهنة أو عامل في القطاع الطبي بريء من التهمة.

أما الأدوية و العقاقير فهي جميعا مستوردة من قبل الأسر الحاكمة التي تم تنصيبها بعد الإجتياح ، ولقد أصبح الحصول على دواء فعال يشبه البحث عن التبر في مجاري الأنهار ، مهما كان الدواء بسيطا حتى لو كان لعلاج زكام أو صداع بسيط أو نزلة برد ، و ارتفعت أسعار الدواء و صار وجوده قليلا حتى المزور منه ، و تحولت الصيدليات في البلاد إلى ما يشبه حوانيت بيع العطور و مواد التجميل .

أعداد ضحايا الأخطاء الطبية و نقص العلاج و سرقة الأعضاء و الخطف الطبي لا تحصى ، و لقد حاول المستشارون الأوروبيون وضع إحصائيات تقريبية لهم لعدة أعوام ، أشارت هذه الإحصائيات إلى أكثر من مائة ألف حالة موثقة من قبل المخبرين السريين خلال عام واحد فقط ، و ما لم يسجل و يوثق لا شك أنه أكثر بكثير .

ارتفع جدا عدد المعاقين و أصحاب العاهات الدائمة الحادثة أو بالولادة ، و سجلت الإحصائيات أن شخصا من كل ثمانية أشخاص في أورك يعاني من أعاقة أو عاهة دائمة ، هذا العدد حول أكثر من نصف سكان أورك إلى أسر منكوبة ، و لقد تخلى الكثيرون عن إعالة المعاقين فغصت بهم شوارع البلاد التي صار سماع نداءات المتسولين بها أمرا معتادا لا يلفت إنتباه رجل الشارع العادي .

عادت إلى البلاد ظاهرة الطب الخرافي و انتشر الدجالون و المشعوذون كما لم يحصل أبدا في التاريخ ، لدرجة أن جميع شيوخ الديانة السرية شاركوا في إدارة و تثبيت أركان هذه المهنة ، و لقد صارت من أهم مصادر دخلهم ، و لا توجد إحصائيات دقيقة لأعداد الضحايا من زبائن هذا الطب العائد من الماضي السحيق .

رابعا : الزراعة في بلاد أورك : كانت تلك البلاد في حالة من العجز الزراعي في أيام حكومة كسار ، و لقد تفاقم هذا العجز جدا في مرحلة ما بعد الإجتياح ، و بالأرقام فإن البلاد لا تنتج إلا خمس الإحتياجات من الحبوب و الميرة ، و أقل من ربع الإحتياجات من اللحوم و الألبان و الفاكهة ، و بقيت الخضراوات وحدها محلية الإنتاج و كافية بالحد الأدنى فقط لإحتياجات السوق ، و لقد استفادت بارسيا كثيرا من هذا التردى فصارت تصدر فوائضها الزراعية من فاكهة و خضراوات إلى أورك بأسعار باهظة ، لكن هذه الفوائض لم تشمل الحبوب و المحاصيل الإحتياطية الكبرى كالقمح و بقية نباتات الميرة ، و صار الغذاء في البلاد غاليا كما لم يحصل أبدا على مر تاريخها المكتوب .

خامسا : التعليم في بلاد أورك : المدارس و الجامعات تحولت كلها إلى قطاعات نفوذ للأسر الحاكمة و العصابات الكبرى و قادتها ، فلقد قل كثيرا عدد المدرسين خاصة الجامعيين منهم بسبب تردى الأمن و الرواتب ، و لقد هاجر معظم هؤلاء إلى أوربة و أمريكا حيث استقبلوا هناك بترحاب كبير ، صار التعليم في البلاد مكلفا جدا رغم أنه مجاني من الناحية النظرية ، فالمدارس الحكومية لا تستوعب إلا نصف عدد الطلبة ، و لا تقدم للطلبة أي تعليم جدي ، لا من حيث المناهج و لا من ناحية السلوك ، و صار إرسال الأولاد إلى المدارس مخاطرة عظيمة خاصة مع انتشار سيطرة العصابات و نشاطاتها من ترويج للمخدرات و استعباد جنسي للأطفال من الجنسين ، و أصبح ضياع و اختفاء الأطفال و القصر من الجنسين حدثا عاديا جدا في المدارس و الجامعات .

لجأ عدد كبير من الميسورين إلى التعليم الخاص لتنشئة صغارهم ، إلا أن هذا لم يقلل كثيرا من معاناتهم و عذاباتهم في حماية صغارهم و الحفاظ على سلامتهم الأخلاقية ، فالمدارس الخاصة بدورها خاضعة لأرباب العصابات التي تفعل ما تشاء فيمن تريد .

معظم الطلبة و الخريجين في بلاد أورك من المنحرفين نفسيا و صحيا ، و ذلك بسبب انتشار تعاطي مشتقات الخشخاش بينهم و بسبب انتشار التدخين و شرب الخمر بأنواعها ، و بسبب انتشار العنف بشكل هائل بين الطلبة ، و قسوة العنف الذي يمارسه المدرسون على الطلبة ، معظم المتخرجين من هذا القطاع عديموا الثقافة بأنواعها ، و لا يكاد أحدهم يعرف شكل خريطة البلاد أو أبسط مبادئ العقل السليم و الرياضيات العامة و اللغة العربية ، هذا عدا عن فرض مناهج مبنية على تعاليم الديانة السرية على الطلبة.

شراء الشهادات العلمية و نتائج الإمتحانات في الجامعة و المدارس الثانوية أمر عادي جدا ، و لكل شهادة تسعيرة و لقد افتتحت مكاتب خاصة لهذا الغرض ، زبائنهم من الميسورين و أرباب العصابات و أبناءهم ، و أسعار الشهادات لا تزيد على بضعة آلاف من العملة الأمريكية أو الأوروبية.

سادسا : قطاعات الخدمات : لا توجد في كل بلاد أورك طولها و عرضها محطة حقيقية لتنقية مياه الشرب ، و يحتاج السكان إلى حفر الآبار و تنقية المياه بوسائلهم الخاصة الفردية ، و ليس هذا بسبب شحة المياه و إنما بسبب قرار صارم من الجنرال وولتر بعدم تطوير أو إصلاح نظام مياه الشرب في البلاد ، و نفس الأمر ينطبق على الكهرباء ، فبعد أن كانت بلاد أورك تتمتع بالكهرباء المجانية في عهد حكومة كسار صارت إضاءة أي مصباح كهربائي في المنازل عملية مكلفة و متعبة جدا.

أما الإتصالات الهاتفية فلقد تطورت كثيرا و تطورت معها خدمات شبكة المعلومات الدولية ، و صار كل شخص يحمل هاتفا متطورا و لديه اتصال مباشر على شبكة المعلومات الدولية ، فصار عاديا أن يرى شخص يتسول و يحمل في يده هاتفا لاسلكيا متطورا ، إلا أن فواتير هذه الإتصالات بقيت عالية الكلفة نسبيا ، و هذا التطور يعود إلى قرار عام من البارون لغرض الإحصاء الدقيق و تسجيل جميع التطورات لكل أحد مهما قل شأنه.

رابعا : المواصلات في أورك : بعد فترة من التطور الكبير في شبكات النقل من طرق و سكة حديد انعدمت في أورك تقريبا كل القطارات و انتهت المطارات المحلية و بقي فقط المطار الدولي بقيادة أمريكية أوروبية ، و انتهت خدمات الطرق و صارت معظم طرق البلاد ترابية بعد كانت من الإسفلت العالي الجودة قبل عقدين من الزمن.

خامسا : الصرف الصحي : تحولت محطات الصرف الصحي في البلاد إلى أملاك خاصة لرؤساء العصابات التي تحكم المناطق ، فصارت عملية سحب مياه الصرف الصحي لتلقى في أنهار الري أمرا لا بد من جمع الأتاوات لتحقيقه ، و في عدد كبير

جدا من المناطق دمرت محطات الصرف الحي و صارت مياه الحمامات و المراحيض و المياه القذرة تسير في الطرق جنبا إلى جنب مع المارة و السيارات ، و تشكل بحيرات صغيرة و متوسطة لا يخلو منها حي أو شارع ، و في مواسم المطر تتقدم هذه المياه لتشغل الجاف من الطرق و لتدخل البيوت أيضا ، مع انتشار الأمراض بأنواعها بسبب هذه المياه لم تتطور إمكانيات العلاج في البلاد ، و عادت أمراض خطيرة كانت قد اختفت لتظهر بكثرة كالمالاريا و الإلتهابات الكبدية و اللشمانيا و الطاعون و غيرها بسبب عودة الحشرات و القوارض للتكاثر في بيئة مثالية لها و لما تحمله ، رائحة مياه المراحيض هي اليوم الرائحة المميزة لكل أرجاء مدن أورك ، و للتخلص منها فإن المرء أن يرحل إلى الصحراء بعيدا عن تجمعات السكان و عن ضفاف أنهار أورك العظيمة كنهري بورانو و تيكرا.

سادسا : القمامة و النظافة البلدية في أورك : لا تكاد توجد في أورك خدمات لجمع القمامة و تدويرها ، بعد أن كانت عاصمة البلاد تسمى مدينة الزهور فيما مضى صارت تسمى بجماعة مدينة القمامة ، فالقمامة متكومة في كل الطرق و في كل الأزقة ، و تحيط بالمدن من كل ناحية تلال من القمامة تطلق حولها الروائح و الأمراض و الحشرات و القوارض ، مشاهد مئات آلاف الناس الذين يؤمون تلال القمامة و المزابل صارت عادية جدا ، و أصبح البحث عن الرزق بجمع المعادن و بقايا الطعام و الثياب في القمامة مهنة عادية يعمل بها كل من يعجز عن الحصول على عمل في إحدى العصابات التي تتحكم في البلاد.

هذه الأحوال تغطي كل بلاد أورك بكافة تنوعاتها السكانية من عرب و كرد و ترك و من مسلمين و من أتباع للديانة السرية و غيرهم .

تلخص التقارير حقيقة هي أن على الإنسان العادي في أورك أن يدفع ثمن كل شيء مضاعفا ، عدا الأتاوات الباهظة التي يدفعها يوميا للعصابات التي تحكم حياته ، دون أي أمل في الخلاص من دورة الشقاء اليومية سوى الموت المبكر.

في ظل هذه الأوضاع تزايدت عمليات نقل جنود الجيش السري من كافة أرجاء العالم إلى بوادي أورك ، في هذه البوادي أقيمت مئات المعسكرات و القواعد الحربية المموجة لهذا الجيش ، قواعد تحصل على كل ما تحتاجه من تموين و إمدادات و تدريبات ، مصدر هذه الإمدادات جزئيا كان القواعد العسكرية الأمريكية و القواعد العسكرية لجيش و شرطة حكومة أورك التابعة لولتر ، و معظم الإمدادات كان مصدرها الأكبر حكومة باريس و مخبراتها.

بعد انتهاء الحرب الداخلية الأولى في أورك شاركت في لقاء خاص مع البارون كان موضوعه الجيش الأسطوري ، و على هامش اللقاء التقيت بالبروفسور برنار و بشخص آخر يدعى البروفسور برنارد ، و دار حديث طويل بيننا لأننا تشاركنا الإقامة في جناح واحد من قصر البارون الريفي الضخم في جبال الألب ، خلال اللقاء سألت صديقي سؤالا كبيرا :

ماذا لو أن إحدى فرق الجيش الأسطوري انشقت ، أو إحدى المنظمات الإسلامية التي ترعاها منظوماتنا ، ثم استطاعت حشد شعبية حقيقية ، ألا يطلق هذا حملة تشبه حملة الرعيل الأول من الفتوحات الإسلامية ، و يحقق ما هدد به رئيس أمريكا قبل الحرب على خراسان ، أقصد امبراطورية إسلامية موحدة من شرق آسيا إلى شواطئ الأطلسي ؟!.

أثار سؤالى موجة من الضحك لدى البروفسور برنارد ، ثم استأذن من زميله برنار بالتحديث إلي و إجابتي عن السؤال بعد أن رأى استياءً على وجهي من ضحكه المستيري المصحوب بالسعال ، قال الرجل السبعيني بهدوء و بصوت أجش يناسب جسده الضخم :

إنشقاق أية مجموعة سياسية أو عسكرية إسلامية نديرها لن يسبب إلا فناء هذه المجموعة ، لأنها ستكون دوما خلية سرطانة فاشلة ستقتل نفسها بنفسها و ستعرض كل ما حولها على قتلها .

نظرت إليه باستغراب ، ثم قلت : كراهيتك لفكرة أو دين لا يجوز أن تكون سببا للتقليل من خطورة ما تكره ، أليس كذلك ؟ التاريخ لا يؤيد ما ترمي إليه يا بروفسور .

قال برنارد : الظاهر لأول وهلة من عبارات التاريخ لا يؤيد إلا عكس ما أقول ، إلا أن التأني في النظر في هذه العبارات هو مصدر ثقتي المطلقة فيما أقوله ، هل تظن يا عزيزي أن رجلا محنكا و عبقريا كالخليفة الأول في الإسلام كان غبيا لدرجة أنه أرسل جيوشا مجهرية لا تزيد على بضعة آلاف لغاية معلنة و هي هزيمة إمبراطوريات ضخمة كالإمبراطورية الرومانية و البارسية ، و الإستيلاء على أملاكهما ؟!.

في الحقيقة فاجأني كلامه ، فقلت : أين هو الجانب العبقرى في الخليفة الأول في الإسلام ؟.

قال برنارد بأهماء واضح : يا عزيزي لقد تسلم هذا الرجل الحكم في دولة كانت قد تمردت على قيادتها جميع الولايات و الأقاليم التابعة لها ، في نفس اللحظة التي تسلم فيها القيادة ، و رغم ذلك لم يحبط و لم يرتبك ، بل لم يبدأ بعملية استعادة السيطرة على المتمرعات من دولته إلا بعد أن أرسل جيشا صغيرا كان سلفه قد أعده لغزو الإمبراطورية الرومانية ! و بالفعل انطلق الجيش لغزو إمبراطورية الرومان ، و انتزع من سيطرتها مساحات ريفية واسعة من حدودها الجنوبية ، ثم عاد ليفتك بالتمرد بكل ثقة و قوة ، ثم انطلق مرة أخرى إلى الفتوحات و أيضا بكل ثقة و قوة !! معجزة عبقرية سياسية و عسكرية لا مثيل لها أبدا في كل تاريخ الإنسانية ، إلا أن لهذه المعجزة أسبابا منطقية جدا لا تخطر في بال أحد من منظري و دعاة المجموعات الإسلامية التي تسيطر على عقول المسلمين ؛ هذه الجماعات تروج دوما لفكرة أن روحا إلهية هي التي كانت تحارب إلى جانب المسلمين الأوائل بسبب حرص الرعيل الأول على طقوس و عبادات ديانتهم ، رغم أن هذه المجموعات

تؤمن و تعلن بأن النبوة انتهت بانتهاى عصر نبوة الإسلام ، و معها انتهت أيام العجائب النبوية و المعجزات ! سأخبرك يا مهران بك بهذه الأسباب المنطقية :

في إمبراطوريتي الفرس و الرومان كان الناس منقسمون إلى خمسة أقسام :

الأرستقراطيون : أقل من واحد بالمائة من الأمة و هم يملكون كل الأرض الزراعية و من عليها من الناس و النباتات و الحيوانات ، و يحصلون على أربعة أخماس إيرادات هذه الأراضي ، و هم قساة جفاة أجلاف متعجرفون جدا لا يرحمون أحدا من عبيدهم ، و لا يحترمون أحدا من الناس الذين يتبعون لهم مهما أخلص هؤلاء الأتباع لسادتهم .

رجال الدين : مهمتهم إقناع التسعة و تسعين بالمائة من الأمة بطاعة الأرستقراطيين ، و بالتزام القوانين التي يسنها الأرستقراطيون ، و في نفس الوقت يتقاضون أجورا و حماية من الأرستقراطيين لأداء عملهم هذا.

التجار و الصناع و عملهم كله يصب في النهاية في صالح القطاع الزراعي ، و كل مصالحهم تعتمد على رضا الأرستقراطيين ، و هم أيضا يدفعون أتاوات باهظة للأرستقراطيين ، و يضطرون لممارسة الغش و الخداع المالي بحق الفقراء ليؤمنوا ثرواتهم الخاصة اللازمة لمعيشتهم.

الجنود و كلهم من العبيد و الفلاحين المجندين إجباريا بأمر من سادتهم الإقطاعيين ، ففرق الجيش الروماني أو البارسي كانت تسمى بأسماء مالكي جنود هذه الفرق ، فالجنرال قائد الفرقة هو نفسه الأرستقراطي الذي درب عبيده المزارعين على القتال و جندهم في فرقته لخدمة أهداف الملك العسكرية.

الفلاحون : هم أكثر من تسعين بالمائة من الناس ، و جميعهم يسكنون الأرياف الخيطة بالمدن التي يسكنها الأرستقراطيون و الجنود و الصناعيون و التجار ، و هؤلاء لا أمل لهم أبدا في الإنصاف من تعسف سادتهم ، أو في تطوير حياتهم ، أو حتى في تحسين نوعية طعامهم ، فهم يزرعون الطعام و محرومون من استهلاك نفائسه التي يقطفونها بأنفسهم ، فضلا عن أن يتعلموا أو يطوروا معارفهم.

كان قادة الإسلام يعرفون جيدا هذه الخارطة الاجتماعية ، و يفهمون جيدا كيف تعمل ، و كان الخليفة الأول بحكم عمله في التجارة بين الجزيرة العربية و ما جاورها يعرف جيدا الأوضاع الخيطة به ، و عرف جيدا كيف يستغلها بمهارة نادرة.

جيوش الخليفة الأول كانت تتقدم في كل المعارك باتجاه الأرياف ببطء و تأن ، و كانت تستولي على القرى النائية و المدن الريفية الصغيرة و ذلك بخسائر قليلة ، الإستيلاء على هذه المناطق لم يستدع ردودا عاجلة من الأرستقراطية المتعجرفة في

الإمبراطوريتين ، فلقد رأى هؤلاء في هذه الغزوات مجرد عمليات سطو لبدو جائعين على أرياف مهملة مجاورة لأرضهم ، و لذلك لم يحشدوا لها جيوشا و حملات كبرى.

حتى الجيش الآنف الذي أرسله الخليفة عملا بأمر سلفه لم يستدع ردا ضخما من الإمبراطورية الرومانية ، لكنه أسس للفتوحات القادمة بعملية دعائية و استخباراتية رائعة حقا .

جيوش المسلمين لم تكن تدمر القرى و الأرياف كما كانت تفعل جيوش الأرستقراطيين التي كانت تعاقب قرية أو منطقة تكاسل أهلها عن دفع الضرائب لأسيادهم ، بل على العكس كانت جيوش المسلمين تساعد على إعمار هذه الأرياف ، و قدمت لأهلها ما لم يكونوا يحلمون به أبدا حتى في أجمل أحلامهم ، صحيح أن الأراضي المفتوحة و القرى كانت تعتبر رسميا ملكا لجنود و قادة الجيوش الفاتحة ، إلا أن هذه الملكية لم تكن تشمل فعليا الناس ، و هذا يعني أن هؤلاء العبيد تحرروا عمليا ، و لم تكن هذه الملكية تشمل الأشياء بعينها كالأشجار و النباتات و البيوت ، هذه الملكية كانت فقط ملكية ضريبة الإنتاج التي لم تتجاوز أبدا نسبة عشرين بالمائة من المنتوجات ، و هذه الضريبة كانت توزع على الجنود الفاتحين ، و يرسل قسم منها إلى العاصمة ليعاد توزيعه على رعية الدولة الإسلامية ، و هذا يعني أن دخل الفلاحين في المناطق قد ارتفع في المناطق التي سيطر عليها المسلمون إلى أربعة أضعاف دخلهم تحت حكم ملوكهم الأباطرة.

الأهم من هذا أن جيوش الخليفة الأول كانت لا تجبر أحدا على ترك دينه ، و لا تحين ما يقدره السكان و لا تستغفروهم ، و تسعى لتغيير شيء من عاداتهم و طقوسهم ، بل على العكس وفرت أجواء آمنة جدا لهذه العادات و حميتها من اعتداءات جنود السلطة و الأشرار.

و الأهم من كل ما سبق أن هذه الجيوش فرضت على هذه المناطق قانون السوق الساري في عاصمة الإسلام نفسها ، فكان الجنود لا يضربون من يصلي لآلهة أو تماثيل أو صلبان ، و لا يجبرون النساء على ارتداء الحجاب ، و إنما كانوا يضربون من يغش في الميزان في السوق ، و يصادرون مال من يقرض الناس المال بالفائدة ، و منعوا تماما عمليات مقايضة الأطعمة و النقود المتماثلة في النوعية و المتباينة في الجودة .

قلت : و ما الفائدة من منع هذه المقايضة ؟.

قال برنارد و قد لمعت عيناه : سأشرح لك يا عزيزي ؛ خذ هذا المثال :

التمر الرديء يحمل نفس القيمة الغذائية للتمر الممتاز ، مع أن التمر هو الغذاء الرئيسي للعرب لكن ليس له سوى محصول واحد في السنة كلها ، كان العرب يشترون في أول الخريف مؤنتهم من التمر التي تكفيهم لسائر العام ، مزارعوا التمر كانوا يحملون ثمرهم إلى الأسواق في بداية موسم البيع بعد أن تنضج الثمر ، في أول الموسم كان المشترون يتهافتون على الثمر

الجيدة فيشترون منها كل بحسب قدرته ما يؤكل للتفكه أو يخزن للتمون ، حتى إذا نفذ الجيد اشتروا لاحقا الأنواع الرديئة و المتوسطة للتمون الضروري.

في أول الموسم يوجد عدد كبير من المزارعين يحملون تمورا رديئة أو قليلة الجودة ، فلا يستطيعون بيعها بسرعة و إنما يكونون مضطرين لبيعها بصبر و بأسعار متدنية ، فيستعجلون النقد اللازم لشراء حاجاتهم ، عندها يأتون للتجار و يبادلون كميات كبيرة من تمورهم الرديئة بكميات أقل بكثير من التمور الجيدة ، ثم يبيعون التمور الجيدة بأسعار السوق و يحصلون على النقود بسرعة ، بمعنى أنهم يضحون للتجار بقسم من قيمة محصولهم مقابل فرصة الحصول على النقود السريعة ، التجار عادة لا يكونون قادرين على شراء كل الكمية المتوفرة بالنقود فيقبلون سعداء بالمبادلة .

بعد انتهاء الموجة الأولى من الموسم ينتهي التمر الجيد ، و يبدأ الناس بشراء التمور الأقل جودة ، و لأن تجار المدن الأثرياء قادرون على الإنتظار طويلا قبل بيع بضائعهم ، فإنهم يخزنون ما حصلوا عليه في عمليات التبادل الآنفة من تمور قليلة الجودة في بداية الموسم ، و ينتظرون حتى ينتهي الموسم و ينتهي طرح المزارعين ، عندها يكون العامة قد استهلكوا أكثر التمر الجيد و قسما كبيرا مما خزنوه من تمر المؤنة ، عندها سيعود العامة للتجار لسد الحاجات اليومية ، فيبدأ التجار برفع أسعار مخزوناتهم تدريجيا حتى تصل إلى أسعار تفوق أسعار التمور الجيدة ، و ذلك بعد عدة أشهر من بداية موسم بيع التمور ، هذا يعني أن أسعار الطعام الأساسي سترتفع و معها سترتفع أسعار كل شيء ، و تصبح نقود المزارعين أقل قدرة على شراء احتياجاتهم ، بينما لن يحدث هذا لهم فيما لو أنهم باعوا محاصيلهم بنقود أقل للفقراء و متوسطي الحال من الزبائن عوضا عن مبادلتها الآنفة الذكر .

لقد حرمت القوانين الإسلامية هذه المبادلة ، و أجبرت المزارع المتعجل للنقود على التضحية بأجزاء من قيمة محصوله لصالح المشتري العادي الفقراء حتى يقل الطلب لاحقا بعد الموسم ، لأن الجميع يكون قد تمون وقت الموسم ، هذا هو الخيار الصحيح لمصلحة الأمة ، بدل أن يضحي المزارعون بهذه القيمة للتجار الذين سيحتكرون البضائع بالامتناع عن بيعها حتى يرتفع الطلب عليها بعد الموسم ، ثم يرفعون الأسعار تبعا لذلك ، من أجل ما سبق أمرت قوانين الإسلام هؤلاء المزارعين بأن يبيعوا محاصيلهم بالنقود فقط ، أو ببضائع أخرى من نوع آخر حتى يصل هذا الحصول الأساسي إلى حواصل كل البيوت بما يكفي ، و سمّت قوانين الإسلام عملية المبادلة الآنفة بين التمور بـ "الزبا" و أدانتها و اعتبرتها أكبر الجرائم المالية على الإطلاق ، هذه المبادلة حرم الإسلام إجرائها ليس فقط على التمر و إنما على القمح و الشعير و الزبيب و اللحوم المقددة و سائر الأطعمة التي يمكن إدخارها و لا يمكن الإستغناء عنها ضمن احتياجات الطعام الأساسية لدى كل البشر .

بهذا الإجراء حافظ المسلمون على الأسعار في أسواقهم ضمن الحد الواقعي دوما ، أي ضمن قانون العرض و الطلب الطبيعي دون احتيال أو احتكار أو استغلال لحاجات المضطرين و الفقراء ، و هكذا تحرر الفقراء من تعسف الأغنياء تماما في

الدولة الإسلامية الأولى في الجزيرة العربية ، و أيضا في الأرياف الرومانية و البارسية التي فتحها المسلمون لاحقا في فترة صدر الإسلام .

هذا الإجراء و غيره من ضبط لقوانين التجارة كان حلما أسطوريا تحقق على أرض الواقع لواقع لفلحي القرى و الأرياف التي فتحها المسلمون في بداية حملاتهم ، هؤلاء الفلاحون الذين أشبعهم الفتح الإسلامي لم يكن محظورا عليهم التواصل مع أهلهم و أقاربهم في المناطق التي لم يدخلها المسلمون ، بل على العكس ازداد هذا التواصل مع ارتياح هؤلاء المساكين و تحررهم من سياط الأرستقراطيين و الفرسان و رجال الدين و الجوع الرهيب ، فتولوا مهمة الإعلام الحربي الكاسح للمسلمين ضد العرشين الروماني و الفارسي ، و أخبروا أقاربهم من الفلاحين و المزارعين الذين لم يتحرروا بفوائد النعمة التي هبطت عليهم بقدوم المسلمين ، و بالارتياح الذي حصلوا عليه بعد التحرر من التعسف الرهيب لأرستقراطي الإمبراطوريتين .

و هل الجنود في جيوش الإمبراطوريتين سوى أبناء الفلاحين الحالمين بالحرية و الإنصاف و الأمن ؟ الحالمين بسيادة القانون المطلقة على كل أحد ؟ تلك السيادة التي وفرتها السلطة الإسلامية في الأرياف المفتوحة ، فلماذا يقاتل الفلاح و المزارع الروماني أو البارسي دفاعا عن جلاديه ضد محريه ؟ .

الخليفة الأول و بوصية سلفه نبي الإسلام اتبع هذه السياسة بدقة ، و التزمته جيوشه بحرفية تامة ، لقد قال لهم : لا تقتلوا طفلا و لا شيخا و لا امرأة ، و تقطعوا شجرا و لا تهدموا صومعة .. إلخ من وصيته الشهيرة ، التي تعاكس تماما تصرفات الشرط و الحرس في الإمبراطوريتين فضلا عن تصرفات الجنود و الجيوش التابعة لهما ، هذه السياسة حطمت تماما إرادة القتال في جيوش الحملات الكبرى التي شنتها الإمبراطوريتان على الجيوش الإسلامية الفاتحة لاحقا ، أي بعد أن استفحل تقدم المسلمين ، لقد استيقظ ملوك بارسيا و بيزنطة لخطر الغزو الإسلامي و لكن بعد فوات الأوان و بعد أن صارت جيوشهم خاوية تماما من الروح القتالية و الحماسة و الولاء هؤلاء الملوك المستبدين .

لقد تعلم الخليفة الأول من الجيش الأول الذي أرسله لغزو الرومان درسا هاما هو : إن أي جيش مسلم مهما كان صغيرا يستطيع التوغل بارتياح و كفاءة في أية بقعة من الإمبراطورية الرومانية ، و كذلك في الإمبراطورية البارسية استنادا لما سبق و قلته لك من الحقد الطبقي الرهيب الذي يفتك بالإمبراطوريتين ، و لقد استفاد من الدرس و طبقه بمهارة و عبقرية ، و سار على خطاه كل أباطرة المسلمين في القرن الأول الهجري ، فانتشرت سلطة المسلمين كالنار في الهشيم ، لدرجة أن أكبر الولايات الرومانية في إفريقيا - و هي وادي نهر أترو - فتحها الخليفة الثاني بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل فقط يقودهم أمير قرشي .

قلت : و لماذا لن تكرر أية مجموعة إسلامية هذا العمل و تستنسخه ؟ .

قال ضاحكا : لأنهم يرفضون ببساطة حقيقة بديهية هي : "إن أسبابا منطقية مادية هي التي تقف وراء موجة تسونامي الإسلامية الضخمة في القرن الأول للإسلام" ، فلقد أقنعهم منظروا هذه الحركات الذين صنعناهم أن نجاح هذه الفتوحات كان بسبب تدخل إلهي محض استدعته مجموعة من الطقوس التبعية و السلوكية المحضة حافظ عليها رجيل الإسلام الأول ، حتى صار أتباع هذه المجموعات كلهم يؤمنون بأن استنساخ هذه الموجة لا يكون إلا بالعودة إلى التمسك الجماعي للمسلمين بهذه الطقوس و بحرفية ، و هم يناضلون دعويا و سياسيا فقط لفرض هذه المظاهر الدينية ، و حتى حين يمسون أحيانا بالسلطة تراهم يلهثون وراء فرض الحشمة و فرض التزام العبادات على الناس ، و يهملون أهم سلاح انتصر به الإسلام في الماضي و هو التوازن المالي و الإنصاف القانوني و سيادة القانون و القضاء المنصف على الجميع دون استثناءات ، إن هذه المجموعات تثير بهذه السياسة المقلوبة سخط عامة المسلمين قبل كل أحد ، العامة الذين يهمهم ما يجدونه على موائدهم أكثر بكثير مما يمارسونه في معابدهم من طقوس .

منذ مائتي عام أرسلت أول جمهورية أوربية ناشئة قائدا صغيرا بحملة لم تتجاوز الثلاثين ألف جندي إلى وادي نهر أتر ، و كان حينها ولاية تركية ، لم يلق هذا الجيش مقاومة تذكر من الجنود في تلك الولاية ، و ذلك أن هذا الجيش الأوربي الصغير حمل معه الحرية لفلاحي الوادي و صناعيه المهرة ، و خلصهم من ضريبة يدفعونها للباشوات و الآغوات زادت على ثلاثة أرباع المحاصيل ، و لقد انتحل هذا الجيش مؤقنا صفة التسامح الديني فحيد العاطفة الدينية للجنود الفقراء ، إنه استنساخ تام لسياسة خليفة الإسلام الأول في الحرب النفسية الجماعية.

لقد درس هذا الجيش الإستطلاعي أوضاع المسلمين في تلك الآونة و استنتج درسا مفاده : إن أي جيش أوربي مهما كان ضئيلا يستطيع أن يسرح و يمرح حيث يشاء في بلاد المسلمين الغارقة أربافها في الظلم و التعسف و الجهل المتكاثف .

استفادت الجيوش الأوربية من هذا الدرس في الإعلام الحربي الذي سبق و واكب حملاتها على الشرق ، فسحق الغزاة الأوربيون جيوش المسلمين في كل مكان ، تلك الجيوش التي جند فيها الفلاحون المسلمون الفقراء الذين لا يريدون أن يقاتلوا دفاعا عن فقرهم و عن القادة المتعجرفين الذين يضطهدونهم و يسلبونهم ثلاثة أرباع ما ينتجون بكدهم و تعبهم و شقائهم ، صحيح أن الفاتحين الأوربيين خدعوا الفلاحين المسلمين ، و ساموا فقراء المسلمين أضعاف الإضطهاد الذي كانوا يلقونه على يد الأرستقراطيين الأتراك المتعجرفين ، إلا أن عجرفة هؤلاء الأرستقراطيين كانت هي نفس الداء الذي أسقط الإمبراطوريات التي قامت على أنقاضها إمبراطورية الإسلام الأولى !.

المستحيلات كلها تتصاغر أمام المستحيل الأكبر و هو أن تعي إحدى المجموعات الإسلامية للدرس الآنف ، هذه المجموعات التي تسيطر على عقول الباحثين عن النهضة ، و تعجز عن تطبيق مبدأ سيادة القانون الإسلامي دون استثناءات على قادتها

و منظريها و أعضائها ، فضلا عن المناطق التي قد تقع تحت حكمها يوما ، و لذلك أقول لك يا مهران بك ، إحتمالك هذا مجرد وهم مستحيل .

ابتسمت و أومأت برأسي موافقا على كلام برنارد العبقرى الفذ ، بكل اقتناع .

بعد نهاية حرب أورك الداخلية بعامين حضرت عدة لقاءات مشتركة مع البروفسور برنار و صديقه المتميز برنارد ، في إحداها كان الإثنين في زيارة لعاصمة بلادنا تستهدف ترتيب الإعدادات لإطلاق مشروع برنار للمنطقة العربية ، هذا المشروع الذي تمت تجربته بنجاح باهر في أورك ، و صار نموذجه في أورك هو النموذج المعتمد للتعميم .

كنت حينها أفكر باتخاذ قرار التقاعد ، خاصة و أن أعباء مشروع برنار الجديد ضخمة جدا ، فلقد تجزأت هذه الخطة إلى أكثر من مائة خطة و آلية ، خصصت لكل منها مئات الطواقم و مجموعات العمل بأنواعها ، بشكل عام وزعت مهمات المشروع على خمس جهات بطريقة التكامل ، و لقد تمت تجزئة كل مهمة مهما صغرت لتشارك الجهات الخمس في تنفيذها ، يعود السبب في هذا التعقيد إلى استحالة الإستعانة بالإجتياح العسكري لإطلاق الفوضى ، و بالتالي يجب تفعيل آليات التحريض و التفتيت الذاتية التي ركبها منظوماتنا في جميع البلاد العربية أولا ، و ما جاورها من البلاد الإسلامية لاحقا ، الجهات الخمس الآنفة هي التي تشكل عجلة التفتيت الدائري التي ستأخذ على عاتقها تنفيذ مشروع برنار ، هذه الجهات هي :

أولا : فرق الدعاة الشباب المتدربين على قتيبة العامة للتمرد على السلطات ، يغطي عمل هذه الفرق كافة الأحياء الفقيرة في جميع المدن الكبرى و المتوسطة ، و يتركز أيضا في الأرياف التي يتمتع أبناءها بمستوى معقول من التعليم ، يستعمل هؤلاء الدعاة جميع أنواع الجدل الفكري لنشر فكرة واحدة هي :

"كل ما هو موجود و قائم من السلطات و الهيئات و القيادات الرسمية و المحلية و الإجتماعية و الدينية و الثقافية ، و كل ما تحمله هذه الطبقات من أفكار ليست في الواقع سوى العوائق القاتلة التي تمنع تحقيق أحلام الفقراء في عيش كريم".

كل واحد من هؤلاء الدعاة الأفذاذ لديه إطلاع كاف على جميع العقائد الدينية و الفكرية السائدة في مجتمعه ، و قادر على توجيه حملة هذه العقائد من العامة نحو تبني فكرة التمرد على كل ما هو سائد ، و ذلك باستعمال جدل مبني بناء على عقائد العامة ذاتها ، و بنفس الأسلوب الذي كانت الدول العظمى الأوروبية قد نشرت به تلك التيارات اللادينية و الوطنية و العرقية المناهضة للنظام التقليدي للمجتمعات العربية المسلمة ، و ذلك خلال فترة الإنتداب و ما تلاها ، مع فارق هو أن هؤلاء الدعاة الجدد مبشرون بفكرة الإنسلاخ من العقيدة ، أي عقيدة ، بدل دعوة أسلافهم لإحلال عقيدة لادينية محل عقيدة دينية في زمن الإنتداب ، و لقد تدرب هؤلاء الدعاة الجدد على اعتبار العقيدة أيا كانت ؛ عائقا عن رؤية الحقيقة و

نوعا من الأفكار المسبقة التي تقيد حاملها في مواجهة المشاكل المصرية ، و البحث عن حلول لها ، و هم في الواقع لا يملكون أي تصور عن أي حل لأية مشكلة عامة من أي نوع !.

لقد تم اختيار هؤلاء الدعاة من بين أذكى الخريجين الجامعيين ، و من بين أذكى المبتعثين إلى أوربة للدراسة ، و تم تدريبهم على يد أساتذة مهرة و لديهم خبرات واسعة في كافة جوانب الحياة في بلادنا ، و لديهم خبرات واسعة في التلاعب بالمبادئ الفكرية و تقليبها و تحويلها في أي اتجاه يريدون.

حرص برنار على تزويد هؤلاء الدعاة بميزانيات كافية لتفريغهم التام لأداء مهماتهم و تجنيد مساعدين لهم في كل مكان يعملون فيه ، و تم تزويدهم أيضا بأجهزة الكترونية متطورة و حواسيب و هواتف و كاميرات متطورة ، و تم تدريبهم على الإتصال الصوتي و المكتوب و المصور مع غرف العمليات التي تشرف على مشروع برنار ، جميع هذه الغرف تتمركز في أبنية تعليمية خاصة في عدة عواصم أوربية ، لقد احتاجت هذه الإستعدادات لمبالغ خرافية تمت تغطيتها بالكامل من خزانة البارون ، و كلفت مخبرات الأسر الحاكمة في شبه الجزيرة العربية بتسليم كافة الإمدادات النقدية و التقنية لهؤلاء الدعاة ، لتبدو هذه الإمدادات و كأنها نوع من التدخل السياسي من قبل دول عربية في دول عربية منافسة ، و هذا أمر اعتاد الناس على مشاهدته خلال قرن كامل.

حرصت غرف عمليات برنار على أن يكون أحد هؤلاء الدعاة هو المحرك و المنسق لأي تحرك للعامة من أي نوع كان ، و أن يتم توجيه هذا التحرك عبر هذا الشخص من قبل غرف عمليات برنار العديدة.

لنجاح عمل هذه الفرق كان لا بد من توفر بيئة مناسبة لإقناع العامة بأن هؤلاء الدعاة هم السبيل الوحيد للخلاص من البؤس الرهيب الذي يسحق أجسادهم منذ عقود طويلة ، و هنا يأتي دور عمل الجهات الأخرى .

الجهة الثانية : الآلة الإعلامية الحكومية الرسمية للبلاد العربية : أعيد تشكيل هذه الأجهزة بحيث تبدو أكثر استفزازية للشعور من أي وقت مضى ، و ذلك عبر سياسة عجيبة للبث و لنوعية العروض ، سياسة جمعت المتناقضات بشكل وقح للغاية و غير مسبوق أبدا على مر تاريخ الإعلام ، فمثلا راحت هذه الآلة تبث عروضاً تفضح كل ممارسات القمع و الإضطهاد و الرشاوى و الفساد التي تطبقها الحكومات العربية على العامة ، و راحت هذه العروض تُحمّل واجهات الحكم (رؤساء الدول) مسؤولية كل ذلك بشكل صريح أو شبه صريح ، و انتشرت المسرحيات عروض السينما و التلفزيون التي لا مواضيع لها إلا ما ذكرت آنفا ، مع تحريض و تشجيع شبه صريح على التمرد على السلطة و رموزها و واجهاتها.

و إلى جانب هذه الحملة راحت نفس الأجهزة الإعلامية تبث العروض السياسية و الإخبارية التي تمجد و تؤله واجهات الحكم ، و بشكل فج و سخيف و غير مقنع لأبسط الأغبياء ! لقد أثار هذا في نفوس العامة شعورا متناميا بالتححرر من

الخوف من واجهات السلطة ، و صار الحديث عن إمكانية التغيير أمرا لا يثير الرعب و الذعر كما كان في الماضي ، بل لقد أوحى هذه السياسة للعامة بأن السلطة و واجهات الحكم هم الخائفون من العامة و من إمكانية ثورتهم على الفساد ، و هذا ما زاد دوما الجرأة على التحدث عن التغيير في كل البلاد.

الجهة الثالثة : المخابرات و الشرطة السياسية السرية : صدرت للقادة الكبار في هذه المؤسسات أوامر صارمة بعدم التعرض لفرق الدعاة الجدد ، مع تكليف القادة في المستوى الأوسط بمراقبة تحركات هذه الفرق بشكل لصيق و مفضوح دون التعرض لأي منهم إلا ببعض المضايقات ، هذا الأسلوب كان الهدف منه إقناع العامة الذين تحشدتهم فرق الدعاة بفكرة مفادها : إن أجهزة القمع و السلطة عاجزة عن إبداء هؤلاء الدعاة و تخشى التعرض لهم ، لأن القوى الكبرى في أوربة و أمريكا تؤيد ما تدعوا إليه هذه الفرق ، و هذا ما يمنح للتشكيلات الشعبية التي تحشدها فرق الدعاة ما يشبه الحصانة من الملاحقة و التنكيل .

طبعاً هذه الفرق كانت تحشد العامة تحت سمع و بصر المؤسسات المخابراتية و لكن دون أن تقترب من موظفي هذه المؤسسات ، و لا من المجتمعات التي ينتسب إليها هؤلاء الموظفون ، فالمطلوب لاحقاً هو المواجهة بين هذه الجهات و ليس تفتيت إحداها بيد الأخرى .

الجهة الرابعة : المجموعات و الأحزاب الإسلامية : أصدر برنار تعليمات صارمة لقيادات هذه التشكيلات بتخفيض وتيرة عملها الدعوي في هذه الفترة ، و بعدم التعرض لعمل فرق دعاة التمرد ، و بالتقليل كثيراً من الظهور الإعلامي ذي الهدف السياسي ، و بنفس الوقت تكثيف الحضور في مناطق عمل هذه الفرق ، و بتشجيع أعضاء التشكيلات الإسلامية على التحاق بالحشود التي تجمعها فرق برنار ، و لكن بشكل فردي و دون الدخول في أي جدل من أي نوع مع هؤلاء الدعاة و مع العامة المحتشدين لهم.

لقد كان الهدف من هذه التعليمات حماية التشكيلات الإسلامية من التفتت على يد الفرق الداعية للتمرد ، و منع أي تصادم بين الفريقين في توقيت يسبق أوقات الصدام المحددة في جدول مواقيت تنفيذ المشروع .

الجهة الخامسة : مؤسسات الإعلام المرئي و المسموع المصنفة بأنها "مستقلة" ، و على رأسها القنوات الإخبارية العربية كقناة "فجع" ، هذه المؤسسات مهمتها تغطية الأحداث و توجيه جماهير العامة الغفيرة المحتشدة وراء فرق الدعاة ، و التمهيد للأحداث كلها و ذلك بتكثيف الحضور الإعلامي لدعاة التمرد الكبار ، و بتكثيف بث العروض الإعلامية التي تنقل بشاعة الحياة في البلاد العربية ، و تنقل أيضاً صورة مقاربة جداً لحقيقة الإضطهاد ، و فظاعة التنكيل و الإذلال الذي تمارسه القوات المسلحة بأنواعها على طبقات الشعوب العربية بأنواعها.

تحركات كثيرة كانت قد بدأت في جميع الدول العربية باستثناء ممالك الجزيرة العربية ، هذه التحركات أسميت بأسماء تدل على حالة التملل الشديد التي يعيشها العامة تحت ضغط السلطة ، مثل اسم "سئنا" و غيره ، و لقد وجهت هذه التحركات كل سهامها إلى واجهات الحكم (الرؤساء - الزعماء) ، حتى صار كل من يستمع إليهم يتخيل أن كل اعوجاج في الحياة سببه هؤلاء الزعماء ، و أن اختفاءهم سيحول بلاد العرب إلى جنات وارفة الظلال ، كثيرة الثمار ، آمنة السابلة ، نقية الهواء ، عذبة الماء ! .

كل المؤسسات الإعلامية العربية "المستقلة" تدار مباشرة من قبل مديري الإعلام التابعين للبارون روبرت ، و بعناية تامة ، لقد شهدت الكثير من الاجتماعات مع أرفع هؤلاء المديرين ، و كان صديقنا البروفسور برنارد على رأس هذه اللقاءات دوما ، و كان دوما هو المتحدث الرئيسي فيها ، سمعت منه مداخلات كثيرة أذهلتني حقاً ، و عرفت من خلالها نوعية التراكم العبقري لخبرات منظومات عشيرة البارون في كل المجالات مطلقاً ، قال برنارد في إحدى أهم مداخلاته معطياً تعليماته للموجهين الإعلاميين في القنوات العربية المستقلة :

ستقوم محطتكم خلال العاصفة القادمة بتصدير المجموعات الإسلامية و أفكارها و نظريها ، طبعاً إلى جانب دعاة التمرد الشعبي ، و لعل البعض سيقبله هذا ، و سيشعر بأنه يقوم بعمل أحق يشبه إعطاءك المهندس ملقماً للخصم ليقنتك به ! . أقول لكم بثقة : لا تقلقوا ، لأن المهندس الذي ستعطونه إياه سيكون مسدود الفوهة و سيقول حامله ، و لكن فقط إن اتبعتم التعليمات التالية بدقة و ذكاء .

أيها السادة ، هل تعرفون لماذا كان العرب و لا يزالون متقاتلين و متناحرين ؟ لن أطيل عليكم الانتظار : الجواب لأنهم شعب شديد الطموح و الإعتزاز و الإفتخار بالنفس ، و أساس هذا نابع من الحياة البدوية ، إذ اعتاد البدوي دوماً على أن يكون سيد نفسه ، فلا يوجد في البادية فلاحون مسالمون محترفون مهرة و صناع يستعبدهم جيش من المقاتلين المحترفين ، لأن كل سكان البادية مقاتلون ، حتى النساء و الأطفال لا بد من أن يكونوا مقاتلين إن أرادوا البقاء على قيد الحياة ، و هذا بالضبط هو ما جعل الأنانية تطفئ على شخصيتهم لدرجة حرمتهم تماماً من روح العمل الجماعي ، إذ حتى يتعاون عريان على أداء مهمة ما يجب أن يتخلى أحدهما عن الجزء الأهم من شخصيته لصالح نفس الجزء من شخصية شريكه ، إنه جزء حب السيطرة و التحكم ، و هذا الجزء هو أعز جزء من شخصية كل عربي على قلب كل عربي .

ليتنا أي عربي عن هذا الجزء من شخصيته يجب أن يحصل على تعويض من نفس جنس هذا الجزء ، أو أن يخاف على نفس هذا الجزء من خطر يهدده ، و هذا بالضبط ما قدمه الإسلام للعرب يوم تخلّوا بمحض إرادتهم عن اعتدادهم هذا بأنفسهم ليطيعوا رجلاً واحداً ، لقد طمعوا في أن ينالوا جميعاً السيادة على كل البشر عند استكمال مشروع الإسلام ، كما

وعدهم نبي الإسلام ، و لكنهم أيضا خافوا على هذا الجزء من الضياع إن تركوا مشروع الإسلام لغيرهم ، هذا من الناحية السياسية .

أما من ناحية الإيمان و هي الأهم ، فلقد قدم الإسلام لهم أيضا وعدا قاطعا بالرفعة الخالدة ، و بالسيادة الأبدية في العالم الآخر ؛ إن أطاعوا تعاليم الإسلام التي تجبر الجميع على الإنقياد لقائد واحد بطاعة تامة ، و توعدهم بعذاب فظيع أبدي لا راحة منه ، عذاب من جنس ما يعانونه في صحرائهم من الحر و الزمهرير ، هذا العذاب لمن رفض إطاعة تعاليم الإسلام بإمرة هذا القائد الأوحـد.

و لقد بقي اعتداد العرب بأنفسهم حد ما يقارب العبادة كامنا ، و متوارثا من الآباء للأبناء أبدا ، إنه الجزء الأهم من التربية التي يتلقاها أطفال العرب من ذويهم ، و يتعلمونها من أصدقاء مدارسهم و مدرسيهم و رفاق الأزقة في أحيائهم ، هذا الإعتداد في الواقع يظهر دوما على هيئة أنانية متطرفة للغاية .

أيها السادة ، إن الطبيعة البدوية القاسية لحياة العرب جعلت النجاح قدسا مقدسا في نفوسهم و في تراثهم ، فتجد أن العربي قبل الإسلام ينظم ملحمة شعرية يصف فيها معركته مع ذئب يهاجم غنمه ، أو يطنب فيها تمجيذا لانتصار عشرات من قومه على عشرات من البدو حاولوا غزو مخيم عشيرته ، بل تجد أن هذا العربي يتوقف طويلا مع هذا النصر و كأنه دخل به فردوس الخلود الأرضي ، و كأن هذا النجاح هو الخطوة الأخيرة نحو التقاعد و التمتع بالحياة دون منغصات ، و هذا كله في الواقع وهم كسراب صحاري العرب ، الصحاري اللاهبة التي يعتبر البقاء فيها على قيد الحياة إنجازا عظيما بحد ذاته ، فكيف بالانتصار في صراع من أجل هذا البقاء !؟.

طبيعة الحياة البدوية لا مجال فيها للتخطيط الجماعي المستقبلي ، حياة ليس فيها أي مكان للغد ، إذ لا ضمانات في تلك البيئة بالحياة إلى يوم غد ، و لعل كل حَكَم العرب في تلك الفترة تختصر في جملة : "أحيني اليوم و أمتني غدا" ، فالحياة اليوم نصر مؤزر بحسب مقاييس الصحراء ، و الموت غدا ليس أمرا يؤسف له مقارنة ببشاعة الحياة وسط كثبان الرمال الجافة .

الأعجوبة الكبرى في الإسلام هي أنه نجح في إقناع أولئك العرب الأوائل بأن يعيشوا حياتهم من أجل غد رائع ، غد جميل لا حزن فيه و لا بؤس و لا صحاري و لا خوف و ليس فيه برد قارس و لا حر محرق مهلك ، غد لا موت فيه و لا وقت و لا هجرة بين وديان البوادي و لا جوع و لا قلق ، غد يكونون فيه جميعا سادة عظماء مقربون من الإله الخالق لكل شيء ، هذا الغد يكون حتما بعد أن يموتوا و ليس في هذا العالم .

ليصلوا إلى هذا الغد يجب أن يطيعوا كافة تعاليم الإسلام دون استثناء ، و بتوجيه قائد واحد ، في الواقع لقد تخلى العرب بهذا عن كل أنانيتهم ، و عن تقديسهم للنجاح عندما اعتنقوا هذا الإيمان ، بل لقد تحولت أنانيتهم إلى ما عرف بضدها و هو

"الإيثار" ، أي التخلي عن مصالح الذات لصالح الآخرين ، و تحول تقديسهم للنجاح إلى احتقار للنجاح و إلى ما عرف بـ "الإخلاص و التفاني في العمل" و هو يعني العمل فقط من أجل أن يرضى عنهم الإله ، و من أجل يحصلوا على جوائزه الخالدة التي لا تنتهي و لا تتضاءل و لا تنقص ملذاتها في العالم الآخر ، في الواقع أي نجاح في هذا العالم السائر دوما إلى الفناء ، مهما كان نجاحا عظيما لن يعدل أيا من هذه الجوائز الإلهية الموعودة .

بهذا سخرت إمكانيات العرب البدنية و الذهنية الكبيرة الناتجة عن التأقلم مع شظف الصحراء ، و توجهت كلها دون عوائق لتحقيق مشروع إمبراطورية الإسلام ، كانت هذه هي "طاقة الإندفاع" الذاتية للمسلمين الأوائل ، و هي بالضبط كانت عين إعصار الإسلام الذي اجتاحت الممالك المجاورة المهالكة بسبب أنانية الأرستقراطيين ، و عنجهيتهم و اضطهادهم لجنودهم ، نفس الجنود الذين استأجرهم الأرستقراطيون لحماية ملكهم !.

حتى لا يتكون إعصار الإسلام مرة أخرى أبدا ، عليكم أنتم أيها السادة أن تبقوا العرب دوما على حالتهم قبل الإسلام ، أي شعب يقدس كل واحد منهم نفسه ، و يعبد كل منهم النجاح ، أي نجاح كان ، مهما كان صغيرا.

إن شعبا يعبد كل واحد منهم نفسه سيكون من الصعب جدا على أي منهم أن يحقق أي نجاح كان ، و بالتالي سيكون النجاح عندهم معجزة كبرى ، يحق لمن أنجزه أن يتقاعد طويلا للاحتفال بنجاحه النادر في بيئته ، على طريقة اختصرها هذا البيت :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة .. قصة قالها عمرو بن كلثوم

يفأخرون بها مذ كان أولهم .. يا للرجال لفخر غير مسؤول.

العارف بتاريخ العرب و الإسلام يرى بوضوح تأثير هذين العاملين السلبي القاتل على اندفاع الإسلام و تأثيره ، أيها السادة :

لقد كان الشعر و أساسه قصائد الفخر و المدح هو أداة العرب لتقديس أنفسهم و نجاحاتهم الجهرية و تضخيمها حتى تتحول إلى أساطير مضللة كالسراب ، لهذا حرص نبي الإسلام و خلفاؤه الأوفياء لتعاليمه على اضطهاد الشعر ، و تحجيمه و إدانته و إبعاده عن عقول العامة و النشأ من رعيته ، لكن الناظر إلى عهد أول ملِك في الإسلام يرى أن أول ما قام به من مخالفات لأسلافه من أجل تثبيت ملكه كان : "إعادة المجد للشعر" فأعاد إلى ديوان السياسة ما عرف بـ "أعطيات الشعراء" ، أو "جوائز الشعراء" ، و ما لبثت بعدها أن عادت العصبية القبلية و التفاخر بالذات إلى حياة و تراث العرب المسلمين ، و هذا كله بفضل إعادة المجد للشعراء ، المطلع على الشعر العربي في فترة "الحكم الأموي" يجد أن هذا الشعر لا يختلف في شيء عن شعر العرب البدوي قبل الإسلام ، نفس الشعر الذي حظره نبي الإسلام و خلفاؤه الأربعة الأوائل ، شعر لا مواضع له إلا التفاخر بالنفس و تقديس النجاح.

الشعر كان هو الإعلام العربي في ذلك الوقت ، و اليوم أنتم شعراء العرب و صانعوا مخيلتهم ، و عليكم أن تثبتوا عند العرب ما توارثوه من الأنانية و تقديس النجاح مهما كان ضئيلا و مجهريا و تافها.

ستوجهون كل أحقاد العامة عند هبوب العواصف إلى واجهات الحكم في البلاد التي ستجتاحتها الزوابع ، بذلك سنحول أشخاص تلك الواجهات إلى ما يشبه القماشة الحمراء التي يلوح بها المصارع للثور في الحلبة ، حتى يندفع الثور نحوها بحرق ، إلى حيث يريد المصارع الذكي القاسي ، إلى الفراغ المنهك و المحبط للثور الغبي .

ستجعلون مجرد التمرد على تلك السلطات مجد الأجداد و قمة النجاح ، و عند هذه النقطة ستُظهرون العامة الغاضبين و دعاة التمرد أبطالاً أسطوريين ، لا يخطئون لأنهم عظماء جدا بقدر التحدي الهائل الذي يخوضونه ، ستجعلون انتقادهم جرما يشبه تماما إهانة أقدس المقدسات ، و من يتجرأ على هذا النقد سيتهم فوراً بأنه خائن جاحد مجدف على الإله ، أو متسلق أناني انتهازي يريد الظهور من خلال مخالفة العظماء الأفاضل ، نعم ستجعلون من هؤلاء عظماء عند أنفسهم و عند العامة ، حتى عندما يقتتلون كالكلاب الشاردة على أتفه المكاسب ، ستحرصون على أن يبقى هؤلاء عظماء في نظر العامة ، و مجرد انتقادهم خيانة عظيمة تصب في صالح العدو الأكبر "الزعماء" ، أولئك الزعماء الذين لا يملكون في الواقع شيئا من أمر أنفسهم !.

لا أستطيع أن أفهم ، أين هي أمجاد الذي يدافع عن ممتلكاته و حريته و مستقبل صغاره ؟! إنه الحد الأدنى الواجب أن يقوم به أي إنسان على وجه الأرض ، إنه الحد الأدنى للواجبات الفطرية التي تؤديها الحشرات و الحيوانات ، و أي مجد يفاخر به طير يدافع عن أفراخه و عشه و بيضه و حياته ؟؟!

لكنكم ستجعلون من هذا الواجب البديهي مجد الأجداد الذي لا يقوم به إلا القلة الأفاضل الهابطون من الأساطير ، الذين تجرؤوا و تحدوا سلطة عصابات السطو المسلح و قطاع الطرق و سالي الأموال الذين تسموهم في إعلامكم : قادة - زعماء - قضاة - جيش - شرطة .. إلخ .

ستصنعون من كل واحد من هؤلاء المتمردين الأفاضل أسطورة و ما يشبه "الإمبراطور الطاغية المؤله" ، هؤلاء يصبحون بعدها وسيلتنا لإقناع العامة بأن الخضوع لملك واحد طاغية مستبد أرحم بكثير من الحرية في ظل أباطرة الحرية العظماء الطغاة الصغار هؤلاء ، و عندها سنبدأ بحصاد هؤلاء الأباطرة الأقزام الثائرين على سراب الحاكم الذي نتبرقع به نحن الذين نحرك كل شيء ، سنحصد هؤلاء الآلهة و نحن مؤيدون بدعاء العامة و تمنياتهم لنا بالنجاح في القضاء على الحرية و أبطالها و ما جرّوه على العامة من الويلات.

أيها السادة لقد ظن أحفاد يعقوب أن مشاكلهم كلها هي شخص فرعون و سلطته ، و أن مجرد الخلاص من هذا المستبد البغيض و سلطته سيحول حياتهم إلى فردوس خالد على كوكب الأرض ، الواقع أن أعظم مشاكلهم و كوارثهم بدأت بعد موت هذا المستبد و بعد الخروج من سلطته.

السبب في خيبتهم الكبيرة هذه أنهم كانوا تماما كالعرب في أنانيتهم المتطرفة جدا ، و في تقديسهم لأنفسهم ، و في رفضهم التخلي عن تقديس النجاح الشخصي طاعةً للقائد الفذّ حقا الذي أخرجهم من الهوان و الرعب ، إلى الحرية و الأمان ، فمسخوا بقصر نظرهم و عنادهم حريتهم فوضى ، و مسخوا أمانهم عنجهية و تطاولوا على قائدهم العظيم بلغ حد السخرية منه و من تعاليمه ، و لهذا بدل أن ينالوا فردوسا موعودا في الأرض المقدسة نالوا تيهيا في الصحراء القاحلة لأربعة أجيال متوالية ، حتى صار أكثرهم يتمنى لو أن فرعون لم يمت و أن موسى لم يخرجهم من معسكرات السخرة التابعة لفرعون و حكومته .

و هذا ما سيتمناه العرب بعد أن تهب أعاصير صاحب العظمة البرفسور برنار على بلادهم ، إلا أن أمنيتهم هذه لن تتحقق أبدا لأن الزمن لا يعود للوراء ، و نحن لن نسمح له بالعودة مطلقا ، و لأننا سنكون نحن من أخرجهم في نزهة مؤقتة فظيعة خارج حظيرة الإستعباد الفرعوني ، و لم يخرجهم قائد فذ عبقرى وفي عظيم حريص على قومه ، كالذي أخرج أحفاد يعقوب من جحيم فرعون .

مختلف طواقم القيادة التابعة لمنظومات البارون شاركت في لقاءات مع البروفسورين برنار و مساعده المطاع برنارد ، من ضمن هذه الطواقم كانت فرق التوجيه العليا للمجموعات الإسلامية بمختلف صنوفها ، و أيضا طواقم توجيه المؤسسات الدينية الإسلامية و المسيحية الرسمية بمختلف توجهاتها ، كثيرة جدا كانت التوجيهات التي أعطيت لهؤلاء ، كلها كانت تخدم خططا مرحلية لا يعلم أبعادها إلا الدائرة المقربة من مستشاري البارون .

لقد اطلعت على كل هذه الخطط المتراكبة و المعقدة جدا ، الواقع أن معظمها لقي معارضة كبيرة من عدد من مستشاري البارون و كنت أحد المعارضين عليها جملة و تفصيلا ، لأنها تتضمن مخاطرات كبيرة جدا ، إلا أن البروفسور تمكن من إقناع البارون بوضعها حيز التنفيذ بشروط صعبة منها :

أن توضع خطط متعددة آمنة لتكون بديلا تستقر عليه الأمور إن سُحب المشروع من التداول ، بعض هذه الخطط البديلة لا بد من تنفيذها سواء أكان المشروع مستمرا أو تم إيقافه ، و من هذه الخطط الخاصة حملة ضخمة ، عرض تفاصيلها شيخ كبير يتولى مناصب دينية كبرى في بلادنا يدعى الشيخ "ظفر" ، هو أحد زملاء الراحل الجمعي و من أكثر تلامذته عبقرية و خبرة ، و لقد عرض الخطة بتبسيط و دقة أدهشت السامعين ، و تمكن من إقناع البارون ، إلا أنه لم يقنعني أبدا بخطته و

شعرت أنها ستكون الضربة القاضية لكل شيء و لن تُنفذ بنجاح مهما حصل ، لأنها لو نجحت فستكون أكبر بكثير من نجاح منظومات البارونات التاريخي في إسقاط الملكيات الأوربية و الآسيوية ، و لو فشلت فستكون بداية انهيار للمنظومات يشبه إختيار مباني أحجار الدومينو المتراكبة .

قال الشيخ ظفر في عرضه لخطته آنفه الذكر ، العرض الذي دام عدة ساعات :

مشاريع إحداث تغييرات عميقة في المجتمعات الإسلامية لم تنجح على مر التاريخ إلا لتعود إلى نقطة الصفر مرة أخرى ، و السبب في هذا أن هذه المشاريع كانت تستهدف العامة و ربما رجال الدين ، لكن دون أن تمس صلب التراث الديني الإسلامي بأصوله و تفرعاته ، ليس لأن صانعي هذه المشاريع لم يحاولوا تغيير هذا التراث ، و إنما لفشلهم في محاولات تغيير التراث ، نتائج محاولاتهم لتغيير التراث الديني الإسلامي أنتجت دوما مجموعات جديدة منشقة عن الإسلام ، دون تغيير في جسم الإسلام نفسه ، تجنب هذا الفشل هو ما راعاه جيدا و اضعوا مشروع التغيير الحالي الكبير المتعثر الذي بدأ قبل أكثر من قرنين ، و سأوضح كيف تمكن هذا المشروع من إحداث تغيير كبير في متن التراث الإسلامي و كيف أفادت المنظومات منه :

معظم زملائنا الكبار في معاهد الحرية العاملة في الدول الإسلامية لم يفهموا أبدا أهمية وجود المجموعات الدعوية الإسلامية ، و أهمية رعاية هذه المجموعات ، و حاولوا دوما أن ينقلوا عبادة الحرية إلى الشرق العربي بنفس الطريقة التي انتشرت بها هذه العبادة في أوربة ، أي طريقة السخرية من الدين و الخط من شأن تعاليمه ، و لهذا كانت نتائج أعمالهم في الشرق على عكس المطلوبهم دوما ، لقد كادت أعمال أساتذة الحرية في الشرق أن تؤدي مرارا لإطلاق حرب تحرير إسلامية شعبية كبرى ضد النفوذ الأوربي ، لولا وجود المجموعات الدعوية الإسلامية التي امتصت ردات الفعل الشعبية المضادة ، و سارت بها نحو مزيد من تفكيك التدين الإسلامي في الشخصية الفردية و الجماعية للمسلمين.

إن هيمنة أساتذة الحرية على السلطة في البلاد الإسلامية عامة و العربية خاصة لم تكن سوى الغطاء الذي حمى مشروع التغييرات الدينية في الشرق الإسلامي ، هذا المشروع الذي قامت بتنفيذه المجموعات الإسلامية ببراعة لا مثيل لها في التاريخ ، لعل من أسباب نجاح هذه المجموعات أنها هي نفسها ظهرت لأول مرة في التاريخ على أيدي أساتذة منظوماتنا العريقة ، أيها السادة :

لقد قلبت المجموعات الإسلامية أسلوب عمل معابد الحرية رأسا على عقب لتستعمله في اختراق جدار التدين الإسلامي العنيد ، بطريقة عبقرية جدا وضع أسسها ذلك العبقرى الذي صنع النسخة النجدية للإسلام ، على خطاه سار أولئك

العباقره الذين صنعوا على مثالها كل النسخ المزيفة التي رعتها منظومات البارون حتى صارت اليوم بديلا عن النسخة الأصلية للإسلام ، على الأقل في عيون معظم عامة البشر و من ضمنهم عامة المسلمين .

البروفسور الفذّ واضع النسخة النجدية للإسلام أسس لفكرة عبقرية غير مسبقة ، أو لنقل أنها مقتبسة و من ثمّ طوّرت ، إنّما فكرة تجزئة العقائد و النصوص الدينية الأساسية المقدسة ، ثم التعامل مع هذه النصوص بطريقة فريدة و مقنعة للعامة و لأشباه علماء الدين ، و لعلماء الدين السذج ضعيفي الملكة الفكرية ، على سبيل المثال :

فكرة فصل النصوص الدينية الإسلامية المقدسة التي تتحدث عن الإيمانيات الغيبية عن بقية النصوص المقدسة و التعامل معها باستقلال لم تكن أبداً موجودة في مدونات علماء الدين الإسلامي ، أيضا فكرة فصل النصوص القانونية الإسلامية أو ما تعرف بـ (تراث الفقه) و هي المُفسّرة للنصوص المقدسة (القرآن) ، ثم إسقاط اعتبار الفقه من النصوص المقدسة ، بل إسقاط اعتباره من الدين كله ، فكرة لم تخطر أبدا في بال أحد من علماء الإسلام ! لقد قُدمت ببراعة مذهلة ، لدرجة أن معظم علماء الدين الإسلامي التقليديين و رغم رفضهم لهذا الفصل بشدة لم يعرفوا كيف يبطلون أحقيته ! بل لم يدركوا أبعاده بالكامل ، حتى أنهم راحوا يرددون نفس ادعاءات البروفسور العبقرى الراحل التي سوّغ بها هذا الفصل ، ليردّوا على نفس هذه المسوغات ! لقد فعلوا هذا بمنتهى الغفلة و لنقل السذاجة.

في التفاصيل نجد في النسخة النجدية للإسلام دعوة مفادها : {إن النصوص المقدسة في الإسلام هي فقط القرآن و نصوص "الحديث الشريف"} أما النصوص القانونية الإسلامية و التي نسميها "الفقه الإسلامي" فليست نصوصا مقدسة ! و لذلك لا يجوز أبدا العمل وفقها ، بل و لا حتى النظر فيها !.

مبرر هذه الدعوى : أن هذه النصوص لم تكتب بكلمات الإله و لا جاءت من حديث نبي الإسلام "الوحي" ، أي أن الكلمات و العبارات التي صيغ بها هذا الفقه ليست ألفاظا إلهية المصدر و إنّما هي ألفاظ وضعها بشر عاديون يخطئون و يصيبون لتعبر عن القوانين الإلهية التي لا تقبل الخطأ .

و مبرر آخر هو :

ليست مقدسة أيضا النصوص التفسيرية للإيمانيات الغيبية التي اعتمدها علماء الإسلام و التي تسمى بـ "علوم العقيدة" أو "الكلام" ! و إنّما هي مجرد عبارات وضعها بشر يخطئون و يصيبون لتصف غيباً محضاً ، لا يمكن إلا للإله الخالق التحدث عنه ، أو لمن أمره الإله مباشرة بالتحدث عنه ، أي الأنبياء أهل الوحي القادم من عند الإله الخالق .

بذلك مهد هؤلاء لمفهوم جديد للفقيه في الإسلام لم يعترف به أبدا علماء الإسلام في الماضي ، بل و لم يخطر في بال أحد منهم ، مفهوم جديد تماما لكنه صيغَ بعبارات فقهية قديمة ، هذه العبارات نُسقت لتدعم هذا المفهوم الجديد ، و لتقدمه على أنه هو المفهوم القديم المتوارث الصحيح ، هذا المفهوم هو :

"إن الفقيه أو الإمام أو المفتي هو : الشخص صاحب المعرفة بالنصوص المقدسة (القرآن و الحديث النبوي) العالم باللغة العربية ، الذي يستعمل الأدوات اللغوية و المنطق العقلي للبحث في مضامين ظواهر النصوص المقدسة عن حكم الإله في الأحداث المستجدة و المتكررة على مدار الساعة في حياة الفرد و المجتمع" .

إذاً فكل ما على هذا الرجل العارف هو أن يقرأ النصوص المقدسة المتوفرة بين يدي كل مسلم (القرآن و كتب الحديث) و أن يستخرج منها حكم الإله لكل حدث و مناسبة ، و يقوم بهذا العمل و كأن أحدا لم يسبقه إليه ، أي يبدأ من "الصفر" !.

نبح بروفيسورنا العبقري مؤسس النسخة النجدية في إشاعة أن أئمة القانون الإسلامي ، أي (أئمة المذاهب) الإسلامية كلها و من ضمنهم الأئمة الأربعة و أئمة العقيدة كلهم و من ضمنهم إماما العقيدة ، إنما استنتجوا كافة إفتاءاتهم و كل القوانين التي دونوها و التي تزيد على المليون من بضعة مئات من نصوص القرآن و الحديث النبوي ، باستعمال قواعد المنطق العقلي و قواعد اللغة العربية فقط !.

العجيب في براءة هذه الفكرة أن علماء الإسلام الذين ردّوا على هذا الفكرة استعملوا الفكرة ذاتها للرد عليها ! و لم ينتبهوا إلى أن هذه الفكرة استهدفت تحطيم التدين بأكمله عند المسلمين بتحطيم الأساس البديهي التالي :

{يجب على المسلم أن يتعلم قوانين الإسلام من عالم بقوانين الإسلام ، و ليس للمسلم أن يحاول استنتاج أي قانون إسلامي من النصوص المقدسة (القرآن و الحديث) بمفرده باستعمال المنطق و فهمه الخاص للغة العربية فقط ، مهما بلغ هذا المسلم من البراعة و المعرفة بالنصوص و باللغة و المنطق أو ما يسمى بـ "أصول الفقه" ، و هذا ليس لإمام و لا لغيره}.

معظم علماء الإسلام الذين تصدوا لهذه الفكرة التي صنعتها المنظومات كان ردهم عليها هشا و هو :

أساتذة (أئمة الفقه و العقيدة) و هم ستة ، كانوا عبارة أفذاذا ، و عبقريتهم هي التي أتاحت لهم استنتاج القوانين الإسلامية من النصوص المقدسة الإستنتاج الأقرب إلى الكمال مطلقا ، و لن يقدر أحد على أن يصل لمهارتهم ، و بالتالي لن يقدر أحد على استنتاج قوانين إلهية من النصوص المقدسة أقرب إلى الصحة منهم ، فهم الأشخاص المعجزات !.

صلب هذه الفكرة كما هو واضح هو نفس ما روجت له النسخة النجدية ، من أن البشر هم من استصنع قوانين الإسلام ، سواء أستخرجوها من النصوص القرآنية أن صنعتها أذهانهم لتطابق ما لا تعارضه هذه النصوص ، إنها نفس فكرة النجدية

مع استبدال الأسماء و الأرقام ، فبدل أن يكون الأئمة ستة فليكونوا مئات و ربما آلاف ، و بدل أسماء الأئمة الستة فلتكن أسماء أئمة جدد من مشايخ النسخة النجدية.

و لماذا لا ؟ طالما أن النصوص المقدسة موجودة (القرآن و الحديث النبوي) و أدوات الإستنتاج موجودة و هي قواعد اللغة العربية و أصول المنطق أو أصول الفقه ، و طالما أن البشر يُخلقون بعقول ؛ فإذا لا بد أن يُخلق أشخاص أذكاء يكررون ما فعله من نسميهم بـ "الأئمة الأربعة" الفقهاء و "إمامي العقيدة" ، بل في هذا العصر الفرصة أكبر لوجود هؤلاء العباقرة الجدد، فمع تطور أدوات المعرفة و أساليب البحث في النصوص لا بد أن ينتج اللاحقون ما هو أفضل و أكمل و أقرب إلى حكم الإله الذي لا يخطئ الحق و العدل مما أنتجه السابقون ، فلا الأئمة الأربعة و لا إماما العقيدة ؛ حتى و لا كافة أئمة القرن الثاني و الثالث الهجري و من تلاهم توفرت لديهم ما توفر لمشايخ النجدية اليوم ، فالسابقون لم تجتمع لديهم النصوص الدينية في مصنفات مطبوعة و منسقة و سهلة التناول كما هو حاصل على مدى القرنين الماضيين ، و هم ليسوا بالتأكيد أشخاصا لا تتكرر عبقريتهم !.

الحقيقة أيها السادة مختلفة عن هذا كله تماما ، الواقع أن سبب اتفاق علماء الإسلام في العصر الأول على وجوب أخذ القوانين و العقائد الغيبية من هؤلاء الستة حصرا ليس لأن هؤلاء الستة عباقرة ، كعبقرية أينشتاين في الرياضيات و حل الأحجيات و الألغاز الصعبة و ربما أكثر ، و لكن لأنهم : { كانوا عباقرة في حفظ هذه القوانين عن ظهر قلبهم } كما كان رواة الحديث النبوي و مخرجه عباقرة في فتنهم ، لقد حفظوا هذه القوانين تلقينا شفها و كتابيا و فهموها تعلمنا من مشايخهم و أساتذتهم و الذين يُعدّون بالمئات إن لم نقل بالآلاف ، و كانوا أيضاً عباقرة تصنيف و تبويب و ترتيب هذه القوانين المنقولة عن النبي بالفهم ، ثم كانوا عباقرة في ربطها بالنصوص المقدسة بتناسق و تناغم سَلِمَ تماما من التناقض و مخالفة المنطق و ظواهر عبارات القرآن و الحديث ، بحيث يرى الناظر أن هذا القوانين المفهومة إنما هي مشتقة و مستنتجة من النصوص المقدسة ضمن قيود صارمة ، و الواقع أنها ليست كذلك! أيها السادة إليكم هذه المفاجأة :

تراث الإسلام هو : تكامل بين القرآن و بين تفسير نبي الإسلام للقرآن ، و لقد اتفق علماء الإسلام على تسمية هذا التفسير بالسنة النبوية ، هذه السنة هي كل أعمال و أقوال و تقريرات نبي الإسلام ، و لقد جاء الحديث النبوي التالي ليقسمها إلى قسمين : الأول ما يحدده هذا الحديث : "إن كذبا عليّ ليس ككذب علي أحد من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" ، و حديث : "نَصَرَ الله امرءاً سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى من سامع" ، فلقد منع هذان الحديثان كل أحد من أن يقول : "قال النبي" ثم ينقل كلام النبي بـ "عبارة غير عبارة النبي ذاتها بالحرف الواحد" أي يحرم على من بدأ كلامه بجملة "قال النبي" أن يتبعها بكلام صاغه المتكلم الناقل بناء على ما فهم من كلام النبي ، أي يجب نقل عبارات النبي كما تنقل الآيات القرآنية ، و بهذا نشأ علم كبير هو علم تدوين و ضبط "الحديث النبوي" ، أي "كلام النبي"

أو "السنة المنقولة باللفظ النبوي" ، و هو في الحقيقة القسم الثاني و الأصغر من السنة النبوية ، و ليس القسم الأول منها و ليس هو كل السنّة كما صار شائعا اليوم بفضل جهود منظوماتنا .

و لفهم هذه الحقيقة سنأخذ الخلفاء الأربعة الأوائل مثالا ، فلقد لازموا جميعهم نبي الإسلام ملازمة لصيقة يومية مدة ربع قرن تقريبا ، و باعتبار أن كافة أفعال و أقوال و تقارير النبي هي "السنة" ، و باعتبار أن النبي أمرهم بتبليغها لمن وراءهم ، فإذا لا بد أن أحدهم روى عن النبي أكثر من أربعين ألف حديث ، إن كان ما شهدته أحدهم من أعمال و أقوال النبي و تقاريراته خمسة أحداث يومية فقط !

إلا أننا نجد أن الأحاديث المروية عنهم جميعا لا تزيد عن ألف و أربعمئة حديث ! فأين ذهبت كل تلك السنة التي تعلموها ؟؟ هل قصروا في تبليغها و هم الذين نشروا الإسلام علما أن معظم الصحابة بعدهم أسلموا بدعوتهم ؟!

الجواب بسيط : لقد بلغوا ما تلقوه من تعاليم النبي بعبارتهم و ألفاظهم الشخصية ، لأنهم كانوا يتورعون عن قول : قال النبي . و لأنهم فهموا معظم مراد النبي من كلامه و أفعاله و تقاريراته ، و كانوا يراجعونه لفهم ما فاتهم فهمه ، فإن فهموا المعنى فماذا يمنعهم من تبليغه بألفاظهم بعد أن يقولوا : "هكذا علمنا النبي" أو هذه "السنة النبوية" ؟! .

و بهذا نجد أن السنة المروية باللفظ من مسموعات الخلفاء الأربعة أقل من اثنين بالمائة مما سمعه هؤلاء الخلفاء من النبي ، و هم أعظم أتباع النبي مكانة و أساتذة كل من جاء بعدهم .

نعم أيها السادة القسم الأول و الأعظم من السنة هو :

{ما تناقله أصحاب النبي عنه بـ "المعنى فقط" ، و هو ما تناقلوه حال حياته و بعد وفاته على مدار الساعة من أوامره و نواهيه و تعاليمه النظرية و العملية ، هذا القسم تناقلوه عنه بالمعنى و ليس بالعبرة الحرفية للنبي ، أي هو : السنّة "المفهومة" ، و الفهم لغةً هو الفقه ، أي هذا القسم هو : السنّة "المفقوهة" ، سميت لاحقا اصطلاحا بـ "الفقه" ، فالصحابي كان يعلم ابنه و زوجته و صديقه تطبيقات الأوامر القرآنية نقلا مباشرا عن النبي و ليس من استنتاجات الصحابي من نصوص القرآن ، و لكن هذا التعليم كان يتم بعبرة الصحابي و ليس بعبرة النبي ، لأن الصحابي كان يتورع عن أن يقول : قال النبي ! بسبب الحديث الآنف الذكر ، و لذلك كان الصحابي غالبا ما يقول لابنه و زوجته و تلميذه :

افعل هذا و دع هذا ، و هذا حلال و هذا حرام و هذا نفل و هذا فرض و ذاك من الأفضل تركه ، و هذا صحيح و هذا باطل فاسد .

ثم يقول لهم : "هذا ما تعلّمته من النبي" و لا يقول لهم : "قال النبي" .

الصحابة تعلموا الوضوء و كيفية الغسل و أحكام الصلاة و العبادات و الأعمال و سائر الأحكام من النبي و ليس من القرآن ، و لماذا يجهد أحدهم نفسه في تفسير القرآن و النبي موجود و قريب منهم ؟ كل ما عليهم هو أن يحصلوا على التفسير من النبي و هو التفسير الصحيح بلا شك ! كان الكثير من الصحابة يحفظون القرآن ، لكن الكثير منهم بل لعل أكثر الصحابة تعلموا واجبات كثيرة و تركوا محرمات كثيرة جاءت في القرآن حتى قبل أن يطلعوا على الآيات التي وردت فيها هذه الأحكام ، بل لعلهم تعلموا هذه الأحكام من زملائهم الأقدم منهم من الصحابة و ليس مباشرة من النبي ، و كل هذا بـ "ألفاظ و عبارات النافلين" المعبرة عن ما فهمه هؤلاء من كلام و أفعال و تقارير النبي ، و قطعاً ليس بعبارة النبي ، هؤلاء المعلمون كانوا بعشرات الألوف في زمن النبي ، أقل من أقل القليل منهم من كان يُعلّم أحكام الدين لتلاميذته و أهل بيته و من هم في رعايته بأن يقول لهم مثلاً : "قال النبي : لا صلاة بغير أم الكتاب. ثم يعلمهم سورة الفاتحة ، أو قال الله : يا أيها الذين إذا قمتم إلى الصلاة .. (الآية) ثم يعلمهم كيفية الوضوء و مبطلاته و واجباته ، هكذا كان حال عامة المسلمين و علماءهم و من جملتهم من نسميهم بالأئمة الأربعة و إمامي العقيدة .

هذا القسم الأول من السنة و هو "السنة المفهومة" كان وحده المصدر الأساس للقوانين الإسلامية التي كانت تحكم حياة المسلمين الأوائل في حياة النبي و بعد وفاته عبر العصور الماضية ، و نظرياً إلى هذا اليوم ، هذا القسم هو ما تلقاه و نقله و عمل به أساتذة الإسلام و قضاته و سلاطينه في القرون الأولى التي تلت وفاة النبي ، تلقوا جميعاً هذا القسم إلى جانب حفظ القرآن في الكتائب ، التي كانت مدارس ذلك العهد ، ثم دُوّن هذا القسم ، و في الواقع نجد أن القسم الثاني و هو السنة المنطوقة قد روي معظمه في القسم الأول بالمعنى .

السنة المفهومة هي في الواقع كل الإسلام تقريباً ، و لقد عُمل بهذه السنة قروناً متوالية من غير استنكار و لا حتى تفكير بالاعتراض ، حتى تمكنت منظوماتنا و قادتها العباقرة من إقصاء معظمها و إلغائها تقريباً .

عندما بدأ تدوين السنة كونها الشرح الأوضح للقرآن تم تدوين و جمع القسم الأول منها (القوانين النبوية) أو (السنة المنقولة بالمعنى) على يد مئات من الأساتذة (الفقهاء) ، هم كانوا مصدر القوانين و التشريعات القضائية و القانونية العامة و الفردية في كل أرجاء إمبراطوريات الإسلام المتتابعة ، و لقد بُدئ بتدوين هذه القوانين قبيل بداية الحملة الكبرى في بداية الحكم العباسي لجمع القسم الثاني من السنّة و هو (الحديث الشريف) ، كان تدوين السنة المفهومة (الفقه) يُرصّع بالآيات و بما تم تدوينه و ضبطه باللفظ النبوي من الأحاديث النبوية ، و ذلك لربط القوانين (الفقهية) الجزئية و الكلية بمصادرها الكلية من النصوص المقدسة و معظمها ورد بصيغ عامة مجملة حاوية لمعان كامنة كثيرة جداً ، عملية ترصيع كتب السنة المفهومة بالآيات و الأحاديث كانت كعملية الفهرسة ، حصر كل مجموعة من القوانين تحت العنوان الذي تفرعت منه من القرآن و الحديث النبوي .

عندما تكامل التدوين و انتهى عصره وجد علماء الإسلام أن أربعة فقط من الأساتذة تمكنوا من تدوين القسم الأول من السنة (السنة المفهومة) تدوينا متكاملًا ، و كانوا أفضل من ربط ما تم تدوينه من هذه السنة المفهومة بما تم جمعه من السنة المنطوقة (الحديث الشريف) رُقيًا إلى القرآن ، و كانوا أفضل من عكس آلية ربط السنة المفهومة بالقرآن و بالسنة المنطوقة ، لتبدوا السنة المفهومة (الفقه) و كأنما اشتقت من القرآن و السنة بعملية بحث و استنتاج منطقي ، ثم استعملوا هذه الآلية المعكوسة للترجيح و حل الاختلافات فيما تناقلته الأجيال الأولى من أحكام السنة المفهومة أو الأحكام الفقهية .

إذا فهمنا هذا عرفنا عظمة ما فعلته المجموعات الإسلامية لخدمة منظوماتنا ، فلقد قامت بإقصاء كل الإسلام تقريبًا عن أذهان عامة المسلمين ، لأنها تركت لهم النصوص المقدسة دون تفسيرها الحاسم الكامل ، و هو "السنة المفهومة" أو (الفقه) بشقيه القانوني و العقائدي ، لتصبح هذه النصوص المقدسة مادة للجدل البيزنطي الذي لا نهاية له ، جدل بين أناس عاجزين تمامًا عن فهم النصوص المقدسة فهما مستقيما متسقًا وفقًا لأبسط قواعد اللغة العربية و المنطق التحليلي ، بحيث يوصل إلى آلية لتطبيق هذه النصوص على أرض الواقع ؛ تطبيقًا معقولًا لا تناقض فيه و لا يعرقل بعض أجزائه البعض الآخر ، بل هم عاجزون حتى عن الوصول إلى فهم قريب إلى أية درجة مقبولة من هذا الفهم المثمر ، لأنهم ببساطة كالذي يقرأ كتابًا مؤلفًا من الرموز (الشفرة المعقدة) ، و يحاول حل هذه الرموز دون تعليمات صاحب هذه الرموز نفسه ، و المضحك أن هذه التعليمات موجودة بين يدي هذا القارئ الغبي ، تعليمات واضحة منقولة عن صاحب الكتاب و الرموز ، لكن قارئنا هذا يرفض الاستعانة بهذه التعليمات ! لأن أحد عباقرة منظوماتنا أخبره أن هذه التعليمات مزورة ! و ستحل الرموز حلا خاطئًا .

القرآن و الحديث الشريف صمما ببناء لغوي عجيب ، إذ يستطيع أي شخص لديه الحد الأدنى من معرفة اللغة العربية الفصحى أن يقرأ نصوص القرآن و الحديث الشريف و أن يفهمها فهما مرضيًا له ، حتى أنه يقول : لقد فهمت تمامًا معنى الآية أو السورة أو الحديث ! و يستطيع كلما ارتقى في المعرفة اللغوية العربية و التاريخية الإسلامية أن يستخرج دومًا معان جديدة لهذه النصوص لم تخطر على باله للوهلة الأولى ! و هذا هو بالضبط ما رأى فيه العرب الأوائل "معجزة الإسلام اللغوية" ، و هو بالضبط السلاح الذي استعملته منظوماتنا للقضاء على الإسلام كله ، عندما أقصت منظوماتنا التفسيرات النهائية القانونية لهذه النصوص ، و أبقت هذه النصوص نخبًا للجدل بين الجميع ، ليفسر منها من شاء ما شاء بما شاء .

أيها السادة :

وجود مدونات السنة المفهومة ، أي مدونات المذاهب الفقهية الأربعة ، و مدونات إمامي العقيدة ، هو ما سهل دومًا توارث الدين بين أجيال المسلمين و حمى عامتهم من الخوض في جدالات عقيمة حول دينهم ، لم يكن على المسلم إلا أن يقرأ على

شيخ متنا (نصا) مختصرا في الفقه و بعض الشروحات البسيطة عليه ليستطيع حل معظم مشاكله القانونية الدينية ، أي ليتعلم أحكام العبادات و المعاملات التجارية و الإجتماعية و القانونية في الحد الأدنى اللازم له .

و كل ما عليه هو أن يقرأ على عالم متنا صغيرا في العقيدة و شرحا مبسطا عليه لتستقر عقيدته في الغيب تماما ، و لينقلها أيضا إلى أبنائه بوضوح و سهولة ، لقد حرمت منظوماتنا جميع المسلمين تقريبا من هذه القدرة على توارث معارفهم الدينية بنجاحها في إقصاء السنة المفهومة نهائيا من حياة المسلمين .

لقد حل محل هذه القدرة حيرة كاملة و جدل بينظي عقيم لا نهاية له حول أبسط أحكام الدين ، كأحكام الوضوء أو الغسل أو الطلاق أو الزواج أو غيرها من الأحكام البسيطة التي يتعامل العامة يوميا و على مدار الساعة .

الحيرة الكاملة و هذا الجدل العقيم هو بالضبط ما أردنا لأموال "الصحة الإسلامية" المتتالية أن تقود إليه عامة المسلمين ، باسم تجديد الدين و الفقه و تنقية التراث الإسلامي من الشوائب ! لقد ساقطت أمواج الصحة الإسلامية أجيالا من المسلمين إلى صحراء الحيرة التي صنعتها منظوماتنا ، مرارا و تكرارا و لعدة أجيال متعاقبة خلال قرن مضى ، هذه الأمواج التي ضخمتها و قوّتها في الواقع ردات فعل العامة على الحملات المنهجية للإضطهاد اللاديني التي قام بها زملاؤنا أساتذة معابد الحرية ، و هم الذين يتولون السلطة في العالم الإسلامي اليوم و منذ قرن مضى و أكثر ، فكلما شعر العامة باستهداف دينهم من قبل السلطة كلما تكتلوا أكثر للدفاع عنه ، إلا أن تكتلهم هذا كان دوما حول أعداء دينهم المقنعين الذين يسموهم اليوم "المجموعات و التيارات الإسلامية" .

لقد حققت هذه الثنائية المدهشة بالفعل ما عجز عنه أسلافنا العظماء الذين أطلقوا عشرات الحملات باتجاه العالم الإسلامي و فشلوا في احتواء الإسلام و محوه ، الفضل في هذا الإنجاز الضخم العالمي التاريخي يعود لأسرة البارون العريقة و لسلالة البارونات المتعاقبة على قيادة هذا العالم نحو النور الأبدي.

أيها السادة : أتيتحت الفرصة للأساتذة الأفذاذ العاملين لتطبيق التغييرات في الدين الإسلامي بأسلوب "التتابع الجزئي" و ذلك بفضل الإنجاز الأنف الذكر ، هذه التغييرات تمت بسرعة قياسية خلال القرن الماضي ، و سأوضح هذا الأسلوب فيما يلي :

لقد صممت قوانين الإسلام على أساس التوازن بين الحق و الواجب ، و على التوازن الدقيق بين المسموحات و الممنوعات ضمن قاعدة الأولويات الكبرى و الحفاظ عليها بالترتيب المعروف ، فالممنوعات كلها لها حدود لمنعها ، لو أن هذا المنع عرّض الأولويات للضياع فسيسقط المنع و يسمح بارتكاب الممنوعات ، كشرب الخمر و أكل الخنزير لمن يخشى الهلاك جوعا ، و كذا الواجبات لها أوقات و حدود واضحة من زاد عليها اعتبر خاطئا و آثما و عاصيا للإله ، كالذي يصوم يوم

العبد أو يتمتع عن الزواج بحجة التفرغ للعبادة ، و بهذه الحدود تجري أحكام الدين بحياة الإنسان في سلاسة تشبه تدرج كرة ضمن مضمار محدود يناسب حجمها ، تجري فيه إلى نهايته ، أي إلى نهاية العمر .

دعوى أن الأحكام إنما تُستنتج بالعقول من القرآن و الحديث سمحت بتخريب هذا التوازن بشكل ساحق ، فمثلا تجد أحد عباقرة منظوماتنا يأخذ النصوص التي تتحدث عن تحرير المرأة من استبعاد المجتمعات قبل الإسلام ، فيزعم أن التوجه العام للدين يسير في اتجاه إطلاق حرية المرأة تماما من كافة القيود ، و في منع الرجال من ممارسة أية سلطة قهرية عليها .

هذا الداعية الذي اخترنا له لقب "المفكر الإسلامي" سيسير طردا في هذا الاتجاه عابرا لكل حدود التوازن ، و سيجعل هذا الاتجاه المزعوم أولوية الدين الأولى ، و يجب أن يُضحى بكل الأولويات الأخرى من أجل السير قدما فيه ، في اتجاه "تحرير المرأة" ! فيبدأ بالدعوة إلى السماح للمرأة باختيار شريك حياتها دون وصاية أهلها ، ثم يدعو لمساواتها معه في الإرث ، ثم ينتقل للدعوة للسماح لها بطلب الطلاق إن أراد زوجها أن يتزوج عليها بثانية ، ثم ينتقل للدعوة بالسماح لها بتطليق زوجها كما يطلقها هو ، ثم ينتقل للدعوة إلى حريتها في ممارسة الجنس مع من تشاء عندما تكون عزباء ، ثم إلى حريتها في ممارسة الجنس أثناء زواجها مع من شئت دون اعتراض زوجها !.

و في مثال آخر تجد مفكرا إسلاميا آخر يعظم النصوص التي تدعو إلى كسب الرزق و الحرص على تنمية المال و المصالح المادية ، و يجعل هذا الحرص كبرى الأولويات التي يُضحى من أجلها ببقية أولويات الدين ، فيبدأ بالدعوة إلى جواز تقديم التعليم المهني على التعليم الديني ، ثم يتدرج إلى المطالبة بإباحة أنواع من البيوع المحرمة لتسهيل التبادل التجاري ، ثم يبدأ بالمطالبة بالسماح بإنتاج و بيع المحرمات الدينية ، ثم يصل إلى وجوب السماح بتناول المحرمات من أجل تشجيع المسلمين الذين ينتجونها و يبيعونها !.

مفكر آخر يعظم نصوص الدعوة إلى القتال دفاعا عن أصل الدين ، فيصل به الأمر إلى السماح للمسلمين بقتل بعضهم البعض بمنتهى الوحشية و الدموية لأن بعضهم يشتبه في انتهاك البعض الآخر لهذا الأصل ، و أنا لا أتحدث هنا الدعوة لقتال الحكومات الحالية و قواتها و إنما عن اقتتال المجموعات الإسلامية فيما بينها !.

المضحك أن هذه الدعوات صحبتها دوما في بدايتها حملات تأييد من مشايخ الدين المسلمين التقليديين ، بذريعة أنها تنصف الإسلام من المزاعم السلبية غير المنصفة التي يشنها عليه خصومه من اللادينيين ! و بهذا يجعلون مفكري منظوماتنا يجرون معهم في مضمار المشايخ ، بل يعطونهم الفرصة ليسبقوهم في هذا المضمار برعايتهم الساذجة و يتيحون لهم تعديل الأجزاء التي يريدونها من الدين في نظر العامة و المشايخ البسطاء ، فتبدو متناسقة تماما مع المظهر العام للتدين الإسلامي.

إن تعاليم الإسلام في مجموعها تشبه كرة مكونة من أجزاء صغيرة متلاصقة ، سطح هذه الكرة أملس تماما بسبب حدود التوازن بين الأولويات ، و عندما نضخم أي جزء من هذه الكرة سيبرز على سطحها كالتواء ، و سيجعلها تتدحرج بترنح شديد في مضمارها و تقفز هنا و هناك دون انضباط و ترتطم مرارا بجدران مضمار جريها ، حتى تتحطم في النهاية تماما ، و هذا ما فعلته المجموعات و التيارات الإسلامية كلها دون استثناء و بإرشادنا.

أيها السادة : بمجرد أن تنتهي المرحلة الأولى من مشروع البرفسور برنار سيكون عمل المجموعات الإسلامية قد وصل إلى نهايته ، و سيكون التدين الإسلامي قد تحطم تماما في عقول و قلوب جميع المسلمين تقريبا ، و سيكون التخلي تماما عن التدين المعروف أمرا حتميا ، و عندها سنحل محله الإيمان العالمي ، ذلك الذي تتحدث عنه الكتب المنبوذة المنسوبة للإسلام ، إيمان يُعرّف بـ "وحدة الوجود" ، أي أن المخلوقات كلها في الواقع مجرد كتلة واحدة تحركها إرادة واحدة ، و هم في مجموعهم الوجه الآخر لهذه الإرادة التي هي الإله ، أي أن الخالق و جميع المخلوقات في النتيجة كائن واحد ، هذا الإيمان سيسقط كل الفروق بين الديانات ، و به سيفهم الذين أشقتهم الديانات أنه لا فرق بين المعصية و الطاعة و لا فرق بين الزنا و الزواج و بين الخمر و الماء ، و أن الجنة التي ينتظرون دخولها هي نفس جهنم التي يفرون منها ، و كلاهما نعيم و لذة ، لأن الإله الواحد لن يعذب نفسه ، فالمخلوقات العاصية هي ذات الإله نفسه ، و لن يشقيها و يؤلمها حتى لا يؤلم نفسه و يعاقب نفسه ، و سيحكم العالم دين واحد بألوان عدة ، دين مطلق التسامح و لا يقبل إلا السلام ، و بعبارة أخرى أطلقها الشيخ الراحل "الجمعي" العظيم : كل الأديان تعظيم للخالق و كل من يتدين بأي منها يعبد هذا الإله على طريقته الخاصة .

صفق البارون طويلا لكلام الشيخ "ظفر" و أوعز بناء عليه بإطلاق الخطوة النهائية لنقل المسيحية إلى "وحدة الأديان" في نفس الفترة التي ستكتمل فيها المرحلة الثانية من مشروع البروفسور برنار في بلاد العرب .

لم أصفق لظفر ، و لم أشارك البارون فرحته ، و فعلت مثل ما فعل الكثيرون و منهم البروفسور ريكارد و البارون روبرت ، كلنا رأى في هذه الخطوة استعجالا متهورا و مخاطرة كبرى ، و لكن لم يكن لنا بد من العمل بما أقره البارون ياكوب و مستشاراه المقربان برنار و برنارد .

كان البروفسور برنارد قد تحدث كثيرا أمام البارون و مستشاريه ، من أجل إقناعه بخطة العاصفة الأخيرة ضد التدين ، تلك التي تحدث عنها الشيخ ظفر في آخر مرافعته ، و ساق الكثير من المبررات للتأكيد على نجاح الخطة ، و من جملة ما قال :
أيها الموقرون :

إن ولاء العامة لأفكار و معتقدات بعينها مجرد وهم و سراب ، أجدادنا كانوا هم أكبر صانعيه ، و هم من استعمل هذا السراب لجذب العامة في أوربة و دفعهم للجري قرونا وراء كذبة (اعتبار "الكفاءة أولا" هو قانون اختيار القادة) ، لقد

حطمت الشعوب الأوروبية عروش ملوكها و تبنت فكرة الجمهورية القومية ، و خاضت من أجل إقامة هذه الجمهورية حروبا وحشية في داخل البلد الواحد ، و حروبا بين أمم أوربة ضد سيطرة تيجان الإمبراطورية كما حصل للنمسا و ألمانيا و غيرها ، إلا أن هذه المثاليات لم تصمد أبدا أمام غريزة عبادة الجماهير لـ "الفرد النابغة" ، انظروا إلى الأحزاب و التيارات في أوربة ؛ لجعل أحدها يفوز بالسلطة ليس علينا أبدا أن نروج لمبادئ و عقائد أي من هذه الأحزاب ! إذ كل ما علينا هو تصدير شخص جذاب له حضور شعبي إعلامي كواجهة للحزب ، ثم ندعم حملته بمنتجات إعلامية منمقة تتضمن الكثير من الوعود الكاذبة القابلة للتصديق ، و أخيرا نخصد له الأصوات و نسلم حزبه مقاليد الحكم ، و بعد الفوز بالانتخابات ينتهي كل شيء و ينسى المصوتون أنفسهم الوعود التي صوتوا لتحقيقها ، و يحتفلون بانتصار مرشحهم النابغة الذي صدرناه لهم ، و كأنهم هم من جاء به للسلطة ، ظنا منهم أن فوزه مشاركة منهم في حكم بلادهم !.

إذا كان هذا حال شعوب أوربة التي تتفاخر على البشرية بأنها تطبق شعار "الكفاءة أولا" لتعيين أصحاب المناصب ، و هي الشعوب التي تعتبر الولاءات البعيدة عن المصالح الفردية نوعا من الغباء ، و مع هذا نحن نقودهم إلى حيث نريد منذ قرون دون توقف ، و بنفس الطريقة و بنفس الطعم و هو "الولاء العاطفي المحض" أو "ولاء القطيع" ، أو ليس أن استخدام هذه السياسة سيكون أسهل كثيرا في الدول العربية و الإسلامية ؟ تلك البلاد التي صارت عبادة الفرد فيها ثابتاً بديها في داخل نفوسهم !.

أيها الموقرون : كما تعلمون فلقد قرر أسلافنا اعتماد "وحدة الوجود" الديانة المُوَحَّدة لشعوب العالم ، ليس لأنهم مؤمنون بها و إنما لأنها الديانة الوحيدة التي يسهل إقناع العامة بها ، و لأنها ديانة عابرة للديانات ، فلقد اجتهد أسلافنا و نجحوا في وضع رؤوس جسور لإمتدادها ضمن سائر الديانات على شكل جيوب كامنة في تراث هذه الديانات ، و سيكون سهلا جدا تضخيم تلك الجيوب ، حتى تزيح ما بقي من مقدسات الديانات التي أنهكتها أساسا هجماتنا المتلاحقة ، التي لا تهدأ أبدا .

أيها الموقرون الأجلاء :

إن ديانة وحدة الوجود تملك في ذاتها عاملا كاسحا يجعلها تمتد بسهولة ، فهي لن تلغي الهوية الدينية لأي دين ، المسلم سيبقى يصف نفسه بالمسلم لفترة طويلة في ظلها ، و المسيحي كذلك و سائر أتباع الديانات ، إلا أنهم سيرتاحون من تأنيب الضمير الديني لهم إن امتزجوا مع أتباع الديانات الأخرى ، فالمسلم المؤمن بوحدة الوجود سيقنع عن احتقار الشخص الذي يعبد القديسين أو الأبقار ، و لن يترفع عن إقامة علاقة طيبة مع شخص تسمح ديانته بشرب الكحول أو تعاطي الجنس الجماعي ، فكلهم في النتيجة يعبدون نفس الإله لكن بصور متباينة ، تباينت بسببها أشكال العبادة و قوانين الدين ، لأن هذا الإله يظهر دوما بصور لا نهاية لها ، و طالما أن الجحيم نفسها ليست عذابا ، و أن ادعاء الألوهية كما فعل فرعون يعتبر نوعا من التدوق الروحاني لحقيقة الوجود الواحدة ، و هي الذات الواحدة للإله الواحد التي تظهر بصور أجزاء الكون من

كائنات متنوعة بلا نهاية ، بالتالي المسلم بعد فترة من اعتناقه لفكرة "وحدة الوجود" لن يستنكر تخلي ابنه أو ابنته أو زوجته عن دين الإسلام و اتباع دين آخر ، أو حتى عدم اتباع أي دين طالما أن كل الطرق تؤدي إلى نفس الإله ، و هو موجود سواء آمن به الناس أو لم يفعلوا ، و هو لن يعاقب أحدا على أي حال أيضا ، إذاً لا مشكلة أصلا في ترك الانتماء الديني ، فوحدة الوجود تسوي بين العاصي و المطيع لأمر الأنبياء ، و تبشر بجهنم لطيفة ممتعة لذيدة عذبة ، ستتطفي بعد فترة وجيزة و سينتقل جميع سكانها إلى الفردوس الأبدي .

أسألكم أيها السادة :

لو جئت بأي شخص و خيرته بين دينين : الأول يأمره بأن يعيش حياته في مكابدة و حرمان من الملذات و خوف دائم من عقاب إلهي لا يمكن توقع توقيته و فظاعته من أجل أي جرم ، ثم قد يدخل إلى الفردوس و قد لا يدخله . و الثاني : يأمره بأن يحيا حياته يتمرغ في الملذات كما يشاء دون حدّ و لا حرمان و لا خوف من عقاب على إفراط أو تفريط ، ثم يدخل إلى الفردوس بكل تأكيد ، فأيهما يختار ؟ .

الجواب هو : أن أي أحد سيختار الثاني دون تردد ، لكن بشرط أن نقنعه أن هذا الخيار هو الذي جاءت به ديانته التي ينتسب إليها .

لتحقيق هذا الشرط ما علينا إلا أن نصدر للإعلام مشايخ ذات شخصيات وقورة لها سنّ و هيبة و تاريخ في العمل الديني ، و ذلك بعد أن تنهك المجموعات الإسلامية عقول و قلوب العامة بخيبات الأمل المتلاحقة من الإسلام القائم على الثواب و العقاب ، هذه الشخصيات الوقورة ستتصدّر لنشر عقيدة وحدة الوجود ، بداية بتمجيد أولئك الفلاسفة الذين أشاروا إلى هذه الفكرة في مؤلفاتهم ، ثم سيبدؤون في شرح هذه الفكرة على أنها التفسير الصحيح للقرآن ، و أنها هي السر الذي يتقدس في نفوس القديسين المسلمين ، و لا ننسى أن المجموعات الإسلامية قد فتحت جدلا مدة قرن كامل حول معاني نصوص القرآن تحت عنوان "العصمة للنصوص المقدسة و لا عصمة لتفسيرات الرعيل الأول لها" ، و كما قال الشيخ الموقر ظفر ؛ فلقد حررت منظوماتنا كتاب القرآن من شروحات نبي الإسلام لنصوصه ، و ذلك بإزاحتنا لما سماه الشيخ بـ "السنة المفهومة" أو "الفقه" ، و بهذا بقي أكثر من أربعة أخماس نصوص القرآن دون الشرح الثابت و التفسيرات القاطعة لمعانيه ، تلك التي أوضحها نبي الإسلام ، و لم يكن علينا بعدها سوى أن نطلق صبياننا من ذوي العمام و اللحى ليسرحوا و يمحروا و يفسروا القرآن و حديث النبي كما يحلو لهم ، و ليحولوا عبارات هذه الكتب المقدسة إلى مزلق رثبكية لا يكاد أحد يحدد أبعادها حتى تتشكل لرائٍ آخر بصورة مغايرة ، فصار الذي يقترب من الإسلام يختنق و يصاب بالهذيان من كثرة ما يسمع من الفتاوى و الفتاوى المعاكسة لنفس المسألة ، كل هذا الجدل الخائض صاحب سينحسر بإشارة منا ، و سيتخلى عنه

منظروا المجموعات الإسلامية كلها في مرحلة قادمة و بشكل متزامن ، و سيُقرون ما يقدمه مشايخ وحدة الوجود بالصمت المطبق .

على الجانب الآخر سيُقدم قادة المسيحية على خطوات مشابهة و أكثر جرأة ؛ المسلم الذي يرفض وحدة الوجود و يرفض ما يلزم منها من سلوك و قوانين دينية سيبدو بسبب هذه الخطوات عدوا للأساس الأول للإسلام و هو السماحة الدينية ، و سينظر إليه على أنه متشدد متوتر متطرف متصلب متعنت عدو للسلام و لسعادة البشر ، و سيبدو كأنه يحارب العقيدة المشتركة بين المسيحية و الإسلام و هي وحدة الوجود ! و سيكون جاحدا يرفض الأيدي الممدودة له للوحدة التي دعا إليها القرآن : "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" ، فالمسيحيون يعبدون إله المسلمين نفسه ، و ستتعالى الأصوات في وجهه من أبناء ديانتهم قائلة : و ما يفيدك أيها الحقود أن يعذب الإله الناس .

كيف سيتحقق هذا ؟ .

وحدة الوجود أيضا هي التوحيد المطلق تماما للإله ، و هذا ما يؤمن به عوام عشيرتنا ، المسلمون يعتبرون التوحيد شرط التدين و الإيمان ، و وحدة الوجود تسير في نفس اتجاه التوحيد الإسلامي ، إلا أنها تسبقه بخطوة إلى الأمام ، فالمسلمون يقولون : لا خالق و لا معبود و لا متصرف في الوجود إلا إله واحد أزلي أبدي ، بينما الموجودات مبتدأة من نقطة ما ، و وحدة الوجود تقول هذا و تزيد عليه هذه العبارات الهامة : "لا موجود في الحقيقة إلا هذا الإله الواحد الخالق ، و لم يُعبد شيء إلا هو" و هذا مقنع تماما للعامة و لأنصاف المتعلمين من المسلمين و لأولئك المشايخ الذين لا يعرفون شيئا عن "السنة المفهومة" آفة الذكر ، فلا يوجد في أذهانهم ما يمنع من هذه الخطوة البسيطة إلى الأمام نحو التوحيد "المطلق" أو "الكامل" .

لقد آمن أسلافنا بعقيدة وحدة الوجود بإرشاد أجدادكم سيدي البارون ، و ذلك في ظل اندفاعهم و حماسهم لفكرة إله واحد و خالق واحد لا شريك له في ألوهيته ، لكن بعدها استطاع أجدادكم سيدي البارون أن يحموا عشيرتنا من القبول بالديانات الأخرى و الذوبان فيها ، من خلال فكرة الشعب المتفوق الذي يملك أرواحا إلهية مقدسة ، إلا أن أتباع الديانات الأخرى و خاصة المسلمون يرفضون قطعاً فكرة العرق المتفوق المفضل على سائر العروق ، و لهذا لن يجدوا ما يحميهم من الإمتزاج و القبول بالديانات الأخرى ثم الإنصهار معها ، و هذا بالضبط هو المطلوب .

بعد جيلين أو ثلاثة من إعلان وحدة الوجود دينا جامعا لكل العالم ، سيكون علينا أن ننشر إيماننا الخاص ، و هو وحده ما سيضمن استمرار حكمنا للعالم برضا الجميع ، فأنتم تعلمون جيدا أن مسيحا مخلصا لن يأتي لينشر إيمان عشيرتنا - إلا في

خيالات عوام عشيرتنا الطيبين - و بالتالي فلن يكون هناك إلا تدايرنا العبقريّة للحفاظ على مكاسبنا ، و وحدة الوجود هي الجسر الوحيد الذي ستعبر عليه البشرية كلها إلى الخضوع لتعاليم ديانتنا و العمل وفقها دون اعتناق ديننا بالأسم و رسميا ، و ما أهمية الأسماء طالما أن المضامين واحدة ؟!.

سأشرح هذه الجزئية ليرى البروفسور ريكارد و بقية الموقرين الرافضين لخطة الشيخ ظفر ضرورة هذه الخطة ، أيها السادة : إيمان عشيرتنا بالحياة بعد الموت يتلخص بما يلي : يموت المرء من عشيرتنا فيخرج منه جسم لطيف هو سبب حياته ، هذا الجسم هو ذات الشخص و حقيقته بينما الجسم المادي هو الإضافة الزائدة التي تسقط عند الموت ، هذا الإنسان الطيّفي يسميه رجال الدين عندنا بـ "الروح" ، تصعد روح هذا الميت إلى مكان في السماء ، و هناك تتعرض للمساءلة و المحاسبة على طاعة صاحبها لدينه أو معصيته ، ثم إن كانت روحا لامرئ غير متقيد بتعاليم الدين فإنها تعذب مدة لا تزيد على سنة ، ثم تعاد إلى فردوس خاص بالأرواح لتنتظر مع ما سبقها من أرواح موتى عشيرتنا ، و حتى لو كان الميت من عشيرتنا ملحدا فإن روحه ستدخل الفردوس .

ثم و عند حلول وقت الدينونة يظهر مخلص شعبنا المقدس ، و يسيطر من معبده على كل القوى في العالم ، و يبدأ حكم عشيرتنا العلني لهذا الكوكب ، يومها تتوقف كل الشعوب الأخرى عن الإنجاب ، و يبقى أبناء عشيرتنا وحدهم المنجبون ، عندها تبدأ أرواح أموات عشيرتنا بالعودة إلى الأرض بأن تتقمص أجساد المواليد الجدد حتى تتكامل عودة كل أرواح أموات عشيرتنا من عالم الأرواح إلى الأرض في أجساد مواليد عشيرتنا الجدد .

يوم يتربع مُخلصنا على عرش حكم العالم يتوقف الموت في عشيرتنا وتنتهي الأمراض و الشيخوخة فيهم ، و يبدأ الموت في حصد الشعوب الأخرى حتى ينتهوا تماما ، و تبقى الأرض لعشيرتنا المقدسة ، و تنتهي من الأرض تلك الآفات التي تلازم كائناتها كالجاذبية الكاسرة و المرض و التلف و الفساد ، و يصير الكوكب فردوسا تام الملذات.

تمكن أجدادكم العظماء يا سيدي البارون بهذه العقيدة من منع أبناء عشيرتنا من الإختلاط و الإنصهار في الديانات الأخرى ، و باستعمال قواعد التخفي انتسب مئات الآلاف من أفذاذ عشيرتنا إلى سائر الديانات الأخرى دون أن يؤمنوا بحرف من أي دين منها ، و وصلوا إلى مناصب مكنتهم من إحداث التغييرات التي احتجنا إليها في حملة أمتنا العظيمة لفتح العالم سلميا ، و ما ثبت ذلك أن أبناء عشيرتنا يؤمنون بأن كل البشر الآخرين لن يعودوا أبدا للحياة ، لأنهم بلا أرواح ، بل هم قد خُلِقوا أصلا لخدمة أمتنا و مساعدتها في بناء و استحضار الفردوس الأبدي على الأرض ، و بالتالي فلا مشكلة في التتكيل بأجساد لا أرواح فيها ، لأنها كالعدم أو الصخور أو المواشي.

نحن نعلم أن حكاية الروح هذه ليست صحيحة ، و أن الإله الخالق للعالم لا يحتاج لمعرفةنا له و لا لمديحنا لعظمته ، و لكننا اليوم ورثنا مبنى هائلا بناه له أسلافنا يضم تحت أعمدته كل ممالك الأرض ، و بقاء هذا المبنى و بقاء حكمنا للعالم مرهون بالجذور الدينية التي تأسس عليها هذا البناء العظيم الذي لا مثيل له أبدا في تاريخ هذا العالم .

أيها الموقرون :

يجب أن تؤمن كل الشعوب بما يؤمن به أبناء عشيرتنا ، و هذا يعني أنه يجب أن يؤمنوا بأن خلاص أرواحهم و استمرار وجودهم مرتبط بسيادتنا و مكانتنا المقدسة و استمرارها إلى الأبد دون تحدد ، و لقد بقيت لنا خطوات قليلة لتحقيق هذا الهدف الكبير .

إظهار عقيدة وحدة الوجود على منابر الوعظ في كل معابد العالم في وقت متزامن سيعطي هذه العقيدة قدسية هائلة في عيون العامة من كل الديانات ، و سيؤمن لنا توحيد العقائد الأساسية حول الحياة بعد الموت للبشر جميعا ، و بهذه العقيدة ستتقدم الرياضات الروحية التي تستهدف الإتصال بالإله مباشرة إلى طليعة النشاطات الدينية و مواضيع الوعظ ، و بالتالي ستتأخر كثيرا الأجزاء القانونية للديانات لتصبح مجرد هوامش أُلغيت بسقوط حقيقة الثواب و العقاب الأخروي ، و ستنتهي إلى الأبد فكرة تحدي السلطة و الثورة عليها ، فوحدة الوجود تقدم للمؤمنين بها حلا سحريا لمسألة الشعور بإضطهاد السلطات لهم ، فمثلا هذا النص القرآني يبرر به الثائرون على السلطات الحالية ثورتهم و هو : " و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم " . فالثائرون ينفون عن خدمنا الذين يحكمونهم صفة الإسلام ، و يقولون للمسلمين هؤلاء ليسوا منكم ، فيجب أن تبدلوهم بحكام منكم ! .

وحدة الوجود ستفسر هذا النص بأن هؤلاء الحكام يدخلون تحت لفظ "منكم" ، أليسوا تجليا و ظهوراً آخر للإله كما أن كل واحد من الموجودات ظهور و تجلٍ للإله الواحد ؟ و سيتأيد هذا التفسير بنص آخر و هو : " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذلل من تشاء " ، فالحاكم هو قدر محض كالموت و كشكل الإنسان و كالألزال و الشمس و حركة النجوم ، و سلطته كلها من الإله الواحد و الثورة عليه ثورة على إرادة الإله ! .

عندما تستولي وحدة الوجود على منابر الوعظ ستكون الشعوب قد سئمت فكرة الثورة ، و قد اكتوت عظام أبنائها بنيران الفوضى و رعب غيبة النظام العام ، عندها سيكون تقبل هذه الفكرة أمرا سهلا جدا ، و عندها ستصبح الوسيلة الوحيدة للفرار من ويلات الإضطهاد و عذابات العبودية القاسية للسلطة هي : الرياضات الروحية و التمتع بالأوراد و الصلوات بالندور و زيارة الأضرحة المقدسة و الإستعانة بأرواح القديسين الموتى ، لأن القديسين الأحياء - الذين يعملون لدينا - ستكون مهمتهم إرشاد العامة إلى مزيد من الرياضات الروحية و إلى التفاني في طاعة القوانين و الأنظمة التي تصدرها سلطاتنا ،

و إرشاد العامة إلى مزيد من الذوبان في بقية الديانات و التخلي عن المميزات التي تميز كل ديانة عن غيرها ، و ستحل محل هذه المميزات تعاليم ديننا و قوانينه الحكيمة التي ورثناها من أجدادكم سيدي البارون ، مع بقاء كل ديانة على اسمها و طقوسها الظاهرية و احتفالاتها الموسمية و يتغير كل ما سوى ذلك .

ديانة عشيرتنا ستكون هي الأصلح لاستمرار إمبراطورية العالم الموحد إلى الأبد ، لأن هذه الديانة قد عدّلت و أعيد إنتاجها مرارا ، حتى ترضي حاجة الإنسان للتدين أولا ، و حتى تحقق تنظيما كاملا للمجتمعات الإنسانية ضمن آلية تفادى مصمموها كل أخطاء الممالك و الإمبراطوريات البشرية البائدة و هي بالمئات ، و كلها بادت بسبب خطأ ما تعلمه أسلافنا و أجدادكم العظام يا سيدي البارون ، ثم تفننوا إعادة تصميم قوانين ديانتنا بحيث تتجنب مملكتنا الأبدية ارتكاب هذا الخطأ. انتهى ما اقتبسته من كلام برنارد.

و لقد رددت على كلام برنارد و ظفّر برد مقتضب و واضح فقلت :

أيها السادة : إن فضيلة الشيخ و حضرة البروفسور فاتهما ما يلي :

وحدة الوجود لا تزال تعتبر تجديفا في الإسلام و جميع مشايخ المسلمين يرونها كذلك ، حتى أولئك الذين اصطنعهم منظوماتنا ، فإن نجحنا في تحويل نصف مشايخ المسلمين إلى مروجين لهذه الفكرة ، فإن النصف الآخر و هم المشايخ التقليديون سيستطيعون نسفها بسهولة ، و لقد فعلوا هذا مرارا عندما حاول بعض سلاطين الممالك الذين اعتنقوا هذه الفكرة تبنيها و نشرها ، نحن نرى أن النسخ التي صنعتها منظوماتنا للإسلام حققت فقط تحجيم دور رجال الدين التقليديين دون القدرة على محوهم ، أيها السادة جهاز المناعة الدينية لدى المسلمين لا يزال موجودا و يعمل و إن كان قد ضعف فإنه لم يمت ، و هذا الجهاز قد أباد وحدة الوجود في الماضي ، و هو معتاد على التصدي لها كما اعتاد الجسد الذي أصيب بمرض جرثومي على مكافحة هذا المرض مرارا ، مضادات وحدة الوجود موجودة و ستظهر في الجسد الإسلامي فور ظهور وحدة الوجود مرة أخرى ، و بالتالي فالعالم ليس مستعدا لهذه الخطوة النهائية بعد .

صفق لي معظم الحاضرين ، ما عدا البارون و برنار و برنارد و آخرون قلة ، و اتخذ البارون قراره المؤيد لبرنار و ظفّر.

في تلك الفترة كُلفت بمهمة ما قبل التقاعد بقليل ، فلقد تقدمت بطلب التقاعد الذي يثير غضب البارونات عادة ، فتقاعد ذوي الخبرة يعتبر عندهم جناية على المنظومة لا بد من ارتكابها كالموت و المرض تماما .

مهمتي قبل الأخيرة كانت إنهاء ثورة أشجار الجبل الأبيض بطريقة نموذجية بحيث تصبح مثالا معتمدا إحتياطيا لإنهاء أية ثورة قادمة قد تخرج عن مسارها لدى هبوب عاصفة برنار ، كانت مهمة سهلة تناسب شيخا طعن في السن و ضعفت قدرته على الجدل و المتابعة و الضبط المتواصل و أنهيت تنفيذها قبل بداية العاصفة الكبرى بأشهر قليلة فقط .

ثورة أشجار الجبل الأبيض كانت في حقيقتها إختبارا لمشروع البروفسور برنار ، و لقد وقعت أحداثها جميعا بطريقة آمنة تماما خلت من أية مفاجآت غير متوقعة ، و قبل أن أستعرض أحداث الثورة سأبسط الخريطة السياسية و الاقتصادية للبلاد ليتمكن فهم آلية عمل فريق العمل الذي أشعل الثورة و أججها ثم أحمدها دون خسائر تذكر .

بعد اتفاق إنهاء الحرب الداخلية في البلاد توزعت السلطة في البلاد على النحو التالي :

أولا : القوات المسلحة : كانت منقسمة إلى ثلاثة أقسام : الجيش و معظم جنوده و ضباط الصف من المسلمين ، و ليس لهم من الأمر شيء سوى التنفيذ لأوامر قادتهم ، جميع قادة الجيش من أتباع الديانة السرية و ديانة باولو ، و كل الجيش خاضع تماما لأوامر الجنرال وولتر القائد العام لجميع التشكيلات الحربية في الهلال الخصيب ، هذا الجيش مجرد قطعات من المشاة المحمولة المزودة ببضعة مدافع و أسلحة متوسطة و مدرعات قديمة و رديئة الصنع .

المسلمون في هذا الجيش من أبناء ريف شمال البلاد ، و هم بالأساس فلاحون ينحدرون من سلالات فلاحي أوربة الذين خلفتهم آخر الإمارات الصليبية في المشرق ، بالإضافة للكثير من عشائر الغجر التي استوطنت تلك المنطقة النائية الوعرة ، يتميز هؤلاء بجهل مطبق بكل شيء عدا الزراعة ، و يتميزون بأنهم يتبارون في شتم الإله و المقدسات و السخرية من الحرمات ، و بالاستهزاء بكل ما يبجله أسيادهم السابقون الذين يسكنون عاصمة إقليمهم و كبرى مدن شمال الجبل الأبيض ، كما يتباهى هؤلاء بحبهم و ولائهم لأتباع ديانة باولو ، و بالفعل فلقد بقوا على ولائهم لأتباع ديانة باولو مدة الحرب الداخلية ، بل لقد قاتلوا بشراسة ضد أبناء دينهم في صفوف جيش الدولة ، و قتل منهم الكثيرون و هم يفاخرون بما فعلوا !.

أعظم المقدسات عند هؤلاء الفلاحين هو المال ، و لا يقدمون على الولاء للمال أي ولاء آخر ، فهم عبيد لمن دفع ، و رغم أنهم تعرضوا لإضطهاد كبير خلال العهود المتعاقبة على حكم الجبل الأبيض ، و رغم أن منطقتهم هي الأشد فقرا و جوعا و تخلفا و مرضا و تعرضا للعدوان المتكرر من السلطات و بيد الجيش إلا أنهم بقوا على ولائهم الأعمى لجيش الجبل الأبيض ، و يعتبرون أن الجندي في هذا الجيش هو أفضل عريس يتقدم لخطبة بناتهم ، لأنه يحصل على مرتب شهري ثابت و تأمين صحي لعائلته ، و لأنه يستطيع أن يهين من يشاء من أهل منطقته دون خوف !.

هذا الجيش هو القوة الأكبر التي تسيطر على مناطق المسلمين فقط ، و مخبراته و قواته لا تتدرب إلا على الحرب على المسلمين و ملاحقة المتدينين منهم ، بل لم يخض هذا الجيش حربا حقيقية قط إلا ضد المسلمين ، سواء أكانوا من سكان الجبل الأبيض أم من النازحين إليهم من الإقليم الذي احتلته جارتنا اللدود .

القوة الثانية كانت جيش أتباع الديانة السرية ، هذا الجيش تم إنشاؤه في عهد هرثمة ، و ذريعة إنشائه كانت الحرب الشعبية ضد قوات جارتنا اللدود التي غزت الجبل الأبيض عدة مرات خلال عقدين من الزمن .

هذا الجيش مكون من مجموعات مسلحة تتبع كلها لغرفة عمليات واحدة ، و يشرف على هذه الغرفة الجنرال وولتر بنفسه ، و يعاونه ضباط من جيش جارتنا اللدود ، هم من أتباع الديانة السرية في الظاهر ، استطاع هذا الجيش أن يخضع كل أتباع الديانة السرية لأوامره بالترغيب و التهيب ، و بتوجيهات وولتر قام هذا الجيش على مدى عقود بعزل مساحات واسعة من شرق البلاد و جنوبها و ساحلها الأوسط و تحويلها لمقاطعات مستقلة عن الدولة تماما ، تتمول هذه المناطق و تدار بعيدا عن الحكومة المركزية التي تتواجد فيها رمزيا فقط .

تلك المناطق هي الطريق التي تمر عبرها محاصيل الخشخاش و مشتقاته القادمة من خراسان و بارسيا إلى جزيرة العرب ، و إلى جارتنا اللدود و إلى أوربة ، و إلى أمريكا و سائر بلاد إفريقيا الشمالية ، كل هذا كان ضمن شبكات رفاة و الأستاذ لبيب ، جميع تمويلات و احتياجات تلك المناطق المعزولة تعتمد فقط على الخشخاش و مشتقاته ، و جميع سكان تلك المناطق من الجنسين مدمنون على تعاطي مشتقات الخشخاش .

أسلحة هذا الجيش لا تتعدى الأسلحة المتوسطة و المتفجرات و أدوات الإغتيال و سيارات الدفع الرباعي ، و لدى أفراد هذا الجيش و كل من يلوذ بهم حصانة من الملاحقة القانونية في حال ارتكبوا جرائم و مخالفات ، مناطقهم ليس فيها قانون إلا قانون شبوخ الديانة السرية و لا يوجد فيها أي تنظيم مدني من أي نوع ، و حتى المباني كلها أقيمت عشوائيا على أراض اغتصبت من ملاكيها المسلمين بقوة السلاح.

تقع في تلك المناطق يوميا حوادث قتل و سرقة و اغتصاب و خطف ، و لا يوجد من يجرؤ على مجرد الإشارة لما يحدث ، لأن أسلحة جيش الديانة السرية ستكون بانتظاره .

و من باب أولى أن نقول أن تلك المنطقة تكاد تخلو تماما من الوثائق الصحيحة و حتى من النقود الحقيقية ، و لا توجد فيها سيارة غير مسروقة ، و ليس فيها لوحة سيارة صحيحة و نظامية ، و طبعا لا حاجة فيها لرخص حمل السلاح أو لدفع فواتير الخدمات كثمن ماء الشرب أو الكهرباء أو الضرائب العامة من أي نوع .

القوة الثالثة هي الشرطة ، و تنقسم إلى قسمين : الأول شرطة الأستاذ لبيب ، و هي قوة من الشرطة ولاؤها كله للأستاذ لبيب و هي تسيطر على مطارات البلاد المدنية و على الجوازات و المنافذ الحدودية و البرلمان الذي يرأسه أبدأ الأستاذ لبيب ، و تستطيع هذه الشرطة اعتقال من تشاء من المسلمين فقط .

القسم الثاني هو شرطة الحكومة التي تتبع لحكومة الراحل لطيف ، و لا سلطة لها إلا على المسلمين ، و لا يهاجمها إلا فقراء المسلمين و هي شرطة لا حول لها و لا قوة ، يتبع لها جهاز استخبارات مضحك يقوده ضباط لا عمل لهم سوى تمضية

الوقت في المكاتب و المقاهي و الثثرة بلا فائدة ، و يقومون ببعض أعمال التجسس و لكن على أقاربهم و جيرانهم و أبناء طائفتهم !.

جميع القادة الفعليين لهذه القوات أقسموا يمين الولاء لرئيس دولتنا مرسال الذي كان جيشه يحتل الجبل الأبيض ، و كان جيشه يقدم لهذه القوات بأصنافها كل ما تحتاجه من سلاح و ذخائر و وقود ، و تشرف مخابراته على استقرار هذه القوات و خضوعها للأوامر التي يصدرها وولتر و ينقلها إليهم ضباطهم .

أما خارطة توزيع الثروة و السلطة فكانت حسب الآتي :

مناطق وسط البلاد و العاصمة تتبع كلها لأتباع ديانة باولو ، و تعتبر قطعة من أجمل مناطق أوربة المرفهة تم نقلها إلى شرق المتوسط ، و يسكنها بالإضافة لأتباع ديانة باولو جميع الأغنياء و أصحاب النفوذ و الثروة من كل الطوائف ، و كما سبق و أشرت فإن هذه المنطقة تعيش حياة من البذخ الأسطوري الذي لا تضاهيه أكثر مناطق أوربة بدخا ، و هناك لا توجد أية ضغوط من أي نوع على السكان.

مناطق شمال البلاد و أطراف الساحل و مراكز المدن و منها العاصمة ، هي مناطق المسلمين من سكان و نازحين ، و هي أفقر المناطق في البلاد ، فلا ماء للشرب و لا كهرباء و لا صرف للمياه المستعملة ، و لا طبابة و لا تعليم و لا طرق و لا موانئ و لا مطارات و لا رفاهية و لا خدمات و لا رحمة لأهلها من قبل السلطة ، هذه المناطق هي وحدها من يدفع الضرائب للحكومة و هي وحدها من يقدم الزبائن للمحاكم و السجون في الجبل الأبيض ، و سكانها فقط يواجهون رعب الموت بحوادث الطرق المروعة ، و رعب الموت على أبواب المشافي إن أصابتهم أمراض أو جراح و لم يكن لديهم مال يكفي لتغطية مصاريف طبابتهم .

هذه المناطق وحدها تعاني من البضائع المزيفة و الأدوية المزورة و انقطاع الخدمات المتواصل و تقطيع أوصال المناطق بالحوادث التي تخين المارة و العابرين لأدنى سبب ، و هي وحدها المناطق الغارقة في القاذورات و الأوبئة و يشرب سكانها مياها تختلط مع مياه المجاريير الآسنة ، و يعاني أكثر من نصف شباب هذه المناطق من البطالة المزمنة و الفقر و الخوف الدائم تقارير المخبرين و ما تجره من الإعتقال أو حتى القتل على الحواجز لأسباب مفتعلة .

العجيب أن نصف سكان هذه المناطق يعمل في التجسس لصالح مخابرات أية قوات تحتل أرضهم ! و النصف الثاني ضحايا لتجسس النصف الأول ! و لا مبالغة في هذا ، إذ على مر ربع قرن من سيطرة جيش هرثمة على الجبل الأبيض تشكلت منظومات من القيادة الشعبية في مناطق المسلمين ، أعضاء هذه المنظومات كلهم يعملون مخبرين و مراسلين لدى مخابرات جيش هرثمة ، و يقدمون أيضا تقاريرهم لمخابرات جيش الجبل الأبيض ، و لقد اعتادوا على كتابة التقارير من كل الأنواع و

عن كل شيء حتى عن حوادث الخطبة و الزواج ، و حتى عن العلاقات بين الشباب و الشبابات في الخلوات و المدارس و المقاهي و شائعات الحب و الطلاق !.

كل ما كان يتقاضاه هؤلاء المخبرون من أجر كان تربيئات الثناء من ضباط المخابرات ، و بعض المبالغ التافهة التي لا تشتري طعاما ردينا يكفي فردا واحدا ليوم واحد أو اثنين !.

و هؤلاء المخبرين درجات و مراتب ، منهم المخبرون الكبار كانوا يتصرفون على أنهم زعماء للمسلمين ، و الواقع أن مهمتهم كانت فقط التوسط لدى السلطات و المخابرات سعيا لإطلاق سراح مخطوفين من المسلمين مقابل فدية من نوع ما ، أو التوسط لمجرد معرفة مصير بعض هؤلاء المخطوفين ، أو إطلاق سراح سيارة حجزتها إحدى الدوريات ، أو إسقاط غرامة باهظة عن بعضهم ، أو استصدار رخصة بناء أو تخليص بضاعة من الجمارك ، على أبعد تقدير .

هؤلاء المخبرون كان عدد منهم أعضاء في مجلس نواب شعب الجبل الأبيض ، الذي يملكه الأستاذ لبيب ، و بعضهم كانوا وزراء في حكومة السيد لطيف و لكنهم بلا حول و لا سلطة .

مناطق أتباع الديانة السرية بأنواعها : تتمتع بالحد الأدنى من الخدمات و الطبابة و التعليم و الدخل الكافي للعيش الكريم ، و هي محكومة بكاملها من قبل شيوخ الديانة السرية ، و لا يجرؤ أحد فيها على تحدي سلطتهم لأنه سيكون فريسة لتراب الأرض لا محالة .

بدأت ماكينة البروفسور برنار بالعمل استنادا لهذه المعطيات ، و مباشرة بعدما ألقت الطائرات صواريخها على موكب السيد لطيف انطلق تحرك دعاة التمرد في مناطق أتباع ديانة باولو ، و لبث دعوتهم ألوف مؤلفة من شباب أتباع هذه الديانة بأنواعهم ، ثم التحق بهم ألوف من شباب المسلمين بنفس الطريقة ، و اجتمع الجميع في مأتم السيد لطيف ، و بالتزامن تغيرت سياسة الإعلام في البلاد بشكل مفاجئ و حاد ، فبدأت جميعها توجه الاتهامات إلى جيش و مخابرات مرسال باغتيال لطيف ، و في يوم جنازة لطيف احتشد أكثر من مائة ألف مشيع ، ثم تحول التشييع إلى مظاهرة و احتلت الحشود الساحة الكبرى في عاصمة الجبل الأبيض .

الظريف أن هذه الحشود التفت حول المخبرين الكبار آنفي الذكر ! فلقد تحول هؤلاء المخبرون بين عشية و ضحاها إلى ألد الأعداء لمرسال و هرثمة و جيشهما ، و ألقى هؤلاء المخبرون خطبا رنانة عن الحرية و الإستقلال و السيادة الوطنية ، و انضم إلى هؤلاء عدد من قادة أتباع الديانة السرية ، و كافة قادة ديانة باولو ، و التحق بالجميع معظم المخبرين الصغار و متوسطي الحجم ، و بهذا تشجعت جماهير العامة من المسلمين و انطلقت كلها في مسيرات و مظاهرات نحو العاصمة ، و صارت الحشود في ساحات العاصمة ضخمة بانضمام معظم شباب المسلمين للإحتجاجات .

أعطى الجنرال وولتر أوامر صارمة لكل القوات المسلحة بالتصرف بسلمية مطلقة ، و هكذا امتنع كل الجنود عن عرقلة الحشود و المظاهرات ، في الواقع كانت هذه المظاهرات أشبه بكرنفال للهتافات و الخطابات و الغناء و الرقص أحيانا ، و ملتقى ممتعا للفتيات و الفتيان للتعارف و إقامة علاقات عاطفية !.

بعد فترة وجيزة بدأ المتظاهرون بتوزيع الزهور على الجنود في الشوارع ، و راح الجنود و الضباط الصغار يتعاملون بحميمية و ودّ ظاهر مع العامة الثائرين ، سواء أكان هؤلاء الجنود من جيش الجبل الأبيض أو حتى من جيش مرسال ، و لقد أعادت هذه المظاهرات إلى الأذهان مشاهد سقوط الشيوعية في أوربة الشرقية .

في نفس الوقت وجهت كل أجهزة الإعلام العربية و الدولية أضواءها و اهتمامها نحو أحداث الجبل الأبيض ، و اتفقت كل تصريحات القادة الأوروبيين و الأمريكيين على توجيه إنذار لحكومة مرسال لسحب قواتها من الجبل الأبيض.

صدرت أوامر وولتر لجيش مرسال بمغادرة الجبل الأبيض ، و أخليت كل المقرات الرسمية التي تتبع له في ساعات ، و بدأ المسلمون و عوام أتباع دين باولو بالاحتفال بالنصر على المحتلين و بإستقلال دولتهم الصغيرة ، و استقالت حكومة البلاد التي يرأسها أحد المخبرين التابعين لمخابرات مرسال ، و حلت محلها حكومة أخرى مؤقتة برئاسة مخبر آخر تابع لمخابرات مرسال ، كلا المخبران ينتمي لإحدى الأسر التي تتبع الديانة السرية و تظهر اعتناق الإسلام ، بل إن بعض آباء هذه الأسر كان يستتر بمنصب في المشيخة الإسلامية .

بعد انسحاب جيش مرسال من الجبل الأبيض دعى رؤساء الديانة السرية إلى مظاهرات لشكر جيش مرسال ، و بالفعل تجمعت حشود ضخمة في ساحات مجاورة لساحات تظاهرات المسلمين ، و مع هذا لم يصطدم الفريقان و لم تحدث احتكاكات بينهما ، و مرت الأمور بسلام و بعد عدة أسابيع أجريت إنتخابات برلمانية ، و فاز أنصار ثورة أشجار الجبل الأبيض بمعظم مقاعد مجلس نواب الشعب .

رغم كل هذه المظاهرات و الهتافات للحرية و الضجيج الإعلامي تشكلت حكومة لا تختلف في شيء عن سابقتها التي تشكلت أثناء تواجد قوات مرسال ، الوزارات و المناصب الخطيرة بقيت لقادة الديانة السرية ، و المسلمون و بقية أتباع الديانات حصلوا على مناصب صورية ، و بقيت القوات المسلحة تحت إدارة ضباط من أتباع الديانة السرية و ديانة باولو ، كل ما في الأمر أن عمليات خطف المسلمين و إهانتهم و إذلالهم على الحواجز توقفت إلى حين فقط .

بعد مقتل لطيف وقع اختيار وولتر على سرور ابن لطيف ليكون واجهة سياسية لأسرة لطيف و رئيسا لحزبه و يدعى بـ "حزب الآتي" ، و لأن هذا الغلام لم يكن يجيد التحدث بالعربية مطلقا ؛ قام وولتر بتعيين سكرتير لطيف و مدير أعماله و يدعى جنان رئيسا لحكومة الجبل الأبيض ، بينما بقي رئيس البلاد الباولوي الديانة و حليف مرسال و هرثة المخلص في منصبه .

و استكمالا للمشهد طالبت حكومة جنان بتحقيق جنائي دولي في مقتل السيد لطيف ، و بالفعل أصدرت المنظمة الأممية قرار بانتداب لجنة تحقيق دولية جنائية برئاسة و عضوية قضاة أوروبيين و ضباط شرطة و محققين أمريكيين و أوروبيين ، و وصلت اللجنة إلى الجبل الأبيض ، و راحت تصدر يوميا بيانات عن سير التحقيقات و عن استدعاء ضباط من جيش مرسال و مخبراته و من جيش الجبل الأبيض و مخبراته إلى التحقيق ، و لم تعتقل هذه اللجنة أيًا منهم و لم توجه لأي منهم أي اتهام ، بخلاف بعض الإجراءات الصورية بحق بعض ضباط من الجبل الأبيض أحيوا إلى التقاعد و أعلن عن سجنهم قيد التحقيق ، هؤلاء كانوا هدفًا لحقد المسلمين لأنهم كانوا من الأشد تنكيلا بالعامّة و إيذاء لهم ، لم يسجن منهم أحد في الحقيقة و إنما تواروا عن الأنظار لبعض الوقت ، ريثما تهدأ العاصفة التي لم تدم طويلا ، ففي العام التالي أعلن عن هجوم لجيش الديانة السرية على جيش جارتنا اللدود ، بعدها انطلقت طائرات جارتنا اللدود في حملة جوية على منشآت الجبل الأبيض الأساسية ، و دمرت هذه الحملة ثلثي مرافق البلاد ، أثناء الحملة توغلت بعض أرتال من دبابات جارتنا اللدود في مناطق ريفية مجاورة يسكنها مسلمون من أهالي الجبل الأبيض ، و راح الإعلام ينقل أخبار اشتباكات بين جيش الديانة السرية و بين جيش جارتنا ، لكن لم تحصل أية اشتباكات ، و إنما أعلن ضحايا و قتلى و عن صمود "أسطوري" لجيش الديانة السرية ، و عن تعاطف كبير أبداه المسلمون و الباولويون مع جيش جارتنا اللدود !.

انتهت الحرب بمقتل أكثر من ألفي مسلم في توغل أرتال جيش جارتنا ، و بعودة مناطق مسلمي الجبل الأبيض إلى حالة متردية جدا من الفقر و العوز و البطالة نتيجة فقدان المرافق الحيوية و الطاقة و الأمن ، و أيضا بتهدم مباني مناطق جوار العاصمة العشوائية التي يسكنها أتباع الديانة السرية .

بعدها أعلن سرور عن تضامنه الكامل مع جيش الديانة السرية !! و أكد أنهم صمدوا بوجه الغزو نيابة عن كل البلاد ! ثم تتابع وفود زوار كبار من أقاربه من الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية لزيارة قادة طائفة الديانة السرية ، و قام هؤلاء الزوار بتمويل إعادة ما تهدم من أحياء تلك الطائفة في جوار العاصمة ، رغم أن تلك الأحياء مبنية على أراضٍ مغتصبة من مسلمين يُفترض أن سرور يمثلهم و مهمته الدفاع عن حقوقهم !.

بعدها أدخلت البلاد في دوامة من المظاهرات و المظاهرات المضادة التي قام بها أنصار و خصوم ثورة أشجار الجبل الأبيض ، و خلال هذه الفترة تم إرسال فوج من مقاتلي الجيش الأسطوري من معسكرات جيش مرسال إلى حيٍ لنازحي إقليمنا المحتل يقع في وسط ساحل منطقة المسلمين الكبرى في الجبل الأبيض ، هذا الحي كان منفذا بحريا لشراء السلاح و الذخائر للعامّة من مسلمي البلاد ، احتل فوج الجيش الأسطوري ذلك الحي و أطلق حربا خرافية مضحكة ببضعة عشرات من المقاتلين ضد جيش الجبل الأبيض ! و على الفور نصبت المدافع و شن جيش الجبل الأبيض حربا مدمرة على حي النازحين بذريعة حماية البلاد من "الإرهابيين" !.

أخلي الحي من سكانه و من مهربي السلاح و من ترسانة حربية مخبأة في مخازن بعض المنظمات التابعة للسيد سهل و كانت كافية لتسليح جميع مسلمي الجبل الأبيض لو وزعت عليهم ، و بعد نهاية المسرحية عاد فوج الجيش الأسطوري إلى المعسكرات التي جاء منها محروسا و منقولاً بآليات جيش الجبل الأبيض ، الذي يفترض أنه يحارب هذه المجموعات بشراسة ، مسرحية استمرت عدة أسابيع من القتال الخلبى دمرت خلاله كافة مباني الحي حتى تحول إلى كوم رمادي من حطام الإسمنت.

بحجة هذه المعركة أطلقت ما يفترض أنها حكومة الثورة يد أجهزة القمع مرة أخرى ، و أعيدت الحواجز و أجواء الرعب و الإهانة و الإضطهاد لمناطق المسلمين ، و اعتقل مئات الشباب و قتل عدد منهم على الحواجز و عاد الأمر و كأن جيش مرسل لم يغادر ، بل لقد كان جنود جيش الأبيض أشد حقدًا و تنكيلاً بشباب المسلمين المتدينين من جيش مرسل و من جيش الديانة السرية ، علما أن معظم هؤلاء الجنود مسلمون !.

بين الفينة و الفينة كان يقع هجوم يحصد أحد المحسوبين على سرور و حزبه ، و ذلك لإقناع عامة المسلمين بأن سرور و جنان و زملاءهما ثائرون فعلا على النظام السابق و على التبعية لمرسال ، هذه الهجمات كانت تؤجج حماسة العامة للحرب ضد أتباع الديانة السرية ، إلا أن سرور كان في كل مرة يحبط هذه الحماسة و يدعو إلى الهدوء بذريعة حماية قدس الأقداس "وحدة الوطن" !.

إلى أن آن أوان إنهاء الثورة تماما ، ففي بداية أسبوع الربيعي اندفعت جموع من أتباع الديانة السرية إلى التظاهر في وسط العاصمة و حصلت إشتباكات بينهم و بين المسلمين القاطنين هناك ، و في نهاية الأسبوع اجتاحت العاصمة أرتال من جيش الديانة السرية ، و استولت عليها تماما ، و قتلت في طريقها مئات من شباب المسلمين دون مقاومة ، لأن جيش الجبل الأبيض كان قد نزع أسلحة المسلمين منهم بذريعة عملية الجيش الأسطوري آنفة الذكر ، و لأن سرور كان حريصا على نزع هذه الأسلحة خلال الفترة السابقة .

لكن في نفس الوقت حصل ما لم يكن بالحسبان ، فلقد قام عدد من المشايخ التقليديين في عاصمة شمال الجبل بإعلان الحرب على أتباع الديانة السرية ، و اندفعوا نحو مقرات جيش الديانة السرية في مناطقهم فقتلوا من فيها و حاصروا مقرات جيش الدولة الرسمي و أربكوا حساباتنا بشكل غير مسبوق .

كان قائد هؤلاء شيخ تقليدي من المنفيين من أبناء بلادنا قد حكم عليه غيابيا بالإعدام في محاكم مرسل ، كان رجلا مندفعًا و يعرف جيدا من هم أعداؤه ، و بالطبع فإن علي في هذه الحالة أن أتصرف لاحتواء الأمر دون تفجير الأوضاع بشكل يخرج عن السيطرة.

أوعزت إلى سرور بقاء هذا الشيخ و زملائه و أقناعهم بأنه مغلوب على أمره و أنه غير قادر على المضي قدما في مواجهة أتباع الديانة السرية ، ثم استدعي سرور زملاء الشيخ العنيد ، و في حال رفض الشيخ المساومة يقوم سرور بشراء أعوان الشيخ الكبار بالمال لينفضوا من حوله ، و هذا ما حصل .

بعد أسابيع من اجتماع سرور مع الشيخ العنيد تم لنا ما أردنا ، و تشققت قوات الرجل و تبدد أفرادها إلى مستجدين للرواتب التافهة من مكاتب حزب سرور ، رواتب لا يستطيع هذا الشيخ الشجاع أن يؤمنها لهم لأنه يرفض أن يكون مرتزقا أو أن يجند مرتزقة في قتال يراه من أقدس الواجبات .

دبرت لقاء بيني و بين هذا الشيخ الشجاع بعد أن تجنبت اتخاذ قرار تصفيته بصعوبة ، و خلال اللقاء أقنعت بمغادرة الجبل الأبيض إلى منفاه الأوربي مرة أخرى ، وجدت رجلا ذكيا عارفا بكل خفايا الأمور و بتفاصيل عمل المنظومات ، و هتف بي شيء في داخلي أجبرني على مساعدته و إنقاذه ، و كانت المرة الأولى التي أخالف فيها عقلي و مبادئ عملي و لقد نجا الرجل فعلا من بين أيدي أتباع الديانة السرية إلى حيث يعيش بحماية تامة .

بعدها تم توقيع اتفاق لإنهاء الأزمة حدد بموجبه موعداً لإجراء انتخابات نيابية جديدة ، و تم تعيين قائد جيش الجبل الأبيض و هو بولوي رئيسا للبلاد ، علما أنه كان و لا يزال من أخلص أتباع مرسال و من أشد الناس عداوة للمسلمين !.

تمت الإنتخابات و فاز سرور بها و لكنه لم يستطع أن يحكم بمفرده بحجة الحفاظ على تنوع الطوائف ، و تسلم قادة الديانة السرية دفعة الحكم مرة أخرى ، ثم أمرت بعقد لقاء مصالحة بين سرور و مرسال في عاصمتنا ، تمت بعد هذا اللقاء إعدامات سرية و اغتيالات لمسلمين من ضباط و جنود من جيش الجبل الأبيض و شرطته ، هؤلاء كانوا قد تجرؤوا على التمرد على قادتهم خلال الإضطرابات العامة دعما للثورة .

عادت الماشية إلى الحظيرة بعد ضجيج و غبار ، و انتهت مهمتي قبل الأخيرة بنجاح كامل ، و صار البارون على قناعة بإطلاق مشروع برنار و تعميمه في البلاد العربية .

في نفس العام الذي انتهت فيه ثورة أشجار الجبل الأبيض اكتملت الإستعدادات لإطلاق إعصار برنار الكبير ، ففي خمسة أقطار عربية اكتملت حشود الجيش الأسطوري في معسكرات صحراوية و في مراكز و تجمعات سرية داخل ثكنات لجيوش تلك البلدان ، و كان المقر الرئيسي لهم في بلادنا ، اكتملت أيضا استعدادات طواقم الدعاة للتمرد الشعبي التي دُرِبَت و أعدت خلال سنوات ثورة أشجار الجبل الأبيض و بعدها بقليل ، و تم أيضا تركيب غرفة العمليات الرئيسية في عاصمة أكبر مملكة أوربية ، و لعل أهم هذه الإستعدادات كانت طواقم الإعلام في قنوات الأخبار العربية ذات البث العالمي ، و طواقم صفحات شبكة المعلومات الإلكترونية العالمية.

أطلقت صفحات الكترونية على الشبكة الدولية في ذلك العام ، جميع هذه الصفحات كانت تتهاجم حكومات الدول العربية بجرأة و براعة و وضوح ، و حققت هذه الصفحات تقدما كبيرا على أجهزة الإعلام كلها ، و بدت أمامها أجهزة إعلام الحكومات مجرد جدران قديمة تجلجلها طبقات الغبار و الهباب و قد علقت عليها صور مهترئة تنادي ناظرها مستنجدة من وجودها ترجوه إعدامها .

كل شيء كان جاهزا و كان علي إنجاز أكبر مهمة في تلك الخطة قبل إثارة البراكين ، و قد قمت بنفسني بإعداد تفاصيل تلك المهمة و بمشاركة البروفسورين برنارد و برنار .

تتلخص المهمة فيما يلي :

أولا جمع كل أقطاب الجريمة و أصحاب السوابق الجرمية الفظيعة في السجون و المعتقلات لفترة وجيزة ، و ذلك في البلدان الخمسة آنفة الذكر و من جميع مدنها ، و حجزهم بأعداد كبيرة ، موهت عملية الاعتقال هذه بإشاعات عن اتفاقيات لمكافحة الجريمة المنظمة ضمن معاهدات شراكة إقتصادية مع دول أوروبية .

ثانيا تجنيد خمسين ألفا من هؤلاء مع أجهزة المخابرات في تلك البلدان بحوافز سخية للغاية ، ثم توزيعهم تنظيما على كافة أفرع هذه المخابرات بطريقة متقنة لا تتيح لأي منهم التواصل مع أحد زملائه في المنظومة الجديدة إلا تحت مراقبتنا ، و لقد أخضع هؤلاء لدورات تدريب على قتال الشوارع و استعمال وسائل الاتصالات الحديثة ، و تدربوا على تجنيد السقطة و الحثالة في تشكيلات عسكرية صغيرة تكفي للسيطرة على أحياء و مناطق داخل المدن و على بعض القرى الكبيرة .

احتاج هؤلاء لنحو ألف مدرب كانوا متوفرين لدينا ، و استعملت مبان في معسكرات الجيوش و قوات الشرطة لتدريبهم تباعا ، و لقد استهلك عام تقريبا في إعدادهم ، ثم مُنح هؤلاء رخصاً للسلاح و بطاقات هوية معلمة بأرقام خاصة للتعريف بهم عند القوات الحكومية و تم ربط كل منهم بضابط اتصال في المخابرات .

لقد أطلقنا على هؤلاء لقب "أباطرة الشوارع" ، و لم يقطعوا رغم ذلك علاقاتهم مع عصاباتهم الإجرامية الأصلية بل ازدادت هذه العلاقات و توطدت و تسنم هؤلاء مراكز أعلى في تلك العصابات .

ثالثا أنشئت لإدارة هذه المنظومة غرفة عمليات خاصة ، تولى قيادتها أحد أعضاء الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية ، و عبر هذه الغرفة يتم تمويل أباطرة الشوارع و توجيههم ، و أعطيت لهم تعليمات صارمة بعدم التحرك إلا عند تلقيهم للأوامر .

رابعا فرق الدعاة للتمرد استعدت ميدانيا ، و أنشأت ورشات لإعداد مستلزمات المظاهرات من لافتات و أعلام و قنابل نفطية و مكبرات صوت ، و أعدت العدة لإنشاء مشاف ميدانية مجهزة بكل شيء و بطواقم طبية مدربة جيدا .

تم إنشاء محطات للتوجيه على صفحات شبكة المعلومات يقودها عدد من هؤلاء الدعاة ، و بدأت بالدعوة للتظاهر هنا و هناك دون أن تبدأ مظاهرات على الأرض ، و تم توحيد إدارات هذه الفرق في غرفة عمليات واحدة مباشرة مجهزة بأحدث وسائل الإتصال و مدعمة بتقارير من محطات التجسس الطائرة التابعة للجيش الأوربية و الأمريكية ، انتقل برنار للإقامة في مقر هذه الغرفة في وسط أوربة بشكل متواصل .

لم أتعب في إنجاز هذه المهمة ، لأن نموذج عمل حروب و ثورة الجبل الأبيض أتاح لنا اختصار كل شيء ، لقد بنينا خبراتنا في الجبل الأبيض بالتدريج و الإستكشاف البطيء ، و لكننا استفدنا من هذه التجربة كثيرا في عاصفة برنار الكبرى فأنجزنا كل شيء ببراعة و سرعة و إتقان تام .

مهمة جزئية ضمن مهمتي كانت مزعجة جدا لي و أديتها و أنا غير مسرور و لا راض عنها ، و لذلك تركتها لإشراف الطبيب "صافي" و هو أستاذ جامعي كبير و جراح ، هذه المهمة اقترحت من أحد الأطباء المتخصصين في نقل الأعضاء الذين يعملون في فريق متابعة صحة البارون .

المهمة هي افتتاح مراكز و مخابر طبية في أقبية كافة السجون في البلدان الخمسة ، مهمة هذه المخابر تحديد هوية الأنسجة الحية لكل سجين و تبويبها في سجلات حين الطلب ، و بعد ذلك ترسل هذه السجلات إلى مراكز و مشافي زراعة الأعضاء الكبرى في شرق و جنوب شرق آسيا و شبه القارة الهندية و جنوب أمريكا ، هذه السجلات تكون بمثابة دليل عالمي و أرشيف موحد لشبكة بيع و نقل الأعضاء البشرية العالمية التابعة للبارون .

تقوم هذه المخابر أيضا بضبط ما يتناوله السجناء في المعتقلات من طعام و شراب ، بحيث تبقى خلائط أجسامهم مثالية إلى أقصى حد ممكن ، و بحيث يبقون جاهزين لغرفة العمليات الجراحية في أي وقت ، و تشرف هذه المخابر أيضا على نوع جديد من التعذيب بالعقاقير المحفزة لأنواع من الألم المستمر في حالات الحاجة للحصول على اعترافات أو معلومات .

ألحقت بهذه المخابر عدة أساطيل للنقل البحري و الجوي ، الهدف منها نقل السجناء المختارين إلى حيث يُحتاج إليهم في مراكز نقل الأعضاء في مختلف أرجاء العالم .

آلية العمل تكون باصطياد المرضى في أوربة و أمريكا ، و إقناعهم بضرورة نقل أعضاء إليهم ، ثم يتم تسجيلهم على الدور في نظام الدعم الصحي لبلادهم ، و بعدها توصف لهم عقاقير تجعلهم في حالة صحية مزعجة تدفعهم للإستعجال لنقل أعضاء لأجسامهم بأي ثمن ، عندها يرشدتهم أطباؤهم إلى مراكز نقل الأعضاء الكبرى ، و تتم مراسلة هذه المراكز .

المرضى المختلفوا الإحتياجات و المتقاربون نسيجيا يتم تحديد موعد موحد لهم ، فمثلا مريض أوربي شرقي يحتاج إلى كلى ، و آخر أمريكي يحتاج إلى كبد ، و مريض آسيوي يحتاج لقرنية عين ، و آخر أوربي غربي يحتاج إلى قلب ، و أنسجتهم متقاربة

يتم إرشادهم إلى مركز واحد ، فيسافرون إليه في موعد واحد ، و هناك ينتظرهم سجين عربي حي شاب يتمتع بأعضاء في حالة ممتازة ، يتم تخدير الجميع و استئصال أعضاء السجين و هو حي و نقلها إلى الزبائن في عملية متزامنة ، و يبقى السجين على قيد الحياة إلى أن يتم إنهاء تركيب الأعضاء للزبائن ، ثم ترفع عنه مصادر التنفس الآلي ليموت ، ثم ترسل بقية جثته إلى المشاح للبيع .

هذه الطريقة سميت بـ "اصطياد سمك حوض الزينة" لأنها تشبه بيع السمك الحي في المطاعم الراقية ، و كانت قد اقترحت على ابن عم للبارون بلغ من العمر عتيا و احتاج لنقل عدة أعضاء له ، و قد نقلت له من أشخاص أحياء تم خطفهم لهذه الغاية ، فقرر تعميم التجربة لنجاحها الكبير طيبا و لأن هذا النجاح سينعكس إقتصاديا على المنظومات التي ترعى تجارة الأعضاء التي أسست منذ عقود .

أيضا تم تركيب محارق ضخمة و سريعة للجثث إلى جوار كل السجون و المعتقلات ، فأعداد المعتقلين في عاصفة برنار ستكون كبيرة جدا و سيتم إعدام الكثير منهم و لا بد من التخلص من جثثهم لجعلهم في عداد المفقودين .

تم إعداد احتياطات و خطط و ممرات و معدات لاستقبال النازحين في دول مجاورة للبلدان الخمسة ، و تم توظيف طواقم إغاثة و طبابة و تهريب لاجئين ، و تم توسيع شبكات تهريب اللاجئين التابعة لمنظومتنا لتستوعب زبائن كثر سيزحفون إلى أوربة التي عادت سريعا لمعاناة نقص عدد السكان رغم ما ابتلته من موجات النزوح من أورك و خراسان و بارسيا و شمال إفريقيا و الجبل الأبيض خلال العقود السابقة .

أيضا تم تدريب ضباط و طواقم المخابرات في تلك البلدان على العمل بعيدا عن مقراتهم و الإبقاء على تواصلهم مع قياداتهم لفترات ، و أنشأت مقرات سرية جديدة للمخابرات لتكون بديلا مموها عندما تحتاج الجموع الغاضبة مقرات المخابرات الحالية المعروفة للجميع .

خلال لقاء مع برنار تحدثنا مطولا عن الخطط الإحتياطية حال سحب مشروع برنار التداول ، لم يكن ممكنا إطلاق مشروع برنار إلا و هذه الخطط جاهزة و متاح بدء تنفيذها خلال ساعات عند الإحتياج إليها ، و لقد لخصت هذه الخطط خلال هذا اللقاء بهذا الوصف :

إن ثوران الغضب الشعبي و هياج العامة على أنظمة الحكم في بلدان الموجة الأولى الخمسة سيكون بمثابة حرب هائلة بين جيش كبير جدا هو الشعب ، و جيش صغير جدا هو قوات السلطة ، و مواجهة كهذه ستكون محسومة بديهيها لصالح الشعب في حالة واحدة ؛ عندما تكون لهذا الشعب قيادة موحدة و مستقلة ، و هذا ما سنحرص على عدم وجوده أو تشكّله أثناء ما تسمى "الثورة" ، لأننا سنطلق إلى الصفوف الأولى للشعب الغاضب عشرات الألوف من أباطرة الشوارع

المُجهزين بالمال و المعدات لشراء كل الموجودين على جبهات التماس مع قوات السلطة الضعيفة ، و ليكون هؤلاء الأباطرة هم قادة الجموع الهائجة في الميدان منذ البداية .

بفضل هؤلاء سيكون مشهد التمرد الشعبي كمشهد كاندفاع سيل كبير إلى أرض كبيرة كثيرة التضاريس ، ثم ستتجزأ كتلة السيل إلى سيول فرعية كثيرة ، ثم تنتهي اندفاع السيل ببرك صغيرة كثيرة ما تلبث أن تجف بعد عدة أيام مشمسة .

في المقابل تبقى القوات الحكومية متماسكة ، و حتى لو تفتت هذه القوات فستتفتت بدورها إلى ما تفتت إليه قوى الشعب الغاضب ، و سيكون سحق الجميع متيسرا لأي جيش صغير مدرب يعمل بنظام متماسك و يملك معدات قتالية كافية لسحق كتبية واحدة فقط ، لأن هذا الجيش لن يكون مضطرا لقتال أكثر من كتبية واحدة في كل مواجهة يخوضها .

طبعاً سنحرص خلال أول تجارب الثورة على أن يكون الجيش الحكومي غير منخرط في الصراع و سيتظاهر قاداته في بداية الأمر بالإنحياز إلى الشعب كما فعل جيش الجبل الأبيض في بداية ثورة ذلك البلد .

بعد اكتمال الإستعدادات كان علينا إطلاق الثورة في بلد ما من البلدان الخمسة ، لم نكن بحاجة لحدث هائل يشبه اغتيال السيد لطيف لنطلق أفواج التمرد ، كنا بحاجة لحدث يأس نقوم بتضخيمه إعلاميا و نسلط عليه الأضواء و نجعله ذريعة للثورة ، هذه الحوادث كانت تقع على مدار الساعة في تلك البلدان ، و لكننا آثرنا اختيار حادث يأس ناجم عن الإحتكاك بين الشعب و قوات السلطة ، فأعطيت التعليمات لجرعات زائدة من القمع و الإضطهاد و الإهانة تحقنها قوات السلطة في مجتمعات البلدان الخمسة .

تم خطف و تعذيب و قتل عدد من الشباب من المقربين من دعاة التمرد في الدول الخمس في حوادث فردية مفتعلة بوضوح ، و وقعت بسبب هذه الحوادث عشرات صدامات اليأس و الإنتحار و المواجهات الإنتحارية الفردية ضد قوات السلطة ، كلها خرج للإعلام الشعبي و لصفحات دعاة التمرد على شبكة المعلومات ، و لكن برنار لم يختار منها شيئا لأنها كانت عادية ، إلى أن اتصل بي ذات صباح شتوي قائلاً لي بسرور بالغ :

لقد وقع الحدث المناسب في دولة المصايف في شمال إفريقيا ، فلقد حاول شاب الإنتحار في الشارع احتجاجاً على إهانته من قبل شرطية فظة خلال تقديمه لطلب توظيف ، وقع الحدث في مدينة صغيرة ، الشاب مصاب في المشفى بإصابات معقولة ، سيموت طبعاً لأننا سنسلط عليه الأضواء كثيراً هناك و هنا في أوربة ، و سيكون يوم الجمعة القادم موعدنا مع أول المظاهرات ، يا عزيزي سيكون كل شيء عفويا تماما و سيزهر الشجر في أول الشتاء !! ثم ضحك بشدة ، لم أكن مضطراً لمجاراته في الضحك أو لمجاملته ، لأنه يعرف جيداً أنني أعترض على مشروعه جملة و تفصيلاً ، و لذلك لم أضحك و قلت باقتضاب : أنا مستعد تماماً و سأتصل برئيس البلد و قادة الجيش و المخابرات خلال ساعة .

بدأت أحداث الثورة الأولى في مشروع برنار بعد ظهر يوم جمعة من أيام أول الشتاء بعد اجتياح أورك بسبعة أعوام ، في دولة المصايف الشمال إفريقية ، في مدينة الشاب الذي حاول إحراق نفسه ، اشتعلت الثورة بذريعة الغضب له ؛ بعد أن تم تسليط أضواء كل الإعلام على مأساته ، كنت قد أعطيت إشارة البدء للجميع أثناء ساعة من الاتصالات جرت مساء الخميس ، و بعدها قام رئيس البلاد و يدعى "سجاد" بتسجيل عدة خطابات كتبت بعناية ، ثم غادر مع أسرته إلى أوربة حيث أحيل إلى التقاعد بناء على طلب منه ، الرجل كان يهوى الحياة و النساء و المجون و الطرب ، و لم يقبل بأن يكون واجهة أحداث دموية أو عنوانا لصراع من أي نوع ، و احترام البارون رغبته لأنه من أقاربه و أحد أعمدة معابد الحرية في الشرق ، و لأن شخصية سجاد هذا لا تليق بحروب و صراعات ، فهو أليق ما يكون بمطرب أو ممثل أو منتج أفلام جنسية إباحية .

كلف البارون كبير مستشاري سجاد و يدعى "ابن الوالي" بتنسيق أعمال الأسر الحاكمة في البلاد ، معظم هذه الأسر كان من العجر و البقية من "فقراء" عشيرة البارون .

تولى قائد الجيش و يدعى "مهتدي" تنسيق عمل القوات المسلحة من جيش و شرطة و مخبرات و غيرها ، و تركت المناصب الصورية كالوزارات و غيرها لرؤساء الأسر الحاكمة.

كل شيء كان يتحرك بأمر مباشر من برنار من غرفة عملياته ، و كنت أطلع في غرفة عمليات الجيش الأسطوري على كل التفاصيل.

سارت الأمور كما خطط لها بدقة و وفق الجداول الزمنية المحددة ، بدأت المظاهرات في المدن الصغيرة ، ثم انتقلت إلى عواصم الأقاليم و من بعدها إلى أطراف العاصمة ثم إلى وسطها ، ثم انتقلت إلى منطقة قصور الحكم ، وقعت خلال التظاهرات عدة مواجهات بين الشرطة و بين المتظاهرين ، كل هذه المواجهات انتهت بانسحاب الشرطة من وجه المتظاهرين بعد إيقاع عدد من القتلى بين الشبان الغاضبين ، و في اليوم التالي كانت تتحول جنازات قتلى مظاهرات الأمس إلى مظاهرات أضخم من سابقاتها و أكثر عنفا و أبعد مدى ، دوامة ولدت احتجاجات متصاعدة استمرت لمدة أربعة أسابيع متواصلة ، هذه الدوامة شدت كل أضواء الإعلام العربي و الأوربي ، و تصدرت عناوين النشرات كلها بكافة لغات العالم ، و انشغلت بها مواقع الحوار على شبكة المعلومات الدولية و شارك في التفاعل مئات الملايين من الناس ، هذه الدوامة كلها توقفت عند ذروة عصفها فجأة ، بعد أن أذيع خبر هروب الرئيس إلى خارج البلاد بطريقة مذلة أفرحت الشعب الغاضب و كل شعوب المنطقة بشكل عفوي حقاً .

صاغ خبر فرار الرئيس ليبدو وكأن دول أوربية وأمريكا تؤيد ثورة الشعب ، و كأنما كانت تتعامل مع حكومة الرئيس سجاد مضطرة و ما أن لا حت لهذه الدول بواذر رفض الشعب لحكم سجاد المستبد حتى سارعت للتبرؤ منه و التضيق عليه حتى يقع في قبضة الشعب ، تم ذلك بإعلان أن كل أوربية رفضت استقبال الرئيس الهارب من غضبة الشعب .

بعد ساعات قليلة من الإعلان عن رفض دول أوربية استقبال سجاد ، فوجئ الناس بأن أكبر الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية استقبلت الرئيس الهارب و أسرته ، و معهم الأموال التي كانت قد شحنت بطائرته الخاصة التي أقلته ، و الواقع أن الرجل كان في منتجعه الأوربي يرفل في الملذات منذ ما قبل بداية المظاهرات ، كما أسلفت آنفا .

أعلن "مهتدي" أن الجيش قد انحاز إلى الشعب في هذا الصراع ، و أنه رفض أوامر الرئيس الهارب بقصف المتظاهرين و قتلهم بسلاح الجيش ، و أعلن مهتدي أن الجيش تولى حفظ أمن مؤسسات الدولة الرسمية و كل المباني التابعة لها .

بهذا الإعلان اختفت قوات الشرطة و المخابرات من المشهد ، و أحرقت عدة مقرات للمخابرات و الشرطة ، و أطلق سراح السجناء جميعا من جنائيين و سياسيين ، و أعلن عن تولي رئيس مجلس نواب الشعب مهمات رئيس الجمهورية ، و قام بدوره بتعيين المدعو ابن الوالي رئيسا للوزراء لفترة إنتقالية تسبق إنتخابات عامة لاختيار مجلس للنواب .

في نفس الفترة أعلن عن اعتقال شقيق زوجة سجاد و معه عدد من أقاربه في مطار العاصمة أثناء محاولته الفرار ، و أن الفتى قد سبق للسجن مع الذين قبض عليهم .

كان شابا لم يجاوز الأربعين و كان مرافقا لأخته في حفلاتها الراقصة و زير نساء على طريقة "دون خوان" و لم تكن له أية سلطة حقيقية ، فالبلاد كلها كانت و لا تزال تحت قبضة الخواجة أندرو حاكم شمال غرب إفريقيا بأمر البارون ، إلا أن الإعلام صور هذا الشاب على أنه راسبوتين البلاد و جلادها الأول ، و لم يعد للتلفزيون و الإذاعة و غيرها من وسائل الإعلام سوى الحديث عن هذا الغلام و جرائمه الرهيبة ، لدرجة أن المستمع ليظن أن هذا الغلام كان هو حاكم البلاد الفعلي المطلق و سجاد مجرد حاجب على بابه !.

انطلقت الإحتفالات في بلد المصايف ، و عمت نشوة الإنتصار كل الشعوب العربية ، و تغيرت لهجة الإعلام كله و كأن الجميع انطلق من عقل و انفلت من غلّ ، و لم يعد للشعوب العربية من حديث إلا ما حصل في بلد المصايف الجميلة ، و كيف يمكن تكرار ما حصل هناك في كل مكان يحكمه طغاة مستبدون .

تولت حكومة مؤقتة ترأسها ابن الوالي أمور البلاد ، و بدأت الشرطة و المخابرات بالعودة إلى مقراتها تدريجيا ، و في ظل هذه الحكومة "الحيادية" عاد جميع المعارضين إلى البلاد و من بينهم السيد "صائب" و هو رئيس الجمعية الإسلامية في البلاد ،

عاد مع صائب مئات الدعاة و الموجهين و العاملين في منظمات الجمعية ، و على الفور توجهوا إلى مقرات كانت معدة لاستقبالهم ، و بدأوا فوراً نشاطاتهم لحشد العامة الهائجين حول دعوات الجمعية و دعايتها .

خلال عام كامل ابتعدت أجهزة الشرطة و المخابرات و مؤسسات القمع عن الصورة العامة في البلاد ، و تركت الشوارع لقوتين لا ثالث لهما سيطرتا على كل تيارات الشعب الهائج المبتهج بما يظنه نصراً تاريخياً ، لقد تمكنتا في نهاية العام من ضبط إيقاع الشارع و تحركات العامة و حتى حواراتهم ، بفضل الدعم المالي الغير محدود و أيضاً بفضل التوجيهات و المتابعة الدؤوبة لفريق عمل البروفسور برنار ، فريق يقظ و محترف لم يدع شاذة و لا ماذة إلا اعتنى بها و رعاها بشكل تام و بدون إهمال لأصغر التفاصيل .

هاتان القوتان كانتا : الأولى منظمات الجريمة : و قادتها الذين خرجوا من السجون بعد أن تم إعدادهم لتلك الأيام كما سبق و بينت ، و القوة الثانية كانت الجمعيات الإسلامية و دعايتها و منظورها و قادتها ، و هكذا انتقلت صدارة التيارات الشعبية إلى أكثر فئات الشعب انغلاقاً و عنفاً بدل أن يتولى المتعلمون و المثقفون قيادة تيارات الشعب التي شغرت مراكزها - و لو مؤقتاً - من تحكّم الأسر الحاكمة ، تلك الأسر التي انطوت على نفسها بعد الثورة .

على عكس ما يفترض أن يحصل في بلد ثار على الإستبداد ؛ راح الإعلام يعطي صورة مغايرة تماماً للواقع في البلاد بعد الثورة ، لم يركز الإعلاميون على أحوال المعيشة و الخدمات و الأمن و الصحة و غيرها من القطاعات الحيوية ، لا على معاناتها و لا على فرص تطويرها باعتبارها سبب الثورة الأول ، و إنما كان التركيز على نشاطات الجمعية و المجموعات الإسلامية و القاعدة الشعبية التي تتبع لها ، و كأنها هي التي قامت بالثورة و كأن الشعب إنما ثار حتى يسلمها السلطة ! .

رغم أنهم هم من أشعل الثورة ، فإن الدعاة للتمرد من الملحدين و غيرهم من التيارات اللادينية انزوا بعيداً عن الأحداث ، و ذلك بعد أن أعلن عما سمي بانتصار الثورة ، لم يظهر منهم على الساحة إلا رجل واحد يدعى "عدلان" ، هذا الرجل كان من أعمدة معابد الحرية التي قادت الجاليات العربية في أوربة ، و كان قد عاد إلى البلاد بعد الثورة مع من عاد من المعارضين المنفيين .

بعد نهاية العام الأول "الانتقالي" حان الوقت لتسليم الحكم إلى من اعتقد العامة أنهم قادة الثورة و ألد أعداء الإستبداد ، و بالفعل جرت انتخابات عامة و اختير مجلس للنواب ذو تركيبة عجيبة ، إذ أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من قادة الجمعية الإسلامية رسمياً ، هؤلاء في الواقع لم يكونوا متدينين و لهم شخصيات زبئية غير محددة الإتجاهات ، هذا المجلس اختار "عدلان" وفق الدستور القديم ليكون أول رئيس جمهورية للبلاد بعد الثورة .

و بالطبع سلم الرئيس الجديد مقاليد الحكومة للجمعية الإسلامية و لرئيسها السيد صائب ، باعتبار أنهم أغلبية أعضاء مجلس نواب الشعب ، و بدأت مرحلة حكم الثوار ، و أو ما يفترض أنها فترة حكم الشعب لنفسه .

استمرت هذه الفترة أربع سنوات لم تشهد البلاد خلالها ساعة من الهدوء ، و لم تتعرض دولة المصايف إلى بؤس و أزومات و ضيق و ترد في الخدمات كتلك الفترة ، و عادت أجهزة القمع خلال هذه السنوات العجاف لتفتك بالناس بأنكى مما كانت تمارسه أيام سجاد ، بعد أن كانت هذه الأجهزة قد غابت عن الساحة لفترة ، و هذه المرة بات قمع هذه الأجهزة يتم باسم ثورة الشعب على الإستبداد ! و الأعجب أن العامة صاروا يضطهدون كل من ينتقد هذا القمع اضطهادا قاسيا و يردون عليه بأن هذه الأجهزة من الشعب و أنها ناصرت الشعب ضد سجاد و أعوانه الفاسدين !.

حكومة الثورة و باسم الشفافية و الحرية و الصدق اقتطعت سبعة أعشار الخدمات و المعونات التي كانت تقدمها حكومة سجاد الفاسدة ! و جاع الشعب فعلا و لكنه لم يكن يتذمر ! ذلك لأن الوزراء و النواب كانوا يظهرون يوميا على الإعلام و يتحدثون بإسهاب عن الخسائر التي تسببت بها أحداث الثورة و ما تلاها ، و عن تدهور إمكانيات البلاد و مواردها الإقتصادية بسبب هروب سجاد و أعوانه بمعظم أموال الشعب ، و جميع هؤلاء المتحدثين اتفقوا على جمل موحدة اخترعها لهم برنار و هي : التنمية الحقيقية تحتاج لفترة تقشف و صبر تسبقها ، حل مشاكل الفقر و التخلف لا يمكن أن يكون بعضا سحرية تقلب المعاناة و المآسي إلى سعادة و رفاهية في غمضة عين !!.

أفزع ما زادت به معاناة الشعب كان انعدام الأمن ، و توزع البلاد إلى مناطق نفوذ للمنظمات الإجرامية و مناطق نفوذ للمجموعات الإسلامية بأنواعها ، غاب القانون تماما في تلك المناطق و لم تبق منه حتى تلك الظلال التي انعكست في ظل حكم سجاد بحيث تبدو الأمور منضبطة ، فصارت السرقة تقع علنا و بقوة السلاح ، و فرضت المجموعات الإسلامية و منظمات الجريمة قوانينها و ضرائبها الخاصة على مناطق نفوذها و دون رحمة أو شفقة بأحد ، و تحولت البلاد إلى حالة مطابقة لحالة بلاد أورك في فترة ما بعد انتهاء الحرب الداخلية التي استعرضتها آنفا ، بلاد تعدمها الفوضى و الفقر و البطالة و القذارة و تفتك بأهلها الأمراض.

لم تسلم من حالة التردّي سوى المصايف و المنتجعات و التي تكاد تكون مناطق مستقلة عن البلاد ، لأن هذه المناطق قد فرضت عليها عزلة عن بقية الدولة و وضعت تحت حراسة قوية من الجيش ، و بقيت تستقبل السائحين و المصطافين الأوربيين بشكل اعتيادي و دون إزعاجات تذكر !.

خلال فترة حكومة الشعب العتيدة عاد إلى البلاد و من ثم إلى العمل قادة الأسر الحاكمة و المنظومات الإقتصادية و القمعية التي كانت تسوم الناس الخسف أيام سجاد ، عادت تلك القوى لإسترداد ما كانت قد تخلت عنه بالتدريج ، و استمر حالها

في صعود إلى أن تقرر سحب مشروع برنار من التداول بعد بداية الثورة بأربع سنوات سوداء حقا، عندها عادت السيطرة الكاملة على البلاد إلى الأسر الحاكمة كسابق عهدها بل و أشد و أكثر شراسة و اضطهادا و قسوة ، و تحت شعار آخر هو : مكافحة العنف الديني المتطرف ! ذلك أن عددا من كتائب الجيش الأسطوري كانت قد اقتحمت ساحة البلاد و قامت بأعمال أثارت ضجيجا مفتعلا و ترويعا عاما لم تشهد له تلك الدولة مثيلا في تاريخها ، رغم محدودية هذه الأعمال و هشاشة تأثيرها الفعلي .

مجلس نواب و حكومة الثورة أنجزا للبلاد دستورا عجيبا غريبا ملأنا بالتناقضات و المفارقات ، و لعل أعجب ما فيه هو أنه كان أشد إقصاء للمبادئ الإسلامية من دستور حكومة سجاد التي تبنت الإلحاد رسميا و أعلنت صراحة الحرب على الإسلام كله و لعدة عقود متتالية !.

لم تقم هذه الحكومة بتحسين أو إلغاء أي قانون مجحف ، بل على العكس زادت القوانين على عهدها إجحافا و ضبابية ، و اختلطت في الدستور الجديد كافة المبادئ و السلطات حتى ليخيل لأي قارئ ذي خبرة أن هذا الدستور من وضع رجل معتوه أو جماعة من السكارى !.

بعد أربع سنوات على حكم ثوار دولة المصايف أصدر البارون أمرا بسحب مشروع برنار من التداول و إيقافه تماما ، فانطلقت الخطة بآء بكل مفاعيلها ، فأعلن عن انتخابات عامة في بلاد المصايف برعاية الجيش "المنحاز للشعب" !.

أجريت الإنتخابات و فاز فيها ابن الوالي و حزبه اللاديني بأغلبية الأصوات ، و عاد الثوار المزعمون إلى مقاعد المعارضة ، و قبض الجميع ألسنتهم بخوف و رعب ، أعلنت الحكومة عن تبرئة معظم من سُجنوا من أركان عهد سجاد ، و استقر الأمر نهائيا لحكومة سجاد آخر هو الوزير ابن الوالي الذي فاز بمنصب رئيس البلاد بأغلبية أصوات الشعب البائس الذي أهكته الحرية و العدالة الثورية !.

استمرت الحكومة الجديدة في نفس اتجاه مسيرة حكومة الثوار ، و لم تحاول حتى أن ترمم الأمور لتعود إلى المستوى الذي كانت عليه قبل الثورة التاريخية للشعب ، لا بل حطمت حكومة ابن الوالي حطمت كل الأرقام القياسية السابقة في مجالات التدمير الممنهج لكل شيء ، فسجلت في عامين فقط أعلى معدلات البطالة و الفقر و الجريمة و فقدان الخدمات و انتهاكات الحقوق القانونية للأفراد و الجماعات و المؤسسات ، و ما تزال هذه المسيرة مستمرة إلى هذه اللحظة ، و لكن دون يتجرأ أحد على مجرد التفكير بالثورة حتى على شرطي متعجرف سارق مجرم مهما صغر حجمه و عظم ضرره و فساده .

بعد استتباب الأمر لابن الوالي التقيت عرضا بالخواجة أندرو ، و استعرضت معه بعض أحداث الزاوية الشمالية الغربية لإفريقيا ، و خلال اللقاء قال كلاما يستحق أن يسجل للتاريخ ، كلامه جاء ردا على ابني شامل الذي قال مهللا لنجاح ابن

الوالي : يا خواجه لقد تجاوزنا مخاطرة كبيرة بنجاح في بلد المصايف و في القرن الأطلسي ، و أرجو ألا يجازف جلاله البارون بمغامرة مثلها مرة أخرى .

رد الخواجه أندرو ساخرا : يا شامل بيك لا خطر من مغامرات كهذه على الإطلاق ، لأن هذه المغامرات و إن بدت في الشكل ثورات إلا أنها في المضمون ليست كذلك أبدا ، لأن الذين يقومون بها ليسوا ثوارا أبدا و لن يكونوا كذلك و لو ثاروا ألف مرة .

قلت مت دخلا و أنا أتصنع التعجب : لماذا ؟ ألم يثوروا لتغيير السلطة و فرض سلطتهم ؟.

قال أندرو بلهجة عربية مشرقية : يا مهران بيك ، لا يوجد في بلاد العرب كلها سبعة أو ثمانية ثوار ، الثائر طالب التغيير رجل راقب جيدا أوضاعا غير مرضية يعيش فيها ، و قاسها ببديهيات عقلية ، ثم هب ليغير هذه الأوضاع بالقوة ، و ليحل محلها أوضاعا مرضية استنادا للبديهيات نفسها التي حملته على الثورة و طلب التغيير .

لننظر إلى شعب دولة المصايف مثلا ، ثار هؤلاء طلبا لتغيير حكم سجاد الفاسد ، و لكنهم لم ينظروا إلى الأوضاع التي ثاروا عليها نظرة شخص عاقل يملك الحد الأدنى من مقومات العقل السليم ، إذ لا يمكن لعاقل أن يتقبل احتمال يتغير الجيش كله في عشية وضحاها من مجموعة من القتلة المأجورين إلى مكافحين شرفاء من أجل العدالة ! إن أي عاقل يا مهران بك يعرف أن الجندي المحترف مجرد قاتل مأجور قدر يقتل من أجل المال ، و أن هذا الجندي كائن همجي سادي لا يمت بصلة إلى أي خلق أو مبدأ أو عقيدة ، و يعرف أن الجندي المحترف مستعد لأن يقاتل تحت إمرة أي شخص كان طالما أن الأمر يدفع راتبا للجندي ، و أن هذا الجندي نفسه مستعد لأن يقتل أمره الحالي عندما يجد من يدفع له أكثر ، من أجل أن يكون الدافع للراتب الجديد هو الأمر الجديد .

البديهي أن جميع المستبدين في العالم لم يكن أحدهم ليحلم بحكم قرية صغيرة لولا وجود غالبية من الرعايا المستعدين لأن يقتلوا أو يقتلوا من أجل المال ، و هذا ينسحب على كافة الذين يتولون المناصب تحت حكم الاستبداد ، جميعهم مستعدون للتضحية بكل مبدأ أو خلق أو اعتقاد من أجل المال و التسلط ، و الثائر الحقيقي يعلم جيدا أن ثورته ليست سوى عبث دموي مجنون إن لم تُبد قواها خضراء كل الجنود و الضباط و ذوي المناصب الذين قام على أكتافهم حكم الاستبداد .

إن فكرة "الحفاظ على الدولة" التي زرعناها في عقول الشعب تعني بدهاة بقاء الجنود المحترفين و غيرهم من القتلة المأجورين في ثكناتهم و وراء أسلحتهم بانتظار أوامر أخرى لقتل أي كان دون أي سبب سوى تنفيذ أوامر من يدفع ! و فكرة الحفاظ على الدولة تعني الإبقاء على طواقم ذوي المناصب الإدارية الفاسدين المستعدين لفعل أي شيء من أجل المال مهما كان مصدره ، الحفاظ على الدولة يستلزم الإبقاء على هؤلاء الحشرات في مكاتبهم و مناصبهم ، هؤلاء الذي لا يباليون بما

سيفعلونه من أجل الثمن المناسب ، و لو كان ما يفعلونه سببا لهلاكهم هم أنفسهم في نهاية المطاف لأنهم لا يفكرون أبدا بعواقب أفعالهم ، و هل رأيت في حياتك حشرة تفكر بعواقب ما تصنعه على نفسها ؟!.

إن فكرة الإبقاء على الدولة و مؤسساتها تعني أيضا الإبقاء على القوانين و على قضاة عهد الإستبداد ، هذه القوانين التي ضمنت مع قضاتها حصانة غير محدودة لكل طواقم عمل حكم الإستبداد ، و ضمنت دوما أن يكون الضعيف مجرما حتى يقرر القوي تبرئته أو العفو عنه ، و ضمنت دوما حماية الأقوياء من عواقب من أي جرم اقترفوه حتى لو كان قتل أمم بأسرها ، لا بل ضمنت اعتبار هذه الجرائم فضائل عظيمة و مكرمات جليلة طالما بقي هؤلاء الأقوياء أقوياء .

ثم التفت إلى ابني شامل قائلا : يا شامل بيك ، لقد هلك شعب دولة المصايف لجيش سجاد الذي ضمن لعقود متوالية سحق عظام هذا الشعب و تحويلها إلى غذاء لإستبداد سجاد و سادات سجاد ، و لم يخطر ببال أحد من هذا الشعب بديهية بسيطة و هي : أن تحول جيش كامل من قطيع لكلا ب صيد مسعورة إلى قديسين رحماء في يوم واحد أمر مستحيل الحدوث و لا حتى في أجمل الأساطير الوردية المغرقة في الخيال ! وؤكد لك أيضا : لن تخطر هذه الفكرة أصلا في ذهن أحدهم بينما هو يهمل للجنود و يحبيهم و هم على ظهور دباباتهم يجوبون الشوارع ، عندما انحازوا للشعب ! تلك الشوارع التي يفترض بالجنود أن يحموها من الخارج بدل أن يروعوها بسنابك آلياتهم بين جنبات بيوتها .

الجنود المحترفون و بقية طواقم الحكم و أصحاب المناصب هم الآلة الضخمة التي تطرح الأمة أرضا و تمتص حقوق و ثروات و دماء أبنائها ، و المستبد هو السائق الواحد الذي يقود هذه الآلة و يشغلها و ينسق حركتها نحو المزيد من السحق للأمة ، إسقاط السائق المستبد و قتله و سحله و إحراقه و ذر رماده في البحر لا قيمة له طالما بقيت الآلة ، إذ سرعان ما سيقفز مستبد آخر إلى مقعد السائق و يشغل الآلة مرة أخرى و يعيد طرح الأمة أرضا و تبدأ جولة جديدة من العذاب و إنما تحت إسم جديد ، فكيف يكون الحال عندما يكون تغيير سائق هذه الآلة مجرد تغيير وهمي كما هو الحال في دولة المصايف و غيرها .

يا شامل بيك ، الخطة باء التي أعددناها دوما لتعيد الأمور إلى نصابها هي : غباء و ببغائية الشعوب التي تردد ما نلقيه على مسامعها دون أن تقيسه على بديهيات العقل ، إنها شعارات طنانة براقة كثيرة مثل : الوطن أولا ! سيرحل المستبدون و يبقى الوطن ! الثورة ضد الطاغية و ليست ضد الدولة ! الحكومة شيء و الدولة شيء آخر ! الجيش من الشعب ! أعوان الدولة من الشعب أيضا ! الجندي و الشرطي و قاضي العهد الإستبدادي عبداً مأمور بريء غير ملوم على ما يؤمر بارتكابه من الجرائم مهما كانت بشعة !.

لذلك كله لن أقلق يا معالي البكاوات من مائة ثورة جديدة طالما أن الرعاع هم من سيقودها و هم من سيقدر في النهاية مسارها ، لأن الرعاع هم ماشيتنا الوفية حتى و إن ثارت علينا و هاجت و حاولت نطحنها بقرونها ، فنحن نعرف دوما كيف نعيد ترويضها و حشرها في حظائرها وقتما نشاء .

خلال أربعة أشهر فقط مرّ قطار مشروع برنار على العواصم العربية التي اختيرت لتحمل الموجة الأولى من العاصفة ، كانت محطة القطار الثانية هي شمال وادي نهر أترو ، و اختيرت حادثة قتل شاب تحت تعذيب الشرطة لتُسلط عليها الأضواء و حملات الإعلام و أسست صفحة باسمه على شبكة المعلومات الدولية ، حُدد عبر منشورات هذه الصفحة يوم بداية المظاهرات ضد حكومة شمال وادي أترو الإستبدادية الفاسدة جدا جدا ، كان ذلك اليوم يُعيد الإعلان عن فرار حاكم دولة المصايف ، كل شيء كان يجري علنا و جهارا و على قدم و ساق لبداية الثورة الشعبية على حكومة عسكرية فاسدة أدارت البلاد بالحديد و النار لستة عقود متوالية ، و كانت أجهزة السلطة تراقب دون أن تتدخل لفعل أي شيء لمنع الثورة !.

مئات آلاف الشباب الذين نظمتههم مجموعات التمرد انطلقوا في اليوم الموعد ، و حصل في ذلك اليوم ما يشبه حرب الشوارع في الأحياء الفقيرة التي تغطي أكثر من ثلثي مساحة العاصمة ، حرب دارت بين مجموعات صغيرة متناثرة من عناصر الشرطة الفاسدين و المرتشين و بين شبان صغار جائعين و فقراء جدا و غاضبين جدا ، استمرت هذه الحرب لساعات قليلة تركزت في الشوارع الكبرى في العاصمة و المدن الكبرى ، و بعدها سيطر العوام على الشوارع و المخافر و معظم مفاصل صورة السلطة الظاهرية للبلاد .

في شمال وادي أترو تكرر نفس جدول أحداث دولة المصايف ، فيما عدا أن قادة الجمعية الإسلامية شاركوا في الثورة من بدايتها ، و لكن دون أن يشغلوا سوى حيز صغير من الصورة العامة لمشهد التمرد الكبير ، ذلك أن الجمعية الإسلامية كانت متواجدة بكثافة في وادي أترو كله ، و تعمل علنا رغم حظرها لأن تعليمات الخواجة موري قضت بغض الطرف عن نشاطاتها و تواجدها ، فلقد كانت تؤمن للخواجة الكثير جدا من احتياجات منظوماته لجمع الآثار و التحف ، و تقوم بتسويق معظم البضائع الخطرة كالسلاح الفردي و غيره بأمان كبير ، و بسبب هذا التواجد هذا أسهم عناصر الجمعية كثيرا في التحريض على الثورة و التمرد .

شارك في المظاهرات عشرات ملايين الناس الجائعين و الفقراء ، و كان مشهدا مهيبا يشبه ما يتخيله الناس عن القيامة ، و لم يكن أحد في بداية الأمر يزعم أنه يقود أي تحرك في الثورة ، ما عدا شاب صغير كان يدير الصفحة التي نسقت كل المظاهرات و تحركات دعاة التمرد .

قام المتظاهرون باحتلال الميدان الرئيسي في العاصمة و نصبوا فيه خياما بأئسة حقا و أظهروا صمودا كبيرا أمام محاولات يائسة قامت بها بقايا قوات الشرطة و المخابرات و رجال العصابات للسيطرة على الأوضاع .

القوات الأساسية للشرطة و المخابرات كانت قد غادرت المقرات و توزعت في مراكز جديدة و سرية بلباس مدني و تمويه كبير ، و كما حصل في دولة المصايف و بعد أن اختفت الشرطة تماما من المشهد ظهرت قوات الجيش و احتلت شوارع البلاد .

و أيضا كما في دولة المصايف ، و في يوم و ليلة و بقدرة قادر ، تحول الجيش الذي بني أساسا لقمع الشعب و قهره إلى جيش من الملائكة ! فراح الجنود يحيون الشعب الثائر و يتسلمون منه الزهور و الورود ، و راح المتظاهرون ينامون في ظل عجلات مدرعات الجيش و أصبح المشهد عاطفيا حالما قريبا من مشاهد انهيار دول المنظومة الشيوعية في أوربة الشرقية .

بعد أسابيع من بداية الثورة أعلن عن تنحي رئيس البلاد و عن تسلم قيادة الجيش لحكم البلاد مؤقتا ريثما تجري انتخابات عامة ، و بعد عام كامل و زيادة جرت إنتخابات رئاسية و نيابية و استفتاءات على الدستور ، و كما في دولة المصايف تصدرت الجمعية الإسلامية لمشهد السلطة الجديدة و كأنها هي من قام بالثورة ، أو كأن الثورة ما قامت إلا لتولية قادة الجمعية الإسلامية مقاليد الحكم !.

و كما في دولة المصايف كانت أموال الجمعية الإسلامية هي الفيصل في كل الإنتخابات ، فلقد كان أعضاء و دعاة الجمعية يشترون أصوات الناخبين بأسعار مختلفة و متنوعة ، تتراوح ما بين النقود إلى عبوات الطعام و قطع الأثاث الكهربائية ، و على الرغم من أن عدة إنتخابات عامة جرت إلا أن نظام شراء الأصوات لم يتوقف عن العمل ، و لم تغب مشاهد دعاة الجمعية الذين يتجولون في الأحياء الفقيرة حاملين صناديق الورق المقوى الكبيرة المحتشدة بالأغذية المحفوظة .

بسبب ضخامة البلاد و ضعف مواردها لم يمس على حكم الجمعية إلا عام واحد حتى بدأ الناس يتذمرون ، فأعضاء الجمعية و دعاؤها يحتقرون العامة و يعتبرونهم قطعانا من الفسقة و الفاجرين ، و لا همّ لأتباع هذه الجمعية إلا الإستيلاء على أية وظائف حكومية و إقصاء الآخرين أيا كانوا عنها ، عدا أن الجمعية لا تملك أية خطط حقيقية لتحسين الأوضاع ، و مع توقف شبه تام لأنشطة التمويلات للأسر الحاكمة قبضا و دفعا تعطلت تماما الحركة الإقتصادية ، فانهارت أسعار الممتلكات و شحت الإمدادات و ارتفعت أسعار الغذاء و تضاعفت البطالة ، و انحدرت البلاد بسرعة نحو الفوضى الرهيبة على كل الصعد .

في تلك الفترة الحرجة كان البارون قد اتخذ قرارا لا رجعة عنه بسحب مشروع برنار نهائيا من التداول و إعادة الأمور لسابق عهدها ، طبعا ليس بسبب أوضاع وادي نهر أتر و إنما بسبب ما حصل بسبب مشروع برنار في بلادنا .

بدأ تنفيذ قرار البارون في وادي نهر أترو حتى قبل أن يتوقف مشروع برنار في دولة المصايف بعامين تقريبا ، و لأن الشعب أعجبت به فكرة الثورة اقترح الخواجة موري على البارون أن يقوم الشعب بثورة أخرى على الجمعية الإسلامية ، هذه الثورة ستكون البوابة التي ستعيد شعب أترو إلى حظيرة القمع و دولة رعب الشرطة .

تحرك الإعلام كله للتحريض على الثورة ضد الجمعية الإسلامية ، و انعكست الصورة تماما ، فبدلا من مشاهد تجول دعاة الجمعية بصناديقهم المحشوة على الأحياء الفقيرة ، راحت مشاهد السيارات الفخمة التي تخترق الأحياء الفقيرة تصبح معتادة ، أصحاب هذه السيارات كانوا في زيارات عمل للقاء بقادة العامة من معلمي المخدرات و جباة الأتاوات (البلطجية) ، و بدأ توزيع الأموال النقدية على العامة و حددت عدة جولات للمظاهرات ليبدو الأمر ضغطا شعبيا متكررا ، و خلال شهرين فقط سارت مظاهرات مليونية للمطالبة بإسقاط حكم الجمعية الإسلامية ، و بعد انقضاء عام واحد تماما من حكم الجمعية قام الجيش بانقلاب عسكري و استولى على الحكم ، و انتهت رسميا ثورة شعب شمال وادي نهر أترو ، بعد إذ انتهت فعليا يوم تنحى الدكتاتور السابق و تسلم الجيش للسلطة ، و هكذا دخلت البلاد في جولة أخرى من القمع و الرعب لا مثيل لها أبدا في تاريخها المعاصر ، جولة لا تزال مستمرة و بقسوة متصاعدة إلى اليوم .

بعد الإنقلاب رزت عاصمة وادي نهر أترو و النقيت بالخواجة موري عدة مرات ، تحدثت معه كثيرا عن تلك الأحداث و عن أهدافها و عن مشروع برنار ، و لقد سألته متعجبا و باحثا عن جواب صادق :

ألا ترى أن التراجع عن مشروع برنار دون تبني مشروع آخر هو عرقلة لمشروع البارونات العالمي ، لقد استهلك مشروع برنار عقدا كاملا و تأخرت بسببه الكثير من الخطوات نحو إنجاز حكومة العالم الواحدة ؟.

أجاب موري بحدوئه المعروف و بلهجته العربية المكسرة و بلغة متأثرة دون تعمد ببذاءة لغة شوارع وادي أترو :

مهران بك ، أنت تعلم جيدا أن الناس منقسمون بطبيعة أجسامهم و ظروفهم إلى قسمين :

الأول هو الأذكىاء المتفوقون و هم الذين يفهمون مبادئ و قوانين حركة الأشياء و الأحياء من حولهم ، و هم ربما واحد من كل مائة ألف من البشر .

القسم الثاني و هم الأشخاص ناقصوا الذكاء ذوي العقول البهائية ، و هم العامة أو حتى الخاصة الذين لا يفكرون إلا في الأشخاص و الأشياء الجامدة حولهم ، و تفكيرهم يكون من خلال ما يصلهم من هذه الكائنات المحيطة بهم من تأثير مباشر ، فيتفاعلون مع هذه الكائنات بطريقة "ردة الفعل الغريزية" ، هؤلاء ليسوا أذكى بكثير من الجرذان و الفئران و غيرها من الكائنات التي تصنع الحيل المختلفة لتجد غذاءها و أمناها و تناسلها ، و هؤلاء دوما أتباع للقسم الأول .

هذا التقسيم يسري على جميع الشعوب بما فيهم شعبنا نحن عشيرة البارونات ، نحن أيضا منا عباقرة و منا عامة و رعا و بهائمون ، و لكننا نتمتع بعدد أكبر من العباقرة ، فعباقرتنا هم أكثرية عباقرة العالم الساحقة .

إن عباقرتنا أيضا يا عزيزي هم الأشد ذكاء على الإطلاق ، فلقد قادوا شعبا مشردا مشردا في أرجاء الأرض و جعلوه الطبقة الحاكمة في كل العالم ، نفس العالم الذي كان يضطهد و يحتقر هذا الشتات ، هذه العبقرية تتجلى بأدنى درجاتها في أن عباقرتنا تمكنوا من إبقاء شعبنا موجودا يتمتع بهوية لغوية و دينية و ثقافية و قانونية مستقلة عن الأمم العظيمة التي أحاطت بجاليات شعبنا على مدى ألفي عام ، و تتجلى هذه العبقرية أكثر في أن عباقرتنا حولوا أسلوبهم في الحفاظ على رعا شعبنا في انتظام و طاعة إلى علم دقيق له قواعد و أصول و بيانات و تجارب ، ثم استعملوا هذا الأسلوب في تحويل عباقرة الأمم الأخرى إلى عبيد و رعا ، فأزاحوهم ثم أخذوا مكانهم ، ثم ساسوا رعا البشر كل البشر بنفس الكفاءة و الاقتدار في قيادتهم لرعا شعبنا .

قلت : أنا أفهم هذا يا كونت موري و أعيه ، و لهذا أنا مختار جدا من تبني مشروع برنار ، و من سحبه من التداول ، هو تردد لم أفهم سببه بشكل كامل رغم معرفتي الكبيرة بما يجري و ما جرى و ما هو مخطط لحصوله لاحقا .

قال لي : لم أعهدك متعجلا ، ستفهم الآن ؛ إن فكرة توحيد العالم في مملكة واحدة سعيدة مجرد حلم أو نبوءة مكتوبة في كتب ديانتنا ، إلا أن عقول عباقرتنا الجبارة حولتها من مجرد نبوءات أو حتى أحلام إلى جدول أعمال إلزامي و إلى قانون صارم ربط كل رعا شعبنا إلى حبل واحد ، كل العامة و الرعا في شعبنا يطيعون الكهنة من عائلة البارونات طاعة عمياء و منذ آلاف السنين ، و ذلك بفضل إيمانهم بأنهم جزء من مشروع إلهي كبير هدفه تحويل الأرض إلى جنة يحكمها مخلص عادل خالد ، و هم يؤمنون بأن هذه اللجنة سيسكنها الأحياء و الأموات من شعبنا فقط ، فأموات شعبنا بحسب هذه العقيدة سيعودون إلى الحياة بعد أن يتوحد العالم كله في ظل مملكتنا .

لقد عانى العامة و الرعا من شعبنا كثيرا جدا حتى أنجز عباقرتنا هذه السلطة العالمية التي نتمتع بها اليوم ، لقد قُتل منهم الكثيرون و هجروا و أحرق الكثيرون منهم أحياء ، يا مهران بك ؛ إن شعبنا لا ينسب الأولاد إلى آبائهم لأن حماية نساءنا من اغتصاب رجال الشعوب الأخرى كانت مهمة صعبة دوما ، لقد عاش أجدادنا في خوف و رعب متواصلين على مر قرون و إلى اليوم ، بينما بقي عباقرتنا من أجداد البارونات و كهنة ديانتنا الكبار في منأى عن الإضطهاد و الذل ، و ذلك لأنهم كانوا دوما في سعة إقتصادية تكفي لحمايتهم من عوادي ظروف الشتات ، هذه السعة جاءت من الضرائب المقدسة التي دفعها عامة و رعا شعبنا برضا و تسليم لقادتنا العباقرة جيلا بعد جيل.

تضحيات رعاك شعبنا في سبيل حماية باروناتنا و كهنتنا الكبار كانت نتيجة تلك العقائد و الآداب التي غرسها عباقرتنا في نفوس العامة ، عقائد صنعها و صممها عباقرتنا من مواد أولية هي نبوءات متناثرة هنا و هناك في كتاب ديانتنا.

و لكن يا عزيزي أسألك ، إن بنينا معبدنا الموعود على أسس أوابد معبدنا القديم الذي هدمه الغزاة قبل آلاف السنين ، و إن أبرزنا رسميا دولتنا المقنعة التي تحكم اليوم فعليا كل زاوية في العالم ، هذه الدولة التي تحكم بفضل جهود عامة شعبنا و تضحياتهم و ما يدفعون من ضرائب و ما يجبون من مكاسب من الشعوب التي تخضع لهم ، إن أظهرنا دولتنا و معبدنا هل سيظهر المخلص كما يردد واعظونا و كهنتنا ليل نهار ؟ و هل ستتحول الأرض على يديه إلى جنة و سيعود أموات شعبنا للحياة ؟.

قلت مبتسما : أنت تعلم أنني أعلم أنك تعلم أن هذا لن يحصل .

قال : أنا و البارونات و كل أعضاء القيادة العليا لمنظوماتنا يعلمون جيدا أن هذا لن يحصل ، إلا أن العامة و الرعاك من شعبنا يؤمنون بيقين تام أن إعادة بناء المعبد المقدس ، و أن إمطة اللثام عن سلطتنا لتتحول إلى مملكة عالمية رسمية سيكون بداية فردوس الخلود الموعود !.

هؤلاء العامة ، بهم و بقلقهم و تضحياتهم الجسدية و النفسية و المالية تفرض سلطتنا على العالم بأسره ، هؤلاء العامة هم معظم الأسر الحاكمة اليوم في ما نسميه دول ، هم قادة المؤسسات و المنظمات و أصحاب الشركات و المصانع و المنشآت الضخمة التي تتحكم في كل شيء في هذا العالم ، هم ضباط الجيوش الكبار و قادة الأساطيل و القواعد الجوية الكبرى ، هؤلاء الرعاك هم أذرعنا و أيدينا و عيوننا و أعصابنا التي تنقل منا و إلينا و كل ما نريد.

تحيل لو أننا بنينا معبدنا ، و أعلنّا عن دولتنا العالمية ، ثم لم يحصل شيء مما ظللنا نعد به شعبنا منذ آلاف السنين ، هل سيبقى هؤلاء أوفياء لنا ؟ هل سيرحمونا ؟ الجواب قطعاً قولا واحدا : لا و كلا و بكل اللغات !.

قلت : إذا مشروع البارونات مجرد سراب صنع ليلهث وراءه عامة شعبكم بتوجيهات كهنتكم و باروناتكم ، لماذا إذا مشروع برنار و غيره من مشاريع إعادة تشكيل الشرق و غيره ؟.

قال : يا مهران بك ، ذات يوم سأل رجل أسود بريء شريطا أمريكيا أبيضاً : لماذا تريد ضربي و تطلق علي الرصاص ؟ أنا لم أفعل شيئا أعاقب عليه !. فقال له الشرطي : لأنني أستطيع أن أفعل بك ما أريد أيها الزنجي !.

العامة و الرعاع من سائر الشعوب ليسوا سوى مواشي في مزارعنا ، نفعل بها ما نشاء ، و هذه الشعوب تثبت دوما أنها ماشية غبية لا تتعلم أبدا و لا تفكر حتى بالتعلم ، إن الفرق بين البشر و الدواب هو قدرة البشر على التحليل و توارث المعارف المكتسبة من التجارب ، و لكن العامة و الرعاع لا يملكون شيئا من هذه الميزة ، و لا يجوز لنا أن نتعامل معهم إلا على أساس أنهم ماشية غبية ذاكرتها تشبه ذاكرة القطعان البرية .

انظر إليهم هنا في هذا البلد ، لقد حرضناهم على التمرد فتمردوا دون يفكروا في أية خطوة قادمة في مسار أحداث تمردهم ، ثم اشترينا ولاءهم لمهرجي الجمعية الإسلامية ببعض الطعام الذي لا يكفي أحدهم أياما قليلة ، ثم يعود لجوعه ، و بعدها عدنا لتحريضهم على الثورة على الجمعية الإسلامية نفسها و بنفس الثمن ، ثم جعلناهم يهتفون بحرارة لعودة سلطان و سباط الضباط و هم سجانوهم الفاسدون الذين ثاروا عليهم أول مرة !.

ثمن ولاء و دماء مجموعة من ألف من هؤلاء الرعاع لا يزيد عن ثمن فردة من حذائي هذا الذي أنتعله الآن ، فما المانع من أن نتسلى بهم ؟ تحركاتهم التي نفتعلها تثير خوف رعاع شعبنا من انتفاض رعاع الشعوب على سلطتنا و من عودة أيام الإضطهاد و المذابح ، و هي مفيدة لنا إقتصاديا و تقوي سلطتنا و تجدد دماء منظوماتنا ، فالمياه الراكدة تأسن بطول المكث ، و المياه المتحركة تنقي نفسها بنفسها و نسميها مياه عذبة جارية ، نحن لا نخسر شيئا مما نفعله بهم ، الجزار لا تخيفه كثرة الماشية التي سينحرها ، و لا يفرح لنجاة أي منها من الذبح و لا يحزن على ألم أي منها بسبب حد سكينه إن تثلم .

هزرت رأسي و قد فهمت تماما ، و قد امتلأ عقلي كله بفكرة واحدة و هي : التقاعد التام .

وصل مشروع برنار إلى بلادنا بعد انطلاقة بثلاثة أشهر ، أعطى برنار الأمر لمجموعات الدعوة للتمرد فبدأت بتحديد مواعيد لإنطلاق المظاهرات على صفحات شبكة المعلومات الدولية ، كانت المواعيد المضروبة كلها للعاصمة ، و لقد فشلت هذه الدعوات المتكررة في تشكيل أي تجمع أو حشد للجمهور في أي مكان ، إلا أن العاصمة شهدت بعد جهد مظاهرة صغيرة مصطنعة بشكل مكشوف ؛ استمرت لدقائق معدودة في سوق أثري قديم ، لم تحصل اعتقالات و لم يقع أي قمع للمظاهرة التي رآها معظم المتابعين معجزة إلهية حقيقية ، كما لو أن واقعا في غيبوبة مرض السكرى حرك إصبعه فجأة ، و رغم تفاهة هذه المظاهرة إلا أن برنار اعتبرها مؤشرا قويا على أن التمرد سيتم كما أراد .

جلست مع برنار بعد هذه المظاهرة في مقره في أوربة ، و حاولت أن أفهمه أن الوضع في بلادنا معقد للغاية و أن جدول الزمني للأحداث لا يمكن أن يتم استنساخه عندنا كما حصل في دولة المصايف و وادي نهر أترو ، قلت له :

الطفل الصغير في بلادنا يعرف جيدا أن الجيش و الشرطة لا يمكن أن يقفا ضد الحكومة و لا أن يقوموا بأي اضطفاف و لو مسرحي مع الشعب ، لأن العداوة بين الشعب و القوات المسلحة عداوة شخصية دينية بين كل فرد من القوات المسلحة

ضد كل فرد من الشعب ، فالجيش و الشرطة ليسا سوى تجريدة مقاتلة من أتباع الديانة السرية مهمتها الأولى حراسة تسلط أتباع هذه الديانة على البلاد ، ثم تأتي لاحقا بقية المهمات ، و الشعب يعرف أن الجنود و الشرط يضطهدون الناس بسبب الحقد الديني عليهم ، و يمارسون القمع باستمئاع و تلبية لتدينهم بتعاليم الديانة السرية و يتصرفون بوحشية تلقائية تجاه أي مؤشر للتمرد يديه أي مسلم ، و دون الرجوع لقيادة و لا لأوامر ، هم لا يقيمون المسلمين من أجل المال كما يحصل في بقية الدول العربية ، و إنما تعبدا لألهتهم و إيمانا عميقا بديانتهم ، و الناس كلهم في البلاد يعرفون أن المسلحين من أتباع الديانة السرية لن يوفروا فرصة لأي تمرد شعبي حتى يحولوها إلى نحر من دماء الشعب المسلم ، و من أجل هذا لن يستجيب أحد لدعوات التظاهر السلمي ، لأنها ببساطة دعوات للإنتحار .

أجاب برنار بسرعة و فظاظة و حسم : سأحرك المظاهرات و لو اضطر الأمر لأن أحضر المتظاهرين إلى بلادكم من بلاد أخرى !.

هزئت رأسي مستنكرا و غادرت اللقاء و أنا متأكد من هذا الرجل سيودي بمعظم ما بنيناه لعقود إلى أعماق الهاوية ، و عدت إلى البلاد بسرعة لأتابع أعمال إعدادات الجيش الأسطوري و متابعة تأسيس قواعد عسكرية جديدة له في الصحراء الفاصلة بين بلادنا و بلاد أورك بحسب تعليمات البارون الصارمة .

في أثناء تكرار الدعوات للتمرد حصل ما لم يفكر به أحد ، فلقد قام عدد من الصبيان في مدينة ذات طابع عشائري بكتابة عبارة : "الشعب يريد إسقاط الدولة" على جدران مدرستهم ، كانوا يلهون مقلدين ما يرونه على شاشات قنوات الأخبار الدولية من أحداث ؛ لكن هذه الحادثة جاءت بمثابة جبل الإنقاذ لبرنار ، فأمر فوراً قائد المخابرات باعتقال الأطفال و التنكيل بهم بقسوة و وحشية ، و فعل هذا الضابط ما أمر به برنار دون تردد ، جاء الأهالي إلى مقر المخابرات حيث أطفالهم معتقلون ، و طالبوا بأولادهم فكان رد مدير المخابرات لهم استفزازيا بشكل استثنائي و بذيء جدا ، قال لهم : "إن أردتم أولادكم فأعيدوا الزمن إلى ما قبل أن يفعلوا ما فعلوا ، أنصحكم بأن تنجبوا غيرهم ، و إن كنتم عاجزين عن إنجاب غيرهم فجيئوا إلينا بنسائكم للننجب لكم منهن أطفالا غير هؤلاء الصبيان !" . قال هذا لأهالي الصبيان الذين هم أساسا من المتعاونين مع السلطة و من أعضاء حزب قاع و من عشائر عربية معروفة بالقسوة و العصبية .

هذه الحادثة أشعلت فوراً نار الحرب و التمرد العسكري في المدينة ، انطلق شباب تلك العشائر إلى المسجد الرئيسي لصلاة الجمعة التي تلت الاجتماع ، و خرجوا من المسجد بعد الصلاة في مظاهرات ، قمعت هذه المظاهرات فوراً بالرصاص الحي و بعدها عمت الاشتباكات أرجاء المدينة ، تدخل الجيش فوراً و تلقائيا و بأوامر محلية لضرب الثائرين رغم أوامر برنار المتكررة بإقتصار مهمة التصدي للتمرد على قوات الشرطة و المخابرات ، و رغم تشديده على عدم تدخل الجيش لقمع التمرد مهما

حصل و مهما بلغت درجة الخطورة ، إلا أن قادة القطاعات العسكرية من أتباع الديانة السرية ضربوا بأوامر قادتهم في العاصمة عرض الحائط و هجموا على المدينة العشائرية الصغيرة كالوحوش الجائعة !.

اتصلت ببرنار مرارا لإقناعه بالعمل على التهدئة و لأطلب منه الضغط على القادة الروحيين لأتباع الديانة السرية لوقف تصديهم للتمرد ، و بالفعل تدخل برنار لدى هؤلاء ، و أظهروا له الإذعان في الإتصالات و في لقاءاتهم مع مبعوثيه ، علمت لاحقا أنهم في قنواتهم الخاصة أصدروا أوامر قاطعة لأتباعهم بالتزام ثلاثة أوامر حتى الموت و هي :

أولا قتل أكبر عدد ممكن من المسلمين و اختطاف أكبر عدد منهم لدى كل احتكاك بين القوات المسلحة و الثائرين المسلمين .

ثانيا عدم تقديم أي تنازل من أي نوع كان للمتمردين المسلمين و لو أدى هذا إلى ما قد يؤدي إليه .

لقد كانوا يعرفون جيدا أن برنار و كل قادة المنظومة عاجزين عن التخلي عن خدمات أتباع الديانة السرية ، و بالتالي لن يخاطروا بالتخلي عنهم ، و كانوا يعرفون أن جل ما قد يفرضه برنار هو تغيير مرسال و إستبداله برئيس آخر من أصل مسلم لا يقل ولاء للمنظومة عن مرسال ، مع الإبقاء على السلاح و القوة بيد أتباع الديانة السرية.

ثالثا تحويل جبال غرب البلاد إلى دولة حقيقية لأتباع الديانة السرية مستقلة عن سائر البلاد ، و بعيدة تماما عن الإشتباكات ، مع استمرار القتال لفرض استمرار سيطرة أتباع الديانة السرية على جميع مدن المسلمين و لو أدى هذا القتال إلى هدم كل شيء و إبادة كل الناس .

و تعليقا على هذا الأمر الثالث قال أحد قادتهم الدينيين لأتباعه من الضباط : إن جبال غرب المتوسط هي حصننا التاريخي منذ ألف عام ، حمتنا دوما الإبادة عندما كان المسلمون يتجردون لقتالنا ، و سنعيد ما فعله أجدادنا ، سنبقى على هذا الحصن سليما قويا آمنا ، و سنطلق منه كتائبنا إلى مدن المسلمين لغزوها و تدميرها و قتل كل من يتمرد فيها ، سنحول أرضهم إلى ساحة الحرب لأننا إن لم نفعل هذا صارت الحرب في جبالنا ، إن حصل هذا فستكون الأخيرة و لن تبقى منا باقية ، الأوروبيون سيتركونا فريسة لغضب المسلمين دون أن يخاطروا بدم جندي واحد من جنودهم يرسلونه لحمايتنا ، لقد فعلوا هذا مرارا و تكرارا في جميع حروبهم السابقة ضد المسلمين ، و سيفعلونه اليوم .

عملا بهذه الأوامر و خلال الأسبوع الأول من الإشتباكات جابت سيارات تحمل المكبرات في أرجاء قرى أتباع الديانة السرية في بلادنا و في دولة الجبل الأبيض ، هذه المكبرات كانت تكرر هذه العبارة : "أيها الناس لقد تجرد المسلمون لإبادتكم فاستنفروا دفاعا عن أرواحكم" .

لقد تصرف برنار في بلادنا برعونة غريبة ، فلقد تجاهل أمرا خطيرا جدا كنت قد ناقشته طويلا مع البروفسور برنارد ، اقتنع برنارد بخطورة ما نهت إليه إلا أن برنار لم يصغ أيضا لبرنارد و أصر على الإستمرار .

ما شرحته لبرنارد كان باختصار الإنقسامات العميقة بين أتباع الديانة السرية ، إذ ينقسم هؤلاء إلى قسمين :

الأول هم الشرقيون و هم الدرجة العليا ، و هؤلاء من أحفاد الذين أسسوا دولة الديانة السرية في إفريقيا و في وادي نهر أترو ، و هم أقرب دنيا إلى ديانة البارون ، و هم الذين يتسلمون المراكز العليا في قيادة كافة أتباع الديانة السرية في العالم ، و هم يعتقدون بأن روح الإله الخالق تحل في قائدهم الأوحد حفيد سلالة المعصومين الأئمة المكتومين ، هؤلاء قلة في بلادنا و لا يتسلمون مراكز عسكرية في الجيش و الشرطة و إنما يستولون على النشاطات التجارية و السياسية في البلاد و في بلاد الجبل الأبيض ، و في جميع دول الجوار بنسب متفاوتة .

القسم الثاني هم أتباع الديانة السرية الغربيون ، و هم الدرجة الدنيا ، و معظم أتباع هذه الديانة في بلادنا منهم ، هؤلاء جميعهم منتسبون للجيش و الشرطة و المخابرات ، و لا يعرفون شيئا عن المنظومات و عملها ، لأن أحدا منهم لا يصعد فوق مستوى القيادات الميدانية ، و هم تلقائيون في حقدهم على المسلمين ، إذ ارتبط المسلمون في مخيلتهم بذكرات آبائهم السوداء عن الفقر و الإستعباد و الإضطهاد ، فلا تجد واحدا منهم يتردد في نحر أي مسلم بيدي أي تمرد على تسلط أتباع الديانة السرية .

قلت لبرنارد عن هذا القسم الثاني : إن أي شخص من هؤلاء مهما علا أو نزل لن يوافق أبدا و لو على تبديل صوري أو تمرد صوري للقوات المسلحة ضد مرسال أو أسرته ، لأنه سيرى أن هذا سيكون منزلقا نهايته التخلي عن كل أزيمة السلطة للمسلمين ثم عودة نير الإستعباد أو حتى خطر الإبادة الشاملة إلى مداهمة أتباع الديانة السرية جميعا ، سيعرقل هؤلاء تطبيق برنار لخطة تمرد بلد المصايف و وادي أترو ، و لن ينصاعوا و سيتسببون في فوضى عارمة لن يستطيع أحد على وجه الأرض أن يتحكم بها لاحقا .

ضرب برنار بالتحذيرات عرض الحائط ، و أصدر تعليماته المشددة بكبح جماح الجيش ، و رغم أن القيادة في العاصمة كانت تكرر تعليمات برنار على قادة القطع العسكرية إلا أن هؤلاء القادة كانوا يشتبكون في حرب حقيقية مع أي تجمع متمرد للمسلمين ، و دون حدود لقواعد الاشتباك .

رغم التعتيم الإعلامي على الاشتباكات الحربية إلا أن أخبار الحرب في المدينة العشائرية انتشرت ، و استدعت ثورانا شعبيا عفويا للمسلمين في ريف تلك المدينة ، و اندلعت المظاهرات في مناطق الأرياف ، ثم تطورت إلى اشتباكات و التحق المقاتلون العشائريون بأقاربهم في المدينة ، و صار التعتيم أكثر فشلا .

كان الجيش يقتل المسلمين في تلك المنطقة بوحشية لم يستغربها أحد في بلادنا ، و لم يفاجأ بها إلا برنار العنيد ! هذه المعارك و المظاهرات استدعت مظاهرات أخرى في مدن ريفية عشائرية شرق البلاد ، و بعدها اندلعت مظاهرات في وسط البلاد ، كانت سمة هذه المظاهرات العامة أنها عفوية يطلقها الشباب الذين ملؤوا الإستعباد و الفقر و الإضطهاد لجرد أنهم مسلمون ، كان التجمع لصلاة الجمعة هو الفرصة المواتية لإطلاق المظاهرات ، و بعد كل صلاة جمعة كان الشباب يطلقون اهتافات المنددة بالحكم و جنوده و تأييدا لمقاتلي العشائر .

بعد أن شعر برنار بانفلات الأمور أصدر قرارا بإطلاق حملة إعلامية كبيرة تأييدا لتمرّد المسلمين في بلادنا ، الحملة كانت مخادعة و ذكية جدا فلقد تجنبت كل أجهزة الإعلام المشاركة فيها ذكر أي إشارة للحرب الدينية و الإنقسام الديني في البلاد ، و راحت تكرر بإصرار أن الثورة في بلادنا نسخة أخرى عن ثورة بلد المصايف و وادي أترو ، ثورة من أجل المطالب الإقتصادية و من أجل إقامة حكم تعددي غير استبدادي يشارك فيه جميع أبناء البلاد بغض النظر عن ديانتهم.

جذبت هذه الحملة تقريبا جميع الشباب الثائرين المسلمين إلى شعاراتها ، و جذبتهم إلى صفحة أنشأها برنار على الشبكة الدولية ، و لتكتمل الصورة ظهر على واجهة الأحداث أحد شيوخ النسخة النجدية من مهاجري بلادنا على محطة تلفزيونية تتبنى النسخة النجدية و تعلن الحرب الإعلامية على الديانة السرية بكافة صنوفها ، و راح هذا الشيخ يصدر التعليمات و التوجيهات للمسلمين في استعراض بيت كل ليلة خميس على الهواء مباشرة ، هذا الشيخ كان من ضباط المخابرات التابعة للأسرة الحاكمة للجزيرة العربية.

بالعودة إلى دعاة التمرد الذين يتبعون لغرفة برنار نجد أنهم قد فشلوا في إطلاق أية مظاهرة رغم كل ما فعلوه و قدّم لهم ، و لكنهم قفزوا بسرعة إلى صدارة المظاهرات بعد انطلاقتها العفوية و ذلك بفضل ما لديهم من تجهيزات و معدات اتصال و حصانة مستترة من الاعتقال ، و بعد أن سيطروا على المشهد وجهوا كل الثائرين إلى التزام تعليمات هذا الشيخ و تلك الصفحة الإلكترونية ، و طبعا إلى اتباع تعليمات نجوم عروض الحوارات التلفزيونية على قنوات الأخبار الدولية التي شنت حملة تأييد للثورة الشعبية على الإستبداد شرقي المتوسط ، هؤلاء النجوم كان الإعلام يسميهم "قادة المعارضة" ، و هم أشخاص أعددهم في فترة سابقة تحدثت عنها مطولا في هذه المذكرات .

بعد أسابيع قليلة توسعت المظاهرات و لكنها فقدت عفويتها بسرعة ، و تحولت ما يشبه الإستعراضات الإنتحارية ، و ذلك بفضل شعار "إحتجاجات غير عنيفة" الذي تبنته كل قنوات برنار للتوجيه الإعلامي آنفة الذكر .

في معظم مدن البلاد الصغيرة و مناطق الأرياف العشائرية راح الشباب المسلمون يشاركون في مظاهرات حاشدة ضد الحكم ، و كانوا لسذاجتهم و اشتياقهم للخلاص يسعدون لرؤية مقاطع مصورة قصيرة لتلك المظاهرات تبث على المخطات

التلفزيونية في نشرات الأخبار ، و ينسون أن كل مقطع من هذه المقاطع كلفهم حياة أحد أقاربهم أو أصدقائهم أو جيران الحي سقط برصاص أتباع الديانة السرية ، و ينسون أنهم يقابلون الرصاص بلحومهم مجرد أن يحتشدوا في الطرق حتى يلتقطوا هذه المقاطع و يبثوها على شبكة المعلومات الدولية !.

تعاضم نفوذ شيخ النسخة النجدية على العامة ، و لقبه إعلام البارون روبرت بـ "غاندي الجديد" ، كان يكرر في كل ظهور له على القناة ليلة كل خميس : اخرجوا في مظاهرات مليونية و إياكم و العنف ، لا للعنف لا للقتال !.

عندما رأى قادة قطعات القوات المسلحة أن المسلمين اختاروا الإنتحار قرروا انتهاز الفرصة ، فبدأت تجريدات منهم تغزو القرى و الأرياف و الأحياء و تدهم البيوت و تخطف النساء و تقتل الشباب و تغتصب الفتيات و تنهب ما تجد ، حتى و إن لم يكن سكان هذه المناطق ممن تمرد أو شارك في المظاهرات ضد الحكم ، كانت هذه التجريدات تشبه حملات التأديب التي كانت تشنها جيوش العصور الوسطى على المناطق المتمردة على سلطان الحكام .

لم تمض على الأحداث عدة أشهر حتى فوجئ الجميع بتمرد ضباط مسلمين مع قطعتهم العسكرية في منطقة ملاصقة لجبال الشاطيء الشرقي للمتوسط ، هذه المنطقة كانت تتعرض لحملة تأديب كالتى ذكرتها آنفا ، هذا التمرد كان صغيرا و لكنه كان موجعا جدا فلقد أباد المتمردون أكثر من مائة من جنود و ضباط الجيش من أتباع الديانة السرية ، و أظهر هذا التمرد أن الصراع في بلادنا ديني بامتياز ، و إن رغم ما يتمسك به برنار ، كان تعليقي على الحدث : الآن دخل كل شيء نفق اللاعودة .

تداعت بعد هذا التمرد الكثير جدا من وقائع التمرد في الجيش و المخابرات و الشرطة ، و راحت القوات المسلحة تتفتت كصخرة كبيرة تعرضت لضربة مطرقة ضخمة بيد حجار ماهر قوي ، و راح الضباط و الجنود المتمردون يستولون على الأرياف و المناطق النائية في المدن الصغيرة ، و صبّوا جام غضبهم على أتباع الديانة السرية قتلا و تنكيلا إنتقاما مما يفعله أتباع هذه الديانة بالمسلمين .

مع هذا لم يتراجع برنار عن عناده و رغم تأخره كثيرا عن جدول الزمني المحدد عاد و أعطى أمرا بالبداة المرحلة الثانية من الخطة ، كانت هذه المرحلة تقضي بإقصاء مرسال عن واجهة الحكم و تنازله لمجلس يضم قادة القوات المسلحة كما حصل في دولة المصايف .

وافق قادة أتباع الديانة السرية الشرقيون و أبلغوا برنار بأنهم جاهزون لترتيب نقل السلطة ، كان يمثلهم في قيادة القوات المسلحة ضابط كبير من الغجر يتأس أجهزة المخابرات ، و كانوا يسيطرون على كل ضباط القيادة العليا للقوات المسلحة

بكل صنوفها ، لذلك لم يشك برنار للحظة بأن خطته ستعرقل عند هذه النقطة ، و كانت الحملات الإعلامية مستعدة للإنتلاق لتغطية "انتصار الشعب" .

جاء قرار برنار هذا بعد مضي عام تقريبا على بداية الإشتباكات ، و بناء على تعليمات برنار اجتمعت قيادة القوات المسلحة في مقر قيادة الجيش دون حضور مرسال أو أحد من أسرته ، و كان الإجتماع مخصصا لوضع الترتيبات العملية لإقصاء مرسال و تعيين البديل عنه و هو الرئيس الفعلي لأركان الجيش كان ضابطا طاعنا في السن من أصل مسلم .

بعد اكتمال النصاب في غرفة الإجتماع داهمت مجموعة من الضباط الكبار من أتباع الديانة السرية الغربيين (الأتباع) مقر الإجتماع بمفاجأة أدهشت الجميع بمن فيهم أنا ، قتلوا فوراً رئيس الأركان الذي كان سيتسلم واجهة الحكم و عددا آخر من الحاضرين ، و اعتقلوا البقية و هم من غير المسلمين أو ممن أمهاتهم من أتباع الديانة السرية و سيقوا جميعا إلى قبو وزارة الدفاع المحصن .

اتصل قائد العملية . البريغادير نجم . بغرفة العمليات التابعة لبرنار و بالجنرال وولتر ، و قال في اتصاله : إن استبدال مرسال يعني أن كل أتباع الديانة السرية سيغادرون البلاد بأسلحتهم و أموالهم لاجئين إلى أراضي جارتنا اللدود ، و هذا الأمر نهائي غير قابل للنقاش .

هذا الخبر وقع على برنار كالصاعقة ، اتصلت به بعد ما حدث و قلت له : إن الإعتماد على طاعة أتباع الديانة السرية الشرقيين خطأ كبير ، هؤلاء لديهم القدرة دوما على التمويه و الإختفاء و لا يخشون من تبدل واجهات الحكم لأنهم يعرفون حقيقة ما يحصل ، علاوة على أنهم في بلادنا بعيدون عن القتال و الثكنات ، و لن يصغي إليهم الغربيون حين يتعلق الأمر بالمصير إذ لن تتقبل عقولهم أبدا فكرة العودة إلى حكم واجهته من المسلمين و لو كان هذا الحكم كله خاضعا لهم ، هم يرون أن هذا سيجري عليهم بحرا لجا من عامة المسلمين أذمن على احتقارهم و كرههم و عداوتهم ، و لن ينتهي الأمر إلا بعودتهم إلى سابق عهد الإذلال أيام الإمبراطورية التركية .

قال لي بصوت هادئ : أخشى أنني لم أحسب هذا الحساب بشكل صحيح ، و لكنني أظن الأمر يمكن تدييره .

فور إبلاغه بما حصل أمر البارون بالتعقيم الكامل على الأمر ، و دعى لإجتماع مفتوح في قصره في سويسرا ، دعي إلى الإجتماع عدد من المستشارين و بينهم برنار و برنارد و زعيم الديانة السرية الشرقية و عدد من قادة الديانة السرية الغربية في أوربة من بينهم رفاعة ، الموضوع الوحيد على جدول الأعمال كان البحث عن جواب لسؤال واحد : هل يمكن إقناع أتباع الديانة السرية في بلادنا بتغيير واجهة السلطة مع الإبقاء على كل شيء كما هو ؟.

التقارير كلها كانت تشير إلى أن هذا مستحيل تماما ، و بدا خلال الإجتماع أن جميع قادة الديانة السرية بجناحيها يتفهمون تماما الرعب الذي يعانیه أتباعهم و الذعر الذي انتشر بينهم منذ بداية الثورة ، هم يعرفون أن أتباع هذه الديانة تربوا منذ نعومة الأظفار على أساس أن كل أنواع الشدائد و البلايا أهون من تحكّم المسلمين بهم ، و أن السبيل الأسرع لعودة هذا التحكّم هو شعور المسلمين - و لو وهما - بأن دماءهم معصومة من أن يستبيحها أتباع الديانة السرية .

إحصائيات الصدمات و أعداد القتلى من جنود و ضباط الديانة السرية بخطها التصاعدي و اتساع رقعة الإشتباكات أكدت أن مخاوف أتباع الديانة السرية لن يهدئها شيء إلا العودة إلى ما قبل عهد التمرد ، كانت هذه هي إجابة السؤال .

هذه الإحصاءات دلت بما لا يدع مجالا للشك أن أتباع الديانة السرية انطلقوا في سياسة إما قاتل أو مقتول في كل اتجاه كالوحوش الجائعة لدرجة أنهم حاصروا ضربوا المدينة التي يقطنها أتباع الديانة السرية الشرقيين بالمدفعية ، هذه الإحصاءات أكدت أيضا أن المسلمين بدروهم قد بدأوا بالرد المناسب بحسب قدراتهم.

كانت تقارير كثيرة قد تحدثت أيضا عن تشقق عمودي في كل البلاد حتى ضمن مناطق أتباع الديانة السرية ، فلقد صار كل حي و شارع كيانا مستقلا تحكمه عصابة من رعاك مسلحين لا يحترمون قانونا و لا دينا و لا سلطة ، و لا يمكن أن يُعادوا إلى حظيرة الدولة إلا بحرب جارفة من جيش خارجي ضخم لا يرحم و لا يتسامح مع العصيان .

شاركت في الإجتماع بمداخلة قصيرة قلت فيها : إن أقرب مثال يوضح حالة أتباع الديانة السرية هو :

تخيل لو أن سجيننا حكم عليه بالإعدام و وجد نفسه محبوسا مع أقارب القاضي الذي حكم عليه بالموت و مع أقارب الجلاد الذي سيقطله ، و كان هذا السجين مسلحا و هؤلاء المحبوسون عزلا ، ما الذي سيفعله ؟ بالطبع سيقول أنا مقتول على كلا الحالين و سأقتل قاتلي بقتل أحبابه قبل أن يقتلني ، ثم سيبيد هؤلاء العزل إن استطاع .

إن أتباع الديانة السرية من الغربيين متأكدون من ثورة المسلمين على حكمهم هي حكم حتمي بإعدامهم جميعا ، و لن يصغوا إلى المزاعم بالتزام المسلمين بالوحدة الوطنية و التعايش تحت سقف الدولة ، لأن أتباع الديانة السرية أنفسهم قد استعملوا هذه الشعارات سلما لسحق المسلمين و سلبهم بلادهم و أموالهم و كرامتهم و حتى أطفالهم ، و هم أيضا متأكدون من الأوروبيين لن ينصروهم بجيوشهم و لا بقواتهم لأنهم تخلوا عنهم مرارا في الماضي و تركوهم فريسة للمسلمين و لم يراعوا عهدهم و حلفهم ، و يعرفون أن أوربة و أمريكا لن تستقبلهم كلاجئين لأنهم مجرد حثالة من قطاع الطرق الذين لا يرون حرمة لشيء .

قاطعني برنارد قائلا : بالتأكيد فأوربة ليست بحاجة إلى أمة ضخمة تعتبر القتل و الرشوة و الفساد و اللصوصية و سرقة لحوم البشر تدينا و فضائل ، بحسب مدن أوربة ما تلقاه من ويلات مهاجري أوربة الشرقية ، في النهاية تبقى أوربة مقرنا الهادئ و مسكننا الذي يجب أن يبقى وادعا إلى الأبد .

وافق الجميع على قتلته و على تعليق البروفسور برنارد ، كان واضحا أيضا أنهم جميعا بما فيهم البارون غاضبون جدا من برنار و رعوثته و عناده .

التفت إلي البارون في حركة لجذب الإنتباه و سألني : لو كنت مكان برنار في بداية الأمر ماذا كنت ستفعل ؟.

قلت بهدوء و حزم : كنت سأتحلى عن فكرة إشعال ثورة في بلادنا بعد الفشل المتكرر في إطلاق احتجاجات على طريقة بلد المصايف ، و ما كنت لآمر باعتقال الصبيان و لا بالتعرض لكاتبي الشعارات ، و كنت سأكتفي بأربعة دول عربية اشتعلت فيها الثورة و أركز عليها لأجعلها منطلقا لنقل الثورات إلى ما جاورها ، و كنت سأترك بلادنا و الجبل الأبيض و باريسا إلى نهاية المطاف ، و لكن البروفسور مستعجل على غير عادة عشيرتكم العظيمة .

هز البارون رأسه موافقا على كلامي و قد بدت على محياه معالم الغضب الشديد ، ثم غادر الإجتماع و استدعى عددا من أقاربه لاجتماع مغلق استبعد عنه برنار ، و في اليوم التالي استدعى الحاضرين في الإجتماع الأول و قال بصوته الأجش :

إذعار أتباع الديانة السرية إلى درجة حملهم على التمرد علينا خطأ قاتل في وقت قاتل ، هؤلاء الناس حملوا و يحملون أعباء جميع منظوماتنا في العالم الإسلامي ، و دفعهم لليأس و التمرد قد يدمر المنظومات التي جهد أجدادنا آلاف السنين لبنائها و تشغيلها .

أما التخلي عن الدعم العلني لحركات التمرد سيأتي برد فعل عكسي للعامة من المسلمين ، قد يهيج بحرا ضخما من الجائعين لا قبل لأحد بإيقاف جنونه و تدميره ، ما سنفعله هو إيقاف مشروع برنار في الدول الأربعة الباقية ، ثم تفعيل الخطط الاحتياطية لإعادة الأمور إلى سابق عهدها قبل التمرد بسلاسة و تدرج و تأني و دون حروب كبرى .

أما تمرد شرق المتوسط فسيستمر و لكنه سيتحول إلى حرب أهلية طويلة الأمد ، ستكون تلك البلاد بمثابة جرح الكيّ الذي يجتذب كل المزعجين من الشباب الإيجابيين الذين لا يترددون في الفعل من أجل التغيير ، سيقتلون هناك و سيطويهم تراب تلك البلاد و سيحرم أحباؤهم من معرفة مصيرهم ، و سنؤجل البحث في مصير تلك البلاد إلى وقت لاحق ، الآن يجب تفادي تقسيم البلاد و تفادي استيلاء المسلمين على مناطق أتباع الديانة السرية ، و يجب تجنب تغيير واجهة الحكم ، و منع ظهور أية قيادة شعبية للمسلمين تحت أي ظرف كان و مهما كلف الثمن ، و سنطلق لهذه الحرب عفارتنا من قماقمها بعد أن أطلقنا أبخرة استحضر هذه العفارت . انتهى كلامه بحذافيره .

عبارة البارون الأخيرة كان يشير فيها إلى الجيش الأسطوري بفروعه من أتباع النسخة النجدية بأنواعها ، النسخة التي تتبع لمشايخ الأسرة الحاكمة في الجزيرة ، و النسخة التي تتبع لمنظمة فراس و النسخة التابعة للجمعية الإسلامية بأفرعها ، و هؤلاء جميعهم كان لهم حضور في كافة أرجاء مناطق المسلمين ، و تعاظمت شعبيتهم بعد فشل المظاهرات المليونية في تغيير أي شيء أو إجبار الحكم على تقديم أي تنازل هذا عدا عن الأمل العارم لفقد عشرات آلاف القتلى و المخطوفين من المسلمين الذين سقطوا كالعصافير في مهرجانات الإنتحار الجماعية التي سميت بـ "المظاهرات الشعبية" أو "الإحتجاجات المسالمة الحضارية" !.

أيضا كان أعضاء و قادة المنظمات الإجرامية من مهربين و تجار مخدرات قد تم إعدادهم جيدا ، و لقد أعطى البارون أمرا فوريا بإطلاق هؤلاء العفاريت جميعا من معاقليهم في معتقلات و معسكرات الجيش و المخابرات حول عاصمتنا ، عدد كبير من قادتهم كان قد أطلق فعلا و بدأ بالعمل بعد شهرين فقط من اندلاع الحرب في المدينة العشائرية مهد "الثورة" كما أسمتها محطة "فجع" التلفزيونية .

أما عن قيادة الجيش التي كان أكثر أعضائها سجناء في قبو وزارة الدفاع فلقد أحيوا جميعا إلى التقاعد ، و أعلن أنهم سقطوا قتلى في هجوم إنتحاري شنه أحد أعضاء منظمة فراس ، كان أول هجوم إنتحاري يعلن عنه في تلك الحرب ، هذا الإعلان كان التمهيد الإعلامي لحقن الجيش الأسطوري في مناطق المسلمين ، فلقد جعل هذا الإعلان أتباع النسخة النجدية ملائكة الخلاص و جنود الإله المنقذين في عيون المسلمين ، كان تعليق معظم المسلمين على الخبر : يا لهم من أبطال و مؤمنين ، لقد أبادوا قادة العدو و وصلوا بشجاعتهم إلى قلب الوحش و قطعوه .

لم يكن ذلك قلب الوحش ، و لم يكن أتباع فراس أبطالا ، و كل ما حصل هو أن المسلمين الثائرين في بلادنا ابتلعوا طعم البارون كالعادة .

عندما سمعت قرار البارون بشأن بلادنا و حديثه عن إطلاق عفاريته عادت ذاكرتي إلى الوراء لأكثر من ستة عقود ، عندما كنت طالبا في المدرسة الحربية الأوربية ، في تلك المدرسة درست علما حربيا معروفا هو : "الإستخبارات" .

في أول يوم في الصف المخصص لدراسة هذا العلم حضر إلينا مدير المدرسة ، كان جنرالا عجوزا ، ألقى علينا الدرس الأول من هذا العلم الحربي الخطير ، من شدة تعجبي من ذلك الدرس لا زلت أذكره حرفيا ، قال الجنرال الكونت بيرس :

الحرب هي صراع بين قوتين محتشدتين ، هما طرفا الحرب ، لدى كل منهما سلاح و خطة للقتال ، لدى عناصر استخبارات الحرب من كلا الفريقين عمل أساسي هو : الإطلاع على خطط العدو و قدراته التسليحية ، و بالمقابل إطلاع العدو على خطط و معلومات مضللة عن القوات الصديقة ، و بث روح اليأس و الخوف و البلبلة في نفوس جنود قوات الخصوم .

هذا التعريف القديم التقليدي تجاوزناه منذ قرن و نصف ، و إن كنا لا نزال نسمح بتدريس علوم الإستخبارات على أساسه في كليات الحرب التي يؤمها أبناء العامة ، أما تعريف الإستخبارات في مدرستنا التي يدرس فيها أبناء عشرتنا فهو :

الحرب هي صراع بين قوتين محتشتين هما طرفا الحرب ، يتبادل فيها المتحاربون القذائف و الضربات ، مهمة عناصر استخباراتنا هي أن يتولوا قيادة جيش العدو و يحولوا ضربات هذا الجيش و قذائفه إلى صفوف جنوده و ضباطه و إلى صدور الشعب الذي يفترض بهذا الجيش حمايته ، و بذلك تصير الحرب من طرف واحد فقط ، هو الطرف الذي يطلق الضربات و القذائف ، هذا الطرف هو جيشنا و جيش العدو أيضا ، أما الطرف الذي يتلقى الضربات و القذائف فهو : جيش العدو و شعب العدو فقط ! و بهذا فإن قتلى الحرب و جرحاها و مهجروها و منكوبوها ليسوا حتما من شعبنا و لا من جيشنا و لا من حلفائنا الأوفياء ، و إنما هم جميعا من طرف العدو فقط .

هذا سيكون عملكم أيها السادة ، بل و أكثر من هذا ستقومون بصناعة جيوش من الشعوب المعادية ، و ستقودون بأنفسكم هذه الجيوش ليقتل جنودها بعضهم البعض ، و ليدمروا مدن شعوبهم و قرى أوطانهم و يسحقوا عظام أقاربهم و أطفالهم و هم يهتفون لكم بطول الحياة و كثرة التعظيم و زيادة الأمجاد ، و هم سيقبضون منكم أجرتهم على عملهم هذا ، و ستكون هذه الأجرة فتاتا لا يكفي أحدهم ليحيا في رفاه كلاب حدائقكم و قصوركم !.

بعد سماع هذه الكلمات وقفت مع طلاب الصف مذهولا من كلام الجنرال ، أدينا له التحية العسكرية نابعة من قلوبنا تعبيرا عن سرورنا و إعجابنا بما سمعناه منه مما لم يخطر مثله ببالنا أبدا و لو قرأنا آلاف الكتب .

كان ما قاله الجنرال الكونت بيرس في تعريفه لعمل المخابرات هو قانون عملي الرئيسي الذي صببت كل أعمالي في خدمته ، لقد صنعت مع رفاقي جيوشا كثيرة و حروبا كثيرة من هذا النوع في جميع البلاد العربية و الإسلامية ، كل ضحايا تلك الحروب كانوا من العرب و المسلمين ، و كل مكاسب تلك الحروب كانت من نصيب شعوب أوربة و حكامها البارونات الموقرين الحكماء المنحدرين من أصلاب الرافدين في الجبل المقدس .

لقد أمر البارون باستحضار كل عفاريت منظوماتنا لتعمل في الحرب الدائرة في بلادنا ، لأن هذه الحرب كانت قد انطلقت حربا حقيقية حسب التعريف الطبيعي الذي ذكره لنا الجنرال في تلك المحاضرة الآنف الذكر ، أي أنها حرب بين طرفين يتبادلان القتل و التكيل ، و هذا ممنوع تماما و لا يمكن السماح بحدوثه أو باستمراره ، هذا ما استدعى حشد كل القدرات لإعادة مسار الأمور إلى سياق التعريف الثاني المذكور في محاضرتنا العتيدة ، هذا السياق الذي لم تشذ عنه حرب واحدة قامت على وجه الأرض منذ نهاية الحرب الأوربية الثانية ، فإذا عفاريت البارون التي استحضرتها إلى بلادنا لها عمل واحد هو

: تحويل الحرب في بلادنا إلى حرب من طرف واحد ، فيها جيشان متحاربان لكن سلاح الجيشين موجه إلى صدور جنود جيش المسلمين ، و إلى لحوم شعب المسلمين و إلى بيوتهم و طرقهم و أطفالهم و نسائهم دون غيرهم .

هذه العفاريت كانت قد خدمت في كافة حروب الجيش الأسطوري المتتالية التي صنعناها ، و في كل الثورات و الهزات التي استحدثناها على مر أكثر من ستة عقود خلت .

أول العفاريت التي أحضرها البارون إلى بلادنا كانت الجمعية الإسلامية التي عادت للساحة بعد طول غياب ، فبعد أن بدأت الحرب رتب البارون عدة مؤتمرات لما نسميها بـ "المعارضة" ، معظمها عقد على أراضي جارتنا الأم الشمالية ، هذه المؤتمرات أفرزت تشكيلات سياسية خَلبية مضحكة ، فمثلا أسس في أحد هذه المؤتمرات "مجلس ثوري شعبي" ، أعضاء هذا المجلس يمثلون نظريا مختلف مناطق المسلمين في البلاد ، كان رئيس هذا المجلس ملحدا ! و المتصرفون فيه كلهم من أعضاء الجمعية الإسلامية ، و جميع هؤلاء يحصل على المال اللازم للمعيشة من مكتب ضابط مخبرات يتبع لإحدى الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية ، و يتلقون التعليمات المباشرة من ضابط مخبرات في جيش جارتنا الأم الشمالية !.

لم يكن لهذا المجلس من عمل سوى خداع قادة الحرب المسلمين و جذبهم للفتح ، هؤلاء القادة كان معظمهم في حينها من العسكريين المسلمين الذين تمردوا على جيش مرسل ، الأمر الذي ساق هؤلاء المحاربين للفتح هو أنهم كانوا مقتنعين بفكرة بثها الإعلام مرارا و تكرارا على أنها بديهيّة لا تحتاج لبرهان ، مفاد هذه الفكرة : "إن العسكري مهما علا شأنه و ارتفع فهو خادم للشعب ، و السياسي هو ممثل إرادة الشعب ، فلو أراد العسكري أن يعمل لما فيه مصلحة الشعب فإن عليه أن يتعامل مع المؤسسات السياسية على أنها صاحب قرار الحرب و السلم ، و هي وحدها من يحدد أهداف الحرب النهائية و المرحلية" !! بعبارة أخرى العسكريون المسلمون كانوا يؤمنون بأنهم قد تمردوا على حكم العسكريين فالواجب أن لا يُحلوا محلهم حكاما عسكريين جددا ، و الواجب عليهم أن يطبقوا على أنفسهم أولا ما يؤمنون بأحقّيته و ما ثاروا و قاتلوا من أجل فرضه ؛ أي فرض سلطة السياسي المدني على القائد الحربي !.

و لهذا اتجه عدد من الضباط المسلمين المتمردين إلى جارتنا الأم لطلب العون ، فكان أن وجهتهم مخبرات جارتنا إلى هذا المجلس السياسي العجيب و طلبت منهم التعاون مع زعمائه ، ثم انتهى الأمر بأن وجد هؤلاء الضباط أنفسهم بأمرة شخصيات قيادية منفية من الجمعية الإسلامية لم يروا بلادنا منذ عقود و لا يعرفون شيئا عن أوضاعها الحالية !.

في البداية قدّم قادة الجمعية الإسلامية كل ثنائهم و صدحت أبواقهم الإعلامية مادحة الضباط المتمردين ، ثم قدموا هؤلاء الضباط حقائب مليئة بالنقود لتمويل تشكيلاتهم التي كانت تقاتل جيش مرسل في كل أرجاء بلادنا ، و لكنهم أرفقوا مع

هذه الحقائق تعليمات صارمة بعدم استهداف أحياء و قرى أتباع الديانة السرية تحت أي ظرف ، و كان من جملة ما برروا به هذه التعليمات ما يلي :

"إن كانت الحكومة في بلادنا تمارس التمييز الديني ضدنا ، و تمارس الحرب على المسلمين لمجرد أنهم مسلمون ، فهذا ليس مبررا لنا لنكرر ممارساتهم ، إن انتصارنا في هذه الحرب يعتمد على التعاطف الدولي معنا ، و هذا التعاطف سيتحول إلى عداء لقضيتنا إن رددنا على أتباع الديانة السرية ممارساتهم بالمثل و استهدفنا مناطق سكنهم و هدمناها كما يفعلون هم بمدننا و قرانا ، إن مجلسنا الثوري يعمل على إنجاز إنتصار سياسي و دبلوماسي دولي على حكومة مرسال ، و سنقضي عليه بجرمانه من الموارد و من الإعتراف الدولي و سيسقط دون حرب في فترة لاحقة بسبب التجفاف ، إن أي تحول لمسار قتال المحاربين المسلمين باتجاه مناطق سكن أتباع الديانة السرية سيعني عرقلة عملنا السياسي و ربما إفشاله و التسبب بتحول دعم القوى الدولية إلى جيش مرسال و أنصاره و حلفائه بعد أن كان هذا الدعم موجه للقضاء على مرسال و حكومته ، و هذا التحول سيحرمنا من الدعم المالي الذي نقدمه لكم الآن في هذه الحقائق"!!.

بالنظر لسداجة أولئك القادة الحريين فإن هذه التعليمات بدت قمة الواقعية و الحكمة السياسية ، و لهذا التزموا بهذه التعليمات تماما ، و اتجهت عمليات المحاربين المسلمين إلى مدن المسلمين و مناطقهم لـ "تحريرها !" من احتلال جيش مرسال ، و صار المحاربون المسلمون و العامة و الخاصة يتحدثون عن وجوب اتجاه قوات المسلمين إلى العاصمة لإنهاء الحرب و إسقاط حكم مرسال و أتباع ديانتهم ، علما أن العاصمة لا يقطنها إلا قلة قليلة جدا من أتباع الديانة السرية ، و معظم سكان هذه العاصمة مسلمون ، ثم صار نوعا من الخيانة الكبرى الحديث عن التوجه إلى شواطئ المتوسط الشرقية حيث معاقل أتباع الديانة السرية ، لأن هذا سيجعل الحرب دينية و سيكون سببا في خسارتها قبل أن تبدأ ، كل هذا بحسب قادة الجمعية الإسلامية و ما أقنعوا به جماهير عامة المسلمين في بلادنا ! و لقد وصل الأمر إلى حد تثبيط المسلمين الثائرين في مدن ذلك الشاطئ عن التظاهر أو القتال ضد قوات مرسال ، فهذأت الأوضاع هناك و كأن الحرب غير موجودة !.

الواقع أن مرسال و كل قادة جيشه و قواته الضاربة كانوا قد تمترسوا بمعظم أسلحة الجيش في مناطق أتباع الديانة السرية منذ بداية الحرب ، و بقيت في العاصمة و بقية مدن البلاد قلة من أتباع الديانة السرية مهمتهم قيادة بقية الجيش الذي كان كله تقريبا من شباب المجندين المسلمين !.

استغل أتباع الديانة السرية تعليمات قادة الجمعية الإسلامية أفضل استغلال ، فراحوا يستهدفون مناطق المسلمين النائية عن المدن و يمعنون في أهلها قتلا و تهجيرا و نهباً و خطفا و اغتصابا ، حتى أنهم بدأوا بإعادة الرّق فصاروا يسبون البنات المسلمات و يستعبدوهن في مناطقهم ، حتى احتشدت مناطقهم بعشرات آلاف الإماء المسلمات اللواتي يعملن في الخدمة و تقديم المتعة الجنسية لمحاربي أتباع الديانة السرية ! كل هذا بفضل توجيهات الجمعية الإسلامية للمسلمين الثائرين .

لقد أوقع جيش مرسال بفضل هذه التعليمات مئات المذابح المروعة في مناطق المسلمين دون أن يرد قادة الحرب المسلمين على مذبح واحدة منها ، هذا الواقع أثار استنكارا كبيرا من قبل العقلاء من المسلمين الذين أدانوا قادة الحرب المسلمين بالخيانة ، و راحوا يحرضون الشباب المسلمين على قتل هؤلاء القادة و التخلص منهم و التوجه إلى مناطق أتباع الديانة السرية للقضاء عليهم و إنهاء الحرب .

إلا أن أصوات هؤلاء العقلاء كانت لا تلقى آذانا صاغية من الشباب ، إلا قلة قليلة قامت بعدة هجمات جدية على قرى و مناطق أتباع الديانة السرية و نكلوا بعدة مئات منهم ، و بسبب هؤلاء الثلاثة بدأ تيار متصاعد بين المسلمين يطالب بإنهاء الحرب عسكريا و ذلك بنقلها إلى مناطق أتباع هذه الديانة و ليس إلى مناطق المسلمين .

في مواجهة هذا التيار القوي شن الإعلام المؤيد لـ "الثائرين" و إعلام الجمعية الإسلامية حملة قمع فكري ضد عقلاء المسلمين و ضد الذين يصغون لهم من الشباب ، هذه الحملة كانت على صفحات شبكة المعلومات الدولية و عبر عروض التلفزيون الحوارية و خاصة على قناة "فجع" الدولية التي كانت تتحكم تماما في آراء عامة المسلمين الثائرين في بلادنا و بقية البلاد العربية .

عند هذه النقطة أحضر وولتر عفريت آخر من عفاريت البارون ، كان اسم هذا العفريت : "هيثمة" ، هو رجل كهل من أبناء الجبل الأبيض و من أتباع الديانة السرية ، ادعى هذا الكهل مرارا أنه مؤيد لثورة أشجار الجبل الأبيض ، حتى أنه انتخب في مجلس النواب هناك نائبا عن حزب الراحل لطيف ، الواقع أن هذا الرجل كان بارعا في التمثيل و استثارة الحماسة الغبية عند عامة المسلمين السذج ، كان يقول لهم :

أنا من أتباع الديانة السرية و لكنني ضد قادتها ، فنحن و المسلمون أبناء أرض واحدة و نحن شعب واحد له تاريخ مشترك و مصير مشترك واحد ، أنا أدرك حجم الظلم الواقع عليكم من أتباع ديانتني، و لهذا أنا تأثر معكم لإعادة الأمور لنصابها ، ليصبح البلد بلدا حرا لا فرق فيه بين مواطن و آخر على أساس دين أو مذهب أو لون.

راج كلامه على كل من قابله من المسلمين السذج في الجبل الأبيض ، و لهذا اختاره وولتر لقيادة المرحلة التي تلت ثوران غضب المسلمين ضد الضباط المتمردين الذين رفضوا نقل الحرب إلى مناطق أتباع الديانة السرية .

اتخذ هيثمة هذا مقرا له في أحد الفنادق الفخمة القريبة في مصيف جميل على أراضي جارتنا الأم الشمالية ، كان هذا المصيف قريبا نوعا ما من حدود بلادنا لغاية سهولة وصول قادة الحرب المسلمين إليه .

بمعاونة من قادة الجمعية الإسلامية و مخبرات جارتنا الأم تمكن هيثمة هذا من الإتصال بكافة الضباط المتمردين المسلمين ، و خلال شهر واحد من وصوله وزع مئات ملايين الدولارات الأمريكية على هؤلاء الضباط ، حتى صار هو مصدر تمويلهم

الوحيد تقريبا ، و بعد أقل من ثلاثة أشهر صار هيئمة هذا الشخص الأكثر احتراما و توقيرا عند قادة المقاتلين المسلمين في بلادنا ، حتى أن شتمه كان عندهم كالكفر أو دونه الكفر .

كان وولتر يراقب ما يجري و يطلع على كافة مجريات لقاءات هيئمة ، و بعد أن استقرت مكانة هيئمة عند قادة المقاتلين المسلمين أصدر إليه وولتر تعليماته بخصوص مهمته التي تلخصت فيما يلي :

أولا : أن يتعامل هيئمة مع كل قائد مسلم متمرد على حدة ، فلا يجتمع بقائدين معا و لو كانا من منطقة واحدة أو من نفس التشكيل .

ثانيا : أن يتصل هيئمة بأقرب و أقدر معاوين كل قائد متمرد ، كان هؤلاء القذرون متوافرون في كل مجموعة مقاتلة ، لأنهم في الواقع من الذين أمضوا حياتهم يتزلفون و يخدمون مخبرات جيش مرسال و أتباع الديانة السرية ، لكنهم أمروا بالإلتحاق بالتمرد عندما ثارت الحرب بسبب براعتهم في التمثيل ، فلقد أقنعوا الجميع بأنهم تابوا عن خيانتهم لشعبهم و قرروا التكفير عنها بقتال جيش مرسال !.

ثالثا : بعد أن أتم هيئمة اتصالاته مع هؤلاء القذرين أوصل إلى كل منهم مبالغ طائلة ، و معها تعليمات مفصلة ليدبر كل منهم إنشقاقا داخل المجموعة المقاتلة التي يعمل معها ، هذا الإنشقاق لم يكن المطلوب منه القضاء على الضباط المتمردين ، لأن هذا سينيهي الحرب و هذا ما لا يريده البارون ، إنما كان الهدف من هذه الإنشقاقات صناعة مجموعات مقاتلة من المسلمين لا يقودها ضباط محترفون ، و إنما يقودها أشخاص من سقطة الرعاع الذين لا يعرفون عن الحرب شيئا سوى ضغط الزناد ، فتكون إلى جانب كل مجموعة يقودها ضابط متمرد مجموعة أخرى منافسة تسيطر على قطاع من نفس المنطقة التي تعمل فيها مجموعة الضباط المتمردين.

نجح هيئمة خلال عام واحد في شراء مئات من أقدر أعوان الضباط المتمردين ، و لقد صنع هؤلاء الأعوان مئات الكتائب و الألوية و الجيوش و مئات الإنشقاقات في كل المجموعات التي تحارب ضد جيش مرسال، إلى درجة أنك تجد في كل قرية عدة تشكيلات محاربة كل منها يقوده قائد من العوام يموله هيئمة ، براعة وولتر تجلت في أن جميع هؤلاء القادة كانوا في الماضي من أحط المتزلفين لحزب قاع و لمخبرات جيش مرسال !.

حجة هذه الإنشقاقات أن الضباط المتمردين قد تربوا في كليات الحرب التابعة لحزب قاع ، و أن هؤلاء الضباط يمارسون بعفوية ما كانوا قد تدربوا عليه في تلك الكليات ، فهم متعسفون و دكتاتوريون و قمعيون و فاسدون ، و الأهم من هذا أنهم خانوا واجبهم و رفضوا نقل الحرب لمناطق أتباع الديانة السرية و بهذا تسببوا في قتل عشرات آلاف المسلمين العزل دون طائل و دون أن تتاح لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم .

ترافق مع هذه الإنشقاقات إطلاق وولتر لمئات من شيوخ و دعاة النسخة النجدية للإسلام تحت مسمى "عفو مرسل العام" ، كان هؤلاء من مختلف التيارات ، منهم من يوالي الأسر الحاكمة في جزيرة العرب ، و منهم من يكفر و يحارب هذه الأسر و من يواليها ، و منهم من يتبع للجمعية الإسلامية عمليا و يتبنى عقائد النسخة النجدية ، و منهم من يعمل ضمن مجموعة فراس و يعتبره القائد الأعلى للمسلمين ، إلا أن الحقيقة هي أنهم جميعا ضباط ميدان ، و مدربون على قيادة مجموعات حروب الشوارع ، و أنهم يتبعون تبعية مطلقة لقيادة وولتر و يعتمدون على الرعاية التسليحية و التنظيمية لمخابرات باريسا لأنهم تدربوا في معسكراتها ، و لقد تم نشرهم بأمر من البارون شخصيا و أصر على المتابعة اليومية ملفهم دون تعاون من قبل أخلص مستشاريه .

أزلام حزب قاع المنشقون عن الضباط المسلمين المتمردين انتظموا مع مجموعاتهم الجديدة ضمن تشكيلات جديدة يقودها دعاة النسخة النجدية آنفوا الذكر ، فأطلقوا لحاهم و لبسوا الأثواب الباكستانية و راحوا يتحدثون بالفصحى !.

توزعت على كافة مناطق المسلمين التشكيلات المكونة من المنشقين عن الضباط المتمردين و من دعاة النسخة النجدية بأنواعها ، فصار الداخل إلى القرية الواحدة يجد فيها خمسة تشكيلات "ثائرة" على الأقل ، واحدة تتبع للجمعية الإسلامية و أخرى للنسخة النجدية الموالية للأسر الحاكمة في الجزيرة العربية ، و ثلاثة من مجموعة فراس و رابعة من أتباع النسخة النجدية المستقلين ، كل واحدة من هذه التشكيلات تسلم لأتباعها رواتب منتظمة و ميرة و سلاحا و ذخيرة و أجهزة إتصال و لديها مركباتها و مقراتها و حواجز و نقاط تفتيش خاصة بها على مداخل القرية ، و راحت تقع في كل يوم عدة اشتباكات فردية بين أتباع كل تشكيل منها ، هنا انتهت مهمة هيثة و عاد أدراجه إلى الجبل الأبيض بعد أن أمضى عامين ناجحين جدا ، الواقع أن هذا الكهل كان من أذكى ضباط المخابرات الذين عرفتهم في حياتي .

خلال هذين العامين خاض المتمردون المسلمون في بلادنا مئات المعارك العنيفة التي لا فائدة منها ، كلها كانت في مناطق المسلمين و كلها انتهت بمجازر راح ضحيتها عشرات آلاف القتلى و الجرحى من العزل و المقاتلين المسلمين ، و في نفس الوقت كان عدد القتلى من أتباع الديانة السرية يتضاءل يوما بعد يوم ، و كان هذا مؤشرا قويا على نجاح هيثة في إعادة الحرب إلى الحالة التي يريدها البارون ، حرب من طرف واحد مسلح ضد طرف آخر أعزل ، في العام الأول للحرب و عندما كان الضباط المسلمون المتمردون يتصدرون للمشهد على الطرف المسلم كان القتلى من المقاتلين أتباع الديانة السرية أضعاف قتلى نظرائهم من المسلمين ، لكن عندما تمكن هيثة من إنجاز الإنشقاقات التي ذكرتها آنفا انقلب المشهد تماما ، و صار منحى المعارك كارثيا ، فمثلا كانت مجموعة من الحارين المسلمين تُخلي منطقة مسلمة من جنود مرسل ، و تسيطر عليها لفترة ، ثم يعلن جيش مرسل عن عملية للسيطرة على هذه المنطقة ، و تحتشد قوات مرسل على أطراف المنطقة تحت سمع و بصر المقاتلين المسلمين دون أن يحركوا ساكنا ، ثم يبدأ هجوم جيش مرسل على المنطقة بعد فترة قصيرة ، و يقوم هذا الجيش

باستهداف البيوت و العزل و النساء و الأطفال في مشهد تنكيل يستهدف تركيع المقاتلين و نشر الفرع في بقية مناطق المسلمين على طريقة جيوش المغول ، ثم يتوجه إعلام قناة فجع و غيرها لنقل مجريات المعركة عن طريق المراسلين الميدانيين ، و تنتشر الحماسة بين العامة من المسلمين ، ثم ما يلبث المقاتلون المسلمون أن يغادروا المنطقة المستهدفة "الحررة!" و يرافقهم عدد هائل من العزل من سكانها في أرتال نزوح مأساوية تشبه تلك التي شهدتها أوربة في الحرب الكبرى ، و يبقى في المنطقة قلة من العزل يتسلى جنود جيش مرسال بذبحهم و التنكيل بهم .

المناطق المجاورة للمنطقة المستهدفة لا يتحرك فيها ساكن من قواتها المسلحة لمناصرة جيرانهم و أقاربهم و إخوانهم من المسلمين المنكوبين ، جلّ ما قد يفعله هؤلاء هو أن يستقبلوا بعضا من هؤلاء المنكوبين كنازحين ، و الأعجب أنهم كانوا يؤجروهم البيوت التي يؤوون إليها و بأسعار مرتفعة جدا عن المعتاد ، بينما كان هؤلاء قد استقبلوا مجانا عشرات آلاف النازحين من أتباع الديانة السرية أثناء المناورات التي كان يجريها جيش جارتنا اللدود على هيئة حروب قصيرة في أراضي دولة الجبل الأبيض !.

و الأكثر عجبا أن مناطق المسلمين كانت تتعرض لمحصرة قوات جيش مرسال ، و أثناء الحصار لا تقب قوات المناطق المسلمة المجاورة لفك الحصار عنهم ، و الأعجب من كل شيء أن سكان المناطق المحاصرة كانوا يستغلون الحصار لبيعوا الطعام و الميرة لبعضهم البعض بأسعار باهظة جدا ، كانت شركات تحويل الأموال تنجح دوما في نقل المال إلى المحاصرين من أقاصي مغتربات الأرض ، في حين كان يفشل الناس في تهريب الماء أو الطعام أو الدواء إلى مناطق الحصار ! لم يكن هذا كله من تدبير هيثمة أو ريكارد أو وولتر ، لقد ساهم المسلمون في صناعة هذه النكبات بأنفسهم في أنفسهم بعناد شباهم و جهلهم الفظيع ، و بالجشع الهائل الذي يسيطر على عوامهم و على جميع قادتهم .

و في المقابل لم يقطع المقاتلون المسلمون الماء أو الكهرباء أو الدواء عن أية منطقة لأتباع الديانة السرية ، بل إن شاحنات نقل السلاح و الإمدادات بأنواعها كانت تمر من المناطق التي يسيطر عليها المقاتلون المسلمون ، و تصل إلى مناطق و معسكرات أتباع الديانة السرية غير منقوصة و لم يفكر أحد من المتمردين المسلمين في نهبها ، لأن توجيهات قادة الجمعية الإسلامية كانت صارمة بمنع إيذاء هذه الإمدادات !.

و أعجب العجائب أن المقاتلين المسلمين كانوا يسيطرون على أسلحة من معسكرات و أرتال جيش مرسال أثناء المعارك ، و بدل أن يوجهوا هذه الأسلحة إلى قوات مرسال و يستخدموها في مزيد من الهجمات على أتباع الديانة السرية ، كان المقاتلون المسلمون يتاجرون بهذه الأسلحة فيما بينهم و يرون أنها غنائم حرب ! مع أنها اشترت أساسا بأموالهم المنهوبة منهم على يد حكومة مرسال ! و ما يدخل في خانة المستحيلات على التصوّر أن المقاتلين المسلمين كانوا يتنافسون في السيطرة على أسلحة الدفاع الجوي ، و لكن ليس لاستخدامها في ضرب طيران جيش مرسال و إنما لبيعها إلى تجار رزعهم هيثمة و

كان يمولهم ضابط كبير من مخبرات أسر الحكم في الجزيرة العربية ، هؤلاء التجار كانوا يشترون معدات الدفاع الجوي بمبالغ طائلة من قادة مجموعات المتمردين المسلمين ، ثم يسلمونها للضابط الأنف الذكر الذي يعيدها بدوره إلى جيش مرسال ، بينما ينكل طيران جيش مرسال ببيوت هؤلاء المسلمين و يهدمها فوقهم و فوق أطفالهم و نسائهم ، دون أن يخشى طياروه من أي سلاح في أيدي المسلمين !!.

منذ بداية الحرب شارك أتباع الديانة السرية من بلادنا و ما جاورها في دعم جيش مرسال ، و جاء عشرات الألوف منهم بسلاحهم ليقاتلوا المسلمين دون رحمة ، لم يعفوا عن أسير و لم يطلقوا مخطوفا و لم يرحموا صغيرا و لا كبيرا ، بينما كان المقاتلون المسلمون يطلقون أسرى قوات الديانة السرية و يداوون جرحاهم ! أما إن وقع مجند مسلم من جيش مرسال بيد المتمردين المسلمين فإن القتل بلا رحمة كان المصير الذي يواجهه في الغالب عدا عن التعذيب الفظيع ! كل هذا كان بتوجيهات قادة الجمعية الإسلامية الذين كانوا يشددون على الجميع و في جميع اللقاءات بأن لا يرد المسلمون بالمثل على تنكيل أتباع الديانة السرية بهم ، و يدعمون هذه التوجيهات بحقائب أموال البارون !.

بدأت في تلك الفترة صناعة جديدة رعاها البارون و وولتر ، إنها صناعة "القصابة البشرية" ، فقد احتشدت سجون بلادنا بمئات آلاف الشباب و النساء الشابات و الصبية من المسلمين ، و إطعام هؤلاء كان عبئا لا فائدة منه ، و قتل هؤلاء أيضا لم يكن أيضا كبير التأثير لأن أهليهم قد نسوهم لعظم ما يجري في كل مكان ، فقرر البارون بناء على نصائح من مستشاريه العلميين استخدام هؤلاء في التجارب الحربية و الطبية و عمليات نقل الأعضاء البشرية إلى كبار السن الأوروبيين و غيرهم من أثرياء العالم ، كان البارون قد نقل معظم هذه المراكز إلى أقصى شرق آسيا ، و راحت السفن تؤم موانئ بلادنا لت شحن هؤلاء السجناء إلى معسكرات الأبحاث الطبية في شرق آسيا ، و سُيرَ خط من طائرات الشحن الجوي لنقل هؤلاء إلى باريسا و منها إلى الشرق البعيد .

أقيمت بالقرب من عدد من المعتقلات عدة مختبرات علمية و أخرى لتطوير طرق التعذيب و سحب الإعترافات ، كان يديرها عدد من خبراء المخابرات الأوربية و الأميركية ، و لقد قتل في هذه المختبرات ألوف من الذين أجريت عليهم التجارب ، بعض هذه المختبرات كان موجودا أصلا في فترة ما قبل الحرب ، و لكنها لم تكن تعمل بتلك الكثافة التي عملت بها خلال الحرب ، و لذلك أقيمت إلى جانبها محارق ضخمة للحثث ، طبعا لغاية التخلص من جثث فئران التجارب من سجناء المسلمين ، لقد جربت هذه المخابر آلاف العقاقير و الآلات الطبية الجديدة و سجلت نجاحات و إكتشافات كبيرة ، الفصل في هذا يعود إلى تلك المنظومة التي قادت المقاتلين المسلمين ، سواء أكانت من قادة الجمعية الإسلامية أم صنائع هيثمة .

الأحداث التي لا تخطر ببال أكثر الناس قدرة على الخيال جعلت الغضب الشعبي العربي و الإسلامي ضحما على ما يجري في بلادنا ، فصار الوقت مناسباً لإستحضار أكبر عفاريت البارون : الجيش الأسطوري بنسخته الأخيرة .

انشقاقات هيئمة هيأت كل شيء لإطلاق هذا العفريت الهائل ، كان مائة ألف من شذاذ الآفاق من أتباع النسخة النجدية و من مختلف البلدان الإسلامية قد تجمعوا في معسكرات مخابرات باريس و أنخوا تدريباً لهم ، و بدأوا بالفعل بالتوافد إلى بلادنا عبر بلاد أورك ، انضم إلى هؤلاء بضعة مئات من ضباط مخابرات الأسر الحاكمة للجزيرة العربية ، كانت مهمة هؤلاء الضباط السيطرة التامة على عمل الجيش الأسطوري و تولي التوجيه العقائدي و النفسي و الإعلامي لهذا الجيش العتيق الذي ينتظر العامة من المسلمين ظهوره بفارغ الصبر .

إطلاق الجيش الأسطوري هذه المرة لن يكون كالعادة ؛ لمجرد تحقيق إحباط مرحلي ، أو لنصب مجازر محدودة لمئات آلاف الشباب المسلمين السذج ، هذه المرة كانت أهداف العملية كبيرة و واسعة جداً إلى درجة أن البروفسور ريكارد قال في أحد الاجتماعات المخصصة لبحث جداول واجبات هذا الجيش : هذه الحملة ستكون بداية نهاية دين اسمه "الإسلام" أرق البشرية لقرون كثيرة .

الاجتماعات التحضيرية لإطلاق النسخة الأخيرة من الأسطوري كانت حافلة بالكثير من البحوث و الإحصائيات و الخطط ، و كل منها يتحدث عن مهمة من مهمات هذا الجيش و عن مستلزمات هذه المهمة ، أهم هذه البحوث و أشملها كان ذلك الذي قدمه الشيخ ظفر للبارون و حصلت على نسخة منه ، يقول ظفر في أثناء البحث :

أتذكر جيداً يا سيدي البارون ذلك الاجتماع الذي صادق خلاله والدكم العظيم على إطلاق النسخة الأولى من الجيش الأسطوري ، لقد كانت الفكرة تقضي بنصب عدو يثير مخاوف المجتمعات و يجعلها تلتف حول الحكومات التي ترعاها عشيرتكم المجيدة في جميع أنحاء العالم ، و أتذكر أن اقتراحاً كان قد نافس فكرة الجيش الأسطوري و هو اقتراح غزو من كوكب آخر ، بينما كانت فكرة الجيش الأسطوري تقضي بنقل عدو من الزمن الماضي المخيف للأوروبيين إلى زمننا هذا لاستنفارهم و إثارة الذعر بينهم .

هذه الفكرة العبقريّة سمحت لنا بضرب عصافير كثيرة بحجر واحد ، فالزمن الماضي الذي ابتعثنا منه الجيش الأسطوري كان مخيفاً للأوروبيين و غيرهم من شعوب الأرض ، إلا أن ذلك الزمن كان زمناً حالمًا جميلاً رائعاً بالنسبة للمسلمين ، و هم يحملون باستنساخه و بعث أمجاده مرة أخرى ، و لا أبالغ بقولي أن صور و قصص ذلك الزمن لا تزال تسيطر تقريباً على مخيلة كل مسلم في العالم ، زمن حكم الرجال و سهولة جمع المال و الأسر الكبيرة و الدور الواسعة و التكافل الاجتماعي و الترابط العشائري و حكم الديانة و الفضيلة .

ببساطة سيقوم الجيش الأسطوري بنسخته الأخيرة بتنظيف مخيلة المسلمين من تلك الأحلام الوردية الجميلة ، و ستتحول هذه الأحلام في ذهن كل منهم إلى كوابيس مرعبة يفر من مجرد ذكرها فضلا عن فكرة تحقيقها في الواقع ، لأن الجيش الأسطوري سيحقق تلك الأحلام و يبرزها للواقع و لكن على طريقة مخرجي أفلام هوليوود في تمثيل قصص ألف ليلة و ليلة ، ستكون مشاهد هزيلة و سخيفة و مرعبة و أبطالها مقرفون همج أو شريريون محتالون قتلة ، و الطيبون في تلك المشاهد سيموتون أبشع الميئات فداء لبطل ماجن و بطلة عاهرة مستهترة .

أول تلك الأحلام هو الحلم بدولة "الإمامة العظمى" التي يحكمها قائد مسلم متدين يتعهد بحماية كل مسلم في كل أرجاء الأرض ، سيحقق الجيش الأسطوري هذا الحلم بمنجزات ستعنون بعناوين تفوق حتى خيال أكثر الحالمين بأعجاز غواير تلك الإمامة ، ثم سنقدم لهم هذا الإمام بعدة نسخ هزلية مضحكة و بشعة جدا في نفس الوقت ، سيؤسس الجيش الأسطوري بفرقه عدة دول عنوانها "الإمامة الإسلامية العظمى" ، هذه الدول ستتقاتل ضد بعضها كأشد التقاتل ، و ستقف كل منها في نفس الجبهة مع أتباع الديانة السرية لتقاتل معهم نظيراتها بلا هوادة و لا رحمة فوق بيوت المسلمين و بين ظهرانيهم .

كل "إمام أعظم" لتلك الدول سيختار نكرة لا يعرفه أحد إلى ما قبل أن يظهر في جنوده و أعوانه و يدعي ذلك المنصب الأرفع ، لكنه سيخطب في الناس بعبارات دينية جارفة تلهب مشاعرهم و تشعل حماسهم ، كما لم يفعل إمام أعظم في التاريخ كله ، سيستعمل أولئك الأئمة العظماء تلك اللغة التقليدية القديمة التي كان خطباء الأئمة العظماء يصنفون خطبهم و رسائلهم بها ، و هكذا سيصبح المشهد مقنعا تماما لأولئك الذين شحنوا ذاكرتهم بقصص و عبارات ذوي الأعجاز الغابرين .

التعالي و التعسف و إظهار الإحتقار للعامة ستكون أهم صفات هؤلاء الأئمة ، فهم سيكونون متوارين تماما عن الأنظار ، إلى درجة أن مقابلة أباطرة الأزمنة الغابرة إنطلاقا من هذا الزمان سهلة و ممكنة إذا ما قورنت بفرصة الحصول على مقابلة مدتها دقائق معدودة مع أحد هؤلاء الأئمة العظماء .

أما عن الإنصاف و العدل الذي سيبسطه هؤلاء في دولهم فحدث و لا حرج ، فبدل أن تكون دولة الإمامة العظمى هي الملاذ الآمن للمسلم الهارب من الضيم كما يحلم جميع المسلمين ، ستكون هذه الدولة بنسخها الأربعة عدوا مبين العداوة لجميع العامة من المسلمين ، و سيتعامل جنود هذه الدولة مع العامة على أنهم ألد الأعداء ، بل على أساس أنهم وحدهم الأعداء ، فجنود هذه الدولة سيعتبرون العامة كلهم مجرد مجدفين على الإله الخالق و عبّادا لآلهة أخرى مع الخالق ، و ذلك طبقا لتعاليم النسخة النجدية و الجمعية الإسلامية بنسخها ، و لذلك سيضطهدون العامة بشكل غير مسبوق أبداً .

سيدي البارون : إن العقوبات الجنائية لم تُفرض على المسلمين في دولة الإسلام الأولى إلا على مراحل متصاعدة ، فكلما ترسخ إيمان العامة من المؤمنين بدين الإسلام و ازداد حرصهم في سرهم على الإمتناع عن المحرمات كانت درجة العقوبات

ترتفع و تأخذ شكلها النهائي في نهاية عصر النبوة ، لم يكن تصاعدها التدريجي هذا مؤثرا في حياة المؤمنين الأوائل الصادقين ، لأن إصرارهم على ترك تلك المحرمات و اتباع قوانين الإسلام طوعا كان يسبق تصاعد قسوة العقوبات للمخالفين ، لا بل كان العامة سيتسابقون لتطبيقها على أنفسهم بأفضل ما يستطيعون ، فهم يرون فيها سبيل سعادتهم في حياتهم و بعد مماتهم .

و لنأخذ مثالا : لم يصدر قانون معاقبة التارك لدين الإسلام إلا في آخر العهد النبوي ، فالعرب كانوا معتادين على عبادة آلهة متعددة ، و كانت طقوس تلك العبادات الوثنية و ما صاحبها من معتقدات و تراث سلوكي قد تجذرت عميقا في نفوسهم و تصرفاتهم العفوية ، لقد احتاجوا إلى عهد النبوة كله و إلى عقد كامل تلاه للتخلص نهائيا ذلك التراث ، و بعد أن تخلص سواد العرب من تراث الوثنية صدر قانون معاقبة التارك لدين الإسلام ، و ذلك في آخر عهد النبوة .

المسلمون اليوم لا يعرفون عن تعاليم دينهم و عن قوانينه و عن أبعاد و تبعات مخالفتها إلا أقل بكثير مما كان يعرفه ذلك الأعرابي الذي اعتنق الإسلام حديثا و اعتاد لسانه على الحلف بالآلهة العرب ، لم يُعاقب ذلك الأعرابي مدة عهد النبوة على هذا القسم ، و إنما طُلب منه فقط أن يجدد عهده على الإسلام و أن ينطق بالشهادتين و يتوب إلى ربه .

إلا أن دولة الإمامة العظمى ستضع على رأس أولوياتها تطبيق قانون معاقبة التارك للإسلام على نظراء ذلك الأعرابي من عامة المسلمين ، و بكل قسوة يمكن تخيلها ، ستطبق تلك الدولة هذا القانون بكل تعسف على شعوب نسيبت حتى معنى عبارات التشهد الإسلامي بسبب طول مدة سيطرة الملحدين على حياتهم و تعليمهم ، مدة طال فيها حرمانهم من التعليم الديني عقودا متتابة .

ستقتل هذه الدولة من عامة المسلمين أضعاف ما سيقترله أتباع الديانة السرية ، و ستتنصب هذه الدولة للنخب من رجال المسلمين محاكم تفتيش عن نواياهم و مكنونات صدورهم ، ثم ستتنصب لهم في العلن و بين الأحياء مذابح جماعية كتلك التي تنصب للأغنام في المسالخ أيام نحر القرابين في موسم الحج .

ستعامل هذه الدولة رعاياها الحالمين بما على أنهم مدانون بجريمة التجديف و الإنخلاع من الدين حتى يثبت العكس ، و تحت هذا البند ستكون أولى أولويات أجهزتها الأمنية مهمة نزع السلاح من أيدي المسلمين ، ذلك السلاح الذي انتشر بين أيدي العامة بعد انفراط عقد معظم تشكيلات جيش مرسال خلال انطلاقة التمرد الشعبي العارم ، و المهمة الموازية لهذه ملاحقة كل ضابط أو جندي تمرد على جيش مرسال و قتله أو مطاردته إلى خارج البلاد كلها .

لن تنتهي مهمة الجيش الأسطوري إلا عندما تخلو بيوت المسلمين من أي سلاح كان ، و من أي مقاتل حارب جيش مرسال مندفعاً بحماسته و عزمه على الثأر من أتباع الديانة السرية ! بعدها سيخوض هذا الجيش معارك دفاعية معزولة في كل منطقة يسيطر عليها على حدة ، و سيخسر تلك المعارك بالتدريج ، و سيخلي كل منطقة بدورها و يترك سكانها المسلمين عزلا في

مواجهة حقد أتباع الديانة السرية ، لينحروا مرة أخرى تتلوها مرات كما الشياه في المسلخ ، و ليهجر معظمهم لاحقا كالقطط المدعورة الهاربة بصغارها من مكان إلى مكان و يبقى من بقي أمام خيارين لا ثالث لهما ، الموت أو اعتناق تعاليم الديانة السرية ، و لن تدمع عين أحد من جنود الخلافة حزنا على مصير العامة ، فهم ليسوا إلا أعداء للدين في نظرهم .

خلال عملية الإنحسار ستمحى من عقول المسلمين بديهيّة أخرى هي الإحتشاد لمواجهة العدو ، ذلك أن قوات الديانة السرية ستهاجم في كل مرة منطقة صغيرة أو كبيرة بعينها ، و ذلك بأعداد كبيرة من المهاجمين ، إلا أن دولة الإمامة التي تتعرض إحدى مدنها للغزو لن تحشد للدفاع عن هذه المدينة قوات مؤازرة و نجدة من المدن الأخرى ، بل لن ترسل إليها أية إمدادات ، و لن تسعى حتى لفك الحصار عنها إن حوصرت ! بينما سيقوم قادة قوات الديانة السرية بحشد طاقاتهم كما يشاؤون دون أن تتعرض خطوط إمدادهم أو مواقع احتشادهم لأي أذى رغم أن هذه المواقع معروفة و مكشوفة للجميع !.

و أيضا ستمحى من عقول المسلمين بديهيّة أكبر ، فقوات دولة الإمامة العظمى ستسمح بمرور آمن تماما لكل الإمدادات المعاشية و النفطية و حتى الذخائر و إمدادات العتاد و الجنود إلى تجمعات قوات الديانة السرية ، و سيصبح الكلام عن قطع المياه أو التيار الكهربائي أو إمدادات الطاقة عن مناطق سيطرة أتباع الديانة السرية نوعا من الهزات و الخيالات و الثرثرة الفارغة ، لأن كل قادة دولة الإمامة بنسخها سيتجاهلون هذه البديهيّة الحربية و سيسخرون من الدعوات للعمل بها !.

حماية حقوق و ممتلكات عامة المسلمين في ظل دولة الإمامة العظمى أمر غير ممكن ، لأن جنود تلك الدولة سيعتبرون أراضي و ممتلكات و حتى نساء العامة من المسلمين غنائم مباحة لجنود الدولة يتصرفون فيها كيف يشاؤون ، فهؤلاء العامة ليسوا مسلمين بحسب تعاليم النسخة النجدية و الجمعية الإسلامية ، بل هم ليسوا حتى من أتباع ديانة وثنية حتى يحقنوا دماءهم و يحفظوا أملاكهم لقاء ضريبة تدفع للفاشين ، و إنما هم مسلمون انخلعوا من إسلامهم و يجب أن يعاقبوا على هذا بمصادرة أموالهم و سبي نساءهم و سفك دمائهم بلا حساب ، و إن لم يمكن الجهر بهذا الأمر علنا أو تطبيقه دفعة واحدة إلا أن العمل سيكون جاريا عليه على مدار الساعة.

بعد نهاية مهمة الجيش الأسطوري ، و بسبب ما تقدم ؛ سيصبح التلفظ بعبارة "دولة الإمامة العظمى" جريمة كبرى في نظر عامة المسلمين يستحق مرتكبها الموت الزؤام بلا شفقة ، و ستصبح هذه الفكرة مادة للسخرية المرة بين عامة المسلمين كما كانت شعارات القومية العربية و الاشتراكية و غيرها من الشعارات في فترة سابقة .

الحلم الثاني الذي سيجعله الجيش الأسطوري كابوسا هو تحقيق تلك النبؤات التي تملأ كتب الحديث النبوي عن انتصارات المسلمين القادمة ، و عن قهرهم لأعدائهم مجددا بعد أن صاروا مقهورين تحت سلطة أعدائهم التاريخيين.

هذا الحلم سيكون هو الدعاية الرئيسية لفرق تجنيد الشباب في الجيش الأسطوري بنسخه المتعددة ، ستحتشد شبكة المعلومات بمئات و آلاف المحاضرات التي يلقيها شيوخ النسخة النجدية و الجمعية الإسلامية ، كلها تبشر بأن هذه النبؤات العظمى قد آن أوان تحقيقها ، و أن الجيش الأسطوري هو الذي تنطبق عليه أوصاف تلك النبؤات ، فمن التحقق به سيكون شريكا في غنائم الغد المجيد القادم لا محالة و الخاسر هو المتقاعس عن الإنضمام للركب المقدس العظيم .

أكبر تلك النبؤات نبؤات عن معركة ضخمة بين المسلمين و المسيحيين تنتهي بدمار كافة قوات المسيحيين على أرض بلادنا ، و أخرى عن دمار جارتنا اللدود ، و نبؤات عن عودة المسيح من السماء إلى عاصمة بلادنا و تحول العالم كله إلى مملكة إسلامية واحدة كما جاء في نبوءة القرآن المعروفة المنقولة إلهياً عن الزبور و المفصلة في الحديث الشريف .

كلها نبؤات مستقرة في نفوس المسلمين يعزّون بها أنفسهم عن واقعهم المقرف ، و بسببها يتمسك معظمهم بالدين و يصبرون أنفسهم بإيمانهم أن هذه النبؤات باتت قريبة التحقق ، و بأن النكسات الحالية للإسلام هي الوهدة التي تسبق الصعود القادم ، المسلمون يؤمنون بأن هذه النكسات نفسها و واقع المسلمين البائس الحالي إنما ذكرته تلك النبؤات مقدمة للأعجاز الكبرى القادمة ، و يرون أن هذه النبؤات سبب لتعميق إيمانهم و يقينهم بدينهم نفسه فلقد ظهرت هذه النبؤات منذ ألف و أربعمئة عام و تحققت في هذا الزمن .

ستصك أسماع المسلمين و تركم أنظارهم دعايات شبكات التجنيد للجيش الأسطوري ، كلها ستقنع ذلك العامي الحالم بالخلاص أن الجيش الأسطوري هو الذي جاءت تلك النبؤات لتبشر بظهوره ، سيبت تلك الدعايات ممثلون مهرة من شيوخ النسخة النجدية ، سيكونون متقنين لدور القديس الوقور الذي لا يتكلم إلا بالحقائق الدامغة التي لا تقبل الجدل ، و سيكون الإعتراض على هذه الدعايات أو محاولة كشف زيفها مغامرة لا يقدم عليها إلا متهور يخاطر بسمعته و برأسه ، متعرّضاً لغضب العامة و الرعاع الذي لا يرحم و لا يميز بين ناصح مشفق و عدوٍ مُخَذِّل .

هذه النبؤات لن يتحقق منها شيء بالطبع على يد الجيش الأسطوري ، و لكن العامة لن ينتبهوا إلى الخدعة ، و سيصبون جام غضبهم على النبؤات ذاتها و سيحملونها و زر فشل هذا الجيش في تحقيق أي شيء لهم سوى الكوارث ، فهذا الجيش إنما وجد لتحقيق هذه النبؤات المقدسة الرائعة ، و إن عدم ظهورها بعد الجهد الخرافي الذي سيبدله شباب الجيش الأسطوري لتحقيقها يعني : أن هذه النبؤات مزيفة ، و زيفها هو سبب الكوارث التي ستجرها حروب الجيش الأسطوري على المسلمين ، إذ لولا تبني هذا الجيش لهذه النبؤات ما كان له أن يسير بالناس إلى هذه الكوارث الماحقة.

بسقوط تلك النبؤات سيسقط ذلك اليقين الملاصق لإيمان كل مسلم ، اليقين بأن الإسلام سيحكم العالم يوما و سيلغي كل الأديان لأنه الدين الحق ، سيسقط اليقين بسيطرة الإسلام على العالم و سيسقط معه اليقين بأن الإسلام هو وحده الدين الحق و ما سواه باطل.

سيقتر عامة المسلمين بعدها بأن دينهم هو مجرد دين آخر ، و أن نبيهم هو مجرد مصلح من المصلحين ، و لن يجرو رجال الدين المسلمين على الإعتراض على هذا الإقرار الجماعي التاريخي المذهل الذي ستتبناه أعلى الجهات الدينية الإسلامية الرسمية ، و هكذا ستسقط أكبر العقبات أمام نشر ديانة وحدة الوجود في العالم الإسلامي ، حتى دون الحاجة لأن نبرقع هذه الديانة قناعا إسلاميا .

الخيبة ستكون طامة و ساحقة ، فهذا الجيش سيفلح فقط في مرحلة تأسيس دوله الأربع ، ثلاث منها لأتباع النسخة النجدية و الرابعة لأتباع الجمعية الإسلامية ، إلا أنه سيخسر كل مواجهة يخوضها لاحقا مع جيش مرسال و حلفائه من قوات الديانة السرية ، و لن يحقق هذا الجيش أي نصر في أي منها ، و ستكون معاركه كما وصفها الجنرال وولتر مجرد تأجيلات للهزائم ثم تقع هذه الهزائم مدوية و محطمة لقلوب المسلمين المتعطشين لأي نصر على أتباع الديانة السرية يروي ظمأهم للنار لبحار دمائهم المسفوحة .

و حتى عندما يسيطر هذا الجيش على أسرى أو بضعة منازل لأتباع الديانة السرية ، أو تحيط قواته ببعض مناطق أتباع هذه الديانة فلن يكون هذا سببا في التكتيل بأحد من هؤلاء الأتباع ، بل على العكس سيحسن هذا الجيش إليهم و يعاملهم كالضيوف الأعزاء المدللين بدل أن ينكل بهم كما يفعل الأعداء ببعضهم .

الحلم الثالث هو حلم الدولة التي تحكمها قوانين الإسلام و يكون قضائهم رجال الدين ، فالإسلام أساساً دين القانون ، تعاليمه كلها قوانين تحكم الحياة الفردية و العامة ، المسلمون كلهم يؤمنون بأن غياب الإسلام عن سلطة السياسة و القضاء و الأمن هو السبب في كل الكوارث التي تتراكم يوميا في حياتهم و بلادهم و أبادهم ، و جميعهم يؤمن بأن الخلاص هو في عودة الإسلام ليكون هو القانون العام و الخاص و الشخصي .

الجيش الأسطوري سيقم دولة كهذه على مساحات واسعة من أرض أورك و ما جاورها غربا ، هذه الدولة سيكون قضائهم و حكامها مجموعة من شذاذ الآفاق و أرباع المتعلمين و جهلة المتدينين ، و من أشد المتعصبين للنسخة النجدية التي صنعتها منظوماتنا ، هذه الدولة ستكون كابوسا فظيحا يحلم كل من رآه بلحظة الإستيقاظ منه .

أما قوانين هذه الدولة فستكون قوانين عجيبة غير مكتوبة و غير موحدة ، سيكون لكل حالة و قضية ألف قانون ، و سيكون لكل مسألة ألف جواب كل منها مختلف عما سواه .

حسب تعاليم النسخة النجدية النظرية سيكون قانون هذه الدولة هو النصوص الدينية الإسلامية المقدسة ، أي نصوص القرآن و الحديث الشريف ، و حسب نفس التعاليم فإن القوانين التفصيلية يجب أن تستنتج من هذه النصوص المقدسة ، فهذه النصوص إنما هي نصوص مختصرة ، تتضمن معاني القوانين التفصيلية ، و حسب تعاليم النسخة النجدية فإن أي شخص ملم باللغة العربية و لديه إطلاع على النصوص المقدسة يستطيع أن يستنتج القوانين التفصيلية من القرآن و الحديث الشريف دون كبير عناء !.

عمليا هذا سيعني أن كل من يتسنى منصباً في تلك الدولة سيكون مشرعاً مستقلاً بنفسه و واضعاً لقانون جديد لكل مسألة و حالة تمر به ، فهو سينظر في الحالة التي سيحكم بها حسب أحكام الدين ، و سيبحث عن حكمها في النصوص المقدسة مستهدياً بملكته اللغوية العربية ، الملكة التي أقل ما يقال عنها أنها ضيئلة هزيلة تافهة ، بعيدة جداً عن إدراك معاني اللغة العربية القديمة التي كتبت بها تلك النصوص ، بل حتى لا تكفي لضبط ألفاظ هذه النصوص و قراءتها صوتياً بشكل صحيح ! بالتأكيد سيجد هذا المنتصب للأمر حُكما لتلك الحالة ، هذا الحُكم سيكون مناسباً لتصورات هذا المشرع الصعلوك الجاهل و مكافئاً لقدراته المعرفية و العقلية ، و حتماً سيكون حكم هذه المشرع مخالفاً لحكم أي زميل له يتسنى منصباً في تلك الدولة العجيبة ، اختلاف الحكمين سيضبه تماماً اختلاف عربيين لم يقابلا هندياً قط و لم يعرفا شيئاً من لغة الهند على معنى جملة سنسكريتية سمعها في المذيع في أغنية هندية سريعة الإيقاع .

سيكون الفصل في هذا الخلاف مستحيلاً ، لأن الذين سينتصبون للنظر فيه ليسوا بأكثر عقلاً و لا معرفة من الذين شرعوا تلك القوانين العجيبة المتباينة ، و هكذا سيكون لكل قرية في تلك الدولة و لكل حي و شارع قانوناً للعقوبات لا يشبه قانون أية منطقة أخرى مهما صغرت أو كبرت ، و سيكون لهذه الدولة نسخ متباينة لقوانين للحرب و التجارة و الأحوال الشخصية إلخ ، هذه النسخ بعدد كل ذوي المناصب في هذه الدولة ، فإن كانوا ألفاً فللدولة ألف نسخة للقانون كل منها معمول به و مطبق ، و يشمل كل منها كافة الأحكام العامة و الخاصة و التعبدات و المعاملات بكافة أنواعها ، أي سيكون للدولة ألف نسخة من الشريعة الإسلامية ، كل منها مباينة للآخرى و مسجلة بإسم أحد شذاذ الآفاق الذين يقودون دُول الجيش الأسطوري القادمة ، و هكذا سيكون في داخل هذه الدولة دول بعدد أصحاب المناصب فيها و لكل دولة شرعة و قانوناً خاصاً بها يصنعه صاحب المنصب وفق محاكماته العقلية الخاصة .

فما هو حرام هناك سيكون مباحاً هنا ، و سيكون واجباً يجب أدائه في منطقة أخرى ، و سيكون أمراً من الأولى تركه دون أن يكون ممنوعاً في منطقة غيرها ، و سيكون أمراً يُندب فعله في بلدة خامسة ، و سيكون محرماً على فئة دون أخرى في قرية سادسة إلخ !.

ستكون الفوضى حتما هي الحاكم في تلك الدولة ، إلا أننا لن نسمح لهذه الفوضى بإيذاء سطوة جنود دول الجيش الأسطوري ، و هذا بفضل الربط الصارم لمفاصل الجيش الأسطوري بقيادة الجنرال وولتر الحربية الإحترافية ، بيد أن وبال هذه الفوضى سيكون كله منصبا على المسلم العامي الذي كان يهنئ نفسه يوما على قدره الرائع الذي سمح له بالعيش في ظل دول "الإمامة العظمى" .!

هذه الفوضى ستجعل من المستحيل فرض الرقابة على تصرفات أصحاب المناصب في دولة الجيش الأسطوري ، و بحكم أن كل واحد منهم ليس سوى شاب غر متعجرف جاهل فظ ، فإن اعتداءاتهم ستكون كثيرة و بشعة ، و متصاعدة على العامة من المسلمين الواقعين تحت سيطرة دولة الإمامة العظمى الموعودة .

هذه الإعتداءات سيفاجأ العامة بها ؛ لأنهم لم يكونوا يتوقعونها من أشخاص ظنوا أنهم رسل السماء إليهم للخلاص من الظلم و التعسف و القهر ، و لم يكونوا يتوقعون أن أصحاب الأسماء و الكنى المشابهة لأسماء الرعيل الأول من أصحاب و أنصار نبي الإسلام ، هم أنفسهم مرتكبوا تلك الإعتداءات من قتل و خطف و ابتزاز و نهب و سلب و سبي .

الحياة في دولة كهذه سيشبه تماما ظروف الحياة في جحيم الآخرة الذي يخشاه المسلمون ، و سيكون الفرار منه حلما يضحى المسلمون لتحقيقه بكل شيء بداية من المال و انتهاء بالدين كله جملة و تفصيلا .

تعدد دول الإمامة له هدف آخر سيتحقق بعد نهاية مهمة الجيش الأسطوري ، معلوم لكم أيها السادة أن النسخة النجدية لها عدة مدارس متناحرة ، و كل مدرسة تزعم أنها هي الدين الحق و كل ما عداها تجديف و ضلال و وثنية ، فإذا سقطت إحداها مثلا تحت أقدام الأعداء فإن أتباع بقية المدارس سيقولون بزهو : إن سقوط هؤلاء دليل على أننا نحن على حق ، و سيلتحق الذين خاب رجاءهم بالمدرسة الساقطة بصفوف إحدى المدارس الباقية .

هذه الدول ستمثل كل منها مدرسة من مدارس النسخة النجدية ، و ستمثل أيضا خصوم النسخة النجدية من أتباع الجمعية الإسلامية ، و هكذا فإن نهاية مهمة الجيش الأسطوري ستكون بنهاية الدول التي تمثل كل المجموعات الإسلامية تقريبا ، و ستصبح بعدها كل هذه المجموعات و المدارس و النسخ مدانة في نظر العامة من المسلمين ، عندها سنعلن عبر حملات إعلامية صريحة يقودها آلاف الإعلاميين أن الإسلام بكافة توجهاته و مذاهبه الممكنة هو المسؤول عن الكوارث المتتابة التي تسبب بها الجيش الأسطوري ، و عن كل الكوارث التي يعاني منها المسلمون في كل مكان ، و سيتدرج هذا الإعلان حتى يتحول لإدانة الإسلام كله تمهيدا لتجريم الدين الإسلامي بكافة أشكاله علنا و بقوانين رسمية ، تتبناها الحكومات في كل دول العالم و ذلك بتأييد شعبي و رسمي في كل البلدان الإسلامية و على رأسها الدول التي تشغل جزيرة العرب مهد الإسلام ، و هكذا سينجح مشروع نهاية الإسلام . انتهى كلام ظفر .

بعد هذا الاجتماع تمكنت من عقد لقاء منفرد مع البارون ، و أقنعتة بفكرة تقاعدي ، و وافق بشروط كثيرة ، منها ألا أعلن عن شخصيتي للإعلام أبدا ، و ألا أكتب شيئا بإسمي الصريح و إن كتبت شيئا من مذكراتي و نشرته فيجب أن يخلو تماما من أسماء صريحة و تواريخ دقيقة لأزمة الأحداث ، لم يعد البارون يهتم لسرية المنظومات لأن قوتها صارت أكبر بكثير جدا من أن يهزها شيء ، فلقد سمح سابقا بكشف الغطاء عن سرية معابد الحرية دون أدنى تخوف من العواقب و كان محقا في هذا .

وافقت و غادرت بلادنا بعد أن عدت إليها للمرة الأخيرة لجمع ما أريد أن أصبح به في رحلتي الأخيرة قبل نهاية العمر ، استقر المقام بي في أوربا الجميلة ، و بعد عامين التحق بي إبنائي اللذان تقاعدا بدورهما من عملهما بناء على إلحاحي ثم اقتناعهما ، و انضمت إلي كل عائلتي في المنفى الإختياري الوداع .

أما في بلادنا فقد انطلق الجيش الأسطوري و خرج على شعبنا أثناء تخطئه في الحرب ضد جيش مرسال ، خرج دعاة و قادة و جنود الأسطوري من رمال البادية بين بلادنا و بلاد أورك ، و رحب به شعبنا أيما ترحيب ، لم يسأل أحد منهم أولئك الملتصقين من أين جاؤوا و لا ما هي هوياتهم ، كل ما سأل عنه عامة شعبنا كان : ماذا أحضرتم لنا معكم ؟.

الجواب كان حاويات ضخمة من الأموال و السلاح و الذخائر و كتب عقيدة النسخة النجدية و ملايين الأكفان التي ضمت أجساد المراهقين الذين اصطادتهم شبكات تجنيد الأسطوري و قطفت زهرة أعمارهم و ثمة قلوب أهلهم المفجوعين بالولد و الوطن و الأمل .

لقد تحقق كل ما قاله ظفر في خطابه للبارون ، و إن كنت متأكدا من أن تحقق جملته الأخيرة مستحيل مهما حدث .

مهران بك أبو المجد .

1439 – 2018